



مركز
للبحوث والتحريات الكمبيوترية

اصبهان

للعلوم



عيد ميلاد
عمران

www. **Ghaemiyeh** .com
www. **Ghaemiyeh** .org
www. **Ghaemiyeh** .net
www. **Ghaemiyeh** .ir

مجموعه الامجدات
مستوع
الامجدات والاقطاعات

وهو رحلة
الشيخ الجليل السيد محمد بيرم الخامس التونسي

انقروا سنة ١٢٠٢ هـ

وضع صحاحه
بأمر من محمد بن محمد الشرفي البقاعي

الجزء ٢-١

دار الكتب العلمية

بيروت - لبنان

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

صفوة الاعتبار بمستودع الامصار و الاقطار

كاتب:

محمد مصطفى بيرم الخامس التونسي

نشرت في الطباعة:

دارالكتب العلمية

رقمى الناشر:

مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

الفهرس

٥	الفهرس
١٩	صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار
١٩	اشارة
١٩	الجزء الأول
١٩	اشارة
١٩	مقدمة المحقق
٢٠	ترجمة المؤلف
٥٠	التعريف بكتاب صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار
٥١	[تمهيد]
٥٢	المقدمة
٥٢	الباب الأول في السفر من حيث هو
٥٢	الفصل الأول فيما جاء في ذلك من الكتاب العزيز
٥٧	الفصل الثاني فيما ورد في السفر من السنة
٥٧	اشارة
٥٨	و بيان وجه احتياج الإنسان إلى الهواء في كل لحظة للتنفس هو:
٥٩	الفصل الثالث فيما ورد في السفر من كلام الحكماء و الأدباء:
٥٩	الباب الثاني في السفر لغير أرض الإسلام و فيه فصلان
٥٩	الفصل الأول في النصوص الدالة على الجواز
٦٠	الفصل الثاني في تطبيق الحكم على سفر العبد الضعيف إلى ممالك أوروبا:
٦٠	الباب الثالث في تقسيم أحوال أهل الأرض الآن
٦٠	اشارة
٦٠	القسم الأول آسيا
٦٠	اشارة

- ٦٠ الفصل الأول في المملكة العثمانية
- ٦١ الفصل الثاني المملكة الثانية هي مملكة فارس
- ٦٢ الفصل الثالث المملكة الثالثة هي مملكة أفغانستان
- ٦٢ الفصل الرابع المملكة الرابعة هي مملكة بلوجستان
- ٦٣ الفصل الخامس المملكة الخامسة هي مملكة الهند الإنكليزية
- ٧٠ الفصل السادس المملكة السادسة
- ٧٠ الفصل السابع المملكة السابعة
- ٧٠ الفصل الثامن المملكة الثامنة
- ٧١ الفصل التاسع المملكة التاسعة
- ٧١ الفصل العاشر المملكة العاشرة
- ٧١ الفصل الحادي عشر المملكة الحادية عشرة
- ٧٩ الفصل الثاني عشر المملكة الثانية عشر مملكة روسيا في آسيا
- ٨٠ الفصل الثالث عشر المملكة الثالثة عشر مملكة هرات
- ٨١ الفصل الرابع عشر المملكة الرابعة عشر هي إمارات التتر المستقلين
- ٨١ الفصل الخامس عشر المملكة الخامسة عشر هي ممالك الأئمة في جزيرة العرب
- ٨٣ الفصل السادس عشر المملكة السادسة عشر
- ٨٣ الفصل السابع عشر المملكة السابعة عشر
- ٨٣ الفصل الثامن عشر المملكة الثامنة عشر
- ٨٣ الفصل التاسع عشر المملكة التاسعة عشر مملكة الجابون
- ٨٤ الفصل العشرون المملكة العشرون مملكة أتشين
- ٨٥ القسم الثاني من الأرض هو قارة أوروبا،
- ٨٥ إشارة
- ٨٧ الفصل الحادي والعشرون فأما الدولة الأولى فهي الدولة العلية و تختها القسطنطينية،
- ٨٧ الفصل الثاني والعشرون و أما الدولة الثانية و هي الجبل الأسود،

- ٨٨ الفصل الثالث و العشرون و أما الدولة الثالثة و هى اليونان،
- ٨٨ الفصل الرابع و العشرون و أما الدولة الرابعة و هى إيطاليا،
- ٨٨ الفصل الخامس و العشرون و أما الدولة الخامسة فهى دولة إسبانيا،
- ٨٩ الفصل السادس و العشرون و أما المملكة السادسة و هى مملكة البرتغال،
- ٨٩ الفصل السابع و العشرون و أما الدول الوسطى فأولها: دولة فرنسا،
- ٨٩ الفصل الثامن و العشرون و ثانيها: دولة سويسرا
- ٩٠ الفصل التاسع و العشرون و ثالثها: دولة البلجيك،
- ٩٠ الفصل الثلاثون و رابعها: مملكة دولة النمسا المتركة من دولتين مستقلتين و هما أوستريا و هنكاريبا،
- ٩٠ الفصل الحادى و الثلاثون و خامسها: دولة الصرب،
- ٩٠ الفصل الثانى و الثلاثون و سادسها: دولة رومانيا،
- ٩١ الفصل الثالث و الثلاثون و أما الدول الشماليه فالدولة الأولى منها: دولة إنكلترا السابقة فى الحرية و الثروة،
- ٩١ الفصل الرابع و الثلاثون و الثانية منها: دولة هولانده،
- ٩١ الفصل الخامس و الثلاثون و الثالثة منها: دولة ألمانيا المتألفة من ستة و عشرين دولة
- ٩٢ الفصل السادس و الثلاثون و الرابعة منها: دولة السويد المتألفة من دولتى السويد و النرويج،
- ٩٣ الفصل السابع و الثلاثون و الخامسة منها: دولة الدانمرک،
- ٩٣ الفصل الثامن و الثلاثون و السادسة منها: دولة روسيا،
- ٩٣ اشارة
- ٩٤ فأول هاته المجالس: المجلس المسمى بمجلس السلطنة،
- ٩٤ اشارة
- ٩٤ الفصل التاسع و الأربعون مملكة واداي:
- ٩٧ الفصل الخمسون فى بقية ممالك القسم المسمى بالسودان.
- ٩٧ الفصل الحادى و الخمسون مملكة «فلاتا»:
- ٩٧ الفصل الثانى و الخمسون القبائل المتحدة المسماة بركو المتألفة
- ٩٧ الفصل التاسع و الثلاثون و خلاصة الكلام على جميع قسم أوروبا هو،

- ٩٩ القسم الثالث من الأرض هو قارة أفريقيا،
- ٩٩ اشارة
- ٩٩ الفصل الأربعون فأول دولها: سلطنة مراکش،
- ١٠٢ الفصل الحادى و الأربعون المملكة الثانية هي مملكة الجزائر،
- ١٠٣ الفصل الثانى و الأربعون المملكة الثالثة هي مملكة تونس:
- ١٠٣ الفصل الثالث و الأربعون المملكة الرابعة هي طرابلس الغرب
- ١٠٤ الفصل الرابع و الأربعون المملكة الخامسة: هي مصر،
- ١٠٤ الفصل الخامس و الأربعون المملكة السادسة: هي الحبشة،
- ١٠٤ الفصل السادس و الأربعون المملكة السابعة: هي مملكة الزنجبار،
- ١٠٥ الفصل السابع و الأربعون المملكة الثامنة: هي مملكة برنو،
- ١٠٥ الفصل الثامن و الأربعون لا يخفى أن بقيه أفريقيا [قد قسمها الجغرافيون إلى أحد عشر قسما كبرى]،
- ١٠٦ [القسم الأول السودان]
- ١٠٦ اشارة
- ١٠٦ القسم الثانى: هو أراضى سانىغال أو سانىغانبى،
- ١٠٦ اشارة
- ١٠٦ الفصل الثالث و الخمسون فى المستقل من سانىغال قد بقيت دواخلها منقسمة إلى عدة حكومات أكبرها ثلاثة،
- ١٠٦ الفصل الرابع و الخمسون ممالك تيمانى و سوليمانة،
- ١٠٦ القسم الثالث: هو كينيا العليا،
- ١٠٦ اشارة
- ١٠٦ الفصل الخامس و الخمسون أول أراضى هذا القسم هي المسماة: كرومان،
- ١٠٧ الفصل السادس و الخمسون فى مستعمرات الإنكليز بهذا القسم و هي الأراضى المسماة: جبال الأسد،
- ١٠٧ الفصل السابع و الخمسون فى مملكة ليبيريا هي مملكة جمهورية مستقلة تسمى: ليبيريا
- ١٠٧ الفصل الثامن و الخمسون فى أرض شاطيء الفيل،
- ١٠٧ الفصل التاسع و الخمسون فى دواخل كينيا العليا

- ١٠٧----- الفصل الستون فى بقية شطوط كينيا العليا و دواخلها
- ١٠٨----- الفصل الحادى و الستون فى ممالك رأس الرجاء الصالح فى نهاية الجنوب على الشاطيء من المحيط الجنوبى رأس الرجاء الصالح
- ١٠٨----- الفصل الثانى و الستون فأما الزلوس فهم أقوياء أشداء أهل حرب،
- ١٠٨----- الفصل الثالث و الستون و أما أراضى ناتال فسكانها إنكليز و هلانديز و زلوس و باستوس بربريس و هنود،
- ١٠٨----- الفصل الرابع و الستون و أما جمهورية نهر أورانج و هى شمال رأس الرجاء،
- ١٠٨----- الفصل الخامس و الستون و أما جمهورية ترانسفال فهى واقعة فى بلاد الزلوس
- ١٠٨----- الفصل السادس و الستون و أما مملكة بادجوانه فتختها كورومان و بجوارها مملكة أوتانتو
- ١٠٩----- الفصل السابع و الستون فى ممالك كينيا السفلى
- ١٠٩----- الفصل الثامن و الستون فى ممالك هذا القسم و هى مركز و أنها بنانى و سوفالا و سينا و كيليمانى و موزنبيك و ديلكاد،
- ١٠٩----- الفصل التاسع و الستون فى ممالك هذا القسم فسكانه من بربر أفريقية الشمالية و العرب و السودان
- ١٠٩----- الفصل السبعون فى مملكة ماداغسكار أو كسكار
- ١١٠----- الفصل الحادى و السبعون فى ممالك الصحراء الغربية:
- ١١٠----- الفصل الثانى و السبعون فى ممالك الصحراء الوسطى:
- ١١١----- الفصل الثالث و السبعون فى مملكة الصحراء الشرقية:
- ١١٣----- القسم الرابع من الأرض هى قارة أمريكا
- ١١٣----- إشارة
- ١١٤----- الفصل الرابع و السبعون المملكة الأولى: دولة أمريكا المتحدة،
- ١١٥----- الفصل الخامس و السبعون فى بقية ممالك أمريكا الشمالية.
- ١١٥----- الفصل السادس و السبعون و ثالثها: مكسكو،
- ١١٥----- الفصل السابع و السبعون و رابعها: أمريكا الوسطى،
- ١١٥----- الفصل الثامن و السبعون و خامسها: الجزائر الكثيرة المتفرقة،
- ١١٦----- الفصل التاسع و السبعون فالدولة السادسة: كلومبيا
- ١١٦----- الفصل الثمانون و السابعة: دولة بيرو
- ١١٦----- الفصل الحادى و الثمانون ثم يليها شرقا [و] تمتد إلى الشطوط الشرقية و على جميع دواخل القارة، الدولة الثامنة: و هى برازيل

- ١١٦ الفصل الثاني و الثمانون و بين بيرو و برازيل الدولة التاسعة:
- ١١٦ الفصل الثالث و الثمانون و الدولة العاشرة: هي الشيلي
- ١١٦ الفصل الرابع و الثمانون و الدولة الحادية عشرة: دولة سيونس أيرس،
- ١١٧ الفصل الخامس و الثمانون الدولة الثانية عشرة: أوروكواي،
- ١١٧ الفصل السادس و الثمانون و الدولة الثالثة عشرة: هي بقية أمريكا الجنوبية المعروفة بتاكوني،
- ١١٧ القسم الخامس من الأرض أستراليا
- ١١٧ اشارة
- ١١٨ الفصل السابع و الثمانون و حيث قد تبين في هذا الباب إجمال حالات الممالك
- ١١٨ اشارة
- ١١٨ جدول الإحصاءات
- ١١٩ السكان
- ١٢٣ ملاحظات
- ١٢٤ المقصد الأول
- ١٢٤ الباب الأول في سبب سفرى
- ١٢٤ اشارة
- ١٢٤ فصل في نشأتى
- ١٢٥ فصل في مرضى و ما عولجت به
- ١٣٠ فصل في حكم التداوى شرعا
- ١٣٣ الباب الثانى في قطر تونس
- ١٣٣ اشارة
- ١٣٤ فصل في التعريف بالقطر التونسى
- ١٤٧ فصل: في إجمال تاريخ هذا القطر التونسى
- ١٤٧ اشارة
- ١٤٨ المطلب الأول: في نبذة من تاريخه القديم:

- ١٥٠ المطلب الثاني فى علاقه القطر بالدوله العثمانية
- ١٥٩ المطلب الثالث فى سياسة القطر الخارجيه:
- ١٦٥ المطلب الرابع فى السياسة الداخليه من العائله الحسينيه.
- ١٧٦ المطلب الخامس فى وزاره مصطفى خزنه دار:
- ١٩٤ المطلب السادس: فى وزاره الوزير خير الدين
- ١٩٤ اشاره
- ٢٠٨ الأداء على البضائع:
- ٢٢٣ المطلب السابع: فى وزاره محمد خزندار
- ٢٢٥ المطلب الثامن: فى وزاره مصطفى بن اسماعيل
- ٢٣٦ فصل فى بعض عوائد اهل القطر و صفاتهم
- ٢٣٦ مطلب فى الأوصاف العامه
- ٢٣٩ مطلب فى التجاره:
- ٢٤٠ مطلب فى ترتيب الأحكام و الإدارة
- ٢٤٣ مطلب فى المعارف
- ٢٤٤ مطلب فى الصنائع
- ٢٤٦ مطلب فى المساكن و الطرقات
- ٢٤٩ مطلب فى اللبس
- ٢٥١ مطلب فى الأكل
- ٢٥٢ مطلب فى الأعراس و المواكب
- ٢٥٥ مطلب فى اللغه
- ٢٥٧ فصل فى قوه الحكومه الحربيه و الماليه
- ٢٥٧ فهرس المحتويات
- ٢٦١ الجزء الثاني
- ٢٦٢ الباب الثالث فى إيطاليا

- ٢٦٢ فصل فى سفرى إليها و ما رأيته بها:
- ٢٧٧ فصل: فى تعريف إيطاليا
- ٢٨٠ فصل: فى إجمال تاريخ إيطاليا
- ٢٨٠ مطلب: فى تاريخها القديم
- ٢٨١ مطلب: فى تاريخها الجديد
- ٢٨٤ مطلب: فى الإدارة الداخلية
- ٢٨٧ مطلب قد تلخص مما تقدم أن دولة إيطاليا هى دولة ملكية قانونية شورية
- ٢٨٧ مطلب: فى السياسة الخارجية لإيطاليا
- ٢٨٨ فصل فى بعض عوائد أهالى إيطاليا و بعض صفاتهم
- ٢٨٨ اشارة
- ٢٩٠ مطلب فى التجارة
- ٢٩٣ مطلب: فى الصنائع الفلاحية فى إيطاليا
- ٢٩٤ مطلب: فى المعارف
- ٢٩٥ مطلب: فى هيئة المساكن و الطرقات
- ٢٩٦ مطلب: فى اللبس
- ٢٩٦ مطلب: فى الأكل
- ٢٩٧ مطلب: فى المواكب
- ٢٩٩ مطلب: فى اللغة
- ٢٩٩ مطلب: فى القوة المالية و الحربية
- ٢٩٩ اشارة
- ٢٩٩ عساكر
- ٢٩٩ الباب الرابع فى مملكة فرنسا و ما رأيته فيها
- ٣٠٠ الفصل الأول: فى سفرى إليها
- ٣٠١ الفصل الثانى: فى باريس و صفاتها

- ٣١٦ الفصل الثالث: فى بقية البلدان التى شاهدهتها بفرنسا
- ٣٢٠ الفصل الرابع: فى التعريف بفرنسا
- ٣٢٣ الفصل الخامس: فى إجمال تاريخ فرنسا
- ٣٢٣ مطلب: فى تاريخها القديم
- ٣٢٤ مطلب فى تاريخ فرنسا الجديد
- ٣٢٤ اشارة
- ٣٢٤ الحكم الأول: لمجلس الأعيان مزية وضع الأحكام والقوانين بالإشتراك مع الإمبراطور و مجلس النواب،
- ٣٢٧ الحكم الثانى: عدد أعضاء مجلس الأعيان يمكن زيادته حتى يبلغ ثلثى عدد مجلس النواب
- ٣٢٧ الحكم الثالث: قد تعين إلغاء المزية التى خص بها المجلس
- ٣٢٧ الحكم الرابع: الترتيب التى ألحقت بهذا القانون و هى المشمولة فى الأصول العمومية
- ٣٢٧ الحكم الخامس: و هذه الأصول و القوانين إنما يغيرها سكان المملكة بطلب الإمبراطور.
- الحكم السادس: تعين إلغاء الفقرة الثانية من حكم ٢٥ و ١٧ و ٢٦ و ٢٧ و ٢٨ و ٢٩ و ٣٠ و ٣١ و ٣٢ و ٣٣ و ٣٥ و ٤٠ و ٥٢ و ٥٧ من تلك الذا
- ٣٢٧ الحكم السابع: ببقى ما تقرر فى قوانين ١٤ من كانون الثانى دجنبر سنة ١٢٦٩ هـ ١٨٥٢ م
- ٣٢٧ اشارة
- ٣٢٧ الفصل الأول: قوانين المملكة تعترف و تثبت و تتكفل بالأصول المعظمة
- ٣٢٧ الفصل الثانى: فى مزايا الإمبراطور و ملكه
- ٣٢٨ الفصل الثالث: فى نوع حكومة الإمبراطور
- ٣٢٨ الفصل الرابع: فى أحوال الإمبراطور
- ٣٢٩ الفصل الخامس: فى مجلس الأعيان
- ٣٢٩ الفصل السادس: فى مجلس النواب
- ٣٣٠ الفصل السابع: فى مجلس الدولة
- ٣٣٤ مطلب: فى السياسة الداخلية فى فرنسا
- ٣٣٤ مطلب: فى السياسة الخارجية فى فرنسا
- ٣٣٧ ذيل: فى تسلط فرنسا على تونس

- ٣٤٨ الفصل السادس: فى عوائد أهالى فرنسا و صفاتهم
- ٣٤٨ اشارة
- ٣٥١ مطلب فى التجارة
- ٣٥١ اشارة
- ٣٥١ فرنكات
- ٣٥٢ مطلب فى الأحكام
- ٣٥٥ مطلب فى المعارف
- ٣٥٦ مطلب فى الصنائع
- ٣٥٦ مطلب فى هيئة المساكن و الطرقات
- ٣٥٧ مطلب فى اللبس
- ٣٥٧ مطلب فى الأكل
- ٣٦٢ مطلب فى المواكب
- ٣٦٣ مطلب فى اللغة
- ٣٦٥ مطلب فى القوة الحربية المالية و التجارية فى فرنسا سنة ١٨٨٠
- ٣٦٥ الباب الخامس فى قطر الجزائر
- ٣٦٥ الفصل الأول فى سفرى إليه
- ٣٦٧ الفصل الثانى: فى التعريف بالجزائر
- ٣٦٨ الفصل الثالث: فى إجمال تاريخ الجزائر مطلب فى التاريخ القديم
- ٣٦٨ اشارة
- ٣٦٩ مطلب فى تاريخ الجزائر الجديد:
- ٣٧١ مطلب فى كيفية إجراء السياسة الداخلية فى الجزائر:
- ٣٧٢ مطلب فى السياسة الخارجية للجزائر:
- ٣٧٣ الفصل الرابع: فى بعض صفات الأهالى و عواندهم
- ٣٧٣ اشارة

- ٣٧٤ مطلب فى التجارة بالجزائر
- ٣٧٥ مطلب فى الأحكام بالجزائر
- ٣٧٥ مطلب فى المعارف بالجزائر:
- ٣٧٦ مطلب فى الصنائع و غيرها بالجزائر
- ٣٧٧ الباب السادس فى انكلاطيرة
- ٣٧٧ الفصل الأول فى سفرى إليها
- ٣٧٩ الفصل الثانى لما كانت هاته المصر المتمصرة هى قاعدة إنكلترة و فىها أنموذج سائر المملكة يلزم أن تفرد بالذكر،
- ٣٨٢ الفصل الثالث: فى وصف انكلاطيره
- ٣٨٤ الفصل الرابع: فى إجمال تاريخ إنكلاطير
- ٣٨٤ مطلب فى تاريخها القديم
- ٣٨٦ مطلب فى تاريخ إنكلاطيره الجديد
- ٣٩١ مطلب فى السياسة الداخلىة بإنكلاطيره
- ٣٩١ اشارة
- ٣٩٣ مبحث إدارة الولايات
- ٣٩٥ مبحث إدارة مستعمرات الإنكليز
- ٣٩٧ مطلب فى السياسة الخارجىة للإنكليز
- ٣٩٧ اشارة
- ٣٩٩ فصل فى بعض عوائد الإنكليز و صفاتهم
- ٤٠٢ مطلب فى التجارة بإنكلاطيره
- ٤٠٣ مطلب فى الأحكام بإنكلاطيره
- ٤٠٤ مطلب فى المعارف بإنكلاطيره
- ٤٠٥ مطلب فى الصنائع فى انكلاطيره
- ٤٠٥ مطلب فى هيئة المساكن فى إنكلاطيره
- ٤٠٦ مطلب فى اللبس فى إنكلاطيره

- ٤٠٦ مطلب فى الأكل فى إنكلاثيره
- ٤٠٧ مطلب فى المواكب فى إنكلاثيره
- ٤٠٨ مطلب فى اللغة فى إنكلاثيره
- ٤٠٨ مطلب فى القوة الحربية و البحرية و المالية و التجارية
- ٤٠٨ الباب السابع فى جزيرة مالطه
- ٤٠٨ الفصل الأول: فى سفرى إليها
- ٤١٠ الفصل الثانى: فى التعريف بمالطة
- ٤١١ الفصل الثالث: فى تاريخ مالطه
- ٤١١ مطلب فى التاريخ القديم
- ٤١١ مطلب فى تاريخ مالطة الجديد
- ٤١٢ مطلب فى سياسة مالطة الداخلية:
- ٤١٢ مطلب فى السياسة الخارجية بمالطة
- ٤١٢ مطلب فى بقيه عادات المالطيين و أحوالهم
- ٤١٣ الباب الثامن فى الأقطار المصرية
- ٤١٣ الفصل الأول: فى سفرى إليها
- ٤١٧ الفصل الثانى: فى صفة مدينة مصر القاهرة
- ٤٢١ الفصل الثالث: فى التعريف بمصر
- ٤٢٥ الفصل الرابع: فى إجمال تاريخ مصر و ملحقاتها
- ٤٢٥ مطلب فى تاريخها القديم
- ٤٣٣ مطلب فى تاريخ مصر الجديد
- ٤٣٧ مطلب فى السياسة الداخلية المصرية
- ٤٤٠ مطلب فى السياسة الخارجية
- ٤٤٠ مطلب فى بعض صفات و عوائد المصريين
- ٤٤٢ مطلب فى الأحكام بمصر

- ٤٤٢ مطلب فى تجارة مصر
- ٤٤٣ مطلب فى الصنائع بمصر
- ٤٤٤ مطلب فى المعارف بمصر
- ٤٤٥ مطلب فى هيئة المساكن
- ٤٤٦ مطلب فى اللبس بمصر
- ٤٤٧ مطلب فى الأكل بمصر
- ٤٤٧ مطلب فى المواكب
- ٤٤٨ مطلب فى اللغة بمصر
- ٤٤٨ مطلب فى الإحصائيات بمصر
- ٤٤٩ الباب التاسع فى الحجاز
- ٤٤٩ الفصل الأول: فى سفرى إليه
- ٤٥٣ الفصل الثانى: فى صفة البلدين المكرمين و موكب الحج مطلب صفة مكة المكرمة
- ٤٥٣ اشارة
- ٤٥٥ مطلب فى صفة المدينة المنورة
- ٤٥٧ مطلب فى صفة موكب الحج
- ٤٥٩ الفصل الثالث: فى التعريف بالحجاز
- ٤٥٩ اشارة
- ٤٦٥ فصل فى تاريخ الحجاز
- ٤٦٥ مطلب فى تاريخه القديم
- ٤٦٩ فصل فى التاريخ الجديد للحجاز
- ٤٧٢ مطلب فى السياسة الداخلية للحجاز
- ٤٧٤ مطلب فى السياسة الخارجيّة
- ٤٧٤ مطلب فى عوائد و صفات الأهالى:
- ٤٧٥ مطلب فى التجارة بالحجاز

- ٤٧٧ مطلب فى الصنائع
- ٤٧٨ مطلب فى المعارف
- ٤٧٩ مطلب فى الأحكام
- ٤٧٩ مطلب فى هيئة المساكن
- ٤٨١ مطلب فى اللبس و بقتية العادات
- ٤٨٢ مطلب فى اللغة
- ٤٨٢ الباب العاشر فى المملكة العثمانية
- ٤٨٢ اشارة
- ٤٨٣ فصل فى سفرى إليها
- ٤٨٣ اشارة
- ٤٩٠ مطلب فى صفة القسطنطينية
- ٤٩٢ فصل فى مجمل تاريخ الدولة العثمانية
- ٤٩٢ اشارة
- ٥٢٤ تحريراً بالاستانة العلية فى ٨ شباط (فبراير) ١٨٧٩.
- ٥٢٤ فهرس المحتويات
- ٥٣٠ تعريف مركز القائمية باصفهان للتمريات الكمبيوترية

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار

إشارة

نام كتاب: صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار

نويسنده: بيرم الخامس، محمد مصطفى

تاريخ وفات مؤلف: ١٣٠٧ هـ. ق

محقق / مصحح: جنان، مأمون بن محيي الدين

موضوع: جغرافياى عمومى

زبان: عربى

تعداد جلد: ٢

ناشر: دار الكتب العلمية

مكان چاپ: بيروت

سال چاپ: ١٤١٧ هـ. ق

نوبت چاپ: اول

sfouah alaa'tbar bmstouda' ala'msar wala'ktar

تأليف: محمد بيرم الخامس التونسي تاريخ النشر: ١٩٩٧/١٠/٠١

ترجمه، تحقيق: مأمون بن محيي الدين الجنان الناشر: دار الكتب العلمية

النوع: ورقى غلاف فنى، حجم: ١٧×٢٤، عدد الصفحات: ٧٥٢ صفحة الطبعة: ١ مجلدات: ٢

الجزء الأول

إشارة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة المحقق

الحمد لله الذى حمده من نعمائه و شكره على آلائه من آلائه، أحمده حمد العارف بحق سنائه و أقف عند غاية العجز عن إحصاء ثنائه، عاكف على رسم الإقرار بالإفتقار إليه و الإستغناء به فى كل آنائه.

و أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له المتوحد بعظمته و كبريائه، المتقدس عما يقوله الملحدون فى أسمائه، و أصلى على سيد ولد آدم و نخبه أنبيائه، محمد المفضل على العالمين باجتهابه و اصطفائه، و فضله بالآيات الباهرات و المعجزات الظاهرات على أمثاله من المرسلين و نظرائه، و رقاها إلى درجات العلى و أنهارها إلى سدره المنتهى ليله إسرائه، و حباه بالخصائص التى لا يضاهاى بها بهاء كماله و كمال بهائه، و رداها رداء العصمة فكانت عناية الله تكنفه عن يمينه و شماله و أمامه و ورائه، صلى الله عليه و على آله مصايح الهدى و نجوم سمائه و سلم تسليمها كثيرا.

إن هذه الدراسة تهدف إلى تقديم رؤية لواقع البلدان التى رحل إليها الشيخ محمد بيرم الخامس التونسي من زوايا علمية تناول فيها

جمع حقائق السياق المجتمعي الذي عاش فيه، و المشكلات التي واجهته و التي ارتبطت ارتباطا وثيقا بمنهجية عمله. لذلك كان هذا البحث الذي أسهم فيه المؤلف من إثراء تراثنا التاريخي من واقع ظروفه، و بيئته المتطورة سياسيا و اجتماعيا. و الذي نجح فيه أنه ترك مصدرا أصيلا عريقا جديرا بكل اهتمام و رعاية، لذلك اعتمدت في هذه الدراسة على منهجية مستقلة لاستيفاء النقص و تفسير الغوامض و ذلك بالرجوع إلى كمية كبيرة من المصادر و المراجع، و التي ستجد لها فهرسا مرتبا في آخر هذا الكتاب حسب التسلسل الأبجدي مع أسماء مؤلفيها و سنة الطبع.

و يأتي هذا الكتاب عرضا لحصيلة ما قد توصل إليه المصنف من البحث في مجال التاريخ حيث قال: «... فجيت بحارا و قفارا و مدنا و أمصارا على حسب ما يسره المقذور، و ساعفت الوسائل على الوصول إلى مشاهدته من المعمور و رأيت بعيني البصر و البصيرة صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ٤

أمورا عجيبة خطيرة...» و ذكر فيه البلدان التي رحل إليها من أوروبا و آسيا و أفريقيا، و توسع في مواضع شتى من الكتاب، و أرخ فيه للقطر التونسي من زمن الفتح الإسلامي إلى حين دخول فرنسا فيه، و بلاد الجزائر أيضا و حروب فرنسا فيها كذلك الديار المصرية و الثورة العربية و غير ذلك من الفوائد التاريخية التي أثرت بحق المكتبة العربية.

ظل هذا الكتاب حبرا على ورق زمنا طويلا إذ لم يبادر الباحثون و الدارسون بتفحصه كمادة للدراسة و التوسع فيه و أخذ ما يروونه مفيدا للتصدي للغزو الفكري الجديد لما يحمله بين دفتيه من صورة للماضي نستخلص منها عبرة للمستقبل. و لا شك أن قضية الغزو الفكري لتاريخنا تشغل بال و أذهان المثقف العربي كما تشغل بال المنظر السياسي سواء بسواء. بهذا الجهد المتواضع أرجو أن أكون قد وفقت في وضع لبنه جديدة تسد فراغ ما في المكتبة العربية. و إضافة ما يمكن أن ينمي تراثنا العربي و يطوره.

و لا أنسى في هذا المقام أن أتقدم بالشكر و العرفان بالجميل لكل من أسهم في إخراج هذا البحث، و أعانني على تدليل عقباته، من الأصدقاء المخلصين و الأهل و الأساتذة الأفاضل و في مقدمتهم ابن العم نهاد بن حمدي الجنان جزاهم الله عنى كل خير. هذا ما حاولت صنعه و لا أدعى أنني بلغت بهذا كمالا فالكمال لله وحده، لكنها محاولة آمل أن يجد فيها الدارس و الباحث ما يصبو إليه، و إن كان ثمة شيء يذكر فهو ثنائي على أجدادي و أساتذتي الذين منهم تعلمت و على كتبهم عولت و من آثارهم اقتبست غفر الله لهم ولى أمين.

مأمون بن محيي الدين الجنان دمشق ٢١ / ١١ / ١٩٩٥ ص. ب ٢٩١٧٣

صفحة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ٥

ترجمة المؤلف

هو السيد محمّد بن مصطفى بن محمّد الثالث بن محمّد الثاني بن محمّد الأول بن حسين بن أحمد بن محمّد بن حسين بن بيرام، حضر إلى تونس قائدا على إحدى فرق الجيش العثماني عند فتحها من يد الإسبانيول على يد الصدر الأعظم سنان باشا سنة ٩٨١ هجرية و قد تزوج بيرام بنتا من آل أبي عبد الله بن الأبار القضاعي صاحب كتاب التكملة و إعتاب الكتاب، و هو الذي أرسله صاحب بلنسية زيان بن أبي الحملات إلى صاحب أفريقية (تونس) أبي زكريا يحيى بن أبي حفص يستغيث به لما حاصره ملك برشلونة الإسبانيولي فانشدته قصيدته المشهورة التي أولها:

أدرك بخيلك خيل الله أندلسا إن السيل إلى منجاتها درسا

و قد قدر الله أن الأسطول الذي أرسله صاحب تونس لم يصل في الوقت المناسب لانجاد الأندلسيين فرجع ابن الأبار لتونس حيث استوطن بها سنة ٦٣٥ هـ. و قد أمهرها بيرام أربعة آلاف ريال. هذا هو المنشأ الأصلي لهذه العائلة.

وقد ولد السيد محمّد بيرم بمدينة تونس في المحرم سنة ١٢٥٦ هجرية الموافق لمارس سنة ١٨٤٠ ميلادية، و أمه بنت الفريق محمود خوجه وزير البحرية بالأية التونسية، و أمها بنت الغماد ذى الشرف المعروف و يتصل نسب آل بيرم بالسادة الأشراف من جهات أخرى أيضا، أهمها: جهة محمد بيرم الأول فإن والدته بنت السيدة الشريفة حسينة بنت محمد بن أبي القاسم بن محمّد بن علي بن حسن الهندي الشريف، و هذا السيد قدم إلى تونس و أجمعت عامتها و خاصتها على الاعتقاد بنسبه الطاهر و التبرك به و نسله فيها بركة أهل تونس إلى الآن، أما نسبه فيتصل إلى الحسين السبط عليه السلام. و قد تولى محمّد بيرم الثاني نقابة الأشراف في حياة أبيه مضافة إلى خطة القضاء التي كانت بيده سنة ١٢٠٦ هـ و استمرت النقابة في يد ولده محمّد بيرم الثالث و حفيده محمّد بيرم الرابع إلى حين وفاته سنة ١٢٧٨ هـ كما أن رئاسة المفتين الحنفية المعبر عنها في تونس بمشيخة الإسلام استمرت في يدهم و يد أبيهم محمّد بيرم الأول من ذى القعدة سنة ١١٨٦ هـ إلى ٤ جمادى الأولى سنة ١٢٧٨ هـ أي إحدى و تسعون سنة و ستة أشهر و لم تنقطع إلا مدة قليلة بين وفاة بيرم الأول و ولاية بيرم الثاني. و كان جميع آل بيرم منخرطين في سلك العلماء مفتخرين بخدمة العلم إلا القليل منهم فقد دخلوا في الخدمة العسكرية. فاجتمع لهذه العائلة خدمة

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ٦

الدين من الطريقين طريق العلم و طريق الجهاد. حتى إن أحمد بيرم توفي بجراحه أصابته في محاربة الجزائريين لمراد باي أمير تونس إذ ذاك سنة ١١١٢ هـ و كأن هذه الخدمة السياسية أثرت في صاحب الترجمة مع قرابته لوزير البحرية حينئذ فصار له ميل كلي للتداخل في الأمور الملكية و معرفة أحوال الحكومة. و قد كان جده محمود خوجه رام إدخاله في الخدمة العسكرية لو لا ممانعة عمه شيخ الإسلام بيرم الرابع فدخل صاحب الترجمة إلى جامع الزيتونة و قرأ على مشايخ الوقت المعدودين. و لم يمنعه ذلك عن إشغال فكره بما يهواه من أمور الإدارة مع تباعد أهل العلم عادة عن كل ما هو خارج عن دائرة دروسهم، و قد جرت عادة الكثير من العلماء و الأدباء بتونس أن يكون لكل واحد منهم سفر شبيه بالسفينة يسمونه «كناشا» يجمعون فيه ما يحلو لديهم جمعه من إنشآتهم أو إنشآت غيرهم علمية و أدبية نظما و نثرا متضمنة الفوائد المختلفة في فنون و معان شتى، و قد خطى صاحب الترجمة على خطاهم و عمره سبعة عشر سنة و أول ما افتتح به كتابه ما تجمع لديه من أوامر و قوانين و نظامات في شؤون الحكومة، أصدرها إذ ذاك صهره الأمير محمّد باشا و هذا يدل دلالة واضحة لا شبهة فيها على ميل صاحب الترجمة و تعلقه بأحوال السياسة، و قد كان في حال صباه يرى العربان يفدون على والده و هو مشغول بالزراعة يتضجرون و يتوجعون مما يصيبهم من ظلم الحكام و تشديدهم في نهب الأموال بسائر الطرق التي اخترعوها في ذلك الوقت مما هو مبسوط في الكلام عن سياسة تونس الداخلية في «صفوة الإعتبار»، فأثر فيه نحيبهم و بكائهم فأوقف حياته من ذلك العهد على الانتصار للرعايا و تخفيف الاستبداد عليهم و السعى وراء نشر القوانين و تأسيس المجالس النيابية، و الميل بكل جوارحه للحرية مع ما جرت به العادة من تباعد ذوي البيوتات عن مثل ذلك، حتى لقد بلغ به الولوج بالحرية و حب المجالس الشورية أن تخالف رأيا يوما و هو صغير السن لا يتجاوز من العمر عشرين سنة مع أبيه و ابن عمه عندما افتتح الأمير الصادق باشا المجلس الأكبر و أسس قوانين عهد الأمان

Constitution

(كونستيتييون)، فكان صاحب الترجمة ينتصر لهذه المستجدات و يتوسم فيها خيرا للبلاد و ذانك يخالفانه مع أن أحدهما كان من جملة أعضاء المجلس، لما غرس في أذهان أصحاب البيوتات من التنحي عن مثل هذه المستجدات التي لا تروق في أعين حكامهم. و بعد وفاة عمه الشيخ بيرم الرابع و لاه الأمير مشيخة المدرسة العنقية في ٦ جمادى الأولى سنة ١٢٧٨ هـ فباشر التدريس فيها و من عادة علماء تونس من مشايخ المدارس أن يقرأوا فيها صحيح البخارى خصوصا في الأشهر الثلاثة المكرمة و اعتبارا من ١٥ رمضان يتبدى كل واحد منهم بحسب الدور بختم ما قرأه، و ذلك بأن يتلو الحديث الشريف الذي وقف عليه و يكتب عنه ما يعن له من الشروح و التعليقات و يكون لذلك مجلس حافل يستمر من العصر إلى قريب الغروب و تتوالى الاحتفالات المذكورة إلى الليلة السابعة و

العشرين من رمضان حيث يكون ختم جامع الزيتونة و دور المدرسة العنقية في اليوم الخامس و العشرين

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ٧

منه، و قد حضر الأمير بنفسه ذلك الختم في تلك السنة تشجيعاً للشيخ الجديد و كان حديث الختم قوله عليه الصلاة و السلام «إن أمتي يدعون يوم القيامة غرا محجلين فمن استطاع منكم أن يطيل غرته فليفعل» و في ٩ جمادى الثانية سنة ١٢٧٨ هـ صار مدرسا في جامع الزيتونة من الطبقة الثانية، و في ١٥ رجب سنة ١٢٨٤ هـ رقى مدرسا من الطبقة الأولى فاستمر مباشرا للتدريس مشغولا بإدارة أملاكه و عقاراته و أموره الخصوصية و توفي والده إلى رحمه ربه في ١٤ جمادى الأولى سنة ١٢٨٠ هـ و ترك له ثروة عظيمة.

و في تلك الأثناء ظهرت الفتنة العمومية في الإيالة التونسية متسببة عما كان يتوقعه و يخشاه من عاقبة ظلم الرعية و استبداد الحكام، و قبيل ذلك أفضت المجالس الشورية التي كان صاحب الترجمة يتولع بها و يهواها و لا يتوسم لخير المملكة سواها، و كأن ذلك أثر عليه تأثيرا شديدا حتى أنه كتب أحد أصدقائه من أمراء المسلمين المقيمين بأوربا بما نص محل الحاجة منه: «فيا لها من حال. يرثي لها من رام النزال. و تخر لشدتها شامخات الجبال». إلى أن قال: «فقد فاز من نهض بنفسه. و استراح من فتنه باطنه و حسه. إذ الآيات وردت على ذلك ناصه. فقال تعالى: وَ اتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً [الأنفال: ٢٥] ففاز المخففون. و ابتلى المتأهلون. و والله العظيم و نبيه الكريم. طالما نهضت عزائمى إلى الترحال. فأثقلتني قيود العيال. مع ما أنا عليه من الوحدة عن أخ شقيق. أو قريب يخلفنى فيهم عند الضيق. و لم أستطع التخلص بكلى. لما لا- يخفى مما يثقل كلى. و أقسم بالقرآن. و صفات الرحمن. أننى عرضت للبيع أملا-كى. لأتخلص بها من أشراكى. و أستعين منها بالأثمان. فلم أجد من يصرف لهذا الوجه أى عنان. و لو من أعيان الأعيان الخ».

و من ذلك الحين اشتد اتصاله بالوزير خير الدين باشا إذ كان هو رئيس المجلس الأكبر الذى الغى و كانت مناسبة الوصلة بينهما جبهما للحرية و تعميم الشورى في المملكة و هما كما لا يخفى القوتان الوحيدتان لحفظ استقلال البلاد من التلاشى، و لذلك فإنه لما تولى خير الدين باشا الوزارة الكبرى في تونس في رمضان سنة ١٢٩٠ هـ كان صاحب الترجمة من أكبر أنصاره و محازبيه و تظاهر بذلك تظاهرا كليا حتى نشر في الرائد التونسي الذى هو جريدة الحكومة الرسمية مکتوبين أظهر فيهما انبساط الأهالى من تغيير الوزارة و بين غلط المنتصرين للحاكم السابق و أنهم فئة قليلة لا تحب خير البلاد، و كان بذلك أول تونسى جاهر بأرائه السياسية في الجرائد تحت إمضائه على ما أظن و زاد على هذا التظاهر الأدبى بأن سعى في أعمال تظاهر مادى و ذلك بأن اتفق مع علماء جامع الزيتونة على إقامة احتفالات في الجامع شكرا لله على انقاذ البلاد من عهد الجور و إدخالها في عصر الإطمئنان و الرجوع لعهد الأمان، و حصل بالفعل ذلك الإحتفال و أعقبه كثير مثله في جهات الحاضرة و بقرية بلدان المملكة، فكانت نهضة حقيقية و طيبة صادرة عن إخلاص نية حبا في الحرية و إستقامة الأحكام.

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ٨

و لما استقر الوزير المشار إليه في المنصب و وجه عزمته لإصلاح الإدارة رأى أن الأوقاف مشتتة قد استولت عليها أيدي الخراب و الأطماع فرأى: «إن جمعها في إدارة واحدة يكفل حفظها و يجمع ريعها فيصرف في أوجهه المشروعة». و ذلك على النحو الجارى في دار الخلافة السعيدة، و قد رأى الوزير أن يعهد إلى صاحب الترجمة أمر هذه الإدارة الجديدة لما يعهده فيه من معرفته بالأحكام الشرعية و إطلاعه على مقتضيات الوقتية فامتنع المرحوم أولا من قبول أى وظيفة كانت، لأنه لم يكن يميل إلى التقيد بشيء ما يمنعه عن السعى وراء ضالته المنشودة و هى الحرية للرعية و دخوله في الوظائف يجعله بلا-ريب مقيدا مع الوزير بالآداب التي تقتضيها الوظيفة، أما بقاؤه خارجا عن دائرة الحكومة فيبقى على حريته التي تمكنه من تذكير الوزير بما عساه ينساه من تميمه لما كان تعهد بإجرائه، هذا فضلا عما كانت عليه سجية صاحب الترجمة من الهمة و إباءة النفس، حتى كأن جدّه حسين بيرم المتوفى سنة ١١٥٥ هـ قد نظر إليه بظهور الغيب لما ذيل البيتين الشهيرين:

شيان لو بكت الدماء عليهما عيناى حتى تؤذنا بذهاب
لما يبلغا المعشار من حقيهما فقد الشباب و فرقة الأحباب
بقوله:

و أشد من هذين أن يلقي الفتى ذل السؤال و وقفه الأبواب

و مع ذلك فقد تغلب أصحابه عليه و قبل إدارة الأوقاف فى ١٧ صفر سنة ١٢٩١ هـ و لم ينفرد مع ذلك بأمرها بل شارك معه مجلسا مؤلفا من ثلاثة أعضاء أحدهم من رجال الإدارة و الإثنان الآخران من أعيان الأهالى و التجار و جعل نظرهم فى الأوقاف على قسمين:
الأول: الأوقاف الأهلية أى التى هى موقوفه على ذرية الواقف أو قرابته.
الثانى: الأوقاف التى على أعمال البر مثل الجوامع و قراءة القرآن و غير ذلك.

فأما نظرهم فى الأول فهو مجرد نظر إرشاد، و إما القسم الثانى فنظرهم عليه نظر تصرف مطلق، و المباشر للأعمال هو الرئيس بعد أخذ رأى الأعضاء عنها، و قد جمع الأوقاف كل نوع منها لجهة واحدة بأن ضم مثلا جوامع الخطب كلها لجهة و المدارس كلها لجهة و أوقاف القرآن لجهة و هكذا إلى آخر أنواع الموقوف عليه، و جعل لكل قسم و كيلا خاصا يباشر العمل فى ذلك تحت النظر الأصلي فيقبض الوكيل و يصرف فى إقامة الشعائر و فى إصلاح الموقوف و الموقوف عليه و لكنه لا يعمل شيئا إلا بعد الإستئذان من رئيس المجلس، و جميع حساباته ترسم فى دفترين مخصوصين بشهادة عدلين أحد الدفترين للحسابات اليومية و الثانى للحسابات العمومية، و إنما جمع كل نوع من الأوقاف تحت نظر و وكيل واحد لأن الموقوف عليه مختلف الريع بعضه غنى و بعضه فقير، فإذا صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ٩

كانت إدارتها جميعا متحدة فيصرف من دخل الغنى على الفقير لأنهما من نوع واحد، و بذلك تيسرت سهولة الإصلاح. ثم إنه فى آخر كل أسبوع يقدم الوكلاء حساباتهم و يوردون للخزينة العمومية كل ما زاد عندهم من الإيراد على المصروفات الضرورية، و هذه الخزينة لها ثلاثة مفاتيح اثنان منها يقيان بطرف أمين المال و الثالث يحفظ عند الرئيس و لا تفتح إلا بحضور الجميع، ثم إن جميع أماكن الأوقاف لا يحصل تأجيرها إلا بعد الإعلان و المزايدة علنا بمحضر القاضى ثم إن أموال الأوقاف أول ما يقام منها الوقف و الموقوف عليه حسب نص الواقف و يقدم الأهم على المهم و جميع مداوات المجلس و دفاتر الإيراد و الصرف فى الخزينة العمومية، يُمضيها جميع الأعضاء مع الرئيس يوميا، و كان يصرف من فواضل الأوقاف على الأوقاف التى لم يحضرها دخلها و ذلك على وجه القرض و لما يحضر مالها تعيد ما استقرضته للخزينة العمومية، ثم يدفع منها جميع مرتبات الحكام الشرعيين من قضاء و مفتين فى جميع المملكة و السادة الأشراف، و يدفع منها مصروفات نظارة المعارف من موظفيها و مرتبات مدرسى جامع الزيتونة و مصروفات دواوين الشريعة المطهرة، و مصروفات المجلس البلدى بحاضرة تونس و إصلاح الطرقات و تنظيفها و إقامة الجسور و القناطر، و مصروفات المستشفى و المكتبة العمومية و غير ذلك من مصاريف بعض المهمات التى تحدث أحيانا و ترجع إلى مصلحة عمومية إن كان فى الفواضل ما يوفى بها، و بسبب إجراء قوانين الأوقاف حقيقة بدون محاباة تحسن حالها و زادت إيراداتها حتى بلغت فى السنة الخامسة من وجود هذه الإدارة مليونين و مائة و خمسين ألف ريال و نيفا، و كانت فى السنة الأولى مليوناً واحداً و مائتى ألف ريال و نيفا، زيادة على ما ظهر من الأوقاف التى كانت تلاشتها أيدي العدوان حتى بلغت إلى مئات من قطع الأراضى و الدكاكين و البيوت و آلاف من شجر الزيتون كما هو مبسوط فى العدد ١٨ من الرائد التونسى سنة ١٢٩٧ هـ و ظهرت أوجه من الموقوف عليه لم تكن فى الحسبان كالوقف على تنوير الأماكن المظلمة فى الليل و الوقف على التقاط العقارب إلى غير ذلك من أوجه البر.

و قد التزم الرئيس أن يفرغ جهده لإصلاح هذه الإدارة المستجدة و تدريب عمالها على العمل حسب المرغوب حتى التزم فى أول الأمر أن يباشر جميع الأعمال بنفسه جزئية و كلية ليلا و نهارا و استمر على ذلك مدة طراً عليه فى أثنائها مرض عصبى لم يفارقه إلى أن قضى عليه، و كان ابتداء المرض فى صيف سنة ١٢٩٢ هـ و بسبب هذا المرض عزم على السفر للتداوى فى أوروبا فسافر إليها فى

شوال سنة ١٢٩٢ هـ و كان ذلك سببا لكتابته «صفوة الإعتبار». و لم تكن هذه الرحلة أول تأليف له بل قد سبق له كتابة رسالة سماها «تحفة الخواص في حل صيد بندق الرصاص»، و مضمونها احتواه عنوانها و سبب تأليفها الخلاف الحاصل بين بعض العلماء في حل أكل الصيد المذكور من عدمه، و ألف أيضا في أول نشأته مجموعا مختصرا مفيدا في فن العروض و ذلك عند بداية تعاطيه لنظم القريض، و حرّر

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ١٠

مسألة فقهية في جواز إسدال شعر الرأس و سببها أن الأمير أمر رجال حكومته بإسدال شعرهم و كانوا يحلقونه فاستفتى في جواز ذلك من عدمه و اختلفت فتاوى العلماء خشية القول بالتشبه بالإفرنج فكتب المرحوم رسالته بالجواز مستندا على عمل النبي صلى الله عليه و سلم.

و في تلك السنة أى سنة ١٢٩٢ هـ افتتحت في تونس أول مدرسة على حسب النظام الجديد المتبع في أوروبا سميت المدرسة الصادقية نسبة للأمير فكان المرحوم من أعضاء اللجنة التي رتبت نظاماتها و اهتم كثيرا بإقناع الناس على إدخال أبنائهم فيها و كان هو من أول العاملين بقوله فجعل ابنه كاتب هذه الأسطر من جملة تلامذتها، و قد حصل في بداية الأمر نفور الناس منها إذ أن العادة جرت بنفرة غير المألوف و لم تزل تلك المدرسة ناشرة فوائدها بين التونسيين و أكثر المتولين مناصب الحكومة بتونس الآن هم من الشبان الذين تغذوا بلبان معارفها.

و في ١٠ جمادى الثانية سنة ١٢٩٢ هـ عهدت إليه نظارة مطبعة الحكومة فنظمها و أصلح شأنها و أصدر الرائد التونسي (الجريدة الرسمية) في مواعيده المعينة كل أسبوع مرة و كان لا يصدر إلا بحسب التيسير، و لما كان الرائد التونسي هو الجريدة الوحيدة التي تصدر في تونس بذل كل ما في وسعه لجعله مفيدا لبنى وطنه، و استعان على تحريره بجهاذه أعلام كالشيخ حمزة فتح الله المصري، و الشيخ محمد السنوسي التونسي. و نشرت فيه مقالات رنانة حاثثة على الجامعة و الوحدة و العدل و الإئتلاف لا سيما زمن الحرب بين الدولة العلية و الروسية، و قد قسم المرحوم وقته فكان يتوجه لإدارة الأوقاف صباح كل يوم و يتوجه للمطبعة بعد الظهر. و في تلك الأثناء نظم المكتبة الصادقية بإزاء جامع الزيتونة و هي مكتبة جمعت آلاف من الكتب النفيسة في كل فن، تبرع بجانب عظيم منها الوزير خير الدين باشا و أكثرها كتب استولت عليها الحكومة من مملوكات الوزير القديم مصطفى خزندار، و جعلها مفتوحة للمطالعة و استفادة العموم في جميع أوقات النهار بشرط أن لا يخرج منها كتاب و جميع مصاريف هذه المكتبة تحملت بها إدارة الأوقاف على ما مرّ بيانه.

و في سنة ١٢٩٣ هـ لما ظهرت الحرب بين الدولة العلية و الصرب بذل صاحب الترجمة غاية مجهوده لمساعدة الدولة بالمال و الخيل و البغال حيث لم تيسر مساعدتها بالرجال لأسباب سياسية و موانع محلية، و قد نشر صاحب جريدة الجوائب الصادرة بالأستانة قصيدة لصاحب الترجمة في الحث على التعاون و الإئتلاف عند تلك المناسبة قال فيها:

يا أمّة الإسلام صونوا عزكم بتعاقد و تمدن و تنافس

يا أمّة الإسلام أحيوا ذكركم بتآلف و تودّد و تانس

يا أمّة الإسلام نمّوا صيتكم بمعارف و صنائع و مجالس

يا أمّة الإسلام حوطوا أمركم بتشاور و تدبر و حوارس

يا أمّة الإسلام أجلّوا فخركم بديانة قد سترت بحنادس

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ١١ يا أمّة الإسلام هبوا للفلاح و لا تضيعوا نجحكم بتقاعس

يا أمّة الإسلام عوا و استيقظوا إن الهلاك مسارع للناعس

يا أمّة الإسلام زيدوا ثروة بتعاون و مصانع و مغارس

يا أمة الإسلام شيدوا مجدكم بتناصر و تناصح و تجانس

يا أمة الإسلام شدوا عزمكم فنباتكم بين البرايا ما نسي

و لما خلت وظيفه شيخ الإسلام بتونس عند وفاة صاحبها توجهت الأنظار لتوليئه صاحب الترجمة عليها حتى إن المنصب المذكور بقي خاليا مدة شهرين لذلك، فاعتذر بأن الوقت غير مناسب لإعادة جاه هذا المنصب و رجوع عزه إليه كما كان عليه زمن عمه.

و لما استعفى خير الدين باشا من الوزارة التونسية في رجب سنة ١٢٩٤ هـ رام صاحب الترجمة التخلي عن وظائفه أيضا، غير أن مداخلة الأمير الشخصية منعت من تنفيذ هذا العزم و قد رأى من الوزير محمد خزنة دار جميل العناية كما يستدل عليه من المكتوب الآتي:

«الهامم الأوحاد التحرير الشيخ السيد محمد بيرم رئيس جمعية الأوقاف دام مجده أما بعد.

السلام عليكم [و رحمة الله] و بركاته فالواصل إليكم ترجمة مكتوب ورد من المكلف بأمر دولة أسبانيا للإطلاع عليها و تعرفونا بما يجاب الرجل في النازلة و في أمن الله دتم و السلام من كاتبه محمد في ٢٩ ذى الحجة سنة ١٢٩٤ هـ.»

و من ذلك الحين أيضا صار الوزير مصطفى بن إسماعيل يظهر له كمال التودد و التلطف و في مصيف سنة ١٢٩٥ هـ أثناء وجود المعرض الباريسي سنة ١٨٧٨ توجه المرحوم ثانيا إلى باريس للمعالجة من مرضه الذي لم يفارقه، و في هذه السنة زار لندره من بلاد

الإنكليز و عند عودته عرج على الجزائر، و في مدة إقامته بباريس أكرمه المارشال مكماهون رئيس الجمهورية الفرنسية إذ ذاك بإحضاره في الأوبره و هو التياتر و الكبير في نفس لوجته (حجرته) و حضر بعض الاحتفالات التي أقامها الوزراء أثناء المعرض، و

بالجملة فإن القوم أكرموا إكراما فائقا، و في تلك السفارة احتفل ولي عهد الإمارة بتونس و هو الأمير الحالي بختن نجليه فكاتبه المرحوم بالتهنئة و كانت بينهما علاقة ودية قديمة، فأجابه الأمير بهذا المكتوب و نصه بعد الحمدلة و التصلية:

تبدت في حلا الحسن الجلى خريده ذات ثغر العسى

تجرّ مطارفا و تميمس تيهاو يسطو لحظها في كل حي

فيا لله ما أحلى دلالاو أعذب لفظها شهد الشهي

فما للبحر لم يصبح فراتاو قد أمست به زمن الملى

فقلت لها انتم يا خود فخرفقال بنت فكر البيرمى

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ١٢ لقد حاز المعارف و المعالى و حيد الدهر ذو الحسب النقى

أت من نحوكم درر التهاني منظمه بسلوك جوهرى

و كيف يفوت حظك بابتعادو فى الأحشاء ذو ودّ خفى

وها ولدى الزكى يروم وصالا لجانبكم بباريس السمى

و أنى ارتجى بشرى الشفاء و عودكما مع اللطف الخفى

الماجد الزكى العالم أبو عبد الله الشيخ السيد محمد بيرم حرسه الله تعالى. أما بعد أتم السلام فقد ورد نظمكم الراق. و ما تضمنه من التاريخ الفائق. فى التهنة بالختان و أنى أهنيك بذلك كما ارتجى هناعك. بتمام شفائك. و أنت إن ترحلت عن حمانا جسما. فلم

يزل و دك مرتسما. بدفاتر الإحشاء رسما. و السلام، من الفقير إلى ربه أمير الأمراء على باى أمير الأمحال عفى عنه، فى ٢ رجب الأصب من سنة ١٢٩٥ هـ.

و لما رجع من هذه السفره و استقر مدة أحب أن ينظم المستشفى التونسي على النحو الذى رآه فى أوروبا من إقتان المستشفيات و الاعتناء بالمرضى و تقسيمهم كل قسم على حدة، و كذلك تحسين حال المجانين إذ إن المستشفى التونسي واحد يقبل جميع

المرضى.

و استعان على ذلك بحكاما ماهرين أهمهم الدكتور ماسكرو حكيم الأمير الخصوصى، و قد حسن للوزير مصطفى بن إسماعيل هذا

العمل و تخصيص إحدى القشلاقات العسكرية القديمة الواسعة لهذا الغرض، و كانت معطلة خاوية تنعى بفراغها و إقفال أبوابها ما كانت عليه البلاد التونسية في العصر السالف من القوة و الاستعداد و التأهب للمكافحة و الجلاذ و المدافعة عن استقلال البلاد، و القشلة واقعة في حى مرتفع نقى الهواء و فى تلك الأثناء حصلت منازعة بين الحكومة التونسية واحد الفرنسيين المدعو الكونت دو سانسى على أرض فسيحة تعرف بهنشير سيدى ثابت كانت تنازلت له عنها الحكومة لتحسين حالة الزرع و إنتاج الخيل و لما أخل بالشروط التى أعطيت له بمقتضاها، و انتهت مدة التنازل رامت الحكومة استرجاعها و بينما هى تنازعه فيها إذا بالوزير و بعض أعوانه دخلوها عنوة فوق لذلك هرج و مرج و انتهزها قنصل الفرنسيين الموسيو رويستان فرصة لإرهاب الأمير و الاستيلاء على الوزير و زيادة شوكة دولته فى تونس، فقطع العلاقات السياسية و طلب عدة مطالب للترضية أهمها عزل الوزير و التعويض على الكونت.

و كل مطلع على تاريخ تونس الحديث ملم بما كتب عن مصطفى بن إسماعيل فى «صفوة الإعتبار» و غيرها يعلم أنه لم يكن أهلا لتقليد الوزارة و لا لمباشرة شؤون المملكة بأى وجه من الوجوه و هكذا جرت سنة الخلق كلما أخذت أمه فى الإنحلال و الإضمحلال تسلط عليها الوضع. و نبذ الرفيع. و تقدم الغافل. و تأخر العاقل. و تملك الغبى. و احتقر الذكى. و انتصر الجهل. و خذل الفضل. و قامت دولة الأوغاد و السفلى. ليقضى الله أمرا كان مفعولا و لو لا سيطرة الظلم و الاستبداد من الحكام و إجماعهم الأهالى بلجام من الجور

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ١٣

و الإعتساف. لما رفع مصطفى بن إسماعيل من حضيض الأرض إلى عنان السماء. و من دائرة السوقة إلى منصب الوزراء و لله الأمر من قبل و من بعد.

و لما كان الوزير المذكور يحس من نفسه بعدم اللياقة لمركزه، كان دائما متوقعا الشر من كل مقتدر على تفهيم الباي بحقيقته حاله و سوء أعماله، و لذلك فإن رستان علم أن لا شىء يقوده غير الإرهاب فطلب عزله إرهابا له فسهل عليه قياده من ذلك الحين فصار فى يده كالميت فى يد غاسله، و قد أسرع الوزير بترضية القنصل ترضية رسمية على الإعتداء الذى حصل منه فداء لمركزه و استقر الرأى على تشكيل لجنة للتحكيم تحت رئاسة قاض فرنساوى يكون فيها عضوان تونسيان و عضوان فرنساويان تنظر فى جميع مدعيات الطرفين و تصدر حكمها فيها فكان صاحب الترجمة أحد ذينك العضوين التونسيين، و قد ناضل عن حقوق حكومته بجميع قواه و بلغ به تعب الفكر و البدن منتهاه حتى عاد إليه المرض بعد أن كاد يشفى منه و قد أوصاه الحكماء الذين باشروا معالجهته فى باريس و فى مقدمتهم شاركو الشهير بأن يقلل ما أمكن من الإشتغال بالفكر و يتباعد عن الإنفعالات النفسانية إذ إن مرضه عصبى واقع فى الأعصاب الواصلة بين المعدة و القلب مع ضعف شديد فى الدم تطرا عليه أدوار غريبة فى الوجع و الألم التزم لتسكينها بتعاطى المرفين و هو روح الأفيون، و قد رجع من باريس آخر مرة و كاد يبطل استعماله بالمره بل بقى عدّة أشهر لا يستعمله أصلا غير أن مسألة سانسى و ما رآه فيها من حيف الأجنبى لاهتضام حقوق البلاد و التلاعب باستقلالها أعاد إليه المرض كله بأشد مما كان عليه و قد صدر الحكم بمحقوقية الحكومة التونسية كما هى العادة فى جميع المسائل التى تقع من هذا القبيل فى البلاد الشرقية فى مثل هذه الأوقات.

و فى تلك الأثناء أنهى تنظيم المستشفى الجديد المسمى بالصادقى و هو على قسمين:

أحدهما: مجانى للفقراء يسع مائة مريض. و الآخر: للموسرين بأجرة معينة زهيدة، و افتتحه الأمير بنفسه فى موكب حافل حضره فى يوم ١٠ فبراير سنة ١٨٧٩ (١٨ صفر سنة ١٢٩٦ هـ) و أعلن الوزير عن لسان الحكومة بحسن مساعى صاحب الترجمة فى تنظيم هذا المستشفى بقوله فى خطاب ألقاه على مسامع الأمير فى ذلك الاحتفال و هو:

«بمقتضى الاذن العلى و عناية سيدنا أدام الله تعالى بقاءه بمصالح بلاده وقع انجاز هذه المأثرة الجميلة التى هى إحدى مآثر الحضرة العلية، و هى هذا المستشفى الصادقى الذى شرفه سيدنا أيدى الله تعالى بالحضور فيه هذا اليوم، و قد اعتنى الشيخ السيد محمّد بيرم

ببذل الجهد في انجازه و ترتيبه على الكيفية المشاهدة بما نرجو من الله تعالى أن يحل ذلك من سيدنا محل الاستحسان».

فأجاب الأمير بالشكر و الثناء و أهدى إلى صاحب الترجمة في ذلك اليوم علبه مرصعة ذات قيمة و افره مکتوب عليها اسمه بالأحجار الكريمة. و في أواسط تلك السنة تناول أحد

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ١٤

أعوان الوزير على القاضى المالكى الشرعى بديوان الحكم و هو أمر لم يعهد له مثيل فى تونس حيث لم تزل الأحكام الشرعية و حكامها مرموقين بعين التبجيل و الاحترام اللاتقنين، فهاجت البلاد لذلك و ماجت و اتفق الحكام الشرعيون على تعطيل الأحكام إلى أن يسترضيهم الأمير بعزل الوزير و عقاب تابعه العقاب الصارم و إجراء القوانين و المجالس الشورية فى البلاد لتكون ضمانه كافية على عدم العود لمثل هذا الحادث المكدر و عدم تسليم الادارة لمن لا يكون كفوءا لها، و بعد أن اتفقت كلمتهم على هذه المطالب و كادوا أن يحصلوا عليها دخل بين بعضهم داخل الغرور و التفرقة فتشتت آراؤهم و انحلت جامعتهم و رضوا بتباعد التابع المتناول لاحدى معاقل المملكة فى قابس الواقعة على حدود طرابلس، و بتشكيل الأمير لمجلس سماه مجلس الشورى للنظر فى مهمات أمور الدولة و جعله تحت رئاسة الوزير نفسه و أعضاؤه بقیة وزراء المملكة و مستشاروها و ليس فيهم إلا اثنان من الأهالى و الباقي كلهم من ممالیک الجراكسة و زاد عليهم اثنين هما السيد محمّد بيرم و العربى باشا زروق رئيس المجلس البلدى، و كانا من أشد المعضدين لعزائم الحكام الشرعيين فى مطالبهم التى طلبوها و كان ذلك فى ١١ رجب سنة ١٢٩٦ هـ و لا يخفى ما فى رضاء المشايخ بمثل هذا المجلس خصوصا بعد تعيين صاحبيهم فيه من الايقاع بهما و التغاضى عن صالح البلاد الحقيقى.

و لم تطل الأيام حتى اختلق الوزير مأمورية لصاحب الترجمة و أرسله بها إلى فرنسا و حصلها السعى لدى كبراء القوم و خصوصا «غامبيتا» رئيس مجلس النواب إذ ذاك و صاحب القول الفصل فى بلاده، لتغيير قنصلهم فى تونس لأنه اشتد على الحكومة اشتدادا لم يبق لها حرية للعمل فى شؤونها الداخلية قط، و لم يقف عند حدّ فى إلقاء الدسائس و الفتن و توغير الصدور بين الراعى و الرعية حتى أنه لما طلب أعيان الأهالى التونسيين ما طلبوه من تأسيس الحرية و الشورى فى بلادهم كان الموسيو «رستان نائب» الجمهورية الفرنسية ينصح الأمير بعدم الاصغاء إلى هذا الطلب، و إن العساكر الفرنسية بالجزائر مستعدة لمعاضدته و كسر شوكة الأهالى و اذلالهم عند اللزوم، و هى سياسة قديمة اتبعتها فرنسا فى تونس نفسها، فإن قوانين عهد الأمان السابق ذكرها المؤسسة فى تونس سنة ١٢٧٤ هـ كانت بمساعى فرنسا و انكلترا ظاهرا و تهديدهما للأمير باسطوليها للذين حضرا لذلك الغرض و كان ذلك لمجرد قتل يهودى فى اقامه حدّ اقتضته الشريعة، و لما اجريت تلك القوانين بالفعل سنة ١٢٧٧ هـ و توجه الأمير لمقابلته الامبراطور نابليون الثالث فى الجزائر و أهدى إليه نسخة من تلك القوانين اقبلها منه بالشكر ظاهرا و لما اختلى الامبراطور بقنصله «ليون روش» و بخه تويخا شديدا على ما رواه المرحوم الجنرال حسين و أفهمه غلظه من المعاضدة على إجراء القوانين الشورية فى تونس حقيقه، و قال له: «إن العرب إذا تأنسوا بالعدالة و الحرية فلا راحة لنا معهم فى الجزائر مطلقا» و من ذلك الحين وجه القنصل همته لاقناع الوزير مصطفى خزنة دار بإلغاء تلك القوانين و وجد منه اذنا صاغية فألغاها و بقيت كذلك إلى

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ١٥

هذا الوقت. و قد قبل السيد محمّد بيرم مأموريته كما قبل المرحوم حسين باشا وزير المعارف إذ ذاك بتونس مثلها لدى البرنس «بسمارك».

و لما توجه صاحب الترجمة للسلام على الأمير سلام الوداع واجهه بكلام اللوم و العتاب على ما جرى منه من تعضيد المطالب الأهلية، فأجابه الشيخ بيرم بكلام أثر فى نفسه تأثيرا لم يزل يكرره بتوجه إلى آخر مدته و هو أنه قال له: «إننا نطلب الحرية التى قال سيدنا أنه لا يعطيها لنا غيره» فأجابه الأمير: لمن أعطى الحرية أللنجان و الحداد أم لك أو لهذا؟ (و أشار إلى أحد كبار الحاضرين) فإن النجان و الحداد إذا أعطيا الحرية أساء التصرف بها و لم تبق لنا معهما راحة، فقال له السيد بيرم: «إن الحرية التى يعطيها سيدنا للحداد و النجان

تصيرهما مثلي أنا و مثل هذا»، و أشار إلى ذلك الوجيه و سبب انزعاج الأمير من هذا الجواب هو تكرار لفظه الحرية فيه و لم يعهد أنه سمعه من قبل، حتى أن أمراء تونس قديما كانوا يعتقدون أنهم يمتلكون البلاد بمن فيها من الأرزاق و الأنعام و السكان امتلاكاً شرعياً لا ينازعهم فيه منازع، و أورد المؤرخ اللبيب الشيخ أحمد بن أبي الضياف في تاريخه نادرة جرت له مع أمير تونس حسين باشا الثاني في هذا الموضوع كادت أن تورده حتفه رحمه الله.

و لما وصل صاحب الترجمة هذه المرّة إلى باريس و كان ظاهر أمره أنه توجه للتداوى اجتمع بالموسيو «غامبيتا» و فاوضه في المسألة التي كلفه بها الوزير و سلمه تقريراً فيها هذه صورته:

«إنني أقدم على وجه خصوصي غير رسمي إلى حضرتكم العلية تقرير ما هو واقع في المملكة التونسية مما عساه أن يكدر صفاء القلوب حيث كنت أنا و أهل بلادى على علم من أن الدولة العظيمة الحرّة لا يبلغها ما هو حاصل الآن من نائبيها في تونس الذي اتخذ طريقه التشديد و التخويف ديدنا في كل شيء حتى صير حكومتنا متحذرة من أصدقائها عوضاً عن زيادة الألفة و الركون الذي هو الواجب مع الأمة الفرنسية التي كل أهلنا يعلم أنها وحدها هي التي تفيدها و لهذا عندما امتلأ و طابنا من الكدر لم نقصد إلا ابلاغ الحال إلى رجالها المنصفين من غير أن نطرق باباً غير بابها و ذلك أن موسيو «رستان» النائب المذكور بعد أن أوقع دولتنا في إرتباك و كاد يغير علينا الدولة الفرنسية في نازلة موسيو دو سانسي التي لا تستحق تلك الأهمية حسبما يوضح ذلك التقرير الذي حرره مجلس التحقيق المعين من فرنسا و بعد أن اضطر حكومتنا الفقيرة التي لم تستطع دفع كيونها (فوائد ديونها) و لا مرتبات متوظفيها إلى دفع مبالغ مجاناً من المال و الأملاك إلى أناس لا فائدة بهم لكلا الدولتين لأسباب نتحاشى عن ذكرها أمام فخامتكم حتى أنه خسرنا في مدة الستة أشهر الأخيرة فقط نحو مائة ألف و سبعة و أربعين ألفاً فبعد هذا كله إذا هو الآن يتعرض رسمياً لتحسين إدارة البلاد التي بها تتمدن الأهالي و يدخلون في الحضارة و كانت الدولة الفرنسية أنالتنا إياها على يد نائبيها سنة ١٢٧٤ هـ ١٨٥٨ انتصاراً للإنسانية و الحق فعوضاً عن زيادة التقدم مع تقدم العالم إذا هو الآن مضاد لذلك و قال إلى سيادة سيدنا الباي لا تفعل مجلس الشورى الذي طلبته منك الأهالي وابق على حالتك العتيقة بل أوعز إليه مع بعض أعوانه المنكشف

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ١٦

حالهم بأن يقتل نحو ثلاثة أشخاص و ينفي نحو سبعة و يلتجئ إلى حمايته و لا عليه في شيء فلو لا مكارم سيادة سيدنا الباي لأوقع البلاد بل فرنسا ذاتها في ارتباك مصادرة للإنسانية و العدالة المجبولة عليها الدولة الجمهورية الفرنسية.

فيا أيتها الحضرة الفخيمة هل ترضى الأمة و الدولة التي ترسل أبناءها إلى أقصى المشرق و المغرب لحفظ الإنسانية أن يكون نائبيها مضاداً لذلك في بلاد هي جارة لها عندما كانت الدولة العظيمة تخرج أهل الجزائر من الحكم العسكري إلى الحكم البلدي مستترا في دعواه بعدم التعرف بالمجلس بأنه سمع أن المقصد منه هو التعرض لمصالح فرنسا مع أنه على علم بأن مصلحة الأمة الفرنسية يعتبرها و يراعيها كل من الأمر و المأمور في بلادنا لعلنا بمقامها بيد أنه إذا كانت المصلحة ليست لفرنسا و إنما هي مجرد فوائد شخصية فإن مصلحة البلاد تقدم عليها و هو الذي تؤمل المعاضدة عليه من الرجال المشهورين في العالم من الدولة الفرنسية و تبقى بما ترهم مزينه صحف التاريخ فهذا أنا أنهى إلى مسامعكم الشريفة اختصار ما هو حاصل و لحضرتكم أن تطلبوا الايضاح ممن يعلم حالة بلادنا من الذين لهم خبرة بها من الصادقين.

و قد بادر صاحب الترجمة برسالة تفصيل المقابلة و ما حصل فيها من الكلام إلى الوزير بمكتوب مؤرخ في ١٢ شعبان سنة ١٢٩٦ هـ من جملة ما قاله له فيه عن لسان «غامبيتا»: «إن كنتم تريدون الارتياح من الرجل (أي رستان) فيجب أن تكتموا هذا الأمر بل و لا اجتماعكم بي في شأنه و إلا كان ذلك ينقض قصدكم». و ما كاد يصل هذا المكتوب إلى تونس حتى انتشر الخبر بسر المسألة و لم يعلم إن كانت الاشاعة حصلت من نفس الوزير أو من المترجم الذي كان الواسطة في الكلام بين غامبيتا و صاحب الترجمة الذي لم يكن يتكلم اللسان الفرنسية، و الحاصل أن القنصل انتهز هذه الفرصة الجديدة و أردد و أبرق على الأمير و الوزير و زاد في إيغار

صدورهما على صاحب الترجمة و ساعده البخت أو الصدفة بأنه في الوقت الذي كان الأهالي في تونس يطلبون تأسيس الشورى في بلادهم كانت الدول مشغولة في مصر بخلع إسماعيل باشا و حصل ذلك على يد خير الدين باشا صاحب الصدارة حينئذ، و ارتباطات الباشا المذكور بتونس و خصوصا بصاحب الترجمة مشهورة عند الجميع، فاستنتجوا من ذلك أن طلب الشورى في تونس لم يكن القصد منه إلّا إحداث ارتباطات في المملكة فتفتح الباب لمداخله الباب العالي خصوصا، و كان صاحب الترجمة معارضا شديدا للمعارضة في وصل سكة الحديد بين الجزائر و تونس و تعيين الحد الفاصل بينهما إلّا بعد العرض للدولة العلية، و زادوا في اقتناع الباشا بالتلغراف الذي أرسله خير الدين باشا يعلمه فيه بفصل إسماعيل باشا عن خديويّة مصر و قد استعمل الصدر الأعظم في تلغرافه عبارات اشتم منها رائحة التهديد و الوعيد للباشا حتى التزم الحال للاستفهام من الباب العالي بواسطة السفارة الفرنسية عن الغرض من عبارات ذلك التلغراف مع أنه في ذلك الوقت كانت العلاقات الخصوصية بين المرحوم و خير الدين باشا معكزة مكدره من حين خروج الباشا المذكور

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ١٧

من وزارة تونس، و لم يصف ماؤها إلّا بعد ذلك التاريخ كما يدل عليه المكتوب الآتي:

«الفاضل الزكي الثقة المعتمد الشيخ سيدي محمد بيرم حرس الله تعالى كماله، و بعد:

قد وصلنا مكتوبكم في ٢٢ من الشهر و علمنا ما احتوى عليه من لذيذ الخطاب و نحن لله الحمد على ما يسر الاحباب من العافية التامة في أمورنا الحسية و المعنوية، و أما ما أشرتم إليه من الأحوال السالفة عن قدومنا لدار الخلافة فجوابه عفى الله عما سلف و السلام، من خير الدين في ٢٩ شعبان سنة ١٢٩٦ هـ.»

و من راجع تاريخ مكتوب صاحب الترجمة المذكور أعلاه و جواب المرحوم خير الدين باشا عنه و قارن بينهما و بين تاريخ انفصال الباشا المشار إليه عن الصدارة العظمى الواقع في ٩ شعبان سنة ١٢٩٦ هـ يعلم علم اليقين أنه في مدة صدارة الباشا المشار إليه لم تكن بينه و بين الشيخ بيرم أدنى علاقة و إن كل ما بناه إذ ذاك المرجفون بناء على علاقاتهما الودادية القديمة هو محض اختلاق، و كأن الوزير التونسي غفل أو تغافل عن حقيقة المأمورية التي أناطها بعهدة صاحب الترجمة فأرسل إليه تلغرافا رسميا إلى باريس نص ترجمته:

«من باردو في ٧ أغسطس سنة ١٨٧٩ الموافق ١٨ شعبان سنة ١٢٩٦ هـ من الوزير الأكبر إلى الشيخ سيدي محمد بيرم: شاعت الأخبار بأنك متداخل في أمور سياسته خصوصا و أنه لم يصدر لكم أدنى أمر فيها، و لذلك فإن سيدنا المعظم يأمركم صريحا بأن لا تتدخلوا مطلقا في هذه المسائل حيث أنكم سافرتم لمعالجة صحتكم و إذا انتهت مدة التداوي فارجعوا إلى تونس.»

ثم بعد ذلك ورد له مكتوب من الوزير بتاريخ ٢٥ شعبان جوابا عن مكتوبه المؤرخ في ١٢ شعبان و فيه يقول: «أما بعد السلام عليكم و رحمة الله و بركاته فقد بلغنا مكتوبكم الخصوصي و علمنا ما ذكرتم و ما وقع مع موسيو «غامبيتا» فمثلك من يعتمد عليه و على صداقته و أما كتمان السر فيكون مهنا لأن نفعه لنا و إنما الله يحقق الأمل من اتمام الوعد لأن القنصل في غاية القوة الخ.»

فلم يسع صاحب الترجمة بعد هذا الاضطراب في أقوال الوزير إلّا أن يستعفى من وظائفه فأجابه الوزير عن الاستعفاء بهذا المكتوب و نصه: «الفاضل الزكي المدرس الشيخ السيد محمد بيرم رئيس جمعية الأوقاف حرسه الله أما بعد السلام عليكم و رحمة الله، فإن ما عرضتموه علينا من طلب الاعفاء من رئاسة جمعية الأوقاف علمناه و من معلوماتكم أنكم كنتم طلبتم هذا منا قبل سفركم على خير فلم نسعفكم لذلك و الذي نعرفكم به أنني لم نزل على رأيي في عدم اسعافكم لما ذكر و نرجو الله أن يجمعنا بكم و أنتم على حال كمال و دمتم بحفظ الله و السلام، من الفقير إلى ربه أمير الأمراء مصطفى الوزير الأكبر عفا عنه في ٣ رمضان سنة ١٢٩٦ هـ.»

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ١٨

و في اليوم نفسه أرسل له مكتوبا آخر نصه: «أما بعد السلام عليكم و رحمة الله فإنه بلغنا كتابكم المؤرخ في ٢٥ الشهر الفارط متضمنا

ما نحن على ثقة منه من سلوككم الطريق المستقيم في أقوالكم و أعمالكم و تحرككم في الاجتماع من أن ينسب إليكم غير ما قصدتموه و لا يستغرب ذلك من مثلكم و نرجو الله أن يجمعنا بكم و أنتم على حال كمال و دمتم بحفظ الله و السلام».

و قد رجع صاحب الترجمة إلى تونس بعد الالحاق الشديد عليه من أصدقائه فوجد الحال متغيرا و ملامح الوزير تظهر الشر و مع ذلك فقد أبلغه صاحب الترجمة ما رآه و سمعه في باريس بخصوص المسألة التونسية و أراء رجال السياسة فيها، و من جملة ما بلغه أن الأخبار رائحة هناك بأن القنصل أقنعه بمساعدة فرنسا على مرغوباتها من ضم تونس إليها و في مقابلة ذلك تضمن للوزير ولاية العهد على الامارة و استيلائه عليها بعد سيده و نصحه بأن لا يغتر بهذه الترهات فإن القنصل إذا حصل على مرغوبه لا يوفى وعده للوزير و لا تعود الخسارة إلّا على البلاد و أهلها، و قد حقق الزمن حدس السيد بيرم فإنه لما دخلت فرنسا في تونس سنة ١٢٩٨ هـ لم تطل مدتها فيها حتى عزلت مصطفى بن إسماعيل عن الوزارة و أخرجته من البلاد بالمرّة و لم نوف له بما وعدته به بل نظرت إليه نظر الخائن، و كثيرا ما تكلمت جرائدها و أرباب الوجاهة فيها لتجريده عن نيشان اللجيون دونور الفرنساوى و هو حامل أول درجة منه، و بقى يتقلب متغزبا في البلدان تقذفه أمواج الذل و السؤال بعد أن صرف ما آذخره أيام عزه من الأموال الطائلة و أصبح:

يوما بحذوى و يوما بالعقيق و بالحديب يوما و يوما بالخليصاء

إلى أن جاءت به المقادير إلى القسطنطينية حيث تغاضت الدولة العثمانية عن ذنوبه و أبقتة يتنعم بلذيق الحياة و يتحسر على ماضى عزه و غين صفقته.

أما صاحب الترجمة فإنه بعد عودته إلى تونس من مأموريته توجه إلى (المرسى) للسلام على ولي عهد الامارة الأمير الحالى السابق ذكره، فوجد الأمير المشار إليه في مركبته أمام محطة السكة الحديد فاركبه معه و سارا إلى بستان الأمير فكبر هذا الأمر على مصطفى بن إسماعيل و أمر صاحب الترجمة بالكف عن التردد على ولي العهد، و كثرت الدلائل على سوء نية الوزير نحو السيد بيرم و تغلب دسائس موسيو «رستان» ضده حتى نصحه بعض الأصدقاء من خواص حاشية الباي بالسفر خارج المملكة لأن بقاءه في البلاد فيه خطر عليه، فطلب بعد عيد الفطر التوجه لأداء فريضة الحج خصوصا و قد تهدده الوزير بأنه إذا شاع الخبر الذى كان أعلمه به بخصوص مساعيه لولاية الامارة يلقيه تحت أعباء المسؤولية الثقيلة فامتنع الوزير من اعطاء الرخصة بالسفر و قد توسط حينئذ السيد الشريف نقيب الاشراف السابق في تونس للحصول على تلك الرخصة و بين للوزير عدم جواز منع المسلمين من أداء فريضة الحج و زيارة النبي صلى الله عليه و سلم، و للسادة الاشراف في تونس النفوذ الكبير و الكلمة المسموعة فالترم الوزير بالاجابة

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ١٩

و قد سافر صاحب الترجمة من تونس في ٢٦ شوال سنة ١٢٩٦ هـ و لم يعد إليها بعد و قصد مالطه و منها للاسكندرية و مصر القاهرة، و فيها تقابل مع الخديو المرحوم توفيق باشا و كان ذلك في ابتداء ولايته فقدّم له قصيدة في التهئة بالولاية و تاريخها.

و قد دار الحديث بينهما عن كيفية نظام اللجنة المالية الدولية المؤلفة في تونس لادارة أشغال الدين و عن النتائج التى أنتجتها، و هل البلاد متضررة منها أم لا؟ و كان ذلك بسبب ما اقترحتة انكلترا و فرنسا إذ ذاك على الحكومة المصرية من اقامة لجنة للمراقبة المالية، ثم أن المرحوم سار إلى الحجاز و قد تقابل في مكة المكرمة مع المولى الشريف حسين الأمير الأسبق و أكرم وفادته ثم بعد أداء فريضة الحج و المناسك توجه للزيارة في المدينة المنورة حيث أقام ثلاثة أيام و كان مرضه العصبى مشتداً عليه في الطريق و هناك توسل للحضرة النبوية بقصيدة طويلة طالبا من الله الشفاء للبدن و اللطف بالوطن و مطلع القصيدة:

إلى السدة العظمى شددت عزائمي إلى سدة الاجلال شمس المكارم

إلى باب خير الخلق خصصت وجهتى و من فضل باب الله أملت راحمى

إليك رسول الله قد جئت ضارعاو فضلك ممدود على كل قادم

فيا خير خلق الله جد لى بالرضا و آمن مخافى من عقاب المآثم

و يا أكرم الأمجاد هب لى توبه و أسس على التقوى قيام دعائى
و أنت ملاذى فى أمورى كلها فعمل شفائى من سقامى الملازم
ألا يا رسول الله طهر بلادنا فقد جار فى الأنحاء ظلما مخصصى
يريد خلاف الحق فى الخلق جائرا فنصحه رشدا لذا كان ظالمى
فعمل بانقاذ البلاد من الذى تأبط شرا و ارتدى بالمظالم
و فرج همومى و الكروب و علتى و ليس سواك يرتجى للعظام
و للعدل أن ينقاد كل ملوكنا لكيما يحل الدين أعلى العواصم

و من المدينة المنورة توجه إلى ينبع و سافر منها إلى بيروت مارا على خليج السويس و قد ذكر هذه الرحلة فى أول الجزء الخامس و
ما لاقاه فى سفره من كرم و اكرام صاحب السماحة السيد السند سلمان أفندى القادرى نقيب اشراف بغداد.
و لما وصل إلى بيروت لاقاه والى سورىة إذ ذاك المنعم المقام الجليل الذكر مدحت باشا بمزيد العناية [و] الرعاية، و احتفل به أعيان
المدينة من مسلمين و مسيحيين بما أبقى لهم فى نفسه الذكر الحسن و الثناء المستطاب، و كان المرحوم من جملة المشتركين
المساعدين فى جمعية المقاصد الخيرية التى تأسست فى بيروت لانشاء مدارس خيرية و قد زار تلك المدارس و لاقى من احتفال
الأساتذة و التلامذة و انشادهم القصائد و المقالات الرائقة بين يديه ما زاد ابتهاجه، و قد هنا الشاعر الدراكة البليغ المرحوم الشيخ
إبراهيم الأحذب بقصيدة شائقة ذات أربعة و أربعين بيتا مطلعها:
صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ٢٠ بدر العلى تاريخه (من غربه) فى الشرق أشرق نوره لمحبه
و منها:

من أين هذا الطيب هل ريم النقاليلاسرى ليدير راحة صبيته
أو جاء بيروتا محمّد بيرم من طيبة فذكت نوافح قربه
حيث الزمان على تلون طبعه أذى به كفارة عن ذنبه

و قد مدحه أيضا الأديب الفاضل و اللوذعى الكامل الشيخ أبو حسن قاسم أفندى الكستى البيروتى بقصيدة غراء منها:
به تونس الغرب استعزت و أحرزت بصحبته الفضل الذى ليس يجحد
يغار على الدين الحنيف لأنه خير به لا يعتريه التردّد
عليه من العلم الشريف جلاله يقوم لها الدهر الحسود و يقعد
و سيرته الحسناء فى كل موطن بألسنة الأيام تتلى و تنشد
و بعد أن أقام هناك أسبوعا رام فيه التوجه لدمشق الشام لرؤية معالمها العظام و ملاقاته السيد الأمير عبد القادر الجزائرى غير أن الوقت
لم يسعف بذلك لتراكم الثلج فى الطريق و تعطيله للسكة فتوجه تّوا إلى القسطنطينية و هناك ورد عليه مكتوب من الأمير المشار إليه
نصه:

«بسم الله الرحمن الرحيم - الحمد لله حمد المتوسلين. و الصلاة و السلام على سيد المرسلين. و على آله و صحبه آمين. من خادم أهل
الله عبد القادر بن محيى الدين الحسنى إلى جناب العالم الفاضل. و الهمام الكامل. صاحب المقام السننى. الشيخ السيد محمّد بيرم
أفندى المحترم. أدام الله عليه سوايخ النعم. أما بعد اهداء تحية مقرونه بالاخلاص و التكريم. و أدعية متواليه بدوام نفعكم العميم
فالموجب لتحريره أولا السؤال عن راحة وجودكم السعيد. و الابتهاج بسماع حديثكم المجيد. و ثانيا قد بلغنا من ولدنا عبد القادر
أفندى الدنا سلامكم. و مزيد محبتكم و و دادكم. و حصل لنا بذلك تمام السرور. زادكم الله نورا على نور. و رغبة بربط أسباب
المودة بجنابكم. و استجلاب بدائع خطابكم. و مجاب دعائكم على الدوام. تحررت لكم هذه الأرقام. و عليكم السلام فى ١٦ جمادى

الأولى سنة [١٢٩٧ هـ].

المخلص عبد القادر الحسنى

و كان المرحوم قبل توجهه إلى الاستانة أرسل مکتوبا بواسطة بعض خواصه للوزير بتونس نصه:

«الصدر الهمام أمير الأمراء جناب الوزير الأكبر سيدى مصطفى أطال الله عمره أما بعد السلام التام، فإنى قضيت المناسك و لله الحمد و لم أستطع المبادرة بالرجوع إلى الوطن

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ٢١

لأنى فى اضطرار إلى اراحة البال و البدن للأسباب التى تعلمونها حقاً، فلزمتنى مراعاة الحال إلى أن ينفس الله الكرب لقوله تعالى: وَ لَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ [البقرة: ١٩٥] و الله حفيظ و ولى من يتوكل عليه و السلام فى غرة صفر سنة ١٢٩٧ هـ.

إلا أن هذا المکتوب لما بلغ تونس منعه أعباء صاحب الترجمة و خواصه من الوصول ليد الوزير و بقى المرحوم فى وظائفه إلى حين وصوله للاستانة، و لما ورد خبر وصوله إليها أسرعت الحكومة التونسية بتوجيه جميع وظائفه إلى غيره، و هو المرحوم الشيخ أحمد الورتانى. و مما يجمل بى ذكره هنا أن عائلة صاحب الترجمة رأت من مكارم أخلاق هذا الخلف و حسن تودده و تطفه بها ما يندر وجود مثله فى العصر السالفة فضلا عن هذا الزمان فى وقت اضطهاد الحكومة لسلفه و مراقبتها الشديدة لكل ما يتعلق به، ثم إن صاحب الترجمة لما استقر بدار الخلافة مدح الحضرة السلطانية بقصيدة مطلعها:

النصر و التأييد و العمر المديد قد توجت فى عرشها عبد الحميد

و أرخ سنة الجلوس الشاهانى بقوله:

بشرى الولاية قد أتت تاريخها للخلافة يسنى بها عبد الحميد

و لم تطل الأيام حتى أرسل الوزير التونسي يطلب من الباب العالى ارجاع الشيخ بيرم إلى تونس مدعياً أنه سافر بدون رخصة الحكومة و لم يقدم حساباً عن ادارته فى الأوقاف و الواقع و نفس الأمر أنه لم يطلبه إلا بالحاح قنصل فرنسا عليه من جهة لأن فرنسا لا تحب حصول الارتباط بين تونس و الدولة العلية بأى وجه من الوجوه، حتى أنها من بين سائر الدول لم تعترف بفرمان سنة ١٢٨٨ هـ المقرّر لتابعية تونس للخلافة الإسلامية، و من جهة أخرى قد خشى الوزير من التحام صاحب الترجمة بخير الدين باشا و افسادهما مساعيه لتولى الامارة و اطلاع الدولة العثمانية على دسائسه و سوء سياسة الحكومة التونسية فى مدّة الصادق باى لأنه سلم جميع الأمور بيد وزيره العديم الخبرة، و قد بذل مصطفى بن إسماعيل جميع مجهوده و أغرى بعض كبار الرجال فى الاستانة لمساعدته على اخراج الشيخ بيرم منها غير أن حكمه مولانا أمير المؤمنين و عدالته حالت بين صاحب الترجمة و بين أعدائه و أصدر أمره العالى بأنه: إذا كانت هناك دعوى على ناظر أوقاف تونس المقيم بالاستانة فلترفع فيها إذ أن تونس لم تخرج عن كونها من الولايات العثمانية التى تجتمعها جامعة تخت السلطنة، و بذلك سكت مصطفى بن إسماعيل عن دعواه الفاسدة.

أما أولاً: فلان صاحب الترجمة لم يخرج من تونس إلا بجواز (باسبورت) رسمى ممضى عليه من الوزير نفسه بصفة كونه وزير الخارجية لم يزل محفوظاً للآن، و قد حضر لوداعه يوم السفر كثير من كبار رجال الحكومة بما فيهم وزير البحرية و أعد له بأمر الوزير الأكبر زورق خصوصى من زوارق الباي لتوصيله للباخرة، و قد أوصاه الوزير بمحضر جمهور عديد من التونسيين لاحضار بعض هدايا من الحرمين المحترمين، هذا ما يتعلق

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ٢٢

بالسفر و أما حساب الأوقاف فقد جرت العادة بنشره سنوياً فى الجريدة الرسمية «الرائد التونسى» و لم يتأخر نشره قط و هو محفوظ فى مجموعة الرائد يمكن مراجعته. ثم إن صاحب الترجمة قبل سفره للحجاز أخذ براءة من مجلس ادارة الأوقاف ممضى عليها من جميع الأعضاء و من أمين الصندوق و هى حجة قوية ناطقة بأن لا شبهة فى الحساب و لا شىء من أموال الأوقاف باق فى ذمة الناظر و تلك

البراءة هي بنصها بالحرف الواحد:

الحمد لله و صلى الله على سيدنا و مولانا محمد و سلم:

ريالات فضة

اطلعت الجمعية على حساب دخلها و خرجها سنة ١٢٩٦ هـ التاريخ بانضمام حسابات السنين السابقة إليها، فكانت جملة الدخل ثلاثمائة ألف و ثلاثة و خمسين ألف ريال و تسعمائة و تسعة و ثلاثين ريالاً و نصف ريال و عشرة نواصر فضة، و جملة الخرج ثلاثمائة ألف و أربعة آلاف و ثمانمائة ريال و ثمانين ريالاً إلا ثمانية نواصر و نصف ناصري فضة الذي بتذاكر الجمعية، و كان الفاضل ما قدره تسعة و أربعون ألف ريال و ستون ريالاً إلا سبعة نواصر و نصف ناصري فضة أخرج منه الرئيس ثمانية آلاف ريال و ستمائة ريال و خمسة و عشرين ريالاً فضة صرف خمسة آلاف فرنك صرفت في مصالح الدولة و خرجت فيها تذكرتين منها لقبضها يدفعها مصروفاً على يد الوزير الأكبر و لم يدفعها القابض إلى الآن إحداهما: تذكرة مؤرخة في ٢٧ القعدة من عام ١٢٩٣ هـ عدد ٤٦١٩ بها ألفا فرنك اثنان، و ثانيتهما: مؤرخة في ١٥ الحجة سنة ١٢٩٥ هـ عدد ٣٥٦٩ بها ثلاثة آلاف فرنك، و لما كان الفصل الواحد و العشرون من ترتيب الداخلية للجمعية قاض ببقاء المفتاح الثالث للخزنة الثانية عند الرئيس، و الفصل السابع عشر من الترتيب المذكور قاض بأن كاهية الجمعية يقوم مقام الرئيس عند غيبته و قد أراد الرئيس السفر إلى أوروبا فبمقتضى ذلك أبقيت تذكرتا الدولة المذكورتان بالخرزنة الثانية المذكورة و سلم إلى الكاهية مفتاحها الثالث بمحضر الجمعية بعد اطلاعها على الحساب المذكور و سلامة ذمة الرئيس مما في عهده، و كان الباقي تحت يد أمين مال الجمعية أربعين ألف ريال و أربعمائة ريال و خمسة و ثلاثين ريالاً إلا سبعة نواصر و نصف ناصري فضة، و كتب في ٢٠ يونيه الموافق لرجب الأصب ١٣ من عام ست و تسعين و مائتين و ألف.

صح أحمد الورتتاني صح محمد بن الأمين

صح محمد الشاذلي السنوسي صح من محمود بن سالم

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ٢٣

هذا و قد خرج صاحب الترجمة من القطر التونسي و ترك وظائفه فيه و لم يكسب منها شيئاً مع أنه كان يسهل عليه كثيراً في تلك الأوقات الدخول في أبواب الكسب بلا معارض و لا ممانع كما جرت به العادة عند الكثير محافظةً منه على الاستقامة و احترام الحق، لا سيما و الأوقاف لم تكن في بادئ أمرها مضبوطة و لا معلومة فأمرها في الواقع موكل لذمته و طهارة نفسه فكان كثيراً ما يلتزم ببيع أملاكه و عقاراته لتسديد مصاريفه الواسعة حتى أن مصاريف سفره الأخير لباريس حيث توجه بمأمورية من طرف الوزير التونسي تحمل بها من عنده و بلغت أربعة عشر ألف فرنك مع أن الوزير المذكور وعده بتسديدها و لم يوف بعد.

و لما استقرت إقامته في دار الخلافة وجد المرحوم خير الدين باشا مهتماً بتقديم تقرير بشأن الإصلاحات المقتضى إدخالها في نظام الدولة العلية لزيادة سطوتها و تأييد عظمتها على حسب ما يفتكر، و قد انتهى التقرير المذكور بالفعل غير إنه لم يحز محل القبول لأنه لم يكن مطابقاً في بعض وجوهه لاحكام الشريعة الغراء فأخذ الشيخ بيرم في تطبيقه عليها، و لما انتهى منه حصل تقديمه للحضرة السلطانية و من ذلك الحين شملته الأنظار الشاهانية بعين ملاحظتها لدقة علومه و اتساع معارفه ثم أنه تفرغ لتدوين «صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار» و تم الجزئين الأولين منه، و كان يقصد تقديمه للحضرة المعظمة المشار إليها عند إتمامه خصوصاً و هو شارع في جعل خاتمة الكتاب المذكور على نحو مقدمتي: «ابن خلدون» و «أقوم المسالك»، أي أنها تتضمن ما يقتضيه الحال لإصلاح الأحوال في البلاد الإسلامية لعود عصر شبابها إليها كما هو غرضه الوحيد الذي يدأب له منذ زمان و يتحمل في سبيله كل مشقة و عناء، و قد تحسنت صحته إذ ذاك و استراح من اتعاب المرض و كاد أن يشفى منه تماماً حتى أن استعماله المرفين قل بحيث بلغ درجة تقرب العدم و بينما هو على ذلك الحال متنعم البال منتظراً الرحمة من الله بانقاذ بلاده من حكومتها الجائرة إذ ذاك و قد اعتذر عن العمل بمقترحات اقترحها عليه الموسيو «فورنييه» سفير فرنسا في ذلك الحين حاصلها الرجوع إلى تونس تحت كنف فرنسا أو

الإقامة بالجزائر أو بباريس إذ فاجأته الأخبار بزحف العساكر الفرنسيّة على الحدود التونسيّة و ابتداء حركة «خمير» المخترعة. نعم إن الشيخ بيرم كان عالما بما ستؤول إليه البلاد من السقوط في يد فرنسا و لكنه لم يكن ينتظر حصول ذلك في العصر الحاضر و كانت في تلك الأثناء ترد عليه مكاتبات من بعض أجبائه التونسيين و غيرهم بما يحصل في تونس من تلاعب الوزير بين قنصلي فرنسا و إيطاليا و إرضائه أحدهما يوما و اغضابه الآخر يوما ثانيا، و كان الشيخ ينصح مكاتبيه و محبيه بتجنب هذه الألعاب المضرة خصوصا تظاهر الوزير بالميل الفجائي لإيطاليا و اغضائه مرة واحدة عن فرنسا حتى إنه أهان كرامتها لأن ذلك لا تؤمن عواقبه، و لم يمض على ذلك شهر حتى أيدت الوقائع ما كان يخشاه و ليس من غرضنا تكرار كتابة ما حصل في ذلك العهد لدخول فرنسا إلى تونس و إعلان حمايتها عليها، إذ أن ذلك تكفلت به كتابات غيرنا و لكننا نقول: إن الحضرة السلطانيّة أصدرت أمرها لخير الدين باشا و لصاحب الترجمة

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ٢٤

بتقديم ما يريانه في هذه المسألة لجانبها و قد كتب صاحب الترجمة في ذلك تقريرا مفصلا لخص فيه بيان حقوق الدولة العليّة على البلاد التونسيّة و ارتباطاتها بها قديما و حديثا، و استنهض همم الدولة لإنقاذ تلك المملكة المسلمة حيث أنها مرقد المجاهدين و مدفن الصحابة و التابعين من الوقوع في يد دولة أجنبيّة و ختم التقرير بنتيجة ما يراه و هو:

إنه إذا كانت الدولة تشغلها شواغل الحرب الروسيّة و عواقبها من انقاذ تونس بالقسر من مغتصبها، فلا أقل من إنه يلزمها التحالف مع دولة أجنبيّة أخرى للتساعد بها على نيل ذلك المرام و لو اقتضى الحال التنازل لها عن مدينة واحدة مثل «مينا بنزرت» في مقابل هذا التحالف و كانت الدولة جرت على مثله مرارا عديدة، فإن خسارة مدينة واحدة خير من خسارة مملكة برمتها و قد كان الشيخ بيرم يكتب هذا التقرير و الدموع تفرح عينيه و الألم العصبي الذي تحرك و تجدد يفتك بجسده، و كان يكرر القول على جلسائه بأن لا حذر مما قدر لا سيما و أن الفرصة المناسبة للدولة قد فاتت و هذا الزمن زمن قتال لا وقت جدال، و سيأتي ذكر هذا التقرير في مجموعته منشآتة و رسائله.

و لما رسخت قدم فرنسا في البلاد يئس المرحوم من قرب العودة إليها و رام التقرب من عائلته للمخابرة في شؤون بيع ما تبقى من أملاكه و نقله العائلة من تونس إلى بلاد أخرى، فسافر إلى إيطاليا لذلك الغرض و أقام في مدينة «ليفورنو» لقربها من تونس، و كان مدة إقامته في الأستانة معاشر لاهلها و خصوصا أبناء العرب منهم معاشره الصفاء و الإخلاص متباعدة عن المزاحمة في طلب المناصب أو التداخل فيما لا يعنيه، و لم ير منهم آلا ما يسره و كان السيد سلمان القادري رجع من القسطنطينيّة إلى بغداد فلما استقرّ بها كاتب صاحب الترجمة بما نصه:

«كتابي هذا و أنا ممتلى من الأشواق، و مضطرب لما لها من الاحراق، كيف لا و حب ذلك المولى الأجل. و النجيب الأفضل، قد أخذ بمجامع القلوب و أحاط بالفكر على أتم أسلوب، لمزيد ما انطوى عليه من الأوصاف الحميدة، و المكارم السديدة، مع طبع رائق، و علو جناب فائق، و شهامة كاملة، و نجابة فاضلة، و علم وافر، و فضل متكاثر، فكل فضيلة به حريّة، و كل مفخرة له سجيّة، و ليكن معلوما لسيدى أدام الله تعالى بقاه، و أناله كل ما يتمناه. بأنى لم أخل ذكر ثنائه الجميل من لسانى، و لم ينفك تخيل شخصه المنير لحظة عن جنانى. بل لا زلت آنسا بما ذكرته من الذكر و الخيال. مفتخرا بما خصلته من محبة ذلك المولى النبيل بين الأحباب في جميع الأحوال، ثم إنى و إن قدمت من قبل هذا عريضة لم أخط بجوابها من ذلك الجناب الرفيع لكنى أبدى عذرا لما وقع من القصور مدة من عدم ترديفه بكتاب آخر إذ ترادف العرائض. معدود لدى من جملة الفرائض. فلم يكن التأخير المذكور ناشئا من قصور في المحبة. و لا عن تقصير في العلم بعلو الدرجة و المرتبة. بل ذلك نوع من التقدير. و وجدانك القوى عالم خبير. يصدّق ما يدعيه هذا الخالص الفقير.

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ٢٥

فالمرجو من بعد هذا أن تستمر المراسلات في البين. و ينقطع بوجودها البين. أفندم».

في ١٩ جمادى الأولى سنة ١٢٩٩ هـ. الداعي پوست نشين حضرت كيلاني نقيب بغداد السيد سلمان القادري و قد كان صاحب الترجمة على عادة أهل تونس و على ما امتاز به من التشيع الكلى لآل البيت النبوي الكريم يميل ميلا خاصا للسيد المشار إليه لنسبه العالى و حسبه الغالى و فضله المتلالى، حتى إن ذلك كان من جملة البواعث على الإيقاع به تشفيا من سيادة السيد النقيب حرسه الله و مع ذلك فقد كان المرحوم يسعى جهده لجعل علاقاته مع جميع من يعاشره من العرب و غيرهم فى الأستانة على أحسن ما يكون من المجاملة و حسن المعاملة، و كان مع صاحبي السماحة السيد أحمد أسعد أفندى و السيد أبى الهدى أفندى على قدم الوداد و حسن الإعتقاد، كما يظهر من آثارهما المحفوظة لديه و نذكرها هنا تبركا بهما و افتخارا بوجهما:

«أخذت يا بهجة الفضلاء. و قرّة أعين العلماء. كتابكم الكريم. و أمركم المحترم الفخيم. و اطلعت على رسالتكم الجميلة الشاهدة لحضرتكم بأيادى العلم الطويلة. و إنى بحمده تعالى ممن يحب أن يسدى المعروف لأهل الفضائل. سيما لمثل حضرتكم من أرباب المزايا العلية و الفواضل. فإذا وفق المولى نقوم بتقديمها لمحلها. و دتمت أرباب المناقب و أهلها».

الداعي (أبو الهدى)

«قدوة الأماجد الكرام. ذو الفضل و الإحترام. محبنا العزيز السيد محمد بيرام. حفظه الله آمين و بعد مزيد السلام. مع التحية و الإكرام. نعرف سيادتكم هو أن الساعة ثلاثة و نصف فى يومنا هذا لازم تشرفونا فى البيت مع نجلكم المكرم لأجل أن نتبرك بكم. هذا ما لزم و دتمت. فى عز و سرور. و أنعم حبور فى ٧ ذى القعدة سنة ١٣٠٠ هـ».

الداعي (أحمد أسعد)

و بعد أن اتفق صاحب الترجمة مع عائلته على العود إلى الأستانة و السكنى بها حيث لم ير محلا انسب منها من بلاد الإسلام و لا تليق السكنى بعائلة مسلمة فى بلاد أجنبيّة مع أنه كان يخطر فى بال بعض التونسيين إذ ذاك التوجه فى عدد كبير إلى أمريكا للإستيطان بها، غير أن هذا الفكر لم يمكن تنفيذه لصعوبات حالت دونه فقصد المرحوم التوجه إلى

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ٢٦

القسطنطينية و عرج على جنيفا من بلاد سويسره حيث أبقي كاتب هذه الأحرف فى إحدى مدارسها المعترية، ثم قصد ويانه و بلاد المجر و الصرب و رومانيا حيث أقام ليلة فى بخارست و منها توجه إلى وارنه من أعمال البلغار و منها ركب الباخرة قاصدا دار الخلافة حيث لم تتصل السكة الحديد إذ ذاك بينها و بين أوروبا.

و قد قاسى فى هذه السفرة آلام البرد و اتعاب السفر الذى حق فيه القول بأنه قطعته من العذاب خصوصا و لم يكن صاحب الترجمة يتكلم بلغة أجنبيّة إلا بعض كلمات فرنسوية و ليس فى النمسا و لا فى البلاد التى عرج عليها كثيرا ممن يتكلم تلك اللغة و كان يسرع المسير للوصول قبل عائلته إلى الأستانة لتحضير محل لنزولها، و قد وصل إليها قبل العائلة بنحو يومين أو ثلاثة و بعد أن استراحوا قليلا فاجأهم ذوو الدسائس و الأغراض بوشايات أوغرت الصدور على صاحب الترجمة. و كادت أن توقعه فيما لا تحمد عقباه و كان مبنى تلك الوشايات على حصول الحركة العرايية بمصر أثناء وجود الشيخ بيرم فى أوروبا فبنى عليها أصحاب الأغراض أقوالا فاسدة و مزاعم بعيدة منشأها الحقيقى حزازات فى صدورهم من الحسد له و بغية الإيقاع بأرباب المناصب من أصدقائه و أحبائه فأرادوا الإنتقام منهم بالإساءة إلى صاحبهم و جعله محل تهمة يستخرجون منها ما يروج غرضهم فى النكاية بأولئك الرجال فالتزم هذا المهاجر بدينه إلى دار الخلافة الإسلامية أن ينزوى فى بيته و يلازمه مدة تقرب من الستة أشهر لا يخرج منه إلا لقضاء الضرورى أو أداء فرض عين كصلاة الجمعة و قد رأى فى تلك الأثناء من تودد الهمام الأبر الصالح الورع الشيخ محمد ظافر أفندى المدنى و تطفف الفريق الغيور الحاج حسن باشا محافظ مركز بشكطاش محل سكنه و كلاهما من أقرب المقرّبين للذات الشاهانية المخلصين لها فى السر و العلانية ما أطلق لسانه بالشكر و قلبه بالدعاء الصالح لهما.

والحق يقال أن الحضرة الخاقانية لم تفتقر عن شمول صاحب الترجمة بعين رعايتها وكثيرا ما كان أمير المؤمنين نصر الله به الدين يظهر علائم رضائه وصفائه عليه حتى أنه لما أراد يهدى إلى أمبراطور المانيا فريدريك الثالث وكان إذ ذاك ولي العهد بعض جياذ الخيل أمر أحد الأعوان أن يتوجه إلى الشيخ بيرم ليكتب رسالة عريته يصحبها المأمور السلطاني معه عند ذهابه إلى برلين ليقدمها مع الخيل إلى الأمير المشار إليه وكان ذلك بعد صلاة يوم الجمعة الثالث والعشرين من رجب سنة ١٢٩٩ هـ وكان يطلق عليه عند ذكره من ألقاب العناية ما يستدل به على قرب منزلته من خليفة المسلمين وبمجرد وصول جلالته إلى قصره الفاخر بيلدز بعد صدور ذلك الأمر جاءه الرسول بالكتابة المطلوبة فسر بها كثيرا واثني على كاتبها. وتلك الرسالة هي:

«الحمد لله بديع الخلق كما شاء وأراد. جاعل الصافنات الجياذ. عدة مستمرة من أهم آلات الإستعداد. و صلاته و سلامه على رسوله متمم مكارم الأخلاق. الحاث على الفروسيه

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ٢٧

واقثناء الخيل العتاق. و على آله و أصحابه فرسان ميادين الوفاق». أما بعد: فلا يعزب عن نباهه نبيه. و درايه خبير في المعارف وجيه. ما للخيل على الإطلاق من المزية. في المنافع البشريه. بسائر الآفاق. حتى ورد في الخبر الشهير: «الخيل معقود بنواصيها الخير» لا سيما نوع العراب منها. الجامعة لأشتات المحاسن فلا مندوحة لأهل الفضل عنها. ألم تر أنها قد حوت جمال الصورة و استقلت بالحذق و تهذيب الأخلاق المشكورة، فكادت أن تشارك النوع الإنساني في الإدراك. و فضلت سائر أنواع الحيوان بلطافة الذات و المزية في مواطن العراك. ألا و هي و العاديات صَبِحًا [العاديات: ١] فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا [العاديات: ٣] متوسطة الجموع، مستشرفات الفروع. مبلغات الآمال، مقربات الشواسع لهمم الرجال. فلذلك توجهت إليها عناية أهل الفضل، و تسابقت إليها الرغبات في الخصب و المحل، و لم تزل كريماتها محفوظة الأنساب، متوارثة الخصال الحميدة من الأجداد إلى الأعقاب. لا يأتلى أهل العناية عن اقتنائها، و معرفه أصلها و نسبتها و انتشائها. و يفوز عليها بالمزية ما صلح منها لاقتناء الملوك العظام، سيما ما اختص بأن يعتلى صهوته خليفة الإسلام. لا زال تاجا على هامه الأيام، و ما تختاره إليه العرب من صفوة جياذها الكرام.

و على الخصوص ما تميز بإهدائه. لخلاصة أهل ولائه. من الملوك الفخام. و كان منها هاته الخمس الجياذ. العتيقات الأعراق الأمجاد. ثلاثة منها عراب الآباء و الأمهات، و اثنان من خلاصة الأعاجم الوطن و إن ناكبت العراب في الصفات. و قد تحرر هذا التحرير في التعريف بأصولها. و ما جمعت من سمات الكمال و فصولها، فأما الثلاثة العراب، السابقة القرين في العراقة و الإنتساب. فأولها: اشقرا المبارك، الذي لا يدانيه في استجماع المحاسن مشارك، و اسمه المجلى، و قد طابق اسمه مسماه إذ هو لمفاخر الخيل مجلى. و هو من جياذ نجد العرييه.

الشهيرة الصفات و المزية، سقلاوى القبيلة، شامل لما يحمد في أمثاله من الفضيلة، كل سلسلة أصوله من قبيلته المحموده، و كلا أبويه متفرع من ذلك القبيل إلى حدود كثيرة معدودة، مسماء أجداده و جداته، خالصة من اشتباه النسب و كمالاته. و أما ثانيها: و هو الأشهب، الجاعل أبعد القصبات الهين الأقرب. و اسمه السابق، فهو مناكب متقدمه في جميع صفاته حتى غدى به لاحق، سوى أنه استعوض عن النجديه، بأن كان من العراق العرييه، و لا يخفى ما لعتاقها من شهرة المزية، سيما في حفظ النسب

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ٢٨

من الإختلاط. و انتساق عموده على أقوم صراط، لاجرم أن كان وحيد أقرانه. بنباهه شأنه.

و أما ثالثها: المسوم. و هو الأحمر المستكمل المقوم. و اسمه أبو ليلي، فقد جمع لما في جياذ الخيل يتلى. إذ هو من صنف كحيل العجوز، الذي هو لصفات العتاق من العراب يحوز. و على من جراه في ميادينها يفوز، فهو لا يجارى إذا ما ضم. لأنه من خلاصة خيل قبيلة شمر.

فلعمري أن هاته الثلاثة و إن اختلفت أنسابها، فقد اتحدت عراقتها و أحسابها، و كل منها قد استكمل صفات الجودة و الفضيلة، و

استتبت فيه محامد كل الخصال الجميلة. فلا بدع أن تبعها ما يكمل به عدد الخمس، مما تنبسط له الروح و تنشرح به النفس. و هما الفرسان الأخضران، اللذان استكملا صفة العتاق و لو أنهما أعجميان. و هما من جزيرة مدلى الشهيرة، ذات النقطة المهمة من البحر الأبيض الفاترة بالخيال ذات المناقب الخطيرة، و هما و إن افترقا هيكلًا. فقد تفردا منظرا مجملًا. إذ هما فرسا رهان، متحدًا الأخلاق و السمات و الألوان. فاستكملت هاته الخيل مزايا التناسب، و كانت لها جهة ملائمة بما للمتهادين من التوادد المتقارب».

و قد كان السلطان أرسل له قبل ذلك أيضا كتاب الشفاء لابن سينا فى نسخة جميلة لتفحصه و تقديم كتابه بضمونه، و بعد مدة من الزمن صفا فيها الجوّ للشيخ بيرم من رمى الأعدى و حسد الحساد زاد السلطان فى إكرامه باحتساب مصاريف إقامته فى الأستانة على خزينة الدولة باعتباره ضيفا من ضيوف الحضرة السلطانية و ذلك بأن تدفع نظارة المائئة أجره المنزل و لوازم البيت و قدرت فى الشهر بخمس و عشرين ليرة عثمانية و قد استمر صرف هذا المرتب مدة ثمانية عشر شهرا أى لحين خروج صاحب الترجمة من الأستانة.

و قد بادر المرحوم بكتابة المکتوب الآتى لأداء واجب الشكر على هذه العناية السلطانية و نصه:

المقام الذى أناخت به مطايا البيان و استقرت، و اعترفت البلاغة بأنه وحيد عصره و أقرت. و عضد اليراع اشهادها إذ كان بعد أن جست يدها استطاعته و تقوّت. فلا بدع أن ابصرت به عين الوزارة و قرت، و كان يمين الخلافة المؤتمن منها على ما تشا. ألا و هو صاحب الدولة على رضا باشا. باشكاتب الحضرة السلطانية، افاض الله عليه آلاءه القدسيّة، أما بعد، سلام تحمله أيدي التعظيم. و تحفه آداب الإجلال و التفخيم. فقد بلغ العبد ما حصل له من عناية مولانا صاحب الخلافة العظمى، و السلطنة الباذخة المجد الشمى. فوقع منى هذا الإنعام الموقع الذى ليس وراءه حد فى الإعجاب، و هزنى السرور حتى أعجزنى عن التلفظ بالخطاب. كيف لا و قد لاجت من ذاك الإنعام بفضل الله علائم اخلاصى فيما اقتحمته من مفارقة وطنى و كسبى و عشيرتى و خواصى كما كنت بسطته لدى جنابكم قبل أن تحدث على وطنى الطامة الكبرى. المرجو من الله أن يبدل بأمر المؤمنين عسرهما يسرا. من أنى أعد عملى قربه لله جلّ و على، إذ فى ذمتى و رقبتي بيعه لأمر المؤمنين لا تبلى. و لا

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ٢٩

يجوز لى شرعا أن أبتغى بعد الحميد سلطاني بدلا. فقد ورد فى صحيح البخارى: «من خرج عن السلطان قيد شبر مات ميتة جاهليّة» فلم أبالى لذلك بالمضادات الوطنية و الخارجية. و استقرت فى ظل الخلافة الإسلامية. إلى أن غمرتنى الإنعامات الخاقانية، فكيف لا أظير لهذا الإنعام سرورا. و هو علامة بإرادة الله تعالى أن تنال النفس الرضى موفورا، فقلت يا نفس قرى عينا، وردى من مناهل أمير المؤمنين عذبا معينا، فها أنت شاهدت قسطاس عدله، و أين أنت من جوده و فضله، و فوق ذلك أطفاف العناية. التى ليس وراءها للتطلب من غاية. فحسبى حسبى، و لتتوجه ضارعا إلى ربي. بشرائى لبي، و اخلاص قلبى، و نقول اللهم يا من تجلى بجلائل نعمائه، و يا من احتجب برداء كبريائه. يا من توجهت إلى جنبه الأقدس عزائم الآمال. و يا من تعلقت بعميم جوده أطماع السؤال، نستوهبك من الصلوات و التسليمات، ما يناسب من فضله على جميع المخلوقات، و أنرت به أقطار الأرض و السموات، سيدنا و مولانا محمّد خاتم الرسالة. و منار الدلالة. و تنظم فيهما معه صحبه الكرام و آله. و نتضرّع إليك اللهم أن تكسو هاته الدولة العلية العثمانية حلة النصر، خافقه أليوة عدلها إلى آخر الدهر، مؤيدة أعلامها. مكتوبا على صفحات الأيام إجلالها و اعظامها، بتأييد أسد غابها. و إمام محرابها، قره أعين المسلمين. مولانا أمير المؤمنين. المحفوف بالتأييد الربانى، الخليفة الأعظم السلطان عبد الحميد الثانى، اللهم و كما جعلته منخرطا فى سلك المدح من رسولك عليه الصلاة و السلام لامراء القسطنطينية من آله الكرام حسبما هو فى الصحيح المأثور. فاجعله اللهم مظهرا لوعدك حيث قلت و لَيُنصِرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَ آتَوْا الزَّكَاةَ وَ أَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَ نَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَ لِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ [الحج: ٤٠، ٤١].

و أطل اللهم فى طاعتك عمره، و اجعل السداد و الصلاح فيما دبره. منكسه أعداؤه على الأعقاب. مستبشرة أعباؤه بعمله المستطاب. و ألسنتهم بالدعاء إليه صادحة. خاتمين ضراعتهم بأسرار الفاتحة. و بعد أن انتظمت دعواتنا بمشيئة الله فى سلك الإجابة. و احرزت من

حضرها موقع الإصابة. حان لعصابة الشكر و الحمد و الثناء أن تكون لسدة أمير المؤمنين أيده الله مصروفة. و من البديهي أن وقوعها موقع القبول لدى جلالته على حسن تمهيد مثلك أيها الوزير بعد الإعتماد على الله تعالى موقوفة. فلتور لها زناد الحمية. من تلك الغيرة الرضائية. لا زلت صاعدين مدارج السعادة في العناية السلطانية».

و في تلك المدة تفرغ الشيخ لتأليف الجزء الثالث من «صفوة الإعتبار» و تحرير رساله سماها «التحقيق في مسألة الرقيق» بحث فيها عن كيفية معاملته الرق عند المسلمين بمقتضى

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ٣٠

الشريعة و بيان أسباب الرق و دواعيه و أحكامه و ذهب فيها إلى أن العبيد المباعين الآن هم أحرار و أن منع الحكومات الإسلامية لتجارة العبيد هو شرعي محض لا يحتاج الحال فيه لطلب الدول الأجنبية، و قد حرر قبل ذلك جوابا علميا لبعض نبلاء الإنكليز عن سؤال وجهه إليه مضمونه: هل أن التونسيين مسرورون من دخولهم تحت دولة أجنبية؟ فأوضح السيد بيرم في جوابه بأن التونسيين ليسوا أقل الأمم حبا في الإستقلال و التنعم بلذائده و الغيرة على الوطن، و أنهم مسلمون يتمنون بكل جوارحهم دوام صلتهم بالجامعة الكبرى الإسلامية و استدلل على ذلك بأدلة عقلية و نقلية طويلة مقنعة، و قد كانت من عادة صاحب الترجمة منذ كان في تونس أن يحتفل كل سنة بالمولد النبوي الشريف احتفالا شائقا واطب عليه لحين وفاته، حتى أنه كان آخر أعماله في هذه الدنيا رحمه الله. و في كل سنة يكتب رساله مخصوصة في موضوع من المواضيع العلمية يتخلص فيها لذكر المولد الشريف و قد ألف في الأستانة رسالتين لذلك الغرض إحداهما: فيما يجب لآل البيت النبوي الكريم من التبجيل و التعظيم، مبينا حقوقهم على المسلمين بشرط ثبوت النسب العلى حتى لا يدخل في هذه السلسلة السامية دخيل تترتب له تلك الحقوق الواجبة. و ثاني الرسالتين: فيما يجب للنبي صلى الله عليه و سلم على سائر المسلمين.

و ألف رساله أخرى في سكنى دار الحرب و ذلك عندما رأى ما طرأ على بلاد الإسلام من التقهقر المستمر نسأل الله اللطف و السلامة، و قد ذهب في هذه الرسالة بعد شرح ما عليه البلاد الإسلامية الآن الشرح الكافي و إيراد الأدلة و النصوص الشرعية إلى أن الإنسان حر فيما يختاره حسب مصلحته و اجتهاده. و قد سأله بعض الأفاضل عن رأيه في مسألة الإجتهد و التقليد مستندا على الرسالتين المطبوعتين في الأستانة المنسوبتين لمملك بهوبال صديق حسن خان فشرح في الجواب غير أنه لم يتمه، و يظهر من فحوى كلامه و أعماله الخصوصية أنه يرى تقليد أحد الأئمة الأربعة واجبا على حسب المشهور في مذهب أهل السنة.

و لما تولى أمير تونس الحالي منصب الأمانة هناك الشيوخ بيرم بمكتوب مصدر بهذين البيتين:

ألا بعلى ملك تونس سدّادفلا زال فخرا للبلاد مويدا

و نجح دعائي بأن إذ قلت أرّخن ألا بعلى ملك تونس سدّاد

و قد توجهت في ذلك الوقت آمال أحياء قائل هذين البيتين لرجوعه إلى تونس إذ أن نفوره الذاتى كان من الوزير مصطفى بن إسماعيل الذى أفل نجمه بوفاة سيده الصادق باى و لم يبق من مانع له من العود إلى بلاده و مسقط رأسه و مدفن أجداده خصوصا و «رستان» نائب فرنسا استبدل بغيره، وصفا الوقت و زال المقت. فكاتبه بعض المتشيعين للسفارة الفرنسية بتونس بمناسبة الفرصة لا سيما و قد كان وعد الأمير عند توديعه و هو إذ ذاك ولى العهد بالعود إلى الوطن عند ولايته عليه، فاعتذر صاحب الترجمة عن كل ذلك بأن السيرة العمومية هناك لم تبق على الحالة المألوفة ثم أن صحته لم تزل في تقهقر في الأستانة لتأثره

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ٣١

من الإنفعالات النفسانية المتسببة عن دسائس ذوى الأغراض السابق شرحها التي لا يكاد يخلو منها من كان له شأن بين الناس أو فضل يميزه بين أقرانه، و المعالجة و العيال يلزمها الكثير من المال فباع صاحب الترجمة جميع أملاكه بتونس و صار يصرف من ثمنها في حاجياته و عوائده التي لم يغير منها شيئا بحيث رأى نفسه في تأخر مالى مستمر لا- يأمن معه من الوقوع في مخالب الفقر، و هو لم

يحسن من العمل إلّا مباشرة عقاراته و التفرغ للأشغال العلميّة. و كان بعض كبار أصدقائه ينفره من سائر الوظائف العادية لاعداده إلى وظيفة مخصوصة تليق بعلومه و ما زال منتظرا حتى ضاق لذلك ذرعا و زاد عليه اشتداد المرض العصبى إذ وجد عاملا لتحريكه قويا و هو الانفعال النفسانى المستمر فنظر فى أمره فلم يجد من البلاد الإسلاميّة التي يمكنه الإقامة فيها براحةً بال إلّا القطر المصرى و هو مع حرارته التي يأبأها مزاج صاحب الترجمة إلّا أنه أوفق من غيره من البلاد الأخرى، أما الولايات العثمانيّة فقد أشار عليه بعض المطلعين على الأحوال على أن طلبه التوجه إليها لا يحوز محل القبول خصوصا و هو لم يكن له ميل إلّا للتوجه إلى المدينة المنورة للمجاورة أو إلى الشام و يمنعه عن الإقامة فى الحجاز احتياجه المستمر للحكماء و العلاجات و هما شيان مفقودان تقريبا من تلك الجهات المباركة، فاستخار الله فى القدوم إلى مصر و ساعدته المقادير بالحصول على مكاتيب توصية لبعض ذوى النفوذ فى هذه البلاد فأراد طلب الرخصة للقدوم إليها و لكنه استشعر أن طلب الإذن للتوجه إليها ربما لا يحوز قبولا خصوصا و أنه تعذر عليه وجود من يبلغ الحضرة السلطانيّة تفصيل أمره و شكوى حاله على الوجه الحقيقى، و إلّا فإن احترام الخليفة لمثله من علماء المسلمين كان يدفع شكواه و يرفع عنه ألم معيشتة و لكن دون الملوك من عقبات الأشغال ما يمنعهم عن الوقوف أحيانا على مثل هذه الأحوال فإذا فقد الناصح الأمين الذى يتيقظ لملافاة هذه الأمور بحسن تليغها إلى مقام الخلافة حصل الإهمال الذى وقع فيه صاحب الترجمة و أمثاله، فالترم التمحل بطلب العودة إلى الوطن و قارن هذا الطلب الإجابة إذ كاتبه على رضا باشا باشكاتب الماين الهمايونى بهذه البطاقة العربيّة و هذا نصها بالحرف الواحد بخط يده:

«العالم الفاضل و الأديب الكامل محمّد أفندى بيرم سلمه الله.

بعد التحيّة الوافية نبدى لكم أننا عرضنا مادة العزيمة إلى بلدتكم فصدرت الإرادة السنيّة السلطانيّة على عزيمتكم إلى ذلك الطرف إن شاء الله تكون مصحوبا بالسلامة و نروم منكم أن لا- تسونا من دعائكم الصالح فى السفر و الإقامة و دتمم فى ٢١ ذى الحجة سنة ١٣٠١هـ.»

(على رضا)

و ممّا يذكر هنا مقرونا بمزيد الأسف أن القسطنطينيّة العظمى تشتمل على نحو المليون نفس من السكان من أجناس مختلفة أقلهم أبناء العرب أو المنتسبون إليهم و مع ذلك لا- ترى أشد منهم تهافتا على الإيقاع فيما بينهم فينما ترى الروم و الأرمن و اليهود يعاضدون بعضهم

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ٣٢

بعضا و يسعون لبنى جنسهم فى الخير بحيث يصدق عليهم أنهم كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا ترى أولاد العرب المسلمين ينتحلون و يتلهفون على اختلاق الأسباب و إيجادها لإبعاد بنى جنسهم عن دار الخلافة و تنفير قلوبهم منها و لله فى خلقه آيات. فقد راجت فيهم سوق التحاسد و التباغض و التنافر و التشاحن حتّى لا يكاد يخلو حديث من أحاديثهم أو حركة من حركاتهم إلّا فى إبداء بعضهم و إيقاع السوء بأنفسهم و التخاذل فيما بينهم لا فرق فى ذلك بين الكبير و الصغير و العظيم و الحقيق بل الداء واحد فى الكل إلّا من وفق الله و لا شك أن هذا من سوء حظ الإسلام الذى كان ينبغى أن يصرفوا له أوقاتهم فى خدمته بما فى يدهم من القدرة على نفعه نسأل الله أن يرفع من بينهم آفة الدسائس التي يشوشون بها على أنفسهم و على بلادهم و يسقطون بها سائر الأمة العربيّة فى أعين الأمة التركيّة.

و قد غادر الشيخ مركز الخلافة و العين مغرورقة بالدمع و الحشاء ممتلىء بالأسى و الصدر مفعم بالأسف ليس ذلك لمنصب فارقه أو لرفاهة عيش زايلها أو لطمع فى شىء من نعيم الدنيا الزايل و عيشها الفانى و إنما كان يتحرق فواده لما كان يرى عليه الأمة الإسلاميّة من الإنحلال و الأخذ فى أسباب الضعف و كيف أن بلاده وقعت أولا- فى يد الأجنبي و خرج لأجل ذلك مشتتا بعائلته فى البلاد ليسكن بها بلدة إسلاميّة فلم ير أمامه مكانا هو أولى أن يقصد لهذا الغرض و أليق بعالم مسلم مثله من أولاد نقيب الأشراف أن يقيم

بعائلته فيه سوى دار الخلافة، و علل النفس بأن ما يراه هناك من صولة الإسلام و تشييد الدين و استقامة أمور المسلمين و اجتهاد أمير المؤمنين و من حوله من خاصته و حاشيته و رجاله لإنقاذ الإسلام و أهله مما سيسلى مصابه بفقد بلاده و منى النفس بأنه لا يياس على ضعفه و عجزه من القيام بخدمة تفيد الإسلام أو نصيحة تشييد الدين أو اشتراك فى عمل يجمع به كلمة المسلمين أو ما يماثل ذلك مِمَّا يجب على كل فرد من المسلمين القيام به و خصوصا من كان من طائفة العلماء فرأى لسوء الحظ من تلك الدسائس و دنايا السعيات و مسابقة الوشاة أضرارا بكل من كان مثله على رأيه حتى يخلو الجوّ لأولئك المسابقين ما اضطره إلى مبارحة دار الإسلام للثنت مرة أخرى فى البلاد بعائلته بعد أن يئس من العمل فى حقه بمقتضى الآية الشريفة قُلْ لَا أَسئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى [الشورى]:

٢٣] و المرحوم يمت بحبل النسب إلى البيت الطاهر النبوى من جهة و يتصل من الجهة الأخرى إلى مجاهد فى سبيل خدمة الدولة العلية أراق دمه فى افتتاح البلاد التونسية، و لم تزل أعقابه تتوارث الولاء و الإخلاص و الصداقة المتينة للدولة العلية فى كل زمان و مكان حتى أنه لما أهدى السلطان عبد المجيد كركا من السمر الفاخر من ملبوساته الذاتية إلى أمير تونس أحمد باشا لم ير الأمير المشار إليه ألقى بلبسه من الشيخ بيرم الرابع فأعطاه أياه و لم يزل محفوظا يتبرك به فى بيت بيرم بتونس و صار لبس الكرك مزية لهم لم يقلدهم فيها سواهم، و قد اكتفى الشيخ الرابع بذلك عن قبول نشان الافتخار التونسي لما عرضه الأمير عليه و اتبعه فى ذلك صاحب الترجمة أيضا سنة ١٢٩٥ هـ إذ صارت العادة فى تونس أن

صفحة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ٣٣

العلماء لا يتقلدون النباشين و فى حرب الدولة مع الروسية سنة ١٢٤٤ هـ تقاعست الولاية التونسية عن نصره الدولة ماديا و ادبيا فلم يجد شيخ الإسلام بالآستانه من يستعين به لحث المسلمين فى تونس على مساعدة الدولة إلا جد صاحب الترجمة بيرم الثانى لما هو مشهور عن هذه العائلة منذ القدم أنها متعلقة بخدمة الدولة لا تفتقر عن ذلك أبدا فأجابه بالمكتوب الأتى نصه:

«ربنا أفرغ علينا صبورا و ثبت أقدامنا و انصرنا على القوم الكافرين. إن أحسن ما تشرفت به الأمة المحمدية، و تجملت به العصابة الأحمدية. اتباع أوامر الله تعالى و نواهيه.

و بذل الجهد فى إعلاء هذا الدين و تشييد مبانيه، اقتداء بصدورها الأول، و عملا بسنة نبيه المرسل. و لعمري أن هذا فى العبارة و إن كان سهلا بينا. ففى إبرازه للوجود ليس هينا، لتوفقه على إمدادات إلهية. و هداية ربانية. وداع إلى هذا بلسانه، و رمحه و سنانه، و قد تطابقت حملة الأنبا فى سائر البلاد. من جميع العباد، أن القائم بهذا الشأن، و الحائر قصب السبق فى هذا الميدان، و مجدد الدين بعد الأندراس. و مظهر أعلامه أثر الإنطماس.

الدولة العثمانية أعلى الله منارها، و ضاعف اقتدارها. و أنام الأنام فى ظلها، و أعاد عليهم من فيض فضلها، فلم تخل و الحمد لله من إمام يهدى إلى الحق و إلى طريق مستقيم، و لم يأل جهدا فى رمى أعدائه بالعذاب الأليم، مؤيد من الله بعلماء، عاملين هم ورثة الأنبياء ناهجين فى نصح العباد مناهج الأصفياء، و قد ورد علينا من حضرة مولانا شيخ الإسلام، و إمام العلماء الأعلام، و مرجع الحكام فى الأحكام، و من بيده مقاليد النقص و الإبرام، لا زالت أقلامه فى بحار العلوم سابعة، و مواظمه للقلوب جارحة، و تجارته عند الله تعالى رابحة، كتاب كريم، هاد بأوامره و نواهيه إلى الصراط المستقيم، لا يقابله كل مؤمن إلا بالقبول و التسليم، و كيف لا و قد جاء بالذكري التى تنفع المؤمنين. المأمور بها فى الكتاب المبين، حاثا على الجهاد، و التشمير عن ساق الإجتهد، و تعاطى أسبابه، و طرح الأمور الصارفة عن بابيه. فاجتمع لقراءته الأعيان من العلماء و غيرهم بحضرة الأمير جمعا، و فتحوا له قلبا و سمعا، و تلقوه بالإذعان و القبول، و المبادرة لامثاله بالفعل و القول، و أميرنا ماثب على تنفيذ أوامر الدولة العلية، التى طاعتها من طاعة رب البرية، و ما هو إلا أن يؤمر فيطيع.

و يكلف فىأتى بما يستطيع، و الله تعالى يؤيد سلطاننا بمدد نصره، و يجعل أعداء الدين تحت قهره، و يعلى رأيه الشامخة فى البر و

البحر، و يكتب على صفحاتها سورة الفتح و النصر، و السلام اللائق بجلالكم، من العبد الفقير محمد بيرم».

و فى الحرب الأخيرة تأخرت الحكومة التونسية عن مساعدة الدولة أيضا لخوفها من معارضة فرنسا، فقام الشيخ بمقتضى ما ورثه عن ذويه من محبة الدولة العلية يحرض الوزير و ينصح الأمير و يحض المسلمين جميعا على إعانة الدولة، و لم يكتف بذلك فقط، بل سعى سعيه حتى توصل لاستخراج فتاوى شرعية بوجود القيام بواجب المساعدة للدولة، حتى لا يبقى هناك عذر لمعتذر فى ذلك التقاعس و هذا صورة السؤال الذى طلب عليه الفتوى:

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ٣٤

«علماء الإسلام، بعد اهداء السلام، و التحية و الاكرام، ما قولكم. رضى الله عنكم.

فى نازلة صورتها أن إمام المسلمين قد أخبر أهل قطر من المسلمين ممن هم تحت طاعته، و داخلون تحت بيعته يخطب أئمتهم باسمه على منابرهم بأن العدو قد فاجأ بلاد المسلمين معلنا بالحرب و وقعت منه المباشرة بالفعل فى حدود المملكة، و كان الإمام استشعر من العدو ما آل أمره إليه من مباشرته بالحرب فهياً من العساكر بحدود المملكة للمدافعة عن بيضة الإسلام نحو الستمئة ألف، و حين اطلاعه على جيوش العدو و علم ما أمكن من أخبارهم رأى الإمام أن الستمئة ألف تحتاج إلى ضم آخرين إليهم من العدد الكثير الذى تحصل به مقاومة العدو و يمكن له به مدافعة العدو، فاستنفر كل من استطاع من أهالى ذلك القطر إلى الانضمام إلى حوزة العساكر ثم الذى وقع فى الخارج بعد استنفار الإمام هو أن العدو قد استولى على بلدان و قرى من مملكة ذلك الإمام و أهاليها مسلمون جارية فى تلك البلدان و القرى شعائر الإسلام، كما استولى على قسم من مملكة ذلك الإمام سكانه نصارى يؤدون الخراج و يدعون بالطاعة للإمام و هذا القسم له بال من المملكة يبلغ عدد سكانه نحو الخمس ملايين و قد جعله العدو مركزا لذخائره و عدده و عدده بما فيه من الحصون، و مع ذلك لم يقدر العدو الوافر المهياً من عساكر المسلمين على إخراج العدو لما تسلط عليه، نعم حصلت للعدو مضرات أخرى من غزو سفنه و ثورة قسم ممن كان تحت سلطانه من المسلمين بإعانة الإمام لهم فهل يجب و الحالة ما ذكر على أحاد ذلك القطر المستنفر أهله ممن قدر على الزاد و الكراع و السلاح أن ينفر للإمام و يلبى دعوته سواء كان ذلك القطر مواليا لموضع الهجوم أو بعيدا عنه؟ و على تقدير أن يكون الموضع الموالى أهله تكاسلوا أو عرض لهم مانع يتعلق بالوجوب حينئذ بمن يلى من يليهم و هكذا أم لا يجب؟ و إذا قلنا بوجوب ذلك على الأفراد و الأشخاص بذلك الشرط فلو كان هناك من له منفعة عامة كمثل عالم لا أعلم منه فى البلد بفصل القضاء، فهل ذلك مسقط للوجوب عنه أم لا؟ جوابكم الشافى».

و ما فتىء رحمه الله يخلص الخدمة للبيت العثمانى عند كل فرصة و بكل وسيلة، حتى أنه رأى رأيا ينتج عنه نفع المسلمين و ارتقاء شأنهم جميعا من جهة توثيق عرى الجامعة الاسلامية و ائتلاف ممالك المسلمين و تنظيم أحوالها على ما يضمن قوة المركز و ثبات الوجود، و من جهة اعتلاء شأن البيت العثمانى بتشديد أمر الخلافة فيه على جميع المسلمين و ممالكهم و ذلك رأى هو: «أن تتحد الممالك المستقلة الاسلامية و الولايات العثمانية المستقلة استقلالاً داخلياً ثم يصير الجميع عصبة واحدة و مملكة واحدة تحت رئاسة الخليفة السلطان العثمانى».

و من ضمن الأمور التى أوصى بها فى روابط هذه الجامعة أن يجتمع أمراء الممالك الاسلامية فى بعض السنين بالكعبة المطهرة لتكون شاهدا على قوة ارتباطهم، و فى ذلك من اعلاء شأن الممالك الإسلامية ما لا يخفى على كل من أمعن النظر فى نظام الممالك

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ٣٥

الألمانية التى كانت ضعيفة ضئيلة بتفرقها ممالك صغيرة يسهل على الطامع ابتلاعها كما حصل مرارا، فلما اتحدت جميع المقاطعات الألمانية على النمط الذى نراه الآن بمملكة بروسيا أصبحت أعظم الممالك شأنا و أشدها قوة، و صارت مملكة بروسيا التى كانت تحت رحمة الطامع لضعفها و انفرادها أقوى الممالك باتحادها مع بقية الممالك الألمانية، و قد كتب المرحوم فى هذا الباب كلاما

طويلا مستشهدا فيه بالشواهد الديتية و التاريخية، كقول أحد مشايخ اسلام الاستانة الأقدمين عند تحسينه هذا المشروع لمن كان يعارضه: «إن الأليق بمجد السلطان و فخر الدولة أن يكون السلطان سلطان السلاطين لا سلطان الولاة».

و ربما أدخلناه في ضمن ما سنشره من بعض كتاباته التي تركها عند الفرصة.

و قد خرج الشيخ على تلك الحال يقلب طرفه في البلاد لعله يجد بلدة اسلامية يشد إليها رحله فلم يجد من بلاد المسلمين بلدة يطمئن فيها الساكن على نفسه و عرضه و لا يكون عرضه لمثل تلك الدسائس إلا البلاد المصرية، و إن كان دمعه ليجرى أسفا على تلك البلاد أيضا التي أصابها ما أصاب غيرها من سيطرة الأجنبي عليها، و لكن رب ضار نافع و بعض الشر أهون من بعض؛ و قد أنكر عليه المتشدقون عمله هذا و قدومه على مصر في حالة وجود الانكليز و تضارب الأحوال فيها غير أنه كان يجيب على ذلك: «بأن لا حق لأحد في الاعتراض عليّ إذ أن الدولة رضيت لى الإقامة في تونس تحت حماية فرنسا حسب منطوق الارادة السنية المسطرة أعلاه، و تونس انسلخت بالمرّة عن الممالك العثمانية و لا أثر لسلطة الدولة أو المسلمين فيها، أما مصر فإنه مع وجود الانكليز فيها فإنها لم تزل ولاية من ولايات الدولة و سيطرة الحكومة المحلية فيها قائمة، و على فرض المساواة في المعاملة لا قدر الله فلا فرق بين الانكليز و الفرنسيين».

و قد انتقل المرحوم بعائلته إلى مصر معرجا في طريقه على بلاد اليونان و ذلك في المحرم سنة ١٣٠٢ هـ (نوفمبر سنة ١٨٨٤) أى بعد الاحتلال الانكليزي بستتين و شهرين، و لما استوطن بالقاهرة هنا حضره المصقع البليغ الشيخ حمزة أفندي فتح الله بهذين البيتين البديعين:

لئن أشرقت في الشرق مصر ببيرم و أضحت به تلك الكنانة تونس

فكم شاد مع آبائه من مكارم أضاءت بها في الغرب من قبل تونس

و بعد أن استراح أياما قابل الجنب الخديوى التوفيقى المرحوم فأظهر له مزيد العناية و أنزله منزلة الثقة الأمين فحكى له سموه جميع ما جرى في الثورة العسكرية و تفاصيلها و كل ما يتعلق بما قاساه فيها و ختم كلامه بقوله: «إننى ذكرت لكم كل هذا لتأكدوا من صداقتى لكم». ثم أظهر له من علائم الاكرام ما جعله دائم الشكر له، و من ذلك أنه أمر بأن تكون مصاريف الشيخ على نفقة الحكومة كما كان في ضيافته مولانا السلطان، و فى ٢٥ ربيع الأول من تلك السنة أصدر جريدة «الاعلام» و هى جريدة علمية سياسية يومية غير أن صحه

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ٣٦

صاحب الترجمة و قلّه اختباره بالقطر المصرى لم تساعده على توالى إصدارها يومية فجعلها تظهر ثلاث مرات فى الاسبوع ثم صارت أسبوعية، و استمرت كذلك مدة طويلة بحيث أن أول عدد منها صدر فى التاريخ المذكور و آخر عدد و هو ٢٦٩ صدر فى غرة جمادى الأولى سنة ١٣٠٦ هـ ثم احتجبت الجريدة المذكورة عن الظهور بتولى صاحبها خطة القضاء فى محكمة مصر الابتدائية الأهلية، و كان فى نيته عند تأسيسها مع فتح مطبعة مخصوصة به أن يشغل نفسه بتحريرها و بطبع الكتب المفيدة طلبا لنفع العموم بما اكتسبه من الاختبار بالتجول فى البلدان و بما يعلمه من العلوم الشرعية الاسلامية و تطبيقها على الأحوال السياسية التي ينتج عنها تحرير البلاد و انتظام أمورها، كما كانت تتولع به نفسه منذ القديم حتى قال خير الدين باشا عن هذه الجريدة: إنها لا تلبث أن تكون «تيمس العرب». و دفعه إلى ذلك أيضا ما كانت عليه سجيته من حب الاشتغال بالعلوم و فن التحرير و الانشاء و ما يتسع هذا الغرض إلا فى مثل الاشتغال بطبع الكتب و انشاء الصحف، و لكن قد خاب جميع أمله إذ أن الجريدة لم تطل أيامها حتى رماها بعض الناس بأنها تحث على الانتماء للأجنبي و هو أمر لم تقله أبدا و غاية ما هنالك أنها كانت تحث على الاستفادة من الانكليز ما داموا موجودين فى البلاد إذ أن معاكستهم و أمر البلاد و الأمة جميعا فى يدهم لا تحمد عقبها كما بينته التجربة بعد و الذى ألجأه لانتهاج هذا المسلك ما قاساه من ظلم الاستبداد و ما رآه من وجود عوامل محركة فى مصر باغراء بعض الأجانب لتوغير صدور الناس على حكاهم إذ ذاك،

و خشى من دوام الحال على ذلك المنوال أن يأتي بالضرر المادى و المعنوى على الطائفة الاسلاميَّة.

و الحاصل أن كثيرا من الناس لم يقدروا عمله حق قدره، هذا زيادة عن أن حال الجرائد فى الشرق ليس هو على ما يشاهد فى البلاد المرتقيَّة فى التمدن و الحضارة بحيث أن الجرائد هنا لا تنجح إلَّا إذا كان لها معضد قوى و لم يتعوّد الشرق لغايه الآن أن ينمى شيئا ما لم تكن يد الحكام فيه، و الشيخ بيرم كان قليل المعرفة بالناس و أخلاقهم فى مصر فلم يجن من جريدته ثمرة تذكر ثم أن الكتب التى طبعها تحمل بخسارة مصاريفها و لم يكسب منها شيئا و زد على ذلك أنه تربي فى ترف و عزة نفس و هممة عالية، و من تكن هذه أخلاقه قلما ينجح فى عمل تجارى ثم أن الحرّ أضربصحته و زاد فى تقهقرها فزاد فى استعمال المرفين زيادة مفرطة حتى صار يستعمل نحو الغرام و كسور فى اليوم و هو مقدار كاف لقتل عدة من الأنفس الغير المتعودة عليه فالتزم بعد سنتين و نصف من الإقامة بمصر أن يسافر إلى أوروبا و كان ذلك قريب احتفال ملكة انكلترا بمضى الخمسين سنة على توليها الملك.

فتوجه أولا- إلى مدينة فلورنسا من أعمال ايطاليا لملاقاة صديقه المرحوم الجنرال حسين باشا التونسى حيث طلبه لتسوية شؤونه لما أعياه المرض فأوقف جملة من أملاكه

صفحة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ٣٧

على بعض أخصائه و خصصها بعدهم لجيوش المسلمين، و من هناك قصد المرحوم مدينة باريس لاستشارة حكمائها فى أمر صحته ثم سافر إلى لندرة عاصمة الانكليز و هناك قابل جملة من نبلائها و كبار أعيانها كاللورد «السبورى» و اللورد «نورثروك» و قد تكلم مع من قدّر الله.

و الإهمال أن يكون بيدهم زمام الأحوال المصريَّة بما رآه نافعا لبنى جلدته و جنسه و حاميا لدمارهم و مشيدا فى المستقبل لفخارهم و كان إذ ذاك النفور متمكنا بين نائب الانكليز فى مصر و بين رئيس مجلس النظار فيها فكان القوم فى حيرة من هذا الأمر خصوصا و المرشحوں لمنصب الوزارة فى مصر قليلون جدّا و الفكر القائم فى أذهان بعضهم حينئذ أن رياض باشا مكروه فى البلاد مستدلين على ذلك بظهور الثورة فيها مدة وزارته الأولى فبذل المرحوم جهده لصرف هذا الفكر و سعى بقدر استطاعته لما فيه اعلاء شأن المسلمين. و بعد أن حضر الاحتفال رجع إلى باريس لاتمام المعالجة ثم عاد إلى مصر بعد أن تغيب عنها نحو الخمسة أشهر معرجا فى طريقه على برلين و ويانه، و فى الاثناء المذكورة سعى الساعون كثيرا لارجاعه إلى الاستانة و كاتبه بعض أصدقائه فى ذلك حسب ما صدرت به الأوامر السلطانيَّة فأظهر المرحوم كمال استعداده للرجوع إليها قائلا: «إن بيعه أمير المؤمنين لم تزل فى عنقى». و أوقف رجوعه على تسوية أحواله المائيَّة ثم يقدم إلى القسطنطينيَّة و مع ذلك فلم تكن الأعداء تكف عنه الأذى فى غيابه أيضا حتى أنه لما طبع صاحب الترجمة إحدى رسائله المذكورة أنفا المختصة بحقوق الاشراف، دس أرباب الدسائس له فى دار الخلافة ما أوجب المخابرة مع الحكومة المصريَّة بشأن موضوع تلك الرسالة إذ قيل إنه تعرض فيها لمسألة الخلافة و هو أمر لم يخطر له على بال و من العبث أن يفكر فيه عاقل، و حاشا لمثل الشيخ بيرم و قد وصل لما وصل إليه من التعب المادى و المعنوى غيرة منه على بنى جنسه و ملته أن يتصور حدوث زيادة الشقاق بينهم و زرع بذور الخلاف بمسألة استقرار القرار عليها منذ قرون، و أجمع المسلمون قاطبة فى مشارق الأرض و مغاربها عند عربها و تركها و زنجها بالاقرار فيها لبنى عثمان منذ عهد السلطان سليم الأول، ثم تعقبوه أيضا فيما يكتب فى جريدة الاعلام إلى أن يسر الله بقدم الغازى مختار باشا إلى مصر و ظهر له بالعيان فساد تلك الوشائيات.

و فى أثناء سفره كاتبه العلامة المرحوم الشيخ عبد الهادى نجا الأيبارى من كبار علماء الجامع الأزهر و مفتى المعية السنيَّة بهذا المكتوب:

بسم الله و السلام عليكم و رحمة الله

ورد الكتاب على المحب المغرم فشفاه من وجد الغرام المؤلم

قد شمت منه مذ شمت أريجه بشرا بصحة ذى السيادة بيرم

حيا فأحيا مهجة كانت بماقاساه تسمى في أشد تألم
صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ٣٨ و أيبك ما ذاقت شرابا سائغامن بعد فرقته و راحة نائم
إلا بأن سرت سرائرنا بماأبداه من سريان براء محكم
لجناب مولانا الهمام فإنه هو بهجة الدنيا و نور العالم
جمع الاله له الفضائل مثلما جمع الزهور الروض تحت المرزم
ما بين أخلاق كأزهار الربى و محاسن تزهو بكل مخيم
بجماله و جلاله و فخامته و سماحة موروثه عن حاتم
و سيادة و سعادة أبدية و جميل تدبير برأى محكم
فالله يكمل صحة لجنابه ما غردت قمرية بترنم

استفتح ألوكتي هذه بلطائف تحيات تمسك. بها نسائم الأسحار فتمسك. و استفتح كرائم رقائق تضرعاتي بقلب سليم إلى ربه
تنسك. مبتهلا إليه تعالى أن ينعم البال و يشرح الصدر بكمال صحة مزاج حضرة نضرة وجه الأيام، و غرة طلعة الزمان و قره أعين
الأنام، شمامة الدنيا التي بها تتأرجح، و شمس قلادة العلياء التي بها تتبرج. علامة العصر، الذي أنست محاسنه أبناء سلافة العصر.
فما هو إلا روح الأرواح، و لوح الفضائل التي تتبلج في المساء و الصباح. و أن شفاء جسمه لشفاء لكل عليل، و روا ظمأ كل غليل.
فمهما صح مزاجه الشريف صح مزاج الأيام. و مهما لبس حلال العافية فعلى الدنيا السلام، هذا و رجائي أن تعشوا روحى بنوالى أخبار
صحتكم كلما وفد وافد، و تنعموا نفسى بورود أخبار صحتكم كلما ورد لهذا الطرف وارد، ثم سعادة الهمام فكرى باشا يتحف
حضرتكم بلطائف التحيات، أحسن الله لنا و له و لحضرتكم النهايات فى ١٣ الحجة سنة ١٣٠٤ هـ.

عبد الهادى نجا الأبيارى

و على ذكر هذا المكتوب و الشىء بالشىء يذكر نشر هنا بعضا من محررات وردت على صاحب الترجمة عن لسان المغفور له توفيق
باشا دلالة على منزلته لديه و انموذجا على معاملته له، فمنها: تلغراف جاءه جوابا على التهئة التي قدمها يوم تذكارة الجلوس الخديوى
فى ٢٦ يونيه سنة ١٨٨٨.

حضرة الأستاذ الفاضل السيد محمّد بيرم بمصر:

تلغراف حضرتكم الوارد بتهئة الحضرة الخديوية على اليوم السعيد بعرضه قد صارت الممنوتية لجنابه العالى من ذلك و لزم تبليغ
الأمر للمعلومية.

سر تشريفاتى خديوى برأس التين

و منها مكتوب ورد له من محمّد زكى باشا تشريفاتى أول خديوى إذ ذاك و هو:

حضرة والدنا العزيز المحترم دام بالخير و النعم:

تشرفنا بورود تذكارة حضرتكم و متشكرين غاية التشكر و بوقته قدمنا الأمانة للأعتاب

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ٣٩

الكريمة فحصلت الممنوتية التامة و أمرنا بتبليغ ذلك لسيادتكم أفندم فى ٦ شعبان سنة ١٣٠٦ هـ.

الداعى محمّد زكى

و لما كنا بصدد ذكر هذه المحررات فلنجعل خاتمتها مكتوبا ورد على المرحوم من صديقه الحميم. الملاذ العظيم. ذى القلب السليم.
الأستاذ الأبر مولانا الشيخ محمّد ظافر دامت بركاته إذ الغاية بيان ما كانت عليه صلوات صاحب الترجمة بمعاصريه و معارفه و مخاطباته
مع محبيه و نص المكتوب:

الحمد لله إلى حضرة الهمام الفاضل. و العمدة الكامل. جامع شتات الفضائل. و ناظم فرائد محاسن الشمائل. و منبع المعارف. و مجمع اللطائف. و قطب فلك السياسة و مركز دائرة أرباب الرئاسة. جناب الأعز الأكرم. مولانا الشيخ سيدى محمد بيرم. أدام الله عزه و اقباله. و أناله مناه و آماله. آمين.

بعد اهداء تحيات أطيب نفحا من روض الأزهار. و لطف من نسيم الأسحار. فقد وصل كتابكم الكريم. المشتمل على الدر النظيم. الحرى بالتبجيل و التعظيم. و قرت به أعيننا سرورا. و امتلأت به قلوبنا بهجة و حورا. و ما أعلنتموه من الفرح و الجذل. بحصول نشاط محبكم من عارض المرض الذى حصل. فهو من علامات تمام الوداد. و خلوص محبتكم الأصيله و كمال الاعتقاد. و لكم عندنا من ذلك الحظ الأوفر. و القسط الأ-كبر. و ما عطفتم به على ذلك من الذكر الجميل. و الشاء و التبجيل. على المحب فهو من انطباع كمالاتكم الظاهرة. التى تجلت فى مرآت ذاتى و أصبحت فى عالم الشهادة لكم ظاهرة. كما هو مصداق قوله صلى الله عليه و سلم: «المؤمن مرآة أخيه» كما يشهد بذلك ذوق كل صديق و موقن و على كل فنحن معترفون بالقصور. و نسأل الله سبحانه و تعالى التوفيق فى جميع الأمور. و أن يجعلنا بركة دعاكم مظهرا للخيرات. و واسطة لتوالى المبرات. و أن يجعل العاقبة للمتقين.

و ينجز وعده بنزول نص النصر على أعلام جيوش المؤمنين. و نخص بالسلام كامل من بحضرتكم و جناب أخينا الشيخ سيدى حمزه مسلم عليكم. و كذا كامل أولادنا مقبلين يديكم. و هذا ما لزم. و دام مجدكم و السلام. ١٣ شعبان سنة ١٢٩٤ هـ.

خادم الفقرا محمد ظافر المدنى

و قد تفرغ صاحب الترجمة فى الأوقات التى يتركها له المرض لاتمام تأليف ابتدأه فى استانبول سماه «تجريد السنن للرد على الخطيب رونان» و ذلك أن العالم الفرنساوى المذكور و هو من مشاهير أهل بلاده تعرض فى خطابه ألقاها بباريس تحت عنوان «الإسلام و العلم» إلى ذكر الديانة الاسلامية و أنها تمنع العلوم من الانتشار بين أبنائها فأفسد صاحب الترجمة هذا الزعم برد مقنع أتى فيه على ذكر جميع العلوم و الفنون التى استنبطها المسلمون

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ٤٠

أو نقحوها، و له رساله فى صورة سؤال حررها فى جواز شراء أوراق الديون التى تصدرها الممالك الاسلامية حتى تبقى أموال المسلمين فى بلادهم و لا يحجبهم عنها اشتباه الرباء الذى لا ينطبق فى هذه الحالة عليها، و كتب تقريرا مسهبا فى شأن التعليم بمصر ذهب فيه إلى لزوم انتشاره باللغة العربية لسهولة تناوله و تعميمه بين العموم مستندا فى ذلك على عمل العرب فى صدر الإسلام و على عمل الأوروبيين أنفسهم فإنهم لا يعلمون إلّا بلغاتهم و قد نجحوا.

أما مصر فلما اتبعت طريقة التعليم باللسان الأجنبى لم تنتشر فيها العلوم و الفنون مع طول الزمن الذى مضى من حين تأسيس المدارس فيها، و له أيضا عدة كتابات على جملة أحاديث نبوية شريفة و هى التى كان يحتفل بختمها فى تونس على حسب العادة الجارية هناك فى المدرسة العنقية التى كان شيخا عليها و فى سراى المرسى عند جناب الأمير الحالى و لم تتركه أيضا فى مصر دسائس بعض الفرنسيين و تهمهم الباطلة فمن ذلك أن جريدة لالترن (المصباح) الباريسية نشرت خبرا عن مكاتبتها فى القاهرة فى شهر أغسطس سنة ١٨٨٩ مفاده: أن الشيخ بيرم سافر متوجها إلى الشيخ السنوسى للإتفاق معه على اهاجة نار الفتنة فى السودان بواسطة المهدي و القصد من ذلك كله معاكسة فرنسا، و صادف نشر هذا الخبر خروج صاحب الترجمة حقيقه من القاهرة و لكن لاستنشاق الهواء البارد على شاطئ البحر فى جهة رأس البر بدمياط.

و قد تجول المرحوم فى كثير من أنحاء القطر المصرى و كان يكتب أثناء تجوله فى ذهبيته بقتية «صفوة الإعتبار» فأتم الجزء الرابع و أول الخامس و لم يمهله الأجل لاتمامه، فإنه كان يقصد التوسع فى الكتابة عن بلاد النمسا و سويسره و المانيا و رومانيا و البلغار و الصرب و اليونان و هى البلاد التى شاهدتها، و لكن ما كتبه إجمالا- عنها فى الجزء الأول يمكن أن يغنى القارىء عن التفصيل و الإسهاب. و كان ينوى كتابة خاتمة «صفوة الإعتبار» على نمط مقدمتى «تاريخ ابن خلدون» «و أقوم المسالك» فلم تمكنه صحته و لا

أجله من إخراجها من حيز الفكر إلى قوة العمل، ونحن نورد هنا بعض تعليقات كتبها ليوسع البحث فيها في هذا الموضوع عسى أن يقيض الله من يمشى على نمطها إذ المقصود هو نفع ملتنا وإيقاظنا من غفلتنا وكفى بما جرى للأمة في القرنين الماضيين من التقهقر والتلاشي والإنحلال، واعظا في ديوان العبر وأهم باب المبتدأ والخبر لمن يروم الإستفادة بالماضي ليدفع به غائلة المستقبل، أما تعليقاته فهي: فيما ينبغي لنا اتخاذه وتدبير نفوسنا عليه وفيه فصول.

الأول: في زيادة نشر العلم.

الثاني: في كَيْفِيَّة الحكم وأنه ينبغي اتخاذ قول واحد من المذهبيين (أى فى تونس حيث الأحكام جارية بمقتضى المذهبين الحنفى و المالكى)

الثالث: فى كَيْفِيَّة إدارة السياسة و ما هو عمل الملك و ما هو عمل كل وزير و ما هو

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ٤١

عمل مجلس النواب الذى حقه أن يتخذ من الأهالى و أن لا تعطى الكلفة دفعه واحدة بل على قدر استطاعة الأهالى و قابليتهم و أن ذلك يأتى فى المسلمين من الملك و هو المربى لرعيته و السبب فى عدم اعطاء الحرّية التامة فى فرنسا كما هو جار فى انكلترا ثم تعامل الدول مع دول الإسلام على خلاف التصرف فى داخلتهم لضعفنا و عدم انصافهم فعلىنا بالوسائل و حكم تذاكر البنوك شرعا و ليس هو من قبيل السفهتجة. و علاقة الدول و الأحكام و فوائد الصحف و فوائد سكك الحديد و البريد و التكلم عليه و عدم تأخير المقصد فى الكلام عند الزيارة لاثنين معا. و النهى عن الغيبة بين الأخوان. اجتهاد اليهود فى المال بكل بلاد و أغلب الصناعات بأيديهم و عدم تعاطيهم الصنائع المجهدة. الطرق الموجبة للنفرة بالتفاضل، ابلاغ الشريعة إلى الكفار واجب و لو بدون حرب، اجتهاد الأجانب فى العمل حتى و صيّلوا بين شاطيء أميركا و البحرين الأحمر و الأبيض و حرق المنسنى و الخرق تحت المنش، أسباب عدم استواء الدول الأجانب فى النظم ببلاد الإسلام على حسب مقاصدهم و قوتهم فامريكا مثلا و إن كانت رعيته عند الترك قدر رعيته الإنكليز فلا تجد منهم تظلما و لا إقامة حجة مستمرة من سفيرهم، الوجوب على الحكومة و العلماء فىمن يتوجه إلى الحج بتعليمه ما يجب عليه قبل السفر و إلّا فيمنع.

و فى ١٢ جمادى الأولى سنة ١٣٠٦ هـ (١٤ يناير سنة ١٨٨٩) عين صاحب الترجمة قاضيا فى محكمة مصر الابتدائية الأهلية فى مدة وزارة رياض باشا الثانية و كان فى وزارة نوبار باشا كلف المرحوم بكتابة ما يراه عن القوانين المعمول بها فى المحاكم الأهلية من حيث مطابقتها للشريعة الغراء، أو القوانين الجارية فى الدولة العثمانية الشامل لها كتاب المجلة و الدستور فرام أولا-التوسع فى الموضوع بتقسيم القوانين المصرية بابا بابا و مقارنتها بالمجلة أو الدستور و إذا لم يجد نصا مطابقا لها فيهما فيطبقها بقدر الإمكان على قول أحد المجتهدين بدون تقييد بمذهب مخصوص، غير أن عملا مثل هذا يلزمه طول الوقت و كثرة العمال و الزمن غير قاض بذلك فالترم أن يصرف النظر عن هذا العمل و كتب عن القوانين ما نصه:

«القوانين الأصول التي عليها مدار الحقوق فى الحكومة المصرية هى القانون المدنى و قانون التجارة البرى و قانون التجارة البحرى و قانون العقوبات و هاته القوانين الأربعة نظر مطابقتها للقوانين العثمانية أو للشريعة المطهرة على التفصيل الآتى:

فأما قانون العقوبات و قانون التجارة البرية و البحرية: فجميع ما يوجد من موادها فى القوانين العثمانية المماثلة لها هو مطابق مطابقة كاملة، و هو أيضا الأ-كث من مواد القوانين المصرية لكن القليل جدا من مواد هاته القوانين لا-يوجد أصلا فى مثلها من القوانين العثمانية.

و أما القانون المدنى المصرى: فهو مخالف للمجلة العثمانية التي هى قائمة مقامه

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ٤٢

مخالفة كثيرة كلية، غير أن القانون المدنى المصرى مع ذلك أكثره مطابق للشريعة المطهرة على الإطلاق من غير نظر إلى خصوص

مذهب معين بل بالنظر إلى أقوال الأئمة المعمول بأقوالهم في الديانة، و القليل من هذا القانون المدني مخالف أيضا لجميع تلك الأقوال غير أن تحويله بما يرجع به إلى مطابقة أحدها مما يقتضيه الحال أمر سهل يسير بفظنة حذاق أهل الخبرة و العلم.

و كذلك كلفه الباشا المشار إليه تقديم تقرير بما يراه لإصلاح حال الأوقاف و قد فعل و كان موجهها همته في مدة توظيفه بالمحاكم للسعى وراء تطبيق قوانينها على الشريعة الغراء، و لما قدم ولى عهد الإنكليز إلى مصر كان صاحب الترجمة من الأفراد القليلين الذين اجتمعوا به و في تلك السنة أنهى رياض باشا ترميم منزله بالحلمية فهنأه المرحوم بهذه الأبيات:

أن الوزير المصطفى في عصره لا زال عوناً للمليك بأزره
أبدى من التدبير في الإصلاح ما قد حقق المعهود منه بقطره
فلقد أتى في قصره ما يتغنى حسنا به و متأنه مع وفره
و القطر قصر واسع الأرجاء قد أبدى له أنموذجا من قصره
و كلاهما مستأهل بعياله و إدارة بإصابه من فكره
فكما نشاهد في الصغير إجادة فكذا الكبير نراه صار بأمره
إذ اتقن التحسين حتى أرواق قصر رياض فيه جنه مصره

(سنة ١٨٨٩)

و قد عين عضوا في اللجنة التي تشكلت للنظر في تعميم المحاكم الأهلية بالوجه القبلي و عضد هذا التعميم، و كذلك انتخب عضوا في لجنة تشكلت في المحكمة بناء على طلب نظارة الحقايق لتقديم تقرير للنظارة بكل ما يرى لزوم تعديله في القوانين على حسب ما يلائم حالة البلاد و عين عضوا في لجنة بنظارة الداخلية لمراجعة الأحكام الصادرة من قوميونات الأشقياء و انبنى على عمل هذه اللجنة الإفراج عن عدد عظيم من المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة في طره و كان إمضاؤه على تقرير هذه اللجنة آخر أعماله الرسمية فتوجه إلى مدينة حلوان لتغيير الهواء، و هناك اشتد عليه المرض و بلغ به الضعف غاية المنتهى و ظهر في جهه جنبه الأيسر خراجان بسبب الحقن بالمرفين أعقبهما بعد فتح الطيب لهما تكوّن المادة في الرئة و بعد أن لازم الفراش بالمرض المعروف بذات الجنب نحو الخمسة و العشرين يوما فارق الحياة و ذلك في الساعة الخامسة و نصف بعد ظهر يوم الأربعاء ٢٥ ربيع الثاني سنة ١٣٠٧ هـ (١٨ ديسمبر سنة ١٨٨٩) و قد خلف ثلاثة بنين رزق بهم من بنت عمه التي تزوج بها في ١٤ ربيع الثاني سنة ١٢٧٧ هـ و كان قبل ملازمته للفراش محتفلا بالمولد النبوي الشريف هناك بمحضر بعض الأصحاب و قد دخل إلى الحرم من

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ٤٣

تلك الحفلة و لم يخرج حيا و في مدة مرضه ورد عليه مكتوب من صديقه رياض باشا و نصه:

«جناب الأستاذ:

من صميم الفؤاد قد تكدرت من خبر ما طرأ على جنابكم من انحراف المزاج الذي لم أعلم به إلّا من منذ كم يوم و ادعو المولى سبحانه و تعالى أن يمنّ عليكم بالشفاء و كمال الصحة و العافية و نراكم معنا عن قريب، و على أي حال أترجاكم أن لا تؤأخذوني و العذر عند كرام الناس مقبول.

في ١٣ ربيع الثاني سنة ١٣٠٧ هـ.

محبكم المخلص رياض

و قد حضر دولة الباشا المشار إليه إلى حلوان و قصد عيادته و أرسل إليه نجله، و كذلك كان المرحوم توفيق باشا كثير السؤال عنه يوميا بواسطة طبيبه عيسى باشا حمدي، و لما توفي أظهر لأبنائه جميل التلطف تغمده الله برحمته، و قد شيع رياض باشا جنازة صاحب الترجمة صبيحة يوم الجمعة و كانت مودّتهما صافية خالصة و دفنه في التربة المخصوصة التي شيدها بقرب ضريح الإمام الشافعي

رضى الله عنه و قد كتب على قبره هذه الأبيات و هي من إنشاء الشاعر البليغ حفى بك ناصف:

يا قبر أضنانا البكاء و تبسم أدريت أن الفضل فيك مخيم
أعلمت أنك قد حويت محمدا و تركت أكباد الورى تنضرم
هذا الذى كانت بدائع فكره تملى البيان على اليراع فينظم
من عتره ثوت العلوم بدارهم فهم لطلاب الهداية أنجم
أولاه مولاه مواهب فضله و الله يعطى من يشاء و يرحم
و أقام فى دار النعيم فأرخوافى جنه الفردوس أسكن بيرم
سنه ١٣٠٧ هـ.

و قد رثاه جملة من أحبابه و كتبت الجرائد تنعيه و لقتصر منها على ما قالته «الوقائع المصرية» جريدة الحكومة المصرية الرسمية الصادرة فى ٢١ ديسمبر سنة ١٨٨٩ نمرة ١٤٥:

«إننا لله و إنا إليه راجعون. فى آخر ليلة الخميس الماضى انتقل من هذه الدار الفانية إلى الدار الآخرة الباقية المرحوم الشيخ محمد بيرم أحد قضاة المحكمة الابتدائية الأهلية بمصر، و صاحب جريدة الإعلام العربية. و كانت وفاته رحمه الله بمدينة حلوان عقب اشتداد الداء العصبى الذى منى به من عدة سنين و لم ينجح فيه علاج الأطباء.

و فى صباح يوم الجمعة الماضى احتفل بنقل جسده من حلوان احتفالاً يليق بمقامه و فضله و انتظره على محطة ميدان محمّد على العدد العديد من رجال الحكومة السنية

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ٤٤

و أكابرها، و فى مقدمتهم صاحب الدولة رياض باشا رئيس مجلس النظار و ناظر الداخلية و المائيه و كثير من العلماء و قضاة المحاكم الأهلية و مشاهير المحامين و ذوى الفضل من الوجوه و الأعيان. و مما هو جدير بالذكر فى هذا المقام ما كان من صاحب الدولة رياض باشا من العناية بأمر المرحوم و الإهتمام بشأته و المساعدة فى إكرام تشييع جنازته و دفنه و تعزية أولاده و تشجيعهم على تحمل المصائب إلى غير ذلك من الإحتفال و الإكرام، و لما وصلت الجنازة إلى المحطة شيعت فى مشهد حافل مشى فيه دولة رئيس النظار و من تقدم ذكرهم و من حضروا من حلوان بغاية السكون و الوقار و كان فى مقدمة المشهد الذاكرون و مرتلو البردة و غيرها من الأحزاب و الأوراد، ثم المشيعون للجنازة فحملته السرير و كلهم آسفون لفراق هذا الرجل العظيم الشان، و قد دفن رحمه الله فى المدفن الذى بناه صاحب الدولة رياض باشا بقرافة الإمام الشافعى عليه الرضوان و فرقت الصدقات على الفقراء و المساكين و دعا الناس للمرحوم بالرحمة و الغفران.

أمّا الرجل رحمه الله فكان عالما فاضلا فقيها كاملا متضلعا من العلوم الشرعية بأنواعها مطلعا على أحوال الأمم و له الباع الطولى فى فنون التاريخ القديم و الحديث و كان من ذوى الأقلام البليغة فيما يريد كتابته من المواضيع و قد ألف رسائل كثيرة فى الأحاديث و الأصول و الأحكام الشرعية و الجغرافيا التاريخية و السياسية و غيرها، و كلها تدل على غزارة مادته و سعة تفننه فى المعارف و العلوم و كان كثير الاستشهاد بأحوال الأمم الغابرة و الحاضرة فى كتاباته و أقواله و له قوة حاضرة فى إقامة الدليل و البرهان كما يشهد بذلك المقامات الافتتاحية التى كان ينشرها فى جريدة الإعلام رحمه الله رحمة واسعة و أفرغ على آله و ذويه جميل الصبر. و عزاهم على مصابهم فيه أكمل العزاء و أثابهم على الصبر العظيم الأجر آمين».

و هذا ما قالته جريدة «الحاضرة» الصادرة بتونس فى ٢٤ ديسمبر سنة ١٨٨٩ عدد ٧٤ «صباح يوم الخميس الفارط نشرت أخبار التلغراف من حلوان مصر القاهرة خبر وفاة العلامة النحرير صاحب الصيت الشهير المؤلف الشيخ السيد محمد بيرم و بما أنه من مفاخر البلاد التونسية تقوم الحاضرة بواجب رثائه و هى أدرى من غيرها بفضائل رجالها، فقد ولد هذا العالم فى بيت العلم البيرمى سنة ست و

خمسین و مائتین و ألف و تربی فی مهاد العلم و التعلیم، و قرأ علی ابن عمه الشیخ أحمد بیرم و علی عم جده الشیخ مصطفی بیرم و علی شیخ الإسلام الشیخ محمد معاویة و قرأ علی الشیخ الطاهر بن عاشور و الشیخ الشاذلی بن صالح و الشیخ محمد الشاهد و الشیخ علی العقیف و غیرهم من فحول جامع الزیتونة إلى أن حصل علی مرتبة عالیة و تقدم لخطی التدریس، و قرأ کتبا مهمة بجامع الزیتونة و ولی مشیخة المدرسه العنقیة بعد وفاة عمه شیخ الإسلام الرابع و ختم بها الأختام المهمة و كان یعیدها کل سنة فی بیت الحضرة العلیة.

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ٤٥

و كان عالما فاضلا عالی الهمة عزیز النفس رفیع الحسب منشئا فصیح اللسان جمیل المحاضرة صاحب أناة و وقار خبیرا بالسیاسات الشرعیة و الوقتیة حسن التدریر واسع الإدارة امتنع من قبول الخطط الشرعیة عدة مرار متعللا بضعف بدنه، و كان عضوا فی عموم الجمعیات التي انعقدت لوضع التراتیب العلمیة و التنظيمیة أول الوزارة الخیریة و هو الذی قام برئاسة جمعیة الأوقاف عند تأسيسها فأسس أصولها بعد أن جمع شملها بما یقتضیه العلم و الإنصاف، و ولی نظارة المطبعة الرسمیة و اعترته أمراض عصبیة بمعدته سافر بسببها عدة مرار لباریز و إیطالیا و حنکته الأسفار بما یزیده فی الاعتبار، و بإشارته كان إنشاء المستشفى الصادقی و بأمره إقامة علی النمط الذی رآه بیاریز، و من قلمه كان إنشاء قانونه و شكره الأمير یوم فتحه فی الموکب العمومی و ولی عضوا فی مجلس الدولة الشوری علی عهد وزارة ابن إسماعیل و اشتد مرضه و الح في طلب الإعفاء و لم تسعفه الدولة بذلك و خرج لبيت الله الحرام أواخر سنة ست و تسعين و مائتين و ألف و رجع علی طریق الشام.

و لما رأت الدولة انحلال وظائفه أحالتها لغيره فی الثامن و العشرين من محرم سنة ١٢٩٧ هـ و تنقل من الشام إلى دار الخلافة العثمانیة فنزل بمنزل التعظیم و التکریم و عرضت علیه نقابة الأشراف و الفتوى بالشام فلم یقبل لضعف بدنه، ثم انضم إليه أبناءه و عائلته و أجرت علیه الدولة جرایة سلطانیة و هنالك ألف رحلته «صفوة الإعتبار بمستودع الأقطار و الأمصار» و أودعها من الأصول السیاسیة و الأصول العلمیة ما یدل علی کمال تضلعه و قوة عارضته، و أقام بالآستانة إلى أن شق علیه مرضه العصبی و أشار علیه الأطباء بالتنقل إلى البلاد الحارة فتنقل بأهله و أبناءه أول المحرم سنة اثنتين و ثلاثمائة و ألف و تلقته الديار المصریة بالرحب و القبول و أنزله الجناب الخدیوی منزلة التکریم و أجرى علیه جرایة تلیق بأمثاله و فتح بها مطبعته الإعلانیة و أفادت صحیفة «الإعلام» فی سائر الجهات العربیة إلى أن ولی حاکما بالمحکمة الأهلیة و فی أثناء هاته الأسفار كان مجدا فی الاعتناء بکرام أبناءه فی المدارس إلى أن وصلوا إلى قدم الکفاءة للمهمات و ترقى أولهم لخطه کاتب بمجلس النظار بالديار المصریة نسأل الله أن یجعل منهم خلفا محمودا و أن یدیم علیه فی نعيم الجنان ظلًا ممدودا».

هذا و قد قیل إن قيمة المرء لا تقوم بمقدار مادحیه فقط بل بانضمام المنتقدین علیه أيضا، و علی ذلك نقول أنه من دون سائر الجرائد العربیة و الإفرنجیة قد انفردت إحدى جرائد الآستانة العربیة بنشر ما یخالف أمره علیه الصلاة و السلام: «اذکروا موتاکم بخیر» .

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ٤٦

و لم یکن ذلك لیؤثر علی حسن صیته و شهرته فقد قیل - کلام العدی ضرب من الهدیان - و من تأمل فی تاریخ حیاة المغفور له علم أنه كلما خفض الأعداء و الحساد من شأنه ذراعا ارتفع میلا و كلما اشتدت به ملومات الحوادث و کوارث الزمن زاد قدره اعتلاء، فقد خرج المرحوم من دياره مغربا مشردا فما زالت به همته حتى بلغت به إلى شرف المقابلة بالحضرة الشاهانوية و نوال أقصى الرعاية السلطانیة و خسر أمواله و أملاكه، فقام له فضله و علمه بعدم الحاجة لأحد فعاش میسورا و مات میسورا و اجتهد بعض ذوی التقصیر فی الحط من سیرته و الطعن فی شهرته فما زاده ذلك إلا اعتلاء فی الصیت و احتراماً فی النفوس و توقیراً فی الصدور، فقضى حیاته حمید السیرة و انتقل إلى رحمة ربه طاهر السریرة و علی کل حال فنسأل الله أن یجازی الجميع خیرا و لا یریهم ضیرا، هذا و قد کتبت ما کتبه و الله یعلم إنی لم أقصد به فخرا و لا حبا فی الظهور و إنما هی حقائق مثبتة بمستنداتھا ألقیتھا تحت نظر القاریء لیری فی

حياة هذا المؤلف و ما طرأ عليه من نعيم و بؤس العبرة التي يتوخاها و قياما بحقوق الأبوّة و التربية و إجابة لما كان كلفني به عند قدومه إلى مصر و لكوني أعلم الناس بأحواله رحمه الله رحمة الأبرار.

و كلما تذكرت على قبره محاسن أفعاله في حياته العموميّة و جميل أخلاقه و شهامة نفسه في حياته الخصوصيّة أكاد أنشد بيت المعزّي مخاطبا لقبر أبيه:

لأطبقت أطباق المحارة فاحتفظبلؤلؤة المجد الحقيقة بالخزن

٩ ذى الحجة سنة ١٣١١ هـ محمّد بيرم

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ٤٧

التعريف بكتاب صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار

و هو رحلة الشيخ الجليل و العالم المحقق النبيل السيد محمّد بيرم الخامس التونسي رحمه الله و طيب ثراه الجزء الأول- يشتمل على مقدمة و أقسام و فيها مباحث: في أحكام السفر شرعا و الإستدلال على قدرة الخالق و القول بتكوين الأرض و دورانها و الإستدلال على ذلك بأقوال الحكماء و الفقهاء و الصوفيّة و غير ذلك من المباحث الشرعيّة و العلميّة الطبيعيّة و ذكر ما ورد في السفر من كلام الحكماء و الأدباء و حكم السفر لغير أرض الإسلام و أسباب سفر المؤلف و تقسيم أحوال أهل الأرض الآن مقسّما ذكرهم إلى (٨٧) فصلا أى على عدد الحكومات المستقلة مشروحة كل واحدة منها بالشرح الوافي و هو أتم كتاب في الجغرافيّة العموميّة للكثرة الأرضيّة مطبوع باللغة العربيّة.

و في هذا القسم كثير من الفوائد: كدخول الإسلام إلى الصين و ذكر دولهم فيه و المملكة التي أنشأها السلطان سليمان و ذكر استيلاء الإنكليز على الهند و الموكب الذي حصل لتلقيب ملكتهم بلسطانة الهند و سفر ولي عهدهم إلى ذلك القطر و ما جرى له من الإحتفال و كذلك سفر شاه إيران إلى أوروبا و الأستانة و ما لاقاه فيها من إكرام السلطان عبد العزيز و تفصيل أحوال مملكة مراکش و أسباب تقدم أوروبا.

و يلي هذا الكلام على القطر التونسي منشأ المؤلف ثم جدول عمومي عن أحوال جميع ممالك الأرض و بيان عدد سكانهم و ديانتهم و قواتهم الحربيّة و البحريّة و إيرادهم و مصروفهم و تجارتهم و ديونهم و طول السكك الحديديّة فيها.

الجزء الثاني- في بقية الكلام على القطر التونسي بالتفصيل عن إدارته و سياسته و أحكامه و أخلاق أهاليه و جميع ما يتعلق بذلك من زمن الفتح الإسلامي إلى حين دخول فرنسا فيه.

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ٤٨

الجزء الثالث- في الكلام على مملكتي إيطاليا و فرنسا بالإسهاب و أسباب تقدمهما و تاريخهما القديم و الحديث و حالتها الإداريّة و السياسيّة و قواتهما الحربيّة و المائيّة و انتشار العلوم و المعارف فيهما و رسوخ الحربيّة في ابناهما.

الجزء الرابع- في الكلام على قطر الجزائر و تاريخه و دخول فرنسا فيه و ما وقع في حربه مع الفرنسيين و بيان حالته الآن كل ذلك بغاية البسط و الشرح و كذلك الكلام على مملكة إنكلترا و ما رآه المؤلف فيها و ذكر تاريخها و أسباب تمدنها و تقدمها و انتشار مستعمراتها و أحوالها بالتفصيل ثم ذكر جزيرة مالطة و استيلاء الإنكليز عليها و حالتها قديما و حديثا.

و في هذا الجزء الكلام على القطر المصري و بيان أحواله إلى سنة ١٣٠٣ هجرية أى حين وصول المرخصين العثماني و الإنكليزي إليه و ذكر الديار المصريّة و جغرافيتها و تاريخها و حكوماتها و سياستها و تفصيل الثورة العسكريّة و فيه بحث عن افساد دعوى حرق المسلمين لمكتبة الإسكندريّة.

الجزء الخامس- في الكلام على الحجاز بالتفصيل و الدولة العثمانيّة و تاريخها إلى حين عقد معاهدة برلين و أسماء سلاطينها و تاريخ

ولايتهم مع بيان أعمالهم الشهيرة منظومة في قصيدة.

و في جميع هذه الأجزاء مكاتبات لبعض الملوك و السلاطين و الأمراء و معاهدات دولية كثيرة و فرمانات سلطانية متعددة في أغراض و مقاصد شتى.

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ٤٩

ما شاء الله كان بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

[تمهيد]

الحمد لله مالك الملك و الممالك. خالق النور و الظلمة و الضلال و الهدى إلى أقوم المسالك. سبحانه الخالق الحكيم. المبدع للكون و ما فيه من حقير و عظيم. رسم عليه دلائل و حدانيته لتدبير المتبصرين. و من آياته [خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ] وَ اخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَ أَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِلْعَالَمِينَ [الروم: ٢٢] و الصلاة و السلام الأكملان الأتمان على تاج العالم المصون. و مظهر الكمالات المسرى به إلى المسجد الأقصى و المقام المكنون. سيدنا و مولانا محمد رسول الله. المطهر عنصره الجثمانى. و المنزه جوهره الروحاني. من الكدر و الاشتباه. و على آله الطاهرين. و أصحابه الذين جابوا الأرض في هداية المخلوقين.

أما بعد: فإن الله جلت عظمتة اقتضت حكمته الباهرة. أن ربط في هاته الدار الأسباب بالمسببات خفية كانت أو ظاهرة. و أخفى مراده في التكوين. فكان مدار تكاليف الشرع هو اعتبار الأسباب رحمة بالمؤمنين. و تفويض ما وراء ذلك إلى خالق مسبب يجرى على مقتضى تقديره فى الأزل و ما يدرك أسرار حكمته إلا قليل من الكاملين. و كان مما عرض للعبد الحقير. أن بليت بمرض أعيا علاجه أطباء قطرنا الشهير. و أشير على بالسفر لأجل ذلك الغرض. فاستخرت الله تعالى و استشرت الأصدقاء لتحصيل ذلك الحق المفترض. فجبت بحارا و قفارا. و مدنا و أمصارا على حسب ما يسره المقدر. و ساعفت الوسائل على الوصول إلى مشاهدته من المعمور. و رأيت بعينى البصر و البصيرة. أمورا عجيبة خطيرة. أحببت نظمها فى عجاله حفظا لها من الإهمال. و تطفلا على منح العلماء أولى الكمال.

كل سرّ جاوز الإثنين شاع كل علم ليس فى القرطاس ضاع

و هى و إن كانت بالنسبة لمعارف الكاملين و الفحول. ليست مما يلتفت إليه أو يلاحظ

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ٥٠

بالقبول. لكنها على كل حال بضاعة من علم. تلاحظها بالإغضاء أعين أهل الحلم. فعمل الله بفضله يفيد بها أهل و ظننا و إخواننا المسلمين. و يهدينا إلى إحياء معالم ديننا المتين.

و سميتها: صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار. معتمدا على فضل المانح الجليل.

و هو حسبى و نعم الوكيل.

فنقول: أن هاته الرحلة مرتبة على مقدّمة و مقصد و خاتمة فالمقدّمة فيها ثلاثة أبواب:

الباب الأول: فى السفر من حيث هو و يشتمل على ثلاثة فصول الباب الثانى: فى السفر لغير أرض الإسلام و فيه فصلان الباب الثالث:

فى تقسيم أحوال أهل الأرض و فيه خمسة أقسام و ستة و ثمانون فصلا و المقصد فيه ثلاثة عشر بابا: الأول: فى سبب سفرى. الثانى:

فى مملكة تونس. الثالث: فى مملكة إيطاليا. الرابع: فى مملكة فرانس. الخامس: فى قطر الجزائر. السادس: فى مملكة إنكلترة. السابع:

فى جزيرة مالطه. الثامن: فى قطر مصر.

التاسع: فى الحجاز و جزيرة العرب. العاشر: فى بقية الممالك العثمانية. الحادى عشر: فى مملكة أسفيسره. الثانى عشر: فى مملكة

النمسا. الثالث عشر: فى مملكة الرومانيا. و كل باب يشتمل على فصول حسبما فيه من الفروع. الخاتمة: فيما ينبغى للأمة الإسلامية

إتخاذه من زيادة بث المعارف و ما تثمره من الخيرات.

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ٥١

المقدمة

الباب الأول في السفر من حيث هو

الفصل الأول فيما جاء في ذلك من الكتاب العزيز

إعلم أن الله تعالى قد أمر في كتابه العزيز بالسير في الأرض للإعتبار و الإستدلال على وجوده و وحدانيته، فقال تعالى: قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ * في آيات من الكتاب المجيد في [الأنعام: ١١- و النمل ٦٩- و العنكبوت ٢٠- و الروم ٤٢]، و في بعضها قال: ثُمَّ أَنْظِرُوا [الأنعام: ١١] و في آخر قال: فَأَنْظِرُوا * [النمل: ٦٩- العنكبوت ٢٠- و الروم ٤٢]. فكان العطف تارة بالفاء و تارة بضم إشارة إلى أن النظر و الإعتبار كما يلزم في حالة السير يلزم بعده حتى لا يكون الزمن و العمل خاليا عن فائدة صحيحة في نظر الشرع فأولاً:

يحصل النظر الإجمالي في حالة السير ثم يحصل النظر التفصيلي بالاعتبار عند الإنفصال منه حتى يستقر في النفس بغاية التروى. و لا يخفى أن القاعدة الأصولية عندنا هي أن الأمر للوجوب، و هو حقيقته و لا يصرف إلى غيره إلا عند القرينة الصارفة، و قد اشتملت الآيات المذكورة على أمرين و هما: الأمر بالسير و الأمر بالنظر. فكلاهما واجب غير أن الأول واجب لكونه وسيلة للثاني، و الثاني واجب مقصود لذاته و إفادة ترتبه على سابقه تحصل بكل من الفاء و ثم يبد أنه تحصل بكل واحدة فائدة خاصة، فالفاء تفيد ترتب النظر على السير بغير مهملة، و ثم تفيد ترتبه عليه بعده حتى يكمل رسوخه، و بهذا تبين الوجه في العطف بهما و لا نحتاج إلى أن الإتيان بضم لإفادة التفاوت بين مراتب الواجبين، حيث أن أحدهما مقصود لذاته و الآخر مقصود لكونه وسيلة كما ذهب إليه أبو السعود و القونوي لأن هذا لا يكون فائدة يستدعيها المقام بخلاف ما ذكرناه.

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ٥٢

ثم أن كون السير واجبا لما ذكر هو ما عليه المحققون، و إن سبق قلم الزمخشري و تبعه القاضي البيضاوي إلى أن الأمر بالسير للإباحة و الأمر بالنظر للوجوب، فقد قال غيرهم: إن ذلك ينبو عنه المقام. أما أولاً: فلأنه إخراج للأمر عن حقيقته.

و أما ثانياً: فلا وجه لذكر إباحة السير للتجارة و غيرها في سياق الإفحام للجاحدين، ثم يعطف عليه ما هو واجب و لا يتم إلا بسابقه. و أما ثالثاً: فقد تقرّر في الأصول أن ما لا يتم الواجب إلا به يكون واجبا فكيف يكون النظر في آثار المكذبين واجبا بدون سير؟ فإن قيل: إنا لم نر في دواوين أصول الدين أن من واجبات الديانة السفر كما ذكر؟ فالجواب أن معنى الوجوب معلق بما إذا لم يحصل الإعتبار المفضى للإعتقاد إلا بالسفر، لأنه يؤدي إلى رؤية الآيات بالمشاهدة التي لها من التأثير ما ليس لغيرها، أما إذا حصل الإعتقاد فلا داعي حينئذ لوجوب السفر و إنما هو مباح. و لهذا كانت الآيات المذكورة في سياق الحجج للمعاندين و كأن ما ذكر هو الذي أدى ببعض المفسرين للقول: بأن الأمر للإباحة.

و قد ذكر الغزالي في الإحياء: أن السفر تعتره الأحكام الخمسة من الوجوب و الندب و الإباحة و الكراهة و الحرمة لأنه من الوسائل فيأخذ حكم ما قصد به و أبان ذلك بيانا شافيا.

و إذا تقرّر أن السير واجب لأجل الإعتبار، فنقول: إن المعبر به أشياء منها ما دلت عليه الآيات المذكورة من الإعتبار بعاقبة المكذبين للرسول، و منها ما دل عليه قوله تعالى:

وَمِنْ آيَاتِهِ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَ اخْتَلَفَ أَلْوَانَهُنَّ إِنَّ رَبَّكَ بِمَا عَمِلْتُمْ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ [الروم: ٢٢]. فإن المسافر يرى من عجائب قدرة الخالق جل و علا

من اختلاف الطباع و اختلاف الأشكال و الهيئات و اللغات و البشرة ما يقضى بوجوب وجود صانع ذلك المختار في أفعاله، إذ لو

صفحة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ٥٣

كان الأمر مستندا للطبيعة لاجاءت الخلق على هيئة واحدة في جميع ما تقدم، مع أنا نرى الإختلاف و التباين تارة مع قرب المناخ و تارة مع بعده، مع أن الأرض واحدة و عناصرها واحدة و أصل البشر واحد و مزيد البسط لهذا في كتب الكلام.

و منها: ما دل عليه قوله تعالى: قُلْ أَنْظَرُوا مَا ذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ [يونس]:

[١٠١] فأمر تعالى بالإعتبار بما خلق من الأجرام العلوية و كيفية وضعها و حركاتها، كما أمر تعالى بالإعتبار بما خلق في الأرض من الجماد و النبات و الحيوان، و في هاته الآية أجمل المنظور فيه و قد فصله في آيات كثيرة من كتابه العزيز للإستدلال على وجوده و وحدانيته، فقال في سورة [الرعد ٢]. اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ أَسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ وَسَيَحْرُ الشَّمْسُ وَ الْقَمَرَ كُلُّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى. فذكر أن الأجرام العظيمة الهائلة قد بقي كل منها في مركز مخصوص من الجو و له حيز يمتاز به عن غيره من غير اضطراب و لا تلاطم و ليس لكل منها ما يعتمد عليه من الأجرام المرئية مع أن أجرامها هي في نفسها مرئية على خلاف المعهود فلا بد أن يكون جميع ذلك لموجب أوجه، فإن قيل: إن محبه هو وجود أعيانها و ذواتها فهذا مردود لوجهين:

الأول: أن الأجسام متساوية في تمام الماهية و لو وجب حصول جسم في حيز معين لوجب حصول كل جسم في ذلك الحيز.

و الثاني: أن الخلاء لا نهاية له و الأحياز المعترضة في ذلك الخلاء الصفر غير المتناهية و هي بأسرها متساوية، و لو وجب حصول جسم معين في حيز لوجب حصوله في جميع الأحياز ضرورة أن الأحياز متساوية، فثبت بهذا أن وجود الأجرام الفلكية في أحيازها ليس هو لذاتها، و إنما هو لمدير حكيم قادر خص كلا منها بما شاء.

ثم إن كمال الإعتبار بترتيب تلك الأجرام العلوية و كيفية أوضاعها و أشكالها إنما يتم على أكمل وجه بالسير في الأرض، فما يرى منها في جهة القطبين لا يرى من المناطق المعتدلة، و كذلك ما يرى في أحد نصفي الكرة لا يرى من النصف الآخر.

ثم قال تعالى عقب الآية السابقة: وَ هُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَ جَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَ أَنْهَاراً وَ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا رُؤُوسَ الْجِبَالِ وَ يُعْشِرُ اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ [الرعد: ٣] قال المفسرون: إنه تعالى لما قرّر الدلائل العلوية أردفها بالدلائل الأرضية بالاعتبار بذات الأرض و ما احتوت عليه من عجائب قدرة الخالق الحكيم القاضية بوجوب وجود صانعها، فإن حكماء المتأخرين الذين وصلوا بالمعارف و التحاليل و الآلات إلى ما لم تبلغه فلاسفة الأقدمين حتى زيفوا لهم كثيرا من خرافاتهم و بينوا خطأهم، فهؤلاء حدائقهم قد أقروا بأنه لا بد من خالق لما هو موجود إذ ما يعللون به كثيرا من الأشياء من قولهم الجاذبية و النواميس و الطبيعية و غير ذلك، قد صرحوا بأنها عبارات إصطلاحية و إلا فحقائقها أمور مجهولة لتترجم متابعتها بالإعتراف بالصانع فمن هؤلاء الحكيم المتبحر «فيلكس»

صفحة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ٥٤

لامروس» و هو من مشاهير فحول علمائهم في القرن التاسع عشر المسيحي حتى أن كتابه «في الجغرافية الطبيعية» الموسوم بالدراسة الأولية عليه مدار تعاليمهم في المدارس و اختير للتعريب ليعلم و يعمل به في المدارس المصرية.

و قد صرح هذا في كتابه المذكور في مبحث الجو و كرة الهواء، بقوله: «و إذا فرض زوال التناقل العمومي من الهواء فإنه يتشتت في الفضاء» إلى أن قال: «لكن الحكمة الإلهية اقتضت الآن حفظ الأشياء و ضبطها في مواضعها الشاغلة هي لها بموجب قوة مجهولة ذاتها لا فعلها تسمى بالجذب و هي كلمة يعلم منها الفعل لا السبب إذ هذا الأخير مع كثرة بحث الطبيعيين عنه و تفتيشهم عليه لم يزل مجهولا إلى الآن و على المتولع بدراسة العلوم أن لا يأخذ بظواهر مثل هاته الكلمات العلمية التي يوضح بها سبب أو أسباب طبيعية مجهولة لحادث من الحوادث، فإذا قيل: هنا مثلا: إن الأجرام تزن أو تثقل لأنها مجذوبة لغيرها أو أنها جارية على مقتضى نواميس الجذب كان ذلك الدور المعيب (الخ كلامه)». ثم إن الإعتبار بأحوال الأرض المشار إليها في الآية الكريمة هي من جهات:

أولها هيئة الأرض: و هي كونها جرما عظيما، حتى أن مقدار ما يصل إليه بصر الإنسان منها يراه مبسوطا مع أنها هي كرة، قال العلامة الرازي . ما معناه: «أنه لا ينازع في كونها كرة إلا من لا تدبر له». وقد ألف الشيخ محمد بيرم الثالث قدس سره رسالته في ذلك استدلال على تكويرها بكلام الحكماء و الفقهاء و أهل الباطن، و ها نحن نسرد هنا نبذة من ذلك مع اختصار و زيادة.

فأما كلام الحكماء: فمنه ظهور أعالي الأشباح من بعد، و منه ارتفاع الشمس و الكواكب في جهات من الأرض بخلاف جهات أخرى حسبما حرر ذلك بموازين أخذ الإرتفاع.

و أما كلام الفقهاء: فقد ذكروا في كثير من المسائل أنه لا- عبرة باختلاف المطالع في الصوم فيجب على أهل المشرق برؤية أهل المغرب للهلال، لأن الوجوب معلق بشهود الشهر لطائفة من الناس بخلاف الإمساك و الفطر فإنه يكون لكل أهل قطر بحسب ما عندهم، لأن الوجوب معلق بدخول الوقت للمكلف، و ذكروا في الصلاة أن بعض الجهات تطول فيها الأوقات و بعضها تقصر حتى يفقد بعض الأوقات كالعشاء في بعض الجهات الضاربة إلى أقاصى أحد القطبين، و ذكروا في الموارث إذا مات متوارثان في يوم واحد

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ٥٥

و زمن واحد منه لكن أحدهما في المشرق و الآخر في المغرب فإن المغربي يرث المشرقي، لما أن وقت المشرقي متقدم في الوجود على وقت المغربي كالزوال مثلا.

و أما كلام أهل الباطن: فقد نقل عن سيدي عبد العزيز الدباغ رضى الله عنه: «أن ساعة الإجابة من يوم الجمعة الوارد فيها الحديث بأنها من عند جلوس الإمام على المنبر إلى انقضاء الصلاة». قال إن ذلك خاص بوقت صعود إمام المدينة المنورة و لما كان ذلك الوقت لا- يتحد في جميع البلاد، من الله بساعة النبي صلى الله عليه و سلم و جعلها تختلف باختلاف صعود الأئمة على المنابر من ذلك اليوم، و جميع ما تقدم إنما يتأتى على القول بأن الأرض كروية و لو كانت بسيطة لما تأتى شيء من ذلك، إذ الشمس إذا ظهرت تظهر على الجميع في آن واحد. و من كلام القطب سيدي أحمد بن عروس رضى الله عنه: «الصريح فيما نحن بصدده و هو من أنواع النظم المسمى بالملحون، قوله:

و أدينا مثلتها دلالات تكرب في جملة أدلاع

ماذ لحقوها من طماعا و ماتهم في بيرما لوقاع

و هو صريح في تكويرها و دورانها على ما سيأتى، و ليس في القرآن ما يعارض ذلك إذ مساق الآيات لما يشاهد و المشاهد البسط في نظر العين، و لما كان خطاب التكليف بهاته الشريعة المطهرة عاما لجميع طبقات الناس كان خطابهم على أسلوب يقتدر به كل على التوصل إلى قدر مدركاته، هذا في مسائل التكليف العامة كالإستدلال على وجود الخالق و صحة الرسالة و العلم بدخول أوقات الصلاة و الصوم و أشباه ذلك، أما ما يكتفى فيه بالإستفتاء عن الغير فقد خص الله به الفقهاء.

فقال تعالى: فَسَيَلُّوْا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ* [الأنبياء: ٧]. و هذا أصل نافع يجرى في كثير من الأشياء، و قد بسطه الشاطبي في موافقاته.

و ثانی الجهات المشار إليها في الآية: الإستدلال بالجمال المعنون عنها بالرواسي، فإن عظم خلقتها و اختلاف أوضاعها و اختصاص كل بحد محدود قاض بوجود مدبر خصها بتلك الحالات، و لو كانت بمجرد الطبيعة التي هي إسم بلا مسمى لتساوت في جميع الحالات، مع أن المشاهد هو اختلافها هذا بحسب الظاهر، و أما إذا دق النظر فيما تختلف به مما تشتمل عليه من أنواع الصخور و التراب و الطين و المعادن، فذاك أمر يبهر العقول و يوقف الأذهان، و من أراد الإطلاع على أسرار ذلك فليراجع كتب الطبيعيات و الكيمياء.

و ثالث الجهات المشار إليها في الآية: الإعتبار بالأنهر و اختصاصها بأحوالها التي هي عليها مما يقتضى وجود مخصص لها، و الأغلب في نظم القرآن قران الأنهر بالجمال إشارة

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ٥٦

إلى أن تكون الأنهر بسبب الجبال إما من الثلوج المذابة منها أو من منابع العيون المتفجرة فيها، و كأن سبب كثرة هاته المنابع فى الجبال هو أن الجبال من أسباب جذب الأبخرة و الأمطار و على قدر تشرب سطح الأرض للمياه يكثر فى باطنها اجتماعها، ففى الأراضى البسيطة تتصاعد تلك المياه أبخرة لسهولة نفوذ البخار فى أجسام الأرض المتخلخلة بخلاف الأراضى ذوات الجبال فإنها بصلابتها تمنع نفوذ الماء بخارا كما تحميه من تأثير حرارة الشمس، فلا يزال الماء يجتمع فى طبقات الجبال إلى أن يتكون منه مقدار عظيم فينفذ بقوة لأنه أعلى مما حوله من الأرض فتتكون منه الينابيع و العيون و تسيل جدا و لا و نهيرات، فإذا اجتمعت فى حوض تكون منها نهر و يعظم و يصغر بحسب ما يلتقى فيه من الأنهر و الينابيع.

و رابع الجهات المشار إليها فى الآية: الإعتبار بما فى الأرض من الثمرات و أنها كلها مثل الحيوان ذكر و أنثى، و هذا التفسير البين المحموله فى الآية على حقيقة اللفظ من قوله تعالى: **وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا رُزُقَيْنِ أَنْثِينَ [الرعد: ٣]**. إنما اطلعنا عليه من ترقى العلوم الطبيعىة و الفلاحية، فقد تبين بالتجربة و المشاهدة و قرره جميع فلاسفة المتأخرين فى كتبهم أن جميع أنواع الثمرات بل حتى الزهور أيضا تشتمل على ذكر و أنثى و إذا أفرد أحدهما عن الآخر لا تتولد الثمرة، غير أن بعض الأنواع تكون فيه الشجرة الواحدة مشتملة على البزر الذكر و على البزر الأنثى و تتلاقح مع بعضها بالريح و هو المشار إليه بقوله تعالى: **وَأَرْسَلْنَا الرِّيَّاحَ لَوَاقِحَ [الحجر: ٢٢]** و بعض الأنواع تكون فيه شجرة الذكر مفردة عن شجرة الأنثى و هذا النوع الأخير كان معلوما منه سابقا بعض أفراد كالنخل و التين، لكن الآن قد تحقق أن جميع الأنواع لا تثمر إلا بالتلاقح بين الذكر و الأنثى حتى إذا تتبع قطع أحد الصنفين من شجرة تشتملها و أبقى نور الآخر بحاله و لم يكن فى ذلك الموضع شجرة أخرى مثلها فإن ما بقى فيها من النور لا يثمر، و قد حرر ذلك و علمت علامات الذكر و علامات الأنثى فى كل نوع بحسبه فسبحان القادر الحكيم الذى أرسل محمدا صلى الله عليه و سلم حقا و صدقا بأوضح المعجزات، فقد أنبا بهذا منذ أكثر من ثلاث عشرة مائة سنة عندما لم يكن هناك حكيم يختلج هذا بفكره فضلا عن الأمة الأيمىة و هو أحدها لا يقرأ و لا يكتب، فلا شك أن هذا إنما هو بوحي من الخالق الذى يعلم ما خلق سبحانه و تعالى، و لدقة هذا الأمر و غرابته قد اعترف منصفوا أهل هذا العصر بأن الحكمة قد فازت بها الأمة العربية منذ بعث فيها رسولها و استندوا لما اشتمل عليه القرآن من بديع الحكم، فإن معرفة كون الريح تلقح الأشجار لم تعلم عند الحكماء إلا فى آخر هذا القرن، و القرآن الكريم ناطق بها و لهذا قال مستر اجيرى (حرف ج ينطق به بين التاء و الشين) الإنكليزى معلم اللغة العربية فى مدرسة عامّة الفنون فى بلد أكس فور الكائنة جنوبى لندرة: «إن أصحاب الإبل قد عرفوا أن الريح تلقح الأشجار و الثمار قبل أن يعلمها أهل أوروبا بثلاثة عشر قرنا». أقول و كذلك كون الثمار تشتمل على الزوجين و ما ذلك إلا بتعليم الخالق لا بواسطة و لا تعلمات و لا تجربات و تحليلات كيميائية و بذلك يعلم حقيقة قول من قال إن القرآن لم يفسر

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ٥٧

على حقيقته و إنما كانوا يبينونه على قدر ما تصل إليه العقول و على قدر الحاجة فى الأحكام. و بما تقدم يظهر أنه لا حاجة إلى تأويلات المفسرين فى قوله تعالى: **وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا رُزُقَيْنِ أَنْثِينَ [الرعد: ٣]**. حيث حملوا الزوجية على معان أخر كاختلاف الطعوم و الطبائع مما ينبو عنه التأكيد باثنين، فإن ما ذكره لا ينحصر فى اثنين إلا بالنظر للمقابل و حيث تبينت الحقيقة فلا داعى إلى التأويل و يخالف ما قالوه من التأويل و يؤيد ما حررناه من الحمل على الحقيقة أن ما أولوا به لا يستقيم على نمط واحد فى آيات القرآن العظيم الواردة فى هذا المقصد كقوله تعالى فى سورة [الحج: ٥] **وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَ رَبَّتْ وَ أَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ رُزُقٍ بِهِيجٍ**. فإن ما قالوه من اختلاف الطعوم أو الطبائع لا يطرد فى جميع ما تنبتة الأرض بل فيها المتوافق فى ذلك و إن كان بحسب التشخيص مختلف الأنواع بخلاف ما قلناه فإنه مع الحمل على الحقيقة هو مطرد أيضا.

و بما تقدّم يعلم وجه طلب العلوم الرياضية على ما سيأتي في محله إن شاء الله تعالى حيث أن التفسير المتقدّم في الجملة الشريفة إنما تبين بها كما أن تمام الآية اشتمل على إشارة غريبة من ذلك القبيل و هو الجهة الخامسة من جهات الاعتبار المشار إليها بقوله تعالى: يُغْشَى اللَّيْلَ النَّهَارَ [الرعد: ٣]: فقد تقدّم أنه تعالى بعد أن ذكر في الآية السابقة الدلائل العلوية ذكر بعدها الدلائل الأرضية و نسق فيها تعاقب الليل و النهار فجعله من الحوادث الأرضية، فقال المفسرون لظهوره فيها و إن كان هو من متعلقات العلويات و هو الشمس، و اعلم أن مسألة حركة الأرض أى هل هي التي تدور أو أن الشمس هي التي تدور؟ هي من المسائل الظنية أعني أن أدلتها ظنية و كثير من مسائل علم الهيئة هو على هذا النحو إلى الآن، كمسائل الأبعاد بين الكواكب و مقادير أجرامها و طبائعها. و ما تشتمل عليه. و علماء هذا الفن مقرّون بذلك كما يأتي، و يشهد له أنهم كانوا مطبقين على أن بعد الزهراء من الشمس مقادير معلومة، ففي سنة (١٢٩٣ هـ) كان اقتران الشمس بالزهراء يعني أن الزهراء تمرّ حائلة بين الأرض و الشمس فاعتنوا لذلك من قبل و أرسلوا العارفين إلى الجهات التي يمكن منها رؤية ذلك لتحرير الرصد بالآلات فحرروا ذلك و وجدوا أن جميع حسابات السابقين خطأ فإن البعد الذي حرر هو أقل مما كانوا يحسبون و كذلك مقدار جرم الزهراء، و من الجائز أيضا ظهور الغلط في هذا التحرير في وقت آخر. و حيث كانت المسائل في هذا الفن ظنية اختلف علماءه في أسباب وجود الليل و النهار و اختلاف الفصول بالحرّ و البرد بعد الاجماع على أن ذلك من آثار تقابل الشمس و الأرض، فقدماء الفلاسفة ذهبوا إلى أن الأرض هي التي تدور و الذين بعدهم ذهبوا إلى أن الأرض مركز للفلك و بدوران الفلك يحدث الليل و النهار، و أن الشمس هي التي تدور معه و لها سير خاص بها يحدث منه الصيف و الشتاء.

و اشتهر هذا المذهب و زاد انتشارا عندما انتشر هذا العلم و تهبذ في الأمة الإسلامية

صفحة الاعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ٥٨

لما استفحل فيها العلم، و كان ذلك المذهب هو المشتبه ممن أخذوا عنه العلوم الرياضية ثم أحيى المذهب الأول، و تأكد الآن عند علماء العصر بهذا الفن و أنكره المنتسبون للعلم من المسلمين ظنا منهم أن المذهب الآخر هو من عقائد الإسلام، أو أن المذهب الآخر مصادم للنصوص، و الحق أن ليس شيء من هذا و لا من ذلك هو مما يجب اعتقاده عندنا و إنما المدار عندنا على الاعتبار بالآثار المشاهدة من الليل و النهار و أشباه ذلك و إثبات جريان للشمس، و أما كفيته فلا تعلق لها بالعقائد و سير الشمس ثابت على كلا المذهبين لأن المتأخرين يثبتون لها حركة رحوية على نفسها و حركة ثانية على منطقة لها أيضا ثم حركة ثالثة لها مع جميع ما يتبعها من الكواكب حول شيء مجهول، كما أن هاته الدورة مجهولة المستقر أيضا و كأنها هي المشار إليها بقوله تعالى: وَ الشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ [يس: ٣٨]. و ذلك أن المستقر أوتى بلفظه منكر للإيهام فيفيد أنه غير معلوم للخلق و لهذا أوتى به مضافا إلى الشمس باللام فكان منكرا و لم يقل مستقرها بالإضافة المفيدة للتعريف لأن ذلك المستقر غير معروف، و علماء هذا الفن الآن من غير المسلمين مقرّون بذلك فهو حينئذ إجماعي بيننا و بينهم. ثم أن كون حدوث الليل و النهار هو من آثار دوران الأرض، ربما كانت آيات عزيزة تشير إليه فمنها: الآية المتقدمة.

فإنه تعالى بعد أن ذكر الدلائل على وجوده من السماء، ذكر الدلائل الأرضية و خرط فيها الليل و النهار، فيشير ذلك إلى أنهما من آثار الأرض لأن وجودهما و إن كان يستلزم الشمس و الأرض معا لكن تخصيصه بالإنخراط في الدلائل الأرضية يدل على تعلق خاص، و هو كون دورانها هو السبب على أن منطوق الآية فيه تدعيم لهذا حيث قال: يُغْشَى اللَّيْلَ النَّهَارَ [الرعد: ٣]. فجعل الليل الذي هو ظلمة الأرض يغشى به النهار الذي هو ضوء الشمس ففيه تلميح إلى أن الأرض هي التي تحدث ذلك بفعل الله.

و من الآيات المشيرة إلى ذلك أيضا قوله تعالى: وَ الشَّمْسُ وَ ضُحَاهَا، وَ الْقَمَرُ إِذَا تَلَاهَا، وَ النَّهَارُ إِذَا جَلَّاهَا، وَ اللَّيْلُ إِذَا يَغْشَاهَا [الشمس: ١-٤]. فجعل النهار الذي هو مقابلة وجه الأرض للشمس مجليا لها و الليل الذي هو الظلمة الأصلية للأرض مغشيا لها، فأسند فاعلية ذلك لغير الشمس بل لفاعل آخر و هو الليل و النهار الذي هو من آثار الأرض، و إذا كان هذا ثابتا فما يدل على الآيات على

طلوع الشمس و غروبها و غير ذلك يمكن تأويله باعتبار الأبصار و العرف الجارى فى اللسان.

ثم اعلم أنه لا يلزم من دوران الأرض نفي السماء على ما يتوهمه غير العارف لأن السموات لا شك فى وجودها للنصوص القطعية عليها، غير أن جرمها غير معلوم لنا و إنما نعتقد أنها أجرام شداد هى بالنسبة لكل من على الأرض فوqe كما هو المفهوم اللغوى للفظ سماء و أما ماهية أجرامها فالله أعلم بها، و نعتقد أنها سبع طبقات شداد ثم طبقة أخرى صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ٥٩

تسمى بالكبرى ثم طبقة أخرى تسمى بالعرش و لا يلزم من كونها شدادا أن لا تخترقها الكواكب بسيرها، فإن ذلك مشاهد لنا كما أنه لا يلزم من سير الكواكب انعدامها حتى يقولون إن الكواكب ملقاة فى الفضاء، لأن ذلك متوقف على معرفة كنهها و هو فوق عقولنا، لأن العقول إنما تتوصل إلى المعهودات للحواس و ما لا تعهده الحواس يعسر إدراكه على حقيقته، و لهذا كان علينا أن نصدق الصادق و نكل معرفة ذلك إلى خالقها، فقد قال سيدنا عبد الله بن عباس رضى الله عنه عند قراءته لقوله تعالى: وَ أَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرًا قَوَارِيرًا مِنْ فِضَّةٍ [الإنسان: ١٥ و ١٦] ما معناه: أن القوارير الزجاج الذى لا يحجب ما وراءه، و الفضة إذا طرقت ما عساها أن تطرق لا تكون إلا كثيفة، فهاته الفضة هى نوع آخر لا نعلمه و نكل علمه إلى الله، بل الأغرب أن مثل هاته المسائل أقر بها الحكماء الذين لا يعتقدون الشرع، فقد قال أحد حكماء الفرنساويين المتأخرين ما ترجمته: «إن للعقل حدًا محدودا لا يتجاوزه، كما أن للبصر حدًا محدودا لا يتجاوزه، فإتعب العقل فى التوصل إلى معرفة كنه الأجرام العلوية و ما هيئتها، كإتعب البصر فى أن يرى ما فوق السقف من أسفله، فهب أنك أعنته بأعظم المرايا المكبرة فإنه لا يمكن أن يخترق السقف حتى يرى ما فوقه» اه.

و يمكن لنا أن نقرب لأولئك المنكرين للسماء فهم وجودها على مقتضى علم الهيئة الذى هم عليه الآن، بأنهم يسلمون وجود كرة الهواء محيطه بالأرض و أنها عظيمة شديدة حتى قزروا أن ذات الإنسان المتوسط مضغوطة و حامله لأكثر من ثلاثة و ثلاثين ألف رطل من الهواء، و مع ذلك فإن هاته الكرة العظيمة الشديدة تخترق كيفما أراد المخترق لها فلم لا يجوز أن تخترق الكواكب السيارة السموات على هذا النحو، ثم أن هاته الكرة الهوائية نهاية ارتفاع سطحها الأعلا عن سطح الأرض نحو ستة عشر فرسخا، و هى فى ذاتها تختلف طبقاتها و ما فوقها ليس بخلو، لأنه لا يوجد فى الكون خلو مطلق كما هو رأى قدماء الفلاسفة و متأخريهم، كما قرره الحكيم لا مروس فى كتابه السابق ذكره فلم لا يجوز أن يسمى الشىء المعمر لحدّ محدود من الفضاء بالسماء و ما فوقه من حدّ آخر بسماء آخر و هكذا، و إن كنا نجعل حقائقها لكننا نقول أنها لا تمنع من سير الكواكب فى مناطقها، و من ذلك الأرض فالأرض التى يقع بها الإعتبار بالأوجه المتقدمة لا يكمل مزيد الإعتبار بما فيها من اختلاف أقطارها حرًا و بردا و ثمارا و أنهارا و جبالا و سكانا إلا بالسفر و مشاهدة عجائب خلق الله فيها.

الفصل الثانى فيما ورد فى السفر من السنة:

إشارة

روى السيوطى فى الجامع الصغير عن ابن السنى و أبى

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ٦٠

نعيم عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه و سلم أنه قال: «سافروا تصحوا و تغنموا» فأرشد الرسول صلى الله عليه و سلم إلى أن فى السفر ثمرتين راجعتين إلى الجسم زيادة على ما تقدم من الثمرات الروحية، الأولى: هى الصحة لما يشتمل عليه السفر من الرياضات البدنية، إذ لا يخلو غالبا عن مشقة و لهذا رخص فيه من الرخص ما هو معلوم فى الفروع بقطع النظر عن العلة

الباعثة عليه كما هو المذهب الحنفى و إتعاب البدن يثمر صحته، و أيضا لإستنشاق المسافر الهواء السليم الذى هو أنفع للجسم من الأكل و الشرب لأن الإنسان لا غنى له عن التنفس فى كل لحظة بخلاف الأكل و الشرب لإمكان الصبر عليهما مدّة ما.

و بيان وجه احتياج الإنسان إلى الهواء فى كل لحظة للتنفس هو:

«أن الله قدّر بحكمته تركيب الجسم الإنسانى على أبداع وجه، و جعل سبب قوامه هو الدم المصفى من الغذاء، فبعد هضم الغذاء فى المعدة يمتص صفوه فى قناتين توصلانه إلى القلب بعد اجتماعهما فى قناة واحدة و هو إذ ذاك فى لون البياض و قبيل الوصول إلى القلب يصب ذلك فى قناة دم الدورة الراجع إلى القلب أيضا، و للقلب شكل صنوبرى منقسم داخله إلى قسمين يمين و شمال و كل منهما منقسم إلى قسم علوى و قسم سفلى و بينهما حاجز فيه منفذ يوصل بينهما له غطاء يفتح و ينطبق، فالقناة المتقدّمة تصب فى الطبقة العليا من القسم الأيسر، و من هناك يفتح له الغطاء فيصب نقطة فى الطبقة السفلى ثم ينقبض الغطاء بسرعة ثم نقطة أخرى و هكذا، و كلما انطبق الغطاء ضربت جميع الأنباض التى فى البدن، فحركتها تابعة لحركة الغطاء قوّة و ضعفا سرعة و بطئا، ثم يخرج الدم من القسم الأيسر السفلى فى عرق عظيم هو مجتمع عروق الأنباض فيصعد إلى أعلا ثم يتفرّع منه فروع و هاتيك الفروع تتفرع منها فروع آخر أقل منها حجما و هكذا إلى أن يعم جميع أجزاء البدن و هى عروق الأنباض، و كلما انتهى نبض إلى حدّه يتلقى الدم منه عرق من عروق الشرايين التى لا تتحرّك، و هاته وظيفتها إرجاع الدم إلى القلب فتكون عند اتصالها بالأنباض صغيرة الحجم، ثم لا تزال تجتمع فتعظم إلى أن تصير عرقا واحدا فيصب فى القسم الأيمن من القلب الذى هو مقسوم أيضا مثل الأيسر و حركته مثل حركته غير أن الدم يخرج من الطبقة السفلى منه فى عرقين يوصلانه إلى الرئة، و لا يخفى أنه أى الدم إذ ذاك قد دار فى جميع البدن و نقص من أصل كميته بما ترشحه العروق إلى اللحم و العظم و قد تغيرت عناصره فقل منه الأ-كسوجين و زاد فيه الحامض الفحمى حتى بتغير لونه فيصير مسودا بعد أن كان أحمر، فلو بقى على حالته لضرّ بقاؤه فى البدن.

صفحة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ٦١

لكن حكمه الله تداركت هذا الملم باللطف فجعلت الرئة تجذب الهواء الذى هو مركب فى حالة سلامته الأصلية من الآزوت و هو أكثر أجزائه، و لا يضرّ و لا ينفع الحيوان ذا الدم إذا كان مخلوطا مع بقية الأجزاء و من الأوكسوجين الذى هو الجزء النافع للحيوان ذى الدم، و أقل منه كمية الحامض الفحمى الضار للحيوان المذكور، و من شىء يسير من الماء حاله كونه بخارا فإذا دخل الهواء الرئة استرجع الدم منه الأوكسوجين الذى فقده و دفع فيه ما عنده من الحامض الفحمى المضرّ ثم أخرجته الرئة بالتنفس و أخذت هواء آخر لما ورد إليها من الدم أيضا و هكذا فى كل لحظة، و عندما يصفو الدم فى الرئة يرجوعه إلى اعتداله ينبعث منها فى عرق عظيم و يرجع إلى القلب من الجهة اليسرى على نحو ما قدّمناه و هكذا، فسبحان القادر الحكيم اللطيف.

و بهذا البيان ظهر وجه احتياج الإنسان للهواء أكثر من الغذاء و إذا علم ذلك علم وجه كونه السفر مثمرا للصحة لأن الهواء فى الأماكن المسكونة يكثر فيه الجزء الحامض الفحمى المدفوع بتنفس السكان بخلاف الأماكن الغير المسكونة فإن هواءها يكون أصفى و أنقى من غيرها، و المسافر لا بد له من قطع مفاوز و بحارا فيستنشق ذلك الهواء الحسن فيصفى دمه و يصح بسببه بدنه كما قال عليه الصلاة و السلام و بما قررناه فى التنفس و الهواء يعلم وجه كراهة النفخ على الماء و الطعام شرعا، لأن الهواء المنفوخ به يكون حاملا لجزء كثير من الحامض الفحمى الذى هو مضر بالصحة.

و اعلم أن ما قررناه فى حسن الهواء و سلامته للمسافر هو بالنظر إلى الغالب الكثير فلا يعترض عليه بأن هناك أماكن خالية عن السكان و مع ذلك هى و خمة لما يعرض لها من تعفن أو غيره فلا يكون هواؤها سليما لأن ذلك قليل و الحكم على الغالب، و هكذا القول فى الغنيمه أى الربح المالى إذ شأن المسافر الإطلاع على أحوال التجارة و السعى فيها فيربح إذا سعى لها و لا يعترض بكون

المسافر لا يريح إذا سافر لمقصد سياسى أو تنزهى أو بدنى أو غير ذلك، إذ مدار حصول الشىء على السعى فى أسبابه.

الفصل الثالث فيما ورد فى السفر من كلام الحكماء و الأدباء:

اعلم أنه قد ورد فى مدح السفر كثير من كلام البلغاء و الحكماء فلا نطيل بجلبه هنا و نقتصر على كلام الإمام الشافعى رضى الله عنه حيث قال:

تغزب عن الأوطان فى طلب العلاو سافر ففى الأسفار خمس فوائد

تفرج هم و اكتساب معيشة و علم و أداب و صحة ماجد

فقد جمع من فوائد السفر ما تشوق النفوس إلى اكتسابه.

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ٦٢

الباب الثانى فى السفر لغير أرض الإسلام و فيه فصلان

الفصل الأول فى النصوص الدالة على الجواز

لا خفاء أن الأعمال بمقاصدها، فإما أن يكون السفر لمقصد صحيح شرعا كمقصد مصلحة عامة أو مصلحة خاصة لا مندوحة عنها، أو يكون لمجرد توسع فى المال و تنزه، و على كلا الوجهين فالسفر جائز غير أنه يختلف حكمه بالنسبة للمروءة و حفظها حتى تبقى العدالة أو لا تبقى بانعدام المروءة، و ها نحن ننقل ما اطلعنا عليه فى المسألة. ففى الفتاوى البيروية نقلا عن خط الشيخ محمد بيرم الرابع ما نصه: «سئل جدى رحمه الله عن ركوب البحر و الذهاب لدار الحرب هل يسقطان العدالة أم لا؟» فأجاب بما نصه: أما نفس ركوب البحر فإنه لا يمنع قبول الشهادة إلا عند ظن الهلاك، و أما الذهاب إلى دار الكفر فينظر فيه للسبب الحامل عليه، فإن كان مصلحة: إما عامية للمسلمين، أو خاصة بالذاهب، كما إذا كان به مرض عجز عن علاجه هنا فهذا لا بأس به و لا تسقط العدالة بسببه، و إذا كان لغرض التجارة و الاستكثار من حطام الدنيا فهذا هو الذى تسقط به العدالة هذا ملخص ما فهم من كلام أصحابنا كما فى الوهبانية و شروحها و الله تعالى أعلم انتهى.

و فى الفتاوى الهندية من كتاب السير بعد أن ذكر أن الرجل لا يخرج للجهاد إلا إذا رضى أبواه أو من يقوم مقامهما على التفصيل المقرر هناك قال: «و إن أراد الخروج للتجارة إلى أرض العدو فكرها خروجه (أى الأبوان)، فإذا كان أميرا لا يخاف عليه منه أو كانوا قوما يوفون بالعهد يعرفون بذلك و له فى ذلك منفعة فلا بأس بأن يعصاهما، ثم ذكر مسائل تحوم على أن المدار فى الجواز و عدمه على غلبة الظن بالأمن فإذا حصل ذلك جاز له السفر و لو بغير رضى الوالدين فتلخص مما تقدم أن السفر إلى أرض غير المسلمين جائز كيفما كان المقصد على شرط الأمن، و إنما يختلف الحكم بالنسبة للعدالة، و لا يخفى أن العدالة مدارها على حفظ المروءة و التنزه عن الرذائل و سفاسف الأمور، فإذا كان يقتحم الأخطار من السفر المذكور لمجرد الزيادة فى التحسينات كالتنعم بالنظر أو بزيادة المال كان ذلك قادحا فى العدالة و إن لم يكن محرما، و أما إذا كان السفر المذكور لغرض صحيح و لو

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ٦٣

لتجارة محتاج إليها له خاصة أو له و لغيره فهو مع كونه مباحا لا يسقط العدالة أيضا بل له الأجر الأخرى إذا صحح النية و أخلصها التى هى أساس العبادة، و قد علم مما مر أن شرط الجواز هو الأمن و هذا الشرط لا يختص بأرض غير الإسلام بل هو شرط أيضا فى أى أرض كانت كما فى حواشى الشيخ ميارة على لامية الزقاق حيث قال أثناء الكلام على الإمامة ما مفاده: «إن الإنسان إن لم يستطع كف الظلم و المعاصى تجب عليه الهجرة». فإذا كانت تجب الهجرة منها فكيف يجوز الإقدام على الدخول إليها و الله تعالى يقول: وَ

لا تُلقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ [البقرة: ١٩٥]. ثم أن الأمن يعلم حصوله و عدمه من الباب الآتى إذ أهل الأرض الآن مختلفوا الصفات و الأحوال.

الفصل الثانى فى تطبيق الحكم على سفر العبد الضعيف إلى ممالك أوروبا:

سيعلم من المقصد الوجه الحامل لى على السفر إلى ممالك أوروبا و هو إما التداوى بعد العجز عن علاج المرض فى بلادنا أو مصلحة أو ضرورة و كل الوجوه الثلاثة مما يسوغ السفر بلا سقوط العدالة، و إذا اعتبرنا ما حصل من ثمراته و أقله الحمل على جمع هاته الخلاصة فإنى أرجو من كرم الله تعالى أن يعفو عن زلاتى و يعاملنى بمحض جوده و فضله سيما و البلاد التى قصدناها من بلاد الأجانب هى تامّة الأمن كما يعلم من الباب الآتى.

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ٦٤

الباب الثالث فى تقسيم أحوال أهل الأرض الآن

إشارة

و فيه سبعة و ثمانون فصلا اعلم أن الله جلت قدرته قد قسم الخلاق فى هاته الأرض و خالف بين عوائدهم و اصطلاحاتهم و لغاتهم و إن اتحد الجميع فى أصول الاحتياجات كالطعام و الملبس و الوازع، و قد قرب الجغرافيون سكان كره الأرض من اثنتى عشرة مائة مليون إلى ثلاثة عشرة مائة مليون، و قسموا الأرض إلى أقسام خمسة و هى آسيا، و أوروبا، و أفريقيا، و أمريكا، و أستراليا، و هى أقسام اعتبارية إذ الأرض واحدة و ما فيها متقارب متماثل.

القسم الأول آسيا

إشارة

اعلم أن القسم الأقدم عمراننا و الأكثر سكانا و الأشرف معنى لما حواه من كونه مصدرا للديانات الإلهية و دارا للرسل عليهم أفضل الصلاة و السلام، و منبع سطوع النور العظيم الحاوى للذات الشريفة المحمدية عليها أفضل الصلاة و أزكى التحية هو قسم آسيا الشامل لمكة و المدينة و القدس، و هو يحده شرقا خليج برنج و المحيط الشرقى، و جنوبا المحيط الهندى و خليج فارس و البحر الأحمر، و غربا البحر الأحمر و البحر الأبيض و بحر مرمر و البحر الأسود و نهر دون و جبال أورال، و شمالا المتجمد الشمالى و هذا القسم يشتمل على عشرين مملكة.

الفصل الأول فى المملكة العثمانية

اعلم أن أعظم الممالك الإسلامية فى هذا القسم هو المملكة العثمانية لاستيلائها على أغلب الممالك الإسلامية التى كانت تقسمت و اتحادها تحت سلطنتها و لاشتمالها على الحرمين الشريفين، و لأن سلطانها هو صاحب الحرمين الشريفين و لامتدادها على ممالك واسعة إسلامية فى أفريقية، كما أن لها فى أوروبا ممالك واسعة فتألف من المجموع مملكة عظيمة تختها القسطنطينية، و تسمى فاروقا

لفرقها بين أرض آسيا و أرض أوروبا و لفرقها بين البحر الأبيض و البحر الأسود، فكان لها بهذا الموقع عظيم الإعتبار، و سكان هاته القاعدة زهاء مليون و نصف، و أقسام هاته المملكة هي الأناضولى و فيه آسيا الصغرى و الشام و العراق و ديار بكر و أرمينية و الجزيرة و الحجاز و اليمن، و لها فى أوروبا قسم الروملى و لها فيه ولايات ممتازة و هي إيالة البلغار و الروملى الشرقية و فيه جزائر البحر الأبيض التى منها ما

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ٦٥

له امتياز كجزيرة كريدوسيواس، و لها فى أفريقيا ممالك أيضا و هي طرابلس و مصر و تونس، و هاتان الأخيرتان لهما امتيازات خاصة فى الإدارة.

و تشتمل المملكة الآن فى الأقسام الثلاثة من الأرض على نحو اثنين و عشرين مليوناً عدا الممالك التى لها امتيازات، فإذا انضم ذلك كان الجميع يناهز الأربعين مليوناً، و الذى يخص قسم آسيا فقط من السكان نحو ستة عشر مليوناً، و قد ابتداء تأليف هاته المملكة من سنة (٦٩٩) تحت سلطنة السلطان عثمان فى أرمينية و لا- زالت تعظم إلى أن بلغت نهاية السطوة على جميع ممالك المعمورة، ثم ابتدأت روسيا فى حروبها و تداخلت الدول الأوروبية تارة بالدفاع عنها و أخرى للربح منها، و لا زالت بين الدول لها اعتبار و حكومتها شوروية فى الرسم، لكنها الآن تحت الحكم العرفى.

و لم تزال سلاطينها يحضون على الأمن فى جميع أنحاء المملكة و فى جميع أنواع السكان الذين أغلبهم مسلمون، و هم نحو ستة عشر مليوناً، و باقيهم أغلبهم نصارى على مذاهب شتى، و الباقى من ديانات مختلفة. و لزيادة توطيد الأمن و إجراء العدل أسس المقدس السلطان عبد المجيد التنظيمات الخيرية فى سنة (١٢٥٧ هـ)، ثم أكدها ولده السلطان المعظم عبد الحميد بالقانون الأساسى الذى أصدره فى سنة ١٢٩٣ هـ و فقه الله لما يرضاه، و بقیة التفاصيل المتعلقة بهذه المملكة تأتى إن شاء الله تعالى فى المقصد، و قوتها المالىة و الحرية تأتى فى آخر المقدمة فى جدول قوات الدول بحول الله و إرادته.

الفصل الثانى المملكة الثانية هي مملكة فارس

و هي مملكة إسلامية قاعدتها إيران و عدد سكانها من الخمسة ملايين إلى سبعة ما بين سنیه و شيعية، و لها تقدم فى الحضارة و بعض رجال دولتها مهذبون لهم معارف كافية فى السياسة، و رئيس الدولة يلقب بالشاه و هو الآن الشاه ناصر الدين من آل البيت المطهر، و قد التفت إلى الإصلاحات التى يقتضيها الحال لما شاهده فى أوروبا و غيرها عند أسفاره لها منذ استدعته الدولة النمساوية فى سنة ١٢٩٠ هـ للحضور للمعرض الذى فتحت فاجاب دعوتها، كما أجاب السلطان عبد العزيز العثمانى دعوة دولة فرانساً لمعرضها فى سنة ١٢٨٧ هـ، و الشاه المشار إليه زار فى سفرته المذكورة الدولة العلية، فإنه بعد أن وصل إلى لندره على طريق روسيا و ألمانيا، رجع على طريق فرانساً ثم النمسا المدعو إليها، و من هناك توجه للأستانة.

و لما علم السلطان بقصدته لزيارته أرسل له باخرة جليئة سلطانية لركوبه و جفنين مدرعين يحفانه، و أرسل له فيها وزير البحر فركب الشاه الباخرة من إحدى فرض إيطاليا بعد زيارته لمملكها، فوصل إلى جناح قلعة فى يوم الأحد (٢٢) من جمادى الثانية سنة (١٢٩٠ هـ) فأطلقت له المدافع من القلعة و اصطفت له العساكر و اقتبله هناك الصدر رشيد باشا فى باخرة سلطانية و معه سفير الشاه فى الأستانة و والى جزائر البحر الأبيض، و فى يوم

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ٦٦

الإثنين لاقاه فى بحر مرمر سفراء الدول فى بواخرهم الرسمية و وجوه تجار الفرس فى ستة بواخر آخر، و لاقاه هناك أيضا فرقة من الأسطول العثمانى فوصل فى موكبه البهى إلى الأستانة من يومه و أرسى قبالة قصر بكر بيك المعد لنزوله فأطلقت له المدافع و توجه

السلطان للقائه في الباخرة و رحب به و آنسه و لبثا مليا و المترجم بينهما ميرزا حسين خان صدر دولة الشاه، ثم نزلا معا إلى القصر و أطلقت المدافع من جميع الأسطول العثماني ثم رجع السلطان إلى قصر باشكطاش، ثم زاره الشاه بعد الإستراحة و آنسه و كان كل منهما متقلدا بنيشان صاحبه و زينت له سائر الدواوين الملكية و منازل تجار الفرس، و حصل له من العناية ما أكد له مزيد الألفه بين السلطنتين ثم عاد إلى بلاده، و أخذ في فتح الطرق للتقدم لكن السير فيها بطيء ثم عاد إلى أوروبا سنة (١٢٩٥ هـ) لزيارة معرض باريس على وجه غير رسمي، و زاد استبصارا فيما ينبغي اتخاذه و شرع في شيء من التنظيم سنة (١٢٩٦ هـ) تداركا لما يحيط به سياج الحفظ لأمته و مملكته التي أخذت منها الروسية قسما عظيما في أواسط القرن الحالي، و هاته المملكة حكمها الآن استبدادي مطلق، غير أن ما لا باعث عليه من الجزئيات يجرى فيه الحكم الشرعي الإسلامي و الغرباء لهم الأمن من جهة الحكم إذا دخلوا المدن العظيمة منها و حلوا فيها.

أما غيرها فلا اطمئنان فيها إلا إذا أخذ المسافر وصيات من رؤساء الحكام أو خفراء له، و دخل هاته الدولة و خرجها يأتي إن شاء الله تعالى.

الفصل الثالث المملكة الثالثة هي مملكة أفغانستان

و موقعها شرقي فارس و قاعدتها كابل و قد كانت هاته المملكة مقر المملكة الغزنوية ثم السلجوقية ثم استقلت بولاية أحمد شاه في القرن الثاني عشر ثم دخلت تحت السابقة الذكر، ثم استقلت في عشرة السبعين بعد الألف و المائتين بإعانة الإنكليز، و سكانها نحو الستة ملايين و قيل ثمانية و الأول أقرب، أكثرهم أهل بادية و سكان جبال و الديانة العامة هي الإسلامية السنية و الحكم استبدادي مطلق، و لا راحة تستقر فيها لكثرة الثورات و عدم انقياد القبائل، ثم تعارض سياستي روسيا و الإنكليز فيها حتى اغتر أميرها و حارب الإنكليز فوقعت المملكة في قبضتهم و خذلته روسيا حيث تم لها جل قصدها من حرب سنة ١٢٩٤ هـ بتسليم الإنكليز لها، و من عادات هاته المملكة أن يكون نحو عشر السكان عساكر دفاعية عن الوطن، و فيهم المشاة و الخيالة و هم غير منتظمين و لا يبقون في الخدمة العسكرية إلا نوبا و الأهالي تقوم بهم فإن كل مقاطعة أو ولاية عليها مقدار معلوم من العساكر بما يلزمهم، ثم هم يقسمون اللوازم على ما يقتضيه الحال فأصحاب الأملاك يقومون بالخيالة و غيرهم يقومون بالمشاة.

و أما الطوبجية: فمنهم خيالة و منهم مشاة و كلهم ملازمون للخدمة، و الدولة تقوم بهم

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ٦٧

و تجرى لهم مرتبات، و حدث في جندهم بعض تنظيم على النوع الجديد منذ مدة قريبة، و تقدير دخلها مجهول.

الفصل الرابع المملكة الرابعة هي مملكة بلوجستان

و تسمى سابقا بالسند أي داخله فيه، و موقعها جنوبي المملكة السابقة و عدد سكانها نحو المليونين و هم متفرقون تحت رؤساء شتى و أعظمهم الآن خان كيلات، و الديانة الغالبة هي الإسلام على مذهب أهل السنة، لكن كأنها بالنظر للغالب إسم بلا مسمى حيث كانت الغارات مستمرة بينهم و سفك الدماء يفتخر به سيما في الأقوام المشركين الذين بقوا في الجبال، فهم لا يبقون هناء للمسلمين، و حيث كانت أراضي هاته المملكة رديئة و هوائها رديء و تجارتها قليلة، لم يرغب فيها الإنكليز و رضوا باستمالة رؤساء القبائل إليهم بعضهم بالإرهاب و بعضهم بالإرغاب و بما تقدم يعلم حال هاته المملكة.

الفصل الخامس المملكة الخامسة هي مملكة الهند الإنكليزية

و موقعها على شاطئ البحر المحيط الجنوبي الهندي، و تتوغل في داخل القارة إلى جبال هملاي و هي محادة للمملكتين الأخيرتين في الذكر من شريقيهما، و هي مملكة عظيمة جدا تشتمل على ما ينوف عن المائة و التسعين مليونا من النفوس منهم مسلمون نحو أربعين مليونا و ازدادوا في السنين الأخيرة نحو خمسة عشر مليونا بدخول الأهالي في دين الإسلام طوعا عند وقوع المناظرات الآتي ذكرها.

و الجميع تحت الإستيلاء الإنكليزي غير أن بعضهم لهم استقلال في إدارتهم الداخلية و هم عدة ملوك و أمراء، و عدد هاته الممالك الممتازة ثمانية عشرة مملكة، و سبب استيلاء الإنكليز على هاتيك الممالك الرحيبة على وجه الإجمال، أن هاتيك الممالك كانت في القرون الأخيرة انقسمت إلى إمارات و ملوك طوائف يتناصرون على مدى الزمان سيما بعد ضعف المملكة الإسلامية هناك عند انقراض دولة السلطان محمد شاه في أواسط المائة الثامنة هجرية الموافقة للمائة الرابعة عشر مسيحية، فمن ذلك الوقت تزايدت المناقشات بين ملوك تلك الأقطار و زاد انقسامهم إلى طوائف صغار مع أن نفس أجسامهم و خلقتهم ليست بمستعدة للحروب و الأتعاب. لأنهم أناس نحاف الأجسام، فيميلون إلى الراحة و التنعم بالملابس الراقية و المآكل الخفيفة و الإستكثار من المال و المجوهرات، لا سيما أهل الأقطار الجنوبية لحرارة أقاليمهم بقربها من خط الإستواء، و لهذا من قديم كانت سلطة الأفغانستان متواليه عليهم من غربيهم و شماليهم، فداموا على تلك الحالات التي سئمت منها نفوسهم و ضجروا أشد الضجر لمبايئتها لطباعهم، و قد كان أهل البرتغال من الأوروبايين فتحوا

صفحة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ٦٨

السير على طريق رأس الرجاء الصالح من أوروبا إلى الهند و تملكوا بعض مراكز في تلك الجهات سنة (٩٠٣ هـ و ١٤٩٧ م)، ثم قلدتهم في التجارة غيرهم من الأوروبايين حتى عقدت شركة إنكليزية للتجارة في الهند، و عينت أولا -سفيتين عظيمتين شرعيتين و محتويتين على قوات دفاعية للخوف مما عساه يطرأ عليها من تجرىء أهل تلك الأقطار الذين كانوا يجهلون تفصيل أحوالهم لبعده المسافة و طول الطريق، الذي هو رأس الرجاء الصالح و كان هذا في سنة (١٠٥٣ هـ و ١٦٤٣ م).

فنفقت التجارة الإنكليزية هناك و كثرت خلطة الإنكليز بالأهالي، و تعرفوا أحوالهم بما سهل لهم التداخل في سياستهم و تداخلوا فيها، [و أطلقت] اليد لتلك الجمعية التجارية إلى أن وقعت الحرب بين فرنسا و إنكلترا في سنة (١١٥٩ هـ و ١٧٤٦ م)، فحينئذ ابتدأ النفوذ السياسي و أبطلت الشركة و تسلط الإنكليز على بعض الشطوط الهندية مع النفوذ و الوجاهة في غيرها، حتى أن بنباي أعطيت من الهنود مهر الكاترينة زوجة كارلوا الثاني ملك الإنكليز في عشرة الستين و سبعمائة و ألف أي حدود سنة ١١٧٥ هـ، و الممالك التي استولت عليها دولة الإنكليز بدون واسطة الشركة التجارية هي الممالك المعروفة بحكومة الخليجان، و منها جزيرة سيلان التي هي في الجنوب الغربي من الهند و سكانها نحو (٢٣٧٥٠٠٠) و كذلك جهات الخليجان فالجميع استولت عليها دولة الإنكليز بلا واسطة، و لهذا كانت إدارتها هناك مخالفة لبقية ممالك الهند، فلحكومة الخليجان إدارة منفردة تحت حاكم عام له مجلس شوري و مجلس نواب للنظر في مصالحهم و تأليف ما يصلح بهم من القوانين، و أعضاء هم كل ذي وظيفة في تلك الحكومة من الأهالي و أعضاء آخر من الإنكليزيين توظفهم الدولة، ثم الرئيس العام هناك يرجع نظره لوزير المستعمرات لا لوزير الهند و يخاطبه بدون واسطة الحاكم العام في الهند.

و أما بقية الممالك الأخر فقد أخذتها الدولة من الشركة المار ذكرها و لم تزل سلطة الإنكليز تتقدم هناك حتى استولوا على بنغالة في سنة (١٢٧١ هـ - ١٨٥٧ م)، و ازدادت حينئذ السلطة تقويا و نفوذا و امتدت في تلك الممالك حتى دخلت في حوزتها جميعها من غير كبر مشقة، إلى أن حدثت ثورة عامه شديدة هائلة من الأهالي و أوقعوا بالإنكليزيين الذين هناك أشد وقعته في سنة (١٢٧٤ هـ -

١٨٥٧ م)، حتى آيس الإنكليز من تلك المملكة و أيقنوا بتقلص ظلهم منها لو لا اغترار الأفغانستان و معاضدتهم للإنكليز على قهر الهنود، فقهرهم و قتلوا منهم خلائق لا تحصى و مثلوا بهم شراً مثله، و عادت السلطنة الإنكليزية سلطنة تامة و لم يحصل للأفغانستان إلا التسلط على سياسته و مملكته بما لم يستقر معه قرار إلى الآن، ثم أن الإنكليز لقبوا ملكة إنكلترا بإمبراطورة الهند فى سنة (١٢٩٣ هـ - ١٨٧٦ م) و عقدوا له فى الهند موكبا حافلا لم يسمع بنظيره، و حضره كل ملوك الهند الذين تحت ولاية الإنكليز.

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ٦٩

و حيث كان من العجائب بمكان رأينا أن ثبت هنا ما ذكره أحد مراسلى الصحف العربية فى شأن ذلك الموكب و نصه: «بينما الناس فى فترة و إذا بالإنكليز اخترعوا طريقة أنتجت جملة فوائد لهم و لرعيتهم و هاك بيانها تفصيلا و هى: تلقيب ملكة الإنكليز بإمبراطورة الهند فلهذا أجمعت جميعه عموميه من ملوك الهند و من أمرائها فى بلدة دهلى التى كانت قبلا تحت ملك ملوك الهند، فبعد أن حضر جميع هؤلاء الملوك و الأمراء و أهل الثروة العظمى و نصبوا خيامهم الفاخرة خارج البلده، كرت الناس من كل فج عميق إلى دهلى ما بين متفرج و تابع و ما بين تاجر و صانع و عامل، إلى أن غصت المدينة بالناس و صار المحل الذى أجرته عادة فى الشهر خمس روبيات مائه روبيه، و العجلة التى تكرى عادة بربع روبيه بعشرة روبيات، فكأن السماء أمطرت و الأرض أنبتت بنى آدم، فإن شارع دهلى عرضه أربعين مترا و كان المار فيه يخشى على نفسه من شدة الإزدحام، و جل هؤلاء الناس وصل إلى دهلى بواسطة سكة الحديد فإنها متشعبة فى جميع أقطار الهند كتشعب عروق الجسد، و هذا الجمعيه الكبرى تسمى بلغة أهل الهند «بالدربار»، فجميع ما شاهدته فى هذا الدربار يعجز لسانى عن بيانه و قلمى عن حسابه، و إنما أشرح لك فصلين:

أحدهما: فى كيفية دخول حكمدار الهند إلى دهلى، و كيف استقبلته ملوك الهند و أمراؤها، و كيف مشوا فى صحبته و إنقادوا فى موكبه و خلف ركابه.

و الفصل الثانى: فى صورة الجلسة أى هيئة اجتماع الملوك و كيف ألقى عليهم خطاب امبراطورتهم، و كيف تلقوه بالاحتفال و القبول.

أما الفصل الأول: فهو أنه فى السادس من ذى الحجة سنة (١٢٩٣ هـ) بعد الظهر بساعتين، اصطفت العساكر الإنكليزية البيض و هم فى أحسن الملايس و بغاية النظام فى الطول و الإستواء من محطة سكة الحديد إلى محل قيام الحكمدار، و هو مسافة ثمانية أميال و ارتصوا من طرفى السوق الكبير من الجانبين، فبعد الساعة الثانية سمعنا صوت المدافع إيذانا بوصول الحكمدار، و شرع أول الموكب فى المرور و كان أولهم فرقة من خياله على خيل حمر بغاية الجسامه على لون واحد و سروج بلون واحد و لباس فرسانها بلون واحد و عددهم نحو الخمسمائة، ثم تلتها فرقة أخرى خياله نحو الخمسمائة على خيل بيض جسام كنظام ما قبلها، ثم تبعها فرقة أخرى خياله نحو الخمسمائة على خيل شهب فى غاية الضخامة كنظام ما قبلها، ثم أعقبها سريه أخرى خياله نحو الخمسمائة على خيل بلق كنظام ما قبلها، ثم حلبة أخرى على خيل شقر ثم أخرى على خيل صفر ثم و ثم و ثم إلى أن مر نحو خمسة آلاف خيال جميعهم بغاية الأبهة، ثم أقبلت الطوبجية و معهم مائة مدفع خلف بعضها فى غاية الضخامة و حسن النظام و حسن الآلات و العدد مع كبر الخيل و حسن هيئتها، ثم أقبلت سريه الفيلة و أولها فيل عجيب الشكل أظنه أعلى فيل فى أرض الهند، و ناباه بارزان عن شذقيه نحو ذراعين و عليهما أطواق من الذهب حليه له، و عليه تخت جسيم

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ٧٠

جميعه من الفضة الخالصة، و رخت طويل إلى الأرض مرصع، و على ذلك التخت اللورد ليتون حكمدار الهند، و هو رجل ضخم الجسم أحمر اللحية و كان على يساره زوجته و خلفه فيل مثله فى الحليه عليه بنتان صغيرتان، و خلفهم نحو عشرة أفيال أقل من الفيل الأول فى الحليه و عليهم أتباع ذلك الحكمدار و خدامه، ثم أقبلت أفيال آخر نحو العشرة و جميعها بالحلى الفاخرة و عليهم حكمدار «مدراس» و أتباعه، ثم حلبة أفيال آخر نحو العشرة و عليهم حكمدار «بمباى» و أتباعه، ثم سرب أفيال آخر نحو العشرة عليهم حكمدار

«لاهور»، ثم أفيال آخر عليهم حكمدار «السند»، ثم فرقة أفيال آخر نحو العشرين و هي مركوب سلطان حيدرآباد و أتباعه و رخت الفيل الأول منها مرصع بالجواهر، ثم فرقة أفيال آخر نحو العشرة عليها راجاجيت برا و وزراؤه و هكذا. ثم أقبلت أفيال خلف آخر عليها ملوك الهند و الراجات و عددهم نحو التسعين و كانوا كلهم خلف الحكمدار بعماية الوقار و الرزانة و الخضوع و التؤدة، و يقال إن عدد الأفيال في ذلك الموكب نحو ألف و مائتي فيل و ليس فيها كلها أعلى من فيل الحكمدار. و هكذا انتهى الموكب الذي لم يسمع بمثله منذ نزل آدم عليه السلام على جبل سرنديب و لا أظن أنه سيحصل مثله، و كان مبدؤ مروره من الساعة الثانية إفرنجية إلى الساعة الرابعة، و إنما قلت إن هذا الموكب لم يسمع بمثله لأننا ما سمعنا أن ملكا من ملوك الهند المتقدمين أطاعه جميع النواب و جميع الراجات بدون توقف و لا مخالفة و لا توان، أو أنهم مشوا خلفه في موكبه و تحت ركابه و هو جالس بالتعاضم على فيل أعلى من جميع أفيال الدنيا و جميع الملوك يتقادون خلفه مع الأدب و التؤدة، و إذا أمكن لأحد قياصرة أوروبا العظام و ملوكها الفخام أن يحشر اليوم عسكريا مثل هذا العسكر و مدافع مثل هاته المدافع فمن أين له ألف و مائتا فيل تنقاد خلفه و عليها تسعون ملكا، فو الله لو لم يكن للإنكليز في الشرق فخر إلا هذا الموكب لكفاهم.

الفصل الثاني: في صورة الجلسة أى كيفية اجتماع الملوك و كيف ألقى عليهم الحكمدار خطاب إمبراطورهم، و كيف تلقوه بالقبول و الإحترام، و كان ذلك يوم (١٤) ذى الحجة سنة (١٢٩٣ هـ) و هيته نصف دائرة جنوبى و نصف دائرة شمالى، و جميعه مسقف بالقماش و بين الشطرين طريق فاصل للمرور.

فالنصف الجنوبي عليه ملوك الهند أرباب التيجان، و هو عبارة عن دكة مرتفعة بدرجتين عرضها نحو أربعة أذرع و طولها نحو مائة ذراع، و عليها كراسى الملوك مصطفة بحسب رتبتهم.

و النصف الشمالى هو قسمان بينهما طريق فاصل و ارتفاع الربعين نحو أربعة أذرع و له درجات للجلوس، و فى وسط الدائرة دكة مرتفعة نحو أربعة أذرع مساحتها خمسة فى خمسة و لها مرقاة للصعود عليها فهذه الدكة الوسطى جلس عليها حكمدار الهند و وجهه إلى جهة

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ٧١

الجنوب جهة الملوك، و الربع الذى على يمينه جلس عليه الإنكليز المتفرجون أرباب المناصب، و الربع الذى على يساره جلس عليه أعيان أهل الهند و أمراؤها غير أرباب التيجان و هم المدعون للحضور، و قطر هذه الدائرة نحو مائة ذراع و حولها دائرة أخرى كبيرة خالية عن الناس لها حاجز من درابزين خشب فاصل بين المتفرجين العوام و بين مجلس الأمراء، و المسافة بين الدائرة الداخلة و الدائرة الخارجة نحو مائة ذراع و من حول الدائرة الخارجة عسكر الإنكليز نظاما و خيالة مرتصين فى ذلك الفضاء و عددهم بالتقريب نحو العشرين ألفا، و أكثرهم من الإنكليز البيض، و مسافة ما بين المجلس و ما بين دهلى ستة أميال فى صحراء واسعة بقرب جبل صغير يسمى جبل الفتح، فإن الإنكليز فتحوا دهلى من هذا الجبل سنة (١٢٧٤ هـ).

ثم اجتمع الناس المتفرجون من كل فج عميق ما بين ماش و راكب حتى ملؤوا ذلك الفضاء. فصار من بيده تذكرة العزيمة يدخل فى الدائرة الداخلية و من ليس بيده تذكرة يقف خارج الدرابزين الخشب، ففى الساعة الثانية عشرة أقبل حكمدار الهند و هو لابس من فوق السترة و البنطلون جبة واسعة الأكمام و طويلة الذيل و هى أشبه بالفرجية التى تلبسها كبار العلماء بمصر و لونها رمادى و جميع أطرافها مطرزة بالذهب، و مع الحكمدار زوجته و من خلفه ابن السلطان لكهنؤ و ابن أخى سلطان ينبال فى صورة خادمين، فلما صعد على درج التخت رفع الغلامان أذبال جيبته عن التراب إلى أن استقر فوق التخت فجلسا هما على كرسيين صغيرين خلفه و جلس هو على كرسي مذهب و زوجته على يساره، ثم أخرج الحكمدار من جيبه ورقتين أعطاهما لرجل إنكليزى جمهورى الصوت، فقرأ الأولى و هى باللغة الإنكليزية و مضمونها: «أن الملكة لقتت بإمبراطورة الهند و أن جميع الأمم ارتضوا بذلك». ثم قرأ الورقة الثانية و هى باللغة الهندية و مضمونها: مثل الأولى، فعند ختامها قام جميع ملوك الهند و صاحوا بارك الله لها فى هذا اللقب و نحن أيضا جميعا

راضون بذلك، فأطلقت المدافع من طرف عساكر الإنكليز و من طرف ملوك الهند و اشتغلت آلات الموسيقى بأحسن الألحان، و انفض المجلس فى الساعة الواحدة فكانت مدة جلوس الملوك نحو ساعة، و مدة جلوس الحكمدار و قراءة الورقة نحو ربع ساعة، ثم نورت جميع البلدة ليلتين جرى فيهما من ألعاب البارود ما يعجز عن تصوّره.

و كيفية وصول ملوك الهند إلى الدربار: أن كل ملك قدم بعساكره من أبناء جنسه و بمدافعه. فلما وصلوا إلى محل الجلوس دخلت الملوك و جلسوا على كراسيهم تجاه الحكمدار و وقفت عساكرهم و أفيلتهم خارج الدائرة و عددهم نحو التسعين ملكا و هم مرتبون بحسب العدد.

و هكذا المدافع التى كانت تقابلهم بالسلام عند قدومهم، أعنى أنه عند قدوم ملك حيدرآباد على قلاع الإنكليز، أطلقوا له واحدا و عشرين مدفعا و لراجا بروهه كذلك و مثلها لراجا جيتور، و تسعة عشر لراجا كشمير، و ثلاثة عشر لنواب رامبور غالب على خان لأن صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ٧٢ رتبته بالنسبة لأقرانه هى العدد الثانى و الخمسون.

و هكذا يتفهقر العدد فى مدافعهم إلى آخرهم و هم نواب دجانه، إذ لم يطلق له سوى ستة مدافع. فكانت كثرة الإطلاق باعتبار كبر دولتهم و كثرة إيرادهم و اتساع دائرتهم بالحريّة و التصرف المطلق، و أكثر ملوك الهند من الوثنيين. أما المسلمون فلهم خمسة عشر ملكا.

ثم إن الإنكليز استفادوا من هذا الدربار ثلاث فوائد.

إحداها: أنهم جعلوا أهل الهند و ملوكها رعية لهم برضاهم و اختيارهم لا بالسيف و طريق التغلب كما مر فى الأزمان السابقة. الفائدة الثانية: أنهم جمعوهم ليختبروا حالهم من جهة المال و القوة العسكرية و هل عندهم أسلحة جديدة يخشى بأسها أو لا، فوجدوهم على الحالة الهمجية القديمة فى الأسلحة و آلات الحرب حتى أن بعضهم كان لعساكرهم البنادق و الفتيل أى المشادلى، و بعضهم يحمل القوس و النشاب و الرمح، و بعضهم يلبسون الدروع و الخود على العادة الجاهلية، فاطلعوا على قوتهم و عرفوا أنهم ما داموا يجهلون الأسلحة الأوروبية فلا يمكن للخناس الذى وسوس للصرى أن يوسوس لهم.

الفائدة الثالثة: أن تجار الإنكليز ربحوا من هذا الدربار عشرة ملايين ليرة لما حصل عنه من رواج التجارة و نفاق السلع حتى فاق على معرض باريس فى زمن نابليون، حيث جلب إليه من كل غريبة و نادرة و عجيبة، فإن عدد تذاكر سكة الحديد التى بيعت إلى السفر إلى دهلى بلغت نحو مليونى تذاكر، و بعض الوفود رحل من محل بعيد عن دهلى مثل أهل كلكوتة و أهل مدراس و أهل السند و أهل بمباى و أهل بشاود، و كان بعضهم يركب فى الدرجة الأولى و بعضهم فى الثانية و بعضهم فى الثالثة، فالدرجة الأولى أجزتها نحو عشرين جنيها، و الدرجة الثانية أجزتها نحو عشرة جنيهات، و الدرجة الثالثة نحو ثلاثة. فإذا ضربت القليل فى الكثير و القريب فى البعيد كان المدفوع من مليونى نفس ثمانية ملايين ليرة، و جميع ملوك الهند حضروا ذلك الدربار امتثالاً لأوامر الحكمدار ما عدا ملكة تنجور فإنها اعتذرت بأنها فى حالة الولادة، و نواب و أمير و غالب على خان فإنه تعلق بأنه مريض بداء البرص و أنه لا يمكنه الحضور فى مجمع الملوك لثلاث تنفر طباعهم منه انتهى. ثم زار تلك الممالك و لى عهد ملكة إنكلترا و احتفلوا به و هادوه بهدايا نفيسة ملوكية يأتى الكلام عليها فى الكلام على معرض باريس من المقصد.

ثم إن استيلاء الإنكليز كما تقدم كان شيئاً فشيئاً، فبعض الملوك و الأمراء سلموا إليه السيادة و أبقاهم على ولايتهم عند قصده لهم بالحرب، و أبقى لهم ما يملكون من المال و المجوهرات فى خاصة ذاتهم و بعض التصرفات، و التصرف الحقيقى بيد الإنكليز سواء كان فى الإدارة المالية أو السياسية، و أما العسكرية فلكل عساكر تحت أمره، و كثيرا ما تأتى العساكر الإنكليزية لإرهاب الولاة و الملوك و إخضاعهم، فالتصرف حقيقة للإنكليز لكن للملوك الأبهة و الإسم بحيث أن التصرفات تنسب إليهم بالإسم، كما أن بعضا من الملوك

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ٧٣

و الأمرء طلب الدخول لما رأى العواقب آيلة إليه، فلذلك لم تزل إلى الآن ممالك مستقلة بإرادتها تحت ولايته، فمنها ما يؤدي له خراجا و منها ما يأخذ الملك و حكومته مقدار ما يكفى للقيام بمصالحهم و ما بقى يرجع إلى حكومة الهند العامة و تصرفهم على نحو ما سبق، و قد قسم الإنكليز تلك الممالك الهندية عدا حكومة الخلجان المتقدمة إلى ثلاثة أقسام كبيرة: فالقسم الأول: مملكة بنغالة و قاعدتها كلكوتة، و هى مقر الحاكم العام و يتبع هذا القسم من الممالك الممتازة بالإدارة إحدى عشرة مملكة:

فأولها: مملكة نيزام و هى واقعة فى وسط أرض دكين بين مملكة بنباى من غربها و بين مملكة مدراس من شرقها، و تحت هاته المملكة مدينة حيدر آباد التى سكانها نحو أربعمئة ألف نفس، و الإنكليز ساكنون فى بلدة صغيرة من غربها تسمى سكندرآباد، و بهاته المملكة بلد تسمى «أهور» بها معابد عجيبة تحت الأرض دالة على مهارة مهندسى ذلك العصر عندهم، و سكان هاته المملكة نحو عشرة ملايين و ملكها من الهنود و له زيادة استقلال فى إدارته على ما للممالك التابعة للإنكليز، و يؤدى لهم خراجا معينا سنويا و هى مملكة إسلامية.

و ثانيها: بوندلكند و بها عدة خانات كل خان يحكم على قبائل و جهات خاصة، و عدد سكان هاته المملكة الموزعة على الخانات نحو ستة ملايين، و لكل خان مركز هو تحت حكمته.

و ثالثها: مملكة بوبول و لها ملك أيضا و سكانها نحو ستمئة ألف و سبعين ألفا و تختها بوبول.

و رابعها: مملكة شنديا و لها ملك أيضا و سكانها نحو مليونين و نصف و فى هاته المملكة بلدة «أوجين» التى تعتبرها الهنود مبدأ خط الطول و تختها كوالبور.

و خامسها: مملكة هلكار و لها ملك أيضا و سكانها نحو ستمئة ألف و تختها هندور و هاته الممالك الأربعة الأخيرة فى الذكر كانت هى مملكة المهرجات سابقا.

و سادسها: مملكة راجابوتان و لها ملك و سكانها نحو سبعة ملايين و تختها أوديور.

و سابعها: مملكة بهوبال و لها سلطنة إسلامية بالوراثة للملك من آبائها، و زوجها مباشر للتصرفات بالنيابة عنها و هو رجل عالم كما ذكرنا فى غير هذا المحل، و سكانها نحو ستمئة ألف و تختها بهوبال.

و ثامنها: مملكة لادك و لها أمير و سكانها نحو مائة ألف و سبعين ألفا من الأنفس، و تختها لادك.

و تاسعها: مملكة بدستان و لها ملك له زيادة امتياز فى الإدارة، و سكانها من المسلمين

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ٧٤

و قاعدتها على نهر السند تسمى اسكروودو، و تسمى هاته المملكة أيضا ببلاد البلتسى.

و عاشرها: مملكة كناوود و هى صغيرة و عدد سكانها قليل و لها أمير.

و حادى عشرها: مملكة سيرمور مثل المتقدمة عليها و تختها نحمين.

و القسم الثانى من الأقسام الكبرى: هو ممالك بونباى و يتبعه من الممالك الممتازة خمس ممالك:

فأولها: مملكة كاش و تختها بوهيح.

و ثانيها: مملكة كانبى و تختها كانباى.

و ثالثها: مملكة أكوى كووا و سكانها نحو مليون و ثمانمئة ألف نسمة و تختها باردوه.

و رابعها: مملكة ساوندوارى و تختها ساوندوارى.

و خامسها: مملكة كولابور و تختها مدينة كولابور.

و القسم الثالث من الأقسام الكبرى: هو ممالك مدراس و يتبعه من الممالك الممتازة إثنان.

فأولها: ميسورا و تختها ميسورا و سكانها نحو ثلاثة ملايين.

و ثانيها: مملكة أتره نكور و عدد سكان هاته المملكة مليون و ثلاثمائة ألف نسمة، و تختها بلدا تريفان ديرام و لكل حاكم مستقل بامتياز في الإدارة على نحو ما تقدم ذكره.

فما تقدم هي الأقسام الكبرى التي لكل منها أقسام صغرى تحتها و ممالك ممتازة ترجع إليها، كما أنه يوجد أربعة أقسام صغرى ليست داخله تحت الأقسام الأولى و إنما لها إدارة منفردة تحت نظر الحاكم العام الإنكليزي، و هي أقسام أربعة داخله بتا تحت الإنكليز و إدارتها بيدهم مثل الأقسام الكبرى، و هاته الأربعة أقسام.

أولها: المسماة بولاية الشمال الغربي.

و ثانيها: المسماة أود.

و ثالثها: المسماة بنجاب.

و رابعها: المسماة بالولاية الوسطى.

كما تتبع ممالك الهند الإنكليزي مملكة كشمير لكنها لما كان لها زيادة امتياز ذكرناها منفردة و سيأتي الكلام عليها.

و الممالك الممتازة إن كانت إسلامية فريئسها يلقب بنائب لأنهم في السابق كانوا نوابا لسلطان المسلمين الذي تخته بلد دهلي، و إن كانت الممالك غير إسلامية فريئسها يلقب براجا هذا.

و أما كيفية الإدارة السياسية و العسكرية في جميع الممالك الهندية فإن جميع الأقسام ترجع إلى حاكم عام إنكليزي يرتبط مع دولة إنكلترا بواسطة وزارة الهند في لوندرة، ثم هو في نفسه قد وظفته دولته بهذا الاسم في (سنة ١٢٧٥ هـ - ١٨٥٨ م)، و رتب للهند قانونا صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ٧٥

خاصا فمن مهمات كلياته أن الحاكم العام له النظر العمومي على أقسام المملكة كلها و ما يتبعها و تصرفه مقيد بمجلس شوري مركب من أعيان الإنكليز المقيمين في الهند و من أحد كبراء الأهالي، و هذا المجلس و الرئيس عليه الذي هو الحاكم العام تحت احتساب مجلس الندوة في لندرة و مسؤول له، و الواسطة بين الدولة و الحاكم العام هو وزير الهند في لندرة و له في الوزارة مجلس عدد أعضائه خمسة عشر و كاتبان، و من حقوق مجلس الهند المذكور إنشاء القوانين العامة في الهند و تنظيم الإدارة السياسية و العسكرية و إنشاء الأحكام العامة، و ما ينشؤه هذا المجلس إذا وافق عليه مجلس الندوة في لندرة يصير معمولاً به في ممالك الهند.

ثم لكل من الأقسام الثلاثة الكبرى المذكورة حاكم خاص و مجلس شوري مركب من أعيان الأهالي و أعيان الإنكليز تحت رئاسة الحاكم، و من وظائف هاته المجالس إنشاء قوانين الأحكام الخاصة بقسمهم و عرضها على الحاكم العام و بعد نظره هو و مجلسه فيها و التصديق عليها يرفعها إلى الندوة بلندرة كما تقدم، كما أن للمجالس الثلاثة المذكورة الإحتساب على سيرة الحكام في قسمهم و النظر على الضابطة المكلفة بالأمر السياسي و الأحوال العرفية، و لهم النظر على الملوك و الأمراء الراجعين إلى قسمهم، كما أن لحكام هاته الأقسام المقيد تصرفهم بالمجالس قوة على التنفيذ بواسطة القوة العسكرية، ثم لكل قسم ولايات فرعية و منها الممالك و الإمارات المستقلة، و كل من هاته الولايات لها مجالس إدارة تحت رئاسة الوالي أو الأمير أو الملك، و يتصرف بمشاهدة نظر المجلس في الإدارة السياسية و المالية و العسكرية، و المتوظفون يكونون بحسب أهالي الولاية: إما من مسلمين فقط أو هنديين فقط أو مختلطين، و التصرفات الصادرة من هؤلاء سواء كانت حكمية أو سياسية أو مالية يمكن رفعها لمجلس القسم الراجعة الولاية إليه و له تحقيق النظر في النازلة على قواعد عندهم في ذلك، و هكذا الأحكام الشخصية في كل ولاية لها مجلس و قوانين يتصرفون بمقتضاها، و هاته القوانين قواعد الكلية هي قواعد أحكام الإنكليز.

غير أن لكل ولاية قوانين خاصة مطابقة للعوائد و العرف المتعارف فيها، أما ما يرجع إلى الزواج و الإرث و الملك، فإن الأهالي تجرى

عليهم أحكام ديانتهم بواسطة مجالس من أهل الديانة و يمكن رفع أحكامهم إلى مجلس الولاية و منه إلى غيره إلى أن ينتهي إلى المجلس العام، و الديانات التي لها متوظفون هناك من الدولة هي الديانة الإسلامية و البرهمية و ما أشبههما من الديانات المجوسية و الوثنية و لهم خرافات مبسوطه في كتب الكلام، و السكان الآن مختلطون من عرب و فرس و أوروباويين و هنود أصليين، و المعارف عندهم الآن في تقدّم سيما العلوم الكيماوية و الحكيمه لفتح الإنكليز هناك المدارس مشتملة على ما في أوروبا من المعارف، و اقتدت بهم الأهالي حتى ضعفت تجارة الإنكليز بما ينتج من مصنوعات البلاد و العلوم الإسلامية نافقه السوق و لها فحول مؤلفون منهم: سلطان

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ٧٦

بهوبال الذي طبع الآن من تأليفه في مطبعته و مطابع الممالك العثمانية كثير من تأليفه، فمنها: تفسير للقرآن سماه «فتح البيان في مقاصد القرآن» نحا فيه التوسط بين المنقول و المعقول و منها: «المحصول في علم الأصول» و منها: «لقطة العجلان فيما تمس إلى معرفته حاجة الإنسان» و هو كتاب بديع فيه تحرير كثير من المسائل الأصولية و الكلامية و الفرعية و له عدة تأليف أخرى، و هذا العالم الملك هو من نوادر هذا العصر فإنه مع اشتغاله بمهام السياسة التي تقلدها بالنيابة عن زوجته سلطانه تلك المملكة قد تبحر في الفنون العلمية سيما الشرعية و آلاتها و فصاحته في نسج تأليفه يحمد عليها أهل اللغة العربية و على الخصوص في هذا الزمن الذي كادت أن تتلاشى فيه اللغة و العلوم من الأمة الإسلامية.

و من فحول علمائهم في هذا العصر الشيخ العلامة رحمه الله صاحب تأليف «إظهار الحق» الذي ألفه بسبب مجادلات دينية فتح بابها قسيسوا البروتستانت راثمين دعوة أهل الهند المسلمين إلى ديانتهم، فأفضى الحال إلى مناظرتهم مع الشيخ المذكور و آل الحال إلى مناظرتهم بالتأليف فأفحهم بتأليفه المذكور مستندا في الرد إلى كتبهم و أقوال علمائهم بما ينبىء عن اتساع باعه و اطلاعه، و هذا التأليف قد ترجم إلى الفرنسية و غيرها من اللغات و هو بديع في بابه و قد صار الآن عزيز الوجود مع أنه طبع مرتين و شاعت منه آلاف من النسخ و في هاته المملكة علماء آخر و لله الحمد.

كما أن لأهلها تقدما في الحذق و الصناعات سيما النقش و الترسيع في الخشب و العاج من قديم الزمان، و منسوجاتها و طرازها شائع في أغلب الأقطار، كما أن أهلها هم الذين اخترعوا الأرقام الحسائية و لذلك تسمى بالأرقام الهندية إلى الآن و هو اختراع عجيب شمل جميع الأعداد في تسعة أشكال، و يكفي للدلالة على ما كان عندهم من الحذق في الصنائع

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ٧٧

المعابد التي في جزيرتي الفيلة و سلسيت الكائيتين قرب بنباى، فإن تلك المعابد منحوتة في الصخر نحتا عجيبا في الصناعة و الاتقان، كما أنه في إيالة بيجابور في جبل نحات مدينة فيزابور التي كانت تختا لملك المسلمين هناك و فيها بناآت بديعة و الآن خربت، و هاته المملكة لما كانت متسعة جدا فهوؤها مختلف و لكن تغلب فيها أمراض تقل في غيرها، و تشتمل على أغلب النباتات المعروفة في غيرها و لها نباتات تختص بها كالقمارى و الجوز الطيبى و غيرها، و قد امتدت فيها الآن طرق الحديد تخترقها في أغلب الجهات، كما أن المواصلات في أنهرها العظيمة متوفرة بالسفن، كما أن الطريق الحديدى اخترق أهم جهاتها و دونك أهم ما وصل إليه.

فمنه فرع من كلكوته إلى دكة، و منها إلى ميرزابول، و منها أيضا إلى دهلى و منه إلى أباد إلى بنباى، و منها إلى كوراتشى، و منها أيضا إلى مدراس، و من هاته إلى بيول و منها إلى نيفاباتام و من مدراس إلى كلكوته و من كوراتشى إلى حيدرآباد و من ملتان إلى لاهور و منها إلى بيشاور، و لا زالوا يمدونها في أغلب الجهات حتى قربت إلى حدود الأفغانستان و يمكن أن تصل إلى الصين و الممالك العثمانية، إذ التفكير في ذلك مستمر بحيث أن السفر الآن في الهند مع الأمن في غاية السهولة الموصلة بالطرق الحديدية و العادية و الأنهر و الترع، كما أن السلك الكهربائى واصل بعضها ببعض كما وصلها بأوروبا بحيث أن إنكلترا تصل لها الأخبار من الهند على ثلاثة طرق:

فأولها: من الهند إلى خليج فارس إلى الممالك العثمانية إلى بقية أوروبا.
 و الثاني: من لندره إلى جبل طارق إلى مالطة إلى السويس إلى عدن إلى الهند.
 و الثالث: من لندره إلى فرنسا إلى الجزائر إلى مالطة إلى البقية مما تقدم.
 و لا يبعد أنه يصل أيضا على طريق رأس الرجاء الصالح فإنه وصل من لندره إلى هناك و منه إلى زنجبار فلم يبق إلا منها إلى الهند،
 و من أخشابها المنفردة بها عود القمارى.
 و أما قوة هاته المملكة الحربية و المالية فستأتى إن شاء الله فى جدول الدول.

الفصل السادس المملكة السادسة

هى مملكة بورما و هى إلى الشمال الشرقى من المملكة السابقة و عدد أهلها نحو ثلاثة ملايين و نصف و ديانتهم بوذية مشركون، و حكمهم استبدادى مطلق و هم أهل مكر و خديعة و ليس لهم ولوع إلا- بعلم النجوم و الأرصاد و السحر و أكثرهم يعلم القراءة و الكتابة، و لأراضيهم نتائج حسنة و تجارة واسعة مع مجاورهم من الهند و الصين، و قاعدة المملكة مدينة أفاقي القديم و الآن مدينة مندلاى، و الداخلى إليهم يكون فى قبضة البخت من حكاهم و إن كان الإنكليز فى هاته الأزمنة مرشدا إليهم، بعد أن أخذ منهم قسما فى سنة (١٨٢٥ هـ)، و قد صار يأمرهم بالعدل حتى أنكر على ملكهم فى سنة (١٢٩٦ هـ) قتله لثمانين صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار؛ ج ١؛ ص ٧٨

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ٧٨

نفسا من الرجال و النساء و الأطفال شرقتله و هم من عائلات الملك، و كاد أن يعقد معه حربا لأجل استتباب الأمن جوار الهند، و دخل هاته الدولة و خرجها مجهول و قوتها من النوع الهمجى و كأنها لا تلبث أن تدخل فى حكم الإنكليز.

الفصل السابع المملكة السابعة

مملكة سيام أو صيام و هى جنوبى المملكة السابقة و شرقى بقية المملكة الهندية الإنكليزية، و عدد أهلها مع ما يتبعها فى جزيرة مالقا و غيرها نحو ستة ملايين و نصف، و ديانتهم و حكمهم مثل المملكة السابقة و معارفهم أقل من سابقهم لكنهم يوصفون بالأمانة و تجارتهم من معادن بلادهم الغنية مع الهند و الصين و الأوروبويين، و قاعدة المملكة سيام فى القديم و الآن مدينة بان جوك، و الدخل و الخرج و القوة كلها مجهولة و هى فى القوة على غير نظام.

الفصل الثامن المملكة الثامنة

هى مملكة كوشين الصين أو أنام و هى شرقى المملكة السابقة، و عدد أهلها قبل استيلاء الفرنسيين على قسم منها ما بين إثنى عشر مليوناً إلى ستة عشر مليوناً لكنها الآن نحو تسعة ملايين، و قاعدتها مدينة أووى و بلسان الهنود فوشواش و قيل و هو الأصل مدينة هويفو و هى مربعة الشكل يحيط بها نهر هو من جانبيين و ترعة من الجانبين الآخرين، عرض هاته الترعة سبعون ذراعا و كل ذكر عندهم ملزوم بالدفاع عن الوطن من سنّ العشرين إلى الستين، و لهم خلق بشوش و لبس النساء و الرجال سواء و هو سراويل و جبة إلى الكعب، و الرجال لا- يزيلون شيئا من شعورهم و إنما يربطونها و من عاداتهم إباحة السكر و لا ديانة عندهم و إنما يعتقدون

خرافات كثيرة، و النسوة لا يحتجن و يتعاطين الأشغال مثل الرجال، و ملكهم له اعتناء بتعليم الأهالى العلوم الرياضيه و يرسل خمسة عشر تلميذا من أبناء أعيانهم إلى فرانس للتعلم فى مدارسها و عند رجوعهم يعرضهم بغيرهم، و هم يبتون علومهم فى الأهالى، و بعد استيلاء الفرنسيس على قسم من مملكته صار محافظا على موالاتهم و حفظ عهودهم حتى أرسل سفيرا مخصوصا لباريس مدة ولاية الرجل الشهير تيارس رياسة الجمهورية الفرنسية، كما رتب هذا الملك جيوشه على الطراز الأوروبى، و ستأتى قوته العسكرية فى جدول الدول، و أما المالىة فمجهولة، و أما العادات الحكيمية فلا تخرج عن عادات الممالك السابقة.

الفصل التاسع المملكة التاسعة

مملكة كمبوديا و هى غربى بعض المملكة السابقة و جنوبى بعض صيام، و عدد أهلها نحو مليون و قاعدتها مدينة سايكون فى القديم و الآن مدينة بنوم بنه، و يقال فى ديانتهم صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ٧٩ و حكمهم و قوتهم ما هو واقع فى الممالك المجاورة لهم، و قد استولى الفرنسيس على قسم من هاته المملكة عند مصب نهر كمبوديا و قد صارت هاته المملكة تحت حماية فرانس منذ سنة (١٢٨٠هـ - ١٨٦٣ م).

الفصل العاشر المملكة العاشرة

هى مملكة ملقا و هى شبه جزيرة إلى الجنوب من مملكة صيام و يحيط بها البحر من جميع بقية الجهات، و عدد أهلها نحو ثلاثمائة و خمسة و سبعين ألف نسمة والديانة الغالبة فيها هى الإسلام و حكمهم الصورى ملك مستقل مستبد لكنه قليل النفوذ، و أغلب القبائل تعيش بحريتها تحت رياسة كبرائها، و كل قبيلة تدافع عن نفسها و لذلك يعدها الجغرافيون منقسمة إلى أربعة قواعد.

الأولى: براك.

و الثانية: سلنكور.

و الثالثة: جوهر.

و الرابعة: باهنك.

و أراضيهم غير مخصبة لكنها فيها معادن غنية و أشجار الأفيون كثيرة فتجارتهم فيه مع الصين واسعة، و قد استولى الإنكليز على جهات من هاته المملكة منها مدينة ملقا.

الفصل الحادى عشر المملكة الحادية عشرة

هى مملكة الصين و هاته المملكة هى أكثر ممالك العالم سكانا و أغناهم، لاحتوائها على أقاليم مختلفة، ففيها جميع أنواع النبات و المعادن، و تجارتها متسعة مع جميع الأقطار، و أهلها شهرة قديمة فى الصنائع، و أهمها: صناعة الخزف فإنها اشتهرت بإتقانه على جميع النواحي فيتنافس الناس فى اقتناء أوانى الخزف الصينى تنافسا كليا، و بعضهم يبلغ به درجة خارقة للعادة و للإعتدال، سيما فى أوروبا حتى تجد الواحد منهم يزين بيته بترصيف تلك الأوانى التى تتكلف عليه بمآت الألوف، و كذلك ملوك الهند و ما والاها يتنافسون فى اقتناء الرفيع من أوانى ذلك الخزف، و قد يبلغ بعض الناس اشتراء صحن واحد بألف فرنك فما فوق، و على وجه

العموم كل الناس يرون رفته و حسنه، غير أن هاته الصناعة الآن انحطت في هاته المملكة عما كانت عليه بكثير لعدم الإتقان السابق، فالتنافس و التغالى إنما هو في الخزف القديم و له صفات كثيرة تميزه عن غيره.

فمنها: إنه هو و إن كان كثيفا لكن النور يظهر من ورائه.

و منها: أنه إذا ضرب عليه يكون حسن طنينه كأنه طنين معدن مطرق من المعادن العزيز.

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ٨٠

و منها: حسن الألوان فيه كما أنهم لهم إتقان في صناعة النقش و التصوير في سن الفيل و غيره.

و أما المعارف و العلوم: فالظن أنهم كانت لهم في القديم فنون كثيرة و بقيت فيهم الدعوى فقط، بحيث يرون أنفسهم أعلم أهل الأرض، لكن في الواقع ليس لهم إلا شىء من الحكميات و النجوم مغرمون باستخدامه في علم الغيب و أشباهه مما لا طائل تحته، و حدث فيهم أخذ بعض الطبيعيات عن الأوروبيين و استخدموها في منافعهم كالبخار و الكهرباء لكن لم يتجاوزوا إلى الآن المقدار الذى أخذوه و لم يخترعوا شيئاً فيه، و قد كانوا اكتشفوا بيت الإبرة، و قد أثبت بعض المؤرخين أنها من اختراع العرب كما أن أهل الصين اخترعوا البارود و لم يعرف أنهم استعملوه في حرب قبل استعماله فيها عند غيرهم، و إنما كانوا يستعملونه للإصلاح كدك التلال و غيره، و إن وجد من آثار سلاحهم قديماً ما يدل على أنهم كانوا يستعملونه فيه، و أول ما عرف البارود في جهاتنا من العرب سنة (٧٣٧) هجرية.

و موقع هاته المملكة من مبدأ الشطوط الشرقية من آسيا على المحيط الشرقى إلى أن تتصل بأملاك روسيا، و من الجهة الجنوبية تبتدىء من جبال هملاى إلى سيبيريا من جهة الشمال فهى حيثئذ تحاد الهند من شماليه و ما والاه من الممالك الشرقية منه، و عدد سكان هاته المملكة نحو الثلث من سكان العالم كله و هم على ما تحرّر في سنة (١٢٨٦ هـ - ١٨٦٩ م) قريبا من خمسمائة و سبعة و ثلاثين مليوناً من النفوس، و هذا المقدار يساوى نحو الضعف من سكان أوروبا كلها، و مع هاته الكثرة التى هم عليها كانوا فى السالف لا تكاد تجد منهم خارج مملكتهم إلا النادر القليل لأعجابهم بأنفسهم، و لأن اصطلاحات أحكامهم تمنع الخروج من الوطن إلا بإذن خصوصى مع التشدد فيه حتى يتبين وجه أكيد لمريد السفر، ثم مع ذلك إذا غاب المسافر عن وطنه مدة ثلاث سنين يمنع من العودة إليه و الدخول فيه، كما أن من أحكامهم منع دخول أجنبي إلى أرضهم إلا برخصة مخصوصة فأذا نالها كان أين ما حل مكرماً محروساً، و أما إذا دخل بغير رخصة فلا يأمن على نفسه سيما من الحكم، و قد بقوا على هاته العوائد إلى أواسط هذا القرن، ثم أطلق الإذن لمن يريد السفر فصار يخرج منهم الكثير إلى الهند و جزائره و إلى أمريكا، و الخارجون لهم براءة فى التجارة.

و تكاثر الخارجون لضيق الأرض بهم حتى أنهم فى وطنهم يضطرون إلى السكنى على الألواح فى الشطوط، بل أنهم يجعلون على الألواح بساتين لأذن الأرض لا تكفيهم لكثرتهم و إتقانهم لتعميرها بالفلاحة حتى أنهم يعملون من أنواع السرقة ما لا يعلمه غيرهم إلى الآن، و هذه المملكة تنقسم إلى ثمانى عشرة ولاية تسمى كل واحدة منها بلغتهم «سقا».

و أولها: المحتوية على تخت السلطنة تسمى باكغ أوبا أوتاشى أوبى، و يبلغ عدد سكانها أربعين مليوناً، ثم أن كل ولاية تنقسم إلى أوطان يقال للواحد منها بلغتهم «فو» و كل وطن من هاته ينقسم إلى أجزاء يسمى كل واحد منها «تشيو» ثم كل جزء ينقسم إلى أقسام متعددة صغار تسمى «هيان».

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ٨١

و كانوا يمنعون إقامة نواب الدول الأجانب فى مملكتهم فضلاً عن قاعدتها، و حيث كانت دول أوروبا فى هاته القرون الأخيرة لهم مزيد الاعتناء باتساع تجارتهم طلبوا من تلك الدولة الإذن لتجارهم بالإشتغال فى المملكة و الإقامة بها كما يقيمون سفراء لهم عندها، و بعد مشقات شديدة حصلوا على الرخصة فى وفود تجارهم لكن بخصوص مراسى معلومة على البحر، و كذلك السفراء، على شرط أن لا يبيت أحد منهم فى البلد أو فى البر و إنما يبيتون فى سفن حول الشاطىء، ثم فى أواسط هذا القرن أرادت الدول زيادة اتساع

الخلطة و التقدم في الإلتحام بأن يكون لتجارهم الدخول إلى دواخل المملكة مع التعهد من الدولة بحمايتهم و أن يكون سفراؤهم يقيمون في قاعدة المملكة، و حيث كان أهل الصين أشد الناس تحفظا على عوائدهم امتنعوا من ذلك، و جرت من تجاسر الأوروبايين مهاوش قتل فيها منهم كثير ممن وجد في مراسى المملكة مخالفا لما أذن له فيه، فتعصبت حينئذ دولتا إنكلترا و فرنسا على محاربة الصين و حاربوهم فما كانت بضع أشهر حتى وصلت عساكر أوروبا إلى قاعدة المملكة و عقدوا صلحا على نحو ما طلبوا. و بهذا يتبين للمطالع حالة أهل المملكة في الشجاعة و الفنون الحربية، لأنهم مع كثرتهم المفرطة قهرتهم دولة الإنكليز و الفرنسيين بعساكر قليلة لما لا يخفى من كثرة البعد بين أوروبا و الصين سيما و قد كان ذلك قبل فتح خليج السويس الذى سيأتى الكلام عليه في المقصد إن شاء الله تعالى.

فكان طريق الوصول إنما هو رأس الرجاء الصالح، نعم إن لكل من الدولتين مراكز حربية في الهند لا سيما دولة الإنكليز التى مملكتها في الهند أعظم من مملكتها في أوروبا، لكن هبهم بلغوا ما بلغوا فلو كانت دولة الصين على كثرة سكانها لها الإستعداد الحربى مع الرجولية في السكان لأمكن لهم الفيضان على جميع العالم فضلا عن المدافعة عن نفسها، و كان السبب في عدم اقتدارهم كثرة استعمال الأفيون الذى هو مصيبة عامة فيهم و تبلغ ببعضهم مبالغ نسال الله تعالى منها اللطف و الحماية، غير أن هاتيك الخلطة لا تعم جميع أقسام المملكة، و ذلك أن هاته المملكة الرحبية تنقسم إلى ثلاثة أقسام كبرى.

الأول: منشورية و هو الجهة الشمالية الشرقية من المملكة.

الثانى: المقاطعات الثمانى عشرة، و هو الجهة الشرقية و الوسطى من المملكة، و هو الصين الأصلية و تغلب عليه أهل القسم الأول ثم تغلبوا على القسم.

الثالث: و هو الأملاك الإضافية مثل المنغول و التبت و غيرها، و صار الجميع مملكة واحدة معروفة بالصين.

فأهالى الصين الأصليون هم الذى تغلب فيهم الصفة المتقدم ذكرها، و أما المنشورية و المنغول و غيرهم فإنهم أقوياء و أشداء لا سيما التتر المنغولى. و لهذا كانت السلطنة لغير الصينيين الأصليين، و لما تفتنوا في السنين الأخيرة لما لحقهم من قهر الأوروبايين لهم صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ٨٢

مثل ما تقدم من جهة إنكلترا و فرنسا و من جهة أخرى قهر الروسيا لهم من جهة الغرب الشمالى و حمايتها لبعض ممالك التتر المنغول منهم، جدوا الآن في الإستحضارات الحربية حتى روى بعض الأوروبايين عنهم أنهم أحدثوا ترتيبا في القوات الحربية يمكنهم من إحضار خمسة ملايين من العساكر تحت السلاح، و شرعوا في الإستكثار من الآلات الحربية و جلبها من أوروبا على الطراز الجديد، كما فتحوا معامل في ممالكهم لأجل ذلك، و كذلك القوات البحرية استحضروا منها في ممالكهم معامل لأجل السفن و المدرعات و الترويد، و استصنعوا في أوروبا كثيرا منها فإن تم استحضارهم على نحو ما تقدم يمكن أن يصيروا على حالة الهجوم بقوات مفعجة. و أما الديانة: فإنهم ليسوا على دين واحد بل على ثلاثة أقسام كبرى:

أولها: و أقدمها الدين الذى أسسه حكيمهم المسمى عندهم «بو» و قيل إنه كان أول سلطان في عائلة «هيا» و ذلك قبل هذا التاريخ بنحو أربعة آلاف سنة، و عقائد هذا القسم و فروع عباداته لهم فيها تأليف يعتبرونها كأنها كتب سماوية، و فى القرن السادس عشر قبل التاريخ المسيحي هذب لهم تلك الديانة حكيمهم المسمى «كنفوتسى» و مضمون هاته العقائد الإقرار بالخالق سبحانه و تعالى و بالحرش، و من أخلاقهم السماحة و لا يغضبون على ديانتهم أحدا و لا يحتقرون ديانة من خالفهم.

القسم الثانى: هو الدين الذى أسسه حكيمهم «لاوتسو» و مضمون عقائدهم القول بالتناسخ، و عدد أتباع هذا الدين نحو مائة مليون. القسم الثالث: الدين الذى أسسه حكيمهم المسمى «فواصاكيا أو بدهة» و يعرف بالمذهب البدهى، و كان أول ظهوره أواسط القرن السابع قبل الميلاد، و عندهم من الكتب تأليف عديدة منقسمة إلى مجموعتين: أحدهما: يقال له «عندجور» و هو مائة و ثمانية مجلدات.

و الثاني: يسمى «دندجور» و هو مائتان و أربعون مجلدا و يوجد من كل منهما نسخة تامة بمكتبة باريس الكبرى. قيل: إن المجموع الثاني اشترته دولة الفرنسيين بأربعين ألف فرنك.

كما أنه يوجد أقسام أخرى من الديانات كالبراهمة و غيرهم من عبدة الأصنام أو النصرى صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ٨٣

و اليهود، و الديانة الغالبة فيهم هي البوذية، و هي نوع من الوثنيين، كما أن فيهم قسما عظيما من المسلمين يبلغ إلى ما ينيف عن الستين مليوناً، فمن هؤلاء نحو أربعين مليوناً متفرقين في الممالك أصلهم من الأهالي، و من العساكر المسلمين الذين جلبهم ملك الصين في عهد الخليفة العباسي أبي جعفر المنصور حيث ثارت عليه رعاياه، فاستنجد بالخليفة على أن يؤدى إليه معلوما إذا أنجده، فأرسل له أربعة آلاف من صناديد المسلمين و قهر بهم رعاياه و جازاهم عن ذلك بجواز الإقامة في مملكته مع جواز التزوج بينات الأهالي و مصاهرة الأعيان و إعطائهم ما يحتاجون إليه، فأقاموا على شروط و هي استقلالهم في إدارتهم الخصوصية و عبادتهم و إشهارها، فأجاز لهم مطلبهم لكن فرقه على المدن العظيمة في مملكته، و صار في كل مدينة مدينة مستقلة بالمسلمين على حسب كثرتهم و قلتهم مستقلين في أحكامهم الخصوصية مشهرين لشعائر الدين، و لهم قضاء و أئمة بحيث لا يتداخل فيهم الحكم الصينى إلا في عموم السياسة، و منهم في مدينة «باكين» قاعدة المملكة نحو عشرين ألفاً و لهم جامع ضخم قديم حسن جداً، و يسمونه بلغتهم «هوى هوى» و مساجد أخرى نحو العشرين منها إثنان لأهل الشيعة حيث حدث فيهم هذا المذهب في القرون الأخيرة، و أغلبهم أهل سنه عن مذهب أبى حنيفة و كذلك بقية المسلمين في الصين مثل ما ذكر من القسمين.

و من عادات هؤلاء المسلمين أن ينشروا في رأس كل سنة تقارير تشتمل على بيان أوقات الصلاة مكتوبا بأعلاها من أركان الإسلام الخمس كلمة الشهادة، و الصلاة، و الزكاة، و الصوم، و لا يذكرون الركن الخامس و هو الحج. قال بعضهم: إن علمائهم أسقطوا ذلك لعدم تحمل مشقة الطريق لبعده مسافة الحج عندهم، و أظن أن علته منع الخروج من ممالكهم هي الباعث على ذلك، و إلا فليست مملكة الصين بأشق في السفر من أهالي «سمطرا» و أقصى الغرب و دواخل السودان، فجرت على ذلك عاداتهم و لو بعد انتفاء المانع و سهولة السفر بحرا في البواخر.

و من عاداتهم أيضا أن يكتبوا على أبواب الجوامع «خوای خوای ثانغ» أى محل الجماعة الإسلامية، و أن يكتبوا «تسين جسن سواى» معبد الإله الحقيقى، و يسمون علمائهم «لاوجوفو» أى المعلم الأكبر، و أما أهل الصين فيسمون جوامع المسلمين «ليطاسو» أى محل العبادة الإيسوعية، و حيث كان الدين الإسلامى لا يجوز مناكحة المشركين أسلم كثير من نسائهم بل و عائلات النساء و تزوج بهن المسلمون و تناسلوا إلى أن بلغ عددهم نحو الأربعين مليوناً في هذا العصر، و لم يزالوا على الإستقلال الإدارى حتى حكى طرفا منه ابن بطوطة و هم عليه إلى الآن.

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ٨٤

و من المسلمين أيضا أقسام في الجهة الغربية و الغربية الشمالية من المملكة، فمنهم المجتمع و المفترق، و تسلطت على ممالكهم دولة الصين و لا يزالون ينتهزون الفرص للخروج عنها فتارة يتمكنون من ذلك و تارة تعود للإستيلاء عليهم، مثل مملكة «كاشغار» في الجهة الشمالية الغربية فقد استقلت تحت ملك في عشرة الثمانين و مائتين و ألف، و هو الأمير يعقوب خان الذى ولد في جوار «تشقند» و حصل العلوم في «سمرقند»، و اشتهر في أعظم مدارس بخارى مع مهارة في السياسة أهله لأن يكون مشيرا مطاعا عند أمير «خوقند»، و أرسله حاميا لمهاجمات الروس على قلعة «اكتمشيت»، ثم توجه إلى «كاشغار» للحرب مع الصينيين و حصل على انتصار عظيم أورث له شهرة و ثقة من المسلمين به هناك، و طمع في تعويض مملكة سلطنة الصين بمملكة إسلامية و كسر لهم جيشا فيه أزيد من مائة ألف مقاتل و استولى على جهات معتبرة حتى ارتعدت منه مملكة الصين في سنة (١٢٩٣ هـ).

و حيث كان بين عدوين مال إلى مسالمة الروسية و عقد معها معاهدة تجارية و رام أحكام وحدة الإسلام، فباع بالخلافة للسلطان

العثماني و تلقبه الدولة العثمانية بالأمير أدبا مع الخليفة، و جلب هو من قاعدة الخلافة معلمين للفنون الحربية و الصناعات الهندسية و نظم الجيوش فاخترته المنية قبل رسوخ المملكة و تناحر بنوه و قسموا المملكة فانتهزت دولة الصين الفرصة و استولت على الجميع و إلى الآن أحوالها مخضرمة.

و هكذا أنشأت دولة إسلامية في أواسط الصين بميل إلى الغرب تحت سلطنته رجل يسمى السلطان سليمان، في حدود السنين المذكورة، و جعل قاعدة مملكته مدينة «طليفة» و إنشاء السلاح في مملكه و طلب التعرف به من الدول و أنه متسلطن على نحو الستين مليوناً من مسلمين و غيرهم فلم يكن إلا حلماً و انتزعت منه السلطنة.

و من عجائب مملكة الصين السور العظيم الذي يتدىء من الشطوط الشرقية و يمرّ ممتداً بوسط المملكة إلى حيث العرض أربعين درجة شمالية و الطول تسعة و تسعين شرقياً، فمجموع طوله نحو ألف و مائتين و خمسين ميلاً، و سمكه من الأسفل نحو خمسة و عشرين قدماً و من أعلى نحو خمسة عشر قدماً، و ارتفاعه ما بين خمسة عشر إلى عشرين قدماً، و في أماكن منه حصون يبلغ ارتفاع بعضها إلى أربعين قدماً، و هو مبني بالحجارة و الآجر و القرميد و بعض أماكن طين فقط، بناه بعض ملوكهم قبل التاريخ المسيحي بنحو مائتي سنة و عشرين سنة قاصداً به ردّ المهاجمات على المملكة الصينية الأصلية من المنغول و القبائل الشمالية و لم يجده نفعاً إذ هم الذين تسلطوا على المملكة و السور الآن خراب في جهات كثيرة، و قد غلط من توهمه السد الذي بناه «ذو القرنين» لمنع فساد «يأجوج و مأجوج» محتجاً على ما يقول بأن ليس في الأرض سور ذو عظمة غير ذلك، ورد قوله ظاهر لأن الصفات المذكورة في القرآن للسد غير الصفات التي عليها ذلك السور، ثم إن صفات يأجوج

صفحة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ٨٥

و مأجوج المذكورة في النصوص المروية غير موجودة في أولئك الأقوام، و دلت النصوص أيضاً على أن ذاك السد يدكّ قرب الساعة و تحدث منهم حوادث لم تظهر إلى الآن، فلا يكون حينئذ ذلك السور هو السدّ و لا يخفى أن بعض الأوروبيين الآن لهم دعوى مثل بقية البشر الغير متبصرين من العجائب بما هو عليه، و ادعاء بلوغ النهاية في العلوم حتى أنهم أنكروا وجود السدّ لدعواهم أن كرة الأرض صارت الآن معلومة، و لم يجدوا فيها السد، فهاته الدعوى هي في الواقع مبالغه منهم، و إنما يقال إن اكتشافهم الآن للكرة أكثر من اكتشاف الأمم السابقين الذي وصلت إلينا مؤلفاتهم، و إن احتمال إطلاع غيرهم على ما اطلع عليه الآن أو أكثر، لكن لم نجد لذلك أثراً و لا يلزم من عدم وجود الدليل انعدام المدلول، أما الإحاطة بجميع كرة الأرض و علم جميع ما فيها فهو غير مسلم لوجوه.

فمنها: أن جميع علماء الجغرافية نصوا في تأليفهم أن جهة القطبين لم يمكن الاكتشاف عليها إلى الآن و أن المجهول جهة القطب الجنوبي أكثر من المجهول جهة الشمالي، لأنه أي الجنوبي أشد انحرافاً عن وصول الأشعة الشمسية إليه مستقيماً.

و منها: أن الإكتشافات لا زالت تنمو شيئاً فشيئاً فإنه منذ أربعمئة سنة لم تكن أمريكا معروفة و كان علماء ذلك العصر يرون أن ما وراء شطوط القارات القديمة إنما هو بحر صرف، حتى أن من ضمن في وجود عمران وراء ذلك سخروا منه تارة و اضطهدوه جهلاء علماء الديانة تارة أخرى، كما يأتي الكلام عليه في أحوال أمريكا، ثم تبين بالواقع وجود ذلك العمران الذي يحسب القسم الثاني من أقسام الأرض، ثم منذ ستين سنة اكتشفت استراليا التي هي القسم الخامس من القارات، و لا زالت الإكتشافات متتابعة إلى الآن في أمريكا و في غيرها، و منذ أربع سنين فقط اكتشف سواح الإنكليز جزيرة صغيرة جهة الشمال معمورة بخلق صغار الجثث فطس الأنوف كبار الأذان يأكلون نوعاً من السمك و يلبسون جلده و يوقدون عظمه، و كذلك اكتشف منذ قريب قوم من البشر على نحو تلك الصفة في شمالي أمريكا الشمالية ينحتون من جبال الثلج بيوتا و يجعلون للطواقي المنفذة للضوء قطعاً من الثلج الصفيق لكي لا تمنع الضوء و تقيهم مرور الأرياح.

و هكذا لا زال الإكتشاف يتتابع: و ما يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ [المدثر: ٣١]. و من تأمل سياق الآية الكريمة في حكاية حال «ذي

القرنين» إلى بلوغه إلى «أجوج و مأجوج» ظهر له من السياق أنهم جهة أحد القطبين إذ قال تعالى: فَأَتَّبِعَ سَبِيلاً حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَاذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْبَانًا قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نَعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُكْرًا وَ أَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءُ الْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ثُمَّ أَتَّبِعَ سَبِيلاً حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطَّلِعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَمْ نَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سِتْرًا كَذَلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ثُمَّ أَتَّبِعَ سَبِيلاً حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ٨٦

قَالُوا يَاذَا الْقَرْنَيْنِ إِنْ يَاأَجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انْفُخُوا حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغَ عَلَيْهِ قِطْرًا فَمَا اسْتَطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَ مَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَ كَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا [الكهف: ٨٥-٩٨].

فذكر أن ذا القرنين اتخذ أولاً- طريقاً إلى أن بلغ منتهى الأرض من جهة الغرب فوجد الشمس هناك تغرب في ماء أسود كأنما هو بالحمئة أى الطينة السوداء و هو و الله أعلم البحر المحيط الغربى لشدة عمقه يتراءى أنه أسود و سمي عينا نظرا إلى سياق عظمه قدرة الخالق و ما اطلع عليه ذو القرنين الذى البحر المذكور بالنسبة إليه ما هو إلا كالعين إلى آخر الآية ثم ذكر أتباعه لطريق آخر وصل به إلى منتهى مطلع الشمس من الأرض و قص ما وقع هناك أيضا، ثم ذكر أتباعه لطريق آخر، فظاهر السياق أنه لغير المشرق و لغير المغرب فهو حينئذ إلى أحد القطبين و هو الذى ذكر فيه قصة مأجوج و مأجوج، و على ذلك فذو القرنين سافر إلى أقاصى ثلاث جهات من الأرض و الله أعلم، أى القطبين الذى هو الجهة الثالثة.

و يؤيد هذا الفهم المأخوذ من السياق ما روى من «أن سيدنا الخضر كان وزيرا لذي القرنين و أنه اجتاز معه أرض الظلمة حتى وجد بها عين الحياة» الخ. و أرض الظلمة لا تكون إلا فى أحد القطبين أو ما قاربه لأنه هو الذى يطول مغيب الشمس عنه كما هو معروف عند الحكماء و الفقهاء، و بنى عليه هؤلاء أحكاما فى الصوم و الصلاة مقررة فى دواوين الفقه، و ليست هى أرضا غير المعروفة و إنما أتها الظلمة مما أشرنا إليه، ثم أن قارات الأرض إن كانت إذ ذاك على حالتها الآن ربما تقتضى أن القطب الذى وصل إليه هو الشمالى، هذا إذا كانت هيئة الأرض إذ ذاك هى على نحو ما عليه الآن، أما إذا كانت على شكل آخر فيمكن أن يكون القطب هو الجنوبى أيضا، و إنما قلنا هذا لأن الأرض تتغير أشكالها على طول الزمان بما يحدث فيها من الزلازل العظيمة و انخفاض جهات من اليابسة و ارتفاعات فى جهات من البحر.

و هكذا فإن أمريكا على ما سيأتى كانت متصلة بقارة آسيا من جهة بوغاز برن بل أن جهة من مملكة تونس الشرقية تسمى برج بو الشاطر فى عمل بن زرت كانت قديما مرسى السفن فى دولة القرطاجينيين و الآن صارت محترقات خصبه، و البحر يبعد عنها نحو خمسين ميلا، و كذلك فى الجهة الجنوبية جنوبى الجريد كان فيها بحر يدخل إلى دواخل القارة الأفريقية و الآن صار صحراء و هى المسماة بالصحراء الكبيرة. و سيأتى بقية الكلام عليه فى الكلام على تونس. و كذلك خليج السويس كان بحرا موصلا بين البحر الأبيض و البحر الأحمر ثم سد ثم فتح الآن على ما سيأتى الكلام عليه أيضا فى محله إن شاء الله تعالى.

فقد قال المفسرون فى قصة سيدنا موسى و سيدنا الخضر عند قوله تعالى: حَتَّىٰ أَتَّبِعَ مَجْمَعَ الْبُحْرَيْنِ [الكهف: ٦٠]. «إن المراد بمجمع

البحرين هو محل إتصال بحر الروم

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ٨٧

بحر فارس». و هل ذلك إلا من السويس أو من مكان آخر من آسيا اليابسة؟ و هو أيضا يفيد المطلوب، فتقلب حالات الأرض لا تبعد أن يكون سد مأجوج و مأجوج جهة القطب الجنوبى الذى هو و ما قاربه أكثر مجهولية من الشمالى، سيما و آثار سلسلة الجزائر

إلى استراليا كالأثار الدالة على الإنصال، و يؤيد أنه في أحد القطبين الصفات التي ذكرت لأجوج و مأجوج في خلقتهم في الأحاديث الصحيحة كما في البخارى و غيره من الصحاح، و هي صفات تقرب كثيرا من الصفات التي وجد عليها أهالى الجزيرة التي ذكرناها قريبا جهة الشمال و اكتشفها الإنكليز و شاع أمرها و ذكرها في صحف الأخبار و رسمت في خارطات الجغرافيين، و وصول ذى القرنين إلى هاتيك الجهات و ما وراءها ليس بغريب.

أما أولا: فلأن حرارة الأرض إذ ذاك ليست هي التي عليه الآن فجهاث القطبين لم تكن على هاته الدرجة من البرودة، و لذلك أدلة مسلمة في كتب الجغرافية الطبيعية خلاصتها على مذهب المتأخرين الذى لا يخالف الشرع، أن هاته الأرض كانت كوكبا نائرا ناريا ثم انظفت طبقتها العليا، و لا تزال تتخن تلك الطبقة، و على قدر ثخنها تبرد و تنحصر الحرارة في جوف الأرض و مركزها، و مهما وصلت الطبقة إلى درجة من الاعتدال الصالح لخلق من مخلوقات الله يخلقه الله فيها. و هكذا على التدرج إلى أن تم ما أوجده الله فيها و اضمحل منها من أنواع الحيوان ما لم تبق صالحة له كنوع يشبه الفيل و هو أضخم منه و أنيابه مرتفعة إلى فوق، فإنه الآن انعدم مما هو معروف من الأرض و اكتشف على عظامه في طبقات سفلى من الأرض بالحفر جهة سيبيريا، و يشهد بصحة هذا القول الأحاديث الواردة في التكوين و أن آدم عليه السلام، خلق بعد الأرض بمدّة طويلة و أن الخيل خلقت قبل آدم عليه السلام بكثير، إلى غير ذلك من الصفات الواردة عن الشارع في كيفية التكوين، و قد وجد في سيبيريا من عظام الحيوانات التي لا تعيش إلا في الأرض الحارة كالفيل و غيره بكثرة، مما يدل على أنه ليس بمجلوب و إنما هو حيوان أصلى.

هناك ما يقضى بأن تلك الجهة كانت حارة ليست على ما هي عليه الآن من شدة البرد، فيحتمل أن زمن ذى القرنين كانت الحرارة معتدلة هناك حتى يمكن الوصول إلى تلك الجهة بلا مشقة، و لا يقال إن التاريخ من زمن ذى القرنين إلى الآن لا يقتضى هذا التغير الكثير، لأننا نقول: إن ذا القرنين هذا هو عربى كثر ذكره في أشعار العرب و اسمه الصعب ملك من ملوك العرب العرباء معاصر لإبراهيم عليه السلام أو بقرب منه هذا هو الصحيح، و إن غلط الرازى و غيره في توهمه أنه اسكندر المقدونى و مقدار زمنه لا يمكن الوقوف على تحقيقه، و ذلك أن ذا القرنين كان قبل موسى عليه السلام بكثير حسبما تقدّم في كون الخضر عليه السلام وزيره و هو الذى عاش و تعلم منه موسى عليه السلام، و جميع التواريخ القديمة

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ٨٨

يعتمد فيها المؤرخون على التوراة و هي قد وقع فيها التحريف قطعا في كثير من الآيات لا سيما ما يتعلق بالتاريخ تحريفا فاحشا، و لا يلتفت لغلط ابن خلدون في دعواه عدم التحريف بعد إثباته بالعيان، و فيما أثبتته الشيخ رحمه الله قدس سره في كتاب إظهار الحق من الإختلاف الكثير في التاريخ بين نسخ التوراة القاضى بعضها باجتماع نوح و إبراهيم و بعضها بالبعد الكثير بينهما، و حرره مؤرخوهم أنه سنة (٣٥٢) مع أن العبرانية تقتضى باجتماعهما لأن نوحا مات بعد ولادة إبراهيم ب ٥٨ سنة، و السامرية تقتضى أن إبراهيم ولد بعد موت نوح ب ٥٩٢ سنة، و اليونانية تقتضى أنه بعده ب ٧٣٢ سنة و الأولى يخالفها الإجماع و الآخر بينهما التناقض التام، و غاية المحقق أن إبراهيم لم يجتمع بنوح في عصر عليهما السلام، و الإختلافات على هذا النمط و عدم التحرير في التواريخ كثير جدا فلا اعتماد حينئذ على ما هو موجود من التوراة، نعم أن متأخرى المؤرخين قد اعتنوا بهذا الفن و حرروه باستدلالات من الآثار القديمة و الإطلاع على لغات قديمة لكن لم نطلع إلى الآن على أدلة وجدوها تثبت مدة زمن ذى القرنين على فرض تعيينه و كم عدد السنين بيننا و بينه.

و أما ثانيا: فلا يبعد أن يكون لدى القرنين إذ ذاك من آلات حمل الأثقال و تيسير السفر ما لا يعلم الآن، و يداعمه قوله تعالى في حقه: **إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَ آتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا** [الكهف: ٨٤] مما يقتضى اتساع اقتداره و تهيبه الأسباب لمقاصده، كعلم جر الأثقال مثلا الذى شوهدت الآن آثاره مما لم يقدر عليه متأخروا هذا العصر، و كذلك النحت للقطع الهائلة التى لم تعلم كيفية قطعها و نقلها، سيما و قد وجد في مصر من صورة السللك الكهربائى و الرتل ما يقتضى علمه سابقا، مع صور آلات أخرى غير معلومة كما سيأتى الكلام عليه في أحوال مصر.

فيمكن أن تكون حالة الأرض على هيئتها هاته و لذى القرنين و علمائه و جنوده من المعارف و الآلات ما تيسر لهم به الوصول إلى الأماكن الصعبة مما لم نعلمه الآن، و أما قول بعض المؤرخين: «إن الواثق من بنى العباس أرسل معتمدين إلى السدّ و قاسوا بابه و قفله إلى غير ذلك من الصفات التي ذكرت له». فإننا لم نكن على ثقة منه و لم نعتمد عليه، سيما و لم يعين أولئك المؤرخون مكانه و إنما يقتضى كلامهم أنه في الجهة الشمالية الشرقية من آسيا، فلا يبعد أن يكون ما وصلوا إليه هو سور الصين، و إذا فرضنا أنه هو المراد بالسد في النصوص الواردة، يلزم حمل الصفات المذكورة فيها على بقاع من ذلك

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ٨٩

السور ككونه من زبر الحديد و مفرغ عليه النحاس و الصدقان.

حينئذ طرفان من ذلك السور كما تأوّل صفات أجوج و مأجوج، إلى ما يصح إطلاقها به على التتر و المنشورية، و يكون وعد الله الذي يدك فيه السدّ هو قرب الساعة و لا شك أن الساعة قربت، كما أعلم به رسول الله صلى الله عليه و سلم في قوله: «بعثت أنا و الساعة كهاتين و أشار بالسبابة و الوسطى كناية عن مزيد القرب» و كما قال تعالى: اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَ انشَقَّ الْقَمَرُ [القمر: ١]. فما بقى من الدنيا بالنسبة إلى ما مضى شيء قليل جدًّا، و الطبيعون أنفسهم مقرون بذلك لما يستدلون به من كيفية تكوين الأرض و ارتباطها بالأجرام العلوية.

و حينئذ يكون الفساد الموعود به في النصوص من أولئك القوم، هو ما وقع من التتر المنغولي من الفساد في الممالك و كفى بوقائع جنكس خان و ما عثاه هو و أصحابه في الدنيا مصداقًا لذلك، فإن من له إلمام بتاريخه يرى فيه العجب العجاب و هي مصيبة عظيمة لم تحدث على المسلمين مثلها، و إنما تطاول الزمان و عدم علم الجمهور بها هو الذي لم يصير لها اعتبارًا الآن، و كل هذا الأخير مستبعد و إنما يلزم المآل إليه إذا فرضنا الإحاطة حقيقة بجميع أطراف الأرض، و الحاصل أنه مهما وجدنا نصًا عن الصادق يلزم التسليم إليه و التصديق به فإن وجدنا ما يخالف فهمه في الوجود و جب فهمه على مقتضى الوجود، إذ يستحيل مخالفته خبره للواقع، و قد نص على هذا العلماء الراسخون، و منهم سعد الدين التفتازاني في «التلويح». ثم إن لمملكة الصين من الأنهر العظيمة الحاملة للسفن الشراعية و البخارية ما أغناهم عن تكثير الطرق الصناعية في الأرض.

و أما الجهات التي لا تصل إليها الأنهر: فإنهم يصنعون فيها ترعا متصلة بالأنهر ميسرة للسير و حمل الأثقال، حتى أن منها ترعة هي من عجائب الدنيا طولها نحو ستمائة و خمسين ميلا، و صنعت في عدة أجيال من الجيل السابع من تاريخ المسيح أي القرن الثاني الهجري إلى القرن الثامن من الهجرة، و لم تحدث فيها الطرق الحديدية إلى الآن.

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ٩٠

و أما المعادن: فعندهم أغلب المعادن المعروفة، و لكنهم لقلّة مهارتهم في استخراجها و تصفيتها يحتاجون إلى جلبها من خارج. و هكذا نباتات هاته المملكة فيها أغلب نبات المعمور لا تساعها و اختلاف أقاليمها، و كذلك الحيوانات و الهواء، و قاعدة المملكة هي مدينة باكين التي هي من أعظم مدن العالم، سكانها أزيد من ثلاثة ملايين و لها سور يحيط بها، و أغلب أبنيتهم طبقة واحدة مقسمة إلى عدة أقسام إلا قصور الملوك ففيها طبقات، و الأهالي يتزوجون امرأة واحدة شرعية و يتخذون غيرها كالسراري على أنهم خذيمات لها، و لهم شارات في التفاخر و الدلالة على البيوتية و الغنا منها أن الأغنياء و الأكابر يخلدون إلى الراحة حتى لا يكادون يتحرّكون و تغلب هاته الصفة في نساءهم، فكان من عجائب عاداتهم فيهنّ أن بنت الأعيان إذا ولدت يجعلون لها حذاء من حديد أو ما أشبهه من الأشياء الصلبة، و يلبسونه لها في سن المهد و تترك كذلك إلى انتهاء شبابها فتكون أقدامها صغيرة جدًا بحيث لا تستطيع المشي، و كذلك كفوف يديها حتى لا تقدر أن تشتغل و لا ترفع شيئًا، من الإعتناء بتسمينها فتصير ذاتها ضخمة و كفها و قدمها في غاية الصغر، دلالة على أنها لا تحتاج لعمل شيء بنفسها و كل الضروريات و غيرها تفعلها لها الخوادم، فيصنعون مساطب لحملها على الأعناق عندما تريد المشي لأي جهة كانت و هكذا جميع الحركات، و يستكثرون من الخدم على قدر البسطة في المال و الجاه و عادة

الحمل على الأعناق عامة حتى في الرجال الكبراء والأغنياء، وهاته الخلّة جارية أيضا في أهالي الهند.

و أما حكم هاته المملكة المتسعة: فهو يرجع إلى عامل واحد ذى حكم استبدادى مطلق و له وزراء يديرون و يجرون أمر المملكة على إرادته، ثم في الجهات أمراء مستبدون في التصرف في إماراتهم تحت أوامر السلطان العام الذى يقلد و يعزل منهم حسب إرادته، و مع ذلك الإستبداد فإنهم لتحفظهم على العوائد القديمة تجد كأن أحكامهم قانونية لإجرائهم الحوادث شبه بعضها، و لا يتجاسرون على خرق العادات القديمة في جميع تصرفاتهم إلا- في أمر أكيد عظيم و قلما يقع، و لهم اعتقادات في ملكهم ربما أدتهم إلى اعتقاد ألوهيته، و لهم أيضا دواوين يضبطون بها إدارات التصرف و الأموال و أرزاق العساكر، فمن نظر إلى مجموع تصرفات المملكة يجدها مشابهة أعظم مشابهة إلى الدول القانونية، و كان ذلك هو سبب قدم هذه الدولة و عدم تلاشيها، إلا أن السلطان عندهم و إن كان له أن يفعل ما يشاء، إلا- أنه لا- يفعل شيئا إلا بمشاورة رجال دولته و أرباب مجالسه في جميع الأمور، و كل من أمرائه لا يتصرف إلا بمشاورة رجال مجالسهم، و لا يتوظف أحد في خطّة أيا كانت إلا أن يكون من أصحاب العلوم و المعارف الذين هم وجهاء الأمة، كما يشترط في كل موظف أن يكون متأهلا و جديرا بالخطّة التى يتقلدها، و من عاداتهم الشبيهة بالقانونية أن المتوظف إذا ظلم أحد الرعايا و لو في أقل الأشياء يعاقب أشد العقاب، بل إنهم مطلوبون كل على حسب خطته بما يطرأ على الأهالي من المصائب السماوية التى يكون في

صفحة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ٩١

وسع البشر تداركها كفيضان الأنهر و سقوط الجدران و ما شاكل ذلك، و يعاقبون عليه بالعزل و لهم صحيفة رسمية قديمة قبل أن تعرف الصحف في أوروبا بقرون، و لها نحو ستين صحيفة تنشرها يوميا و لا تحتوى إلا على الحوادث الخاصة بدولتهم و تصرفاتها، و حيث كانت الكتابة عندهم صعبة جدا لأنها فيها علامات عوضا عن الحروف، منها أصلية و منها فرعية تدل على الكلمات فكانت نحو ألفين و خمسمائة علامة و هى المستعملة الآن.

أما العلامات القديمة التى لم يبق استعمالها إلا نادرا فهى نحو أربعة و أربعين ألفا و أربعمائة و تسعة و أربعين شكلا، فلذلك كانت معرفه الكتابة عندهم قليلة جدا. و قد تعارفوا صناعة الطبع قبل معرفتها في أوروبا بكثير، و هى على غير الصورة المعروفة الآن، فإنهم كانوا ينقشون الكتابة في ألواح بحيث تكون على عدد صفحات الكتاب الذى يريدون طبعه، و إن شئت قلت ينسخون الكتاب أو الكتابة بالنقش في ألواح و يطبعون بها ما شاؤوا ثم يدخرونها إلى وقت الحاجة فيعيدون الطبع متى أرادوا.

و أما الغناء في المملكة فهو كثير لكثرة موارد الثروة و كثرة السكان، و مع ذلك هو بالنسبة لغنى الممالك المتمدنة ذات الصنائع المخترعة قليل نظرا لعظم المملكة و ما فيها، و قد تقدّم ما فى عزم دولتها و ما شرعت فيه من القوّة الحربية.

و أما القوّة المالية فهى غير معروفة لاختلاف أنواع الأداء و تفرّقه على أنواع المتوظفين كل منهم له كيفية فى الإستخلاص على وظيفته من الأهالي.

الفصل الثانى عشر المملكة الثانية عشر مملكة روسيا فى آسيا

هاته المملكة تبتدىء من الشمال الأقصى من القارة ثم تعطف مع حدود الصين الغربية و تصل إلى مملكة إيران من شماليها و إلى المملكة العثمانية من شرقيها، فهى متسعة جدا و لا تزال تتوسع فى الممالك الصغيرة بأواسط آسيا حيث تفرقوا شيئا فصارت تغلب عليهم بتسليط بعضهم على بعض و انتصارها لبعضهم حتى تبتلعهم شيئا فشيئا بحيث لم يبق منهم إلا القليل كما سيأتى الكلام عليه بعد، و حكمها فى هاته المملكة سيبين فى الكلام على هاته الدولة فى ممالك أوروبا و كذلك بقية التصرفات السياسية.

و إنما نقول هنا أن فيها قسما يسمى سيبيريا هو شمالي الصين فى نهاية شدة البرد، و هو قليل السكان و الحيوانات إلا بعض الحيوانات

المتجلدة على البرد كالدب الأبيض و الذئب الكبير، و قد اطلع علماء الطبيعة على أن تلك الجهة كانت عامرة بأنواع من الحيوانات التي تألف الجهات الحارة كالفيل و بعض أنواع من الحيوانات فقدت الآن، مثل حيوان أكبر من الفيل و يشبهه في الخلقه و له شعر صلب مستطيل يمتد من مبتدأ رأسه إلى مغرس ذيله يكون مرتفعا مفرزا عن بقية شعر بدنه، و له أنياب طوال متجاوزة لشفتيه مثل صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ٩٢

أنياب الفيل غير أنها مرتفعة إلى فوق، و اطلعوا على وجود هاته الأنواع هناك بكثرة عظامها في طبقات سفلى من الأرض، تدل على أن تلك الجهة كانت حارة كما تقدم، و هى الآن من شدة بردها اتخذتها روسيا منفى لأصحاب الجرائم الشديدة، فما يصلون إليها إلا بعد فقدان أكثرهم فى الطريق و من وصل منهم لا يبقى سالما و تحدث لهم و للسكان الأصليين أمراض فى العين من شدة الضوء المنبعث من سطوع الأشعة الشمسية فى بياض الثلج المتكاثر الدائم.

و يوجد فى هاته المملكة أعنى بقية مملكة روسيا فى آسيا أنواع شتى من الفراء العالى. و فيها أنواع النبات المختلف الذى يوجد فى أغلب الأقطار الباردة و المعتدلة، و تجارتها متصلة مع جميع الأقطار لكنها ليست بمتسعة لصعوبة النقل حيث لم تتم الطرق الكافية الموصلة لشواسع هاته المملكة المتسعة، و لأجل انحطاط درجة المعارف و الصنائع التى يمكن بها مناكبة الأوروبيين فى هذا العصر، و لا يخفى أن مملكة متسعة مثل هاته تشمل أصنافا من البشر، لا بد أن يكون أهلها مختلفى الطباع و العادات، فالمسلمون كالجرس و الكرج هم أهل شجاعه و تجلد و صبر على اقتحام المشاق، مع تعصب لبعضهم و غيرهم من المسلمين، و غيرهم كأهل خيوا و القريم و الداغستان هم أيضا فيهم تلك الصفات، غير أنها أقل من سابقهم و دونهم أيضا فى التعصب و قد استولت روسيا على هاته الممالك تدريجيا، فمنذ نحو ثلاثمائة سنة و هى تمتد فيهم شيئا فشيئا، و مع كون روسيا استبدادية فالمسلمون الذين طال استيلاؤها عليهم و تناسوا العداوة، تعاملهم الآن بالرفق و حرية الديانة بحيث يكون الأذان و الصلوات فى المساجد و عقد الأناكحة كلها قائمة، و كذلك تعلم العلوم الدينية، و لسانهم هو أيضا مباح و لا يتعرض لهم بشيء، و تجرى عليهم بقية الأحكام الشخصية و السياسية مثل بقية الروسيين حتى فى اتخاذ العساكر منهم، لكن أكثر العساكر منهم هم على غير نظام، مما يسمى قزاق نوع من الخيالة الغير النظامية، و أما المسلمون الذين تسلطت عليهم من قريب فتجرى فيهم أنواع القهر و الغلظة من الحكم العسكرى البحت ما تنفر منه الطباع، و ذلك للتحرس من ثورتهم و تربية الجيل الناشئ على المذلة و الخضوع إلى حكمها، و لله الأمر من قبل و من بعد.

الفصل الثالث عشر المملكة الثالثة عشر مملكة هرات

هاته المملكة موقعها شرقى إيران و غربى بعض الصين و الهند و جنوب روسيا و شمال أفغانستان، و كانت تابعة لإيران ثم استقلت عند استقلال أفغانستان و أهلها مسلمون سنيون و الظن أنها لا تلبث أن تلتهمها بعض الدول المجاورة لها لصغرها بالنسبة إليهم، و الأقرب رجوعها لإيران بإعانة الإنكليز فى هاته المدة لإتمام مآربه هو فى الأفغان، حيث أنهم موافقون لهم فى المذهب و يمدونهم بالإعانة على حرب الإنكليز، فلذلك أغرى إيران

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ٩٣

بالحرب لهم و الاستيلاء عليهم، بيد أن سياسة روسيا عطلت ذلك.

و عدد الأهالى مجهول الحقيقة و على التخمين أنهم نحو مليونين تحت ملك مسلم استبدادى مطلق من ذرية أحمد شاه، الذى أنشأ فى أفغانستان و ما والاها مملكة ذات شأن و الأحكام الشخصية شرعية و لهم أيضا فيها حكام سياسية لكن النفوذ قليل، لأن أغلب السكان قبائل رحالة فيهم حرية البداوة هم من أصل التركمان، و كانت فى المملكة مدن عظيمة فى أودية بين الجبال التى على جنوبى صحراء خوارزم هدمت كلها بتخريب جنكس خان التترى، و قاعده المملكة مدينة هرات و هى مدينة عظيمة تسقى بنهر يتشعب فى

شوارعها و دورها، و لها تجارة حسنة في نتائج أراضيها المخصبة مع الممالك المجاورة، و فيها من النباتات كل نبات الأراضي المعتدلة لاعتدال هوائها و سلامته، و كانت مناخا للعلوم و منبتا للعلماء الأفاضل حتى قال ياقوت في المشترك: «إن علماءها لا يحصى كثرتهم إلا- الله» و هي الآن دون ذلك و إنما فيها من العلماء حسب الحال، و لأهلها من الصنائع الجيدة السيوف و آلات القطع، لأن تيمور لنك نقل إليها ماهرى هاته الصناعة من دمشق فبقيت فيهم إلى الآن و لهم مهارة في صناعة البسط و الأقمشة الحريرية، و يقال في قوتها الحريرية و المالية ما قيل في أفغانستان على نسبة عدد سكانها.

الفصل الرابع عشر المملكة الرابعة عشر هي إمارات التتر المستقلين

هاته الإمارات موقعها غربى الصين و شرقى و جنوبى بعض روسيا و شمالى و شرقى هرات و بعض إيران، و جميع السكان مسلمون سنيون و حقيقته عددهم مجهول و إنما يقال على التقريب أنهم نحو سبعة أو ثمانية ملايين، و قد كانت الممالك منقسمة إلى خمسة أقسام، كل قسم مستقل تحت حاكم يلقب بالخان و هي: «خيوة، و بخارى، و تشقند، و خوقند، و قبائل التركمان الرحالة المعروفة بتيكي.

و أما الآن فإن «خيوا» دخلت في حوزة روسيا و صارت جزءا من ممالكها و إن أبقيت لها بعض امتيازات ظاهرية كإبقاء خانها و لقبه، غير أنها في الواقع هي من مستملكاتنا الداخلة في حكمها و تحت أمرها.

و أما بخارى: فهي أيضا مثل خيوا غير أن امتيازاتها أكثر منها، و على كل حال فكلاهما يصح أن يقال أنهما مستقلتان بالإدارة الداخلية تحت الأمر الروسى، و يؤدىان له الخراج السنوى، و لهما عساكر بقدر ما تسمح لهما به روسيا للتحفظ على الراحة في المملكة أو لإعانة روسيا فيما تأمرهما به.

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ٩٤

و أما تشقند: فقد صارت ولاية روسية تحت حكم جنرال روسى، فهي حينئذ مشمولة بالكلام الذى سبق في أحوال مملكة روسيا.

و أما خوقند: فلا زالت مستقلة تحت إمارة خانها، و حكمها إستبدادى و عدد سكانها نحو مليونين.

و أما قبائل التركمان: فقاعدته مملكتهم هي «مرو». و موقعها جهة الشرق الجنوبى من بحر قزوين المستملكة جميع شطوطه روسيا، و عدد السكان نحو مليونين و نصف لكنهم ليسوا خاضعين حقيقته للخان و إنما هم قبائل لكل منها رئيس، و كأنها مع أختها لا تلبثان أن تلحقا أخواتيهما إذ الحرب الآن قائمة على ساق بين روسيا و قبيلة تيكي، و قد كسروا روسيا في هذا العام و هو سنة (١٢٩٧ هـ) مرتين إنكسارا هائلا- و لا- زالت تستعد لحربهم، و إخوانهم ممن استولت روسيا عليهم و غيرهم ينظرون إليهم كما كانوا هم ينظرون إلى حربهم معها، إلى أن ينفذ حكم الله الذى لا معقب لحكمه و تكون له الحجة البالغة سبحانه و تعالى، حيث تفرق المسلمون شيعا للأغراض و الأهواء النفسانية، و لم يجرؤوا الشرع فى الأحكام الكلية و الجزئية و أدخلوا إلى الجهل و التنعيمات الزائلة، حتى تمكن العدو منهم و صارت بلدان الإسلام و مناخ العلوم لعبة بأيدي الأعداء و أصحاب الأهواء- و لا حول و لا قوة إلا بالله العلى العظيم- فوا أسفاه على بخارى و سمرقند و غيرهما من مدارس الدنيا فى الفنون و العلوم الدينية و الرياضية، و واهما على تلك الدقائق و الاستنباطات و الإختراعات لتأسيس العلوم و تهذيبها و إتقانها، و رحم الله أولئك الرجال الذين عمروا الأرض و حموا الدين و لم تزل الأمم تستنفع بمعارفهم إلى الآن، و لم يعملوا بها بل و لم يتعلموها حق علمها حتى كادت أن تصير فى خبر كان، و الله يرث الأرض و من عليها و هو خير الوارثين.

الفصل الخامس عشر المملكة الخامسة عشر هي ممالك الأئمة في جزيرة العرب

هاته الممالك يحيط بها البحر من جهتين: فمن الشرق خليج فارس، و من الجنوب المحيط الشرقي، و يحدها غربا الحجاز و اليمن من توابع الممالك العثمانية و عدن التابعة للإنكليز، و من الشمال العراق العربي للدولة العثمانية. و هاته الممالك هي المعروفة سابقا بنجد، و تهامة، و اليمامة، و أخلاقهم هي أخلاق العرب في هذا العصر من التجرد عن أغلب الصفات التي كانت للعرب السابقين، و أما الديانة في الجميع فهي الإسلام، و أما المعارف و العلوم فكاد أن لا يعرف عندهم منها إسم و لا مسمى إلا قليلا منهم في قليل من علوم الدين، و الحاصل أنهم أمم يقرب بهم الجغرافيون بستة ملايين من النفوس على البداوة، و أغلبهم رحالة ينقسمون في الأحكام إلى شيع كثيرة يلقب كل رئيس منهم بالإمام، كإمام مسقط، و إمام رياض بنجد من الوهابيين، أعنى أتباع عبد صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ٩٥

الوهاب الذين ظهروا في أوائل القرن الثالث عشر، ناشرين دعوة شيخهم محمد بن عبد الوهاب حيث كان مدعيا بحفظ السنة و إبطال البدعة فتجاوز الحدود حتى منع المباح، و قويت شوكته و كثرت أتباعه حتى تسلط على الحرمين الشريفين و قطعة من العراق إلى كربلا- و مسجد علي، و خرّبه و هدم البنات على القبور و أزال الكتابات التي عليها، و أراد أن يحمل الناس على الاتباع حتى في العادات و الأحوال الدنيوية و إن اختلف الأعصار و لم يتقيد بمذهب خاص بل أنه يدعى العمل بالحديث على مقتضى ما يفهمه، و سيأتى ما يتعلق بهاته المسألة في فصل من المقصد عند الكلام على رجوعى من السفر الأول إلى باريس، و ملخص الكلام أن هاته الفرقة تجاوزت المقصد الصحيح في الدين الذى ينبغى التيقظ إليه و إن كانت تدّعيه، كما أن بعض الرادين عليها تجاوزوا حدّ ما ينبغى و خرجوا أعمالها كلها عن حدود الشرع، بل كادوا أن ينسبوا للكفر و قد ألفت تأليف كثيرة في الردّ على مذهبهم من علماء مصر و تونس و غيرهم .

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ٩٦

لما استفحل أمر هاته القبيلة و استولت على الحرمين الشريفين و نشرت دعواها في تأليف خاص، و بقيت على ذلك إلى أن تجرد لها إبراهيم باشا من أمراء مصر و قهرها، و أسر رئيسها سعود بن عبد العزيز العنزي من ربيعة الفرس، حيث كان هذا من أعظم أنصار الوهابى و القائمين ببيعته و انتشار مذهبه إلى أن مات في ضراعية و تلاشت من ذلك الوقت تلك الدعوة و الدولة، و لم يبق لها اعتبار إلا في نجد و أمامها الآن أحد نسل سعود المذكور، و هو في التصرف أشبه بشيخ قبيلة بعيد عن الملك و انتظامه و شارته، و هكذا سائر الأئمة المتقاسمين بتلك الجهات، و الأحق أن لا يعتبروا مملكة مستقلة و إنما يعتبرون كأنهم قبائل في أطراف الممالك العثمانية غير خاضعين إليها، و لو أنها أحسنت التصرف بالدين و السياسة، فإنها بإرادة الله تضمهم إلى ممالكها و تنظم أمرهم على أحسن ترتيب فينصلح حالهم و تقوى بهم الدولة الإسلامية، لأن في أراضيهم أودية فسيحة خصبة و جبالا غنية بالأشجار و المعادن، لا سيما في نجد، مع كرامة خيلها في الدنيا و الرغبة فيها من جميع أهل العالم العارفين بالخيل، و كذلك عندهم من الحيوانات الأنسية و الوحشية ما هو مورد للثروة.

فكما امتدت الدولة العلية بالولاية على اليمن شيئا فشيئا إلى العهد القريب، كذلك إن شاء الله تجمع كلمة الإسلام هناك على خليفة واحد، و كان سبب بقائهم إلى الآن لم تستول عليهم إحدى الدول هو اتساع أراضيهم و كون أغلبها صحارى و قفار، و أكثرهم قوم رجيل فلا- يضبطون بسهولة لأنهم يلتجئون إلى الدواخل، و الدولة العلية يسهل عليها ذلك لاتحاد الدين، و الاستيلاء على أغلب حدودهم فلا- يصعب عليها المدد و الاستعانة ممن جاورهم، و بالعلماء في هدايتهم حتى تجرى فيهم التراتيب الشرعية و تنتفع بهم الأئمة كما ينتفعون هم بالعدل و التمدن و المعارف، و لا شك أن لاتحادهم اعتبارا عظيما عندما يتقدمون، لا سيما و أصل الغريزة العربية سليمة و لله الحمد، أصفى قابلية للتقدم من غيرها، و شاهده ما حصل من العرب بعد غرس الحكمة فيهم بالدين الإسلامى و أهم هؤلاء القبائل و أئمتها الآن هي قبيلة مسقط و لها إمام و قد أدخل تحته طوعا قبيلته ظفار في هاته السنة و هي سنة ١٢٩٧ هـ، و له

نوع احتماء بالإنكليز كما سيأتي في الكلام على زنجبار من أفريقية.

صفحة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ٩٧

الفصل السادس عشر المملكة السادسة عشر

هي مملكة نيبول و موقعها بين جبال هملاي الوسطى و ترائى، و بين سكين من شرقها و كيماوون من غربها، فهي واقعة بين الصين و الهند الإنكليزي، فلها الصين من الشمال و الشرق الشمالي، و الهند من الجنوب و الغرب و الشرق، و عدد سكانها نحو مليونين و نصف، و عوائدهم مثل أو قريب من الهمج من الدول الشرقية مع شجاعة و كذلك أحوال ديانتهم.

الفصل السابع عشر المملكة السابعة عشر

هي مملكة بوتان أو بهتان، و هي أرض بين جبال هملاي و أسام، و هي شرقي المملكة السابقة و تفصل بينهما قطعة من ممالك الهند الإنكليزي، فيحدها جنوبا الهند الإنكليزي و كذلك شرقا و غربا، و يحدها الصين شمالا، و سكانها نحو مليون من النفوس و ديانتهم وثنية، و لهم ملكان أحدهما: ديني و يعتقدون حلول الإله المسمى عندهم «بودا» فيه، و يلقبون هذا الملك «دورمه رجا» و الثاني: هو الملك السياسى و بيده القوة الحربية و الحكيمية، و يلقبونه «دب رجا»، و يتصرف في العسكرية بواسطة أميرين. أحدهما: في مشرق المملكة. و الثاني:

في مغربها، و هم في الحقيقة همج، إذ القبائل غير خاضعين للحكام.

الفصل الثامن عشر المملكة الثامنة عشر

هي مملكة كشمير الشهيرة بما لها من المنسوجات الرفيعة، و تختها مدينة كشمير و قد صارت دولة مستقلة من سنة (١٢٦٣ هـ - ١٨٤٦ م)، غير أنها تؤدي خراجا سنويا إلى الإنكليز، و موقعها في الشمال الغربي من ممالك الهند الإنكليزية، فيحدها جنوبا ما ذكر، و شرقا الصين، و شمالا التتر المستقلين، و غربا أفغانستان، و أهلها نحو سبعمائة ألف لكنها زادت اتساعا بما استولت عليه من قبائل الجبال التي فوق التتر، و أهلها مسلمون و لها ملك بإدارة استبدادية شبه القانونية، و عليه نظر الحاكم العام الإنكليزي في الهند، لكن لكثرة امتيازاته ذكرناه مستقلا، و كذلك يرسم في الخرائط.

الفصل التاسع عشر المملكة التاسعة عشر مملكة الجابون

هاته المملكة هي أول ممالك الجزر التابعة لآسيا و هي متكونة من عدة جزر شرقي مملكة الصين، و كانت في القديم تابعة للصين، و أهلها مثل أهل الصين في الشكل و العادات و الحذق بالصنائع، و عددهم نحو ثلاثة و ثلاثين مليوناً و ثلاثمائة ألف و ستمائة و خمسة و سبعين نفساً، ثم استقلوا في أحكامهم و ملكهم.

صفحة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ٩٨

و في أواخر هذا القرن أعنى منذ نحو عشرين سنة استولى ملكهم رجل عاقل من عائلة الملك، و شمر عن ساعد الجد في إحداث

عصر جديد للمملكة حتى خرجت عن أن تشبه الممالك الشرقية، و صارت كأنها دولة و مملكة أوروباوية غربية من أعظم الممالك ذات السطوة و الشأن و التمدن و التقدم و المعارف و الصنائع، و ذلك أنه تولى ملكهم المسمى «الميكادو» و كان حدث السن ذا أخلاق حسنة و تربية صالحة، و كان معجبا بأحوال الأوروبويين القادمين إلى دولته للسياحة و التجارة، و كان سمع من أحوال أوروبا و تقدمها ما هو معروف و رأى من تفهقر مملكته و ما جاورها ما أوجب له العزم على تغيير حالتها، و لكنه خشى من تمسك قومه بالعادات القديمة التي يحافظون عليها كأهالي الصين، لكنه استعان بالخلعة المخصوصة بها أمته و هو إعجابهم بالحوادث الجديدة، فابتدأ بتغيير زى المتوظفين و رؤساء الدولة و جعله على النحو الأوروبوي، و بقى هو فى ذاته على الزى القديم مختبرا لأفكار القوم بذلك، فلم ير منهم إلا الإسراع و الإستحسان لما أمر به فلم يلبث أن غير زيه فى نفسه.

و أرسل سفراء إلى أوروبا لاستقراء ما فيها من أصول المنافع و الصنائع و آلات الحرب و حركاته، و جلب المبادئ المحتاج إليها فى مملكته من علماء و آلات و غير ذلك. ثم ألزم أمته بإعطاء الحرية العمومية حيث كانوا تحت حكم الأشراف، بمعنى أن كل عائلة شريفة تملك قسما من الأراضى بمن فيها من الناس يكونون تحت عبوديتهم و امتثال أوامرهم، فأبطل هاته العادات و انتخب من قوانين ممالك أوروبا ما صلح فى نظره و صلحه على مقتضيات عادات بلاده و أمر بالعمل به.

كما ألزم العمل بالطريقة العسكرية فى حركات الحرب المعمول بها فى أوروبا، و ألزم كل ذكر يبلغ سن العشرين بالإنظام فى سلك العسكرية للدفاع عن الوطن على قانون معروف، و فتح المكاتب و المدارس فى العلوم الرياضية و غيرها، و كثر منها التكاثر اللازم. و ألزم الأهالى بعقد الشركات للبريد و أنواع التجارة و الفلاحة، و فتح الطرق الحديدية و استخراج المعادن، و زيادة عما جلبه من السلاح الأوروبوي من الطراز الجديد، أحدث معامل فى مملكته و أنشأ السفن حتى كانت عنده إحدى عشرة مدرعة، و بالجملة: فإن انقياد الأمة الجابونية إلى هذا الملك و تقدم هاته المملكة فى أسرع وقت من عجائب هذا القرن التى تخلد فى التواريخ، و ستأتى قوتها الحربية و المالية فى جدول الدول.

و على ما تقدم فتعتبر كإحدى الدول الأوروبوية الأولى المتقدمة، و فيها من الثروة و التمدن و الغناء ما فى ممالك أوروبا و ما فى مملكة الصين، و قاعدته هاته المملكة مدينة «جدو» فى جزيرة نيغون التى بها جبال بلكان كثيرة و لأجلها يكثر فيها الزلزال، و معادنها غنية و أصل ديانتهم كديانة أهل الصين.

صفحة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ٩٩

الفصل العشرون المملكة العشرون مملكة أتشين

و هى قاعدة جزيرة سومطرى، و هاته الجزيرة خصبة جدا و فيها معادن جيدة و مغاص على اللؤلؤ، و يقسمها خط الإستواء إلى قسمين، و هواؤها على العموم جيد فى الجبال ردىء فى الأودية، و سكانها نحو ثلاثة ملايين، و كان من الحق ذكرها فى اتباع الدولة العثمانية، لكن التغافل من بعض المتوظفين أوجب إهمال الدولة لحقوقها فيها على ما سيأتى، و أوجب التكلم عليها باستقلالها، «و ذلك أن هاته المملكة كانت فى الزمن القديم تحت رؤساء من المجوس إلى أن فتحها السلطان «جوهشاه» من أمراء الهند فى ٤ رمضان سنة ٦١١ هـ، و أسلم كل أهلها و تمذهبوا بمذهب الشافعى، و فى سنة ٩٢٢ هـ فى ولاية سلطانها «فرماهشاه» بايعت بالخلافة للسلطان «سليم خان» و حصلت منه على فرمان متضمن لقبول حمايتها و إبقاء سلاطينها على يد الوزير سنان باشا، ثم جدد ذلك السلطان «عبد المجيد» سنة ١٢٦٧ هـ و أرسل إلى سلطانها «علاء الدين منصور شاه» فرمان التبعية و نيشانا مرصعا، و نشرت على قلعها و سفنها الراية العثمانية.

و عدة سلاطين تلك العائلة إلى سنة ١٢٩٣ هـ ستة و ثلاثون سلطانا، و بمقتضى ما لهم من الرخصة فى إدارة المملكة مع تكاثر الأجانب و حبههم التسلط فى جهات الهند و جزره عقد أحد سلاطينهم المسمى «علاء الدين محمود شاه» سنة ١١٥٥ هـ معاهدات مع الهلانديين

على أحوال التجارة و السياسة، و منها أن لا يقع منهم التعدي على أحد رعايا أتشين و لا التعدي على حقوقها و ممالكها، ثم معاهدة أخرى مع الإنكليز سنة ١٢٤١ هـ أيام السلطان «جوهر العالم شاه»، و بموجب ذلك سوغ للملكتين المتاجرة في مملكة أتشين فأما الإنكليز فما زالوا قائمين بعهدهم إلى الآن، و أما الهلانديون فأخلوا بالعهد منذ سنة ١١٨٠ هـ فاستولوا على بعض جوانب من المملكة، لكن لما كان أهلها نافرين عن سلطانهم و بينهم عداوة سكتت دولة أتشين على الإستيلاء عليهم كما هي المصيبة في هذا الزمن بالمسلمين من الشماتة ببعضهم بدخول الأجانب فيهم حتى يتمكنوا منهم جميعا لا قدر الله، ثم لا زالت هو لاندئة فتفتح في أبواب التسلط على المملكة إلى أن فتحت عليهم حربا فجأة سنة ١٢٩٣ هـ و كان سلطانها إذ ذاك حديث السن و هو «محمود شاه علاء» و عند غيبة الناظر عليه و مدبر أمور ملكه الأمير «عبد الرحمن الزاهر» حيث توجه إلى الأستانة لاستنجد الدولة العلية أيام السلطان، عبد العزيز فلم يساعد، و اشتدّ الحرب بينهم و لا زال الهلانديون يفتحون في تلك المملكة إلى الآن، و إن وجدوا من الحمية و الشجاعة ما عاقهم عن إنفاذ غرضهم عن عجل، لكن أعانهم خذلان بعضهم لبعض مع عدم آلات الحرب و عدم معرفة آلاته الجديدة، و أما قوة هاته الدولة المالية و الحربية فغير معلومة و كأنها لا تلبث أن تصير من أتباع هولانده كما وقع في جزيرة جاوة و جزائر و أقواق و غيرها مما استولى عليها

صفحة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ١٠٠

الفرنسيين و الهلانديين و غيرهم من الدول الأوروبية، فإن لكل من هاته الدول مستعمرات في هاته القارة في شطوط الهند و في شرقه و جزره، و تجرى فيهم أحكام الدول المتغلبين لكنها ليست كأحكام ممالكهم و إنما هي أحكام إستبدادية عسكرية بمراعاة العوائد للأهالي، و لما كانت هاته المستعمرات لا تبلغ إلى مستعمرات الإنكليز لم نذكرها على حدتها مثل ما ذكرنا الهند الإنكليزية، و لله ميراث السموات و الأرض.

القسم الثاني من الأرض هو قارة أوروبا،

إشارة

هاته القارة يحيط بها البحر من جميع جهاتها إلا الجهة الشرقية فتتصل بقارة آسيا المار ذكرها، و الحدّ بينهما هو جبال أراو و نهر دون الذي مصبه في البحر الأسود، ثم يحدّها جنوبا البحر الأسود و بحر مرمر و البحر الأبيض و بغاز طارق، و غربا المحيط الغربي و المانش، و شمالا المحيط الشمالي و المنش و البلتيك و المتجمد القطبي، و هاته القارة الآن رمقها السعد بألحاظه و حظ لديها ركابه فكما تسعد أفراد الإنسان و تنحس كذلك بقاع الأرض حاشا البقاع المكرّمة بالأنوار الإلهية، و إنما نعني البخت الدنيوى. فإن هاته القارة كانت قد لبثت مدّة و هي في الحضيض الأسفل ما بين خلاء و خراب و دثار و توحش فيما سلف من العصور، إلى أن حدثت فيها دولة الرومان و اليونان و تشعشت فيها المعارف و ارتقى فيها التمدّن و الصنائع، لكنها لم تلبث أن عادت كما كانت عليه من التوحش و البربرية لاقتصار تلك المبادئ الحسنه على أفراد و إن كانوا كثيرين في مراكز مخصوصة، و انحصار السلطة القهرية في تلك المراكز فزال التقدم بتقهقر تلك السلطة، غير أنها حدثت فيها تمدن آخر في مدّة الإمبراطور شارلمان المعاصر للخليفة هارون الرشيد الذي أكب على المعارف و ملازمة أهلها، و بث منها في ممالكه ما وسعه الإمكان، غير أنها تقهقرت بعده أيضا و شرع فيها تمدن منذ خمسمائة سنة على خلاف المعهود سابقا، و امتد فيها تدريجا إلى أن بلغت في هذا العصر إلى الدرجة القصوى من التهذيب و التمدّن و المعارف الدنيوية، حتى صار لأهلها الوجاهة و النفوذ على جميع أقسام الأرض و دونك أنموذجا لأخبار ذلك الترقى، و حاصله:

إن أهالي أوروبا استفادوا من العلوم التي باللسان اللاتيني و اليوناني اللذين تحفظت عليهما الكنيسة، و كان أهلها في مدّة الجهل العام يبذلون أقصى الجهد في التحفظ على تعلم ذينك اللسانين و ترقى تلامذتهم في العلوم الموروثة من الرومان و اليونان، كما استفادوا من الأمة العربية في المغرب بمجاورتها في الأندلس، فأخذوا عنها العلوم الرياضية و تهذيب الأخلاق و الجغرافيا التي علمتها المسلمون بالأسفار للحج من الأقطار القاصية و الفتوحات

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ١٠١

الممتدة شرقا و غربا و الإعتناء بالتجارة، حتى أن ملك صقلية دعا إليه العلامة الإدريسي ، و ألف عنده كتابه الغريب المسمى: «نزهة المشتاق» في الجغرافيا، و استفادوا أيضا من الإسلام في المشرق في مدّة حروب الصليب فخالطوهم و تعلموا منهم مسالك الترقى و القوة و فنون المعارف فانبت فيهم في جهات عديدة في وقت واحد، فكانت في القرن الثالث عشر المسيحي الموافق للقرن الخامس و السادس الهجري علماء في الفلسفة و غيرها في كل من فرنسا و إيطاليا و ألمانيا، و اجتهدت من ذلك الوقت كل جهة في ترقية نفسها و التشبث بالوسائل التي لا- تحوجها إلى غيرها، و أعظم الوسائل التي أعاتتهم على بلوغ المعارف صناعة طبع الكتب التي كثرت بها الكتب و رخصت حتى تيسر الإطلاع عليها حتى لغير ذى الثروة.

و لما انفتحت بصائرهم و علموا أن العوائق عن بلوغ المقصود منحصرة في عدم إنسجام الإدارة و الأحكام على مقتضى المصلحة و عدم صرف النظر إلى منافع الأمة حيث لم تكن لهم شريعة تضبطهم و إنما الملوك المستبدون هم الذين يتصرفون كما أرادوا، و جذبوا إليهم العلماء بالترغيب و الترهيب فأعانوهم على العائمة إلى أن وصلوا إلى درجة الإضمحلال، فلما انفتحت بصائر الأمم تحزبوا في جهات إلى تقييد التصرف من الملوك بمشاوره رؤوساء الأمم و وجهائهم، و أن تكون الإدارة على قانون معلوم موافق لعادات الأمة و ما يقتضيه حالها و أن يستوى الشريف و المشروف في الحقوق الشخصية، و أن لا يمتاز قسم من الناس بالأشياء الضرورية كالعلوم و الأراضي و التجارة و غيرها، فحصل هذا المقصود في بعض تلك الممالك بإرافة الدماء الغزيرة بين الملوك المستبدين و بين الأمة.

و في بعض الممالك تفتن عقلاء ملوكها إلى وجوب العمل بذلك الوجه إما لحذقهم و إثارهم للمصلحة العامة على الخاصة بهم حيث علموا أنها أي الخاصة لا تدوم إلا بدوام الأمة، فأثروا مصلحة الأمة أو إتقاء من أيلولة أمر المملكة إلى ما آل إليه غيرها مما لا ثمره لهم في الإصرار على منعه، فسارعوا إلى منح الأهالي بالقوانين و الحرية منه منهم، و ما حصل في إحدى الممالك إجراء القوانين على أي وجه من الوجوه المتقدمة إلا أخذت في الترقى و الثروة لانكفاف الظلم المؤذن بالخراب، فتحسنت أحوالها و نمت سكانها و عمرت أرضها و كثرت صنائعها و انتشرت فيها المعارف و زادت إتقانا و اختراعا و امتدت تلك المملكة بسطوتها على من لم يجاريها فيما هي عليه، و سرى العمل على ذلك النحو في جميع ممالك أوروبا تدريجا إلى أن عم جميعها و لم يبق منها الآن مخالفا لبقيتها إلا مملكة روسيا بحيث يصح أن يقال إن جميع أوروبا كأنها مملكة واحدة على نمط واحد، و غاية الإختلاف بينها إنما هو بزيادة الثروة و القوة و الحضارة، أما أصول هاته الأشياء فهي موجودة في الجميع.

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ١٠٢

و لذلك نتكلم على هاته القارة كلاما عاما و نذكر أسماء ممالكها و قواها إذ هذا كاف في المقصود من هذا التأليف، حيث أن المقصود هو معرفة الممالك الآمنة من غيرها، سيما و نحن سنذكر إن شاء الله تعالى في المقصد تفاصيل ممالك مهمة، منها. فيقاس عليها غيرها، إذ هي متشابهة على التقريب. و إنما نفرّد دولة روسيا لمخالفة سيرتها للبقية، و أما الدولة العلية فقد تقدّم الكلام عليها في قسم آسيا، فأحكامها جارية في الجميع على السواء غير أنها لما كانت لها في قسم أوروبا ولايات ممتازة و ولايات غير ممتازة فنعيد ذكرها هنا أيضا، و على ذلك فنقول:

«إن أوروبا تنقسم إلى دول جنوبية و دول وسطى و دول شمالية و جميعها ثمانية عشرة مملكة كلها نصرانية إلا الدولة العلية كل منها

مستقل عن الآخر و إن كان بعضها يتألف من أكثر من مملكة واحدة، فالدول الجنوبية ستة و هي:
الدولة العلية، و الجبل الأسود، و اليونان، و إيطاليا، و إسبانيا، و البرتغال، و الوسطى ستة أيضا و هي:
فرنسا، و أسفيسرا، و البلجيك، و أوستريا، و الصرب، و الرومانيا، و الشمالية ستة أيضا و هي:
الروسيا، و السويد، و الدانيمرك، و هلاندة، و ألمانيا، و انكلترا.

الفصل الحادى و العشرون فأما الدولة الأولى فهي الدولة العلية و تختها القسطنطينية،

فحالتها العاقية تقدم الكلام عليها و أما الخاص منها بهاته القارة فإن لها ممالك رحيية فمنها ما هو ممتاز و يؤدى أداء سنويا معلوما و إدارته فى نفسه مستقلة، كولاية البلغار التى قاعدتها صوفية فإنها بعد معاهدة برلين الناتجة من حرب سنة ١٢٩٤ هـ التى سيأتى تفصيلها فى المقصد إن شاء الله تعالى، صارت هاته الولاية إمارة نصرانية مستقلة و إدارتها على نحو الإدارات العامة فى ممالك أوروبا ذات القوانين التى يرد الكلام عليها عن قريب إن شاء الله تعالى.

و أغلب سكانها بلغاريون و بقية سكان الإمارة من المسلمين و اليونان، و كل منهما فى أشد الضنك لا سيما المسلمين من قساوة القسم الغالب الذى صارت له السيادة على الجميع، لأنهم و لئن كانوا ظاهرا إدارتهم حرة قانونية لكن الباطن استبدادية تحت إشارة روسيا المستبدة المودة للإمارة المذكورة، و هاته الإمارة ليس لها حق فى إنشاء حصون على حدودها و الحصون التى كانت فيها للدولة تهدم بمقتضى معاهدة برلين، و عساكر الإمارة يكونون من الأهالى و أغلب رؤوسائهم الآن من الروس و إلى الآن لم يتعين مقدار الأداء السنوى الذى يلزمها أداءه للدولة العلية بسبب التراخى عن إجراء جميع فصول معاهدة برلين، و كذلك للدولة العلية فى هاته القارة ولايات أخر مستقلة فى الإدارة و ما زاد من دخلها عن مصارف مصالحها الذاتية يؤدى إلى خزنة الدولة، إلا الكمرك و الدخان فهما راجعان للدولة، و هاته الولايات نصرانية و شروط و اليها أن يكون نصرانيا يولى من الدولة

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ١٠٣

بعد موافقة الدول عليه و لا يعزل قبل إتمامه لخمس سنين، و أما العساكر فليس لها أن تنظم جيشا و إنما تحدث حرسا أهليا لإنفاذ الأحكام و حفظ الراحة المعتادة، و إن أحوج الحال إلى قوة عسكرية فإن الدولة ترسل للوالى مقدار ما يطلبه لذلك، و للدولة أن تقيم فى الحصون و الحدود عساكر على حسب ما يظهر لها بشرط أن لا يكون على الأهالى منهم أدنى كلفه أو تعلق. و هاته الولايات هى:
الرميلية الشرقية، و أكرت، و السوسام. و الأحكام الجارية فيها قانونية بواسطة مجالس من الأهلىين، كما أن للدولة ولايات أخر فى هاته القارة ليس لها امتياز عن غيرها من بقية الممالك، و هى: ولايات الرميلية كادرنة و شقودرة، و سلانيك، و جزاير البحر الأبيض، و أما بوسنة و هرسك فكلاهما تحت تصرف النمسا، و هما من حقوق الدولة، و لذلك كان لها فيهما العلم بحيث ينشر كل من علم أوستريا و علم الدولة معاً، و الخطبة باسم السلطان العثمانى و المتوظفون العثمانيون إن صلحوا فى نظر الوالى الأوستورياوى يبقون، كما أن أوستريا أدخلت عساكرها مشاركة للعساكر العثمانية فى صنجق نوفي بازار مع بقاء الإدارة بيد الدولة، و كل ذلك بموجب معاهدة برلين.

فيحد أملاك الدولة فى أوروبا الآن شمالا نهر الطونة، و غربا النمسا و الصرب و الجبل الأسود و بحر البنادقة، و يحدها جنوبا بوغاز القسطنطينية و بحر مرمر و بوغاز جناق قلعه و بحر الجزر و البحر الأبيض و اليونان، و شرقا البحر الأسود و بحر الجزر.

الفصل الثانى و العشرون و أما الدولة الثانية و هى الجبل الأسود،

فإنها استقلت بعد الحرب الواقعة سنة ١٢٩٢ هـ و كانت تابعة للدولة العلية و لا زالت تلقب بالإمارة، ثم ضم إليها قطع من ممالك الدولة العلية و صار الآن سكانها نحو ثلاثمائة ألف، و يحدها المملكة شمالا في البعض أوستريا، و غربا بحر البنادقة، و من بقية الجهات الدولة العلية، و قاعدة المملكة ستين.

الفصل الثالث والعشرون و أما الدولة الثالثة و هي اليونان،

فإنها كانت تابعة للدولة العلية أيضا و استقلت في سنة ١٢٤٦ هـ، و كان إذ ذاك عدد سكانها نحو ثمانمائة ألف فتكاثروا إلى أن بلغوا الآن إلى ما يزيد على المليون و نصف، و لهذا الجنس الشهرة التامة في التقدّم و فنون العرفان في الأعصر السابقة، إلا أنهم لم يقبوا على ما كانوا عليه، و إلى الآن لهم اعتناء زائد بالأسفار و قوة البحر، و هذه المملكة شبه جزيرة في البحر الأبيض فيحيط بها من جميع الجهات إلا الجهة الشمالية فتحدها الدولة العلية، و لها جزائر أخر بقربها تابعة لها و قاعدتها أتينا.

الفصل الرابع والعشرون و أما الدولة الرابعة و هي إيطاليا،

فقد كانت منقسمة إلى عدّة إمارات و ممالك ثم في صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ١٠٤
أواسط هذا القرن أخذت في الإتحاد إلى أن تم إتحادها بجعل مدينة رومئ تختالها في سنة ١٢٨٧ هـ، و صارت دولة من الدول العظام، سكانها نحو سبعة و عشرين مليوناً و يحدها البحر الأبيض من الغرب في البعض، و في الباقي فرانساً، و يحدها جنوبا البحر المذكور، و يحدها من الشرق بحر البنادقة في الجبل و في البعض أوستريا، و يحدها شمالا أوستريا في البعض و في الباقي سفيسر و فرانساً، و سيأتي مزيد الكلام عليها بانفرادها في المقصد إن شاء الله تعالى.

الفصل الخامس والعشرون و أما الدولة الخامسة فهي دولة إسبانيا،

و قد كانت متلاشية في شمال الأندلس و لما أكب المسلمون هناك على شهواتهم و عملوا بالظلم بعد أن بلغوا الدرجة القصوى من العدل و المعارف و القوّة حتى فتحوا قسما عظيما من فرانساً ثم تركوا ما كانوا عليه و انقسموا ملوك طوائف كما قال شاعرهم:
مما يزهدي في أرض أندلس ألقاب معتضد فيها و معتمدى
ألقاب سلطنة في غير موضعها كالحير يحكى انتفاخا صولة الأسد
فحينئذ استعانت دولة الاسبنيول بذلك الإنقسام و الظلم، و أعانت بعضهم على بعض و تستبدّ هي بالفائدة إلى أن تسلطت على الجميع، و فعلت من التوحش و القسوة ما تنفر عن سماعه الأذان، حيث ألزمت المسلمين إما تبديل دينهم أو القتل، فهرب من قدر منهم على النجاة أفواجا أفواجا حفاة عراه و تشتتوا في المغرب و الجزائر و تونس أيدي سيا، ثم استفحل أمر تلك الدولة أي الإسبنيولية إلى أن كانت هي وحدها إذ ذاك ذات التقدّم على سائر الدول الأوروبية لما فازت به من ثمرات فنون المسلمين و صنائعهم، و كانت وحيدة في القوّة البحرية حتى أن أول من اكتشف أمريكا كان من أسطولها كما سيأتي ذكر ذلك إن شاء الله تعالى.

و عمرت مستعمرات في أمريكا و البحر الهندي و أفريقية، غير أنها فيما بعد أثخن فيها الإستبداد جراحة سنة الله في أرضه فتقهقرت

إلى أن كادت أن تتلاشى، و خرج عنها كثير من مستعمراتها و خربها الظلم و نقصت فيها الأنفس و الأموال و الثمرات، إلى أن استفاقت الأمة من غفلتها و ثاروا ثورة واحدة حتى حصلوا على ترتيب دوله قانونية، و امتد أمرهم في تحصيل مقصودهم بضع سنين و هي من سنة (١٢٨٦ إلى سنة ١٢٩٣ هـ)، فاستقر حالهم على حكومة حرة و ملكوا عليهم ابن ملكتهم السابقة التي ثاروا عليها بعد أن سيروا الحكومة

صفحة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ١٠٥

الجمهورية، ثم عدلوا عنها و رادوا أحد عائلات ملوك أوروبا فملكوا عليهم ابن ملك إيطاليا، ثم بدا له منهم النفرة فخلع نفسه و أوصلوه إلى بلاده محروسا مكرّما و عادوا إلى الجمهورية، فأنف منها شرفاؤهم و أغلب الأهالي فاستقر أمرهم على ابن ملكتهم المذكور، على أن يكون تحت القوانين المرتبة و خاضعا لها فاستقام حالهم بذلك و أقبلوا على إصلاح شؤونهم، بيد أن ذلك لما كان حاصلًا من عهد قريب و بعد حروب أهلية لم تتراجع دولتهم إلى أن تعد من الدول الأولية، و سكان هاته المملكة عدا ما بقى لها من المستعمرات سبعة عشر مليونًا و لها مستعمرات في أمريكا و في شطوط أفريقيا و آسيا و جزر الأقيانوس، يبلغ عدد سكانها نحو تسعة ملايين، و هاته المملكة يحدها جنوبا بوغاز طارق و البحر الأبيض، و شرقا البحر الأبيض في البعض و فرانسًا في الباقي، و شمالا المحيط الشمالي، و غربا المحيط المذكور و مملكة البرتغال، و قاعدتها مدريد.

الفصل السادس والعشرون و أما المملكة السادسة و هي مملكة البرتغال،

فقد كانت قسما من الأندلس ثم إسبانيا و عند تقهقر هاته استقلت عليها و أجرت القوانين فكانت مستقيمة السيرة على قدر حجمها. و سكانها نحو أربعة ملايين و نصف و لها مستعمرات في شطوط أفريقية و الصين و الهند، يبلغ عدد سكانها نحو ثلاثة ملايين و نصف، و يحدها هاته المملكة غربا المحيط الغربي و من بقية جهاتها إسبانيا، و قاعدتها أشبونه بالتسمية العربية و حرفوها الآن فصارت لزبون.

الفصل السابع والعشرون و أما الدول الوسطى فأولها: دولة فرانسًا،

ذات النخوة و الشأن المتقدم في التمدن و السطوة و العرفان، و سيأتي تفصيل الكلام عليها إن شاء الله تعالى. و إنما نقول هنا: إن هاته المملكة حوت من المحاسن و الصفات ما أقر لها به معاصروها و مناكبوها، و لو لا تقسيم أهلها لأحزاب مع سرعة العمل بينهم لما جارتها دولة، و هي تشتمل على نحو ستة و ثلاثين مليونًا من النفوس، و لها مستعمرات في جميع القارات يبلغ عدد سكانها نحو خمسة ملايين، و استقلالها قديم و تختها مدينة باريس. و يحدها جنوبا البحر الأبيض و إيطاليا و إسبانيا، و شرقا إيطاليا و سويسرة و جرمانيا و البلجيكيك، و شمالا البلتيك و المانش و المحيط الشمالي، و غربا المحيط المذكور. و هي من أقدم الدول القانونية و إن طرأ عليها في الوسط شيء من الإستبداد لكنها أزاحتها، و حكومتها جمهورية و قاعدتها باريس.

الفصل الثامن والعشرون و ثانيها: دولة سويسرا

و يحدها جنوبا إيطاليا، و شرقا أوستريا، و شمالا ألمانيا، و غربا فرانسًا، و قد كانت تداولها كل من فرانسًا و ألمانيا مدة قرون و في خلالها يحصل لها في بعض الأحيان استقلال، إلى أن تم استقلالها باعتراف جميع الدول الكبيرة و ضمانتهم لاستقلالها و ذلك سنة

١٦٤٨ أى أواسط القرن الحادى عشر الهجرى، و لا زالت على ذلك.

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ١٠٦

و سكانها نحو مليونين و نصف، و حكومتها جمهورية خالصة، بمعنى أن المجالس العليا ينتخب أعضاؤها من أنفسهم سبعة أشخاص لمدة ثلاث سنين يكونون بمثابة الوزراء فى إدارة الأمور على نحو ما تتفق عليه المجالس، و ينتخب لهؤلاء السبعة رئيس لمدة عام واحد يكون هو رئيس الدولة العام و تخت المملكة مدينة بارن.

الفصل التاسع و العشرون و ثالثها: دولة البلجيك،

فيحدها جنوبا و غربا فرنسا، و شمالا بحر المانش و المحيط الشمالى، و شرقا المحيط الشمالى و هولانده و ألمانيا. و عدد سكانها نحو خمسة ملايين و تخت المملكة مدينة بروكسل، و كانت من ملحقات فرنسا ثم استقلت بأمرها مع اتحادها بهولانده بعد سقوط نابليون الأول، ثم استقلت بتا سنة ١٨٣٠ مسيحية الموافقة سنة ١٢٤٦ هجرية فسبقت أيضا فى العمران و الثروة.

الفصل الثلاثون و رابعها: مملكة دولة النمسا المتركة من دولتين مستقلتين و هما أوستريا و هنكاريا،

و كل منهما لها إدارة خاصة بجميع داخليتها و وزراء يباشرون الإدارة فى كل منهما، و لها ملك واحد يلقب بإمبراطور أوستريا و ملك هنكاريا، و لهما قانون معلوم فى كيفية الإتحاد و الإنفراد و حدود كل منهما، و منها أن يكون وزير الخارجية و علائقه متحدا فى كل من المملكتين، و دولة أوستريا من أقدم دول أوروبا و كانت فى مبدئها صغيرة ثم تعاضمت و دخلت فى العصبية الألمانية حيث أن من أهاليها قسما عظيما من الجنس الألماني، و صارت لها الرياسة على العصبية مدة إلى أن انتزعتها منها دولة بروسيا سنة ١٢٨٤ ه فى حرب عاصدها فيها إيطاليا و استقرت الآن منفردة عن العصبية الألمانية، و صار عدد أهالى هاته الدولة نحو سبعة و ثلاثين مليونا، و يحدها جنوبا رومانيا و الصرب و الدولة العلية و بحر البنادقة و إيطاليا، و غربا سويسرة و ألمانيا، و شمالا ألمانيا و روسيا، و شرقا روسيا و رومانيا، و قاعدة المملكة الأولى هى مدينة فيينا، و قاعدة الثانية هى مدينة بست و تحت تصرفها بوسنة و هرسك.

الفصل الحادى و الثلاثون و خامسها: دولة الصرب،

و إنما صارت دولة مستقلة بعد حرب سنة ١٢٩٣ ه و كانت إمارة مستقلة بالإدارة تابعة للدولة العلية و تؤدى لها الخراج، و بمقتضى معاهدة برلين صارت دولة مستقلة يحدها جنوبا الدولة العلية بإمارة البلغار و غيرها، و شرقا هى أيضا و نهر الطونة، و شمالا النهر المذكور و النمسا، و غربا ولاية بوسنة و هرسك الراجعة للدولة العلية و تصرفها بيد النمسا، و عدد سكان هاته الدولة مع ما أضيف إليها بمقتضى المعاهدة المذكورة نحو المليونين، و قاعدتها بلغراد.

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ١٠٧

الفصل الثانى و الثلاثون و سادسها: دولة رومانيا،

يحدها جنوبا الدولة العلية بولاية البلغار فى البعض و فى الباقي نهر الطونة، و يحدها شرقا البحر الأسود و روسيا، و شمالا روسيا و

النمسا، و غربا النمسا، و قاعدتها بخارست، و عدد سكانها نحو خمسة ملايين، و بقیة أحوالها مثل الدولة المتقدمة عليها في الذكر، لكنها متقدمة في التمدن و المعارف و القوة، و عندما كانت تابعة للدولة العلية كانت تسمى بالولايتين أى الأفلاق و البغدان حيث كانت منقسمة إليهما، ثم اتحدتا في عشرة السبعين و المائتين و ألف تحت أمير واحد، ثم استقلت بمقتضى معاهدة برلين بعد أن دخلت في إعانة روسيا على كره من الأهالي، و لا زالوا محبين للترك إلى الآن.

الفصل الثالث و الثلاثون و أما الدول الشمالية فالدولة الأولى منها: دولة إنكلترا السابقة في الحربة و الثروة،

و هي جزيرتان منقطعتان في المحيط الشمالى يحيط بهما البحر من جميع الجهات، و أقرب جهة من القارة إليها هي مملكة فرنسا و يفصل بينهما بحر المانش، و أضيق جهة منه بينهما نحو عشرين ميلا. و سكانها نحو ثلاثين مليوناً، و قاعدتها مدينة لندرة، و لها مستعمرات في جميع أقسام الكرة، فمنها: الهند و جزره، و عدن في آسيا، كما تقدم الكلام على ذلك. و منها رأس الرجاء الصالح و غيره في أفريقيا، و منها آيالات في أمريكا الشمالية و أخرى في الجنوبية، و أعظم جزائر أوستريا و عدد جميع من يتبعها في المستعمرات نحو مائة و تسعين مليوناً، و سيأتى الكلام على هاته المملكة مفصلاً في باب خاص من المقصد إن شاء الله تعالى.

الفصل الرابع و الثلاثون و الثانية منها: دولة هولاندة،

و يحدها شمالاً و غرباً المحيط الشمالى، و يحدها جنوباً البلجيك، و شرقاً ألمانيا، و قد كانت تداولتها دول جرمانيا و فرنسا و إسبانيا إلى أن استقلت مع البلجيك بعد سقوط نابليون الأول، ثم انفصلت عنها البلجيك سنة ١٨٣٠ م - ١٢٤٨ هـ، و عدد سكانها نحو ثلاثة ملايين و ثمانمائة ألف نفس، و لها مستعمرات في جزائر الهند و جاوا و سمطرا و أمريكا و أفريقيا، عدد سكانها نحو عشرين مليوناً من الأنفس و قاعدة المملكة مدينة هاك.

الفصل الخامس و الثلاثون و الثالثة منها: دولة ألمانيا المتألفة من ستة و عشرين دولة

كل منها مستقل بإدارته الداخلية، و لهم قانون في الوحدة و مجلس يشترك فيه الجميع عدد أعضائه على قدر مناسبة سكان الممالك المشتركة فيه، و الرئاسة على جميع هاته الدول الآن لدولة بروسيا و ملكها يلقب بإمبراطور ألمانيا، و يحدها جميع المملكة شرقاً روسيا و النمسا و بحر البلتيك، و شمالاً البحر المذكور و الدانيمرك، و غرباً هولاندة و البلجيك و فرنسا، و جنوباً سويسرة و إيطاليا و النمسا، و عدد سكان الممالك أحد و أربعون مليوناً، و القاعدة الكبرى للجميع هي برلين،

صفحة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ١٠٨

و هذه أسماء الدول المتألفة منها العصبه مع عدد السكان و أسماء القواعد:

عدد سكان الممالك / أسماء القواعد / أسماء الممالك

١٧١، ٠٠٠ / برلين / بروسيا

٨٦٤، ٠٠٠ / مونيخ / بافير

٨١٨، ٠٠٠ / استوتكادر / فورتينغ

٤٦١، ٠٠٠ / كارلس / بادن الكبرى

- ٥٦٠، ٠٠٠ / ٠٢ / درازد / الساكس
- ٩٧، ٠٠٠ / ٠٠ / نيوستراتس / مكلنبورغ ستراتس
- ٣١٦، ٠٠٠ / ٠٠ / أولدنبورغ / أول دن بورغ
- ٢٨٦، ٠٠٠ / ٠٠ / ويمبر / الساكس ويمر
- ١٨٨، ٠٠٠ / ٠٠ / ميننجن / الساكس ميننجن
- ١٧٤، ٠٠٠ / ٠٠ / غوطا / الساكس كوبرى غوطا
- ١٤١، ٠٠٠ / ٠٠ / التنبورغ / الساكس التين بورغ
- ٠٧٥، ٠٠٠ / ٠٠ / رودول استاد / أشفارزبورغ
- ٠٦٨، ٠٠٠ / ٠٠ / سوندرسون / شورا شبورغ سوندرسون
- ٠٨٩، ٠٠٠ / ٠٠ / شلايز / أدليس شلايز
- ٠٤٥، ٠٠٠ / ٠٠ / غرايز / أوليس غرايز
- ٢٠٣، ٠٠٠ / ٠٠ / ديسو / أنحلت
- ٣١٢، ٠٠٠ / ٠٠ / ابرونزوويك / ابرونزوويك
- ١١١، ٠٠٠ / ٠٠ / ديموله / ليب ديموله
- ٠٣٢، ٠٠٠ / ٠٠ / بوكى بورغ / ليب شامبورغ
- ٠٥٦، ٠٠٠ / ٠٠ / أدرسن / فالديك
- ٨٥٣، ٠٠٠ / ٠٠ / دارمستاد / ايس دارمستاد
- ٥٤٨، ٠٠١ / (كولما) / (استرسبورغ) (ميتس) للجاس و اللورين
- ٣٦٠، ٠٠٠ / ٠٠ / هانبورغ / بلدة هامبروغ
- ٠٥٢، ٠٠٠ / ٠٠ / لونك / بلدة لنك
- ١٢٣، ٠٠٠ / ٠٠ / بمريم / بلدة بريم
- //٤١، ٠٠٣، ٠٠٠

صفحة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ١٠٩
و كلها ذات قوانين، و السياسة الخارجة متكفلة بها الدولة الرئيسة.

الفصل السادس و الثلاثون و الرابعة منها: دولة السويد المتألفة من دولتى السويد و النرويج،

و كل منهما مختصة بإدارتها الداخلية و الوزارة و اللسان و العساكر بحيث لا يجمع بينهما إلا كون الملك واحدا و السياسة الخارجة أيضا لحكومة السويد، و كانت المملكة قديما ذات عظمة فاستقلت عنها الدانمرك و أخذت قسما عظيما منها روسيا و استقرت على الحالة التى هى عليها الآن منذ سقوط نابليون الأول، فمجموع سكان المملكتين نحو خمسة ملايين و نصف يخص السويد نحو أربعة ملايين و يخص النرويج نحو مليون و نصف، و قاعدة الأولى استكولم و قاعدة الثانية كريستانية، و يحد المملكتين اللتين هما شبه جزيرة تمتد إلى نهاية القطب الشمالى، فمن الجنوب بحر البلتيك و خليج بوتنيا، و شمالا المتجمد الشمالى فى القطب، و غربا خليج الصوند و البحر الشمالى و بحر الإسكندنافيا اللذان هما من المحيط الشمالى، و شرقا روسيا فى البعض، و فى الباقي الخليج الفاصل

بينهما.

الفصل السابع و الثلاثون و الخامسة منها: دولة الدانمرك،

و انفردت عن السويد و النرويج في أواسط القرن الثالث عشر من الهجرة، ثم في أوائل عشرة الثمانين و مائتين و ألف هجرية، حاربتها كل من بروسيا و النمسا و امتلكتا منها ولايتي الشولسويغ و هولستين التي هي أول شرارة أقيت لانقلاب الموازنة السياسية في هذا القرن كما يأتي تفصيله في المقصد عند ذكر إيطاليا إن شاء الله تعالى، فاستقرت المملكة شبه جزيرة ممتدة من الجنوب إلى الشمال و يحدّها جنوبا حيث تتصل بالقارة ألمانيا البرسيانية، و شرقا خليج الصوند و بحر البلتيك الفاصلان بينها و بين السويد، و شمالا خليج سكارج راک الفاصل بينهما أيضا، و غربا البحر المحيط الشمالي. و سكانها نحو مليون و ستمائة ألف و لها مستعمرات في جزائر البحر الشمالي من أوروبا، و لها في أمريكا أيضا مستعمرات، و مجموع سكان مستعمراتها نحو مائة ألف و خمسة و عشرين ألفا و قاعدتها كونبهاغ.

الفصل الثامن و الثلاثون و السادسة منها: دولة روسيا،

إشارة

و مملكتها بالنظر لسطح الأرض هي أكبر الممالك و قد تقدم الكلام على قسمها من آسيا، و أما في أوروبا فيحدّها شمالا المتجمد الشمالي، و شرقا جبال أورال و نهر دون الفاصل بين آسيا و أوروبا، و جنوبا البحر الأسود و الرومانيا و النمسا، و غربا ألمانيا و السويد. و عدد جميع سكان المملكة بين آسيا و أوروبا نحو نيف و ثمانين مليوناً من النفوس، منهم نحو ستين مليوناً من المذهب المسمى أرثيدوكس، و هو مذهب اليونان من المسيحيين و كلهم من نوع البشر المسمى بالسلاف، و بقيه العدد منه نحو ثمانية صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ١١٠

ملايين مسلمون، و الباقي من مذاهب شتى من الديانة المسيحية و غيرها و الدولة على المذهب الأرثيدوكس، و هي و إن لم تجبر غير أهل ذلك المذهب على تبديل ديانتهم أو مذهبهم، غير أنها تمنعهم من حرية المذهب و إشهار تعاليمه، بل تجبرهم على تعليم أبنائهم في مكاتبها و تجبرهم أيضا على ترك لغاتهم، و لا يخفى أن أهل مملكتها مثل تلك في الإلتساع و كثرة الأجناس لا بد أن يكون لهم لغات شتى، حتى قيل إن اللغات الأصلية فيها تتجاوز الخمس عشرة لغة.

و هاته الدولة تكونت على الصفة المار ذكرها في مدّة قليلة، فإن هاته المملكة كانت قديما لا يعرف منها إلا أهل الجنوب بإسم قبائل إلى القرن الثالث المسيحي، فتألفت في روسية و أوروبا سلطنة عظيمة من أمه الغوت، ثم تلاشت بالحروب الأهلية و بهجمات الأمم الشرقية على أوروبا و تمادت على ذلك، إلى أن استولى على أغلبها التتر في مدّة «باتوخان ابن جنكز خان»، ثم ابتداء تأسيس المملكة سنة ١٤٨١ م - ٨٨٦ هـ على يد إيغان الملقب بالأمير الكبير، و خضعت له و لذريته القبائل المتكونة منها روسية الأصلية ثم انقطعت عائلته. و حدث في المملكة تهقير أشرف بها على الإضمحلال، إلى أن تولاه «ميشال رومانوف». و هو الذي أسس الدولة الموجودة الآن و ذلك سنة ١٦١٣ م - ١٠٣٢ هـ.

فأخذت في الراحة الأهلية و ضم ما كان خرج عنها إلى أن تولاه بطرس الأكبر محيي تلك الدولة فهو الذي أسس إسمها بين الدول المعتمدة و اجتهد في ترقيتها، و كان مع مزيد اعتنائها بالسياسة و مباشرتها بنفسه تحمل أتعاب السفر الشاق في ذلك الوقت لتعلم الصنائع بنفسه حتا لأتمته على الإقتداء به، و بقي مدّة في ترسخانه هلانده لتعلم صناعة النجارة حتى أتقن تعلمها و جلب للمملكة

معلمين من عدّة صنائع، وأخذت من ذلك الوقت في الترقى و الإتساع مع خرمه هو و من خلفه، و مهارتهم في الفنون الحربية و المكاييد السياسية إلى أن بلغت الآن إلى ما هي عليه من مزيد القوة و الإتساع، و لو أنها كانت في المعارف و الحرية مثل بقية ممالك أوروبا لما كادت أن تسلم منها دولة، بيد أن بقاءها على أصول الإستبداد أوجب فيها قلة الثروة و المعارف، فلم تقدر على إنجاز كل ما تضمنه و إن كان القيصر الموجود الآن و هو الإسكندر الثانى قد حرر الفلاحين من تملك الأعيان لهم، حيث كان سابقا إن قسم الأعيان من المملكة من ملك منهم أرضا يملكها بمن فيها من البشر و يستعملهم استعمال العبيد بحيث يتصرف فيهم تصرفه فى المتاع، كما كانت تلك العادة جارية فى أوروبا حتى أن الفلاح إذا أراد التزوج بعد الإذن له من سيده، يأتي بعروسه ليلة عرسه إلى سيده و لا يمكن له أن يدخل بها قبل أن يبارك له عليها سيده، و إن أراد الإختلاء بها فله حق ذلك و قس على ذلك من أنواع الشناعة ما شئت، ففي سنة ١٨٦٧ م - ١٢٨٤

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ١١١

ه، أبطل القيصر إسكندر الثانى ذلك الحكم و حرر الفلاحين.

و أما إدارة هاته المملكة فهي من قبيل الإستبداد المطلق بمعنى أن رئيس المملكة و يلقب عندهم بإكزار بمعنى قيصر أو إمبراطور مع إنضمام معنى الرياسة الدينية، فهو الذى يتصرف فى الكليات و الجزئيات على حسب إرادته و اختياره و من ينوبه فى الوظائف يتصرف مثل ذلك التصرف بإسم الإكزار، و للإكزار رياسة التصرف فى الديانة و فى الملك و فى العسكر و فى الشخصيات، و مع ذلك لهم تراتيت و مجالس لتدبير الملك و إدارة الولايات.

فأول هاته المجالس: المجلس المسمى بمجلس السلطنة،

إشارة

و هو مجلس تشريع و إدارة و حكم فيستشار فى جميع الأمور المهمة غير السياسة الخارجية فإنها مختصة بالملك، و يستعين بوزرائه فيها، و لهذا المجلس النظر فى أحداث القوانين و إجراءاتها و تعيين المداخيل و المصاريف و تدقيق النظر فى محاسبات الوزراء و ترفع إليه الأحكام الشخصية الثقيلة، و يتركب من الوزراء و أعضاء العائلة الملكية و أعضاء ينتخبهم الإمبراطور لمدة حياتهم، و حضور الأعضاء فيه على نوعين.

فالأول: لازم الحضور.

و الثانى: يحضر بالإستدعاء لداع يقتضيه، و له تقاسيم فى الإدارة كل قسم مناط به شىء مما يتعلق بالوظيفة.

المجلس الثانى: هو مجلس السناتو الذى أسسه بطرس الأول، و وظيفته حراسة القوانين و المراقبة على سيرة كبار المتوظفين و الولاة، و الحكم النهائى فى الجنايات السياسية إلما خصوص نوازل يختص بها الإمبراطور، و هو ينقسم إلى أقسام مراكزها فى عدّة جهات من المملكة فى المدن الكبيرة، و يجتمع فى أوقات الاجتماعات العامة.

المجلس الثالث: مجلس ينظر فى خصوص المعارض المقدمة للإمبراطور و هل للمشتكين من الحكم عرض نوازلهم على أحد المجلسين المذكورين سابقا.

المجلس الرابع: المجلس الدينى المركب من أساقفة الأيالات الكبيرة، و وظيفته تسمية كبار الكنائس و النظر فى إدارتها إذا أمضاه الإمبراطور.

و المجلس الخامس: مجلس الوزراء المؤلف من تسعة وزراء فأكثر على ما يقسم الإمبراطور إدارة الوزراء إليه.

و المجلس السادس: مجلس الرقيب العام، أعضاءه مثل الوزراء.

ثم إن المملكة تنقسم إلى أقسام و هي أيضا تنقسم إلى أصغر منها إلى آخره سواء كانت فى المدن أو فى البوادي، فالأقسام الكبار

المتصرف فيها هو الوالى العام البلدى، و هو المطالب للإمبراطور بجميع ما يحدث فى ولايته، و لذلك كان له الإطلاق أيضا فى

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ١١٢

إمضاء ما يراه مجلس الولاية أو دحضه، و هكذا كل رئيس فى قسم أصغر منه هو مطالب لمن فوقه، فلا جدوى فى أن كان لكل منهم مجلس مركب من أعضاء من أهل المكان، و فى كل قسم كبير جمعية تسمى جمعية الأعيان عدد أعضائها على حسب الدوائر و المشيخات الراجعة لذلك القسم، و رئيسها يلقب بمار يشال الأعيان و وظيفتها تعيين غالب المتوظفين فى كل ثلاث سنين إذا أمضاء الوالى أو الإمبراطور، و فى كل مدينة أو قرية مجلس بلدى تحت رياسة أحد أعيانهم، و الذى ينتخب أعضاء المجلس و الرئيس هو البلدية من البلدان، و معنى البلدية هو الأعيان و الأواسط من الناس، و أما أصحاب الخدم البدنية فليس لهم هذا المقام.

و وظيفة المجالس البلدية إدارة الأشغال العامة و مصالح البلدان و الحكم فيما يحدث بين البلدية فى التجارة، كما أنه يوجد فى هاته الأقسام مجالس للحكم فى الجنايات و مجالس للحكم فى الأمور العرفية و إمضاء الحكم مناط برئيس القسم كما تقدم، كما أن لكل مشيخة بالبادية جمعية من كبار عائلاتهم لفصل نوازلهم و تقسيم الأداء اللازم للدولة و تعين من يدخل للعسكر، و رؤساء هاته الجمعيات هم أقدمهم فى المشيخة و لهم الخيار أيضا فى تنفيذ رأى الجمعيات، و من مجالسهم مجلس الصلح و هو الذى يونج المتوظفين عن تجاوز مأمورياتهم و الحكم فى الجنايات الخفيفة و الماليات التى لا تبلغ أربعمائة فرنك، و من قواعدهم أن الخصمين إذا حكما أحدا يمضى حكمه على شرط تقييده فى دفتر مخصوص لذلك، أما أحكام الحكام فهى شفاهية. و يشترط فى المتوظفين أن يكون أصحاب عرض و أن لا ينقص سنّ أحدهم عن الخمس و العشرين سنة، و فى خصوص الولايات التى فى حدود المملكة يوجد حاكم عسكرى مع الحاكم المدنى و له الرياسة عليه، و بخصوص ولاية فلندا وزارة خاصة فى قاعدة المملكة و مجلس سناتوا يسميه الإمبراطور فى كل ثلاث سنين، و تخت جميع المملكة هى صان بطرسبورغ، فإدارة هاته المملكة و إن كانت لها مجالس و قوانين و كثير من متوظفيها تنتخبهم الأهالى لكنها فى الواقع استبدادية، حيث أن إجراء كل شىء و تنفيذه مناط بالإمبراطور ثم بخلفائه و لهم الخيار فى التنفيذ و عدمه من غير تقييد بمرجع.

و لا يخفى أن ذلك الرئيس و إن كانت أغراضه لا- نعم جميع الجزئيات لكنه له حواشى و أتباع فيراعى لكل منهم بعض الوجوه و لكل منهم علائق و أغراض فيتسع الخرق فى المراعاة و المداراة و تجرى الأمور على الشهوات، و لهذا لما كثرت الصحف الخبرية فى نفس المملكة، و كثرت فيها الصحف الأجنبية، و كثرت المدارس التى تعلم أصول التهذيب، و كثرت المواصلة ببقية ممالك أوروبا بالطرق الحديدية، انفتحت بصائر أهالى المدن الكبيرة فى روسيا و سرى الأمر منهم لمدن ثوانى فى جهات من المملكة، فحصل منهم سنة ١٢٩٦ هـ ثورات عديدة و لا زالت مستمرة إلى الآن، لكن تارة تشد و تارة تخف فى طلب إجراء الحرية و القوانين مثل بقية أوروبا، و زادهم حملا على ذلك ما رأوه من

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ١١٣

دولتهم عند إعلانها الحرب على الدولة العلية سنة ١٢٩٤ هـ الآتى خبرها فى المقصد إن شاء الله تعالى، حيث حررت أهل البلغار مع أنهم أحسن إدارة منهم و جعلت لهم ولاية ممتازة إدارتها قانونية، فقالوا ما لنا نتحكم على جيراننا و ننفذ غيرنا و نهرق لأجلهم دماءنا و أموالنا، و نحن فى حالة أتعس منهم فكأنّ لسان حالهم يقول:

يا أيها الشيخ المعلم غيره هل لا لنفسك كان ذا التعليم

فالحاصل أن مملكة روسيا إنما تقدمت بالسطوة و القوة لمجرد حذق أمرائها، فإن القيصر و لئن كان له التصرف المطلق لكنه دائما يراعى مصلحة المملكة و يقدمها على حظوظه الخاصة و لا- يصرف من أموال الدولة إلا فى مصالحها، و هو فى حد ذاته فى غاية الإقتصاد. ثم إنه يستعين بالرجال العارفين الحازمين الصادقين و لا يغير أحدا من الكبراء من منصبه إلا لمصلحة مهمة أو ذنب ثابت، حتى أن وزيره الأكبر الآن و هو غرتشكوف له فى الوزارة سبع و عشرون سنة مع كبر سنه الذى يبلغ الثمانين و لم يغيره بل أنه مرض

مرضا شديدا في هاته السنة و هي سنة ١٢٩٧ هـ و اضطر للإستعفاء فلم يعفه و جعل له نائبا عنه لمباشرة الأشغال إلى أن تيسر له مباشرة الأحوال و عاده بنفسه في مرضه كما أنه استعفى مرارا و لم يجبه إلى ذلك، و هو أى القيصر منقاد لتدابير وزرائه و الناصحين العارفين و هكذا أسلافه، فإن الوزير نسل رود الذى كان قبل غر تشقوف مكث في الوزارة ثلاثين سنة.

و بذلك حصل التقدم للدولة و صارت مدنها الكبيرة لا يفرق بينها و بين مدن أوروبا القانونية لا في الإدارة الحكيمية و لا السياسية و لا التحسين التشخيصي، أما غيرها من بقية المملكة فكانما الناس عبيد مستعملون للرعاة حتى حكى لى أحد السواح الثقات: «أن مشايخ القرى يضربون الرعية بالسياط و هم مارون بالطريق و لا يأمر الشيخ أحدا بشيء إلا و يتبعه السوط ضربا لأجل ضيافة السائح» فتعجب السائح من ذلك و قال له: «يا أيها الشيخ لا لزوم لهذا الإكرام»، حيث أن الواقعة هي أن السائح لما قدم للقرية و بيده توصيات من الحكومة في الالتفات إليه من الرعاة و إكرامه عمل شيخ القرية بذلك و أمر في الحال أحد الأهالي بالإتيان بعلف الدواب من عنده و أمر آخر بالإتيان بالأكل الطيب من عنده أيضا و أتبع الأمر بالضرب و الشتم، فقال له السائح المقالة المار ذكرها، فأجابته: «بدع عنك هذا الكلام إن هؤلاء الكلاب لا يصلح فيهم إلا هذا العمل فلو أنى طلبت منهم ما طلبت بأعلى ما يكون من الثمن عن طيب نفس لما أجابوا لشيء»، و كلام هذا الشيخ و إن أمكن أن يكون فيه مبالغه لكنه لا يخلوا عن الصحة لأن الأهالي أعنى أغلبهم تربوا على السداجة الحيوانية و لم تتهدب أخلاقهم مع النشأة على الذل و الهوان و التحكم الشديد، فلو طلب منهم الحاكم شيئا اعتادوا على إعطائه مجانا بالوعد بالثمن لما صدقوا بذلك، و رأوا أن رزقهم يؤخذ منهم قهرا و حب المال مجبولة عليه الطباع، فيتكاسلون عند إعطائه إلا بالغضب، فيصنع الحكام معهم ذلك الصنيع، و لو أنهم عودوهم من الصغر و النشأة على مكارم الأخلاق و إكرام

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ١١٤

الضيف و رأوا منهم مرارا إعطاء الحقوق و الثمن لما خالفوا طبع سائر البشر.

و اعلم أن في أقسام هاته المملكة أقواما كثيرين من المسلمين منهم أهالي ولاية قازان الذين أسلموا منذ العصر الأول، إذ قيل: إنهم أسلموا في عصر بنى مروان في كبد القرن الأول من الهجرة، و قيل: في خلافة المأمون . و قيل: في خلافة الواثق ابن أخيه، و انتشر فيهم الإسلام بإسلام ملك بلغار الماس خان بن سلكى خان في خلافة المقتدر، فتسمى بالأمر جعفر، و قاعدة هاته الولاية مدينة بلغار المذكورة في كتب الفقه للإختلاف في وجوب العشاء على أهلها في مدة الصيف حيث لا يغرب فيها الشفق، و إنما أفردت بالذكر مع شمول الحكم لكل ما قرب إلى أحد القطبين لأنها هي التي كانت إذ ذاك معروفة بإسلام أهلها، و لم يحدث الخلف في الوجوب إلا في المائة السادسة، إذ لا نص عن المتقدمين.

و قد أفرد المسألة بتأليف بديع أحد علماء هاته البلدة في هذا العصر و هو العلامة هارون ابن بهاء الدين المرجاني ابن شهاب الدين البلغاري أيد القول بالوجوب، و له نفس بديع و قول مصيب اختصره ملك بهوبال السيد محمد صديق خان في لقطه العجلان. فله الحمد على وجود أمثالهم في هذا العصر الذى تغرب فيه الدين فضلا عن العلم، و تلك المدينة واقعة على عرض خمس و خمسين درجة شمالا و نحو سبع و أربعين درجة طولاً شرقيا من باريس، و هي على نهر الفلكى الشهير.

الفصل التاسع و الأربعون مملكة واداي:

و هي مملكة إسلامية لها ملك مستقل و لها تجارة واسعة مع مصر و طرابلس الغرب، و لأهلها وفاء عظيم بالعهد. «ذكر لى ثقة أن أحد أهالي واداي قضى عليه بالأسر فبيع في طرابلس و الحال أنه حر»- و بذلك يعلم إصابة منع التملك الذى هو مباح للخوف من الوقوع فى الحرام حسبما يشهد لذلك ما كتبه عالم أفريقية سيدى إبراهيم الرياحى من المالكية و شيخ الإسلام بيرم الرابع لأحمد باشا عند أمره بعق العبيد، فكتب إليه كل من العالمين المذكورين كتابة جيدة فى إصابة رأيه- ثم أن ذلك الأسير بعد أن أقام مدة وصل فيها إلى سنّ الشيخوخة بطرابلس أعتقه مالكة و رجع إلى بلده و كان غنيا، و بعد نحو ثمان سنين قدم على معتقه و معه هدية ثمينة وفاء

بحق الصحبة و معه تجارة و قضى أمره و رجع إلى بلاده، و عدد أهالي هاته المملكة نحو من مليونين و نصف، و تختها مدينة «وره» و عادات هاته المملكة و أحكامها على نحو مملكة برنو تقريبا.
صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ١٢٦

الفصل الخمسون في بقية ممالك القسم المسمى بالسودان.

فأولها: قبيلة كانم بو، و هي في الجهة الشماليه من برنو و قد كانت سابقا مستقلة ثم صارت الآن تابعة إلى واداي المتقدمة مع امتياز، و قاعدتها ماو ثم قبيلة باكرمي و هم تابعون إلى واداي أيضا بامتياز و قاعدتهم ماسنا و هي غربي السابقة، و من غريب ما فيها أن عندهم نوع من النمل يحفر بيوته كبيرة جدا بحيث يكون ارتفاعها نحو عشرين ذراعا و اتساعها نحو مائة و عشرين ذراعا، و هاته الممالك و التي قبلها هي حول أعظم بحيرة في قسم السودان المسماة اتشاد فواداي من شرقها، و كانم من شمالها، و باكرمي من جنوبها و يليها قبيلة موزكو. و من غريب عاداتهم أن الرجل و المرأة إذا تشاجرا فإذا ابتدأ أحدهما بالكلام خيط الآخر فمه بالخيط حتى إذا انتهى صاحبه فتح هو فاه و فعل صاحبه مثل فعله لكي لا يقطع عنه الكلام، و لذلك ترى أفواههم مثقوبة من الصغر لأجل ذلك و يدعى أنهم يأكلون الأسرى بل و إن من تفتنوا به منهم أنه أصابه مرض أكلوه قبل أن ينحف فلا يصرح أحد بمرض للخوف على نفسه.

الفصل الحادي و الخمسون مملكة «فلاتا»:

و مركز قوتهم بلد هوسا التي بها شبان أقوياء من السودان و يسمون بإسم بلدهم، و هم خاضعون إلى فلاتا و هؤلاء جلهم مسلمون حسن السيرة على ما هم عليه، و تختهم بلد سا كاتو و لهم سلطان مستقل مسلم و مسكنه بلدة ورنو، و أعظم بلاد للتجارة عندهم بلد كانو، و أهلها مسلمون و لهم بعض صنائع جيدة كالديبغ و الصبغ و النسج، و لهاته القبيلة السيادة على جميع القبائل المجاورة لها إلا نحو ثلاثة قبائل جوار الصحراء، و هي: كوبر، و مريادي، و كاغو، و لذلك كانت فلاتا مملكة و موقعها غربي الممالك السابقة على نهر ينجر الذي هو أعظم أنهر قسم السودان، و لهم عليه قوة عظيمة.

الفصل الثاني و الخمسون القبائل المتحدة المسماة بركو المتألفة

من تنبكتو و كورما و لتباكو، و قد كان الجميع تحت سلطنة واحدة جمعهم عليها أحد علماء فوت المسمى عمر الفوتي، و هو من العلماء الأجلاء من كبار تلاميذ سيدي أحمد التجاني رضى الله عنه، و توصل باجتماع التلامذة عليه إلى أن صار ملكا و جمع هاتيكم القبائل و التي يأتي ذكرها تحت سلطنته، لكن في آخر الأمر وقعت حروب معه إلى أن قتل بلغم يقال: إنه أثاره على نفسه لما أيس من الحرب

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ١٢٧

و كان ذلك في حدود سنة ١٢٨٣ ه و له عدة تأليف، و جميع هاته القبائل مسلمون و فيهم الصالحون و لهم تجارة مع المغرب لكنهم الآن حكمهم كأنه حكمهم جمهوري تحت عدة رؤساء متعاضدين على دفع مهاجمات الفلاتا من الجنوب و التوارك من الشمال، ثم يلي هاته المملكة من غربيها قبائل (بنبره) و قاعدتهم سان سان دنك، و هاته القبيلة مستقلة تحت رياسة حاكم منهم و بقربها مكان كان يسكن به قبيلة يربا و الآن لا يعلم من به.

الفصل التاسع و الثلاثون و خلاصة الكلام على جميع قسم أوروبا هو،

أن يقال: «إن جميع الممالك المار ذكرها إلا ما استثنى كلها ممالك قانونية، يعنى أن إدارتها منضبطة فى السياسات بأمر محدود مكتوبة يعلمها الخاص و العام و لا يجوز للمتصرف مجاوزتها، و المباشر لإجرائها هم الوزراء بإذن رئيس الدولة على اختلاف لقبه من أمباطور أو ملك أو رئيس جمهورية و عدد هؤلاء الوزراء يختلف بحسب كبر الممالك و صغرها، حتى تحتاج الإدارة إلى زيادة الفروع أو لا. و أصول الإدارات التى لا بد منها فى كل مملكة هى إدارة الداخلية ثم الخارجية ثم المالية ثم الحربية، و قد يتفرع عن هاته فروع على حسب الحاجة، و لأهميتها

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ١١٥

تنفرد بوزارة مثل غيرها من الأحوال، فمن هاته وزارة الأحكام و البحر و المعارف و الأشغال العامة و الديانة، و يجعل لهؤلاء رئيس فى الأغلب يكون هو أحدهم و تارة يكون منفردا ليرأسهم عند الاجتماع و ينفذ ما يتوقف على جمعهم، و رئيس المملكة ينتخب هذا الرئيس و هو يعين لصاحب المملكة بقية أفرانه فيوظفهم و ليس له بعد ذلك إلا إمضاء تصرفاتهم أو تبديلهم إن وافقه القانون، و ما يراه من التصرف إنما يتصرف فيه بواسطتهم ثم يحتسب على الوزراء مجلسان.

أحدهما: مجلس الأعيان من الأمة و اختيار أعضائه بيد صاحب المملكة أو بواسطة وراثته تتوارثها بعض العائلات، و قد تنتخب الأهالى بعض الأعضاء من بعض المملكة.

و الثانى: مجلس النواب، أى نواب الأمة تنتخبهم الأهالى لمدة معلومة بغاية الحرية فى الإختيار على شروط فى المنتخب و المنتخب تؤل إلى صفات تثبت حق الغيرة على الوطن و معرفه مصالحه و الأهلية لنصحه، و مجموع المجلسين يصح أن يسمى مجلس الأمة أو المملكة، فإذا رأى هذا المجلس فسادا فى تصرف أحد الوزراء أو مجموعهم و أصر المعترض عليه على رأيه لزمه الاستعفاء لأنه يتصرف على خلاف إرادة الأمة، و هنا يكون لصاحب المملكة الحق فى قبول اعتراض المجلس و إبدال المعترض عليه أو يأذن الأمة بانتخاب مجلس آخر بعد حله للأول، فإن وقع إنتخاب الأمة على أناس موافقين للمعترض عليه بقى الأمر على ما هو، و إن انتخبوا أهل المجلس الأول أنفسهم أو غيرهم ممن يوافقهم فى رأى لم يبق لصاحب المملكة حينئذ إلا إبدال الوزراء المعترض عليهم و توظيف غيرهم ممن يوافق رأى الأمة، هذا زيادة عما لهذا المجلس من حفظ جميع القوانين و مراعاة مصالح المملكة فى المال و السياسة و الأحكام و عقاب المذنبين من المتوظفين و لو من الوزراء، غير أن مباشرة العمل ليست بيده و إنما هى لمن تعود إليه من وزير أو مجلس حكم أو صاحب المملكة فهذا هو أصل إدارتهم السياسية.

و أما أصل الإدارة الحكيمية الشخصية فهى منفردة عن السياسة و لا تسلط للسياسة على الحكام الشخصيين، و هم يوظفون لمدة حياتهم أو انتقال لدرجة أعلى، و تصرفهم مناط بمجالس متعددة الأعضاء و وراءها مجالس آخر لرفع المحكوم عليه لشكواه من المجلس الحاكم إليها، و وراء ذلك احتساب مجلس الأمة.

و الأحكام يستندون فيها القوانين مرتبة برضاء مجلس الأمة و تكون الأحكام علنية إلى غير ذلك من الأوجه المقربة لبحث الانصاف و دفع الظلم، فهاته هى الأصول المعمول بها، و تختلف فروعها بحسب الممالك و عاداتها فليس قانون الأحكام متحدا فى جميع الممالك بل إنما يتحد الجميع على أصل الجنايات كالقتل مثلا هو ممنوع فى الجميع و مرتكبه يعاقب فى الجميع و إن اختلف عقابه بحسب العادات، كما أن من الأحوال المتفق عليها أن يكون قسما مما تدفعه الأهالى إلى دولتهم يصرف فى تحسين المملكة و رونقها و إصلاحها كمد

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ١١٦

الجسور و الطرق الحديدية و تنظيف الطرق زيادة على إنشائها، و كذلك كل ما يؤول لتوسيع التجارة و المعارف و الفلاحه و غير ذلك مما يعود على المملكة بالتحسين و التحصين.

القسم الثالث من الأرض هو قارة أفريقيا،

إشارة

هاته القارة صارت الآن جزيرة عظيمة جدًا يحيط بها البحر من جميع جهاتها، فيحدها شرقا المحيط الشرقي و البحر الأحمر و خليج السويس و البحر الأبيض، و يحدها شمالا البحر الأبيض و بوغاز طارق و المحيط الغربي، و يحدها غربا المحيط الغربي، و يحدها جنوبا المحيط الجنوبي، و قد عرفت جميع شطوطها و ما قاربها على التحقيق و بقيت دواخلها غير مسبورة على التحقيق إلى الآن لشدة حرها، حيث كان خط الإستواء قاسما لها، و لصعوبة السفر من توحش أهلها و قلّة الماء و الطرق، و تشتمل هاته القارة على ستة و أربعين مملكة ما بين مستقل و تابع لغيره، فأما الجهة الشماليّة من القارة فإنها لها الشهرة التامة، و ناكبت بتقدمها غيرها من القارات في العصور السابقة، و لا زالت إلى الآن مرعية الإعتبار.

الفصل الأربعون فأول دولها: سلطنة مراکش،

و يحدها غربا المحيط الغربي، و جنوبا الصحراء الكبيرة، و شرقا ولاية الجزائر، و الصحراء المذكورة، و شمالا البحر الأبيض و بوغاز طارق، و هي مملكة متسعة اختلف الجغرافيون في عدد سكانها من خمسة ملايين إلى ثلاثة عشر مليوناً و الأقرب للصحة على حسب ما يسمع من أهلها الذين لهم خبرة بأحوالها أن السكان المطيعين للحكم نحو سبعة ملايين، و مبتدأ الحكم النافذ من الشطوط الشماليّة إلى بلدة رودانة في الجنوب، و هي تبعد عن مراکش من جنوبها نحو مسيرة ستة أيام و موقعها جهة السوس الأقصى، و هناك أمم تابعون بالإسم و هم أكثر من الخاضعين للحكم و ليس فيهم من أمارات الخضوع إلا الخطبة بإسم سلطان المغرب، و هم على نوع من الهمجية و تناصر الجاهليّة، و جميع السكان مسلمون إلا- نحو ثلاثمائة ألف من اليهود و بعض الغرباء من الإفرنج في المراسي، و حكمهم استبدادي في السياسة، و أغلب الأحكام الشخصية يحكم فيها بالشرع و المباشر للحكم هو قاض يختار من أعلم الموجودين، و المذهب العام هو المذهب المالكي و لهم مفتون يوليهم القاضى و بعضهم يوليه السلطان، و هؤلاء المولون من السلطان يستشيرهم القاضى عند طلب الخصم للشورى في حكمه أو عند توقف القاضى في وجه الحكم و هكذا في كل مدينة أو قبيلة قاض، و جميع ما يرجع إلى تلك المدينة من الإيالة يرجع إلى ذلك القاضى و له نواب في القرى الصغيرة، و فوق الكل قاضى فاس و هو قاضى القضاء، و في فاس قاضيان بهاته الصفة كل منهما مستبد بجهة من المدينة و ما يتبعها لأنها تنقسم إلى فاس القديمة و فاس الجديدة، ثم في هاته المدّة زيد قاض ثالث دون الآخرين في الرتبة و إنما هو بصفة نائب عن قاضى فاس القديمة، لأن هذا مع كبر علمه

صفحة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ١١٧

و مزيد فضله استعفى مرارا معتذرا بكبر السنّ و ضعف البدن فلم يساعفه السلطان لذلك و وظف له ذلك النائب، و هذا القاضى هو الذى يولى جميع القضاء إلا- قضاء مراکش فلا- دخل له فيهم اللهم إلا إذا أراد السلطان أن يولى أحد علماء فاس قاضيا بمراكش فحينئذ يستشير قاضى فاس في تعيين القاضى.

و كل مكان يشتمل على قاض له وال يسمى في عرفهم قائدا، له فصل النوازل العادية و السياسية و بعض الشخصيات. و الدولة مركبة من السلطان و الوزير و الحاجب و وزير القضايا و كتبة و رؤوساء للجند و لجهات سياسية، فأما السلطان فإن له عائلة شريفة ثابتة النسب برسول الله صلى الله عليه و سلم كان أرسل إليها بعض أهل المملكة و أتوا بجدهم من ينبع النخل من المدينة المنورة منذ نحو ستمائة سنة للتبرك بهم في صلاح ثمار نخلهم حيث بانّت بركة آل البيت في جهات أخرى من المملكة، ثم عند

وقوع حروب أهلية و انقسام المملكة إلى طوائف نادى بجدهم مولاي محمد قسم من المملكة و بايعوه فى الثلاثين بعد الألف، ثم اجتمعت بقية المملكة على ولده من بعده و لم يزل الملك فيهم، لكن المتولى لا يعهد إلى معين من عائلته و إنما له أن يوظف منهم من رآه أهلاً فى كبار الأعمال، و عند فقد السلطان تجتمع أعيان المتوظفين و العلماء و أعيان الأهالى و ينتخبون أحد أعضاء العائلة و يبايعونه بالسلطنة، و بقية أعضاء العائلة يجب عليهم قراءة العلم و من يوظفه منهم السلطان يشتغل بوظيفته و من لا وظيفة له يشتغل بصناعة يتمتع منها و هى لا تكون إلا عالية كالتجارة و التدريس و الفلاحة، و مع ذلك يجعل لهم من بيت المال شىء لا يكاد يسد من عوز، و أما الوزير فينتخبه السلطان و لا يكون إلا عالماً ذا جاهه من الأهالى و هو وزير القلم على الطريقة القديمة فى دول العرب من أن يكون الوزير هو وزير الإنشاء و لذلك يجب أن يكون ماهراً فى فنون الأدب مع مشاركة حسنة فى غيرها، و لعمري أن صناعة الإنشاء فى الدول باللغثة العربية كادت الآن أن تكون مقصورة على دوله مراكش و أما غيرها من الدول العربية فقد تذبذبا و كادت كتابتهم أن تخرج عن الأسلوب العربى، بل صاروا لا يتحاشون عن اللحن و الكلمات البربرية بخلاف كتاب المغرب و هذا ديدنهم من قديم، و مما يحسن ذكره هنا:

إن حموده باشا رحمه الله الرجل الشهير من أمراء العائلة الحسينية بتونس المتولى فى أوائل هذا القرن، كان وقع فى أثناء ولايته قحط شديد اضطرب بسببه لطلب الميرة و الحبوب من سلطنة المغرب لأن أرضها كانت خصبة فى ذلك العام، و لم تكن المواصلة فى أوروبا و غيرها من الأقطار سهلة فى ذلك الوقت، و كان من عادة سلطنة المغرب أن تمنع خروج الحبوب من مملكتها. فأرسل حموده باشا العالم المقدس سيدى إبراهيم الرياحى لطلب

صفحة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ١١٨

ذلك المهم و وجه معه مكتوباً كان من جملة عباراته: «تبق تأذن بخروج القمح الخ».

فقوله: «تبق» عبارة بربرية اعتادها كتاب التونسيين فى الأوامر الرسمية، و لما قرأ ذلك الكتاب تعجب وزير القلم بدولة المغرب من تلك العبارة و اشتد حنقه منها، كيف يخاطب السلطان بها و لو لا تبحر سيدى إبراهيم فى العلوم لخاب المسعى، فقال لهم: إنها عبارة عربية و هى جملة دعائية فى صورة الخبر إيذاناً بتحقيق الإجابة ببقاء السلطان، و ما بعدها جملة حالية إيذاناً بأن بقاءه يكون دائماً مشمولاً بعلو الكعب الذى تحتاج إليه المسلمون من الأقطار و هو دائم الإذن بما ينفعهم، ثم قال لهم: و على فرض لحن العبارة هل يسوغ لسلطان من المسلمين أن لا يرحم عصابة إسلامية و يتركهم يهلكون جوعاً لسوء عبارة من جهل الكاتب، و قرائن الحال حافة بحسن المقصد على أنها لها محل وجيه الخ، فنجح سعيه رحمه الله.

و أما بقية المتوظفين فينتخبهم السلطان أيضاً على حسب إرادته، و السلطان يجلس يوماً صباحاً و مساءً لقبول المشتكين كيفما كانت الدعوى، و يكون قبل جلوسه قد هياً له وزير القضايا تقريراً فى جميع من ورد ذلك الوقت مع بيان دعوى كل واحد، ثم ينتظم مجلس السلطان بوقوف وزيره و الحاجب و كبار الأعدوان و يمكن وزير القضايا التقرير من السلطان فيقرأه و يأذن بإدخال المشتكين على حسب ترتيبهم فى كتاب التقرير و يسمع من المشتكى دعواه و يطابقها على التقرير و عند ذلك لهم طريقتان.

الغالبه: هى أن السلطان يجيب المشتكى بما يراه فى فصل نازله أو تحويلها إلى الشرع، ثم ينفذ وزير القضايا ما أمر السلطان به.

و الطريقة الثانية: هى أنه بعد فراغ جميع المشتكين و تطبيق شكواهم على التقرير يوقع السلطان على التقرير فى كل نازله بما يراه و يدفع التقرير إلى ذلك الوزير و هو يخرج من بين يديه و ينفذ ما أمر به السلطان، و سيرة عموم الدولة على السنن القديم فى الأمم التى لم يتسع نطاقها فى التمدن و فى الأغلب محافظون على الشعائر الدينية و سوق العلوم الدينية رائجة جداً بحيث لا تخلو المملكة من فحول فى كل وقت، و من أهم صفات سلاطينهم العلم و أما العلوم الرياضية فإما أن يقال أنها منقطعاً عندهم بالمره أو أن بعض فروعها لم يزول فيه رفق على النمط القديم، و ذلك مثل علم الأسطرلاب و الهندسة.

كما أن لبعضهم ولوع و دعوى فى علم الطلسمات و سر الحرف، و كذلك علم الكيمياء بمعنى قلب بعض المعادن إلى الذهب الذى

ضاعت في البحث عنه رجال و أموال من غير طائل، و أغلب السكان غليظوا الطباع على السذاجة البربرية، أهالي شجاعة و اقتحام للمشاق و رضاء بشظف العيش.

و لأهل المدن أخلاق حميدة و صفات جيدة متمسكين بالديانة و متحاشين عن المعاصي و كل قاذح في العدالة، و لهم اليد الطولى في التجارة بحيث أن تجارة داخل المملكة أعنى

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ١١٩

غير المراسى التي على البحر هي بيد الأهالي، و يرسلون منهم إلى أقاصى الممالك لمعاطاء الأشغال التجارية و وصلها بمملكتهم، حتى لا تكاد تجد مدينة شهيرة للتجارة في إحدى قارات أوروبا و آسيا و أفريقيا إلا و فيها من تجارهم من له مزيد الرواج و الثروة، و لهم براءة في إدارة التجارة يناكبون بها الأوروبيين و لا زالوا يحترسون من تداخل الأجانب في أحوال مملكتهم حتى أنهم يمنعونهم من السكنى في غير المراسى التي على البحر، و سفراء الدول يسكنون في مرسى طانجه، و من أراد منهم مواجهة السلطان يرسل إليه بطلب ذلك فيرسل له السلطان خفراء مخصوصين و يقدمون به من هناك إلى تخت المملكة، فينزل في إحدى القصور الملكية و يعين له يوما للمواجهة فيخرج فيه و يقف في ساحة أو طريق رحيبه معلومه و تقف العساكر و المتوظفون يمينا و شمالا، ثم يأتي السلطان راكبا في خاصته و حاشيته و هم مشاة إلى أن يقرب من السفير فيتعرض له و عند الوصول إليه يوقف السلطان سير جواده و يسلم على السفير و يلقي إليه السفير الكلام الرسمي المعهود للإقبال فيجيبه السلطان بمثل ذلك و يعلمه أنه أذن وزيره باقباله و التفاوض معه في مأموريته و يستمر في سيره و يفصل الموكب و بعد ذلك يقع التفاوض بين الوزير و السفير إلى أن يستقر القرار على شيء، فيعود السفير إلى البلد المستقر به محفوظا بالخفر.

و من عوائدهم في أمن الطرق أن كل قبيلة حول إحدى الطرق تكون كقبيلة بمن يمر في ذلك الطريق على حدود معلومة ثم يدخل المسافر في كفالة غيرها و هكذا على شرط أن لا يسافر ليلا و أن يعطى على كل دابة أجرا مخصوصا لتلك القبيلة و هذا الأجر لا يحجف بالمارين فإذا حصلت مضرة لأحد المسافرين تغرمها القبيلة التي وقع في حدودها ذلك الحادث، و إذا دخل وقت الغروب فيجب على المسافر المبادرة إلى أحد المنازل الواقعة على الطريق لتلك القبائل و هم يرحبون به و لهم منازل كثيرة حول الطريق، و كذلك البريد له في كل بلدة شيخ و له أتباع يحملهم المكاتب و يأخذ عليها أجرا زهيدا و يسافر به الحامل و معه رفيق لكي لا يقع التعطيل بمرض أو غيره، و يمشون راجلين و يمكنون المكاتب في كل بلدة بيد شيخ بريدها و هو يوزعها ما لم يعرض أمر خاص فلصاحبه إرسال بريد خاص بأجر وافر على حسب بعد المكان و لأصحاب البريد سرعة في السير. أما بريد الدولة فهو في عهدة القيادة يرسلونه من واحد إلى آخر إلى أن يصل لمقره و أصحابه ركاب و لا يسمح لأجنبي مطلقا أن يقيم بداخل المملكة.

و اليهود يسكنون في المدن و غيرها على صفة أهل الذمة غير أن عوائدهم القديمة معهم تجاوزوا فيها حد الشرع في إهانتهم و إذابتهم حتى فتحوا عليهم بابا لمداخلة الدول بواسطة الجمعيات اليهودية في ممالك أوروبا و كانت أرسلت في أواسط هذا القرن دولة الإنكليزية طالبة من السلطان تغيير تلك العوائد فأجابهم لطلبهم قائلا أن الحكومة تسلك معهم هذا المسلك و أما الأهالي فحيث كانوا غير منقادين لجميع الأوامر فعلى الحكومة مراقبتهم بقدر الإستطاعة.

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ١٢٠

و لما علم اليهود بذلك امتنعوا من قبول تلك المنح و أرسلوا إلى أوروبا قائلين: دعونا على عادتنا المألوفة و لا تتداخلوا فينا و أعلنوا للحكومة و الأهالي بذلك طالبين التآلف بهم و الأمان على أنفسهم فأمنوهم و استقروا على ما كانوا عليه، و وجه سلوكهم ذلك المسلك أمران:

أحدهما: ظاهري، و هو أن ديانتهم قاضية عليهم يتحمل الهوان و المشاق إلى خروج المسيح لكي ينقذهم على دعواهم.

و ثانيهما: و هو الباطني أنهم يعلمون تسلط الأهالي عليهم و عدم معارضة الحكومة لهم إما عجزا أو تعاجزا فيقعون في الهلاك، و على

فرض أخذ الدول لثأرهم فما فائدتهم بعد انقراضهم، و صرح بذلك بعض رؤوسائهم لأنهم أحرص الناس على حياة. و فى هاته السنة و هى سنة ١٢٩٧ هـ أحرق الأهالى يهوديا فعادت الكرة من الجمعيات المذكورة آنفا و وجدت دولة إسبانيا الفرصة للتداخل تعاميا عما فعلته هى مع اليهود مما هو من ذلك القبيل أو أشد، و ما بالعهد من قدم كانت تمنع دخولهم إلى مملكتها و لم يزل ذلك إلا عند إعطاء الحرية العامة فى إسبانيا منذ عهد قريب، و لكن مرید التداخل يفتش على ما يوافق قصده، فلذلك دعت دولة إسبانيا جميع دول أوروبا لعقد مؤتمر للنظر فى أحوال اليهود و رعايا الأجانب فى مملكة المغرب لأن اليهود أكثرها بالرحيل إلى بعض الممالك الإفريقية و يحصلون منها على الحماية ثم يعودون إلى المملكة المغربية و يسكنون بأماكنهم الأصلية و عند إجراء الأحكام و العادات عليهم يتجاسرون بإظهار الحماية الأجنبية فلم تعترف لهم الدولة المغربية بذلك و تقول: إما أن تكون أجنبيا فلا تدخل للمملكة و إما أن تكون أهليا فتجرى عليك الأحكام هذا على تسليم الحماية، و دولة إسبانيا تريد الإنتصار للمحتمين و أن يكون لهم السكنى فى دواخل المملكة بدعوة تعميم التجارة، و بعض الدول يوافقها لكى يتسع باب التداخل فى المملكة حتى يتسلط عليها. و الدولة المغربية مصره على الامتناع و التمسك بالمعاهدات و العادات المألوفة فعقدوا لذلك مؤتمرا فى مدريد فى شهر جمادى الثانية سنة ١٢٩٧ هـ و كانت كل من دولتى فرنسا و انكلترا مساعدة لدولة المغرب، أما فرنسا فلمجاورتها لها فى الجزائر و هى قد رأت من أهالى الجزائر متاعب شديدة فإنها استولت عليهم منذ خمسين سنة و هم لا زالوا يحدثون الثورة عليها مهما سنحت لهم الفرصة مع قلة الفائدة بالنسبة للخسارة، فتريد توكيد المودة مع دولة المغرب لكى لا يحدث لها بمشاحتها هيجان فى الجزائر سيما و هى تعلم أن الاستيلاء على المغرب غير متيسر لمعارضة دول أوروبا قوية فى ذلك، و أما إنكلترا فتريد استجلاب دولة المغرب و بقاؤها لكى لا يتسلط على خليج طارق دولة قوية يمكن أن تمنع الإنكليز من المرور به إلى البحر الأبيض، كما تخشى أيضا من أنها إذا أظهرت لها التشدد عليها ربما تميل إلى دولة أخرى ذات اقتدار و تحالفها و يصير الجميع ضدا للإنكليز فى وقت الحاجة.

و مثل هاتين دولة ألمانيا، فكثيرا ما تظهر المودة لدولة المغرب رجاء أن تمكنها

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ١٢١

بمرسى على أحد شطوطها و لا أقل من أن تكون مجرد حليفة لها حتى يخشى الفرنسيون عند عقدهم الحرب مع ألمانيا من هجوم المغرب على الجزائر، و بقیة الدول لا أرب لهم هناك و لذلك يظن أن لا يحصل ضرر على هاته الدولة من ذلك المؤتمر لأن إسبانيا وحدها لا تقدر على جلب مساعدة الدول إليها، و هى بنفسها و لئن كانت قادرة على التسلط على المغرب لكن الدول السابقين الذكر اللاتى لها منافع هناك تعارض إسبانيا فى قصدها. و مع هذا كله فإنهم لا بد أن يظهروا شيئا لتلك المملكة حتى تراعى الإتحاد الأوروبى، و يا ليتهم تجنبوا ما نهى عنه الشرع و لم يعملوا مع أهل الذمة إلا ما أمر به الشرع لأن مجاوزة الحدود تقضى بالإنقلاب و لا حول و لا قوة إلا بالله.

ثم إن صناعة النقش فى الجص على ظواهر الحيطان المسماة فى العرف بنقش حديدة لها إتيان عظيم بهاته المملكة و كذلك دبغ الجلود، و أما القوة الحربية فإن لهم قبائل مخصوصين معفون من جميع الأداة للدولة و هم القائمون بحمايتها مع إعطاء الدولة إليهم المعاشات و السلاح و الخيل، و على بقیة القبائل زيادة على الزكاة و العشر أن يدفعوا للدولة مقادير معينة من الخيل، أما عند حدوث الحرب فيلزم جميع المملكة أداء ما يحتاج إليه من الكراع و الذخيرة، و لا زال سلاحهم على الطرز القديم و كذلك حركاتهم العسكرية، لكن منذ نحو ثلاثين سنة ابتدأوا بتنظيم العسكر على الطرز الجديد و ألفوا جيشا يحتوى على ستة عشر ألفا، و معلموه من عساكر تونس و لكنه انخرم و هرب أغلبه، و لكن قد أخذ السلطان المتولى الآن و هو مولاي حسن فى تنظيم الجيوش على مقتضى الطرز الجديد و أرسل تلامذة إلى مدارس فرنسا و ألمانيا لتعلم الفنون الرياضية، و الله ينجح سعيه و يحرس المملكة.

الفصل الحادى و الأربعون المملكة الثانية هى مملكة الجزائر،

و هي شرقي السابقة. و يحدها شرقا تونس، و جنوبا الصحراء، و غربا المغرب، و شمالا البحر الأبيض، و هي تابعة لفرنسا منذ سنة ١٢٢٧ هـ، و سيأتي تفصيل الكلام عليها في المقصد. و إنما نقول هنا أن عدد سكانها نحو مليونين و نصف و أكثرهم مسلمون، و قاعدة المملكة هي بلد الجزائر و الأحكام السياسية و الضبط مثل فرنسا، و الأحكام الشخصية بين شرعية إسلامية و بين قانونية فرنسوية.

الفصل الثاني و الأربعون المملكة الثالثة هي مملكة تونس:

و يأتي تفصيل الكلام عليها في المقصد إن شاء الله تعالى، و الإجمال أنها مملكة إسلامية تابعة للدولة العثمانية مستقلة بالإدارة و حكمها استبدادي محض، و سكانها نحو مليون و نصف، و قاعدتها مدينة تونس، و يحدها شرقا و شمالا البحر صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ١٢٢ الأبيض، و غربا الجزائر، و جنوبا الصحراء الكبيرة و طرابلس.

الفصل الثالث و الأربعون المملكة الرابعة هي طرابلس الغرب

و هي مملكة إسلامية من عهد سيدنا عمر رضى الله عنه، و كانت في أيام دولة الرومان و القرطاجين في غاية العمران و الخصب و إن كانت المياه بها قليلة لكن الآثار القديمة دالة على إخراج منابع الماء بها من العيون و الآبار و حفظ ماء المطر غير أنها الآن قليلة الخصب و السكان، فسكانها لا يتجاوزون المليون و المعمور منها أودية خاصة و قاعدتها طرابلس و يتبعها ولايات مثل برقة و غدامس و فزان و بنغازي، و هاته الأخيرة تارة تفرد بالإدارة و تارة تتبع طرابلس، و قد استولت الدولة العثمانية على هاته المملكة في المائة العاشرة من الهجرة سنة ٩٥٨ هـ، و ذلك أن الدولة الحفصية التي قاعدتها تونس لما ضعف أمرها و استبد عليها الولايات في الأطراف كان من جملة من عصى عليها والى طرابلس التي كانت تابعة لها، و جار في الأهالي فتجهز إليه السلطان الناصر الحفصي و غلبه و أولى على طرابلس أبا محمد عبد الواحد ابن حفص فقبل الولاية بعد امتناع طويل على شروط. أولها: إبقاءه واليا إلى أن يعيد البلاد إلى أعز ما كانت عليه من الغناء و الراحة. الثاني: أن يستقل بالإدارة مدة ولايته بحيث لا يعارض و لا يرد أمره في شيء.

الثالث: أن ينتخب مقدارا من العساكر حسب إرادته لإبقائهم في إعانته، فأجيز له ذلك و بقي في الولاية إلى أن مات و ولي ابنه الذي هو على شاكلته فاستقر العدل و الغناء في المملكة حتى بلغ النهاية، و أدخلت الأهالي إلى الراحة و ترك السلاح لما ضجروا منه سابقا حتى كان ذلك سببا لطمع العدو فيهم، و ذلك أنه قدمت إلى ثغر طرابلس سفينتان مشحونتان تجارة فاشترى جميع ما فيهما رجل واحد و نقد الثمن حالا و استدعى من فيهما لوليمة أعدّها لهم، و بعد إحضار الطعام أخذ لؤلؤة فاخرة ذات قيمة عظيمة و دقها في الهاون بمراى منهم و ذرها على الطعام قائلا هذا لكم مقام الفلفل، ثم أحضر بطيخة خضراء و أراد قطعها فلم يجد سكيناً فسأل منهم سكيناً و لما سئل عن سبب عدم السكين عنده، قال: إن الأهالي كانوا ضجروا من حمل السلاح ليلا و نهارا أيام الظلم و العدوان، و لما استقر الأمن و العدل صار السلاح بيننا حملة معينا و من حملة أهين بين الأهالي. فتعجب المدعوون الذين هم من الإسبنيول القائم في ذلك الوقت كما يرد خبره في تاريخ تونس، فأخبر أصحاب السفن دولتهم بما رأوا فطمعت في طرابلس و كان عندها ابن السلطان الحفصي مستنجدا بها على أبيه، فحملت بجيش قليل على طرابلس و امتلكتها بإسم أحمد الحفصي الابن المذكور و جار في البلاد أشد الجور هو و الإسبنيول، و لما رأى ذلك النابطان الذي هو أحد ممالك إيطاليا تداخل بين الأهالي بالفساد و وعدهم بالحماية

من الظلم و أنهم إذا أطاعوه حماهم من المظالم و لا يتداخل في أمورهم و إنما يستولى على الحصون فقط، فكان ما كان و أجرى صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ١٢٣

فيهم الأمر أولاً على نحو ما وعد ثم ابتدأ بالتداخل في أمرهم فامتنع بعض أعيان الأهالي و تحصنوا في «تاجورى». و كانت الحرب بينهم قائمة غير أنهم علموا بضعفهم عن امتداد المقاومة فأرسلوا وفدا منهم إلى الأستانة مستجدين بالدولة العثمانية في إنقاذهم و دعوا للاستيلاء على جميع البلاد حيث كانت هي إذ ذاك أقوى دول الإسلام و جمعت تحت رايها أغلب الممالك الإسلامية كمصر و الشام و العراقين، و لما وصل الوفد إلى الأستانة تعجب من شكلهم كل من رآهم و لم يجدوا أحدا يفهم لغتهم حتى صادف أحد الطواشين في القصر السلطاني الجمع المحتبك للتفرج فيهم و كان عالما باللغة العربية فعلم القصد و كان هو الواسطة في إبلاغ مطالبهم للدولة، فأولته هو على تلك البلدة و أرسلته معهم مع حامية ضعيفة لأنهم سهلوا الأمر على الدولة، لكنه لما أن وصل ذلك الوالى و علم حقيقة الأمر أرسل بتفصيل الأخبار إلى الدولة و كان إذ ذاك أسطولها الموجه إلى الإستيلاء على تونس على أهبة السفر تحت رياسة سنان باشا فأمر بالترجيح على طرابلس أولاً فافتكها من أيدي النابيطان و بقيت مستقلة بالإدارة و ليس للدولة عليها إلا هدايا و إعانات في وقت الحرب، إلى أن عصى يوسف باشا قره منلى و حاربه الدولة في أواسط هذا القرن أى سنه ١٢٥١ هـ و استولت استيلاء باتا على المملكة و صارت إدارتها مثل إدارة سائر الولايات العثمانية، و مركز الولاية مدينة طرابلس الغرب و سكانها يميلون للبداءة و لو أهل المدن، و يحدها شرقا مصر، و شمالا البحر الأبيض و تونس، و غربا تونس، و جنوبا الصحراء الكبيرة.

الفصل الرابع و الأربعون المملكة الخامسة: هي مصر،

و إجمال الكلام عليها أنها مملكة إسلامية مستقلة بالإدارة تابعة للدولة العثمانية، و قاعدتها مصر و تتبعها ممالك مثل النوبة و دارفور و كردفان و زليع و غيرها من ممالك السودان، و جميع سكانها مختلف في عددهم من الثلاثة عشر مليوناً إلى الستة عشر مليوناً و الأخير باعتبار الإضافات اللاحقة بها أقرب، و حكمها ظاهراً قانونى بين شرعى و سياسى، و يحدها شمالا البحر الأبيض و الصحراء، و غربا طرابلس، و شرقا الشام و جزيرة العرب و البحر الأحمر، و جنوبا الحبش و السودان و الصحراء الكبيرة، و تفصيل الكلام عليها يأتي في المقصد إن شاء الله تعالى.

الفصل الخامس و الأربعون المملكة السادسة: هي الحبشة،

و يحدها من جميع جهاتها السودان المصرى و عدد أهلها نحو خمسة ملايين على التوحش و البربرية، و الديانة عندهم الغالبة نوع بين النصرانية و اليهودية و الوثنية، أعنى أنها كانت نصرانية ثم امتزجت بفروع من تلك. و الحكم إستبدادى متوحش و لا يعرفون حقائق العلوم و لا التمدن، و لذا لا يعلم كم دخلها و لا خرجها، و هي لا تزال في ضعف من الحروب الأهلية، و بين أهلها كثير من المسلمين دخلهم الإسلام من عهد البعثة.

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ١٢٤

الفصل السادس و الأربعون المملكة السابعة: هي مملكة الزنجبار،

و موقعها على شطوط أفريقيه الشرقيه على المحيط الشرقى، و قاعدتها فى جزيرة أمام القاره. و هاته المملكه هى إسلاميه عربيه من قديم، و تاره تكون تابعه لغيرها من ملوك جزيرة العرب و تاره تستقل، و فى أوائل هذا القرن استفحل ملك أحد أئمه مسقط بجزيره العرب و هو المسمى بالسيد سعيد من أعيان ملوك الإسلام المتأخرين، فعبر السيد سعيد البحر و استولى على زنجبار و جعلها مقر ملكه، و أشاد فيها الحصون و رتب فيها الإدارة الملكيه مع انتحال شعائر الدين الإسلامى و كان من أتباع المذهب الوهابى، كما أنشأ أسطولا بحريا يتألف من أربع سفن كبار حربيه ذات طبقتين، و من عمل مداركه السياسيه أنه لما علم إزدياد القوت الأوروبويه و طموح أنظارهم إلى الجهات الشرقيه و غيرها كما حصل بالفعل فى شطوط أفريقيه و الهند، راكن حينئذ دوله الإنكليز و جعل معها عهدا حتى تكون كافله بحمايه مملكه من تسلط الغير لأنها أقوى دوله أوروبويه لها شوكة فى تلك الأقطار، و فى آخر حياته أولى على مسقط أحد ولديه و هو المسمى السيد توينى مستقلا بها، كما أولى على الزنجبار ولده الآخر المسمى السيد ماجدى، و بعد وفاته حصلت نفره بين الأخوين و عزم على الحرب فتداخلت بينهما دوله الإنكليز و تصالحا على أداء ملك الزنجبار إلى إمام مسقط مقدارا سنويا حيث أن المملكه الأولى أغنى من الثانيه و الثانيه أقوى. و كانت مالكة للأولى. ثم (ازداد غناء مملكه الزنجبار و اعتبارها بعد فتح خليج السويس لاعتناء سلطانها السيد برغش، و إجراءه للعدل.

و لأهلها تمدن و فطانه عربيه، و قد زار سلطانها السيد برغش ممالك أوروبا فى أوائل عشره التسعين بعد المائتين و ألف و أخذ ينحوا منحى التمدن الأوروبوى فى بعض أشياء، سالكا مسلك الإستشاره الذى هو أساس العدل، و دخل هاته المملكه يأتى إن شاء الله تعالى فى جدول دخل الدول، و أما عدد السكان فهو نحو مليونين تقريبا.

الفصل السابع و الأربعون المملكه الثامنه: هى مملكه برنو،

و هى فى دواخل القاره فى الجهه الشماليه الشرقيه، و يحدها شرقا واداي، و جنوبا الأراضى المجهوله، و شمالا الصحراء الكبيره، و غربا قبائل بنبرا. و هى مملكه سودانيه إسلاميه يقال فى صفتها و أحوالها ما يشبه مملكه مراکش. و ملكها من نسل العرب و يقال من الأشراف، و تخته كوكا أو كوكو قرب بحيره أشأت أكبر بحيرات دواخل أفريقيه، و هذا التخت منقسم إلى قسمين كل قسم له سور و فيها بلدان للتجاره، منها ما به معامل للصبغ و أخرى لنسيج الثياب القطنيه. و سلطانها مستقل و يلقب فى عرفهم بالشيخ و من دونه يلقبون سلاطين، و له اقتدار و يوسم بالعلم بل يقال عنه أنه يقرأ درسا من تفسير البيضاوى و درسا من صحيح البخارى.

و لمملكته قبائل تؤدى خراجا له و هى مركى، و تختها دورا و مندرا و لوكون، و لهم صنائع فى

صفوه الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ١٢٥

النسيج و غيره و لسلطان برنو جيش من السودان على أنواع غير نظاميه، و له معسكر خاص يقدمه بين يديه على أحسن صوره و أكمل خلقه أشداء لهم رماح و أقواس من الحديد و لكل فى ذراعيه حلق من حديد ماسكه لزنديه علامه على القوه، و لا لبس لهم إلا ما يستر العوره و بأصابعهم خواتم من حديد تعين على جذب القوس لصلابته ليعبد رميه، و لا يلبس العمامه إلا السلطان و هى عمامه كبرى بيضاء. و لدوله ألمانيا معه مواصله و مهادات لإعانه جمعيه الجغرافيا على الاكتشاف، و يقال إنه يقدر أن يعسكر من الفرسان أزيد من مائه ألف من عموم الأهالى و يستعمل عندهم الأسلحة الناريه، و لغه الدوله هى العربيه و فيها العلماء و عدد السكان باعتبار الإضافات نحو ثمانيه ملايين تقريبا.

الفصل الثامن و الأربعون لا يخفى أن بقية أفريقيا [قد قسمها الجغرافيون إلى أحد عشر قسما كبرى،]

لما كانت غير مكتشفة حق الإكتشاف لجمعها و ليس لأهلها من التقدّم ما يماثل بقيه الممالك، قد قسمها الجغرافيون إلى أحد عشر قسما كبرى،

[القسم الأول السودان]

إشارة

فأولها: سمّوه بالسودان، و يحده شرقا ولايات مصر السودانية مثل دارفور، و يحده شمالا الصحراء الكبيرة، و يحده غربا سانيغال، و يحده جنوبا كينيا العليا و بلاد الكفر. و هذا القسم يشمل عدة ممالك و قبائل مستقلة. (تنبيه) لما كان غالب أسماء هاته الجهات و القبائل منقولة من لسان أعجمي إلى الفرنساوي، و منه نقلنا أغلبها، فربما وقع تحريف في الإسم، و لكن على كل حال يفيد تقريبا المقصود بالمادة، و من ممالك هذا القسم سلطنة برنو المتقدمة و أكثر الممالك التي فيه أهلها مسلمون و فيهم علماء أجله لهم تأليف إلى هذا العهد، و لكن الإطلاع على تفاصيل أحوالهم بالنسبة إلينا لما كان عسرا اكتفينا بالذكر الإجمالي.

القسم الثاني: هو أراضي سانيغال أو سانيغابي،

إشارة

و هو يشتمل على عدة أمم، و يحده شمالا الصحراء، و شرقا قسم السودان، و جنوبا مملكة جبال الأسد و كينيا العليا، و غربا و بعض الجنوب المحيط الغربي، و فيها جبال كثيرة و نهران عظيمان، و عدد جميع سكانها نحو إثني عشر مليوناً، و قد استولى الفرنسيين و الإنكليز و البرتغال على أكثر شطوطها.

الفصل الثالث و الخمسون في المستقل من سانيغال قد بقيت دواخلها منقسمة إلى عدة حكومات أكبرها ثلاثة،

الأولى: بالس. الثانية: ماندنيك. الثالثة: كيلوفس، ثم البقية صغار متفرقون.

الفصل الرابع و الخمسون ممالك تيماني و سوليمانه،

و موقعها في جنوب السابقة بينها و بين كينيا العليا، و تحتها فالابا و بإزاء هاته قبائل كورانكو و تحتها كورا كونكا.

القسم الثالث: هو كينيا العليا،

إشارة

و فيها قبائل و أقسام و هذا القسم ممتد مع شاطئ البحر الغربي معرج معه إلى الشرق ثم إلى الجنوب إلى مبدأ خط الإستواء القاسم للقارة، و يحده جنوبا كينيا السفلى عند خط الإستواء و المحيط الغربي، و غربا المحيط، و شرقا بلاد الكفر، و شمالا قسم السودان في الأغلب و في الأقل سانيغال.

الفصل الخامس و الخمسون أول أراضي هذا القسم هي المسماة: كرومان،

و هي قبيلة من الأصليين هناك ذات أخلاق حسان و هم أقوياء تألفهم الغرباء و يوفون بالعهد، و هم فى شمال كينيا العليا، و على الاجمال فجميع سكان كينيا العليا متوحشون من السودان و بينهم مسلمون و نصارى ارتحلوا إلى هناك و منهم من صار لهم فيها مستعمرات.

الفصل السادس و الخمسون فى مستعمرات الإنكليز بهذا القسم و هى الأراضى المسماة: جبال الأسد،

و سكانها من السودان و تختها فريتوفن.

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ١٢٨

الفصل السابع و الخمسون فى مملكة ليبيريا هى مملكة جمهورية مستقلة تسمى: ليبيريا

سكانها من السودان المعتوقين من أمريكا، و تعرّفت بها دول أوروبا من سنة ١٢٥٦ هـ - ١٨٧٤ م. و سكانها نحو خمسمائة ألف من السودان، و لها مجلس نواب إلى غير ذلك من سمات الدول المتمدنة و لغتهم إنكليزية، و نهاية مساعيهم تحرير العبيد السود فى الدنيا و موقعها على الشاطىء الغربى المذكور، و تختها مدينة منوفيا و تحت هاته الجمهورية ولاية أخرى أنشأتها الجمعية الحرّة المذكورة، و من قانونها أن لا يدخلها إلا السودان الذين يقسمون أيماناً على أن لا يشربوا مسكراً، و إسم تختها هدبر.

الفصل الثامن و الخمسون فى أرض شاطىء الفيل،

و هى تلى المملكة المتقدمة، و هى من أراضى كينيا، يحدها المحيط المذكور جنوباً بقرب خط الإستواء و لم يمكن للسواح التوغل و الإقامة بها لفساد هوائها و إن أصلح الفرنسيون أماكن أقاموا بها، و شرقى الأرض المذكورة الأرض المسماة بشاطىء الذهب سميت بذلك لغنائها به و استعمرها الإنكليزيون ببلدان كثيرة.

الفصل التاسع و الخمسون فى دواخل كينيا العليا

و فى دواخل كينيا عدة ممالك سودانية منها: قبائل فانكى، كأنهم عصبه ضد حرب قبائل إسهنتى التى هى فى الدواخل المذكورة، و هم مثل أمة قوية مخوفة لسفكهم الدماء حتى أنهم يضحون الآدمين فى جنائز كبرائهم و عند انتصارهم، و تختهم يسمى كوماسى.

الفصل الستون فى بقية شطوط كينيا العليا و دواخلها

ثم شرقى الشاطىء الذهب شاطىء المماليك سمي باسم التجارة الرائجة هناك، ثم فى دواخله ممالك داهوميه سكانها نحو ثمانمائة ألف من السودان و لها ملك له عشرون ألفاً من العسكر منهم خمسة آلاف نساء و يضحون المئات من الآدمين فى أفراحهم، و تختهم أبو ميخ. ثم فى شرقى ما ذكر ممالك هاونكلا و أتاكلا و هوى و بالى و شرقها ممالك يربا تمتد إلى أن تصل إلى قرب ممالك برنو و ما جاورها و قد تقدم ذكرها، و يازائها قبيلة أكياس الذين التجأوا من كثرة الحرب معهم إلى جبال صخرية و أنشأوا هناك بلداً متحصنين بها، و عددهم نحو مائة ألف تحت رياسة رئيس بانتخابهم، و لهم رئيس حرب و أسلم منهم كثير و أمّنوا سبلاً إلى مملكة تنبكتو، و شرقى السابقة مملكة بنين و شرقى هاته شاطىء كالأبار، ثم جنوبى هاته محاداً لها على الشاطىء مستعمر فرنساوى يسمى كابون و هو نهاية ممالك كينيا العليا.

القسم الرابع: من الأقسام الكبرى قسم أفريقية الجنوبية.

صفحة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ١٢٩

الفصل الحادي و الستون في ممالك رأس الرجاء الصالح في نهاية الجنوب على الشاطيء من المحيط الجنوبي رأس الرجاء الصالح

و هو مستعمر للإنكليز، و تختها بلد الرأس سكانها سبعمائة ألف و يليها شمالا في داخل القارة ولايات صغار، و هي تاماكاس و كوراناس و بوشمس.

القسم الخامس: من الأقسام الكبرى بلاد الكفر و هو شمالي الرأس و هو أراض واسعة عظيمه تنتهي إلى الشاطيء الغربي، و الشاطيء الشرقي. و تتوغل في القارة و تسمى بلاد الكفر، و منهم قبائل الزلوس و قبائل ناتال و جمهورية نهر أورنج، و جمهورية ترانزفال، و بلاد البتجو أناس و بلاد أوتانتو.

الفصل الثاني و الستون فأما الزلوس فهم أقوياء أشداء أهل حرب،

و قد حاربوا الإنكليز سنة ١٢٩٦ هـ كما هي عادتهم معه، و مات في هاته الحرب ابن نابليون الثالث إمبراطور الفرنسيين لترؤسه على عسكر إنكليزي، ثم قهر الإنكليز الزلوس و أسروا ملكهم الذي يعتقد نفسه ك نابليون الأول و خضعوا إلى الإنكليز على شروط استقلال إدارتهم.

الفصل الثالث و الستون و أما أراضى ناتال فسكانها إنكليز و هلانديز و زلوس و باستوس بربريس و هنود،

و جميعهم نحو أربعمائة ألف نسمة، و تختها مارييس بورك.

الفصل الرابع و الستون و أما جمهورية نهر أورنج و هي شمال رأس الرجاء،

و سكانها من الكفر المسمون بوتجوانس و هلانديز، و تختها بلويم فنتين، و لهم رئيس و مجلس شورى و مجلس نواب، و ديانتهم برتستان و هناك قبيلة من الكفار مستقلة تسكن بالجبل الأزرق.

الفصل الخامس و الستون و أما جمهورية ترانسفال فهي واقعة في بلاد الزلوس

و عددهم نحو ثلاثمائة ألف و ثلاثين ألفا، و تنقسم الحكومة إلى أربعة أقسام، لكل: مجلس و رئيس و منفذ و كاتب و تختها بوتش شيفستروم، و من قوانينهم أن رئيس الجمهورية معه إثنا عشر عضوا لإدارة الحكومة يبقون ثلاث سنين.

الفصل السادس و الستون و أما مملكة بادجوانه فتختها كورومان و بجوارها مملكة أوتانتو

و هم فاسدوا الأخلاق حتى يشبهونهم بالمنغول، و عقولهم رديئة حتى أنهم يدخلون منازلهم يمشون على أيديهم و أرجلهم كالحيوانات، و في كلامهم يلصقون لسانهم بلهاتهم. و في شمالي نهر أورنج

صفحة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ١٣٠

صحراء تسمى كالاهاى لا ماء فيها و لا نبات إلا إذا صب المطر فتنبت عروقا و بطيخا بكثرة، و يوجد الفيل هناك بكثرة و الجاموس و الزرافة و النعام و الكركدان و هناك نوع من البشر وحشى يصطادونه كما تصطاد السباع. ثم أراضى الزنبير يسكنها نوع من السودان يسمى ماتيونا و انتفى و كولولو و غيرهم.

القسم السادس: من الأقسام الكبرى: كينيا السفلى، و هي على شاطيء المحيط الغربى يحدها شمالا كينيا العليا، و غربا المحيط، و شرقا

بلاد الكفر، و جنوبا قسم الرأس.

وهي أرض غنية بها نوع من القصب عجيب يسمى بانبو، يدوم من الأربعة إلى الخمسة آلاف سنة و ساق شجرته محيطة نحو ستين ذراعا، و بها نوع من القرده أكثر شبيها بالإنسان، لكن بها نوع من الذباب قتال لمن يلسعه، و أغلب السكان من السودان و حشيون و منقسمه إلى عدة عمالات.

الفصل السابع و الستون في ممالك كينيا السفلى

فالأولى: تسمى لونفور و تختها بوالى، ثم عمالة كاكونكو و تختها كين كللى، ثم عمالة نكيو و تختها كانبدا، ثم عمالة كونكو تختها بنزا كونكا، ثم عمالة أنكلا تحت استعمار البرتغال و تختها لواند، ثم عمالة بنكلا للبرتغال أيضا تختها صان فليب، و هذان سكانهما نحو ستمائة ألف من السودان و لكل حاكم، و في جنوبها صحراء سيم بيازي.

القسم السابع: من الأقسام الكبرى: هو المسمى موزن بيك، و هو شمالي بلاد الكفر على الشاطئ الشرقى للمحيط، و لا يعرف منه إلا الشط، و هو مستعمر للبرتغال و منقسم إلى سبع حكومات.

الفصل الثامن و الستون في ممالك هذا القسم و هي مركز و أنها بناني و سوفالا و سينا و كيليماني و موزنيك و ديلكاد،

و يحد هذا القسم شمالا مملكة الزنجبار التي تقدم ذكرها.

القسم الثامن: من الأقسام الكبرى: قسم سوموليس و هو في الشرق الشمالي من زنجبار، و يحده شمالا جون عدن، و شرقا المحيط، و جنوبا المحيط و زنجبار، و غربا زنجبار.

الفصل التاسع و الستون في ممالك هذا القسم فساكنه من بربر أفريقية الشمالية و العرب و السودان

و هاته المملكة هي المسماء بزيغ، و كانت شطوطها للدولة العلية، ثم سلمتها إلى مصر بالزيادة في خراجها و في نهاية شماليها بلاد عدل و أغلب سكانها مسلمون و لهم إمام من العرب، و في الشمال الغربي منها بلاد هرر و قاعدتها مدينة هرر سكانها نحو الثمانين ألفا كلهم

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ١٣١

مسلمون على أوصاف حميدة، و بلادهم حصينة ذات أسوار، و التجار آمنون و لهم تجارة واسعة مع اليمن و غيره مع خصب الأرض و سلامة الهواء في أغلب الجهات و هي داخله في الممالك التابعة لمصر.

القسم التاسع: من الأقسام الكبرى هو القسم المجهول، و هذا القسم الكبير الأوسط من أفريقية الجنوبية مجهول، و يحده شرقا زنجبار و ما حولها، و غربا كينيا السفلى و ما حولها، و شمالا برنو و ما والاها، و جنوبا بلاد الكفر، و يخرقها خط الإستواء، و تمتد منه جنوبا نحو عشرة درجات و كذلك شمالا و لا- يعرف منها عند الجغرافيين إلا ثلاث عمالات، أولها: عمالة كازمب و تختها لوسندا. و ثانيها: أونيام وزى و تختها كزخ. و ثالثها: و جيغى و تختها كأولى.

القسم العاشر: هو الجزائر البحرية، و أما الجزائر التابعة لأفريقية و هي في المحيط كلها لا اعتبار لها إلا جزيرة سنتيلين المقابلة لجون كينيا في دواخل المحيط، و إنما اشتهرت لكونها مات بها نابليون الأول منفيًا في أسر الإنكليز، و أغلب تلك الجزائر في تملك دول أوروبا إلا ما يتبع الزنجبار، و كذلك ما يتبع جزيرة ماداغسكار التي هي الجزيرة الوحيدة في أفريقية في المحيط الشرقى تجاه شاطئ موزنيك كما سيأتي.

الفصل السبعون في مملكة ماداغسكار أو كسكار

و هي من الجزائر الكبيرة المعتبرة في الدنيا و هي غنية و فيها نوع من السباع إسمه ماكيز و هاي هاي و غيرها من الحيوانات الغير المعروفة.

و سكانها نحو خمسة ملايين و كلهم من السودان و نوع يسمى هو واس يظن أنهم من نوع سكان الهند، و عددهم نحو ثمانمائة ألف و الدين الغالب هو الكفر من عباد الأوثان، و الجميع تحت حكم واحد و عليهم ملكة أنثى إسمها رانافولو الثانية، و قد أمرت بإحراق جميع آلهتهم و هدم جميع معابدهم و أمرتهم بالديانة البروتستانت فأطاعوها و هم على ذلك الآن، لكنهم بالإسم فقط إذ لا يعتقدون شيئا و كان ذلك الأمر في سنة ١٨٤٨، و تحت المملكة بلدة تاناريفو، و قد اكتشف هاته الجزيرة العرب قبل البعث و عرفها أهل الصين و أهل همالاي.

القسم الحادي عشر: من الأقسام الكبرى: قسم الصحراء فتقسم إلى ثلاثة أقسام:
أولها: صحراء المغرب.

و ثانيها: الوسطى أو بلاد التوارك.

و ثالثها: الشرقية أو بلاد التيوس.

فالأولى: هي بين مراکش و سنيغال على شاطئ المحيط الغربي، و الشاطئ في البحر مملوء صخرا و الريح الغربية تخرج من البحر رمالا تحدث فيه جزرا متقلبة، و قد تحقق أن وسط هاته الصحراء يكون الرمل دائما منتقلا إلى الجهة الجنوبية الغربية، و كان ذلك أحد

صفحة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ١٣٢

أسباب عدم النبات بها و تسمى هاته الصحراء بالساحل، و يوجد بها عدة جزائر بالنبات على خط واحد إما لوجود ماء جار على منحائها تحت الأرض أوندى، و القوافل تمر دائما على سمتها للسقى من آبارها و التزود من عشبها.

الفصل الحادي و السبعون في ممالك الصحراء الغربية:

و يسكن بهاته الجزائر في بعض الأوقات نوع من البشر يسمون زنقا، و كذلك التوارك و العرب يجذبهم إلى هناك ربح تجارة العبيد و كلهم يتمعشون من القوافل المارة عليهم و تارة يسرقونهم و تارة يسافرون معهم هداة للطريق، و الأصليون من سكان الصحراء المذكورة مسلمون و هم مركبون من عرب بنى حسن الذين يقال إنهم رحلوا من اليمن في القرن الحادي عشر ميلاديا، و فيها عمالة تسمى تيريس في الشمال الغربي على الشاطئ تأتيها الحيوانات من المغرب و سانيغال و الرعاة لرعى حيواناتهم زمن الربيع لكثرة الخصب، و سكانها أولاد دليم و هم أقوياء شداد متسلحون و يخترقون الصحراء بالهجانن السريعة و يتمعشون بالنهب، و في جنوبها بلاد بها كثرة سباح يتزود منها الملح جميع أهالي الصحراء إلى بلاد تنبكتو، كما أن في صحراء المغرب جزائر نباتية تسمى إدرا على نحو ثلاثين ميلا من سانيغال و بها جبال كثيرة و بلدان و قرى و تحتها يسمى وادان و سكانها بين عرب و بربر، ثم جزائر تاغانيت كان يسكنها قبائل زاغانا و تحتها تيشيت، ثم جزائر والاتا في الجنوب الغربي و بلاد الهث ضاربة في الجنوب تحتها كسانبرا، و بقرب سانيغال بلاد ترارزاس و براكناس و بلاد سيدى هاشم الذي كان دخل إلى مراکش.

الفصل الثاني و السبعون في ممالك الصحراء الوسطى:

و أما الصحراء الوسطى فيسكنها العرب المنتقلون إلى هناك بالإستيطان و التوارك، و يمتدون من حدود فزان ببلاد طرابلس إلى بحيرة تشاد، و مركز قوتهم في ربا على شكل مثلث و بها جبال كثيرة و نهيرات و ثلاثة جبال كبرى بمحل يسمى نمات، و خارج

المثلث المذكور جهة الجنوب الغربي بلاد أزود و بقية الجهات قفراء و التوارك يسمون أنفسهم إيموشاك بمعنى مستقلين و أشراف، و إسم التوارك أطلقه عليهم العرب و هو بمعنى التاركين لتركهم الحق في الصدر الأول، و أما الآن فهم مسلمون و لغتهم تسمى تاماشك و ينقسمون إلى عدة قبائل: توارك هرر في جبال هكار، و توارك أزقر في جبال غات، و توارك مويدير في جبال سكمارن، و توارك الفوقاس، و في الجنوب جهة تنبكتو توارك الفراج، و توارك أن هو و أولاد أحمد و القبائل و تالغوى و جميع هؤلاء القبائل ينقسمون إلى أربعة أقسام كبرى و هي: توارك هكار و توارك أزقر في غات و توارك كلوى و توارك والى منيدن في شرق تنبكتو، و القسمان الأولان معروفان لكثرة التجارة معهم من الجزائر و يدعون بأنهم أشراف البربر، و هم بيض حسان الخلقة شجعان يحملون الرماح و السيف و الميكله أى البندقه و السكين، و يركبون الهجين السريع للغاية مع قوته، و يلبسون

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ١٣٣

قميصا أبيض أو أسود و على رؤوسهم شواشى طوال و لثام بحيث لا تظهر إلا أعينهم، و لهم ملك يحكم مع كبار القبائل و ولد أخت الملك هو وريث الملك.

هكذا قانونهم و حكمهم ليس بقهرى مطلق بل لهم نوع من الحرية، و من عاداتهم أن لا يتزوج الرجل إلا امرأة واحدة شرعية و له غيرها، و ديانتهم الآن الإسلام ليسوا بمتغالين فيها كما هي حاله مجاورهم، و لهم غنم أصوافها قصيرة و أليها كبيرة للغاية و لهم معز و ابل لحمل الأثقال و هجائن للركوب، و لهم نوع من الخيل من أجود الجياد، و في جزائر الصحراء لهم نخيل كثير، و القبائل الرحالة هم الحارسون للقوافل المارة في بلادهم بين شواطئ أفريقيا الشمالية و السودان بأجرة مقوننة معروفة و القادم من فزان يجد غات على مسيرة ثلاث و ثلاثين يوما من لغوات، و الأمطار هناك قليلة جدًا و مرض الأعين كثير و هو أصعب طريق بين السودان و طرابلس، و من شهر سبتمبر إلى غاية شهر نبر يجتمع في بلاد غات أزيد من ثلاثين ألف جمل بأحمالها، و في الجنوب الغربي هضاب على جبال هقر تكاد أن تسمى سفيصرة أفريقية لأنها بها جبال ذات آجام و غابات و وهادات تسقى من عيون غزيرة و يدوم فيها الثلج من دجنبر إلى مارس، و من هاته الجبال منبع أعظم أنهر الصحراء المسمى إيغرغر و يذهب جهة الشمال و ينقطع قرب تكررت في حدود الجزائر، و هي مسكن التوارك الخالصين المخيفين لمن جاورهم بقوتهم و شجاعتهم.

و أكبر بلدانهم تسمى «أدلى» و في الشمال الغربي جهة مملكة مراكش عمالة توات المكونة من عدة جزائر نباتية متقاربة، و بها نوع من الشجر يسمى كروك هو أحسن فحم للبارود. و أرضهم خصبة لجميع النبات و لهم حيوانات كثيرة و السكان أناس طيبون مسلمون متصلبون و يتجرون مع المغاربة. و الجزائريين و مع غات و السودان، و أكبر مدنهم يتييموم و ادرار و تامنتيت و تجتمع الطرق في بلد أولف و لذلك كانت موقعا مهما للحرب، و في الجنوب عمالة أير في طريق السودان و هي متكونة من جبال صخرية و في الأودية ينبت كل نبات و في شهر استمبر تنزل أمطار غزيرة و السكان يسمون كلوى، أصلهم ما بين التوارك و السودان، و تختهم يسمى أوكاديس و لهم ملك يسكن بها. و في حدود السودان بتوغل في الجنوب إيالة دامركو، و في الغرب منها قرب نهر دوريبا إيالة والى مانيدن و بها بلدة مبروك الواقعة على الطريق بين تنبكتو و غات.

الفصل الثالث و السبعون في مملكة الصحراء الشرقية:

و أما الصحراء الشرقية المحادة لمصر من غربيها فهي ليست كبقية الصحراء، لأنها بها الطفل نوع من الطين بكثرة و بها جبال لونها رصاصي أو أصفر و بها ربا من الرمل رحالة إلى جهة الجنوب و جهة الغرب و سكانها يسمون تيبوس من السودان من نوع القانونى التابع لبرنو و منقسمون إلى عدة قبائل، و هي:

«الرشاد و قران و بركو و باتلين» و غيرها، و الطريق ما بين مرزوق إلى كوكامارة على

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ١٣٤

سلسلة من الجزر النباتية طويلة جدًا، و أكبرها تسمى كوار و هو حقيقة إسمها و إن سموها بأما، و يوجد في هذا القسم جزائر آخر و هي تيبستي و بركو موقعها بين مرزوق و واداي ثم جزيرة كوفارا التي بها بلدة كباو الواقعة في الشمال. و جهة الشرق من هذا القسم تسمى ليبيا بها بعض جزر تابعة الآن لمصر و هاته الأماكن التي عبرنا عنها بالجزر تسمى في العرف بالواحات.

و الخلاصة في أفريقية: إن جميع سكانها عدا الممالك الشمالية و الممالك التي على الشطوط نحو مائة مليون، و أهم الشطوط بيد ممالك أوروبا و لهم فيها حكم إستبدادي بمراعاة للعوائد، غير أنهم يستعملون القوة القاهرة لتوحش السكان. و بقية السكان غير الممالك التي مر ذكرها بتفصيل حالتها هم أناس متوحشون كالحيوانات العجم و دأبهم غزو بعضهم بعضا و لبعضهم رؤوسا يقبون بألقاب الملك و يجرون الحكم القهري، و لهم عادات مبنية على خرافات و جلهم أشد الناس تعلقا بالسحر و رعبا منه و يعتقدون له من التأثير أمورا عجيبة يكاد السامع أن لا يفهمها، حتى أن بعضهم يستعمل السحرة في الحرب بل و يعتقدون فيهم الإحياء و الإمانة.

و من هذا القبيل في حكاية ما يعتقدونه ما أخبرني به ثقة عدل راويا عن والده الذي هو مثله: «أنه رأى من عجائب سحرهم أن قبيلة و نقره من عاداتهم التجارة و يرحلون لأجلها إلى بلد جنى من بلاد قسم السودان، فيتهيا لذلك كل عام نحو ثمانية أو عشرة من كبرائهم أهل السحر و يعلنون بذلك فلا يزال الناس يأتونهم بأقربائهم و وكلائهم المرادين للسفر و يستودعونهم عندهم إلى أن يجتمع منهم آلاف كل منهم يحمل بضاعته على عاتقه، و يسافرون هكذا مشاة، فإذا مات أحد المستودعين اجتمع السحرة و طلوه بأشياء من نوع شجر عندهم لكي لا يفسد جسمه ثم يأخذون ذنب بقرة مستودع فيه السحر على زعمهم و يمسكونه بيده ثم يوقفوه و لا يزال سائرا معهم إلى الليل فيمدّ ميتا و هكذا ذهابا و إيابا و بضاعته على عاتقه و هو ميت إلى أن يرجع إلى صاحبه». و لو لا تواتر الأخبار بمثل ذلك في أنواع سحرهم لما أثبتنا هذا هنا للعلم بأحوال ما يعتقدونه، و دياتهم شتى من أنواع الكفر و بعضهم يعتقد الألوهية في ثعابين أو عقارب أو حيات أو أصنام أو ملوك، حتى اعتقد قوم منهم في سائح أبيض أنه ابن الشمس و عبدوه و لما أراد الرجوع خاف على نفسه منهم من غصبه على البقاء بين أظهرهم إلى أن اختفى و نجا.

و هكذا يعتقدون الألوهية في كثير من الحيوانات و بعضهم له لباس و بعضهم عراة بالمرء، و النساء كإناث الحيوانات المشتركة و بعضهم يتستر على العورة الغليظة و بعضهم يلبس شيئا من الثياب، و بعضهم يسكن تحت السماء و يتقى البرد و الحر بظل الأشجار، و بعضهم يتخذ بيوتا من الهشيم أو أغصان الشجر، و بعضهم له قرى و هم يتفاوتون في هاتيك الخلال شدة و ضعفا، و في هؤلاء الأقوام قبائل من المسلمين و هم على توحشهم

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ١٣٥

أحسن حالا من غيرهم لأن الديانة هذبت من أخلاقهم نوعا ما و إن كان بعضهم لا يعلم من الديانة إلا الإنتساب إليها و بعضهم يعلم الكليات الخمس الواجبة إجمالاً من غير معرفة تفصيلها، و إذا قام أحدهم إلى الصلاة يصير يركع و يسجد من غير عدد مخصوص لأنهم إنما يعلمون وجوب الصلاة التي هي قيام و ركوع و سجود من غير تفصيل و لا عدد و لا ترتيب، و هكذا يوجد في أفريقية أقوام ينتسبون إلى الديانة النصرانية و اليهودية و ليست على قواعدها المعروفة، و لا زال الأوروبيون يرسلون دعاة لإدخالهم في النصرانية هم و غيرهم من أمم تلك القارة، كما يرسلون سواحا للكشف عنها و تحقيق ما فيها و كأنها لا تلبث أن تصير مطمح الأنظار و محطا للتقدم، فقد اعتنوا من كل الجهات بالبحث عن ذلك رغبة في ازدياد التجارة و الربح، و نجح كثير من سواحهم في الحصول على اكتشافات نافعة من خصب أقطار و كثرة سكان و وفور معادن و غير ذلك من حيوانات وحشية و أهلية لها فائدة في التجارة. و ألفوا في صفات البلدان التي شاهدوها كتباً مفيدة، و على الإجمال يقال إن قارة أفريقية لا زالت غير معروفة حق المعرفة إلا ما بيناه منها منفردا، و قد رأيت أبياتا للشيخ أحمد بابا التونبكتي و هو عالم مشهور من علماء السودان في أوائل هذا القرن، قدم من بلده تنبكتو قافلا للحج مارا على المغرب و تونس، و هاته الأبيات تفيد معرفة أسماء قبائل من السودان و معرفة دياتهم و هي:

كل الذي من صنف متش قدما عليك بالكفر عليه فاحكما

كذلك كرم كشد كل و يرباتبع و يركبس و بوبا كنب
فهم يجوز فيهم السباء و بيعهم يجوز و الشراء
و احكم بإسلام بلاد برنو كشنكاغ و كنو و عفنو
مولى و كوبر و صفى كذلك و جل فلات و بعض زكر كا

القسم الرابع من الأرض هي قارة أمريكا

إشارة

يدعى غالب أهل العصر أن هاته القارة كانت مجهولة عند القدماء إلى سنة ١٤٩٢ مسيحية الموافقة لأوائل القرن العاشر من الهجرة، فاكتشفها رجل اسمه كريستوف كلمبوس و هو من أهالى جنوه متخذاً صناعة الملاحة، و هى إذ ذاك تستلزم معرفة الحروب لكثرة الحروب البحرية سيما فى شطوط أوروبا، و كان الفتى فى فكره وجود أرض وراء المحيط الغربى و الجزائر الخالدات لمعرفته بالجغرافيا و رسم الخارطات، فسعى إلى ذلك مع ملك البرتغال، ثم مع ملك جنوه و خاب أمله و بعد المحاولات الطويلة مع إيزابلا صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ١٣٦

ملكة إسبانيا فى مدة ثمان سنين حصل على المساعدة بثلاث سفن و العهد إليه بأن يكون خليفة الملك عما يكتشفه و يأخذ العشر من المداخيل لنفسه، ثم بعد مقاسات شديدة له من الملاحين الذين أرادوا قتله ليأسهم من النجاح كلل سعيه بالنجاح بعد سبعة و عشرين يوماً من شطوط إسبانيا إلى جهة الغرب، و أول جزيرة اكتشفوها سماها سان سلفدورى، و لا زال يكتشف فيها جزيرة بعد أخرى كلها فى غاية النضارة و سذاجة الأهالى و سلامتهم حتى أنهم عراه نساء و رجالا و لونهم ذهبى و بينون بيوتا من أغصان الشجر، و بعض الجزر بينون القرى من الحجارة و الطين و اكتشف فيها على البطاطس و التبغ اللذين لم يكونا معروفين من قبل، و هكذا اكتشف بها على الطماطم التى يقال إنها هى السبب فى حدوث المواد الطيرية فى القارات لأنه لم يكن معروفاً ذلك المرض من قبل حتى سمي بالحب الإفرنجى نسبة إلى الإفرنج لأنه عرف منهم بجلبهم للطماطم و سيأتى الكلام إن شاء الله تعالى على وجه تسمية أهل أوروبا بالإفرنج.

ثم إن كلمبوس رجع إلى إسبانيا و عاد بأسطول و عساكر أكثر مما كان أتى به سابقاً فلم يبق هناك، ثم قدم بعد مدة رجل يقال له أمريكوس و هو الذى اكتشف على أمريكا الجنوبية و به سميت جميع القارة، و الحق أنها كانت معروفة سابقاً و كذلك طريقها من جهة المحيط الغربى، و دليله أنهم أثبتوا أن أهالى النرويج كانت لهم تجارة و معاملت مع أهالى كرنيلاندا من أمريكا الشمالية منذ القرن الثالث و الرابع من الهجرة، حيث ذكروا أن رجلاً من أهالى اسكتلانده التى هى الآن من ممالك إنكلترا و كانت إذ ذاك تحت حماية النرويج، قذفته الرياح فى ذلك الزمان فى البحار الشمالية إلى أن وصل إلى كرنيلاندا ثم رجع إلى بلاده و صار لهم اتصال معهم، غير أنهم لم يشبوا زيادة اكتشاف عما عدا ذلك مع أن القارة كبيرة جداً، و كذلك رأيت فى جغرافية ابن الوردي أنه قال ما معناه: «إن وراء الجزائر الخالدات و بحر الظلمات جزائر عظيمة جداً و فيها خلق كثير و قد وصل إليها أحد النوتية عن غير قصد بمطاردة الرياح ثم رجع منها بعد أن أيس من الحياة و وصفها بأوصاف جميلة مطابقة لما اكتشف من بعد». و إنما قال فى المحيط الغربى بحر الظلمات لأنه تتكاثف فيه جهة الشمال الأبخرة حتى يصير ظلاماً الليل و النهار كما هو مشاهد الآن لجميع المسافرين بين أوروبا و أمريكا حتى تضطر البواخر مدة سفرها أن تصرخ بعد كل دقيقة ببوق البخار كى لا يقع لها تصادم مع غيرها، لأن نور الشمس محجوب و نور المصابيح لا يخرق تكاثف الأبخرة.

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ١٣٧

و كذلك نقل لى ثقة أنه رأى فى بعض كتب الشيخ محبى الدين بن العربى : أن وراء المحيط أمما من بنى آدم و عمرانا و هو فى القرن السادس رضى الله عنه، فدل هذا على معرفة تلك القارة من قديم و إنما الإنتفاع التام بها لأهالى هاته القارات لم يعرف إلا منذ قريب، ثم إن هاته القارة العظيمة التى تعد نحو نصف الأرض المكشوفة هى يحيط بها البحر من جميع جهاتها و يفصلها عن غيرها من القارات إلا- جهة القطب الشمالى أزيد من درجة نيف و ثمانين فهى مجهولة، كما أن القليل من الجهات الشمالية وسط القارة لم يعرف بالتحقيق، و هكذا الوسطى من الجنوبية و جميع القارة تقسم إلى شمالى و جنوبى، و يوصل بينهما برزخ من الأرض ضيق يبلغ فى بعض الجهات إلى أربعة و عشرين ميلا يسمى برزخ بناما، و قد أرادت فى هاته المدة جمعية فرنساوية خرقة حتى يتوصل من المحيط الشرقى إلى المحيط الغربى بقصر فى المسافة و كأنه يتم عن قريب، و سكان جميع هاته القارة يبلغون إلى نحو الستين مليوناً و لو أضيف إليهم أربعائة مليون لوسعتهم الأرض و قامت بجميع ثروتهم، و أكثر أولئك السكان من أهالى أوروبا و آسيا و أفريقيا و الأصيلون قليلون ثم تنقسم القارة إلى عدة دول.

الفصل الرابع و السبعون المملكة الأولى: دولة أمريكا المتحدة،

و موقعها فى أمريكا الشمالية و تمتد من الشرق إلى الغرب على جميع القارة، فيحدها شرقا المحيط الغربى، و يحدها غربا المحيط الشرقى، و يحدها جنوبا خليج مكسكو و مكسكو و خليج كاليفورنيا، و يحدها شمالا الأملاك الإنكليزية و البحيرات الشمالية. و سكان هاته المملكة نحو إثنين و أربعين مليوناً منقسمون إلى ستة و ثلاثين حكومة كل حكومة مستقلة بإدارتها الداخلية و مجتمعون فى الأحوال العامة مما يعود إلى مصلحة الجميع، و تخت الجميع بلاد واشنطنون يتركب فيها مجلس من جميع الحكومات و ينظر فى مصلحة الجميع، و رئيس هاته البلاد هو رئيس جميع الدول التى هى جمهورية و هى التى لها المعاملة السياسية مع الدول الأجنبية و رئاسة العساكر و البحرية و سيرة الدولة و قوانينها مثل سيرة الدول الأوروبية الأكثر حرية و تقدما، و لازلت تتقدم فى الحضارة و المعارف و القوة حتى كان لها الشأن العظيم و صار لها الإعتبار التام عند جميع الدول، و كانت سابقا من مستعمرات الإنكليز ثم استقلت سنة ١٧٨٩ أوائل القرن الثالث عشر هجرى، و هاته فى أسماء الحكومات المركبة منها العصبه، و هى: نيوهامشير و مساشوست و رد إيسلند و كنتيكتوت و نيويورك و نيوجرسى و فنسلوانيا و دلاوار و ميريلاند

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ١٣٨

و رجينيا و كرويلينا الشمالية و كرويلينا الجنوبية و جاورجيا و ماين و فرمونت و مشيغان و أوهيو و أنديانا و الينوى و كنتوكى و تينيسى و الأبالما و فلوريدا و مسسى و لوسيانا و وسكونسن و أيووا و مسورى و أركانساس و كانساس و نبراسكا و أرجون و منيسونا و تكساس و كليفورنيا و واشنطنون.

و هاته الأقسام تكونت شيئا فشيئا و أول ما تم منها الثلاثة عشر الأولى فاستقلت كما تقدم ثم مهما أتم قسم شروط العمران و الدخول فى العصبه قبل، و لهذا بقيت بعض أقسام إلى الآن تتم فى استعدادها لكى تدخل فى العصبه.

و سكان هاته الممالك من الغرباء و أطرودوا السكان الأصليين إلى شمالى القارة، و الأصيلون يسمون بالهنود لشبههم بهم فى اللون و الخلقه و قد تهذب منهم أفواج و لازل أغلبهم على التوحش يسكنون مع الوحوش، أما الغرباء فقد بلغوا الغاية فى التمدن و الحرّية، فمن حريتهم أن ولى رئيس الجمهورية عندهم رجل صناعته الأحذية حيث كان مستكملا لشروط الإنسانية و وقع عليه الإنتخاب و ذلك فى عشرة الثمانين و مائتين و ألف، كما تقدموا فى فنون المعارف الرياضية و السياسية و اخترعوا أشياء عجيبة من الكهرباء و البخار، فأول ما عرف استعمال البلون أى القبة الهوائية للإطلاع على أحوال العدو فى الحرب فى هاته المملكة عند ما كانت الحرب

مستعرة بين الحكومات على أحوال العدو في الحرب في هاته المملكة عندما كانت الحرب مستعرة بين الحكومات الشمالية من الدولة المذكورة و الحكومات الجنوبية منها التي نشأت بسبب منع العبودية فإن الجنوبيين أصروا على إبقاء ملك العبيد و بقيت الحرب بينهم عدة سنين و ذلك في عشرة الثمانين من القرن الثالث عشر من الهجرة. فمن الإختراعات في ذلك الحرب أن أصعدوا ركابا في قبة الهواء مستصحين بأسلاك كهربائية ليخبروا مراكز الجيش بأحوال جيوش العدو المستتر وراء جبال أوروبا، و من ثمرات قوة الاجتماع التي ظهرت عندهم الطريق الحديدية التي وصلت بها شطوط المحيط الشرقي بشطوط المحيط الغربي و كان يوم تمامها يوما مشهودا فاحتفلت له جميع البلاد، و آخر مسمار انتهت به صناعة الطريق صنع من ذهب و دق بمطرقة من فضة و ربطت به عند آخر دقة أسلاك الكهرباء إلى جميع البلاد فعند آخر دقة على المسمار حصل العلم لجميعهم بذلك في آن واحد، و لهم ثروة عظيمة بالمعادن جميعا سيما معدن الذهب في كليفورنيا الذي ينحت منه الذهب صخرًا عظيمة، و هكذا الصنائع و التجارة مع الأمن العظيم و الإطمئنان التام و قد استمكت هاته الدولة بالشراء من روسيا أملاكها جهة الشطوط الشمالية من جهة غربي القارة.

الفصل الخامس و السبعون في بقية ممالك أمريكا الشمالية.

فأولها: مستعمرات الإنكليز، ففي القسم الشمالي حادا للممالك السابقة الأملاك صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ١٣٩ الإنكليزية، و هي يجرى فيها الحكم الإنكليزي بنوع امتياز. و ثانيها: ما يلي ما ذكر شرقا، و هو قسم المتوحشين الأصليين و بقية الأقسام المريدة للدخول في العصبه السابقة.

الفصل السادس و السبعون و ثالثها: مكسكو،

و هي تلي البلاد المتحدة جنوبا، و استقلت أواسط هذا القرن من تسلط إسبانيا عليها و لكنها لم تنزل متأخرة في جميع أنواع العمران حتى الأمن لاختلاف سكانها، و حكمها الآن جمهوري و عند اكتشاف الإسبنيول عليها وجد فيها أمما فيهم بقايا التمدن و لهم ملك و الموجود فيها من آثار المدن يدل على تقدم أهلها و قوتهم قديما و عدد سكانها نحو تسعة ملايين و قاعدتها مكسيكو.

الفصل السابع و السبعون و رابعها: أمريكا الوسطى،

و هي تلي السابقة جنوبا و حكمها جمهوري و هي أقرب إلى الخراب لتعاضم الفتنة بين أهلها و استقلت أيضا عن إسبانيا في أواسط هذا القرن.

الفصل الثامن و السبعون و خامسها: الجزائر الكثيرة المتفرقة،

و هي تابعة إما تماما أو تحت الحماية لدول متفرقة من أوروبا كإنكلتره و إسبانيا و فرنسا و هولاندا و الدانيمرك و السويد، كما أن لهؤلاء الدول أملاك في القارة الجنوبية و أكثرهم تملكا إسبانيا و إنكلتره، و حقيقة عدد السكان مجهولة لكثرة التوحش و عدم الفائدة الكبرى للدول بتهديبهم، و قد جربوا أن كل من تمدن هناك حاز الإستقلال بإدارة نفسه مع أن عدد السكان قليل في نفسه، ثم إن

بقية القارة الجنوبية تشمل على دول شتى.

الفصل التاسع و السبعون فالدولة السادسة: كلومبيا

المنقسمة إلى ثلاثة أقسام كل منها مستقل تحت الحكم الجمهورى، و عدد جميعهم نحو ثلاثة ملايين و هم على حالة التأخر، و موقعها من مبدأ البرزخ الموصل بين القارة الجنوبية و الشمالية يقسمها خط الإستواء متصله بالشاطيء الغربى و الشمالى و الشرقى.

الفصل الثمانون و السابعة: دولة بيرو

و سكانها نحو مليون و نصف، و حكمها جمهورى و موقعها على الشاطيء الغربى جنوبى المملكة السابقة.

الفصل الحادى و الثمانون ثم يليها شرقا [و] تمتد إلى الشطوط الشرقىة و على جميع دواخل القارة، الدولة الثامنة: و هى برازيل

صفحة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ١٤٠

و سكانها نحو ستة ملايين و نصف و حكمها ملكى مقيد بالقوانين، و يوجد فيها عدة آلاف من المسلمين أصلهم من سودان أفريقية و لكنهم لا يعلمون إلا كليات الديانة على سبيل الإجمال، كما يستفاد ذلك من رحلة عبد الرحمن بن عبد الله البغدادى الذى كان إماما فى بعض السفن المدرعة العثمانية، و سافرت إلى البصرة على طريق البحر المحيط الغربى على بغاز طارق و صادفتهم زوابع اضطرتهم عن غير قصد إلى شطوط برازيل، و لما خرجوا إلى التفسح فى البرّ أقبل عليهم أقوام مسلمون و طلبوا إبقاء الإمام عندهم لتعليم الديانة فبقى هناك مدة، و ألف رحلته المختصرة المترجمة إلى التركى المسماة «مسليّة الغريب» و كان سفره سنة ١٢٨٢ هـ و لا يبعد أن يكون فى جميع أمريكا أمم كثيرة من المسلمين و لا يجدون من يهديهم و لا حول و لا قوة إلا بالله.

الفصل الثانى و الثمانون و بين بيرو و برازيل الدولة التاسعة:

و هى بوليفيا سكانها لا يبلغون نصف مليون و حكمهم جمهورى.

الفصل الثالث و الثمانون و الدولة العاشرة: هى الشيلى

سكانها نحو مليون و ربع و حكمها جمهورى و موقعها على بقية الشطوط الغربية إلى نهاية القارة فى الجنوب.

الفصل الرابع و الثمانون و الدولة الحادية عشرة: دولة سيونس أيرس،

و يقال لها لابلاتا و هى وسط القارة الجنوبية تحدّها شيلى من الغرب و المحيط الشرقى و برازيل من الشرق، و سكانها مجهولوا العدد و حكمها جمهورى.

الفصل الخامس و الثمانون الدولة الثانية عشرة: أوروکواي،

هي جنوب برازيل سكانها نحو مائة و خمسين ألفا تحت الحكم الجمهوري المستقل و هي على الشاطيء الشرقى الجنوبى.

الفصل السادس و الثمانون و الدولة الثالثة عشرة: هي بقية أمريكا الجنوبية المعروفة بناكونى،

و أهلها من الأصليين هناك طوال شداد متوحشون، يقال تقريبا عددهم مائة و خمسون ألفا فى تلك الأراضى الواسعة، و موقعها على الشاطيء الشرقى فى نهاية القارة جنوبا و غربها الشيلى، و الحاصل أن غير الدولة المتحدة لم يكن فى أمريكا من الدول ما يعتبر إذ أغلب الأقسام المذكورة و لئن كانت تحت أحكام منتظمة لكنها لم يتسع فيها نطاق المعارف و التقدم و أهتتم الحروب الأهلية عما يصلح شأنهم، سيما و أغلبهم حديثوا عهد بالعتق من تسلط

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ١٤١

الدول الأوروبوية عليهم الذين كانوا يجرون فيهم الحكم الإستبدادى الظالم، و أما أقلهم فإنهم من الأهالى الأصليين الذين: إما أنهم تناسوا التمدن أو لم يعرف فيهم و لم يحسن الغرباء معاشرتهم و إنما عاملوهم معاملة الوحوش و أطردهم أو أفنوهم من ديارهم فبقوا على الجهل و التوحش، و فى بعض الأماكن لا تساعدهم طبيعة الإقليم على شىء، فقد ذكروا أن فى الجهات الضاربة لأقصى الشمال قوم ينحتون من الجليد بيوتا و يجعلون لها مضاوى نحتا و يسدون بها بطبقات من الجليد الصفيق ليمنع مرور الهواء و لا يمنع الضوء، و يبقون فى تلك الدهاليز ليالى الشتاء الطويلة التى هى أغلب أيام السنة عندهم و يكتسون بجلد عجل البحر و يأكلون لحمه و يوقدون عظمه، و من أغرب ما يحكى عنهم أنهم يطبخون اللحم المذكور فى قدور من الخشب، و صورة طبخهم أنهم يتخذون من بعض الأشجار التى تنبت فى الأرض الجليدية قدورا يضعون فيها تجوف منها اللحم و يصبون عليه الماء ثم يأخذون الحجارة و يحمونها فى النار إلى أن تصير حامية جدا فيلقونها فى القدر فتطفأ و يسخن الماء بحرارتها ثم غيرها و غيرها إلى أن يصل الطبخ إلى الإعتدال الذى اعتادوه، و ربك يخلق ما يشاء و يختار و هو القادر الفعال.

القسم الخامس من الأرض أستراليا

إشارة

هى مجموع جزائر جهة الجنوب من المحيط الشرقى قبالة الهند، و الظن أنها كانت متصلة بشبه جزيرة سمطرا قديما و فصلتها زلازل هائلة قديما كما يتبين من النظر إلى الخريطة، و يدعى أن أعظمها اكتشف منذ أقل من مائة سنة، و الحال أن بها سكانا نحو مليونين من البشر و فى لونهم السودانى أشكال من جهة التعليل بأن سواد اللون من كثرة الحرّ تحت خط الإستواء مع أن عرض أعظم جزيرة هناك يبتدىء من عرض خمسة و ثلاثين جنوبيا و ذلك العرض من المناطق المعتدلة، مع أن الأهالى الأصليين سود و كلهم متوحشون و إنما يفترقون فى شدة التوحش و ضعفه، و قد أخذت بعض الجهات فى التمدن شيئا ما، و كل هاته الجزائر تحت تسلط دول أوروبا و أغلبها تملكا الدولة الإنكليزية، و قد جعلت أستراليا منفى لأصحاب الجرائم العظيمة، فبالغرب و الحكم المشدد هناك تهذبوا و تقدموا شيئا فشيئا إلى أن أنكروا على الدولة الإنكليزية نفى المجرمين إليهم لأنهم ليسوا بأهل لمعاشرتهم، ثم أخذوا استقلال إدارتهم برضاء الدولة الإنكليزية و لا زالوا تحت حمايتها.

و بقية دواخل الجزر مجهولة إلى الآن و هكذا جهة القطب الجنوبي، و اكتشف النوتية منذ أربعين سنة على أرض في تلك الجهات واسعة و لم يروا فيها سكانا، و إلى الآن لم يزل البحث على ما فيها و ما ورائها، و كذلك سنة ١٢٩١ هـ اكتشف نوتية من النمسا أرسلتهم دولتهم للاكتشاف على أحوال القطب الشمالي في باخرة تامة التجهيز فرجعوا بعد عامين بعد أن خلصتهم باخرة روسية عندما كادوا أن يهلكوا لانكسار باخرتهم بالجليد و رجوعهم في قوارب صغيرة، فأخبروا باكتشافهم لأرض واسعة في درجة ثلاثة و ثمانين و أنهم لما

صفحة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ١٤٢

انتهوا إلى رأس فيها سموه رأس أوستريا وجدوا بحرا جهة الشمال مائعا عليه يسير من الجمد لا يتحمل حمل المراكب الجليدية و حدس بذلك علماء هذا الفن على أن الحرارة من الكهرباء جهة القطب يمكن معها الحياة و السكنى أزيد من المناطق المتجمدة، و هو يؤيد ما قلناه في بحث السد عند الكلام على الصين و الله أعلم بما خلق و ذرأ و هو الحكيم الخبير.

الفصل السابع و الثمانون و حيث قد تبين في هذا الباب إجمال حالات الممالك

إشارة

و ما هي عليه من الأحكام و الأمن، ناسب أن نذكر هنا خلاصة في أسماء الممالك و قواعد بلدانها و عدد سكانها و كمية عساكرها و عدد سفنها الحربية و مقدار دخل حكومتها و مقدار خرجها، و كذلك قيمة السلع الداخلة و الخارجة بمتجر تلك المملكة، و كم على حكومتها من الدين و كمية ما مد من طرق الحديد فيها لتبين بذلك قوة الممالك و مراتبها في الإعتبار، و هاتيك التفاصيل جمعناها من عدة مواد و تقويمات كلها في سنين متقاربة، من سنة ١٢٨٨ إلى سنة ١٢٩٧ هـ بحيث لا تتجاوز العشر سنين، و إنما نبهنا على هذا لأن الأعداد المذكورة في الأغلب يتغير بعضها بطول السنين، لكنها في الأغلب لا تتغير في أقل من عشر سنين إلا بأمور جزئية، إلا أن يطرأ على مملكة من الممالك حادث غير اعتيادي بحرب هائلة أو غيرها، كما أنا لم نعتبر فيما نقلناه الأعداد القليلة بالنسبة إلى ما يقتضيه كل نوع من الأنواع المذكورة لعدم الجدوى فيه بالنسبة لما نحن بصدده، سيما و كثير من تلك الأنواع هو من أصله غير محرر بالتدقيق إلا في بعض مواد في بعض الممالك.

صفحة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ١٤٣

جدول الإحصاءات

/ التجارة/ سكك الحديد/ الديون/ الخرج

الديانة/ فرنك/ أميال/ فرنك/ فرنك

إسلام/ ٣٦٨، ٠٠٠، ٠٠٠ / ٥٠٠٠، ٠٠٠، ٠٠٠ / ١٣٨٦ / ٥٠٠، ٠٠٠، ٠٠٠

إسلام/ ٢٠٩، ٠٠٠، ٠٠٠ / ٢، ٠٠٠، ٠٠٠، ٠٠٠ / ١٢٠٥ / ٥٠٠، ٠٠٠، ٠٠٠

إسلام/ ١٤، ٠٠٠، ٠٠٠ / ١٢٧، ٠٠٠، ٠٠٠ / ٢٠٠ / ٤٠، ٠٠٠، ٠٠٠

إسلام/ م / لا / ٤٠، ٠٠٠، ٠٠٠ م

إسلام/ م / لا / لا / ٥٤٥٠٠، ٠٠٠

إسلام/ م / لا / لا / م

إسلام/ م / لا / لا / م

إسلام/م/لا/لا/م

إسلام/م/لا/لا/م

إسلام/م/لا/لا/م

إسلام/م/لا/لا/م

إسلام/م/لا/لا/م

إسلام/م/لا/لا/م

إسلام/م/لا/لا/م

إسلام/م/لا/لا/م

إسلام/م/لا/لا/م

إسلام/٣٥٠،٠٠٠/٢١/لا/لا/١،٧٥٠،٠٠٠

إسلام/م/لا/لا/م

إسلام/م/لا/لا/م

إسلام/م/لا/لا/م

إسلام/م/لا/لا/م

إسلام/م/لا/لا/م

إسلام/م/لا/لا/م

صفحة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ١٤٤

السكان

الدخل / السفن / العساكر / عدد النفوس //

فرنك / حربية / وقت الحرب / مليون / التخوت / الدول

٣٦٨،٠٠٠ / ٧٨ / ٦٠٠،٠٠٠ / ٦٠٠،٠٠٠ / ٢٢،٠٠٠ / القسطنطينية / العثمانية

٢١٦،٠٠٠ / ١٣ / ٦٠،٠٠٠ / ١٦،٠٠٠ / مصر / تابع لها

١٤،٠٠٠ / ٢ / ٣٠،٠٠٠ / ١،٥٠٠ / تونس / تونس مثلها

م / لا / م / ٧،٠٠٠ / فاس / الغرب

٦٢،٠٠٠ / لا / ٦٠،٠٠٠ / ٥،٠٠٠ / طهران / الفرس

م / لا / م / ٢٠٠،٠٠٠ / ٦،٠٠٠ / كابل / أفغانستان

م / لا / م / ٢،٠٠٠،٠٠٠ / كيلات / بلوچستان

م / م / م / ٧٥٠،٠٠٠ / براك / ملقا

م / لا / م / ٢،٠٠٠،٠٠٠ / هرات / هرات

م / لا / م / ٢،٠٠٠،٠٠٠ / خوقند / خوقند

م / لا / م / ٢،٥٠٠،٠٠٠ / مرو / التركمان

م / م / م / ٢،٠٠٠،٠٠٠ / مسقط / مسقط

م/لا/م / ٢،٠٠٠،٠٠٠ / رياض / رياض و غيرها
 م/لا/م / ٢،٠٠٠،٠٠٠ // عرب الجزيرة
 م/لا/م / ٢٠،٠٠٠ / ١٠٠٠ / كشمير / كشمير
 م/م/م / ٣،٠٠٠،٠٠٠ / أجسين / أنشين صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار؛ ج ١؛ ص ١٤٤
 م/م/م / ١،٧٥٠،٠٠٠ / م/م / ٢،٠٠٠،٠٠٠ / زنجبار / الزنجبار
 م/لا/م / ٢٠٠،٠٠٠ / ٨،٠٠٠،٠٠٠ / كوكوا / برنو
 م/لا/م / ٤،٥٠٠،٠٠٠ / وره / واداي و توابعها
 م/لا/م / ٦،٠٠٠،٠٠٠ / ساكاتو / فلاتا
 م/لا/م / ٤،٠٠٠،٠٠٠ / سان سان / تنبكتو و توابعها
 م/م/م / ٨،٠٠٠،٠٠٠ / هرر / عادل و جوارها
 م/لا/م / ٢،٠٠٠،٠٠٠ / كنبرا و غيرها / الصحراء الغربية
 صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ١٤٥

إسلام/م/لا/لا/م

إسلام/م/لا/لا/م

نصرانية/م/لا/لا/م

مشركون/م/لا/لا/م

مشركون/م/لا/لا/م

مشركون/م/لا/لا/م

مشركون/م/لا/لا/م

مشركون/م/م/لا/لا/م / ٨٠٠،٠٠٠،٠٠٠ / ١

مشركون/م/م/م/لا/لا/م / ٧٠٠،٠٠٠،٠٠٠ / ١٩٠،٠٠٠،٠٠٠

مشركون/م/لا/لا/م

مشركون/م/لا/لا/م

نصرانية/م/لا/لا/م / ٢٠٠،٠٠٠،٠٠٠

نصرانية/ ٦٥٤،٠٠٠،٠٠٠ / ١ / ١٢ / ٣٠٠،٠٠٠،٠٠٠ / ٢٦،٠٠٠،٠٠٠

نصرانية/ ٨٣٥،٠٠٠،٠٠٠ / ٢ / ٩،٠٠٠،٠٠٠ / ١٠،٠٠٠،٠٠٠ / ٣٨٤،٠٠٠،٠٠٠ / ١

نصرانية/م/ ٥،٠٠٠،٠٠٠ / ٧٠٠،٠٠٠،٠٠٠ / ٦٢٤،٠٠٠،٠٠٠

نصرانية/م/ ٠٨٠٠،٠٠٠،٠٠٠ / ٢٠٠٠،٠٠٠،٠٠٠ / ١٣٠،٠٠٠،٠٠٠

نصرانية/ ٨،٠٠٠،٠٠٠،٠٠٠ / ٢٥،٠٠٠،٠٠٠،٠٠٠ / ٢٤،٢٩٣،٠٠٠،٠٠٠ / ٣٦٦٧،٠٠٠،٠٠٠

نصرانية/م/ ٢،٠٠٠،٠٠٠ / ٢٥،٠٠٠،٠٠٠ / ٣٧،٠٠٠،٠٠٠

نصرانية/ ٤،٠٠٠،٠٠٠،٠٠٠ / ٢،٤٠٠،٠٠٠،٠٠٠ / ١،٠٦٠،٠٠٠،٠٠٠ / ٣٠٠،٠٠٠،٠٠٠

نصرانية/ ٣،٠٠٠،٠٠٠،٠٠٠ / ١٦،٠٠٠،٠٠٠،٠٠٠ / ٨،٥٠٠،٠٠٠،٠٠٠ / ١،٥٩٠،٠٠٠،٠٠٠

نصرانية/ ٨٠،٠٠٠،٠٠٠ / لا/ ٣٠٠،٠٠٠،٠٠٠ / ١٤،٠٠٠،٠٠٠

- نصرانية/ ١٠٠،٠٠٠،٠٠٠ / ٢٦٢،٠٠٠ / ٢،٠٠٠،٠٠٠ / ٣٥،٠٠٠،٠٠٠ / ١٠٠،٠٠٠،٠٠٠
- نصرانية/ ١،٨٠٠،٠٠٠،٠٠٠ / ١٩،٤٨٠،٠٠٠،٠٠٠ / ٢٧،٠٠٠،٠٠٠ / ١٦،٠٠٠،٠٠٠،٠٠٠
- مختلطة/ ١،٢٠٠،٠٠٠،٠٠٠ / ٢،٨٠٠،٠٠٠،٠٠٠ / ١١،٠٠٠،٠٠٠ / ٣،٠٠٠،٠٠٠،٠٠٠
- مختلطة/ تابع // تابع / تابع
- نصرانية/ ٢٢٠،٠٠٠،٠٠٠ / ٢،١٥٠،٠٠٠،٠٠٠ / ١،٠٠٨ / ٢ / ٥٠٠،٠٠٠،٠٠٠
- صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ١٤٦
- م/لا/م / ٤،٠٠٠،٠٠٠ / أدلى و غيرها/ التورك
- م/لا/م / ١،٠٠٠،٠٠٠ // صحراء تيبوس
- م/م/م / ٥،٠٠٠،٠٠٠ / ٥،٠٠٠،٠٠٠ / أدواح/ الحبشة
- م/لا/م / ٣،٥٠٠،٠٠٠،٠٠٠ / مندلاى/ بورما
- م/م/م / ٤٠،٠٠٠،٠٠٠ / ٥٠٠،٠٠٠،٠٠٠ / ٦ / بان جوش/ سيام
- م/م/م / ٩،٠٠٠،٠٠٠ / نوشواشين/ كوشين الصين
- م/م/م / ١،٠٠٠،٠٠٠ / بنوم بنه/ كمبوديا
- ١،٨٠٠،٠٠٠،٠٠٠ / ١ / ٣٧،٠٠٠،٠٠٠ / ٥،٠٠٠،٠٠٠ / ٥٣٧ / باكين / الصين
- ١،٢٩٠،٠٠٠،٠٠٠ / ١٣ / ٢٣٠،٠٠٠،٠٠٠ / ٥٠،٠٠٠،٠٠٠ / ٣٣ / جدو/ الجابون
- م/لا/م / ٢٥٠٠،٠٠٠ // نيبول
- م/لا/م / ١،٠٠٠،٠٠٠ // بوتان
- ١٥٠،٠٠٠،٠٠٠ / م / ١٥،٠٠٠،٠٠٠ / ٣٠٠،٠٠٠،٠٠٠ / حنين / الجبل الأسود
- ٣٦،٠٠٠،٠٠٠ / ٣٠ / ١٠٠،٠٠٠،٠٠٠ / ٢،٠٠٠،٠٠٠ / ٢ / أتنه / اليونان
- ٢٩٠،٠٠٠،٠٠٠ / ٨٧ / ٨٢٩٨٢٧ / ٢٧،٠٠٠،٠٠٠ / روميه / إيطاليا
- ١٨٢ / ٥٨٨ / ٢١٦،٠٠٠،٠٠٠ / ٢٦،٠٠٠،٠٠٠ / مدريد / إسبانيا و ملحقاتها
- ١٣٠،٠٠٠،٠٠٠ / ٥٠،٠٠٠،٠٠٠ / ٧٠،٠٠٠،٠٠٠ / ٨ / لزبون / البرتغال و ملحقاتها
- ٦٦٧،٠٠٠،٠٠٠ / ٢ / ١٥٤ / ١٦٤ / ٤٢٣ / ٢ / ٤١،٠٠٠،٠٠٠ / باريس / فرنسا و ملحقاتها
- ٣٧،٠٠٠،٠٠٠ / لا / ٢٠٠،٠٠٠،٠٠٠ / ٥٠٠،٠٠٠،٠٠٠ / ٢ / بارى / سفيسرة
- ٣٠٠،٠٠٠،٠٠٠ / م / ٢٠٠،٠٠٠،٠٠٠ / ٥٠،٠٠٠،٠٠٠ / بروكسل / بلجيكا
- ١٥٨،٧٥٠،٠٠٠ / ٧٠ / ١،٠٩٤،٠٠٠،٠٠٠ / ٣٨،٥٠٠،٠٠٠،٠٠٠ / فيينا / النمسا و تابعها
- ١٤،٠٠٠،٠٠٠ / لا / ٢٢٥،٠٠٠،٠٠٠ / ٢،٠٠٠،٠٠٠،٠٠٠ / بلغراد / الصرب
- ١٠٠،٠٠٠،٠٠٠ / م / ١٤٠،٠٠٠،٠٠٠ / ٥،٠٠٠،٠٠٠،٠٠٠ / بخارست / الرومانية
- ٨٠٠،٠٠٠،٠٠٠ / ١ / ٣٨٣ / ٢٣٥ / ٥٤١ / ٣٠،٠٠٠،٠٠٠،٠٠٠ / لوندريه / انكلترا
- ٣٠٠،٠٠٠،٠٠٠ / لا / ١ / ٤٩١،٠٠٠،٠٠٠ / ١٧٥،٠٠٠،٠٠٠،٠٠٠ / كلكوتة / الهند التابع لها
- تابع/لا// ١٥،٠٠٠،٠٠٠ // بقية مستعمراتها
- ٢٢٠،٠٠٠،٠٠٠ / ١١٨ / ١٤٠،٠٠٠،٠٠٠ / ٢٣،٨٠٠،٠٠٠،٠٠٠ / هاك / هلانده و توابعها
- صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ١٤٧

نصرانية/ ١٠٠٠، ١٠٠٠، ١٠٠٠ / ٢، ١٠٠٠ / ٢٥، ١٠٠٠، ١٠٠٠ / ٣، ٥٠٠، ١٠٠٠، ١٠٠٠ / ١، ٢٠٠، ١٠٠٠، ١٠٠٠

نصرانية/ ١٠٠٠، ١٠٠٠، ١٠٠٠ / ١، ١٠٠، ١٠٠٠ / ١، ٧٧٠، ١٠٠٠ / ١، ٢١٢، ١٠٠٠، ١٠٠٠ / ٢٣، ١٠٠٠، ١٠٠٠

نصرانية/ ١٠٠٠، ١٠٠٠، ١٠٠٠ / ٣٠٠، ١٠٠٠، ١٠٠٠ / ٥٤٠، ١٠٠٠ / ٣٠٠، ١٠٠٠، ١٠٠٠ / ٦٣، ١٠٠٠، ١٠٠٠

نصرانية/ ١٠٠٠، ١٠٠٠، ١٠٠٠ / ٣٠٠، ١٠٠٠، ١٠٠٠ / ٩، ١٠٠٠، ١٠٠٠ / ٩، ٥٠٠، ١٠٠٠، ١٠٠٠ / ٢، ١٠٠٠، ١٠٠٠، ١٠٠٠

مختلطة/ م/ لا/ لا/ م

مختلطة/ م/ لا/ لا/ م

مختلطة/ م/ لا/ لا/ م

نصرانية/ م/ لا/ لا/ م

مختلطة/ م/ لا/ لا/ م

مختلطة/ م/ لا/ لا/ م

مختلطة/ م/ لا/ لا/ م

مختلطة/ م/ لا/ لا/ م

مختلطة/ م/ لا/ لا/ م

مختلطة/ م/ لا/ لا/ م

مختلطة/ م/ لا/ لا/ م

نصرانية/ ١٠٠٠، ١٠٠٠، ١٠٠٠ / ٦، ١٠٠٠، ١٠٠٠ / ٧٤، ١٠٠٠، ١٠٠٠ / ١، ١٠٠٠، ١٠٠٠، ١٠٠٠ / ١٧٥، ١٠٠٠، ١٠٠٠

نصرانية/ م/ ١٠٠٠، ١٠٠٠، ١٠٠٠ / ٥٧٠، ١٠٠٠، ١٠٠٠ / ١، ١٠٠٠، ١٠٠٠ / ١٢٥، ١٠٠٠، ١٠٠٠

نصرانية/ ١٠٠٠، ١٠٠٠، ١٠٠٠ / ٣٨، لا/ م / ٨، ١٠٠٠، ١٠٠٠

نصرانية/ م/ لا/ م

نصرانية/ ١٠٠٠، ١٠٠٠، ١٠٠٠ / ٤٠٠، ١٠٠٠، ١٠٠٠ / ٣، ٧٠٠، ١٠٠٠ / ١، ١٠٠، ١٠٠٠، ١٠٠٠ / ٣٠٠، ١٠٠٠، ١٠٠٠

نصرانية/ ١٠٠٠، ١٠٠٠، ١٠٠٠ / ١٠٠٠، ١٠٠٠، ١٠٠٠ / ٢٠٠، ١٠٠٠، ١٠٠٠ / ١، ٨٠٠، ١٠٠٠، ١٠٠٠ / ٢٨١، ١٠٠٠، ١٠٠٠

نصرانية/ م/ م/ م

نصرانية/ م/ ١٠٠٠، ١٠٠٠، ١٠٠٠ / ٣٠٠، ١٠٠٠، ١٠٠٠ / ٨٥، ١٠٠٠، ١٠٠٠

نصرانية/ م/ م/ م

نصرانية/ ١٠٠٠، ١٠٠٠، ١٠٠٠ / ٢٠٠، ١٠٠٠، ١٠٠٠ / م/ م/ م

نصرانية/ ١٠٠٠، ١٠٠٠، ١٠٠٠ / ٥٢٥، ١٠٠٠، ١٠٠٠ / ٢، ١٠٠٠، ١٠٠٠ / ٤٠٠، ١٠٠٠، ١٠٠٠ / ١١٥، ١٠٠٠، ١٠٠٠

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ١٤٨

١٠٠٠، ١٠٠٠، ١٠٠٠ / ٣٢١، ١٠٠٠، ١٠٠٠ / ١، ٧٢ / ١، ٥٠٠، ١٠٠٠ / ١، ٥٠٠، ١٠٠٠ / ٤١، ١٠٠٠، ١٠٠٠ / برلين/ المانيا

١٠٠٠، ١٠٠٠، ١٠٠٠ / ١٣٦ / ١٢٨ / ١٤٠، ١٠٠٠، ١٠٠٠ / ٥، ٥٠٠، ١٠٠٠ / استكهولم/ السويد و النرويج

١٠٠٠، ١٠٠٠، ١٠٠٠ / ٣٧ / ٧٠، ١٠٠٠ / ٤١، ١٠٠٠، ١٠٠٠ / ٨٠٠، ١٠٠٠، ١٠٠٠ / كوبنهاغ/ الدانيمرك

١٠٠٠، ١٠٠٠، ١٠٠٠ / ٢، ٢٥٥ / ١، ٥٠٠، ١٠٠٠ / ٨٢، ١٠٠٠، ١٠٠٠ / سان بترسبورغ/ روسيا

م/ لا/ م/ م/ أسفار/ بالس و ما جاورها

م/ لا/ م/ م/ كوران كوكا/ تيماني

م/لا/م // م/م	كرومان
م/لا/م / م/٥٠٠، ٠٠٠	برنوفيا/ ليبريا
م/لا/م / م//م	فانكي و ما معها
م/لا/٢٠، ٠٠٠ / ٨٠٠، ٠٠٠	أنوميخ/ داهوميه
م/لا/م / م//م	أكياس و ما معها
م/لا/م / م//م	أورنج و ما جاورها
م/لا/م / م/م	كرومان/ بادجوان
م/لا/م / م//م	المجهول من أفريقيا
م/لا/م / م//م	٥، ٠٠٠، ٠٠٠ / تناناريفو/ مادغسكار
٠٠٠، ٠٠٠، ٠٠٠ / ٢، ١٧٨ / ٢، ٠٠٠، ٠٠٠	٤٢، ٠٠٠، ٠٠٠ / واشنطن/ أمريكا المتحدة
٠٠٠، ٠٠٠، ٠٠٠ / ٩، ١٢٥ / ٩، ٤٠٠، ٠٠٠	٩، ١٣٤، ٠٠٠ / مكسيكو/ المكسيك
٠٠٠، ٠٠٠، ٠٠٠ / ٨، ٠٠٠ / م/٢	٢، ٥٨٠، ٠٠٠ / لسكوني مالا/ أمريكا الوسطى
م/م/م / م//م	٣، ٠٠٠، ٠٠٠ / سانتني ديوكوتا/ كلمبوي
٠٠٠، ٠٠٠، ٠٠٠ / ٣٥، ٣٠٠ / ٣٠، ٠٠٠، ٥٠٠	١، ٥٠٠، ٠٠٠ / ليما/ بتره
٠٠٠، ٠٠٠، ٠٠٠ / ٨٧، ٢٨١ / ٢٤١، ٦١١ / ٦، ٥٠٠، ٠٠٠	٦، ٥٠٠، ٠٠٠ / ريبودوخسرو/ برازيل
م/لا/م / م//م	٢، ٥٠٠، ٠٠٠ / شو كيزك/ بوليفيا
٠٠٠، ٠٠٠، ٠٠٠ / ٨٥، ٠٠٠ / م/م	٢، ٢٥٠، ٠٠٠ / سانتياكو/ الشيلي
م/م/م / م//م	٢٥٠، ٠٠٠ / لنسبون/ اروكواي
م/م/م / م//م	٢٥٠، ٠٠٠ / متيفيتيو/ تاكونيا
٠٠٠، ٠٠٠، ٠٠٠ / ١١٥، ٠٠٠ / م/م	١، ٨٧٧، ٤٩٠ / وينوس اير/ أرجانتى
صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ١٤٩	

ملاحظات

كل ما هنا اعتبار لما هو واقع في سنة ١٢٩٧ هـ

٠٠٠، ٢٥٠، ١١٦ عدد نفوس المسلمين المستقلين بأحكامهم

يضم عليهم عدد نفوس المسلمين الداخلين تحت أحكام غيرهم

٠٠٠، ٠٠٠، ٦٠ في الصين

٠٠٠، ٠٠٠، ٤٠ في الهند

٠٠٠، ٠٠٠، ٨ في روسيا

٠٠٠، ٠٠٠، ٣ في فرنسا

٠٠٠، ٠٠٠، ١٠ في بقية الممالك

٠٠٠، ٠٠٠، ١٢١

٠٠٠، ٠٠٠، ١٢١

٢٣٧، ٢٥٠، ٠٠٠

٤٩٠، ٧٤١، ٣٩٧ عدد نفوس النصارى

٣٠٠، ٧٨٩ عدد نفوس الباقي من المشركين و غيرهم

٤٩٠، ٢٩١، ٤٢٤، ١

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ١٥٠

المقصد الأول**الباب الأول فى سبب سفرى****اشارة**

فصل: قد عرض للعبد الحقير السفر إلى أوروبا ثلاث مرار إلى هذا التاريخ و هو سنة ١٢٩٧ هـ، فأما فى مرتين و هما الأوليتان فكان السفر لأجل التداوى فقط على ما سيأتى بيانه، و أما المرة الثالثة فكانت لما ذكر أيضا و لأشغال سياسية أوعز إليّ بها الوزير، ثم عند رجوعى من هاته الثالثة نقض المذكور غزله و حملنى على مفارقة الوطن حفظا لما يوجب الله على حفظه، فوجهت القصد إلى أداء الحج المفروض و التشرف بزيارة أعظم الرسل - عليه أفضل الصلاة و أزكى السلام و على آله الكرام و خلفائه الأعلام و أصحابه الفخام رضوان الله تعالى عليهم أجمعين - ثم استقررت بالقسطنطينية العظمى ثم سافرت إلى أوروبا رابعا سنة ١٢٩٨ هـ، و عدت إلى الأستانة و سنفرد كل مملكة شاهدتها بباب خاص نذكر فيه أحوالها و ما شاهدته فيها، كما أنى أبين فى هذا الباب المرض الذى حملنى على السفر و ما قيل فى التداوى شرعا و ما عولجت به، و حيث كان لأصل الشأء و الإقليم دخل عظيم فى العلاج كما قرره الأطباء المتقدمون و المتأخرون، لزم أن نذكر طرفا من حال نشأتى و نفرد كل قسم من هاته الأمور بفصل خاص، و الله المستعان.

فصل فى نشأتى

اعلم أن نهاية ما نعلم من نسبى هو ما يذكر و هو: أننى محمد بن مصطفى بن محمد الثالث ابن محمد الثانى ابن محمد الأول ابن حسين بن أحمد بن محمد بن حسين بن بيرم و هذا الجد الأعلى قدم إلى تونس عند قدوم سنان باشا وزير الدولة العلية مع العساكر العثمانية لفتح تونس من يد الإسبنيول سنة إحدى و ثمانين و تسعمائة، ثم أقام بها و تزوج بابنة ابن الأبار أحد وزراء الأندلس و علمائها، صاحب القصيدة التى يستغث بها على لسان

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ١٥١

صاحب الأندلس سلطان المغرب للأندلس عند قدومه عليه سفيرا عن مخدومه، و مطلعها:

أدرك بخيلك خيل الله أندلسا إن السبيل إلى منجاتها درسا

ثم تناسل نسله إلى حسين الأخير منخرطين فى سلك الوظائف العسكرية أو الملكية مع التحلى بالآداب العلمية، فتزوج حسين هذا إبنة طاهرة من ذرية المولى الشريف سيدى حسن الشريف الهندى الشهير رضى الله عنه و بارك فى آل بيته العامر السعيد إلى قيام الساعة، فولدت له محمد بيرم الأول و منه دخل النسل إلى سلك العلماء إلى الآن و المرجو من كرم الله أن يديم ذلك فى أعقابنا ما قدر لهم بالوجود، و استفحل العلم فى هذا البيت و لله الحمد حتى سمعت من شيخنا العلامة شيخ الإسلام محمد ابن الخوجة يعرف جدى محمد الثانى بقوله أبو يوسف الثانى، و مؤلفات هذا الجد تشهد لشيخنا بصدقه و كذلك لبقية علماء بيتنا تأليف عديدة عظيمة مفيدة،

و تقبلوا في الوظائف العلمية إلى رياسة الفتوى و تلقب منهم أربعة بشيخ الإسلام.

و لما تأهل والدى قدس الله روحه للزواج، زوجه أبوه بانبئة وزير البحر محمود بن محمد خوجه و والدتها من بيت الغماد ذى الشرف المعروف، و قد ألف الجد محمد بيرم الثانى تأليفا خاصا فى التعريف بنسبه الجثمانى و الروحانى بلغ فيه إلى نفسه و العبد مذيل عليه بذكر من لم يحوه ذلك التأليف من فروع هذا البيت و ما ذكر فى هذا الفصل أنموذج منه، و كانت ولادته فى سنة ١٢٥٥ هـ.

ثم اشتغلت بالقراءة و التعلم متفرغا إلى ذلك إلى أن وليت خطه التدريس سنة ١٢٧٨ هـ و كذلك مشيخة المدرسة العنقية، و لم يكن لى هم بشىء من أحوال الدنيا إلا مطالعات الحوادث السياسية الداخلية و الخارجية إلى أن توفى والدى رحمه الله و نعمه سنة (١٢٨٠ هـ)، فاضطرت إلى إدارة مخلفاته و لم يكن لى إلا محض الوداد مع سائر السكان لبعدي عن مواقع التحاسد بينهم و تجنبى للخطط، حتى أن خطه التدريس و المشيخة المذكورتين إنما قبلتهما بعد الإلحاح عند وفاة عمى شيخ الإسلام محمد بيرم الرابع، و انحلال الخطتين المذكورتين بسبب موته حيث كانت مشيخة المدرسة إليه، و انحلت وظيفه التدريس بسبب انتقال صاحبها لما فوقها و صاحب ما فوقها ترقى إلى مشيخة الإسلام و هو شيخنا العلامة محمد ابن الخوجه المشار إليه آنفا، و بقيت على ذلك مراتح البال سليم الوداد إلى أن ولى الوزارة الكبرى بتونس الناصح الأمين خير الدين باشا و نحا منحى الحكومة الشورى فى إجراء العدل، فرأى اجتهدا منه فى انتقاء المتأهل للخطط أن يستعين بالعبد فى بعض الخطط حسن ظن منه، فلم يسعنى إلا مساعفته لما كنت على علم من توغله فى حب العدل و الميل إلى القوانين و الشورى، حتى كان أول ناشر لمفاخرها فى

صفحة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ١٥٢

قطرنا بتأليفه «أقوم المسالك». مع امتناعى سابقا عن كل وظيفة لما أعلم من خمولى الإنصاف و ظهور الإعتساف، و عندما غلب على الظن حصول الجدوى بولاية الشهم المذكور أوجب استدعاه و قلدت رياسة جمعية الأوقاف التى هى من مبتكرات الوزير المذكور فى تونس، إذ رتب قانونا لها يحفظ الأوقاف و ينمىها بضبط لم يسبق إليه، فاستعنت الله و بذلت مقدورى للوفاء بما عهد إلى ثم ضم إلى ذلك نظارة المطبعة و هكذا بذلت فيها مستطاعى غير أنى فى ذاتى تحملت من الأتعاب الفكرية و البدنية ما لم تتحمله نشأتى، بل و كذلك الخسائر المالية لأن المرتب الذى جعل لى و إن كان فى نفسه نظرا للبلاد و افرا لكنه كان غير واف بما اعتدته من المصاريف التى كنت أحصل على الوفاء بها من دخل أملاكى و معاطاة تجارتي، و لما استغرقت الوظيفة الأوقات للقيام بها حق القيام تعطل الدخل السابق فعوضا عن الإستغناء بالوظائف صرت أبيع من كسبى شيئا بعد شىء للوفاء بحاجات المعاش، و لا أعد ذلك شيئا فى جنب القيام بحق الوطن بل إنى أحمد الله تعالى على ما أنعم.

فصل فى مرضى و ما عولجت به

حيث كان نسل بيتنا متوارثا فيه ضعف الأبدان و كثرة الأسقام حتى قال الجد الثانى فى تأليف نسبه المشار إليه آنفا عند الكلام على أقرائه شرح صدر الشريعة على الوقاية و السبب فى طول مدة أقرائه له كثرة ما كتب على مباحثه المهمة من التعاليق المختصرة و المطولة، مع الشغل بخطة القضاء و الضعف البدنى إلى أن قال: «فإننا أهل بيت باض السقم فى بيتنا و فرخ و شوى و طبخ نسأله سبحانه أن يجعل ما فاتنا من القوة فى أبداننا قوة فى ديننا و أن يعافينا و يعف عنا و يميئنا على الإسلام بلا محنة إنه جواد كريم». و قد كان الجد المذكور مبتلى بمرض عصبى أعيا علاجه أطباء زمانه إلى أن حصل له إنكماش فى أصابع يديه و هو مع ذلك يطالع و يؤلف إلى أن توفى سنة ١٢٤٧ هـ و هو ابن أربع و ثمانين سنة لا- يفتر عن التحرير و المطلاع قدس الله ثراه، كما أن والدتى رحمها الله و نعمها كان بها مرض الأعيا يعترىها بكثرة فى ركبتها و هو من الأمراض العصبية، و كذلك كان بها مرض عصبى فى معدتها.

فلما تقدم، كان مزاجى منهشا للمرض العصبى لأنه من الأمراض التى يعترىها التوارث، و لما شقت على الأشغال الفكرية و البدنية و كانت طبيعية إقليمى مائلة إلى الحرارة و اشتد الحرّ فى الصيف كنت أستحم بالماء البارد بعد التعب بالشغل نحو سبع ساعات تطلباً

للنشاط و الإرتياح للإستعانة بذلك على الأشغال عشية، فارتكبت ذلك مرتين أو ثلاثا و عند آخرها حصل لى وجع شديد يكاد لا يطاق يتبدىء من فم المعدة ثم يمتد للجنيين مع مصاحبة الإسهال و تطول حصته من الساعة إلى الساعتين، و تكرر ذلك مع شدته و لم ينجح فيه شىء من علاج أطباء بلادنا مع تنوعه و كثرة اجتماع الأطباء إليه بحيث لم أبق واحدا من مشاهيرهم لم أحضره فرادى و مجتمعين، و غاية ما أرسى عليه حالهم هو استعمال المسكن

صفوة الإختبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ١٥٣

المسمى «بكلوراتو مرفينا» الذى يستخرج من روح الأفيون، و يستعملونه محلولاً- فى الماء المقطر وزن نصف قمحة من العلاج المذكور، أى عشرة من مائة من غرام واحد فى ستة غرامات من الماء المذكور، ثم يملؤون منه حقنة صغيرة تحمل غراما واحدا إلا ربعا من الماء المدبر المذكور، و يحكمون إدخال أنبوبها فى رأس إبرة خاوية الوسط و سننها فى غاية الحدة، ثم يمسكون الجلد من المريض بأصابع اليد و يجذبونه إلى أن يبعد شيئا ما عن اللحم ثم يدخلون الإبرة هناك و يجذبونها إلى خارج إلى أن لا يبقى إلا آخرها داخل الجلد، و يبقى محلها هناك متمددا و حينئذ يحقن الماء المذكور تحت الجلد ثم يزيلون الإبرة و قد تم حينئذ عمل العلاج، فبعد دقيقة أو دقيقتين أو أقل يسكن الألم بفضل الله.

و تمادى الحال على ذلك مع كثرة تردد المرض كل يوم مرة أو بعد يومين مرة و بعد كل نوبة يتركنى فى غاية التعب و يورث ارتخاء و ضعفا سيما و قد كنا لا نعلم كيفية استعمال ذلك المسكن فيلزم الصبر على شدائد الألم الفادح إلى أن يأتى الطبيب فما يأتى إلا و قد وجدنى أخذ منى الألم مأخذا عظيما، فلذلك نحل جسمى و صار يعترينى فى بعض الأحيان دوار و تارة يعترى تخضرم فى النبض مع شد ضعفه، و امتد ذلك نحو ثمانية أشهر و حينئذ ألح على الحكيم الماهر النصح «منايىنى» بالسفر إلى أوروبا، و قد كان أشار على بذلك من أول الأمر غير أن غيره من الأطباء خالفوه فإنهم قالوا لا يلزم السفر و يمكن العلاج فى البلاد، لكنى لما رأيت من طول الأمر و زيادة الضعف ما رجح لى كلام «منايىنى» أعدت استشارة الأطباء فوافقوه و كان قصده من السفر:

أولا: ذات السفر فإنها من أسباب الصحة طبا، و قد علمنا من الفصل الثانى من المقدمة أن السفر من أسباب الصحة شرعا أيضا.

و ثانيا: الإرتياح لى من الأشغال الفكرية التى لم يمكن لى التجنب عنها فى البلد.

و ثالثا: لملاقاة مشاهير الأطباء الذين لا- يوجدون عندنا كما سيعرف فى محله، و هذا الأخير هو الذى أوجب تعيين الوجهة إلى خصوص أوروبا.

فسافرت حينئذ و كان ذلك فى دجنبر و اجتمعت بمشاهير من أطباء إيطاليا و فرنسا و استقر رأى أغلبهم و أعلمهم على أن المرض عصبى مع ضعف شديد فى الدم و مركزه ما بين أعصاب المعدة و القلب، و عالجونى بالمياه الباردة جدا المنبعثة بقوة و ذلك بأن يضرب بها كفى القدمين، ثم المعقلين، ثم فقرات الظهر، ثم فم المعدة، ثم الوجه و الرأس، و يتم جميع ذلك فى دقيقتين أو ثلاث ثم ينشف البدن بخرق من الكتان مع عنف و ضرب خفيف و استعجال، ثم تلبس الثياب و يداوم المشى العجول نحو نصف ساعة أو أزيد إلى أن يسخن البدن و يحصل شىء من العرق. أو حك حوالى فقرات الظهر بخرقة من الشعر الصلب ثم إمرار إسفنجة مبتلة بالماء البارد على ذلك المحل عند النوم مع تكييس الأعضاء و الظهر بالأيدى.

و ظهر لهذا العلاج بعض النفع غير أن شدة البرد هناك الخارقة لمعتادنا فى إقليمنا

صفوة الإختبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ١٥٤

المعتدل أوجبت على الأطباء الإشارة بالعود إلى الإقليم مع التوصية بالتحذير من الأسباب المحيرة للمرض، ككثرة الشغل و المآكل العسيرة الهضم، ثم تعاهد المعالجة بالماء البارد و شرب أدوية عديدة منها شىء قليل من روح الزئبق و أشباهه من أجزاء يسيرة من عقاقير قتاله مع التحذير من مقاديرها و خف المرض عند الرجوع إلى الوطن حتى أنى لم أضطر إلى استعمال المسكن بالحقنة نحو ثمانية أشهر، لكن المرض لم ينقطع و إنما كان يأتى خفيفا و مع العود إلى الأسباب التى لم أجد عنها مندوحة عاد الألم لما كان و

اضطرت للسفر ثانيا لخصوص باريس التي وجدت بها أمهر من رأيته من الأطباء و هو الحكيم «شاركو» و قد ورد الخبر باكتشافه لعلاج جديد من المعادن، و لما عدت إليه عالجنى بالكهرباء التي يسرد الكلام عليها إن شاء الله.

و صورة العلاج بالآلات على نوعين، أحدهما: مسكنة للهيجان العصبى و هى آلة مركبة من ثمانين إسطوانة منقسمة إلى قسمين كل قسم يشمل أربعين أسطوانة و يوضع كل قسم فوق القسم الآخر و كل أسطوانة مركبة من طبقات، إحداها: نحاس و الأخرى: روح التوتية المسماة بالزنك، و الثالثة: طبقة من الجوخ، و فى مركز كل أسطوانة عمود من سلك حديدى يخرقها و يتصل الجميع بطبقة من «الكاوتشو» و يغمس الجميع فى ماء مخلوط بالنشادر، و هذا الغمس لا يلزم فى كل مرة بل إذا حصل ضعف فى عمل الكهرباء ثم يجفف من التقاطر و يوضع فى صندوق من خشب بداخله صفحتان من الفولاذ موصلتان للكهرباء بسطح الطبقة العليا، و فى هذا السطح بيت إبرة و مسامير من نحاس مسطحة الرأس منقوش عليها أعداد من عشرة إلى أربعين يمينا و هكذا شمالا، و عمودان قصيران مثقوبان و يدان تداران على مركزهما و يوضع طرفهما على العدد المطلوب من المسامير اليد اليمنى على المسامير اليمين و اليسرى على المسامير الشمالية و على بيت الإبرة ضلع من خشب، و عند إرادة العمل بذلك الصندوق المهيا يلزم وضعه بحيث يكون الضلع الخشبى الممتد على بيت الإبرة متوجها جنوبا و شمالا، ثم تدار اليدان لتحريك القوة الكهربائية و توضع إحداها: على أحد الأعداد المناسبة لقوة الهيجان و قوة المريض أيضا، و هكذا الأخرى بحيث لا يبلغ بهما معا إلى نهاية العدد من الجهتين التي هى درجة الثمانين فى القوة الكهربائية لأن ذلك يخشى منه من الصاعقة على الإنسان، ثم يؤخذ سلكان من الفولاذ محكم لفهما بخيوط الحرير حتى لا يبدو منهما أقل جزء و يوضع كل منهما فى أحد العمودين المثقوبين، و يحكم إمساكهما هناك بلولب و فى رأس طرفيهما الآخرين شبه ختم من معدن ملفوف فى جلد رقيق يبل بالماء لسهولة توصيل الكهرباء و كل من الختمين له يد من خشب يمسكها العامل و يسمى أحد السلكين: بالموجب و الآخر: بالسالب تبعا لنوع تسمية الكهرباء، و الموجب هو الذى تكون اليد الدوارة من جهته فى درجة أعلى من الجهة الأخرى، فإذا ألصق الختمان ببعضهما أو اتصلا بجسم يوصل بينهما رأيت الإبرة فى بيتها تضطرب يمينا و شمالا و يشتد اضطرابها و يضعف على حسب الدرجة المفعولة فيها قوة

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ١٥٥

الكهرباء و إذا حصل هيجان فى المرض يوضع الختمان على المريض بقرب مجلس الألم على هيئة التقابل بين السلكين ففى بضع ثوان يسكن الهيجان بإذن الله من غير أن يحس المريض بأدنى حركة أو ألم و يسمى هذا النوع من الكهرباء الكهرباء الساكنة و هاته الآلة من اختراع «كستاف طروقيه» و عندما كان يعترينى المرض بالدوار و ضيق الصدر كان الحكيم يضع الختم الموجب على العنقفة ساكنا و السالب على الجبهة يديره من أحد طرفيهما إلى الطرف الآخر، فكان إذا قرب من الحاجين أرى كأن البرق يتطاير من عيني متوليا و يلزم إزالة السالب شيئا فشيئا بأن يرفع بعض أطرافه ثم و ثم إلى أن ينفصل جميعه و أما الآخر فيفصل دفعة واحدة.

و الآلة الثانية الكهربائية: هى آلة لتقوية البدن و الأعصاب، و صورتها مربع من خشب عليه اسطوانتان من البلور مركزتان على قطع من «الكاوتشو»، هو نوع غروى يجف و يتصلب مستخرج من صمغ الأشجار غير أن إحداها يحيط بها «الكاوتشو» إلى نحو الثلثين منها و الثانية إلى نحو الربع، و يمد عليهما أسطوانة عظيمة من النحاس خاوية الوسط، و فى أواسط كل من الأسطوانتين البلوريتين رباط من نحاس فيه موضع لوضع قطب أحد الدائرتين الآتى بينهما، و هذا القطب وسطه فولاذ و ظاهره كاوتشو يتصل بدائرة مسطحة جيدة من الكاوتشو أيضا، و أحد طرفى قطبها خارق للأسطوانة البلورية متصل بدائرة صغيرة من نحاس، كما أنه فى نحو الربع السفلى من الأسطوانتين موضع لقطب دائرة مثل تلك، لكنها من البلور و إنما مركزها على القطب من الكاوتشو، و بقیة قطبها من النحاس و أحد طرفى قطبها خارق للأسطوانة البلورية متصل بدائرة من خشب لها يد تدار بها و على خط نهايتها محل لوضع حبل من جلد مكركب يوصل بينها و بين الدائرة النحاسية التى فوقها المتصلة بقطب دائرة الكاوتشو، و بدوران هاته الدائرة الخشبية يدور كل من دائرة البلور و دائرة الكاوتشو اللتين وضعهما بين الأسطوانتين.

و تبعد إحداهما عن الأخرى نحو أصبع عرضا، و مركز الكاوتشو أعلى من مركز البلور، ثم أن المربع الخشبي تلتصق به آلة ذات و سادتين لاصقتين في خشبتين، و هما جلد محشوتان بالشعر و لهما لولب يقربهما من بعضهما أو يبعدهما، و فائدتهما هي إدخال الدائرة البلورية بينهما بحيث يلتصق بكل من سطحها إحداهما، حتى إذا أدبرت يحصل حكاها بهما و يدلك كل الوسادتين بشيء محجر من الكبريت تقوية لأحداث الكهرباء، ثم يتصل بإحدى الاسطوانتين البلوريتين عند مركز قطب الدائرة العليا قوس من نحاس يفتح و يغلق، بحيث إذا أغلق يتصل طرفه بالاسطوانة الكبرى النحاسية و في هاته الاسطوانة حلقة من جنسها خارجة عن رأس الاسطوانة البلورية ليوضع فيها رأس قضيب من نحاس و ذلك الرأس منحني ليتمكن إمساكه في الحلقة، و هو أى القضيب طويل أزيد من ثلاثة أمتار. و جميع تلك الآلة يوضع على مائدة من خشب مرتفعة على الأرض نحو ذراعين و نصف بأرجل متينة لا تضطرب عند إدارة الآلة و يكون وضعها في محل خالي عن النداء متجدد الهواء بعيدا عن

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ١٥٦

الأشجار و البحر نحو عشرة أو إثني عشر ذراعا، و وضعها هي في المحل يكون بعيدا عن الحيطان في الأقل ذراعين، و إذا كانت الكهرباء ضعيفة يربط برجل القوس عند الاسطوانة البلورية سلسلة من أى معدن وجد، و يربط طرفها الآخر بالحائط ثم يوضع كرسي أرجله من البلور الثخين بعيدا عن الآلة قدر ذراعين، و يوضع عليه طرف القضيب الماسك في الاسطوانة النحاسية، و يجلس على الكرسي المريض و تدار الآلة إما بالبخار أو باليد، و يفتح القوس النحاسي و عند ذلك يمتلىء الجالس بالكهرباء من غير أن يحس بشيء، إلا إذا قرب منه جرم ما فإنه يتطاير بينه و بين الجالس شرر يشبه البرق، و يحس به الجالس ضربا و إحراقا لكنه لا أذية فيه.

و لزيادة الدواء يأخذ الحكيم عصا من نحاس و يدها التي يمسكها من البلور و فيها حلقة تربط بها سلسلة معدنية متصلة بالأرض، و للحذر من مسها للحكيم يدخلها بحلقة متسعة من النحاس موصولة بيد من البلور يمسكها الحكيم بيده اليسرى ليبعد جرم السلسلة عن نفسه من غير تعطيل لحركتها أو اتصالها بالأرض، حيث كانت تمر في الحلقة الواسعة، ثم يصب رأس القضيب الذي بيده و هو مخروط مذهب صوب المريض الجالس على الكرسي، على الجهات التي هي مجالس للألم و إذ ذاك ترى شعله من النار الزرقاء المبيضة خارجة من رأس القضيب و يحس المريض بريح باردة واصله إليه، و إن قرب منه القضيب خرج الشرر و تارة يعوض رأس القضيب بكورة نحاسية توصل به و تارة يعوض بكورة خشبية متعددة الأنواع من صلابة الخشب و رخاوته، لأن الصلب أشد كهربائية فيستعمل من تلك الأنواع على حسب قوة المريض، و يدام العمل من خمس دقائق إلى عشرين دقيقة تدريجا مع تأنس المريض و نقاوته، و حصل لى بهذا العلاج مدة أربعين يوما نفع عظيم و لله الحمد، كاد أن ينقطع به الألم بالمرّة إلا بقايا قليلة لا عبرة بها.

و عند الرجوع إلى الوطن أكد على الحكيم الحذر من الأسباب و تفقد العلاج المذكور، أو شرب قطرات صغيرة من محلول الذهب الذي بان نفعه أيضا من ست قطرات في نصف كأس من ماء إلى خمس عشرة قطرة تدريجا قبل الأكل فطورا و عشاء و عند النوم، فكنت أستعمل آلة الكهرباء الدوائية التي ظهر نفعها غير أن الأطباء أو صونى على عدم ملازمتها خوفا من تأنس البدن، و لذلك تركتها مدة مع أنى كنت اشتريت آلة و استصحبتها معى، و الفرق بينها و بين الآلة التي عند الحكيم في باريس أن التي أخذتها تدار باليد و الأخرى تدار بالبخار لكثرة استعمالها حيث يعالج بها كثيرين، و أما التي عندي فتكفى فيها يد الآدمى إذ لا يدوم العمل بها أكثر من عشرين دقيقة في اليوم. ثم عند تركى للعلاج بها مدة كنت أخاف من اشتداد الألم الذي تتظاهر مخايله من حدوث بعض الدوار و الإرتخاء و الحزن، الذى هو من علامات الهيجان للنوع الثانى من المرض، و هو اعتراء برد شديد فى الأطراف و صغر فى النبض مع ألم عام لا- أقدر أعبر عنه و لا- أعلم مجلسه أين هو، مع ارتعاش فى الأعضاء و جفاف فى الريق و صعوبة فى ابتلاع الريق و الطعام و ضيق فى النفس،

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ١٥٧

و هذا الهيجان لا تنفع فيه الآلة المسكنة إلا إذا كان شديدا، و أما إذا خفيفا فلا.

و من عجيب عوارض هذا النوع من الهيجان شدة السمع حتى كنت أسمع الشيء الخفى البعيد الذى لا يسمعه الحاضرون معى مع التأذى من شدة صوته عندى، فضلا عما إذا كان الصوت قريبا منى، حتى يلتزم من حضر عندى السكوت بل ربما تأذيت من صوتى نفسه و هكذا الشم، فقبل حصول الهيجان كنت أشم ما لا يدركه أمثالى لكن وقت الهيجان يصيبنى زكام مفرط، و ربما هاته الحالة لا يسكنها و لا مسكن الحقنة إلا بعد مدة، و هى أشد على من هيجان الوجع، و لذلك كنت أستعمل عند تعطيل التعاهد بالآلة العلاجية شرب ماء الذهب المتقدم ذكره، و قد قلت للحكيم عند وصفه هذا الدواء و أنه من مخترعات هذا العصر: «إن أكل الذهب للتقوى معلوم عندنا»، و قد كان الإمام ابن عرفه فى المائة الثامنة و التاسعة يبرد كل يوم بندقيا- البندقى نوع من سكة الذهب منسوب إلى البندقية وزنه نحو نصف دينار ذهبا- على دجاجة و يطبخها جيدا و يأكلها، فقال البندقى: كثير، فقلت له:

حيث أن الذهب غير محلول فلا يأخذ منه البدن إلا مقدار ما تهضمه المعدة و ما عداه يذهب فى الفضلة، فقال: نعم، و على كل حال فلهذا العصر فضل فى الإقتصاد فلم يسعنى إلا التسليم، و هذا العلاج بالمعدن كنت أستعمله قبل السفر ثانيا، لكن على ظاهر الجسد و ذلك بأن يؤخذ شيء من أحد المعادن الخالص و يجعل منه نحو سوار، فإن ظهر فى المريض بلبسه نوع ملايم ديم عليه و إلا يبدل بمعدن آخر، و أول من اكتشفه طيب نمساوى، و لم يلتفت إلى قوله إلى أن أصغى إليه الحكيم «شاركو» الفرنساوى، و جزبه فوجده صادقا فأعلن به من مجلس فن باريس و صار معمولا به.

غير أنى وجدت فرقا بين الكيفية التى جربها لى الطيب البارون «كستلنوفو» و بين ما فعله الطيب باريس، فإن الأول كان يستعمل المعدن و يقيه إن وافق و كل المعادن التى جربتها لم توافق سيما النحاس فإنه يحدث التحير إلا الذهب فلما جربته لبسا خف التحير و سخنت أعضائى، و كان العرق الذى يأتى من الألم حارا على خلاف ما كان من برده، و لما أعلمت بذلك الحكيم «شاركو» أذن الطيب المباشر و هو «فغرو» بأن يجرب المعادن، فأعطانى ميزان القوة و قبضت عليه بجهدى و قيد الدرجة و كذلك علم ميزان النبض، ثم أول ما بدأ به من المعادن معدن المغناطيس، و هو على هيئة قطعة من حديد موضوع على مائدة فألصقه بذراعى الأيمن و جعل فاصلا بينه و بين البدن قطعة من ورق، فما لبث نحو دقيقتين إلما و حصل هيجان عظيم فى المرض خشيت منه، و كان تابعى معجلا باستعمال الحقنة للتسكين فهاه الطيب، و استعمل الآلة الكهربائية الساكنة المار ذكرها فحصل السكون بفضل

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ١٥٨

اللّه، و تبين أن ذلك المعدن غير ملائم و هو نظرى و وافقتى عليه الحكيم «شاركو» و إن كان الطيب «فيغرو» يرى أنه موافق، بمعنى أنه لما أحدث تأثير أدل على تأثير للبدن منه، لكنى أقول: إن البدن يتأثر منه بالضرر لا النفع و لم أعد إليه و لا لغيره ذلك اليوم حذرا على البدن من كثرة الإضطراب، ثم جربنا النحاس و هو أيضا غير موافق كما تقدم غير أنه لم يحدث هيجانا كبيرا، ثم جربنا الفضة فلم توافق و لم تضادد بدليل موازنه ميزان القوة و النبض، ثم جربنا الذهب فكان ملائما بحرارة البدن و زيادة القوة و نشاط النبض، و لذلك استقرّ الرأى على عمله لكن لا يكتفى فيه بالاستعمال على ظاهر الجلد فقط بل بالشرب أيضا على نحو ما تقدم، و كل معدن كان تجربيه فى يوم خاص.

كما عولجت قبل السفر الثانى بماء «البرمور و بوتاسيوم» بإشارة الطيب «كستلنوفو» و رأى فى كميته و أوقاته كيفية رآها الطيب «ميناينى» كثيرة، فلما استعملها مع المواظبة أكثرت على النوم حتى كدت أن أكون نائما ثمان و أربعين ساعة تماما، و المقدار هو قدر ملعقة أكل بعد كل ساعة من الماء المذكور، و بعد رجوعى من باريس و العلاج بالكهرباء على نحو ما مر، بقيت على العافية و لله الحمد مدة عام إلا سته أيام، حيث تراكمت الأتعاب الفكرية و البدنية و حوادث فى البلد أوجب جميعها السفر ثالثا إلى باريس و الإشتغال بغير الدواء فى هاته المرة، مع مصاحبة الأتعاب الفكرية أوجب عدم نجاح العلاج السابق و إن خف الألم شيئا ما، فلما عدت بعد إفراغ المستطاع وجدت الحال فى الوطن غير الحال، و أخلاق الحكومة و إن شئت قلت الوزير بخصوصه غير ما تركته عليه، كأتى أتيت شيئا على غير أمره، و تحقق لدى ما كنت أتوقعه من سوء لكل ناصح أمين غير مبالى على سوء الأعمال كما سيرد شرحه إن

شاء الله تعالى، فعمت على التوجه لبيت الله الحرام ملتجياً إلى الرسول عليه الصلاة والسلام لكشف الضر الخاص والعام، فلنا بجاهه المرام ولا زلنا نؤمل التمام مما التجأنا إليه فيه و منه حسن الختام.

فصل في حكم التداوى شرعا

اعلم أن التداوى قد ورد بالهداية إليه القرآن العظيم كما في قوله تعالى: **يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ [النحل: ٦٩]** فدللت الآية الشريفة على أن العسل دواء للألام يستشفى به منها، كما بينه الحديث الشريف الوارد في صحيح البخارى وغيره من قصة الصحابى الذى قال للنبي صلى الله عليه وسلم: **«إن أخى يشتكى بطنه، فقال له صلى الله عليه وسلم: إسقه عسلا، ثم عاد و أعاد الشكوى و أعاد له صلى الله عليه وسلم صفة الدواء ثانيا، ثم وقعت الإعادة أيضا ثالثا، و قال الصحابى: قد سقيته و ما زاده إلا انطلاقا! فقال صلى الله عليه وسلم: إسقه عسلا صدق الله و كذب بطن أخيك، ففعل الصحابى و شفى المريض»** .

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ١٥٩

فإن الحديث قد بين إن شفاء الناس هو تداويهم به من أمراضهم حيث قال: **صدق الله أى فى قوله فيه شفاء للناس، ثم يدل الحديث أيضا على أن استعمال الدواء لا بد فيه من مقادير و أوقات، و لذلك أمره بالتكرار لأنه تعالى كما له إرادة فى جعل الشىء سببا فى البرء له إرادة فى خصوص مقدار و أوقاته، و أنه لا- ينبغى أن يهمل الدواء إذا لم ير منه نفع فى المرة الأولى، إذ لعله لم يكن هو المقدار الكافى لما استعد له بدن المريض و لله سبحانه و تعالى حكم فى الأشياء لم تصل عقولنا للإطلاع على تفاصيلها، فيلزمنا اتباع ما دلت العادة و التجربة على جعله سببا للمسبب بمقتضى الحكمة الأزلية، و من ادعى عمل الأشياء بالطبع لا يسعه إلا العجز عندما تجاربه بسؤالك: لماذا كان طبعها كذا؟ و إذا علل تقول له: لماذا كان ذلك التعليل؟ و هكذا، بل إنهم كثيرا ما يعجزون من أول الأمر فيقولون: إن الشىء الفلانى يفعل كذا بالخاصية، حيث لم يجدوا شيئا يمكن لهم به التعليل الأول، و الحق أن ذلك جميعه بخلق الله و جعل تلك الأشياء أسبابا عادية يخلق عندها ما أراده بسابق حكمته.**

و لما تقدم أجمعت الأمة على جواز استعمال الأدوية، و إنما وقع الخلاف فى جواز استعمال المحرم دواء و وقع الخلاف فى الترجيح عند الحنفية، و محل الخلاف هو ما إذا تعين الشفاء فى خصوص ذلك المحرم و لم يوجد شىء آخر حلال يقوم مقامه، أما إذا وجد فلا- مبيح حينئذ و القائل بالإباحة يستدل بالضرورة و أنها مبيحة للمحذور، فيكون كالحائض من الهلاك جوعا فى أكل الميتة، و مقتضى تجويزهم للكتابة بالدم على جبين صاحب الرعاف لكى ينقطع عنه، هو ترجيح للتداوى بالمحرم، لأن الكتابة بالدم النجس إهانة للحروف و لا سيما إذا كان فيها اسم الله و ذلك محرم قطعا و إنما جاز للضرورة فلا يكون إذ ذاك حراما و يجيبون من احتج بقوله صلى الله عليه وسلم: **«لم يجعل الله شفاءكم فيما حرم عليكم»**، فإن الشىء إذا تعين فيه الشفاء يرتفع عنه التحريم.

و بيان هذا المعنى هو أن يقال: إن الأشياء المحرمة إنما حرمت لما فيها من المفساد

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ١٦٠

و المضار للمخلوق، لأنه تعالى منزه عن الإحتياج لشىء، و كل ما ورد به الشرع فإنما هو لهدايتنا لما ينفعنا فنؤمر به أو لما يضرنا فننهى عنه، و حيث لم يكن فى طوق عقولنا الإحاطة بعلم جميع ذلك لأن بعضها يتوقف على علوم تشيب الغراب، و هو تعالى خالقنا الرؤوف العالم بنا و رسوله هو الأب الرحيم بخلق الله و نحن على يقين من ذلك و لله الحمد، فما علينا إلا أن نتبع ما شرع لنا موقنين و مسلمين أن ذلك هو الصالح بنا كتسليم الإبن لأبيه العاقل، و تسلم الجند لرئيسه الخبير من غير بحث عن موجب تكاليفه مع أن المشبه به يمكن فيه حصول الإعلام بالبواعث، غير أنه ترك حذرا من فوات الفرص و إطالة الأمر بخلاف المشبه، فقد علمنا عجز عقولنا عن إدراك جميع مصالحنا بتعاليلها و لذلك ما أمكن إدراكه.

قلنا إنه معقول المعنى و ما لم ندركه عملنا به، و قلنا إنه تعبدى و الكل معقول فى نفس الأمر، فالشىء المحرم إذا اضطر للتداوى به

ليس المعنى أنه يرتفع الضرر الذي حرم من أجله، بل أن الضرر الحاصل الذي يراود دفعه به أعظم من الضرر السابق فيرتكب أخف الضررين كما هي القاعدة الشهيرة، فالخمر مثلا المحرم لتوقع جزه إلى إفساد العقل إذا غص الإنسان و خشى الهلاك، جاز له شربه لدفع الهلاك الذي هو أعظم ضررا من توقع جزه لإفساد العقل، و لا يقال إنه على هذا يلزم التوقف في كل جزئية على علم مفسدة المحرم الذي أريد استعماله و حرم من أجلها و مقياستها بالمفسدة التي يراود دفعها به، مع أنك مصرح بعدم علم الجميع، و القائلون بالجواز لم يخصصوا ما علمت مراتبه و قيس بينها، لأننا نقول القواعد الكلية في مثل ذلك كافية في حصول المقصود، و قد علمنا منها أن حفظ النفس هو ثاني مرتبة بعد حفظ الدين و جميع الأشياء المبحوث عنها آيلة إلى حفظ النفس من الهلاك، و الهلاك أعظم مفسدة و مضرة من كل ما يمكن أن يكون في الأشياء المحرمة من أسباب التحريم الراجعة إلى أجزاء خاصة من النفس كالعقل مثلا، فيقدم حفظ النفس جميعها عليها و لا يمس ذلك الدين لأن محله القلب أي الروح التي هي محل الإعتقاد، و ذلك لا يخرج منه إلا بما دخل فيه كما هي العبارة المشهورة، و لذلك صرح الفقهاء بأنه لا يفتى بالردة استعجالا حتى يثبت اضطراب العقيدة و العيادة بالله، و لو صرح

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ١٦١

في الفتاوى ببعض أشياء أنها مكفرة فلا يعول عليها، نعم إن جميع الشعائر الظاهرة هي من الدين أيضا و منها حفظ النفس. و قد علمنا من الشرع تقديمها على كل ما سواها إلا الإعتقاد، و لهذا يجوز إتلافها في القتال على الدين و هكذا على شعائره، فإنهم صرحوا بأن من تركوا جميعا الآذان يقاتلون حفظا للدين و تقديما له على النفس، لكن ذلك إذا كان منبئا عن الإستخفاف الراجع للإعتقاد، أما إذا تبين التأويل أو العذر المنبئ عن صحة الإعتقاد فلا يقاتلوا حينئذ و لهذا لم تؤمر بقتال تاركى الجمعة بتأول و جوب الإمام المعصوم مع أنها من شعائر الدين.

و بما تقدم يعلم جواز تلقيح الجدرى من الحيوان أو الإنسان، لأنه قد ثبت بالتجربة المفيدة للقطع أنه حافظ من الهلاك أو مما يقرب منه، و من هذا الباب تجوزهم للكتابة بالدم مع أنه فيه استخفاف بالحروف التي مرجعها الدين، و بيانه أن الإستخفاف فعل القلب و الأعمال الظاهرية دالة عليه و أقيمت مقام الحرمة بسبب دلالتها لذاتها، فهلاك النفس تعارض مع ما يدل على الإستخفاف فقدم دفع الهلاك للتيقن بسلامة الإعتقاد، و غلب ذلك الدلالة لارتكاب أخف الضررين.

فإن قيل: كيف يكون أخف الضررين مع أن الآخر مرجعه للدين و هو مقدم على النفس؟

فالجواب: إن الدين قد علمت أنه سالم و هو الإعتقاد و لم يبق إلا الدلالة في مقابلة

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ١٦٢

النفس التي هي محل الإعتقاد، و القيام بجميع التكاليف فغلب ترجيحها كما صرحوا به في جواز التيمم لخوف المرض، في أن ذلك ليس تقديما للنفس على الدين بل من باب تقديم أغلب الدين على بعضه، لأن الإنسان إذا سلم أقام الطهر و الصلوات الكثيرة و غيرها من التكاليف، بخلاف ما إذا هلك فتسقط بموته جميع التكاليف المتعلقة بذاته فلا يسوغ له أن يسعى في إبطاله تكاليف كثيرة لإقامة عبادة واحدة، فهو حينئذ من باب أخف الضررين كما تقدم.

و اعلم أن للعبد توقفا شديدا في دعوى جواز مسألة الكتابة بالدم لحفظ النفس من الرعاف الخ، و بيانه أن صاحب «الفصول العمادية» و غيره ممن نقل عنهم الشيخ بيرم الثاني في كتابه «حسن النبا في جواز التحصن من الوباء»، قد صرحوا بأن تعلق الأسباب بمسبباتها على ثلاث مراتب.

أحدها: التعلق القطعي، و هو ما لا يتخلف فيه المسبب عن السبب إلا على وجه خرق العادة كالشبع للأكل و الرى للشرب.

و ثانيها: الظنى، و هو ما يكثر فيه ارتباط المسبب بالسبب و قد يتخلف نادرا، و مثلوا له بالأدوية مع الأمراض.

و ثالثها: الوهمى، و هو ما لا يرتبط فيه المسبب بالسبب إلا نادرا و مثلوا له بالكى و الرقى مجمعين على ذلك.

و غاية ما اختلفوا فيه هو أن تعاطى القسم الثالث هل هو مخالف للتوكل أم لا؟

و احتج صاحب «حسن النبأ» لكونه غير مخالف للتوكل رادا على صاحب الفصول بثبوت الرقيا من النبى صلى الله عليه و سلم و كذلك الكى. فليراجع ما أطال به هناك، فأنت ترى أطباقهم على جعل الرقيا من الموهوم و ما تقدم من الكتابة بالدم للراعى ليست هى إلا رقيا، فكيف ينطبق عليها شرط جواز استعمال المحرم و هو تعيينه للشفاء؟ و أين التعيين من الوهم؟ و كيف يقدم على أمر محرم بإجماع لأمر موهوم؟

فعلى الآخذ للأحكام الشرعية الثابت و عدم الإغترار، و لهذا صعبت درجة المفتى لكى لا يضل و يضل بغير علم و لا ينفعه مجرد وجود المسائل فى كتب بعض المتأخرين، إذ كثيرا ما زلقت الأقدام من بعضهم فينقلها عنه غيره كأنها المذهب الذى عنه لا يذهب، و الله يحفظ المسلمين من مزلق الشبهات.

و كان منشأ ذلك القول هو ما قاله صاحب «النهاية» فى مبحث «جواز التداوى بالمحرم إذا تيقن فيه الشفاء» و ساق لذلك مثلا، و هو: جواز كتابة الفاتحة بالدم للراعى على جبينه و أنفه، لكنه قيد ذلك بحصول العلم الذى هو اليقين و ذلك على معرض التمثيل بدليل عطفه

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ١٦٣

البول، حيث قال: و بالبول أيضا، أى إذا حصل العلم .

و من المعلوم أن الفقهاء يصورون المسائل و لو المستحيلة تقريبا لحكمها لما عسى أن يطرأ فى زمن لا- يقدر فيه على استنباط الأحكام، فليس كلامه دليلا على الجواز فى تلك المسألة لأنه مقيّد بالعلم، و قد علمت أنها من قبيلة الرقيا و الرقيا من الموهوم فلا يجوز الإستناد إلى كلامه مع الغفلة عن قيده الذى هو العلم، و لم نر فى كلامهم من يسوغ إطلاق العلم على الوهم، و غاية ما قالوه فى المسألة: إن بعضهم جعل كلام حذاق الأطباء مما يحصل به العلم، و قال العلامة السيد ابن عابدين فى حواشى الدر: «إنه لعله من التوسع فى إطلاق العلم على الظن». أقول: و ذلك لأن مسائل علم الطب على قسمين: أحدهما: ما يرجع إلى علم التشريح، و كيفية تركيب الأبدان و هى يقينية. و الثانى: ما يرجع إلى الدواء و مسائله ظنية كما تقدم.

ثم اعلم أن تعاطى الأسباب بأقسامها الثلاثة التى تقدمت فى صدر هذا المبحث، هو من أعمال الكاملين فى الدين و لا ينافى التوكل على الله، و قد بسط المسألة بىرم الثانى فى كتابه «حسن النبأ» المشار إليه، و حققناها فيما كتبناه على باب: «لا يلدغ المؤمن من جحر واحد مرتين». من البخارى.

و خلاصة الكلام أن العمل بالأسباب مع التوكل على الله فى نجاحها هو المشروع، و مخالفة ذلك سوء أدب مع الخالق جل و علا، فيعصى الإنسان من حيث يظن أنه يطيع، و قد صرح بمثل ذلك العارف الشعرانى فى «المواثيق و العهود»، حيث قال: «إن التوكل صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ١٦٤

لا يشرع إلا مع الأسباب أو عند فقدها أما مع إمكانها فهو كالعاصى». و بكلامه رضى الله عنه يتبين الوجه فى الفرق بين حالى النبى صلى الله عليه و سلم مع صاحبه الصديق، رضى الله تعالى عنه، فإنه عليه الصلاة و السلام: لما هاجر إلى المدينة عند اجتماع قريش على أذيته لم يكن له عليه الصلاة و السلام من الأسباب الحامية منهم مع كثرتهم و شدة عداوتهم و اتفاهم إلا الإعتماد على أمر الله له بالهجرة و وعده له بإبلاغه إلى المأمن و انتصار الدين و ظهوره، فلما سافر و اختفى فى الغار مع صاحبه الصديق رضى الله عنه، و خرجت قريش فى طلبهم و وصلوا إلى الغار و لم يكن لهم مانع ما عن تفتيشه و الدخول إليه مع شدة حرصهم على ذلك، كان سيدنا أبو بكر رضى الله تعالى عنه خائفا فرعا يدعو الله، و الرسول عليه الصلاة و السلام مطمئن يقول له ما أخبر الله به لا تخزنن إن الله معنا [التوبة: ٤٠]. و فى غزوة بدر لما أعد الرسول صلى الله عليه و سلم العدة و العدد و هيا أسباب القتال و التقى الجمعان للطعان، كان

الرسول صلى الله عليه وسلم يدعو الله بالبحاح حتى قال: «لأن تهلك هاته العصا فلن تعبد بعدها في الأرض» أو كما قال، و كان الصديق رضى الله عنه يقول له: لا تحزن إن الله منجز لك ما وعدك من النصر، و لا شك أن النبي صلى الله عليه وسلم أكمل حالا من جميع الخلق، فكيف اختلف حاله في الواقعتين مع أن ظاهر الأمر فيهما مع صديقه رضى الله عنه فالوجه يتبين مما قرره الشعراني في القاعدة المار ذكرها، «و هو أن حال الغار ليس فيه مجال للأسباب لفقدانها فليس هناك إلا التوكل البحت». و لذلك كان صلى الله عليه وسلم مطمئنا لأنه أكمل توكلها، و أما حالة الغزوة فهي حالة الأخذ في الأسباب ثم التوكل معها و لا يسوغ التوكل البحت، و لذلك كان صلى الله عليه وسلم مجتهدا في الدعاء لتكون الأسباب ناجحة.

و ليس للأمة إلا اتباع الرسول فالعمل بالأسباب عند وجودها مع التوكل على الله في نجاحها هو المشروع، و لا يشكل على هذا ما ينقل عن كثير من الصالحين من تركهم للأسباب و خرق العادة إليهم، لأنه مندفع بما قرره أبو إسحاق الشاطبي في الموافقات: «من أن هؤلاء و إن خرقت لهم العادة لكنهم لم يخرجوا عن الأسباب لأن خرق العادة من الأسباب الخفية»، و استشهد لذلك بأدلة تشفى الغليل، و بينه ما وقع من العارف الرباني الإمام في علم الباطن و الظاهر سيدى عبد العزيز المهدي، شيخ مظهر العلم سيدى محيى الدين ابن العربى الحاتمي الذى ألف لأجله الفتوحات المكية، و يخاطبه في رسائله بقوله يا وليّ، فإنه قد ذكر عنده أن أحد الصالحين كان مارا بطريق فوقع في جب فمّر بعض السابله على ذلك الطريق و رأوا الجب، فقالوا: إن هذا الجب يضر بالسابله لوقوعه في الطريق

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ١٦٥

فلندفع أذاه بوضع هذا الصخر العظيم على فمه و نسدمه، ففعلوا من غير أن يعلموا بالصالح الواقع فيه، و خطر هو بباله أن يعلمهم ثم قال: لا التجيء إلى مخلوق و الله أعلم بحالى، و بعد ما مر السابله جاء سبع و حفر فرجة من فم البئر و أدلى ذنبه إلى الرجل الصالح، فقال:

إن هذا إذن من الله بنجاتي، فتمسك بذيل السبع و أخرج السبع من البئر و ذهب إلى حال سيبله، و سمع مناديا يقول قد نجيت من الهلاك بالهلاك.

و سئل الشيخ سيدى عبد العزيز كيف يصح هذا العمل من هذا الرجل الصالح و الحال أنه مخالف للشريعة لأن الله يقول: وَ لَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ [البقرة: ١٩٥] و عدم إعلامه هو للسابله من باب الإلقاء باليد، فأجاب سيدى عبد العزيز رضى الله عنه بأن التكليف الشرعية العملية هي ثانی رتبة من التكليف الاعتقادية، و ذاك الرجل الصالح علم من نفسه ركونها للأسباب و عدم صحة توكلها فقهرها حتى يثبت صحة الاعتقاد الذى هو الدرجة الأولى، فلهذا كان الرجل قد عمل بالشرعية بوضع درجات التكليف مواضعها، هذا محصل كلامه رضى الله عنه. و به يعلم أن كل من ارتكب منهم مخالفة الأسباب لا بد أن يكون له حامل خاص، و إلا فهم رضى الله عنهم أشد محافظة على الشريعة، فلا يغتر أحد بأن أعمالهم مخالفة لمشروعية الأسباب بل يحمل كل منهم على أمر خاص يليق بحاله، و فقنا الله للإهداء بهداهم.

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ١٦٦

الباب الثانى فى قطر تونس

إشارة

لما كان مسقط الرأس فى هاته البلاد و هى منبت الآباء و مستقر الأجداد، و نحن بصدد التعريف و الكلام على ما شاهدناه فى الأقطار على حسب مشاهدتنا لها فى التواريخ، لزم بالضرورة تقديم الكلام على الوطن النابت حبه فى القلب النبات الحسن.

فصل في التعريف بالقطر التونسي

اعلم أن موقعه على شواطئ أفريقيا الشرقية الشمالية على البحر الأبيض، ويحده البحر المذكور شمالا و شرقا و طرابلس الغرب في بعض الحد الشرقي و الصحراء الكبيرة جنوبا و الجزائر غربا و يبتدىء شمالا من عرض سبع و ثلاثين درجة و سبع عشرة دقيقة و عشرين ثانية، هذا عند أعظم المراسى هناك و هي مدينة «بن زرت»، و يمتد من هناك إلى الجنوب إلى أن يدخل في الصحراء الكبيرة من غير تعين للحد، و إنما أشهر المدن جهة الحد الجنوبي هي مدينة توزر، و هي واقعة في عرض أربع و ثلاثين درجة و إحدى عشرة ثانية و عشرين دقيقة، و هذا القطر طوله من الشمال إلى الجنوب أكثر من عرضه من الشرق إلى الغرب، ممتد على ساحل البحر فيبتدىء من عرض درجة ٣٧ و دقيقة ١٩ و ينتهي معموره إلى درجة ٣٣ و دقيقة ١٠، و يبتدىء في الطول المؤسس على باريس من طول درجة ٩ و دقيقة ٢٢ إلى نحو درجة ٥ و دقيقة ٥٠، و به رأس داخل في البحر يسمى رأس «أدار» و هو أطول رأس في البحر الأبيض، و يتصل ببقية القارة بالمكان المسمى دخله المعاوين، كما أن بالقطر رؤوس آخر و هي: الرأس الأبيض، و رأس الزبيب، الإثنان حول بن زرت. و رأس سيدي على المكى، و رأس جبل المنار، و رأس المهديّة، و رأس كبوديّة، و رأس الغدامسى، و يتبع هذا القطر عدة جزر صغيرة أعظمها جزيرة جهة الحدود الجنوبية، ثم قرقنه و هي أمام صفاقس، ثم جزيرة الكلاب و الجوامير و جالطه و غيرها، و به خمسة أجوان كبيرة أحدها جون سيدي أبي سعيد، و هو بقرب الحاضرة، و جون قابس جهة الجنوب، و جون الحمامات، و جون بن زرت، و جون رواد، و به ثلاث

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ١٦٧

بحيرات. أولها: بحيرة الحاضرة، و ثانيها: بحيرة المزوقة عند بن زرت، و ثالثها: بحيرة الكلبية بين القيروان و الساحل.

و أما الأنهر: فليس به إلّا نهر واحد و هو مجردة و منبعه من ولاية قسنطينة التابعة للجزائر، و ينحدر من هناك مشرقا مع زيادة تعاظمه بالجداول التي تصب فيه إلى أن يخترق القطر التونسي مارا من الغرب إلى الشرق في الجهة الشمالية من القطر، و تزداد مياهه أيضا بما يصب فيه من الجداول إلى أن يصب في البحر في جون رواد من شماليه قرب غار الملح، و هذا النهر و إن لم يكن سواه في هذا القطر فهو لا يحمل إلا القوارب الصغيرة في الصيف و أما في الشتاء فيمكن أنه يحمل القوارب الكبيرة لا السفن، و إذا تكاثرت الأمطار فإنه يفيض و يطفو على أراضي واسعة و ربما حصلت منه بعض أضرار.

و أما الجداول: فهي ليست بكثيرة جدا و لكنها خارقة لأغلب الجهات، و منها ما يجري دواما و منها ما يجري عند هطول الأمطار و من أشهر هاته الجداول واد ملآن و منبعه من جبال برقو من الجهة الجنوبية، و يخترق وطن رياح ثم ينحدر إلى أن يصب في البحر في رادس يبعد عن الحاضرة عشرة أميال، و كثيرا ما يمنع المارة عن عبوره عند كثرة الأمطار، و تارة يفيض لكن لا يحصل منه ضرر لمن يجاوره غير أنه يضر بمن يكون فيه من الرعاة و المارين، حيث أن فيضانه يأتي دفعا و جريان مائه سريعا لكثرة انحداره.

و أما العيون: فليست كثيرة في عموم القطر، لكنها تكثر جدا في الجهة الشمالية في جبال ماطر و جبال طبرقة و جبال باجة، و في الكاف عين عظيمة جدا كثرة ماء و عذوبة و برودة، حتى تقع المخاطرة في الصيف لمن يقتدر أن يرفع شيئا من قعر الماء الجاري عند منبعه، ثم تنحدر من الجبل و تسيح في البساط مهملة، و كذلك في إسبيله عين عظيمة و في زغوان و جقارعيون كثيرة، و بعضها و هو أكبرها مجلوب إلى تونس الآن في قنوات من حديد مع آثار القنوات القديمة التي كان جلب فيها الرومان الماء من هناك إلى قرطاجنة، و كذلك في الجريد عيون غزيرة عذبة الماء و حارة، كما يوجد بالقطر مياه كثيرة معدنية أشهرها ماء حمام الأنف النابع من جبل أبي قرنين و هو ماء حار عليه عدة حمامات، و الماء نابع من عدة عيون أحسنها عين حمام العريان، ثم عين الحمام الكبير و له نفع عظيم لعدة أمراض قد أفردت منافعه و كيفية استعماله برسالة خاصة للحكيم الكبير و ترجمها و نقحها العلامة بيرم الأول قدس تراه، و هذا الحمام يبعد عن الحاضرة خمسة عشر ميلا جهة الجنوب الشرقي مطلقا على شاطئ البحر جامع للترهه و النفع و التأنس، حيث كان

على الطريق العام الموصل إلى الساحل وغيره من أكبر جهات القطر و درجة حرارة مائه

صفوة الإختبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ١٦٨

من ٤٨ إلى ٤٩ من توروميتر صانتي غرام الذي هو ميزان للحرارة الذي سفره من الجمد، و المائة درجة هي درجة غليان الماء و كل ليتره منه وزن ألف غرام و عشرة غرامات و سبعة صانتي غرام، و معتاد الماء المطلق المقطر وزن ألف غرام و الغرام هو نوع من مقادير الموازين كل ثلاثين غراما بأوقية، و تفصيل الأجزاء التي في هذا الماء من المعادن هو ما يأتي بيانه:

صنتي غرام / غرام /

٠٠ / ٠٢٨ / ففى كل ألف غرام من الماء المذكور حامض فحم الجير

٠٠ / ٠١٢ / حامض المانيزيا

٠٠ / ٠٠٠ / حامض الحديد قليل

٥٢ / ٠٠١ / الجبس

١١ / ٠٠٠ / ملح ديسود

١١ / ٠٠٠ / ملح بوتاس

٧٥ / ٠٠٩ / مانيزيا كلولورد يسوديوم

٩٠ / ٠٠١ / كلولورد كالسيوم

٥٥ / ٠٠٠ / كلولورد يمانيزيوم

٠٧ / ٠٠٠ / كلولورد بيدتاسيوم

٠٧ / ٠٠٠ / آسيد سيلسيك أى طين البلور

و فى كل كيلو (٢٢٠) صانتي ميتر و مربع من الحامض الفحمى، و فيه ٢ ميلغرام من برومور و مانيزيا، و إصطلاح هاته الأعداد معلوم فى الحساب، و كذلك يوجد فيه حمام قريص البعيد عن الحمام السابق نحو أربعين ميلا فى الجهة الشرقية الجنوبية منه، و هو أكثر عيوننا و أشد حرارة و له نفع عظيم فى كثير من الأمراض العصبية و أمراض المواد الطيرية، و من غريب خواصه: أنه إذا وضعت دجاجة فى مجرى الماء قرب منبعه نحو بضع دقائق يزول ريشها بتمامه، بل أن بعضا من الأهالى يضع قدرة للطعام هناك فيطبخ اللحم أحسن طبخ و هكذا غيره إلا بيض الدجاج، فمع شدة تلك الحرارة و مع سهولة طبخ البيض فإنه لا ينضج و لو أبقى هناك يوما تاما، هكذا يروى عن كثير و أجزاءه تقرب من أجزاء ماء حمام الأنف.

و كذلك يوجد قرب رأس الجبل من وطن بن زرت حمام معدنى غير أنه لا يستعمل إلا عند بعض البوادي، و أهل القرى هناك، و لا شهرة له مع أنه كثير المنافع. و كذلك يوجد

صفوة الإختبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ١٦٩

فى النفيضة مياه معدنية نافعة للشرب و الإستحمام و هى مهجورة كغيرها من منابع الثروة و التقدم.

و أما جبال هذا القطر فتتصل به سلسلة جبال أطلس التى تتبدى من عرض ٢٨ درجة و تنتهى فى عرض ٣٧ فى مملكة المغرب، و أعلى رؤوسها بين فاس و مراکش و ارتفاعه على سطح البحر ثلاثة عشر ألف قدم و مائة قدم، و فى اختراقها للقطر التونسي عدة فروع أشهرها: جبال مطماطه، و جبل طبرقة، و جبل الرقبة، و جبل زغوان و هو أعلاها، و جبل الرصاص، و جبل أبى قرنين، و مناخ هاته الجبال هى الجهة الشمالية و الغربية الشمالية ثم لا تزال تنخفض و تضيق عند توجهها للجنوب مارة بقرب سواحل البحر إلى أن تتصل بجبال الودارنه من عمل الأعراض، و عدا هاته لا يوجد جهة الجنوب إلا ربى لا اعتبار لها و ليس منها جبل بلكاني إلا جبل أبى قرنين، فإن الآثار دالة على أنه كان فى الأصل بلكان حيث يوجد فى قمته العليا فوهة مسدومة الآن، مع منابع الماء الحار المتدفقة منه و مع

الإنفجار البليغ الكائن في أحد رؤوسه التي بقرب البحر في الجهة الشمالية منه، المعروفة بضربة السيف الحادث ذلك الإنفجار الهائل بسبب الزلزال الشديد الذي هو من علايق البلكانية.

وقد علمنا مما مر أن في الحد الجنوبي الصحراء الكبيرة، وقد قال قوم: إنها كانت بحرا متصله بالبحر الأبيض بخليج من شطوط قابس، و مما يستدلون به الأرض السواخه التي بين الشاطيء المذكور و الصحراء، و رام «فرديناند ديلسبس» الرجل الشهير بأعمال خليج السويس أن يحفر خليج قابس لكي يصير البحر في وسط أفريقيه، و حققوا أن سطح البحر أعلى من سطح الصحراء بما يحمل السفن الكبيرة و أن البحر يمد هناك إلى طول نحو ثلاثمائة ميل، و رأى قوم امتناع ذلك.

و لكن المرید اشتغل الآن بخليج بنما في أمريكا فترك الكلام و العمل في بحر الصحراء.

و أما معادن هذا القطر فهي لم تزل في حجب الترك و لا شك أنها غنيه نافعته، و المحقق منها الآن المعروف هو الرصاص و الفضة في كل من جبل الرصاص و دجبه.

و أولها: كان مستعملا بكثرة و آثار خدمه الرومان له العظيمة لا زالت إلى الآن، و استخراج المعدن منه لا يحتاج لكبير معالجه، حتى أن الاعراب تأخذ منه ما تريد و لهذا صار إسم المعدن عنوانا على الجبل، و قد منح في وزارة «مصطفى خزنه دار» إلى أحد الطليان ثم انتقلت منحتة إلى لجنة طليانية و لم تزل بأيديهم إلى الآن من غير حصول فائده لهم و لا للبلاد.

صفحة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ١٧٠

- و ثانيها: الآن بيد لجنة فرنساوية هي صاحبه امتياز طريق الحديد، و الظاهر من أعمالها السريعه المجدده أنها تستخدمه عن قرب و إن كانت إلى الآن لم تحدث فيه شيئا، كما يوجد المعدنان المذكوران في جهات آخر من جبل الرقبه و كذلك قرب اسبيطله، كما يوجد قرب هاته معدن من الذهب، و في وطن أولاد عون يوجد القزدير و الزئبق و يوجد الحديد في الجبل الأحمر قرب «باردو» و في دجبه، و هو غني سهل الإستخراج في كليهما كما يوجد السيمان في الجبل الأحمر و هو غني سهل و يوجد فيه الفحم الحجري أيضا، كما يوجد معدن المرمر الرفيع الأحمر و الأخضر الذي كانت تستعمله الرومان و القرطاجين في هياكلهم الشهيره، و هو قرب طبريه. و آثار استخراج الأقدمين موجوده بعدها البوادي غير أن تأوى إليها، كما يوجد الرخام الأسود في جبل أشكل من وطن ماطر، و يوجد الكذال الرفيع الصلب في جبل أبي قرنين و هو مستعمل إلى الآن و يسمى محله مقطع الحجر، و كذلك في الجبل الأحمر الجبس كما يوجد الملح في سباح عديده، أشهرها: سبخه سكره، قرب الحاضر. و في عشره الثمانين و المائتين و ألف أرسلت دوله فرنسا أحد علماء الطبيعات بطلب من الحكومه التونسيه و طاف في جميع القطر بتدقيق، و كتب ما يشتمل عليه من المعادن و مقدار درجتها و أما كنهها لكن بعض تلك التقارير لم تصل للحكومه التونسيه إلى الآن.

و أما أراضي هذا القطر فهي خصبه جدا تبعا لماء السماء و كأنها لكثرة خصبها و اشتمالها على أكمل الصفات الحميده خصت بإسم أفريقيه من باب إطلاق العام على الخاص لمزيه فيه، حتى صار كأنه هو الجميع أو أن أصل الإسم خاص بهذا القطر، ثم سمي به جميع ما اتصل به من القاره، و يؤيده تسميه الجهه الأكثر خصبا منه بخصوص هذا الإسم، و هي الجهه الشماليه الشامله لماطر و باجه و ما بينهما، فإنها إلى الآن تسمى على لسان العام و الخاص بأفريقيه غير أنهم يبدلون القاف كافا مفخمه، و ينقسم القطر إلى ثلاثة أقسام باعتبار الخصب.

فالجهه الشماليه التي هي أكثر جبالا- هي الأ-كثر خصبا على مرور السنين، فالمزارعون هناك لا تكاد تجد سنه لا يربحون فيها من مزروعاتهم، و لا أقل أنهم لا يخسرون شيئا.

و على الخصوص في هذا جهه جبال ماطر كما أن الخصب في هاته الجهات لا يتجاوز الحدود المتعارفه في الريح.

و أما القسم الثاني: فهو الجهه الوسطى من القطر و الجهه الشرقيه من الجنوب على قرب من البحر، و ذلك كالساحل و القيروان و الأ-عراض و صفاقس و خصب هذا القسم باعتبار السنين و ما فيها من المطر قلّه و كثرة، و حيث كان نزول المطر في تلك الجهات

قليلا فكذلك الخصب قليل، ففي العشر سنين مثلا يحصل عندهم الخصب مرة أو مرتين لكنه خصب خارق للعادة، و يكاد السامع أن لا يصدق به أولا

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ١٧١

ما شهد به العيان و تواتر النقل فيه حتى بلغ حد القطع، فإن رجلا زرع في أراضي الساحل التابعة لبلد سوسة ربع قفيز قمحا فحصل مائة قفيز و خمسة عشر قفيزا، و بلوغ هاته الدرجة قليل و الكثير أن من يزرع قفيزا يأخذ من الستة عشر قفيزا إلى الخمسة و الثلاثين قفيزا، و قد حكى الوزير أبو محمد خير الدين باشا، عندما كان وزيرا بتونس إلى نائب إحدى الدول ما يحصل بتلك الجهة من عظم الخصب، و أن الأمير أحمد باشا كان أتى في أحد أسفاره بجذر من شعييرة واحدة أنبتت ستمائة سنبله و أزيد، فظهر على وجه النائب استبعاد الحقيقة و سكت الوزير إذ ذاك ثم أرسل إلى عامل القيروان و جلاص بأن يبحث عند استواء الزرع على أعظم جذر و أكثره سنابل، فأرسل إليه صندوقين عظيمين بكل واحد منهما جذر واحد فاستدعى الوزير ذلك النائب و معه طائفة من الأعيان و أراهم الجذور فاعتنوا بأنفسهم بالبحث عن المنبت و وجدوا أصله شعييرة واحدة، و عدوا كم تفرع في أحدها فتجاوزوا في العد الأربعمائة و الخمسين و بقي نحو الثلث بلا عد، و قالوا يكفى الذى تحمل منه هذا العدد فله أن يتجاوز حتى الألف، و يعظم طول السنبل أيضا حتى يحجب الفارس بفرسه إذا مر فيه، و العادة عند فلاحة تلك الجهات أن يزرعوا حبات الشعير كزرع الشجر، أعنى يتركون بين الشعيرة و الشعيرة مسافة واسعة و أما بقية السنين فأما أن يخسروا رأس المال أو بعضه أو يحصل لهم ربح يسير، و ذلك لقله نزول الأمطار بتلك الجهات لخلوها عن الجبال المرتفعة و الأشجار الطويلة، و أراضي هذا القسم يلزمها البذر القليل بالنسبة للقسم الأول، فالمقدار من الأرض الذى يبذر فيه قفيز في القسم الأول يبذر فيه في هذا القسم الربع و أقل.

و أما القسم الثالث: فهو غير صالح لزرع الحبوب بالمره، و هو الجهة الجنوبية المسماة بالجريد لأنها أراضي متسعة من الرمل و قريبة إلى الصحراء الكبيرة و لا تصب فيها المطر إلا نادرا، و إذا صبت أضرت بأهلها لأن نباتهم أكثره النخيل و المطر تضر بثمره العجيب و أما نبات هذا القطر فأغلب زراعته أهلها في القسم الشمالى و الأوسط هى الحبوب من القمح و الشعير، و أقل منها الذرة و الفول و الدرع و الجرجلان و الحبة الحلوى و الكروية و البساس و التابل و الحبة السوداء و الكتان و القطن و اللوبياء و البطاطس و الحمص و العدس، و لكثرة خصب هاته الأشياء كان هذا القطر يسمى بمخزن حبوب روما، و يزرعون من البقول الطماطم و البصل و الصلق و الكرنب و البروكلو و الفناوية أى الباميا و الملوخية و الفلفل الأخضر و الأحمر و المعدنوس و السنباخ و الكرضون و الدبا بأنواعها، و الحمقاء و الشبث و الثوم و الخس و السكوريا و البراصا و الفجل و السماق و الكلافس و الفراولو و البطيخ الأحمر و الأخضر و القثاء و اللفت و الكسيرا و بوخريش و الإسطفيلينا، و فيه أنواع بريئة عجيبة الرائحة و المنظر لا يحيط بها إلا خالقها، و منها: القيقوان و البابونج و الأتاي

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ١٧٢

و هو غير مستعمل، و فيه من الأزهار المستتبته زهر البنفسج و ينبت بنفسه أيضا فى زغوان و غيره من أماكن المياه الكثيرة، و هكذا الورد و الياسمين بأنواعهما و الفل و القرنفل على أنواع شتى و غير ذلك من الزهور الطيبة الزكية، بحيث تكون جبال هذا القطر و أوديته و بساينه أيام الربيع و أواخر الشتاء و أوائل الصيف روضة نضرة بألوان النبات المخضرة به الأرض و أنواع الزهور و النور المختلف الأشكال و الروائح.

و مما ينبت بنفسه القرنين الخارج من الخرشف الذى يقال أنه الجزر و السكوم، و ينبت فيه جميع النباتات من الكلا البرى و من أحسنه لغذاء الحيوانات النجم و فى الجهات الشمالية آجام و غياض و غابات عظيمة غنية، و أشهرها: غابة طبرقه، يستخرج منها الأخشاب لبناء السفن و الخفاف و أعواد السقوف من الطرفا و غيرها، مع المتانة و الدوام، و العجب أنها مع كثرتها فتجارة الأخشاب المجلوبة من أوروبا رائجة فى أغلب حواضر القطر، و لتلك الغابات أشجار عظيمة جدا، ذكر لى ثقة: «أنه رأى فى غابة طبرقه شجرة من الزيتون

أحاط بساقها ستة عشر رجلا، كل منهم فاتح يديه للغاية ليمسك صاحبه». و أشجار تلك الغابات هي الذرو و الصفصاف و البلوط و البندق و القسطل و الزان و الفرنان، و منه يستخرج الخفاف و قشره لدبغ الجلود، و فيه تجارة رائجة و شجر النشم و الدردار و العرعار و غيرها من غير ذات الثمر.

كما يوجد فيها ذات الثمر نحو الجوز، و لأخشابه سوق نافعة كما لعروقه أيضا، فإنهم يأخذون قشرها و يستعملونه للصبغ و غيره، و أكثر هذا في جبل زغوان و كل تلك الأشجار و الغابات نابتة بنفسها من غير حراسة إلا لحفظ طبرقة من جهة البحر، لأن للحكومة معلوما على الخفاف و هي مختصة بأخشاب السفن، كما لها معلوم على نوع من قشر الفرنان المستعمل للدبغ و بقيه المنافع مكنوزة أو ضائعة.

و يستنبت في جميع جهات القطر شجرة الزيتون المباركة إلا في الجهة الضاربة للجنوب و كيفية غراسه على أنواع. فمنها: أن يؤخذ قطعة من الفروع الغضة بأوراقها و فروعها فتغرس و تبقى الفروع ظاهرة و يسمى الشطبة و هو أردوها. و منها: أن يقطع من فروع الشجرة ما بلغ و لم يجف و يقطع في طول ذراع ثم يحفر إليه عمق ذراعين في طولهما و عرضهما، و تلقى تلك القطعة المسماة بالقنوط هناك ممتدة مع خلط التراب الذي تردم به بالسرقين و هو المسمى عندهم بالغبار. و منها: ما يؤخذ من قاعدة الشجرة الجافة عند بدو اللقاح منها و يقطع بآله من حديد مكربا، حيث أن أصل خلقته في القاعدة كذلك إلى أن يبقى ماسكا للأصل

صفوة الإختبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ١٧٣

شئ قليل فيجذب باليد لكي ينسلخ من القشر سلخا، و يغرس على النحو السابق و يسمى السلعة. و منها: أن يزرع النوى و بعد كبر شجرها تلقح من شجرة الزيتون، لأن النابت من النوى يخرج ثمره ردينا لا زيت فيه، و هو المسمى بالجوز و يوجد من هذا النوع غابات كثيرة مهملة في الجبال و غيرها و أعظمها ما بين إسيطله و القيروان. و منها: ما يزرع من القنوط المذكور لكن ليس كل شجرة منفردة من أول الأمر بل يزرع عدد كثير منها في مكان مخصوص متقارب لبعضه و يسمى بالمشئلة، و بعد ثلاث سنين من نباته تنقل كل شجرة لمحلها، و هذا الصنف هو الأكثر استعمالا و للأهالي اعتناء بإتقانه و تنميته و سقيه، و الأغلب في هاته الشجرة أن تستنبت من غير سقى إلا في السنين الأولى، فإذا ثبتت عروقها ترك سقيها إلا بما يأتيها من ماء المطر، و لثمرها أنواع كثيرة مختلفة في الطعم و الزيت كثرة و قلة و الأغلب هو النوع الأسود الصغير الحجم و هو العام، و يختلف زيتة بالنظر للكثرة و الحسن على حسب الأرض التي يزرع بها، فما يزرع في الجبال و الأراضي الكثيرة الحجارة يكون أكثر زيتا و أحسن زيوت هذا القطر زيت زيتون بلد قفصة و بلد توزر فإنه ألد طعما و أنقى لونا كأنه ماء لا يكاد يبدوا من الزجاجه إذا وضع فيها، و من أنواع الزيتون الحسنه الطعم النوع المسمى بالمرسلين، و هو أخضر متوسط الحجم مائل إلى الطول دقيق النوى، و يتقن صنعه أهل زغوان بالنارنج و أهل الحاضرة بذلك أيضا و بالليمون و الفلفل الأحمر و الأخضر، و مثله النوع المسمى بالطازلا، الكبير الحجم جدا الأسود اللون، و من أنواعه الحسان المسمى بالمسكى و هو مكرب مائل إلى البياض بخضرة، و بقيه أنواع الأشجار المستنبته فمنها البرد قال أي النارنج الغير المرّ و فيه أنواع و هي:

الطرابلسي، و المالطي، و الجبالي، و أغرب نوع لم أره في غير هذا القطر مع البحث عنه البرد قال المسكى، و هي لا حموضه فيه أصلا بل فيه حلاوة زائده كأنه مخلوط بسكر أو عسل، و منها النارنج و الليم الحلو و الليمون الحامض و فيه أنواع.

منها: ما يبقى في جميع الفصول الأربعة و الكمثرى و فيها أنواع لكل زمن من فصول السنه نوع و قد نقل من أوروبا أنواع تعظم كثيرا و عنى بتربيتها بعضهم فأنتجت في السنين الأولى ثم أخذت في التراجع، و التفاح مثل ذلك و الشمس و منه نوع يسمى بالشاشي، صغير مبيض منقط بحمره أو سواد لم أر مثله فيما رأيت من الأقاليم طعما و نكهة، و الإجااص بأنواع كثيرة منه الأحمر و الأسود و الأبيض و الأخضر و المكرب و المستطيل و الصغير و الكبير، و يسمى بالعوينه، و أحسنه المسكى و هو صغير مستطيل، و اللوز و

العنب و التين و الخوخ و الهندي أى التين الهندي، و هو نوع يخرج من شجرة لها شوك كثير و لا- ساق لها، و ورقها مثل أظلاف الإبل، له شوك كثير و يسمى فى المشرق بالصبارة، و يستعمل صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ١٧٤

بكثره سياجا على البساتين و هو مرغوب فيه فى هذا القطر لتمتعش أقوام مثل جلاص و تفكه الآخريين و لو من أهل المدن، لطيب نكهته و طعمه مع قلة ضرره إلا إذا أكثر أكله على جوع فإنه قابض جدًا ربما قتل بذلك، و من طبيعته أنه يكثر فى سنين الجذب أى فى العام الذى تقل فيه الأمطار، و لذلك صار الهندي أهم النبات النافع للفقراء.

كما يستنبت فى هذا الإقليم التبغ أى ورق التدخين و النشوق، فأما ورق التدخين: ففيه الجيد و لكنه لا- يبلغ إلى أعلى نوع منه، و أما ورق النشوق: فإنه أعلى من جميع أنواع ما يزرع منه فى غير هذا القطر، سيما ما يزرع منه فى جهة باجة و تبرسق و قربة، و عادة دقه فى هذا القطر أنه يدق ناعما للغاية و قد كانت فيه أرباح للقطر بكثرة خروجه منه، و الآن صار يجلب إليه كثير من الخارج لتجوير الحكومة زرعه بإطلاق، حيث كان لها عليه آداء وافر، و ينبت أيضا الجوز و السفرجل و العناب و الزعرور و الرمان و بوصاع و الموز و النخيل، غير أنه فى غير الجريد لا يثمر إلا ثلاثة أنواع و هى: البسر الأخضر و الأصفر و الرطب، و أما فى الجريد فله أنواع عدها بعضهم ثمانين نوعا، و اختص على جميع ما علمنا من الأقاليم رؤيه و سماعا بالنوع المسمى بالدقلة الذى لا نظير له حلاوة و لذة طعم، و يحمل منه لسائر المعمور رغبة فيه إلى غير ذلك من سائر نباتات الأقاليم المعتدلة، لا سيما الجبال الشمالية الكثيرة المياه فإنها يوجد بها حتى بعض نباتات الأقاليم الباردة، و هى على ممر الأيام نضرة خضرة بما كساها الله من جمال النبات و الخصب.

و أما هواء هذا القطر فهو معتدل الأ-غلب، و الجهة الجنوبية يغلب فيها الحرّ و إذا هب الريح الجنوبي على أى جهة و فى أى وقت يحصل منه الحرّ لا سيما فى الصيف فإنه يؤذى بحره حتى بعض الثمار و الأشجار، و فى غير ذلك الاعتدال هو الغالب و يشتد البرد فى الشتاء لكن لا يصل إلى إنجماد الماء أو نزول الثلج إلا نادرا، نعم فى جبال الشمال المرتفعة يحصل الجمد فى كل سنة بل يبقى الثلج فى بعضها و لو فى الصيف لكنه قليل، و أغلب جهات القطر سليمة الهواء موافقة للصحة و فيه جهات حسنة الهواء جدا نافعة للمرضى و لو بمرض السلّ الذى أحسن علاجاته الهواء لأن مجلسه الرئة، فمن هاته الجهات الحسنة المشهورة، المكان المعروف برأس الجبل، و هو جهة الشمال من القطر بقرب شاطيء البحر تبعد القرية التى هى مركزه على البحر نحو أربعة أميال، و البحر من شماليها و هو على سفح جبل منخفض مرمّل تحف بها بساتين ناضرة إلى البحر تسقى بآبار ذات ماء حلو جيد نقى، و على شاطيء البحر عين عذبة ضعيفة الجريان لكنها نابعة من الصخر حلوة جدا نقيه مسرعة للهضم كثيرا بحيث يصير الشارب منها يأكل أكثر من عادته، و كذلك من الأماكن الشهيرة بحسن الماء و الهواء بلدنا بل التى هى قاعدة الوطن القبلى، و هى على مبتدىء الرأس الطويل رأس أدار عند اتصاله بالقارة، تبعد على البحر نحو ميل و هو من شرقيها الجنوبي، و هى فى وهاد مرمّل وراءها جبل و أمامها بحر و تحديق بها البساتين و الجنان بأنواع الليمون و البردقال و غيرهما من الفواكه.

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ١٧٥

و أحسن من هذين المكانين هواء الجبل المعروف بالأنصارين يبعد على الحاضرة نحو ستين ميلا جهة الشمال مع بعده عن البحر فإن هواءه لارتفاعه يغلب عليه البرد، و فى أعاليه مسارح و مزارع متسعة و عيون دافقة و أجام و غياض نضرة لا يركد فيها الماء بل ينحدر إلى أسفل و الشاهد على أن هذا المكان أحسن هواء من جميع جهات القطر، أن أهله لم يصيبهم كثير من الأمراض الوبائية مع أن كل تلك الأمراض عمت القطر التونسي عدة مرار، و لم يعلم أن أحدا من أهل ذلك المكان أصيب بشيء من ذلك، بل إن الوافد إليه يسلم عند الحلول به و سبحان من خص ما شاء بما شاء. غير أن هذا المكان به عاهة صعباء هى كثرة الحيات المؤذية به و الله لطيف، كما يوجد بالقطر جهات و خمة رديئة الهواء، فأولها: نفضة من عمل الجريد، و ثانيها: باجة قاعدة العمل المسمى بها، فيغلب على

أهاليها الأمراض و ترى وجوههم صفرا و الوافدون عليهم فى أقل زمن يمرضون، لا سيما فى الصيف، و أما غير ما تقدم فالهواء معتدل سليم.

و أما حيوانات هذا القطر ففيه أغلب حيوانات أقاليم الاعتدال أنيسة و وحشية، فمن الوحشية الأسد و أغلبه فى الجهة الغربية و يضرب المثل بجرأة أسد عرار من أقسام تلك الجهة، و النمر فى كل الأجام القليلة العمران، و الضبع و الذئب و الثعلب و الفهد و النمى و هو النسناس و الخنزير و بقر الوحش و الغزال و الأرنب و الذربال و القنفذ و الوعل و الورل و الجرذ على أنواع، و البقر الجاموس كان جلب و سرح فى جبال ماطر و جبل أشكل الذى تحيط به بحيرة أشكل و هى حلوى، فتناسل هناك و تكاثر و هو على ملك الحكومة و توحش بحيث صار إذا احتيج إلى شىء منه يلزم صيده حيا، و قد تأخذ منه الحكومة أو بعض رجالها لجر الأثقال و اللين و قد قل فى هاته المدة لكثرة صيد الولاة و عدم حراسته حقيقة.

و يوجد فى القطر من الحشرات: الثعبان و لا سيما فى جبال الودارنه فإنه يعظم جدا، لكنه غير مضر هناك بحيث يكون مساكنهم كأنه من الحيوانات الأليفة كالقط و أشباهه، و هم لا يؤذونه و هو لا يضر و لا ينضر منهم و يبلغ طول الواحد إلى ثمانية أذرع و غلظه أزيد من شبرين، و أما فى جهات الجريد و الصحراء فهناك أنواع من الثعبان مضره، و منه نوع يسمى «بالزريق» رقيق قوى جدا إذا قصد شيئا يظفر عليه فيخرقه كالسهم، و كذلك الحيات القتالة و توجد بكثرة فى الشبيكا و تامغزا من الجريد و العقارب فى الجهات، غير أن كثرتها الفادحة فى الجريد. و هى مؤذية و لا سيما فى القيروان و فى بعض الجهات لا أذية منها كما فى بارود مقر الأمراء بل لا تكاد توجد هناك، و فى جبل المنار توجد بكثرة صغيرة الجرم لا أذية منها، و كذلك يوجد العنكبوت و تارة يعظم إلى أن يصير فى حجم العصفور الصغير و هو قليل الأذية، و كذلك يوجد النمل على أنواع شتى و كثيرا ما يضر بالزرع من القمح و الشعير، و كذلك الجراد يأتى فى بعض السنين و يضر بالنبات جميعا إذا كان كثيرا، و الخنفس على أنواع شتى، و الوزغ و الحرباء و غير ذلك مما هو قليل الوجود فى هذا القطر.

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ١٧٦

و أما الحيوانات الأنيسة فيوجد منها الخيل و منها الجياد العتيقة العراب، و أكثر ألوانها الزرق أى الشهب المشوبة بالسواد و بقيه الألوان، كالحمير و الكميت و الدهم، و الشهب موجودة أيضا بكثرة غير أنها أقل من الأول، و يوجد بقله البلق و الصفر، و هذا الجنس يستعمل للركوب و جر العجلات بأنواعها و الحرث، و مثله البغال، و أما الحمير فهى موجودة بكثرة لكنها لا تستعمل لركوب أهالى المدن و أعيان القبائل بل عادتهم الإستحياء من ركوبها، و إنما تتركب من عامه الاعراب و السوقه و تستعمل للحمل و مثل ذلك الإبل فلا تتركب إلا كما تقدم فى الحمير، و كذلك يوجد البقر و الضأن و المعز و الكلاب على أنواع، و منها: السلوقية و القط.

و أما الطيور فى هذا القطر فمنها الأنيسة و هى الدجاج على أنواع و الأوز و البط و الدجاج الهنذى و هذا النوع اختلفت أسماؤه فترى كل إقليم ينسبه إلى جهة، ففى تونس قد رأيت نسبه و فى غيرها بعض يقول رومى و آخرون فارسى و آخرون صينى الخ، و كذلك يوجد الحمام على أنواع شتى، و غير هذه الأجناس يجلب بقله مشغلة للترف، و أما الوحشية فمنها المقيم و منها الرحالة.

فأما المقيم فمنه: البرزويش أى عصفور البيوت و هذا النوع لا تكاد تخلو منه بلاد و إن اختلفت بشدة الحرّ و البرد، فقد رأيت فى لندره كما رأيت فى مكة المشرفة لا فرق بين ذا و ذا سوى تأثير فى اللون، ففى البلاد الباردة يميل لونه إلى السواد و فى البلاد الحارة يميل لونه إلى البياض، و منه القنابر و الزريص و الحمام و الحجل و المقنين و الشبروش و دجاج الحرث و الغر و النسر و العقاب و الفاس و البرنى و العصفور الكانالو غير أنه يربى و الزراعة و بورأس و الغراب و غراب الزرع و الفاخت و خادم الحجل و الطوطو و المرل.

و أما الرحالة فمنها: الإوز و البط و الغرنوق و الكركى و الدراج و السمان و البلبل و المنيار و السبيط و الزرزور و الابليل و الخطاف و الهدهد.

و أما مدن هذا القطر فقاعدته تونس، و هى فى عرض ست و ثلاثين درجة و ست و أربعين دقيقة و ثمان و أربعين ثانية شمالا، و طول

تسع درجات شرقا من باريس بقرب من ساحل البحر الأبيض على جون سيدى أبى سعيد على تسعة أميال منه، يفصل بينهما بحيرة ملحة لها منفذان إلى البحر تمر بهما القوارب، أحدهما: يمر فى حلق الوادى. و الثانى: بينه و بين رادس.

و البحيرة قليلة العمق بها جزيرة تسمى شكلى بها حصن قديم و على شاطئها على حافة البلاد مرسى للقوارب الحاملة للبضائع و الركاب، بين القاعدة و مرسى حلق الوادى، و يتصل بهاته المرسى أى مرسى البحيرة بالحاضرة فرع من طريق الحديد الغربية، و يقال إنه عقدت مع لجنة فرنساوية تسمى لجنة بون كالمه و هى صاحبة امتياز طريق الحديد الغربية شروط فى جعل تلك المرسى مؤتمنا للسفن،

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ١٧٧

و يلزم لذلك حفر البحيرة و غير ذلك من الأعمال.

و هاته القاعدة هى أكثر طولاً من الشمال إلى الجنوب من العرض، و يحيط بها سور إلاً من جهة الشرق فإن حدها هناك هو البحيرة المذكورة، كما أن السور ابتدئ فيه من جهة الجنوب و لم يتم ما بين باب الفلة و باب القرجانى، و فى السور تسعة أبواب. أولها: فى قرب نهاية السور عند اتصاله بالبحيرة من جهة الشرق الشمالى و يفتح الباب إلى الشمال و يسمى باب الخضراء، ثم يليه باب ابن عبد السلام، ثم باب سعدون، ثم باب حومة العلوج، ثم باب سيدى عبد الله، ثم باب سيدى قاسم، ثم باب القرجانى، ثم باب الفلة، ثم باب عليوه، و هو فى نهاية السور من جهة الجنوب الشرقى عند اتصاله بالبحيرة أيضاً. و لهاته القاعدة حصون على كل باب إلا- باب حومة العلوج، و فى خلال السور حصون أخرى كحصن القصبه و هو أكبرها و موقعه على أعلى ربوة فى البلاد، لأن البلاد جاءت فى سفح ربوتين متصاعدة فيهما، إحداهما: ربوة القصبه، و الثانية: ربوة القرجانى.

و من الحصون حصن درب بن عسال، و حصن سيدى يحيى، و خارجها أيضاً بقرب منها حصون، فمنها: حصن الجلاز على أعلى رأس فى جبل الجلاز من جهة الجنوب للحاضرة، و منها: حصن الرابط فى الجهة الشمالية الغربية فى الجبل الأخضر، و بقربه: حصن فليل، و حصن: زواره. و أمام حصن القصبه داخل المدينة بطحاء عظيمة و فى جهتها الجنوبية سراية المملكة التى بناها حموده باشا و لآلت معتنى بها إلى الآن، و هى مقر الحكومة و الوالى عند وفوده للحاضرة.

و فى جهتي الشرق و الشمال من البطحاء سوق ذو حوانيت و أمامها مظلات مرفوعة على أعمدة من الرخام. و فى جهتها الغربية الحصن و بوسطها جنية و فواره للماء من ماء زغوان، و يحيط بالمدينة فاصلاً بينها و بين الرضين طريق متسع و أشهر الأماكن الرحبية بالحاضرة بطحاء رمضان باى، و بقربها مركز الضابطية، و بطحاء الممر بررض باب الجزيرة، و كذلك بطحاء المراكز أمام القشلة الحسينية، و بطحاء الحلفاوين بررض باب السوق، و به أيضاً بطحاء التبانين، و بين الرضين بطحاء باب البحر و هى أنزه و أرحب الأماكن و حولها بناءات أنيقة، و بوسطها جنية و فواره و يمر منها طريق عظيم متسع إلى مرسى البحيرة، و ذلك المكان هو منتزه الأهالى فى عشايا الصيف لأن حول الطريق العريض أشجار و قهاوى و ملاهى، و حول باب البحر و بقربه حارات الإفرنج و يتصل بها حارات اليهود.

و ماء زغوان مخترق لأغلب جهات البلد فى قنوات من حديد، و أغلب الأسواق متصل ببعضه ببعض، و قد كانت كل صناعة لها سوق مخصوص لكن الآن وقع بعض تداخل، و مناخ هاته الأسواق هو الجهة الغربية من المدينة حول جامع الزيتونة الذى هو بقرب القصبه المار ذكرها، و جامع الزيتونة هو أول جامع بنى بالحاضرة و كان تمامه سنة

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ١٧٨

١٤١ حسبما كتب ذلك على أفواس بيت الصلاة بالقوس المواجه لمحل المصحف فنقش عليه تاريخه، لفظ: «اعلم».

و هذا الجامع هو أعظم جامع بالحاضرة و هو بركة أهلها و لا يخلو من رجل صالح، و هو مناخ العلوم و نتجت فيه فحول عظام قديما و

حديثاً، وإن كان أقدم منه في البناء جامع القصر لأنه كان كنيسة قبل الفتح فصار جامعاً، وتشتمل الحاضرة على سبعة جوامع خطب للحنفية وأعظمها جامع محمد باي تجاه زاوية سيد محرز بن خلف، وبقية الجوامع والمساجد البالغة نحو ثلاثمائة كلها مالكية وأعظمها جامع الزيتون، وفي الحاضرة زوايا كثيرة منها ما به ضريح سادات من الصالحين كزاوية سيدي محرز بن خلف عماد البلدة رضى الله عنه، وزاوية سيدي علي بن زياد من كبار أصحاب مالك بن أنس، وزاوية سيدي أحمد بن عروس، وزاوية سيدي منصور، وغيرهم رضى الله عنهم وتبلغ أزيد من مائتي زاوية.

وسكان الحاضرة تقرب عددهم نحو مائة وخمسين ألف نسمة منهم نصارى، وآفدون اتباع الدول الأجنبية نحو عشرين ألفاً، ويهود نحو أربعين ألفاً، والمسلمون ما بين أهالي أو جزائريين نحو تسعين ألفاً، وبقرب الحاضرة على نحو ثلاثة أميال من الغرب الشمالى بلدة باردو التي هي مقر الحكومة، وتشتمل على قصور للإدارة ومسكن الوالى وقرايته وعلى جامع واحد وحمام، ولها قاض خاص. وحول الحاضرة إلى مسيرة تسعة أميال وأقل بساتين وعمران وأحسنها المكان المسمى منوبه، لاشتماله على قصور جميلة في بساتين أنيقة، وبها قرية حول زاوية الولية الصالحة السيدة عائشة المنوبية، وهي في الجهة الغربية من الحاضرة على مسيرة تسعة أميال، وفي الجهة الشمالية بساتين أريانة تضاهي السابقة مع حسن هوائها، ثم في الجهة الشرقية بساتين مرسى قرطاجنة التي هي أنزه وأبهى مكان حول الحاضرة تبعد عنها نحو سبعة عشر ميلاً على شاطئ البحر الذي مجدت محاسنه شعراء

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ١٧٩

القطر، وقال أبو عبد الله الباجي المسعودي فيه عدة موشحات منها قوله:

يا شاطئ المرسى السلام عليك يا نزهة العيون

وأشهر أماكنها العبدلية المشتملة على سوق وقصور أنيقة لولى العهد فى الولاية الأمير على باي، وفى الجنوب الشرقى من الحاضرة على بعد تسعة أميال مستقيماً مرسى حلق الوادى التي هي أكبر مراسى القطر، ويكثر سكانها صيفا حيث ينتقل الوالى والحكومة إليها وكثير من اليهود للتنزه بها ويبلغ سكانها إذ ذاك إلى نحو ثلاثين ألفاً، وقد أحدث خارج سورها بناآت كثيرة نحو بلدة جديدة فى شرقها على ترتيب هندسى، وبينها وبين مرسى قرطاجنة المتقدمة بلدة جبل المنار هي أقرب إلى الثانية، وهي مقر انتزاه أهل الحاضرة فى الصيف، تشتمل على أزيد من أربعمائه دار أغلبها أنيق متقن مطلة على البحر بحيث يراها القادم فى البحر على أحسن منظر لتصاعدها فى الجبل مع ترويق الأبنية، وإن كانت طرقها وسخه وقد التفتوا فى المدة الأخيرة إلى شىء من نظافتها. وتشتمل على ضريح الوالى الصالح سيدي أبى سعيد الباجي، وغيره من الأولياء رضى الله عنهم، وتنسب البلدة إلى سيدي أبى سعيد.

كما أنه بين هاته البلدة و بلدة حلق الوادى عدة قرى فى مكان مدينه قرطاجنة العتيقة التي هي الآن خراب ولم يبق منها قائما إلا مواجل الماء، وقد كانت مسدومة بالتراب، ثم فى هاته المدة الأخيرة فرغت منه ووجدت حيطانها و طليها أحسن مما بينى جديداً، وهي نحو إحدى عشرة ماجلا متصلة ببعضها بمنافذ ولا تحتاج إلا لشىء يسير من الإصلاح، وهي من المباني العجيبة التي تقصدها السواح لرؤيتها، كما أن خرائب قرطاجنة لا زال يستخرج منها الصخور الضخمة والاسطوانات المرمر، وكثير من الإفرنج يبحث فيها على الأشياء العتيقة ويستخرج منها تصاوير وأصنام وصناديق من رخام عليها كتابات عتيقة، وهي قبور لقدمائهم وتارة يستخرج بعض فصوص منقوش عليها تصاوير فى غاية الإتقان، فمنها:

فص قدر الظفر منقوش به عجلة وأربعة من الخيل، ومن اتقان النقش أن صفائح الخيل تظهر مساميرها ولا يستبين عجبها إلا بالمرآة المكبرة، كما يستخرج أحيانا قطع من السكة ذهباً أو غيره.

والحاصل أن هاتيك الجهات وما حولها إلى الجبل الخاوى لا زالت تشتمل على عجائب من آثار الأقدمين، ومن القرى الواقعة هناك الآن أشبه شىء بالخراب المعلقة ودوار الشط ثم بينهما وبين حلق الوادى بساتين قرطاجنة على الشط، وهي جميلة ذات قصور أنيقة. وفي الجهة الشمالية الشرقية من الحاضر بساتين سكرة، وسميت بذلك لأنها كان

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ١٨٠

يزرع بها قصب السكر بكثرة، و تسقى من عين عظيمة عذبة مارة تحت الأرض لا يعلم منبعها و إنما هي آتية من الشمال الغربي ذاهبة إلى الشرق الجنوبي في قناة من البناء المتقن، و الآن عليها آبار كثيرة و لكن من التقهقر صارت تلك الجهة كأنها خلاء و ليس بها قصبه واحدة سكرية، إذ صار هواؤها رديئا من السبخة التي هي في شمالها الشرقي بينها و بين بساتين قرت التي هي قرب شاطئ البحر شمالي الجبل الخاوي، و فيها جبال عظيمة من الرمل المنتقل أهلكت أغلب بساتين تلك الجهة و هي آتية من الشمال محاذية للشاطئ ذاهبة إلى الجنوب و كأنها من الرمال التي يقذفها البحر بعد التصفيه مما يأتي به نهر مجردة.

و المدينة الثانية في القطر هي: القيروان، و هي اختطتها الصحابة رضوان الله عليهم عند الفتح في مكان صالح بمعيشة حيواناتهم، و قريب من طبيعة أرض الحجاز لتأنسهم بها، و بعيدة عن البحر حذرا من هجمات المحاربين قبل التمكن، و هي في الجنوب الغربي من الحاضرة في طول ٤٥ ثانية و ٣ دقائق، و عرض ٤١ ثانية و ٣٥ دقيقة. و بها الجامع الكبير الذي بنته الصحابة ثم جدده بنو الأغلبي عندما كانت تلك البلدة هي قاعدة القطر، و لا زال بعض سقوف الجامع مما صنعه الأغالبة إلى الآن، كما أنها فيها ضريح السيد الصحابي سيدنا أبي زمعة الأنصاري رضي الله عنه، و عليه بنات ضخمة و مدارس للعلوم و أوقاف كثيرة.

و لتلك البلدة سور و ضريح السيد خارج السور، و في السور منافذ ضيقة معرجة للخروج منه راجلا عند غلق الأبواب، و على السور عدة حصون و هي الآن ليست على ما كانت من العمران، و سكانها الآن نحو عشرين ألفا كلهم مسلمون، و لا يدخل البلد غير مسلم، و هم قائلون بجميع ما يحتاجون إليه من صنائع و تجارة، و لا زال العلم في أهلها و بالجامع الأعظم و بمدارس السيد عدة دروس في علوم شتى.

ثم إن القطر التونسي ينقسم إلى عدة أعمال بالنظر إلى السياسة.

(١) فالحاضرة و ما حولها إلى نحو عشرين ميلا من كل جهة عمل.

(٢) و يليه من الجهة الشرقية الجنوبية عمل الوطن القبلي و هو ينقسم إلى الجزيرة مما يلي الحاضرة، و قاعدتها بلد سليمان و سكانها نحو أربعة آلاف نسمة، و إلى الوطن و قاعدته بلد نابل و سكانها نحو خمسة عشر ألف نسمة، و في الجميع أزيد من ستين قرية فمما يتبع الأولى المنزل و بنى خلاد و الصمعة و أقليبية التي هي حصن على رأس إدار، و مما يتبع الثاني بنى خيار و قرية و الحمامات و هي حصن في الجون المعروف بها، و في ذلك الرأس الطويل مقر السادات المعاوين الثابتى الشرف رضي الله عنهم.

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ١٨١

ثم يلي ذلك جنوبا: (٣) عمل الساحل المنقسم إلى وطن سوسة و وطن المنستير، و يتبع كل منهما عدة قرى:

فمما يتبع سوسة: بلد مساكن أهلها أشرف و القلعة الكبرى و القلعة الصغرى و غيرها، و سوسة التي هي القاعدة ذات سور و حصون و هي مرسى على البحر، و بها جامع عظيم و سكانها نحو تسعة آلاف نسمة و لهم حضارة و بقايا من العلوم.

و مما يتبع المنستير بلد المهديّة و لها حصن و سور و جامع و هي مرسى تجارية أيضا و لها قاض خاص، و أكثر سكانها حنفيّة من أبناء الترك الذين استوطنوا تونس، و عدد سكانها نحو ثمانية آلاف نسمة، و يتبعها أيضا بلد جمال و بلد المنارة و غيرها، و المنستير هي القاعدة و لها سور و حصون و هي مرسى تجارية أيضا و سكانها نحو سبعة آلاف نسمة، و هي دون سوسة في الحضارة و المعارف.

و يلي هذا العمل (٤): عمل صفاقس، و هو جنوبي السابق على شاطئ البحر، و قاعدته مدينة صفاقس و سكانها نحو عشر آلاف و لأهلها شهرة بالتجارة في دواخل القطر و في الممالك الإسلامية، و لهم مزيد محافظة على الصلوات في المساجد و لهم بقايا من العلوم الدينية و الأدبية، و هاته البلدة لها سور و حصون و هي مرسى تجارية أيضا و تأوى إليها سفن الحكومة في الشتاء لأنها مأمّن طبيعي للسفن، و لشاطئها مد و جزر و يتبعها جزيرة قرقة التي بها قرى و لأهلها صناعة الحلفة و الحبال.

ثم يلي هذا العمل على الشاطيء الجنوبي (٥): عمل الأعراض، على جون قابس التي هي قاعدة العمل، و سكانها نحو تسعة آلاف و هم على البداوة، و لها مرسى قليلة التجارة و هذا العمل ينتهى إلى غايته الحدود من جهة الجنوب و الجنوب الشرقى إلى طرابلس. ثم يلي هذا العمل فى الشرق (٦): عمل جربة، التي هي جزيرة فى البحر و عدد سكانها أزيد من ثلاثين ألفا متفرقين على عدة قرى و لهم شهرة تامة بالتجارة فى سائر ممالك الإسلام.

و يلي عمل الأعراض من غربيه (٧): عمل الجريد، الواصل إلى نهاية الحدود الجنوبية فى الصحراء و هو منقسم إلى أربعة أقسام. الأول: فى جنوبية و هو وطن الوديان و الشبيكة و تامغزا. و يليه شمالا: وطن نطفة، و يليه شمالا: وطن توزر، و يليه شمالا: وطن قفصة، و هاته لها حصن، و قاعدة جميع الجريد هي توزر، و قد كانت مناخا للعلوم و لا زالت فيها بقايا و عدد سكانها نحو ألفى نسمة. ثم شمالي هذا العمل (٨): عمل القيروان، و قد مر ذكرها لأنها لها التقدم على غيرها.

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ١٨٢

و يلي عملها شمالا (٩): عمل أولاد سعيد من البوادي سكان الخيام.

و يليه فى الشمال الغربى. (١٠): عمل رياح المشتمل على بلد زغوان فى جبلها الشهير، و على بلد تستور و على بلد مجاز الباب و غيرها، و أكبرها تستور عدد سكانها نحو أربعة آلاف، و هذا العمل يتصل بعمل الحاضرة. و حينئذ قد عرفنا جهة الشط الجنوبى الشرقى إلى الحدود، ثم ما والاه من دواخل القطر و يبقى علينا تقسيم جهاته الغربية و الشمالية.

فأما الغربية، فيتصل بعمل الحاضرة (١١): عمل طبرية، و قاعدته طبرية و هي قرية الآن فى غاية التأخر.

(١٢) ثم عمل تبرسق، و هي قاعدته و سكانها نحو ألفى نسمة.

(١٣) ثم عمل باجة، و هي قاعدته و هو عمل كبير و قاعدته ذات حصن و قصر لنائب الوالى الذى يسافر بالمعسكر كل صيف إلى هناك فى القديم و عدد سكانها نحو خمسة آلاف نسمة.

(١٤) ثم عمل الكاف، و هي قاعدته و لها حصن و هي فى رأس جبل و عدد سكانها نحو خمسة آلاف نسمة، و يتصل عملها إلى نهاية الحدود الغربية، غير أنه لا يصل إلى الشط من جهة الشمال، فتلك الجهات هي الأعمال الشمالية و تبتدىء من جهة الحد بجبال طبرقة و سكانها.

(١٥) بوادي و بها حصن.

و يليه (١٦) عمل جبال ماطر، و هي قاعدته و سكانها نحو ألفى نسمة من البوادي.

ثم يليه (١٧) عمل بن زرت، و هي قاعدة و هي مرسى أمينة جدا لو سهل لها بعض تسهيل فى منفذها إلى البحر لأمكن أن تأوى جميع سفن الدنيا فى أمان، و لموقعها اعتبار عظيم فى التمكن من البحر الأبيض، و سكانها نحو ستة آلاف نسمة و لها حصن و سور و الماء يجرى إليها فى قنوات من البناء من بعد للشرب لأهلها، و يخترقها خليج يوصل إلى بحيرة المزوقة المتصلة ببحيرة أشكل التي بها جبل كالجزيرة فيه حيوانات كثيرة، و هو منزله لمريد الصيد. و يتبع هذا العمل بلد غار الملح التي هي فى نهاية الحد الشمالى من الشرق و سكانها نحو ألف نسمة، و يتصل هذا العمل من جنوبيه بعمل الحاضرة و على ذلك فقد تصوّر القارىء هيئة تقسيم أرض هذا القطر، غير أنه بقى له تقسيم آخر حكى أيضا بالنظر إلى القبائل الساكنين به و مرجع أحكامهم.

فنقول: (إن أصل) أهالى هذا القطر هم من البربر و كانوا قبل الفتح إما نصارى أو وثنيين ثم أسلموا كلهم، و لا زال فى بعض القبائل شىء من عادات النصارى يفعلونه عن غير قصد، و هو الوشم بين أعينهم على جباههم بصورة صليب صغير، و كذلك استوطن به

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ١٨٣

كثير من العرب و اختلطت أنسابهم بالأصليين، ثم استوطن به أيضا من هاجر من الأندلس بعد المائة الثامنة و قد بنوا بلدانا بالقطر خاصة بهم، و كذلك فى ربض باب سويقة من الحاضرة بنوا حارة خاصة تسمى إلى الآن حومة الأندلس، و من بلدانهم التي أسسوها

سليمان و زغوان و طبرية و مجاز الباب و تستور. و كلها مؤسسه بأماكن جيدة على شكل حسن متقابلة الطرق واسعتها مستقيمتها، و اختلط نسلهم بالقاطنين ثم وفد عليهم الترك و اختلط نسلهم أيضا بالقاطنين، و لكن الأكثر هم النوعان الأولان. و ديانة الجميع هي الإسلام إلا- نحو ستين ألفا من اليهود أغلبهم في الحاضرة و باقيهم متفرقون في أغلب بلدان القطر، كما أن في القطر من النصارى الأوروبوين نحو الأربعين ألفا من أجناس شتى أغلبهم مالطيون من الإنكليز، و يليهم الطليانيون ثم الفرنسيون ثم غيرهم قليلا هذا من غير اعتبار المسلمين التابعين للفرنسيين و إلا- فعدد الفرنسيين بذلك الإعتبار أكثر من غيرهم، ثم إن الأهالي الأصليين كانوا في صدر المدة على مذهب أبى حنيفة، هم و جميع سكان الجزائر و المغرب إلى ولاية المعز بن باديس، فحملهم على اتباع مذهب مالك و ذلك في حدود سنة (٤٠٦)، و بقوا على ذلك إلى أن جاء الترك فكانوا هم و نسلهم على مذهب أبى حنيفة، و لذلك كان أكثر الأهالي مالكية. و هذا بيان أسماء الأعمال و القبائل و الإشارة إلى أماكن إقامتهم:

(١) الحاضرة.

(٢) القيروان.

(٣) أولاد خليفة من جلاص جنوبي القيروان.

(٤) الكعوب و الكوازين منهم غربى القيروان.

(٥) أولاد بدر منهم مثل السابقين.

(٦) أولاد سنداس منهم مثلهم.

(٧) كسرى في الغرب الجنوبي منهم.

(٨) الساحل.

(٩) المثاليث حول صفاقس من غربها و جنوبيها.

(١٠) صفاقس.

(١١) جربة.

(١٢) الأعراض.

(١٣) نفات في الأعراض.

(١٤) تغزوة من الجريد في جنوبيه الغربى.

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ١٨٤

(١٥) الوديان في جنوبيه.

(١٦) الحامة في جنوبيه الشرقى.

(١٧) توزر في شماليه.

(١٨) نفطة في وسطه.

(١٩) الشبيكة و تامغزا في نهاية الجنوب منه.

(٢٠) قفصة في شماله.

(٢١) أهل بيت الشريعة من عرب دريدر رحالة ما بين الجنوب الغربى و الغرب الشمالى.

(٢٢) أولاد سيدى تليل في تلك الجهات.

(٢٣) أولاد سيدى عبيد مثلهم.

(٢٤) أولاد عزيز من الهمامة ما بين القيروان و الجريد و الأعراض و هم رحالة في تلك الأراضى الرحيبة.

- (٢٥) أولاد معمر منهم مثلهم.
- (٢٦) أولاد رضوان منهم مثلهم.
- (٢٧) الغمامدية في غربيهم.
- (٢٨) أولاد وزاز من الفراشيش في جهة الغرب الجنوبي.
- (٢٩) أولاد ناجي منهم مثلهم.
- (٣٠) أولاد علي منهم مثلهم و الجميع رحالة في تلك النواحي.
- (٣١) شقمطة في الغرب المتوسط من القطر.
- (٣٢) الفؤاد قرب السابقين.
- (٣٣) أولاد مهنة مثلهم.
- (٣٤) أولاد بوغانم في الحدود الغربية.
- (٣٥) الزغالمة مثلهم.
- (٣٦) شارن مثلهم.
- (٣٧) العوامر منهم مثلهم.
- (٣٨) أولاد يعقوب قريهم.
- (٣٩) التوابع مثلهم.
- (٤٠) ورغة في جبال الشمال.
- (٤١) الخمامسة و دوفان في بحاير الكاف.
- (٤٢) الكاف سبق ذكره.
- (٤٣) ورتتان في الجنوب من الكاف.
- (٤٤) أولاد عيار قريهم.
- صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ١٨٥
- (٤٥) أولاد عون قريهم.
- (٤٦) جندوبه شمالي الكاف.
- (٤٧) أولاد بو سالم قريهم.
- (٤٨) الرقبة شرقي الكاف الجنوبي و غربي جنوبي باجة و فيها جبال و قبائل من سكان الخيام.
- (٤٩) باجة سبق ذكرها و يتبعها جبال تشتمل على قبائل شتى غير خاضعين حقيقة للحكومة ممتنعين بجالهم الوعة، و كثيرا ما ترسل معسكرات لأخذ الضرائب منهم و كثيرا ما يؤدون إليها مقادارا عن غير تحقيق لعددهم و كسبهم، و هم عمدون و نغزة و مقعد و خمير و الشيعية.
- (٥٠) تبرسق سبق ذكرها.
- (٥١) رياح تقدمت أيضا.
- (٥٢) المحمدية و رادس كل منهما قرية لها عامل مخصوص و الأولى: كانت مدينة القاهرة في ولاية أحمد باشا فأخني عليها الذي أخني على لبد في بضع سنين و كانت مستقرة و مستقر جنده.
- (٥٣) ثم المرسى و حلق الوادي و قد تقدما.

- (٥٤) أريانة و جعفر كذلك.
- (٥٥) بن زرت كذلك.
- (٥٦) ماطر و بجاوة بجالها و قد تقدّمت.
- (٥٧) الوطن القبلي كذلك.
- (٥٨) قبطنة.
- (٥٩) طياش.
- (٦٠) حجرى ليس لهم مقرّ بل هم متفرّقون فى الأوطان.
- (٦١) أولاد سعيد فى النفيضة فى الشمالى الشرقى للقيروان.
- (٦٢) السواسى جنوبيهم.
- (٦٣) الطرابلسية متفرّقون فى الأوطان.
- (٦٤) الغرابة كذلك.
- (٦٥) العروش الرقاق الأولى كذلك.
- (٦٦) العروش الرقاق الثانية كذلك.
- (٦٧) دريد رحالة ما بين الغرب و الجنوب.
- (٦٨) عرب مجور تابعون إليهم.
- (٦٩) أولاد حسن حنيفوا المذهب من دريد.
- صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ١٨٦
- (٧٠) فطناسة اتباع جلاص.
- (٧١) أولاد سيدى عبيد الظاهر فى الجهة الغربية الجنوبية.
- (٧٢) طبرية تقدّمت.
- (٧٣) السبالة فى الشمالى الغربى من الحاضرة على نحو إثنى عشر ميلا.
- و عدد جميع السكان نحو مليون و نصف، لأنّ تحقيق العدد غير موجود سيما و كثير من أعراب الأعراض مثل و رغمه و كذلك جبالية باجة لا يعرف عدد ذكورهم البالغين القادرين على التكسب، فضلا عن غيرهم، و إنما يعرف عدد الذكور البالغين من بقية السكان الغير العاجزين عن التكسب و هم مائة و سبعة و عشرون ألفا عدا سكان بلدة تونس و القيروان و المنستير و صفاقس لاستثنائهم من الأداء المرتب على الرؤوس.

فصل: فى إجمال تاريخ هذا القطر التونسى

إشارة

- و يشتمل على ثمانية مطالب:
- الأول: فى نبذة من تاريخه القديم.
- الثانى: فى علقته بالدولة العثمانية.

الثالث: فى سياسة الخارجية.

الرابع: فى سياسة الداخلية من العائلة الحسينية.

الخامس: فى وزارة مصطفى خزنة دار.

السادس: فى وزارة خير الدين باشا.

السابع: فى وزارة محمد خزنة دار.

الثامن: فى وزارة مصطفى بن إسماعيل.

المطلب الأول: فى نبذة من تاريخه القديم:

اعلم أن هذا القطر تداولته ولاية الرومانيين و القرطاجنيين منذ قرون عديدة قبل البعثة و صدر من زمن الخلفاء الراشدين إلى أن افتتح الخليفة الثانى سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه مصر، و وصل أمير جيشها بالفتح إلى برقه بين طرابلس و مصر، فأرسل يستأذنه فى فتح أفريقية يعنى بها تونس كما تقدم بيان وجه التسمية فى الفصل السابق، فأرسل إليه يقول ما مفاده: «إنها الغدارة المغدور بها، ماؤها قاس مفرقة لقلوب أهلها لا تفتح ما دمت حيا» الخ. و كان وجه ذلك سياسة منه رضى الله عنه لخبرته بالأمر و هو علمه بالإختلاف الدائم بين أهلها الذى صار طبيعة لهم بحيث لا ينفقون لبعضهم، و لذلك و هنت شوكتهم و صاروا طوع الأجانب المستولين عليهم بحيث لا يعهد منهم قيام بشأن أنفسهم بل تسلّم أنفسهم الإقتياد إلى الغريب بما لا تسلمه إلى واحد منهم، و الدليل على ذلك أن هذا القطر مهما تغلب عليه أجنبي إنقاد له أهله

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ١٨٧

إلى أن ينقرض أو يستولى عليه أجنبي آخر، و حيث كانوا على تلك الصفة للإستيلاء عليهم و لئن كان سهلا غير أنه لا تؤمن عواقبه. أما أولا: فلأن الجيش إذا استقر هناك ربما سرت إليه طباع أهل الإقليم، كما هو شأن الطبيعة البشرية من سريان الطباع بالمخالطة و الملازمة، فيقع بينهم التنافر الواجب التباعد عنه.

و أما ثانيا: فإذا غلب الجيش الإسلامى ولاة القطر الذين هم أجنب من الرومان، لا يبعد أن يرجعوا إلى بنى جنسهم و يعيدون الكرة على المسلمين، و هؤلاء لا يمكن لهم الاعتماد على أهل القطر فى إمدادهم و إعانتهم لما تقدم من طبعهم، و أنهم طوع الغالب كيفما كان و ذلك لا يجدى معه رؤيتهم لعدل المسلمين و استقامة أمور دينهم و دنياهم لما فى أصل الطباع من النفرة عن التعاون و ميل كل لخويصة نفسه، و الحامل الدينى وحده غير مجد لأنه يلزم له رسوخ و تخلق و مع ذلك قليل من يكفى له ذلك، فقد قرر أبو إسحاق الشاطبى فى موافقاته: «أن العلماء على ثلاثة أقسام: الأول: من يبلغ به العلم إلى درجة تصير النظرى فى حقه ضروريا لاطلاعه على أسرار العلوم و تخلقه بها، حتى يصير العلم له طبيعة راسخة يرجع إليها رجوعه إلى سائر الضروريات، و لا يمكن له العمل على خلاف ذلك كما لا يمكن للإنسان العمل على خلاف الضرورى، و هذا القسم قليل ما هم.

و القسم الثانى: اطلع على أسرار العلم لكن إطلاعا محتاجا إلى المراجعة و التذكر و التدبر و هؤلاء لا يجرون على مقتضى العلم إلا بكلفة من خوف الوازع الظاهرى، غير أنهم ينفقون إليه بالتسليم و هو فى حقهم خفيف فأدنى درجاته تؤثر المطلوب منهم.

و القسم الثالث: هو الذى لا يطلع على شىء من أسرار العلم و إنما يسمع تكاليفه و ينفق إليها بالتقليد البحث و هذا لا يحمل نفسه على مقتضاه إلا بالوازع الظاهرى و هو القسم الأكثر و الأغلب فى الوجود، و لهذا أقيم فى الدين وازع الحكم، ليحرس الدين الشامل لجميع أقسام التصرفات الدينوية و الأخروية، و لا يقال إن أهل القسم الأول يلزم أن يكونوا معصومين، و ذلك لا يصح لأننا نقول تصدر منهم الخطيئة على وجه الغفلة كما تغفل الحواس فى بعض الأحيان. هذا إجمال كلامه و أنى لأهل أفريقية إذ ذاك و بلوغ

درجة القسم الأول هذا على فرض إسلامهم، و أما إذا رضوا بالطاعة و ضرب عليهم الخراج فالأمر أبين مع أن المنعة إذ ذاك للمسلمين و خط التجائهم بعيد جدا، و هو جزيرة العرب حيث كانت مصر إذ ذاك في أول فتحها و لم يستقر قرارها، و ليس من المعقول الرغبة في الفتوح بالتهور.

و بما تقدم يندفع إشكال بين و هو كيف يتوقف سيدنا عمر رضى الله عنه عن بث الإسلام في أفريقية استنادا لمجرد ذلك التعليل و هو تفرق أهلها مع أن الأمر ببث الإسلام ليس بمشروط باتفاق قلوب أهل الإقليم، و يؤيد ما قلناه: «إن سيدنا عثمان رضى الله عنه لما ولي الخلافة و استقر إذ ذاك أمر الإسلام في مصر و كان لجيش المسلمين قرب منعه

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ١٨٨

و مدد أمرهم بفتح أفريقية ففتحت سنة ٢٩ على يد سيدنا عبد الله بن سعد بن أبي سرح رضى الله عنه، مصحوبا بعشرين ألفا من الصحابة و التابعين رضوان الله تعالى عليهم، و كانت أسبطله هي القاعدة الثانية في القطر و هي مركز المشاورة و اجتماع أهل الحل و العقد لكي يكونوا أحرارا في مفاوضاتهم لبعدهم عن الملك الذى مقره في قرطاجنة، و ما يرسى عليه أمرهم يبعثون به إليه و حيث كانت تفاصيل التواريخ لهذا القطر قديما قد تكلفت بها مؤلفات منفردة و من أجلها الحلل السندسية ، فلا يمكن استيعابها في هاته العجالة لأنها خارجة عن المقصود الذى هو معرفة الحالة الراهنة، و إنما الذى يتوقف عليه المقصود هو بيان ما عليه الحال، لكن هذا لما كان له مساس بأمور سابقة لزم بيان مقدار الحاجة لتبيين الأسباب و مسبباتها.

و لذلك نذكر جملة الدول التى تولت هذا القطر من حين الفتح فى جدول، مع ذكر صفة الدولة إجمالا و تاريخ مدتها بداية و نهاية، و أسماء أصحاب الملك إلى أحمد باشا من أمراء الدولة العلية العثمانية، و منه نأخذ فى ذكر بعض التفاصيل التى ينبى عليها المقصود، حتى يكون المقصود مستوفى البيان إن شاء الله تعالى:

تاريخ الولاية/ الأسماء/ الملاحظات

٠٠٢٩/ عبد الله بن أبي سرح/ عامل للخليفة ثم من بعده عمال لوالى مصر التابع للخليفة

٠١٥١/ عمر المهلبى أول دولة المهلبين/ تابع للخليفة المنصور العباسى و هكذا من بعده تابعون للعباسيين مع الإطلاق فى التصرف بجميع وجوهه حتى الحرب و الصلح.

٠١٨١/ إبراهيم بن الأغلب هو أول دولة الأغلبة/ مثل السابق و توارثها بنوه

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ١٨٩

٠٢٩٧/ دولة العبيدين و أولهم عبد الله المهدي / فى نفس الأمر مستقلة و فى بعض الأطوار تظهر الخضوع للعباسيين و طورا للفاطميين بمصر

٠٣٦٥/ دولة صنهاجة و أولهم المنصور بن يوسف / مثل السابقة

٠٦٠٣/ دولة الحفصيين و أولهم الشيخ عبد الواحد / مستقلين و استولوا على المغرب و دانت لهم مصر و الحرمين الشريفين برهة من الزمن

٠٩٨١/ الدايات و البايات المراديون و الباشوات منهم/ أتباع للدولة العلية العثمانية فتارة يكون صاحب التصرف يلقب بالداى و تارة يلقب بالباى و تارة بالباشا

١١١٧/ الحسينيون أولهم حسين باشا ابن على تركى / أتباع للدولة العلية بامتياز فى التصرف

١١٥٣/ ابن أخيه على باشا/ مثله

١١٦٩/ محمد بن حسين باشا بن على/ مثله

١١٧٢/ أخوه على باشا/ مثله

١١٩٦/ ابنه حموده باشا/ مثله

١٢٢٩/ أخوه عثمان باشا/ مثله

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ١٩٠

١٢٣٠/ محمود بن محمد باشا/ مثله

١٢٣٩/ ابنه حسين باشا/ مثله

١٢٥١/ أخوه مصطفى باشا/ مثله

١٢٥٢/ ابنه أحمد باشا/ مثله

١٢٧١/ محمد بن حسين باشا/ مثله

١٢٧٦/ أخوه الصادق باشا/ مثله

المطلب الثاني في علاقة القطر بالدولة العثمانية

إعلم أن سبب استيلاء الدولة العثمانية هو: أن الدولة الحفصية ضعف أمرها أخيرا إلى أن استولى الطليان على طرابلس و جربه، ثم افتكتها الدولة العثمانية سنة (٩٥٨ هـ) و امتد أمرها إلى القيروان بطلب من أهلها، إذ كانت الدولة العثمانية هي الرافعة لعلم الدول الإسلامية، و استقلت الجزائر و كثرت حروبها الأهلية و كانت قاعدتهم تلمسان، و خشى الأهالي من استيلاء الإسبنيول عليها و كان أحد كبراء رجال الدولة العلية المسمى خير الدين باشا و أخوه عروج غازيان في البحر، فاستصرخهم أهل بجاية للنجاة من ربة الإسبنيول فاستولى خير الدين عليها و انقادت له سائر أهالي الجزائر، و خطب للسلطان سليم العثماني و ذلك في حدود عشرة الثمانين و التسعمائة، ثم أنقذ تونس أيضا من جور الحفصية و الإسبنيول ثم استعان آخر الحفصيين حسن الحفصية بالإسبنيول و عاد إلى تونس، فأنقذها منهم سنان باشا سنة (٩٨١ هـ) و رتب بها جندا من عسكر إينكشارية قدره أربعة آلاف، و على كل مائة رئيس. و مرجع الجميع إلى الوالي الملقب بالباشا و هو إذ ذاك حيدر باشا، ثم وقع تنافر بين الرؤساء آل إلى حرب و استقرّ قرارهم إلى تسليم الأمر إلى واحد منهم يلقب «بالداي». و جعل على خلاص الجباية مولى يلقب «بالباي» و في عهده تأمين السبل و هناء القبائل، و يسافر لأجل ذلك مرتين في السنة، إحداهما:

شياء إلى الجهة الجنوبية، و الثانية: صيفا إلى الجهة الشمالية، و يسافر في عسكر مؤلف من العساكر المشاء و هم إذ ذاك إينكشارية. و من قسم الفرسان الموظفين في الحكومة و لهم جراية و يسمون بالحوانب و الصبايحية و على كل خمسمائة رئيس يسمى «بالآغا»، و كل قسم يسمى «يوجق» و جميعهم سبعة أوجاق لكل وجق مركز من القطر، كما يستصحب الباي في سفره قسما من فرسان القبائل يسمون بالمزارقية، و يسمى جميع الجيش المسافر فيه الباي «محلّه». و جرى العمل على ذلك غير أن رياسة التصرف العام تارة تكون بيد الداى

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ١٩١

و تارة تكون بيد الباي تغلبا منه و أحيانا يحصل الباي على رتبة الباشا من الدولة العثمانية. و استقرّ الأمر على ذلك إلى أن كثرت الحروب الأهلية ما بين البايات و الدايات على حوز الرياسة العامة، و ملت الأهالي من ذلك فنادوا بطيب نفس و اختيار منهم بحسين بن على تركى جد العائلة الموجودة الآن، إذ كان إذ ذاك آغه و جق باجة و سلموا له أمر الولاية العامة بعد قتل كل من الباي و الداى السابقين و أقرت ولايته الدولة العلية و لا زالت الولاية متوارثة في عائلته كبيرا عن كبير إلا ما ندر من ولاية حموده قبل محمود بعهد من أبيه و كذلك أخوه عثمان، و أمضت الدولة العلية ذلك له في حياته و منذ ذلك التاريخ استقرت الرياسة العامة للباي، و صار هو

الذى يولى الداي إلى أن انقطع هذا اللقب و عوض برئيس الضابطة فى سنة (١٢٧٧ هـ) فى ولاية الصادق باشا.

غير أن استقرار الولاية هكذا على نحو ما مر لم يكن بتعهد من الدولة العلية رسميا بالكتابة وإنما اقتضاه جريان العمل، و ذلك أن الدولة العلية كانت عاداتها فى الولايات إطلاق التصرف للوالى بحيث يكون له التفويض المطلق لاتساع أطراف الممالك مع صعوبة المواصلة إلا بعد مدة مديدة لا سيما فى مثل الأماكن التى طريقها البحر من مقر الخلافة كتونس و طرابلس و الجزائر و مصر و غيرها، و تسمى عندهم بالأوجاق و من كمال الإطلاق الذى اضطر إليه البعد اختيار الوالى لأنه إذا مات الوالى أو وقع ما يوجب عزله بتغلب غيره أو بثورة عامة يسلم أهل الحل و العقد فى تلك الجهة لواحد منهم لإجراء ما لا بد منه، و ما يصل الخبر للدولة إلا بعد مدة، و حيث لم يكن من قصدها إلا هناء الممالك الإسلامية و إجراء الشرع فيها و الإدلاء بالخضوع للخلافة و الإنقياد إليها و أداء الواجب لها من مال أو غيره، لم يكن من فائدتها مخالفة ما يراه أهل الحل و العقد فى الصقع الواقع به الواقعة، لأن ذلك لا يحصل لها فائدة بل ربما توقع حصول غير فائدتها المار ذكرها «و رب البيت أعلم بما فيه» و لذلك تولى هى من ارتضوه لحفظ أمورهم و حفظ حقوقها، و المتقرر فى هذا القطر التونسى من الحقوق التى رسمتها الدولة العثمانية فيه عند فتحه هو إعانتة بالسفن الحربية و ما يلزمها فى الحروب، و هدايا ترسل من الوالى إلى دار الخلافة عند ولايته أو عند ولاية سلطان أو عندما توجد مناسبة للإهداء، و الأغلب فى الهدايا سابقا أن تكون من نتائج البلاد كالخيل و الحيوانات الغريبة من الصحراء و المنسوجات الحريرية و الصوفية، و منها راية عظيمة متقنة تصنع عند ولاية السلطان فقط و يكتب فيها آيات قرآنية و أبيات من البردة و تتركش بالفضة، و منها أيضا السروج المحلات و سبخ المرجان و العنبر و الطيب و الأسلحة المرصعة بالمرجان، و منها التمر و الزيتون و السمن و الشمع، ثم توسع فى هاته الهدية حتى صارت من المال و المجوهرات النفيسة و قد بلغت فى بعض الأحيان إلى مليونين فرنكا و ما يساويها من المجوهرات.

و كذلك رتب على القطر من الأشياء التى هى علامة على التبعية الخطبة بإسم السلطان

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ١٩٢

و الراية من نوع راية الدولة و رسم إسم السلطان على السكة و أصحاب الهدايا هم الذات السلطانية و الصدر الأعظم من خواص الوكلاء كقبطان باشا و السر عسكر و أمثالهم، و أما غير ذلك فلم تكن حالة القطر تقتضيه و لذلك لما رأى وزير الدولة سنان باشا الفاتح حالة القطر أمر رؤوساه، بأن الجباية يقيمون بها ضرورياتهم و ما يلزم لحماية القطر من الإستعدادات الحربية و ما يلزم إليه من المصالح العامة، و لم يرسم بشىء آخر. ثم قدم قبطان باشا فى حدود سنة (١٠١٣) لتفقد حال القطر و ما تقتضيه حاله بعد استقرار الأمر، فأرسل بأسطوله فى حلق الوادى و خرج له إذ ذاك عثمان داي فى جماعة من كبراء الجند و تفاوضوا معه على مصالح بلادهم، و بعد أن تحقق عنده إنقيادهم لطاعة الدولة و عدم الإقتدار على الأداء، ألقع من هناك راجعا و بقى الأمر على ذلك إلى أن بدا للدولة العلية إبدال عادات الدولة فى شأن ولاية الأقطار من إطلاق التصرف إليهم لما تفاقم حال ظلمهم و عدم انقيادهم أحيانا لأوامرها، و منهم حسين باشا والى الجزائر الذى تسبب بأعماله فى دخول الجزائر تحت الفرنسيس بحربهم.

و كان ذلك الانقلاب فى دولة السلطان محمود و صدرا من ولاية أحمد باشا، فخشى الباشا المذكور من وصول النوبة إليه فى التغيير، و زاد خوفه بسبب ما كان حصل من سلفه من تعريضه بالإمتناع من نزول قبطان باشا فى حلق الوادى عند قدومه لإرادة التوجه برا للجزائر، لعزل و إليها الذى عقد الحرب مع الفرنسيس و بزواله يزول الإرتباك، فاعتذر له بأن الكرنينة أى التحفظ من المرض العام لا تبيح نزوله، و أكرم مقدمه و هاداه فى ذاته و كان السبب الحامل له على الامتناع هو أن دولة الفرنسيس لما أعلنت بحرب الجزائر بعد التشكى للدولة العلية، كاتبت حسين باشا والى تونس بالإندار «بأنه إذا أعان بشىء يلحق الحصار و الحرب به». مع إجماع الخلق على ظلم والى الجزائر فخشى والى تونس أن يعد مرور قبطان باشا إعانة للجزائر، لأنه لا يمكن مروره بدون حامية فإذا دخل للجزائر بحامية من عسكر تونس يعدّها الفرنسيس إعانة، و أيضا إذا تسامعت العربان بمرور باشا تركى فى وسط الولاية هاجوا لما فى طباعهم من التشكى من المتولى كيفما كانت سيرته ظنا أن الجديد يساعدهم على مرادهم كيفما طلبوا، و قد كان ذلك من الغفلة التى سبق بها

القدر لإنفاذ الأمر في الجزائر، فخشى أحمد باشا مما سبق و انضاف إلى ذلك فتح الباب من الدولة العلية في مقدمات ما كان يخشاه، و هو طلبها من تونس الأداء السنوي و إلحاحها فيه المرّة بعد المرّة، إلى أن توجه إليها عالم القطر الأفريقي سيدي إبراهيم الرياحي و واجه السلطان محمود و قبل اعتذاره و سكت عن طلب الخراج، و أيضا طلب من الباشا القدوم بنفسه لدار الخلافة و لم يكن معتادا منذ الفتح الخاقاني إلى الآن، و طلب منه أيضا أن تكون

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ١٩٣

خلطة تونس مع الدول بإذن خاص و ولاية المناصب بأمر السلطان و الإختيار لأصحابها من الوالي، و يرفع في كل عام حساب دخل الحكومة و خرجها، و أيضا قد فعلت الدولة في طرابلس ما فعلته في سائر ولاياتها من التغيير، و كذلك في مصر لكنها بامتياز فقوى خوف الرجل و جعل يرود كل الأبواب للإطمئنان على إبقاء عاداته المألوفة له و لآل بيته و للقطر، من غير أن يخطر بباله قط الإستقلال لا هو و لا من سلف من آله فضلا عن الدخول في حماية دولة أجنبية، و غاية الأمر زيادة المواصله منه مع دولة فرنسا، و المدارات بما لا يخل بشيء من العادات مع طلب محافظة عاداته لو تريد الدولة العلية إلحاقه بغيره، و غاية ما حصل عليه من دولة فرنسا هو الوعد الشفاهي بحمايته و حماية امتيازاته الجارى بها العمل و العادة.

و يشهد لما مرّ سيما بعد ولاية العائلة الحسينية المستقرّة الآن، أن الدولة العلية في سنة (١١٥٣ هـ) أعطت جزيرة طبرقة التي هي من القطر التونسي إلى دولة الجنوز، و أذنت بذلك والى تونس فسلم الجزيرة بالشروط التي عينتها الدولة، و هي: أن لا يكون لهم بها حصن و لا يتجاوزون في بناء بلد هناك حدّا محدودا، ثم خالفوا الشروط و لذلك افتكك الجزيرة منهم على باشا والى تونس إذ ذاك في تلك السنة. و في سنة (١١٨٤ هـ) حصلت وحشة بين فرنسا و بين على باشا الثاني والى تونس من جهة الخلاف في الأسرى الذين أخذتهم تونس من قرسكا قبل استيلاء الفرنسيين عليها، و كذلك صيد المرجان الذي أبيع للفرنساويين لسنتين بعدد معلوم من القوارب و أداء معلوم، و تفاقم الخلاف إلى أن جاء الأسطول الفرنسي إلى شطوط تونس ورمى بعض الحصون، و كان إذ ذاك رسول الدولة في تونس قادما لطلب إعانة السفن الحربية على العادة في حرب الدولة إذ ذاك مع روسيا، فتدخل رسول الدولة في النازلة و أبرم الصلح على أن تدخل كرسكا في عهده فرنسا و أن ترد الأسارى الذين أخذوا بعد استيلاء الفرنسيين عليها، و أن يمكنوا من صيد المرجان خمس سنين مستقبلة بإثني عشر زورقا لا غير، و أن يمكنوا من شراء ثلاثة آلاف قفيز قمحا و يخرجونها من غير أداء سراح عليها، و أن يدفعوا ما جرت به العادة عند عقد الصلح من الهدية، و رجعت بعد ذلك العلقه الحسنه المعتادة بين تونس و فرنسا على يد رسول الدولة العلية، و كذلك أرسلت خمس سفن حربية بجميع لوازمها لإعانة الدولة في حرب روسيا المذكورة سنة (١١٨٥ هـ).

و في سنة (١٢١٣ هـ) أمرت الدولة العلية حموده باشا بحرب الفرنسيين معها عند استيلائه على مصر، فامثل الأمر و قطع الخلطة مع القنسل و أرسل سفنه الحربية لإعانة الدولة، غير أنه تحفظ للغاية على أموال التجار الفرنسيين في بلده و لم يتعرض لسفنهم التجارية، حتى قال تجار الفرنسيين إذ ذاك نحن بلا قنسل أحسن حالا من وجود القنسل، و أعلم الباشا الدولة بسبب تلك المعاملة و هو كثرة الخلطة التجارية المتقدمة الموجبة لاشتراك مال التونسيين مع مال الفرنسيين، فلو تعرض لأموالهم لكان تعرضا لمال التونسيين

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ١٩٤

أيضا. و انتقلت عليه من بعض الجهلاء من الداخل و الخارج، و عند وقوع الصلح عرفها له نابليون الأول و صارت بينهما مهادتات و اعتراف بالكمال.

و في سنة (١٢٣٦ هـ) أرسلت الدولة العلية رسولا أمرا بحفظ الوحدة و ترك الحرب بين تونس و الجزائر و عمل بأمره.

و في سنة (١٢٣٧ هـ) أرسل محمود باشا سبع سفن حربية ثم أردفها بإثنين لإعانة الدولة على حرب اليونان. و في سنة (١٢٤٣ هـ) أرسل حسين باشا أسطولا حربيا لإعانة الدولة في حرب و احترق مع جملة سفن الدولة، و مصر و الجزائر بعمل أساطيل الدول كما يأتي

تفصيله فى بابہ.

و فى سنة (١٢٥١ هـ) أرسل مصطفى باشا والى تونس هدية لقبطان باشا عند قدومه على طرابلس لزوعها من أیدی آل قرمانى، ثم طلب قبطان باشا الإعانة الحربية من تونس فأرسل والى تونس فى تلك السنة ثلاث سفن حربية و أتبعها بتسع سفن تجارية حملت ثلاثمائة من الخيل.

و فى سنة (١٢٥٥ هـ) طلب أحمد باشا والى تونس تقليده رتبة مشير مع هدية فاخرة، فأنعمت الدولة عليه بذلك ثم زادته نيشانا آخر يرسم فى غطاء الرأس، و الآن زال من رسم الدولة و لم يزل معمولاً به فى ولاية تونس.

و فى سنة (١٢٥٦ هـ) أمرت الدولة العلية والى تونس بالعمل بالتنظيمات الخيرية و قرىء أمرها فى موكب مشهور، و أجاب عنه أحمد باشا الوالى بالامثال غير أنه طلب وقتاً للعمل مع مراعاة ما يلزم من التغيير بسبب عادات البلاد، ثم ألح عليه فى إتمامها سنة (١٢٥٨)، فأرسل هدية فاخرة منها سفينة حربية و مائتين و خمسين ألف فرنك، و طلب الإمهال فى العمل بالتنظيمات.

و فى سنة (١٢٥٧ هـ) لما رتب الوالى المذكور أمر تنظيم المولد النبوى، قال له يمين حكومته أبو العباس أحمد بن أبى الضياف: المناسب أن تخرج من باردو راكبا و عندنا من العساكر ما يكفى إلى الوقوف بين باردو و جامع الزيتونة، فقال له: يفعل ذلك السلطان العثمانى و ليس لنا أن نفعل مثله، فالمناسب الأدب معه، رأيت ذلك بخط الوزير المذكور.

و فى سنة (١٢٥٩ هـ) حصلت نفرة بين دولة الصاردو و والى تونس أحمد باشا كادت أن تفضى إلى حرب بسبب منع الوالى إخراج الميرة إلى سردانيا لقطع حصل بالقطر، و كانت الشروط مخالفة، فأرسلت الدولة العلية رسولا خاصا ليبحث عن السبب و أمر الوالى صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ١٩٥

بفصل النازلة بصلح، فأخذ تقريراً فى النازلة و فصلت بصلح ببقاء ما كان على ما كان و دفع ما خسره تجار الصاردو فى شراء الميرة. و فى سنة (١٢٦٣ هـ) أرسلت الدولة رسولا مخصوصا للوالى المذكور لتأمينه من جميع ما توهم مع إسقاط مطلب المال السنوى و تأييد الوالى فى الولاية مدة حياته، فأجاب بالفرح و القبول لكنه طلب إبقاء جميع الإمتيازات، و منها انتقال الولاية لآله عند موته.

و فى سنة (١٢٦٥ هـ) أرسل عباس باشا والى مصر مكتوبا وداديا على وجه الإخوة ينصح فيه الوالى المذكور بترك الأوهام الحاصلة له، و أنه قد ذهب للاستانة و نال رتبة الصدارة مع أن أباه و أخاه قد فعلا ما لم يحم حوله ولاية تونس، و أنه لو يساعفه على اللقاء فى بلد معين و يصطحبا معا للاستانة يكون له الحظ الأوفر، فأجابه بأنه عبد للدولة و لم يخلج بفكره شىء مما يتهم به، و قصارى أمره التمسك بالإمتيازات السابق بها العمل و الجارية من القديم فى القطر التونسى، ثم أرسل عباس باشا رسولا من العلماء و آخر من التجار للتفاهم مع الوالى فى مقصود الدولة، فقرر لهم غاية أماله من ازدياد اللحم الإسلامية و الخضوع للدولة العلية على ما جرى من الإمتياز للولاية، و منه: عدم و جوب قدوم الوالى إلى الآستانة.

و فى سنة (١٢٦٣ هـ) وقع خلاف بين والى تونس أحمد باشا و دولته فرنسا فى شأن قبيلة نهد من جباله باجه حيث أن القبيلة منقسمة إلى فخذين فخذ تابع لتونس، و فخذ تابع للجزائر، فاستولى الفرنسيين على الجميع، فسجل الوالى أحمد باشا و كتب إلى القنصل فأجابه القنصل بمضمون مكتوب دولته، و هو أن فرنسا تعطى إلى تونس أرضا أخرى عوضا عن هذه بعد تحرير الحدود، فأجابه الوالى بما نص محل الحاجة منه و أما تجديد التحديد أو إبدال بعض العمالءه بجزء من غيرها فمعلوم أنا نتوقف فيه على المشورة من جهة الدولة العثمانية، و إن كان لنا التصرف العام فى الإيالة بما يقتضيه اجتهادنا من المصلحة، أما التنقيص منها أو إبدال بعضها فلا يحسن منا بغير إعلام لمولانا السلطان و تقرير ما ينشأ لنا من المضرات بسبب ذلك لجنابه العلى. ا. هـ.

و فى سنة (١٢٧٠ هـ) أرسل أحمد باشا أربعة عشر ألفا عسكريا بجميع لوازمهم الضرورية و الحربية، و فرقاطة شراعية و ستة سفن منها باخرتان لإعانة الدولة العلية فى حرب القريم.

و فى سنة (١٢٧١ هـ) أورد ابن عمه محمد باشا عند ولايته ذلك العسكر بأربعة آلاف و خيل و مهمات.

و في سنة (١٢٨١ هـ) أرسلت الدولة العلية رسولا مخصوصا اسمه حيدر أفندي

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ١٩٦

لمراقبة حال الثورة العامة في القطر التي سيرد بيانها، و أرسلت إلى الحكومة مليوناً فرنكاً لإعانتها على ما حصلت فيه من الضيق.

و في سنة (١٢٨٨ هـ) أبرم فرمان الآتي ذكره الذي استقر عليه القرار.

و في سنة (١٢٩٣ هـ) أرسلت الإيالة نحو مليون و نصف فرنكاً لإعانة الدولة على حرب الصرب.

و في سنة (١٢٩٤ هـ) أحضرت الأيالة نحو ذلك المقدار لكنه لم يصل منه إلى خزانه الدولة العلية إلا أقل من الربع، و الباقي صرف منه

على تهيئة العساكر التي قدرها نحو أربعة آلاف في كسوتهم و تعينوا للإرسال و حصل الصلح قبل سفرهم و هم في انتظار لسفن

الدولة العلية لحملهم إذ لم يكن للحكومة قدرة على ما تحملهم عليه، و سبحان محول الأحوال.

كما أرسلت الولاية في تلك السنة للإعانة المذكورة نحو ستمائة بغل و أربعمائة حصان و ما زاد على ذلك مما سلمته الأهالي بقي

عند الحكومة التونسية.

و ما تقدم كله زيادة على الرسل التي تتوارد في أغلب الأحيان بين التابع و المتبوع الذي هو كثير، و ها نحن نثبت هنا نص بعض

المكاتيب التي أرسلت من ولاة هذا القطر في النصف الأخير من هذا القرن، حتى يتيقن معها زوال كل شبهة، و لم نذكر ما كان قبل

هذه المكاتيب لأن المكاتيب كانت ترسل باللسان التركي، و لما تقادم عهد الولاية بتونس نشأ جيلهم الأخير على جهل باللغة التركية،

و كان أحمد باشا صاحب المكتوب الأول ذا احتراز و نقد فكري، فلم يرد أن يمضى كلاماً لا يفهم أسرار تراكييه، فكتب باللغة العربية و

قبلته الدولة، إذ كثير من ممالكها عربي و لا يسعها إنكار لغة شريعته التي هي الحامية و الذابة عنها، و كان إرسال هذا المكتوب مع

عالم القطر سيدى إبراهيم الرياحى في الغرض الذي تقدمت الإشارة إليه، و هو طلب العفو عن الأداء السنوي و نص المكتوب:

اللهم بالثناء عليك نتقرب إليك يا فاتح أبواب القبول و الإقبال، و مانح المنح التي لا تمرّ شواردها على البال، تنزهت في العظمة و

الجلال، و لا- تول عبادك الإهمال، بمحض الرحمة و الإفضال، فأقمت عليهم خليفة تعرض عليه الأحوال، و يرفع عنهم بإعانتك

الإختلال، و يسوسهم للصلاح في الحال و المثال، صلّ على سيدنا محمد خاتم الإرسال، و الملجأ المنيع عند اشتداد الأزمة و الأهوال،

و على آله و أصحابه الذين ورثوه في الأقوال و الأعمال، و سرت مكارمهم مسرى الأمثال، و نستوهب منك عزا لا يبلغ حده، و نصرا

يمضى في الأعداء حده، لهذه الدولة العلية، و السلطنة العثمانية، و المملكة الخاقانية، التي رفعت من الملة الحنيفة أركاناً، و شيدت من

معالمها بنيانا، و أقامت للحق قسطاساً و ميزاناً، و روت أحاديث العناية الربانية صحاحاً حساناً، و ورث ملوكها الأرض و هم الصالحون

سلطاناً

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ١٩٧

فسلطاناً، حتى استتار الوجود، بخليفة الوقت الموجود، و هو مولانا السلطان محمود، اللهم أعنا على ما أوجبت له من فروض الطاعة، و

تأييد الحق بجهد الإستطاعة، و احفظنا برفقه و عدله من الإضاعة، و اجعل الملك فيه و في عقبه إلى قيام الساعة، و عطف قلبه إلى

سماع هذه الضراعة، من أيالته و من بها من الجماعة، على لسان أحمد المقيم على طاعته فيها، و المجتنى من ثمرتها ما يلزمها و

يكفيها، و طاعة خلافتك فرض على أهل الأرض و هي عند الله أنمى قرض، فإذا لم يعرض الحال عليك فعلى من العرض، تونس

موضع شعائر الإسلام، غريبة ببعدها عن استمطار أياديك الجسام، و مساحة معمورها للسير نحو الستة أيام، شأن أهلها التمتعش من

الزيت و البر، و الصوف و الوبر، يعانون في تحصيلها من ألم الحرّ و القفر، هذا غالب ما يسد لهم الخلة، و يوجد غيرها لكن على قلة، و

مقدار زكاة ذلك لا محالة، بحسب اتساع العمالة، فما يفضل من خصبها فهو للقطر عدة، و بذلك دام عمرانها لهذه المدّة، لا فضل

من ذلك لترف، و لو في سبيل شرف، هذا معظم دخل القطر، إن جادت السحب بالقطر، و يلزمه ضرورة لحفظ عمرانها، و حماية

أوطانها، و تأمين سكانها، و إصلاح مراسيه و بلدانها حماةً و أجناد، في كل جهة و بلاد، لتأمين الجبال و الوهاد، و ردع أهل الفساد، و

يلزم العساكر الكسوة و الطعام، و المرتب على الدوام، و لا بد لهذا العدد، من آلات و عدد، و قوام هذا بالمال، و هو السبب في عرض الحال، بأن الدخل على قدر الإنفاق، و ذلك بشهادة الله غاية ما يطاق، و إذا كلفنا الرعية المشاق، و نزعنا الرفق و الإشفاق، كان ذلك ذريعة للنفاق، و سلما للشقاق، و ربما هرعوا للدولة شيوخا و ولدانا، و كهولا و شبانا، يسوقهم العجز و يقودهم الأمل، إلى من في طاعته النيات منا و العمل، فالسلطان ظل الله في أرضه يأوى إليه كل مظلوم، و هذا من الواضح المعلوم، و عبدكم حسبه تأمين البلاد، و حفظها من طوارق الفساد، بمن معه من الحماة و الأجناد، سهرنا لانامة أجنانها، و تعبنا لراحة شيوخها و ولدانها، و اقتحمنا المخاوف لأمانها، و ما تنتج غلاتها، تسد به خلاتها، و على هذه السيرة و لاتها، لا يقتنون لأنفسهم مالا، و لو بسطوا لذلك آمالا، إلا ما يقتضيه الحال من العادات المألوفة، و المراسم المعروفة، يصدهم عن ذلك عدم اليسار، لا زهد الأبرار، و الله المطمع على الأسرار، و بما بسطنا من الكلام، في حال هؤلاء الإسلام، يظهر للقائم بمصالح الآنام، أن لا قوة لهذه الايالة على آداء المال في كل عام، هذه ضراعة رعيته، المستمسكين بطاعتك، المستجيبين بحمايتك، المرتجين لعنايتك و إعانتك، قمت بتبليغها بين يدي سلطنتك الخاقانية، و همتك العثمانية، و تبليغها من الواجب في حقى، و هو ثمره طاعتي و صدقي، و المأمول من تلك الهمة، النظر لهذا القطر بعين الرحمة، و هذا المال في خزائن الدولة لا يزيد، و ثقله على هذا القطر شديد، فارحم أيها المولى ضراعتنا، و لا تفرق بما لا نطبق

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ١٩٨

جماعتنا، فالأمر جليل، و ما قرّرناه بعض من الأسباب و العلل، و قد فكرنا و أعتينا الحيل، فلم نجد إجابة المطلب إلا بتقيص عمل، يفضى إلى نقص و خلل، أو تثقيل يقطع من الرعية الأمل، و يضعف بسبب ذلك هذا العمران، و تشتد الحاجة للإستمداد من كرم مولانا السلطان، و الله يجيرنا من حوادث الأزمان، هذه وسيلة من بعدت داره، و لم يكن بيده اختياره، على لسان مملكة تونس، مع قدوتها المونس، صالح مصرها و إمام عصرها، شيخ الجماعة و مفتيها، الذى دانت له البلاد ببنيتها، و نالت به الملة أقصى أمانيتها، السارى ذكر تأليفه فى النواحي، السيد إبراهيم الرياحى، و جهته حالتنا و انتظرت، و من سحائب رحمتك استمطرت، اللهم أنت أعلم بنا منا، فلا تحملنا ما لا طاقة لنا به و اعف عنا، و ارزقنا الرحمة من سلطاننا و الهمة، لإعانة أوطاننا، إنك على كل شىء قدير و كتب فى أواخر أشرف الربيعين سنة (١٢٥٤ هـ).

و فيها: ما كتبه أحمد باشا المذكور فى تبرئه نفسه مما رمى به، من إرادة المخالفة، و نصه:

الجناب المقصود بلوغ الآمال، و نجاح الأعمال، جناب ركن الدولة و شمس ضحاها، و قطب رحاها، صدر صدور الكبرا، و مركز دائرة الوزراء، المشير الأفخم، و الصدر المعظم، السيد مصطفى رشيد باشا، لا زال محط الرحال و قبلة الوجوه، بالغاً من الله ما يؤمله و يرجوه.

أما بعد تقديم ما يجب للسلطنة من فروض الطاعة، بحسب الإستطاعة، فإن هذا العبد الذى مات فى خدمة الدولة سلفه، و عاش فى فضلها خلفه، روابطه مع الدولة العلية ثابتة الأساس، معلومة فى الناس، واضحة و صوح الصبح غنية عن الشرح، كما أن ما جبل عليه سلطان زماننا من كرم الطباع و طول الباع، أمر انعقد عليه الإجماع و ما على الصبح غطاء و ما على الشمس قناع، و الأمان الذى مهده لأهل الإيمان واضح للعيان، لا يختلف فيه إثتان و لا يخطر بالبال ما ينافيه، لأنه من الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه، و طالما تمنى هذا العبد الوفود إلى الحضرة العلية و مشاهدة الأنوار المجيدية، لو ساعده الزمن، و تجرى الرياح بما لا تشتهي السفن، و ما صده و الله عدم الأمان لأنه من المستحيلات العقلية مع أنه لم يصدر منه خلل فى عمل و لا نية، فاعلل النفس بأن التوجه إنما هو تعرض لعناية الدولة. و المقام إنما هو لحفظ ما لها فى هذا القطر من الصولة، و تؤثر واجب الخدمة على التعرض لمزيد النعمة، و النصح فى خدمة السادات مقدم على نفع خاصة الذات، فاقترصت بالضرورة على السنن المألوف و المسلك المعروف. من تقربى إلى الباب العالى بتقديم الهدية طبق الأصول الإعتيادية، فى هذا الوجع الذى أشرفت عليه الأنوار العثمانية. و حمته الشوكة الخاقانية، و إن كانت الدولة على أضعافها غنية، فما

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ١٩٩

راعنى إلا ما فى مكتوب الوزارة من أنه صدرت المساعدة من حضرة صاحب الخلافة بالتفضل بتوقيفها، و أن هدايا الوكلاء العظام صار فى حيز القبول بمقتضى الرخصة السلطانية، ففهم العبد من التوقيف عدم القبول و من عدم القبول نقصان الرضاء، و فى المكتوب المذكور ما يشير إلى ذلك مع ما بلغه الرسول من تفسير الإشارة بصريح العبارة، كما ذلك محرر فى صحيفة. فحزن لذلك الفؤاد و ماج فى تيار الانكار، إذ لم يصدر منا ما يقتضى ذلك و ما سلطنا فى غير مسالك، أما كون سلامة تونس و سعادتها متوقفة على تأييد الروابط القديمة مع الدولة العلية فهو من المعلوم ضرورة و جاحده منكر للبدييات، و أما التبعد و التوحش الموجب لأنواع المحاذير فمحلله إذا صدر منا خلاف ما انطوى عليه الضمير، أو فعلا يقتضى نوعا من التغيير أما و الحالة هذه فإن العبد لم يجحد حقا معتادا، و لا أضمر بشهادة الله عنادا، و لا-وطأ لأسباب الشبهات مهادا، و لم يصدر منه إلا المعلوم بسالف الأزمان، و أقره السادة القادة من آل عثمان، و الأصل بقاء ما كان على ما كان، فلا مخاطرة و الحالة هذه بالنفس و لا بالوطن أما النفس بوجود الأمان، من ظل الله فى أرضه و القائم بواجب الإسلام و فرضه، و عدالته العمريه و نيته الخيرة و شففته على البرية، بأكثر من هذه الآمال حريه.

و أما الوطن فإنه فى حمايه دولته، محوط بصولته يدافع عنه بقوته، و يكافح من ناواه بشوكته، و لا- منافاه بين الذب على القطر الإسلامى و حمايته، و بين التفضل باستمرار عادته، و استغفر الله إن يخطر بالبال و الحال الحال، ما لا أقدر أن أفوه به من توهم الإستقلال، أعوذ بك اللهم من هذا المقال، كيف و منابر القطر فى كل جمعه تنادى بطاعته، مع التشكر على تقرير عادته، و لا رواج للدرهم و الدينار إلا باسمه العالى فى سائر الأقطار، و أشرف ألقاب هذا العبد هو ما جعلته له السلطنة العلية و أهله لئله من المراتب السنية، بمحض فضلها و كمال عدلها، و عدم إمكان الحضور لهذا العبد الشكور إذا كان سببه صلاح الأمور، و المثابرة على دوام حفظ الجمهور لا يتوقع منه المحذور، و اختلاف البشر فى مدارك العقول معقول و منقول، و صدق الخدمة يقتضى التصديق فى المقول، هذا و طلب الوزارة شد الله أزرها و قرن باليمن نهيها و أمرها، من العبد الفقير أن يودع لأمانتها ما فى الضمير، يوجب أن نشرح نيته و ما انطوت عليه طويته، فأقول و الله شهيد على سرى و علانيتى، هذا العبد الذى نشأ فى طاعة الدولة العلية، و رفل فى حلال مرضاتها الجليلة، و تغذى بلبانها و عاش بإحسانها، و استظل بأمانها و تشرف بخدمه سلطانها، من بيت هو عاشر آله فى الخدمة و مظهر ما للدولة من النعمة، أعظم أمانيه دوام رضى مولانا السلطان و ظل أهل الإيمان، و أن تبقى خدمته على سنى أبيه و جده، و نيل هذا هو سعادة جده، و أن هذه الإيالة الطائعه على هذه الحالة، لا يراع لها سرب و لا يتكدر لها شرب بحمايه القوة السلطانية و الشوكه الخاقانية، و بهذا الحال حفظ طاعتها و صلاح جماعتها، و هو السبب فى اجتماع الكلمه لهذه صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار؛ ج ١؛ ص ٢٠٠

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ٢٠٠

الأمه المسلمه، و الله يقول: وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا [آل عمران: ١٠٣].

و اختلاف عوائد الآفاق لا ينافى الطاعة و الإتفاق. و لا يكون ذريعه للإفتراق، و تمسك البلدان بعاداتها مخلوق مع ذواتها، و المأمول من الحضرة العلية أدام الله نصرها، إذا رأت هذا العبد فى مقعد صدق، و حققت إن نطق بحق، أن يرق لهذه الفئة القليلة و يرحم ضراعتهم و يجمع بإبقاء عاداته الجميله جماعاتهم، حاشا فضله و إنصافه أن يتزع حله تفضل بها أسلافه، بل المأمول من كرمه الزيادة و هو المحيى لما أثر أسلافه السادة، هذا ما فى الجنان نطق به اللسان، بلا شبه و لا تمويه و لا خواطر تنافيه، فإذا ساعد القدر بالقبول فهو المظنون المأمول، و إن كانت الأخرى فالله مع الصابرين و هو سبحانه لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم و الله يعلم أننا ما غيرنا و لا أضمرنا غير الذى أظهرنا، و يوم تبلى السرائر نسأل عما صررنا، و هذا المكتوب يشرف بلوغه إلى الباب العالى المستوجب لكل المعالى، الثقة الفاضل المؤمن نخبه أقرانه لنباهه شأنه، إبننا محمد أمير لواء عسكر البحر و معه الكاتب الثقة الخير العفيف الفقيه إبننا على الدرناوى و جناب الوزارة يثق بأن ما يلقى إلى الحاملين من المقال يصل للعبد الفقير على أحسن حال، و المرجو أن يعودوا إلينا

بخبر ييسط النفس و يعيد لها الأنس، و الله يديم للدولة العلية المجيدية عزا لا يطاول حده، و نصرا يمضى فيمن عاندها حده، و السلام و كتب فى ٢٠ ذى القعدة سنة (١٢٦٥هـ).

و منها: مكتوب من أحمد باشا المذكور أصحابه مع العساكر المرسله فى حرب القريم مخاطبا به الصدر الأعظم و نصه:
أما بعد تقديم التحية المناسبة لتلك الوزارة العلية، و الفخامة الراسخة الجليلة، فهذا أمير الأمراء و أحد أعيان الكبراء، الثقة العمدة فارس هذا الميدان إبننا رشيد وجهه معظم قدركم، بهذه الفئة القليلة السابق تقريرها لجليل وزارتك، و وجهنا معه إبننا محمد أمير اللواء. و الله يرى ما للعبد الفقير من الإستحياء عند عرضها على الباب العالى و يسهل الأمر، إن ذلك على قدر العبد الفقير لا على قدر الدولة ذات العظمة و الصولة و الاعتماد على الوزارة العظمى فى الإنهاء و التقرير و بهمهم الرجال تنال الآمال و تحسن الأعمال، و المأمول من وزارتك المحموده الصفات أن تهب لبائع نفسه لله حسن الإلتفات، فاليد فى طاعة الله و خدمته الخلافة واحدة و القلوب على ذلك متعاضدة، و الأنفاس متواردة و المأمول أن يرى أمير هذا الجيش من عنايتكم فوق الأمل و الله يسدده إلى مرضى العمل، و ينصر مولانا السلطان و يعلى بسطوته أركان الإيمان، و يديم وزارتك ركنا منيعا و كهفا رفيعا، و السلام.
و كتب فى شوال سنة (١٢٧٠هـ).

و منها: مكتوب من محمد باشا عند ولايته على القطر، يطلب التولية و التقرير و يعلم بإرسال نجدة عسكرية لحرب القريم، و هدية مالية مصاحبة للمكتوب، و نصه:

اللهم بالثناء عليك تنقرب إليك، و بالصلاة على رسولك و خلفائه المتناسقين نسألك

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ٢٠١

سبل المتقين، و بشكر نعمك نقرع باب كرمك، و هو باب الدولة العلية العثمانية و السلطنة المجيدية الخاقانية، المخدومة بالأعمال و النية، المقصودة لبلوغ الأمنية، الوارد فضلها على الأقطار من كل ثنية، و الشمس عن مدح المادح غنية، و كفاها أن رفعت من الملة الحنفيه أركانها، و أقامت للحق قسطا و ميزانا، و روت أحاديث العناية صحاحا حسانا، و ورث ملوكها الأرض و هم الصالحون سلطانا، يتبع سلطانا من سمي ذى النورين إلى من اختاره المجيد سبحانه لعباده، و أقام به شرائع دينه و فروض جهاده و تولاه بإعانتة و إيساعده، و يسر على يده مصالح أرضه و بلاده، لا زالت القلوب بطاعته مؤتلفة، و السيوف و الأقاليم بخدمته متصفه، و الألسن فى الإقرار بعجزها عما يجب له منصفه، و بماذا أحیی تلك الحضرة العلية الشامخة و القدم التى فى كل فضل راسخة، ضاق نطاق العبارة و لم يبق إلا مسلك الإشارة، فالرجوع إلى السنه و تحية أهل الجنة السلام على أمير المؤمنين و رحمة الله من عبد نعمته العاكف منذ نشأ على خدمته محمد بن خديم الدولة حسين باشا باى. أما بعد.

فالمعروض على تلك الحضرة و لها طول العمر، و نفوذ الأمر، أن رهين نعمتكم و عبد طاعتكم و عاشر هذا البيت فى خدمتكم ابن عم عبدكم و مقام أخيه المشير أحمد باشا باى سار إلى عفو الله فداء الحضرة السلطانية متزودا بما مات عليه من طاعة الخلافة و خدمتها بالعمل و النية، و فى الحين بادر أهل الإيالة التونسية عموما و خصوصا، و كانوا بنيانا مرصوبا، إلى هذا العبد الفقير و ألقوا إليه مقاليد أمورهم، و النظر فى حفظ مفردهم و جمهورهم، فقام العبد بما وجب عليه من جمع الكلمة الإسلامية، و الدعاء على المنابر للسلطنة المجيدية، راجيا من رضى الخلافة فى تأمين البلاد و زوال روعة العباد، و سد طرق الفساد، و اعتصمنا بحبل الله جميعا و لبي العبد الفقير سلطنتكم سامعا مطيعا، على عادة أسلافه الخدام مع السلف الصالح السلاطين الكرام، و وسيلة هذا العبد أنه نشأ فى ظل سلطنتكم و تغذى بلبان نعمتكم، و تعرّف من نعمكم الأنواع و الأجناس، و استضاء من عنايتكم بنور يمشى به فى الناس، و الكرم يرى لسالف الخدمة تأكد حرمة، و قد ترجى العناية من ذلك الباب، اعتمادا على فضل ذلك الجنب، و لا يمت بغيره من الأسباب، و عادات السادات سادات العادات، و الأمل أن تزيد خدمة عبدكم على خدمة من مضى حتى يرى من ظل الله الرضى، و الله يعاملنى فى نيتى فيما عرضت من أميى قبل حلول ميى، و قد ابتدأ العبد خدمته بما كانت إليه فيه مع من تقدّم واحده، و القلوب و الجوارح عليه

متعاضده، و هو إرسال طائفة من العسكر إغانة لتلك الفئة القليلة التي تقدمت و بحسن القبول قوبلت و الأمل الذي عليه المعول أن يشملها الفضل الأول، و معها جهد المقل و منتهى طاقة الضعيف و على قدر المهدي الهدية في هذه الإغانة الجهادية، و علم السلطنة بالحال و لكنه يقتضى الإغضاء عنه يقدم ذلك عبدا لسلطنة المكتفى بوثوقه و أمانته و سياسته و نجابته أحد خواص عبدكم و محل ابنه محمد أميرا للوا و هو النائب عن العبد العاجز في طلب الفضل الذي وسيلته الرجاء و الأمل، و فضل الكرام لا يتوقف على ملاحظة عمل، اللهم أعنا على ما أوجبت لهذه

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ٢٠٢

السلطنة من فروض الطاعة و تأدية الحق جهد الإستطاعة، و اعصمنا بيدها الطولى من الإضاعة، و احملنا من مرضاتها على سنن السنة و الجماعة، اللهم إنا إليه ناظرون و عن أمره صادرون و لإنجاز وعدك في نصر من ينصر دينك منتظرون، فما فقد شيئا من وجدك و لا خاب من قصدك، آمين يا رب العالمين و سلام على المرسلين و الخلفاء الراشدين و من تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، و كتب في شوال سنة ١٢٧١ هـ.

و منها: مكتوب من محمد الصادق باشا عند ولايته في طلب الولاية و التقرير مثل السابق و نصه:

الحضرة العلية الخاقانية السلطانية المخدومة بالعمل و النية، واثقة من عدلها و فضلها ببلوغ الأمانة. و الشمس عن مدح المادح غنية، خليفة رسول الله و ظل الله في الأرض، الحامى لشعائر الإسلام من سنة و فرض، من اختاره المجيد سبحانه للخلافة، و زين بما يرضيه أوصافه، و محى بعدله كل إخافة، اللهم يا كريم يا مجيد أدم له النصر و التأييد و الخير المزيد و العمر الطويل المديد في الزمن السعيد و العيش الحميد، و أعن العباد على ما أوجبت له من فروض الطاعة، و اجعل السلطنة فيه و فى عقبه إلى يوم الشفاعة. أما بعد: السلام على أمير المؤمنين و رحمة الله فإن العبد الشاكر على وراثته خدمته الناشىء فى نعمته السابح فى بحار منته، يعرض للأعتاب العالية و منبع الفواضل المتواليه، أنه تقدم منه أخبار للباب العالى بوفاء أخى و للحضرة العلية طول العمر و دوام الأمر، فصبر العبد على القضاء و رجونا له حيث توفى فى خدمته الخلافة الرحمة و الرضى، و حفظ العبد العاجز رتبته على العادة، المقررة من السلاطين السادة، و وجه لباب الفضل عبد السلطنة العلية نخبه الأعيان، و صفوة الأقران، وزير البحر إبننا أمير الأمراء خير الدين يطلب على لسان العبد الفقير الفضل المعتاد، من لباب السلاطين الأمجاد، و على عادة هذه البلاد، و قدم العبد على قدره ما يستحى لعظمة السلطنة من ذكره، و إن كان مقام السلطنة الكبير يسمو على التقدير، و يرى الفضل بالقبول أول مأمول، فالعبد وجه رسله لباب الفضل و انتظر، و فاز من وضع الأمل موضعه بنيل الوطر، و الله أسأل أن يطيل بقاء أمير المؤمنين و يعز به الدين، و يقوى بشوكته جبل الله المتين، و يحيى بعدله سنن الخلفاء الراشدين، و يديم الخلافة فيه و فى عقبه إلى يوم الدين، آمين يا رب العالمين، و السلام على أمير المؤمنين، من عبد نعمته المخلص فى خدمته المؤمل لنعمته، الفقير إلى ربه تعالى المشير محمد الصادق باشا باى وفقه الله. كتب فى ١٨ ربيع الثانى سنة ١٢٧٦ هـ.

و كاتب فيما ذكر الصدر الأعظم بما نصه:

الصدارة العظمى و الركن الأعظم الأحمى و الرتبة الشامخة الشما، صدارة ركن الدولة

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ٢٠٣

و عز الوزارة، و منتهى الأمال و مصدر الإشارة، و من لا تفى بمحاسنه العبارة، الوزير الشهير الصدر الأعظم السيد محمد باشا لا زال كما يختار سعيد الأراء محمود الآثار و مناقبه تخلدها أقلام الأقدار.

أما بعد تقديم التحية المناسبة للوزارة العلية المستمدة من أنوار الخلافة المجيدية، فإن العبد الفقير قدم للباب العالى خبر وفاة أخيه إنا لله و إنا إليه راجعون و أن أهل الإيالة قدموا العبد الفقير العاجز لجمع الكلمة من هذه الأمة المسلمة، فأجبتهم لحفظ مصلحة الوطن و قلت ما رآه المسلمون حسنا فهو عند الله حسن، و الآن و جهنا لباب السلطنة العلية و منبع الفضائل الجلية عبد السلطنة نخبه الأعيان و

صفوة الأقران وزير البحر أمير الأمراء إبننا خير الدين، و في رفقته أمير اللواء إبننا حسين لطلب الفضل المعتاد من السادة القادة السلاطين الأمجاد، و وجهنا معه الهدية على قدر العبد الفقير لا على قدر السلطنة الكبير، كما يرى جنابكم السامى تقييد ذلك، و جنابكم يسير رسولنا فيما يراه من المسالك، و المحقق المأمول أن وزارتك العظمى تعامل رسل العبد العاجز بحسن القبول، كما هو المعروف من آثاركم و الشائع من أخباركم، و يرجع الرسول بفضل السلطنة قرير العين مسرور الفؤاد و دتمم دام لكم الإسعاد و بلوغ المراد على ممر الآماد و السلام، من معظم قدركم العالى و شاكر فضلكم المقدم و التالى الفقير إلى ربه تعالى المشير محمد الصادق باشا باى وفقه الله. و كتب فى ١٨ ربيع الثانى سنة ١٢٧٦ هـ.

و المكاتيب على هذا النمط كثيرة و كفى بإعلان الولاية فى جميع مكاتيبهم الرسمية بلقب التشريف الذى منحتم به الدولة العلية، يقول كل منهم من المشير فلان باشا باى و هاته السياسة هى التى يدين بها أهل القطر التونسى، كالأعتقادات الدينية مع التمسك بالإمتيازات الحاصلة الآن، و أهمها إبقاء آل حسين بن على على الولاية لالتحامهم بهم، و معرفتهم طبائع أهل القطر و منازلهم و طبقاتهم، و إنما جلبنا ما تقدم بيانه و إن كان الأمر غنى عن البرهان لما شاع فى أذهان بعض من لا خبرة له، بأن أحمد باشا شق عصا الإسلام و تبعه من بعده، و كادوا أن يلمزوا أهل تونس بالكفر لرضاهم بأعماله، مع أنه لم يأت شيئا فريا، و غاية أمره التحفظ على الإمتيازات التى أوجدتها العادة، و رام أن يحصلها رسميا جاء على غير الطريق المناسب و لم يحصل إلا إسقاط طلب الأداء السنوى و إبقاء الولاية فى مدة عمره، و إن تاب إلى الله مما سلكه من عدم الإنقياد لما طلب منه الذى ترائى للجمهور أنه شبه خلاف، و رقع خرقة بزيادة إرسال العساكر على ما كان يعهد الذى هو فى أواخر عهده بهذه الدار، و عزمه هو و ابن عمه من بعده على التوجه إلى دار الخلافة كما هو مشهور عند خاصتهم، و قال: إن تخوفنا من الدولة العثمانية أراه أن يجر بنا إلى العدم، و معاذ الله أن أكون سببا فى خروج هذا الصقع الإسلامى من يد المسلمين و خروج روحى أهون على من ذلك، هب أن الدولة انتزعت من يدي هذا الملك ألت بمسلم، و رأيتة بخط أمين أسرارهم كتبهم الخاص الوزير أحمد بن أبى الضياف.

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ٢٠٤

المطلب الثالث فى سياسة القطر الخارجية:

اعلم أنه لم يكن من الدول جميعا معارضى للسياسة المتقدمة حتى أن الدولة الإنكليزية كانت مراقبة لحركات ولاية القطر معارضة لكل ما يخالف التبعية للدولة العلية، مما يظهره بعض الدول و الولاية، و قد كانت تشدد فى ذلك بعد استيلاء الفرنسيين على الجزائر، حتى أنها لم ترد أن تقبل أحمد باشا فى سفره إلى أوروبا إلا بواسطة سفير الدولة العلية، و عدل هو عن زيارتها لمخالفة ذلك للعوائد معه حيث كانت تقبل رسله بلا واسطة، غير أنها بعد حرب القريم أغضت و قصرت من مسلكها إرخاء للعنان مع من يريد زيادة النفوذ من الدول، كى يعوضها بمثله فى الجهات التى لها فيها منافع مع وجود الإستناد الرسمى للدولة العلية، الذى كانت تحوم حوله فتستند لذلك عند الحاجة.

و أما دولة إيطاليا فإنها كانت فى المدة السابقة متفرقة و لما اتحدت و صار لها اعتبار التعديل فى السنين الأخيرة، فكانت موافقة لسائر الدول رسما و علنا، و فى السر ينزع بعض متوظفيها لما صارت تنزع إليه دولة فرنسا على غير الطريقة الرسمية، و ذلك لأن باتحاد إيطاليا صارت مشاركة للدول العظام فى النفوذ فى البحر الأبيض و تطلب المنافع التى تناسبها فى جوارها، ثم إن وحدة إيطاليا و جعل تحتها مدينة رومه أحييت رسم خريطة الإستيلاء على قرطاجنة تذكارا لملك الرومانيين، غير أنها لم تحم حول ذلك الحمى جهارا لما تقدم من حق الدولة العلية و لأن دولة فرنسا ناشرة لواء السطوة و سياستها لا توافق على ذلك، فصارت إيطاليا محافظة على إبقاء ما كان على ما كان.

و أما دولة فرنسا فإنها لم تخالف تلك السياسة و لم يكن يعينها أمر تونس و علاقتها بالدولة العلية إلى أن استولت على الجزائر للأسباب التي سترد في الباب الخامس عند الكلام على الجزائر، فمن ذلك التاريخ صارت متحذرة من زيادة تداخل الدولة العلية في القطر التونسي لأسباب:

منها: أن الجزائر أصلها تابعة للدولة العلية و لم يكن استيلاؤها عليها بحرب مع الدولة العلية و إنما اضطر إليه الحال في الإنتقام من والى الجزائر لإهانتته نائب فرنسا.

و منها: أن نفس الإستيلاء على الجزائر إنما تم بعد سنين، و حروب طويلة مع أهلها و ما زال أهلها يدينون في عقيدتهم بالخلافة للسلطان العثماني.

و منها: أن مجاورة دولة قوية مثل الدولة العلية توجب مشاحنات يقتضيها الجوار، و لا تدعن إحداهما للأخرى بسهولة بخلاف ما إذا كان الجار ضعيفا فما هو إلا أن يؤمر فيتبع.

و شاهده: أن بمجرد ما تم أخذ الجزائر سنة ١٢٤٥ هـ، قدّمت فرقة من الأسطول الذي كان على شطوط الجزائر و طلب رئيسها من والى تونس زيادة في الشروط، منها: أن لا تختص الحكومة التونسية بمتجر بل و لا- تتجر، و منها: إبطال التلصص بالسفن على السفن التجارية و إبطال ملك الأسي و إبطال ما اعتيد من الهدايا، و أن يكون للفرنساوين

صفحة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ٢٠٥

التعامل في القطر مثلما يتعامل أهله، فعقد الوالي معه ذلك على كره، و سجل و أرسل إلى دولة فرنسا معلما بأن الشروط أخذت شبه غضب، و كانت إذ ذاك دولة فرنسا في شغل من الثورة على ملكها، فعدلت تلك الشروط بعض التعديل.

فلمثل تلك الأسباب لزم فرنسا مراعاة مصالحها و مداخلتها في حراسه سياسة تونس، و الذي استقر عليه القرار من الدولة الفرنسية من ذلك التاريخ إلا الآن، هو ما يشير إليه ما رأيته بخط أمين أسرار الحكومة أبي العباس الوزير أحمد بن أبي الضياف و نصه: «لما اجتمع أي أحمد باشا بملك فرنسا و هو لويز فليب في خلوة، قال له: «إن كنت تروم الإستقلال فلا سبيل إليه، و الذي تعتمد مني أن فرنسا تحمي سياستها حالتك التي أنت فيها الآن، بحيث لا يتعدى عليك أحد من جهة البحر، و أما البر فدبر أمرك فيه من جهة طرابلس، و أساس حمايتك هو التجب إلى الرعية و الرفق بهم». سمعنا ذلك منه مشافهة رحمه الله اه.

و هاته السياسة التي صرح بها ملك فرنسا إذ ذاك هي السياسة المعول عليها عند عقلاء الفرنسيين قديما و حديثا، حتى قال أحد كبار جنرالات الفرنسيين و أحد حكام قطر الجزائر، بقصد التبليغ إلى حكومة تونس و الحال أنه عسكري و الغالب على الحزب العسكري هو الميل إلى استيلاء، و ذلك سنة ١٢٩٥ هـ عند ختام مؤتمر برلين في شأن الحرب الأخيرة بين الدولة العلية و روسيا، و قد اشتهر إذ ذاك أن بعض نواب الدول في المؤتمر لما رأوا مشاحنة نائب فرنسا في تسليم قبرس إلى الإنكليز، أو عز إليه على غير الطريقة الرسمية بأن تستولى فرنسا على تونس إرضاء لها و لم تعمل بذلك فرنسا، فقال الجنرال المذكور لمن يبلغ: «قل لوزيركم و للباي ها أنتم ترون من هي الدولة التي تصدقكم من التي تكذبكم، فإنهم يقولون لكم أنا نريد الإستيلاء عليكم ليعدوكم و ينفروكم منا، و الآن قد أعطوكم لنا و أبيننا من الإستيلاء عليكم، فلتعلموا من هو الصادق و لتعلموا أنا لم نمتنع من الإستيلاء عليكم لمجرد حب الباي، لأن مصالح الدول لا تتداخل فيها الشخصيات، و إنما امتنعنا لعدم فائدتنا، لأن فائدتنا في تونس إن كانت هي المال فهي فقيرة و خالية، و فرنسا ليست بحاجة. و إن كانت هي تكبير الأرض ففي الجزائر أراضي و سبعة و لا- زالت إلى الآن خاوية محتاجة إلى العمران، فالأولى بنا تعمير أرضنا قبل أن نأخذ أرضا أخرى خالية، فأى مصلحة لنا في أن نرسل عساكرنا لإطلاق الرصاص عليهم في قابس و الحالة ما ذكر، نعم غاية ما نطلبه منكم هو الهناء و الراحة في داخليتكم حتى نرتاح نحن براحة جوارنا، و أما إذا أحدثتم الإختلال في داخليتكم و أحوجتهمونا إلى إطلاق الرصاص لأجلكم، فالأولى أن تطلقوه إذا لأجل أنفسنا لأن ما كنا نتباعد عنه توقعونا أنتم فيه الخ».

فكلامه صريح في أن سياستهم هي إبقاء تونس على ما هي عليه، و كذلك سمعت من أعيانهم في السياسة أنهم كما لا يريدون هم

الإستيلاء على تونس لا يريدون غيرهم أن

صفحة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ٢٠٦

يتولاها، مصرحين بحقيقة سياستهم التي و في بها كلام الجنرال المذكور، مع الأنفة من منة الدول في المؤتمر بإعطائهم شيئاً لا فائدة فيه زيادة على ما هم حاصلون عليه و هو غاية أربهم في تونس، بأن يكون لدولة فرنسا المنزلة الأولى فيها و تتقدم على غيرها في النفوذ السياسي و المتجري، بحيث تكون كل مصلحة عامة لا يقتدر على عملها الأهالي أو الحكومة تسلم إلى الفرنسيين، و يرغبون في أن تكون الإدارة في الداخلية حسنة ثمر كثرة العمران و الثروة ليزداد بذلك متجرهم و حركتهم و نفوذهم، لكن على وجه في الإدارة لا يمكن أن يتعطل به قصدهم، و يرى بعضهم أن من أسباب التعطيل أن تكون الحكومة قانونية شورية إذ ربما رأوا أن ذلك يعارض مصالحهم في بعض الأحيان باستناد الحكومة في الامتناع من الإجابة إلى بعض مقترحاتهم لرأى الأمة التي هي مقيدة به، و ذلك عندهم مما لا- يمكن أن يعارض لأنه هو القاعدة الأساسية في مملكتهم و ما عدا ما تقدم فلا أرب لهم في الإستيلاء على الأحكام أو معارضة الوصلة مع الدولة العلية التي لا تنقض هاتيك الأساسات.

فها ته هي مقاصدهم فلو تجديد الإدارة في الحكومة قادرة على الإنتفاع بها و دفع غائلتها، و منها عدم الإستواء في الحكم لكان مما يعين على الراحة و رجال الدولة الفرنسيين قابلون لإصلاح الأحكام و انفرادها كما سيأتي بيانه، و مثل ذلك تقييد الحكومة بالقانون الذي لا مندوحة عنه، و يتبين لرجال الدولة الفرنسيين أن التقييد بالقانون لا يفوت مصالحهم المذكورة لأن عقلاء الأمة باجمعهم تكون حالتهم أدعى إلى ما يزيد في خير الوطن، و ما يدركه أفراد المستبدين في تونس بالتصرف من وجود مراعاة الدولة القوية المجاورة يدركه مجموع العقلاء للأمة على وجه أتم مما هو للأفراد، و يراعون مقتضى الأحوال.

نعم إنهم يفرقون بين ما يعود لما ذكر و ما يعود لأفراد في خويصة ذاتهم مما لا يرضاه عموم الأمة لو تطلع على تفاصيله، و لمثل ذلك ألحت دولة فرنسا على تونس في تأسيس التنظيمات سنة ١٢٧٤ هـ كما سيوضح، و عاضدتها دولة الإنكليز حتى ورد أسطول الدولة الأولى و كان في آثاره أسطول الدولة الثانية، و ألح كل من قنسليهما في إجراء الأمر محتجين بالشريعة و عمل الدولة العثمانية و السياسة الحاضرة، و عاضدهما رئيس الأسطول الفرنسي و تحققوا أن ذلك غير معارض لمصالح دولهم الخاصة، و إن استند بعض موظفيهم في بعض الأحيان ميلاً- إلى موافقة الولاة الممتنعين إلى أن الحكومة الشورية يخشى منها تعطيل مقاصدهم و ينهون إلى دولهم الأحوال على ما يوافق سلوكهم، و ربما أشاروا إلى فوات مقصود دولتهم إذا خالفت رأيهم فتضطر دولتهم إلى السلوك على ما يشيرون إليه، حيث أن الدول العظيمة تراعى الوصول إلى مقاصدها في الخارج بأي طريق أمكن، و تكسو تلك الوسائل بحلل تحسنها أيدي السطوة و القوّة، و لا مقياسه بين سيرتهم في داخليتهم و سيرتهم في الخارج سيما في الجهات التي لهم فيها مأرب، فربما ارتكبوا في ذلك ما لا يمكن

صفحة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ٢٠٧

تصور مثله في داخليتهم، و وجه ذلك هو التوصل إلى نفع دولتهم لأن مثل تلك المنافع إذا ساغ أن تعقد لأجله الحروب التي تراق فيها الأنفس و تضيع فيها الأموال من الطرفين، فلئن يتوصل إليها بوسائل أخرى أيا كانت فهو أخف و أولى، و لهذا لا ترى أثراً لمثل تلك السيرة في الجهات التي لا مقاصد لهم بها، بل تراهم هناك يسيرون على نحو سيرتهم في داخليتهم، و سيأتي لهذا مزيد بيان في الخاتمة إن شاء الله تعالى، إذ القصد هنا خصوص ما يتعلق بالقطر التونسي من جهة سياسته الخارجية.

و حاصله من جهة فرنسا: إبقاء تونس على حالتها و امتيازاتها و الامتناع من زيادة الإلتحام بالدولة العلية، و لذلك لما قدم قبطان باشا إلى طرابلس لافتكاكها من يد آل قراماني سنة (١٢٥١ هـ)، أرسلت فرنسا أسطولاً إلى حلق الوادي حذراً من قدوم الأسطول العثماني إلى تونس، فتخوف إذ ذاك والي تونس مصطفى باشا من أن يتهم بسعيه في ذلك، و كاتب قنسل فرنسا بما نصه:

و بعد، فإن جناب الدولة الفرنسية و جهة أجدانها لمرسى عمالتنا على مقتضى المحبة و المودة و قابلناهم بإكرام، لأن شقوفنا في

مراسى الفرنسيين كأنها فى مراسى عمالتنا، فكذلك شقوف الفرنسيين عندنا، و أما إقامة الأجفان فى هذا الوقت بحلق الوادى و دونالمة مولانا السلطان بقربنا و فيها السيد قبطان باشا، ربما تنتج لنا مضرة فى الحال أو فى المستقبل من جهة الدولة العثمانية أدام الله لنا وجودها، لأنها ربما تظن فى جانبنا ظنا يضر بنا، و معلوم أننا تحت طاعة مولانا السلطان فى أمره و نهيه و باسمه نخطب فى جوامعنا و على سكتنا، فلا يخطر ببالنا أننا نعصيه أو نخالف أمره أو نعارضه بشىء، فالمراد أن تعرف الأمرا بهذه المضرة التى نتوقعها و الاعتماد على كمال عقلكم فى حسن التبليغ، و شقوف الفرنسيين مهما تمر بنا أو تأتى لمرسانا فمرحبا بها، و نقبلها بالإكرام على مقتضى قوانين المحبة و لا زائد إلا الخير و العافية، و كتب فى (١١) جمادى الثانية سنة (١٢٥٢ هـ).

و أجابه القنسل بما نص تعرييه:

أنه بلغنا و وصلنا المكتوب الذى تشرفنا به من عند السيادة، و أعلمنا به الأمرا للندن و علمنا جميع ما تضمنه، و جوابنا عليه هو ما سنذكره، و هو أن جنابكم العلى برىء و أجنبى و خارج من الإتفاق الذى اقتضاه نظر الدولة الفرنسية فى إرسال هذا الأسطول لسواحل تونس، و أنتم لا يمكن لكم أن تمنعوا دولة الفرنسيين من ذلك و هو إرسال شقوفها لسواحل تونس، و لأجل ذلك لا يوجد عليكم لوم و لا عتاب من جناب الدولة العثمانية، لأنه لا وجه لذلك، و الدولة الفرنسية تعلم تحقيق حالتكم مع الدولة العثمانية و حاشا جناب دولتنا أن ترضى بما يوجب لكم غيارا مع دولتكم، و إنما مراد الملك أن تبقى جناب دولتكم مع الدولة العثمانية على العهد القديم السابق من غير تبديل و لا تغيير، لكن الدولة العثمانية لا يمكن لها أن تخرع أمرا جديدا تضر به مصلحة الفرنسيين فى الناحية التى تحت يده فى أفريقية،

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ٢٠٨

و لأجل أن يمنع ما عسى أن يقع من المضرة أرسل الملك أسطوله لتونس ليمنع به قدوم قبطان باشا لأجل التصرف بما هو مأمور به، و الأمرا لما بلغه أن قبطان باشا أتى لطرابلس و أعلم أن مراده الإتيان لتونس، فى ذلك الحين أرسل الأمرا جفنا من الأجفان التى تحت حكمه هنا ليعلم قبطان باشا أن حبيب السلطان الصافى و هو ملك الفرنسيين لا يمكن له أن يتحمل هذا التعدى بوجه من الوجوه فى المملكة التى تحت يده فى أفريقية، لأن قدوم دونالمة المسلمين إلى تونس يتقوى بها قلب باى قسنطينة الذى عندنا معه فى التاريخ مكالمه، و ربما كان بيننا و بينه حرب، فلأجل ذلك نعلم قبطان باشا أن لا يقدم و يرجع للمحل الذى جاء منه، فإن صمم و عزم على القدوم فإن الأمرا واجب عليه أن يصدده و يمنعه بالمدافعة القهرية بالقوة ا هـ.

فأنت ترى كيف صرح بالحالة المطلوبة مع تصريحه بأن الدولة العلية هى دولة تونس، لكنها بامتيازها كما هو صريح عبارته لمن تدبرها، فهذه هى السياسة الخارجية لهذا القطر، و استمر عليها إلى سنة ١٢٨٠ هـ التى حصلت فيها الثورة العامة الآتى بيانها، و نادى الأهالى بالتشكى للدولة العلية، و قدمت شكايات شفاهية و كتابة لرسولها حيدر أفندى عند قدومه بالأسطول العثمانى مع أساطيل الدول، و طلبوا بواسطته تداخل الدولة العلية فى تحسين إدارة القطر، بل إن بعض البلدان طلبوا الإنضمام الحسى للدولة و رفعوا العلم العثمانى، و تداخل فى هاته الثورة نواب الدول كل على حسب ما تقتضيه سياسته، فأثرت الحالة فى الوالى و وزيره مع ما هو معلوم من الحالة السياسية السابقة، و أنتج الرأى أن يرسل بالشكر للدولة العلية عما فعلته، و يطلب منها تحرير الروابط و الإمتيازات كتابة بما لم يبق معه مقال لقاتل، فسافر بذلك الوزير خير الدين مع التفويض التام، و قص على الصدر الأعظم و هو إذ ذاك فؤاد باشا مطالبه، و حصلت مذاكرات مع رجال الدولة عديده أنتجت الإتفاق على أصول الروابط المبنية على العوائد المعروفة الآتى بيانها فى نص الفرمان الآتى.

و تلقى الوزير خير الدين مع مزيد الترحاب به من الدولة ما يبلغه للوالى شفاها من مزج حلاوة الشاء عليه بمرارة الإعتراض على تصرفاته التى هوت بالقطر إلى الخراب و تلقى ذلك حتى من فم السلطان عبد العزيز نفسه، ثم رجع بمكتوب من الصدر فؤاد باشا محتويا على الأصول التى وعد بأنها سيصدر بها الفرمان الذى صدر الإذن السلطانى به و لم يساعف الوقت للعجلة بصدوره، ثم كتب

الوالى يشكر ذلك و استنهض صدور الفرمان مرارا فيرد الجواب بالوعد، و كان جميع ذلك غير معلن به إلى سنة (١٢٨٨ هـ) و كانت فرنسا إذ ذاك فى شغلها الشاغل من حرب ألمانيا لها، فاطمأنت إيطاليا من جهتها و ظنت تأثير التباعد من الدولة العلية و سنحت لها فرصة و هى أن وزير الحكومة التونسية مصطفى خزنة دار اكرى أرضا وسيعه تسمى بالجديدة إلى لجنة إيطاليانية، و أرسل الوزير أحد أعوانه إلى تلك الأرض رائما التسبب لفسخ الكراء مع ما فى نفس إيطاليا من جهة تونس، فادعت اللجنة صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ٢٠٩

خسائر حصلت لها من تعدى تابع الوزير لو بسطت من الذهب على سطح تلك الأرض لما وسعتها و امتنع الوزير من تحمل ذلك، فأعلن قنسل إيطاليا بقطع الخلطة و تهدد الوالى و جهزت إيطاليا أسطولها للإستيلاء لو لا تعرض الدولة العلية الذى حجزها عن ذلك، و انفصلت النازلة بالشروط التى أرادتها دولة إيطاليا فى الخسائر التى ادعت بها اللجنة و لم تختص بالواقعة بل هى عمومية، فتيقن الوالى أن لا- نجاه إلا باحكام الوصلة مع الدولة العلية بأمر علنى تحصل منه الراحة، فكتب الوالى يستحث إصدار الفرمان، و كتب الوزير خير الدين للباب العالى مكتوبا فى بيان الأخطار المحيطة بالإيالة إذا لم تتدارك الدولة العلية بحفظها، فورد الجواب من الصدارة بأن نازلة الفرمان مهما تقتضى إرسال من يعتمد من الوالى للتفاهم فى النازلة مع تلميح أو تصريح باستقبال السيرة التى عليها الوالى و الصدر إذ ذاك على باشا، ففهم رجال الحكومة أن الدولة غير راضية بأن يبنى الفرمان على ما فى مكتوب الصدر السابق، فوجه الوالى الوزير خير الدين بالتفويض الذى نصه:

من عبد الله سبحانه الموكل عليه المفوض جميع الأمور إليه المشير محمد الصادق باشا باى سدد الله تعالى أعماله و بلغه آماله إلى الهمام المفخر أمير الأمراء إبننا خير الدين الوزير المباشر أدام الله حفظه و أجزل من السعادة حظه (أما بعد):
فإننا بمقتضى ما نتحققه من صدقك و أمانتك و كتابتك و جهناك للأبواب العلية السلطانية العثمانية أعز الله نصرها و أدام الله فخرها للكلام فيما يؤكد أصول عاداتنا المألوفة المعروفة الآن و ما تنفصل به مع الدولة العلية فى ذلك بالكتابة فهو ماض فى حقنا، فوضنا لك فى ذلك التفويض التام بحيث لم نستثن عليك فى ذلك فصلا من فصول التفويض و لا معنى من معانيه، و أقناك فيما ذكر مقام أنفسنا تفويضا تاما عرفنا قدره و التزمنا به و الله أسأل لكم التوفيق و الإمداد و بلوغ الآمال و الإسعاد.

و مع التفويض المتقدم و معرفة العادات المألوفة، فإن الوزير المذكور لم يتمم شيئا مع الدولة إلا بعد أن عرض على الوالى الشروط التى استقر عليها رأى للفرمان و قبول الوالى لها مع الإستحسان، فتمم الفرمان مع الصدر إذ ذاك محمود نديم باشا، و قاسى الوزير خير الدين متاعبا من مناضلة رجال الدولة العلية فى زيادة شروط الإمتياز، و ناضل الوزير خير الدين عن حقوق البيت الحسينى بما يشهد له بصدق الوفاء و البراعة فى السياسة، و لم يزد فى الفرمان على ما تضمنه مكتوب الصدارة إلا قليلا، و رجع الوزير خير الدين بالفرمان علنا مع إعلاء رتبة نيشانه و إتيانه بالنيشان المجيدى المرصع للوالى و لعدة من كبار رجال الحكومة بنياشين، و لما وصل إلى مالطة لزمته إقامة مدة الاحتماء بها حيث كان فى الأستانة مرض الكوليرا، و من استبشار الوالى به و شكره على عمله أرسل له أمير لواء العسة مصطفى ابن إسماعيل، و هو إذ ذاك أعز المقربين إليه فواجهه من خارج محل الاحتماء و أبلغ إليه التشكر و بات ليلة و رجع فى الباخرة الخاصة التى قدم فيها، و لما قدم الوزير المذكور

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ٢١٠

بالفرمان المشار إليه عقد له موكب كأعلى ما يمكن من المواكب، و ألبس الوالى النيشان، ثم تشرف بالفرمان و عظمه ثم قرأه علنا و هذا نص تعريبيه:

بتعريب الباب العالى الدستور المكرم المشير المفخم نظام العالم، مدبر أمور الجمهور بالفكر الثاقب، متمم مهمات الأنام بالرأى الصائب، ممهد ببيان الدولة و الإقبال مشيد أركان السعادة و الإجلال، المحفوف بصفوف عواطف الملك الأعلى الوالى بتونس الآن، الحائز الحامل للنيشان المجيدى الشريف من رتبة الأولى مع النيشان، الهمايونى العثمانى المرصع، وزيرى محمد الصادق باشا أدام الله

تعالى إجلاله آمين.

ليكن معلوما عندما يصلكم توقيعى الرفيع الهمايوني، أنه منذ وجهت و أودعت من جانب سلطنتنا السنية إدارة الإيالة التونسية التي هي من ممالك دولتنا العلية المحروسة المتوارثة التي عهدتك ذات اللياقة والأهلية، كما وجهت سابقا إلى عهدة أسلافك لم تزل تظهر حسن السيرة و الخدمة و تنهى إلى طرفنا الملوكى الأشرف خلوص النية و الإستقامة، حتى صار ذلك قرينا لعلنا المضىء بالعالم فمأمولنا السلطاني على مقتضى الشيم المرضية، التي جبلت عليها هو الدوام فى ذلك المسلك المرضى و الجد و الاجتهاد فى كل ما ينمى عمران مملكنا الشاهانية، و سعادة أهاليها تبعه دولتنا العلية و رفاهيتهم و راحتهم، حتى تستديم بذلك استحقاق عنايتى الشاهانية و اعتمادى السلطاني المبذولين فى حقك و إن فنا و تعرف قدر تلك العناية و الاعتماد و تشكرهما.

و لما كان المقصود الأسمى و المراد القطعى لسلطنتنا السنية هو ارتقاء طمأنينة الإيالة المهمة الراجعة لدولتنا العلية و نمو عمرانها و تأسيس أبنية الأمن و الراحة لسكانها يوما فيوما، و كان من البديهيات أن السلطنة العزيزة لا يعزها و لا يؤودها صرف الهمة و العناية العائدة إلى حقوقها الأصلية لتمام استحصال هاته المطالب، و ورد الطلب المندرج بكتابك المخصوص الموجه من طرفك أخيرا إلى جانب الخلافة العلية، قررت و أبقيت إيالة تونس المحدودة بحدودها القديمة المعلومة بعهد تال بضم امتياز الوراثة و بالشروط الآتية، و حيث أن مرغوبنا السلطاني على ما تقدم بيانه إنما هو تزايد عمران تلك المملكة الشاهانية و ثروة أهاليها و هى الآن فى حالة مضايقة و تأخر فى الواردات لكل من الحكومة و الأهالى، قد سمحت السلطنة السنية بعدم إرسال ما كان يرسل باسم معلوم من الإيالة لطرف دولتنا العلية بموجب التبعية المقررة المشروعة رحمة لأهالى تلك الإيالة، و لما كانت الإيالة المشار إليها من الأجزاء المتممة لمملكنا الملوكية، صدرت إرادتنا السنية بأن يكون الوالى بتونس مرخصا له فى تولية المناصب الشرعية و العسكرية و الملكية و المالية و هما السياسة لمن يكون متأهلا لها، و فى العزل عنها بمقتضى قوانين العدل و فى إجراء المعاملات المعلومة مع الدول الأجنبية كما كانت سابقا فيما عدا المواد البوليتكية العائدة إلى حقوقنا المقدسة الملوكية، و نعى بها

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ٢١١

ما كان كعقد الشروط المتعلقة بأصول السياسة و الحرب و تغيير الحدود و نحوها مما يكون إجراؤه راجعا إلى حقوق سلطنتنا السنية. و عند حلول القدر المحتوم فى الولاية و تقديم المعروض بطلب الفرمان الشريف من الوارث الأكبر من عائلتك لطرف سلطنتنا السنية، يرسل له الفرمان الشريف مع منشور الوزارة و المشيرية الهمايوني كما استمر العمل بذلك إلى الآن، بشرط أن تستمر الخطبة بإسمنا السلطاني و تزين به السكة التي تضرب هناك علامة علينية للإرتباط القديم الشرعى لإيالة تونس بمقام الخلافة الجليل، و أن يبقى السنجق على لونه و شكله و مهما وقع حرب لسلطنتنا السنية مع أجنبى يرسل العسكر من تلك الأيالة الشاهانية بقدر الإستطاعة طبق ما جرت به العادة القديمة فى الجميع، و مع تلك المواد يكون أمر الولاية بطريق الوراثة مخصوصا بعائلتك، على أن تبقى سائر المعاملات الإرتباطية مع دولتنا العلية جارية مرعية كما كانت سابقا، و أن تجرى الإدارة الداخلية لتلك الإيالة مطابقة للشرع الشريف و موافقة لقوانين العدل التي يقتضيها الوقت و الحال الكافلة بتأمين السكان فى النقش و العرض و المآل، فإعلانا لما ذكر صدر هذا الفرمان الشريف الجليل القدر من ديواننا الهمايوني، و أرسل موشحا أعلاه بخطنا الهمايوني السلطاني، فخلاصة نيانتنا الشاهانية إنما هى إصلاح حال تلك الإيالة المهمة و ما لآل بيتكم، و تقوية ذلك حالا و مآلا و استكمال أسباب السعادة و الرفاهية و الأمانة لصنوف تبعنا المستظلين بظل عدلنا السلطاني، و مأمولنا القطعى الملوكى أن يبذل من جهتنا الجهد فى حصول ما ذكرتم، حيث كان تمام المحافظة على حقوق سلطنتنا السنية المحققة بتونس من قديم الأزمان و على أمانة الأهالى القاطنين بتلك الأيالة المودعة بعهدة صداقتك من حيث النفس و العرض و المال و سائر الحقوق العمومية، شرائط امتياز الوراثة الأساسية المقررة، فيقتضى أن تتأكد محافظتها عن تطرق الخلل دائما سرمدنا و متباعدنا عن وقوع الحال و الحركة على خلافها.

إذا عرفت ذلك فلا بد أن تعرف أنت و من يقوم مقامك فى أمر الولاية بالتوارث من أعضاء عائلتك قدر هاته النعمة العلية الشاهانية

و تشكرها، فعلى ذلك تسعى لتحصيل رضاي السلطاني بالغيرة و مزيد الإهتمام بإجراء هذه الشروط المؤسسة. حرر في اليوم التاسع من شهر شعبان المعظم سنة ثمانية و ثمانين و مائتين و ألف.

و نشر الفرمان في صحف الأخبار و حصل إذ ذاك من عموم الأهالي أفرح خارقة للعادة في ذات الحاضرة و في سائر بلدان القطر و في سائر قبائل العربان كل بما يناسب عوائده، و دامت الزينات أزيد من ثلاثة أشهر متواليه، و السبب في ذلك. أما ما يتعلق بالوالي: فلاستقرار أمره على أساس متين له و لعائلته طالما سعى فيه من كان قبله و لم يحصل عليه كما تقدم، مع الإرتياح من مقاصد الأجانب المتنوعة.

و أما الأهالي: فلحصول مرغوبهم من تمام الإتصال بالدولة الإسلامية، مع شروط

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ٢١٢

الأمن لهم و حسن الإدارة فيهم من ولاتهم الملتحمين بهم و المحبوبين عندهم، و إن لم يجر المطلوب فيهم على وجهه مما أبقى الباب مفتوحا في حقهم و لم يحصل من الدول الأجنبية أدنى إنكار و لا معارضة لما تضمنه الفرمان المذكور إلا دولة فرنسا، فلم توافق على الإعتراف به و بقي الأمر على ذلك رسميا إلا الآن، لكن المقاصد و السيرة الصادرة من الوزير الحالي مصطفى بن إسماعيل و ما نشأ عنها من الإرتباكات يجهل ما هو منتهاها، فله فيهم علم غيب هم صائرون إليه، فهذا هو خلاصة السياسة الخارجية لهذا القطر إلى هذا العهد و هو جمادى الثانية سنة ١٢٩٧ هـ.

تنبيه: قد حدثت حوادث مهمة مما أشرنا إليه بعد الفراغ من هذا الجزء نفردها بذيل وحدها إن شاء الله تعالى عند الكلام على سياسة فرنسا الخارجية.

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ٢١٣

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المطلب الرابع في السياسة الداخلية من العائلة الحسينية.

اعلم أنه منذ وليت العائلة الحسينية هذا القطر التونسي كان مدار أمرهم الرفق بالأهالي و الخمول و التباعد عن سمات الملك و الرفاهية، و غاية الألقاب التي تحلى بها أتباعهم و أعوانهم هي ما يأتي:

فأولها: صاحب الطابع، يعنى حافظ ختم الوالى و مأموريته ختم المكاتب و مباشرة المتوظفين فيما لم يباشره الوالى، و يكون هو الواسطة بينهما.

و ثانيها: باش كاتب، و له رياسة الكتابة و محاسبة العمال و الرأى في كل الأحوال.

و ثالثها: خزنة دار، و هو حافظ مال الحكومة في قصر الوالى.

و رابعها: باش أغه، و له رئاسة أغوات أوجاق الخيل.

و خامسها: كاهية، و له نيابة الوالى في الأحكام.

و سادسها: أمين الترسخانة، و لنظره ما يرجع إلى البحرية.

و سابعها: باش حانبه، و هو الواسطة بين الوالى و المشتكين إليه مع رياسة الحوانب و هم الأعوان الخيالة للحكومة، و هاته الوظيفة منقسمة إلى شخصين، أحدهما: باش حانبه ترك، و الآخر: باش حانبه عرب، و هذا له نفوذ على الآخر.

و ثامنها: باش مملوك، و له رياسة إدارة القصر الأميرى.

و تاسعها: الداي، و له الحكم في الجنايات [مطلقا] إلا القتل فهو خاص بالوالى، و له حفظ الراحة في خصوص الحاضرة.

وعاشرها: شيخ المدينة، و له الحكم فى الليل و حفظ المدينة ليلا- من السراق، و ترجع إليه سائر المعاملات العرفية و خصومات الأجنب فى الديون، كما أن فى كل ربض شيخا لخصوص حفظه ليلا.

و حادى عشرها: آغة القصبه، و له الحكم فى العسكر الينكشارى و الجنايات الخفيفة و مثله آغة الكرسي بانحطاط درجته عن السابق.

و ثانى عشرها: رئيس مجلس التجارة، و معه عشرة أعضاء يسمون العشرة الكبار و لا

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ٢١٤

يجتمعون إلا فى مهم، كما أن لكل صناعة أمينا يفصل الخصومات المتعلقة بالصناعة.

و ثالث عشرها: كاهية دار الباشا، و له فصل الجنايات الخفيفة حول الحاضرة، فهاته هى أهم الرتب السياسية و العسكرية.

و أما العلمية:

فأولها: الباش مفتى الحنفى، أى رئيس المفتين ثم المالكى ثم المفتى الحنفى ثم المالكى، و قد يزداد على واحد فى كل من المذهبين، ثم قاضيان لكل مذهب قاض ثم قاضى بارود ثم قاضى المحلة، أى المعسكر المسافر مع وارث الولاية، ثم قضاء المدن الكبيرة و مفتايتها. ثم قضاء المدن الأخرى و الجميع مالكية إلا ما يحدث أحيانا من ولاية مفتى حنفى فى المهديّة و المستير، فهؤلاء أصحاب الأحكام.

و هناك وظائف دينية كالمدرس و الإمام و الخطيب و صاحب الولاية، أى الأمير يجلس يوميا بمحل يسمى المحكمة صباحا لتلقى المشتكين من العمال و المتوظفين و من الحرابه و قطع الطريق و أمثال ذلك، أما نوازل المعاملة بين الناس فهى للحكام الشرعيين، و نوازل التجارة لمجلسها و الجنايات الخفيفة يباشرها الداي، و له الجبس مع الأعمال الشاقة المسمى بالكراكه، و له الضرب ثلاثمائة سوط فقط و أعظم به من مبلغ حرمة الشرع، و هكذا كل نازلة فإنها ترجع إلى حكاهما ممن مر بيانهم مع التوقيع التام للحكام أهل الشرع و نفوذ أحكامهم و لو على ذوى المناصب العالية، و يجتمع رؤساء المفتين و المفتيون و القاضيان و قاضى بارود يوم الأحد بمحضر الوالى، و تورد عليهم سائر النوازل المهمة فى الحقوق الشخصية، و ليس للوالى إلا تنفيذ ما يحكمون به مع غاية التعظيم و التوقيع، و لا زال طرف من هذا العمل إلى الآن بحيث أن هيبه العلماء و توقيع الشريعة لا زالت فى القطر التونسى على بعض ما يجب لها من الإجراء، و كذلك سائر الشعائر الدينية، و لقد أدركت أن سب الدين لا يمكن أن يكنى عنه بهاته العبارة تعظيما و توقيرا، بل يكنى عنه بسب المنكر، و ترى الكبير و الصغير يقول: من سب المنكر أذيب الرصاص فى حلقه كأنه هو حكمه المعروف، و كذلك سائر العبارات الفاحشه مما يكنى به عن العورات لا تذكر أبدا و من يذكرها فى خلواته يعد من السفهاء و لقد تغيرت فى هذا المعنى الحال و لله الأمر.

و أما ما يتعلق بالجباية و صرفها فقد كان لا يؤخذ من الأهالى إلا أعشار الحبوب من القمح و الشعير ثم عشر الزيت، و أداء مالى حسب مقدار مرتب العساكر الينكشارية مقسم على بلدان القطر يؤدى على ستة أقساط فى السنة و هو نزر يسير، ثم العاشر و هو المسمى فى العرف بالقمرق، ثم مداخيل الأراضى و الأملاك الراجعة لبيت المال مع ضرائب ضعيفة على القبائل مثل البلدان الماز ذكرها، عوضا عن زكاة المكاسب يوزعها على أفرادهم مشايخهم و عرفاءهم، كل قبيلة بحسب حالها. و لما امتدت أيدي العمال بما يسمونه الهواء و هو أخذ ما يقدمه أهل العمل للعامل برسم الضيافة، ثم ما يلتقطه منهم باسم و هبة أى

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ٢١٥

هبة، ثم العقاب على الجباية بالمال جعل لذلك حموده باشا على العمال أنفسهم أداء يسمى بالإتفاق، هو فى الواقع قسط مما ينهبونه من الأهالى ثم زيد على ذلك ما يسمى باللفضية، و هو ما يجعل رشوة للواسطة بين الوالى و العامل و أخذها إما أن يعطى منها قسطا للحكومة أو يأخذ الكل على حسب قربه من الوالى، ثم إن جميع ذلك مشروط فيه أن لا- تتشكى منه الأهالى فإذا ضجت قبيلة و اشتكت للوالى من عاملها عزله حالا، و يقال له لم يؤخذ منك مقدار يجحف بالأهالى فانت تجاوزت الحد ثم يصرف جميع ما تقدم

في مصالح الحكومة، و القطر من مرتبات العساكر و أقواتهم و جرايات المتوظفين بغاية الاقتصاد و هي جرايات ضعيفة، و الناس إذ ذاك مقتنعون بعيدون عن الترف يكتفون بمصنوعات القطر في اللبس و المسكن و المركب يكفيهم القليل لا سيما العلماء، فقد رأيت بخط بيرم الثاني نعمه الله في حساب خاص بشؤنه بيان مرتباته و جراياته من الأوقاف و الحكومة بلغ مجموعها شهريا إلى ثلاثين ريالا و سبعة أرباع الريال التونسي، و ثمنه مع ما هو عليه من جميع وظائفه العلمية و هي رياسة الفتوى و نقابة الإشراف و مشيخة المدرسة الباشية و درس و ذلك في أوائل هذا القرن، نعم كان له كما لبقية المجلس الشرعي جراية من الطعام و هي إثنا عشر قفيزا قمحا و مثلها شعيرا و إثنا عشر مطرا زيتا، و كان ذلك كافيا له و لعائلته و أبنائه و كانت ولاية القطر من بنى حسين بن على يعتنون بالاقتصاد و حمل الأهالي عليه بأوجه سياسية لطيفة، منها:

أن حموده باشا رأى كثرة لبس الشال الكشمير أى الطيلسان فى الأهالي فحضر من الشال المصنوع فى جربة عددا و لبس هو منه و ألبس رئيس الكتبة أيضا و خرجا بذلك اللبس يوم العيد لتلقى وفود الهنا و للصلاة، و كان فى أثناء إقبال الأعيان على هنائه يلتفت إلى رئيس الكتبة و يقول جهرة نعم الشال هذا صنع بلادنا فما لنا و لإضاعة أموالنا خارجها، و الأعيان يسمعون و هم لابسون للشال الكشميرى فودوا أن لم يكونوا لبسوه من الخجل، حتى أن من سمع منهم قبل الدخول عليه أزاله و استعار من غيره الشال الجربى و انكفوا من ذلك التاريخ عن الكشميرى، و له وقائع عديدة مثل هاته و هو فى الحقيقة أعقل فروع ذلك البيت الذين استولوا على القطر، فقد أنشأ فيه ما لم يكن فيه من الحصون و القشل و السفن و الذخائر، حتى أن مبانيه الخاصة به لم تزل منتفعا بها إلى الآن كبستان منوبه الذى صار قشله للخيالة و داره بتونس المسماة الآن بسراية المملكة، و أعانه مقام وزيره يوسف صاحب الطابع الملقب بأبى الخيرات من كثرة أياديه فى طرق البر مع الإنصاف و الإقتصاد الذى لم يكن القطر يتحمل سواه.

حتى أن حسين باشا لما توسع فى الرفاهية زيادة عما تقدم توقفت حكومته فى دين قدره خمسة ملايين ريات أى ثلاثة ملايين فرنك، باع بها زيتا سلما للتجار الإفرنج و لم

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ٢١٦

يمكنه إحضاره لهم، فنشأ عن ذلك ولاية شاكير صاحب الطابع الإدارة بشروطه الشديدة على الوالى فى تقصير يده عن التصرف فى المال و فى العمال، و أخذ من دار الوالى أغلب ما فيها من فضة و ذهب و احتسب على خاصة مصاريفه الذاتية و تحملت الأهالي أول ولايته مظالم مالية إلى أن خلص الدين و عمر خزائن الحكومة، و موجبات الإقتصاد الكلى هى ضعف واردات الحكومة للإقتصار على الحد فى المداخل الشرعية أو ما له شبهة بها، كما تقدم فى توزيع جرايات العساكر تحفظا على الديانة و للسير على ما تساعفه الديانة أيضا فى غالب الأحوال إلا ما يندر، كالعقاب بالمال على الراجح من منعه شرعا و أمثاله، كما تقدم طرف منه ما دامت الرعايا راضية به، ثم إن الإقتصار على ذلك لا يجتمع منه مبالغ تقتضى الترف لأن طبيعة أرض القطر و لئن كانت غنية غير أن كثرة توالى الحروب عليه و الأمراض و المظالم فى الدول السابقة أفنت من السكان القدر الأوفر، فقد نقل بعض المؤرخين أن عدد سكان أفريقية فى صدر الإسلام و يعنى بها ما يشمل برقه المعروفة الآن بنى غازى و طرابلس و تونس و الجزائر هو تسعة عشر مليونا، مع أن عدد الجميع الآن لا يبلغ ستة ملايين، ثم مع قلة السكان ضعفت أعمالهم و اقتنعوا بما يسد الخلة، و بقيت الأرض معطلة لوجوه: منها.

عموم الجهل بصناعة الفلاحة و تعمير الأرض و تكثير الأشجار، و منها:

خوف صاحب الثروة على نفسه و ماله فىرى أنه يعمل لغيره فينزعه منه الباعث، و منها:

الإكتفاء بما خف لسهولة الرحيل فى الفتن، و منها:

عدم الثمرة إذا كثرت الغلال و الحبوب لصعوبة نقلها للمدن و على تقدير وصولها لا تجد لها مشتريا، لمنع إخراجها من القطر لأجل الحروب المستمرة مع أوروبا إلا لبعض الأجناس أحيانا لوقوع الصلح معه، فإذا بقيت النتائج فى البلاد رخص سعرها لزيادتها على قدر الكفاية و استمرت السيرة على نحو ما مر إلى ولاية أحمد باشا.

فأخذت الحكومة في طور جديد و تبعها الأهالي على مقتضى قاعدة الناس على مذهب أمرائهم، و ذلك أن هذا الوالي كانت له همة عظيمة أكبر من حالة القطر، و قد وجد في ولاية أبيه ابتداء تنظيم العسكر النظامي فاعتنى هو بهم و بمهماتهم و تعظيم رؤسائهم، ثم جد في تفخيم هيئة الحكومة تفخيماً لا يخرجها عن المقام الحقيقي فلم يقل في مكاتيبه ألقاباً تشعر بالاستقلال كإطلاق لفظ الدولة و المملكة و لم يطلق على نفسه لفظ ملك متحاشياً عن ذلك كل التحاشي هو و ابن عمه محمد من بعده، و إنما غير ما لا يمس الحقوق حتى غير الألقاب المار ذكرها آنفاً. ففي الوظائف الشرعية لقب رئيس المفتين

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ٢١٧

الحنفية محمد بيرم الرابع بشيخ الإسلام، و في العساكر النظامية صير لها رؤساء على مقتضى أصل اصطلاحهم و أهمها على الترقى بين باشي ثم آلاي أميني ثم قائم مقام ثم أمير آلاي ثم أميرلوا ثم أمير الأمرا أو فريق، و إنشاء النياشين المسماة بالافتخار و جعل له خمسة رتب ثم العليا و تسمى افتخاراً أكبر و معه شريط من الحرير أخضر يسمى بالفاشه و يلبس على الكتف و الصدر و الظهر على هيئة حمائليه، ثم نيشان آل بيته خاص بهم و يعطى للملوك و أعيان بعض الكبراء، و شكل للوظائف السياسية وزراء، و لقب كلا منهم بالوزير في خطاباته الرسمية إلا- إذا عرض ذلك في مكاتيب الدولة العلية فإنه يتحاشا عنه، و أول من تلقب بتلك الألقاب في هذا القطر هم الوزير مصطفى صاحب الطابع، و هو رئيس الوزراء عند اجتماعهم و صاحب التقدم عليهم لسنة و سابق تربيته للوالي، لكنه لا تصرف له في شيء معين، ثم الوزير مصطفى خزنة دار وزير العمالة أي الداخلية و المالية، ثم مصطفى أغا وزير الحرب ثم محمود كاهيه وزير البحر ثم جوزاف رافو وزير الخارجية و في آخر مدته لقب الداي بوزير التنفيذ و هو إذ ذاك كشك محمد، و كان كل من هؤلاء الوزراء يباشره بنفسه فيما يتعلق بوظيفته و لا يتداخل واحد في وظيفة الآخر بشيء و لا نفوذ لأحدهم على الآخرين رسمياً إلا الوزير الأول، لكنه لرزنته و حمولة و فهمه مغزى الوالي كان يقتصر على نصح الوالي فيما يراه أو يبدي له رأيه عندما يستشير، و صاحب النفوذ الحقيقي هو مصطفى خزندار لتقريب الوالي إليه و لأن مقتضى وظيفته التعلق بالأهالي و العمال و جميع أصحاب الإدارة، و حيث كان هذا التفخيم يستدعي زيادة المصاريف و الميل إلى الترف مع ما في نفس الوالي من الكرم على أهل إصطفائه و كبراء العساكر، دعاه ذلك إلى زيادة الضرائب على الأهالي بأسماء سموها أثقلت الظهر و أوجبت الفقر، و زعيم ذلك المضمار هو محمود ابن عياد باتحاد مع الوزير مصطفى خزندار مع انحصار جميع أنواع مصاريف الحكومة في يده من قوت العساكر و ملابسهم و جميع المهمات للحكومة و لذات الوالي، و لذلك وظائف بأسماء و هي:

الرابطة: و هي قبض الأعشار و دفعها، و الكوشة: و هي معمل الخبر و الغابه و هي قبض أعشار الزيت و خرجها، و الغرفة: و هي اشتراء جميع مهمات الحكومة و الوالي، و انحصار جميع ذلك و غيره في ابن عياد و تغاضى الوالي عن المذكور و كادت أن تنحصر فيه ولايات جميع العمال و وظائف سائر جبايات الأموال لشركة سرية بينه و بين ذى اليد، و قدم ابن عياد لاقتداره على إرضاء الوالي بإحضاره فعلاً و وعداً ما يطلبه من المهمات و الأموال و امتدت يده بزيادة المظالم على ما ترسمه الحكومة بأضعاف مضاعفة، و من اشتكى لا يجاب إلا بقول الوالي أخلص مع عاملك، و توصل إلى كتب الأوامر بخطه سرا هو و الوزير و يمضيها له الوالي من غير علم أحد مع تحسين الوزير لذلك عند الوالي بأن ما يربحه ابن عياد يكون خزينة حاضرة متى ما طلبها الوالي و جدها بالإستيلاء على كسبه، و جمع ابن عياد بذلك أموالاً عريضة قدرها «ريشارد وود» قنصل الإنكليز بتونس الذي أقام بها ما ينوف عن

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ٢١٨

العشرين سنة في رسالته التي ألقاها قدحا في طريقة تلزيم مداخيل الحكومة بثمانين مليوناً، و هو المشتهر على السنة العارفين في تونس. و أرسل ابن عياد تلك الأموال إلى فرنسا و احتال على السراح للسفر إلى هناك للتداوى عندما علم هو و شريكه أن عاقبته و خيمته و أحس بمباديها، و سرحه الوالي و لم يحاسبه الوزير حتى سافر من غير حساب فلما سافر إلى هناك احتفى بدولة فرنسا و أعلن بعدم الرجوع، كما طلب الحماية لشريكه و حصل على الإذن فيها غير أن دولة فرنسا تفضلت لأمره و رجعت عن حماية الوزير و علمت أن

سببها هو خيانتة لبلاده و هو عندهم من أعظم الذنوب كما هو في نفس الأمر لكن ابن عياد لما تمم الشروط الواجبة في نيل الجنسية الفرنساوية و حصل عليها بالفعل قبل الإطلاع على أعماله لم يكن في وسع دولة فرنسا نزع ما ناله إذ قوانينهم لا تسمح بذلك، و عند ما علم أحمد باشا بامتناع ابن عياد مع الأموال الذريعة التي نهبا و لم يحاسب على تصرفه قيض لخصامه الوزير النصح خير الدين، و اتفق الفريقان على تحكيم إمبراطور الفرنسيين نابليون الثالث، فأمر بعقد مجلس من ثقات المعترين في الوزارة الخارجية للنظر في النازلة، و عرض الوزير خير الدين مطالب الحكومة و عرض ابن عياد مطالبه و ألف كل منهما نحو ثمانية عشر رسالة في النازلة و أرسى الأمر فيها بعد عدة سنين على صدور الحكم من الإمبراطور بما ملخصه.

ريالات ١٤١٧١٤٩٥٠ ثبوت مال عين قبل ابن عياد للحكومة

٢٠٢٧٥٠ و ثبت عليه أيضا قيمة رسوم بانكه و تذاكر سراح

٠٣٥٠٧٢٢٤٥

٧٨٤٥٩٠٧ و ثبت لابن عياد على الحكومة

٠٢٧٢٢٨٣٣٧ فإذا طرح ذلك من مجموع ما ثبت للحكومة بقي

قبل ابن عياد سبعة و عشرون مليوناً و مائتان و ثمانية و عشرون ألفاً و ثلاثمائة و سبعة و ثلاثون و نصف، كما صدر الحكم عليه بأن يحاسب في تونس على الرابطة و غيرها مما لم يمكن الحساب عليه في باريس، و قد أفردت هاته النازلة بتأليف مخصوص للوزير حسين حيث كان له خبرة بالنازلة لأنه كان بمعية الوزير خير الدين عند خصامه فيها و سماه حسم الألداد في نازلة محمود ابن عياد، و ما انفصلت هاته للنازلة إلا بعد ما نشمت في الحكومة نازلة مثلها إذ الوالي مرض في تلك الأثناء بمرض الفالج و طالت مدته، و استبد الوزير مصطفى خزنة دار و عوض ابن عياد بالقائد نسيم الذي وظيفته أنه قابض للأموال و كذلك عوض ابن عياد فيما يرجع للعمال بسعد بن عبيد و غيره، و لم يمكن لبقية الوزراء إنهاء الأمر إلى الوالي لمرضه و بقي الحال على ذلك إلى أن توفي ذلك الوالي سنة ١٢٧١ هـ في نصف رمضان، و لم يترك على الحكومة و لا دانقا من الدين بالربا و لا بغيره إلا ما لا يمكن خلو

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ٢١٩

الوجود منه كدفع أثمان بعض مهمات مما لم يحل أجله، و لقد أعان على عدم حصول الدين الوزير خير الدين لأن الوالي كان أرسله لعقد قرض في فرنسا عند إرسال العسكر لحرب روسيا سنة ١٢٦٩ هـ و لم يمكن له معارضته لأنه مستبد، لكنه تشدد في شروط القرض و سؤف حتى توفي الوالي المذكور، و ساعد وريثه محمد باشا على عدم الإستقراض و مع ما تقدم فأحمد باشا مدّة صحته لم يستبد عليه وزير و له مآثر حسنة في القطر، أهمها:

إحياء العلم بعد أن كاد يندثر، فرتب في جامع الزيتونة ثلاثين مدرسا بجارية قدرها ستون ريالاً في الشهر، و هذا المقدار إذ ذاك له موقع عظيم لما تقدم لك في مقادير مراتب العلماء، ثم رتب إثني عشر مدرسا آخر بمرتب خمسة عشر ريالاً في الشهر، و خصص للأولين موارث من لا وارث له الراجع ذلك لبيت المال، و للثانيين أحباسا تلاشتها أيدي العدوان، كما أقام بالجامع خزائن كتب بها نحو سبعة آلاف مجلد و نتج من ذلك إحياء العلم و كثرة العلماء بالقطر و منهم فحول يعز نظيرهم و لا زال ذلك مستمراً و لله الحمد. و لما ولي محمد باشا في سنة ١٢٧١ هـ لم يغير شيئاً من فخامة الحكومة لكنه جعل أكبر همه رفع المظالم على الرعايا و جلب ثروتهم لما كان يتيقنه من المضرات التي كانت حاصله لهم، و أبقى وزراء ابن عمه على ما كانوا مع ما في نفسه من حالة مصطفى خزنة دار لكنه غلبه على أمره فيه وزيره المستنصح لديه إسماعيل السني صاحب الطابع، فكان كالباحث على حتفه بظلفه عفى الله عن الجميع كما يرد خبره، و السبب في ذلك هو تخوف إسماعيل من تقدم أحد أقرانه للوزارة المعترية و هي وزارة العمالة، فأنفت نفسه من ذلك و واعد و عاهده مصطفى خزنة دار على الإلتحام به و تقديمه على غيره إذا أبقى في الوزارة، فسارع للوالي و قال له لا غنى لنا عن مصطفى خزنة دار لعلمه بما لم يعلمه غيره من أسرار الحكومة و أموالها إلى غير ذلك، و لم يزل به إلى أن أقره و عاهده على

الصفاء و النصح.

و أما الوزير مصطفى صاحب الطابع فقد أبقاه شيخ الوزراء من غير مباشرة، و أما محمود كاهيه وزير البحر فإنه توفى و ولى عوضه الوزير خير الدين و افتتح الوالى أمره بتنقيص كمية العساكر بعد انفصال الحرب مع الروسية مع مراعاة ضباطهم فأبقى فى الخدمة القادر العارف على قدر الحاجة و جعل لغيرهم نصف مرتب مع إبقاء المقام، و كذلك أسقط جميع المظالم على الأهالى و عوضها بأداء واحد على كل فرد ذكر بالغ قادر على السعى و هو ستة و ثلاثون ريالاً فى السنة أى ثلاثة ريالات فى الشهر و هى قدر فرنكين الذى لا يجحف بأحد مع إمكان ضبطه، و ضبط أيدى العمال عن التجاوز فيه مع تحجير العقوبة بالمال و عمم ذلك الأداء على جميع القبائل و البلدان بالسواء، و لم يبق عليهم غيره إلا عشر الحبوب من القمح و الشعير و عشر الزيت أو عوضه من القانون، و قانون النخيل أى الخراج على أعداد النخيل و لم يستثن من ذلك أحداً إلا أهالى المدن الكبيرة و هى تونس و القيروان و سوسة و المستير و صفاقس، فأبقى بها أنواع الأداء السابق المختلف الأسماء على أنواع

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ٢٢٠

المكاسب و تلت الأمة ذلك العمل بالسرور و الإنقياد إلا السادات المعاوين الأشراف من أهالى الوطن القبلى لعدم سابقية أداء عليهم، و كذلك ضبط أعشار القمح و الشعير و جعل على كل ماشية قدراً معيناً هو أقل ما يمكن حصوله فى الغالب إلا أن يكون قحط بالمره و إذا ثبت القحط يسقط على صاحبه، و ذلك المقدار هو ربع القفيز من كل نوع و إن زاد العشر الحقيقى على ذلك القدر فهو موكول إلى ديانه صاحبه يدفعه لمن شاء كل ذلك تحامياً عن أبواب المظالم.

و هكذا رتب أعشار الزيت و جعل لها مكاييل منضبطة و لا يأخذ إلا العشر و شيئاً يسيراً مقداراً معيناً لكراء المعصرة، و شدد النكير على العمال فيما إذا امتدت أيديهم إلى شىء زائد من الرعايا لأنه جعل لهم مراتب على حسب أعمالهم يأخذونها من الحكومة، و لم تنفع جناية العامل قرابته لأنه كان صلباً فى الحق حتى عاقب أصحابه بأخذ ما أخذوه من الرعايا و سجن بعضهم بمساكنهم و سجن أتباعهم الذين شاركهم فى الأخذ و توسطوا فيه، و لذلك انكف الوزير مصطفى خزنة دار و صار على حذر إلا ما ندر أو آخر مدة الوالى المذكور، و كان هذا الوالى جرياً على الحكم و لو بالقتل فيما يراه من الحقوق و اشتد خوف الوزير منه باطناً، إلى أن حصل من أحد أتباع القائد نسيم اليهودى سباً للدين الإسلامى علناً فى مجمع عظيم من المسلمين، و كان أمر الدين إذ ذاك و شعائره بالمكان الأعلى على ما تقدم بيانه، فاهتزت البلاد تعظيماً للخطر سيما و قد رأوا أن الرجل لا تناله الأحكام لأنه إنما قدم على مثل ذلك اعتماداً على الاحتماء بسيدته الذى هو من خواص الوزير، و بلغ ذلك للوالى و قد كان منذ قريب قتل عسكرياً لقتله يهودياً على مقتضى المذهب الحنفى من قتل المسلم بالدمى، مع أن أحكام قتل النفس فى القطر جارية على مقتضى المذهب المالكى لأنه يرى القود بغير المحدد، و هو الموافق لحالة أهل القطر و لمذهب أغلبهم و هذا المذهب لا يرى قتل المسلم بالكافر، فخالف الوالى عادة البلاد و أجرى حكم المذهب الحنفى فلزمه نظراً للهيجان العام توجيه النازلة إلى المجلس الشرعى فحكم المالكية بقتل اليهودى و وافقهم أغلب الحنفية و كتب فيها الشيخ بيرم الرابع بالموافقة مع نقل نصوص مدارها على التعزير المغلظ و قد يبلغ به للقتل و هو المعين فى معروضات أبى السعود و قد تحقق ما ظنته العامة، فإن الوزير عارض انتصار التابعة فى إنفاذ الحكم و طلب من الوالى أن يحكم هو فى الجانى بغير القتل و ألح عليه فامتنع لما تقدم و احتال الوزير حتى بإغراء قنسل فرنسا بالتمسك بالنازلة و أنفذ الوالى الحكم فانتزها الوزير فرصة و لاذ بفرنسا بواسطة قنسلها إلى أن أتى الأسطول الفرنساوى فى المحرم سنة ١٢٧٤ هـ و ألح رئيسه و قنسلهم و عضدهم

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ٢٢١

قنسل الإنكليز على إنشاء عهد الأمان. و مما استدل به كل منهم عمل الدولة العثمانية بالتنظيمات الخيرية حتى صرح بذلك وزير الخارجية لفرنسا فى مكتبته المرسل فى ذلك الشأن إلى قنسله المأمور بقراءته على الوالى و تفاوض الوالى مع خاصته و وزرائه فى

ذلك و استقر الأمر على إنشاء عهد الأمان و قرىء في موكب شامل لجميع المتوظفين و أعيان البلاد و نواب الدول و رئيس الأسطول الفرنسي. و نصه:

بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله الذى أوضح للحق سبيلا، و جعل العدل لحفظ نظام العالم كفيلا، و نزل الأحكام على قدر المصالح تنزيلا، و وعد العادل و توعد الجائر و من أصدق من الله قيلا.

و الصلاة و السلام على سيدنا محمد الذى مدحه فى كتابه بالرؤوف الرحيم و فضله تفضيلا، و بعثه بالحنفية السمحا فيبينها تبيينا و فصلها تفضيلا، و رتبها كما أمره ربه بإباحه و ندبا و تحريما و تحليلا، فلن تجد لسنة الله تبديلا، و لن تجد لسنة الله تحويلا، و على آله و أصحابه الذين أقاموا على معالم الهدى علما لمن اقتدى و دليلا، و فهموا الشريعة نصا و تأويلا، و أبقوا سيرتهم الفاضلة و أحكامهم العادلة أمانا جليلا، و نستوهبك اللهم توفيقا يوصل إلى الإسعاد برضاك توصيلا، و عوننا على أمور الإمارة التى من حملها فقد حمل عبئا ثقيلا فقد توكلنا عليك و التجئنا إليك و كفى بالله و كيلا. أما بعد:

فإن هذا الأمر الذى قلدهنا الله منه ما قلده و أسنده إلينا من أمور خلقه بهذا القطر فيما أسنده، ألزمتنا فيه حقوقا واجبة و فروضا لازمة راتبه، لا- تستطيع إلا- بإعانتته التى عليها الاعتماد و لولاها فمن يقوم بحق الله و حق العباد، فمحضنا النصيحة لله فى عباده و أرضه و بلاده، و الأمل أن لا نبقى فيهم بحول الله ظلما و لا هضمنا و لا نخرم لهم فى إقامه حقوقهم نظاما، و أنى ينصرف عن هذا القصد بعمله و نيته من يعلم أن الله لا- يظلم مثقال ذرة و لا يحب الظالمين فى بريته، فقد قال لنبىه المعصوم الأواب: يا داودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَ لَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ [ص: ٢٦]. و الله يرى أننى آثرت فى قبول هذا الأمر على خطره مصلحة الوطن على ذاتى، و عمرت بخدمته الفكرية و البدنية غالب أوقاتي، و قدمت من التخفيفات فى الجبايات ما علم خبره و ظهر بعون الله أثره، فانتشرت الآمال و تشوّقت النفوس إلى ثمرات الأعمال، و انقبضت عن التعدى أيدى العمال، و استقصاء المصالح يقتضى تقديم إجمال، و من رامها جملة فقد عرضها بسبب التعذر إلى الإهمال، و رأينا غالب أهل القطر لم يحصل لهم الأمانة بإجراء ما عقدنا عليه النية، و جرت عادة الله أن العمران لا يقع من نوع الإنسان إلا إذا علم أن برأته هى الأمن له و الآمان، و تحقق أن سياج العدل يدفع عنه خوف العدوان و أن لا وصول لهتك ستر من حرمانه إلا بقوة الدليل و وضوح البرهان، و لا يكفى لتحقيقه الواحد و الإثنان، فإذا رأى

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ٢٢٢

الجانى تعدد الأنظار غلط إن كان منصفاً حدسه، و قال: وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ [الطلاق: ١]. و قد رأينا سلطنة الإسلام و الدول العظام الذين على سياستهم الدنيوية أعمال الأعلام فى النقض و الإبرام، يؤكدون الأمان من أنفسهم للرعية و يرونه من الحقوق الواجبة المرعية، و هو أمر يستحسنه العقل و الطبع و إذا اعتبرت مصلحته فهو مما يشهد باعتباره الشرع، لأن الشريعة جاءت لإخراج المكلف عن داعية الهوى و من التزم العدل و أقسم عليه فهو أقرب للتقوى، و بالأمن تطمئن القلوب و تقوى و قبل هذا كاتبنا علماء الملة الأركان و بعض الأعيان بعزمنا على ترتيب مجالس ذات أركان للنظر فى أحوال الجنائيات من نوع الإنسان و المتاجر التى بها ثروة البلدان، و شرعنا فى فصوله السياسية بما لا يصادم القواعد الشرعية، هذا و أحكام الشريعة جارية مطاعة و الله يديم العمل بها إلى قيام الساعة، و هذا القانون السياسى يستدعى زمنا لتحرير ترتيبه و تدوينه و تهذيبه، و أرجو الله الذى ينظر إلى قلوبنا أن تستقيم بهذا الترتيب أحوال الرئاسة و لا يخالفه ما ورد عن السلف الصالح من اعتبار السياسة، و أنا العبد الفقير أتعجل لمرضاه ربي بما تطمئن إليه النفوس و تكون منزلته فى النفس منزلة المشاهد المحسوس، و تأسيسه على [أحد عشر قاعدة]:

الأولى: تأكيد الأمان لسائر رعيتنا و سكان أياتنا على اختلاف الأديان و الألسنة و الألوان فى أبدانهم المكرمه و أموالهم المحرمة و أعراضهم المحترمة، إلا- بحق يوجهه نظر المجلس بالشورى و يرفعه إلينا و لنا النظر فى الإمضاء أو التخفيف ما أمكن أو الإذن بإعادة النظر.

الثانية: تساوى الناس فى أصل قانون الأداء المرتب أو ما يترتب و إن اختلف باختلاف الكمية بحيث لا يسقط القانون عن العظيم لعظمته و لا يحط عن الحقير لحقارته و يأتى بيانه موضحا.

الثالثة: التسوية بين المسلم و غيره من سكان الأيالة فى استحقاق الإنصاف لأن استحقاقه لذلك بوصف الإنسانية لا- بغيره من الأوصاف، و العدل فى الأرض هو الميزان المستوى يؤخذ به للمحق من المبطل و للضعيف من القوى.

الرابعة: أن الذمى من رعيتنا لا- يجبر على تبديل دينه و لا يمنع من إجراء ما يلزم ديانتة و لا تمتهن مجامعهم و يكون لهم الأمان من الإذابة و الإمتهان لأن ذمتهم تقتضى أن لهم ما لنا و عليهم ما علينا.

الخامسة: لما كان العسكر من أسباب حفظ النوع و مصلحته تعم المجموع و لا بد للإنسان من زمن لتدبير عيشه و القيام على أهله، فلا نأخذ العسكر إلا بترتيب و قرعة و لا يبقى العسكرى فى الخدمة أكثر من مدة معلومة كما نحرره فى قانون العسكر.

السادسة: أن مجلس النظر فى الجنايات إذا كان الحكم فيه بعقوبة على أحد من أهل الذمة يلزم أن يحضره من عينه من كبرائهم تأنيسا لنفوسهم و دفعا لما يتوهمونه من الحيف و الشريعة توصى بهم خيرا.

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ٢٢٣

السابعة: إننا نجعل مجلسا للتجارات برئيس و كاتب و أعضاء من المسلمين و غيرهم من رعايا أحببنا الدول للنظر فى نوازل التجارات بعد الإتفاق مع أحببنا الدول العظام فى كيفية دخول رعاياهم تحت حكم المجلس، كما يأتى إيضاح تفصيله قطعا لشعب الخصام.

الثامنة: أن سائر رعايانا من المسلمين و غيرهم لهم المساواة فى الأمور العرفية و القوانين الحكيمية لا فضل لأحدهم على الآخر فى ذلك.

التاسعة: تسريح المتجر من اختصاص أحد به بل يكون مباحا لكل أحد و لا تتاجر الدولة بتجارة و لا تمنع غيرها منها و تكون العناية بإعانة عموم المتجر و منع أسباب تعطيله.

العاشرة: إن الوافدين على أياالتنا لهم أن يحترفوا بسائر الصنائع و الخدم بشرط أن يتبعوا القوانين المرتبة و التى يمكن أن تترتب مثل سائر أهل البلاد، لا فضل لأحد على الآخر بعد الإنفصال مع دولهم فى كيفية دخولهم تحت ذلك، كما يأتى بيانه.

الحادية عشر: إن الواردين على إياالتنا من سائر أتباع الدول لهم أن يشتروا سائر ما يملك من الدور و الأجنه و الأرضين مثل سائر أهل البلاد، بشرط أن يتبعوا القوانين المرتبة و التى تترتب من غير امتناع و لا فرق فى أدنى شىء من قوانين البلاد، و نبين بعد هذا كيفية

السكنى بحيث أن المالك يكون عالما بذلك و داخلا على اعتباره بعد الإتفاق مع أحببنا الدول.

فعلى عهد الله و ميثاقه أن نجرى هذه الأصول التى سطرناها، على نحو ما بينها و وراءها البيان لمعناها و أشهد الله و هذا الجمع العظيم المرموق بعين التعظيم فى حق نفسى و على من يكون من بعدى، أن لا يتم له أمر إلا باليمين على هذا الأمان الذى بذلت فيه جهدى و

جعلت سائر الحاضرين من نواب الدول العظام و أعيان رعيتنا شهداء على عهدى، و الله يعلم أن هذا القصد الذى أظهرته و جمعت له هؤلاء الأعيان و اشتهرته هو ما أودعه الله فى نيتى، و إجراء أصوله و فروعه فوراً أعظم أمنيته و المرء مطلوب بجهدته و من عاهد الله

لزمه الوفاء بعهدته، و الحق هو العروة الوثقى و الآخرة خير و أبقى و استحلف من لدى من هؤلاء الثقات و الحماة الكفاء أن يكونوا معى فى إجراء هذه المصلحة يدا واحدة بقلوب سليمة متعاضدة و أقول لهم: «و لا تنقضوا الإيمان بعد توكيدها، و قد جعلتم الله

عليكم كفيلا، إن الله يعلم ما تفعلون، اللهم من أعاننا على مصالح عبادك فكن له معينا و أورده من توفيقك عذبا معينا، اللهم اجعل لنا من عنايتك و إعانتك مددا و هب لنا من لدنك رحمة و هب لنا من أمرنا رشدا، منك الإعانة على ما وليت و لك الشكر على ما

أوليت، المهدي من هديت و الخير كله فيما قضيت» هذه مقدمة أنتجتها الإستشارة و رآها العبد الفقير ناجحة صالحة فأعنا اللهم ببركة القرآن و أسرار الفاتحة و السلام. من الفقير إلى ربه تعالى عبده المشير محمد باشاباى صاحب المملكة التونسية فى ٢٠ محرم الحرام

سنة أربع و سبعين و مائتين و ألف صح من كاتبه المشير محمد باشاباى و الله على ما نقول و كيل.

ثم عقد الوالى مجلسا رئيسه الوزير مصطفى خزنة دار وزير العمالة و أعضاءه:

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ٢٢٤

مصطفى آغه وزير الحرب و خير الدين وزير البحر و الوزير إسماعيل السيني و الوزير محمد و كاتب أسرار الوالى أحمد ابن أبى الضياف، و أذنههم باستخراج أحكام سياسية تدور عليها أعمال الحكومة، و استخراج أحكام فرعية فى الحقوق الشخصية يجرى بها الحكم فى القطر، و أذن أن يكون شيخ الإسلام محمد بيرم الرابع أحد أعضائه فامتنع من الحضور دون مشارك: من العلماء الحنفية و المالكية، و استقرّ الرأى على إضافة الشيخ محمد ابن الخوجه المفتى الحنفى و الشيخ أحمد بن حسين رئيس الفتوى فى المذهب المالكى و الشيخ محمد البنا المفتى المالكى و هؤلاء الأعلام الأربعة هم أكبر علماء القطر إذ ذاك، فحضرُوا أولاً ثم امتنعوا و اكتفوا بأن كتب كل منهم شرحا منفردا على الإحدى عشرة قاعدة المار ذكرها، أبدوا فيها الأحكام الشرعية المطابقة لتلك القواعد و اقتصروا على ذلك متعللين بأن الذى بدا لهم من مغزى الجماعة هو الميل للبحث للسياسة الساذجة من غير التفات إلى محاذاة الشرع، بل و ربما عرض ما يصادم القواطع، و حيث كان عمل المجلس على ما يستقر عليه رأى الغالب لم يأمنوا أن يسند إلى المجلس ما يخالف الشرع و يحمل ذلك على عاتقهم، و الذى تبين لكل من الفريقين فيما بعد مما ولدته الليالى أن الصواب فى غير مسلكه على ما يتحرّر إن شاء الله تعالى فى الخاتمة.

و لم يتم هذا المشروع فى مدة الوالى المذكور مع حرص القناسل عليه و تأكيدهم بأنه لا محيص عما أشهدهم عليه بالنيابة عن دولهم، و لم يبخل الوالى بذلك لأنه محب طبعاً للعدل و إنما عاقه عن إتمامه الأجل، و فى آخر مدته أغراه وزيره بتعاقد مع روش قنسل فرنسا حيث كان العامل فرنساويا على ما يأتى و حسنا للوالى جلب ماء زغوان الذى كان جاريا لقرطاجنة فى قنوات من البنا و على حنايا بأن يجلب على يد جمعية فرنساوية فى قنوات من حديد و يوصل إلى المرسى و الحاضرة، و إنما يحصل من ثمنه للديار و للمزارع يوفى بالمصروف عليه فى مدة يسيرة و ينشأ منه فوائد للزراعة حول الحاضرة و المرسى، و كان الوالى مغرماً بحب العمران و الفلاحة و بالمرسى أيضاً، و هى معطشة من قلة الماء الحلو فوافق على ذلك و اتفقوا على جلبه و على بناء دار لقنسلات فرنسا بهية خارج باب البحر من الحاضرة بمقدار للجميع قدره إثنا عشر مليوناً تدفع على أقساط أربعة كل قسط فى سنة بثلاثة ملايين، و قد عد بعضهم ذلك مبدءاً محن القطر حيث آل إلى دين بالربا و الحق أنه لا لوم على الوالى فى ذلك لأن الحكم على ما هو موجود و على اعتبار جريان الأمر على الإستقامة، و لا يحمل عليه فساد غيره و إن بناه على شىء من أعماله هو فى نفسه سليماً إذ المفسد يبنى فساده على ما يريد، و النظر فى الحقيقة للعمل من حيث هو فينظر فيه هل فيه مصلحة أم لا؟ و جلب ذلك الماء على الكيفية المذكورة فيه مصلحة، و هو تعطش

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ٢٢٥

البلاد فى أغلب السنين، لأن شربها من المواجل المحبوس فيها ماء المطر و من بير خارجها ماءها غير خالص العذوبة تسمى بير كلاب و يستعمل لغسل الصابون مياه فساقى حول الحاضرة لأن أبارها ماءها ملح لا يصلح إلا لاستعمال تنظيف البيوت، و كثيرا من السنين تحصل الشدة للأهالى من قلة الماء صيفا حتى يبلغ ثمن القلة لمقادير وافرة مع التعب فى جلبه، ثم إغرام الوالى بالفلاحة ترغيباً للسكان فى العمران الذى أثمر إقبالهم عليها على ما سيرد، يستدعى جلب الماء الحلو على أن مالية الحكومة إذ ذاك وافية بذلك المقدار لأن الفلاحة التى هى ركن ثروة هذا القطر قد تكاثرت فى تلك المدة و أقبلت عليها الناس إقبالا عجيباً، حتى غلت أسعار الأراضى ملكاً و كراء أو غلت أسعار الحيوانات و غلى قرض الأجير المسمى بالخماس غلوا فاحشاً، حتى بلغ قرض الخماس إلى ألف و خمسمائة ريال، و ذلك لكثرة استغناء الأهالى سيما الأعراب و أنفتهم من صناعة الخماسة لاقتدار كل على أن يصير فلاحاً مستقلاً بنفسه، و نتج من ذلك ثروة الحكومة ثروة زائدة على المعتاد مع نقصان المصاريف على العساكر، فكان دخل الحكومة فى الأقل نحو نيفا و عشرين مليوناً فى السنة و بيان تقريبه ما يأتى:

ريالات

- ٠٠٠، ٠٩٧٠٠ عدد النفوس التي تؤدي الجباية ٠٠٠، ٢٧٠ على كل نفس ريالات ٣٦
- ٠٠٠، ٠٦٠٠ مدخول مكس الغلال في الحاضرة المسمى فندق الغلة
- ٠٠٠، ٠٥٠٠ دار الجلد أى محل دبع الجلود
- ٠٠٠، ٠٥٠٠ كمرک الدخان
- ٠٠٠، ٠٦٠٠ كمرک السلع الداخلة و الخارجة
- ٠٠٠، ٠٠٠، ١ سراح خروج الزيت و القمح و الحبوب
- ٠٠٠، ١١٠٠ قانون زيتون الساحل و صفاقس
- ٠٠٠، ٠٩٠٠ قانون نخيل الجريد
- ٠٠٠، ٠٥٠٠ محصولات المدن و غيرها أى الأداء على ما يباع فى الأسواق
- ٠٠٠، ٠٥٠٠ لزامات صغيرة فى الحاضرة و غيرها كالحوث و الخيل و غيرها
- ٠٠٠، ٦٧٥٠ أعشار القمح و الشعير على كل ماشية ربع قفيز قمحا و مثله شعيرا و عدد
- ٠٠٠، ١٢٠ المواشى فيجتمع من ذلك أفضرة
- ٠٠٠، ٣٠ قمحا و مثلها شعير سعر ١٥٠ الأول و سعر ٧٥ الثانى
- ٠٠٠، ٠٣٠٠ أعشار الزيت متوسطا كل سنة أمطار زيتا ٠٠٠، ١٢ سعر ٢٥ المطر
- ٠٠٠، ٢٢٩٥٠٠ الجمع

فالحكومة التى دخلها ما تقدم و مصاريفها الإعتيادية لا تتجاوز الإثنى عشر مليوناً، لأن أحمد باشا مع كثرة عساكره و مصاريفها كان دخل الحكومة زمنه نحو خمسة عشر مليوناً إلى الثمانية عشر، و مصاريفها مثل ذلك لأنه لم يتداين شيئاً، و محمد باشا نقص كثيرا من صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ٢٢٦

العساكر فلم يكن مصروفه الإعتيادى مجاوزا الإثنى عشر مليوناً، نعم له مصاريف غير إعتيادية فيما يخص ذاته، و ماذا عساها أن تبلغ فإذا دفع من دخل الحكومة ثلاثة ملايين فى السنة مدة أربع سنين لمنفعة عامة لا يكون فيه ضرر، و لاعتماده على مثل ذلك اشترى له الوزير المذكور مصطفى خزنه دار مصوغا بقيمة خمسة عشر مليوناً مقسط ثمنه أيضا ليكون ذلك ذخر للحكومة عوضا عما باعه أحمد باشا من ذخائرها الثمينة فى مصاريف حرب روسيا، لأن المال الناض يسهل إليه امتداد الأيدى بخلاف المجوهرات مع ما فى طبع الوالى من الميل إلى طبائع الأقدمين و منها إدخار المصوغ، و هو و لئن كان مسرفا فيما يتعلق بذاته و حرمه بالنسبة لأسلافه لكنه يؤثر الإقتصاد للعامة و اتباع الحكومة بأن يستلطف لهم لكى يقتصدوا فى مصاريفهم، فقد قدم عليه المولى الإمام الشريف سيدى محمد الشريف فى رمضان و كان مجبا للإشراف معظما لهم شنشنة أهل تونس الإسلامية فأدخله لقصر حرمه مختليا معه مباسطا و مؤانسا له، فعرض فى أثناء الخطاب لومه للشريف على التقصير فى القدوم إليه فأجابه معتذرا ببعده مسكنه حيث كان مسكن الوالى بالمرسى و بتعب الركوب على ظهر مركوب للوصول إليه لأنه ليست له كروسة أى عجلة، فأجابه الوالى: بأن ملك مثله للكروسة مضر لما يلزمها من المصاريف السنوية، و هو لا يبخل عليه بإعطاء كروسة له بلوازمها، و لكنه يخشى عليه كثرة مصاريفها فلذلك رأى أن يعطيه ثمنها و ثمن ما يجرها، على شرط أن يشتغل به فيما له دخل فى مصالحه، و أما ركوبه فإنه مهما أراد الركوب يرسل إليه ليعث له كروسة ليركبها، و أعطاه خمسة آلاف ريال و لعمري أنها من نصح الأصدقاء.

و له فى مثل ذلك كثير من المساعى سيما فيما يعود إلى تكثير الفلاحة و غراسة الزيتون و الأشجار من الأهالى، حتى رغب أهالى الحاضرة أيضا و أنشأوا فى مدته القصيرة ما ينيف على الستين ألف شجرة من الزيتون فى أرض تعرف بعبدى خوجه من مرناق، و

توفى رحمه الله و لم يترك على البلاد و لا دانقا دينا بالربا، إلا الأموال المقسطة في مقابلة الأشياء المار ذكرها و بقايا أثمان أشياء مما لا يخلو الأمر عن مثله، مع أنه ترك خزائن من الحديد مملوءة بمسكوكات الذهب التي أنشأ ضربها، كما ترك خزانة مهمة جدًا ملائمة بالمصوغ و الياقوت الأبيض المسمى بالإلماس أو «الديامنت» المتجمع من النياشين التي أبطلها و أخذها من أصحابها و عوضها بنياشين من الفضة على حسب مجرى الدول، و عوض أصحاب الرتب العسكرية علامات في أعناق لباسهم، و قد كان كل من أرباب نياشين الإفتخار و من أهل الرتب العسكرية له نياشين من «الديامنت» مختلفه النوع و النفاسة على حسب الرتب، فمنها نيشان يبلغ خمسة عشر ألف ريال، و منها دون ذلك و هي كثيرة جدا. فاجتمع منها مع ما اشتراه مقدار وافر يعرف ذلك كل رجال الحكومة و أتباعهم بل و جميع آل بيته، و استولى أخوه محمد الصادق باشا في (٢٤) صفر سنة (١٢٧٦ هـ) و لما كان هذا الوالي يتقى الصعوبات و يأتمن من يرى أمانته و يطلق له التصرف من غير معارضة كانت الوقائع تختلف في مدته اختلافا بينا بحسب الوزير الذي بيده التصرف، مع أن الوالي متحد.

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ٢٢٧

فلذا لزم أن نذكر لك كل وزير بانفراده و الوقائع التي جرت مدة ولايته و مساعيه لأن الوالي يأتمن و يعمل على رأيه، و هي القاعدة الجارية بها عمل الممالك المتمدنة لو تمت شروطها، و هي جعل محتسب من الأمة لمراقبة أعمال الوزير حتى لا تضربه و لا بالأمة، غير أنه ينسب إلى الوالي تفخيم أمر الحكومة فأطلق عليها لقب الدولة و على نفسه لقب الملك، و أدمج ذلك في ألفاظ القانون المسمى بقانون الدولة و وزع منه نسخا على سائر الدول ليكونوا شهداء عليه، و سلم بيده إلى يد الإمبراطور نابليون الثالث نسخة منه عند الاجتماع به في الجزائر، و كتب تلقيب وزرائه بإسم الوزير في مكاتيبه للدولة العلية، و قيل له في ذلك من بعض رجال حكومته فقال الدولة لها السيادة علينا و طاعتها واجبة و لكن لا نهين أنفسنا و كذلك اخترع زيادة النياشين و قلد بها نفسه و رجال حكومته و غيرهم، فمنها:

نيشان العهد: و هو مرصع بالياقوت الأحمر و الأخضر جعل للبسه قانونا و عددا و يتبعه شريط أبيض مثل الذي سبق ذكره في اختراع أحمد باشا، و منها:

نيشان عهد الأمان: على شكل آخر و خصصه بأصحاب المباشرة في الوزارة إلى غير ذلك من الأشياء التي مدارها على الأبهة مع رافة نفسه ورقة قلبه.

و أول ما افتتح به حلفه باليمين اللازمة في قبول بيعته على مقتضى عهد الأمان و سرد عند البيعة العامة التزاما نصه:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تبارك من جعل الأمان أقوى أسباب العمران و الصلاة و السلام على سيدنا محمد و آله و صحبه و من تبعهم بإحسان. أما بعد فيقول العبد الفقير إلى ربه المشير محمد الصادق باشاباى و فقه الله لما يرضاه و أعانه على ما أولاه: إني قبلت البيعة من الأعيان الحاضرين على ما وقع الإلتزام به في العشرين من محرم الحرام سنة (١٢٧٤ هـ) من المرحوم المقدس أخينا المشير سيدى محمد باشاباى، و هو عهد الأمان لسائر السكان على الأعراض و الأموال و الأديان و ما حواه من القواعد و اللوازم و الأركان، و حلفت و أحلف بالله و عهده و ميثاقه على مقتضاه و أن لا أخالفة و لا أتعدها، و هذا الكلام صدر منى و نقله الناطق به عنى و خطى و ختمى فيه أقوى شاهد و أوضح إعلان لكل من حواه هذا الديوان و سائر الرعية و السكان، و على مقتضاه عليكم السمع و الطاعة و يد الله مع الجماعة.

حرر يوم السبت الخامس من صفر الخير سنة (١٢٧٦ هـ).

ثم التفت إلى الوزراء فوجد الوزير مصطفى خزنة دار هو صاحب الشفوف على الكل للإلتفات أغلب أتباع الحكومة عليه و انقيادهم إليه رغبة و رهبة لما له من اليد و كذلك قنائل الدول فسلم إليه أمر الحكومة و لقبه بالوزير الأكبر، و بقى منفذا لرأيه ملازما للسير

على نهجه في كل أمر حتى فيما يعود إلى خاصة ذاته، فكثيرا ما كان يلبس الوالى ثيابه و يتقلد

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ٢٢٨

بمنطقته تهيئا لركوبه إلى الحاضرة في كل يوم من رمضان لكون عاداته ذلك، و يبقى منتظرا للوزير ليركب معه لأنه لا يركب دونه فيرد عليه رسول الوزير معتذرا له بأنه غير قادر في ذلك اليوم على الخروج لمرض أو شغل فيلوى الوالى عزمه و لا يتوجه للحاضرة وحده، و كان لا يباشر فيها شيئا من الإدارة و إنما يذهب لمجرد التنزه و التفرج على الأسواق من شبابيك قصره و حيث علمت ما تقدم نذكر لك بعض حالات هذا الوزير و ما طرأ من تصرفاته كما نذكر لك غيره من الوزراء.

المطلب الخامس في وزارة مصطفى خزنة دار:

اعلم أنه رجل أصله من قرية قرب ساقس جلب إلى تونس و سنه دون العشر سنين، و أخذه أحمد باشا و رباه و تعلم القراءة و الكتابة و بعض الفروض العينية كالتجويد و الوضوء و الصلاة، و نشأ على مسaire أخلاق سيده بشوشا غير متفحش غيورا على من انتمى إليه جالبا لهم الأرباح بكل وجه، كما أنه كان غيورا على تقرب أحد من الوالى و مع ذلك كان كثير الإعتقاد فى الصالحين و من انتمى إلى معرفة الحدثن مواظبا على قيام الثلث الأخير من الليل و له فيه أوراد مخصوصة إلى أن يصلى الصبح ثم ينام، و كان أولا قبل كبر بنيه ذا كرم كثير العطاء لحاشيته ثم صار شحيح النفس حريصا على الإمساك و التقدير، و لم يعهد أنه باشر أحدا بشتم أو كلام منكر مدة وزارته على طولها و هى خمسة و ثلاثون سنة إلا رجلين يقال لأحدهما على زيد و للآخر عثمان هاشم، و كان لا يقدم إليه أحد يطلب شيئا منه إلا - يعده بقضاء حاجته كيفما كان حالها، مع أنه ربما كان الوفاء ببعضها غير ممكن، و قيل له فى ذلك فأجاب بأن سليقته تأبى أن يقنط الطالب [بل يؤنسه] و يصرفه بالوعد و إن كان عازما على عدم إعطائه و يرى أن تعليق الآمال أولى من الأياس منها و لذلك كثيرا ما حصل منه الخلف بما يعد، و صاهره أحمد باشا على أصغر أخواته ثم ولاه خزنة دار ثم لما أحدث أحمد باشا ألقاب الوزراء ولاه وزارة العمالة و هى عبارة عن التصرف فى الداخلية، فراكن إليه محمود بن عياد و تشارك سرا حتى صار المحتسب و المحتسب عليه شريكين و حصر دخل الدولة و خرجها فى محمود كما تقدم، و للنجاة بما حصلنا معا سهل خروج محمود إلى فرنسا من غير حساب و خانة محمود فأظهر عقد الشركة مع مصطفى خزنة دار و طلب على يد مجلس الحكم إلزام الشريك بدفع نصف قيمة السلع المجلوبة لمصالح الحكومة و استولت هى عليها بعد خروجه من تونس، و عرض هذا الحكم على الوزير مصطفى خزنة دار بواسطة قنسل فرنسا فى تونس، كما أظهر أن شريكه خزنة دار كلفه بطلب حماية فرنسا له كما قرره فى الصفحة الرابعة من الرسالة الأولى التى عرضها على مجلس التحكيم و بعد أن كاد يحصل على الحماية عدلت فرنسا عن ذلك و الحال أنه لم يبد له من سيده موجب لذلك بدليل بقاءه على منصبه و تصرفه إلى أن مات سيده، ثم بعد سفر محمود بن عياد استعوضه بسعد بن عبيد و جعله سمسارا على بيع الوظائف، فكان المتولى يدفع ما اتفق معه

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ٢٢٩

عليه و المعزول يغرم ما يدعى به عليه أهل عمله مع كونه مضطرا إليه لأنه ما دفع المال لشراء الوظيفة إلا ليربح ما يتمعش به و ما يدخره للمستقبل، و عظم بذلك الخطر و الفقر على الرعايا حتى شاهدت قبيلة أولاد عياران كثيرا منهم يستلقون حب الزيتون بالأجرة لأربابه و عند ما يتم عملهم يأتون إلى الفلاح ليحاسبوه عما تجمع لهم من المال و معهم أحد أتباع هذا العامل فيحصى لهم جميع أجرهم بعد إخراج مقدار ما أخذوه لقوتهم و يرسله الفلاح معهم إلى دار العامل ليقبضه لأنه حاجر عليهم فى قبضه و أشباه ذلك كثيرة.

كما أنه استعوض عن ابن عياد فيما يتعلق بشراء مهمات الحكومة و دفع أموالها أناسا منهم عطية الذى وقع منه أمور عجيبة. منها:

أنه ولى على أعشار الزيت و دفعها فى مصاريقها المعينة، و منها:

الإجحاف فى مؤنة العساكر فكان يدفع إليهم الردىء من الزيت زيادة على مضاعفة الكيل من الدافع، بل من سوء عمله أنه كان يدفع للعساكر أوساخ الزيت الذى يحمل فى قفاف الحلفة و لا يسيل منها، كما كان يحك ما لصق بحيطان مراحل الزيت و دنانه المسماة بالجرار و ما تجمع من ذلك الدسم الوسخ يغلى فى الماء السخن و يدفع للعساكر على أنه زيت، و الأرباح التى تحصل لعطية كان يصرفها لمصالح الوزير خزنة دار، و منها:

أنه ابتداءً فى بناء جامع قرب باب القرجانى و نسبه إلى نفسه مع أن المصروف عليه من مال الحكومة بعض منه على يد ابن عياد و البعض الآخر كان صرفه على يد عطية المذكور، و الدليل على أن ما صرفه لم يكن له أنه مات مفلساً و مع ذلك لم يتم الجامع إلى الآن، و قد بنى الوزير خزنة دار سبيلا ببطحاء القصبه و وقف عليه حوانيت بجواره و لا زال مستمراً إلى الآن، و قد استعوض عن ابن عياد أيضاً القائد نسيم شمامه و جعل وظيفته كونه قابض الأموال، و كان يشتري المهمات بسعر و يحتسبها على الحكومة بأضعاف، كما أنه حصل بواسطة الوزير المذكور بناء لعدة زوايا، فمنها: تجديد زاوية الوالى الصالح القطب سيدى أبى الحسن الشاذلى رضى الله عنه الكائنة بجبل الجلاز بنيت على شكل حسن متقن حيث كان الوالى إذ ذاك أحمد باشا تلميذاً للشاذلى رضى الله عنه، و كذلك جدد بناء زاوية الوالى الصالح سيدى على الخطاب رضى الله عنه، الذى هو أحد تلامذة الشاذلى الكبار و هى فى الجهة الغربية من تونس تبعد عنها ثمانية عشر أو عشرين ميلاً فى الوطن المسمى بالمرناقية و بنيت أيضاً بناء حسناً، و منها زاوية الحاج على شيه الكائنة قرب الحلفاوين من رضى باب سويقة من حاضرة تونس، و هو منتسب للوالى الصالح سيدى عبد السلام الأسمر رضى الله عنه، و بنيت بناء حسناً.

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ٢٣٠

و منها تجديد بناء زاوية الوالى الصالح ملاذ أهل تونس و عمدتهم سيدى محرز بن خلف رضى الله تعالى عنه، و هو رجل كبير فى العلم و الصلاح من كبار رجال مذهب الإمام مالك رضوان الله تعالى عليهم أجمعين، و بنيت بناء حسناً و ما صرف على جميع ذلك من مال الحكومة، كما أنه استوهب من الوالى محمد الصادق باشا سبخة السيجومى التى بقرب الحاضرة من الجهة الغربية الجنوبية و أنفق على تشييفها عدة مئين من الألوفاً من مال الحكومة، و حفر لذلك خندقاً يمرّ فى واد بين جبال المحل المعروف ببئر القصبه ثم يمرّ على الوهاد المعروف ببيرة باش حانبه، ثم يصل إلى الأرض المعروفة بمدار ابن عروس و هناك ينهل الماء المنحدر من السبخه فحصل بذلك تلف الأراضى التى على مصب ذلك الخندق، لأنه لم يجعل لها سبيلا إلى الوصول إلى البيرة مع كون مائه ملحا أجاجا، و تعطلت عند مصبه الطريق الموصلة إلى مرناق و إلى حمام الأنف ثم ما والاه من الجهة الجنوبية فى وقت الشتاء لتعطل طريقه الأصلى من الوحل فصار الطريق الشتوى أيضاً إما معطلاً أو صعباً جداً مع أن نفس السبخه لم تنشف لأن ارتفاع قعرها على سطح البيرة إنما هو نحو ميترين و نصف فقط، و يلزم لانحدار الماء فى الأقل صانتى ميتر لكل ميتر، و طريق الخندق لما كانت طويلة لم يكن فيها الإنحدار المطلوب فلم تنشف السبخه، و قد أنذر بذلك أحد حذاق المهندسين و قال: لا يمكن تشييفها إلا بنفق تحت جبل المنوبية لقرب المسافة الكافية للإنحدار، فلم يعمل بقوله و لم يحصل المقصود و بقى الأمر على ذلك إلى أن سد الخندق فى بعض جهاته بإذن الحكومة فى وزارة خير الدين لرفع الضرر عن الطريق و عن الأراضى المشار إلى جميعها، كما شرع فى عمل طريق صناعى بين تونس و حلق الوادى فعلم فيه من جهة حلق الوادى نحو أربعة أميال و من جهة تونس نحو خمسة أميال ثم ترك، فأما الذى من جهة حلق الوادى فأبطلته جمعياً طريق الحديد، و أما الذى من جهة تونس فلم يزل منتفعا به لكنه محتاج الآن إلى التدارك بالإصلاح لأنه ضرورى فى وقت الشتاء، حيث أن الأرض التى يمرّ عليها المسماة بالخضراء صعبة المرور لكثرة الوحل.

و لما ولى محمد باشا و أقرّ الوزير المذكور بمعاضدة الوزير إسماعيل السنى حصل الإغراء للوالى على محمد المرابط أمير أمراء عساكر القيروان و صهر أحمد باشا و على صالح شيبوب أمير لواء عساكر غار الملح و غيرهما من خاصة أحمد باشا من أبناء البلاد،

فترعت رتبهم و استؤصلت جميع أموالهم و سمع الثقات من وزراء أحمد باشا الحاضرين مواطن الإغراء شدة انفعالهم من ذلك، و لما وقع استقراره بالوزارة عند محمد باشا بواسطة ما تقدم أراد أن يبرهن على صدق ما وسمه به الوزير إسماعيل السنى من الصدق و النجابه

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ٢٣١

و علم ما لا- يعلمه غيره، فطلب من الوالى عمل حسابه عما مضى و بعد إتمامه جاء بالدفاتر و بتلخيصها و عرضه على الوالى محمد باشا، و رأيت فى صفه الموطن بخط الوزير ابن أبى الضياف ما نصه: «و قال له بمحضر الوزراء و رجال الدوله هذا حسابى قبضت فى مدّه خدمتى ما هو مرقوم فى هذا التلخيص، و صرفت فى المدّه ما هو مرقوم أيضا و كان المصروف أكثر و أنا غير طالب له و لم أدفعه من مالى و ليس على دولتك المباركه دين، فقال له بعض الحاضرين من الوزراء بديهه: أنا أول قادح فى هذا الحساب، و من أين جاءت هاته الزيادة؟ فأجابته الوزير بلين و سياسه: لك أن تنظر فى فصول القبض هل نقص منها شىء و فى فصول الدفع هل زاد فيها شىء و ما وراء ذلك نتيجة أصابعى ولى أن أتطلبه لو استحللت الخيانه و لهذا أتيت بالدفاتر ليطلع عليها كل من يريد الإنتقاد فخجل القادح الخ».

و الكاتب المذكور عالم بالبلاغه حيث ورى بقوله: «فخجل» أى خجل من الجواب لأنه قيل: إن المال من الأشياء التى لا تنمو بذاتها، فالقسمة العقلية إما أن يكون من فصول المقبوض شىء لم يرسم، كأن يكون المقبوض من الطوارئ التى لا- تنضب كالأخذ من العمال زيادة على الموظف، أو تكون بعض وجوه المصروف لم تصرف حقيقة، أو يكون المقدار الحقيقى منها دون ما رسم فى الدفاتر، أو يكون الدافع دفع من عنده، أو اقترض و هذان الأخيران قد أقرّ الوزير بعدمهما و إقرار الإنسان ماض عليه فلزم بالضرورة أحد الوجوه السابقه، و لعلها هى المراده بقوله: «بأصابعى»

ثم أنه فى مدّه محمد باشا لم تقع مظالم الرعيه من العمال لما تقدم من سيره ذلك الوالى، و إنما يقال أنه جعلت له حصص من المال و المصوغ جعلاً- من الجالين لماء زغوان و بائعى المصوغ ليكون العقد بتلك المقادير، و فى آخر مدّه الوالى المذكور لما رسخت قدمه حصل الأخذ للوزير من بعض العمال بدعوى أنه مع تشديد الوالى فى قبض أيديهم لا بد أن يسرقوا، و جعل السمسار رجلا يقال له خليفه السائس مشاركا لسعد بن عبيد مع التحذير من أن يظهر أدنى تشك من الرعايا، و قد أدركت المضرات حذاق القطر حتى قال أحد العلماء قصيده يستغيث بها القطب الصالح سيدى أحمد التجانى رضى الله عنه لما دهى القطر من تلك الأعمال مطلعها:

كادت تنيط رجاءها باليأس مهج فغوثا يا أبا العباس

إلى أن قال:

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ٢٣٢ إنا إليك نبث ما قد نابنا من مكر ذى شر شديد الباس

درب على فعل القبائح قائم بالجور ناء عن مدى القسطاس

ثم قال:

نشبت مخالب كيده فى قطرناو بدت مضرتة على أجناس

و مراده و الله يمحو رسمه إلحاقه بالأربع الأدراس

خفيت مدارك كيده فتحيرت فى غورها النبها من الأكياس

حار اللبيب و لم يفد تخمينه مع ضربه الأحماس فى الأسداس

ثم قال:

و استأصل الأموال من أربابهاو رماهم بالذل و الإفلاس

كل تراه و قد أمضى فؤاده يشكو القديم و للجديد يقاسى

إلى آخرها و هي طويلة، مع أن التباعد بين وظيفة المشتكى و المشتكى منه مما يؤيدان الشكوى عن غير أغراض شخصية و دليل صدقها الخارج، ثم لما استولى محمد الصادق باشا و كان الوزير يخشاه لما هو مشتهر عنه من الصلابة جد الوزير في إتمام قوانين عهد الأمان سيما و اليد كانت فيها جائلة من قبل للإطمئنان على نفسه، بدليل ما جرى بعد، و أظهر ميله إليها لعموم العدل لكي يستعين بمجبي الإنصاف على إنفاذها فتممها و شرع في العمل بها في ١٥ شوال سنة ١٢٧٧ هـ، و حلف الوالى على إنفاذها و عدم مخالفتها. و كذلك سائر المتوظفين، و استغرقت جميع مداخل الحكومة في المصاريف التى عظمت و كثر المتوظفون و الكتبة على ما تستدعيه القوانين و زيادة، و وفرت المرتبات على نحو غير معهود في القطر حتى صار لذات الوزير خزنة دار من المرتبات ما بيانه في السنة: ريات

١٤٠،٠٠٠ مرتبه على الوزارة الكبرى

٠٦٠،٠٠٠ مرتبه على وزارة العمالة

٠٦٠،٠٠٠ مرتبه على وزارة الخارجية

٠٦٠،٠٠٠ مرتبه على وزارة المال

٠٦٠،٠٠٠ مرتبه على نيشان آل بيت الوالى الذى هو حامل له

٣٨٠،٠٠٠ الجمع

مع أنه يصرف مصاريف غير ذلك من أموال الحكومة كما تبين من الحسابات فى الحكومة، و جعل القائد نسيم لا يدفع لمن يطلب مالا من الحكومة إلا بإسقاط مقادير رابحة زيادة على الأرباح من شراء المهمات، و استغرق بمثل ذلك جميع مداخل الحكومة ثم جعل جميع المال المطلوب للمعاقدات المار ذكرها من ماء زغوان و غيره دينا بالربا و استقرض له صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ٢٣٣

مبلغا بالربا من أوروبا قدره نحو تسعة عشر مليوناً فرنكاً حسبما هو محرر بالتقرير المصحح بخطه و خط المجلس الأكبر، و قد برح إذ ذاك الخفا و بان لعقلاء رجال الحكومة سوء تصرفاته فكان أعظم المضادين له من كان أكثرهم قرباً إليه، و ألحوا عليه فى الكف عن تلك السيرة فصار لهم بالمرصاد و صار يشينهم عند الوالى و يقدر فيهم ضد ما كان يقول فيهم لأنه علم حالة الوالى و انقياده إليه، و رام نقض القانون أو إبقائه صورة لأن مقصد الأمن على خصوص ذاته قد حصل بجريان الوالى على رأيه و إبعاده كل أحد عنه إلا الخدمة لخدمته ذاته، و اشتدت المشاحنة بينه و بين الوزير خير الدين إلى أن استعفى من وظائفه ثم تبعه الوزير حسين و الوزير مصطفى أغه و الوزير رستم، و خلا الجو لخزنة دار و أخذت السيرة فى طور آخر جديد و رام أن يضاعف أداء الجباية على الأهالى و يصيرها إثنين و سبعين ريالاً على الرأس عوضاً عن الستة و الثلاثين ريالاً التى أسسها محمد باشا و طلب موافقة المجلس الأكبر، فامتنعوا و استبد هو بإمضاءها مع تحذير العقلاء له، فلم يلتفت إليهم مع أن الأهالى فى ثروة من أثر سيرة محمد باشا تقويهم على الدفاع عن أنفسهم مع ما استأنسوا به من تلك السيرة و سماعهم بأن العدل و الإنصاف قد شملهم بالقانون و أن لهم الكلام على حقوقهم، فامتنعوا قاطبة و أراد غضبهم على ذلك فتار القطر كله ثورة واحدة لم تعهد من قبل على غاية من الرياضة و الأمن بحيث لم يتعرضوا بالأذى لأحد مع أمن السبل و كثرة الغادى و الرائح و ضبط كل جهة ببعض أهلها لردع السفهاء و حفظ الراحة و الأمن، و كان متولى أكبر الجهة الغربية و الملتف عليه أكثر قبائل الأعراب رجلاً يسمى على بن غذاهم و ذلك سنة (١٢٨٠ هـ).

و لا زالت هذه الثورة تسمى ثورة ابن غذاهم و كاتب الجهات بأنا أخوان و مطلبنا واحد و ليس المراد منه الإفساد فالواجب حفظ الأمن و الراحة و تأمين السبل و لا نتعرض لأحد بشيء سوى اتباع الحكومة، فإذا أرادوا و غضبنا على الظلم ندافع عن أنفسنا، و أنذرت القبائل عمالهم الذين كانوا بين أظهرهم فمن أراد منهم التوجه إلى الحاضرة أوصلوه بأمان و من أراد الإقامة منكفا عن التداخل فى أمرهم أبقوه بأمان، و لما توجه أمير الأمراء فرحات إلى الكاف لإجبار قبائل ماجر على ذلك الأداء، تعرّضوا له و قتلوه فشدد النكير

عليهم على ابن غذاهم و قال لهم: أصل اتفاقنا إنما هو على الدفاع عن أنفسنا و ما ضرركم قدوم الرجل إلا إذا حاربكم فدافعوا عن أنفسكم، و كاتب المذكور رئيس الفتيا العلامة الشيخ أحمد بن حسين و طلب منه التوسط في الصلح مع الحكومة، و حاصل مطالب الجميع إبطال الأدياء الجديد و عزل الوزير مصطفى خزنة دار و محاسبته، فامتنع الوالي أولاً من جميع مطالبهم و اشتد الكرب على الحكومة حتى لم يبق أمر الوالي نافذاً إلا في الحاضرة و نحو إثني عشر ميلاً حولها، و اشتد الخوف في الحاضرة و قدمت أساطيل الدول و أسطول الدولة العثمانية و فيه رسول سياسي أنزل في قصر المملكة بالحاضرة، و تداخلت نواب الدول في النازلة و في قبائل القطر و بلدانه كل بما يوافق سياسته، و كان من جملة إلحاح قنصل الفرنسيين

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ٢٣٤

على الوالي لإرجاع الراحة عزل الوزير خزنة دار لكنه خاطبه بذلك شفاهاً كما هو مشهور في البلاد، و رأيته بخط الوزير ابن أبي الضياف.

و أصر الوالي على الإمتناع إلى أن أحضر الوالي معسكراً قليلاً وجهه تحت رئاسة إسماعيل السنّي لميل الأعراب له لصدقه، ثم خلفه الوزير رستم عند مرض الأول و وقع الإتفاق مع جمهورهم على إعطاء الوالي الأمان إلى الجميع و إسقاط الأدياء المطلوب و عفا الله عما سلف، و كتب الوالي بذلك أوامره و باشر بإعطاء الأمان كل من وفد عليه من الرؤساء و انتهز الوزير الفرصة لإبطال القوانين، بدعوى أن الثورة قامت لطلب إبطالها و ما سمع ذلك من أحد لأن أصولها لا تنافي الشريعة و غاية ما تكلمت فيه الناس هو فروع منها، و ذلك أنهم أنكروا كون قوانين الأحكام الشخصية لم تكن شرعية في كثير من المسائل و نسبها الجهلاء إلى أنها كلها مخالفة للشرع لجهلهم و لرؤيتهم هيئة الحكم على خلاف ما تعودوه في هيئة الأحكام الشرعية، و للتصريح بقصر الأحكام الشرعية على أبواب خاصة دينية، و لعدم إدخال الحكام الشرعيين في الحكم بالقوانين، و لأن بعض من أدخل في الحكام لا جدارة له بها حتى خرج عن طوره بما لم تتحملة أنفس المعاصرين، و لأنه أجريت القوانين دفعة واحدة في جميع الأنحاء حتى في القبائل التي لم يوجد أن يوظف فيها من يعرف القراءة و الكتابة التي هي ضرورية في المتوظف، و صاروا يخطون خبط عشواء، و كذلك ملّ الأهالي من التطويل الزائد في الأحكام على ما هو عادة الأشياء في مبدئها، فهو في الحقيقة إرادة لإصلاح نفس القوانين لا كره ذاتها بدليل أن المجلس الأكبر لم يتعزّض له أحد من العامة و الخاصة بالقدح فيه إلا بعدم اشتماله على أفراد من جهة المملكة حذاق لكي يعرفوا بما يليق بأحوال أطراف القطر، و الحال أن المجلس الأكبر هو روح القوانين لمحافظته على أساسها، لكن الذي لم يكن له قصد سوى الأمن على نفسه و قد وجد الوالي لا يخشى منه، أشاع هو و من كان على شاكلته أن الناس يطلبون إبطال القانون و قد اعتمدت تلك الإشاعة و أبطل القانون، و الدليل على أن الناس لم يطلبوا ذلك المكاتيب التي أرسلها قنصل الإنكليز تسجيلاً على إبطال المجالس و مفهومها قاض بموافقة قنصل فرنسا على ذلك، و إن كان سر الأمر هو الإغراء من قنصل فرنسا بإبطالها، لما ذكر في سياسة فرنسا بتونس.

و نص تعريب مكتوب قنصل الإنكليز الأول في فبراير سنة (١٨٦٤ م ١٢٨٠ هـ):

«المعروض على جنابكم الرفيع، أني [أرى] من الواجب عليّ أن نذكر جنابكم في هذا الوقت الذي أحواله ألزمت جنابكم الرفيع توقيف تراتيب الحنان المؤسسة على الحرية في بلادكم، فإن هاته التراتيب وقعت الوصاية في شأنها و كان ترتيبها بملاحظة الدولتين الحبيبتين الإنكليزية و الفرنسية و جنابكم، و عدما إذ ذاك رسمياً بإتمامها و إبقائها على جميع قوتها و عدم تغييرها، و وكيل الدولة الإمبراطورية الفرنسية و رد له الإذن من دولته كما ورد لي الإذن من دولتي لأنهما على اتفاق واحد في النازلة و في الحث على طلب

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ٢٣٥

ترتيب المجالس المختلطة بسرعة لفصل نوازل الجنايات و النوازل المتجرية لما يلزم من الوقت لعمل القانون المتجرى، و لما كان الإذن المذكور الصادر لنا من دولتنا الذي تشرفت بعرضه على جنابكم بمكتوبى المؤرخ في (١٧) أشتنبر سنة (١٨٥٧)، و هو نظير

المكتوب الذي خاطبكم به موسيو روش نصا سواء، و لم تزل المكاتيب موجودة يجب أن تكون سير نواب الدولتين في هذه المملكة على مقتضاها، و لهذا يجب أن نطلب من جنابكم بشدة حرص أمرا زائدا على إبقاء المجالس و هو المبادرة إلى المجالس المختلطة الموعود بها منذ زمان طويل، و بمقتضى ما تقدم من الإذن طلبت مشاركة قنصل جنرال دولة فرنسا في هذا المطلب كما يطالع جنابكم على نسخة مكتوبى إليه، و هو موسيو دين بوفال هذا و زيادة على الوعد الرسمى الذى أعطاه جنابكم إلى ملكى إنكلاتيره و فرنسا بحفظكم التراتيب المبنية على الحنان و التمدن التى أعطاه جنابكم لبلاده، لا يخفى عليكم أن دولة إنكلاتيره عقدت مع دولتكم شروطا تقتضى دوام التراتيب المذكورة لأنها هى الحافظة لحقوق رعايا إنكلاتيره فى هذه الملكة، و مع وجود ذلك فتبديل تراتيب الحكومة الآن و الرجوع إلى الكيفية القديمة بدون سببية إعلام للدولتين الإنكليزية و الفرنساوية بمقصود جنابكم يظهر منه فى السياسة أنه فعل يدل على نقصان الإعتبار، و لا شك فى عدم وقوع ذلك من جنابكم مع دولتين حبيبتين، و أيضا يظهر منه أنه غير صواب مع الدولة الإنكليزية التى فى شروطها الأخيرة صدقت أمان الحكومة التونسية و محبة الدولتين إلى جنابكم توجب على عدم الزيادة فى المشاق الموجودة فى حكومتكم بمطالب تشق فى هذا الوقت، و لكن واجبات خدمتى تلزمنى أن أطلب منكم رسميا دوام الأصول المؤسسة عليها إدارة الحكومة، و خصوصا أنى أترك لجنابكم انتخاب الكيفية التى تظهر لجنابكم أنها لائقة و مناسبة لإجراء تلك الأصول و الجنوس المتقدمة فى التمدن، ربما لزمهم فى أزمان متعددة بدون أن يتعرضوا للأصول المؤسسة عليها قوانينها بتبديل كيفية العمل بها و هذا الباب مفتوح لتونس اقتداء بالدول الأوربوية الذين لا شك فى فطنتهم و حكمتهم، و هذا الأمر يظهر لى أنه سهل حيث أن التشكى الواقع من زيادة الأداء و من تطويل المجالس فى الحكم يمكن دواؤه بما تتهنى به البلاد و ترجع إلى حالها الأصلية، و هذا أعظم دليل على حسن خلق الرعية المستتجة من هذه التراتيب لأنه لم يوجد فى تواريخ تونس مثل سيرة القبائل فى هذا الزمن لما لهم من الشكايات و هم متسلحون على عاداتهم السابقة فى سالف الزمن، لكن لم يتعرضوا بسلاحهم إلا للإحتماء من أداء ثقيل فوق طاقتهم» اهـ.

ثم كاتب الوالى أيضا بما نص تعريبه فى مايه سنة ١٨٦٤ الواضع إسمه أسفله يتشرف بتقرير ما يأتى: و هو أنى لما اعتبرت شأن الحال الغير المترقب الذى عرض لحكومة تونس، رأيت من مقتضى الوداد أن لا أعطل سير عملها بما لا يقتضيه الحال، و مع ذلك حيث لم يبلغنى إعلام رسمى منكم بشرح كيفية مقدار التوقف الوقتى الذى وقع فى قيود العمالة علاجا لأمرها، فقد وجب على الواضع إسمه أن يطلب التعريف فى ذلك، كما أنه

صفحة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ٢٣٦

يجب عليه المحافظة بمقتضى هذا المكتوب على إبقاء ما حصل لدولة بريطانيا العظمى من الحقوق التى لا نزاع فيها بمقتضى شروطها مع على جناب الباي، محافظة متعلقة بما يمسه بمقتضى التوقيف الوقتى المذكور، فالواضع إسمه يقرر للجناب أن تلك الحقوق معتمدها الاعتماد العمومى و قد لزم شرح الأسباب المبنى عليها تقريره، و هو أن المرحوم سيدى محمد باى و الجناب العلى أدام الله عزه لما أصدر عهد الأمان فهما و وزراؤهما و المفتون و القضاة و جميع علماء الشريعة الشريفة حلفوا يمينا و أكدوا يمينهم باستدعاء حضره و كلاء الدول الأجنب بأنهم يحافظون على الوفاء بعهد الأمان بجميع شروطه، و أبانوا أن عهد الأمان جزء من شروط الشريعة الشريفة و العلماء الكرام المذكورون و رجال الدولة أشهدوا الله على صدق نيتهم فى إبقائها على الدوام و الإستمرار من يوم صدورهما فصاعدا، و أن دولة بريطانيا العظمى اعتمدت على الوفاء و الاعتقاد الذى لا يمكن منه فسخ لعهد الأمان بمقتضى هذه الأيمان، و عقدت مع على جناب الباي اتفاقا متعلقا بأمر منصوصه فيه، فينتج من ذلك أن الحقوق المسلمة لرعية الإنكليز و لوازمها التابعة لتلك الحقوق بمقتضى الإتفاق المذكور معتمدها هو عهد الأمان و القوانين الناشئة منه و بذلك صار حقا من حقوق الدولة الإنكليزية يقتضى أن تطلع بسبب ذلك على حقيقة الحال فى شأن عهد الأمان هل هو عامل بجميع شروطه أم لا؟ و كذلك توقيف القوانين الناشئة منه هل هى معالجة و قتيه؟ ثم هل الحكومة التونسية مرادها أن تجرى فى المستقبل الأصول المقررة به على صورة مناسبة لحفظ

مكاسب الإنكليز في العمالة التونسية و تأمينها؟ و الواضع إسمه يطلب بحرص و اجتهاد لا ينافي الأدب و التواضع جوابا شافيا شارحا للإستفهامات المذكورة، ليخبر بها دولة ملكته المعظمة، و كذلك أن الواضع إسمه يبقى و يتحفظ على لسان دولته في حقها على جميع الحقوق و لوازمها و الكفالات التي أعطيت لرعايا الإنكليز بمقتضى ما هي مبينة بالإتفاق المذكور، و يقرر أيضا أن ذلك الإتفاق إتفاق عمومي لا يخالف فيه من الجانبين». اهـ.

و أعاد الكتابة في يولييه الموافق لأواخر صفر سنة (١٢٨١ هـ) و نص تعريب المكتوب:

«الواضع إسمه أسفله نائب و قنصل جنرال حضرة المعظمة ملكة بريطانيا العظمى قد تشرف بمخاطبة الجنب العلي بمكتوب مؤرخ في مايه سنة (١٨٦٤) طالبا منه الشرح في شأن التوقيف الوقتي، الذي وقع في رسوم العمالة بسبب أمر غير متوقع و قد أبقى و حافظ على لسان دولته في حقها على الحقوق التي يستحيل النزاع فيها، الحاصلة لدولة المعظمة الملكة بموجب اتفاقها المعقود مع علي جناب الباي بمقتضى عهد الأمان و القوانين الناشئة منه، و توقيفها يمس الحقوق المذكورة، و أن الواضع إسمه لا يمكن أن لا يحصل له في النازلة شيء من الفكر لأنه يرى أنه مضى شهران و نصف و لم يتشرف من الحضرة برد الجواب عن مكتوبه، و لمراعاة الحكومة التونسية لم تقع معارضة غير ضرورية في سبيل إطلاق عملها و إنما الواضع إسمه أتاها الإذن بعد ذلك في تقوية عهد الأمان بسند، مع أن دولة المعظمة الملكة لها اعتماد بأن عهد الأمان لما كان مبني على شروط الشريعة الشريفة لا يمكن نقضه

صفحة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ٢٣٧

إلا بنقض نفس الشريعة، و لم تتخيل و لا يخطر ببالها بوجه من الوجوه أن السادة الأجلة المفتيين و المدرسين للشريعة الذين حلفوا يمينا على إبقاء عهد الأمان أن يرضوا بأن يشيع في العالم ما لا يناسبهم من وقوع الشك في وفائهم بما عاهدوا عليه، و مع ذلك دولة المعظمة الملكة ترى في الأمور المتعلقة باتفاق عمومي بينها و بين الحكومة التونسية أعظم اعتمادها دون الإعتقاد العمومي و هو صدق الباي و محبته في إجراء العمل كما يجب بمقتضى الإتفاق المذكور، فلذلك الواضع إسمه يرجو أن علي جناب الباي يتفضل بالجواب عن الأسئلة المبينة في مكتوبه المؤرخ في مايه و ذلك لإعلام دولته بجواب مقنع.

فأجابه الوالي في ذلك التاريخ، بأن عهد الأمان باق على قوته و مفهومه، فلو كانت الأهالي طلبوا إبطال القانون لما استطاع القنصل أن يسجل ضدا للرأى العام فيما يرجع إليهم، على أنه قد صرح رسميا بما هو مطلوبهم كما هو بين لمن تدبر عبارة مكتوبه، و كذلك ما نسب إلى قنصل الفرنسي و لو كان امتناع الأهالي من القوانين موجودا لكان للوالي أعظم حجة في التعلل بدليل أنه يحتج به في خلواته على من لا يقدر على معارضته، و من وقتئذ تسلطت أيدي العدوان على الأهالي بسلب الأموال و القتل و الضرب بالسياط المؤدى إلى القتل، لأن الوزير اشتد حنقه عليهم حتى دخل عليه أحد الأعيان يوما و هو يقول: «طلبوا دمي فلا أرضى إلا بدمائهم، طلبوا مالي فلا أرضى إلا بأموالهم». و لعل مراده بطلب دمه هو طلب عزله و قد اعتادوا في بعض الوزراء السابقين قتلهم فظن أن العزل يؤدي للقتل و إلا فنفس قتله لم يطلبه أحد أما المال فنعيم قد طلبوا حسابه و أول باكورة بعد إبطال القوانين افتتح بها لأهل الحاضرة مع أنهم هم و حدهم الذين بقوا خاضعين للحكومة إلا أنه كثر بينهم الكلام في إنصاف مطلب الأهالي فجلد أحد أعيانهم المسمى محمد بن مصطفى عجم الشهير فيهم بالوجهة بمجرد تهمته أنه أغرى بعض غلمان القصر الأميري بالهروب، فجلد خمسمائة سوط مؤلمة بحضور أحد خواص الوالي لإتقانها و إكمال عددها و سجن مع الأعمال الشاقة في الكراكة، و منهم محمود بن سالم أحد الأعيان من التجار و أحد أعضاء مجلسهم، ادعى الوزير أنه اشتكى به إليه من جماعة المجلس و سجنه. و من أغرب الأمور أنه لما لاذ أهل المسجون بالوزير طالبين تسريحه أو بيان ما هو مطلوب فيه أرسل إلى جماعته يسألهم ما هي شكواكم التي سجننا بها الرجل فأجابوه أن جنابه أعلم بها منهم لأنه اعتمدها حتى عاقب الرجل بالسجن، كما حصل لرجال الحكومة أشياء فمنها:

أنه حجر على الوزير إسماعيل السني الذي اعتمد في حل عقدة الثورة، و علي أمير الأمراء رشيد الذي سافر بالعساكر إلى الأستانة في حرب القريم، و أمير اللواء الشريف السيد حسن المقرون الذي له اليد البيضاء في حفظ الراحة في الثورة في الحاضرة و حسين ورديان

باشا و خسرف و على جهان و يونس الجزيرى أمير لوا و حسن المدلجى أمير ألاى و السيد محمد المقرون و محمد بن الحاج رئيس عساكر زواوة الذى جمعهم له عند عدم وجود غيرهم فى الثورة و أعانه بما استطاع، فحجر على جميع هؤلاء فى الخروج من بيوتهم صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ٢٣٨

و خلطه الناس لأنه كان يوجس منهم الإعتراض على التصرفات، ثم قتل الأولين فى بضع دقائق من غير سماعهم لدعوى و لا حجة و لا استشارة و ارتجت البلاد لذلك و شنت القناسل سيما الفرنساوى و الإنكليزى و سجلوا تسجيلا شديدا فكتب الأول أى الفرنساوى إلى الوالى بما نص تعريبه:

إنى أتمم خدمتى التى ساءنى إتمامها و هى إعلام دولة الإمبراطور بالحادث الموجه الذى لوث قصر باردو بالدم، فإن الفريق رشيد وزير الحرب كان رئيس العساكر التونسية فى حرب القريم و الفريق إسماعيل السنى صهر جنابكم وقع قتلها فى القصر بمجرد تهمة لم يقع إعلامها ممن صدرت و من غير أدنى وجه من أوجه الحكم، فلم يتيسر لى السكوت فى مثل هذا الأمر و كان همى أن أقرر لجنابكم التأثير الذى لا بد أن يقع من ذلك و فى سيرتى هذه سبقت إذن جناب دولتى التى استحسنت فعلى المذكور استحسانا تاما، و إن كنت مأذونا بإعلام دولة جنابكم و إعلام حضرتكم العلية نفسها بالتأثير الذى وقع لجناب دولة الإمبراطور من قتل الشخصين المذكورين، و لم تتوقف دولة جنابكم فى تحملها تلك المسئولية العظيمة، كما أنى مأذون أيضا بأن أقرر لجنابكم التشويش الواقع من مشاق هذه الأحوال التى لم تزل تعظم من سائر جهاتها» انتهى.

و كتب الثانى أى الإنكليزى للوالى أيضا بما نص تعريبه: «أن الملحوظات الشفاهية التى تسامح الواضع إسمه أسفل هذا المكتوب فى عرضها على جنابكم فيما يتعلق بالأمر الموجهة التى وقعت بقصر باردو فى شهر التاريخ لا بد أنها أفادت جنابكم بأنها صادرة من التأثير القوى الذى عندى فى شأن همة جنابكم و مصالحكم، و فى شأن التأثير الموجه الذى سيقع بإنكلتره من ذلك و دولتى لا توافقنى إذا ادعيت التداخل فى تصرفات الدولة الداخلية التى يظهر لجنابكم استعمالها لحفظ الراحة العامة من مقاصد بعض الأشرار، و بعد الشرح و التفصيل الذى تفضل به جنابكم على لا يبقى لى شك فى وجود حجج كافية أظهرت لجنابكم توقع مقاصد موجهة نحو ذاتكم العلية لإتلافها فى قصركم نفسه، و لا شك بناء على كونكم كبير الدولة أن يكون لكم الحق فى استعمال سائر الطرق اللازمة لحل تلك العقدة التى مؤداها إتلاف ذاتكم العلية و خراب المملكة، و لكن بسبب كون جنابكم هو شخص الدولة المرتمسة شرعا فمصلحتكم تقتضى ضرورة أنكم لا تسعوا إلا بإسم الشرائع و على مقتضاها فإنها أحسن ضمانه لكم و لا يبعد عنها إلا المتعدى عليها بفساده، و بعد أن راضت نفس جنابكم و تأملت فى الأحوال لا شك أنكم تحققتم أن الخطر الحال الذى كان فيه جنابكم لم يكن حجة كافية فى قتل فريقين من دولتكم لأن فى تباعدكم عن طريقه سيرتكم المعتادة بعدا عن القواعد السالمة المرتمسة فى القوانين التى منحتم بها بلادكم، و هى و إن توقفت بالضرور الموجهة الخارقة للعادة فإنها لم تزل موجودة، مع أن دولتكم مطلوبة بالشروط المنعقدة بينها و بين بريطانيا العظمى و جنابكم معترف بهذه الحقائق غاية الإعتراف لأنكم لم تتوقفوا فى إقراركم الرسمى بأنكم تحترمون القواعد المذكورة و ذلك

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ٢٣٩

بمكتوبكم لمسيو أوود المؤرخ فى (١٨) أغسطس و لسنا نناظر عن مدة توقيف القوانين.

وقد حصل لى سرور لما حقق لى جنابكم بأنه لا يقع فى المستقبل مثل هذه الأمور الموجهة التى وقعت، و أعيد القول لجنابكم أنى لا أتداخل فى البحث عن جرم الجناية التى يمكن أن الشخصين المذكورين ارتكباها لأن إنسانية جنابكم التى كثير من أدلتها كافل لى بأن جنابكم كان متحققا بأنهما قتلا على حق و مع هذا التحقق كنا نود أن كيفية الحكم تكون على الصورة التى تقتضيها القوانين دفعا لما عسى أن يتهمكم به أعداؤكم، فإن جنايتهما لم تثبت و لا يوجد شك فى مساعدة أن القوانين هى أقوى الضمانات التى تستند إليها الملوك كأفراد الناس، و قد رأينا فى كل وقت أن كل من بعد عنها ليستعمل القوة المادية فى تصرفه يكون سببا لأعدائه فى أن

يفعلوا معه كذلك مقتنين آثاره، و أرغب من فضلكم المسامحة في هذه الملحوظات فإنها لم تقصد الأمور و الأحوال التي فاتت لسوء البخت، و لا يتيسر لأحد إصلاحها، و إنما المقصود بها الطلب من فضل جنابكم أن تتذكروا أن بلادكم لم تبعد كثيرا عن أوروبا، و أنها إذا لم تتقدم مع تقدم العصر فإن قواعد التمدن المتداخلة في كل مكان تعميها و لا يتيسر التصرف الآن كما كان في زمن الجدد، لأن كل عصر له أحكامه و أحكام هذا العصر لا تقتضى أن الحكم الذى سيقع على الأسرى الذين لم يزالوا فى العسكر أن الأمير يتصرف فيهم بما عنده من القدرة، و يرى أن الحق له فى التأمل بذاته فى نازلة شخصية بل يلزم توفية حق المتهمين لدى مجلس و أنه يسمع مقالهم و يخاصمون على أنفسهم و يبرؤون أنفسهم من التهمة الموجهة عليهم، فإذا أثبتت جانيهم فالقانون يحكم و بهذه الكيفية تستحفظون على همتكم و لا تأخذون من القانون إلا الرفيع العالى فى حق الملك و هو العفو عن المحكوم عليه» انتهى.

ثم جمع الوالى جميع رجال الحكومة و أخبرهم و أبلى فى ذلك اليوم الوزير خير الدين البلاء الحسن بقوله القرائن التي ذكرت لا تثير لونا فضلا عن القتل، ثم على فرض صحة التهمة فبعد إيقافهما كان الواجب إقامة الدعوى عليهما و سماع جوابهما عليها إلى غير ذلك من الأعمال الواجبة، و غاية الحجج فى قتل الشهيدى هي التهمة بإعانة أخ الوالى محمد العادل باى على الهروب مع أنه لم يذكر فى معرض الإحسان معه إلا رشيدا و لم يعرج على إسماعيل بشىء، و رشيد نفسه لم يسمع الدعوى و لا قامت عليه حجة و أدمج فى أثر ذلك نفى جميع من تقدم ذكره، و كان فى أثناء ذلك الوزير حسين خارج المملكة لما توقع من عظم كربها بعد تسليمه فى جميع وظائفه فنجما مما لحق غيره، و لحق به الوزير رستم فلم يبق من يعترض على التصرفات من رجال الحكومة.

و أما أهالى بقية القطر فقد أحى فيهم ما دثر خبره و نسى ذكره من تسليط الحزب الحسينى على الحزب الباشى إلى أن خضدت شوكته و لصق بالأرض، ثم كر على هذا الحزب أيضا و لحق بصاحبه فعانت أيدى الأول بأهل الساحل و قتلوا النساء و الصبيان مع صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ٢٤٠

معسكر الوزير أحمد زروق الموصى بالنكال و أحدث فيهم ما تقشعر من سماعه الجلود من قتل أربعة من رؤوس الساحل حكما هناك، و لما أتى أهل المجلس الشرعى بالمستير لرئيس المعسكر أحمد زروق قابلهم بعسف و أحكم الأغلال و القيود فى أعناقهم و أرجلهم و أمر بإزالة عمامة رئيس المفتين بلفظ مستهجن، و عامل وفد صفاقس بما يقرب من ذلك و سجن القاضى و حكم أيدى النهب فى الجميع، و قد رأيت بخط الوزير الكاتب لأسرار الولاية فى معرض ما حصل من أحمد زروق ما نصه:

و بالجملة فجميع ما ينسب فى هذه الوجهة لأحمد زروق إنما هي نسبة تنفيذ لأنه مقيد التصرف بما يرد إليه فى الأمر فى كل نازلة الخ، مما يصدق نسبة ما ذكرناه إلى صاحب التصرف و إن كان أحمد زروق تفاخر بما صنع حتى رآه بعض رجال الحكومة الكبار داخلا إلى جامع الزيتونة و هو لابس لنعله، و قد جرى العمل باحترام الجوامع بعدم دخولها بالنعال فقال له فى ذلك، فأجابه بمرأى من الناس و مسمع بقوله: لولاي لربطت فى هذا الجامع خيل أهل الساحل، مع أن أهل الساحل معلوم إسلامهم و على فرض منعه المسجد من ذلك لا يسوغ له ذلك جواز إهائته، و هذا الرجل أعنى أحمد زروق لم يزل مقربا عند الوزير خزنة دار إلى أن انفصل عن التصرف، و من تصرفاته فى تلك الوجهة أنه فلس الشيخ محمد الصويلح رئيس الفتوى بالإعراض و غرم أهالى تلك الجهات أموالا كثيرة أفنت الطارف و التالد و بقوا فى قيد ديونها المثقلة للأجانب إلى هذا الوقت بحيث يصح أن يقال أن جميع ما يمكن أن يباع قد بيع و ما لا يباع كالأوقاف و جميع ما تحصل من كسب أبدان أهل الساحل كله دفع للأجانب بسبب ديونهم، و لو أفردت نازلة الساحل وحدها بتأليف لجا مستكملا زيادة على القتل و السجن مع الأعمال الشاقة و ضرب السياط الموجه أو القاتل، حتى أن الوزير خزنة دار المذكور لما رأى خروج الضرب عن حده فى السيد الشريف على ابن عمر من أهل مساكن مع من أتى معه إلى محل حكم الوالى أظهر الشفقة و أرسل إلى الأعوان و قال لهم: إن سيدنا أمر بضرب هؤلاء لا يقتلهم فإن للقتل آلات تخصه، و إنما أسند الأمر للوالى لأن ذلك هو دأبه كما تقدم من عدم مكافحته لأحد بما يوجب و يسند جميع الأعمال للولاء، و أما جهات القطر الآخر التي سافر إليها المعسكر تحت أمر الوزير رستم فلم يقع بها من المضرات ما وقع بالأولى لأنه اقتصر على مجرد قود الطاعة و استخلاص المال

الممكن للأهالي و عمل بالمثل القائل: «ولى أذن عن الفحشاء صماء عن الأوامر التي ترد عليه فى سلب اللحم و العظم» و من ذلك التاريخ حصل تغيير الوزير خزنة دار عليه لما ذكر مع تعرضاته لتصرفات العمال على غير الوجه المعقول، و كذلك المعسكر الذى سافر تحت أمره ولى عهد الولاية أمير الأمحال أبى الحسن على باى فقد اقتصر فيه على مثل ما ذكر و استعطف أخاه فى العفو عن كثير من رؤساء تلك الجهات، و أنكرت عليه تلك السيرة ممن يريد الخراب حتى أرسل معه إبراهيم بن عباس الرياحى قائد دريد و أمر أمير الأمحال باتباع إشارته و تنفيذ أمره لكى لا يجد الأمير سبيلا للإعتذار عن الناس مع ما

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ٢٤١

هم فيه من الفقر، و ضاق الخناق بسبب ذلك بين جذب و دفع لما فى طبع هذا الأمير من النفرة عن تلك السيرة و كان ذلك سببا للوشاية به لأخيه و اتهم مستشاره المقرب محمد الطاهر الزاوش بأذية الأهالي، و نسب إليه بعض ما صدر من إبراهيم بن عباس المذكور، و الحال أنى رأيت بخط كاتب أسرارهم الوزير أحمد بن أبى الضياف المذكور فى وصف المستشار المشار إليه ما نصه: «و اعتمده باى المحلّة فى الوساطة بينه و بين الناس و حمدت بذلك سيرته الخ»، و ذلك هو المعروف عند السكان فى الثناء على أعمال المستشار، و توصل الوزير خزنة دار بما تقدم إلى إبطال سفر الأمير المذكور بالمعسكر على عادة أسلافهم و استعوض عن ذلك بسفر أحمد زروق المذكور، ثم أن ما وقع كل من الأمير على باى و الوزير رستم قد خرقتة أيدي العمال و البعوث التى وجهها الوزير خزنة دار، و أتى بأعيان من قبائل الجهات الغربية و الشمالية يبلغون نحو المائتين و أغلبهم كان فى خدمة الطاعة و أبلوا فى قود الأهالي و إرجاعهم للسكون البلاء الحسن، و لا ذنب لهم إلا كسبهم، و أوقفوا فى صحن البرج من قصر الحكومة بباردو و خرج لهم الوالى و خاطبهم بأنه لو لا شفاعته الوزير لأمر بقتلهم، وليته لم يشفع لأنه أى القتل أهون الموتين، ثم حكم عليهم بالجلد بالعصا. و رأيت بخط الوزير الكاتب المذكور فى قصة هؤلاء الرهط الذين منهم الشيخ الهرم المنسوب إلى الصلاح الحاج مبارك صاحب زاوية تاله ما نصه:

«فتقدمت مرده العذاب إلى ما كرم الله من أبدان بنى آدم يكبون الواحد على وجهه و يسحبونه على الأرض موثوق اليدين و الرجلين، و دام الضرب فى أولئك المساكين يومين أو ثلاثة بمرأى و مسمع، و فى خلال أيام الضرب قدم ابن ملكة الإنكليز سائحا فلم يقع الضرب يوم قدومه خشية وقوع الشفاعة منه عند مشاهدته تلك الحالة اللطيفة الشنعاء، و لما تم الضرب بإعداده و إتقانه سجنوا بسلاسلهم و أغلالهم و مات منهم بسبب الضرب الذى لا تتحمله القوى الحيوانية على بن عباس شيخ تاله و خرجت روحه قبل كمال عدد الضرب فكملوا العدد بضرب شلوه و هو ميت، و مات بعد الضرب الحاج مبارك شيخ الطريقة بتاله المار ذكره و لم يسمع منه حالة الضرب إلا- قوله يا ربى يا ربى إلى أن أغمى عليه، و الحاج صالح بن التليلى من بيوت الفراشيش و غيرهم، و عدد من مات بالضرب فى أقل من عشرة أيام ستة عشر رجلا». اه كلامه باختصار. و سجت خلائق مع الأعمال الشاقة و منهم على ابن غذاهم بعد تأكيد الأمان إليه و قدومه مع ابن القطب الصالح سيدى أحمد التجانى رضى الله عنه و بقى فى حبس مظلم ندى إلى أن مات، و كذلك كثير ممن سجن و لا- يمكن إحصاؤهم و فشا الخبر فى الآفاق و استفظعه من سمعه، حتى أن نابليون الثالث إمبراطور الفرنسيس أثر رجوعه من الجزائر لثورة وقعت فيها و مهدها بلطف و تحبب للأهالي بسعيه بنفسه، و كان ذلك فى أثناء الهرج بتونس خطب عند رجوعه و ذكر أسباب ثورتهم من جهلهم بما يراد منهم و عدم سلوك الطريقة المناسبة لوصولهم، و أثنى على عساكره ثم قال و بعد الحرب و إطفاء

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ٢٤٢

الثورة لم يقع منا انتقام و لا شدة و لا ما ينقص فخر النصر الخ، و كأن الدولة الإسلامية لم يبلغها الحال الذى لم يزل شبهه إلى الآن مع نص الفرمان المخالف لذلك، و مع هذا التعذيب فى الأبدان فقد أتى على أموال الأهالي عن آخرها و لم يبق للبلدان و القرى و قبائل العرب شىء مما يسد العوز، و من كان له أدنى شىء من القوت كان يخفيه و يرسل نسوانه لالتقاط العشب و عروق الأشجار لقوتهم،

و لقد ذكر لي أحد بيتوتات دريد أنه كان يرسل نسوته اللاتي لم يعهدن التطوف في البرارى لجلب عروق الترفاس و ينشره على ظهر بيته ليراه أعوان العامل و يطبخ ليلا القمح في الماء من غير طحن لكي لا يسمع الناس حس الرحا فيتهم بالمال، و ذكر لي أحد الثقات من التجار أنه كان يوما جالسا عند إبراهيم العامل المذكور و هو يوصي نائبه العازم على السفر إلى القبيلة و يحرضه على خلاص المال، فأجابه النائب بأنه يعمل غاية جهده بحيث يبيع كل ما يجد فمن وجد عنده نعمة باعها و من وجد عنده عنزا باعها و من و من إلى أن قال: و في أقرب وقت نخلص مال الدولة و نرجع.

فحقق عليه إبراهيم و وبخه، و قال: إن مال الدولة لا يضيع و إنما القصد مال الوزير، فقال له: الحق معك، هو مقدم! و ذهب على ذلك العزم هذا كله بعد تأكيد الأمن الذي خدع الرعية بالكتابة و الكلام، فزيادة عن الظلم هو شين على الخائن، و قد ذكر الوزير حسين قبل خروجه من القطر الوالى بأمانه عند قدوم أهل الساحل طائعين فحقق عليه و أجابه بما يكره، مع وجوب الوفاء بالعهد عقلا و شرعا و ما كفى الناس ما هم عليه من الفقر المدقع أو المظالم التي لم تعهد، إذ دهمهم الجوع و القحط المتسببان عن حبس المطر لكثرة الظلم، و عن فناء الأموال التي تعمر بها الأرض في الفلاحة و اشترك في العسر حتى أهل الحاضرة لإتباع مكاسبهم لمكاسب بقية أهل القطر فاقبلت أفواج الأقوام تراهم من كل حذب ينسلون متوجهين إلى الحاضرة و المدن و ما وصل إليها لا القليل لفشو مرض الحمى الخبيثة فيهم، و كان مرضا مستويا أفنى خلائق لا تحصى و بقيت أكثر جثثهم في الفلاة للوحوش بعد أن أفنت منهم الكوليرا عددا و افرا، فمن ساعده الأجل و وصل إلى الحاضرة مات منهم أكثرهم في الطرقات، ثم ابتدر أفراد من أهل الحاضرة لإغاثة أولئك المساكين و عقدت لهم جمعية يرأسها المقدس سيدى حسين الشريف نعمه الله و أذن الوالى في عقدها، و جعلوا يجمعون المال من الأهالى كل على حسب استطاعته على حالة ضعفهم الحالى الشديد التي كادت أن تلحق كثيرا منهم بأولئك الوافدين المساكين، و شمردت الجمعية عن ساعد الجد و خفت بعض الضرر بالقوت و المسكن، و إن كان المرض تمكن منهم و صاروا إلى حالة ضعف لا توصف و فشا فيهم الموت إلى أن صاروا يرفعون خمسة

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ٢٤٣

فما دون في نعش واحد رحمهم الله، و قد كنت كتبت لصديقى و هو غائب بوصف الحالة في القطر عندما طلب منى أن أرسل إليه نسخة من ضرب مثل للحالة المذكورة في القطر التونسى، و أصور ذلك بصورة واقعة تاريخية مما ينسب لرؤيا رآها بعض ملوك ألمانيا في القرون المتوسطة، و نصها:

رأى بعض ملوك ألمانيا في القرون المتوسطة من تاريخ المسيح عليه السلام رؤيا فهاله أمرها فبحث عن معبر يعبرها له- و هو عندهم المنجم لأن أصحاب التنجيم هم الذى كانوا يدعون معرفة علوم الحداثان- فحضر المعبر بين يديه و قال له الملك: إني رأيت البارحة في المنام ما هالنى أمره و لا يبعد شأنه عندى من منام فرعون فى مصر فى أيام يوسف الصديق عليه السلام، و ذلك أنى رأيت ثلاثة جردان مجتمعين فانتبهت أولا قبل استكشاف حالها ثم نمت ثانية فرأيت جردة من تلك الجردان على غاية من العجب و الهزال بحيث أن سائر ضلوعها بادية و لا تستطيع الثبات على رجليها، و رأيت الجرد الثانى على غاية من السمن يترعع فى مشيه ترعع القنفذ، ثم تأملت الجرد الثالث فرأيت أعمى من كلتى عينيه، لا يبصر بها شيئا فانتبهت، ثم نمت الثالثة فرأيت الجردان الثلاثة معا على تلك الحالة فالسمن يقود الأعمى و الأعمى يقود الهزيل فانتبهت و هم يتقاودون فأفتونى فى رؤياى إن كنتم للرؤيا تعبرون؟ فأجابه المعبر بقوله: سيدى إن رؤياك أشهر من أن تعبر و لكنها تكتب و تسطر، أما الجردة الهزيله فهى مملكتك و السمن هو وزيرك و الأعمى هو أنت أيها الملك يقودك وزيرك إلى ما فيه صلاح نفسه و تقود أنت رعيتك إلى ما فيه هلاكك و هلاكهم. انتهى.

و كتبت إلى صديقى فى ذيلها ما نصه: هذه حال رؤيا القرون المتوسطة أما رؤيه حال القرون الأخيرة، فى هاته الحضيرة، مما دهاها من النفوس الشريرة، فهى سنو يوسف عليه السلام التى كانت تعبيرا لتلك الرؤيا، على ما فيها من البلاء، فلو رأيت ما عليه القرار، لمثلت رعبا و لوليت منه الفرار، من ذئاب تغتال، و ثعالب تحنل، مجتهدة فى قلب الرحال، و تشتيت الرجال، و ثعبان شاغر فاه لا ابتلاع

الأموال، فيا لها من حال يرثى لها من رام النزول، و تخر لشدتها شامخات الجبال، افتضحت فيها ربات الحجال و هوت الإيالة إلى الزوال، و تمكن من القلوب الزلزال، و تقاربت الآجال و انقطعت الآمال، و عد الصلاح من المحال، فقد فاز من نهض بنفسه، و استراح من فتنه باطنه و حسه، إذ الآيات وردت على ذلك ناصه، فقال تعالى: وَ اتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً [الأنفال: ٢٥]. ففاز المخفون، و ابتلى المتأهلون و و الله العظيم، و نبيه الكريم، طالما نهضت عزائمي إلى الترحال، فأثقلني قيود العيال، مع ما أنا عليه من الوحدة عن أخ شقيق، أو قريب يخلفني فيهم عند الضيق و لم أستطع التخلص بكلي، لما يخفى مما يثقل كلي، و أقسم بالقرآن، و صفات الرحمن، أنني عرضت للبيع أملاكي، لأتخلص بها من إشراكي، و أستعين منها بالأثمان فلم أجد من يصرف لهذا الوجه عنان، و لو من أعيان الأعيان، فالناس حيارى فى الأوقات، تائهين فى جلب الضروريات، يكادون من القحط أن يأكلوا الحديد، و يقولون هل من مزيد. وَ تَرَى

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ٢٤٤

النَّاسَ سُكَّارِيًّا وَ مَا هُمْ بِسُكَّارِيٍّ وَ لَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ [الحج: ٢] إلى غير ذلك من زفرات تتصعد، و جمرات تتوقد، و أنين بقوارع الطريق، و صياح على الأبواب و نعيق، و ضجيج بالأسواق، حتى تخالها قد التفت الساق بالساق، فلا تسأل عن القلوب، و ما دهاها من الخطوب، و قد فوضنا الأمر إلى علام الغيوب. اه.

و مع تلك الحالة فى الأهالى فغاية ما رحمهم به الوالى من الخزنة خمس عشرة ألف ريال و له العذر لأنه كثيرا ما باتت أتباعه، بل قيل عائلته طاوية إلى بعد نصف الليل حتى يرسل وزيره أحد أعوانه إلى حميدة بن عياد المكلف بمعمل الخبز، ليستقرض ما يمكن أن تتعشى به عائلة الوالى و الوزير غاية ما تكرم به على أولئك المساكين سبعة آلاف ريال، و إن كان سيدى حسن الشريف ألح عليه فى إعانه المصابين مرارا، فيعطيه من خزنة الحكومة، كما أنه فى هاته الشدة أبلى البلاء الحسن كثير من الأهالى و الأجنب سرا و علنا، و قاموا بكثيرين قوتا و كسوة و سكنا و دواء و أطباء جزى الله الجميع بفضلهم، و فى أثناء المدة هرب العادل باى أخو الوالى إلى جبل باجه حيث كان أهله إذ ذاك ثائرين بعد أن نسى مثل ذلك فى البيت الحسينى منذ نحو مائة سنة، و سبب ثورته الضيق الحالى الذى حصل له من تعطيل مرتبه و مثله سائر آل بيته، و إذ ذاك اضطروا لإعادة سفر ولى العهد بالمعسكر فأرجع أخاه و قاد الطاعة ثم أعيد ترك سفره، هذا و بينما كان القطر على هذا الحال فالأموال المستخلصة لم تكف و جعلت الحكومة تستقرض من أوروبا قرضا بعد قرض فأول استقراض كان خمسة و ثلاثين مليوناً لاستهلاك الدين السابق الذى قدره تسعة عشر مليوناً، و لم يزل باقيه لم يستخلص إلى أن تشكل الكومسيون الآتى بيانه.

و هكذا كل قرض يدعى فيه مثل ذلك و يبقى الأصل على ما كان و اشترى من تلك الديون بواخر حربية بأضعاف قيمتها بلغت أكثر من سبعة سفن منها فرقاطه سميت بالصادقية أصلها كرويت فزيدت فيه طبقه و صار شكلا مضحكا لأرباب ذلك الفن، و قد شاع عند الخاصة و العامة أن القصد من شراء تلك السفن و غيرها مقاسمة الأرباح من الوزير مع أصحابها ثم بما يستفاد من القرض و قد بيع بعض ذلك الأسطول بثمان مؤجل و اكترى بعضه بإصلاحه و ذلك عند عجز الحكومة عن القيام به بعد شرائه بنحو أربع سنين فأفلس المشتري و المكترى و ذهبت السفن و ثمنها المتجاوز خمسة عشر مليوناً فرنكا سدى، مع أن أصل شرائها لا حاجة إليه سوى تحصيل الربح من ثمنها و الربح من الإستقراض لدفع الثمن، و شاهد مما وقع فى شراء مائة مدفع مسدسة بمليون فرنك فلما أرى السمسار صك الإتفاق الرسمى للبائع الذى باع تلك المدافع بثلاثمائة ألف فرنك تعجب البائع من فحش التباين بين الثمنين فأجابه السمسار بأن وزير تونس أراد أن يربح خمسمائة ألف فى هذا البيع و أنا لا نقدر على منعه و لست مكلفا بمصالح حكومة تونس فربحت أنا أيضا ما زاد على ذلك، هكذا فشا الخبر.

و لما قدم ضابط فرنساوى باستدعاء للتأمل فى سلامة تلك المدافع قومها بدون المائتين ألف فرنك لأنها غير سليمة و بقيت لملقاء على الأرض بلا فائدة، و بأمثال ذلك ربح

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ٢٤٥

السماصرة في الإستقراضات و في الشراء ما صاروا به أغنياء، حتى أن أحد أهالي الشام المسمى برشيد الدحداح الذي انتقل إلى فرنسا و صار فرنساويا توسط بوسائل لأن يخدم في حكومة تونس راضيا بمرتب قدره ثلاثة آلاف و خمسمائة فرنك أي ستة آلاف ريال في السنة قد رجع إلى باريس بعد ثلاث سنين أو أقل و بنى بها قصرا بهيا شامخا و رأيته في أعز حارات البلدة، و هي قرب شانزى لزي و أخبرني أحد الثقات هناك أن تجارة الرجل التي يخوض فيها بكسبه الخاص نحو خمسة ملايين فرنك، حتى تصدق على إحدى معابد النصرى بستين [ألف فرنك] كل ذلك من تعاطيه السمسرة للوزير المذكور، و مثل ذلك القائد نسيم المار ذكره مع زيادة ربح ما يسقطه الطالبون من الحكومة لأنه يسوف أصحاب المرتبات و غيرهم ممن يطلب المال، حتى يسقط له مقدارا مما يطلبه و يصحح في الحجة أنه قبضها كاملة، و تفاقم الأمر أواخر المدة إلى أن بلغ الإسقاط أحيانا إلى ثلاثة أرباع المطلوب و الوزير لا يقبل فيه الشكاية و لما خشى القائد نسيم في أثناء الثورة العامة على نفسه سرحه الوزير إلى أوروبا من غير أن تعمل معه الحكومة حسابا، و مات في بلد قرنه من إيطاليا و أرادت الحكومة التونسية بواسطة الكومسيون الآتى ذكره فصل مطالبها من ورثة المذكور بالتراضى من غير خصام و جنحوا هم أيضا إلى ذلك، و بينما العمل جار في ذلك فإذا بالوزير خزنة دار جلب أعيان الورثة إلى بستانه و هم مومو شمامه و ناتان شمامه و يوسف شمامه و عرض على كل منهم كتابين:

أحدهما: يتضمن إعطاء خمسة في المائة للوزير خزنة دار مما يصح لهم من الإرث.

و الثانى: يتضمن إبراء عاما للوزير المذكور مما عساه أن يطلب من جهة نسيم فامتنعوا من الإمضاء على ذلك و تخلصوا بطلب مهلة للتروى.

و هرب مومو إلى قنسلات فرنسا و يوسف و ناتان إلى قنسلات إيطاليا، و أرسلت الحكومة محمد البكوش مستشار الخارجية و المترجم الأول بها كونتى و القابض لياه شمامه إلى سؤال المذكورين عن سبب هروبهم فأجابوا بما ذكر من مطلب الوزير خزنة دار و كان ذلك بمحضر من القنسل و كتب التقارير في ذلك موجودة بالوزارة و القنسلاتوا و لذلك سافر الورثة قبل فصل النازلة، و وجهت الحكومة لتحرير الحساب و الخصام معهم الوزير حسين و دامت الخصومة نحو تسع سنين و لا زالت إلى الآن منشورة، و لما تفاقمت الديون في أوروبا و علموا أن الفائض يستقرض أضعافه كل مرة لأجل خلاصه امتنعوا من الأقراض، حتى جعلت رسل الوزير يرددون كل باب لذلك و لم يحصلوا على شىء حتى أن الياس مصلى المستشار الثانى بوزارة الخارجية ذهب لمثل ذلك و أخذ لمصاريفه تذاكر و سندات على المالية باسم الحامل و طفق يبيع منها المائة بخمسة فرنكات، و ترتب على الحكومة بذلك أزيد من المليونين فرنكا لاجتناب أصحاب الأموال من ضياع أموالهم، فلذاك عدل الوزير إلى الإقتراض من الأجانب المقيمين بالحاضرة على أخذ كل منهم رهنا في يده يتصرف فيه من مداخيل الحكومة و هي المسماء باستقراض الكونفرسيونات، و استعان في

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ٢٤٦

تصرفاته فيما يرجع إلى ذاته و لو من وظائف الحكومة بولده الأكبر و استغنى به عن السماصرة، و خالطه بل و اشتهر إنه شاركه في استلزام بعض مداخيل الحكومة، و فى التجارة فى رفاع أموالها و رفاع الدول الأجنبية حاي الصباغ أحد تجار اليهود، كما داخله و قيل أنه شاركه فى معمل الخبز و قبض أعشار الحبوب و صرفها و غير ذلك من موارد مصاريف الحكومة أميرا للوا حميدة بن عياد، و ولاه على عمل ابن زرت و أطلق له التصرف بعد أن كان الوالى و أخوه من قبله يتجنبونه فى الولاية لما استقر فى النفوس من مظالم محمود بن عياد و أغلب عائلته، و لأن حميدة المذكور محتم بالإنكليز فلا تناله الأحكام و مع ذلك فإن حميدة المذكور لم يضر بالرعية و فيه جهة للرفق، و أعان أهالى ابن زرت على مساعيهم بإقراضهم المال و الحبوب و لم يجحف بدافعى الأعشار و لا بقابض الحبوب، و عامل أهل العلم معاملة حسنة و اقتصر فى الأرباح الوافرة على ما يربحه من الحكومة مثل الربح من معمل الخبز فإنه تبين بمقتضى الحساب الذى جعله الكومسيون أى اللجنة المالية فى السنين التالية بعد خروج المعمل من يد المذكور أن أرباحه كانت تقرب من

الخمسين في المائة، ثم لما رأى الوزير عسر خلاص أموال الحكومة لفقر الأهالي و تكاثر الطلب من الأجانب لأموالهم نقل وزارة المال بالإسم إلى الوزير الشيخ محمد العزيز بوعتورباش كاتب لكي يتحمل المصاعب و يبقى متحملا للقضاء بلا كره و لا رضا، الأموال يرسل إليها ابن الوزير أعوانه ليخلصها من العمال بأسماء مختلفة.

منها: شراء مطالب من له مطلب على الحكومة مالى سواء كان من الطوارئ أو المرتبات.

ومنها: إخراج تذاكر بأعداد من المال يؤمر فيها وزير المال بدفع ذلك القدر إلى محمد بن الوزير فى مصالح على يده من غير بيان، و كانت ترد تلك التذاكر مكتتبه إلى وزير المال ليصحح على جريدتها لترسل لإمضاء الوالى، فلم يكن فى وسعه إلا الإمضاء من غير أن يعلم شيئا من تلك المصاريف، و ذلك معلوم عند الجميع و لذلك لم يعرج على طلب وزير المال بشيء الكومسيون المالى، على أن ما يمكن أن يرسله العمال إلى الحكومة ليسكت به الأجانب أصحاب الديون كانت تتخطفه أعوان الوزير خزنة دار من الطرقات، حتى وقعت خصومات شديدة من الأجانب فى مثل ذلك، و لما كثر القيل و القال من الأجانب فى خراب القطر و وقوف حاله و أنه تلزم مساعدة الحكومة للأهالى لرجوع شيء من رفقته، كان الوزير خزنة دار يقول لخواصه: عجباً لهؤلاء القوم أفأنا المطلوب بإبطال العرب للفلاحة، أليسوا بعارفين بكيفية الحرث و الأرض موجودة فما منعهم عن ذلك، كأنه لا يعلم السبب لكنه أراد إسكات الأجانب فأعطى إلى الكنت صانس الفرنساوى أربعمائى ماشية أرضاً أى نحو أربعين ألف و ستمائة هكتار بحساب كل ماشية مائة و إثنان و تسعون جبلا- و الحبل خمسون ذراعاً، و يكون إعطاء المواشى مدرجة على أربعة أقساط و من شرطها أن تكون قابلة للزرع و السقى و أن تعفى من جميع الآداءات التى بواسطة و التى بدون واسطة فى جميع ما ينبت فيها و ما يربى من الحيوانات و نتائجها، و لزم بسبب ذلك الحكومة مشاق سيرد تفصيل بعضها.

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ٢٤٧

كما منح لجنة إنكليزية إحداث طريق حديدي من تونس إلى حلق الوادى، و منح لجنة طليانية صيد نوع من السمك كبير يسمى التن فى مصيده بالمنستير و منحها أيضاً معدن جبل الرصاص و اكرى لها أرضه المسماة بالجديدة التى حصلت فيها الخصومة المشار إليها عند الكلام على سياسة القطر الخارجية، و نشأ من كل منحة ما يناسبها من الصعوبات القاضى بها عدم الفائدة و عدم إتحاد الحكم و زادت المشاكل بكثرة الديون و عدم المال و روج فى القطر سكة من النحاس كل قطعة منها بنصف ريال، و كان مقدار ما روجها فيه يبلغ إثني عشر مليوناً ريالاً، و عظم الخطب لامتناع الأجانب من قبولها فى أثمان سلعمهم و ديونهم العامة لأهل القطر و بلغ سعر الصرف إلى أن المائة ريال فضة تصرف بنحو ثلثمائة ريال، و بلغ سعر الويبة من القمح إلى السبعين ريالاً بتلك السكة، و بعد إنفاق ما ضربته الحكومة منها و اشتداد الحال أنزل قيمة السكة النحاسية إلى أصلها حقيقة و هو الربع مما نفقت به فصار نصف الريال ثمن الريال و ضاعت على الأهالى تسعة ملايين سدى مع ما زاد على ذلك مما جلب من نوع تلك السكة خفية، و أكثر ما أصيب بالخسارة أهل الحاضرة فكانت قسطهم من غرم المال، و لما بلغ الحزام الطيبين شدد الأجانب فى طلب ديونهم و فائضها و قطع القنسل الفرنساوى الخلطة مع الحكومة ثم استرضته، و استقر القرار على تشكيل لجنة مختلطة من الأهالى و الأجانب و سميت بالكومسيون المالى و نص الأمر الصادر فى ترتيبه.

أما بعد: فقد اقتضى نظرنا لمصلحة مال مملكتنا و الرعية و المتجر أن ترتب كومسيونا ماليا على صورة الأمر الصادر فى الرابع من إبريل من العام الفارط، المؤكد بأمرنا المؤرخ فى التاسع و العشرين من مايه الموالى للشهر المذكور على الكيفية الآتية:

الفصل الأول: الكمسيون الذى صدر به أمرنا المؤرخ فى الرابع من إبريل سنة ١٨٦٨ يجتمع بحاضرنا فى مدة شهر التاريخ.

الفصل الثانى: يقسم الكومسيون المذكور إلى قسمين متميزين قسم: للعمل، و قسم:

للنظر و التصحيح.

الفصل الثالث: قسم العمل يركب على الصورة الآتى بيانها و هى عضوان من متوظفى دولتنا نسميهما نحن أنفسنا، و ناظر مالى

فرنسيس نسميه نحن أنفسنا أيضا بعد تعيينه من طرف دولة جناب الإمبراطور.

الفصل الرابع: قسم العمل هو المكلف بحصر المداخل التي يتيسر للدولة أن تخلص بها ذلك.

الفصل الخامس: قسم العمل يجعل دفتره فيه يقيد جميع الديون المنعقدة خارج المملكة و داخلها، و هي التذاكر المالية و رقاع سلفى عام ١٨٦٣ و عام ١٨٦٥، و أما الديون الغير المحصورة بكتراتوات فعلى حاملى تذاكرها أن يأتوا بها فى خلال مدة شهرين، صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ٢٤٨

و كذلك يسعى قسم العمل فى الإعلان عن ذلك فى جرنالات تونس و أوروبا.

الفصل السادس: مهما أراد قسم العمل الإطلاع على جميع الحجج الصحيحة المتعلقة بالداخل و المصاريف فإن وزارة المال تجيبه إلى ذلك حق الإيجاب.

الفصل السابع: بعد أن يقع حصر مداخل الدولة و مقابلتها بجامعة المصاريف مزادا عليها مبلغ الدين يبحث قسم العمل عن توزيع المداخل العمومية على وجه الإنصاف باعتبار جميع الحقوق على طريق العدل، و كذلك يجعل تجريدة المداخل التي يمكن زيادتها على جميع الضمانات السابق تعيينها لأرباب الديون.

الفصل الثامن: لقسم العمل أن يجعل جميع التأويلات و التراتيب المتعلقة بالدين العمومى و نمده بكل ما يلزم من الإعانة لإنفاذ ذلك الإنفاذ التام.

الفصل التاسع: قسم العمل يتولى قبض جميع مداخل المملكة من غير استثناء و لا- يسوغ إخراج تذاكر مالية من أى نوع كان إلا بموافقة القسم المذكور على ذلك بعد التفويض إليه فى ذلك من قسم النظر و التصحيح، و إذا اضطرت الدولة لعمل سلف فلا يسوغ لها ذلك إلا بموافقة القسمين، و جميع التذاكر التي تخرج فى مقابلة المبلغ الذى يعينه الكومسيون لمصاريف الدولة تكتب بإسم الكومسيون، و يعلم عليها قسم العمل و قدر هذه التذاكر يلزم أن لا يتجاوز المبلغ المحدد فى قائمة المصاريف.

الفصل العاشر: قسم النظر و التصحيح يتركب على الكيفية الآتى بيانها، يعنى من عضوين فرنساويين ينوبان عن حاملى رقاع سلفى عام ٦٣ و عام ٦٥، و من عضوين إنكليزيين و عضوين طليانيين ينوبان عن حاملى رقاع الدين الداخلى، و هؤلاء الأعضاء يكونون بوكالات مخصوصة من قبل حاملى رقاع السلفين و حاملى كونفرسيونات مملكتنا، و يصدر لهم إعلان فى ذلك منا تحت نظر قسم العمل.

الفصل الحادى عشر: قسم النظر و التصحيح له الحكم فى جميع تصرفات قسم العمل و هو المكلف بتحقيقها و بالموافقة عليها عند الإقتضاء و موافقته ضرورية، حتى أن الذى يستقر عليه رأى قسم العمل مما يتعلق بالمصلحة العمومية يصير بذلك واجب العمل به.

الفصل الثانى عشر: إذنا وزيرنا الأكبر بالعمل بما تضمنته الفصول الأحد عشر المذكورة أعلاه و نعين العضوين و نطلب الناظر المالى الفرنساوى المذكورين بالفصل الثالث فى أقرب وقت ممكن، كتبت الإثنا عشر فصلا أعلاه بمرأية حلق الوادى فى السادس و العشرين من ربيع الأول سنة ١٢٨٦ هـ ستة و ثمانين و مائتين و ألف، فانظم هذا الكومسيون و استولى رياسته الوزير خير الدين، و العضو الأول فى قسم العمل هو صاحب رتبة الوزارة فى فرنسا فيليت، و العضو الثانى الوزير محمد خزنة دار و سيأتى تفصيل ما نشأ عن هذا الكومسيون، و جمع ديون الحكومة فكانت ما يأتى:

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ٢٤٩

جملة الجوامع فرنكات

/ ٠٠٠، ٠٠٠، ٣٥ / الإستقراض من دار ارلانجى بباريس لإيفاء الدين السابق الذى لم يخلص بتمامه و قدره نحو تسعة عشر مليوناً كما تقدم.

/ ٠٠٠، ٠٠٠، ٠٩ / الإستقراض من بينار بباريس سنة ١٨٦٣

/ ٠٠٠، ٠٠٠، ٢٥ / الإستقراض من دار ارلانجى و غيره سنة ١٨٦٥.

٠٠٠، ٠٠٠، ٠٠٠ / ٦٩، ٠٠٠، ٠٠٠ / ٦٩، ٠٠٠، ٠٠٠ / الجملة تسعة و ستون مليوناً

٠٠٠، ٠٠٠، ٠٠٠ / ٦٩

الاستقراضات الداخلية المعروفة بالكونفرسيونات.

جملة الجوامع فرنكات

٠٠٠، ٠٠٠، ٠٠٠ / ٦٩، ٠٠٠، ٠٠٠ / ١٣٥٠٠ / الأول

/ ٠٩٦٧٠، ٠٠٠ / الثاني

/ ١٧٨٥٠، ٠٠٠ / الثالث

/ ٧٨٠٠، ٠٠٠ / الرابع

٠٠٠، ٤٨٨٢٠ / ٤٨٨٢٠، ٠٠٠

٠٠٠، ٣٦٨٠٠ / جملة الدين الغير المنضبط بالتذاكر الرائجة

٠٠٠، ١٥٤٦٢٠ /

٠٠٠، ٢٠٣٨٠ / جملة الفوائد المتأخرة تقريبا

٠٠٠، ١٧٥ / ريات

/ ٢٨٠٤٣٧٥٠٠ / جملة صرف تلك الديون بالريات التونسية فإذا أضفنا إلى ذلك مداخيل الحكومة من وقت تعطيل القانون إلى

انتصاب الكومسيون الذي هو سنة ١٢٨٦ بحساب كل سنة

٠٠٠، ٥٨٤٥٠ / ٠٠٠، ٠٠٠، ٠٩٥ / خمسة عشر مليوناً رياتاً الذي هو أقل ما يمكن نظراً إلى ما تركها عليه الوالي السابق محمد باشا و

نظراً لدخلها فيما بعد فيكون المجموع للستة سنين.

٠٠٠، ٢٣٣٤٥٠ / ٣٧٥٤٣٧٥٠٠ / تقريب الغرم الذي دفعه السكان على مصاريف الثورة لأنه ثبت بالحساب أن أهل الساحل وحدهم

٠٠٠، ٠٤٠ / ٠٦٥، ٠٠٠، ٠٠٠ / دفعوا من ذلك عشرين مليوناً

٠٠٠، ٠٠٠، ٠٠١ / ٠٠١٦٢٥، ٠٠٠، ٠٠٠ / ما أعانت به الدولة العلية الحكومة وقت الهرج. ما أهدها صاحب القرض الأول بإسم المارستان و

أخذته الحكومة.

٠٠٠، ٠٠٠، ٠٠١ / ٠٠١٦٢٥، ٠٠٠، ٠٠٠

٠٠٠، ٢٧٥٤٥٠ / ٤٤٢٦٨٧٥٠٠

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ٢٥٠

فكانت جملة الأموال التي خاضت فيها الحكومة في مدة نحو سبع سنين مائتين و خمسة و سبعين مليوناً فرنكاً و صرفها رياتاً ما هو

مرقوم بأزائها مع مزيد التضاييق المالي بتعطيل الجرايات، حتى امتدت الأيدي إلى الأوقاف و عطل إرسال مال الحرمين الشريفين من

أوقافهما عدة سنين، و كذلك عطل مرتب المدرسين و العلماء من بيت المال الذي أسسه أحمد باشا لاستيلاء الحكومة على ما فيها

من المال، و لم يحصل من تلك الأموال في القطر ما يمكن أن يذكر أو يعد سوى ما تقدم ذكره من السفن و المدافع البالغ مجموع

ثمنها إلى ثمانية عشر مليوناً، و إن أضفت إلى ذلك ما خسره القطر و الحكومة مما ضاع عند ابن عياد و نسيم و كله بواسطة الوزير

المذكور كان مجموعه مع ما بين يزيد على خمسمائة مليون رياتاً، و حيث كان الحال مما لا يمكن إخفاؤه على الوالي بالمرّة ذكر له

وزير خزنة دار أنه خزن له في بعض بانكات أوروبا عشرين مليوناً فرنكاً احتياطاً لما عساه أن يقع، لأن الثورة العامة أنذرت مما يخشى

من مثله فلا بد أن يكون له ذخر خارج المملكة، و ذكر ذلك له مرةً بمحضر أحد قناصل الدول ثم طلب هذا القنصل إسقاط الطلب

عنه بتلك الملايين عند عزله.

و من وقت انتصاب الكومسيون المالى قصرت يد الوزير خزنه دار عن التصرف و كاد أن يكون إسناد الوزارة إليه إسما بلا مسمى، و حق من ذلك أشد الحق و رام أن يغير الحال فلم يوافق الوالى لاطلاعه على حقائق الأمور و علمه أن رجال الحكومة لم يبقوا على ما كانوا عليه من الإلتفاف على الوزير، و بقى على ذلك إلى أن ظهرت نازلة أرلانجى البنكير بمطلب مالى و ادعى أنه إبروسيانى و كان ذلك فى خلال محاربة فرنسا مع ألمانيا، و شدد القنسل البروسيانى فى مطلبه و لم يكن للحكومة مال و ظهر للوالى أن يستقرض من وزيره المال المطلوبه فيه الحكومة فأقرضها بالربا و رهن آجام و غابات طبرقه بفائدة عشرين فى المائة فى السنة ثم ظهرت نازلة الألفى رقعته و حاصلها أن الكومسيون المالى لما حصر جميع الديون و وحدها فى دين واحد جعل له رقاعا جديدة و شرع فى إبدال القديمة بالجديدة، فعند ذلك تبين أن الرقاع الجديدة المقدره على ما ضبط من مقدار الدين لا تفى بالرقاع القديمة التى جاء بها أصحابها للتبديل، فاستقرى الكومسيون أسباب ذلك و تبين أنه لما انتصب الكومسيون المالى و جهت له الحكومة حسابا رسميا فيه بيان حساب الرقاع الراجعة من سلفى سنة ١٨٦٣ و سنة ١٨٦٥ بعد طرح الرقاع التى رجعت بالخلاص للحكومة فى الإقتراعات، و بعد طرح ألفى رقعته اشترت على يد البنكير أرلانجى للحكومة من ديونها، فلم يعتبر الكومسيون فى ديون الحكومة إلا ما بقى من رقاع السلفين بعد طرح القسمين المذكورين، لأن كلا منهما هو خلاص لمقداره من الدين و أذن الكومسيون بطبع عدد من الرقاع جديد بمقدار ما بقى من الدين و لما شرع فى تبديل الرقاع وجد فى رقاع سلف سنة ١٨٦٣ أكثر مما كان قدره على مقتضى الحساب الرسمى المشار إليه، فظن أول الأمر أن الزائد مزور فتأمل فى جميعها و لم يجد فيها مجالا للزور فحاول حينئذ الكشف عن منشأ هاته الزيادة و استفسر من الوزير خزنه دار عن الألفى رقعته المشتراة على يد أرلانجى و ما كان فيها، فلم يجب و أصر على السكوت مدة أكثر من سنة مع تكرار السؤال له كما

صفحة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ٢٥١

يتبين ذلك من تقرير الجلستين المنعقدتين من الكومسيون فى ١٥ أغسطس سنة ١٨٧٢ و فى غاية سنة ١٨٧٣.

و لما ألح الكومسيون على الوزير فى طلب الجواب زعم: أن الحكومة لم تتصل بالرقاع المذكورة و أن دار أرلانجى هى المطالبة بذلك، لكن الكومسيون قبل أن يطلب من أرلانجى البيان تحرى فيما يلزم من الإطلاع على الحساب مع الدار المذكورة، و على الرسائل الواردة منها لكى يعتمد فى المخاطبة ما هو الواجب، فأذن الوالى فى ذلك و أطلع عليه الكومسيون و ثبت عنده أن الدار المذكورة سلمت تلك الرقاع للحكومة و كان من المعلوم لدى الكومسيون أنه كان بين الوزير خزنه دار و بين رشيد الدحداح المتقدم ذكره معاملة خصوصية، و أن الوزير رهن سبعة آلاف رقعته من سلف سنة ١٨٦٣ فظهر للكومسيون أن يطلب بواسطة ثانى الرانس و هو قنسلات الحائز رتبة الوزارة من رشيد الدحداح المذكور جريدة أرقام الرقاع المذكورة، كما يطلب من دار أرلانجى جريدة أرقام الألفين رقعته التى استرجعتها الحكومة، فاتصل بالجريدتين و كشف الحال أن الألفى رقعته روجها الوزير خزنه دار على يد الدحداح بعد خلاصها، فعرض ثانى رانس الكومسيون على الكومسيون تقريرا مفصلا فيما ثبت لديه فى النازلة و تضمنه تقرير جلسة الكومسيون المؤرخ فى ٤ يونيو سنة ١٨٧٢ و ملخص تقرير الجلسة أن الرقاع المذكورة سلمت فى ١ فبراير سنة ١٨٦٤ للحكومة التونسية على يد شमित النائب عن دار أرلانجى، و قيد ثمنها فى الحساب الواقع بين الحكومة و الدار المذكورة، المؤرخ فى ١٧ مايو سنة ١٨٦٧. ثم روجها الوزير مصطفى على يد الدحداح القاطن فى باريس، و أن استعمال الرقاع المذكورة على الوجه المذكور أضر بالحكومة و أرباب الديون، و أن رأى كل الكومسيون أجمع على طلب التعويض و الخسائر من الوزير مصطفى المذكور. ٥١.

و علم الوزير بما وقع و نصحه الوزير خير الدين بفصل النازلة عن عجل فأبى ظنا أنه لا تناله الأحكام، و بلغ ذلك للوالى سرا بواسطة مصطفى بن إسماعيل أقرب المقربين لديه لتعصب الوزير خير الدين له فى إنهاء فظائع خزنه دار إليه و إفهامه أن الوزير خير الدين مضاد حقيقة لذلك الوزير و إن كانت له عليه يد المنه و المصاهرة لما ذكر من سيرته، فامتلا و طاب الولى من إنكاره أعمال وزيره و لم يزل الوزير مصرا على الامتناع من بيان الوجه فى رواج تلك الرقاع ثانيا إلى أن واجه الوالى ثانى رانس الكومسيون بمحضر

المذكور و عرض على الوالى ملخص النازلة، و طلب منه إمضاء الحكم فباشر الوزير ثانى رانس الكومسيون بكلام شديد إلى أن انتهه الوالى و قال له: إن جوابك له إما أن يكون بالحجة فى تبرئة نفسك أو تدفع الحق الذى عليك، و انفصل الموطن و تيقن الوزير تغيير الوالى معه لكنه لم يكن يظن أنه يعزل فكاتب الوالى بالإقرار بأخذه للألفى رعة و طلب عفو و أدى للكومسيون ما طلبه، و لما تيقن الوالى فظاعة النازلة و تيقن عدم الخوف من عزل الوزير بعد أن جس جميع الجهات أبرم عزله فى غرة رمضان سنة ١٢٩٠ هـ و كان مبدء تقلده منصب الوزارة فى

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ٢٥٢

سنة ١٢٥٥ هـ، و ارتجت البلاد عند سماع عزله فرحا و كاد أن لا يصدق بعضهم بذلك لشدة تمكنه من الولاة، حتى ينقلون عن بعض الصالحين أنه يقول له: إنه يخدم ثلاثة أمراء يكون مع أولهم بمنزلة الإبن، و مع الثانى بمنزلة الأخ، و مع الثالث بمنزلة الوالد، سمعنا ذلك من آخر مدة أحمد باشا.

و زينت البلاد عند عزله و لم يسمع بمثل ذلك فى هذا القطر و اتبع عمل الأفراح جميع البلدان و القبائل و حزن على عزله أفراد من خواص حاشيته و من توفرت أرباحهم على يديه و أفراد قليلون من الأجانب، و رام من له وجاهة منهم أن يتداخل فى إرجاعه لمنصبه أو فى الأقل أن يواجه الوالى كآحاد المتوظفين، فامتنع الوالى و جعل أتباعه يرودون كل وجه لإرجاعه حتى سافر أحدهم إلى أوروبا و إلى الأستانة و اجتمع برجال الدول و بذل فى التوصل أموالا فلم يجد من يتداخل فى توليته وزيراً فى حكومته مختارة فى إدارتها، و حيث تيقن الوالى كثرة الأموال التى توصل إليها الوزير المذكور من أموال الأهالى و الحكومة سيما الأموال التى أخذها إبنه الأكبر بتذاكر على المالية مكتوب بها يدفع فلان وزير المال مقدار كذا من المال لأمير الأمراء إبننا محمد فى مصالح على يده الخ، و يقبض الإبن المال و يمضى بخطه على القبض مع أنه لا وظيفه له رسمية تقتضى صرف تلك الأموال، و مع عدم بيان الجهة المصروف فيها المال فأراد محاسبته و محاسبة إبنه على أموال الحكومة فتبرأ الوزير خير الدين من مباشرة ذلك على ما جرت به العادة، من أن صاحب الوزارة يباشر مثل ذلك مع كل المتوظفين و عقد لذلك مجلسا مخصوصا يرأسه ولى عهد الولاية الأمير أبو الحسن على باى، و أعضاؤه: المفتى الحنفى الشيخ أحمد بن الخواجه، و القاضى المالكى الشيخ محمد الطاهر النيفر، و الوزير محمد و رشيد كاهية.

و وكلت الحكومة على طلب حقوقها الشيخ عمر بن الشيخ، أحد كبار المدرسين بالجامع الأعظم، و أرسل المجلس يدعو المطلوبين لسماع الدعوى كما أرسل الوزير خير الدين مكتوبا إلى الوزير السابق يعلمه فيه بعقد المجلس للتأمل فى نازلة المطالب المتوجهة عليه و على إبنه و جوابه عنها، فامتنع من الحضور و لما ألح عليه بالحضور أرسل إلى قنسل فرنسا يطلب حمايته و توجيه أحد أعوانه ليحميه عند ذهابه للمجلس، فتعجب القنسل من الطلب و أجابه بأنه لا يتداخل فى أحكام البلاد سيما و لم يجر عليه ظلم يقتضى مثل ذلك، ثم أرسل و كيلا عنه من أحد رعايا الأجانب فلما دخل إلى المجلس سأله الرئيس: هل هو داخل تحت أحكام البلاد أم لا؟ فأجابه: بلا و تفاوض المجلس فى قبوله و عدمه على تلك الصفة فظهر لهم أنه يجب أن يكون الوكيل داخلا تحت أحكام البلاد، ليؤاخذ بأعماله و أقواله فيما يتعلق بموكله و فيما يعود إليه، و لما علم الوزير خزنه دار بذلك أرسل إبنه الثانى محمد المنجى الذى هو برىء من جميع الأعمال السابقة و جعله و كيلا عن والده و أخيه، و علم ما هى مطالب الحكومة منهما و حيث علم أن الحجة قائمة عليهما ركن إلى طلب الصلح، فصالحته الحكومة.

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ٢٥٣

و قال بعض الأعيان: إن الصلح كان لا ينبغى وقوعه لأن المال مال بيت المال، فإما أن يتحقق مقداره و يؤخذ بتمامه و على فرض لدهه يجبر بالحبس و لا- مقالة لقائل إذا كان يصدر الحكم عليه من ذلك المجلس، و أما أن تثبت براءته و لا يؤخذ منه شىء، و أجاب الوزير خير الدين بأن إجباره يحصل منه القيل و القال سيما و شيعته يشيعون أن أصل المطالب غير صحيحة لقصد تداخل الأجانب فى أمره، و حيث طلب الصلح فالصلح خير، و وقع هذا الصلح بخمسة و عشرين مليوناً فرنكا و ملخص صورة الصلح هو ما يأتى بيانه:

فرنك

٠٠٠، ٠٠٠، ٢٥ أصل المبلغ الذي صولح عليه يطرح منه ما ٠٠٠، ٠٠٠، ٥ أسقطته عنه الحكومة ٠٠٠، ٠٠٠، ٢٠ بيان ما دفع فرنك ٠٠٠، ٠٠٠، ٠٠٠ ما سبقه للحكومة في منابها من ربح دار السكة.

٠١٢٣٥٩٢٢ ما هو بقيه قرضه لها برهن طبرقه ٠٠٠، ٠٠٠، ٢٠٠٠ ما دفعه عينا ١٠٩٦٤٠٧٨ قيمة ما يملك من الربع و العقار و المنقول و استثناء قصر الحلفاوين و الخشب المقطوع من طبرقه.

٠٠٠، ٠٠٠، ١٣، ٠٠٠، ١٣، ٠٠٠، ٠٧ بقى قبله سبعة ملايين مقسطة لأقساط كل قسط بنصف مليون في سنة و ضمن الولد الأكبر أباه مع خيار الحكومة في الطلب و كتب بشرح ما تقدم بصك أمضى فيه الجميع و ختمه شاهدان من عدول الحاضرة. ٠١٥٠٠، ٠٠٠ يطرح ما اسقط عنه في مقابلة إسقاطه الاتفاق في عمل دار السكة الذي أحاله إليه حميدة بن عياد.

٥٥٠٠، ٠٠٠

فكان الباقي على النحو المار ذكره: «خمسة ملايين و نصف فرنكا» و لم يدفع الأقساط التي حلت عليه منها لدعوى الإفلاس، و ذكر الأعيان أن المقادير التي دفعها لم يكن فيها شيء من العين إلا مائتي ألف فرنك و ما بقى من الأملاك كلها إلا ما ندر أخذها بهبات من الولاية كما تشهد به رسومها أو اشتراها من الحكومة بأثمان ضعيفه دفع فيها أملاكا كانت الحكومة و هبتها له، مثل قرنباليا التي اشتراها من الحكومة بنحو ثلاثمائة ألف ريال تونسية، و دفع في ثمنها أرض سبخة أمام حمام الأنف مع الحمام المذكور الذي كان أخذ جميعه هبة من الوالى الحالى، ثم بعد أربع سنين عند الصلح المشار إليه عرض أن تكون قيمة قرنبالية المذكورة أربعة ملايين و نصف فرنكا، و مما ينافى دعوى الإفلاس أيضا أن كثيرين ممن لهم علقه بالكومسيون المالى و بمجلس إدارة المداخيل علموا أن الوزير المذكور كان قبل عزله يرسل من يستخلص له فوائض أربعة و عشرين مليونا فرنكا من خصوص الدين التونسى، ثم

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ٢٥٤

بعد انبرام الصلح صدر له إذن الوالى بأن يخالط من شاء و يذهب أين شاء داخل القطر و خارجه و العود إليه متى شاء هو و أبناؤه إلا زوجه و زوج إبنة الأكبر لكونهما من عائلة الوالى، و لم تكن عادتهم تسمح بخروج أحد عائلتهم خارج القطر، و لم يستثن عليه إلا الاجتماع بالوالى و كان يظن ذلك بسعى الوزير خير الدين المتولى بعده، لكنه كشف الحال أنه من ذات الوالى لأنه دام على الامتناع من مواجهته حتى بعد انفصال الوزير خير الدين عن الوزارة، و بقى الوزير المذكور على حالة إنفراده في قصره بالحاضرة يتردد عليه قليل من أتباعه و الأجانب إلى أن توفى سنة ١٢٩٥ هـ رحمه الله.

المطلب السادس: فى وزارة الوزير خير الدين

إشارة

هذا الوزير أصله من أبناء الجراكسة القاطنين فى جبال القوقاز، و نشأ بالقسطنطينية ثم شب فى تونس بقصر الوالى أحمد باشا، و استكمل القراءة و الكتابة و التجويد و الفروض العينية، و لحدته ذهنه أقبل بها على تحصيل الفنون العسكرية و السياسية و التاريخ، و مشاركة فى الفنون الشرعية حصلها بمثافنة أهلها و مطالعة الكتب، و تعلم اللسان الفرنساوى فكان فصيحاً فى العربية عارفاً بالتركية و الفرنساوية، شديد التوقير للشريعة و العلماء محافظاً على شعائر الدين عالى الهمة و قورا حتى يخاله من لم يخالطه متكبرا، فإذا ثافنه رآه حسن القبول عفيفاً عن الرشا راسخ الطبع ثابت الفكر لا يتزلزل عن رأيه، حازما فى العمل ترقى فى الخطط العسكرية فى مدة أحمد باشا مع استنجابه إليه، و قربه الوزير مصطفى خزنه دار حتى صاهره على ابنته، ثم ولاه أحمد باشا أميراً للواء الخيالة سنة ١٢٦٦ هـ.

و لما وقعت حرب القريم أرسله أحمد باشا المذكور إلى باريس لبيع مجوهرات للحكومة يستعين بثمانها فى مصاريف العسكر

المرسل لإعانة الدولة العثمانية، و ناضل هناك على التعرض في إرسال العسكر بما تقدم شرحه و لم يبع المجوهرات إلا بعد عرضه لأثمانها على الوالي أحمد باشا، مع أنه فوض إليه و أنكر عليه التأخير بسبب الإستشارة و كتب له تفويضا تاما، كما كلفه في تلك الوجهة بعقد قرض مع إحدى ديار المال فباع المجوهرات و أرسل ثمنها و حاسب عليه و قدره نحو مليونين فرنكا، و أخذ حجة تامة من محمد باشا في الحساب و براءة ذمته و ماطل في العقد للقرض و كيفية شروطه لما يراه من المضرّة على القطر و راجع الوالي مرارا إلى أن توفي الوالي المذكور و وافقه خلفه محمد باشا على عدم القرض، و قد رأيت بخط كاتب أسرار الولاية الوزير أحمد بن أبي الضياف في هذا الغرض ما نصه:

«و شكر أي محمد باشا خير الدين في عدم الإستعجال و أنقذ بها البلاد من هاوية

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ٢٥٥

الخ». ثم عرض للوزير المذكور في أثناء سفرته المذكورة هروب ابن عياد و تكليف الوالي أحمد باشا الوزير المذكور بخصامه، فدام في خصامه سنين مبدأها من سنة ١٢٦٩ هـ و منتهها سنة ١٢٧٣ هـ. و نجح في عمله بما تقدم شرحه عند الكلام على ولاية أحمد باشا، و رأيت بخط الوزير أحمد بن أبي الضياف في ذلك ما نصه: «و لو تم مراد ابن عياد و وجد من خير الدين إذنا صاغية لمواعيده لكانت المملكة في أسره لوقتنا هذا لكثرة ما بيده من الأوامر و الرسوم إلى أن قال لو لا تدارك لطف الله على يد خير الدين الخ».

ثم في سنة ١٢٧٢ هـ قدم الوزير خير الدين من فرنسا لتهنئة الوالي محمد باشا، فأكرم مقدمه و عرف له نصحه في النوازل المذكورة، و رقه إلى رتبة الفريق و عاد لإتمام الخصومة المذكورة، فولاه محمد باشا و هو نائب وزارة البحر لموت صاحبها محمود كاهية سنة ١٢٧٣ هـ، و عند انبرام الحكم على ابن عياد رجع الوزير خير الدين إلى تونس و اعتنى بمباشرة وزارته مع اعتماد الوالي عليه في الإستشارة، فحسن حاله حلق الوادي التي هي أعظم مرسى في القطر بما استطاع، و رتب هيئة خدمه الوزارة بتقييد المكاتب الصادرة، و ضبط جميع الحركات اليومية في دفتر، و كان أول من عرف ذلك في القطر، و كانت الأمور تجري بلا ضبط و جعل إتفاقا مع الأجانب الذين استولوا على أكثر أراضي تلك البلاد بلا وجه، فجعل معهم الاتفاق على ثلاثة أوجه فمن كان بيده حجة من الوالي في الإذن بالبناء جعل له قيمة كراء الأرض خاوية سنويا على حسب الكراء المؤبد و لورثته ميراثها من بعده، و من كان بيده حجة في البناء من خصوص وزير البحر فقط فله إبقاء البناء مدة حياته لخصوص ذاته و من بعده ترجع للحكومة و إن امتنع قلع بناؤه أو تراضى مع الحكومة في شراء الأرض أو كرائها، و من لم تكن بيده حجة لزمه التوافق مع الحكومة أو قلع بناؤه، و وافقه على ذلك فتاسل الدول و حصل من ذلك نفع كثير، و تحصل من الكراء المؤبد ما هو وقف الآن على جامع حلق الوادي و قائم به أحسن قيام، ثم أحدث معملا بخاريا لما تحتاج إليه السفن من الأدوات الحديدية و الخشبية و أبدل الجسر الذي كان على الخليج بجسر حسن متين، و أوسع الطرق و نظمها و بنى مجالا لإدارة الوزارة حسنا و جعل أمامه بطحاء و حسن لباس العساكر البحرية، ثم لما أنشأ عهد الأمان كان الوزير المذكور فارس ميادين أنشأ القوانين لميله للحرية و العدل، و كان المجلى في مضمارها بتدابيره و فصاحته و عدم استحيائه من الحق، حتى أن الوالي المذكور لما أراد جلب ماء زغوان و جمع رجال حكومته و استشارهم و كان أغلبهم ذاهبا إلى عدم الموافقة، فأجابهم الوالي: بأني أعطيت كلمتي للقنسل بالموافقة على جلبه، فتنفس الوزير خير الدين و قال: أي فائدة لجمعنا حيث أعطيت كلمتك و حسبنا سماع هذا الخبر من سيادتكم، كذا رأيت بخط كاتب أسرارهم الوزير أحمد بن أبي الضياف.

و لما ولي على القطر محمد الصادق باشا أرسل الوزير خير الدين المذكور إلى الدولة العلية لطلب فرمان الولاية على العادة و استقبله استقبالا حسنا و قضى مأموريته، و لما أنجز

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ٢٥٦

الوالي المذكور القوانين كما مر ولي الوزير خير الدين عضوا في مجلسه الخاص الذي يرأسه بنفسه، كما ولاه رئاسة المجلس الأكبر أي مجلس النواب، و كان في مبدأ الأمر رئيسا ثانيا للوزير مصطفى صاحب الطابع و هذا هو الرئس الأول، غير أنه أخذ لقب الوظيفة

فقط مراعاة لمقامه و سنه و عجزه سنا و معارفا عن الوفاء بتلك الخطئة، و من إنصافه رحمه الله كان يصرح للوزير خير الدين بذلك و يقدمه، حتى أن القانون بعد إتمام تأليفه عين الوالى أعضاء المجالس حسب الإنتخاب و أمرهم بقراءة القانون و فهم معناه قبل العمل به، فلم يحضر الرئاس الأول و قام مقامه الوزير خير الدين، و قال فى شأن ذلك الوزير أحمد بن أبى الضياف ما نصه:

و أبدى فى تقريره أى القانون و بسطه و تفسيره من حسن البيان و فصاحة اللسان ما أعجب السامع و شنف المسامع: ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ* [المائدة: ٥٤ و الحديد:

٢١ و الجمعة: ٤] ٥١». و اعترف له بالفضل كل من حضر من العلماء و غيرهم، ثم توفى الرئيس الأول و صار الوزير خير الدين هو الرئيس بالإسم و الرسم و العمل، و قد كان على غره ظانا أن القانون مراد لذاته حقيقة فشم عن ساعد الجد و طفق يبرهن على المصالح و يفتح البصائر إلى مغزاها، و تنقاد الأعضاء لسد أبواب المفسد إلى أن نشبت مخالب التضاد بينه و بين الوزير السابق كما تقدم شرحه، و اضطربت أعضاء المجلس و رأى أن المآل إلى جعل المجلس صوريا لإنفاذ الأغراض على عاتقه، فاستعفى من الرياسة و بقى عضوا فى كل من المجلسين، و قال فى ذلك الوزير أحمد بن أبى الضياف: «و انتفع المجلس بإعانتة أى انتفاع مترديا بحية نبلة و عفاة و إنصافه الخ».

ثم أرسله الوالى سفيرا عنه إلى دولة السويد و البروسيا و البلجيك و الدانمرك و هالاندا مكافأة بإرسال نياشين إلى ملوكهم عما أرسلوا به إليه من النياشين إكراما له على إنشائه القوانين، و كذلك فعلت غالب دول أوروبا، و فى أثناء عضويته عرض على المجلس الخاص أن فواضل الأوقاف تصرف للقيام بالعسكر بموافقة أحد العلماء المالكية معتمدا الفتوى بما جرى عليه العمل من غير المشهور من مذهب إمام دار الهجرة مالك بن أنس رضى الله عنه، من أن فواضل الأوقاف تصرف فى طرق البر و رأوا أن القيام بالعساكر من طرقها فخالفهم الوزير خير الدين محتجا بأن القيام بالعساكر له نصيب معلوم شرعا من بيت المال، فإن كان النصيب المعين شرعا صرف جميعه على العسكر و لم يف بذلك فحينئذ ينطبق النص و نوافق على ما ذكرتم، و أما إذا كان دخل بيت المال يصرف فى غير وجهه الشرعى كما يعلمه الجميع فلا أرى انطباق النص على ما ذكرتم، و لعمرى أنه لهو صميم الحق فثمره العلم تحقيق المناط و إن ذهبوا إلى العمل بما رأوا و كان ذلك من أسباب إيغار صدور الخاصة و العامة كما تقدم، و لما راموا أن يضاعفوا الأداء المسمى بالإثنين و سبعين الذى كان سببا فى الطامة الكبرى كما مر قال الوزير المذكور للوالى حسبما رأيت به بخط الوزير ابن أبى الضياف:

«الحاضر فى المجلس يا سيدى إن أخفيت ما ظهر لى من نصح

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ٢٥٧

سيدى و بلادى أكون خائنا لأمانة الإستشارة، نرى أن هذه الزيادة فى مال الإعانة تؤدى إلى زوالها بالمره أو تلجىء إلى مال أكثر منها لتجهيز الجيوش لغضب الناس، و لا نجد فى السنة التى بعدها ما يقارب الإعانة الأولى هذا باعتبار القدرة على الغضب، و لعمرى أنها مقالة دين و نصح تجد ثوابها يوم تجد كل نفس ما عملت» الخ كلامه.

و صرح بمثل ذلك فى المجلس الأكبر أيضا و لما سأله بعض أعضائه سرا عما أوجب تسليمه قال: إنى رأيت السقف يريد أن ينقض و لم أستطع استدراكه و لا وجدت أذنا صاغية فخرجت من تحته و على بخويصة نفسى، ثم لما أبطل القانون بقى الوزير خير الدين فى بستانه مقبلا على شؤون نفسه لا يختلط بالحكومة إلا نحو يومين فى الشهر يتوجه إلى الوالى للسلام عليه أو عندما يدعوه لأمر ما، كما وقع عند قتل الشهيد إسماعيل السنى و رشيد لان الوالى جمع بعد ذلك جميع رجال حكومته و أعلمهم بالقتل، و رأيت فى صفة المواطن بخط الوزير ابن أبى الضياف الذى كان حاضرا فيه ما نصه:

و قال له الوزير المنصف أبو محمد خير الدين: «نرجو الله أن يكون هذا حد البأس و أن لا تقع ندامه على هذا الاستعجال بعد وصولهما إلى محبسهما لأن طبع الزمان ينافى هذا الإستعجال فاغتاظ الوالى و كاد أن يستهويه الغضب لو لا لطف الله بخير الدين الخ».

وله في أمثال ذلك من النصح والإقدام كثير، وفي أثناء استعفائه كان التراور بينه وبين الوزير مصطفى خزنة دار مستمرا لقرابة المصاهرة ولا يتداخل معه في رأى من تصرفاته، كما أن الأعيان من الموظفين والأهالي يزورونه ولا يخوض معهم فى شىء من أحوال سياسة البلاد متجنباً القيل والقال مستكفياً فى التأنس وإراحة البال بخواص من أصحابه مقبلاً على مطالعة الكتب والتأليف، فألف كتابه «أقوم المسالك فى معرفة أحوال الممالك» وهو أول كتاب مبتدع فى السياسة التى يقتضيهما الحال والشرع، وكفى بتقاريف العلماء فيه مع أن الرجل إذ ذاك بعيد عن شائبة التملق إليه، ثم لما شددت الأجانب فى طلب أموالهم وأنشئ الكومسيون المالى باتفاق الدول دعاه الوالى إلى رياسة ذلك الكومسيون فامتنع و لما ألح عليه الوزير السابق، قال له ما معناه: إن الحال قد بين التباين بين مهيعى ومهيعك فى طريق السياسة وأنت رجل مثل والدى لك التقدم على فإن وافقتك خنت دينى وأمانتى وإن خالفتك صرت إلى العداوة معك فالأولى بقائى على ما أنا عليه.

فأجابه بترك جميع ما مضى وأن الحال قد بلغ النهاية وأنه لا يريد فى المستقبل إلا الإصلاح وموافقة الرأى، فأعاد الوزير خير الدين مقاله وأن طبع الوزير مصطفى خزنة دار لا يوافق السيرة التى يراها هو، فأكد له مزيد الموافقة فى عدة مواطن وقبل إذ ذاك الوزير خير الدين رياسة الكومسيون، ومن هذا الوقت وهو سنة ١٢٨٦ هـ تنسب التصرفات إليه وإن

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار والأقطار، ج ١، ص: ٢٥٨

رجع الوزير السابق عن وعده، وتحمل الوزير خير الدين بسبب ذلك مشاقاً صعباً لكنه لم ينتج للوزير مصطفى خزنة دار مراده إلى أن انفصل عن الوزارة بالمرّة كما تقدم شرحه.

فأول ما ابتدأ به الوزير خير الدين من الأعمال أنه رأى تداخل الكومسيون المالى فى مالىة الحكومة يتسع نطاقه إلى التداخل فى السياسة، كما يقتضيه صريح فصول تركب ذلك الكومسيون، ودليله أنه بعيد انتصابه وجه تقريراً للوالى فى أمور تقتضيهما وظيفته من مباشرة العمال فى استخلاص الأموال وغير ذلك، وتوقف عن إمضائها الوزير السابق لأنها تؤل إلى خروج التصرف عنه بل وعن الحكومة أيضاً، فاشتكى أعضاء الكومسيون الأجانب إلى قناصلهم بأن أعمال الكومسيون توقفت، لأن أساسها توقفت الحكومة فى إمضائها، فكتبت القناصل للوالى بالتسجيل والحث على إجراء ما التزم به للدول الثلاثة وهى فرنسا وإيطاليا وانكلترا، فجمع الوالى جميع رجال الحكومة وعرض عليهم الأمر، وكان من الحاضرين الوزير أحمد بن أبى الضياف و كتب حسبما رأته بخطه فيما وقع فى المجلس ما نصه:

«و تكلم الوزير خير الدين بالمجلس بما يكتب على صفحات الأيام، إلى أن قال: إنكم دفعتمونى إلى هذه الخدمة وأنا عبد لخدمة سيدنا و بلادنا، على كل حال، و نطلب الإعانة من جمعكم فإن أعنتمونى فلکم الفضل و إن أسلمتمونى لا أجنح للهروب، وإنما أقول أخدم برهه من الزمان و تأخر ليقدم غيرى من أمثالى يخدم مثل مدتى و هلم جراً، فضمن الجميع له الإعانة كل على حسبه و انفصل الموطن. الخ». و أمضى الوالى مطلب الكومسيون و خاطب القناصل بذلك، و كان ذلك مما يجبر إلى إبقاء الحكومة صورية لأن استخلاص الأموال يستدعى تحسين الإدارة و هو يستدعى العدل فيتداخل الكومسيون فى جميع ذلك و تهرع إليه الأهالى و لا يبقى للحكومة إلا- الزر، فلذلك أشار الوزير خير الدين على الوالى بوجه تمضى معه حقوق الكومسيون و تحفظ به حقوق الحكومة و ناموسها، و هو توظيف رئيس الكومسيون بوظيفة وزير للوالى فى رتبة الوزير الأكبر بحيث يشاركه عند حضوره و ينفرد عند غيابه و تنقل خدمة الكومسيون إلى محل الوزارة، و يكون مصدر جميع الأعمال واحداً فاستحسن الجميع ذلك الرأى. و وظف الوالى الوزير خير الدين وظيفه سماها بالوزير المباشر، فرتب أشغال الوزارة على الصورة الآتية و هى الوزارة الكبرى و تنحصر فيها جميع شعب الإدارة إلا الوزارتين الآتيتين، بمعنى أن الوزير الأكبر ثم الوزير المباشر هما اللذان يباشران جميع المصالح إما بواسطة أو بدونها، ثم قسم إدارة هاته الوزارة إلى أربعة أقسام:

فالقسم الأول: تحت رياسة مستشار و يرجع إليه جميع الأمور السياسية العامة و أحوال المالىة الخاصة بدخل الحكومة و خرجها دون ما

يتعلق بالكومسيون المالى.

و القسم الثانى: تحت رياسة مستشار و يرجع إليه ما يتعلق بشكايات الرعية من المتوظفين و العكس.

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ٢٥٩

و القسم الثالث: تحت رياسة مستشار و يرجع إليه ما يتعلق بالحقوق الشخصية ثم اتحد هذا القسم بالقسم الثانى.

و القسم الرابع: تحت رياسة مستشار و يرجع إليه ما يتعلق بالخارجية.

كما جعل كلا من وزارتى الحرب و البحر مستقلا بنفسه كل منهما لها وزير خاص، غير أنه تحت نظارة الوزارة الكبرى فهذا ما يتعلق بكيفية الإدارة.

و أما ما يتعلق بما حصل من الإدارة فإن ديون الحكومة حصرت فكانت مائة مليون و خمسة و سبعين مليوناً فرنكاً كما تقدم تقريره آنفاً، و كان الفائض الذى يدفع سنويا نحو العشرين مليوناً فرنكاً، فأسقط من الأصل نحو مليون فرنكاً ثم طرحت العشرون مليوناً التى هى الفائدة التى لم تدفع و جعلت دينا بلا فائض يستهلك من الدخل المضروب جديداً على البضائع الداخلة للقطر، و بقى المقدار الذى يؤدى الفائض نحو مائة مليوناً و خمسة و عشرين مليوناً فقط، فجعل له فائضاً خمسة فى المائة و صار مقدار الفائض السنوى نحو ستة ملايين فرنكاً و خمسمائة ألف فرنك، الذى هو نحو الثلث مما كان جارياً و خصص له أنواع مخصوصة من مداخيل الحكومة لأن نواب أصحاب الديون و هم قسم النظر من الكومسيون المالى، لم يرضوا بأن الحكومة تتعهد لهم بدفع الفائض بل أرادوا أن تكون إدارة المال الراجع إليهم تحت أيديهم، فجعل لذلك مجلساً يسمى مجلس الإدارة أعضاؤه أجناب منتخبون من قسم النظر من الكومسيون و عددهم خمسة، و عضو تونسى ينتخبه قسم العمل و فوض إليهم قبض المداخيل الراجعة إلى الفائض تحت احتساب قسم العمل ثم قسمت مداخيل الحكومة إلى قسمين:

القسم الأول: يتولى قبضه ذلك المجلس و الأنواع التى سلمت إلى ذلك هى ما يأتى بيانه مع بيان تقريب دخله حسب الميزانية المسلمة من الوزارة السابقة.

فرنكات

٠٣٥٠،٠٠٠ لزمه فندق الغلة أى الاداء على الخضراوات و الفواكه المباعة فى الحاضرة

٠٤١٢،٠٠٠ محصولات سوسه و المستير أى الأداء المرتب على نحو ما ذكر و على بيع الحيوانات و غيره.

٠٠٩٧،٠٠٠ الرحب أى الأداء على بيع حبوب القمح و الشعير و شبهه.

٠٥٠٠،٠٠٠ القمرق أى الأداء على السلع الداخلة و الخارجة للحاضرة من الممالك.

٠١٠٠،٠٠٠ خروبة الأكرية بالحاضرة أى أنه يؤدى على كل ريال المنقسم إلى ستة عشر خروبه و خروبه واحدة أى جزء من ستة عشر

على كل مكان يكرى.

٠٠٤٥،٠٠٠ قمرق صفاقس.

٠٠٠٨،٠٠٠ قمرق وادى قابس.

٠٠٢٥،٠٠٠ قمرق سوسه و المستير و المهدية.

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ٢٦٠

٠٢٢٠،٠٠٠ قمرق الدخان أى انحصار بيع الورق المدخن به و المستنشق فى الحكومة.

٠٠٥٥،٠٠٠ قمرق الخل أى ما يؤدى على المسكرات.

١٨١٢،٠٠٠ نقلت

٠٠٤٥،٠٠٠ فندق البياض أى ما يؤدى على بيع الفحم.

٠٠٠، ٠٠٦٠ الجبس أى إنحصار بيع الجص فى الحكومة.

٠٠٠، ٠٠١٠ صيد الحوت أى الأداء على صيد السمك و انحصار أماكن البحر فى صيد الحكومة.

٠٠٠، ٠١١٠ الملح أى انحصار بيعه أيضا فيها.

٠٠٠، ٠٠٥٥ الأداء على النشاف و القرنيط أى الإسفنج و نوع السمك المسمى بالقرنيط.

٠٠٠، ٠٨٥٠٦٠٠ قانون الزيتون فى سوسة و المستير و المهديء و صفاقس أى الخراج على شجرة الزيتون عوضا عن الشعر.

٠٠٠، ٣٠٣٢

٠٠٠، ٠١٥٠ قانون زيتون الوطن القبلى.

٠٠٠، ٠١٠٠ محصولات صفاقس مثل ما بينا سابقا.

٠٠٠، ٠٠٩٠ محصولات جربه و قمرقها.

٠٠٠، ٠٠٨٠ محصولات بن زرت.

٠٠٠، ٠٠٢٠ محصولات حلق الوادى.

٠٠٠، ٠٠٠٨ لزمه صيد المرجان أى المقدار الذى يؤدى على ذلك من الفرنسييس.

٠٠٠، ٠٠٨٥ محصولات الوطن القبلى.

٠٠٠، ٠٣٠٠ التنبراي الأوراق المختوم عليها من الحكومة ليكتب فيها الإحتجاجات بحيث لا تقبل حجة فى غير ورقة مختومة.

٠٠٠، ٢٦٤٠ السراحات أى الأداء على ما يخرج من القطر من الجبوب و الزيت و التمر و الصوف و الصابون.

٠٠٠، ٢٥٠٥

وقد أقيم الحساب على مقتضى هاته الميزانية فلم توف فى أغلب السنين للغلط الذى وقع فى تقدير فصل السراحات و هو الأخير، لأن ذلك غير صحيح كما أبانه الواقع، و سبب ذلك عدم إمكان ضبطه فى الوزارة السابقة ففرضت تقريبا بالقياس على سنة كانت خصبة مع الطلب فى الثمن إلى أوروبا، و لذلك لزم الحكومة أن تكمل من دخلها الخاص ما ينقص من ذلك الدخل عن الوفاء بالفائض حسبما هو مشروط فى اللائحة التى جعلها الكومسيون المالى أساسا لأعماله، فإن منها أن فائض الدين الذى هو ستة ملايين و نصف فرنكا كما تقدم إن وقت بها المداخيل المعطاة لمجلس الإدارة فيها و نعمت، و إلا فالحكومة ملزومة بأن تكمل من باقى مداخيلها ما يوفى بذلك المقدار، غير أنها فى السنة

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ٢٦١

الأولى لا- تكون ملزومة إلا- بما يكمل خمسة ملايين و ما نقص يذهب مجانا على أرباب الديون، و فى السنة الثانية تكون ملزومة بإكمال خمسة ملايين و نصف، و فى السنة الثالثة تكون ملزومة بإكمال ستة ملايين، و فى السنة الرابعة تكون ملزومة بإكمال الستة ملايين و نصف، و هكذا فيما بعد للأسباب التى تقدم شرحها فى ضعف القطر، و من الشروط أيضا أن الحكومة لها أن تستقرض من خزانه مجلس الإدارة مليونتا متى أرادت لسبب قوى، على أن ترجعه قبل مضى ستة أشهر و لا تؤدى عليه فائدة، و منها أيضا إذا زاد دخل القسم المذكور من المداخيل على القدر اللازم فإنه يبقى منه نصف مليون للإحتياط، و ما زاد على ذلك يشتري به رقاع من الدين و تستهلك، و هكذا فى كل عام إلا إذا زاد الدخل على ثمانية ملايين فرنكا فإن ما زاد يقسم أيضا فالنصف يلحق بما تقدم فى إستهلاك رأس مال الدين، و النصف الآخر تصرفه الحكومة على نظر قسم العمل من الكومسيون فى المصالح العامة كالطرق و غيرها.

و أما القسم الثانى: من مداخيل الحكومة و هو ما بقى من أنواع المداخيل كأعشار الجبوب، و الزيت، و خراج النخيل، و مدبغة الجلد، و الأداء على الرقاب المسمى بالمجبا أو الإعانة الذى هو نحو خمسة ملايين و نصف فرنكا، فإنه يتولى قبضه قسم العمل من

الكومسيون و هو الذى يتولى دفعه إلى الحكومة على مطابقته للميزان الذى يجعل فى رأس السنة لمصاريف الحكومة فى مصالحتها و مرتبات العائلة الأميرية و لسائر المتوظفين، و تكون بطاقات الإذن لحافظ الخزنة بالدفع صادرة من الوالى غير أنه لا يختتمها بإمضائه ما لم يجد عليها إمضاء أعضاء قسم العمل من الكومسيون إعلاما بأن البطاقة موافقة لأصول الميزان المالى، و لا يكتب من تلك البطاقات فى وقت من الأوقات إلا بمقدار ما فى الخزنة من المال بحيث لا تقع المماطلة لصاحب البطاقة من القابض الذى هو حافظ الخزنة، حتى ربما يضطر صاحبها إلى إسقاط شىء مما بها لتدفع إليه أو أنه يبيعها لغيره، مما يوجب إحداث دين جديد على الحكومة، هذا هو الرسم الذى جرى عليه العمل فى الظاهر و ربما وقع ما يخالفه على وجه تصعب مراقبته، فهذا ما يتعلق بأحوال الديون و ما جرى عليه العمل فيها و قد رفعت فوائضها فى السنين الأولى على نحو ما تقدم من مداخيلها المعينة لها، ثم فى بعض السنين أكملتتها الحكومة من مداخيلها و فى بعضها زاد الدخل المعين لها حتى اشترى منه شىء من أصل الدين و فى بعضها رهننت الحكومة دار الجلد أى مدبغته لإكمال الفائض، بحيث أن جميع مدة تصرف الوزير خير الدين لم يبق على الحكومة شىء من فائض الدين، و انتسق دفعه فى أوقاته ثم جعل هذا الوزير معاهدة متجربة مع سائر الدول الأجنبية على أن يزداد فى أداء القمرق على السلع الداخلة من ممالكهم إلى القطر و المقدار المزاد خمسة فى المائة، و عين هذا المقدار إلى استهلاك الدين الذى يبقى بلا فائض، و أصله فائض الديون السابقة الذى لم يدفع و قدره نحو عشرين مليوناً على نحو ما تقدم، ثم بعد خلاص ذلك الدين يرجع ذلك المقدار مع بقية دخل القمرق إلى فائض الدين

صفحة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ٢٦٢

المتحد و استهلاكه، و صار أداء القمرق على السلع بين المزيد و المزيد عليه ثمانية فى المائة.

و أما ما يتعلق بتحسين الإدارة المالية و الحكيمية فى القطر فأحدث أموراً عديدة نافعة فمنها: أنه أبطل أنواع المجابى التى اختلفت كقيمتها و كميتها فى السنين المتقدم ذكرها و جعل على كل ذكر بالغ قادر على التكسب أربعين ريالاً تونسياً فى السنة مدرجة على أربع سنين.

فى الأولى: يدفع المطلوب خمسة و عشرين ريالاً.

و فى الثانية: يدفع ثلاثين ريالاً.

و فى الثالثة: خمسة و ثلاثين ريالاً.

و فى الرابعة: أربعين ريالاً.

و يجرى بها العمل من غير زيادة و شدد فى الأخذ على أيدى العمال بحيث لا تمتد يد أحد منهم إلى شىء زائد عما ذكر، و جعل لهم أجرهم ستة فى المائة يأخذونها من ذات الأموال المستخلصة على أيديهم الراجعة للحكومة، منها أربعة للعامل و ريالان للشيخ ثم أبطل هذا الأجر و عوض بواحد على كل عشرة تستخلص من الدافع زيادة على العشرة، بحيث صار على كل نفر أربعة و أربعون ريالاً فى السنة و ذلك الواحد الزائد يجمع عند العامل فيأخذ هو النصف و النصف الآخر يقسم بين مشايخ العمل و نواب العامل المسمين بالخلفاوات.

و منها: جعل قانون معلوم لرسول الحكم فى استخلاص الأموال سواء كانت راجعة للحكومة أو للأهالى أو للأجانب، بحيث يأخذ المرسل نصف ريال على كل عشرة يستخلصها من الملة هذا إذا كان رسولا من الحكومة أى من أعوان الوالى أما إذا كان من أعوان العامل و غيره من الحكام غير أهل الشرع فإنه يأخذ ربع ريال على كل عشرة، و قد كانت قبل ذلك على حسب المشيئة.

و منها: ترتيب استخلاص أعشار الحبوب التى اضطرب حالها أيضاً فحضر عشر كل ماشية أى ما يحرثه الرجل الواحد فى السنة الواحدة على الحيوانات المناسبة بحسب كل جهة و بذرها، مما يطلق عليه اسم الماشية هنالك فى خمسة و بيات قمحا و مثلها شعيراً، الذى هو أقل ما يمكن أن يكون عشر الخارج من النبات فى أغلب السنين و ما زاد على ذلك من العشر الحقيقى فهو فى عهدة ديانة

صاحب الزرع يدفعه لمن أراد، و إذا أثبت صاحب الزرع ما احتاج زرعه فإنه يسقط عنه بمقدار ما ضاع له و يؤدي أجره الكيل و التقييد و التقدير أربعة ريالات على كل ماشية، هذا كله في الجهات التي تدفع العشر من ذات الحبوب النابتة، و أما الجهات التي تدفع عوض ذلك دراهم لبعدها عن محل الدفع فإن الدافع يدفع خمسين ريالاً على كل ماشية في كل سنة و ريالين أجره المستخلص، صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ٢٦٣

و هذا المقدار مراعى فيه حاله صاحب الفلاحة لأن ثمن الخمسة وبيات من القمح وحده تبلغ الخمسين ريالاً، بحسب ثمن كل وبيته عشرة ريالات الذي هو السوم في أغلب السنين، و روعى فيه أيضاً جهه الحكومة لما يلزمها من كثرة مصاريف الحمل لعدم الطرق الصناعية، ثم إن ذلك المقدار قسط أيضاً تدريجاً على أربعة سنين يتبدى بثلاثة وبيات و نصف من كل نوع على حدته و يزيد في كل سنة نصف وبيته إلى أن يوصل في العام الرابع إلى خمسة وبيات من كل نوع و مثله ما يقابله من المال، و قد نتج من ذلك عمران الأيالة بدليل أنه عند ولاية المذكور وزيراً مباشراً لم يكن في الأيالة عشرة آلاف ماشية أرضاً مزروعة و عند خروجه من خطة الوزارة ترك في المملكة أكثر من مائة ألف ماشية مزروعة.

و منها: التخفيف على خراج الزيتون المسمى بالقانون في الوطن القبلي الذي كان أجحف بأهله في المدة الماضية، حتى سلمت أصحاب الأملاك فيما يملكون و لم يقبل منهم و أغروا البوادي بإحراقه للإستراحة من مطالبه، فنزل من رتبة الريال و النصف ريال على كل شجرة إلى الثمانية نواصر على كل شجرة، و الناصري هو جزء من تجزئة الريال إلى اثنين و خمسين ناصري، ثم أسقط عن أصحاب الزيتون إحدى و ثلاثين ألف شجرة زيتونا احترقت، و أسقط عنها أداءها، و به يعلم مقدار ما كانوا يتحملون و مقدار نقصان العمران فيما سبق، و نشر ذلك في العدد الثاني من رائد سنة ١٢٨٦ هـ الذي هو الصحيفة الرسمية للحكومة، ثم أسقط هذا الأداء بالمرّة و رجع الأمر إلى الوجه الشرعي و هو العشر على ما يحصل من الزيت، و فرح بذلك أصحاب الأملاك و أقاربهم فرحاً شديداً لارتياحهم من إعياء ذلك الثقل العظيم.

و منها: تخفيف قانون النخيل ببلد نفاوه من عمل الجريد، حيث كان ملحقا بسائر عمل الجريد مع أنه غير مساو لما فيه من شجرة النخيل خصبا و حسنا، فلذلك جعل على كل شجرة من نوع الدقلة ريالاً و نصفاً و على بقية أنواع النخيل ستة حراب على كل شجرة، و الخروبة جزء من ستة عشر جزءاً من الريال كما تقدم.

و منها: ترتيب مجلس محاسبة العمال و الموظفين عما تعاطوه بحسب وظيفتهم و لم يوصلوه إلى الحكومة، و بقيت قبائلهم و بلدانهم مطلوبين للحكومة بقايا ما عليهم، فتنحرر من ذلك مبالغ جسيمة قبضت الحكومة بعضها و بعضها لم يقبض، إما لإعدام من قبضه أو للعفو عنه. و أسقط ذلك من المطالب الباقية على أصحابها من أهل الجريد و دريد، و جندوبه و الساحل، و أولاد عيار و أولاد مجور، و من ذلك محاسبة أحمد زروق و أتباعه، و إبراهيم بن عباس و إخوانه، و على الساسي و عبد الرحمن بن عمرو الحاج الحسني، و ملخص الحسابات ما يأتي بيانه:

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ٢٦٤

ريالات

٠،٠٠٠،٠٠٠ من الساحل حسبما أفاد أحاد أعضاء مجلس المحاسبة.

١١٥٨٠٨٥٢ من بقية الأعمال المذكورة حسبما نشرت المحاسبات.

٩١٥٨٠٨٥٢

٥٨٨/ منها أيضاً غنم / ١٢/ منها أحمره

٠٠٦٤/ منها بقر / ١٣، ٠٧/ منها أفضرة قمحا

٠٠٢٠/ منها خيل / ١٢، ١١/ منها أفضرة شعيرا

١٠٠٢ / منها أرتال فضة / ١٠٤ / منها بغال

٣٤٠ / منها إبل / ٢٦ / منها طرحات تبن

و منها: تنقيح المتوظفين بما لا يوغر الصدور إلا من تفاقمت سقطاته فحرض، و أما غيرهم فلم يؤثر من كان من حزبه على غيره و لو على أصداده فلم ينفذ فيهم الإحسان و نقص بذلك اعتبار حزبه حتى رآه الوالى مفقود الأعوان و اتخذها ذريعة لعزله من الوزارة، و صدقت وصايات الحكماء الأقدمين الحاثين على جلب الأصدقاء و الأعوان و عدم الركون إلى الأعداء لأن تقريبتهم لا ينفع و الأصدقاء يضمحلون بذلك، و أما دعوى التحزب بالجمهور فذاك أمر لا يتم إلا للملوك الذين رسخت قدمهم فى الملك بالتوارث و صار إنقياد الأنفس إليهم طبيعياً، أما الوزراء، فهم أشد الأصناف احتياجاً إلى معونة الأصدقاء.

و منها: الترغيب فى غرس الزيتون و النخيل بأن جعل لكل من غرس منها شيئاً أن لا يؤدى عليه شيئاً من الأديات المرتبة على ذلك النوع مدة خمسة عشر سنة.

و منها: رفع الضرر عن أهل الساحل من وطأة أصحاب ديونهم فإنهم كانوا يسجنون المديون مع قيام الرهن بيد الدائن، و يبيعون غلة الأحباس المشتركة مع المديونين و غيرهم، و يستولون على الجميع و يطلبون الضامن قبل فلس المديون مع عدم اشتراط ذلك، و يستولون على مخلفات من مات من المديونين و يبيعونها على غير يد الحكام، و إذا أفلس المديون لا يتركون له ما يستر بدنه و لا ما يقتات به و يتركون المديون فى السجن بلا تحديد مدة فأبطل جميع ذلك و أجرى فيه أحكام البلاد الشرعية و العرفية.

و منها: إرجاع من هاجر من القطر من الأهالى بالأمن لهم و العفو عن من سبقت منه جناية و إسقاط ما عليهم من المطالب إلى الحكومة و كذلك العساكر الذين فروا من القطر شملهم بمثل ذلك.

و منها: إرجاع من نكب من أتباع الحكومة و تأمينهم و تقليدهم بمثل ما كانوا عليه من الوظائف إذ لم يكن من سبب معقول لإبعادهم أو نفيهم أو نكبتهم، فرجع للقطر و للوظيفة السيد الشريف أمير اللواء حسن مقرون و أخوه، و الوزير رستم و الوزير حسين و أمير الأمراء محمد المرابط، و أمير اللوا يونس الجزيرى، و أمير اللوا مراد و أمير الآلاى حسين ورديان

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ٢٦٥

باشا و أمير الآلاى حسن مدلجى، و القائم مقام على جهان و غيرهم.

و منها: حصر الديون التى على أهل الساحل من الأجانب و بناؤها على أساس لائق بالجانبين بحيث انقطع تفاقم الربا و تضاعفت زيوت السلم و جعل لخلاصهم مدة معينة على أقساط.

و منها: أن أمير لواء العسة إذ ذاك على بن فريجة نقم عليه الوالى و أرادوا أن يأخذوا منه أهم مصوغه و كسبه بأوجه من الدعاوى بلا بينه و لا ترافع، كما وقع مع الشهيد ابن إسماعيل السنى و رشيد فامتنع الوزير خير الدين و أقام له مجلساً لمحاسبته و مكنه من مصوغه و ما ثبت عليه بعد الحساب دفعه باختياره.

و منها: بذل وسعه فى استحصال فرمان سنة ١٢٨٨ ه السابق ذكره على ما مر شرحه، و من فرح الوالى به و إكرامه على ما نتج على يده أن وجه له و هو مقيم بمالطه لمدة الحمية مصطفى بن إسماعيل، أقرب المقربين إليه و مستشار الخارجية محمد البكوش لإكرام خاطره و إبلاغ الشكر إليه، و أراد أن يلبسه نشان البيت الحسينى فتعرض له الوزير مصطفى خزنة دار و أبدل له نشان الصنف الأكبر بنیشان منه مرصع، ثم كافأه على ذلك بمرتب عمرى قدره خمسة و سبعون ألف ريال تونسية فى السنة، ثم عاوض له هذا المرتب بهنشير أى أرض وسيعه تعرف بالنفيضة.

و منها: إسقاط جميع البقايا الباقية على الأهالى من مداخيل الحكومة على اختلاف أنواعها مما سبق تاريخه سنة ١٢٨٦ ه الذى هو مبدأ مباشرته للوظيفة، و انبعثت بذلك آمال الأهالى إلى تعميم الأرض حيث كانوا يرون أن ثمرة أعمالهم يستأثر بها غيرهم للوفاء بتلك البقايا الباهظة التى دفعوا أضعافها.

و منها: تركيب المجلس للحكم في نازلة الوزير مصطفى خزنة دار عند عزله كما تقدم شرحه، و تجنبه للعادة في مثل ذلك من كون الوزارة هي التي تباشر مثل تلك النوازل لينفى الشكوك و التهم، و منذ ذلك التاريخ انفرد الوزير خير الدين بالوزارة حسا و معنى، و لقبه الوالى بالوزير الأكبر و أبطل لقب الوزير المباشر و قلده بنيشان بيته الحسينى مع بقاءه على رياسة الكومسيون المالى، و ذلك فى غرة رمضان سنة ١٢٩٠ هـ فزيت البلاد و عقد الأهالى محافل ليلية مع التنوير، و هكذا سائر بلدان المملكة و قبائل عربانها بما أذكرهم احتفالهم بفرمانه سنة ١٢٨٨ هـ حسبما سبقت الإشارة إليه، لتيقنهم بالإستراحة من تصرفات السابق و أملهم بإزدياد إصلاحات المتولى لما عرفوا من أياديه مما مر ذكره، و فى هاته الأثناء تم إسقاط خراج الزيتون المسمى بالقانون فى الوطن القبلى الذى مر ذكره، و جعل عوضه لخزنة الدين تعميم الخروبة على جميع الأملاك سواء اكتريت أو سكن فيها المالك بأن يقوم كراءها و يدفع بحسبه خروبه على الريال أى جزءا من ستة عشر جزءا و عم ذلك البلدان و القرى و البساتين لأن نواب أصحاب الدين لم يرتضوا بإسقاط القانون إلا بعوض عنه فى

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ٢٦٦

الدخل، و من تصرفاته بعد ذلك إنشاء جمعية الأوقاف بأن جعل نظر الأوقاف مطلقا فى جميع أنحاء القطر لجماعة من أعيان الأهالى مركبة من رئيس و نائبه و عضوين، و كان الحقيق متوليا إدارة هاته الوظيفة التى أصحابها ينظرون فى مصالح الأوقاف سواء كانت أهلية أو على أعمال البر، لكن الأهلية نظرهم فيها يارشاد أهلها لإقامتها و حراستها من الإتلاف و التى على أعمال البر يتولون إدارتها و حفظها إذ كانت تلاعبت بها أيدى الإهمال، و كانت كأنها مناط التفضلات فما من وقف له شىء من الدخل قليل أو كثير إلا و يعطى لأحد ذوى التقرب أو الإستناد لمن بيده التصرف، فتعطلت منافع الأوقاف و أهمل الموقوف عليه إلى أن خرب أكثره، و قد عينت نقاء لتحرير ما يكفى لإصلاح الموقوف عليه وحده، فكان تقدير ما يكفى ٣١٦٦٧٧٥ ريالاً مع تعطيل مرتبات الشعائر و تراكم ديون القوانين الراجعة للحكومة من الموظفات على الأوقاف، حتى صار عليها من الدين ما يقرب من نصف مليون فتدارك أمرها بذلك الترتيب و أقيمت الجوامع و المساجد و المدارس فى كل جهات القطر، و هكذا الأوقاف على قراءة القرآن و غيره من أنواع البر، و كان دخل الأوقاف عدا أوقاف الحرمين الشريفين و عدا أوقاف جامع الزيتونة، لأن ذلك مستثنى من العموم لكل إدارة مخصوصة و هكذا أوقاف المدرسة الصادقية الآتى بيانها، فما عدا ما ذكر و عدا الأوقاف الأهلية و الزوايا التى لها ذرية كان دخله فى السنة الأولى من مباشرتى و هى سنة ١٢٩١ هـ ٠٠٠، ١٢٠٤، و صار دخلها فى السنة الخامسة و هى آخر السنين التى باشرت الإدارة فيها بتمامها و هى سنة ١٢٩٥ هـ ما قدره ٢١٥٤٠٧٣، و أصلحت فى مدة الخمسة سنين ٣٣٣٠ مكانا و كان المصروف فى سنة ١٢٩٥ هـ على خصوص إقامة الشعائر ٥٦٧٠٨٢، و ما دفع للحكومة فى قوانينها على ما يخص الأوقاف ١٩١٩٣٤، و كان المصروف فى الإصلاحات ١٦٨٠٧٢، فمجموع ذلك ٩٣٠١٢٣، ثم كان المصروف من الداخل المذكور على عموم المصالح غير الموقوف عليه ٥٥٦٤٠٩ الجميع ريالاً تونسياً كما نشر جميع ذلك بالرائد التونسى الذى هو الصحيفة الرسمية للحكومة.

و من تصرفاته التى قمت بإجرائها إجراء مرتب لأهل المجلس الشرعى بالحاضرة و قد كان هذا المرتب عين لهم فى مبادئ ولاية محمد الصادق باشا على أن يكون من فواضل الأوقاف، و جمعت إذ ذاك الأوقاف لنظر محتسب فلم تقم بنفسها و لا وفت بتلك المرتبات إلا فى بعض أشهر، و استخلصت إذ ذاك معاوضات كثيرة و صرفت فى ذلك المصروف و ضاعت الموقوفات و مع ذلك لم يحصل المقصود، حتى أنيطت وكالة بعض الأوقاف بأهل المجلس الشرعى مفرقة عليهم لكى يستنفعوا منها بما يقابل المرتب، فجرى فيها مثل ما كان و لم يحصل لهم المقصود حتى ذكر بعضهم أنه كان يناله فى جميع السنة خمسمائة ريال، فأجرى لهم الوزير خير الدين من فواضل الأوقاف خمسمائة ريال فى كل شهر على مجرد الخطبة الشرعية، و لكل من شيخ الإسلام و رئيس الفتوى من المالكية ثمانية آلاف فى السنة عدا ما لكل منهم من مرتبات و وظائف أخرى و جرايات من القمح عشرة أفضرة و مثلها

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ٢٦٧

شعيرا و اثني عشر مطرا زيتا، و يزيد لكل من الرئيسين المذكورين على ما ذكر قفيزين من كل نوع و ثلاثة أمطار زيتا، و أطردي جريان ذلك و لم يتأخر عن أصحابه و لا شهرا واحدا مدة مباشرتي.

و منها: أيضا الزيادة في مرتب المدرسين بجامع الزيتونة الذين مر ذكر ترتيبهم من أحمد باشا، فزاد لكل مدرس من الطبقة الأولى ثلاثة ريالات يومية، و لأهل الطبقة الثانية ريالاً واحداً و كان إجراء ذلك أولاً من مال الحكومة ثم أجرته لهم من فواضل الأوقاف. و منها: جعل مرتب للحكام الشرعيين في جميع بلدان القطر على خصوص وظيفة الحكم الشرعي، و لم يكن لهم ذلك من قبل بل كانوا مقتصرين على مرتبات من دروس و إمامة و خطابة، فأجريت لكل قاض يبلد فيها مفااتي مائة و خمسين ريالاً في الشهر، و لكل مفتي مائة و عشرين، و لكل رئيس فتوى مائة و خمسين، و لكل قاض في بلد لا مفتي بها و هي البلدان الصغيرة تسعين ريالاً في الشهر.

و منها: جعل وكيل للخصام عن الناس العاجزين عن الخصام بأنفسهم و العاجزين عن أجره الوكيل.

و منها: إحداث طريق صناعي بين تونس و حمام الأنف طوله نحو إثني عشر ميلاً، و قد كان ذلك الطريق الذي هو أهم طرق جهات القطر يتعطل المرور فيه زمن الشتاء لكثرة الوحل و تموت فيه حيوانات كثيرة للمارة و لا يكاد يصل صاحب العجلة فيه مع قوة مراكيبه التي تجر العجلة إلا في نحو نصف يوم هذا إن سلمت عجلته حتى أن الأمراء و الوزراء يربطون في عجالاتهم أربعة من الخيل أو البغال أو أكثر لمن يسوغ له ذلك و لا يصل إلى حمام الأنف إلا في أربع ساعات أو أزيد، أما الضعفاء فلا يستطيعون المرور فيه و ترى المارة يرودون الطرق البعيدة بأضعاف طول ذلك الطريق الذي هو ضروري لجميع من كان في الجهة الجنوبية الشرقية من القطر كأهل الساحل و صفاقس و الأعراض و الجريد و غيرهم، فزال جميع التعطيل بإحداث ذلك الطريق و إن عده بعضهم أنه من التحسينات التي تأخر عن غيرها فهذا لجهله بأسباب العمران و عدم تفرقة بين الضروري و التحسيني.

و منها: التحجير على معاوضة الأوقاف بمال من النقود بل لا بد بعد المسوغ الشرعي من أن يعوض مكان الوقف بمكان آخر يدا بيد، حيث كان ضاع على الأوقاف بسبب مخالفة تلك الطريقة أموال لها بال، إذ حررت الأموال التي وجدتها مقيدة بدفاتر القضاء و المفتين بأنها ثمن أوقاف عوضت و لم يشتر بثمنها شيء فكان مجموع المال ٢٤٠٠٦٧٣ هذا عدا ما عوض و لم يرسم في الدفاتر، و إنما كتب في رسوم أصحابه و لم يبق للوقف حجة فيه و هو أيضا كثير. ثم ذلك المبلغ أكثره ضاع بالمرّة إما لجهل من أمن تحت يده حيث يقال في الرسم و أمن تحت يد من يوثق به، أو أنه أمن تحت يد أناس قد ظهر

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ٢٤٨

إفلاسهم حتى أنه مع غاية الاجتهاد إنما أمكن أن يستخلص من المليونين و نيف المذكورة نحو مائتي ألف ريال فقط، و اشترى بها أملاكاً و قفت على مرجعها و زالت أسباب الضياع بسبب ذلك التحجير.

و منها: التحجير على العدول الذين يكتبون رسوم الأملاك بأنهم مهما وجدوا في رسم معاوضة أو إنزالاً أي كراء موبدا إلا و أخبروا به جمعية الأوقاف لكي يتحرر بذلك الوقف، فنتج من ذلك ظهور أموال للأوقاف تبلغ قيمتها مايات الألوف، كما ظهر بالبحث أيضا أملاك أخرى أصلها وقف و استولت عليها أيدي العدوان و رجعت إلى أوقافها بالمرافعة و الأحكام الشرعية، و كان من جملة نيف و سبعون هتشيروا، أي قطعاً من الأرض المترثة ما بين كبير و صغير زيادة على الزياتين و غيرها من الأملاك التي تتجاوز قيمة المليون.

و منها: إبراء من كانت عليه رسوم في أموال من المعاوضات المذكورة مثبتة في دفاتر القضاء مع أن أصحابها دفعوها أو اشترى بها أملاكاً رجعت إلى أوقافها و لم يكتب على المرسوم في الدفاتر ذلك، حتى لو ضاعت حجة الخلاص على المدين لبقية رسوم الدين عليه قائمة، و الحال أنه خالص. و كان الذي تحرر من ذلك القبيل ما يبلغ المائتين ألف ريال أو تزيد فأبرئت أصحابها و علم على رسوم الدين بالخلاص.

و منها: أن عائلة حاي الصباغ الذي مر ذكره أنه كانت له علقه بالوزير السابق قد نال الحماية من دولة ألمانيا مع أنه تونسي و لم يجر عليه ظلم، فتكلم الوزير المذكور مع دولة ألمانيا بوساطة سياسية إلى أن صدر مكتوب منها رسمي بأن الصباغ المذكور لا تناله حماية ألمانيا في خصوص القطر التونسي بل تجرى عليه أحكام بلاده و إنما يكون ألمانيا إذا كان في غير ذلك القطر.

و منها: إنشاء مجلس مختلط من متوظفي أغلب قنصليات الدول الأجنبية الذين لهم كثرة رعايا في القطر و رئيسه أحد المتوظفين التونسيه للحكم في نوازل الديون و المعاملات المالية الواقعة بين أهل القطر و الأجانب فيما إذا كان لا يتجاوز المال الألف ريال، و لم يتخلف عن الدخول فيه إلا دولة إيطاليا لخلاف وقع في المقدار الذي يجوز التحاكم فيه لدى ذلك المجلس، لأن قوانينها إنما تسوغ الحكم في رعاياها على خلاف قانونهم في مقدار لا- يبلغ إلا ألف ريال فقط، و دامت المذاكرات في ذلك المعنى إلى ان انفصل الوزير المذكور عن الوزارة و حصل من هذا المجلس قطع تشعبات عظيمة و هرج كثير في الخصام لأن الديون القليلة و المعاملات الضعيفة كثيرة الوجود و اختلاف الحكم في بلد واحد من المصائب العظمى، فزال ذلك بوجود ذلك المجلس.

و منها: شروعه في المذاكرة مع الدول العظام على اتحاد الأحكام في القطر و لما كان يعلم أن دول أوروبا لا يتقادون إلى إدخال رعاياهم تحت أحكام الشريعة الإسلامية في

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ٢٦٩

تونس إذا بقيت حالة القضاة على ما هي عليه الآن حيث أنه يوجد لكل من المذهب الحنفي و المذهب المالكي قاض مطلق الحكم في النوازل، مع ما يوجد بين المذهبيين من الخلاف في كثير من الفروع بل و في المذهب الواحد تختلف الأقوال و يكون للقاضي الاجتهاد في الترجيح و التطبيق باعتبار الأصلح و العرف، فيحكم هذا القاضي في حادثة بما يخالف حكم قاض آخر في مثلها، و الأروباويون يريدون أن تكون الأحكام المدخول عليها معروفة لهم من قبل مضبوطة بما لا يتوهمون معه ميل الحاكم إلى غير ما توجهه الحجة، فلذلك أحضر الوزير خير الدين القوانين المعمول بها في الدولة العلية المتعلقة بالأحكام، و كذلك القوانين المعمول بها في مصر، و كلف أحد المهرة العارفين بالأحكام الأروباوية بأن يستخرج من أحكامهم ما يوافق حالة القطر و عرفه، و بعد ذلك عقد الوزير المذكور مجلسا مؤلفا من شيخ الإسلام من العلماء الحنفيه و هو الشيخ أحمد بن الخوجه، و من عالمين من المجلس الشرعي المالكية و هما: الشيخ محمد النفير المفتي، و الشيخ عمر ابن الشيخ قاضي باردو، و من أحد الوجهاء العقلاء العارفين بإصلاحات البلاد و تجارتها و هو الوجيه حسونه الحداد ليستخرج هذا المجلس من مجموع ما تقدم قانونا شرعيا مطابقا للأحكام الشرعية و العرفية التي عليها عمل القطر من غير تخصيص بأحد المذهبيين، و لكن عاق عن الإستفادة من ثمره هذا العمل خروج الوزير المذكور من الوزارة فترك المجلس مع أن اتحاد الحكم على سكان قطر واحد ضروري.

و منها: إنشاء المدرسة الصادقية لتعليم مبادئ الفنون الشرعية كالقراءة و الكتابة و القرآن و العقائد. و الفقه الحنفي. و المالكي و النحو و الصرف و الأدب و التاريخ و الخط و المعاني و تهذيب الأخلاق و الحديث، و تعليم اللغات التركية و الفرنساوية و الطليانية، و تعليم الفنون الرياضية كالحساب و الهندسة و الهيئة و الجبر و الجغرافيا و الفلك، و رتب لها معلمين لكل فن و جعلها تقبل مائة و خمسين تلميذا من جميع أبناء القطر المسلمين منهم خمسون تلميذا من أبناء العاجزين عن القيام بهم، و هؤلاء يسكنون بالمدرسة و تقوم بهم زيادة على التعليم بالأكل و اللبس و المسكن مجانا، و أما المائة الباقية فالمدرسة تقوم بأكلهم نهارا مرة فقط، و بالتعليم مجانا، و يلزم أن تكون جميع التلامذة في لبسهم على شكل واحد، و أوقف عليها من أملاك الحكومة أوقافا لها بال يزيد دخلها السنوي على المائتين و الخمسين ألف ريال، و نتج من أبناء البلاد ما شهد لهم به الوافدون من أهل أوروبا و الحاضرون لامتحانهم، و مثل هاته المدرسة ضروري للممالك الإسلامية سيما في العلوم الرياضية التي اضمحلت من الأمة، و إنما خص التلامذة من أبناء المسلمين من خصوص الأهالي لأن أبناء الأجانب لا- يمكن إجراء التراتيب في حقهم مطلقا إلا إذا وافق أولياؤهم، و الموافقة منهم كأنها غير مأمونة في كل وقت سيما مع اختلاف الأحكام التي مر ذكرها، و أيضا من خصوصيات المنح للتلامذة عند استكمالهم

للمعارف أن يتقدموا في جميع الوظائف المحتاج إليها في القطر على غيرهم، وهذا إنما يليق بأبناء القطر أما الأجنبي فإنما

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ٢٧٠

يتقدم بل يستخدم بخصوصيات أخرى، و أما تخصيص المسلمين فلأن غيرهم بالنسبة إليهم قليل جدا كما مر ذلك في فصل صفوة القطر، ثم أولئك القليلون لا- يرغبون في إتباع جميع تراتيب المدرسة التي منها تعلم العلوم الشرعية التي هي المقصد الأهم لكي يحصل التبصر من علماء الديانة بالعلوم الرياضية و يوفقون ما بين ما يظهر بحسب بادى الأمر أنه مخالف للشرع من بعض العلوم الرياضية، ثم إن الوزير المذكور عزم على إيجاد مدرسة على ترتيب آخر صالح لدخول غير المسلمين فيه.

و منها: تحييس كتب رجعت للحكومة من صلح الوزير السابق تبلغ نحو ألفى مجلد فألحقها بنحو تحييس الكتب من أحمد باشا بالخزائن التي عمر بها صدر جامع الزيتونة.

و منها: ما أنشأته بأمره من إحداث المكتبة الصادقية حول جامع الزيتونة و جعل لها ترتيبا لم يسبق في البلاد على نحو التراتيب الجارية في الأستانة و الممالك المتعدنة، بحيث لا يخرج الكتاب من المحل و يستفيع المرید بما شاء من الكتب، و أنواع الإستفيع مع تحسين هيئة المكان و إحضار فرش و المحابر و الأقلام، و ساعة للإعلام بالوقت و الرسم بأن كل الأوامر الرسمية العامة العمل يحفظ منها بتلك المكتبة نسختان لكل من أراد مراجعته ذلك، و انتظام وضع الكتب و ترتيبها على نسق يسهل الإستفيع بها و مناولتها، و أوقف عليها جميع كتبه العربية و كانت تبلغ نحو ألفى مجلد، كما جمع بها سائر الكتب التي كانت مفرقة في الجوامع و المدارس و تلاشتها أيدي التلف حتى ضاع أكثرها، فإن خزانه الكتب الحنفية بالمدرسة الحسينية وجد بها مكنسة و لم يوجد بها و لا ورقة مع أنها كانت تشتمل على مئات من المجلدات، و هكذا أغلب الخزائن مع عدم النفع بها إلا لمن كانت بيده و هم أفراد قليلون يعسر عليهم وجدان الكتاب الذي يريدونه لعدم ترتيب وضعها و ضبطها بدفتر و إعداد فضبطت و عم النفع بها لكل مرید من المسلمين، حتى قال بعض من كانت بيدهم تلك الخزائن: أقسم أنى الآن استفيع بما كان تحت يدي من الكتب أحسن مما كان عندي.

و منها: إنشاء مجلس مكلف بنظافة البلاد كأنه شعبة من المجلس البلدى، لكنه يزيد عليه بدخول أعضاء من الأجانب لتيسر أداء الأجانب ما يلزم للنظافة و حصل به شىء من النظافة الضرورية.

و منها: إنشاء ترتيب للعلوم و تدريسها بالجامع الأعظم جامع الزيتونة حتى لا تهجر علوم و لا يزداد على قدر الحاجة من غيرها، و تضبط الدروس و تجرى على الوجه المطلوب للوصول، و جعل امتحانا للتلامذة في كل سنة حتى لا يتقدم للوظائف العلمية إلا من قدمته نجابته و تحصيله.

و منها: إنشاء ترتيب في إدارة المجالس الشرعية لقطع وجوه تطويل الخصومات

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ٢٧١

و دفع تعارض الأحكام و تسهيل المراجعة بينهم و تحديد أجر أتباعهم و تعيين محل للحكام الشرعية خارج الحاضرة، حيث كان كل يحكم في مكانه بحيث صارت المحاكم الشرعية معلومة مضبوطة أوقات الإنتصاب فيها إلى الحكم و إن كانت لذلك ساقية في خصوص الحاضرة من مدة محمد باشا، لكن اعتراضها الخلل فجدد انتظامها على حسب الوقت.

و منها: إنشاء ترتيب لأعمال العدول المنتصيين للشهادة و ضبط عددهم بالموجودين و حصر المحتاج إليه في كل جهة بعدد مخصوص، و عدم تولية غير الموجودين إلى أن يصل العدد إلى القدر المحصور فيه، فإذا نقص منه أحد لا يزداد إلا بانتخاب أهل الشرع مع ضبط كيفية أدائهم للشهادة و تحملها و كتبها مما يندفع به حصول الزور و تبعد به التهم.

و منها: إحياء إرسال محصل أوقاف الحرمين الشريفين للمستحقين من أهلها بعد أن مضت على إبطال ذلك سنوات، و أكلت أموال تلك الأوقاف على غير وجهها، فمنذ ولاية الوزير خير الدين أطرر إرسالها.

و منها: إنشاء سجن عمومي للنساء و آخر للرجال على صفة السجون في البلاد المتعدنة من النظافة و تخلل الهواء و الطبيب و الفرش

الضرورية للنوم و محل للطهارة و مسجد للصلاة، و جعله مقسما على عدة أقسام بحسب الجنايات التي يسجن فيها و بحسب حال المسجون من السن و العرض، بحيث صار سجنا لا كما كان مقتلا، و إن حصر دخوله بمن يحكم عليه بالسجن أما الموقوفون فقد بقوا يوقفون في السجن القديم فكانوا أشد عقوبة ممن ثبتت عليهم الجنايات، و لذلك كان الوزير خير الدين المذكور عازما على إحداث محل للإيقاف.

و منها: حصر أجر أعوان الحكومة و أتباعها المرسلين في الإتيان بالجناة في مقادير معلومة معلنا بها للعموم على حسب الجنايات و بعد مكان المجلوب بحيث صار ذلك القدر معينا بالحكم بمقدار غير مجحف لا كما كان من تفويضه لإرادة المرسل الذي كثيرا ما أضر بالجناة، بل بالذي ثبت براءته أكثر مما يناله من الحكم.

و منها: جعل خزانه يجمع بها أجر أولئك الأعوان المتوجهين من الحكومة، و يخرج منها في رأس كل شهر أجر معين للأعوان المسمين بالبوابه الذين كانوا يأخذون مقادير ممن يريد الشكاية، و يقع بسبب ذلك محاباه في تقديم بعض المشتكين على بعض ثم يقسم الباقي على الأعوان الأخر الذين في نوبه الخدمة على حسب رتبهم، و حصل بذلك تعادل فيما يحصل للأعوان و تحسين في هيتهم و شارتهم، لأنه قبل ذلك كان المقرب عند رئيسهم يحصل على مال كثير، و غيره يبقى على الإعدام مع اتحاد الوظيفة.

و منها: أن من يجلب من المشتكى بهم و تثبت براءته لا يؤدي أجر جالبه سواء كان

صفحة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ٢٧٢

في مال أو جنایه، فإن كان للمشتكى شبهه راجحه في شكايته لا يؤدي هو أيضا الأجر و يحسب المتوجه في النازله كأن لم يتوجه فيها و يعاد توجيهه في نازله أخرى، لأن أجره في الواقع يخرج من عموم ما في خزنة الأعوان، و إلا بأن ظهر تعمد المشتكى للباطل فهو أحق بالحمل عليه.

و منها: حصر أجر ما يكتب من التسجيلات في خصومات الأهالي على أيدي العمال في مقدار معين، و هو ريات ١٢٢ بحيث لم يبق الأمر على مشيئتهم الذي كثيرا ما كان سببا لامتداد أيديهم لأموال الأهالي.

و منها: الأمر بعدم التشديد في توثيق الكتاف على من يجلبه أعوان الحكومة من الجناة إذ كان وسيلة لهم في التوصل إلى المال.

و منها: إبدال السكه الفضة التي كانت ناقصة في الوزن و من كانت في يده تبديل له في الحال بسكه الذهب الكامله يدا بيد على خلاف ما سبق، كما مر ذلك في واقعه الفلوس النحاس.

و منها: ضبط العرف الجارى به العمل في الفلاحة التي هي أهم أشغال أهل القطر و مورد ثروته، و ضبط ما يتعلق بشركه الخماس في قانون معروف يرجع إليه عند الحاجة و قد كان من قبل لا يعرف له مرجع إلا الإستخبار من أفراد أصحاب الفلاحة و كثيرا ما يقع بينهم الإختلاف في الأخبار عن العادة و العرف حتى يختار الحاكم فيما يحكم به.

و منها: ترتيب مجلس التحفظ العمومي على النحو الجارى به العمل في الممالك المتمدنة و جعل له قانونا خاصا يرجع إليه، و أدخل في أعضاء المجلس أعيانا من متوظفي الحكومة مع قناسل الدول الذين هم أعضاء لذلك المجلس.

و منها: إنشاء ترتيب لكيفية أعمال العمال في مواصلتهم مع الحكومة و ضبط مكاتيبهم و أحكامهم في دفاتر لتكون حجة فيما يراد الرجوع إليه، و ليعلم الداخل للوظيفة ما هي أعمال السابق عليه هذا، و أما ما يرجع إلى تحسين ماليه الحكومة و الأهالي فقد شدد النكير على العمال و سائر المتوظفين و حصر أوجه الدخل و الخرج و بناها على ميزان سنوي على نظر قسم النظر من الكومسيون المالي، و ضبط كيفية القبض من الرعايا بأن كل من يدفع ما عليه من المال المعين الذي استوت في معرفه مقداراه الأهالي جميعا، يأخذ بيده حجة من نوع خاص من البطاقات على شكل خاص مختومه من شيخ القبيلة أو عاملها، مقطوعه من دفتر خاص بذلك بحيث يبقى نصف الرقعة في الدفتر مرسوما بها نظير ما بيد صاحب المال، لينضبط الإستخلاص و لا تمتد الأيدي إلى الأموال، و من خالف ذلك عوقب على حسب جنائته، ثم خفف كثيرا من الأداء على السلع الخارجة من القطر الذي هو الأمر المعقول لتكثير الثروة

فى القطر بنفاق نتائجه و استعواضها بأموال غيره، و ذلك يحصل بترخيصها و تسهيل نقلها و إخراجها، فصدر لذلك صفوة الإختبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ٢٧٣ مكتوب الوالى للقناسل معلما بما يأتى بيانه:

الأداء على البضائع:

- ما كان سابقا ما استقر عليه الحال
ريالات ريالات
٢٠ / ١٠ / قنطار الشمع
٤٠ / ٢٠ / الصوف المغسولة عدا ما يؤدى للقمرق و دار الجلد و هو ٤
١٢ / ٦٠ / قنطار الجلد القريقى
٣٠ / ١٠ / قنطار الصوف بونتوف أى المركبة من المغسولة و غيرها.
٢٠ / ١٠ / قنطار الصوف غير المغسولة عدا ما للقمرق و دار الجلد و هو ٢
٢٥ / ١٠ / قنطار التمر الدقلة
٦٠ / ٣٠ / قنطار التمر الحره
٦٠ / ١٢ / قنطار تمر قابس
٠٢ / ٠٢ / قنطار البسر
٢٠ / ١٠ / قنطار جلد المعز
١٥ / ٠٨ / قنطار بطانه الغنم أى جلدها
٣٠ / ١٠ / قنطار القطن الغير المصنوع
٣٠ / ١٠ / قنطار النيله
٠٥ / ٠٥ / قنطار القماعه كأصله نوع من الإبزار
٠٤ / ٠٤ / قنطار القنطس مثله
٢٥ / ١٠ / قنطار العسل
٦٠ / ٣٠ / قنطار النشاف أى الإسفنج المغسول
٤٠ / ١٠ / قنطار الغوه نوع من الصيغ
٧٢ / ٠٣ / قنطار الحنه
٢٥ / ١٠ / قنطار القرنيط نوع من السمك
١٠ / ٠٥ / رطل العلق أى دود الماء يستعمل لامتصاص الدم من الإنسان فى الأمراض
١٥ / ٠٥ / قنطار بيض السمك و لحم التن
١٥ / ١٥ / قنطار النشاف أى الإسفنج غير المغسول كأصله
١٥ / ٠٧ / قنطار النحاس أسقط عنه الأداء بالمره قنطار الصابون
١١ / ٠٨ / صابون سوسه مع أن أداء الطبخ داخل فى ذلك
٠٠ / ١٦ / الزيت و قد كان من قبل يؤدى بالمطر فصيره وزنا

و على النسبة المذكورة وقع التخفيف على مصنوعات الصوف و القطن في جربه التي

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ٢٧٤

هي أعز صنائعها على ما مر، فصار على ما يأتي:

على ما يباع من الغزل: ٦/ في المائة

على ما يخرج من جربه إلى مراسى المملكة: ٣/ في المائة

أداء للعامل على كل شداة من المصنوعات: ٣/ ريات

على ما يباع من المصنوعات: ٦/ في المائة

على كل شداة للزام: ١٢/ ريال و نصف

و منها: إنشاء مراكز للقمق في جهات الحدود لضبط القمق.

و منها: اتساق دفع المرتبات لأصحاب الوظائف سيما الوالى و آل بيته، بحيث يقبضون مرتباتهم من أول الشهر إلا ما ندر، أما الوالى فلم يتخلف مرتبه و لا شهرا واحدا عن ميعاده، و قد حصل في بعض السنين زيادة في الدخل عن المقدار المعين للمصروف فاشترى به مقدارا من دين الحكومة لذاتها لا أنه مما يرجع إلى مجلس الإدارة النائب عن أصحاب الديون و استفادت منه الحكومة في وقت قلته الدخل، لكن لم تتم الفائدة حيث أن بعض المغرضين سعى في إسقاط اعتبار مالية الحكومة على ما سيأتى بيانه، فلزم لرفع ثمن سهام الدين إقراض الحكومة بعض التجار لتظهر الرغبة في شراء الرقاع بما يطمئن به التجار، فرهنت الرقاع المشترية للحكومة لذلك القرض و لم ينفع ذلك في ارتفاع الثمن بل زاد في الإنحطاط إلى أن خسرت الرقاع بالمره و بيعت فيما رهنت فيه و أفلس التاجر الذى أقرض المال، و مما حصل من أعمال هذا الوزير مدة ولايته: جعل مراكز من العربان في الطرق المخيفة و إعفاء أصحاب المراكز من الأداء الموظف على بقية السكان و إجراء شىء من الجوب إليهم، على أن يعمرؤ تلك الجهات و يكونوا مطلوبين بما يحصل في أماكنهم من الجنايات على المارة، حيث أنهم هم الحارسون. و بذلك و بإنفاذ الأحكام من غير محاباة أمنت السبل و استقر الأمن حتى صارت القوافل و الفرادى فى الأمن و عدم الخوف سواء.

و منها: الإحسان إلى المحسن من الأهالى بأمنه فى ماله و عرضه و نفسه و إن كان موقتا بمدة انتباه الوزير و إجراء العقاب بلا ضعف على من يجب الراحة و لا يطبع أوامر الحكومة، حتى أنه لما ظهر من فرقه من قبيلة الهمامه عصيان و تحير للأمن بانتهاهم لغيرهم من القبائل و إخافة السبل، وجه لهم معسكرا تحت رياسة وزير الحرب رستم و زجرهم و عاقبهم عندما أظهروا حربه و أرجعهم إلى الطاعة، و أمن تلك الجهات و عندما رجع للحاضرة و علموا باستقراره عادوا إلى ما كانوا عليه ظنا بعجز الحكومة عن إرسال معسكر أثر السابق، فلم يكن من الوزير خير الدين إلا أن وجه عليهم فرقه من العساكر الفرسان المسمين بالحوانب و الصبائحية مع أوامر لمن يمرون عليهم من قبائل العربان بأن يتوجه معهم فرسانهم فى أقرب وقت لردع البغاة، فلم تكن إلا بضعة أيام حتى عاقبوا البغاة

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ٢٧٥

و خضدوا شوكتهم بما استقر معه الأمن منهم إلى الآن، و بمثل هاته الشدة فى إبانها و الرفق و اللين فى إبانه خضعت القبائل و بادروا إلى دفع أموال الحكومة فى إبانها و نفذت أوامر الحكومة فيهم و انقادوا لها بطيب نفس لإجرائها العدل فيهم بما لم يبق لهم معه خوف من امتداد الأيدى إلى مكاسبهم، فأقبلوا على العمران و كثرت ثروتهم حتى أن فى العام الثانى و الثالث من ولاية هذا الوزير كثر شراء الأعراب للحلى من الفضة لما سبق من عدمهم منها و تكاثر ذلك تكاثر فاحشا إلى أن صار الصياغ لا يوفون بمحتاجهم، و صارت دار السكة كل يوم تصنع علامة السلامة و الصحة مع المصوغ المذكور بما يبلغ وزنه إلى عشرات أو مئات القناطير إلى أن كتبت أخباره فى الصحف العربية و الأروباوية.

و منها: جعل صندوق موقوف له منفذ لوضع المكاتب فيه لمن أراد رفع نازلته للوزير أو إنهاء مصلحته بأن يشرح مقصوده و يبين دليله

و لا يلزمه التصريح باسمه ليسهل رفع المظالم و عدم الخوف، و جعل مفتاح المحل الذى يمكن وصول كل الناس إليه عنده و التزم أن يفتح هو بنفسه جميع المكاتب و يوقع عليها بما يراه من الملاحظات فيها و يوجهها لأحد أقسام الوزارة الراجعة إليها النازلة بحيث تكون النوازل على ذكر منه لكى لا يقع التحريف فى تلخيصها أو إهمالها، مما ربما يمكن أن يحدث فى بعض النوازل و إن نسب إليه بعض المتوظفين فى ذلك عدم الثقة ببعضهم و حب الإستبداد بكل الأشغال، و هو يقول إنه إنما جعل التعب على نفسه و لم ينقص من مراتب المتوظفين شيئاً إلا عدم القدرة على فتح المكاتب إلا بإذنه.

و منها: تحسين حالة مطبعة الدولة التى هى ضرورية فى هذا الزمان لطبع الكتابات الرسمية و غيرها مما يعجز عن الوفاء به الكتاب، و تيسير نشر الكتب فى الفنون ليسهل تناولها بالثمن اليسير و يتوصل للإنتفاع بها ذو الجدة و غيره الذى هو من أعظم الأسباب لترقى الأمة فى المعارف و العلوم، و هكذا تحسين إدارة الرايد التونسى الذى هو الصحيفة الرسمية للحكومة و صار صدوره موقتا مثل سائر الصحف، بعد أن كان لا يخرج منه إلا عدد يسير ربما بلغ النصف أو أقل مما يلزم خروجه سنويا و الحال أنه أسبوعى، ثم الإفادة فيه بأفكار الوزير فى المسائل السياسية بما كان ينشر فيه من المقالات المرشدة الذى هو ضرورى للحكومة فى إيقاظ أهلها و السكان و إرشادهم لما تراه بلطف إلى غير ذلك من فوائد الصحف على ما سيأتى فى الخاتمة إن شاء الله تعالى. زيادة على نشر الأوامر الرسمية ليستوى فى معرفتها القريب و البعيد، و دليل ما ذكرناه اختلاف منحنى الرائد بعد خروج الوزير من الوزارة عما كان من شحنه بالمقالات السياسية كمقالة المدار على الرجال غيرها مما هو كثير، و ألزم المتوظفين بقراءته و أخذه إذ يقبح بالمتوظف أن لا يعلم أحوال حكومته فضلا عن غيرها، بل ذلك شرط فى المتوظف فى الممالك المستقيمة.

و منها: جعل خزائن لمكاتب الحكومة و جمع العتيق منها على ترتيب يسهل به معرفتها و التوصل إليها فى أقرب وقت و ذلك من أهم الأمور.

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ٢٧٦

و منها: تعميم أمر تعظيم المولد النبوى على صاحبه أفضل الصلاة و أزكى التسليم، فجعل له مواكب فى جميع البلدان بالقطر مع إطلاق المدافع عند الوقوف لسماع الأبيات، و هى قوله:

قليل لمدح المصطفى الخط بالذهب على ورق من خط أحسن من كتب

و أن تنهض الأشراف عند سماعه قياما صفوفا أو جنبا على الركب

أما الله تعظيما له كتب اسمه على عرشه يا رتبة سمت الرتب

فقم أيها الراجى لنيل سعادة قيام محب صادق الحب و الأدب

ففى الذكر لإسم الحب إحضار ذاته بقلب له فى الحب و جسد له لهب

و رب جليل عظم الناس ذكره فكيف و هذا سيد العجم و العرب

عليه صلاة الله ثم سلامه يكونان للرضوان من أعظم السبب

و عمل جميع ما يعمل مثله فى الحاضرة على نفقة الحكومة.

و منها: تحرير المكايل و الأوزان و تحرير مكيال الجبس أى الجص.

و منها: إنشاء معمل الغاز بيد لجنة إنكليزية فى الحاضرة.

و منها: إنشاء بطحاء القصبه و تحسينها و إنشاء قصر للوالى على الوجه المطل على البطحاء المذكورة من قصر المملكة الذى بناه حموده باشا، و إكمال بناء السوق المحيط بالبطحاء المذكورة و تعميمه بتجار من الأهالى و ترغيبهم بالشراء منهم، و الجلوس بحوانيتهم و قدوم الوالى إليهم فى بعض ليالى المواسم، و تحسين الحصن المطل على البطحاء المذكورة.

و منها: فتح باب للجامع العتيق الكائن بالقصبه على الطريق العام حتى عمر بالمصلين و انتفع به المسلمون، و قد كان من قبل لا تكاد

تصح فيه جماعة لأن له بابا واحدا داخل القصبه و قد خليت من السكان منذ زمان.

و منها: تدارك السور الخارج المحيط بالحاضرة بالإصلاح فأصلحته من الأوقاف و أصلحت الحصون المحيطة بالحاضرة، و كذلك أغلب حصون البلدان التي بها حصون كصفاقس و القيروان و سوسة و غيرها.
و منها: إنشاء بطحاء عظيمة خارج باب البحر و استقامة الطريق الموصل منها للبحيرة، و هكذا إنشاء عدة طرق في البلاد و إصلاح غيرها.

و منها: العناية بإحياء صناعة النقش حديده أى النقش على الجص المطلى على الخيوط و القباب، التي هي أغرب صناعات تونس و المغرب في البناء، و قد انعدم صناعتها من البلدان فجاء عارف بها من المغرب فجعل له الوزير خير الدين أجرا و صاحبه بعده أناس من الأهالي و أحسن إليهم إلى أن تعلموا الصناعة الغربية بعد اندثارها، و الحاصل أنه أجرى
صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ٢٧٧

مصالح عديده و من أعظمها قطع مادة الرشا و بيع الوظائف الذي هو أساس العدل حتى نمت المكاسب و انكفت أيدي المتوظفين إلا ما كان على وجه الإختلاس مما لا- يمكن التحرز منه، و لم يرفع أمره إليه أو لم يتتبه بواسطة من الوسائط إليه، بحيث يقال في مدة ولايته في القطر أن حكومته استبدادية عادلة ناحية منحى الشورى، لأن أغلب ما مر ذكره من الخصال كان يعقد له لجنات من أعيان الأهالي أو أعيان المتوظفين أو العلماء و الأغلب أن تكون تحت رياسته، و لا يتم أمرا إلا بعد التوافق و التدبير فيه. و أحبه الأهالي و اعترفوا بفضله سيما و قد أتاهم بعد شدائد مر ذكرها.

حتى أنه لما أتم امتحان تلامذة المدرسة الصادقية في السنة الأولى و رأى أبائهم ما لم يعهدوه في التعليم، أظهروا ممنونيتهم و شكرهم بأن اتخذوا مصحفين كريمين و جعلوا لهما سفرين فاخرين و كتبوا على الأول منهما: بالياقوت الأبيض على إحدى الدفتين المحفوظ بالسور و الآي، و على الثانية محمد الصادق باي، و على الثانية منها: بالياقوت الأبيض أيضا على إحدى الدفتين الناصح الأمين، و على الثانية الوزير خير الدين، و ذلك اللقب هو الذي جرى التعارف في إطلاقه عليه عند أغلب الأهالي و دفع ثمن ذلك آباء التلامذة من أنفسهم كل على قدر ثروته، فممنهم من دفع ريبالا واحدا و هو ما في وسعه و تكدر إن لم يؤخذ منه، و منهم من دفع عدة آلاف، و أهدوا المصحفين للوالى و للوزير مع خطبة مفصحة عن الباعث على ذلك و هو نتائج المعارف لأبنائهم، ثم بعد سنتين اجتمع أعيان من التجار البلدية و غيرهم من أعيان العريان و بعض أصحاب الأملاك المثرين و صنعوا في لندرة مكتبة، أى مائدة للكتابة من خشب رفيع مذهبه و ملونه و أدواتها من ذهب و عليها ميزان إشارة إلى العدل، و كتب عليها إسم الوزير خير الدين و أهدوها في رأس العام إلى الوزير المذكور مع خطبة مفصحة عن الباعث، و هو ما حصل من ثمره أعماله في عموم القطر حتى ازدادت الثروة و غلت أسعار الملك و راجت التجارة، و هكذا كانت علقه سياسته في الخارج على سلم و هناء و لم يحدث مع إحدى الدول أدنى صعوبة و لا- ظهر من أحد القناسل تشدد في نازلة ما من متعلقات دولهم و رعاياهم، مع أن بعضهم كان ينفر من ذاته لصحبه أو منفعة له من الوزير السابق، و مع ذلك لم يجد شيئا يستند إليه في إنشاء صعوبة أو تعكير هناء، و لم يعترض على ما حدث مدة ولايته في الداخل أو الخارج إلا ما يأتي بيانه.

و هو إعطاء منحة لشركة فرنساوية في إحداث طريق حديديه من حاضرة تونس إلى الجهة الغربية، فانتقم هذا العمل بأن سياسة فرنسا في تونس معروفة و ذلك الطريق يؤل إلى تسهيل استيلائها على البلاد، و هنا العقول على فرقتين: فبعضهم يرى السهولة من تسهيل نقل العساكر من الجزائر إلى تونس في أقرب وقت، و منهم من يراها بالتسهيل المعنوى و هو زيادة النفوذ و الإختصاص بالمتجر، بل يقول بعض الإنكليزيين أن مراسى تونس تصير خالية و تصير عنابه أى بونه هي مرسى تونس و هي فرنساوية، و ذلك لأن السلع التي توسق من تونس لا تدخل إلى فرنسا إلا بأداء بليغ عليها في مراسى فرنسا بخلاف ما يوسق من مرسى

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ٢٧٨

عنايه، فإنه إذا دخل إلى مراسى فرنسا لا يؤدي شيئاً فيكون سبباً في التزام التجار توجيه البضائع إلى عنابه و تبقى مراسى تونس خالية، و زاد للمعترضين قوة في أن المقصد بذلك الطريق أمر سياسى أن الإتفاق فيه تم في أقرب وقت، حتى أشاعوا أنه وقع من غير استشارة بقيه الوزراء هذا مدار الإعتراضات و نحن نقص قصص ما وقع في النازلة و أحوال متعلقاتها و نكل الحكم فيها إلى المطالع.

و هو أنه في سنة ١٢٩١ هـ قدمت شركة إنكليزية و طلبت منحة لإعمال طريق حديدية بين تونس و دخله جندوبه في الجهة الغربية من القطر المعنية بأفريقية، التي هي أهم الجهات في الفلاحة على ما تقدم بيانه في الفصل الأول من الباب الثاني من المقصد، على أن تمر الطريق حذو بلد باجه و تصل إلى معدن دجه المركب من الرصاص و الفضة، و تختص بتشغيله على أن يكون للحكومة قسط من دخله بعد طرح المصاريف، فقسطها يكون من الريح و حيث كانت منافع طرق الحديد في الممالك من أعظم أسباب عمرانها على ما سيرد إن شاء الله في الخاتمة، و كانت تونس من أحوج الأقطار إليها لعدم وجود الأنهر و الترع التي تمكن بها المواصلة، بل و لا مجرد الطرق الصناعية، و كانت نتائج الزرع في الأماكن الخصبة يتعذر نقلها بل يستحيل زمن الشتاء و الوحل، و كان نقلها في زمن سهولة الطرق يكلف مصاريف باهظة ربما لا يوفى بخلاصها ثمن الحبوب عند بيعها، حتى كان الشعير لا يجلب من تلك الأماكن لمراسى المملكة و لا لبلدان أسواقه لعدم وفاء ثمنه بأجرة حمله فضلاً عن التبن، فإن كلا منهما يترك في مكانه إلى أن يضيع على أصحابه و لا زال مثل ذلك إلى الآن في جبال ماطر و غيرها، بل و كان جلب الحبوب من الأماكن الأجنبية في البحر أيسر و أرخص من جلبها من داخل القطر، و رأيت في رسالة كاييزول القنسل الفرنسي بئر حلق الوادي من تونس التي ألفها في التعريف بأحوال القطر ما معناه: «إن هاته البلاد التي كانت تسمى بمخزن حبوب أوروبا في الزمن السالف، ها هي الآن يجلب إليها القمح من خارج و يباع بأرخص مما يجلب من داخلها، حتى كان ذلك سبباً في تعطيل أكثر أراضيها و فقر أهلها» الخ. و لقد صدق في ذلك و كان تأليفه لتلك الرسالة في حدود سنة ١٢٨٠ هـ التي مر تفصيل أهوالها، فلما ذكر كان إحداث الطريق الحديدية ضرورياً للقطر فبقى الكلام فيمن يصنعه و الأمر منحصر في ثلاثة أوجه:

الأول: أن تصنعه الحكومة و قد علمنا مما مر أن أغلب ماليتها راجع للأجانب بسبب ديونهم، و ما بقي من دخلها إنما يوفى بضرورياتها التي لا مندوحة عنها، فلا سبيل لها لأعمال الطريق المذكورة لما يلزمها من كثرة النفقات. و الوجه الثاني: أن يتولى عملها الأهالي و هذا أيضاً إما متعذر أو صعب جداً لأن سابقية الفقر فيهم قد أخذت مأخذها و ما تراجع لهم من بعد لم يكن موفياً بالمقصود و على تسليم اقتدارهم فإنهم لا يلتفتون إلى ذلك.

صفحة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ٢٧٩

أما أولاً: فلعدم معرفتهم بفوائد الشركات، لأن مثل ذلك لا توفي به قدرة الواحد، و قد علمنا أن فتح أبصارهم لمثل العلوم الرياضية و الاقتصادية و المدنية إنما كان بعد ذلك التاريخ، و على فرض حصول مبدأ التعليم من قبل فلا بد له من زمان ليرسخ و يعمل به. و أما ثانياً: فإنهم لا يأمنون على إظهار أموالهم و ما بالعهد من قدم قد رأوا نقض عهد الأمانة الملتزم به بعهد الله و شهادة الدولة العلية و سائر الدول الأجنبية، و حرص دولة فرنسا في إتمامه، و رأوا بأعينهم كيف جرى قتل النفوس و تعذيب الأبدان و استئصال الأموال، فما هي قدرة الوزير وحده في حفظ حقوقهم و أمنهم و هل ذلك إلا موقت بوقت تصرفه، على أنه من الضامن لهم في بقاء الوزير على ما هو عليه و هل هو إلا بشر قابل لتغير الأفكار، و بهذا يعلم أيضاً عدم إمكان حمل الأهالي غصبا على منفعتهم في ذلك الطريق من الوزير خير الدين، و لأنه كان لهم فيه نفع لكنه يظلمهم بإتلاف أموالهم لما أشرنا إليه، بل و لربما مع ما يتوقع من استيلاء الحكومة على مداخيل الطريق و التداخل في إدارته لا يدوم شغله كما حصل بالفعل في معمل الملف الذي كان أنشأه أحمد باشا، و يؤيد ذلك ما حصل من الخلل في أشياء أسسها هو مما مر ذكره و سيأتي كيفية خلله، فتعين حينئذ.

الوجه الثالث: في أعمال الطريق الحديدية، و هو أعمالها بيد لها اقتدار على المال و تأمين عليه و ليس ذلك إلا الأجانب، و لما قدمت الشركة الإنكليزية المار ذكرها و طلبت تلك المنحة عقد الوزير عدة مجالس من بقيه الوزراء و المستشارين و كان بعضها تحت

رياسة الوالى نفسه، و تفاوضوا فى مصالحها مما مر ذكر بعضه و استقر الرأى على عقد الإتفاق مع تلك الشركة فى إحداث الطريق المذكورة سيما و قد سبقت شركة إنكليزية لإحداث طريق بين الحاضرة و حلق الوادى، و تمم الإتفاق على شروطه التى .
منها: إن للشركة أن تمتد فروعها من الخط الأصيلى يمينا و شمالا كل فرع طوله خمسون ألف مترو أى نحو خمسة و أربعين ميلا أينما أرادت.

و منها: أنه إذا مضت سنة و لم تشرع الشركة فى العمل يفسخ العقد، فشرعت الشركة فى جمع المال لذلك غير أنها لم تنجح لأن الإنكليزيين ليس لهم هم فى تجارة تونس و لا- فى سياستها و لا- يصرفون المال إلا- بغلبة الظن فى الربح، و قد علموا أن الطرق الحديدية غالبا فى أول أمرها تخسر و شاهدوا فى طريق حلق الوادى عدم الربح الذى أطمعوه فىه، فبعد انقضاء الأجل طلبت الشركة أجلا ثانيا لعلها تتحوّل الرغبة فلم تحصل على شىء، و آل أمرها أن طلبت من حكومة تونس أن تتعهد لها بربح خمسة فى المائة على ما تصرفه، فإن و فى دخل الطريق بذلك أو زاد فهو لها و إن نقص أو لم يحصل شىء فالحكومة تلتزم بإيفاء الخمسة فى المائة أو أن الحكومة تدخل شريكه مع الشركة المذكورة بالربع من رأس المال، و لا يخفى أن ذلك لا يتيسر لأن الوزير خير الدين على علم من ضعف مالية الحكومة و من خسارة الطرق فى أول أمرها، و من الشك فى حصول الربح من المعدن، و من صعوبة
صفحة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ٢٨٠

المحاسبة و الاحتساب مع الأجانب، مع اختلاف الحكم زيادة على كون مثل ذلك لا يتم إلا بموافقة الكومسيون المالى الذى هو المحتسب على مالية الحكومة من الأجانب، فرفض مطلب الشركة الإنكليزية المذكورة و فسخ الإتفاق معها و اشتهر ذلك.
فجاءت فى أثره شركة فرنساوية و هى المسماة الآن بشركة «بون كالمه» و طلب زعيمها من الوزير خير الدين إحالة الإتفاق الذى فسخ مع الشركة الإنكليزية لعجزها إلى الشركة الفرنسية المذكورة بلا اشتراط الضمان المذكور لكن على شرط إيصال الطريق بطريق الجزائر، فأجابته حالا بعدم تيسر ذلك لجلبه مسائل سياسية لا داعى لفتحها، فرجع الزعيم و قال: نكتفى بالحلول محل الشركة الإنكليزية التى سمحتم لها و ارتضيتم بشروط الإتفاق معها فذلك الإتفاق يحال إلينا، فأجابته: بأنه يعرض المطلب على الوالى و أخبر الوالى و عقد مجلسا مركبا من سائر الوزراء و المستشارين إلا الوزير حسين حيث كان فى بلد قرنه لخصام ورثة القايد النسيم، و استقر رأيهم على نقل المنحة لما تقدم من البواعث و الأسباب و لأن الامتناع من خصوص الفرنسيين بعد حصول المنحة لغيرهم، و عدم الفرق فى الشروط ربما لا تسوّغها المعاهدات و الحجاج نعم و إن كان هناك فرق فى سياسة أصل كل من الجنسين، لكنه لا يمكن الإستناد إليه فى الحجاج سيما و صريح المعاهدات مع الدول قائل أن كل منحة أو امتياز أو اعتبار يحصل لأحد الأجناس يكون للجنس المعقود معه المعاهدات مثله، بل فى بعضها يقول أنه يكون له مثل الجنس الأكثر اعتبارا الخ.

فكيف مع ذلك كله يمكن الإمتناع؟ و لذلك أحيل الإتفاق المشار إليه إلى هاته الشركة مع زيادة التحرى فى شروطه للحكومة، فكان مما زيد على الشروط السابقة: أن قسط الحكومة الذى تأخذه من المعدن يكون من ذات الخارج قبل طرح المصاريف. صفحة
الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار؛ ج ١؛ ص ٢٨٠

منها: أن الجهات التى تمتد إليها الفروع يلزم الإتفاق فيها من قبل العمل مع الحكومة على المركز المنتهية إليه و على محل المرور.
و منها: أن لا- توصل الطريق بطريق الجزائر و عند هذا الشرط طلبت الشركة المذكورة أن يزداد أيضا و أن ليس للحكومة أن تمنح الوصل بالجزائر لغير الشركة المذكورة، فزيد ذلك بحيث أن المنحة كانت خاصة بمثل منحة الشركة الإنكليزية مع زيادة شروط لفائدة الحكومة، و لم يقع الإيصال و لا طلبه مدة الوزير المذكور و إنما وقع فيما بعد على ما يأتى شرحه فى المطلب الثامن إن شاء الله تعالى.

و يشهد لما فى ذلك من المنافع و عدم المضرة المكتوب الذى أرسله قسم النظر من الكومسيون المالى إلى الوزير خير الدين أثر انعقاد الإتفاق، و نصه:

سیدی فإن أعضاء قسم النظر من الكومسيون المالي رأوا أن من واجبات مأموريتهم إبداء سرورهم لجنابكم بالاتفاق المنعقد في هذه الأيام على إحداث طريق حديدية بين الحاضرة و وطن باجه، لأن ما يلزم لنقل نتایج الوطن من المصاريف الباهظة عطل وسق صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ٢٨١

النعمة فكاد أن يبطل أهم فروع متاجر المملكة مع الأقطار الأجنبية، فكان من الأكيد إزالة هذه العوائق بتيسير اشتغال الفلاحة و المعاملات، و قد عرض فيما سبق قسم النظر على جنابكم صورة إحداث طريق اعتيادي بين الحاضرة و الوطن المذكور حرصا على حصول الثمرات الأكيدة، فلما وقع الآن ما نؤمل به إتمام هذه المصلحة بما لا يثقل مالية الدول مع استيفاء الشروط الواجب اعتبارها في مثل هذه المشروعات، صار فرضا علينا نظرا إلى مصالح البلاد التي هي لا محالة مصالح أهل المملكة و الأوروبويين المستوطنين بها على اختلاف أجناسهم، كما هي مصالح أرباب الدين أن نهنيء جنابكم بإتمام هذا المقصد المبارك و لم يبق لمحبيكم إلا أن يؤملوا المتاجرة فيه في أقرب وقت، بحيث تستكمل به رغبة الأهالي فيرون إن شاء الله اتساع نطاق التعامل و نمو أسباب العمران في تلك الجهات، و يفتح ما بقي مرتجا إلى الآن من أبواب الفلاح و موارد الثروة و هذا أول ما ترتبط به فيما بعد سائر جهات المملكة من الطرق السهلة السريعة، فلا حاجة حينئذ إلا للمداومة و مساعدة الوقت لتجديد شباب المملكة و فلاحتها و الصناعة و المالية بها فيتم بذلك ما لم يزل جنابكم ساعيا فيه حق السعي منذ ثلاث سنين من تعميم هذا القطر، و الكتب من معظي السيادة أعضاء قسم النظر من الكومسيون المالي في ٢٠ مايه المسيحي سنة ١٨٧٦م، و صحح من الأعضاء الإنكليزيين و الطليانيين و الفرنسيين، فلو كان في تلك الطريق ما يخل بالسياسة لما صحح الإنكليزيون و الطليانيون لأن ذلك مبان لسياستهم، و لو فرضنا جهلهم بها لنبههم أهل سياستهم لكي يكون لهم مستندا يوما ما، بل إن أهل سياستهم لم يتعرض منهم أحد رسميا لذلك على أن توهم الاستيلاء الحسى بمجرد الطريق المذكورة من الفرنسيين ليس هو إلا وهم، لأن قوة فرنسا و منعها من الاستيلاء على تونس ليس هو لتوقفها على صعوبة الطريق فإن بين مرسى عنابه و مرسى حلق الوادي مسير إثني عشر ساعة فقط بالبواخر في البحر، بل أن مرسى ابن زرت لا تبعد عليها أكثر من ثمان ساعات، و سفن فرنسا التي توصلت بها من فرنسا إلى الجزائر بل و من فرنسا إلى سانيفال بأفريقية الغربية و إلى كنبوديا بالهند الشرقية لا يصعب عليها قطع تلك الساعات.

تنبيه: قد أيد هذا الرأي ما حصل بالفعل في خارج القطر من هجوم عساكر فرنسا برا و بحرا على القطر سنة ٩٨ و لم تركب و لا فرقة منهم طريق الحديد المذكورة مع وصولها إلى حدود الجزائر، و أما الاستيلاء المعنوي فإن كان المراد منه زيادة النفوذ و زيادة المتجر فسيأتي عليه الكلام في المطلب الثامن إن شاء الله. و إن كان بالمعنى الذي مر نقله عن أحد الإنكليزيين و بقاء مراسى القطر خالية؟ فهو مدفوع بأن السلع التي تؤدي عند دخولها إلى فرنسا تصير تؤدي ذلك في حدود الجزائر، و غاية الأمر أن يتبدل الطريق و محل الأداء، و أما ذات الأداء فهو واحد و به يتحد ثمن البضائع سواء شرحنت من هاته المراسى أم من هاته، و قد اجتمعت في موطن مع الوزير خير الدين بعد الاتفاق المذكور و شيوع ذلك الاعتراض بما تقدم ذكره فذاكرني في دفعه بما يقرب مما شرحناه، و زاد في الجواب و هو متبسم بأن

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ٢٨٢

قال: إن الاعتراض بأن مآل ذلك الطريق هو إخلاء مراسى القطر التونسي و انحصار الشحن في مراسى الجزائر الخ. هو مما لا يقوله إلا جاهل أو متجاهل بما ينشأ عن الطرق الحديدية من العمران و سهولة المواصلة مما يكفي في البرهان عليه الوجود الخارجي في الممالك الحاوية لتلك الطرق و الخالية عنها، فإن ازدياد عمران الأولى و توفر مكاسبها، و عكس ذلك في الثانية مما يفنى فيه العيان عن البيان، فأما المتجاهل فالكلام معه ضرب في العبث و أما الجاهل فجوأنا له أن المضرة من نقل البضائع بطريق الحديد إلى الجزائر على ما قالوا لا- يخلو إما أن تحصل للأهالي أو للحكومة، فإن قلنا أنها للأهالي بالنظر إليهم فرادى، فالجواب أن الأفراد مدار نفعهم على زيادة أسعار بضائعهم بقطع النظر عن المحل المشحون منه، و ذلك لا يحصل إلا بتسهيل النقل المنحصر في طريق الحديد نعم

إذا خشى من خروج النتائج الغلاء في البلاد فللحكومة منع الإخراج من أى طريق كان سواء كان من مراسيها أو من الحدود البرية، و إن قلنا أن المضرة تحصل للأهالي بالنظر لمجموعهم من حيث نفع الوطن فهو يرجع حينئذ إلى منع الحكومة، فيكون الجواب شاملا لكليهما معا و هو: أن مضرة الحكومة مندفعة بما تقدم شرحه من أخذها أداء الشحن إلى خارج القطر سواء خرجت النتائج من المراسى أم من الحدود البرية على السواء، بل نقول: إن بالطريق الحديدية يحصل النفع و دفع الضرر في خصوص الأداء المذكور بخلاف وقت انعدام الطريق، و بيانه أن الحدود ما بين تونس و الجزائر ممتدة على جميع طول الحد الغربي للقطر التونسي المتجاوز أربعمئة ميل، و أغلب سكانه أعراب رحاله يتكسبون بما يحملونه على ظهور إبلهم، فإذا وجدوا أثمان النتائج أغلا- في الجزائر لدخولها إلى فرنسا بدون أداء، لا شك أنهم ينقلون نتائجهم إلى المحل الذي تسوى فيه أكثر من غيره كما هو واقع، و يتحملون غلو الكراء بالحمل على الإبل لأجل ذلك؛ فإذا جعلت الحكومة مراكز لأخذ الأداء عند الإخراج من الحدود لا يخلو الحال إما أن تجعل المراكز على طول خط الحدود، أو تجعلها في أماكن مخصوصة هي أكثر مرورا و عمراناً من غيرها.

فأما الأول: فهو ممتنع لكثرة ما يلزمه من الحراس الذين لا يوفى بمؤنتهم مدخول ذلك الأداء.

و أما الثاني: فلا يحصل منه المقصود لأنه لما كانت جهات الحدود كلها سواء فصاحب النتائج يتحمل مسير نصف يوم زائد على جهة مركز الحراسة، و يخرج نتائجه بدون أداء شيء، فتلخص من ذلك:

إن النتائج تخرج إلى الجزائر دون أداء للحكومة التونسية بخلاف ما إذا وجد طريق الحديد، فإن رخص الحمل فيه يعادل أضعاف الأداء على النتائج للحكومة، فالأهالي تعدل عن الحمل على ظهور الإبل لغلوها و تؤدي أداء الحكومة في مركز الطريق الحديدية و لا يضرهم ذلك لأنهم يربحون ما توفر لهم من الكراء مع قرب المسافة و قصر الوقت،

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ٢٨٣

و الحكومة يمكن لها ضبط مركز الأداء بجعل حراس عليه لأنه متحد، و بعد هذا كله إذا فرضنا توجه الإعتراض و صحته لماذا يحمل علينا وحدنا، و الحال أن المنحة إنما أعطيت بمشاركة جميع الوزراء و المستشارين ممن تقدم بيانهم، فإذا تشارك جماعة في رأى فلماذا يحمل منكره على واحد منهم فقط لمجرد مباشرة تنفيذ ما استقر عليه رأى الجميع هذا كلامه، على أن هذا كله مفروض عند وصل الطريق و قد علمنا اشتراط عدم وصله لمجرد الأسباب السياسية التي يأتي بيانها لا لما تقدم ذكره، فلا يتأتى الإعتراض إلا عند ذلك و سيأتى لهذا مزيد بيان في موضعه إن شاء الله تعالى.

كما وقع الإعتراض على هذا الوزير في كون الفائض جعل للدين أكثر من القسط الذي عينت مداخله لذلك، حتى لزم الحكومة إكمال الفائض في بعض السنين من دخلها و الإستقراض في بعض السنين برهن مدبغة الجلد للإيفاء بالفائض أيضا، و من المعلوم أن خلاص الدين بالدين يؤدي إلى تفاقمه، و أوجب عن هذا الإعتراض بما تقدم شرحه في كيفية الوجه الذي أعمل في الديون، فقد علمت أن الفائض قد حط من عشرين مليوناً فرنكا إلى ستة ملايين و نصف بمشاركة نواب الدائنين ثم تأسيس ذلك المقدار على معدل الميزانية التي أرسلت من الوزارة السابقة التي وقع فيها الغلط في تقدير فصل السرحات كما بيناه هناك، سيما و قد رأى الكومسيون الوفاء بذلك في بعض السنين و رأى اقتدار الحكومة على الإيفاء في بعضها، فلا يسلم صاحب المال في ربحه بسهولة إلا بعد تيقنه العجز، و لا يحصل ذلك إلا بمداخلة قسم النظر من الكومسيون في أحوال ميزانية الحكومة الراجعة لمصاريفها الخاصة، و ربما كان ذلك غير ملائم لسياسة الحكومة لمزيد التضيق عليها و التحجير على تصرفاتها، فاختر أخف الضررين إلى أن يكشف الواقع على ما هو في الإقتدار حقيقة بطول المدّة و التجربة، و تنقاد و كلاء أصحاب الديون عن بينة.

لكن الوزير خير الدين خرج قبل حصول ذلك كما لام الوزير المذكور أفراد قليلون من المتوظفين على عدم إحيائه للقوانين لكن على أن تكون على غير الكيفية التي سبق بها العمل في تونس بل على وجه يندفع به الإعتراض الذي مر فيها، بأن تكون موافقة لأحكام الشرع، و المباشرين للأحكام الشخصية هم نفس الأحكام الشرعيين بضبط نفس الأحكام في قول واحد شرعي، و جعل مجلس

شورى لمصالح القطر أعضاؤه من جميع جهات القطر إلى غير ذلك مما يناسب الحال من القوانين لما هو معلوم من ميله إليها كما مر في الكلام على قوانين عهد الأمان، و حاصل جوابه الذي علمناه منه عند إبلاغ الإعتراض إليه و هو بتونس، هو أن الدول الإسلامية لا يتيسر ذلك فيها إلا بإرادة الملوكة أو الأمراء الذين لهم استقلال في الإدارة، و قد كان والى تونس أجراها ثم لما أبطلت بالكيفيات التي مر ذكرها، كان والى المذكور أشد النافرين عنها فلا يصفى إلى إنشائها و ليس في ذات الأهالي من يرغب فيها بإلحاح في طلبها إلا أفراد قليلون، كما بان بالكاشف فيما وقع عند إيقافها و كما بان بالإستخبار للأعيان عند إعلان الدولة العلية بالقانون الأساسي، فلم يبق إلا أحد شيئين:

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ٢٨٤

و هما: إما بقاء الوزير خير الدين في الخطبة بدون القوانين لرفع ما يستطيعه بذاته، أو أنه لا يبقى في الخطبة إلا بوجود القوانين فاختار هو الوجه الأول بدعوى عدم إمكان الوجه الثاني، و هاته الدعوى المستندة لما تقدم ذكره رجح عند البعض خلافها، لأنه لو تيقن والى تونس في أول الأمر إصرار الوزير على عدم البقاء في الخطبة إلا بوجود القوانين لكان يحصل المقصود و تدوم القوانين معمولاً بها في الأقل مدة بقاءه و لا لوم عليه بعد انفصاله، و من بلغ المجهود حق له العذر.

و قد كنا اطلعنا على تحرير للوزير المذكور بعد انفصاله عن الخطبة بتونس في الجواب عن الإعتراض بما ذكر، فأثبتنا خلاصته هنا ليحكم المطالع بين الشقين و حاصله: أنه بلغنا أن أناساً لامعوا على عدم تأسيسنا في مدة وزارتنا التنظيمات السياسية المعبر عنها بالكنتسيون، التي كنا أوضحنا في كتابنا أقوم المسالك الأدلة النقلية و العقلية على لزوم تأسيسها و إجراء العمل بها، و لما كان صدور مثل هذا اللوم منبأ عن عدم فهم من صدر منه لما كنا شرحناه في الكتاب المذكور من الأحوال التي تنبئ عليها التنظيمات و جب إعادة الكلام على ذلك و بذلك يتضح الجواب عما ذكر فنقول: «إن تأسيس التنظيمات السياسية الحاملة على اتباع المصلحة قد شوه أنها نشأت في الممالك المستقرة بها بإحدى طريقتين، إحداهما: أن يكون تأسيسها من الراعي، و ثانيها: أن تطلبها الرعية، و الصورة الأولى هي الممكنة في الممالك الإسلامية إذا انتبه الراعي لفوائد التنظيمات فيسعى بجد و اجتهاد في تأسيسها و حمل الناس عليها مستعينا بالله و بأهل الدراية و المروءة حتى تدرك العامة منافعتها و يتمسكوا بها، و يحصل لمن تسبب فيها فخر و أجر من أسس ما يدوم به العدل الذي فضل الحكماء صاحبه على فاتح الأقاليم الكثيرة، و وجه ذلك ظاهر و هو أن مصير الفتوحات المؤسسة على غير العدل إلى التقلص و الإختلال و مصير المملكة ذات العدل إلى البسطة و الإعتدال، و الحكيم من لاحظ العاقبة و المآل و عند ذلك تدوم معمولاً بها إذا كان في العامة استعداد إلى فهمها و قبولها، و بدون ما تقدم لا يمكن إجراء ما ذكر فيما علمت، فلا يكفي لذلك معرفة الوزير وحده بمصالحها و ميله إليها و لا نظن أحداً من رجال السياسة العارفين بأصول مبنى التنظيمات يخالفنا في هذا، فكان الواجب على المعترضين أن يبحثوا أولاً عن معرفة حال أمير تونس هل هو ممن يسعى في تأسيس ما ذكر على الوجه المذكور؟ و عن حال الإيالة هل فيها من يعتبر لحفظها و قبولها؟ و في ظني أن كلا الأمرين لا يوجد منه ما يسوغ الإقدام على تأسيس التنظيمات و في يقيني عدم نجاحه بدون ذلك كما أعطته التجربة، فإن التنظيمات التي أسست في هذه المملكة سنة ١٢٧٧ هـ المتقدم بيان أصولها الكافلة بتأمين السكان أبطلت تمشيتها مع الحلف على إجرائها بسعى الوزير و اتباعه، حتى آل أمر المملكة إلى ما قد رأيت من تصرفات الحكومة زمن وزارة السيد مصطفى و ما نشأ عنها من المضار في النفوس و الأعراض و الأموال و لم يتعرض أحد لذلك بأدنى إنكار.

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ٢٨٥

فلما كان الحال ما ذكر و أيسر من والى بتونس في تأسيس التنظيمات، سعت في تحسين إدارة المملكة و تأمين راحة السكان بقدر الطاقة و الإمكان مستعينا بالله و بمن كان من أهل المروءة من رجال الحكومة، إلى أن آل أمرى إلى الإضطراب إلى الخروج و أن ترتب عليه ما حصل لنا بعده من الصعوبات بمنع الناس من مخالطتنا، و لم أتوصل على الحقوق البشرية الواجبة شرعاً و طبعاً.

مع أن ذلك وقع في حق رجل تقلب في سائر رياسات الحكومة، وحصل على يده مصالح حسب الوسع، و يسوغ له أن يقول حكاية للواقع أنه بإعانة الله و عنايته حمى وحده مدة وزارته جميع السكان من الظلم و التعدي عليهم، بدليل أنه بعد خروجه من الخطه رجع الأمر لما كان عليه قبل ذلك لأن الوالى فى الحكومة لا زال هو بذاته، و كذلك رجال الحكومة الذين خدموا معه و هم الذين خدموا مع السيد مصطفى أيضا لا زالوا متوظفين، و هؤلاء قسمان: عفيف فى نفسه غير قادر على منع غيره من الظلم، و ظالم كان محجوزا بنا عن ظلمه فانطلق بخروجنا من الخطه، هذا و أنى لا زلت أقول إن تونس لا تستقيم بدون تنظيمات، و أنها لا بد لإجرائها من الطريقة المار ذكرها و إلا- فالتنظيمات فى تونس بدون ما ذكر كالعنقاء إسم بلا مسمى، فلا تغترن بقول من لا يدرك الحقائق و الله تعالى يرشدنا و إياهم إلى ما يرضيه بمنه أمين انتهى.

و بما تقدم من انتقاد بعض التصرفات وجد أضداد الوزير خير الدين السبيل إلى إيقاع التنافر بينه و بين الوالى إلا مسألة القوانين فلم يعرجوا عليها، غير أن ذلك لم يفدهم لأنه مدفوع بما تقدم شرحه و الوالى على علم منه، فلذلك نزعوا إلى أوجه أخرى و بيانها يستدعى بيان منشأها و أسبابها، و حاصله أن الوزير خير الدين لما باشر الوظيفة بلقب وزير مباشر لم يكن له ضد فى نقض أعماله إلا الوزير السابق مصطفى خزندار، لكنه لم ينجح لتبصر الوالى فيه و معرفه سائر المتوظفين و الأهالى بتصرفاته التى نفروها، حتى ذات خدمه الوالى فى نفسه و قصره، فكان الجميع يدا واحدة مع الوزير خير الدين و لما عزل الوزير السابق مصطفى خزندار و ولى مكانه الوزير خير الدين و استقر أمره بعد الإنفصال معه على ما مر شرحه، طمعت نفسه للرجوع إلى المنصب أو فى الأقل مواجهة الوالى و إسقاط خير الدين عن الوزارة و استعان على ذلك بأفراد من الأجانب و بأحد خاصة الوالى و هو الوزير مصطفى بن إسماعيل، و اعتضد الجميع كل على حسب فوائده فتارة يقدمون فى التصرفات العامة و إشاعة ذلك فى الصحف الأجنبية و يبلغونها بذاتها أو بتعريبها للوالى بواسطة خاصته المذكور، لكن لما رأوا عدم نجاح المقصود بذلك لأنه لا يروج على الأهالى لمشاهدتهم حسن إدارة الوزير، رجعوا إلى إشهار أراجيف تتعلق بالسياسة الخارجية فمنها ما يرجع إلى تغيير الوالى و عائلته من الوزير خير الدين و أشهروا أن للمذكور اتفاقا سياسيا سرىا مع الدولة العلية، و منها: ما يعود إلى تغيير الأهالى من الوزير المذكور فأشهر أن مراده تسليم البلاد للفرنسيين، و منها: ما يعود إلى تخويف أصدقاء الوزير خير الدين و عموم الناس فأشهر أن

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ٢٨٦

مراد الوالى إرجاع الوزير السابق مصطفى خزندار لخطه الوزارة، حتى أثر كل قول فى أصحابه و نشأ عن الأخير التشويش فى عقول العامة و تجار أوروبا بما أوجب إنحطاط أسعار الرقاع للدين التونسي عدة مرار للتخوف من تبديل السيرة فى السياسة الموجبة لتعطيل فائدة الدين، حتى أعلن للوالى بتكذيب تلك الإشاعات فكتب للوزير خير الدين مكتوبا و نشره فى الرائد التونسي و نصه:

«بعد الحمد لله و الصلاة، أما بعد: السلام عليكم و رحمة الله تعالى، فإنه بلغ لحضرتنا أن بعض أشخاص كادت أن تكون أسماؤهم معروفة ممن كان لهم فى تصرف أمير الأمراء إبننا مصطفى منافع شخصية تعطلت عنهم بسبب مساعيكم الجميلة بالإدارة المنوطة بعهدتكم، أشاعوا أراجيف لا حقيقة لها حملهم عليها الميل لما يوافق شهواتهم، و هى و إن كانت مما لا يترتب عليه أثر و لا يكون لها موقع لأولى الأحلام إلا أنها ربما توجب لمن كان خلى البال شغلا عما يعينه، مع أن الأسباب التى اقتضت عزل المذكور لم تزل تعضدها أنظارها و الآثار التى أنتجتها مساعيكم الحميدة لم تزل تحمد أخبارها و تظهر للأعيان آثارها، و لعلمنا بما فى شغل الأسماع و لهى الآذان بسماع هذه الأراجيف التى لا توصل قائلها إلى مقصوده من إضاعة الوقت بنقلها و الإلتفات إليها، حررنا لوزارتكم هذا الرقيم لنهى من يشتغل بذلك و ليتحقق السكان أن استحساننا للإدارة المنوطة بعهدتكم لم يزل و المنه لله تعالى متزايد بتزايد آثارها، و أن ما أرجف به أولئك الأشخاص لا يجدون إليه مستندا و تشهر ذلك للسكان ليزول عنهم الشك الذى قصد إيقاعهم فيه و شغل بالهم به، لترتاح أفكار من يريد مصلحة وطنه و نجح خدمته، فالعمل أن تجتهدوا بالاستمرار على تلك السيرة الحسنة التى ظهرت آثارها لدولتنا و الله تعالى يحرسكم و يمدكم بحفظه و إعانتته و السلام»، من الفقير إلى ربه تعالى المشير محمد الصادق باى وفقه الله

تعالى بمنه، كتب في الثاني والعشرون من شهر رمضان المعظم سنة إحدى وتسعين ومائتين و ألف.

(التوقيع) صح من كاتبه محمد الصادق باي

فأنت ترى ما صرح به الوالي من حسن نتيجة خدمة الوزير خير الدين، و هو الذي تشهد به سكان الإيالة على اختلاف أجناسهم و مع ذلك لا زالت الأعداء تسعى بالفتن بين الوالي و الوزير حتى كان في خلال تلك المدة جميع رجال الحكومة في كدر من خوف تفاقم النفرة بين الوالي و وزيره الموجبة لانفصال الوزير عن الوظيفة، و لما تيقن الوالي ذلك دعى الوزير خير الدين و وعده بقطع التعرضات و أمر مصطفى بن إسماعيل بالكف عن سيرته و موالة الوزير خير الدين، و كان ذلك أواخر سنة ١٢٩٢ هـ فدام على نحو ذلك بضع أشهر ثم عادت الكرة في أواسط سنة ١٢٩٣ هـ، و أثرت الأقوال في الوالي إلى أن صار يستفهم من عمدته عن رأيهم في فصل الوزير عن الخطة، فرأى منهم استعظام الأمر و ربما قال

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ٢٨٧

بعضهم أن بلدنا صغيرة و ليست بمتأنسة بفصل الوزراء على التابع سيما مع رؤية الرعية لسيرة هذا الوزير فربما نشأ من فصله ما يسوء العموم فأحجم الوالي عن فصله في أثناء تلك المدة، و قال أحد المحيين للوزير خير الدين، إن استناد الأضداد في اختراعاتهم يؤل إلى الإستبداد منك على الوالي و رؤساء المتوظفين و ذلك ينقطع بأمرين: أولاً: أن تشارك مع بقية المستشارين و الوزراء في إعطاء رأيهم مع مستشار القسم الأول من الوزارة و مع أعضاء قسم العمل من الكومسيون، بحيث يشترك الجميع في الرأي عند تحرير ميزان الحكومة في الخرج في رأس العام. و ثانياً: تقسيم الإدارة في الرسم تبعاً لما هو جار في المعنى في أقسام الوزارة حتى يكون مستشار كل قسم يلقب بوزير و يمضى هو على المكاتب و يتحمل مسؤولية ما يعود عليه.

و لما بلغ ذلك الكلام الوزير خير الدين لاحظ فيه ما يأتي و هو أن الأول واقع بالفعل لأنه بعد تحرير الميزان من قسم العمل و مستشار القسم الأول يعرض على بقية الوزراء و المستشارين و يبدو ما يظهر لهم فيه، ثم يعرض بعد ذلك على الوالي للتروى فيه و يمضى ما يستقر عليه الرأي، و أما الثاني فإنه حالة ضيق القطر و صغر الإدارة لا تقتضى تعدل المصادر، بل ربما أوجب ذلك التعاوض في الأوامر لمأمور واحد في حادثه واحدة مع ما في ذلك من زيادة المصاريف بتعدد المأمورين في كل جهة و كل قبيلة و ذلك لا تطيقه مالية الحكومة و لا تتحمل الرعايا الزيادة عليهم، هذا خلاصة جوابه الذي لم يقنع الناصح حيث أن العرض في الأول إنما هو صوري و التضايق في الثاني مدفوع بالاقتصاد و حسن التقسيم مثل ما هو واقع بين المستشارين، لكن الأهم من جميع ما تقدم امتناع الوالي من إجراء المطلوب بدليل ما جرى من بعد خروج الوزير خير الدين عن الوزارة و استمرار نوع الإدارة على ما سبق من انحصارها في شخصية الوزير الأكبر، كما نصح الوزير المشار إليه لإبعاد التهم عنه بأنه ينبغي له أن يسوى بين نواب الدول في المعاملة، و لا يزيد في تقريب نائب فرنسا و هو يقول أن معاملته مع ذاك النائب شخصية لا تعلق لها بالإدارة، على أنه لو قيل إن تلك المعاملة مما يقتضيها الحال في دفع غائلة فرنسا لما بعد ذلك، لأن ترجيح كفتها بتونس ضروري و ارتكاب أخف الضررين واجب، فإن لم تر لنفسها رجحانا تكالبت إلى أن تصل إلى قصدها و لو بالتغلب على تلك البلاد كما أوضحنا خلاصة سياستها سابقاً، و لما تقدم عادت المصافاة بين الوزير خير الدين و الوالي حتى كتب الوالي إلى قنصل الفرنسي بتكذيب ما أشيع تارة بعزمه على إبدال الوزارة و تارة بالعزم على التنقيص من مقدار الفاضل، مما أوجب عدم الإطمئنان بمالية الحكومة و انحطت أثمان رقاغ دينها، فكتب إليه في جمادى سنة ١٢٩٢ هـ بما نصه:

«الحمد لله وحده أما بعد: فقد رأينا في الجرنالات الفرنسية ذكر ظنون أبرزت في صورة مقدمات مسلمة و استخراج نتائج، منها يريد صاحبها التنفير من إدارة دولتنا و تنقيص ثقة حاملي الرقاغ بما بأيديهم من رقاغ الدولة، مع أن تلك الظنون لا حقيقة لها في الواقع

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ٢٨٨

و لا- أصل، و ما استخراج منها ترده الأدلة المشاهدة زيادة على كونه مبني على غير الواقع، و هذه الأراجيف و إن كانت باطلة عند

المنصف و عند من يعلم حقيقة الواقع و لم يترتب عليها ما قصده من الأمور السياسية فإنه نشأ عنها لغير من ذكر و لمن لا اعتناء له إلا بالتحفظ على ماله بمراعاة كل ما يطرق سمعه خوف، ترتب عليه بعض إنحطاط في سعر الرقاع مع أن كوبونها يدفع في أوقاته كاملا، و إدارة مداخله جارية على الوجه الكافل بحفظه، و غير خفي على جنابكم ما يلحق كلا من الدولة و المتجر من ضرر هذا الإرجاف الذي مع كونه لا- حقيقة له و مضاد للواقع، لا- داعي إليه إلا أغراض غير خفية، و لما كنا على يقين من أن جنابكم يود الخير لبلادنا كاتبناكم بهذا مؤملا منكم السعي الجميل بحسن وساطتكم في إيقاف هذا الضرر، إذ لا شك في أن المتصدى لنشر ذلك و الحالة هذه لم يكن له قصد إلا ما ذكرناه، و لحرصه على ترويح ما أبرزه تكلف ما يظن أنه يعينه على مقاصده و هو توزيع نسخ من الجرنال و تبليغها لمساكن أناس لا معرفة لهم به و لا اشتراك لهم فيه مجانا من غير أن يطلب منهم عوضا عنه خلافا للعادة، و نشر ما هو من فروع مقصده بغيره فتعين بما أشرنا إليه أن ذلك لم يكن للإرشاد و لا للنصح اللذين أبرز كلامه في صورتها و إنما هو للمقصد المشار إليه الذي نتحقق أن جنابكم لا يرضاه و يبذل الجهد في تعطيله و لو بإشهار هذا إعانة لنا بما تقتضيه المودة، على ما أملناه من الخير و تأييدا للحق بإظهار الواقع كما هو المقطوع به من إنصافكم و محبتكم و دتم في أمن الله، و كتب في ٢٠ جمادى الثانية سنة ١٢٩٣ هـ ألف و مائتين ثلاثة و تسعين».

ثم حدث بعد ذلك في الآستانة ولاية السلطان مراد فتوجه إلى تهنته من تونس على لسان الوالى وزير الحرب رستم و له مودة اقتضتها المعاشرة الطويلة مع الوزير خير الدين، كما له معه مصاهرة حيث أن الأول زوج بنت الثانى، و كان ذلك في جمادى الثانية سن ١٢٩٣ هـ و حصلت إذ ذاك الحرب بين الدولة العلية و الصرب فظهر من جهات الإسلام الإعانة للدولة العلية بالمال لضيق ماليتها و بمقتضى الحقوق الدينية و الإرتباط السياسى بين تونس، و الدولة لزمت الإعانة بالمال أيضا من تونس و كان حال الحكومة فى ضيق المالىة و عدم إمكان القرض ما علمت، فاجتهد الوزير خير الدين بعد الإستشارة و المفاوضات فى حصول الإعانة بالمال من الأهالى عن طيب نفس، و صدرت بذلك مكاتيب الوالى و الوزير إلى الجهات من الحرص فى التعجيل، فظهر من الأهالى غاية الرغبة إلى أن حصل مقدار مليون و أربعمائة ألف فرنك مع مصاريف الصرب و الحوالات لإرسال المال سكة رائجة فى الآستانة، و قدر ما دفعته الأهالى ريات ٢٣٨٤٠٤٢ و نشر حسابه فى الصحيفة الرسمية و وصل بتمامه للباب العالى، و فى أثناء ذلك رجع وزير الحرب رستم المذكور، ثم حصل فى الدولة العلية صعود سلطاننا المعظم عبد الحميد على تخت السلطنة و أعيد إرسال وزير الحرب المذكور للتهنته أيضا و أقام بالآستانة ثمانية أشهر لتثبيته من الباب لإحضار جوابه و إحضار ما تفضل به الحضرة السلطانية على الوالى مع كثرة شغل الدولة إذ ذاك بحرب

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ٢٨٩

الصرب و الجبل الأسود و البلغار و هرسك و بوسنه و بالمؤتمر الذى عقد فى الآستانة و بإنجاز القانون الأساسى ثم بحرب الروسية، و كان وزير الحرب أثناء إقامته بالآستانة فى المدة الأخيرة قدر شهرين أو ثلاثة لم يرسل مكاتيب تبين سبب تأخره لأن كل أسبوع يظن أنه يرجع فيه وطالت غيبة المكاتيب و حملتها ذوو الأغراض على ما سيتلى.

ثم طلبت الدولة العلية الإعانة العسكرية لحرب روسيا و لم يكن لحكومة تونس من العساكر التى تحت السلاح إلا مقدار ما يكفى لحفظ الراحة فى القطر، كما أن المال الضرورى لذلك حاله ما علمت فرأى الوزير خير الدين المسألة مهمة جدا و لم يكتف برأى الوزراء و رؤساء الحكومة و طلب من الوالى عقد مجلس عام من ولى العهد فى الحكومة و أهل المجلس الشرعى و الوزراء و أعضاء جمعية الأوقاف و المجلس البلدى و رؤساء سائر أقسام الإدارات و رؤساء الكتبة و المستشارين و ضباط العساكر من أمراء الألوية و الفريقان و أعيان الأهالى و رؤساء ديانة اليهود و كبرائهم العرفيين، فأسعف الوالى على ذلك و انعقد المجلس تحت رئاسة الوالى نفسه و أذن وزيره خير الدين بإلقاء المراد على المجلس، فقال ما معناه: إن الدولة العلية قد أعلنت الوالى بأن روسيا أعلنت عليها حربا و إن لها فى الحدود للمدافعة عن الخلافة الإسلامية و الوطن نحو ستمائة ألف، و أنها مع ذلك لا زالت محتاجة إلى كثرة العدد

و العدد و أنها تطلب من الولاية إرسال العسكر، و لعله سرد ذات التلغراف الوارد من الدولة، ثم قرر أن للدولة حقوقا على تونس، و أن تونس لها عادات مع الدولة لا محيص عنها، و أن حالة الحكومة في العسكر و في المال معروفة للجميع، و أن الوالي جمع هذا المجلس ليشير عليه بما يراه في الطرق الموصلة للمقصود، فحاض المجلس في الكلام و طالت المذاكرات و حصل التشاحن في الرأي، إلى أن علت الأصوات.

و حاصل آراء المجلس هو أن بعضهم يرى إرسال العسكر بالمقدار الذي يطيقه القطر من العسكر النظامي المسرح أكثره و تقريبه نحو ستة عشر ألفا، لكن فيهم من عجز فلا- أقل من وجود ستة آلاف تقدر الأهالي على القيام بهم بما يلزم من الكسوة و القوت، و أما السلاح فللحكومة من المدافع من الأنواع الجديدة أزيد من بطريه، كما لها من المكاحل المسدسة أزيد من عشرة آلاف، و إن كانت تعمر من أفواهاها من النوع العتيق فالحكومة حينئذ تقوم بالسلاح و تعين بمليون من المال الذي لها أن تستقرضه من خزنة مجلس الإدارة لمدة ستة أشهر بلا فائض، و ترجعه بالإقتصاد من مرتبات ذوى المرتبات كل على ما يقتضيه حاله، فإن بعضهم أراد إسقاط جميع مرتبه لذلك. و يتم التجهيز و ترسل العساكر و يجعل على الأهالي تقسيط ما يقوم بهم يدفعونه منجما مع جريان الإقتصاد من الحكومة على نحو ما تقدم، مع الإعلان بأن كل من أراد القتال بنفسه فله ذلك، و يعلل هذا القسم رأيه بأن أحكام الدين قاضية بذلك مع أن نص فرمان سنة ١٢٨٨ هـ مصرح بشرط ذلك، و أنه على فرض الإعانة بالمال الذي يمكن أن يوازي مصروف العسكر فلا يزال التبتكيت على القطر

صفحة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ٢٩٠

بأنه لم يوف بشرطه، و أصحاب هذا الرأي قليلون. و بعضهم يرى أن الإعانة إنما تجب بالأبدان، و أما المال فلا يجب على أحد شيء و من قدر ببدنه و ماله فعليه أن يذهب و ليس على هذا الرأي إلا إثنان، و جميع العلماء و العامة ضدهما و سقط اعتبارهما وقتئذ من أعين بعض رؤساء الحكومة سيما الوزير خير الدين، و بعضهم يرى أن العسكر يحتاج إلى التدريب و إلى السلاح الجديد و بدونه العسكر كالعدم و المال لإقامة ذلك غير موجود، لأن الغضب على أخذ المال من الرعية غير سائغ لما هم عليه و لجهل الحال في الملا و الفقر، فلذلك يلزم أن يوكل الأمر إلى الإختيار كل بما يستطيع.

و بهاته الصورة لا يعلم مقدار ما يتحصل حتى يمكن الاعتماد عليه و تجهز العساكر على مقداره، و على فرض حصول شيء أولا فلا تحقق لجريانه في المستقبل للقيام بالعسكر في المؤنة و الذخائر، و لذلك يكون اللازم هو إحضار المال لإعانة الدولة العلية بالمال و إعانتها واجبة لا محالة، غير أن جمع المال يوكل إلى اختيار الدافع و اجتهاده كما حصل في إعانة الحرب مع الصرب، و هذا هو الرأي الغالب الذي استقر عليه أمرهم، و هذا القسم يدفع تعليل القسم الأول من شرط فرمان بوجوب إرسال العسكر، بأن شرطه الطبيعي أن يكون ذلك في الإمكان، و قد تبين أن الإمكان غير موجود و عمل بهذا الرأي لأنه رأى الغالب.

«و حكم المسألة شرعا أفردناه برسالة فيما كتبناه على باب الجهاد من صحيح البخارى جامعة لحكم المذهب الحنفى و المالكي». ثم جمعت الإعانة المالية على نحو ما تقدم و أرسل بعضها في مدة وزارة خير الدين و قدره، فرنك ٣٠٠،٠٠٠ و لم يعلم حسابها بالتحقيق، لأن الوزير خير الدين خرج قبل نهايتها و بعده لم ينشر حسابها مثلما نشر حساب السابقة، ثم أرسلت الدولة العثمانية بطلب ستمائة بغل لجر الأثقال الحربية و إن كانت خيلا و بغالا فلا بأس به، فعمل الوزير خير الدين حزمه في طلبها من أعيان المتوظفين و قبائل العربان و البلدان بأن عين لكل فرد ما يدفعه من عدد البغال أو الخيل، و كذلك القبائل و البلدان على أن يسعر ما يدفعه أهل البلدان و القبائل من الحيوانات بالمال و يقسط ثمنه على جميع الأهالي على حسب الجدة، و يدفع الثمن لصاحب الحيوان بحيث لا يناله من المال إلا- أمثال غيره، فتساقبت الناس إلى ذلك و تنافسوا فيه، و كثير من أصحاب الحيوانات في القبائل و البلدان امتنع من أخذ الثمن و جعلها في سبيل الله، و أحضرت الحيوانات و بقيت تنتظر سفن الدولة لحملها لأن حملها في السفن التجارية غير مأمون عليه خشية تعرض سفن المحارب الذي أشاعه من يريد اجتناب تونس من الدولة العثمانية، و شحنت تلك الحيوانات للاستانة بعد

خروج الوزير خير الدين من الوزارة ببضعة أيام.

و في مبدأ الحرب سأل أحد نواب الدول الوالي و الوزير عن قصد الحكومة في التداخل في الحرب و حذرهما من عواقب قدوم الأسطول الروسي إلى مراسيها و خسارتها من

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ٢٩١

ذلك مع عدم كبير الفائدة من إعانتها للدولة، فأجابه الوزير: بأن الوالي لا يستطيع ربط نفسه بالكلام في عدم التداخل في الحرب، ثم جاء قنصل روسيا و أنذر، و احتج بأن الوالي صرح بأنه لا يتداخل في الحرب، فكذبه الوزير و أن الوالي لم يصرح بشيء ينزع حرته، كما أن الرائد التونسي نشر من المقالات السياسية المنتصرة للدولة العلية ما هو مشهور، و هو لا ينشر إلا ما يوافق مشرب الحكومة لأنه هو الصحيفة الرسمية لها، و الوزير هو الذي يشير بالمقاصد التي تنشر فيه، فمن جميع ما تقدم اتخذها أصداد الوزير خير الدين سبلا لتنفيذ الوالي منه و إسقاطه من الوزارة، فقالوا: إن وزير الحرب كان سبب طول مكثه في الآستانة السعي بما يضر بالوالي، و أنه يكاتب الوزير خير الدين و هو لا يظهر مكاتبه للوالي لأنها ضده، و أن زيادة ميله للدولة العثمانية ظاهرة مما تقدم بيانه، و الوزير يقول: إن تأخر وزير الحرب لا علم له بسببه لأن واقعه في نفس الأمر هو ما تقدم شرحه، و أنه لو تروى القائل في قوله لوجده غير صحيح، لأنه لو كان بينهما شيء حقيقة لزم أن يأتي من وزير الحرب مكاتيب صورية ليطلع عليها الوالي، و لما ساغ عدم إظهار و لا مكتوب واحد حتى يتفطن الوالي مما لا يفعل عاقل فدل ذلك على بطلان أهل التهمة و قد حققه الخارج، كما يقول الوزير أن ما فعل مع الدولة العلية هو الواجب بمقتضى فرمان سنة ١٢٨٨ هـ، و هو الواجب ديانة و لا قصد إلا حفظهما، و لكن لم يجب ذلك في السعاية بل أثرت في الوالي لأنه كان حصل قبيل تلك المدة نازلة إدعاء مصطفى بن إسماعيل على يوسف بن عطار أحد تجار اليهود بتونس أنه يطلبه بسبعة ملايين أو أزيد من جهة رقاع مالية و مصوغ أعطاها له للتجارة بها، و أنكره المدعى عليه و استظهر وكيل مصطفى بن إسماعيل بحجة ثبت في الوزارة زورها على ما يسرد تفصيله في المطلب الثامن، و أراد الطالب أن يكون هو الخصم و الحكم و رفع المطلوب أمره للوزير بهروبه إلى قنسلاتو إنكلتره و حمايتها له، و تداخل القنصل في النازلة له فرأى الوزير أن يعقد لفصلها مجلسا و أنف من ذلك الطالب و وافقه الوالي و امتنع الوزير من الحكم في النازلة تجنبا من الكلام فيها من الجهتين، فازداد حق مصطفى بن إسماعيل من الوزير.

و من ذلك التاريخ اشتدت الوشاية و أشاعوا أن الوالي نفر من الوزير بسبب ما تقدم، و أنه بلغه عدم إرتضاء رؤساء الحكومة بسيرة الوزير مستندين إلى ما سبقت الإشارة إليه، ثم أشاعوا أن الوزير يريد تسليم البلاد إلى فرنسا مستندين بسكة الحديد المار ذكرها و إلى عدم إرسال العسكر إلى إعانة الدولة العثمانية، و ازداد إشاعة هذا بعد انفصال الوزير خير الدين عن الوزارة لقصد تغيير الأهالي منه، حيث أن الوجه الأول لم يؤثر فيهم و الوزير يجيب بنفس الوقائع و أدلتها مما وقع في الخارج و استوفينا ذكره، و كثر الكلام في هذه المنحى إلى أن خاطب الوزير الوالي بحكاية مضمون ما تقدم شرحه من كثرة ما أشيع في شأنه، و أن الإشاعات صادرة من خاصته و أن ذلك مما يقدح في نفس المنصب و يعطل الإدارة، و أنه يلزم أحد شيئين: إما توثق الوالي به و رفع العوائق، أو استعفاؤه. و قد كان الوالي إذ ذاك

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ٢٩٢

صمم على قبول استعفائه لاعتقاده ما أشيع بل لأن مصطفى بن إسماعيل غير متداخل في الإدارة بما يرضيه، لأن الوزير ممانع له لما يراه من تصرفاته حسبما يأتي إن شاء الله في المطلب الثامن، و علم أن الحامل للوالي هو ما ذكر بما صرح به مصطفى بن إسماعيل عند ولايته، فإنه قال ما معناه: لو أن الوزير خير الدين ساعفني لما خرج عن الوزارة، فلما ذكر أجاب الوالي الوزير خير الدين بسؤاله عن رأيه في النازلة، فأجابه بأن رأيه ما ذكره، فقال أعد على الكلام يوم السبت عند اجتماع الوزراء بعد الإشارة إلى أن أوداءه خانوه بما أوقعه في تلك الحال، و ذلك مما يؤيد القول بأن الوشايات لم يصدقها حقيقة و أن يريد تغيير الصدور بينه و بين أحبته، فاجتمع

الوزير خير الدين بالوزراء والمستشارين قبل الدخول على الوالى و قص عليهم الخبر مما كان ذكره لهم فرادى و مجتمعين، و كان مآل كلامهم أن الأولى به تحمل المشقة و عدم فتح باب الكلام فى الإستعفاء، و قال الوزير محمد الذى تولى بعده و كان معلوما عند جميع الناس أنه هو الذى يتولى بإشاعة المعرض المتقدم ذكره و اتباعه، بأن لهم اتفاقا مع الوزير محمد على ولايته و أبلغوا للوالى رضاه بذلك و كان على ابن الزى صاحب مصطفى بن إسماعيل الخاص كثير التردد على جهات مسكن الوزير محمد ليظهر للناس صدق الدعوى، فقال الوزير محمد للوزير خير الدين: أما أنا فإنى لا أتولى مكانك و لو دقت عظامى و لكنى أخدم مع كل من يوليه الوالى، كذا شاع و حمل كلامه ذلك على تكذيب ما شاع عنه و لما دخلوا على الوالى أعاد الوزير خير الدين الكلام فى الإستعفاء على نحو ما مر فأجابه الوالى بأنه هو أبو عائلة و قد حصل له التعب و محتاج للراحة فيأمره ببقائه مرتاحا فى محله، فرجع لبستانه بقرطاجنه و كان ذلك فى رجب سنة ١٢٩٤ هـ، و منع الوالى المتوظفين من الاجتماع بالوزير خير الدين حتى خواص أحبائه بل و أتباعه الذين على أيديهم متعلقات كسبه، إلى أن خرج من القطر للآستانه و لم يعمل حسابه معهم.

و فى عشية يوم انفصاله عن الوزارة تذاكر بعض رؤساء المتوظفين فى زيارة الوزير المذكور و ذكر أحدهم ممن أبلغ إليه النهى بواسطة أنه عازم على زيارته تلك العشية متغافلا عما بلغه، فحذره الحاضرون من الوزراء و المستشارين من وقوع ذلك قبل الإستشارة و أنهم هم فى أنفسهم عازمون على مثل ذلك، و إنما علقوه على إستشارة الوزير الجديد فلما استأذنه أحالهم على إذن الوالى و لما استأذنه أعلن بالمنع، و جعلت عيون على كل من يقدم إليه فبقى منفردا و تكاثرت الأقوال فى الخوف عليه، و نازله الشهيد إسماعيل السينى و رشيد لم تبرح من البال، و كان هو متجلدا متغافلا عما يظهر إليه من الغضب و طلب مواجهة الوالى لمجرد الزيارة فاضطرب فى أمره ثم أذن له فى وقت خاص، و وقع بين الوالى و قنصل الفرنسيس كلام سأل فيه القنصل الوالى عن سبب خروج الوزير خير الدين عن الوزارة، فأجابه: بأن خروجه ليس كخروج الوزير السابق، لأن الوزير السابق ارتكب ما يشين العرض، و أما خير الدين فلا سبب لخروجه إلا الخلاف السياسى الواقع بينى و بينه و أنت تعرفه، و هو إشارته إلى ميل الوزير للدولة العلية لأن الوالى كان تحقق لوم قنصل

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ٢٩٣

فرنسا على سياسة الوزير مع الدولة العلية، و إلا فما هو الخلاف السياسى الذى يعلمه القنصل دون غيره، و هذا يؤيد الكلام السابق فى حقيقة أسباب انفصال الوزير المذكور عن الوزارة.

و لما تفاقم التنافر طلب الوزير خير الدين السفر لمداواة مرض عصبى فأذن له بعد التصعب التام و وداع الوالى، و لما استقر فى أوروبا حذر من العود خوفا عليه فكاتب هو الوزير محمد بما مضمونه: أنه كان أرسل إليه مكتوبا جوابا عن مكتوبه بأن الوالى سأل عن حاله و عن وقت رجوعه و أنه إنما كان سافر لأجل التداوى أولا و ثانيا لأجل التباعد عن القيل و القال و هو المقتضى لتطويل الغيبة، فإذا رأى رجوعه لا بأس فيه فليأمر الوالى به لأن غاية مراده هو أن يعيش فى بلاده مع عائلته تحت ظل الوالى مع حرية الشخصية من غير أن يتداخل فى شىء من الأمور كما هى عادته عند انفصاله من الوظائف، بدليل سيرته فى التسعة سنين السابقة التى بقى فيها بلا مأمورية، و أنه كان ينتظر الجواب عن ذلك المكتوب الذى تضمن الإعلام بعزمه على السكنى بالقطر خلافا لما يشيعه المغرضون، متعهدا بعدم التداخل فى شىء من الأمور السياسية، و أنه طلب حرية الشخصية حيث صدر الإذن للأهالى و المتوظفين باجتنابه، و مع انتظاره للجواب مدة من الزمن لم يرد له الجواب إلا بكون رجوعه لا يتوقف على إذن مع التغافل عن الموجبات المشار إليها مع أنه لم يطلب إلا ما كان الوالى سمح به للوزير مصطفى خزندار فى صفر سنة ١٢٩٢ هـ من الرخصة فى مخالطة من يشاء و السفر الخ، مع أن ذلك الوزير كان مطالباً بمال جسيم و ليس خروجهما من الوظيفة سواء لاختلاف الأسباب، و ما طلبه الوزير صاحب المكتوب هو ضرورى فى حقه لما صدر من الإذن فى المنع من الاجتماع به حتى أن وكيله المالى امتنع من القدوم إليه هذا زيادة على الصعوبات التى وقعت عند إرادته السفر، و لم يجب عن هذا المكتوب و كان القصد من أضداده إما حمله على عدم العود أو أنه إذا عاد يتسبب

له بإيقاعه في محذور وخيم، و مع ذلك قدم الوزير خير الدين لتونس عندما شاع أن بعض بواخر روسيا قادمة إلى تونس و كانت حالته مع الوالى أشد مما سبق، فأرسل إليه بأن يقصر من القدوم إليه إلا بإذن متعللاً بأن الوزير مصطفى خزندار تشكى من منعه هو من زيارة الوالى مع عدم منع الوزير خير الدين، و قال كثير من الناس هو قياس مع الفارق ثم عاد الوزير خير الدين إلى السفر أواسط سنة ١٢٩٥ هـ و رجع، إلى أن أتاه إذن بسلك الإشارة من الأعتاب السلطانية بالقدوم إلى الآستانة، فاستأذن الوالى و امتنع من الإذن له حتى دعا القناصل المعبرين و استشارهم في ذلك، فكلهم أشاروا عليه بأن لا وجه في منعه و إلا وفق له الإذن بطيب نفس منه، فأذن له عن كره و منعه من وداعه و سافر في رمضان سنة ١٢٩٥ هـ و ترقى في عناية الخليفة به إلى أن صار صدرا أعظم في ذى الحجة من تلك السنة، و جلبت عائلته في باخرة سلطانية و من ذلك الوقت خرج الكلام على هذا الوزير عن موضوعنا الذى نحن فى صدده، و قد انحصرت دعوى أعداء خير الدين فى أمرين.

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ٢٩٤

إحداهما: إرادته تسليم البلاد للفرنسيين.

و الثانى: ميله إلى الدولة العلية.

فلا شك أن الخلاف السياسى الذى ذكره الوالى لقنسل فرنسا لا يتعلق بالدعوى الأولى و عليه فلا سبب إلا الثانى، و على كل فقد أشهد الوالى قنسل الفرنسيين بعد خروج الوزير خير الدين من الخطة باستحسان سيرته إلا الخلاف المذكور، فعلى الواقف المتأمل فى ذلك إذ الحق ما شهدت به الأعداء، فعداوة الوالى لخير الدين بعد خروجه من الخطة لا يجهلها أحد و الحجة القطعية فى ذلك امتناعه من مقابلته عند صدور الإذن بالقدوم لدار الخلافة و طلب الوداع.

المطلب السابع: فى وزارة محمد خزندار

اعلم أن هذا الوزير أصله من اليونان و حضر إلى تونس فى ولاية حسين باشا، و ربي فى الحكومة و تعلم الفروض العينية و القراءة و الكتابة و نشأ على صفة التعفف عن الرشا موسوما بحسن الرأى جدى الطبع كثير الصمت صبورا محبا للسادة الأشراف، صاهره أحمد باشا بالمولى الشريف سيدى محمد الشريف على إبنته، صاحب صدقات سرية متباعدة عن الشفوف متحد السيرة، كان قربه الوالى حسين باشا بما راعاه به صاحب التصرف إذ ذاك شاكير صاحب الطابع و صار من خواصه، و زادت به عناية الوالى المذكور حتى أولاه خزندار و كذلك أخوه من بعده مصطفى باشا فى استنجا به، إلى أن قيل أنه حصلت غيره منه لشاكير صاحب الطابع المذكور، و اتهم بأنه أغرى بعض خواصه به فى المعسكر الذى توجه تحت رياسة صاحب الطابع المذكور لثورة أهل جبل باجه، فأطلق على الوزير محمد الرصاص فى واقعة حربية هناك فأصيب فى رجله و عوفى مع بقاء تأثيرها، ثم استنجه أحمد باشا و ولاه عاملا على الساحل و حسنت فيه سيرته و طالت مدة ولايته عليه من حدود سنة ١٢٥٣ هـ إلى سنة ١٢٨٠ هـ. و دافع عن أهله ما استطاع من تعديات محمود بن عياد بتكفله بخلاص كل ما يطلب منهم ابن عياد، على أن لا يباشرهم ابن عياد بتوجيه أعوان الخلاص الملتزمات التى يطلبها منهم، و أعان على مصاريف عسكر حرب القريم بألف قفيز من الشعير، و وجهه أحمد باشا رسولا عنه للدولة العلية فى استطاع نيتها فى ترتيب الأداء على تونس و الإعتذار إليها، ثم وجهه أيضا لإحضار مهمات العسكر فى حرب القريم، ثم عاد مع العسكر و أقام هناك مدة ثم رجع، و لما ولى محمد باشا أرسله بالهدية و النجدة الثانية من العسكر و طلب تقرير ولايته ففضى مأموريته و عاد و كان فى عزم الوالى المذكور تقديمه لوزارة الداخلية فعاقه عنه ما تقدم فى إبقاء الوزير مصطفى خزندار، و لكن الوالى المذكور قربه و اعتمده و رفع شأنه و أرسله رئيسا على المعسكر الموجه إلى الأعراض و الجريد لجلب رئيس قومه من أعراب طرابلس المسمى بفومه عند ثورته على الدولة العلية هناك، ثم التجأه إلى تونس عند خشية الإستيلاء عليه و أحدث فى أطراف الجهة الجنوبية من قطر

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ٢٩٥

تونس شيئا من الإختلال، فوجه عليه الوالى المذكور معسكرا تحت إمرة الوزير محمد المذكور و لقبه فى تلك الوجهة بأمر الأعراس.

و استقال الوزير محمد من اللقب و لم يساعفه الوالى، و فى ولاية الصادق باشا ولى الوزير محمد وزارة الحرب عند استعفاء وزيرها منذ ولاية أحمد باشا و هو مصطفى أغا، ثم ولى عوضا عنها وزارة الداخلية ثم عوضها بوزارة البحر كما ولى رئيسا ثانيا بالمجلس الأكبر عند وجود القوانين حينما استعفى الوزير خير الدين، ثم لما حدثت الثورة العامة سنة ١٢٨٠ هـ بقى الوزير محمد فى زوايا الخمول إلى أن حدث الكومسيون المالى فولى فيه عضوا، و أرجعت إليه الولاية على الساحل و أبلى فى التخفيف على أهله من مصاعب الديون ما تقدم شرحه بإعانتة للوزير خير الدين، ثم سنة ١٢٩٠ هـ ولى مستشار القسم الثانى من الوزارة الكبرى مع التلقب بوزير الإستشارة، و لما حصلت مبادئ استعفاء الوزير خير الدين شاع التعاضد بالوزير محمد لقصد تقليده الوزارة الكبرى، حيث كانوا على علم بأن نقل الوزارة من خير الدين إلى ابن إسماعيل صعب عظيم فى أعين العامة و الخاصة، و يلزم مدة الإستئناس بمباشرة مصطفى بن إسماعيل للسياسة تحت رياسته غيره، فلما استعفى خير الدين قلد الوالى الوزارة الكبرى للوزير محمد خزندار بعد أن استقاله منها و بكى و اعتذر بكبر السن و مرض البدن فلم يساعفه الوالى فتلقاها، و ألبس نيشان البيت الحسينى و طلب من الوالى أن لا تتغير سيرته عن الطور المعتاد له فى الأبهة اللازمة لرياسة الوزارة، كما قلد أيضا رياسته الكومسيون و كان ذلك فى رجب سنة ١٢٩٤ هـ.

و ولى فى وظائفه التى كانت بيده مصطفى بن إسماعيل و بقى الوزير محمد فى الوزارة متحفظا فى ما يستطيعه على إبقاء ما كان على ما كان، و صاحب النفوذ هو غيره على ما سيأتى شرحه، و مع أكثر الجزئيات التى تعرض له لا يبدى فيها أمرا إلا بالإستشارة، و لم يحدث فى مدته شىء جديد سوى حرص الدولة العلية على إرسال العسكر فاعتذر إليها بأن غاية ما فى الوسع هو الإعانة المالية للأسباب التى مر شرحها، فلم تصغ لذلك و زادت إلحاحا و تهديدا بلزوم العسكر و طالت المراجعات و الإعتذارات من تونس، إلى أن صرحوا للدولة العلية بأن غاية ما فى الوسع و القدرة هو إحضار أربعة آلاف من النفوس بلباسهم فقط و سلاحهم من النوع القديم و ما عدا ذلك يلزم أن يكون جميعه على الدولة، فرضيت بذلك و أعلمت بأنها ترسل إلى حملهم على عجل سفنها فتجب المبادرة بإحضارهم، فأحضروا و صرف على كسوتهم و لوازمهم مدة حضورهم و انتظارهم للسفن مما جمع من الإعانة المالية من الأهالى التى سبق ذكرها فى وزارة خير الدين، و انعقد الصلح قبل سفرهم فورد الإذن بسراهم.

و كذلك حدثت نازلة انتهاء أجل الكنت دى صانسى لكنها لما كان كل من الحرص فيها و انتهاء خصامها فى مدة الوزير مصطفى بن إسماعيل، و هكذا نازلة وصل الطريقة الحديدية المار ذكرها بطريق الجزائر، فإنها و إن وقعت فى وزارة الوزير محمد لكنها فى

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ٢٩٦

الواقع منسوبة لسعى مصطفى بن إسماعيل حيث كانت التصرفات بين هذين الوزيرين فى مدة وزارة محمد مثل التصرفات بين الوزير مصطفى خزندار و الوزير خير الدين بعد ولاية هذا وظيفة وزير مباشر، و غاية الفرق بينهما أن وزارة محمد و ابن إسماعيل لم يظهر فيها جهرة التباين و العناد، و وزارة خزندار و خير الدين بخلاف ذلك، فليس من الإنصاف نسبة مساعى أحد الرجلين إلى الآخر كما ذكرنا مثل ذلك سابقا، سيما مهم المسائل الخارجية فقد كادت أن ينفرد بها الوزير ابن إسماعيل و ليس للوزير محمد فيها إلا الإجراء، و دام الوزير محمد على ذلك متجنبا لكل صعوبة مقتصر على امتناعه من الرشا و بيع الوظائف فى نفسه مشيرا بلطف إلى استقباحها لمن يريد لها مداريا لسائر المتوظفين، إلى أن أحس بالكلام بإرادة استعفائه بعد ولايته بستة أشهر فعرض بذلك للوالى متعللا بالعجز و المرض فأشار عليه الوالى بالتحمل و البقاء فى الخطه إلى الوقت الذى يشير عليه الوالى بالإستعفاء فعمل بذلك.

و فى ربيع الأول من سنة ١٢٩٥ هـ كثر الكلام فى عود الوزير الأسبق مصطفى خزندار فكذبتة الحكومة بنشرها فى صحيفتها الرسمية

فصلا طويلا في أن ذلك الكلام مما يشوش على السكان و يحير الأفكار و أنه بهتان و الوالى لا يعمل به و أنه من الإفتراء و الإرجاف، و ذلك في عدد ١١ من الرائد في ١٦ ربيع الأول سنة ١٢٩٥ هـ، و إنما ذكرنا ذلك ليتيقن أن نفرة الوالى للوزير المذكور لأعماله حقيقية لا كما قيل من أنها بسعى الوزير خير الدين، حيث أنه في ذلك التاريخ بعيد عن الوالى و أشغاله ثم أن الوزير محمدا بقى منتظر الإشارة لاستعفائه كما بقى من جهة طالب المنصب و صاحب الولاية انتظار إعادته هو للإستعفاء أو التعريض به، و بقى هكذا الحال كل شق ينتظر صاحبه مدة أشهر إلى أن أظهر الوالى كثرة الكلام فى الرغبة فى استعفاء الوزير و أحضر نيشان آل بيته الذى صار علامة ملازمة للوزارة الكبرى و فطن بذلك الوزير محمد فقدم للوالى معرضا بالإستعفاء على حذر حيث اعتمد الوصاية بأن الوالى هو الذى يشير عليه فقبل بالرحب و البشر و أوصاه بأن يكتب غدا مكتوب الإستعفاء، فلما حضر الجميع إلى قصر المملكة من الغد أمر الوالى قبل أن يصل إليه مكتوب الإستعفاء الوزير محمدا بأن يستصحب معه الوزير مصطفى بن إسماعيل إلى محل الوزارة و يعلن لجميع المتوظفين بعد جمعهم بأن الوالى أولى مصطفى الوزارة الكبرى و رئاسة الكومسيون بعد أن ألبس الوزير مصطفى نيشان البيت، و لطف الوالى الوزير محمدا و أمره بأن يعود إليه بعد ذلك الموكب مصاحبا للوزير الجديد فعمل بذلك على هيئة استغربت إذ لم يعهد مثلها، و بعد ذلك كتبت مكاتيب الإستعفاء و قبوله و نشرت فى الرائد و كان ذلك فى شعبان سنة ١٢٩٥ هـ، فمدة وزارة محمد عام و شهر و لقب فى ذلك الوقت بوزير الإستشارة و جعل له مرتب عمرى و قدره ستون ألفا فى السنة، و أمره الوالى بأن يقدم إليه فى كل أسبوع فى يوم السبت مع جملة المتوظفين أو عندما تدعو حاجة لحضوره، و جعل منزلة حضوره فى موكب الوالى فوق منزلة الوزير الحالى بحيث لم ينزل عن مرتبته،

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ٢٩٧

ثم استقال هو من ذلك و نزل تحت الوزير ثم ولى عضوا فى مجلس الشورى الآتى ذكره و بقى على ذلك إلى الآن.

المطلب الثامن: فى وزارة مصطفى بن إسماعيل

هذا الوزير من الناشئين فى حاضرة تونس، و لما شب رباه أحد متوظفى قصر الحكومة الملقب بزهير حتى نسب إليه فى اللقب ثم أخذه منه الصادق باشا الوالى الحالى و صار من خدمته و قربه و رقيه إلى رتبة أمير لواء مع انضمام رتبة أمير لواء ثانيا فى عسته العسكرية الخاصة، و هى وظيفة مقصورة عليه لم تكن من قبل و لا بقيت من بعد، و من حدود تلك المدة عرف بلقب ابن إسماعيل نسبة إلى والده الذى يقال أنه مسمى بذلك، و هو متواضع بشوش كثير التردد على الصالحين و زيارتهم شديد الإعتقاد فيمن ينتمى إلى علوم الحدان، شره على الأشياء الجديدة كثير الإنفاق على ما يعود إلى لذاته محب للتجمل بالملابس المجوهرة، حتى تتعدد الخواتيم المكلفة بإصبغه و ترى المجوهرات على صدره و سلسلة ساعته، عارفا بأخلاق سيده ملائما فى سيرته معه لمرضاته، حتى تمكن ميله إليه و اشتدت رغبته فى استرضائه إلى أن قدمه على معاصريه و أبناء جنسه، فبلغ إلى الرتبة المشار إليها، ثم رقيه إلى رتبة أمير لواء العسة و أبطلت الرتبة الثانية المشار إليها، و فى أواخر مدة التنافر بين الوزير خير الدين و مصطفى خزندار انتهزت تلك الفرصة إلى التنويه بشأن مصطفى بن إسماعيل و رقيه إلى رتبة الفريق، و أرسل من الوالى كما تقدم إلى مالطه لإبلاغ العناية بالوزير خير الدين و كان يظهر إليه الميل عن مصطفى خزندار، ثم ولى عاملا- على الوطن القبلى أواخر مدة مصطفى خزندار و أخذ مستلزمات العمل المذكور بنقلها إليه بدون انتهاء مدة من كانت بيده.

و امتدت الأيدي إلى أرزاق أهالى العمل المذكور بالرشا فى الأحكام و غيرها حتى قال كثير من أهله لقد زال العناء عن أهالى القطر إلا نحن فإننا لم نر شيئا من أثر ذلك لإغضاء الوزير خير الدين النظر عنه لمعاصدته إياه، و استولت بعض حواشيه على الأوقاف ببلد سليمان إلى أن آل أمرها لما كنا شرحنا بعضه، فإن جامع الحنفية و المدرسة ببلد سليمان لم يكتف فيهما بأخذ دخل الوقف و إهمال

الموقوف عليه حتى خرب و تعطل جريان الشعائر، بل نقل منهما مهمات من الرخام و غيره إلى دار المتولى، كما أقيمت فى ذلك حجج من أهالى البلد و قدموها إلى جمعية الأوقاف و جرى على الأهالى من المتاعب ما بلغ إلى قتل النفس كما ذكروا ذلك فى قتل حميده بايوض أحد أهل الحاضرة الذى انتقل بالسكنى إلى هناك و ذهب دمه هدرا و سودت فى موته رقعة على أنه مات حتف أنفه تبرئة عند الحكومة رسما من دمه، و شدد على الأعيان من أهل الحاضرة و غيرهم فى خلاص قانون الزيتون الذى كان مرتبا على الوطن القبلى الذى مر ذكره و تحملوا من مباشرى الخلاص إهانات لم تعهد لهم، حتى أن بعضهم كان جالسا بحانوت أحد أصحابه فى العطارين فجاء المستخلص و ألزمه بالخلاص حالا مع أن العسر عمومى فضلا عن كون الرجل لم يكن

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ٢٩٨

مستعدا و لا مال محمولا معه فأهين بما أذرف دموع المشاهدين من ذلك الملاء، و مثل ذلك متعدد.

ثم ولى الوزير ابن إسماعيل وظيفة صاحب الطابع أواسط سنة ١٢٩٠ هـ، و يوم ولاية الوزير خير الدين الوزارة الكبرى ولى الوزير ابن إسماعيل وزارة البحر غير أنه لم يباشر هاته الوظيفة فى محل الوزارة، و إنما جعل ما يتوقف على إمضائه يحمل إليه أين كان ليمضيه حتى يقال إنه انفصل عنها، و هو لا يعلم مضمون تلك الوظيفة إذ لم يكن التصرف على نحو إرادته و لأنه يعتمد من ينبيه من غير احتساب عليه، ثم عزل عن ولاية الوطن القبلى لأن الوزير خير الدين قد استقر فى الوزارة الكبرى و ظن أنه غنى عن معاضدة ابن إسماعيل حينئذ، فاقترح مع الوالى صعوبة الإلحاح بعزله و من ذلك التاريخ برح الخفاء فيما كان كامنا من منافرة الوزير ابن إسماعيل للوزير خير الدين، و أن إظهار الميل إليه لم يكن حقيقيا و التفت عليه عصبه الوزير الأسبق خزندار من الأجانب و بعض المأمورين لترويج أغراضهم مما تقدم شرحه، و فى أثناء تلك المدة كانت أموال الوالى و ذخائر الحكومة من المجوهرات و الياقوت الأبيض الذى تركه محمد باشا كلها فى تصرفات الوزير ابن إسماعيل المذكور إلا ما أخرج من ذلك مما أرسله فى هدايا الدولة العلية و ما أعطاه الوالى إلى الوزير خزندار، و له قسط وافر أو غيره، و كان التحم فى تلك المدة بالوزير ابن إسماعيل شخص من سكان الحاضرة يقال له على ابن الزى كانت الناس تتقيه من قبل ثم ازدادوا منه إتقاء لما التحم بالمذكور، و تفصيل حالة هذا الشخص لا تناسب هذا التأليف على أن من شاهدها لا يبلغ ما ذكره لما يعلمه و من لم يشاهدها لا يكاد يصدق بوجودها و لذلك لا نذكر إلا ما يتعلق به من حوادث سيده.

فمنها: أنه حسن إليه معاطاة التجارة فى رقاغ ديون الدول و راد له تاجرا بعد تاجر إلى أن استقر أمر مع أحد تجار الأقمشة الحريرية من يهود الحاضرة المسمى بيوسف بن عطار، و أرسله إلى فرنسا للتجارة هناك ثم لما عاد التاجر حصلت بينه و بين على ابن الزى نفرة، فأغرى به سيده لإرادة استئصاله و سجن التاجر فى سجن الضابطة لأن الضابطة كانت لا تسأله عن يريد سجنه و إنما حسبها التنفيذ لما يراه، و ادعى على التاجر بنحو سبعة ملايين فرنكا أو تزيد بين مال و مصوغ و حجارة كريمة من الياقوت الأبيض على أنها من أعلى نوع و أنه سافر بذلك إلى فرنسا و لم يؤخذ منه حجة فى بيانها و أنه أرجع إليهم بالإرسال من فرنسا مقادارا وافرا من الياقوت الأبيض من النوع الردىء على أنه لم يبع مما تسلمه منهم، و قبلوا ذلك و بقى التاجر إلى أن أحضر بالضابطة و أخذت منه حجة على أنها بتصحيحه و أنكرها هو و طال الأمر إلى أن تخلص التاجر من السجن و هرب إلى قنسلات الإنكليز محتما بها طالبا إجراء الإنصاف فى نازلته، و تداخل القنسل الإنكليزى مع الحكومة فى إنصاف الرجل و لاحت علائم الزور على الحجة و لم يكن معها من القرائن أو الأسلوب التجارى ما يؤيدها، سيما فى مبلغ وافر مثل ذلك بل ربما كان معها من القرائن عكس

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ٢٩٩

الدعوى، إذ أن المدعى به عليه من الياقوت هو من أعلى نوع و هو المصرح به فى الحجة، ثم النوع الذى أرجعه إليهم و قبلوه و أرسلوا له فيه مكاتيب بوصوله من غير إنكار لكونه من نوع ما أعطوه و لا تعريض بذلك، مع أن ذلك المقدار البليغ يعطى لإنسان من غير بيان و لا حجة و لا دفتر و لا تؤخذ عليه الحجة إلا بعد رجوعه بمدة، و هو تحت الغضب زيادة عما كان عند انتهائها فإن جميعه

يؤيد كلام التاجر، فإنه بعد أن رفعت النازلة إلى الوزير خير الدين و إرادته تشكيل مجلس للنظر فيها و امتناع الوزير ابن إسماعيل من ذلك حسبما تقدمت الإشارة إليه و بقي التاجر محتما بالقنسلاتو تصالح معه الوزير بن إسماعيل بمائة ألف فرنك و عشرين ألف فرنك، و تعجب كل من سمع بالدعوى التي هي نحو ثمانية ملايين كيف يصالح عنها بذلك القدر لو كانت حقا، و النازلة مقررة في الوزارة و في القنسلاتو.

و لو نظرنا إلى ما وقع في النازلة من الكلام على ألسنة الناس الذي منه: أن مما قاله على ابن الزى إلى الوزير ابن إسماعيل: أن التاجر المذكور لما عاد من فرنسا أرجع له مصوغا أو أتاه بمصوغ بقيمة بليغة من المال و أنه اكتشف عن حالة المصوغ بعد الانفصال بالصلح مع التاجر فإذا هو من البلور المقلد على الياقوت، فأذنه الوزير ابن إسماعيل يبيعه حيث لم يكن فيه من فائدة، فأخبره بأنه يبيع بضع آلاف و أدخلها له في حسابه و لما وقعت الواقعة الآتى بيانها مع ابن الزى تبين أن عين ذلك المصوغ لم يزل بخزائنه و أنه من الياقوت حقيقة و أمثال ذلك لطلال الكلام في النازلة، لكن لا داعى لنا في ذكر ما يقال على ألسنة الناس سيما و هو مما يعود إلى ما بين الخادم و المخدم، و إنما الداعى إلى ذكر ما تقدم هو بيان كونه سببا في خروج عائلة التاجر المذكور من رعايا تونس و صيرورتها تحت الحماية الإنكليزية، كما أنها كانت سببا في تمكن النفرة و إظهارها بين الوزير خير الدين و الوزير ابن إسماعيل و ميل الوالى إلى معاضدة هذا لأنه مكنه من جميع أمواله حتى أن نفقته و نفقة عياله كانت على يده، و قد نشرت أخبار متواردة في الصحف الخيرية عربية و غيرها فيما تقتحمه العائلة من تباعة ذلك و لم يقع تكذيبه، و حيث كان من الخصوصيات فلا نجلبه هنا أيضا، و إنما أشرنا إليه لتعلم خلاصة التصرفات المالية، و بما تقدم و غيره حصلت الإشاعات التي أشرنا إليها في أسباب استعفاء الوزير خير الدين و قرائن الحال دلت على أنه كان القصد توجيه الوزارة إلى الوزير مصطفى بن إسماعيل، غير أن معرفة حال المتوظفين و الأهالى في التسليم لذلك كانت مجهولة فقدم للوزارة الوزير محمد و قدم إلى استشارة القسم الثانى من الوزارة الوزير مصطفى بن إسماعيل، لكى يباشر العمال و الأهالى في شكاياتهم و يتأنس بمباشرة التصرفات العامة، فكان لا يتعرض لتصرفات الحاضرين من اتباع الحكومة عند ورود الدعوى إلا أن تكون نازلة له بها خبره بواسطة أحد علاقته و تقررت له من قبل قدومها إلى الوزارة فحينئذ يأذن فيها بما كان وقع عليه الانفصال، و حصلت في أثناء هاته المدة الرشوة التي كادت تتناسى سيما في توظيف العمال و لم يقتدر الوزير محمد على دفاعها غير أنها لم تتفاحش إذ ذاك، كما ولى الوزير مصطفى بن إسماعيل عاملا على الساحل لاستعفاء

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ٣٠٠

الوزير محمد عنه، فجرى أول الأمر العمل فيه على ما كان ثم ولى على المستير رجلا نائبا عن العامل بجعل ينيف عن المائة ألف، و كان ذلك الرجل مدينا للأجانب من قبل و اشترى الوظيفة لخالص ما اشتراه به و لخالص دينه و تكسبه، و امتدت يده إلى الأهالى و إلى النواب الذين تحت نظره و تفاقم الأمر مع شدة الضعف المالى فى الساحل و اشتكت رعايا الأجانب إلى قنسلهم هناك لأن أهل الساحل لم يزالوا فى رق دينهم فما يتحصل لهم من المال عوض أن يدفع لدائنهم صاروا يدفعونه إلى المتولى، و بقى أمرهم على ذلك إلى نحو ما سيرد خبره.

و فى أول مدة تداخله فى الإدارة وجه قصده إلى التداخل فى المسائل الخارجية و المداخله مع نواب الدول فاستعطفه أحد نواب الأجانب على أمير اللواء إلياس المصلى لعلقه بينهما ذاتية على إرجاع المذكور إلى خطته التي كان فيها، و هى وظيفة مستشار ثان فى الوزارة الخارجية و قد كان عزل عنها فى أواخر وزارة خزندار أثناء ولاية خير الدين وزيرا مباشرا بسبب واقعة، و هى: أن إحدى الجمعيات الأجنبية التي تجمع المال لنوع من أنواع المرحمة توسطت إذ ذاك بقنسل فرنسا لتعينها الحكومة التونسية بشىء من المال على وجه المرحمة، فأرسلت الحكومة بواسطة المستشار المذكور مقدارا من المال، و لما اجتمع القنسل بالوزير شكر صنعه و ذكر له المقدار الواصل لتلك الجمعية فإذا هو غير مطابق لما أعطته الحكومة، و وقع التحقق فى النازلة إلى أن عزل المستشار المذكور و بقى بلا وظيفة و لا مرتب إلى أن قدم من الأجانب من عطف على المذكور، فتوسط له لدى الوزير خير الدين فى وظيفة فأفهمه أن ذلك

غير لائق لما تقدم؟ فألح على أن يحصل له نفع و نال بواسطته مرتبا سنويا قدره ستة آلاف ريال و قطعة من أرض مقدار ما بينى بها دار للمذكور، و كبر ذلك على الوزير ابن إسماعيل إذ ذاك و جعلها هجيرا فلما تعاطى هو الأشغال السياسية و توسط لديه فى إرجاع المذكور للخطة السابقة بادر بالإجابة بالقبول، و لما انتهى الأمر للوالى استفتح النازلة سيما و قد سمع بعض القناسل بذلك و أوغر بالإنكار، بل ربما قال بعضهم: إنه يعد ذلك إهانة لهم، و حصل من المتوسط أيضا التشديد فى الإتمام بمقتضى القبول الذى أجابه به الوزير ابن إسماعيل و هو و إن لم يكن إذ ذاك وزيرا للخارجية إلا أنه علم أن كلامه رسمى مثل وزير الخارجية، و نكر ابن إسماعيل التعهد بالقبول و إنما قال إنى وعدت بإبلاغ الوالى المطلب فقط، و تفاقم الخلاف إلى أن استرضى الطالب و وظف المذكور وظيفه مخترعة و هى كاتب سر الوالى بالفرنساوى، و جعل له مرتب إثنا عشر ألفا سنويا، ثم ابتدأت نازلة الكنت دى صانسى فألح الوزير ابن إسماعيل فى تعجيل فصلها و كان فيها ما سيرد خبره.

ثم جاءت نازلة وصل السكة الحديدية التونسية بسكة الجزائر، و ذلك أن الشركة التى بيدها المنحة و شرعت فى العمل بها بعد أن قربت أن تصل ببلد باجه لزمها وصل السكة المذكورة بسكة الجزائر لأنها إن لم تصلها تتوقع الخسارة و يفوتها تيقن ربح الخمسة فى صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ٣٠١

المائة، لأن دولة فرنسا ضامنة للشركة المذكورة ربح الخمسة فى المائة على ما تنشئه من الطرق الحديدية بأفريقيه و تتصل بالجزائر، و دولة فرنسا إنما ضمنت ذلك لأنه مما يعمل به كثيرا فى الممالك الأوروبية لترغيب أرباب الأموال فى إنشاء المنافع العامة مع تحقق الربح من أموالهم، و هى لا يتقبل عليها مثل ذلك لغناها و كثرة مواردها من الطرق الحديدية، فعلى فرض خسران جهة من الجهات فى الطرق يعدل بالربح الحاصل من الجهات الأخرى، و إذا بقيت طريق تونس غير متصلة بالجزائر لا- تحصل الشركة على الضمانة المذكورة، فلذلك قدم إلى تونس زعماءها و طلبوا وصل السكة مستندين إلى الفصل الثالث عشر من الإتفاق الذى بأيديهم فى أصل المنحة من الشركة و هو أن الشركة يسوغ لها مد فروع يميناً و شمالاً عن الخط الأسمى بعد الإتفاق مع الحكومة على جهة المركز الواصل له الفرع و على جهة مروره، و أن المقدار الذى بين نهاية الخط الأسمى و بين حدود الجزائر لا يبلغ إلى مقدار طول الفرع الذى لهم الرخصة فيه، و هو خمسون كيلومتر و أى نحو خمسة و أربعين ميلاً و أنهم غاية ما يطلبون الإتفاق على تعيين المركز المنتهى إليه و تعيين جهة المرور كما يطلبون مد فرع إلى جهة الكاف بمقتضى الرخصة الأولى أيضا، فنالت النازلة فى البلاد و عند رجال الحكومة أهمية تامة لا بالنظر إلى فرع بلد الكاف لأنه خال عن كل شائبة و ليس فيه إلا النفع، و إنما الأهمية من حيث وصل الطريق بالجزائر.

و كثرت الأقوال فى وجود مليون و مائتى ألف فرنك لتيسير أسباب الوصول إلى المقصود و تولى أمر الحرص فيها الوزير ابن إسماعيل، و كان القنسل الفرنساوى معنا إلى الشركة على غير الطريقة الرسمية، و إنما هو من باب المجاملة و النصح و يود فصل النازلة من غير أن تدعو إلى تداخله الرسمى باستناده من الشركة على ما يمكن أن تدعيه فيبراً الوزير محمد إذ ذاك من تحمل العبء، و عقد لها مجلساً تحت رئاسة مستشار الخارجية و أعضاؤه ثلاثة تونسيون و إثنان فرنساويان و إثنان طليانيان و كاتب إنكليزى، و الجميع من متوظفى الحكومة، فتفاوضوا فى المسألة لكن مع الإشارات المتواردة بالتعجيل و اختلف رأى المجلس هل أن الفصل ١٣ المستند إليه من الطالب يقتضى ذلك أم لا؟ لأنه بالنظر للخريطة يتبين أن المقدار المطلوب ليس بفرع بل هو تطويل لأصل الخط حيث يتجاوز منتهاه النقطة الأصلية المنتهى إليها الخط الأسمى فى البعد، و لكن الذى ترجح عند أغلب المجلس أنه يصدق عليه أنه فرع إذ لم يقيد الفرع بعدم تجاوزه نقطة الأصل، و مع هذا فإن الإستناد إلى ذلك الفصل لا ينتج المطلوب لأنه و لئن تضمن إمكان إمداد أحد الفروع ضمناً يعارضه التصريح القطعى بفصل خاص و هو: «أن الوصل بطريق الجزائر ليس للشركة عمله و لا رخصة لها فيه إلا- باتفاق جديد» و لهذا خصص أيضا بأن الحكومة ليس لها إعطاؤه لغير الشركة المذكورة و هو حجة قطعية بأن إيصال طريق الحديد لحدود الجزائر لم يعط مدة وزارة خير الدين بل أنه شرط عدم إيصال للحد، و أن إعطاء الرخصة للشركة الفرنسية فى

إيصال الطريق للحدود هو امتياز جديد أعطته الحكومة التونسية بعد خروج الوزير خير

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ٣٠٢

الدين من خطة الوزارة، و لهذا انتقل الكلام إلى أن الوصل هل للحكومة عمله أم لا؟ فتذاكر الجميع في منفعه و دفع الاعتراضات و المضرات الناشئة منه بما تقدم بيانه عند الكلام على وزارة خير الدين، بل زاد بعضهم أن قال إنه إذا لم يصل تتحقق المضرة المالية للحكومة بأن ما يصل إلى المركز النهائي يقرب من الحدود مع عدم إنحصار جهة الخروج منها، فتحمل النتائج على ظهور الحيوانات و تخرج إلى الجزائر من غير أداء لضرائب الحكومة إلى غير ذلك من المصالح و دفع المضار، و مما عساه أن يقع من الإرتباكات السياسية عند الإمتناع عن الوصل، و لما كنت أحد أعضاء ذلك المجلس وافقت على ما ذكر غير أنى لاحظت شيئين.

أولهما: أن الوصل إلى الحدود يلزم منه تعيين الحد و هو واقع فيه خلاف و طال النزاع فيه مدة أحمد باشا و ليس للحكومة أن تعين الحد و إنما ذلك يتوقف على إعلام الدولة العثمانية و هي التي تعين الحد.

و ثانيهما: أن وصل الطريق ينشأ عنه كثرة القادمين من رعايا الجزائر لسهولة الانتقال و قرب الوقت و رخص المصروف و ذلك هو موجب رواج التجارة، و أن الخلق من كل نوع فيهم المستقيم و غيره، فإذا كثر الوارد من رعايا الفرنسيين و حصلت كثرة المخالطة استدعى ذلك كثرة الخصومات الطبيعية و ليس لحكام تونس الحكم في نوازلهم، بل النوازل ترفع إلى القنصل و أين هذا في قبائل العربان التي يمر بها الطريق بل و في نفس البلدان، ليس لأتباع الحكام وضع اليد على المطلوب فيفعل المتعدى ما يريد و يركب و يرجع إلى بلاده قبل أن يصل العلم إلى حاكمه، فيجر ذلك إلى ضياع الحقوق سواء كانت للأهالي و هم الأكثر أو لغيرهم و يضطرون إلى أعمال و جوه يتوصلون بها إلى حقوقهم ربما أوقعت البلاد في ارتباك أو خروج الرعية عن حكمها، و لا مندوحة عن هذا إلا باتحاد الحكم و قد كان السعى فيه من قبل، و دولة فرنسا موافقة على أصله فلم يبق إلا إنجازها، و لذلك لا تمكن الموافقة على وصل الطريق إلا بالوجهين المذكورين.

ف قيل لى: أنى لهاته المسألة التجارية من تعليقها بمسألة الحكم و هل ترضى باتحاد الحكم جميع الدول حتى تدخل فرنسا معهم إذ لا ترضى بذلك وحدها؟ فقلت: إن كانت نازلة الطريق متجربة بحتة فلا ضرورة لنا تحمّلنا على اقتحام المسألتين السياسيتين المشار إليهما إلا بعد التخلص منهما و مضرتهما تعدل و تفوق على المنافع المشار إليها أولاً، و إن كانت النازلة فيها شائبة سياسية ففرنسا تعيننا فيما يتعلق بها بجلب موافقة الدول على اتحاد الحكم و تبدأ بنفسها، لأن الداعى معها و هو اتصال المملكتين و سهولة الوصلة بالطريق الحديدى على ما مر شرحه، لا- تشاركها فيها بقاء الدول. فإذا رأوا جريان العمل بذلك مع جلبها لوفاقهم يغلب على الظن توافق الجميع، و كانت هذه الملاحظات هي مبدأ رميتى بضدية قوم و معاكسة آخرين و أغلب الأعضاء أنصفها، و تكررت المذاكرات حسبما هو

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ٣٠٣

طبيعى في تعدد الآراء و كلف في أثناء ذلك أحد الأعضاء بصورة الشروط التي يمكن أن يقع عليها التعاقد.

و بينما المجلس يوما في أثناء المذاكرات و إذا بالخبر بأن الوزير ابن إسماعيل أخبر بأن القنصل قادم على الوالى ذلك اليوم للحرص على النازلة و أنها لا تتحمل زيادة الطول، فمن ذلك التاريخ خرجت النازلة عن كونها شورية حقيقية و عدلت الشروط المشار إليها في أقرب وقت، و دفعت أولى الملاحظات المشار إليها بالنص على أن مركز القمرق لا يكون علامة على الحدود، و أنظر هل يجدى ذلك أم لا؟ كما دفعت الملاحظة الثانية بأن تكتب بانفرادها في أوراق الوزارة لتكون إشارة على الحكومة في السعى على مقتضاها، و أبقى في خزانتها مع تقرير كل ما وقع في المجلس و أمضيت المنحة و سمع ممن ناجزها و سعى فيها أنها من تصرفات الوزير خير الدين، و الواقف على كل ما قرناه يحكم بإنصافه. ثم أرسل هذا الوزير من الوالى لهنته ملك إيطاليا أمبيرتو بالولاية عوضا عن والده، ثم سافر إلى معرض باريس و احتفل به الوالى العام بالجزائر، و اجتمع في باريس برئيس الجمهورية و رجال السياسة و ذاكر

بعضهم فى فتح البحر بالصحراء الكبيرة من خليج قابس و عدد له منافع تنشأ من ذلك للجريد، و ذكر له أوصاف الجريد التى هو عليها الآن فتخلص الوزير ابن إسماعيل من الخوض فى النازلة، لأنه يخشى من المذاكرات السياسية، بأنه كان فى سن الصغر لما كان الوالى يسافر إلى تلك الجهات، و لذلك لم يكن يعرفها، و أن المذاكرة فى النازلة تجرى فى الوزارة بتونس، فتعجب المخاطب من الجواب. ثم شاع الخبر بالإستعانة ببعض نواب الدول على توجيه الوزارة الكبرى إلى الوزير ابن إسماعيل و أن بعض النصحاء صرح له بأن الوظيفة مآلها إليه لتوجه عناية الوالى إليه، فلا داعى إلى الإستعانة بالأجانب على ذلك لأنه يفتح بابا غير مناسب، فإن الذى يستطيع أن يعين على الولاية يستطيع ضدها عندما يريد فلم يفد ذلك.

ثم استقرت ولاية الوزير ابن إسماعيل الوزارة الكبرى فى شعبان سنة ١٢٩٥ هـ على الكيفية التى تقدم ذكرها فى استعفاء الوزير محمد، و استبد الوزير ابن إسماعيل بالتصرفات و حصلت فى البلاد تزيينات تشبها بما وقع عند عزل الوزير خزندار، و قد علموا ما بعثهم على ذلك إذ ذاك، و أما هاته فكانت امتثالا لما أشير به عليهم بالإيعاز من الإبتاع، فحدث فى هاته المدة أمور فى الحكومة و القطر.

فمنها: تفاقم الأمر فى نازلة دى صانسى، و خلاصتها أن هذا الرجل الفرنساوى كان منح فى وزارة مصطفى خزندار أن تعطى له أرض قدرها أربعمائة ماشية كل ماشية كيل مائة و إثنين و تسعين جبلا، و كل جبل طوله خمسون ذراعا، على أن تكون الأرض قابلة للزرع و السقى، و يعطى له ذلك المقدار على أربعة أقساط مهما وفى بشروطه فى سنة يعطى له قسط، و على أن تعفيه الحكومة من جميع الأدوات، و اشترط عليه أن يربى فى الأرض

صفحة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ٣٠٤

المذكورة أنواعا ثلاثة من الحيوانات، و هى: الخيل، و البقر، و الغنم، فى كل مائة ماشية عدد خاص من الأنواع المذكورة على أن تكون الأنواع من أحسن الموجود فى القطر أو خارجه إلى غير ذلك من شروطه، و هو يبيعها لمن شاء و ليس للحكومة شىء فى عوض ذلك إلا تحسين الأنواع المذكورة فى القطر، فمضت آجال منذ قبوله للأرض الأولى و ادعت الحكومة عدم وفائه بالشروط و ادعى هو التعلل بأنها هى لم توف له أيضا حيث طلب الإعفاء من الأدوات التى بواسطتها أيضا، و كان ذلك فى مدة وزارة الوزير خير الدين فآل الأمر بعد أن كادت أن تفصل النازلة بالمره، و بعد أن عقد لها مجلس من متوظفى الحكومة إلى إجراء مطلبه و أخذه القسط الثانى من الأرض، و إسقاطه كل دعوى فيما تقدم تاريخه، فلم يوف بما اشترط عليه أيضا و ادعى أن سبب ذلك تداخل تونس فى حرب روسيا و أن الأرض التى أخذها ليست كاملة المقدار و أنها ليست بكاملة الصفات و أنها لم تعف مما هو مشروط و أن الحكومة لم تحم حقوقه من التعدى عليه من الأهالى، فعقد لذلك مجلس تحت رئاسة الوزير ابن إسماعيل فى مدة وزارة الوزير محمد، و طالت المراجعات بين الحكومة و بين دى صانسى و القنسلاتو إلى أن ولى الوزير ابن إسماعيل الوزارة الكبرى فحرص فى إتمام النازلة و تخلص الأرض من يد المذكور، و انعقد لذلك مجلس من متوظفى الحكومة من الأهالى و الفرنساويين و تكررت المراجعات إلى أن استقر الرأى على أن لا حق للكنت المذكور، فأرسل الوزير ثلاثة من متوظفى الحكومة مع مصاحبة قنسل أوستريا لحوز الأرض المذكورة و الشهادة على كيفية الحوز، و قبيل إرساله أعلمه قنسل فرنسا بأن الأولى الصلح فى النازلة بأن يضرب لصاحب المنحة أجل ثان للوفاء بشروطه و يسقط جميع دعواه فإن لم يوف تخلص دولة فرنسا الأرض منه و ترجعها لحكومة تونس، و بدون ذلك لا- يمكن تسليم الأرض إلا- بمجلس تحكيم مختلط و أنه لا- يسمح لأتباع الحكومة بالدخول إلى الأرض و إن أتوا للإستيلاء يجدون من يعارضهم من أتباع القنسلاتو، فلم يقبل منه ذلك. و عند وصول الرسل منعهم أتباع القنسلاتو من الدخول بالكلام فرجعوا و كتبوا التسجيل حالا فورد من قنسل فرنسا طلب أربعة مطالب:

أولها: طلب الترضية من الحكومة.

ثانيها: إلقاء المسؤولية على من تسبب فى النازلة.

ثالثها: عقد مجلس مختلط للنظر فى إثبات دعاوى دى صانسى أو عدمها.

رابعها: الجواب عن ذلك قبل مضي يومين و إلا فإنه يقطع الخلطة.

و شاع بالإيعاز أن المراد بإلقاء المسؤولية هو عزل الوزير فاضطرب الوالى و الوزير و اشتد الخوف، و قال بعض الأجانب أن قطع الخلطة لا يعقبه الحرب فتربصوا حتى تعلم الدول و لعله يكون منهم التداخل، فتفصل النازلة بوجه آخر، و لم يقع من أحد القناصل جواب مقنع فى عدم خوف الحكومة لعدم وصول الأخبار التلغرافية و ضيق الوقت، و لم يعلموا الدولة العثمانية و سعى أمير اللواء إلباس عند القنسل بالوجه الخصوصى بأن يكون

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ٣٠٥

الوزير فى أمان و يجب لجميع المطالب على أن يعزل الكاتب الذى توجه فى النازلة و هو الحاذق الفطن المتفنن دايد سنطليانه الذى على صغر سنه كان يحسن سبع لغات، و مطلع على السياسة و نصح لتونس كأعز النصحاء و وفى بجميع لوازم وظيفته، و يقال إن سبب الرضاء بعزله هو شخصيات نفسانية، فأرسل الكاتب استعفاءه قبل العزل، و قبل وقوع الرضا الشفاهى بأن يكون ذلك نهاية المسؤولية التى هى إحدى المطالب، و وقعت الإجابة إلى المطالب من الوالى بعد أن كتب تلغرافا إلى وزير خارجية فرنسا بأنه يريد أن يرسل له رسولا خاصا ليشرح له النازلة، فأجيب بواسطة القنسل: بأن لا فائدة و الحالة هاته فى ذلك، و أن القنسل معتمد من قبل دولته، فأجاب الوالى حينئذ بالقبول و نزل الوزير ابن إسماعيل إلى القنسلاتو باللباس الرسمى ترصيه عن الواقعة، ثم عقد مجلس يرأسه موسيو فولون أحد أعيان الحكام الفرنساويين و كان رئيس مجلس التحقيق بالجزائر و هو رجل منصف عفيف، و أعضاء المجلس إثنان تونسيان و اثنان فرنساويان، و بعد التروى فى مجرد دعاوى دى صانسى هل هى واقعة أم لا عدا دعوى التعطيل بالحرب، استقر الرأى على أن مقدار الأرض بالقيس الهندسى الذى لم يجر بكيفيته العمل فى تونس هو ناقص، و أن صفتها مطابقة للشروط، و أن الإعفاء لم يقع لأن شروطه لم تقع، و أن حماية الحقوق موفاة من جهة الحكومة، ثم بقيت الأرض بيد دى صانسى إلى الآن، و عند قبول الشروط كوفىء أمير اللواء إلباس بولايته مستشارا ثانيا بالوزارة الخارجية.

و مما حصل أيضا أنه ورد على تونس أحد الفرنساويين و طلب إنشاء مرسى أمنيّة للسفن على شاطئ قرطاجنة قرب حلق الوادى و ألح على ذلك، و تخوف من منعه فأعطى خمسة و عشرين ألف فرنك لكى لا يتشدد، و أعطى إلى أمير اللواء إلباس عشرة آلاف ريال لتوسطه عنده بأن يرضى و لا تعطى المرسى، و كذب فى الصحيفة الرسمية أن كون إعطاء المال كان بسبب طلب قنسل فرنسا. و منها: جعل موكب لإحراق تذاكر الكبون أى الفائض الذى استخلص من مبدأ الكومسيون إلى ذلك الوقت، و جازى الوالى الوزير ابن إسماعيل على ذلك الإحراق بالسيف المرصع الذى أنعم به من طرف الخلافة.

و منها: أن أحد العمال من أشرف مساكن ولى على قبيلة المثاليث فادعى عليه بأنه أخذ منهم زائدا عن موظفات الحكومة نيفا و مائتى ألف ريال و لم يحرر الحساب على مقتضى الإنصاف المطلوب، فطلب تحرير الحساب بمحضر أعيان من ثقات الحكومة فلم يجب و قبض به إثنان من أعوان الوزير و منعه من الخروج من داره إلى أن تخلص منهم بحيله و رمى بنفسه من إحدى طواقى علوه و التجأ جاريا إلى قنسلاتو إنكثرة فدخل بابها صائحا مستغيثا و أغمى عليه، و لما أفاق سأله القنسل عن سبب حاله فقرر: أنه عذب بربط يديه و إحراق الحطب فى وسط بيته و السكر فيها و صب الخمر أو القاذورة على رأسه، و غير

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ٣٠٦

ذلك من أنواع التعذيب ليؤدى المال، و أخذوا منه أجرا على ذلك خمسة عشر ألف ريال، و آل الأمر إلى طلب القنسل إعادة الحساب فامتنع الوزير من ذلك و حصلت بينه و بين القنسل نفرة و دامت مدة إلى أن أبدل القنسل المذكور لفراغ مدة خدمته بالسن، و هو سر ريتشاردو و دورقته دولته ثم جاء خلفه و صولح العامل المذكور بأقل من ربع ما ادعى عليه يدفعه على أقساط.

و منها: أن أحد أغنياء الساحل الملقب بابن الحفصية ادعى عليه بأنه اشترى زيتا من الوزير و كتب عليه حجة بنحو ثلاثين ألف ريال فتلطف بالتخلص فلم يفد، ثم طلب أن يتوجه إلى جهة الإفرنج ليستقرض منهم و يدفع، فأرسل معه أحد الأتباع لمراقبته و لما وصل

تجاه قنسلاتو فرنسا دخلها مستغيثا فتلقته أعوان القنسلاتو و قرر نازلته. و اجتهد القنسل في حمايته لما ثبت عنده ظلمه و حماه من ذلك و لم يخرج من هناك إلا و هو و جميع عائلته تحت الحماية الفرنسية، و تفاقم الأمر في الساحل على ذلك النوع إلى أن كتب أحد القنسل إلى نوابه بقبول كل من يلتجئ إليهم، و كتب تقرير فيما هو واقع فأحس الوزير ابن إسماعيل بذلك فاستعفى من ولايته عاملا على الساحل و تطف للقنسل بأن يكون ذلك ختام النازلة فانفصلت على ذلك.

و منها: أن أحد التجار الملقب بالصباغ الذي تقدم ذكره عند الكلام على الوزير مصطفى خزندار أقرض أهل مساكن في نكبة الساحل العامة سنة ١٢٨٠ هـ أموالا سلما على الزيت، و تضاعف أمرها إلى أن عجزوا و سجنوا مدة طويلة فلما ولي الوزير ابن إسماعيل على الساحل توسط في الصلح مع التاجر على أن يتحمل هوله بما يطلبه منهم و هم يدفعون ذلك للوزير على أقساط فسرخوا على ذلك، و نقل الناس عن التاجر المذكور أن المال أسقطه هو عن الوزير ابن إسماعيل لتوسطه في إرجاع بستان الوزير مصطفى خزندار بمنوبه، الذي كان دفعه في الصلح عن مطالب الحكومة منه كما سبق ذكره، و إن لم يرجع البستان إلا لورثة خزندار عند موته و إنما فعل التاجر ذلك للعلقة بينه و بين خزندار المذكور، و بقي الوزير ابن إسماعيل يستخلص المال من أهل مساكن شيئا فشيئا هكذا شاع عند من سمع من الصباغ.

و منها: أن أحد أتباع الوزير ولي على قبائل جلاص فما لبث فيهم مدة إلا و أقبل منهم فوج عظيم شاكين إلى الوالى بأنهم ضربت عليهم غرامة بنحو مائتي ألف ريال زيادة على أموال الحكومة، و وقع في النازلة مبادئ هرج إلى أن صولحوا برفع الغرامة و إبقاء العامل.

و منها: تكاثر الجعائل على الوظائف من العمال فقسمت لذلك بعض القبائل كالهامة و عاد ما تتخوف الناس منه من امتداد الأيدي إلى الأموال، حتى أشاع بعض العمال أنه شريك للوزير فيما يستلزمه من أنواع الدخل، و بسبب ذلك انحطت بعض المداخيل فلزمه غابة الزيتون سنة ١٢٩٧ هـ أخذها تابع الوزير ابن إسماعيل بسبعة و عشرين ألف مطر زيتا،

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ٣٠٧

و أحجم عن الزيادة عليه سائر الأهالي لما أعلن التابع أن أخذه لها شركة مع الوزير و ليست هاته مما يتقدم إليها الأجانب الذين لا يخشونه، لأنها تحتاج إلى ممارسة الإعراب و لم تسبق لهم عادة باستلزامها.

و منها: أن قبيلة تسمى بالقوازين من المنتسبين إلى أحد الصالحين و عددهم لا يبلغ إلى الثلاثمائة رجل، يسكنون في الجهة الجنوبية في حدود الصحراء كانت الحكومة منذ قديم مغبة لهم من الأداء لقتلهم و قلة كسبهم، و استمر الأمر على ذلك إلى سنة ١٢٩٦ هـ، فأريد إلزامهم بالأداء فامتنعوا متعللين بالعادة و الحال، فألح عليهم و تهددوا بالغضب فتحملوا بأداء شيء من المال سنويا على أنهم يوزعون على أنفسهم من غير أن يتداخل العامل في عددهم، و توزيع المال عليهم مثل ما هو جار في بعض القبائل المتوحشين كورغمه و مطماطه و شبههما، و كان الفرق بين ما يمكن أن تحصل عليه و بين ما أرادوا هم إعطاه بأنفسهم لا يتجاوز الألفي ريال على ما قرره أحد العارفين بهم، فامتنع الوزير من مساعفتهم و أذن بغصبهم و استعمل لذلك بعض القبائل الذين لهم معهم عداوة مع بعض العساكر الخيالة الغير المنضمين المعروفين بالجوانب و الصبائحية، فعاثوا فيهم و قتل منهم كثير حتى النساء و الأطفال بتمزيق جثثهم رحمهم الله.

و منها: أن رئيس أطباء الوالى طلب أن يكون بالحاضرة مستشفى على النحو الأروباوى، فتم ذلك بمال الأوقاف و انتظم أمره، و قد وفيت فيه بكل ما تحتاج إليه المرضى و تتم به راحتهم، حيث كنت أنا المباشر إلى إنشائه. و جعلت فيه قسما منفردا خاصا بالنساء و كل ما يصرف على الداخل من المستشفى يكون من فواضل مال الأوقاف و لا يعطى المريض شيئا، و لهذا اشترط أن يكون الداخل إليه فقيرا، كما جعلت به قسما منفردا خاصا بالأغنياء و يقوم المستشفى بجميع لوازمهم على أحسن حال علاج و سكا و يعطون عوض ذلك قدرا زهيدا من المال، و جميع أدوات هذا القسم من الأسرة و الخدم و الفرش مماثل لحالة بيوت الأغنياء المقتصدين في

مصاريقهم، و فائدة هذا القسم أن كثيرا من أهالي الحاضرة إذا مرض لا يجد من يوفى له بواجبات العلاج للجهل من العائلة مع أنهم يستكثرون أجره الطبيب فيندفع عنهم ذلك في المستشفى، و هناك فائدة أكبر من هاته و هي: أن أغلب بلدان القطر خلية عن الأطباء و كثيرا ما يأتي منهم أناس للتداوى بالحاضرة فلا يجدون مأوى سوى منازل المسافرين التي تسمى و كائل و هي غير صالحة لمثل ذلك فتحصل لهؤلاء هاته الثمرة مع الإشتراك في الفائدة المقررة لأهل الحاضرة.

ومنها: أن الوزير ابن إسماعيل استوهب من الوالي الأوقاف التي كان حبسها على باشا الثاني على الإناث من ذريته فسعى في جعل بينات تشهد بملكيتها في مدة وزارة خير الدين و عطلها إذ ذاك الوزير المذكور، ثم بعد خروجه تمت الهبة و بقيت الأوقاف عنده بالهبة، و لما تكاثرت عنده الأراضي المسماة بالهناشير المختلفة كبرا و صغرا باع منها عددا

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ٣٠٨

وافرا إلى لجنة فرنساوية و غيرها.

ومنها: أنه استوهب من الوالي أيضا مصيدة السمك ببلد المستير المسماة بالثارة ثم أحالها إلى لجنة أخرى، كذا شاع أيضا.

ومنها: عمل طريق بين باب البنات و باب سوقة من الحاضرة قرب دار الوزير و فيها أكثر مروره إلى جهة باب البحر.

ومنها: أن أحد الأغنياء من الأهالي توظف في الحكومة المسمى بمحمد عريف توفي رحمه الله عن غير ولد و كانت له بنات من إبنه، فأوقف كسبه عليهن و على من يتزايد له، و بعد وفاته وضعت زوجه حملها فكان ولدا ذكرا ثم توفي في أثر ذلك، و كان للمتوفى ابن عم فتعاقد مع الزوجة و أراد أن يعطلا الوقف المذكور ليصير المخلف إرثا فإرثان أغلبه، و استعانا بتابع الوزير المسمى على ابن الزى على مواعيد له، و قد كان القاضى جعل وصيا على البنات و حفظ الوقف و المنقول فطلب التابع أن ينقل حكم النازلة من الشريعة إلى الوزارة على خلاف الديانة و العادة من تحكيم الشرع في الموارث و الأوقاف، و أرسل الوزير إلى القاضى مكتوبا بأن يسلم رسوم الوقف إلى كاتبين، أحدهما من خواص الوزير، و الثاني من الوزارة، مع الوعد في المكتوب بأن الوزارة بعد الإطلاع على الرسوم ترجعها و كان المتسلم لها أبو الزوجة و هو و كيلها مع أحد الكاتبين، فطال الزمن و أبلغ الوصى إلى القاضى التخوف على الرسوم إذ شاع أنها سيقع فيها تغيير فأرسل إلى أبي الزوجة و إلى الكاتب اللذين تسلموا الرسوم بطلب ترجيع الرسوم فأيا فأحضرهما فامتعا فسجن أبا الزوجة حيث أنه هو المتسلم و أخبر بأن الرسوم بعلو في داخل المحكمة الشرعية هو محل اشتغال الكاتب المذكور حيث كان من شهود الأوقاف، و ذلك العلو هو مكان اجتماعهم، فبعد أن ألح القاضى على الكاتب و امتناعه أمر بأن يمنع من دخول العلو خشية إخراج الرسوم منه، و بقى القاضى بمحل حكمه على الهيبة الشرعية حسبما سبق التعريف بذلك من كون أهل الشرع بتونس لهم من التعظيم و التوقير قريبا مما كان عليه الحال في الأعصر المعظمين للديانة و شعائرها، فما كان غير بعيد إلا و على ابن الزى المذكور قارم فضرب باب العلو برجله و كسر قفله، و أمر الكاتب بالصعود و إخراج الرسوم و أخرج المسجون و أمره بالذهاب حيث شاء و قدم على القاضى و باشره بما لا يناسب ذكره.

وفشا الخبر و عظم الأمر عند العلماء و العامة إلى درجة لم تعهد، فأبطلت الدروس من الجامع الأعظم و أغلقت دار الشريعة و كثر اللغظ و سرى إلى خارج الحاضرة، و أبلغ أمر النازلة إلى الوزير ابن إسماعيل فأراد أن يهون النازلة بمنع تابعه من القدوم إلى تونس، و أرسل معلما إلى القاضى بأنه سجنه فلم يلتفت لذلك العلماء، و تقدم الشيخ أحمد بن الخواجه شيخ الإسلام و جمع العلماء مرارا و أظهر أشد الإنتصار للشرع و كتب جميع المجلس الشرعى مكتوبا و أرسلوه إلى الوالى قصدا بلا واسطة الوزير على خلاف المعتاد،

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ٣٠٩

و قدم به رسولهم على الوالى في مجلسه العام فقريء عليه فإذا فيه تفصيل الواقع و الإشارة إلى أن الخطب عظيم، فاهتز الوالى و توفى عاقبة الأمر و أحضر الجانى و أمر بنزع رتبته و حبسه ثم نفيه إلى حصن جربه، و قدم على أهل المجلس باشكاتب و وزير الشورى و تأسف لهم على ما وقع و هدأ بالهم بما صدر من الحكم فاقنعوا في الجانى بما وقع، و لكنهم طلبوا مواجهة الوالى و قصوا على

باشكاتب المذكور ما هو حال بالقطر مما تقدم شىء منه، إلى أن بلغ الحال إلى تلك الدرجة و توقعهم لما هو أعظم، و كان شيخ الإسلام يبكى على حاله من لا أرب له فى الدنيا و كل تكلم بما بدا له من فظاعة الحال فأبلغ باشكاتب ما سمع و ما رأى فاضطربت أفكار الوالى و تكاثر الكلام فى الناس و كانوا كلهم على كلمة واحدة فى اتباع أهل المجلس الشرعى، و مما ذكر إرادتهم إنهاء الأمر و الشكاية إلى خليفة المسلمين و طلب إجراء ما تضمنه فرمان المؤرخ فى شعبان سنة ١٢٨٨ هـ من إجراء العدل و الإنصاف فى الرعايا، و بلغ الوالى قصد العلماء و هو طلب تشكيل مجلس للنظر فى المصالح و فى أعمال المأمورين لكى لا يقع مثل ما وقع، و خشى مما شاع من تداخل الخلافة الكبرى لظنهم أن السلطان لا يرضى بضياع أهالى تونس لمخالفة السيرة الإدارية لما هو مشروط فى فرمان السلطانى، سيما و قد بلغ الأمر إلى ما هو راجع إلى الشرع و حمايته و أن ذلك أيضا يجرى إلى تداخل بقية الدول العالمين بقبح السيرة، مع كون الصدر بالدولة العثمانية إذ ذاك هو خير الدين باشا الذى يراه عدوا له، فأرسل الوالى إلى العلماء ثانيا يقول لهم: أمهلونى بضع أيام، فإن جعلت ترتيبا سياسيا يقنعكم فاقدموا إلى حيثن شاكركين و إلا فلکم أن تبدوا ما يظهر لكم، و كان هذا رأى أشير به على الوزير بأن يعمل كما قيل: «بيدى لا بيد عمر» و خشية تفاقم المطالب على ذلك النحو، و وقع إذ ذاك مبادئ انحلال فى عزم أهل المجلس الشريعة لأن رئيسهم تقرب إليه الوزير سرا، فأنحط حرصه و توجهت أطماع البعض إلى المسابقة لإرضاء الوزير فأجابوه: نعم، ثم جمع الوالى وزراءه و أعلمهم متأسفا من مطلب أهل الشريعة بأنه يريد أن يجعل مجلسا مركبا منهم، أى من الوزراء و رؤساء الإدارة دون غيرهم من الأهالى للنظر فى المصالح و جريان السياسة، فأجابوه: بأن ما يظهر له حسن فهو حسن، و كان هذا الجمع من الوزراء و المستشارين مشتملا على جميعهم حتى أن الوزير حسين كان إذ ذاك قدم من إيطاليا لمصالح فى مأموريته فصادف الواقعة، و كان ممن وافق الوالى على رأيه فى جعل المحتسب و المحتسب عليه واحدا خلافا للمعقول، و لما يعلم من طبعه من لزوم الإحتساب الحقيقى على تصرف المأمورين بثقات من الأهالى إلى غير ذلك من أوجه العدل، و مع هاته الموافقة فلم يسلم من القدح.

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ٣١٠

ثم أن الوالى أرسل لأهل الشريعة يعلمهم بأنه أنشأ مجلسا مؤلفا من عشرة أعضاء تحت رئاسة الوزير ابن إسماعيل و أعضاؤهم الوزراء و المستشارون و بعض رؤساء الإدارة، و لما بلغ لأهل الشريعة ذلك، قالوا: ليس قصدنا المتوظفين لأنهم دائما تحت الأمر و لا خبرة لهم بما فى أطراف القطر، و إنما المراد أن يكون المجلس من المتوظفين و العلماء و أعيان من البلاد و العربان و لا أقل أن يكون عددهم ثلاثين عضوا، و أنهم لا يقصدون إلا مصلحة البلاد لأنهم ليس لهم غرض إلا هناء القطر و هناء الوالى، و قيل: إن قنسل فرنسا صرح بأنه لا يتعرف بالمجلس و أنه إن أراد الوالى الإستعانة بعساكره لردع الطالبين فهو حاضر له، حيث أن طريقة الوزير هى التى تبلغه إلى قصده كما ذكرناه فى محله، ثم لما بلغ الوالى جواب العلماء أرسل إليهم بأنه يزيد إثنين من رؤساء المتوظفين و أن هذا المجلس ينظر فيما يقتضيه الحال من الكيفية و يجرى العمل به، و كان فى أثناء هاته الأيام دبت السعاية بالترغيب لبعض العلماء و الترهيب لهم من تداخل الأجنبي بلا- مستند، فرضى عمدتهم بذلك و كان سببا فى تمكن الفيض على من زيد حيث انتهى رضاء المقترحين عند ذلك و صرح الوالى بما يشف عن ذلك و الله المطلع على السرائر.

ثم جعل هذا المجلس فى نفس الأمر إذا اجتمع يعرض عليه ما يريد الوزير و الأغلب أن يكون المعروض هو بعض النوازل التى تعرض بقله، و لما كان أغلب الأعضاء يسايرون الوزير لم يظهر لوجوده من أثر إذ لا يتداخل فى نصب و لا فى عزل و لا سيرة عامل أو رشا و شاهد ذلك الخارج، فإنه لم يمض عليه شهران حتى وردت الرسل على شيخ الإسلام بأن يتشفع فى الجانى على الشرح فلم يوافق جهرة بل أظهر زيادة الامتناع ثم سودت سرا بطاقة إلى المنفى ليكتب على نمطها مكتوبا لأهل المجلس الشرعى، و لما ورد مكتوبه على نحوها كتبوا إلى الوالى مستشفعين بعد أن امتنع بعضهم، و قيل: عندما سمع بذلك! ليت شعرى ما هو وجه كتبهم مع علمهم بالحقائق.

و منها: أنه شرع الوزير أثر ما تقدم فى بناء دار شيخ الإسلام المذكور بتونس و كذلك داره بجبل المنار، و كثر تردد تابعه الجانى المذكور عليه حتى نشأ عنه قيل و قال يسوء جانب العلم و الخطأ.

و منها: أنه اشتكى بعض السكان فى مطلب له من تابع الوزير المذكور إلى القاضى، فلما دعى للجواب امتنع و ورد الإذن إلى القاضى الشرعى بأن المذكور لا ترفع نوازله إلا للوزارة فليس له النظر فيها، و قد علمت سابقا ما هى حالة احترام الشريعة و حكامها.

و منها: بناء محل للكرتينة أى الإحتماء للواردين من الأقطار التى يكون بها مرض عام معدى، و بنى ذلك بحسب رغبة الأجانب و حرص رئيس أطباء الوالى و جعل له طيب خاص، و كان بناؤه بإحدى المراسى المسماة غار الملح.

و منها: حصول الهرج فى القبائل بالجهة الغربية حتى ادعى قبائل الجزائر التعدى من

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ٣١١

قبيلة و شتاته التونسية، فأرسل عليهم الوزير بعض أتباع الحكومة و شاع أنهم اغتصبوا منهم نحو ثمانمائة رأس من البقر أعطوهم إلى قبائل الجزائر و أخذوا لأنفسهم و كبيرهم خمسمائة رأس من البقر.

و منها: أن تابع الوزير ابن إسماعيل استلزم لزمه الصاغى، أى دخل الحكومة مما يؤخذ على المصوغ المباع من الفضة، فادعى على أحد أهالى القيروان الأغنياء من الذين يتعاطون التجارة بأنه أخفى ما يلزم الأداء عليه للزام، و سجن و كاد أن يفلس و راد لنفسه و جها للحماية فى المستقبل.

و منها: أن شركة طليانية طلبت مد سلك كهربائى بين تونس و إيطاليا و لم يجبها الوزير إلى ذلك، و كان ذلك سببا فى تعكير الخلطة مع إيطاليا بدعوى أن شروط أصل إنشاء التلغراف لا يقتضى منعهم.

و منها: جعل أداء على العجلات التى فى الحاضرة حسبما هو جار فى سائر البلدان لإصلاح الطرق.

و منها: منح لجنة فرنساوية لإنشاء مرسى فى شاطيء البحيرة بالحاضرة بعد أن طلبت أن تكون المرسى حول حلق الوادى، مع إنشاء طريق حديدية إليها من الحاضرة مارة على طريق رادس فمانعت فى ذلك الشركة الطليانية التى اشترت من الشركة الإنكليزية الطريق الحديدية الواصلة بين تونس و حلق الوادى المارة على العوينة مستندة إلى شروطها و كاد أن يتفاهم الخلاف إلى أن أرسى على ما تقدم.

و منها: منح اللجنة الفرنسية المذكورة و هى صاحبة طريق الحديد الواصلة إلى الجزائر، بأن تنشئ طريقا حديدية إلى الساحل و أخرى إلى ابن زرت و أن تستبد بالطرق الحديدية فى المستقبل إلى أى جهة.

و منها: أن أحد أقارب صهر الوزير ابن إسماعيل قتل حلاقا بإطلاق مكحلة عليه فى دكانه لمشاجرة بينهما و لم يقتص منه.

و منها: أن أحد التجار الطليانية كان يدعى بأن جده كان أتى لمحمود باشا الذى توفى سنة ١٢٣٩ هـ بشىء من السلع و لم يأخذ ثمنه، و هو نحو خمسة عشر ألفا و كانت نشرت النازلة مرارا و لم تقبل حتى عند الكومسيون المالى المختلط، و حفيد ذلك التاجر صهر لأمير اللواء إلياس المتقدم ذكره فأعطى حينئذ ما يطلب، و لما كانت مالية الحكومة ضيقة و الكومسيون غير متعرف بالدعوى أعطى الطالب أرضا قبل إن قيمتها نحو ستين ألفا، و لما ورد الإذن من الوزير على الكومسيون بأن يأذن و كيل أملاك الحكومة بتسليم الأرض المذكورة للطالب توقف المحتسب العام الفرنسية فى وجه ذلك، و لكن قد تمكن الطالب من الأرض.

و منها: أن فى رأس سنة ١٢٩٧ هـ صنع بعض أتباع الوزير مصحفين على النحو الذى

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ٣١٢

تقدم فى وزارة خير الدين و قدموهما للوالى و الوزير ابن إسماعيل فى موكب بإسم الإهداء من الأهالى، و انظر ما هى الخصلة التى كانت سببا لذلك، ثم فى ربيع الأول من تلك السنة قدموا للوزير أيضا مثل ما تقدم سيفا مجوهر، ثم فى شوال من تلك السنة قدموا له أيضا دواة مجوهره بقلمها بإسم اليهود من الأهالى، لكن الخصلة التى استحققت ذلك لم تعين و لا فى واحدة من تلك الأشياء.

و منها: أن أحد المهندسين الفرنسيين كان ادعى أنه مطالب للحكومة بمال مدة وزارة مصطفى خزندار و تؤملت مطالبه فلم تقبلها الحكومة، و كذلك عند انتصاب الكومسيون المالي عرضت عليه تلك المطالب و استقر الأمر على عدم قبولها، و مهما ادعى بها لم تقبل و لا وجدت قناسله مستندا لتدعيم دعواه، ففي وزارة الوزير ابن إسماعيل قيل أن يجعل فيها تحكيم و عقد لذلك مجلس مختلط من التونسيين و الفرنسيين و رئس عليه أولا أحد رؤساء الأحكام فلون الذي تقدم ذكره في نازله دى صانس غير أنه لم يقبل، كأنه علم غير ملائمتها لما هو عليه فقدم للرياسة غيره و صدر الحكم على الحكومة بأدائها للمذكور نحو ثلاثمائة ألف و خمسة و خمسين ألف فرنك.

و منها: أن التاجر الصباغ الذي تقدم ذكره أيضا كانت له دعوى من نوع السابقة و لم تقبل لا من الحكومة و لا من الكومسيون المالي فكذلك الوزير ابن إسماعيل قبل فيها التحكيم، و صدر الحكم بأداء الحكومة نحو أربعمئة ألف و خمسين ألف فرنك، و الحال أن الحكم كان صدر من الكومسيون المالي الذي هو مختلط من تونسيين و فرنساويين و طليانيين و إنكليزيين و فيه أحد كبراء الموظفين من دولة فرنسا و انتصابه باتفاق الدول المذكورة على التراضى به في جميع النوازل المالية و رد هو كلا من المطالب المار ذكرها، و استمر العمل بذلك أزيد من عشرة سنين مع ما فيه الحكومة من العسر المالي كما تقدم شرحه.

و أضيف إليه استيهاب ما بقى على ملك الحكومة من مهم الأملاك للوزير أبي إسماعيل حتى تمم ما بقى مما يعتبر منها عندما تزايد له مولود، بل حتى الأحباس التي أوقفها الحكومة على المدرسة الصادقية أراد أن يأخذ منها أهمها هو و بعض من المقربين عنده بوجه الإنزال أى الكراء المؤبد، و عند امتناع القاضى من ذلك جعلت الأوقاف المذكورة من أملاك الحكومة و خوطب بذلك رئيس الفتوى من المالكية فأنزلوها على يده، فالعمال يشترون الوظائف و الأهالي تتحمل أعمالهم و المالية و السياسة و الشريعة على ما تقدم ذكره، و آخر المنح التي بلغتنا أنها حصلت في هذا العهد أن وقع الإلتزام إلى دولة فرنسا بأن لا يحدث شىء جديد في القطر من الأعمال العامة النافعة إلا بعد عرضه على الفرنسيين، فإن لم يوجد منهم من يريد عمله فإذ ذاك يسوغ أن يباشره غيرهم بحيث وقع التقيد في ذلك بإرادتهم، و هذه خلاصة التاريخ في القطر التونسي إلى هذا العهد و هو مبدؤ سنة ١٢٩٨ هـ.

تنبيه: قبل طبع هذا الجزء طرأ الحادث العظيم على القطر، و سنفرده بذيل خاص في

صفحة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ٣١٣

الجزء الثالث إن شاء الله تعالى عند الكلام على سياسة فرنسا الخارجية.

فصل في بعض عوائد أهل القطر و صفاتهم

مطلب في الأوصاف العامة

قد تقدم أن السكان مسلمون إلا ما قل من يهود و نصارى الذين مجموعهم نحو مائة ألف، و أما التبصر في أحوال الديانة فإنما هو في المدن و بعض القرى و أما في القبائل الساكنين بالخيام فلهم معرفة إجمالية خصوصا ذوى الثروة و الذين تنشأ في أوطانهم زوايا لبعض الصالحين، فيرشدتهم مشايخ الطرق، و أما باقيهم فيعرفون من عقائد الإسلام الوحداية لله و رساله محمد صلى الله عليه و سلم صادقة و ربما كان بعضهم لا يعرف عدد أوقات الصلوات و غيرها من الفروض العينية، و كأنى بإثمهم يتحمل به من يعلم حالهم و لا يرشدهم، و الكل على مذهب الإمام مالك رضى الله عنه إلا قليلا منهم على مذهب الإمام أبي حنيفة رضى الله عنه، و الجميع أهل سنة إلا بعض أهل جربة فهم على مذهب الاعتزال و لهم علماء و مساجد خاصة، و للأهالي تعظيم لشعائر الدين و منها الحياء فإن الإبن سيما من الأعيان لا يجلس أمام والده إلا بإذنه و لا يستنشق التبغ و لا يدخن به أمامه أبدا و كذلك أمام والدته، هذا فضلا عن الكلام

الفاحش أو خطاب زوجته بل حتى إذا كان له ابن صغير فإنه لا يحمله و لا يخالقه أمام والديه، و يقبلون أيدي والديهم في السلام عليهم و ربما كان ذلك كل صباح و هي تحية التلامذة لمشايخهم و تحية السادات الأشراف و لجميع الأهالي تعظيم كامل لهم، و أما سلام الأكفاء فهو التقبيل في الكتف إلا الأعراب فإن بعضهم يقبل يد بعض أو رأسه، و لا تكاد تسمع أحدا من ذوى المروءة يغنى فضلا عن النساء اللاتي صوتهن عورة، بل

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ٣١٥

لهاته الصناعة أناس خاصون و فيهم من النسوة عاهرات و هن يسكنن بديار في حارات مخصوصة.

و ما ذكر من الغناء و مثله الرقص خاص بالحاضرة و أكثر البلدان بخلاف الأعراب فعندهم ذلك غير معيب، كما أن الأكل في الطريق أو في الأماكن المكشوفة للمارة معيب تسقط به العدالة، و كذلك دخول القهاوى تتجنبه أصحاب المروءة حتى أن الأعيان ليس لهم محل اجتماع عمومي و غاية تفسحهم بالمشى في الطريق النزهة أو أماكنهم الخاصة مع أحبائهم، نعم يتساهلون في دخول القهاوى في أماكن النزهة خارج الحاضرة و لكن أعيان الأعيان لا يدخلونها أيضا، و التدخين بالتبغ لا زال معيبا عند ذوى المروءة و ليس ذلك إلا مجرد اتباع للعادة و إلا فلا فرق بينه و بين النشوق مع كثرة استعمالهم لهذا جهرة، و حكم

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ٣١٦

الجميع شرعا على مذهبا الحنفى الجواز، و كذلك المعمول به من المذهب المالكي، لا بتناؤه على مسألة الأصل في الأشياء الإباحة و هي مسألة خلافية، فقالت طائفة: الأصل الإباحة حتى يرد المحرم، و قالت طائفة: بالمنع حتى يأتي المبيح، و قالت طائفة: بالتوقف و الصحيح الأول لقوله تعالى: هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا [البقرة: ٢٩].

فجميع ما في الأرض خلق لمنفعتنا فنستعمل كل شيء في محله إلا ما ورد فيه المنع، و يشهد له أيضا قول النبي صلى الله عليه و سلم: «إن أعظم المسلمين جرما من سأل عن شيء لم يحرم فحرم من أجل مسألته» و قوله عليه الصلاة و السلام: «دعوني ما تركتكم فإنما أهلكت من قبلكم كثرة مسائلهم و اختلافهم على أنبيائهم» و كل من الحديثين منقول في الصحيح، و كان ورود الحديث عقب السؤال عن أشياء لم يرد فيها حكم بالتحريم فدل على الإباحة.

و هذا التبغ لم يكن معروفا زمن البعثة و إنما عرف بعد الإكتشاف على أمريكا كما تقدم، فيكون حكمه هو الإباحة الأصلية، و كان الإستحياء من استعمال التدخين مطلقا أو النشوق أمام الوالد و الكبراء مبنى على أصل آخر غير التحريم، و هو أنه لما كان فيه خلاف فالورع تركه إذ الورع هو ترك ما لا بأس به حذرا مما به البأس، و لما كان الأصل في المؤمنين هو السلوك على أكمل الصفات فكأن أهل تونس يستحون من ترك الورع أمام ذوى المقام، كما أنه لا يوجد في الحاضرة أماكن للملاهي أى الملاعب إلا في رمضان، فتكون فيها أماكن للصبيان ليلا يلعب فيها بتصاوير من وراء الستار بالخيال من الصور في نور المصاييح و يسمى المكان خيال الظل، و ربما أحضر فيها نوع من السماع، و صورة اللعب هي تشخيص حكاية بصور من الجلد على هيئة المحكى عنه، و اللاعب يتكلم على لسانها و الجميع من وراء الستار بحيث يشخص للناظرين من خارج الستار كأن الواقعة مشاهدة و إن كانت الصور صغيرة طولها قدر شبر، و الأغلب أن تكون الأماكن و سخة و لا يدخلها إلا الصبيان و بعض من لا مروءة له من الرعاع لتقضية الأوقات فيما لا فائدة فيه سوى السخرية و الضحك و إضاعة الزمان، و الأغلب في الحكايات أن تكون مضحكة مما يدركه الصبيان و ربما شخصوا المستحيلات العادية كالغول و الشيطان إذ هذا لا يرى و لا تعرف صورته بحيث يصح أن يقال إن تلك الملاهي لا ثمره فيها إلا مجرد لهو الصبيان، و كان الأصل في إساعتها ما نص عليه فقهاؤنا في كتاب الحضر و الإباحة من جواز شراء اللعبة للصبيان،

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ٣١٧

فقاوسا عليه اتخاذ ملهى لهم ليلا- في رمضان لكي يسهروا و لا يستيقظوا مبكرين فيوقظون والديهم، إذ عادة الناس في رمضان هي السهر أغلب الليل و منهم من يستغرق جميع الليل بحيث لا يشتغلون إلا قرب نصف النهار، و كأن هاته عادة مبنية على العبادة إذ قيام

ليالي رمضان بالعبادة مندوب إليه بيد أن الكثير يشتغل بالملاهي كسماع آلات الطرب في القهاوى أو لعب الورق المسمى بالكارطة و هو الكثير، و لهم منه أنواع شتى أشهرها ما يسمى بالتريسيتى أو لعب النرد أو الدامة أو الشطرنج و هى الألعاب الموجودة فى القطر، و يوجد أيضا لعب المنقلة و الخربقة بقله فى الحاضرة و بكثرة فى غيرها، لكن الأعيان إنما يسهرون فى رمضان أو غيره بديارهم أو ديار أصدقائهم، و بعضهم بعد صلاة التراويح يسردون كتابا فى السير أو الحديث ثم يتسامرون بالكلام، و بعضهم يتعاطى أحد الألعاب المذكورة.

و أما فى غير رمضان فعموم الناس يبكرون إلى أشغالهم و لا يرجعون إلى ديارهم إلا عند الظهر للفطور ثم يعودون إلى أشغالهم إلى قرب الغروب، و بعضهم ممن تكون ديارهم بعيدة عن محل أشغالهم يفطرون فى حوانيتهم و يوجد فى حارات الإفرنج ملاهى على نحو ملاهى أوروبا، كما يوجد فيها قهاوى كثيرة على نحو قهاوى أوروبا و منازل للمسافرين مثلها، و لكن أعيان الأهالى يتحاشون عن الدخول إلى الجميع و إن كانت مخالطتهم مع الأجانب و غيرهم حسنة، و قد كان لعموم الأهالى ولوع بالفروسية و لهم فى مسابقة الخيل مواكب تسمى ملاعب يعقدها كبراء الحكومة أو كبار العمال، و من له انتساب إلى الأعراب خارج الحاضرة فى إحدى الجهات المتسعة، و يستدعون إليها الفرسان فيأتون بأحسن الملابس و السروج المزركشة بالذهب و الفضة و السلاح مثل ذلك و تارة يلبس الفارس على رأسه شيئا من ريش النعام يسمى عروج، و الأصل فيه تعليم النبى صلى الله عليه و سلم لسيدنا حمزة فى إحدى الغزوات بريش كما فى عيون التواريخ، و الحاصل أن لبس الفرسان جميل جدا و لهم براعة فى الحركات الحربية، فترى الفارس فى حال السباق يطلق و يعمر مكحلته عدة مرار، و تارة يطلق أربعة مكاحل كل بجعبتين ثم يطلق قرايينه ثم أربعة طبانجات ثم يخترط سيفه، و جميع ذلك السلاح محمول عليه و لا يعطل له شيئا من خفة حركاته، و تراه إذا اخترط السيف يصير بين كروفه، و بعضهم فى حالة السباق يدلى يده إلى الأرض فيحمل منها قبضة من تراب، و بعضهم يفرش له بمحاذاة ميدان السباق رداء من حرير فى نهاية الصفاقة ففى حالة الركض النهائى يمد يده و يرفع طرف الرداء ثم وسطه ثم آخره، و بعضهم يركض فرسه و بينما هو فى حملة السباق و إذا بالفارس يقف على رجليه فوق السرج و يطلق البارود، ثم يجلس و يلتصق بدير الفرس ثم يلتصق بحزام الفرس ثم يقف على رأسه و يديه فوق السرج و رجلاه إلى فوق و عليهما مكحلة، ثم يدفع المكحلة و يلتقفها بيده و يجلس و يطلقها، كل ذلك و الحصان فى نهاية ركضه و جميع أعماله فى بعض دقائق، و هذا العمل

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ٣١٨

الأخير من النادر فى الفرسان. و منهم من يلعب فى دائرة لا يتجاوز قطرها عشرة أذرع و الحصان فى حالة الرباع بل رأيت من يركب على حصانه و يركض الحصان رجليه فى الأرض و يرفع يديه معا و يلتفت يمينا فيطلق فارسه القرايينه ثم يرفع يديه كذلك و يلتفت شمالا فيطلق فارسه القرايينه أيضا، و الحال أنه عمرها فى حصه رفع الحصان يديه و يستمر ذلك كذلك بالتتابع نحو نصف ساعه و ليس بين الطلقة و الطلقة إلا بضع ثوان من الدقائق الزمانية على غاية من السرعة و التتابع و هذا أيضا نادر و منهم من يخترط السيف و يصير مع راجل أو فارس مثله فى غاية الطعان و الكر و الفر.

و الحاصل أنهم يشخصون حالات الحرب بالخيال على أنواع شتى و تكون إذ ذاك طبول الحرب تعزف و معها مزامير للعربان و ذلك أعظم ألعاب الأهالى التى يفتخر بتعليمها و يتبادرون فى إتقانها، و ذلك مبنى على أمر دينى و هو ما ورد من أن كل لهو حرام إلا ثلاث منها: «ملاعبة الفارس لفرسه» و ورد أيضا الحث على الفروسية و على السباق و أبيض فيه المخاطرة إذا كانت مع ثالث، فلذلك كانت هاته الخلعة مما يتنافس فيها من رجال الحكومة و غيرهم فى جميع القطر، لكن فى هاته المدة الأخيرة تناقص الأمر منذ كثرت الكرايس و ربما صار الكبراء ينتزهون عن اللعب بخيلهم جهرة، نعم بقى ركوب الخيل مرغوب فيه كما أن الصفات الأولى لا زالت عامة فى البلدان و الأعراب و هو الحق، لأنها من صفات الرجولية و الدين و مما يشملها قوله تعالى: وَ أَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَ مِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ [الأنفال: ٦٠]. و هاته الخلعة تستلزم الرماية التى هى من مشمولات القوة المأمور بها فى الآية الكريمة، و قد تجرد منها

أغلب أهل الحاضرة حتى أن بعضهم لا يكاد يستطيع أن يطلق طبانجة كما أنه لا زال في الحاضرة و بعض البلدان تعليم الخيل و البغال من نوع الهملجة و هي أن يرفع الحيوان يدا و رجلا معا من أحد شقيه على الإستقامة ثم الشق الآخر ليكون سيرها لنا لا يتعب الراكب بخلاف الخبب، ثم يتقنون ذلك التعليم إلى أن يصير الحيوان به يمارى الراكض، و لهم في ذلك اعتناء بحيث تجد منهم جماعات يخرجون كل عشية صيفا و خريفا إلى حد الأماكن القريبة من الحاضرة النزهة كسيدي فتح الله قرب شوشة رادس أو منوبة في قهوة سيدي ابن الأبيض أو سباله الأحواش، و بعد الإستراحة هناك يركبون و يتسابقون بالسير المذكور، و ربما اعتنى بعض غير الأعيان حتى بالمسابقة على الحمير بالسير و قد يوجد بعض منها يسابق الخيل و البغال مع أن هاته يمكن أن تجارى الحصان في ركضه إذا لم يكن شديد الجرى، و الخيل على

صفوة الإختبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ٣١٩

حسنها في القطر يعتنون بتربيتها و تهذيب أخلاقها كي تصير مساعدة للفارس في جميع أغراضه، ثم إن الأهالي ينقسمون إلى ثمانية أقسام:

فالأول: الأصليون من البربر. و الثاني العرب: و هم الذين قدموا عند الفتح ثم بعده على أجيال عديدة. و الثالث الأندلسيون: و هم الذين قدموا عند تغلب الإسنيول على بلادهم. و الرابع الترك: و هم الذين وردوا عند الإستيلاء على تونس ثم من ورد منهم بعد ذلك. و الخامس السودان: و هم الذين جلبوا من دواخل أفريقية لبيعهم. و السادس الجزائريون: الذين رحلوا بعد استيلاء الفرنسيين على الجزائر، و السابع اليهود: و هم قدماء في السكنى، و الثامن: الوافدون من أوروبا.

فالأقسام الستة الأول تخالط نسلهم و لم يبق تمييز بينهم إلا قليلا من البربر في جهات الأعراض لا زالوا يستعملون لغتهم، و كذلك قليل من السودان متميزون بلونهم و قليل من أهل الجزائر يتميزون بمجرد نحلتهم و انتمائهم و اللون الغالب على الجميع هو لون البياض المشوب بسمره و منظرهم جميل يكثر فيهم الحسن و هم أقوياء سليمون أهل مروءة و تواضع و بشاشة و حسن معاشره.

مطلب في التجارة:

اعلم أن أغلب الأهالي تقاصروا في هذا الميدان، و قصارى الأمر أنهم يتجرون في البضائع التي تنفق في البلاد الإسلامية بإخراجها إليها، و يجلب ما يروج من بضائعها في القطر، مع أن أغلب الخارج منه و المجلوب إليه من بلاد أوروبا و كله منحصر في الأوروبانيين إلا نادرا من الأهالي، ثم أن قيمة التجارة بين الداخل و الخارج لا يتجاوز معدلها الأربعين مليون فرنكا في السنة.

فأما البضائع الخارجة فهي: الحبوب من قمح و شعير و فول و غيرها، و كذلك الزيت و الصوف الساذجة و المنسوجة و القطن و الإسفنج، و بيض السمك و لحم نوع منه و منسوجات الحرير و القطن و الشاشية و أشياء آخر زهيدة.

و أما البضائع الداخلة فهي كثيرة فمنها: المنسوجات القطنية و الحريرية و الصوفية، و أنواع الأخشاب و الحديد و القرميد و السكر و القهوة و أواني النحاس و غير ذلك، مما هو محتاج إليه في الحضارة و لا وجود له، من نتائج البلاد. و حمل السلع إلى خارج القطر في السفن البحرية و قد أرسى بأعظم مراسى القطر و هو حلق الوادي في سنة ١٢٩٥ هـ مائتان و سبعة و خمسون باخرة و أربعمئة و ثمانون سفينة شراعية كلها للأجانب إلا عددا يسيرا، و أغلب الأجانب رواجوا في التجارة هي التجارة الفرنسية و الطليانية.

و أما حمل السلع في البر فهو على ظهور الإبل و الخيل و البغال و الحمير و العجلات المسماة بالكرطونات، و واسطة المواصله هم فرق من تجار القطر يسمون بالحماره تكون لهم دواب وافية و يكونون ذوى عرض و أمان تسلم إليهم التجار البضائع و هم يبلغونها إلى

صفوة الإختبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ٣٢٠

جهاتها بعدت أو قربت، و لكل جهة حمارون مخصوصون و لا- يكون ذلك إلا- بين البلدان، و أما القبائل الأعراب فلهم قوافل

يجتمعون عند قصد إحدى البلدان أو الأسواق التي تقام في أيام من الأسبوع بإحدى الجهات، كسوق الخميس قرب الركية و أمثاله، و يحملون على دوابهم ما اشتروه و يرجعون إلى أماكنهم، و لما كانت الطرق الصناعية قليلة تعطل أغلب التجارة زمن الشتاء في دواخل القطر، لكن الطريق الحديدية المارة إلى الجزائر سهلت التجارة إلى الجهات الغربية كما أنه رتبت بواخر للبريد و السلع بين مراسى القطر الشهيرة، زيادة على البرد التي هي ثمانية تأتي أسبوعياً من أوروبا، فإثنان إلى فرنسا و الجزائر، و إثنان إلى إيطاليا، و أربع إلى مالطا، و قد يأتي غيرها على غير انتظام، و ليس للأهالي من السفن شيء إلا قليلاً من ذات الشراعى لأهل جربة و صفاقس و الساحل.

مطلب في ترتيب الأحكام و الإدارة

الآن الوالى يجلس يوم السبت في كل أسبوع غالباً بمحل من قصر الإدارة الكائن في بلد باردو يسمى هذا المحل بالمحكمة، و هو بيت كبير مستطيل و بصدرة كرسى ذو درج مموه بالذهب و عليه تاج معلق، و الدرج مكسوة بالمحجر نوع من منسوج الحرير التخين الغالى، يجلس عليه الوالى و يوضع بجانبه زوج طبانجة و يقف عن يمينه و شماله على الدرج من حضر من أهل بيته، و يقف الوزير عن يمينه من أسفل الدرج بحيث يكون مواجهاً إلى الجهة اليسرى من الوالى و يليه بقية الوزراء على حسب أسبقيتهم في الوظيفة، ثم يليهم كبار العساكر النظامية ثم رؤساء العساكر الخيالة غير النظامية المسمون بالأغوات، ثم العمال و الأظاباشية و الكواهي أى الصنف الثانى و الثالث من رؤساء العساكر الخيالة الغير النظامية، و عند نهاية الصف عن اليمين يتممون الصف عن اليسار، فإن زادوا جعلوا صفاً ثانياً وراء الصف الأول و يجلس باشكاتب على مسطبة على يسار الوالى مقابلاً لأول الصف الأيمن، ثم يليه مسطبة طويلة يجلس عليها كتبة من أقسام الوزارات على حسب رتبهم، ثم يقف تجاه الوالى عن بعد في آخر الصفوف نحو ستة رجال يسمون شواش السلام و الشطار، بلباس أحمر مقصب بالفضة و على رؤوسهم شواش حمر و شراباتها فضة و عليها مما يلي الجبهة قطع من النحاس الأصفر و مغروز فيها أنواع من ريش أجنحة الطير الطويل و بأيديهم معاول طوال من النحاس الأصفر يركزونها و يتكئون عليها، و عند جلوس الوالى في ذلك المجلس يرفع صوته كبير هؤلآء الشواش بكلام باللغة التركية معناه: دعاء بالنصر و التأييد للوالى، ثم يرفع صوته بقوله: سلام و رحمة الله، ثم يقف وراء هؤلآء رؤساء البوابة أى أصحاب الباب و تعزف الموسيقى العسكرية عند دخول الوالى لذلك المحل و يأذن إذ ذاك الوالى بإدخال أصحاب الشكايات، فيرفع صوته رئيس البوابة بقوله: «باش حانبا» أى يا رئيس الحوانب أدخل، و هو الترجمان بين الوالى و المشتكين لا لكون الوالى يحتاج إلى فهم لغة المشتكين بل لكونهم بعيدين في الوقوف عنه و ربما يكون بعضهم لا يحسن الإلقاء

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ٣٢١

لدعوته لرهبه أو انخفاض صوته، فيبلغ باش حانبه للوالى معنى كلام المشتكى، و هاته الوظيفة لها كبيران: أحدهما من العرب، و الآخر من أبناء الترك، و للأول تقدم على الثانى، فالمشتكى إن كان من المالكية يمسكه الأول و هو الذى يتولى الوساطة في أمره، و إن كان من الحنفية رجع إلى الثانى، و لكن لهؤلآء هيئة أخرى في إلقاء الشكاية فإن باش حانبه لا يمسكه و يقدمه إلى قريب من الوالى و بعد استقرار باش حانبه بنوعيه أمام الوالى يرفع صوته بقوله: «باش بواب شكاية» أى يا كبير أصحاب الباب أدخل المشتكين فيرفع صوته هذا خارج باب المحل بقوله: يا سعد، ثم يدخل المشتكون فرداً فرداً على حسب الصدفة، و تقدم المشتكى بالإزدحام و ربما صار التقديم بإعطاء شيء من المال لكنه لا يتجاوز عشرة ريات فما دونها، و كل مشتك في حال شكايته في ذلك الموكب الهائل زيادة عن باش حانبه المقيض به تكون محذقة به الحوانب و الأوظاباشية، و إذا كانت له حجة مكتوبة قدمها و أخذها من يده باش حانبه و مكنها الباشكاتب و يؤخر إذ ذاك المشتكى و يؤتى بغيره، و بعد قراءة باشكاتب للحجة يقول مضمونها للوالى مع الإشارة إلى صحتها أو فسادها، فيأمر الوالى بما يراه و تنفصل بذلك النحو عدة خصومات في نحو ساعة أو ساعتين إذا طال المجلس و ربما أنهيت

فى ساعة واحدة ستون نازلة بلا تعقيب للحكم.

و كثيرا ما يستشير الوالى وزيره سرا فى النوازل أو يسأله عما يعلم فيها كما أن الوزير كثيرا ما يشير عليه فى بعض النوازل ابتداء و كثيرا ما يأمر الوالى بإرجاع بعض النوازل إلى الشرع أو الوزارة، و إذا كان هناك بعض من يحكم عليه بالقتل فإنه يؤخر دخوله إلى آخر المجلس و الغالب أن يكون هذا النوع إما حكم عليه فى مجلس الشريعة و رفع للوالى لينفذ الحكم المكتتب بعد إجراء جميع اللوازم الشرعية و طول مدة المناضلة و المدافعة لدى المجلس الشرعى، أو يكون قد حررت نازلته فى الوزارة و فى النادر أن يؤتى بالمشتكى به من ذلك النوع بديهته للمحكمة، و يصدر الحكم بقتله فى الحين فيخرج فى أثر المحكوم عليه بالقتل أحد الشطار أى الجلادين و يقطع رأسه قدام باب باردو أو باب البلدة التى فيها الوالى، أو يشنق هناك فى مشنقة من خشب و هو أن يربط عنقه فى حبل و تكتف يداه و يعلق من عنقه فيختنق، و تارة يعلق كذلك فى سور المدينة القديم قرب باب سويقة و عند انتهاء المشتكين أو ملل الوالى يقول يا باش حانبه عافية، فيرفع صوته بها باش حانبه فيرفع صوته بها باش بواب و يقوم الوالى و ينفصل الموطن، فيجرب إذ ذاك باش حانبه ما أمره به الوالى من إرسال الأعوان لجلب المدعى عليهم أو خلاصهم، و كذلك باشكاتب يحضر المكاتب التى صدر بها الإذن و لا تحضر إلا من غد فيختمها الوالى على نحو ما سيأتى.

و جميع من حضر فى ذلك الموكب من المتوظفين يكون بلباسه الإعتيادى إلا من له رتبة عسكرية، فإنه يتقلد سيفاً فى منطقتة و قبل دخول الوالى للمحكمة يجلس فى بيت أنيق فى سراية الحكومة على كرسى أصغر مما سبق، و يدخل عليه الوزير وحده أو أنه يأتى معه من قصر سكناه، ثم يجلس الوزير عن يمينه و أهل بيت الوالى عن شماله و قوفاً، ثم يأذن

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ٣٢٢

للمتوظفين بالدخول فيدخل أولاً: الوزراء و بعض مشيخة المتوظفين الكبار المتقاعدین، و كل من وصل منهم إلى الوالى قبل يده و أذنه بالجلوس فيجلسون يمينا و شمالا و أعلاهم شمالا باش كاتب و أصحاب اليمين يجلسون دون الوزير، ثم يدخل كبار المتوظفين على صف واحد و كل من انتهى إلى الوالى قبل يده و رجح خارجا ثم الذين يلونهم ثم و ثم، إلى أن يصلوا إلى أصغر المتوظفين كالأعوان الذين يرسلون لجلب المدعى عليهم، و الهيئة المتقدمة فى المحكمة هى الهيئة فى سائر المواكب الكبار كالأعياد غير أن هاته تكون فيها الناس باللباس الرسمى المزركش بالفضة و النياشين، و تكون أيضا فى محل آخر أكبر من المحكمة و هو بيت عظيم يصعد إليه بدرج كثيرة مكسوة بالحلف نوع من المنسوج الصوفى الأحمر، و البيت مفروش بالزرابى و الستائر الحريرية الرفيعة و كرسى الوالى أكبر و أضخم من السابق و الكتاب لا- يجلسون فى هذا الموكب و الناس كلهم وقوف، و متولى إدارته هو أمير لواء العسة و عوضا عن دخول المشتكين يدخل المعيدون أفواجا أفواجا على نحو ما تقدم فى تقبيل يد الوالى من المتوظفين، و يجرى ذلك على كل القادمين من جميع المتوظفين و أصحاب الرتب العسكرية النظامية و غيرها و الأهالى و التجار إلا- أهل المجلس الشرعى، و خواص السادات الأشراف و المدرسين، فإن الوالى يجلس لهم مجلسا خاصا بعد الموكب العام بحصة يسيرة فى بيت أنيق أسفل الأول، و تدخل عليه كل فرقة من الفرق الثلاث وحدها، و أولها: أهل المجلس الشرعى معا الأول فالأول، فيقف إليهم و يتقدم لهم خطوات و يتعانقوا و يقبل كل منهم كتف الآخر ثم يجلس و يجلسون الحنيفة عن اليمين و المالكية عن الشمال و يؤتى إليهم بأطباق من الفضة فيها شىء من الحلو و يطعمه الوالى معهم، ثم يرشون بالطيب و يقرؤون الفاتحة و يقوم الوالى لوداعهم و يقبلونه أيضا مثل ما صار عند دخولهم و ينصرفون، و هكذا غيرهم، غير أنهم لا يقوم لهم الوالى و يقبلون ذراعا إلا بعضا من السادة الأشراف فإنهم يقبلونه مثل أهل المجلس الشرعى و بعض المدرسين من الطبقة الثانية يقبلون كفه كسائر الناس، و كذلك لا يجلسون و لا يأكلون و إنما بعد فراغ آخرهم من التقبيل و أولهم وقوف يمينا و شمالا يقرؤون الفاتحة و ينصرفون، و هكذا كل فرقة دخلت عليه فى الموكب الأول إلا- المتوظفين فإنهم يقفون و يزدحم بهم الموكب لأنه يجتمع فيه أغلب المتوظفين و لو من جميع جهات القطر، و الذين يقفون هم أصحاب الرتب من العسكرية أو الكبار من غيرهم.

و موكب المعايدة يدوم يومان أولها أعظم من الثاني و كلاهما صباحا، و فى اليوم الثانى يقدم عليه قناسل الدول و يدخلون عليه على حسب أسبقيتهم فى الوظيفة، و كل منهم معه متوظفو قنسلاته فيجدونه واقفا و يصافح القنسل و يتخاطبون بالترجمان بكلمات فى التهنية و الموكب محتبك كما سبق ذكره إلى أن يتموا فيجلس الوالى على كرسية، و يتمم بقية الأهالى على نحو ما سبق، و لا يختص هذا الموكب بأعيان الأهالى بل حتى أصحاب الصناعات، و فى بقية أيام يكون الوالى فى قصره لا يجتمع به إلا الوزير الأكبر يوميا بل هو

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ٣٢٣

الآن ساكن معه فى قصر واحد، و فى يوم الإثنين قرب الزوال يقدم عليه الوزير و من كان فى الوزارة من المتوظفين، و إذا كانت هناك نوازل تلزم فيها المذاكرة أمام الوالى تكون فى أحد ذينك اليومين أعنى يوم السبت و الإثنين، أو يدعوهم الوزير بالخصوص ليوم معين. و جميع الولايات إنما تكون بإذن الوالى و كتبه لرقعة فى ذلك تسمى أمرا، و أما كيفية إدارة الوزارة فقد سبق ذكرها فى الكلام على وزارة خير الدين باشا و لا زالت على تلك الهيئة و المتوظفون يأتون فى بكرة النهار إليها يوميا إلا يومى الخميس و الجمعة، و ينفصلون منها عند الزوال و عندما يأتى الوزير و يجلس فى البيت الخاص به يقدم إلى السلام عليه جميع كبراء الأقسام، ثم يتوجه كل إلى محل مأموريته و كل فى بيت خاص يجمعها قصر واحد فى ناحية من قصر الوالى لإدارة الحكومة، و لكل من أقسام الوزارة كتاب و أعوان و تكتب فى النوازل سجلات و يمضى الوزير على الرأى فيها، ثم تعرض على الوالى و هو يمضى على ما يراه الوزير، و تسمى تلك السجلات معارض و تجرى على مقتضاها الأمور و كثيرا ما تجرى بأمر الوزير شفاهيا، و ترسل تلك المعارض مع بطاقات الأوامر فى ظرف مختوم ليمضيها الوالى بخطه فى المعارض و ختمه فى الأوامر، و لكل عمل من الأعمال التى مر ذكرها عامل خاص إلا الحاضرة فحاكمها يلقب رئيس الضابطية، و الغالب أن يسكن العامل فى محل عمله و له نائب يلقب بالخليفة و تحته مشايخ على عدد أفخاذ القبائل و لكل عامل أعوان على حسب كبر عمله و صغره و ترفع إليه الشكايات فيحكم فيها برأيه و كذلك خليفته و الشيخ عند مغيب العامل، و لا يختص حكمهم بنوع من أنواع الخصومات و إنما الغالب أن نوازل صحة التملك فى غير المنقول و الزواج و الأوقاف و الموارث يرجعونها للحكام الشرعيين، و هؤلاء لهم مجلس فى الحاضرة فيه قاض حنفى و مثله مالكى و مفتيان حنفيان و خمسة مالكية و رئيس للحنفية يلقب شيخ الإسلام و مثله للمالكية يلقب أحيانا أيضا بذلك، و قد يزداد أو ينقص من عدد المفتيين و لهم محل خاص يسمى دار الشريعة يجلس به يوميا صباحا القاضيان و مفتيان من المذهبين على التناوب، و فى يوم الخميس يجتمع جميع المجلس بيت كبير و ينضم إليهم رئيس الضابطية للمشورة فى النوازل التى يريد الخصم فيها العرض على المجلس و لا يرضى بحكم القاضى أو المفتى وحده و رئيس الضابطية ينفذ ما يلزم فيه قوة الغضب إلا القتل، فإنه يرفع إلى الوالى.

و فى كل من بلدان القيروان و سوسة و المستير و صفاقس و الأعراض و توزر و نفطة و الكاف و باجة مجلس شرعى، أقل اثتلافه من قاض و مفتى و رئيس فتوى يجرى به العمل مثل ما هو فى الحاضرة لإجراء التحقيق فيها من مجلس الشريعة، و المنفذ هو العامل. كما؟؟؟ ف نابل و المهدية و جربة و قفصة مفتى مع القاضى، و بقية الأعمال إن كانت كبيرة ففيها؟؟؟ اض فقط و للوالى التصرف فى جميع النوازل نقضا أو إبراما و كذلك الوزير، و أما القابض لأموال الحكومة أو العمال فهو من اليهود إلا قليلا من العمال لمجرد عادة فى ذلك و يتوظف منهم مترجمون و نظار على الصاغة و دار السكة، كما يتوظف من النصارى فى

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ٣٢٤

الترجمة و غيرها إلا العمال و الوظائف الدينية، ثم إن جميع العقود التى تحتاج إلى الشهادة و كذلك كتب الحجج و صكوك الأملاك لها طائفة من العلماء و المنتسبين إلى العلم يوليهم الوالى و يسمون الشهود أو العدول، و هم بالخصوص الذين يباشرون ما ذكر و لأغلبهم حوانيت مفتوحة لهاته الصناعة فى سائر البلدان، و كذلك قبائل الأعراب، و يوجد فى خصوص الحاضرة مجلس بلدى لمصالح الطرقات و البنآت و مجلس مختلط للأحكام بين أغلب الأجانب و الأهالى فيما دون الألف ريال، و جمعية للأوقاف، و لها

نواب في سائر القطر و مجلس تجارة و مجلس لحفظ الصحة أعضاؤه القناسل و مستشار الخارجية و رئيس المجلس البلدى و شيخ المدينة، و لكل من المدينة و الربضين شيخ لبعض النوازل العرفية و حفظ الأمن ليلا، و أما الضابطية فهي موجودة غير منتظمة و أمور المعاش يقومها القاضى المالكى و لها أمناء يطوفون عليها لحراستها من الغش، و أما بقية المملكة فليس فيها إلا الحكام المار ذكرهم أو بعض أمناء على الصنائع أو المعاش.

مطلب فى المعارف

الموجودة الآن و مناخها جامع الزيتونة من الحاضرة هي العلوم الدينية و وسائلها، و هي القرآن و التفسير و المصطلح و الحديث رواية و دراية، و العقائد و أصول الفقه حنفية و مالكية و شافعية، و الفقه الحنفى و المالكى و المنطق و المعانى و البيان، و النحو و الصرف و الإشتقاق و العروض و الأدب، و التاريخ و الحساب و الهيئة و الفلك و اللغة، و لكل كتب معينة للإقراء بما لها من الحواشى كما هو معين فى قانونها الذى أحدث فى وزارة خير الدين باشا، و منها فنون و كتب لا بد من وجود أقرائها، كما أن مواد المطالعة و التحصيل سهلة بخزائن الكتب المعروفة فى الإسلام إلا ما ندر مما هو فى اللسان العربى و قليل جدا بالتركى و الفارسى و الفرنساوى، و مشايخ جامع الزيتونة الموظفون و لهم مرتب مائة و خمسون ريالاً شهرياً عددهم ثلاثون مدرساً، و الطبقة الثانية مرتبها تسعون ريالاً شهرياً و عددها إثنا عشر مدرساً، و الذين لا- مرتب لهم و إنما لهم إعانات سنوية مما يحصل من تخلف المدرسين و الخصم عليهم من مرتباتهم عددهم نحو ستين، و هم يزيدون و ينقصون. و عدد التلامذة بالجامع المذكور نحو الثمانمائة و يزيدون و ينقصون أيضاً، و كيفية الدرس حسنة الإلقاء و السؤال و الجواب و لا يطول الدرس أكثر من ساعة كما توجد مدارس نحو الخمسة عشر مدرسة يقرأ بكل منها درس أو درسان من الفنون المذكورة، و كذلك بعض جوامع بها قليل من الدروس، و توجد المدرسة الصادقية تقرأ مبادئ فنون الديانة و اللغة مما ذكره، و تقرأ الفنون الرياضية و اللغات التركية و الفرنساوية و الطليانية، و من الرياضيات الحساب و الجبر و الهندسة و الهيئة و الفلك و الجغرافية و مبادئ الطبيعيات. و هي تعلم مجاناً لمائة و خمسين تلميذاً و تقوم بأكلهم نهاراً و منهم خمسون تقوم بهم حتى فى السكنى و اللباس، و كذلك يوجد مكتب أنشأه قسيسو الفرنسيس فى صان لويس يعلم العلوم الرياضية و اللسان العربى و الفرنساوى و الطليانى و تلامذته لا يبلغون الخمسين الآن، و يوجد مكتبان

صفحة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ٣٢٥

للفرنساويين أيضاً بالحاضرة يسميان مكتبا الفرير تلامذتهما نحو أربعمائة، و كذلك مكتب للطليان به نحو مائتى تلميذ، و كذلك مكتب لجمعية اليهود به نحو تسعمائة تلميذ، كلها تعلم مبادئ الرياضيات و اللغة الفرنساوية و الطليانية و العربية، و يعلم بعضا من الصنائع كشىء من الفلاحة و الموسيقى، و يعلم اللغة العبرانية و كلها تعلم الأغنياء بالمال و بعضها يعلم الفقراء مجاناً، كما يوجد فيها مكتب للبرستنت من الإنكليزية نحو مائتى تلميذ، كما يوجد بالحاضرة نحو مائة و إحدى عشر مكتبا للقرآن العظيم و للكتابة العربية نحو ثلاثة آلاف و خمسمائة تلميذ.

و أما جهات القطر فلا يوجد إلا فى قليل من البلدان شىء من العلوم الدينية كالفقه و العقائد على قلة و النحو، و أشهر البلدان بذلك القيروان و صفاقس و المستير و سوسة و جربة و الأعراض و الكاف و باجة و ابن زرت، و بعضها يزيد بشىء من الأدب و الحديث، كما يوجد فى بعض زوايا الصالحين بالقبايل شىء من القراءة و الكتابة و الفقه، و جميع الجهات إنما يقرأ فيها الفقه المالكى إلا المهديّة و المستير فيوجد أحيانا الفقه الحنفى، أما غير ذلك فلا نعم توجد مكاتب للقرآن و مبادئ الكتابة العربية فى جميع البلدان و القرى بحيث لا تخلو قرية عن ذلك فضلا عن بلد، و يقرب جميع تلامذتها بنحو إثنى عشر ألف تلميذ لكن هيئة التعليم قاصرة للغاية فى هاته المكاتب الابتدائية و لو فى الحاضرة بحيث يمكن أن يبقى التلميذ فيها عشرة سنين و لا يحصل على حسن القراءة و الكتابة و

إنما النجيب منهم يخرج حافظا للقرآن المجيد فقط، و أما بقیة التعالیم المار ذکرها فهي جيدة سيما العلوم الدينية بجامع الزيتون نتجت منه فحول تزين المسلمين، و لهم براءة في كل الفنون سيما الإنشاء بالعربية الذي كاد أن يشبه أسلوب الأعجام في عدة جهات، فإن علماء تونس لهم براءة في ذلك و هم محافظون على الأسلوب العربي و محترزون عن اللحن و إن وجد في الكتبة أو الشهود من يلحن فذاك من تقليد الوظيف لغير المستحق، كما أن أصحاب الأقلام أو الشهود مطلقا محافظون على الشعائر الدينية في كتابتهم بحيث يفتتحون كتبهم بالحمد لله و الصلاة و السلام على رسول الله محمد و آله و من و لاه.

مطلب في الصنائع

أهم صنائع الأهالي هي الفلاحة و ما زالت آلاتها على الطرز القديم و يأخذونها عن بعضهم بالمشاهدة مع أنها فيها كتب عديدة بخزائن الكتب لا يلتفت إليها أحد، و لذلك انحطت رتبة هذه الصناعة عما كانت و قل العمران مع انضمام أسباب سياسية كما تقدم شرحه، و صناعة التليح في الأشجار لا يعلمها إلا قليل و لذلك حصل الأروبايون على تقدم عظيم في القطر في هاته الصناعة و لو في زرع الحبوب، و كانوا فيها أكثر ربحا من الأهالي. و كذلك من أعظم مكاسب أهل القطر زيت الزيتون فأما جمعه و استخراج زيتة فهو بيد الأهالي ثم يبيعهون إما للأهالي أو للتجار الأجانب، و أما التجارة فيه لخارج القطر فهي صفوة الإختبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ٣٢٦

بيد الأجانب إلا قليلا من الأهالي كما أنه دخل في جمعه و استخراج زيتة قليل من الأجانب عندما استخدمت المعامل بالبخار لإخراج الزيت، و هي قليلة بل ليس منها إلا واحدة في الحاضرة، و هناك قليل من المعاصر على النحو المخترع في أوروبا و الأكثر على النحو القديم الذي صنعه الأندلس أو نوع آخر أقدم منه و كلاهما لا يتقن إخراج الزيت من زيتونه، و أما صناعة الشاشية فإنها كانت هي عيال أكثر أهل الحاضرة و منذ صنعت الشاشية بالمعامل في أوروبا رخصت و لا زال صناعتها في تونس متمسكين بالآلات القديمة و هي تكلفها غالبية فلا- زالت في تناقص إلى أن كادت أن تكون مقصورة على أهالي القطر و قليل من غيرهم، و بقي من حوانيتها نحو ثلاثين أعنى الذين يخدمون حقيقة بعد أن كانت حوانيت هاته الصناعة تبلغ نحو الألف، و بسبب ذلك بقي أكثر الناس في الحاضرة بلا صناعة و يوجد من الصنائع في الحاضرة صنعة البلغة و هي نوع من الأحذية و هي رائجة، و صناعة الكنترة نوع مما ذكر و هي رائجة و هي بيد اليهود و الإفرنج، و أصحاب صناعة السباط التي هي نوع مما ذكر أفلسوا لأنهم لا زالوا متمسكين بخياطتها على الهيئة القديمة و الناس تركوها و أنفوا من جعلها على أسلوب الكنترة لمجرد الإعتياد إلى أن أفلسوا و لم يجدوا هاديا يحملهم على مصلحتهم، و كذلك توجد صناعة العطارين أي الطيب و الحرائرية أي نساجي الحرير و صناعتهم متقنة و فيها بعض رواج، و يصنعون أشياء مخلوطة من الحرير و خيوط الفضة و نوعا من الحرير الصرف المسمى بالمختم و في بعض أنواعها رغبة في حواضر أوروبا لو يوجد لها مروج سيما الطيلسانات، و يوجد أيضا صناعة التوارزية أي الخياطين و لهم براءة في خياطة الإبرسيم على أشكال من النوار بديعة في سراويل النساء و غيرها، و كذلك صناعة الحياكة للمنسوجات الصوفية، و فيها رواج كبير لأوروبا و غيرها، و لو تجد المروج لكانت من أعظم أسباب الرفاهية للقطر، و توجد صناعة الصاغة و صناعة السروج و لأصحابها براءة في الطرز في الحرير و الفضة و العدس، أي قطع من الفضة مموهة بالذهب مثقوبة الوسط ليمسكها خيط الطرز، و كذلك صناعة الحدادة و هي قاصرة و لمن وفد من الأوروبايين التقدم التام على الأهالي، و كذلك صناعة النجارة أي نحت الأخشاب و لأهلها براءة فيها، و كذلك البناية و كذلك النقاشة أي نحت الأحجار، و كذلك صناعة طرز الحرير و الصوف و الخيط و القطن و الفضة و العدس على المنسوجات، و هي خاصة في النساء و زدن في هاته المدة تقدما فيها بما تعلمن من الأوروبايين حتى صارت تقوم بعائلات، و توجد صنائع للسلاح بأنواعها لكنها متأخرة، و يوجد معمل للمدافع و آخر للسفن و كلاهما معطل، و توجد معامل كثيرة للكراريس، و كذلك توجد صناعة

النسج للقطن و هي ضعيفة رديئة، و كذلك صناعة تجليد الكتب و هي حسناء، و صناعة النسخ و هي قليلة و كذلك صناعة نقش حديدية أى النقش فى الجص التى هى من أبداع الصناعات التحسينية على الجدران، و كذلك صناعة الدهن أى التلوين و صناعة الفخارين أى صنع الأواني من الطين، و كذلك نوع يسمى بالجلميز مما يلصق على الجدران و على أراضي البيوت و لكن نوعه ردىء و لأهله اقتدار على

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ٣٢٧

إيصاله للحسن المعهود فى أوروبا إذ كان عندهم قديما أحسن منه و إنما يحتاجون إلى الإعانة.

و أما الموسيقى فلهم مهرة فى معرفة الألحان يأخذونها على قواعد و إنما هى بالسماع من بعضهم، و يعتنون لأخذها فى بعض الزوايا التى تعقد فيها جمعيات لأجل الذكر كسرود البردة و مدائح قادية، و هذا العمل اختلف فى جوازه لكن الراجح جوازه شرعا إن لم يكن فيه تشويق لمحرم، فالتحريم على كل حال ليس لذاته و إنما هو لما يتوصل به إليه، ثم بعد الجواز ليس هو بطاعة كما يظن العوام و سيأتى للمسألة بسط فى الخاتمة إن شاء الله تعالى. كما أن لهم معرفة فى فن الموسيقى أى دق آلاتها و يأخذونها عن بعضهم، و الآلات هى: الرباب و العود و الجرائن، و كلها من ذات الأوتار، و الطار و الدف و الدربوكة و هى أكبر منه و الطبل و الجميع من نوعه، و الكرنيطه و الناي و الغيطه و الشبابة و الصفارة و الفحل و كلها من آلات النفخ، و يضربونها بدون أوراق أمامهم بل من حفظهم، و فيهم المهرة و هاته الصناعة فى الموسيقى قد ذكر فى الأغاني أنها كانت محفوظة على نمط واحد، بحيث لا يخرجون عما كان مسموعا من الطرق يأخذها الخلف عن السلف، إلى أن دخل فيهم إبراهيم ابن المهدي عندما أراد الأمن على نفسه بتنصله من سمات الخلافة فزاد فيها و نقص على حسب ما يستلذه هو ثم جعل من اتبعه يسلك ما يستلذه السامع و لو خالف الطرق الأصلية و تهادى الأمر على ذلك إلى أن فقد الآن ما يعرف به الألحان التى كانت تستعمل فى تلك الأعصار، و لهذا لا يمكن فهم ما يشير إليه فى كتابه الأغاني من الطرق و الألحان ثم أن حكم سماع آلات اللهو هو عندنا حرام إلا الدف و ما كان على شاكلته مما لا وتر فيه إذا ضرب فى الأفراح الجائزة، لكن رأيت رسالة لسيدى عبد الغنى النابلسى مال فيها للجواز إن لم تؤد إلى محرم مقطوع به كما رأيت سؤالاً لليوسى فى: أيما أشد

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ٣٢٨

حرمة الغيبة أو السماع لآلات اللهو؟ أجب عنه: بأن لا مقايضة بين الأمرين فإن الغيبة محرمة بإجماع بخلاف سماع آلات الطرب فإنه مختلف فيه و للمقلد سعة بالتمسك بقول أحد المجتهدين.

ثم توجد بقية الصنائع الضرورية، كالقبالين و الجزارين و القصابين و الفحامين و الحلاقين و غيرها، بحيث يقال إن أغلب الصنائع الحاجية معروفة و لكنها غير موفية بالإستغناء عن جلب المصنوعات من خارج القطر، بحيث من نظر إلى لباس أهل المدن و مسكنهم و فرشهم يجد أغلبها من مصنوعات الأجانب و ذلك موجب لفقر المملكة، و أما خارج الحاضرة فالمدن يوجد فيها ما يقرب مما تقدم بأقل بدرجات إلا بعض صنائع فلها فيها التقدم على الحاضرة، فمن ذلك منسوجات الفرش فى الجريد، فإن ما يصنع منه فى طوزر هو من أرفع ما يوجد فى العالم، و كذلك يصنع فى جربه، و لها نوع يسمى بالسوسنى من الصوف و الحرير صفيق من أرفع المنسوجات، و كذلك يصنع فى القيروان الأواني النحاس، و فى نابل أنواع من الطين الرفيع المرغوب فى كثير من الجهات، و كذلك يصنع فى الكاف نوع من البرنس رفيع، و أما أهل البوادي فلا يعرفون إلا صناعة الفلاحة المتداولة و الرعى للحيوان و الفروسيه و الصيد، و لأهل جبل باجة و ماطر معرفة بصناعة البارود، و سائر القبائل تعرف نساءهم صناعة نسج الصوف لفرشهم و لباسهم و نسج بيوت الخيام من شعر المعز و الإبل و العدل، كما أن لبعضهم إتقانا فى صناعة البسط من الصوف كقبائل دريد و جلاص، و مثلهم القيروان و لخصوص أهل الجريد إتقان كلى فى الأردية التى تتردى بها الرجال من الحرير و الصوف.

مطلب في المساكن و الطرقات

الحاضرة ذات بطحاوات و طرق صناعية محصبة أو محجرة بحجارة منحوتة لا تعب فيها على الماشى و لا الراكب حسنة المنظر، و لقليل من طرقها المتسعة أشجار يمينا و شمالا، و جميع البنات من حجر مبنى بطين الرمل و الجير و تارة يبنى بالآجر و القرميد و هو أقل من الأول و تارة يعوض الطين بالحص و هو أيضا أقل. ثم إن دورها إما ذات طبقة واحدة أو طبقتين و قليل ما يزيد على ذلك، و صورة الداران تدخل من الباب الذى على الطريق فتجد محلا مسقفا إن كان كبيرا سمي ذرية أى دهليزا و إلا سمي سقيفة، ثم آخر أصغر منه ثم وسط الدار، و الأغلب أن تكون الأبواب المدخول منها إليه غير متقابلة لكى لا يكون مكشوبا لمن بالسقيفة و هو محل مربع الشكل مكشوف إلى السماء و به أبواب و شبابيك إلى البيوت و هو مفروش الأرض إما بالرخام أى المرمر الأبيض أو الكذال، و الجميع على شكل مربع متقن الإثبات فى الأرض حتى يصير كأنه قطعة واحدة مخطط فى المنظر بخطوط الحدود، و حيوطه مكسوة بالزليز إما إلى نهايتها و أما إلى النصف، و النصف الأعلى مطلى بالحص الأبيض و به نقش حديدة، و نهاية الحيطان عليها قرميد أخضر،

صفحة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ٣٢٩

و الأبواب التى به من الأربعة إلى الإثنى عشر يدخل منها إلى بيوت و مرافق، و البيوت غالبا بعضها أحسن من بعض فأكبرها على شكلين:

فالشكل الأول: أن يكون إذا دخلت من الباب تجد البيت طويلا- يمينا و شمالا و قبالة الباب بهو ذو قوس مرتفع و فى نهاية أرجل القوس تجد مرفعا، أى شيئا من الخشب المتقن النقش المزوق بالألوان دائرا مع حيطان البهو توضع عليه أوانى رفيعة من الخزف و الصينى و البلور، و فى نهاية البيت يمينا و شمالا تجد أسرة عليها فرش النوم مسواة بإتقان و أمامها مساطب و متكئات، و جميع الحيطان على نحو ما مر فى وسط الدار مع زيادة إتقان النقش، و الأبواب كلها ذات زوايا كاملة ليست بمقوسة إلا باب الذرية، ثم لكل باب أو شباك عوازل من الأربع جهات من الرخام أو الكذال أو الخشب، كل جهة فى قطعة واحدة غالبا، و عرض العاضدة من شبر و نصف إلا العوازل السفلى فى الأبواب فإنها تكون منخفضة لا ترتفع على الأرض أكثر من إصبعين، و أغلب ارتفاع السقف من الستة إلى إثني عشر ذراعا، و هى أى السقوف ما بين بناء بالآجر أو الحجر المعقود أو أعمدة من حديد و آجر أو قرميد أو أنها خشب مما يجلب من السويد، المسمى باللوح الطروشى و البندقى من النمسا، و على أى نوع كانت فإنها إن كانت من الخشب نقشت و زوّقت و إلا طليت بالحص و نقشت و زوّقت، و تارة يطلى النوعان بالفضة المموهة بالذهب على أشكال بديعة مع التزييق بالألوان، و الأغلب فى سقوف الخشب أن تكون على هيئة خشبات ممدودة على عرض البيت و عمقها نحو شبرين أو شبر و نصف و عرضها نحو ثمانية أصابع، و كل الأبواب ذو دفتين و تارة يكون ذا أربع دفت و هذا فى خصوص أبواب البيوت، و أما غيرها فلا أكثر من دفتين. ثم عن يمين البهو و شماله مقاصير إثنان فما فوق إما للنوم أو الجلوس أو المرافق، و على الأبواب جميعا ستارات متعددة على حسب الرفاهية، و يوضع فى البيت أيضا مرايات كبيرة على المرفع وراء قطع البلور و الخزف و كذلك حول أسطوانتى البهو و هذان يوضع أمامهما خزنتان من خشب الجوز المتقنة الصنعة و عليها ساعتان و فوانيس بأوانى من الزهور المصنوعة و غير ذلك من التحف، و فى الشتاء تفرش أرض البيت بحصير و عليها بسط صوفية.

و أما الشكل الثانى: فى البيوت فإنه يكون براحا واحدا إما مربع أو به استطالة، و الحيوط و السقف و الفرش كلها على نوع واحد، غير أنه يغلب فى هذا الشكل أن يكون السقف من خشب و عيدانه مغطاة من أسفل مما يلى البيت بالألواح من خشب مزوّقة أيضا حتى ترى كأنها قطعة واحدة، و الأغلب لحسن المنظر و عدم ظهور القطع بين الألواح أن تغطى الألواح من أسفل بمنسوج من الكتان أو القطن على عكس امتداد الألواح و تدق بمسامير ثم تلون و تزوّق كما مر، و فى وسط هاته السقوف على أى نوع كانت توضع قطع من

خشب مرتفعة منقوشة بأشكال بديعة مذهبة و تمسك في السقف بقضيب حديد مناسب و يعلق فيها ثريات من البلور، و ما دون ذلك من البيوت يكون أقل إتقاناً في طلي الحيطان

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ٣٣٠

و مفروش الأرض و الستائر فقط، أما أصل الطلي و تبليط الأرض بنوع صلب فلا بد منه، و في قليل من الديار الكبرى للأغنياء يوجد بيت واحد ذو ثلاث بهوات أو أربع و وسطه مربع و الجميع في أعلى نوع من إتقان المواد و الصناعة، و كذلك يوجد بقله جنائن في الديار و إنما كثرت بعد وجود ماء زغوان في الحاضرة، و كل دار لا بد فيها من بئر و مأجل و مطبخ و بيوت لخزن القوت و أدواته، و لا بد أن يكون خارجها مخزن للدواب أو بعض الضروريات و لا أقل أن يكون أسفل وسط الدار أو السقيفة دهليز لذلك إن لم يكن لها مخزن، و قليل أن يكون لها علو بابه في السقيفة الخارجية أو الذريئة خاص بالرجال و الواردين على أصحاب الدار، و الأغلب أن يكون ذلك للأعيان و يكون العلو تام المرافق و الفرش و أكثر من ذلك أن يكون في عوضه بيت واحد يجلس به صاحب المحل و من يفسد عليه من الرجال، و إذا كانت الدار ذات طبقتين فإن الهيئة المار ذكرها هي هي، و لا يزداد فيها سوى رواقين أو أربعة أمام البيوت في صحن الدار تكون مرفوعة السقوف على حيطان وجوه البيوت من جهة، و من الجهة الثانية على أقواس مستندة على أسطوانات من الرخام الأبيض المتقن أو من حجارة الكذال، و الأقواس مطلية بالجص المنقوش بالنقش حديده و فوق هاته الرواقات رواشن للطبقة العليا و لها درابزين من الجهة المطلة على صحن الدار، و من تلك الرواشن يدخل للبيوت التي في الطبقة العليا و هي مبنية على البيوت السفلى و هيئة البناء و الفرش على النحو الأسفل سواء، و يصعد إلى هاتيك الطبقة بدرج في أحد الأبواب التي بوسط الدار و الأغلب في الدرج القديمة أن تكون على هيئة غير مناسبة لبقية بناء الدار لأنهم لا يعتنون بها سوى كونها موصلة للأعلى فتارة تكون ضيقة و تارة تكون مرتفعة تتعب الصاعد لكن في الأبنية الجديدة صارت الدرج متقنة الهيئة من الإتساع و الإرتفاع المناسب بحيث لا يكون ارتفاع الدرجة أزيد من شبر و عرضها قدم و نصف و طولها ستة أقدام فما فوق، و على أي هيئة كانت فلا بد لها من التبليط بالزليز أو الرخام و كثيرا ما تكون كل درجة من قطعة واحدة من الرخام الأبيض أو الأسود أو الكذال أو الصوان، و جميع الحيطان إما مكسوة بالجليز أو مطلية بالجص و لا يكون في السفلى و لا شباك واحد على الطريق و إن احتيج إلى الضوء و لا بد، تجعل له منافذ قرب السقف لكي لا يسمع صوت النساء، نعم في الطبقات العليا توجد شبابيك على الطرق و لها أبواب غير منفكة من المقصب الخشب و جميع الشببيك سواء كانت لوسط الدار أو للطريق لا بد لها من قطع من الحديد على أشكال مرونقة، و في القديم كانت جميع الأشكال مربعة هذا في أماكن النساء و أما أماكن جلوس الرجال فليس في شبابيكها مقصب الخشب نعم للشببيك مطلقاً أبواب من الخشب و أبواب بمساطر من خشب و طيقانها من البلور أو الزجاج.

و الحاصل أن الديار من داخلها في غاية الإتقان و النظافة على حسب الرفاهية لكن خارجها لا يعتنى بإتقانه فوجه الحيوط مما يلي الطرق كثيرا ما يكون غير مجصص و إنما يبيضونها بالجير و السطوح كلها مستوية و تبيض سنويا بالجير، فلذلك لم يكن منظر البلاد

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ٣٣١

في الطرق جميلاً مثل ما هو في الدار هذا كله في غير حارات الإفرنج، أما هي فإنها على النحو الأروباوى الذى سيأتى شرحه، و لذلك كانت أنظر، و نظافة الطرق متوسطة بحيث أنها ليست بعفنة و لا أنها متقنة النظافة و في الشتاء يحصل في بعض الطرق التي لم تبلط كثير من الوحل و الطين و هذه لم تبق إلا- نادراً في المدينة، و أما في الربطين فهي لا زالت كثيرة و بواسطة المجلس البلدى لا زال يتدارك في تبليطها و تحصيها و قد تمت الطرق الأكثر مرورا سيما للعجلات، و الطرق خارج الحاضرة ليس منها طرق صناعة سوى طريق بين تونس و حمام الأنف و أخرى إلى باردو و منوبة و أخرى إلى جهة العونية، و طريق حديدية إلى حلق الوادى و أخرى إلى الجزائر و يراد مد أخرى إلى الساحل و أخرى إلى ابن زرت، و أما في الحاضرة فالطرق منقسمة إلى مناهج و هي متسعة أقلها تمر فيه عجلتان متحاذيتان و هي قليلة، و إلى طرق و هي لا تمر فيها إلا عجلة واحدة و هي أكثر من الأولى، و كثيرا ما تتعارض فيها العجلات

و يوجد بها بعض جهات متسعة لرفع ذلك التعارض و إلى زناقي هي التي لا تمر فيها العجلة بل بعضها لا يمر فيها إلا إنسان واحد، و أغلب هاته في وسط الحارات. و لا زال المجلس البلدى يوسع فى الكل مهما خرب حائط على الطريق إلا أخذ من محله توسعه للطريق، و أغلب أنواع الطرق غير مستقيم بل فيها تعاريج و انعطافات و تحت الطرق خنادق تجرى فيها القذورات و المياه الخارجة من الديار تحت الأرض و أكثرها غير متقن البناء و التسقيف و لذلك يكثر فى الشتاء خرابها فتتعطل الطرق عن مرور الحيوانات و العجلات، و تلك الخنادق تصب فى البحيرة التي هي فى الجهة الشرقية من الحاضرة هذا.

و أما قصور الوالى و عائلته و الوزراء و الأعيان فإنها و إن كانت بعضها على نحو ما تقدم و بعضها على النحو الأروباوى لكنها تفوق غيرها فى إتقان البناء و الكبر و حسن الفرش و التزيين و التزيق و التزيين و كذلك بساتينهم، و أما الحوانيت و الأسواق فليست جميلة المنظر لأن أغلب الأسواق ضيق الطريق و مسقف بالخشب الغير المنظم و بعضها مسقف بالآجر و هو أحسن منظرا، لكن الجميع لا يتأقنون فى نظافة الحوانيت و حسن هيئتها، و أغلبها صغير نحو أربعة أذرع فى مثلها و أرضها مرتفعة على أرض الطريق فى البناء نحو ذراع، و بعضها أبوابه من خشب غير منحوت و هي قطع مفرقة يضع صاحبها لوحة حذو أخرى إلى أن يمتلىء عرض الباب فيجعل قفلا على الوسطى من تلك الألواح يمسكها بالعواضد فى الفرض التي تدخل منها الألواح و يكون المسك بواسطة حلق صغيرة بعضها فى ألواح و بعضها فى العتبة بالتخالف فى الوضع و يدخل القفل فى تلك الحلق ثم يقفل بالمفتاح، و صورة القفل فى الأغلب على الشكل العتيق و هو قضيب من حديد فارغ الوسط به لولب ينجذب و يندفع بواسطة إدارة المفتاح الذى يدخل فى فراغ ذلك القضيب، و هناك فى خارج القضيب قوس يدخل فى تلك الحلق و يدخل طرفه فى ثقب فى طرف ذلك القضيب، ثم يدار المفتاح إلى أن ينجذب اللولب و يدخل فى ثقب فى طرف القوس الذى أدخل فى

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ٣٣٢

القضيب ثم ينزع المفتاح، و لكن لا زال هذا الشكل يتناقص و يجعل على النحو المتعارف فى أغلب المدن فى الأبواب و بسبب ذلك مع وجود الخراب فى عدة جهات، و عدم تبيض جميع الحيطان كل عام لم يكن منظر البلاد إجمالا جميلا لمن رأى المدن الجميلة، و الأقواس أغلبها نصف دائرة و السقوف البنائية لا بد فيها من شىء من الإنحداب ثم فى المدة الأخيرة حدثت الأقواس و السقوف المبنية المبسوطه هذا.

و أما منازل المسافرين ففي حارة الإفرنج منازل مثل ما هو فى أوروبا و قل أن يسكنها أحد المسلمين و إنما يسكنون فى خانات و فنادق و سخة فيها بيوت لا فرش لها و لا مطابخ فيلقى المسافر العناء من ذلك إلا إذا تعود على السفر لبلاد المسلمين فإن الجميع فيها متماثل، و كان السبب فى هذا مع كثرة أسفار المسلمين هو خصلة دينية و هي أن الكرم و الضيافة مندوب إليها فمهما دخل المسافر بلدا للمسلمين إلا كان حقا على إخوانه أن يستضيفوه فلم يكن من داع لإتقان محلات المسافرين إذ غايتها هو وضع الدواب و السلع التجارية و كان ذلك هو سبب عدم وجود لفظ مفرد عربى دال على نزل المسافر لما جبلت عليه العرب من الكرم و الضيافة، و لكن حيث تغيرت الطباع اليوم فينبغى الإعتناء بمثل تلك المنازل و ما ذكر جار فى سائر أنحاء القطر.

و على نحو ما تقدم فى هيئة الحاضرة بقية المدن و القرى لكنها على حسبها فى التمسير و الغنى غير أن الطرق الصناعية لا توجد فى غير الحاضرة، نعم إن البلدان التي أحدثها الأندلسيون هي أنظم طرقات من غيرها إذ طرقاتها مستقيمة متسعة متقابلة بل بعضها يراعى فيها حتى تقابل أبواب الديار، و فى غير المدن لا تجد البناء إلا من طبقه واحدة بل و هو الأغلب، حتى فى المدن و كثرة الخرابات فى بعض البلدان سيما القرى، و عدم تبيض و تجصيص الحيطان من خارج تجعل الرائي يحسب الجميع خرابا و كثيرا ما تكون ديار القرى غير مبلطة و إنما تمهد بالطين و الجير المسوى.

و أما البطروى فمساكنهم خيام من شعر المعز و الإبل تنسجها الأهالى و تارة تجلب من طرابلس، و للأغنياء خيام من ذلك النوع فى غاية الإتساع و الإرتفاع بحيث يقدر أن يدخلها الراكب على فرسه و يقسم البيت لأقسام بأرديئة و ستارات، قسم للنوم، و آخر للمؤنة، و

آخر لأولادهم، و آخر لأولاد بعض حيواناتهم، و أهل الغنى يجعل لكل نوع من ذلك بيوتا خاصة كما أن للضيوف و جلوس صاحب المكان بيتا خاصا، و يفرشون بيوتهم بنحو ما يفرشه أهالي الحاضرة الأعيان من المرايات و الساعات و التحف الخزفية و المفروشات الحريرية و الأسرة المذهبة و الفوانيس و الشموع إلى غير ذلك من أنواع الحضارات، لكن العموم يفرشون في أرض البيت حصيرا و فراشهم أريضة من الصوف مثل ما يلبسونها و وسادات و غطاء، و بيات الرجل و زوجته و أولاده كلهم في فراش واحد و يطبخون في فم البيت أو أمامه و كثير منهم من لا ينور في الليل إلا بما يوقد من الحطب و بعض القبائل يسكن في خصوص أو بناء شبهها.

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ٣٣٣

مطلب في اللبس

لباس الحكومة و العساكر النظامية هو اللباس الإفرنجي، غير أن للعساكر علامات على الرتب و هي صورة نجم من فضة خالصة لرتبة الفريق و يجعل ستة نجوم في رقبته سترته ثلاثة من كل جهة و هو نهاية رتبه يعطيها الوالي، ثم أمير اللواء له أربعة و أمير الآلاي إثنان و للقائم مقام و الأمين آلاي ستة من طرز خيط الفضة المذهبة، و للينباشي أربعة و للقلاسي إثنان، ثم للرتب التي تليه ثلاثة من الفضة الغير المذهبة و هكذا من يليه على النحو السابق.

و هاته الرتب تعطى أيضا بعينها لغير العسكر من ذوى الوظائف السياسية إذ ليس هناك رتب ملكية و في المواكب يلبسون اللباس الرسمي المطروز بقصب الفضة المذهبة إلا- الضابطية فطرزهم من غير المذهبة و تعلق في صدورهم النياشين التي هي من الفضة المزوقة بالمينا، و للصنف الأكبر منها له شريط أخضر و لنيشان العهد شريط أبيض على نحو ما سبق ذكره في الكلام على أحمد باشا و الصادق باشا. و الوالي يلبس بشاشيته ثلاثة نياشين كبار أحدها كانت الدولة العلية أعطته لأحمد باشا عندما كان ذلك من رسوم المشير ثم زاد هو ثانيا مثله ثم زاد الصادق باشا ثالثا مثله و هي نياشين من ذهب على صورة أوراق من النبات و بوسطها ترصيع بالياقوت الأبيض، كما يلبس نيشان المشير المرصع الذي كان أيضا من رسوم الدولة العلية، و يلبس نيشان آل بيته المرصع و العهد المرصع و الصنف الأكبر المرصع و الغير المرصع و جميع نياشين الدول التي أهدتها له مع شرطانها. و كذلك جميع المتوظفين كل منهم يلبس ما عنده من النياشين ثم كل من له رتبة أمير آلاي فما دون له علامة تصلق بشاشيته من نحاس على صورة شارة الحكومة مكتوب بها إسم الوالي الصادق باشا إذ هو مخترعها، و أما أهل المجلس الشرعي بالحاضرة فيلبسون قلانس بيضا مكورة غير أن المالكية قلانسهم مفلطح و الحنفية مرتفعة و يلبسون عليها طيلسانا من الكشمير و يلبسون جبائب أكمامها واسعة و هي طويلة إلى الكعب أو قربه و هناك فرق بين جبائب الحنفية و المالكية، فالأول: جبائبهم مشقوفة الجيوب إلى أسفل و الآخر مشقوفة إلى السرة فقط، و يزيد المالكية برنسا واسعة من الجوخ الصوفى له حواشى و شرابات من الحرير، و فى أرجل الجميع حذاء من النوع المسمى بشمق و ريحية لونه أصفر و هو لبس لا يتحمل المشى به فى الطين و لو قليلا إذ هو أشبه شىء بالنعل لكن له وجه على أصابع القدم و يلزم للمشى به تعلم و تعود لكى تمسكه أصابع الرجل إذا رفعت الرجل سيما إذا كان مع الريحية فيقع الإزدلاق بين ملوسة جلد البشمق و جلدها نعم أن منظره جميل.

و أما أهالي الحاضرة فيلبس الرجال قميصا و صدرية و أخرى تسمى فرملة غير أنها بلا صدر و متنان أى صدرية بلا صدر و لها أيدى ضيقة إلى الرسغ و تارة يكون فى هاته الأيدى فتح من أسفل قرب الرسغ و تارة لا و تارة تكون قصيرة إلى أسفل المرفق فقط و تسمى كتيرة، و سراويل رجلاها أسفل الركبة بيسير و وسطها غير متدل كثيرا و لا- مرتفع كثيرا و هي عريضة بحيث إذا لبست كان فيها إنكماشات بين الرجلين و لا يبلغ تدليها إلى الركبتين،

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ٣٣٤

و أحذيتهم من أنواع فمناها: الكتتره و هو من لباس الإفرنج على أنواع شتى، و منها: البلغة و لونها أصفر، و منها. السباط الأحمر أو الأسود لبعضها شرابات من الجلد، و بعض الأعيان يلبسون البشمت و الريحية و على رؤوسهم شواشى حمر لها شرابات من الحرير الأسود و عليها عمائم ملوية أما بيض أو مطرزة بطرز الهند أو بطرز البلاد، و على الجميع برنس شتاء و صيفا غير أن كيفية استعماله كأنه حمل لا لبس إذ يلقونه على أكتافهم بميل لأحد الشقين فقط، و هيئة البرنس هو رداء متسع طويل إلى القدمين و له رأس يسمى بالطربوش و كله في قطعة واحدة و أسفله مقصوص معرج على هيئة نصف الدائرة، ثم إن الأعيان و الأواسط يزيدون تحت البرنس جبة مشقوفة إلى السرة فقط و ليس لها أكمام بل إنها مشقوفة من أعلى الجبين لإخراج اليدين منها فهي عباءة غير مشقوفة الأسفل، و يلبسون أيضا الجورب من القطن فقط أو مع الصوف من تحته و بعض قليل يلبس الجوخة و القفطان، و هما جبتان ضيقتان مشقوقتان إلى أسفل و لا فرق بينهما غير أن ما تلبس من أعلى أكمامها مدورة قصيرة إلى قرب المرفقين و أسفلهما يتحزم عليها بالحزام الذى لا بد منه لكل أحد، كما أن البرنس لا يمكن خروج الإنسان فى الطريق بدونه و غاية الفرق بين لباس الأغنياء و غيرهم هو رفعة المنسوجات و حسننها و كلاهما مع مفروشات الديار من الصنائع الأجنبية إلا البرانس و الشاشية و بعض أنواع حريريه، كما يحمل الأعيان و الأواسط ساعات بسلاسلها من الذهب أو الفضة أو النحاس، و أما التختم فقليل جدا و كثيرا ما يعد أنه من سمات ذوى الدناءة إلا لبعض أعيان الأعيان و مع ذلك كثير منهم يتحاشا عنه، و مثل هذا اللباس لباس أغلب المدن و القرى أو قريب منهم و بعضهم يلبس جبة من الصوف و سراويل منها كلها من صناعة الأهالى و عوضا عن البرنس يلبسون كبوطا و هو شبه البرنس غير أنه ضيق و له أيدي و قصير إلى الحزام فقط، و هو أيضا لا بد من لبسه لسائقى العجلات للأعيان فى الحاضرة غير أنه من نوع الجوخ المطرز بخيوط الفضة و له منظر جميل.

و أما البوادى فلباسهم قميص و رداء من الصوف يسمى بالحرام و برنس من الصوف، غير أنه يلبس لبسا بأن يدخل الرجل رأسه فى الطربوشة و تارة يبغيها على رأسه و تارة يلقياها إلى ورائه على كتفيه، و هما من مصنوعاتهم، و على رؤوسهم شواشى و عمائم من خيوط من وبر الإبل أو صوف الغنم الأسود أو الأحمر و فى أرجلهم البلغة، و الأعيان منهم يلبسون فوق القميص مثل لباس أهل الحواضر و حرامهم يكون من الصوف الجيد الرفيع و الحرير و كذلك عمائمهم مثل الحواضر و مثلهم أهالى بعض البلدان كبلدان الجريد و الكاف و باجة و تبرسق.

و أما لباس النساء فى الحاضرة يلبسون القميص لكنه قصير إلى أعلى الفخذ و فوقه مثل الصدرية بلا صدر و يتأقن فى إتقانها و تحليتها بالفضة أو الحرير أو العدس و تسمى فرملة، و فوقها جبة ضيقة بعض الضيق بلا أكمام و قصيرة مثل القميص المذكور، و سراويل ضيقة جدا مثل سراويل رجال الإفرنج لكنها مخروطة الرجلين مع إتقان تحليتها و التغالى

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ٣٣٥

فيها، و على رؤوسهن على الشعر منديل حرير أسود يسمى تقريطة، و فوقه قوفية أى نوع من العراقية محلاة و لها جبين مرتفع من أصبعين إلى الثمانية أصابع صلب بالطرز الحرير الأسود على خيطان من الكتان الصلب، و فى مؤخرها ذيل من الحرير مدلى إلى قرب ذيل الجبة و يطرز بأنواع جميلة من الفضة و الحرير، ثم تلف رأسها و رقبتها بلثام من أنواع الحرير و القطن و يطرز أيضا كما مر على هيئة متقنة، و تعصب على الجميع بتقريطة ملونة أو مزوقة بالفضة بعد طيها على عرض أربعة أصابع، بحيث يكون ما فوق القحف من غطاء الرأس مكشوبا من تلك التقريطة، و تربط أطرافها من جهة الجبهة على هيئة تكون بصورة التاج ممسوكة بمسالك من النحاس دقيقة صغيرة و يكن أذرعهن مكشوفات، و يلبس فى أرجلهن أنواع الأحذية الإفرنجية و الأعيان يلبس الجوارب و الخاديات يلبس على نصفهن الأسفل فوق جميع الثياب إزارا من القطن أو مخلوطا بالحرير أو الحرير الصنف ملون أغلب ألوانه مائلة إلى السواد لتحمل الوسخ. و لما تقدم لم يكن شكل النسوة جميلا. من لبسهن و إذا خرجن للطريق فالأعيان يلتحفن برداء أو طيلسان واسع ثم يدخلن فى الكروسة و تدخل أى الكروسة إلى داخل الدهليز لتركب المرأة فيها ثم تسدل ستارات الكروسة بحيث لا يرى من ركب

فيها، و نسوة الأواسط يلبسن عند الخروج رداء عريضا بالغا قرب القدم و مغط للرأس على هيئة ساترة لجميع أجزائها، و على وجهها عجار من الحرير الأسود و أطرافه مزوقة مغروز في غطاء رأسها بمسالك و تمسك طرفيه بيدها مع لفهما في رداها و على رجليها ساقان عريضان من منسوج ثخين مطرز و نعلها خاص بالخروج.

و أما الأسافل فهن مثل ذلك أيضا سوى العجار فيعوض بلثام أسود ملفوف على الوجه ثخين لا تظهر منه البشرة و لا تبان إلا عيناها، و نسوة اليهود مثل ذلك إلا ستر الوجه فهن مكشوفات.

و أما لباس نسوة البلدان فهو على ذلك النحو غير أنه ساتر أكثر لأنه متدلى إلى قرب الكعب و الجبة أوسع و بعضهن يتمنطقن بحزام. و أما نسوة الأعراب فهن مثل ذلك أيضا سوى الجبة فعوضها رداء واسع تمسكه المرأة بمسالك كبار من فضة أو ذهب أو نحاس حذو كنفها مما يلي الصدر، و تتمنطق عليه بحزام و يكون ساترا حتى إلى القدمين مع الإتساع غير أنهم لا يلبسن السراويل و لا يتقنعن على رقابهن فغطاء رؤوسهن أجمل من نسوة الحواضر و كثير من نسوة القرى مثلهن، و الجميع يلبسن من الحلى أنواعا شتى من القرط في الأذنين بعد ثقبهما منذ صغر البنت و الأساور و الخواتم و التيجان و غير ذلك من المجوهرات الثمينة و المكمللة بالياقوت و الزمرد و اللؤلؤ، و بعض الحواضر و القرى و الأعراب يتخلخن في أرجلهن أيضا كل على حسب الثروة و اليسار.

مطلب في الأكل

أما أهل الحاضرة فأكلهم جامع بين أنواع أكل أهل المشرق و المغرب و الأورباويين،

صفحة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ٣٣٦

بحيث لهم من كل أحسنه سيما الأعيان، و الغالب في البلد و أعرابها و سائر بلدانها هو طعام الكسكوس أو العصيدة، و تزيد البلدان بالشكشوكه: طعام من زيت و قديد و بصل و طماطم و فلفل، و أغلب السكان يأكلون الطعام الحريف المسمى عندهم بالحرار من الفلفل و يكثر من الأبرار إلا البوادي فأغلب طعامهم بسيط من دقيق القمح أو الشعير أو الذرة و اللبن و اللحم المشوى، و فى ولاءم الأعراس بالحواضر يكثر من أنواع الحلويات. و هيئة الأكل عموما هي الجلوس على الأرض أما على متكآت أو بسط أو حصير و يوضع الطعام جملة و يأكلون من إناء واحد ثم غيره و هكذا، و الغالب طعام واحد، و أهل البلدان يصنعون مائدة يوضع الطعام عليها و هي من خشب مدورة ارتفاعها عن الأرض نحو شبر و بعضهم يجعل عليها أو على كرسي مثلها طبق من النحاس، و فى بعض الأعيان و متوظفي الحكومة صارت هيئة الأكل كما هي عند الإفرنج و بعضهم صيرها بين بين بحيث يؤكل من إناء واحد لكن بالشوكات و السكاكين، و الخبز له أنواع: ففي العربان إما أن يكون منضجا فى فرن يسمى الطابونة و هو حسن جدا سيما السميذ منه، و إما أن يكون العجين غير مخمر و يشوى فى إناء من الطين و هو ردىء لقلته نضجه و عدم تخميره و كلا- النوعين موجود فى البلدان إلا الحواضر فيوجد الأول بقله عند الأعيان على وجه التفكه. و الخبز الغالب فى المدن هو خبز مرتفع صغير قليل النضج مخمر لذيذ ينضج فى الفرن المعتاد و نوع آخر كبير و هو الذى يصنع فى الديار أنضج من الأول، و الأول لا يأكله إلا من لا عائلة له أو الفقراء ذوو العيال.

و أما خصوص الحاضرة ففيها إثنا عشر نوعا من الخبز كلها جيدة سليمة ناضجة على النحو الذى يعرف فى المشرق بالإفرنجى، و عادة الجميع فى الطبخ أن النسوة هن المكلفات به و يطبخن فى اليوم مرتين فطورا و هو عند الزوال و عشاء و هو بعد الغروب، كما توجد مطابخ فى الأسواق يطبخ بها الرجال لمن لا عائلة له أو داره بعيدة عن محل صناعته و أغلب طبخها ردىء إلا قليلا، و من طعام السوق الجيد القليل النظير بريك البيض فيشتره حتى الأعيان فى ديارهم للذة أكله، و الغالب أن الأهالى زمن الصيف يدخرون مؤنة السنة من الكسكسو و نوع مثله يسمى المحمص و القديد و الإبرار. و أما الحطب فإنما يخزن فى أواخر الشتاء عند تنقية شجر الزيتون لأنه

هو أغلب الحطب، و الفحم لا- يطبخ به إلا- قليلا، و بقيه المأكولات تشتري يوميا كالحم و الخضراوات و منها شهريا أو أسبوعيا كالزيت و السكر و القهوة.

مطلب في الأعراس و المواب

أول المواب في عيد الأضحى و الفطر و قد مر كيفية التعييد على الوالى، و أما الأهالى فيتزاورون لبعضهم أربعة أيام و يحصل من ذلك تعب كثير سيما إذا لم يجد الزائر المزور فإنه يعود إليه و لو مرارا، و يعطى للزائر قهوة و الأقارب يعطى لهم أنواع من صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ٣٣٧

الحلويات، و فى جميع المواب التحية بالتقبيل فالعظماء بتقبيل أكفهم ثم من دونهم بتقبيل المرافق ثم المتساويان فى الأكتاف و قليلا فى الأفواء و بعض الأعراب يقبل كل يد صاحبه و تارة رأسه، و كذلك يحصل موكب فى المولد النبوى على صاحبه أفضل الصلاة و السلام على نحو ما مر تفصيله فى الكلام على السياسة. و أما بقيه المواسم فلا موكب فيها و إنما فيها الصدقات و القرآت و التوسع على العيال، و فى عاشوراء تطلق النيران و البارود اعتقادا أنها من تفریح الصبيان و كأنها نغزة باقية من آثار الخوارج الذين كانوا بالقطر، و فى رمضان تتأثق أهل الحواضر سيما القاعدة فى الأكل و كل يدعو أحباءه للعشاء عنده و لا أقل أن يتعشى و لو إنسان واحد مع صاحب الدار و يصرفون فى ذلك زيادة على العادة. و أما الختان فإنهم يجعلون له وليمة مثل العرس و سيأتى بيانها و فى هذا زيادة، و هى: أن الطفل المختون يؤتى به قبل الختن من مكتبه و هو لابس لأجمل لباسه الذى كثيرا ما يكون مقصبا بالفضة أو مطرزا بطراز السراجين و معه تلاميذ المكتب بملابس جميلة أو نظيفة، و يرفع رجل على رأس المختون لوحا مزوقا و يطوفون فى حوالى حارتهم و أمامهم أو خلفهم فرقة من الرجال يذكرون قصائد فى مدح النبى صلى الله عليه و سلم و تجيبهم التلامذة بيت القصيد على ألحان جيدة رافعين أصواتهم إلى أن يصلوا إلى دار المختون، فيقدم لهم موائد من الحلويات ثم يختن الولد أحد الحلاقين المجاز لهم فى ذلك بمقص من حديد ثم يوضع فى فراشه المرونق ثم يهدى إليه من أقاربه و أوداء أبيه أما مال أو مصوغ، و أعلى الهدية قدر أربعمئة ريال فما دون و قد قلت هاته العادة فصار الختان أكثره مخفيا بدون هدية و لا غيرها و يتناقلون فى إخفائه روايات منها قولهم: «أعلنوا النكاح و أخفوا الختان» و لم توجد فى كتب الصحيح و لم نر نصا لأصحابنا فى المسألة سوى أنى رأيت فى الأحياء للغزالي الذى هو شافعى أنه عد فى أنواع السماع الجائر: «السماع عند الختان و عند حفظ القرآن» الخ فهو دال على أن إشهار الختان غير منهى عنه كما أنه غير مندوب لقوله: «و هو أى السماع مباح إن كان ذلك السرور مباحا كالغناء فى العيد و فى العرس و فى وقت قدوم الغائب و فى وقت الوليمة و العقيقة و عند ولادة المولود و عند ختانه الخ فهو دال على عدم النهى عن إشهاره فقط.

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ٣٣٨

و ما الأعراس فإن الزوج بعد الخطبة يرسل المهر و أعلاه ألفا ريال إلا الأمراء و الوزراء فيزيدون على ذلك إلى العشرين ألفا، ثم يرسل مع المهر هدية تسمى الملاك و هو صندوق صغير مجلد بصفائح الفضة أو خشب مرصع بالصدف و فيه المهر مصرور فى مناديل من حرير مخلط بالفضة، ثم صندوق آخر أصغر من الأول من فضة أو ذهب أحيانا مقسم الوسط به قنينات مملوءة أعطارا و أسفلها أنواع من طيب البخور العنبر و القمارى، ثم حقه من ذهب أو فضة فيها قطعة كبيرة من سكة الذهب إما دبلون من سكة الإسبنيول أو قطعة مائة ريال ذهبا لتوضع فى كف العروس عند وضع الحناء، ثم حصير أو أزيد مملوءة بالحناء الورق مخططة على شكل مدور لكى تحفظ و تلف الحصير فى ملاحف من قطن أو حرير، ثم صحن من الزجاج أو الفضة به شكل كالعصيدة من الحناء موضوع فى طبق من الزعف مكسو بمنسوج من الحرير أو الفضة مغطى بمنديل مثل ذلك، ثم قطعة من مصوغ مكلل بالأحجار ثم حزم من الشمع الأبيض كل معصبة بالتقارط الحريرية أو الفضة من ثلاثة حزم إلى العشرين، ثم شمعتان أو أكثر كبيرتان نحو

الإسطوانة معصبة أيضا مثل ما ذكر ثم خمسة أى شمعة صورة كف آدمى كبيرة طولها نحو ذراعين فما فوق و تارة تكون أزيد من واحدة كلها من الشمع معصبة كما ذكر بأشكال حسنة، ثم أطباق كبار من الزعفران بها قنطار فما فوق من السكر الأبيض و يرسل ذلك إلى دار العروس مع أقارب الزوج من النساء عشية، و فى الليل تسرج دار العروس التى قد زينت و دعى إليها النسوة من الأقارب و الأحبة و تزين العروس بأجمل لباس و يوضع على رأسها رداء من منسوج الفضة الثخينة و على وجهها برقع من الحرير الصفيق، و توفد تلك الشموع المهداة لها و تجلس فى بيت أبيها على مسطبة و متكئات من الحرير أو الفضة ثم يهدى إليها ممن حضر مال لا أزيد فيه من مائة ريال، ثم تحنى يداها بالحنه المهداة بعد وضع قطعة الذهب فى كفها الأيمن و ينفصل الموكب بعد أن تعشى النسوة الضيوف و يفطرن صباحا، و يتهيا أبو العروس إلى إنفاق الأموال فيجعل لابنته ملبوسات لا تلبس إلا يوما كالقمجة الكبرى و ما والاها، و هى: جبة كبرى من نوع من الفضة المنسوجة ثخينه ثقيله تتكلف بنحو ألف ريال، و يتبعها سراويل مثلها و هكذا مما لا يلبس إلا يوما أو يومين مع ألبسة أخرى معتادة للتجمل، و العادة مما يكفيها سنة أو أزيد مع كسوة لبيت زوجها من فرش الصوف و الأردية و الستائر للأبواب و الأسرة و المتكاآت كلها من نوع القمجة من الفضة و العدس الذى لا تكسى به البيت إلا إسبوعا واحدا، فيصرف أبوها أضعاف أضعاف من المهر و بعد أسبوع من عرسها تباع تلك الأشياء بما لا يبلغ الربع من ثمنها الأصلي و عند العرس يحضر الزوج داره و يقى بيته فارغا إلا- أحد مقاصيره مثلا- يجعل فيه ما لا- تأتى به المرأة كما يجعل الأسرة فى البيت و الساعات و المرايات و البساط.

و قبل ليلة العرس بيومين تستدعى الأحباب من كل على أن تكون الملاقاة فى أحد المساجد عند صلاة العصر لمن دعاه الزوج، و أما المدعوون من أب الزوجة فيقدمون إلى داره تواء، ثم يقدم أب الزوج أو وكيله مع من دعاه لدار الزوجة و بعد الجلوس و الدار مزينة صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ٣٣٩

و بوسطها جميع الجهاز الذى أحضر للعروس ليرفع لداره على هيئة منظمة يخطب الخطيب و هو أحد الشهود المتخذين الشهادة صناعة و تارة لبعض الأعيان يخطب أحد أهل المجلس الشرعى أو غيرهم من العلماء و يقع الإيجاب و القبول، و لا يكون من الزوج و الزوجة بأنفسهما بل إن كان لهما أب فهو أولى أو ولى آخر أو وكيل، و بعد ذلك تقرأ الفاتحة من الحاضرين الذين يبلغون أحيانا إلى ألف فما دونها و تضيق بهم دار الزوجة و ربما لا تحملمهم الدار لأنه كثيرا ما لا يتفاهم الأصهار على عدد المدعوين، و إن وقع التفاهم و كانت الدار لا تحملمهم جعل العقد فى أحد المساجد ليسع الجميع ثم يسقى الحاضرون ماء محلى بالسكر فيه أنواع الطيب ثم يرشون بمياه الطيب و ينصرفون إلا الخواص من الأبناء فيرفعون الجهاز على حيوانات و يطاف به فى البلاد ليرى مبصر و يسمع واع، و تفرش به بيت الزوج. و قبل ليلة العرس بيوم تصنع وليمه بالحلويات الخفيفة على مائدة مستطيلة كبيرة فى إحدى البيوت حولها كراسى و يدعى إليها مئات من الناس من أول النهار إلى ما بعد نصفه، كلما جاء فوج أدخل أعيانه ليرى بيت الزوج ثم أدخلوا جميعا إلى المائدة فيأكل كل شيئا يسيرا من الحلو و يشرب قليلا من المشروبات الملونة الحلوة و يقرؤون الفاتحة و ينصرفون، ثم ترفع المأكولات و المشروبات لتعود كأصلها و يدخل إليها فوج آخر و هكذا إلى الختام و قد يعوض عنها بعشاء فى النصف الثانى من النهار، و هو محتو على مطبوخ من اللحم و الطير و السمك و الحلويات على مائدة واحدة و تدخل عليه الناس أيضا كما مر، غير أن الأكل منه أكثر من السابق و إن لم يكن حقيقيا للشعب و قد يعوض عن الجميع بوليمة ليلة العرس لمجرد أحياء الزوج و أقربائه، ثم يؤتى بالعروس بعد الغروب هى و قرابتها فى كراريس يرسلها الزوج أو وليه و يذهب للإتيان بها أحد قرابات الزوج و يهدى إلى العروس فى ليلة العرس ما يسمى «قصان الدلال»، و الهدية على أقرباء الزوج و كذلك فى ليلة الوطئة الكبرى و هى قبل العرس بثلاثة أيام للحنه للعروس و المهدي قرابة العروس، كما تهدي العروس للزوج و بعض الرجال من قرابته كأبيه و أخيه شيئا من الملبوس، و بعد خروج العروس من دار أبيها تجتمع حثالة النسوة اللاتي يرون الذهاب لدار الزوج و يوقدون تلك الشموع و يذهب معهن أقرباء العروس من الرجال و من أتى لمصاحبتهن من أقارب الزوج لكن هؤلاء يمشون فى مقدم الموكب و الآخرون فى آخره و النسوة فى الوسط و

يصرن يولولن في الطريق و يدققن الأبواب و يصرخن يا سعد يا سعد، ثم يدخل الزوج على عروسه و يعمل الخلوة الصحيحة و يخرج و لا- يبات. و لا يعرسون إلا ليلة الجمعة و الإثنين و الخميس و لا يعرسون في المحرم تشاؤما و بسبب ما تقدم من كثرة المصاريف عضلت بنات من يخشى على عرضه و تفقرت أقوام و لا حول و لا قوة إلا بالله.

و قريب مما مر ما يقع في البلدان و القرى يخرج فيه ذلك بعادات العربان و هي:

أن بعد الخطبة و العقد يرسل المهر و معه شيء من الملبوس أو المصوغ و الطيب، ثم أبو الزوجة يكسو ابنته و عليه شيء من لباس الزوج، ثم يأتي بالعروس لبيت زوجها

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ٣٤٠

في محفل على ظهر جمل مزين بالثياب الرفيعة و الحلوى و حوله أفواج من قرابة الزوجين بأحسن لباسهم و الطبل يعزف و البارود يصرخ و تارة الخيل و الفرسان تلعب إلى أن تصل لبيت زوجها، و يجعل لهم أبو الزوج و ليمه قسم للرجال و قسم للنساء فيعطى لكل شخص لحمه في يده من رجل أو امرأة و اللحم موضوع في قفه ثم تقدم قصع الكسكسو و لمن أخذ لحمه فوجدها عظما أن يردها و يأخذ غيرها، ثم يدخل الزوج على عروسه و يتزوجها و إذ ذاك يطلق البارود و تعلن النسوة بالولولة ثم يقون بين غناء و سرور و الغناء من الغنائين، و الرجال تمدهم بالمال شيئا فشيئا لكن يعطون قطعا من النحاس فلا يصرفون كثيرا غالبا، و النسوة ضاربات خمورهن على جيوبهن و هن منصات و تارة يغنين و الرجال يسمعون، كما أن أهل الحاضرة يحضرون أهل الموسيقى في ليلة العرس و عند الوليمة و تحضر معهم عاهرات مغنيات إذ مطلق النسوة لا تغنين أبدا و لو بين أيدي أزواجهن، و الغالب على أصحاب الموسيقى أن يكونوا من اليهود لأن أكثر المسلمين يتحاشون منها لما تقدم في مطلب الصنائع، و ذلك كله في غير الموسيقى العسكرية فإنها على النحو الأروباوى و مثلها موسيقى الأروباويين في تونس. و يصنع مثل ما تقدم أيضا ليلة السابع من العرس و هي ختامه و تارة تجعل ولائم للولادة و متى حضر أحد كبار العلماء أسكنت الموسيقى لكن وقع التساهل في ذلك الآن.

و أما المآتم فإذا مات إنسان بكى عليه النسوة برفع صوت و تارة ينحن عليه و قد قل ذلك و لله الحمد و المنه، و عند خروج الجنازة يفعلن مثل ذلك ثم عند الإتيان بما يغطي به نعش بعد الدفن يفعلن ذلك و عند الموت يفرغ بيت الرجل مما بها من الأثاث و أما المرأة فلا، ثم يحضر قراء يقرأون القرآن حوله و هو مكروه شرعا للإجماع على صوت واحد و لأنه قبل غسل الميت ثم عند الغسل يؤتى بخواجات يكبرون و يهللون بصوت عال و هو من البدع، ثم يؤتى بالقراء و المنتسبين إلى زوايا الصالحين بعد التكفين و كل يقرأ إما القرآن أو أورادا للشيخ المنتسبين إليه و هو من البدع، ثم يحمل على نعش و تارة يوضع في تابوت من خشب و يحمل على النعش و يصير كل من أولئك الفرق يصيحون بالقراءة و التكبير و غير ذلك و هو حرام أو مكروه إذ قراءة القرآن في الطريق لا تجوز لما فيه من النجاسة المحققة سيما بعض الطرق في الحاضرة، ثم يصلى عليه في صحن المسجد أو عند القبر و هو الأفضل ثم يدفن و تقف أرباؤه للعزاء فيتعبون و يتعبون من تقبيل كل من قدم للجنازة و قيم المحلة يصيح بقوله أتابكم الله كل خطوة بحسنه الخ من البدع، ثم في اليوم الثالث و السادس و الخامس عشر و الأربعين و العام يجعل في دار الميت موكب تجمع فيه النسوة للبكاء سرا و تارة جهرا، و تجتمع الرجال بالإستدعاء إلا- في اليومين الأولين لمشاهدة قراءة القرآن و البردة و تارة تكون بتغن، و الحاصل أن جميع ما يفعل في ذلك هو من البدع

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ٣٤١

المحرمة لابتداعها فضلا عن ما تشتمل عليه من الأفعال المحرمة لذاتها إلا ما كان منها مشروعا كالغسل و الكفن و الصلاة و الدفن و إهداء الأكل لأهل الميت أيام موته لا في السادس و ما بعده، و ما أحق ذلك الموطن باتباع الشرع إذ هو واجب في كل حال فضلا عن حال هو أول درجة من درجات الآخرة، و من ملحقات ذلك البناء لذات القبر و بناء القباب و الرخام و الإسرافات في المقابر و هي أغلبها خارج البلدان إلا قليلا في الحاضرة، و هاتيك البدع قليلة في قبائل العربان لكن فيهم النائحات و الله يهدى من يشاء إلى

صراط مستقيم.

مطلب في اللغة

لغة جميع أهل القطر هي العربية و هم أفصح من رأيت على العموم بالنطق بجميع الأحرف العربية إلا القاف فيبدلها غير الحواضر بكاف أعجمية و قد ورد أنها لغة و يستند بعضهم حتى إلى حديث لكنه مروى مناما و من المعلوم أن مثل ذلك لا يبنى عليه حكم، ثم اللسان و إن كان عربيا فقد أدخلت فيه كلمات كثيرة بربرية أو أعجمية.

فمنها ما كان من أصل لغة السكان البربر كلفظ كشطة أى عمامة و توأى الآن و للالأي سيده، و لا زالت لغتهم فى جهات جبال و رجمة من الأعراض و جربة مستعملة فيما بينهم.

و منها ما كان من لغة الطليان كألفاظ فينوأى جيد و مركانتى أى تاجر كبير و كارتة أى ورق اللعب.

و منها ما كان من لغة الترك كقولهم هم كذا و هم كذا و قولهم فى النسبة قهواجى و بلغاجى و حمامجى إلى غير ذلك.

و منها تحريف للإختصار كقولهم ما نحش أصلها ما نحب شيئا و لهذا كثر استعمال الشين فى لسانهم حتى كاد أن تكون عندهم كشكة مع أنهم يتدئون بالساكن، و الحاصل أن لسانهم عربى محرف، و فى الحواضر لا يذكر الإنسان غيره إلا بزيادة لفظ سى فيقول سى فلان و كأنها مختصرة من سيدى، ثم فى المكاتبات الناس على ثلاث درجات فيكتب الأكفاء لبعضهم سيدى فلان و من كان دونه ييسير يكتب له السيد فلان ثم الأسفل يكتب له سى فلان، و أما إذا كان خادمه أو تابعه فيكتب إبننا أو ولدنا فلان و هى إصطلاح خطاب الوالى فى جميع مكاتباته إلا للعلماء فيكتب الشيخ سى فلان، ثم إن اللقب لا بد منه فى الكتابة بحيث لا تجد إنسانا بدون لقب و الشهود يزيدون فى كتابتهم الكنية لكن بالكنية العامة مثلا كل من إسمه على يكنى أبا الحسن و هكذا.

و أما البوادى و غالب القرى فمخاطباتهم و كتابتهم من دون تسييد و لا لقب و إنما ينسبون إلى الآباء فيقال فلان بن فلان و أغلب البلدان لهم نحلة فى لغتهم يكاد الماهر أن يعلم بها المتكلم من أى بلدة، و الغريب أن ذلك كائن و لو مع تقارب البلدان فإن أريانة التى لا تبعد عن الحاضرة أربعة أميال لغة أهلها فيها نحلة بعيدة عن لغة أهل الحاضرة بل

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ٣٤٢

الأغرب أن اليهود الساكنين فى الحاضرة مع أهلها الحارة جنب الحارة ترى لغتهم فيها تمييز كبير عن لغة المسلمين فى كلمات كثيرة كقولهم الحين بفتح النون أى الآن و بلغه أهل تونس تو و كقلبهم الشىء سينا و غير ذلك، و أظن أن العلة فى ذلك هى التربية من الصغر فى الدار فيجربى عليها اللسان و لو بعد الكبر و المخالطة و هذا واقع فى اللغات الأخرى أيضا، فأصل اللغة و إن كان واحدا لكن النحلة مختلفة كما فى أهل مرسليليا و باريس فى اللغة الفرنساوية و كما فى لغة أهل الأستانة و بقية الأناطولى فى اللغة التركية، بل هذا موجود حتى فى أصل اللغة العربية فإن قبائلها كل منهم له نحلة و لغة لا تفهم عند غيرهم، و قد عد من معجزات نبينا سيدنا محمد صلى الله عليه و سلم معرفته بالجميع بل و قيل حتى فى غير اللغات العربية و ليس ذلك بغريب، و مما ثبت فى الصحيح فى اللغات العربية ما رواه القاضى عياض فى الشفاء حيث قال: «فصل: و أما فصاحة اللسان و بلاغة القول فقد كان صلى الله عليه و سلم من ذلك بالمحل الأفضل، و الموضع الذى لا يجهل [سلاسة] طبع و براعة منزع و إيجاز مقطع، و فصاحة لفظ و جزالة قول و صحة معان و قلة تكلف، أوتى جوامع الكلم و خص ببدايع الحكم و علم ألسنة العرب، فكان يخاطب كل أمه منها بلسانها و يحاورها بلغاتها و يباريها فى منزع بلاغتها، حتى كان كثير من أصحابه يسألونه فى غير موطن عن شرح كلامه و تفسير قوله.

من تأمل حديثه و سيره علم ذلك و تحققه، و ليس كلامه مع قريش و الأنصار و أهل الحجاز و نجد ككلامه مع ذى المشعار

الهمداني، و طهفة النهدي و قطن بن حارثة العليمي

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ٣٤٣

و الأشعث بن قيس و وائل بن حجر الكندى و غيرهم من قبائل حضرموت و ملوك اليمن؛ و انظر كتابه إلى همدان :
إن لكم فراعها و وهاطها و عزازها تأكلون علافها و ترعون عفاءها ، لنا من دفتهم و صرامهم ما سلموا بالميثاق و الأمانة، و لهم من
الصدقة الثلب و الناب

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ٣٤٤

و الفصيل و الفارض و الداجن و الكبش الحورى .
و عليهم فيها الصالح و القارح ، و قوله صلى الله عليه و سلم: لنهد اللهم [بارك] لهم فى محضها و مخضها ...

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ٣٤٥

و مذقها و ابعت راعيها فى الدثر و افجر له الثمد و بارك [لهم] فى المال و الولد، من أقام الصلاة كان مسلما و من آتى الزكاة كان
محسنا، و من شهد أن لا إله إلا الله كان مخلصا، لكم يا بنى نهد ودائع الشرك و وضائع الملك ، لا تلتط فى الزكاة و لا تلحد فى
الحياة و لا تتناقل عن الصلوات.

و كتب لهم فى الوظيفة الفريضة و لكم الفارض و الفريش و ذو العنان

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ٣٤٦

الركوب و الفلوق الضبيس لا يمنع سرحكم و لا يعضد طلحكم ، و لا يحبس دركم ما لم تضمروا [الرماق] و تأكلوا الرباق ، من أقرّ فله
الوفاء بالعهد و الذمة و من أبى فعليه الربوة .

و فى كتابه لوائل بن حجر: إلى الأقيال العباهلة و الأرواع المشاييب . و فيه: فى

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ٣٤٧

التبعة شاء لا مقورة الألياط و لا ضناك . و أنطوا الثبجة و فى السيوب الخمس ، و من زنا مم بكر فاصفعوه مائة و استوفضوه عاما ، و
من زنا مم ثيب فضرجه بالأضاميم و لا

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ٣٤٨

توصيم فى الدين و لا غمة فى فرائض الله و كل مسكر حرام، و وائل بن حجر يترفل على الأقيال. أين هذا من كتابه صلى الله عليه و
سلم لأنس فى الصدقة المشهور لما كان كلام هؤلاء على هذا الحد و بلاغتهم [على] هذا النمط، و أكثر استعمالهم هذه الألفاظ
استعملها معهم ليبين للناس ما نزل إليهم و ليحدث الناس بما يعلمون، و كقوله صلى الله عليه و سلم فى حديث عطية السعدى :

فإن اليد العليا هى المنطية و اليد السفلى هى المنطاة [قال]: فكلمنا رسول الله صلى الله عليه و سلم بلغتنا.

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ٣٤٩

و قوله عليه السلام فى حديث العامرى حين سأله فقال له النبى صلى الله عليه و سلم: سل عنك ، أى سل عما شئت و هى لغة بنى
عامر، و أما كلامه المعتاد صلى الله عليه و سلم و فصاحته المعلومة و جوامع كلمه و حكمه المأثورة فقد ألف الناس فيها الدواوين و
جمعت فى ألفاظها و معانيها الكتب، و منها ما لا يوازى فصاحة و لا يبارى بلاغة كقوله عليه الصلاة و السلام: «المسلمون تتكافؤ
دماؤهم و يسعى بذمتهم أدناهم و هم يد على من سواهم» و قوله صلى الله عليه و سلم: «الناس كسنان المشط ، و المرء مع من أحب ،
و لا خير فى صحبه من لا يرى لك ما ترى له ، و الناس معادن ، و ما هلك امرؤ عرف قدره ، و المستشار مؤتمن و هو بالخيار ما لم

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ٣٥٠

يتكلم ، و رحم الله عبدا قال خيرا فغنم أو سكت فسلم ، و قوله عليه الصلاة و السلام:

«أسلم تسلم و أسلم يؤتك الله أجر ك مرتين» و إن أحبكم إلى و أقربكم منى مجلسا يوم القيامة أحسنكم أخلاقا الموطون أكنافا

الذين يألفون و يؤلفون» و قوله: «لعله كان يتكلم بما لا يعنيه و يبخل بما لا يغنيه» و قوله صلى الله عليه و سلم: «ذو الوجهين لا يكون عند الله وجيها» و نهيه عن قيل و قال، و كثرة السؤال، و إضاعة المال، و منع وهات و عقوق الأمهات و وأد البنات . و قوله صلى الله عليه و سلم: «اتق الله حيثما كنت و أتبع السيئة الحسنة تمحها و خالق الناس بخلق حسن إلى أن قال: و قد جمعت من كلماته التي لم يسبق إليها و لا قدر أحد أن يفرغ في

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ٣٥١

قاله عليها، كقوله عليه الصلاة و السلام: «حمى الوطيس و مات حتف أنفه، و لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين» الخ. كيف لا و قد أوتى صلى الله عليه و سلم جوامع الكلم و منابع الحكم عليه أفضل الصلوات و أزكى التحيات.

فصل في قوة الحكومة الحربية و المالية

نفر ٠،٠٠٠، ٠٢ العساكر النظامية العاملة.

٠٠٥٠٠ الخيالة غير النظامية العاملة.

٠٠٣٠٠ العساكر المعروفين بزواوة العاملين.

٠٠٢٠٠ العساكر المعروفين بالحنفية العاملين و كل هذين غير نظامي.

١٤،٠٠٠ الرديف النظامي.

٠٢،٠٠٠ الرديف في الخيالة.

٠٧،٠٠٠ الرديف من الزواوة.

٠٤،٠٠٠ الرديف من الحنفية و كل الأعداد على التقريب لأن الضبط غير متيسر.

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ٣٥٢

٠١٥٠٠ العساكر البحرية.

٣١٥٠٠

٠٠٠٠٢ السفن الحربية باخرتان من نوع الكرويت.

فرنك

٠،٠٠٠، ١٤ دخل الحكومة مع انضمام القسم المعطى لأصحاب الديون و دخل الأوقاف.

٠،٠٠٠، ١٤ خرجها إقليلا من فواضل الأوقاف.

٠،٠٠٠، ٤٠ قيمة متجر القطر الداخل و الخارج.

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ٣٥٣

فهرس المحتويات

مقدمة المحقق ٣

ترجمة المؤلف ٥

التعريف بالكتاب ٤٧

المقدمة ٥١

الباب الأول في السفر من حيث هو ٥١

الفصل الأول: فيما جاء في ذلك من الكتاب العزيز ٥١

الفصل الثاني ٥٩

الفصل الثالث ٦١

الباب الثاني في السفر لغير أرض الإسلام و فيه فصلان ٦٢

الفصل الأول: في النصوص الدالة على الجواز ٦٢

الفصل الثاني ٦٣

الباب الثالث في تقسيم أحوال أهل الأرض الآن ٦٤

و فيه سبعة و ثمانون فصلا ٦٤

القسم الأول آسيا ٦٤

الفصل الأول: في المملكة العثمانية ٦٤

الفصل الثاني: المملكة الثانية هي مملكة فارس ٦٥

الفصل الثالث: المملكة الثالثة هي مملكة أفغانستان ٦٦

صفحة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ٣٥٤

الفصل الرابع: المملكة الرابعة هي مملكة بلوجستان ٦٧

الفصل الخامس: المملكة الخامسة هي مملكة الهند الإنكليزية ٦٧

الفصل السادس: المملكة السادسة ٧٧

الفصل السابع: المملكة السابعة ٧٨

الفصل الثامن: المملكة الثامنة ٧٨

الفصل التاسع: المملكة التاسعة ٧٨

الفصل العاشر: المملكة العاشرة ٧٩

الفصل الحادي عشر: المملكة الحادية عشرة ٧٩

الفصل الثاني عشر: المملكة الثانية عشر مملكة روسيا في آسيا ٩١

الفصل الثالث عشر: المملكة الثالثة عشر مملكة هرات ٩٢

الفصل الرابع عشر: المملكة الرابعة عشر هي إمارات التتر المستقلين ٩٣

الفصل الخامس عشر: المملكة الخامسة عشر هي ممالك الأئمة في جزيرة العرب ٩٤

الفصل السادس عشر: المملكة السادسة عشر ٩٧

الفصل السابع عشر: المملكة السابعة عشر ٩٧

الفصل الثامن عشر: المملكة الثامنة عشر ٩٧

الفصل التاسع عشر: المملكة التاسعة عشر مملكة الجابون ٩٧

الفصل العشرون: المملكة العشرون مملكة أتشين ٩٩

القسم الثاني من الأرض ١٠٠

الفصل الحادي والعشرون ١٠٢

الفصل الثاني والعشرون ١٠٣

الفصل الثالث و العشرون ١٠٣

الفصل الرابع و العشرون ١٠٣

الفصل الخامس و العشرون ١٠٤

الفصل السادس و العشرون ١٠٥

الفصل السابع و العشرون ١٠٥

الفصل الثامن و العشرون ١٠٥

الفصل التاسع و العشرون ١٠٦

الفصل الثلاثون ١٠٦

الفصل الحادى و الثلاثون ١٠٦

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ٣٥٥

الفصل الثانى و الثلاثون ١٠٧

الفصل الثالث و الثلاثون ١٠٧

الفصل الرابع و الثلاثون ١٠٧

الفصل الخامس و الثلاثون ١٠٧

الفصل السادس و الثلاثون ١٠٩

الفصل السابع و الثلاثون ١٠٩

الفصل الثامن و الثلاثون ١٠٩

الفصل التاسع و الثلاثون ١١٤

القسم الثالث من الأرض ١١٦

الفصل الأربعون ١١٦

الفصل الحادى و الأربعون: المملكة الثانية ١٢١

الفصل الثانى و الأربعون: المملكة الثالثة ١٢١

الفصل الثالث و الأربعون: المملكة الرابعة هى طرابلس الغرب ١٢٢

الفصل الرابع و الأربعون ١٢٣

الفصل الخامس و الأربعون ١٢٣

الفصل السادس و الأربعون ١٢٤

الفصل السابع و الأربعون ١٢٤

الفصل الثامن و الأربعون ١٢٥

الفصل التاسع و الأربعون ١٢٥

الفصل الخمسون ١٢٦

الفصل الحادى و الخمسون ١٢٦

الفصل الثانى و الخمسون ١٢٦

الفصل الثالث و الخمسون ١٢٧

- الفصل الرابع و الخمسون ١٢٧
- الفصل الخامس و الخمسون ١٢٧
- الفصل السادس و الخمسون ١٢٧
- الفصل السابع و الخمسون ١٢٨
- الفصل الثامن و الخمسون ١٢٨
- الفصل التاسع و الخمسون ١٢٨
- صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ٣٥٦
- الفصل الستون ١٢٨
- الفصل الحادى و الستون ١٢٩
- الفصل الثانى و الستون ١٢٩
- الفصل الثالث و الستون ١٢٩
- الفصل الرابع و الستون ١٢٩
- الفصل الخامس و الستون ١٢٩
- الفصل السادس و الستون ١٢٩
- الفصل السابع و الستون ١٣٠
- الفصل الثامن و الستون ١٣٠
- الفصل التاسع و الستون ١٣٠
- الفصل السبعون ١٣١
- الفصل الحادى و السبعون ١٣٢
- الفصل الثانى و السبعون ١٣٢
- الفصل الثالث و السبعون ١٣٣
- القسم الرابع من الأرض ١٣٥
- الفصل الرابع و السبعون ١٣٧
- الفصل الخامس و السبعون ١٣٨
- الفصل السادس و السبعون ١٣٩
- الفصل السابع و السبعون ١٣٩
- الفصل الثامن و السبعون ١٣٩
- الفصل التاسع و السبعون ١٣٩
- الفصل الثمانون ١٣٩
- الفصل الحادى و الثمانون ١٣٩
- الفصل الثانى و الثمانون ١٤٠
- الفصل الثالث و الثمانون ١٤٠
- الفصل الرابع و الثمانون ١٤٠

- الفصل الخامس و الثمانون ١٤٠
- الفصل السادس و الثمانون ١٤٠
- القسم الخامس من الأرض أستراليا ١٤١
- صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ٣٥٧
- الفصل السابع و الثمانون ١٤٢
- المقصد ١٥٠ صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار ؛ ج ١ ؛ ص ٣٥٧
- باب الأول في سبب سفر المؤلف ١٥٠
- فصل في نشأة المؤلف ١٥٠
- فصل في مرضه و ما عولج به ١٥٢
- فصل في حكم التداوى شرعا ١٥٨
- الباب الثانى فى قطر تونس ١٦٦
- فصل فى التعريف بالقطر التونسى ١٦٦
- فصل: فى إجمال تاريخ هذا القطر التونسى ١٨٦
- المطلب الثانى فى علاقة القطر بالدولة العثمانية ١٩٠
- المطلب الثالث فى سياسة القطر الخارجية: ٢٠٤
- المطلب الخامس فى وزارة مصطفى خزنه دار: ٢٢٨
- المطلب السادس: فى وزارة الوزير خير الدين ٢٥٤
- المطلب السابع: فى وزارة محمد خزندار ٢٩٤
- المطلب الثامن: فى وزارة مصطفى بن إسماعيل ٢٩٧
- فصل فى بعض عوائد أهل القطر و صفاتهم ٣١٣
- مطلب فى الأوصاف العامة ٣١٣
- مطلب فى التجارة: ٣١٩
- مطلب فى ترتيب الأحكام و الإدارة ٣٢٠
- مطلب فى المعارف ٣٢٤
- مطلب فى الصنائع ٣٢٥
- مطلب فى المساكن و الطرقات ٣٢٨
- مطلب فى اللبس ٣٣٣
- مطلب فى الأكل ٣٣٥
- مطلب فى الأعراس و المواكب ٣٣٦
- صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ١، ص: ٣٥٨
- مطلب فى اللغة ٣٤١
- فصل فى قوة الحكومة الحربية و المالية ٣٥١

الباب الثالث في إيطاليا

فصل في سفرى إليها و ما رأته بها:

لما تكاثرت بى المرض العصبى فى صائفئة سنة ١٢٩٢ هـ و دامت معالجته على نحو ما مر ذكره فى الباب الأول من المقصد و أشارت على الأطباء بالسفر إلى أوروبا، عزمت على ذلك فى شوال سنة ١٢٩٢ هـ الموافق إلى أواخر تنبر الأعجمى، و استأذنت الحكومة فكتبت لى على عادة المسافرين بطاقة الجواز بالإذن فى السفر من مرسى حلق الوادى، و هى بطاقة عليها إشارة الحكومة و تكتب تارة بالفرنساوى و تارة بالعربى و ذلك على حسب المكان المسافر إليه، فإن كان بلدة أفرنجية كتبت بالفرنساوى و إن كانت إسلامية كتبت بالعربى و هذه العادة بتذاكر الجواز معمول بها فى أكثر الممالك و بعض الممالك يتركونها فلا يحتاج الداخل و لا الخارج لإذن، و ركبت من المرسى المذكورة فى التاسع عشر من شوال سنة ١٢٩٢ هـ و كان معى خادمان أحدهما: يتكلم باللسان الطليانى و الفرنساوى و الألمانى و العربى، و صاحبنى فى هاته الجهة العالم النحرير المتبحر فى علمى المعقول و المنقول الشيخ سالم أبو حاجب، أحد أفاضل مدرسى جامع الزيتونة حيث كان له مأمورية فى إيطاليا مع وزير الإستشارة أمير الأمراء حسين فى خصومة تتعلق بأحد أتباع الحكومة التونسية المسمى بنسيم شمامة الذى كان مكلفا بقبض أموال الحكومة و شراء المهمات إليها و خرج من القطر بدون تحرير للحساب معه كما مر فى ترجمة الوزير مصطفى خزندار و ذلك فى حدود سنة ١٢٨٩ هـ و بقى يتردد بين فرنسا و إيطاليا إلى أن مات فى بلد ليفرنو من إيطاليا، و طلبت الحكومة من ورثته تحرير الحساب و كاد أن يقع صلح بينهما ثم خرج الورثة كما مر ذكر ذلك فى ترجمة الوزير المذكور و لذاك لزم الحكومة أن عينت أحد وزرائها و هو أمير الأمراء حسين و معه العالم الشيخ سالم لطلب الحساب و توقيف التركة، فذهبا إلى هناك و باشرا النازلة و طالت المدة فرجع الشيخ المشار إليه إلى تونس لبعض مصالح ثم عاد إلى مأموريته و كان من المنة الإلهية التصاحب معه.

فركبنا باخرة البريد الطليانى المسماة بفوريا و نزلنا فى الطبقة الأولى و كان كراء الواحد فيها من تونس إلى نابلى مائة و عشرين فرنكا و أما فى الطبقة الثانية فثمانون فرنكا و أما فى الثالثة فعشرون فرنكا لأن الأولى و الثانية كلاهما يعطى الأكل و الفرش بخلاف الثالثة فإنها للحمل فقط مع الإختلاف فى المكان و الفرش و الأكل فكل بحسبه، فأقلعنا من المرسى يوم

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ٤

الأربعاء بعد الزوال بخمس ساعات و كان فى البحر شىء من الإضطراب فحصل لى شىء من الدوار و اشتد الأمر لما جاوزنا رأس غار الملح فاضطجعت فى فراشى و أوقف الحالات للإنسان هى الإضطجاع، و هذا الدوار البحرى من أشد الأمراض لمن يصاب به و بعض من الناس لا يعتره شىء منه و إن لم يكن متعودا، و قد كنت قبل الركوب استعملت بإشارة الطبيب ثلاثة حقنات فى الجلد من العلاج المسكن لكى لا يزيد على ألم البحر الألم العصبى و من فضل الله لم يعترضنى ذلك الألم مدة الطريق، و بقيت الحال كذلك إلى أن وصلنا إلى جزيرة سردانيا قرب مرسى كالارى فدخلت الباخرة فى جون محاط بالجبال عن بعد فسكن البحر و نشطت و هو من غرائب مرض البحر إذ شدته تقضى أن الإنسان يبقى معه التعب و هو بخلاف ذلك لأنه إذا انقطع الإضطراب يحصل النشاط إلا قليلا، و لما نشطت صعدت إلى سطح الباخرة فرأيت الجبال محيطة بنا و هى جبال أكثرها صلد لا غابات بها و منظرها ليس بحسن و أغلبها خال عن العمران لأن التمدن لم ينبسط فى تلك الجزيرة، و لم نزل سائرين فى ذلك الجون نحو ثلاث ساعات و كانت الباخرة تسير عشرة أميال فى الساعة إلى أن أرسينا فى مرسى كالارى التى هى تابعة لإيطاليا و كان ذلك صبيحة يوم الخميس قبيل الزوال، فإذا بالمرسى مبنية بالرصيف لأمن السفن بحيث تستطيع أعظم سفينة أن تلصق بالبر مع الأمن من اضطراب البحر و اللاصقة بالبر، ينزل سلمها على ذات البر و فى المرسى كثير من السفن و البواخر لأن موقعها متوسط فيأتيها البريد من جهات و يفرق على بواخر كل تذهب إلى جهة

من الممالك المشرقية و المغربية، ثم يحمل من الجزيرة في السفن الملح و الغلال و الأثمار إلى كثير من الجهات. ثم نزلنا من الباخرة في زورق كراؤه فرنك واحد و الزوارق كثيرة تحيط بالبواخر و أصحابها سيؤ الأخلاق مع المسافرين يغرونهم بالركوب قبل المساومة في الأجر، فإذا نزل طلبوا منه أضعاف القيمة و ربما سرقوا ما وجدوه معه إن أمكنهم و ذاك ديدنهم في كل المراسى لكننا ساومنا قبل الركوب.

و دخلنا البلد فإذا هي بلد غير متمصرة و أغلب طرقها ضيق و أبنيتها على النحو الأوروبي الآتي بيانه و لا تزيد طبقات دورها على أربعة و هي بلدة متصاعدة في الجبل و طرقها جميعا مبلطة، فالذي تمر فيه العجلات يكون محصبا و غيره محجر بحجارة غير مسواة و لذلك كان منظرها و المشى بها متعبا، و ترى الجبال ممتدة بين شبايك الديار من إحدى الجهات إلى ما يقابلها لنشر الثياب المغسولة عليها، و فرش الديار مثل الفرش الأروباوية و بأعلى البلد بستان عمومي منتره للعامة و تأتيه الموسيقى العسكرية لبسط العامة عشية الأحد و الأعياد و فيه ماء نابح حلو و به أشجار صغيرة مهياة للبيع في أوقاتها، و في البلد منازل للمسافرين منها الحسن و منها ما هو دونه و بها حوانيت و بطحآت غير متسعة جدا و بها قهاوى، و يباع بحوانيتها جميع ما يوجد غالبا من الضروريات و الحاجيات و التحسينيات، و فيها مستشفى و مدارس للتعليم في مبادئ الفنون، و بها مطابع أيضا و فيها صحف يومية نحو الأربعة، و هواء البلد ردىء تكثر فيها الحميات في الصيف لمجاورتها

صفحة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ٥

لسبخة و هاته السبخة يستخدم فيها أصحاب الجرائم الثقيلة المحكوم عليهم من محاكم إيطاليا، و فيها معمل كبير من البناء لذلك مجلوب له الماء في قناة من البناء مجتازة قرب شاطئ البحر ظاهرة للنظر، و بسبب تلك السبخة فسد هواء كالارى حتى يقال: إن عدد أهلها كل عام في نقصان، و قد شرع في مد طريق حديدية من هاته البلدة التي موقعها في الجنوب الغربى من الجزيرة التي هي مستطيلة من الجنوب إلى الشمال و ينتهى الطريق في الشمال الشرقى من الجزيرة، غير أنه لم يتم إلى الآن و لا زال العمل فيه، ثم أهل البلد على قسمين:

الأول: الأعيان و الوافدون و كلاهما لباسهم مثل لباس الأوروبيين.

و الثانى: بقية الأهالى و مثلهم بقية سكان البوادي و القرى في الجزيرة يلبسون جلود الغنم يصوفها، فالصوف مما يلي البدن و الجلد من أعلى، و هيئة اللبس هي صدرية و متتان و سراويل نحو السراويل التونسية لكن يجعلون على الساق ألبسة مربوطة و النعال خشنة ذات مسامير كبيرة و على رؤوسهم عراقرق من الصوف أو قلانس من الصوف المنسوج طوال مدلاة على أكتفاهم، و النسوة يلبسن قريبا من نسوة أوروبا لكن على شكل غير نضر، و فى أرجل أغلبهن قبايق من خشب و لغتهم طليانية و الغالب هو عدم التمدن و الأكل رخيص هناك فالقهوة لثلاثة منا طلب صاحبها منا ستة صولدى و الفرنك به عشرون صولدى كل صولدى خمسة ساتيم، ثم ركبنا باخرة أخرى و هي التي توصلنا إلى نابلى بعد أن أحسنا إلى خدمة الطبقة التي كنا فيها و ذلك من اللوازم فى البواخر و كذلك الإحسان لخادمى المطاعم و القهاوى و مقدار الإحسان نحو خمسة فى المائة مما يدفعه الدافع فإن كان أقل نوزع فى ذلك و إن زاد شكر، و نقلنا رحلنا إلى الثانية فأقلعت قرب الغروب و توجهنا إلى نابلى فلم نزل الباخرة سائرة و البحر ساكن إلى أن خرجنا من الجون و التفتت الباخرة متوجهة إلى الشرق و أرخى الظلام سدوله فمنا فى مضاجعنا إلى الصباح فاستفقنا بكرة و حيث كان البحر فى سكون كان يستطيع الإنسان أداء جميع ضرورياته و الوضوء و الصلاة على أكمل حال، و بعد شروق الشمس أول ما اكتشفنا قرب نابلى جزيرة إسكيا و بها جبل مرتفع و هي تحتوى على قرى كثيرة و لها منظر جميل من بعد لارتفاع مبانيها و تزويقها من خارج، ثم ظهر بركان نابلى و هو جبل مرتفع متصاعد من قمته دخان ثم وصلنا إلى مرسى نابلى و البلد فى سفح الجبل و هي أكبر مدن إيطاليا و كانت تختا لملك نابيطان و سكانها نحو أربعمائة ألف نسمة، و هي محيطة بجون فى البحر على شكل هلال و المرسى فى الوسط و هي مرسى صناعية أكبر من مرسى كالارى، غير أن السفن فى وقت وصولنا إليها أقل من الأولى فتعرض لنا عند إرساء الباخرة أحد المعارف فى

زورق لأنه بلغه خبر قدومنا بسلك الإشارة من كالارى، فاصطحبنا جميعا و مررنا بوسط الكمرك و نظر المكلفون به رحلنا فلم يجدوا به شيئا يؤدي الكمرك سوى شىء من النشوق و ماء الزهر، فأخذوا ما عليهما من الضريبة.

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ٦

ثم ركبنا بكروستين من الكراريس الموجودة فى بطحاء الكمرك مهياً لمن يريد الركوب و هى كراريس نظيفة أغلبها يركب راكبين فقط من النوع الذى يفتح سقفه إلى خلف و مثلها موجود فى أغلب الجهات الكثيرة العمران من البلاد و تجرها الخيل، و أما عجلات حمل الأثقال فتجرها الخيل و البغال و البقر و هكذا فى غيرها من البلدان غير أن البقر لا تستعمل فى الجر فى أعالي إيطاليا و فرنسا، ثم نزلنا بأحد منازل المسافرين بعد أن ردنا فيه بيوتا على نحو ما يليق بنا و هو منزل كبير ذو خمس طبقات له شبايك تفتح على نهج واسع يسمى طريق البوسطة و له شبايك على بطحاء واسعة بها فوارتان للماء العذب المجلوب من الجبل الموزع على البلد و على ديارها و سائر مساكنها، و كان الكراء لأربعتنا فى اليوم للسكنى و الأكل خمسة و عشرين فرنكا سواء أكلنا أم لا و ما زاد على ذلك مما يطلبه الإنسان يؤتى به إليه لكنه يحسب عليه بثمانه كالورق للكتابة و الشمع و غير ذلك بحيث أنه كل ما يطلبه يجده و إنما ينبغى للإنسان أن يساوم مدير المنزل قبل الإتيان بالشىء المطلوب و إلا فإنه يحمل عليه بأسعار باهظة، و أما الأشياء الضرورية فهى داخله فى أجرة السكن و الأكل و هى أن يجد الإنسان بيتا ذا فراش للنوم بغطائه و لوازمه و كراسى مكسوة بالحرير و خزنة و عليها مرآة و ساعة و سائر الضروريات، و مصباح و شمعة و مائدة لوضع الكتب و آلات الكتابة و مناديل للتنشيف من الماء عند الغسل و هكذا سائر الضروريات إلا- أبقى للمستراح فينبغى حمله إلى جميع جهات أوروبا إذ لا يوجد عندهم و ليسوا بمتعودين عليه و هو من العادات اللازمة للسيرة الإسلامية و النظافة، كما أنهم فى أوروبا لا يغسلون أيديهم بعد الأكل أما قبله فمن آدابهم أن يغسل الإنسان يديه و وجهه فى بيته و يأتى بيت الطعام بثياب نظيفة، غير أن من أراد غسل فمه و أصابعه بعد الأكل فله أن يطلب من الخادم فى بيت الطعام أن يأتيه بما يغسل به فيأتيه بصحن فيه قدح من الزجاج أو الخزف و فيه كأس به ماء حار قليلا مخلوط بشىء من روائح الطيب فيتمضمض به و يمسح الماء فى القدح و يدخل أصابعه فى الكأس و يمسح بها شفثيه ثم يتمسح فى منديل، ثم إن بيت السكنى مفروش بالزرايبى و على أبوابه أردية رفيعة و هو فى غاية النظافة و له خادم لتنظيف البيت و تهيئة الفرش و عند الاستيقاظ يدعو الساكن الخادم فيأتيه بالقهوة و ما يتفق عليه من الأكل صباحا، ثم ينظف الخادم البيت و يغير المناديل و أردية الفراش إن كان بها أدنى وسخ.

و عند الظهر أو قبله بساعة يضرب جرس للتهيؤ للأكل ثم بعد خمسة عشرة دقيقة يضرب الجرس مرة أخرى لحضور الساكنين من بيوتهم إلى بيت الطعام و هو بيت متسع فيه مائدة كبيرة أو أزيد يجلس عليها الحاضرون فوق كراسى و يفرق عليهم الأكل سواء و الأغلب أن يكون أربعة أنواع أو خمسة من اللحوم و الطيور و السمك ثم نوع من الجبن ثم فاكهة ثم ينصرفون. و من أراد الأكل فى بيته فله ذلك غير أنه يحسب عليه بزيادة فى الثمن أو يعطى أقل من ألوان المائدة العامة، و كذلك وقت العشاء و هو فى الأغلب بعد الفطور بسبع ساعات و لما كان المسافر يريد التفرج فالأولى أن لا يكترى المنزل إلا للسكنى و أما

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ٧

الأكل فيجعل له سوم خاص لكل أكلة إن حضر أكل و إلا فلا يحسب عليه شىء لكى لا يلزمه الحضور و الأكل فى محل واحد أو أنه يخسر ثمنين للأكل بإعطاء ثمن الأكل فى منزل السكنى ثم فى المكان الذى يأكل به، و إذا خرج المسافر يقفل بيته و يعطى مفتاحه لصاحب الباب لكى يكون رحله فى أمن إذ يعتري السرقة فى البيوت أحيانا سيما فى نابلى و لا يطالب صاحب المنزل بما يسرق إلا إذ كانت الأشياء المسروقة ضروريا وضعها فى البيت كالصندوق و أما المال و المصوغ و شبهه فلا، و لذلك ينبغى لمن له شىء من ذلك أن يحمله معه أو يضعه فى أحد البنوك لأن وضعه عند صاحب المنزل مخطر و إن أخذ منه حجة فى ذلك إذ يحتمل إفلاسه فتذهب الأمانة سدى، و لذلك يكون الأوفق للمسافر أن يحمل معه من المال العين شيئا قليلا و بقیة ماله يصرفه بتذاكر بانكات معتبرة

كينك فرنسا أو إنكلترة و يحملها معه أينما ذهب لخفتها و يستريح، و مهما أراد عين المال يصرف تذكرة من تلك التذاكر عند أى صراف أراد بل ربما ربح فيها إذ خصوص تذاكر البنك الفرنسي و الإنكليزي يرغب فيها أزيد من المال العين و لذلك يؤخذ عليها نصف فى المائة زيادة عن قيمتها بخلاف تذاكر بنوك إيطاليا أو غيرها فإنها لا تصرف فى غير ممالكها، و فى ذات مملكتها تعطى الصرف أقل من قيمتها فمثلا التذكرة المسمى بها مائة فرنك من بنك إيطاليا إذا أردت أن تدفع المال و تأخذها فإنك تعطى مائة فرنك عينا و تأخذ مائة و ثلاثة عشر ورقا و هاته الأوراق هى التى بها الرواج فى إيطاليا بحيث أنها هى المعينة عند الإطلاق، و فى إيطاليا عدة بنوك لها تذاكر من ذلك النوع فأما تذاكر بنك الدولة فإنها تروج فى جميع إيطاليا سواء و أما تذاكر بنوك صيارفة أخر فلا تروج إلا فى خصوص البلدان التى فيها البنك، فمثلا تذاكر بنك نابلى لا تصرف فى رومه أو غيرها من مدن إيطاليا فضلا عن غيرها فينبغى لمن سافر أن يتنبه لهذا.

و قد أقمنا بنابلى ثمانية أيام و تفرجنا على أغلب جهاتها و غرائبها و أشهر طرقها الحسنه البهيجه هو طريق توليدو و هو متسع عامر يمينا و شمالا بالقصور الشاهقه، و بأسفلها الحوانيت للبضائع و التحف الأنيقه و يقرب منه فى المنظر طريق البوسطه و طريق الدومو ثم طريق جديد يسمى فوريدو و هو أوسع من غيره و أنزه. و على حافتيه الأشجار، لكن القصور التى حوله لم يكمل انتظامها إذ ذاك و هو فى الجهة العليا من البلاد و بها عدة بطحات أشهرها و أكبرها التى أمام قصر الملك، و يحيط بها قهاوى و محلات للأكل، و من المباني الشهيرة التى رأيتها فيها قصر الملك الذى فى البلاد و هو قرب شاطئ البحر و أمامه من جهة البحر حصون و أسفله من تلك الجهة مسكن للعسكر و على سطحه بستان متسع ذو أشجار و نوابح مياه تطل عليه شبايك القصر و القصر ذو أربعة طبقات و المعد منها لسكن الملك هى الطبقة الثانية و هو قصر ضخم متقن البناء و التحسين و التزيق، يشتمل على كنيسة و على ملهى خصوصى للعائلة الملكية و يشتمل أيضا على جميع الأثاث و الأدوات المحتاج إليها فى السكنى من فرش و أوانى طعام على أنواع حتى من الفضه بحيث أنه منتظم كأن الملك

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ٨

ساكن فيه، و الحال أنه لا يأتيه إلا أحيانا فى بعض أوقات التنزه أو تفقد المملكة لأن مقر الحكومة مدينه رومه، لكن لما كانت نابلى سابقا قاعدة مملكة النابلطان و كانت ملوكها مستبدين أشادوا ما شاءوا فى قصورهم و بقى التحفظ عليها على ما كانت عليه و لها خدمه و مكلفون حتى أن الملك إذا قدم إلى هناك لا يستحق لجلب شىء معه سوى ملبوسه و يمكن له عقد الولايم الحافله هناك كأحسن ما تصنعه الملوك و هكذا فى كل بلد كانت قاعدة لملك فى إيطاليا، و بلصق هذا القصر الملهى الكبير المسمى بصان كارلو و له منفذ من القصر الملوكى و هو من أكبر ملاهى أوروبا و أتقنها ضخامة و تزويقا و يحمل من المتفرجين نحو ألف و خمسمائة متفرج و هو ذو ست طبقات فمنها أربع طبقات كل واحدة تشتمل على إحدى و ثلاثين بيتا، و منها طبقتان كل واحدة تشتمل على ثمانية و عشرين بيتا و كل بيت تجلس به أربعة أنفس عدا بيت الملك التى فى صدر الطبقة الثانية مواجهه للملعب، هذا عدا المحل العمومى فى الوسط الذى به مقاعد عددها ستمائة و ثلاثون مقعدا و هذا الملهى لم يفتح إذ ذاك منذ سنتين اقتصادا من الحكومة لأنه يلزمها فى كل ليلة لفتحه أن تعين على مصاريفه بألف و خمسمائة فرنك لأن دخل المتفرجين لا يكفى مصاريفه.

و مما شاهدته أيضا قصر الملك الذى خارج البلد فى رأس الجبل و يسمى كابودى متانى و هو قصر أصغر من السابق يحيط به بستان أنيق و لم يكن بالقصر فرش سوى بعض بيوته بها فرش عتيقه جدا لملوكهم الأقدمين موضوعه هناك للتفرج عليها و بقيه البيوت بها آثار قديمه من السلاح و أدواته، حتى كان منها بيت مملوء بصور أجساد آدميين متدرعين بأنواع شتى من الدروع على حسب اختلاف الزمان، و منها صور فرسان بخيلهم مدرعين و منها صور بعض ملوكهم و الدروع كانت حقيقيه مستعمله حقيقه فى الحروب، و بعضها به آثار الضرب و الطعن حتى بالرصاص من المكاحل و بقيه بيوت القصر خاويه، و الجميع بناؤه أنيق ثمين.

و شاهدت أيضا أكبر كنائسها و هى كنيسة «صان جينارو» و هى ضخمة ذات أعمده من المرمر و من غريب ما فيها صورة صنم من

رخام أبيض عليه ثوب كأنه صفيق بحيث يبدو ما تحته و الحال أنه نحت من ذاك الرخام، و شاهدت أيضا أكبر مارستان لهم و هو ذو بيوت كبيرة كل واحدة بها نحو المائة فراش كل منها بعيد عن الآخر قدر فراشين و كل فراش لمريض واحد عرضه نحو المتر و طوله نحو المترين و ربع، و هو على سرير من خشب يحتوى على فراش و عليه إزار و وسادة و غطاء من القطن، و المريض لابس لقميص و على رأسه قلنسوة من نوع القميص و الكل من منسوج الكتان الأبيض، و كل بيت يحتوى على نوع واحد من نوع المرض أو متقارب النوع، و لكل بيت خدمة بالأجرة يوفون للمرضى بجميع لوازمهم و إعطاء الدواء فى أوقاته حسب إشارة الطبيب و زيادة على ذلك كثيرا ما تأتي نسوة من الأعيان و غيرهم لخدمة المرضى و الرأفة بهم حنانا منهم و رغبة فى عمل الخير، و للمارستان عدة أطباء منهم من هو ذو وظيفة و له أجر عليها، و منهم من يداوى مجانا إما

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ٩

رغبة فى الخير أو لإتمام تعلمه لفن الطب حتى يأخذ الشهادة ممن له الإجازة على قوانين لهم فى ذلك، و للمارستان أيضا بيت أدوية و مواعين للجراحة و الدواء و فيه قسم للرجال و آخر للنساء المرضى، و هكذا كل مارستان غير أن بعضها يداوى مجانا و بعضها له أماكن لمن يريد التطب من ذوى اليسار، فيعطى مقدارا معيناً يومياً و المستشفى يقوم بجميع ما يلزمه، و يختارون التداوى فى المستشفيات لأنها أتقن من مساكنهم سيما فى التحفظ على ما يتعلق بالدواء و أداء الخدمة حقها مع مباشرة مشاهير الأطباء الذين يلزم لإتيانهم لمساكن المرضى مصاريف وافرة، و محلات هؤلاء المستأجرين فى المستشفيات أنقى و أنظف و أبهى من المحلات العامة و يمكن لكل مريض أن يبقى فى بيت خاص به صغير موافق فى الهواء بحيث أن جميع حركات المستشفيات و أوضاعها على مقتضى الحكمة الطبية، ثم إن مصاريف المستشفيات على أنواع: فمنها ما تقوم به الدولة، و منها ما يقوم به المجلس البلدى، و منها ما يقوم به لجان من الأهالى، و هذا فى كل جهات أوروبا سواء و يقبلون الصدقة ممن يريدونها و لو من السواح.

و شاهدت فيها أيضا الدار التى بها الآثار العتيقة و منها الأشياء التى استخرجت من بلدة بونباى التى يأتى خبرها و هاته الآثار لو أراد الكاتب استيعابها للزم لها مجلد ضخمة إذ هى مشتملة على أنواع و أشكال شتى من أقطار مختلفة، فمما جلب من مصر المومى و هى ذات إنسان ميت مصبرة على ما كانت عليه منذ عدة آلاف من السنين لم يتغير منها شىء سوى أن اللون أسود و جوفه مثقوبة لإخراج جميع أحشائه و بقية حاله على ما كان عليه، و فى هاته الدار نحو أربعة أجسام من ذلك النوع منها النساء و منها الرجال و ذواتهم لا تختلف عن ذوات البشر الموجود الآن، لكن ليس فيهم ذو جسامه و لعل ذلك بسبب أن الميت المصبر إنما يكون عزيز قومه و مثل هؤلاء لا يموتون غالباً إلا بالأمراض و الأمراض تنحف الأجسام فلذلك كانت أجسام الموميات نحفاً، و إلا فإن التصبير يحفظ الجسم على ما هو عليه، ثم إن ذلك النوع من التصبير قد جهل و مع كثرة البحث عنه من حكماء الأعصار المتأخرة لم يطلع عليه فهو من العلوم التى فاز بها المتقدمون و دثرت.

و من غرائب ما فى هاته الدار أيضا قطع من ثياب منسوج من مادة حجرية و هذا المعدن يسمى أميانتو و هو الآن معروف و موجود لكن كيفية تمديده حتى يصير مغزولاً و ينسج منه مجهولة الآن و قد كان فى الأعصر السالفة معلوماً، و من فوائد تلك الثياب أنها لا تنحرق، و إذا توسخت فغسلها بالنار و هى ثياب لينه تنطوى غير أنها ثخينه، و من غرائبها أيضا ما وجد من آثار بونباى و هى أشياء كثيرة من المأكولات و غيرها فرأيت فيها التمر و القمح و الزيتون و غير ذلك مما مضى عليه ألفا سنة أو أزيد لم يتغير منه شىء سوى اسوداد فى اللون، و قالوا: «إن طعمه أيضا لم يتغير» و سمعت أنهم زرعوا حبواً مما و جدوه كالقمح و نبت و أثمر مثل الجديد مما يدل على أن النوع واحد لم يتغير حاله مع طول الزمن، و كل هاته الحبوب موضوعة على ترتيب حسن إلى غير ذلك من الآثار القديمة الموضوعه المنضمة فى أماكن محفوظة نظيفة و عليها قيمون و تفتح يومياً لمن يريد التفرج

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ١٠

بأجر زهيد و تسمى هاته الدار «موزاى ناسيونال».

و مما شاهدته في نابلي دار الفنون المسماة «أنيفرسيثادى نابلى» و هى يعلم بها فنون الطب و الأحكام و السياسة و التجارة و الكيمياء و الصيدلة و البناء و الفلك و الجبر و المقابلة و الهندسة و الأبعاد و جر الأثقال، و لكل فن قسم و مدرسون و بها محل لأجسام الحيوانات فيه أغلب ما يعرف منها من الإنسان إلى الذباب من الحشرات حتى الحيوانات البحرية لكنها كلها ميتة مجعولة بواى مزروعة اللحم و غيره مع التحفظ على هيئة الجلد، و يحشى جلدها بمواد نباتية و يرسم على هيئة أصل الحيوان حيا و تجعل عيناه من زجاج فيراه الناظر كأنه حى، و فيها من تلك الأنواع ما لا يكاد يحصى. و يوجد كتاب مطبوع فى البلد مشتمل على تلك الحيوانات مع تراجمها و أغرب ما رأيت من حيواناتها و لم أره فى غيرها عصفور فى حجم النحلة ملون الريش و ذيله ذو ريشتين فقط طويلتين كل منهما فى طول ما يقرب من الشبر لها ألوان جميلة، و كذلك رأيت فيها تنين البحر أعظم حجما من الفيل لكنه أقصر منه لأن جملة هيئته تقرب من هيئة السلحفاة و رأسه أضخم من رأس الفيل و عيناه واسعتان جدا و فمه مفتوح و جلده منكمش و بجملته له منظر بشع منفرد، و يوجد فى هذا المحل جسم الإنسان على جميع أطواره منذ يتكون مضغة إلى أن يصير شيخا فانيا ثم يوجد تشريح أعضائه منفردة سواء كانت ظاهرية أو باطنية ذكورية أو أنثوية، و جملة جسمه من المجاميع الأصلية كل منها منفرد عن الآخر فتجد جسما ليس فيه إلا-العظم فقط على نحو خلقته، ثم آخر به العظم و العروق فقط و هكذا، غير أن بعض هاته الأجسام هو حقيقى و بعضها صورى من الشمع لكنه متقن التصوير و اللون حتى كأنه هو الأصل لأن اللحم بدون جلد لم يمكن لهم تصيره فى الهواء، و كذلك توجد أجسام المولودين على خلاف المعتاد ككون وجهه فى بطنه و آخر ذو ثلاثة رؤوس إلى غير ذلك و كلها مصبرة فى زجاجات كبيرة مملوءة بمياه روية لكى تقى الجسم من التعفن، و فى هذا المحل يتعلم فن التشريح الذى هو جزء من الطب و فى هذا المحل أيضا خزنة كتب عظيمة بها مائة و ثلاثون ألف مجلد كلها طبع إلا النادر بخط اليد و بها كتب عربية كثيرة، فمما رأيت فيها مصحف كريم مطبوع بالطبع الحجرى، ثم كتاب يسمى الكمال المسيحى للراهب «الفونس رودريكوس» موضوعه تعاليم ديانتهم و هو فى مجلدين ضخمين، ثم مجلد آخر يشتمل على توراتهم و أناجيلهم مكتوب بلغات ستة و بخطوطها و اللغات هى: العربية و العبرانية و اليونانية و اللاتينية و حمار تيانو و السريانية بنوعيهما، و يوجد بهاته الخزنة الكتبية كورتان محيط دائرة كل منهما نحو ثلاثة أمتار أحديهما صورة الفلك و أخرى صورة الأرض مرسوم بهما خريطات متقنة مكتوب عليهما بالخط العربى الثلثى الجميل قيل إنهما من مصانع علماء الأندلس.

و بقرب نابلى على مسير نحو عشرين دقيقة فى الرتل بلدة بونباى، و هاته البلدة كانت منذ ألفين سنة مصرا متمصرة و كان أهلها مولعون بالإنكباب على الشهوات و مساواة القلب، حتى أن من ألعابهم فى الملاهى و المراسح أن يخرجوا الحيوانات المفترسة و يلقون إليها

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ١١

بالناس الذين يريدون عقابهم فتتخطفهم الحيوانات و تمزق أجسامهم شر تمزيق و المتفرجون محققون فى البيوت المرتفعة المحصنة من وصول تلك الحيوانات إليهم و هم يضحكون فرحين، و لم يكن ذلك مقصورا على رجالهم بل حتى النساء اللاتى هن أرق طباعا كن يتهورن و ينسطن من مثل تلك المناظر، و تمادى تمرد أهل تلك البلد على جورهم و قهرهم فأرسل الله عليهم هيجان جبل الفزوفيو الذى هو بركانى و هو بقربهم على نحو ثلاثة أميال، فزلزلت بهم الأرض و هم على حين غفلة زلزالا شديدا و هرعوا للفرار إلى الفضاء خارج البلد فأدر كههم سيل العرم من النار التى قذفها الجبل فاحمر الأفق بعد أن أظلم و احلوكك، و طاف عليهم طائف من بحر النار فأهلكها و كل من فيها فى بضع دقائق و تراكت عليها المادة السائلة النارية حتى صار مكان البلد و ما حولها جبلا و امتد إلى البحر و سبحان الملك القهار، و تمادى عليها ذلك الحال و تنوسى أمرها لأن الواقعة وقعت عليها قبل التاريخ المسيحى بقليل، و صار سطح أرضها بطول الزمان صالحا للزرع و النبات ففى عشرة الثمانين و المائتين و ألف هجرية كان أحد الزراعين هنالك يحرق فنبش محراثه فى عروة إحدى الأوانى التى كانت فى البلاد فبحث عليها فترأى له ما ظنه كنزا و تبين أنه كنز رفيع و هو البلد الغابرة،

فيعتد دولة إيطاليا مقداراً من المال سنوياً و كلفت مهندسين بالكشف عن تلك البلاد مع التحفظ على هيئة بنائها و جميع ما يوجد بها و لا زال العمل مستمراً إلى الآن، و إنما كان السير بطيئاً في العمل لأن المادة النارية تحجرت و صارت صلبة مع الإحتراس من إفساد الموجود و تعسر الفرق أولاً بين ما كان من البناء و بين ما التصق به من تلك المادة، فأخرجوا من البلاد كل ما وجد بها إذ ما كشف عليه وجد كأنه على حاله أصله، فأرباب الصناعات و المحلات على الهيئة التي أدركهم عليها الغرق و الحرق و الردم معا و كل الأجسام التي وجدت بقيت على حالها عند مس الهواء إليها سوى الأجسام الحيوانية فإنها عند مس الهواء إليها تضمحل، فجعل العاملون حيلة لإبقاء صور الأجسام بأن جعلوا كلما تفتنوا بمس آلة الحفر لجسم حيواني أتوا بالجص و حلوه في الماء و رفعوا إذ ذاك آلة الحفر عن المحل الذي لمستته و أبقوا الهواء مماساً للجسم الحيواني من ثقب آلة الحفر فينتفش الجسم في الهواء و يبقى محله في المادة النارية خاوياً فيصب فيه الجص و عند جفافه و انعقاده تكسر المادة النارية عنه و تخرج صورة الجسم على ما كان عليه، و رأيت في بعضها بقية من فقرات الظهر و عظام الأصابع لم تبل و مما يدل على جراءة أولئك الأقوام في ذلك العصر و تجبرهم إن وجدت بعض جثثهم على حالة الواقع، حتى كان منها جنازة رجل و امرأة متداخلى الأرجل لكن الرجل لما أدركه الموت انزعج على قفاه و هو ناعط و بقيت المرأة على حالتها منكبة على وجهها و مقعياً على ركبتها، فانظر إلى ذلك التجبر مع سابقية الزلزال و لم يؤثر في شهوتهم حتى أدركهم الهلاك على شهوتهم.

و أما أبنية تلك البلدة فالظاهر أن أغلبها انهدم بالزلزال و ما بقي منها قائماً منه المتصدع و المنشق و منها القائم على أصله، و هيئة بنائهم يجعلون الحائط ضيقاً نحو ذراع فما دون صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ١٢

و السقوف من بناء على هيئة قباب نحو نصف كورة أو أقل تكور، و ينظمون تقابل الأبواب فإذا دخلت باباً إلى دار من الطريق تجد سقيفة مربعة ثم باباً إلى وسط الدار و فيه أربعة أبواب إلى كل بيت، و إحدى البيوت وراءها جنيته و بركة ماء و أسرة النوم من بناء كالدكاكين و جهة الوسادة بناء مرتفع يسيرا على سطح السرير و لا تختلف دور الأغنياء من غيرهم إلا بالكبر و الصغر، و لكل بيت طواقي إلى وسط الدار و كل الطواقي و الأبواب متقابلة. و الحمام الذي رأيت في البلاد هو على نحو الحمامات المعروفة الآن في البلاد الإسلامية و فيه تصاوير على الجدران بالألوان مثل الحمامات بتونس و المغرب، و رأيت محل الحكومة و تحتها السجن، و عند مجلس الحاكم عند رجليه طاقة يطل منها على المسجونين أسفله و السجن مظلم لا يتخلله الهواء و لا الضوء إلا من تلك الطاقة و رأيت الملهى فإذا هو على نحو الملاهى الأوروبية غير أن مسرح اللعب هو وسط الدائرة و هو أسفل مكان المتفرجين و الطرق كلها مبلطة بالحجارة الصلبة المنحوتة و منقسمة على ثلاثة أنحاء: فوسط الطريق منحفظ عن جانبيه لمرور العجلات و مفروض لها على جانبيه سكة لمرور ذات العجلة فيها، و عن اليمين و الشمال محل مرور المشين و جميع عرض الطريق نحو ثلاثة أمتار و في محل مرور العجلات يقسم وسط الطريق بحجارة منحوتة مرتفعة على سطح الطريق بحيث تراها ناتئة على طول الطريق و جميع الطرق مستقيمة لا اعوجاج فيها و تتلاقى على زوايا حادة، غير أن كل طريق لما كانت لا تمر فيها إلا عجلة واحدة حسبما هو مفروض للعجلات فيلزم بالضرورة أن تكون كل طريق لا تمر فيها العجلة إلا لجهة واحدة كي لا تتلاقى، و في محل الإدارة لكشف تلك البلاد محل لوضع الأشياء المستخرجة ثم تنقل من هناك إلى نابلي و توضع في محل الآثار القديمة كما مر و المادة النارية المتصلبة يصنع منها تحف كثيرة في نابلي.

و فيها سوق نافقة و جميع الأماكن المعدة للتفرج إما أن يدخلها الإنسان بأجر قليل أو تكون له تذكرة الدخول من الدولة و الحصول عليها سهل بواسطة أحد الأعيان أو نواب الدول، و قد أعطانا تذاكر الدخول قنسل الترك، و قد اجتمعت في نابلي بأكثر حكمائها و هما «توماسى» و «كتتاني» و كان الثاني يعظم الأول جدا لكبر سنه حيث أنه بلغ نحو الثمانين و لمشيخته عليه، و كانت أجرة كل منهما في كل زيارة ستون فرنكا. و بقيت في نابلي ثمانية أيام و كان المسافر فيها يقدر أن يقيم كل يوم متوسط المعيشة بأربعة فرنك يوماً

للأكل و يقدر أن يأكل في المحلات السافلة بنصف فرنك ما يأكله في المحلات العالية بعشرة فرنك في الأكلة الواحدة، و قد دعاني هناك أحد أعيان البلدة للمسامرة في داره حيث كان حبيبا إلى مصاحبنا من أهل البلد، فرأيت كيفية مسامرتهم و رقصهم، و في آخر يوم من إقامتي بها أعلمت بأن الإبرة المسماة بالبوصلة اضطربت علامة على الزلزال، ثم ركبنا الرتل بقصد بلد رومه و كان ذلك صباحا و لما وصلنا إلى قرية «كزرتا» التي هي قرب نابلي مسير نحو ساعتين في الرتل نزلنا هناك و تغدينا في إحدى منازل المسافرين، و أما صناديق حوائجنا فإنها ذهبت

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ١٣

مع ذلك الرتل إلى رومه و تنتظرنا في الكمرك في محطة الرتل إلى أن نقدم إلى هناك، ثم ذهبنا إلى قصر الملك في بستانه المسمى بقصر «كازرتا» فإذا هو أعظم و أتقن قصر رأيت من جهة التأتق في مواد بنائه المتخذة من الأشياء الخلقية كالمرمر و الرخام و الحجارة الضخمة المنحوتة و إن كان غيره أشد تأنقا من جهة صناعات النقش و التذهيب و التزيين، و هو مربع الشكل كل جهة منه في طول مائتين ميتر و أمام الباب بطحاء عظيمة على جانبيها مساكن للعساكر، فإذا دخلت من الباب تجد القصر منقسما إلى أربعة أقسام و كل قسم في زاوية يشتمل على بطحاء و له مطالع إلى القصر، و المطلع الكبير المعد للوقت الرسمي يشتمل على مائة و إحدى عشرة درجة من المرمم المورد اللون كل واحدة في قطعة واحدة إلا قليلا منها في قطعتين طول كل درجة ثلاثون قدما و عرضها قدمان و ارتفاعها ستة أصابع، و مبدؤ الدرج منفرد فإذا انتهت إلى نصفها رجعت إلى قسمين يمينا و شمالا فينتهيان إلى إيوان عظيم مرفوع سقفه على ستة عشرة أسطوانة من المرمم المزركل في قطعة واحدة ارتفاع الواحدة نحو عشرة أذرع و محيطها لا يستطيع الإنسان الكامل الإحاطة بها بذراعيه، و منه يدخل إلى البيوت الضخام المختلفة أنواع السقوف و كسوة الحيطان و الأرض بأنواع من المرمم أو الطلى أو «الموزايكو» أى القطع الصغيرة من المرمم كل قطعة نحو الأنملة من لون مرصفة على أشكال بديعة، أو من المنسوجات الصوفية أو الحريرية من المصانع الشهيرة في العالم.

و يحتوى القصر على كنيسة و هو ذو ثلاث طبقات و قد تم منه بالبناء و الأدوات داخلا و خارجا ثلثة و الثلثان لم يتم منهما إلا بناء الحيطان و السقوف و بقيا ناقصي الأدوات، و ليس في القصر شيء من الفرش و يحيط به بستان طوله ثلاثة أميال و عرضه قريب منها و في منتهاه جبل منحدره منه عين ماء عظيمة مجعولة على نحو شلالة لانحدار مائها دوى، و إذا قابله الداخل من باب البستان جهة القصر يظهر له من بعد كأنه منارة متصاعدة في الجو من الزجاج الأبيض، ثم ينشأ من ذلك الماء نهر و بحيرات بها كثير من الطيور المائية و أنواع السمك، و يحتوى البستان على مماشى و غياض متقنة ذات أنوار و أزهار كما يحتوى على آجام و غابات و حيوانات للصيد، ثم ركبنا قرب الغروب من هناك الرتل و سرنا نحو إحدى عشرة ساعة و ليس هناك من العمران مثل ما يأتى خبره، بل أكثر الأراضي معطلة و الجبال لا منظر جميل بها و إنما توجد القرى و ما حولها معمورا نسيبا و كانت القرى تبعد عن بعضها في أكثر الأحوال سير نصف ساعة في الرتل. فوصلنا بلد رومه التي هي تحت المملكة بعد نصف الليل و فتشوا في الكمرك رحلنا أيضا مع إنا قادمون من إحدى بلدانهم، و ذلك لأن لكل بلد داء على ما يدخل إليها لمصالحها الخاصة زيادة على ما تأخذه الدولة من الكمرك العمومي، و نزلنا في إحدى منازل المسافرين و أخذنا إليه صناديقنا التي وجدناها في الكمرك غير أننا وجدناها سرق منها برنس و وقع الخلاف بين مستخدمي المحطات فيمن سرقه فجماعه رومه يتهمون جماعة نابلي و هم يتهمون الآخرين و الحاصل أن البرنس ضاع! و سببه

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ١٤

هو خروج طرف منه عن غطاء الصندوق فأمكن للسارق جذبه. ثم أقمنا برومه ستة أيام و اجتمعت بأشهر أطبائها و هو الحكيم «باشلى» الذى هو أحد أعضاء مجلس النواب، و إجمال صفة هاته البلدة أنها بلدة و سبعة سكانها نحو ثلاثمائة ألف نسمة و لهم حضارة على أهالى نابلي، و طرقها كلها مبلطة نظيفة أما الطرق الخارجة عن البلد فهي و إن كانت صناعية غير أنها بها الطين بكثرة و إن لم يعطل العجلات، و أحسن ما يقصد بالترفح عليه في رومه هو كنيسة الكبرى المسماة، «بصان باولو» التي هي أشهر مباني العالم في ارتفاع

قبتها و ضخامة بنائها، و هي مستطيلة الشكل ذات قباب كثيرة و وسطاها هي أعلاها و حيطانها مكسوة بقطع من المرمر منه الخلقى و منه الصناعي كل قطعة في طول نحو عشرة أذرع و عرض نحو خمسة أذرع و بعض الحيطان مكسو بقطع من «الموزايكو» متقنة التصوير، و القباب كلها مكسوة بذلك أيضا و القباب مرفوعة على أسطوانات من المرمر الخلقى و بعضها صناعي و ليست مستوية السمك و بعضها في قطعتين أو ثلاثة و محيط كل واحدة من الخلقية أربعة عشر شبرا و قواعد القباب مبنية بناء ضخما جدا بحيث أن هاته الكنيسة قد أفردت بتأليف خاص من أحد حذاقهم لما اشتملت عليه من إتقان البناء و ضخامته.

و بلصقتها قصر البابا و يسمى «الفاتيكان» و هو أكبر القصور الملكية يحتوى على إثني عشر ألف بيت و به خزانه كتب ربيعة هي أحسن خزائن إيطاليا و بها كتب كثيرة بالخط منها العتيق و منها نسخة من الإنجيل باللغة الحميرية العربية مكتوبة قبل البعثة بنحو مائتين سنة، و فيها نص الآية القرآنية حكاية لقول عيسى عليه السلام و هي قوله تعالى: وَ مَبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ [الصف: ٦]. و قد اطلع على تلك النسخة أحد الإنكليزيين في هذا القصر و رويت ذلك عن ثقة روى عنه، و ذلك القصر فيه من غرائب المصنوعات و الذخائر الثمينة شيء كثير حيث كانت تجبى إلى البابا جميع النصارى الكاتوليك و ملوكهم من ممالكهم تقربا إليه لملكه الروحاني زيادة عن الملك الجسماني الذي كان له في مملكة رومة، و قد زال ذلك باتحاد إيطاليا و آخر بابا كان جامعا بين الملكين هو «بيو التاسع» و هو الموجود حين مررنا على رومة لكنه منذ افتك منه الملك الحسى بقى منعكفا في قصره و له التصرف في الديانة فقط على سائر الكاتوليك في جميع الممالك سواء، و أبت له دولة إيطاليا جميع ما في قصره و ما في الكنيسة من الذخائر و استولت على كل ما عدا ذلك،

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ١٥

و بعد أن تفرجنا في الكنيسة الكبرى سألنا هل يمكن التفرج في قصر البابا؟ فأجبنا بأن ذلك اليوم لا يتيسر بل نعود بعد أيام و كان ذلك بعد استئذان البابا، و من غد اجتمعنا بالمطران درعوني الذي هو من نصارى الشام و له دير في أعالي رومة و معه كثير من نصارى الشام المتقسسين و هو ذو أخلاق لطيفة فصيح بالعربية و كذلك من حوله، و سبب الاجتماع به أنه ساكن حذو كنيسة متقنة الشكل و البناء مما يقصد بالتفرج عليه فحصلت المعرفة معه من هناك، و كان مما ذكر لنا أن البابا يريد الاجتماع بنا عند الدخول إلى قصره و أنه كلفه بالحضور ليكون ترجمانا عنه فاعتذرنا إليه بأنا على سفر و لا تيسر التأخير لذلك فلم ندخل القصر و لا اجتمعنا بصاحبه إذ لا- ملجىء إلى تعظيمه، مع أن الداخل عليه يلزمه تعظيمه كتعظيم الملوك بل ملوكهم يؤدون إليه مزيد التعظيم كأنه هو ملكهم، و لا داعى لذلك إلا أمر ديني، و ديانتنا الإسلامية تمنع التعظيم الذي يكون مسببا عن ذلك.

و اعلم أنه منذ استولت دولة «الصارود» على جميع ممالك إيطاليا و أجرت الحرية حتى في الديانات فالداخل للكنايس لا يلزمه تعظيم شعائرها كما كان من قبل بل لا- يفعل شيئا يخالف ديانتها فكأنه يتفرج في قصر من القصور، كما أنه ليس له أن يفعل شيئا من الإهانات، و حيث أن المسلم يدخل إليهم بأمان فليس له التعرض لأذيتهم كما أنه ليس له خيانتهم، ثم إن أمام كل من قصر البابا و الكنيسة الكبرى بطحاء عظيمة و سبعة جدا و بها عدة فوارات و أشجار و فوانيس و هكذا كل بلاد تشعل بالفوانيس ليلا، و يشق بلد رومة نهر يحمل القوارب و إذا طمى ربما أضر بالمجاورين، و هو آت من جهة الشمال ذاهب جهة الجنوب، و خارج البلدة الآن الكنيسة القديمة و هي الآن خراب و إنما يوجد منها أساسها و أطلال من جدرانها و قد علت الأرض عليها كثيرا فكشف عنها و بقيت عبرة للناظرين و هي أوسع من الكنيسة الموجودة الآن الكبرى، كما يوجد بقربها ملهى قديم مثلها في الخراب على نحو ما سبق في صفه ملهى بونباي، و قيل إنه دار الندوة إذ ذاك و هو كبير جدا، و في رومة أيضا منزه عمومي في الجبل ذو مماشى و حدائق و فوارات في أعلى الجبل و هو نزه، أما غير ما ذكر فليس في رومة معامل أو أماكن تقصد للتفرج سوى ما هو خارجها من آثار بناآت الرومان في القديم و فيها ملاهى كثيرة متقنة اللعب لشهرة الطليانيين بذلك على غيرهم، و دور الأهالي غالبا ليست بمتقنة النظافة و أسعارها في السكنى و المأكل و غيرها عالية بالنسبة لبقية إيطاليا، و هواء رومة و خم بسبب أن المرج التي قربها يركد فيها الماء

لانخفاضها عما يحول بينها وبين البحر، كما أن الكنائس بها كثيرة و لكل جرس فإذا دق جرس الكنيسة الكبرى دقت الأجراس من جميع الجهات و صار لها دوى يقلق الساكن و يقرب من ذلك نابلي أيضا، ثم إنا قدمنا إلى مجلس النواب الذي كان إذ ذاك مفتوحا و هو يشتمل على خمسمائة عضو فإذا هم أناس يتدبرون في أمرهم و يتشاورون فيه بغاية الإطلاق، و صادفنا في حضورنا البحث في نازلة مالية و هي أن وزير المال عرض على المجلس أن دخل الدولة غير واف بمصاريفها و لتعديل ذلك تلزم الزيادة في الدخل، و قد

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ١٦

رأت الدولة أن الأنسب في الزيادة هو زيادة الضريبة على السلاح فوقع نزاع في أصل الزيادة، و كان أشد المضادين نواب جزيرة «سيسيليا» إلى أن قال أحدهم: «إنك أيها الوزير لا تفكر إلا في الزيادة في الدخل بوضع الضرائب على السكان الذين أفقرتموهم لكي تأخذ أنت المرتبات الوفرة من دماننا و كدنا إذا لم نقل بصرفك الأموال في شهواتك و مخفياتك»، فنهره رئيس المجلس و ألزمه الأدب في الكلام فعاد إلى كلامه و قال: «نعم يأخذون خفيه و يحملوننا ما لا نطبق في أغراضهم و شهواتهم». فأسكته الرئيس و أطال عليه اللوم و النكير بعبارات شديدة حتى وسمه بالوحشية و أنه يضطر إلى إسكاته أو إخراجة من المجلس إن لم يلتزم آداب البحث فضج حزب المتعرض و قالوا: «ليس لكم منعنا من الدفاع عن حقوقنا و ما أتينا إلى هنا إلا لحفظ حقوق الأمة من التلاعب بها»، فأجابهم الرئيس بأن الحقوق يتوصل إليها مع سلوك الأدب فانقادوا إليه و طال النزاع في النازلة و أقيمت للمفاوضة يوما آخر، و كان مكاتبو الصحف جالسين يحصون جميع ما يقال و ما يقع حتى كتبوا نفس حضورنا لأننا كنا بلباسنا التونسي و ذلك أوجب التفات الأنظار إلينا في أي مكان قصدناه، حتى أن بعض البلدان التي ليس لأهلها تهذيب تام كان يزدحم علينا في الطريق العوام إلى أن يوقفونا بازدحامهم و أكثر ذلك في أهالي نابلي، إلى أن التزمت فيها أن لا أخرج في الطريق إلا راكبا في عجله و ذلك لعدم تعودهم على رؤية مثل لباسنا.

و صفه هيئة مجلس النواب هو بيت كبير جدا يميل إلى الطول أكثر من التربع و سقفه قبة مرتفعة شاهقة مؤنق في جدرانها و سقفه و أرضه و في وسط صدره عرضا سدة ارتفاعها نحو متر على الأرض و فوقها كرسى و أمامه مائدة، و يصعد إلى ذلك المحل بدرج يمينا و شمالا و هذا محل جلوس الرئيس و حوله كتبة و كراسيهم و موائدهم على الأرض، و بقربهم في وسط البيت كراسى الوزراء و في وسط البيت كراسى أربعة كتاب مخصوصين بمعرفة كتابة سريعة يتناوبون إثنين بعد إثنين في كتابة كل ما يلفظ به متكلم في المجلس، و بقرب الرئيس منبر مرتفع قليلا يصعده خطبائهم على التناوب بعد الإذن لهم من الرئيس يتكلمون في مصالحهم، ثم كراسى منصوبة صفوفها صفا وراء صف على نحو دائرة مستطيلة ينتهي طرفها حول الرئيس، فالصف الأول كراسيه على الأرض و الصف الذي وراءه كراسيه على سدة من خشب أعلى من الذي أمامه بدرجة من خشب ثم الذي وراءه أعلى منه و هكذا إلى نهاية الصفوف، و الدرج التي يصعد منها إلى الكراسى مقسمة لتلك الدائرة و كل قسم من الكراسى أمامه مائدة مستطيلة و فيها لكل كرسى فجر و دواة و أقلام لما يحتاجه صاحب الكرسى و كل كرسى عليه عدد مخصوص مرسوم عليه بلون مخالف للون الكرسى و في أعلى البيت محيط به من جهاته إلا-الجهة التي بها الرئيس رواقات يجلس بها المتفرجون و لصاحب الملك بيت بإزاء محل المتفرجين يأتيه إذا أراد كما له كرسى في المجلس، و أما وظيفة المجلس فسيأتي الكلام عليها.

ثم رحلنا من رومة و قصدنا «ليفورنو» راكبين الرتل فإذا بقرب رومة آجام راكدة فيها

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ١٧

المياه و فيها من البقر شيء كثير مسرح هناك للأهالي بدون حراس مخصوصين لكل أحد بل على المكان قيمون يؤتى إليهم بالبقر و يستودع هناك إلى وقت احتياج أصحابه، و منه ما لا مالك له فيتنازل هناك و تباع منه الدولة لمن أراد الشراء و مررنا في سيرنا على مرسى «بيشى تافيكيا» التي هي أقرب مرسى طليانية إلى رومة قاعدة المملكة و في آمال مهندسيهم أن يفتحوا خليجا من تلك الجهات

من البحر ليصل إلى حدود بلد رومة لأن الأرض هناك منخفضة و به ينصلح الهواء من تعفن المروج التي يركد فيها الماء، و استمر الرتل سائرا بقرب الشاطيء إلى أن وصلنا إلى «ليفورنو» في الساعة الثالثة قبل نصف الليل بعد مسير إحدى عشرة ساعة، و قد توقف الرتل في المسير عندما وصلنا إلى جسر على أحد الأنهر حيث أن فيضان النهر هدم الجسر فزلنا من الرتل و عبرنا النهر مشاة على أخشاب ضيقة، و الحال أن النهر عريض و الوقت ليل و المطر نازل ثم ركبنا رتلا آخر مهيا في الناحية الأخرى من النهر إلى أن وصلنا إلى «ليفورنو» فإذا هي بلدة واسعة الطرق نظيفتها متقنة التحصيب و التبليط بحجارة منحوتة مستوية و بها قليل من البطحات الوسيعة أشهرها ما تسمى «بياص دي كافور» و كافور هذا وزير إيطاليا الذي جد في وحدتها الأخيرة فرسم تمثاله بتلك البطحاء و سميت به و كذلك البطحاء الكبيرة، و يخترقها خندق به ماء البحر و عليه جسر و هذا الخندق كاد أن يكون مخترقا لجميع جهات البلد و ذلك لفائدتين.

الأولى: هي أن البلد أرضها مسبخة ندية فذلك الخندق تنجذب إليه المياه مما حوله و يحصل جفاف الأرض و ما أخرج من ترابه الكثير علت به أرض البلاد.

و الثانية: أن البلد كانت من أهم مراسى التجارة لإعفائها من الأداء ترغيبا في عمرانها، فتكثر فيها السلع و تحمل في القوارب و تسير في تلك الخندق من السفن إلى المخازن إذ ماء البحر بالخندق عميق.

و بخارجها على الشاطيء منتزه عمومي ممتد نحو ميلين به حدائق الأشجار و الأنوار و مغاطس من البناء أو الخشب على البحر و قهاوى و ملاهى تنتدبها الناس زمن الصيف من أهالى البلد و غيرهم، و الطريق للمارة و سيع جدا و على حده قصور شاهقة ذات منظر جميل أمامها الطريق و دونها الحدائق و من ورائها القهاوى و الملاعب و المغاطس و من ورائها البحر و هي في الصيف ليلا و نهارا منزه مريح، و يسمى ذلك المكان «البساجاتا» و «برت مارى».

و في البلد خزنة للماء مسقوفة ببناء ضخمة شديدة النظافة حتى يرى الرائي في قعر الماء مع عمقه كتابة على الحجر بيته، و الماء في غاية الصفاء مع اتساع الخزنه و محل استقرار الماء منقسم على عدة أقسام، فيدخل الماء المجلوب من عين غزيرة إلى أحد الأقسام إلى أن يتملىء ثم يخرج منه من أسفل إلى قسم آخر، ثم منه من أعلى إلى قسم آخر و هكذا بحيث أن كل قسم يكون مملوءا و لا يخرج منه إلا بقدر ما دخل فيه لتصفية الماء و تروقه حتى لا يخرج إلى عموم البلد إلا بعد انتهاء ترويقه، و هاته البلدة موقعا على البحر و هو غريبها

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ١٨

و هي من المراسى الشهيرة للتجارة و الحرب و قد بنى بها ميناء مأمنا للسفن ذات حوضين، قيل أنفق عليها مائة و عشرون مليوناً فرنكا و بها مرفأ للسفن و لإنشائها، و لما وصلنا إلى البلد وجدنا الوزير حسين الذى قصدنا البلد لأجله غائبا في «فيرينسا» بدار سكناه حيث كان تابعه هناك، ثم وادعت صديقى الشيخ «سالم أبو حاجب» حيث كانت مأموريته هناك، و ركبت بكرى ليلة و صولنا قاصدا الوزير المذكور في بلد «فيرينسا» و أبقيت غالب رحلى و أحد تابعى هناك لاحتمال العود، فسرنا في الرتل ثلاث ساعات و كان حول «ليفورنو» بعض غياض ليست حسنة جدا.

و مررنا على بلد «بيزة» مناخ علم الطب سابقا، فإذا هي من مدن إيطاليا الشهيرة و يخترقها نهر و حوله منارة و قد انفردت هاته البلدة بشيئين.

أولهما: أغرب شىء من مباني العالم و هو الصومعة الوحيدة المائلة فإن هاته الصومعة يراها الناظر مائلة ميلا كليا إلى جهة الجنوب حتى يخالها أنها ساقطة لا محالة، و هي ليست بمرتفعة جدا و بناؤها من حجارة منقوشة و مرمر و درجها كل في قطعة واحدة من المرمر، و هي في وسط بطحاء قرب كنيسة و أسفل قاعدتها مائل أيضا غائر في الأرض من جهة الميلان و مرتفع من مقابله و قد اختلف النقل في سبب ميلانها، فقيل: إنها بنيت كذلك و هو من مهارة صناعتها و معرفتهم بفن الأثقال، و قيل: إنها بعد ما بنيت

انخفضت بها الأرض من إحدى جهاتها فمالت. و على كل فاسبب عدم سقوطها هو عدم خروج قطر محيطها بالميلان عن مركز قطبها، والحاصل أنها من عجائب المناظر. و قيل إن ميلان أعلاها عن مساواة أسفلها أبع ميترات، و مثلها في الميلان صومعة أخرى خارج البلد جهة الشرق لكنها ليست في إتقان الأولى و لا في ارتفاعها، و قد بنى حولها بناء ملاصق لها لتوقع سقوطها و بقي أثر الميلان ظاهرا.

و ثاني الشيئين الغريبين: الكنيسة، و هي ليست بكبيرة و لكنها كثيرة التائق و الروتق سيما من ظاهرها و زيادة غرابتها في الصدى الذي يحصل فيها من الأصوات إذ يدوم فيها الصدى و يعتلى على وجه خارق للمعتاد و السبب فيه شكل البنا و طلى الحيطان.

و بعد أن جاوزنا «بيزة» بدلت الأرض غير الأرض التي عهدنا منظرها في بلادنا و ما مررنا عليه من كيفية العمران و اتصاله و إتقانه و لا يوفى الوصف و القلم بتصويره و تقريبه، و بالجملة فليس أن كل قطعة من العمران لم نعهدنا بل عهدنا مثلها و لنا قطع تضاهى أفراد تلك القطع سواء كانت في البساتين أو في القصور التي بها أو في إثارة الأرض و تعميرها، لكن الذي لم يعهد لنا هو اتصال ذلك العمران و امتداده و تماثله إلى ما لا يحيط به البصر مع تحسين جهات الإتصال العامة، فإنها تحدث من ذلك هيئة إجتماعية لها اعتبار زائد فوق اعتبار قطيعات منفردة و إن بلغت من الإتقان ما بلغت.

ثم وصلنا إلى «فيرينسا» فإذا موقف الرتل بها جميل أنيق و إذا بالبلد وسيعه لكن طرقها

صفحة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ١٩

القديمة ضيقة، و أما الجديدة فواسعة شديدة النظافة و تهذيب أخلاق السكان و الحضارة و يخترقها نهر على جانبيه رصيف منحوت، و في مجرى الماء عرضا عوارض مبنية لحصر الماء كي يكون عمقه حدا محدودا و نشأ من ذاك خريز عظيم له دوى، و على جانب النهر منزه عمومي ممتد أزيد من ميل و به فؤارات و حدائق و أنوار و في نهاية المنزه عند ملتقى النهر المذكور بجدول صغير بطحاء بها قبة من رخام صغيرة بلا حيطان مرفوعة على أسطوانات جيدة رخامية عالية على الأرض، و بوسطها صورة مجسمة من الرخام لأحد أمراء الهند الشبان و ملونة بلونه و لون ثيابه الرسمي، و كان ذلك الأمير سائحا في أوروبا بعد زيارته لملكه الإنكليز متداويا فلما حل «بفيرينسا» مات و كان مجوسيا، فأرسلت عائلته مكلفا إنكليزيا لرسم صورته في ذلك المحل الذي أحرقت جثته فيه على عادة المجوس و دفن رماده تحتها، و كان من عاداتهم أن مكان الإحراق يكون في ملتقى نهرين فلذلك فعل به ذلك هناك و جعل على ذلك المحل قيم و وقف و كان ذلك في عشرة التسعين و المائتين و ألف.

و في حدود البلدة من الجنوب منزه آخر في جبل مرتفع نزه جدا ذو بساتين و قصور و طرق وسيعه سهلة الصعود بالكراريس و في منتهى ارتفاعه بطحاء وسيعه ذات مصاطب و منازل و بقربها كنيسة قديمة مرصفة الحيطان من خارج بالرخام الأبيض و الأسود تقصد بالتفرج، و جملة ذلك الجبل منزه، و لما صعدت إلى هناك أحسست ببرد شديد لارتفاعه و لبرد الزمن.

و من أحسن ما بالبلد قصر القلرية الذي به بيت أغلب حيطانه من البلور، و هو قصر ضخم و به من التصاوير المرسومة في الخرق المنسوجة مع النسج و في الورق شيء كثير و كذلك المسجدة من الحجر و النحاس، و قال بعضهم: إن مجموعها مليون من التصاوير، كلها في غاية الإتقان تعتنى لها المصورون من الآفاق لتقليدها، و مما بها من التصاوير صور الملوك من جميع الآفاق في أعصار مختلفة، و منها: صورة محمد باشا الأول والى تونس، و يتصل هذا القصر بقصر سكنى الملك عند استقراره الحكومة هناك، و هو قصر كبير ليس بغريب أصله لأحد السكان فاشترى منه لاستقرار الملك، و هو لا زال مشتملا على جميع المرافق مثل ما تقدم في قصر نابلي.

و من غرائب البلد ارتفاع قبة كنيسة بها مبنية من ظاهرها بالرخام الأبيض و الأسود على أتقن صناعة، و بها من الأسطوانات الجيدة اللاصقة بذلك الرخام و من النقش الغريب فيه ما جعلها من أتقن البنآت، و ارتفاع القبة مائة و سبعة عشر ميتر و بإزائها صومعة جيدة ارتفاعها سبعة و سبعون ميتر و هي في البناء على نحو الكنيسة، و بالجهة الغربية منها صومعة أخرى أعلى منها و من القبة أيضا، و

بالبلدة عدة ملاهي حسنة. وقد اشتد البرد في هاته البلدة بالنسبة لما اعتدناه و قد أقمت بها ضيفا عند صديقي الوزير حسين التونسي و ترجمه هذا الوزير باختصار: هو رجل من الجراكسة أتى إلى تونس و سنه دون العشرة فربى في سراية

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ٢٠

الوالى حسين باشا و أدخل إلى مكتب المهندسين العسكرية فحصل مشاركة جيدة في النحو و الأدب و الفقه و مهارة في الفنون العسكرية و إجادة للغه الفرنسية، ثم وظيف في عساكر الخيالة بمعية أمير لوائها إذ ذاك خير الدين باشا و سافر معه إلى فرنسا في خصام محمود بن عياد في ولاية أحمد باشا، ثم ولى رياسته المجلس البلدى بحاضرة تونس و أحدث في الحاضرة إصلاحات عديدة في ولاية محمد باشا، ثم عند ولاية الصادق باشا ولى رئاسة مجلس الجنايات و مستشارية الوزارة الكبرى و عضوية المجلس الخاص و المجلس الأكبر، ثم استعفى من الجميع عند إيقاف القوانين و رحل إلى أوروبا و ساح سياحات واسعة إذ كان قبلا عرف أكثر ممالك أوروبا كألمانيا و الدنمرك و السويد و هولندا و البلجيك و إيطاليا و فرنسا و إنكلتره و الجزائر و الأستانه، في سفارته منفردا أو مع خير الدين باشا سفيرا عن الوالى المذكور، و عند استعفائه المذكور رحل إلى المغرب و إسبانيا و النمسا و روسيا و أمريكا و مصر و الحجاز، ثم استدعته الحكومة عند ولاية خير الدين وزيرا مباشرا هو و غيره ممن ابتعدوا عنها، فولى مستشارا في القسم الثاني من الوزارة، ثم سافر إلى إيطاليا لخصام ورثه نسيم في حساب مورثهم مع الحكومة التونسية كما تقدم، و أقام «بليفورنو» حيث مات المورث و لا زال في الخصام إلى الآن، ثم لقب بوزير الإستشارة و مستشار المعارف و هو ذو أخلاق كريمة و صفات عظيمة و معارف واسعة و فصاحة مريعة له عدة رسائل في كثير من المسائل، و كانت إقامتي عنده في «فيرينسا» في إحدى منازل المسافرين الضخمة قريبا من النهر، و اجتمعت بأشهر حكماء البلد المسمى «شيف» و بعد أن استقرأ تقرير المرض و استخبر الجسم أشار إلى في مضمون كلامه أن المرض ليس بمخوف، كما أنه من الأمراض المزمنة و أنه يدافع بترتيب المعيشة في الأكل و المسكن و ارتياح الفكر و البدن و الإبتعاد من هواء البحر و حسن سكنى الجبال و أن كثرة الأدوية مضر قليل الجدوى و لقد صدق.

ثم طلبت تلغرافيا بقيه رحلي و تابعي و سافرت قاصدا باريس مارا على تورين للإستراحة بها، فركبنا الرتل صباحا و سرنا في الوهاد نحو الساعة على ذلك المنظر البديع ثم تصاعدنا في الجبال و كان للرتل حينئذ مزجيتان و مهما ازددنا تقدما في الإرتفاع إلا و ازداد المنظر بهجة و رونقا، إلى أن انتهينا في الصعود فكان منظرا ترتاح له النفوس و يجلى عن القلوب كل بؤس، يا له من جمال و يا لله من بدائع صنع بتكوينه و بخلقه بأعمال الرجال، فالقرى البهيجة منتشرة على مد الأبصار و الأشجار تمد أغصانها لتناول الدرارى من الأفلاك تخالها بقايا قد انتشرت منها من الثمار، إذ قد استعوضت عن خضرتها الزبرجدية بالثلوج الياقوتية و الأرض و الجبال قد بسط عليها بساط الفضة الزلال مع الإنقان في تنضيد الأشجار و إثارة الأرض بالحرث و تدفق المياه من ينابيع العيون، و سيول أمياه الثلوج المذابة المنحدرة في جداول ثم نهيرات ثم أنهر متبحرة، و لا يسير الرتل نصف ساعة إلا و يقف على قرية نضرة و تارة يمر حدو رواشن القصور، و أخرى حول سطوح الديار و طورا ترى البلدان

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ٢١

تحتك في أسفل سافلين و هكذا مناظر بديعة مختلفة تتوالى كل لحظة ثلاث ساعات في الجبال و على الإجمال أن السفر في جبال أوروبا المتمدنة ذات العمران ليس له من لذة عندى توازيه سيما مع الركوب في الرتل في الطبقة الأولى في مخدع منفرد للشخص و أصحابه، و على الخصوص إذا كان معه صديق يساجله في سائر المقاصد فإن ذلك من نعم الدنيا الكبرى، و من هناك حجبت عنا الشمس بكثرة الأبخرة المتصاعدة من الجبال و الثلوج ثم نزلنا إلى الوهاد بعد أن جزنا في الجبال صعودا و نزولا خمسة و أربعين نفقا، فمنها: ما يسير فيه الرتل عشرة دقائق، و منها: ما يسير فيه دقيقتين. و كل نفق مظلم و يشتد ظلامه و يخف حسب طوله.

و بعد أن سرنا في الوهاد نحو ساعة و تكاثر نزول الثلج وصلنا إلى بلد بولونيا و هي بلدة ضخمة لكن أبنيتها و طرقها ليست بجميعة سيما القديم منها و أغلبها على ذلك النحو، نعم بها منتزهات نزهة، و أغلب الطرق يحفها يمينا و شمالا رواقات لشدة حرها صيفا و

شدة بردها و كثرة ثلجها شتاء فتتقى المارة بتلك الرواقات، و فيها موقف للرتل عظيم جدا لأنها مناخ للتجارة لتوسطها بين بقية ممالك إيطاليا و سويسرة و فرنسا و النمسا و ألمانيا، فترد إليها الأرتال من الجميع، و نزلنا في الموقف و تغدينا في محل الأكل هناك و كان وقوف الرتل نصف ساعة، ثم سرنا إلى تورين في ذلك المنظر البهيج المنبسط على الوهاد لكثرة إتقان الزراعة و إثارة الأرض و تعميرها و كثرة الأبنية في الأراضي الزراعية كل ذى أرض له فيها بناء مع تحسين شكله و تزيين ظاهره، و مع ذلك منظر الجمال في الجبال أبهج، و عند ما أراد الليل أن يسدل حجابته تبدى وجه الغزالة محمرا من برقع السحاب على وجه الأفق فإله من منظر بديع يشهد للبارى تعالى بحسن الصنيع، و ما ودعنا نور الشمس إلا بعد ما استخلف ضياء البدر المنير إذ كان ذلك أواسط شهر ذى القعدة فتفضض الأفق و النواحي ببريق البدر، و كان جمال الليل مزهرا في تلك المناظر الجميلة مستمرا إلى أن وصلنا إلى موقف الرتل بتورين بعد نصف الليل، فإذا بذلك الموقف أبهى و أبهج و أضخم من جميع ما رأيناه سابقا.

و استمر سير الرتل من مبادئ متعلقات الموقف إلى أن استقر فيه أزيد من عشرة دقائق فكنت ترى فيها المزجيات و المركبات منبثة في جميع الجهات مائسة لأركانها و الرتل وارد و صادر من كل أوب، و محل نزول الركاب هو ساحة عظيمة مرفوع سقفها على أعمدة من الحديد المستطيلة من قضبان من الحديد مرصف فيها الزجاج و الفوانيس موقودة بالغاز تضيء كالنهار، فاسترحنا في بيت الجلوس إلى أن نزل رحلنا في الكمرك و فعلوا في تفتيشه ما فعل في البلدان السابقة، ثم ركبنا أحد الكرايس الكبيرة المعدة لنقل الركاب إلى منازل المسافرين لأن كل منزل كبير له كرايس كبيرة تسع الواحدة ثمانية من الركاب فما فوق تحملهم من المواقف إلى المنزل و العكس، و ذهبنا إلى المنزل فلم نجد لائقا فانتقلت إلى منزل آخر حسن و أقيمت بهاته البلدة يومين و هى مصر عظيمة ذات إتقان فى الأبنية و المساكن و الطرق.

و من خصائصها أن طرقها تكاد أن تكون كلها متقابلة تتقاطع على التريبع بزوايا

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ٢٢

مستوية، كما أن من سماتها أن طرقها تكاد أن تكون كلها محفوفة برواقات يمينا و شمالا قائمه سقوفها على أعمدة من البناء أو الحجارة المنحوتة و لا يمشى الراجل إلا تحتها، و فوقها أبنية القصور و المساكن و إليها تفتح أبواب الحوانيت و الديار و غيرها، و أواسط الطرق للركاب أو العابر من جهة إلى أخرى. و أعظم بطاحها البطحاء التى أمام قصر الملك و هى متسعة جدا فى صدرها القصر الملكى و على جانبيها مساكن للعساكر، و الجهة الرابعة قبالة القصر فى وسطها طريق كبير و عن يمينه و شماله ديار و منزل المسافرين الذى نزلنا فيه، و فى وسط البطحاء فوارات و أول ما رأيت «الترموى» فى هاته البلدة. و هو مركبة ذات عجلات صغيرة من حديد تجرى فى صفحات من الحديد غائرة فى الأرض ممتدة مع الطريق إلى نهاية ما يريدون إيصال السير إليه، و يجرها إثنان من الخيل و لهم فى كيفية إدارتها عند الوصول إلى نهاية الطريق كى ترجع إلى المكان الذى ابتدأت منه كفيات.

فإحديها: أن فى محل الإدارة يكون وقوفها على دائرة من الحديد ذات قطب تدور عليه بسهولة فيإدارة الدائرة تدور المركبة.

و ثانيها: أن المركبة يكون مقدمها و مؤخرها سواء فعند بلوغ النهاية من الطريق تحل الخيل الجارة من تلك الجهة ثم تربط من الجهة التى كانت مؤخرها و تسير المركبة راجعة إلى المكان الذى ابتدأت منه.

و ثالثها: أن تكون الصفائح التى تجرى فيها العجلات فى نهاية الطريق مرسومة على نحو دائرة متسعة، فتدور بها الخيل إلى أن تعود إلى الطريق الذى جاءت منه، و كل كيفية من هاته فى طريق خاصة و بلد خاص و سبب أعمال هذا الطرق هو لتسهيل جر المركبة على كبرها إذ يركب بها نحو العشرين نسمة فى داخلها و على سطحها نحو نصفهم، و لا يجرها سوى فرسين و هى وسيلة كبرى لترخيص أجرة الركوب و سهولة الإنتقال، فيقف فى مراكز معلومة كما تقف لكل من يطلب الوقوف للركوب أو النزول و يؤدى الأجرة زهيدة نحو ثلاثين سانتيم أى ثلاثين من تجزئة الفرنك إلى مائة، هذا إذا كان المكان بعيدا و أما إذا كان قريبا فبنصف ذلك المقدار، و القرب و البعد على حسب اتساع البلد و امتداد ذلك الطريق لكن القريب على كل حال لا يقصر عن الميل. و هاته البلدة

بها نهر عظيم و منظره خارج البلد بهيج و بقربه فى إحدى تلك الجهات منزه عمومى كبير نزه و جبل به أماكن للأكل و القهوة، و قصر الملك حسن جدا و كبير متسع مونتق فى تزويقه بالذهب و الألوان و به جميع فرش و حوائجه، و قد كانت هاته البلدة هى قاعدة مملكة «الساردو» الذى استولى على جميع إيطاليا و اتحدت أخيرا تحت ملكها، و بها خزنة للكتب عظيمة جدا و عند ما دخلتها علمت كبير الفرق بين أهالى هاته البلاد و أهالى نابلى، فإن الثانية لما دخلت خزنة كتبها لم أجد إلا أفرادا لا يتجاوزون جمع القلعة و هاته لما دخلت إلى خزنة كتبها وجدتها مفعمة بمئات من الرجال و قليل من النساء كل منهم منكب على المطالعة فى كتاب و لا تجد حسا صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ٢٣

لواحد إلا همسا لكى لا يشوشوا على بعضهم، فمن مطالع و من مقابل و من ناسخ و من مفكر و الكتاب بين يديه، فعلمت أن أهالى هاته البلدة معارفهم أوسع، و سوقها لديهم أروج و ذات الخزنة كتبها أكثر مما رأيت سابقا، و بها مصاحف كريمة ذات خطوط أعجمية أنيقة مذهبة و مونقة للغاية القصوى و لها صناديق و وجهها و سقفها من الزجاج مقفولة لحفظها و لا يحلها إلا القيم عند التأكد، ففتحها لى و تشرفت بها.

ثم رحلنا من هاته البلدة قاصدين بارييس فى مرحلة واحدة و لما كانت المرحلة بعيدة آثرت كراء مخدع فى الرتل ذى فرش و مستراح و لزم لذلك إعلام مدير الرتل من قبل وقت الركوب لكى يحضره على الصفة التى نريدها و لكى يعلم موقف الرتل فى حدود فرنسا بإحضار مثله فى رتلهم حيث أن الركاب ينتقلون هناك من الرتل الطليانى إلى الرتل الفرنساوى، فركبنا فى الساعة الثامنة بعد الظهر ليلا فى مركبة ذات مخدع له ثلاث مساطب فرشها حريرية و كل مسطبة تفتح فتستطيل إلى أن تصير فراشا له وسادة و قد اخترتها بحيث يكون الراكب فيها مواجهها إلى جهة السير، لأن عكسه يورث لى دوارا. و فى وسط المخدع باب يدخل منه إلى محل ذى مستراح فى أحد جهتيه و مقابله محل ذو أنبوب للماء يفتح و ينغلق يجرى منه الماء و ذو إناء ينزل منه الماء المغسول به و به مرآة بحيث يستطيع الإنسان التوضى هناك و إصلاح لبس ثيابه، و فى المخدع أيضا مرآة و مائدة تفتح من جهة الحائط الموالى لمحل المرافق حتى أن الإنسان يقضى هناك جميع حاجاته بغاية الراحة، و إنما رفعنا معنا مناديل الوضوء و بيت إبرة لمعرفة القبلة فى صندوق صغير من الجلد فيه بعض الثياب و مناديل الأنف، و إذا حان وقت الصلاة نصلى بلا تعب سوى أن الأتباع ينزويون إلى جهة غير القبلة و لمثل هذا الإطلاق يتحرى الإنسان فى الركوب مع الرفقاء لكى لا يكون عليه حرج فيما يريد، كما أنه إذا حان وقت الأكل و وقف الرتل فى إحدى المواقف على البلدان ننزل إلى محل الأكل فنجد فيه ألوان الطعام و الفواكه فنشتري ما نريد و نحمله إلى مخدعنا لكى نأكل بالإستراحة إذ الأكل فى المواقف يلزم أن يكون عاجلا خوف سفر الرتل، و الرتل و لئن كان يقف بعد كل نحو نصف ساعة أو ساعة على البلدان، غير أن وقوفه لا يطول إلا بقدر ما ينزل الركاب القاصدين تلك البلدة و يركب منها غيرهم أو أخذ المزجية الماء أو الفحم أو إبدالها بغيرها إذا تمت ساعات نوبتها بحيث أن الحصاة أطولها عشر دقائق، أما فى وقتى العشاء و الفطور فيقف الرتل نصف ساعة أو أزيد بقليل و يعلم الركاب جميع ذلك من المنادى الذى ينادى عند وقوف الرتل رافعا صوته بقوله: «بلد كذا»، و يسمى البلد الذى وقف عليه و كذا دقائق، أى يقف كذا دقائق، و يفتح الأبواب للمركبات فينزل من يريد النزول و لو لقضاء ضرورة و يرجعون على عجل.

و استمر بنا السير إلى أن وصلنا لجبال المنسنى الشاهقة و طفق الرتل يجرى بين صعود و نفوذ فى أنفاق واحدا بعد آخر إلى أن جاز فى نفق استمر فى الجرى فيه خمسة و عشرين دقيقة غير أنه دون السير المعتاد و هو أطول نفق فى أوروبا و صناعته من عجائب صناعة صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ٢٤

الهندسة، إذ هذا الجبل واقع فى الحد بين فرنسا و إيطاليا فناحيته الشرقية الجنوبية إلى إيطاليا و الشمالية الغربية إلى فرنسا، و لما أرادوا وصل الطرق الحديدية اتفقوا على خرق الجبل فجعلت عمله كل من الجنسين تشتغل من جهتهم و بعد الإشتغال بضع سنين اتصل العاملون بعضهم ببعض على خط مستقيم، و الحال أن طوله تسعة أميال تقريبا و تنور فيه فوانيس ليلا و نهارا و يقيم به حراس لتفقد

الطريق و لهم مساكن منحوتة و أماكن واسعة لوضع الضروريات التي يحتاج إليها إصلاح الطريق و مراكز لسلك الكهرباء و الرتل لا يدخل إلا- إذا رأى علامة الحارس بالإذن بالدخول، و بينما كنا سائرين فيه و إذا برتل آخر مقبلا من فرنسا ذاهب إلى إيطاليا فمرا متعاكسين متحاذيين مع اشتداد دوى العجلات و الصدى و الظلمة و سرعة السير فكان منظرا هائلا و اشتد البرد هناك اشتدادا خارقا للعادة حتى أن بخار النفس كان يجمد على شاربى و زجاج طواقى المخدع كان يجمد عليه بخارنا إلى أن يمنع الضوء و ينكسر بالتكسير قطعاً كالجليد و أيقظتنى شدة البرد من النوم مع التردى بالثياب الثخينة الصوفية و أحدها مستبطن بجلد الفراء العالى، و فى المخدع قنوات من النحاس ملآنة بالماء الحار جدا ملفوفة فى خرق من الصوف و عندما وصلنا إلى بلد «مودان» أول موقف الرتل من جهة فرنسا نزلنا للإنتقال للرتل الفرنساوى و ابتداء الأمر فيما شاهدته بفرنسا.

فلنعد الآن لبقية الكلام على إيطاليا، فإنى عدت إليها سنة ١٢٩٨ هـ سنة ١٨٨١ م وزدت معرفة بالبلدان التي ستذكر و هي: ابرندزى، التي هي أكبر المراسى جهة شرقى إيطاليا و لها مأمّن حسن و حصون و بقية البلد ليست إلا قرية محتوية على لوازم أهلها، و أقمت بها ليلة ثم توجهت إلى «بارى» و هي مرسى أيضا دون الأولى و لكنها أكبر منها بلادا و أحسن حضارة سيما الأبنية الجديدة التي لها إتيقان فى انتظام الطرق وسعتها و أقمت بها ليلة ثم توجهت إلى بولونيا و قد مر ذكرها، و جميع ما مررنا عليه كان فى غاية العمران و الإنتظام فى الزراعة و كثرة الشجر من الزيتون المعمر لجميع تلك الأرض مع بعض غلال أخرى شتى، و جميعها يسقى بالنواعير من الآبار بإدارة الدواب حميرا و خيلا- و بغالا- و كذلك القرى كانت كثيرة منتشرة و حيث كان مرورنا وقت الحصاد صيفا كنا نرى جميع الجهات مشغلا أهلها فبعضهم يحصد الزرع حتى الذى تحت أشجار الزيتون، و آخرون يتبعونهم بسقى الأرض و فى أثرهم آخرون يثيرون بالحرث ما جف من الأرض و هكذا بحيث لا تبقى الأرض مدة بوارا، و يزرعون فى بعض الجهات إذ ذاك بقولا بحيث يصح أن يقال إن الجهة الشرقية من إيطاليا أعمر من الغربية.

و بعد إقامتى ليلة فى «بولونيا» توجهت إلى قرية «منتكاتينى» التي بها مياه معدنية عليها حمامات تهرع إليها الأهالى صيفا لنفع المياه و فيها شيء من التحسين، غير أنها شديدة الحر لاكتنافها بالجبال المغمورة بالقرى و الأشجار ذات الغلال الصيفية، و الحاصل أن الجهات البعيدة عن البحر صيفا فى أوروبا هي مساوية أو أشد حرا من شمال أفريقيا، و يشتد تعب الراكب فى الرتل من الحر لأنه إن فتح الطواقى إسود لونه و ربما أوديت عيناه من الدخان

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ٢٥

و الغبار بسرعة الرتل، و إن أغلقها حميت عليه نار لظى. و حالة البلدان فى الحر كما مر، و لذلك لم نطل الإقامة هناك و توجهت إلى «ليفورنو» التي هي على البحر كما سبق و بقيت بها حتى توجهت منها «لسفيسرة» ثم عدت إليها مارا على مدينة «ميلانو» التي أعد فيها إذ ذاك معرض عام لمصنوعات إيطاليا و مخلوقاتها، فإذا هي أى «ميلانو» أجمل بلاد إيطاليا و أكثر حضريه و انفردت بالسوق المسمى «القلاية» الذى هو فى غاية الجمال و البهجة، و من غرائب أنه توقد قته الوسطى بمزجيه تمر على طريق حديدية لسرعة الإيقاد للبخار الغازى و هي مزجيه صغيرة نحو ذراع طولاً، و أما المعرض فهو أنموذج من معرض باريس الآتى ذكره، و إنما هذا أصغر بكثير و خاص بمتعلقات إيطاليا. و شاهدت فيه تجربة جر الرتل بالقوة الكهربائية السارية فى قضبان طريق الحديد، لكن التجربة أفادت أنهم لم يبلغوا المراد لحصول الوقوف أحيانا عن غير اختيار، لكن بلغنى فيما بعد أنه تم أمره فى ألمانيا و صار مشغلا به.

فصل: فى تعريف إيطاليا

اعلم أن إيطاليا قسم من أوروبا الجنوبية و هي شبه جزيرة فى البحر الأبيض تتصل من جهتها الشمالية بالقارة فيحدها شمالا «اسفيسره» و فى الشمال الشرقى «النمسا» و فى الشمال الغربى «فرنسا» و فى الغرب و الجنوب «البحر الأبيض» و فى الشرق «بحر البنادقة». و هي على شكل مستطيل من الشمال إلى الجنوب بميل إلى الشرق على هيئة تشبه جزمه ذات عقب و مهماز، و قبالة منتهى أصابع القدم

جزيرة «صقلية» المسماة الآن «سيسيلىا» يفصل بينهما خليج ضيق يعرف بخليج «مسينا» و تبتدىء من الشمال من عرض ستء و أربعين درجة و أربعين دقيقة، و تمتد إلى الجنوب إلى عرض سبعة و ثلاثين درجة و خمسين دقيقة من العرض الشمالى، و تبتدىء جهة الطول من باريس من الدرجة الثالثة و خمس و أربعين دقيقة إلى ستة عشرة درجة و خمس دقائق، فنهاية طولها نحو ألف ميل و ذلك من جبل «مون بلان» إلى رأس «سبارتيفيتو» و أما عرضها فيختلف جدا، فمن جهة الشمال نحو ثلاثمائة و ستين ميلا- و من جهة الجنوب نحو مائة و خمسين ميلا- و فى بعض الجهات الوسطى نحو أربعين ميلا- فقط، و لها عدة جزائر أشهرها و أكبرها، جزيرة «صقلية» و جزيرة «سردانيا» و لها قرب تونس جزيرة «بتلريا» فهى ذات شطوط واسعة جدا و بها كانت دولتها دولة بحرية.

و أما جبالها: ففيها عدة سلاسل، فمنها: جبال «ألبا» و جبال «البنين» و جبل «كورنو» و هو أعلاها و ارتفاعه على سطح البحر ٩٥٢٠ قدما، و جبل «فيلينو». و فيها عدة جبال بلكانية منها ما انعدم و صار عوضا عن فوهة النار بحيرات مثل: «بحيرة رسيمن، و برسيانو، و بلسنا» كلها فى الجبال، و أما الباقي منها بلكانا فهو جبل «الفوزوفيو» قرب «نابلى» الذى ارتفاعه ١٢٠٠ متر، و جبل «اتنا» فى سيسيلىا و ارتفاعه ٣٣١٣ مترو و الثلج دائم عليه، و جبل «الترنبل» فى جزائر ليبرى و يظن أن بين هاته الثلاثة منافذ تحت الأرض، و بقرب صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ٢٦

نابلى عدة جبال تقذف بخارا كبريتيا و تسمى «سلفتار» و بقرب «ليفورنو» جبل يقذف بخارا مائيا و يسمى «سوفيونى».

و أما أنهرها: فهى كثيرة لكنها لا تعظم جدا لقربها من البحر و أعظمها نهر «بو» الفاصل بينها و بين النمسا، و نهر «تير» الذى يجرى إلى رومء، و نهر «أرنو» المار على فيرينسا و بيزء و أديج جهة ولاية الترولو التابعة إلى النمسا و غيرها، و كلها لا تحمل السفن إلا القوارب الصغيرة سوى الأولى، فإنه يحمل القوارب الكبيرة و إن كان السير فيه صعبا لوجود جزائر رملية به نعم إن نهر أديج يحمل السفن من بلد «تيرنتو» إلى البحر، و بها أيضا ترع صغيرة أشهرها الترعة التى بين بيزء و ليفورنو تحمل القوارب الصغار، و كذلك الترعة الموصلة بين نهري التيفروارنو، و بها أى إيطاليا عدة بحيرات منها المسماة «لاغوما» جورى أى الكبرى و كومو، و غاردا، و ليكو، و لوغانو، و إيزيو، و أما هواؤها فهو جيد فى كل الجهات إلا فى الجهات الوسطى حيث توجد مستنقعات الماء المسماة «بونتين»، فإنها يحدث منها أمراض عامة فى الصيف لأهالى البلاد و منها رومية كما تقدم، و توجد تلك المستنقعات أيضا قرب فينسيا و قرب نهر بو، و فى ولاية كلابريا الجنوبية و لا زالوا مجتهدين فى إزالة تلك العوارض، فإن بلد ليفورنو كانت من أشد الأماكن و خامء لذلك السبب و كان أهلها قليلين جدا، فاجتهدوا فى تنشيف الماء و رغوا فى عمرانها حتى أعفوا الساكن بها عن كثير من الضرائب و صارت الآن لا بأس بهوائها كثيرة العمران يتدبها الناس صيفا من كثير الجهات العليا من شمال إيطاليا فإنها منتره جيد، و كذلك جهات نابلى و جزيرة صقلية و الهواء فيها على الإجمال مائل إلى الحر المعتدل و الصيف فى جنوبها يطول، و إذا هبت ريح السموم فعلت بها من المضرة بالجفاف ما تفعله بتونس و أما شمالها فهو إلى البرد أميل.

و أما نباتها: فنبت بها الحبوب من القمح و الشعير و الذرة فى جهاتها كلها، و البطاطس و نبات التكرورى الذى يصنع منه الحبال و الكتان و القطن و الفوة و العنب، و تنفرد الجهة الجنوبية بالبردقان و الموز و النخيل و الهندى أى التين الشوكى و التبغ و قصب السكر و إن كان النخل لا يثمر التمر، و تنفرد الجهة الشمالية بالأرز و الزعفران و القسطل و الحبة الحلواء و الجوز، كما يعم بها الزيتون و التفاح و الكمثرى و الإحاص و التوت و التين و اللوز و الفزدق و عروق رب السوس، و بها عدة آجام و غابات غير أنها فى الجهة الجنوبية مهملة و غير منتظمة و أشجارها متفرقة، و أنواع هاته الأشجار هى: الصفصاف و الدردار و غيره مما تقدم ذكره فى غابات تونس.

و أما حيواناتها: ففيها الخيل لكنها قليلة و أحسنها فى فينسيا و ما حولها و منها نوع قصير جدا وحشى يوجد فى جزائر سردانيا، و منها البغال و أكثرها فى الجهات الجنوبية و كذلك الحمير، و منها البقر و المعز و الضأن بقلء و الجاموس و الخنزير و دود الحرير و النحل

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ٢٧

و السمك بأنواع شتى فى الأنهر و الأبحر، و من الحيوانات الوحشية الضبع و الثعلب و الذئب و الخنزير البرى و بقر الوحش و الدب. و أما الطيور: ففيها أغلب ما فى القطر التونسى و تزيد «بالغيزان» بأنواعه و أكثره أبلق اللون بين السواد و البياض و هو أكثر ما رأيناه فى البرارى، و هو ثقيل الطيران و حجمه أكبر من الحجل و أصغر من الدجاج، و فيه أنواع حضرية كبيرة و لها ألوان جميلة مفضضة و مذهبة كما توجد به الحشرات التى توجد فى الأقاليم الحارة سيما فى الجهة الجنوبية، غير أنها ليست بشديدة الخبث بالنسبة لحشرات أفريقيا. و من غريب حيواناتهم نوع من الكلاب يربى عند قسيسين فى جبل «صان برانتو» فى الجهة الشمالية الدائم فيه الثلج، و من خصائص هاته الكلاب أنه إذا اشتد البرد و حدثت زوايع فالقسيسون يسرحون كلابهم و فى عنق كل واحد إناء صغير مملوء بشيء من الأرواح المسكرة الحادة و له أنبوب يفتح، فتذهب تلك الكلاب و ترود الجهات لعلها تجد إنسانا على شفا الهلاك من البرد فتقرب منه و تمكنه مما برقبتها لكى يسخن به، فإن استطاع بعد ذلك الذهاب معها دلته على محل أصحابها و إن رآته لم يتبعها ذهبت لأصحابها و أعلمتهم بهيئة خاصة حتى يتبعونها و يخلصون الإنسان من شدة البرد، فتتفرق الكلاب على ذلك النحو و تكون سببا لنجاة من تظفر به، و هؤلاء القسيسون لا يبيعون من أناث هذا النوع ليكون خاصا بهم.

و أما معادنها: فليس فيها معادن كثيرة و لا غنية سوى شىء من الفحم الحجرى فى التوسكانة و قرب مسينه من سيسيليا، و نوع من الطين يشعل بعد التجفيف مثل الفحم الحجرى و فيها زيت البترول أى النفط، و فيها الحديد بكثرة فى عدة جهات منها المباردية و سردانيا و سيسيليا و كلابريا و جزيرة ألبا، و فيها النحاس فى جبل لمبارديه و فى فينيسيا و ألبا و توسكانا، و فيها الرصاص أيضا فى عدة جهات و الزاوق و الزنيكو و معدن انتمونيو و معدن منفيز و الكبريت و أعظمه فى سيسيليا قرب بلد قلتانى سينا و هو الذى تشتغل منه جميع أوروبا، و فيها من معادن الحجارة كثير و غنى فمنه الرخام الأبيض الشفاف الذى تصنع منه التحف و المرمر الأحمر و الرخام الأسود و البرسلان و الطين الملون و المرمر الرفيع و الرخام الأبيض المعتاد، و فيها سباح عديدة للملح و معادن ملحية و معدن التنكار الذى يشغله الصاغه، و فيها مياه معدنية كثيرة أهمها فى ولاية البيمنت و ولاية فينيسيا و ولاية التوسكانا و فى نابلى و أشهر الجميع منتيكاتينى فى التوسكانة.

و أما مدن هاته المملكة: فقاعدتها رومية التى أخطت سنة ٧٥٣ قبل التاريخ المسيحى، و موقعها كأنها متوسطة بين الجنوب و الشمال فى المملكة و تقرب إلى الشاطىء الغربى و قد تقدمت صفتها. و قد انقسمت هاته المملكة الآن باعتبار الإدارة إلى اثنتى عشرة ولاية كبرى لكل منها عدة أوطان، فينقسم جميعها إلى تسعة و ستين وطنا كل وطن له مركز من المدن و يعرف باسمه، فأما الولايات الكبرى فنذكرها بأسمائها و نذكر عدد أقسامها فقط

صفحة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ٢٨

بدون ذكر لأسماء بلدان الأوطان الثانوية لطول الكلام و قللة الجدوى.

فالأولى من الولايات: البمنت و قاعدتها تورينو و سكانها ٠،٠٠ ٢١٥ و بها أربعة أوطان.

و ثانيها: لمبارديه و قاعدتها ميلانو و سكانها ٠،٠٠ ٢٦٣ و لها ستة أوطان.

و ثالثها: فينيسيا و قاعدتها مدينة فينيسيا التى أغلب طرقها خلجان بحرية يمرون فيها بالقوارب و سكانها ٠،٠٠ ١٣٠ و لها تسعة أوطان.

و رابعها: ليفوريا و قاعدتها جنوة و سكانها ٠،٠٠ ١٣٠ و لها وطنان.

و خامسها: أميليا و قاعدتها بولونيا و سكانها ٠،٠٠ ١١٦ و لها تسعة أوطان.

و سادسها: توسكانا و قاعدتها فيرينسا و سكانها ٠،٠٠ ١٧٦ و لها سبعة أوطان. و ما تقدم كله جهة الشمال ثم فى الوسط.

و سابعها: ماركى و قاعدتها أنكونة و سكانها ٠،٠٠ ٤٦ و لها أربعة أوطان.

و ثامنها: لومبريا و تختها بروزه و سكانها ٠،٠٠ ٥٠ و لها وطن واحد.

و تاسعها: لاتسيو و قاعدتها رومة قاعدة الجميع و سكانها ٠،٠٠ ٢٤٥ و لها وطن واحد.

ثم فى الجنوب. عاشرها: نابلى و قاعدتها نابلى و سكانها ٠٠٠، ٤٠٠ و لها خمسة عشر وطنا.

و حادى عشرها: سيسيليا و قاعدتها بالبرمو و سكانها ٠٠٠، ٢٢٠ و لها سبعة أوطان.

و ثانى عشرها: سردانيا و تختها كالارى و سكانها ٠٠٠، ٣٣ و لها وطنان.

و أما مراسى هاته المملكة: فهى كثيرة: فمنها جنوة فى الشاطيء الغربى الشمالى ثم ما يأتى يليها جنوبا على الترتيب الآتى: و هى أسبيسيا ثم ليفورنو ثم شيفى تافيكيا ثم نابلى ثم كستا لامارى، التى هى أعظم الكل لاشتمالها على معمل كبير للسفن و لو المدرعة، ثم ميسينا و هى فى الجنوب و هى حريئة تجارية، ثم تارفتوفى شاطئها الشرقى على بحر اليونان، ثم مرسى إبرنديزى، ثم أنكونة ثم فينيسيا و هما على بحر البنادقفة، فهاته هى المراسى الكبيرة و هناك غيرها كثير.

و أما الأهالى: فعدددهم على ما تحرر سنة ١٢٩٨ هـ سنة ١٨٨١ م تسعة و عشرون مليوناً، و هم فى الأصل من أبناء الأصليين و هم من الأمم الذين ارتحلوا إلى هناك من المشرق و الشمال فى أوقات مختلفة و لكن صاروا بالآخرة جنسا واحدا بيضا مع سمرة قليلة حسان تامى الخلقة، أهل جد فى الشغل و أهل الشمال منهم تقدمت فيهم الحضارة أكثر من أهل الجنوب، إذ أهل الجنوب و الوسط لا زال فيهم أناس على سداجة تقرب من التوحش، و كلهم على الديانة النصرانية على المذهب الكاتوليكي إلا خمسة و ثلاثين ألفاً، فهم على مذهب البريتستنت، و ثلاثة و عشرون ألفاً من اليهود، و من الأهالى ستون ألفاً من جنس الأرناؤوط.

صفحة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ٢٩

فصل: فى إجمال تاريخ إيطاليا

مطلب: فى تاريخها القديم

اعلم أن أول ما تسمت إيطاليا بهذا الإسم حسبما وجد بتواريخ الرومان الأقدمين فى أواسط الألف الثانية قبل التاريخ المسيحى نسبة إلى مكلها أحد العائلة التى أتت من «الموره» و اسمه إيطاليوس، و قد كانت من قبل ذلك تسمى ساتورينا و كانت مسكونة بأمم أصليين إسمهم أبو ريجان، ثم وفدت عليهم أمة فى أزمان مختلفة من اليونان و أهل الشمال و غيرهم و ابتداء فيهم ملك الرومان العظيم من المائة الثامنة قبل الميلاد و كان منشؤه فى مملكة رومية التى هى قطعة من إيطاليا، و امتد شيئاً فشيئاً و تكاملت أوصاف الفخر فى الرومان تدريجاً فى المائة الثانية و الثالثة قبل الميلاد ثم اتحد تاريخ إيطاليا بتاريخ الرومان إلى أن تسلط الرومان على غالب المعمور المعروف إذ ذاك تحت تسلط الدولة الجمهورية الرومانية، ثم أبطلت الجمهورية و أحدثت الأباطورية التى يلقب صاحبها بالقيصر قبل الميلاد بثلاثين سنة، و دامت سلطنته عظيمة مع الثقلبات و الحروب إلى أن انقسمت فى سنة ٣٩٥ مسيحية إلى سلطنة غربية و هى الأصلية، و سلطنة شرقية مقرها فى سوريه و آسيا الصغرى و ما والاها، و أصحاب هاته هم المذكورون فى سورة الروم و هم المعنيون بذلك اللقب أى «الروم».

و السلطنة الغربية التى مقرها إيطاليا تخربت و تسلط عليها أمة متعاقبون ثم دخلت تحت سلطنة المشرق ثم افتكها منهم أمة لومبارد، لكن بقى للمشرقيين الجهات الجنوبية و كانت تسمى السلطنة اليونانية أو الإغريقية أو الرومانية ثم انخرمت أيضاً، و تأسس تسلط البابا فى رومية من سنة ١٠٤ هـ سنة ٧٢٢ م لكنها ما سلمت حتى ودعت فاستولى الفرنسييس على قسم من إيطاليا و قوم النباردى استولوا على قسم و السلطنة اليونانية على قسم و بقى البابا تحت ولاية الأباطور شارلمان ملك فرنسا و غيرها، ثم استقلت إيطاليا و كان لها تاج خاص و وقعت إنقلابات و انقسامات إلى أن جدد ملك البابا سنة ٤٦٦ هـ سنة ١٠٧٣ م و تم ذلك فى سنة ٥٢٦ هـ سنة ١١٣١ م حيث تأسست مملكة الصقليتين و اضمحلت بقیة السلطنة اليونانية و غيرها، و صار ملكها «جيو الأول» تابعا للبابا ثم ثارت الثورات فى عدة جهات و انقسمت إيطاليا أقسام بعضها جمهورى و بعضها ملكى و تعاقبوا على رومية مقر سلطنة البابا و تفوه منها، و حدث فى الجنوب

مملكة صقلية التي كان المسلمون استولوا على جانب كبير منها بعبورهم البحر من تونس و استولى فتح قسم منها القاضي الإمام أسد بن الفرات فقد كان جامعا بين

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ٣٠

علوم السياسة و الحرب و الشرع و توفي هناك رحمه الله، ثم بعد مدة تغلب النصارى عليها كما أن الجهة الجنوبية أيضا انتشأ بها مملكة نابلي ثم رجع البابوات إلى إيطاليا من نفيهم إلى فرنسا سبعين سنة و لم ينجح الأهالي في إبعاد الأجانب من الإستيلاء عليهم مع الجهد فيه، و تعاظمت حروب فرنسا و إسبانيا على الإستيلاء على إيطاليا إلى أن تم الأمر إلى إسبانيا سنة ٩١١ هـ سنة ١٥٠٥ م و لم يخرج عليها إلا البندقية، ثم تدهورت إسبانيا هناك تدريجا ثم تغير الحال في حروب «نابليون الأول» إمبراطور الفرنسيين أوائل القرن الحالي هجري، و أولى الإمبراطور على إيطاليا أخاه ثم صهره و لم يبق خارجا منها إلا صقلية تحت حكم أحد عائلة البربون، و كذلك سرديا تحت حكم أحد عائلة ساقويا، ثم عند سقوط الإمبراطور المذكور سنة ١٢٣٠ هـ سنة ١٨١٤ م انقسمت إيطاليا إلى سبع ممالك كل منها مستقل و هي.

مملكة رومانية: تحت حكم البابا الروحي و الملكي.

و مملكة سرديا: تحت حكم عائلة ساقوريا و يتبع الجزيرة قسم من القارة الشمالية الغربية.

و مملكة اللمباردية: تحت ولاية إمبراطور النمسا.

و مملكة بارمة: تحت ولاية نسل امرأة نابليون الأول.

و مملكة مودينا: تحت ولاية دوک من عائلة إمبراطور النمسا.

و مملكة توسكانا: تحت ولاية دوک من تلك العائلة أيضا.

و مملكة نابلي: و يتبعها صقلية تحت ولاية أحد عائلة البربون.

مطلب: في تاريخها الجديد

اعلم أن دولة الساردو إحدى الممالك المذكورة قد أسست القوانين و الحرية الشخصية و مشاركة الأمة في السياسة الكلية من عهد شارل البرت المتولى سنة ١٢٤٧ هـ سنة ١٨٣١ م و كان من همه استقلال إيطاليا و اتحادها تحت علم الحرية، لكنه لم يصادف رجلا ذوى همم تعين على المقصود إلى أن تنازل عن الملك لولده «فكتور أمانويل» سنة ١٢٦٦ هـ سنة ١٨٤٩ م و كانت دولته لها التقدم من جهة القوة المعنوية لأنها ذات قوانين و حرية عادلة و إن كانت مملكة نابلي أعظم قوة صورية و أما بقية الأقسام فما كان منها تحت النمسا حسا

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ٣١

أو معنى فالأهالي نافرون منه و إن كان بعضهم له الحرية و القوانين، كما أن ما كان تحت البابا كان يجرى فيه الظلم بحسب الشهوات فدام الحال على ذلك إلى سنة ١٢٦٩ هـ سنة ١٨٥٢ م حيث وقعت الحرب بين الدولة العثمانية و روسيا و تعاضدت فرنسا و انكثرت على إعانة الدولة العثمانية، و كان ملك دولة الساردو المذكور ملكا عاقلا و استوزر وزيراً ذا دهاء و فطنة و هو «كافور» و كان يأتمنه و ينقاد إلى نصائحه، كما أن الأهالي لهم اعتماد على صدقه و وفائه بحقوق الوطن و كان فيه من الأهلية ما أعانه على اتحاد إيطاليا بتدبيره و سعيه كما سيتلى عليك، فقد عمل الجهد و اتفق مع فرنسا على إعانة الدولة العثمانية في الحرب المذكورة و أرسل عساكره البالغة إثني عشرة ألفا و سفنه مع قوات الدولة الكبيرة، و كان ذلك أول خطوة لإيطاليا في الدخول في زمرة الدول العظام في العصر الأخيرة، ثم بعد وقوع الصلح وقع الإتفاق بين دولة الساردو و دولة فرنسا على إخراج ما بيد النمسا من إيطاليا و ضمه إلى دولة الساردو على أن تعطى هاته إلى فرنسا وطنى ساقوى و نيس، اللذان هما في حدود فرنسا جهة إيطاليا حول الشاطيء بدعوى أن أصلهما من

جنس الفرنسيين، و أسس «نابليون الثالث» ملك فرنسا من ذلك الوقت قاعدة اتحاد الجنسية أى أن كل جنس من البشر له حق الوحدة فى انتشاره دولة مستقلة إذا كانت فيه أهلية لذلك، و ساعده على هذا المقصد كون مملكة فرنسا كلها جنسها متحد فرنساوى فلا يخشى على مملكته من تلك القاعدة، كما أن مستعمراتها يدعى أن ليس لأهلها أهلية لدعوى الوحدة و عند حصولها لهم لا يمنعهم من ذلك و عند إشهاره لهاته القاعدة و إرادته الإعانة على إنفاذها فى العالم كان عقلاء الفرنسيين معارضين له فيها، و من أشهر المضادين له «تيرس» ذو الشهرة بالتدبير و السياسة و كان يصرخ فى مجلس الندوة أن هاتيك القاعدة تؤل بالوبال على فرنسا لا من حيث الخوف من تفرق أهلها لأنهم من جنس واحد و لكن من جهة تقوى جيرانها كإيطاليا و ألمانيا، فإن الجار إذا كان ضعيفا فجاره القوى يكون آمنا منه بل يكون له النفوذ فيه بخلاف الجار القوى فإنه يأبى الضيم و يقع معه التشاحن المؤدى إلى الحرب التى تجهل عاقبتها فضلا عما تستلزمه من الخسائر المحققة فى الدماء و الأموال، غير أن صراخه لم يثمر شيئا لأن دولة فرنسا فى مدة إمبراطورية «نابليون الثالث» و لئن كانت قانونية شوروية ظاهرا فإنها فى الباطن استبدادية فى السياسة العامة و كل ما يريد الإمبراطور يتم غرضه فيه، و لذلك أعلنت دولة فرنسا بطلب النمسا أن تسلم فى الولايات الطليانية لدولة الساردو و أعلنت الحرب لذلك و تعاضدت فرنسا و الساردو على حرب النمسا وحدها، و قد كانت أنشئت جمعية أهلية طليانية تسمى جمعية وحدة إيطاليا تحت رئاسة رجل منهم شهير بالشجاعة و حب الوطن و هو «كارى بالدى» و تعسكر تحته كثير من المتطوعين الطليانيين من

صفحة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ٣٢

جميع جهات إيطاليا و أعانوا الساردو و الفرنسيين، و استعرت الحرب و كان ملوك الدول الثلاث فى معسكراتهم و إن كان قسم وحدة إيطاليا كله تحت رئاسة إمبراطور الفرنسيين، و انخذلت النمسا و وقع الصلح المسمى بصلح «زوريك» نسبة للبلد التى أمضيت فيها الشروط و بمقتضاها سلم إمبراطور النمسا فى مملكة لمباردية إلى إمبراطور الفرنسيين و هو أحالها إلى ملك سردانيا كما سلم له هذا فى ولايتى نيس و ساقويا و ذلك سنة ١٢٧٦ هـ سنة ١٨٥٩ م.

و بينما كانت الحرب مستعرة فى ميادين لمباردية و إذا ببقية إيطاليا ثارت من جميع الجهات منادية بالوحدة تحت راية «كارىبالدى» إلى ملك الساردو، فأما الممالك الشمالية فعدوا مجامع فى عدة مدن للتدبير فى أمرهم و استقر أمرهم على الإتحاد و رضيت به الأمة فانخلع ملوكهم طوعا و سلمت ممالكهم إلى ملك الساردو.

و أما الجهة الوسطى: و هى مملكة رومىة فخرج منها ولايتان اتحدتا مع بقية إيطاليا و بقيت مدينة رومىة و ما تبعها للبابا، لأن الفرنسيين أبى على الساردو إذابة البابا حيث أن الرهبان لهم نفوذ على العائلات العالمة فى فرنسا و الأمبراطور يتقى جانبهم، فألزم الساردو الحيادة عن البابا و أرسل الفرنسيين إلى رومىة لحماية البابا من ثورة رعاياه قسما من العساكر الفرنسيوة و أسطولا على مرسى شيفى تافيكيا.

و أما الجهة الجنوبية: فثار أهلها أيضا و نادوا بالوحدة تحت راية «كارىبالدى» ثم وردت لهم عساكر الساردو و اشتدت الحرب مع ملك نابلى إلى أن قهر وفر هاربا و تمت وحدة إيطاليا بذلك سنة ١٢٧٧ هـ سنة ١٨٦٠ م، و قبل فيكتور امانويل الثانى الملقب بملك إيطاليا غير أنه بقى خارجا عنها بقية مملكة رومىة و ولاية فينيسا التى تحت النمسا، لأن إمبراطور الفرنسيين فى الحرب المار ذكرها استشعر بأن روسيا تريد الإعلان بالحرب ضده إذا طالت المدد، ففعل بإيقاع شروط الصلح مغتتما بهرجة النصر بما أمكن و بذلك و حماية البابا لم تتم مئة الفرنسيين على إيطاليا، ثم ابنتت على قاعدة الوحدة الجنسية المار ذكرها دعوى ألمانيا التى كانت إذ ذاك تحت رئاسة النمسا الحق فى الإستيلاء على ولايتى «الهولستين» و «الشولسويغ» اللتين هما من جنس الألمان، و ولايتهما كانت بالوراثة راجعة إلى ملك الدانيمرك و أجرى فيهما قوانين مملكة الدانيمرك، فادعت ألمانيا بلزوم إخراجهما و لحوقهما بألمانيا و أعلنت بسبب ذلك الحرب بين دولة النمسا صاحبة الرئاسة و معها دولة البروسيا التى هى أكبر دول ألمانيا، و بين دولة الدانيمرك الصغيرة و استغاثت هاته بكبار دول أوروبا، و كانت دولة إنكلترة مع مصاهرة عائلتى الملك بينها و بين الدنمرك مسلمة بالحق للدانيمرك و متيقنة بأن حرب ألمانيا معها مضر بالآخرة بالموازنة الأوروبوية، حتى قال اللورد «بالمستور» كبير وزراء إنكلترة إذ ذاك: «إن هاته

شرارة أقيت في أوروبا لا تلبث أن تشتعل منها ناراً، غير أنه أحجم عن العمل لأن فرنسا كانت مخالفة له و ممضية لقاعدة

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ٣٣

الوحدة، فاشتبكت الحرب بين ألمانيا و الدنيمرك و غلبت هاته في أقرب وقت و أخذت الولايتين منها غير أنه اشتد النزاع فيما بعد بين النمسا و بروسيا، و ذلك أن ألمانيا كما تقدم في المقدمة منقسمة إلى عدة ممالك و قد كانت الرياسة عليها متداولة بين دولتين النمسا و البروسيا حسب السطوة و الإقتدار، و استقرت منذ مدة الرياسة بيد النمسا غير أن الدولة البروسيانة حانقة من ذلك و لم تساعفها الأحوال للغرض، و قد كان ولي عليها ملك عاقل ذو خبرة و تبصر بالعواقب و هو «فريديريك الكبير» فأعطى الحرية للأهالي من نفسه، و من ذلك الوقت أخذت بروسيا في التقدم و اتساع المعارف و كان من قوانينها أن الأهالي كلهم تجب عليهم الخدمة العسكرية حتى أنهم في وقت الحرب يكونون كلهم عساكر، و بذلك صارت دولة حربية قوية أيضا غير أنها مع ذلك لم تساعفها الظروف الحالية لإنفاذ مقصدها في الإستيلاء على الرياسة الألمانية، إلى أن تولى الملك «غليوم» الملك الحالي فاستوزر رجلا ذا تبحر في السياسة وجد في العمل و هو الأمير «بيزمرك» .

و كان الملك عاملا- بأفكاره حتى حصلت له ضدية من بطانة الملك و أهل بيته، بل و من مجلس نواب الأمة أيضا عندما رسم بوجوب الزيادة في القوة العسكرية إذ علم أنها الوسيلة لإتمام الأمل مع حسن إجراء السياسة في الداخل و الخارج، لكن الملك لم يقبل فيه قول قائل لسيره لأفكاره و مقاصده حتى أنه لما خالفه مجلس النواب أمر بحله و انتداب الأمة إلى انتخاب غيره تحفظا على سياسة وزيره، و بقي الوزير في خطته و عمل بما رسمه ثم وقعت الواقعة المشار إليها مع الدانيمرك و كانت دولة البروسيا أو عزت إلى فرنسا استحسان قاعدة الإمبراطور نابليون الثالث في وحدة الجنسية و أطمعتها بفوائد لو تساعدها و لو معنى فقط على إبعاد النمسا من بقية ألمانيا، كما أن «بيزمرك» أوعز إلى بقية ممالك ألمانيا للتنفير من رياسة النمسا عليهم لأنها ليست من جنسهم خاصة بل هي مركبة من أعضاء متعددة و ليس الألمان فيها إلا جزءا من الأجزاء، و دام إغراء صدورهم إلى أن أثر فيهم أشد التأثير ثم حصلت المنازعة بين النمسا و البروسيا على الإستيلاء على الولايتين المأخوذتين من الدانيمرك، و في أثناء النزاع أغرت البروسيا دولة إيطاليا بالمعاضدة معها لإخراج بقية إيطاليا من تحت النمسا فأعلنت الحرب بين البروسيا و معها إيطاليا و بين النمسا فكانت النمسا غالبة

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ٣٤

لايطاليا لكنها مغلوبة غلبا فظيعا لبروسيا، و ذلك لأن البروسيا كانت اخترعت نوعا من المكاحل مسدسا يحشى من أسفله و يثور باروده باندفاع إبرة من أسفل المكحلة و يسمى هذا النوع المكحلة ذات الإبرة، و كان أبعد مرمى و أسرع انطلاقا من النوع القديم بكثير فكانت عساكر النمسا يصيبهم رمى عدوهم المتوالي كالمطر الدافق من غير أن يصيب رميهم عدوهم و لو بواحدة، و كان صف العساكر يخر ميتا دفعة من قبل أن يتمكن من رمى عدوه إلى أن ضجت عساكر النمسا و لم يكن لهم من وجه للتخليص إلا عقد الصلح بما طلبته أبروسيا، و من العجب أن ذلك السلاح كانت عساكر أبروسيا مقلدة و محاربة به للدانيمرك عند تعاضدهم مع النمسا و لم يلتفت إليه أحد إذ ذاك و لا تهيأت النمسا لمقابلته فوق الصلح سنة ١٢٨٣ هـ سنة ١٨٦٦ م، على أن البروسيا تتولى تلك الولايتين و تدخل فيها أيضا مملكة الهانوفر، و الهاس، و دو كاتوناسو، و بلد فرنكفورت الحرة، و أن تخرج النمسا عن رياسة العصبية الجرمانية بالمره، و تبقى ممالك جرمانيا فالشمالي منها داخل تحت رياسة أبروسيا مستقل بإدارته، و الجنوبي منها له معاضدة مع البروسيا لكن ليس داخلا تحت رياستها تماما، إلى أن وقعت الحرب مع فرنسا كما سيأتي في محله.

كما تضمنت شروط الصلح أيضا تنازل النمسا عن ولاية فينيسيا إلى إمبراطور الفرنسيين و هو سلمها للطلبان، و ذلك لأنه هو الذي تدخل بالصلح عندما رأى فظاعة تقهقر النمسا، ثم لما انهزمت فرنسا في حربها مع ألمانيا سنة ١٢٨٧ هـ سنة ١٨٧٠ م و اضطرت إلى إخراج جيشها من رومة تم اتحاد إيطاليا بجعل مدينة رومة تختا للمملكة فدخلتها جيوش الملك «فيكتور مانويل» و الثائرون بعد محاربة ضعيفة من عساكر البابا و بقي البابا حاكما روحيا على الكاتوليك، و اتحد الحكم السياسي لمملكة إيطاليا و لم يبق خارجا

عنها سوى «صان مرينو» التي أهلها نحو سبعة آلاف نسمة فإنها مستقلة بنفسها، وكذلك «صان بيترو» و هي كنيسة رومية الكبرى و الفاتيكان و هو محل استقرار البابا، و بقيت قطعة أخرى على شاطئ البنادقة العليا الحاوية لمرسى ترست تحت يد النمسا و في نفوس الطليانيين الدعوى باستحقاقها، ثم إن المزية في ذلك الاتحاد و لئن كانت إلى الملك فيكتور امانويل لإجرائه للقوانين في ممالكه حتى أحبته سائر إيطاليا و فاز بالشهرة بذلك وزيره كافور لمهارته و حزمه في إدارة السياسة العامة و جلب المساعدة من الخارج و تقديم الأهم فالأهم، لكن للأمم الطليانية أيضا الحظ الأوفر من ذلك الفخر حيث هيأت نفسها و استعدت لإنفاذ ذلك المراد بفتح بصائرهما و تمييزها السقيم من المستقيم و معرفتها بما يؤل لخيرها حتى كانت تعقد لذلك الجمعيات السريه في أقطار المملكة و تتواصل المخابرات بينهم في الاستعداد و غرس حب الوطن و النفرة من الضيم، و من تلك الجمعيات الجمعيه المسماة «بالفرمسيون» التي نهاية سعيها نشر الحرية من غير إذايه لأحد على شروط عندهم، و تحملت تلك الجمعيات مصاعب كبيرة في عدة جهات و مع ذلك لم يفتر عزمهم و آثروا النفع العام على حظوظهم الشخصية إلى أن وجدوا يد المساعدة من دوله الساردو المستعدة لما يرومونه

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ٣٥

فنادوا بها من جميع أطراف المملكة، و كان «كارى بالدى» مظهر وجود تلك الجمعيات التي كانت تنفق على متطوعيه كإنفاق دوله على عساكرها. و ذلك الزعيم لما تم مقصد إيطاليا رامت الدوله مكافأته بترقيته في الرتب العاليه فاحتسب عمله لفخر بلاده و أبي قبول شيء ما مع احتياجه.

و من أهم مساعدات البخت وجود قاعدة نابليون الثالث المار ذكرها، و يقال إنها مؤسسها منه قصدا لأنه يدعى بأنه كان من أعضاء «الفرمسيون» و أنه لما كان منفيًا بإيطاليا وعد جماعته بالمساعدة إذا تولى ملك فرنسا، و إعانته لها اعتبار عظيم لأنها كسرت سورة النمسا ذات الشأن، فلو لم تقع مساعدة فرنسا لكانت النمسا أول مخضد لشوكه الاتحاد و لو أنها ترى الحرب لأجل ذلك مع غيرها كتابلي مثلا- لأنها تعلم أن المآل بالمضرة لها حسبما قيل أقسم تحكم، فمنه فرنسا لا تنكر في ذلك لأن إحياء الأمة بعد الإندثار و تغلب الدول العظيمة عليها لا يمكن بدون مساعدة دوله ذات شأن و اقتدار كما بينه الإستقراء.

و من غرائب ما سمعته من جهة علوم الحدثان هو أن نابليون الثالث زار إيطاليا أثر إتمام إعانته لها و في مسامرة الوليمه التي أعدت له من ملك إيطاليا، كانت امرأه عجوز من الأعيان حاضرة فاختلت بالإمبراطور مع بعض الأعيان المقربين إليه و قالت له: هل وجدت ما قلته لك صدقا؟ فقال: نعم فقالت: لكن ما أدري كيف الحال في الباقي، فسفسطها و فض المجلس. فسألها أحد الحاضرين عن معنى كلامها فقالت: إنها تعلم نوعا من الحدثان و أنها كانت أخبرت نابليون مدء هروبه بإيطاليا قبل ولايته على فرنسا بجميع ما يقع له، و منه أنه يخلع بعد حرب و قد حان وقتها و لذا قطع الكلام، و قد رويت هاته الحكايه عن ثقة قبل حرب فرنسا و بروسيا سنة ١٢٨٧ ه سنة ١٨٧٠ م فلم يطل الزمن حتى كان الأمر كما ذكرت و الله أعلم بكيفية علمها بما ذكر فإن بعض أنواع ذلك الفن لا يتوقف على صلاح و لا على دين بل كأنما هو صناعة. و في مقدمه ابن خلدون كفايه لبيان ذلك.

و أما أسماء ملوك إيطاليا: فإن لها الآن ملكان فقط. الأول: فيكتور امانويل. الثاني:

إبنة امبيروتو و ذلك لقرب العهد بالاتحاد، نعم إن الملك الأول كان ملكا على الساردو و هو من عائله ساقويا التي لها رسوخ في الملك و الإمارة من قديم.

مطلب: في الإدارة الداخلية

إعلم أن الإدارة عندهم منقسمة إلى كليتين:

الأولى: هي ما يتعلق بالإدارة العامة.

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ٣٦

و الثانية: ما يتعلق بإجراء الأحكام الشخصية. فكل منهما إدارة مستقلة عن الأخرى و لا دخل لها فيها و كل من الإدارتين راجعة إلى رئيس الدولة و هو الملك، فدولة إيطاليا دولة ملكية و لملكها إدارة السياسة العامة داخلية و خارجية و رئاسة القوات الحربية برية كانت أو بحرية و عقد المعاهدات و الحرب و الصلح و رئاسة الأحكام الشخصية و تنفيذها، لكنه لا يتصرف في كل ذلك إلا على مقتضى قانون مرتب معلوم و ملخص كلياته: أن الملك يتصرف في جميع ما تقدم بواسطة الوزراء و هو ينتخب الوزير الأول، أى صاحب رئاسة الوزراء و يكلفه بأن ينتخب هو بقية الوزراء ممن توفرت فيهم شروط الأهلية، و بعد اختيارهم يعرضهم على الملك و هو يوظفهم في وزاراتهم و هى وزارة الداخلية و الخارجية و المال و الأحكام و التجارة و المعارف و النافعة و الديانة و الحرب و البحر. و قد يتقلد رئيس الوزراء إحدى تلك الوزارات مع الرئاسة و قد يجمع بين صغارها كالتجارة و النافعة و المعارف، و كل وزير له حدود في إدارته يكون هو المسؤول عنها.

و هناك مسائل تجتمع فيها المسؤولية على الجميع و ما يستقر عليه رأى الوزراء منفردين أو مجتمعين يمضيه الملك، و إن لم يره يعرضه على المجالس الآتى بيانها فإن وافقوا الوزراء أمضى الملك و إن خالفوهم و أصر الوزراء على رأيهم لزمهم الاستعفاء، و ينتخب الملك غيرهم. كما أنه إذا وافق الملك الوزراء و خالفهم المجلس فللملك الخيار إن شاء انتخب وزراء آخرين و إن شاء حل المجلس و أذن العامة بانتخاب غيره، و من حقوق الوزراء الحضور في مجلس النواب و الأعيان للمناضلة عن أعمالهم، ثم وراء أعمال الوزراء مجلسان.

أحدهما: يسمى مجلس الأعيان، و وظيفته أعضائه عمرية و ينتخبهم الملك من عموم أهل المملكة الأعيان و أعيان المتوظفين و جميع أعضاء العائلة الملكية، إذا بلغ الرجل منهم إحدى و عشرين سنة، و لكن ليس له رأى و صوت يقبل إلا إذا بلغ خمسا و عشرين سنة، و لذلك لم يكن عدد أعضاء المجلس محصورا و كان مقتضى قواعدهم أن يكون من أعضائه كبراء الديانة، لكنه لما كان البابا مضادا لملك إيطاليا حيث نزع منه السلطة الملكية كان جميع رؤساء الديانة مضادين للحكومة الطليانية و يرونها عاصية فلا يتدخلون في أمرها بل لهم سعى في إبطالها و إعادة سلطة البابا، لكن العقلاء منهم الذين يؤثرون نفع الأمة عموما على حظوظ نفوسهم يعملون ما ذكر ظاهرا فقط قياما بوظائفهم الدينية و أما باطنهم فهو مع الدولة.

و وظيفته هذا المجلس: هو الرأى في الإحتساب على أعمال سائر المتوظفين و فصل النوازل التى يقع فيها الخصام بين المتوظفين مما يرجع إلى الوظيف و استحسان أو استقباح ما يرد من مجلس النواب بحيث لا يمضى شىء من تراتيبه إلا بعد مصادقة مجلس الأعيان عليه و هو الحاكم فى الجنايات السياسية.

صفحة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ٣٧

و المجلس الثانى: هو مجلس النواب و أعضاؤه تنتخبهم الأهالى من عموم المملكة فكل قسم من المملكة ينتخب عددا على قدر عدد سكانه بأن يكون على كل خمسة و ثلاثين ألف نسمة عضو واحد بشروط فى الذين ينتخبون، بأن يكون كل منهم ذكرا طليانيا بلغ من العمر خمسا و عشرين سنة، و أن يكون غير محجور عليه و أن يعرف القراءة و الكتابة و أن يكون مؤديا للدولة أربعين فرنكا فى السنة من أى طريق كان من أنواع الأداء، و يستثنى من هذا أقسام لهم امتياز بالعلم و التجارة فلهم الإنتخاب مطلقا، كما يشترط فيمن ينتخب لأن يكون عضوا أن يكون طليانيا و أن يعرف بالرشد و أن يبلغ ثلاثين سنة، و أن لا يكون متوظفا له مرتب من الدولة نعم يغتفر فى الشرط الأخير إذا لم يبلغ عدد أهله فى المجلس قدر الخمس، و وظيفته هذا المجلس هى المحافظة على القوانين الموجودة و تغيير ما يرى تغييره و تحرير ميزان الدخل و الخرج و ترتيب كيفية توزيع دخل الدولة على الأهالى و الإحتساب على جميع أعمال الدولة، و يوجد مجلس آخر يسمى مجلس الشورى ينتخب أعضائه الملك من أعيان المتوظفين، و وظيفته هذا المجلس هى إعطاء الرأى فيما يعرضه عليه الوزراء من المسائل و تهذيب القوانين لتعرض على من له قبولها من المجالس، ثم أن تنفيذ جميع الأعمال مناط بالوزراء و هم المسؤولون عما يقع من الخلل بمباشرتهم أو بواسطة من يعينونه للمباشرة فى الوظائف و مسؤوليتهم لمجلس النواب و لمجلس

الأعيان، فهذا هو ترتيب تصرفات الدولة.

و أما الإدارة في الولايات: فقد تقدم أن المملكة منقسمة إلى اثنتي عشرة ولاية كبرى و كل منها لها أقسام حتى صار مجموعها تسعة و ستين ولاية ثم الولايات في ذاتها لها أقسام صغرى و هاته تحتها أقسام أصغر منها، فلكل ولاية و ال معين من الدولة و له مجلس يسميه الملك و مدة وظيفتهم ليست محددة و مأموريتهم هي تنفيذ أوامر الدولة و تنفيذ ما يستقر عليه رأى مجلس الولاية الآتى ذكره، و لهم التدبر فيما يصلح بولايتهم و إمضائه بعد موافقة المجلس المذكور عليه، و في كل ولاية أيضا مجلس أعضاؤه تنتخبهم الأهالي لمدة خمس سنين و يبدل خمسهم كل عام، و عددهم على حسب عدد سكان الولاية لكنهم لا يتجاوزون الستين نفسا فيما إذا كان عدد السكان أزيد من ستمائة ألف و ينقصون إن كان عدد السكان أقل، و مدة اجتماعه مرة في السنة تدوم على قدر الحاجة و مأموريتهم هي تعيين المقادير اللازمة لمصاريف مصالح الأيالة كتمهيد الطرقات و بناء الجسور و المكاتب و المستشفيات و تحسين البلدان و غير ذلك، و أول ما يعتبر في مقدار الدخل المقدر الذي يحصل من الأوقاف المعينة لمصالح الولاية ثم ما يزيد عليه من المصاريف يوزع على الأهالي على نسبة ما يدفعونه لمداخيل الدولة، و من وظائفه أيضا تعيين حدود الولايات و تغييرها فيما بينها على حسب ما تقتضيه المصلحة.

و يوجد في كل ولاية أيضا مجلس مركب من الأعضاء المنتخبين من تلك الولاية لمجلس النواب العام، و مأموريتهم مستمرة ما داموا أعضاء لمجلس النواب، و إدارتهم هي

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ٣٨

قبض و صرف المبالغ المعينة من المجلس السابق بواسطة الوالي و مجلسه و لهم الإطلاع على سائر أعمال المجالس و المصالح المدارة في ولايتهم، ثم أن كل وطن تحت الولاية فيه نائب عن الوالي مأموريته الاحتساب على أعمال المجالس البلدية الآتى ذكرها و إيقاف ما يراه من أعمالهم مخالفا للقوانين و إنهاؤه إلى الوالي، ثم في كل جهة و بلد مأمور من الدولة و له أعوان مكلف بحفظ راحة السكان و حراستهم من الجنائيات و المشاجرات و هم المعروفون بالضابطة.

كما يوجد في الأوطان أقسام من العساكر و مكلف بكيفية أخذ العساكر من الأهالي على مقتضى القانون و كذلك يوجد في كل بلد قرية أو مدينة مجلس بلد لا تتجاوز أعضاؤه الستين نفسا في البلدان الكبيرة و ينقصون في غيرها على حسب كبرها تنتخبهم أهالي البلد لمدة خمس سنين كما تقدم في غيرهم، و شروط انتخابهم كشروط مجلس النواب بنقصان في شرط مقدار الأداء للحكومة، و مأموريتهم ما يتعلق بمصالح بلادهم و الإحتساب على الضابطة، و مدة اجتماعهم مرتان في السنة أو عند الإقتضاء، ثم ينتخبون منهم لجنة لا تزيد أعضاؤها على ستة و لا ينقصون عن أربعة بحسب عدد سكان البلاد تحت رياسة شيخ البلد لإجراء المصالح المتفق عليها في بقية السنة، و من حقوق صاحب الملك أن يغلق جميع المجالس المتقدم ذكرها إذا رأى ما يوجب ذلك بشرط أن ينتخب غيرهم هو فيما يرجع إلى انتخابه و يدعو الأمة إلى انتخاب من يرجع إلى انتخابها في مدة لا تتجاوز الثلاثة أشهر، و في مدة التعطيل يكلف الملك من يجرى المصالح التي ترجع إلى المجلس المعطل و تكون عليه مسؤولية ما يجريه و لا يعزل صاحب وظيفة إلا عن ذنب أو نقل لغيرها، فهذا كله في القسم الأول من الإدارة و هو الإدارة السياسية.

و أما القسم الثاني و هو الإدارة الحكيمية: فإن في كل بلد مجلسا يحكم في الحقوق الشخصية ثم في كل قاعدة من قواعد الأوطان مجلس لتحقيق الأحكام الصادرة من مجالس أحكام البلدان الراجعة لتلك القاعدة عندما يطلب الخصم تحقيق الحكم و يستثنى من ذلك النوازل الصغيرة. ثم وراء ذلك مجلس آخر لتحرير أحكام مجالس التحقيق إذا طلب الخصم ذلك أيضا في نوازل معينة، ثم في كل بلد مجلس للجنائيات الخفيفة و مجلس للصالح يدعو الخصوم إليه و أحكام هاته المجالس يستندون فيها إلى قوانين مرتبة عندهم عقلية مستخرجة من عدة قوانين قديمة للرومان و اليونان و غيرهم موصلة الحقوق إلى مستحقيها على ما يروونه و زاجرة عن الجنائيات و مراعاة فيها حالة البلاد و أخلاق الأهالي و عوائدهم و اصطلاحهم. و مجلس النواب يغير من قوانين الحكم ما تدعو المصلحة لتغييره

بحسب تغير الزمان و العرف، و قوانين الحكم معلن بها يتوصل إليها كل أحد ليعرف ما له و ما عليه و إذا تغير عندهم حكم مسألة لا يجرى العمل به إلا بعد مدة، لكي يكون الناس عالمين به و أحكام مجالس الحكم و سماعهم للدعوى و الجواب يكون علنا و لكل من أراد الحضور في تلك المجالس أن يدخل إليها و يجلس في مكان معد لذلك ليسمع و يرى، لكنه

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ٣٩

ليس له التداخل في الشيء من أعمال المجلس نعم إذا رأى شيئا مخالفا للقوانين فإنه يرفعه لمن له النظر في حفظ القوانين أو يكتبه في الصحف الخيرية و يعلن به، و ليس في قوانينهم العقاب بالجلد، و إنما يعاقبون بالقصاص في النفس و في غيرها بالغرم المالى و السجن على حسب الجناية في درجة عذاب السجن و مدته، و أحكام المجالس تنشر في الصحيفة الخيرية المعدة لذلك لكي يعلم الحكم من أراده من العموم، و وظيفة أعضاء مجالس الأحكام عمرية لا يعزل صاحبها عزل عقاب و لا تأخير ليكون في إجراء الأحكام آمنا إلا إذا ثبت عليه ذنب بمقتضى القانون فإنه يعزل و يعاقب، نعم يترقى العضو من مجلس إلى غيره و من بلد إلى غيرها و ذلك بيد وزير الأحكام على قانون لهم في ذلك، و لعموم الأهالي و الواردين أيضا الحضور في مجلس النواب و مجلس الأعيان لسماع مفاوضاتهم و لأصحاب الصحف الخيرية مكاتبون يحضرون في تلك المجالس لينشروا جميع المفاوضات، و كذلك فيها بيت معد للملك إذا أراد الحضور الغير الرسمي و فيها بيت معد لمن أراد الحضور من أعيان الأهالي و السفراء و الوافدين تعطى لهم أوراق الإذن بالدخول إليها من الوزارة، كما أن العامة إنما يدخلون بورقة الإذن من الرئيس و الحصول عليها سهل و إنما يلزم الإذن لكي لا يزدحم الحاضرون في مكان الاجتماع بأن يكون عددهم أكثر مما يسعه المحل، و لأن في المجالس جلسات سرية يضر إفشاء خبرها فلا يسمح عندها بحضور غير الأعضاء بل ربما اعترى ذلك في وسط الجلسة الجهرية فيؤذن للحاضرين بالإنصراف.

مطلب قد تلخص مما تقدم أن دولة إيطاليا هي دولة ملكية قانونية شوروية

و للأهالي الحرية الشخصية و السياسية، فإما كونها ملكية: فلأن الرياسة و التصرف العام هو بيد ملك وراثي، أعنى أن الملك ينتقل من الأب إلى ابنه الأكبر في عائلة مخصوصة و من هذا إلى ابنه الأكبر و هكذا، و بقية العائلة الملكية تستخدم في الوظائف كسائر أعيان الأهالي على حسب التأهل.

و أما كونها قانونية: فلأن التصرفات العامة و الأحكام الخاصة كلها منضبطة بقواعد عقلية مدونة معروفة. و أما كونها شوروية: فلأن تطبيق تلك القوانين على الحوادث مناط بأراء متعددة و وراءها أنظار أخر متعددة بحيث لا يمضى شيء إلا ما يستقر عليه غالب آراء أهل الحل و العقد. و أما كون الحرية الشخصية للأهالي: فلأن كلا منهم له الإطلاق في التصرف في نفسه و كسبه داخلا في دائرة حدود القوانين لا يخشى من مجاوزتها عليه و هي كافلة له بالأمن في دينه و نفسه و ماله و عرضه. و أما كون الأهالي لهم الحرية السياسية: فلأن كلا منهم إذا توفرت فيه الشروط المؤهلة من صفاته الذاتية فله التداخل في تدابير المصالح الكلية العائدة لوطنه، و لكل منهم نشر أفكاره على العموم بواسطة المجمع أو الكتب و الصحف الخيرية على شرط عدم الخروج عن حدود القوانين المراقب لها في جمهوريتي جنسه.

مطلب: في السياسة الخارجية لإيطاليا

إعلم أن دولة إيطاليا الآن هي سادسة الدول الأوروبية الكبار و هي ألمانيا و فرنسا

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ٤٠

و انكلترة و النمسا و روسيا و إيطاليا، فهاته الدول بما لهم من القوة و اتساع نطاق التمدن صار لهم المداخلات في كل ما يمس

حقوقهم من سياسات العالم، و شدة مراقبة بعضهم لبعض لا تترك أحديها تتداخل في شيء يمكن منه لمس حقوق الآخرين و لو في الواجهة و النفوذ، و لكنهم عموما يتجنبون المداخلات في أحوال الدول ذات الإنتظام لا لمجرد مراعاة الإنتظام بل لأن الإنتظام يشيد حصونا على أبواب المداخلات باستناد أصحابها إلى أصولهم و آراء العموم مع جريان سيرتهم على استقامة من القيام بواجباتهم في أنفسهم و الوفاء بحقوق المعاهدات الأجنبية، و مع ذلك فالقوة في الدول الكبيرة تغرى بالتداخل في أحوال الضعيف كيفما كان الحال لكن الغيرة و التحاسد بين الكبار يوجب ردع بعضهم بعضا، فإذا كان المصوب إليه سهام التداخل مستقيما في نفسه وجد بقيه الدول الكبار مستندا لردع الجاني منهم على الضعيف، إذ اختلاف منافعهم و مباينة مقاصدهم موجبة للإختلاف و عدم الاتحاد على الإضرار بالضعيف، حيث أن الإضرار به لا يمكن أن يوفى بأغراض جميعهم فلا يسمح أحدهم برجحان كفة غيره على كفة نفسه و لذلك يجد الضعيف راحة من اختلافهم الذي كانت أعماله باستقامته سببا فيه.

أما إذا كان في نفسه غير مستقيم تورث سيرته الكوارث التي تقلق جميع الدول الكبيرة، فيقتحمون تحمل ضياع بعض أغراضهم ليسدوا باب التشاحن من قبيل ارتكاب أخف الضررين، و ذلك لا ينشأ إلا في الجهات التي تشترك فيها منافع الجميع.

أما الجهات التي تخص بعضا منهم: فإن المشاحنة إنما تقع بين من له تشارك فيها فقط. و لذلك كان لدولة إيطاليا مراقبة لأحوال شطوط البحر الأبيض و كل الدول المجاورة لها، و لم يكن يعنىها ما يقع في غربى أوروبا و لا ما يحصل في الصين و الهند و أمثال ذلك، نعم ليست درجة غربى أوروبا عندها كدرجة الصين، و الحاصل أن تداخلها هي أو غيرها على حسب منافعها السياسية و التجارية، و لذلك كانت لها معاهدات مع الدول التي لها معها علقه في السياسة أو التجارة و هاته الدول هي جميع دول أوروبا و الدول التي على شطوط البحور من آسيا و غالب جهات أفريقيا، و لها سفراء نواب عنها في تخوت تلك الممالك و هم على طبقات في المقام، فلها سفراء من الدرجة العليا في الدول العظيمة التي لها معها خلطة سياسية معتبرة، و لها سفراء من الدرجة الثانية في غيرها من الدول المستقلة أو التي لها معها معاهدات، و لها قناصل و هي رتبة أقل من السفير في الحكومات الغير المستقلة أو التي هي صغيرة و تارة تكلف بمصالحها نواب لمجرد الشرف بالرتبة من غير مرتب أو تكلف نواب بعض الدول الأخرى كل ذلك في الممالك التي تقل خلطتها معها، و لكل سفير أو مكلف نواب و أعوان و محل إدارة يسمى بالسفارة كأنه وزارة تنفق عليها الأموال في المرتبات و غيرها، و كل دولة فيها سفير من إيطاليا يلزم أن يكون لها هي أيضا سفير فيها على قدر مصالح تلك الدولة و هي قاعدة مطردة في سائر الدول بالنسبة لسيرتهم في الخارجية، و منذ سنة ١٢٧١ هـ ١٨٥٤ م دخلت إيطاليا في عقد المعاهدات العامة بين

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ٤١

الدول الكبيرة و إن كانت إذ ذاك دخلت بصفة دولة «سردانيا» حيث انعقد الصلح بين الدولة العلية و روسيا و عقدت له شروط «معاهدة باريس» التي اجتمع لها نواب الدول الكبار الست الأوروبية و نواب الدولة العلية، و وقع الجميع على المعاهدة و كان منهم نواب «سردانيا» لدخول دولتهم في الحرب كما سبقت الإشارة إليه.

فصل في بعض عوائد أهالي إيطاليا و بعض صفاتهم

إشارة

إعلم أن سكان إيطاليا من أبناء أجناس من الأمم الذين وفدوا عليها قديما و اتحد الجميع بصفة الطليانيين منذ قديم، و دياتهم عموما مسيحية على المذهب الكاتوليكي، و هو مذهب الدولة و كثير ممن تفننوا في العلوم الرياضية قادتهم الطبيعيات فصاروا لا يعتقدون شيئا من الديانات ظنا منهم أنها جميعا مردودة بالعقل، مثل ما يرون من عقائد ديانة النصارى و اليهود. لكن عقلاؤهم يقرون بالخالق جل و علا و لو اطلعوا حقيقة على حقائق الديانة الإسلامية لما وسعهم من الإنصاف إلا اتباعها لمطابقتها للعقل و سطوع برهانها، و

المسؤول عن عدم إبلاغ الشريعة إليهم على حقيقتها هم من أناط الله بهم ذلك على ما سيأتى إيضاحه فى الخاتمة إن شاء الله تعالى. وسكان إيطاليا هم بيض أقوىاء مدنهم أكثر أهاليها مهذبون، و أما القرى و البوادي فهم على الخشونة و الاعتقاد التقليدى البحت للقسوس، و هم أصحاب جد فى العمل و الأشغال، و أصحاب الأعمال البدنية يبكرون إلى أشغالهم. و أما ذوو الترف و الأحكام فإنهم يطلبون السهر و يفيقون من نومهم مؤخرا و لا يبتدون الأشغال إلا قبل الزوال بساعة أو ساعتين أو عند الزوال، و كثيرا ما يدعو الأعباء بعضهم بعضا للسمر و الرقص فى منازلهم و تارة يستدعونهم للعشاء مع ذلك و تارة يقتصرون على تقدم فواكه و حلويات و خمور، و ليس من عاداتهم الحياء مثل ما هو عندنا فترى البنت تخاطب زوجها و تفاكهه أمام والديها بل و تفعل مثل ذلك مع خطيبها و ترقص مع الرجال أمامهم هذا فى البنات فكيف بالبنين؟ و عندهم أن الغناء ليس بمعيب من النساء فترى أكبر الأعيان يحتفل فى داره بدعوة عامة و تصير بنته أو زوجته أو إحدى النسوة الأعيان المدعوات تغنى فى ذلك الملاء و ترقص مع الرجال على أشكال شتى، من معانقة و مخاصرة و غيرها و لا تأتيم من ذلك بل يروونه إكراما بحيث أن المسلم الغيور يكاد يتفطر مما يرى.

و أما الرجال الأعيان: فالرقص عندهم مع النساء و لو فى المواكب غير معيب لكن الغناء منهم معيب، و النسوة يخرجن مكشوفات الوجوه و يتعاطين من الأشغال مثل الرجال إلا الأشغال الشاقة و التعاليم للعلوم العالية، و يصاحبن الأجانب عن قربتهن مثل الرجال، و يقول رجالهم: إن الذى حمل المسلمين على حجب النساء مما فى طباعهم من الخيانة، و شدة الحجب توجب شدة الشوق، و حيث أنا على خلاف ذلك فالأمن على نساتنا محقق و التى لا يحميها عرضها لا يحميها حائط دارها.

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ٤٢

هذا مدار كلامهم و هو خطأ فاحش، إذ موجب الحجب أمر طبيعى فى سائر البشر بل فى سائر الحيوانات، و من المعلوم أن لكل شىء سببا فرؤية الذات و الوجه مكشوفاً ثم المكالمة ثم المداعبة ثم الرقص فى حالة شرب الخمر و الطرب ثم المخاصرة، كلها أسباب تدعو إلى الإتفاق طبعاً إلى ما رءاها بلا شك، و إثبات ذلك بالوجود أقوى دليل حتى صار من عوائدهم أن البكاره هى التى لم تتزوج صاحبته من غير نظر إلى حقيقتها الأصلية، و الزيادة على هذا فى الإستدلال خارج عن موضوعنا و منصفهم يقر بذلك لا محالة، و قد غلط من ادعى أن ديانتنا تبيح النظر لوجه المرأة، و هو جهل بعدم التفرقة بين كون وجه المرأة ليس بعورة و كذا كفها و قدماها حتى يجوز لغير محرما النظر إلى تلك الأعضاء و كذلك للنسوة و أمثالها، و بين كون الوجه يجب ستره عن الرجال الأجانب مطلقاً لخوف الفتنة بنص الكتاب فى قوله تعالى: **وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ** [النور: ٣١] الآية و ذلك هو الحق المستقيم .

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ٤٤

و المشاهدة أقوى دليل فكل بلاد حافظت على ذلك قلت فيها الفاحشه حتى كادت أن لا تقع، و كل بلاد تساهلت فى خروج النساء كمكشوفات الوجوه بالبراقع الصفيقة و غض النظر عن مكالمة النسوة للرجال و المزاحمة فى الأسواق و المجامع فشت فيها الفاحشه و اتخذ رجالها هجيراً مسارتهم التكلم بوقائعهم مع النساء سواء كانت بلده إسلامية أو إفرنجية و قلب الحقائق و إخفاء الجهر و عكس الطبائع ليس فى الوسع و لا يحاوله ذو إنسانية.

و أهالى إيطاليا يستعملون الموسيقى ذات آلات النفخ و ذات الأوتار و هم برعاء فيها و ألحانهم هى ألحان الأروبايين و هى ألحان مخالفة للألحان المعروفة عند المشرقيين و العرب و أهالى أفريقية الشمالية، حتى أن هاته الألحان لا يحصل منها ما يحصل من السماع لهؤلاء و بالعود تصير مؤثرة فى النفس و لها تعاليم مخصوصة معتنى بها، و لا يدقونها إلا على تطبيق لما هو مرسوم فى أوراق خاصة على أشكال يتبعها صوت النغمات بحيث أن كل صاحب آله تكون أمامه تلك الأوراق ينظر فيها و يدق على نحوها و لا يدقون من محفوظاتهم إلا قليلاً، و أهل البادية و بعض القرى لهم آلات من مزامير بالجلود ينفخونها بلا أوراق، و فى كل بلدة مراسم للعب و التلهى على حسب كبر البلدة تفتح ليلاً للسهر و تشكل فيها ألعاب على صور تاريخية مرئية أو للغناء و السماع و لهم تقدم و شهرة فى ذلك على سائر أهالى أوروبا، و الأهالى عموماً ذوى رجولية فى التمسك بالآلات الحربية حتى لا تكاد تجد من لا يحمل السلاح

الصغير الخفيف مخفيا، و يركبون الخيل رجالاتا- و نساء غير أن المرأة تركب السرج بلا فتح لرجليها بل أنها تثني رجلها اليمنى على مقدمة السرج و رجلها اليسرى تضعها في الركاب، و عادة الأهالي في السلام عند الملاقاة هي المصافحة مع هز صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ٤٥

اليد و يقول أحدهما للآخر: «يوم حسن أو ليل حسن» و إذا قدم مسافر على حبيبه أو قريبه قبله في فمه و لو الولد مع والده أو امرأة مع قريبها، لكن النسوة يزدن أن الحبيبات متى اجتمعن قبلن بعضهن في الأفواه. و الرجال لا بد في سلامهم من كشف رأس بعضهم لبعض و الرفيع بالنسبة للوضع يضع يده على قلبه كأنه يريد رفعها فقط، و إذا دخل وارد على آخر في بيته لا يجلس إلا و هما مكشوف الرأس، و هي عادة جارية في جلوسهم في بيوتهم مكشوف الرأس إلا من كان به أذى من رأسه، و من عاداتهم أن لا يبعدوا المشى لتلقى القادم لكنهم يبعدون التشيع، و من الآداب أن يحدث أحدهم كلاما لصاحبه عند الفراق فيتمه في حالة الوداع، و يتصافحون أيضا عند ذلك.

مطلب في التجارة

الطليانيون لهم مهارة في التجارة كغيرهم من أهالي أوروبا فرادى و مجتمعين و الذي وسع تجارتهم هو عقد الشركات، فأموال الواحد لا تكفي لمزيد الاتساع في التجارة و لذلك يعقدون شركات ذات أسهام عديدة و يقضون للمباشرة بعضا منهم ممن يأتمنون، و تكون لشركاتهم فروع في الأقطار التي يواصلون معهم التجارة و يعلنون كيفية التجارة و البضاعة و أسعارها و كيفية إيصالها بواسطة الصحف الخيرية و بأوراق و كتب يودعونها مجانا، و يرسلون الرسل لاكتشاف تجارات البلدان و الأقطار و إن بعدت و يشهرون بها تجارتهم و دولتهم تحميهم في أنفسهم و أموالهم أينما حلوا، و لا تقتصر تجارتهم على نتائج بلادهم.

ثم إذا لم توف أموال الأفراد أو الشركات للمقصود من التجارة تراهم يفترضون من ديار الصيرافة، و هؤلاء الصيرافة هم ذوو الأموال إما أن تكون لواحد أو لعائلة أو للعموم بأن يكون كل من له شيء من المال و لا يريد التعب في ترويجه و الريح منه لعجز أو غيره، فإنه يدفع ماله لإحدى ديار الصرافين المسماة عندهم بالبنوك و يأخذ منها حجة في مقدار ما دفع و تاريخه و يأخذ على ذلك ربا في كل سنة و هو لا يتجاوز ستة على المائة في السنة، و مهما أراد رأس ماله فإنه يحاسب على مقدار ما بقي عند الصراف و يأخذ ربحه و رأس ماله حالا، و كذلك إذا أراد أخذ البعض من رأس المال فله ذلك، و كذلك إذا أراد إرجاع ما أخذ أو أكثر أو أقل فله أن يدفع متى أراد و يأخذ متى أراد و يحاسب متى أراد، فسهل بذلك إدارة أموال العاجزين مع أرباحهم.

ثم إن البنك الذي يأخذ الأرباح على النحو المذكور يدفعه لمن يريد الإستقراض بزيادة في مقدار الربا على ما يعطى هو و هاته الزيادة محدودة لا تتجاوز العشرة على المائة في السنة، و كل من مقدار المدفوع و المأخوذ مختلف بحسب البنوك و البلدان لكنه على كل حال لا يتجاوز الحدود المذكورة لمنعه بالقوانين، حتى أن من تجاوزها يعد سارقا، ثم إعطاء البنوك المال للمستقرضين إنما يكون برهن أو لمن له اعتبار يأتمنه به صاحب البنك، ثم أن بعض أصحاب البنوك تجيزهم الدولة على قانون معلوم بأن يخرجوا أوراقا تتداولها

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ٤٦

الناس عوضا عن النقدين بشرط أن لا تتجاوز الضعف مثلا من مقدار رأس المال، و بعض تلك البنوك مخصوص بالفلاحة و بعضها مطلق، و بما تقدم تجد التجارة رائجة بين أيدي السكان بأكثر من أضعاف كسبهم، و أهم الوسائط لتريدها: الحوالات المالية، و هي أن التاجر يشتري شيئا أو يأخذ مالا من أحد و يعطيه حواله بقبض ما يطلب منه على أحد التجار أو البنوك على أن يقبضه على تسعين يوما و هو الأكثر دورانا و تارة يكون أقل أجلا و تارة يكون أكثر، و عند بلوغ تلك الحواله للمحال عليه يوقع عليها بالقبول ليدفع في الأجل و قبيل حلول الأجل يرسل المحيل المال إما مما باعه أو بما قبضه من حواله أخرى، بحيث أن المحال عليه يدفع المال في أجله

من غير أن يخرج من ماله شيئاً مع ربحه لجزء من المال لأنه يلزم الإتفاق من قبل بين المحيل و المحال عليه في قبول الإحالة و في مقدار ما يربحه و لا يتجاوز النصف في المائة، و تارة يكون بلا ربح بالمرّة لمصادقة أو معاوضة بمثلها بينهما، كما أن المحال عليه يربح بقبضه ماله نسيئته أيضا جزءا يسيرا و المحيل يربح لأنه يتجر بمال ليس له فيه رأس مال، و لكن مع ذلك كثيرا ما يعترى الإفلاس تجارهم و بنوكهم لأن من أحكامهم أنه إذا حان الأجل و لم يدفع المؤجل ما عليه ففي الحال يفلس، و لذلك كانت أكثر البنوك بإيطاليا التي لها أوراق مالية لا تصرف إلا ببخس بالصرف بالعين لاحتمال الإفلاس و لا تتداول خارج المملكة بل و لا خارج بلدانها إلا بنك الدولة فإنه رايع في جميع مملكته فقط.

و في كل مدينة محل ضخم للمناداة على المتاجر العالية يسمى «بورسى»: يفتح بضع ساعات عند الزوال، إذا دخله الإنسان يجده محتبكا بالخلق و الضجيج بأصوات السماسرة ينادون على أوراق ديون الدول و أوراق الشركات التجارية الكبيرة ذات الحصص، كطرق الجديد و خليج السويس و أشباهها، و كثير من التجار يفلسون في تلك المتاجرة لأن بعضهم لا يشتري و لا يبيع إلا يدا بيد و هؤلاء لا يعترتهم الإفلاس إلا نادرا لأنه إذا انحطت أسعار ما اشترى لا يطالبه أحد بشيء و إنما يصبر على خسران نفسه إلى أن ترتفع الأسعار، و بعضهم يكون له رأس مال لما يشتريه و ما يشتريه أيضا ليس بحاضر بل هو مؤجل لرأس الشهر و يعتمد على أن ما يشتريه اليوم يرتفع سعره غدا أو بعد أسبوع فيبيعه و يأخذ الربح، و يحيل المشتري على البائع فيما اشترى و يخرج من بين بالربح، فكثيرا ما يربحون بذلك أموالا جسيمة و كثيرا ما يفلسون في أموال جسيمة بأن ينحط السعر عما اشترى به و يحل الأجل فيلزمه دفع الثمن و أخذ المبيع أو دفع مقدار الخسران فقط، فيستغرق كسبه في كرة واحدة أو عن كرات. و هذا النوع لا يحكم به الحاكم عندهم لأنه يراه من المقامرة لكنه لا يمنع منه فالمفلس يفلس نفسه بغير حكم لكي لا يسقط اعتباره رجاء أن يربح مرة أخرى بمعاملة التجار إليه، فما تقدم كله من أسباب الثروة و اتساعها و سيأتى في الخاتمة إن شاء الله تعالى ما يجوز لنا شرعا عمله و ما هو ممنوع.

و من أعظم أسباب الثروة و اتساع التجارة تسهيل الطرق لنقل البضائع بأجرة سيرة

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ٤٧

و زمن قليل، و كانت الطرق الحديدية أنفع وسيلة لذلك حسبما تقدم في الكلام على تونس و لكن الطرق الحديدية وحدها غير كافية لأنها إنما تمر على الأماكن الأكثر عمراناً فيلزم لها طرق فرعية صناعية لجلب البضاعة بسهولة لمراكز الطرق الحديدية، و لذلك كانت سائر الجهات في إيطاليا طرق صناعية.

و من أنفع وسائل التجارة و العمران انتظام البريد، و هو أن الدولة تجعل أماكن في سائر البلدان لوضع المكاتب في محل منها و يؤدي صاحب المكتوب أجرة على حمله أجرة زهيدة بالمرّة، بأن يشتري بطاقة من الورق عليها علامة مخصوصة و ظهرها عليه صمغ قبيل الصمغ و يلصق البطاقة على المكتوب بحسب ثقل المكتوب في زيادة الأجرة و يكتب عنوان المكتوب بإسم المرسل إليه و بلده و حارته و عدد منزله، فتحمل المكاتب من كل بلد في الرتل و لها مركبة خاصة بها مرافع ذات أقسام و مستخدمون فعندما تأتى المكاتب إلى المركبة في وعاء، يسير الرتل و يشتغل المستخدمون في توزيع المكاتب على أسماء البلدان و يميزون كلا على حدة، و مهما وصل الرتل إلى بلد أقبلت أتباع البريد عن عجل إلى تلك المركبة و دفعوا لها ما عندهم و أخذوا منها ما يخص تلك البلدة، ثم يسير الرتل و هكذا و كل بلدة أخذت المكاتب من الرتل يؤتى بها لمحل البريد و تعطى لموزعين يوزعونها على أصحابها حسبما هو معنون عليها، و إذا وجدوا مكتوبا غير خالص الأجرة يوصلونه للمرسل إليه فإن دفع أجرة حمله و هي إذ ذاك مضاعفة سلم إليه المكتوب و إلا أرجع إلى محل البريد و حفظ فيه مدة ثلاثة أشهر فإن جاء صاحبه باحثا عنه أدى أجرته و أخذه و إلا فتح فإن وجد به إسم مرسله و محله أرجع إليه و أخذ منه الأجر مضاعفا و إلا أحرق، و هكذا فيما إذا لم يوجد المرسل إليه بالمرّة و كان خالص الأجرة فإنه يرجع من غير أجرة، و إذا كان المكتوب ذا أهمية فلصاحبه تضمينه أى يجعل صاحب البريد ضامنا لإيصاله بأن يجعل عليه خواتم بالشمع خمسة أو علامة أخرى و يأخذ من صاحب البريد حجة في إيصاله إلى صاحبه و يؤدي عليه أجرا ضعفين على المعتاد،

و إذ ذاك لا يسلمه البريد إلى صاحبه إلا بأخذ حجة منه في الوصول إليه، فإذا فرض ضياعه من صاحب البريد فإنه يؤدي للمرسل ستين أو خمسين فرنكا و هكذا سائر الأوراق المكتوبة على النحو المتقدم، غير أن الصحف الخبرية أجرة إيصالها زهيدة بالمره و كذلك الكتب و قد جربوا أنه مهما رخصوا في الأجرة إلا ازداد الدخول للبريد و ما تقدم في كيفية الحمل للبريد في الأماكن المتصلة في البر.

أما إذا كانت الأماكن يتوصل لها بحرا فإن الدولة تتفق مع إحدى الشركات التي لها بواخر سيارة للتجارة على أن تحمل البريد بأجرة سنوية على مقدار ما يتفقون عليه من السنين، على أن تفلح البواخر في أوقات معينة و تصل إلى أماكنها في أوقات معينة من غير تقديم و لا تأخير، و إذا تأخرت البخرة عن ميعادها فلا بد أن تبين بحجة السبب الإضطراري الذي حملها على التأخير و إلا فتخسر شركتها أموالا بليغة ضمنا عن التأخير، و كذلك الرتل إذا كان لغير الدولة أعنى في الإتفاق معه على حمل البريد، أما في تعيين الأوقات صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ٤٨

و انضباطها فالكل سواء برا أو بحرا و لذلك تجد السفر مع البريد في غاية الإنضباط لأنه لا يتخلف عن مواعيده فالمسافر معه يكون مرتاح البال عالما بيوم سفره و ساعته و كذلك بساعة وصوله، إلا أن يعرض عارض سماوى. ثم إن السفر في بواخر البريد هو أحسن من غيرها من البواخر التجارية لأن تلك أتقن نظافة و أقل ازدحاما و أرفق خدمة بالركاب حتى إذا كان البحر راكدا كان السفر نزهة و لكن قلما يصفو الحال بسبب اضطراب البحر، أما السفر في الرتل فهو على نحو ما تقدم من الإنضباط سواء كان حاملا للبريد أم لا، و لكل رتل رقاع مكتوب بها الإعلام بوقت سفره من كل بلد و وقت وصوله و كم يقف بها من الدقائق و يتحفظون على تلك الأوقات للغاية، و عند ما يصل بلدة ترى خدمته يصيحون باسمها و عدد الدقائق التي يقف بها إعلاما للمسافرين و وقوفه لا يتجاوز نصف ساعة في وقتي الأكل.

و أما غيرهما فأكثر وقوفه عشر دقائق إلى الدقيقتين، و بلدان الوقوف للأكل يجد بها في المواقف بيوتا ضخمة بها موائد الأكل و المأكولات المطبوخة و الفواكه كلها مهيئة، فمنهم من يأكل هناك و منهم من يشتري و يحمل أكله معه، و الأثمان في تلك الأماكن أغلى من غيرها. كما أن البلدان الأخرى يوجد في محطاتها الأكل لكنه دون ذلك، و في كل محطة تجد المستراحات، فالركوب في الرتل منتزه على كل حال سيما مع ما أحدث فيه من المخادع المنفردة حتى يستطيع الإنسان أن ينام و يقضى جميع ضرورياته بغاية الراحة، و في أيام البرد تسخن المخادع بأواني نحاسية مملوءة ماء حارا و يزيد أجر هاته المخادع على الإعتيادية نحو عشرة في المائة، و قد أحدث نوع من المركبات ذو مقاصير للإنفراد و بيت للإجتماع، فيكون الإنسان كأنه في دار مع جيران و هو مسافر و لا يزيد الأجر في هاته المركبات على المركبات من الطبقة العليا إلا نحو الثلث.

و من وسائل رواج التجارة ورود الأخبار بالأسلاك الكهربائية، فأصحاب الشركات يخبرون أصحابهم كل حين بما يروج عندهم في الأقطار المختلفة و ما يكسد من البضائع فيكونون على بصيرة منه، و أعظم ما يكون ذلك في متاجر محلات «البورسى» فترى الأخبار تتساقط عليها كالنسيم و بذلك ترفع أسعار الأوراق الديون و غيرها أو تنحط، و أعظم ما يؤثر في ذلك الأخبار السياسية سيما الواردة من قواعد الممالك السبع الكبيرة و هي: الاستانة، و باريس، و لوندرة، و برلين، و فيينا، و روم، و سان بطرس بورغ. إذ هاته الدول هي التي عليها مدار السياسة العامة، و قد اتخذ التجار الأخبار السياسية ملعبة للأرباح حتى صاروا يختلقون أحيانا أراجيف سياسية تارة بالتصريح و تارة بالتلويح و تتلقفها عنهم صحف الأخبار فينشأ عنها أرباح أو خسائر مبنية على أوهام، و لذلك يرى بعضهم أن سهولة قرب الأخبار و نقل البضائع مضر بأرباح التجارة و أن الأرباح انحطت عما كانت عليه في القديم، و هو صواب بالنظر لهيئة التجارة القديمة لكن في نفس الأمر قد ازدادت كمية التجارة، و ذلك أن التاجر ذا البضاعة من الصوف مثلا كانت لا تأتيه سفينة شرعية بها ألف قطار من الصوف و المكاتب المعلمة بالأسعار إلا بعد عدة أشهر فيبني عليها عمل تجارته و يشتهر خبرها و لا يبيع تلك الألف قطار إلا بعد عدة أشهر فيربح فيها في السنة عشرين في المائة إن ساعده

صفوة الإختبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ٤٩

البخت، و الآن صار يأتيه في كل أسبوع نحو ذلك القدر مثلا و تأتيه الأخبار كما تأتي غيره فيبيع صوفه بربح عشرة في المائة فقط في شهر، ثم الشهر الذي بعده كذلك و هكذا، فعوضا عن كونه كان يدير رأس ماله مرة في السنة و يربح فيه عشرين في المائة صار يديره إثنتي عشرة مرة يربح فيها أزيد من الضعف، فبالنظر إلى كمية الربح كل مرة تجد الأرباح القديمة أوفر لكن في الحقيقة الناتج في السنة من الأرباح الحالية أكثر، و لا يظن أن ما قلنا مبالغه بدعوى أن كمية المحتاج إليه من الصوف مثلا في القطر المجلوبة إليه لم تزد فما يأتي زائدا لا يباع.

و بيان فساد ذلك أن الإدارات و الحركات كلها مرتبط بعضها ببعض فكما سهلت المواصلة سهلت آلات النسيج بالمعامل البخارية، و البلد التي كانت تنسج ألف قطار صوفا في الشهر بآلات اليد صارت تنسج أضعاف أضعافها بآلات البخار، و تلك المنسوجات تنفق مهما ازدادت بانحطاط أسعارها فيكثر راغبها، فمن لم يكن قديما قادرا على لبس الملف و هو الجوخ لغلوه صار الآن يتوصل إليه لرخصه برخص ثمن الصوف، بما نقص من أجره حملها و قلته ربح تجارها و برخص آلات النسيج و بقناعة البائع بالربح اليسير و هكذا، و كذلك كثرت سكان الممالك المتعدنة و كثر المتعدنون و كثر اتساع التجارة و إيصال البضائع إلى الأقطار الشاسعة التي لم تكن تصل إليها من قبل، فارتبطت الأشياء بعضها ببعض و اتسعت التجارة و ازدادت الأرباح على نحو ما ذكرناه، و أضف إلى ذلك أن المنسوجات بالمعامل ليست متينة مثل عمل الأيدي فصار أغلبها يبلى و يتمزق بسرعة بالنسبة للمنسوجات المصنوعة باليد، ثم أن تجارة إيطاليا أغلبها بيد أهاليها و فيهم كثير من الأجانب و قد كانت سابقا تجارتها أغنى مما رجعت إليه ثم انحطت بتقدم الممالك المجاورة لها و تأخرها عند انقسامها و ظلم ولايتها لكنها الآن تراجعت للغنى، و أغلب ما يخرج منها الحرير الغير المصنوع و الدقيق و أنواع العجين المصنوع و الحبوب و الحيوانات المأكولة و الجلود و زيت الزيتون و الكبريت و هي كما سبق لها انفراد به، و قد خرج منه في عام واحد مائتان إثتان ألفا و خمسون ألفا «تونولاته أي قطار» ٥٠٠، ٥٠٠، ٥، و كذلك يخرج منها المرمر و الرخام الأبيض و الكتان و الحشيشة المعروفة بالتكروري و المنسوجات الحريرية و الأعطار و التبن المصنوع منه كراسي و غيرها، و الحجر مثل الحجر المعروف بحجر سيسيليا الذي هو ليين خفيف و بعض المعادن المشار إليها في التعريف بإيطاليا، و قيمة تجارتها في سنة واحدة و هي سنة ١٨٧٦ ملياردان و ستمائة ألف فرنك و المليار ألف مليون، و هاته التجارة مع جميع الممالك المعروفة لكن أكثرها مع النمسا و فرنسا ثم بقية الممالك، و يخص من ذلك الزيت وحده ثلاثمائة و خمسون مليوناً.

مطلب: في الصناعات الفلاحية في إيطاليا

إعلم أن هاته الصناعة لها ترق كبير لحسن الموقع و اعتدال الهواء و مع ذلك لم تبلغ إلى درجة النهاية نعم هي في الجهة الشمالية مناكبة لما جاورها من فرنسا و غيرها،

صفوة الإختبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ٥٠

فلأهلها اعتناء و اتقان للزراعة و تربية الأشجار و تنميتها حتى ترى الأرض كأنها حديقة متقنة و لا تجد أرضا خالية من الأشجار و لو الأراضي الزراعية، بحيث تجدها مقسمة بصفوف من الأشجار و بينها براحات للمزروعات فصاحب الأرض ينتفع بغلال الأشجار و الحطب و الزرع معا، و ترى الأرض مقسمة بتقاسيم لها منظر بهيج و نفع عظيم هذا زيادة عما يحصل من الأشجار من السبب في المطر، و ذلك لأن الله بحكمته البالغه جعل عروق الأشجار تمتص الماء من عوامق الأرض ثم تنفثه بخارا من أغصانها و أوراقها و ينشأ من البخار السحاب و إذا كانت الأشجار مرتفعة جذبت ذلك السحاب لبطيء السير حتى يمطر عليها و يحصل بسبب ذلك كثرة المياه في الأرض فيكثر خصبها و قد بانت سبب ذلك بالتجربة و الله الخالق الحكيم، ثم إن صناعة الفلاحة لا يأخذونها بمجرد التقليد في العمليات بل أنها لها علم مخصوص يدرس و يصور بالمشاهدة و له مدارس مخصوصة و يعتمد كثيرا من الكيمياء و حول

المدارس أراضى للبيان بالعيان و التجربة و العمل و أراضى الرعى مخصوصة، و من حسن التريية و حراسه الحكم لا يتجاسر أحد بالرعى و لا غيره فى أرض ليست له إما بالملك أو بالكراء حتى أنه ليس لسائتهم طوابى تمنع الداخلى و لا تقع عندهم سرقة الغلال إلا نادرا.

و أما بقية الصنائع فلهم كفاية فى كل الصنائع الضرورية و التحسينية، لكنهم ليس لهم معامل كثيرة التى هى من أعظم أسباب الثروة و الترقى و إن كانوا لا زالوا مجتهدين فى ترقياتها إلى بلوغها لمثل درجة الأمم البالغة للنهائية فى المعارف و التمدن، و الحاصلون عليه الآن هو أن لهم معامل للسلاح بأنواعه و معامل لإنشاء السفن و البواخر المدرعة و معامل للتحليلات الكيماوية و للأعطار و للشمع المتخذ من الشحم للدباغة للجلود و لصناعة الورق و غزل القطن و نسج الجوخ و الشاشية و أنواع المنسوجات الحريرية، و منه النوع الفاخر المسمى «بالأمير» أو القطيفة، و معامل للطرز، كما أنه يصنع بالأيدى أيضا.

و لهم معامل للزجاج و الفخار و العقيق و الزهور الصناعية و آلات المرايا المكبرة و آلات الموسيقى، و خصوص أوتار بلد نابلى لها صيت كبير فى جميع الجهات، و فى نابلى و ميلانو معامل متقنة للكراريس أى عجلات الركوب، كما أن فى إيطاليا إتقان لصناعة الأحذية و سائر الأتعة و خياطة الملابس و هم فائقون فى صناعة نحت المرمر و نقشه و كذلك صناعة المرجان و الصياغة و الكهربان و المادة المتجمدة النارية المنقذة من أفواه البلاكين و الموزايكو أى القطع المرمر التى الواحدة منها قدر الظفر ترصف على أشكال بديعة و يلصق بعضها ببعض بنوع من الطين و الجير، و قد شاهدت فى معرض ميلانو سنة ١٢٩٨ هـ سنة ١٨٨١ م من تقدم إيطاليا فى سائر الصنائع ما صيرها قادرة على الإستغناء بنفسها فى سائر الحاجات و التحسينات فضلا عن الضروريات، حتى أن ملكها لما دخل المعرض مع رجال الأمة تعجب مما احتوت عليه المملكة مما لم يكن يخطر بباله، و من جملة ما احتوى عليه هذا المعرض تشخيص سائر أصناف الطليانيين بصور على ألوانهم

صفحة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ٥١

و هيئة لبسهم، فرأيت أكثر من ثلاثين صنفا كل منهم له سحنة و شارة خاصة، و أعظم ترقيمهم فى مصنوعات الجلد و الطين و العجلات و لهم مشاركة فى سائر المصنوعات.

مطلب: فى المعارف

المعارف الدينية المسيحية لها سوق رائجة من القسوس و لهم صوامع و مدارس، لكنهم قد منعوا نوع القسوس الجزويت من التجمع فى المدارس لأنهم يخطون التعاليم الدينية بالتعاليم السياسية و يتخذون المدارس كالقفل للتعكسر، فمنعوا من ذلك لخوف الدولة من تشويش سياستها لمخالفة مشرب الجزويت لمشرب الدولة فى أصول السياسة.

و أما العلوم الرياضية: فقد أخذوا فى التقدم فيها و على الإجمال فأهالى الشمال متقدمون على غيرهم فى سائر الفنون و التجارة و الفلاحة و علومهم الأصول ثلاثة:

أحدها: علم جر الأثقال.

و ثانيها: علم الكيمياء أى تحليل الأجزاء و تركيبها.

و ثالثها: علم الطبيعيات. و لكل منها فروع كثيرة و من فروع الثانى و الثالث علم الطب الذى كانت اشتهرت به بلد بيزة قديما و الآن لم يبق لها ذلك الإعتبار، و على العموم ففى إيطاليا الآن مدارس و مكاتب على ثلاث طبقات، و المكاتب العليا فيها إلى الآن لم تناكب مكاتب فرنسا و ألمانيا، و فى إيطاليا من أسباب تيسير المعارف كل اللوازم سيما المطابع و الصحف الخيرية و خزائن الكتب، ففىها ٤٩٣ خزنة كتب تحتوى على ٢٨١، ٣٤٩، ٤ مجلدا من الكتب المطبوعة، و ٥٧٠، ٣٣٠ من كتب الخط، و فى خصوص مكتبة قصر الفاتيكان ٣٠، ٠٠٠ كتاب، و هى أحسن المكاتب من جهة حسن كتب الخط.

مطلب: في هيئة المساكن و الطرقات

إعلم أن إيطاليا تكاد أن لا تجد بين بلدين فيها طريقا غير صناعية، بل كلها متصلة ببعضها بالطرق المحصبة المتقنة الصناعية، غير أن الطرق في البرية لا-تنظف و إنما لها قيمون لإصلاح ما يفسد منها، كأن يكون على كل ثلاثة أميال قيم له مركز يأوى إليه و فيه من آلات الإصلاح الخفيف ما فيه كفاية، و يكون هو طول يومه متفقدا لما في عهده و مهما وجد مكانا متغيرا بادر لإصلاحه و هكذا، فإذا طال الأمر على الطريق و احتاج للتجديد باشره بذلك المكلف من المجالس البلدية، و على أولئك القيمين متفقدون في كل الأوقات، كما أن سائر أطراف المملكة متصل بعضها ببعض بالطرق الحديدية و كذلك تتصل بسائر الممالك المجاورة لها بالطرق الحديدية و تلك الممالك متصلة بغيرها بذلك أيضا فكانت أوروبا كلها كأنها بلد واحد في سهولة الانتقال و السرعة من مملكة إلى أخرى و من بلد إلى آخر و مع ذلك فلم تزل إيطاليا مجتهدة في زيادة الفروع للطرق الحديدية.

أما الطرق في دواخل البلدان فزيادة على كونها صناعية لها خدمة ينظفونها مرات في اليوم و لا تجد في البلد مزبله لأن خدمة التنظيف يرفعون الأزبال الملقاة من الدور في آخر

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ٥٢

الليل و من طرح الأوساخ من داره في غير الأوقات المعينة عوقب على ذلك بالعقوبة المالية بحيث تجد سائر الطرق نظيفة و في الليل منورة بالبخار الغازي و الفوانيس نظيفة، و غاية ما هناك هو الفرق بين البلدان في شدة النظافة و التنوير و اتساع الطرقات فقط، أما الأصل فهو موجود في الكل و لو في القرى. و الطرقات أغلبها يمر فيها عجلتان و منها ما هو أوسع و في البلدان القديمة لم تزل طرق ضيقة لا يمر فيها إلا الماشي.

و أما هيئة المساكن فإن المدن لا تكاد تجد فيها الديار ذات طبقتين فقط بل تزيد إلى السبعة و الثمانية، و يكون ظاهرها على الطرقات ملتصقا ببعضه ببعض قريب المشاكلة في الصورة مع التحسين الظاهري و التنظيف و طول الطرق و اتساعها، و جعل البطحآت فيها و الأشجار على أوسعها فكانت مدنهم بذلك ذات منظر بهيج حتى أن الحكم يوجب على المالك أن يحسن ظاهر بيته على حسب ما يشير به المهندسون من المجلس البلدي، و أما داخل الديار على الإجمال فإذا دخل الإنسان من الباب يجد سقيفة ثم درجا متصلا بعضها ببعض متصاعدة أما على شكل دائرة أو مربعه إلى أن تنتهي لأعلى طبقة، و مهما وصلت الدرج إلى طبقة تجد فيها فسحة ذات أبواب بقدر ما في الطبقة من المساكن، فإذا دخلت مسكنا تجد إيوانا مسقفا و به أبواب للبيوت و باب إلى ممر به بيوت و مطبخ و مستراح و تارة يكون في إحدى البيوت الأخرى مستراح آخر، و جميع الحيوط مطلية و السقوف إما خشب أو بناء مطلية مدهونة، و كل البيوت لها طواقي كبار و يعتنون بمقابله الأبواب و الطواقي و الأبواب و عواضدها من خشب متقن الصنعة، و سائر الأماكن مبلطة إما «بالجليز» أي نوع من الآجر المطلي المتقن، أو المرمر و كذلك الدرج. و من اقتصادهم أن كل بلد تقتصر على ما عندها من مواد البناء و لا تأخذ من بلاد أخرى شيئا إلا ما لا يمكن الإستغناء عنه بما فيها و لو كان الشيء من بلد في نفس المملكة، ثم البيوت التي بكل دار أكثرها مائل إلى شكل التريبع واحدها بيت للجلوس و آخر للأكل و هما أكبر البيوت ثم آخر للنوم و كل منها به من الفرش ما يناسب موضعه، و فرشها مختصرة متقنة مرونقة من كراسي كبار و صغار و ساعات و مرايا و زرابي و أسرة يعتنون بنظافتها، و يعتنون باتساع الدرج و راحتها. و كل مسكن لعائلة فتجد الدار الواحدة يسكنها عدة عائلات كل عائلة منفردة في إحدى المساكن على قدر كبرها و طبقاتها، و أما دور الأعيان و الأغنياء المنفردين بديارهم فهي على ذلك النحو أيضا لكنها كلها تكون ذات مسكن واحد و طبقاتها لا-تزيد على الثلاث أو الأربع، و كثير من أغنيائهم يسكنون في الديار المشتركة من النوع الأول لكنهم يختارونها و سبعة و كل مسكن يكون بابه مغلقا، و عند الباب الخارجي للدار بيت يسكنه بواب بالأجرة من جميع أصحاب المساكن للحراسة، و كل البلدان لها خنادق تحت الطرق لجريان القذورات فيها أولها دهاليز و الجميع مغطى و لا يفتح للإصلاح أو التنظيف إلا ليلا، و

سطوح الديار في جميع الجهات الشمالية مسنمة لثلاث يتشاكل عليها الثلج، و أما الجهات الجنوبية ففيها بعض من السطوح مسبوطة.

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ٥٣

مطلب: في اللبس

الرجال يلبسون قميصا و سراويل و صدرية تسمى «جيلي» و ستره أى جبة مفتوحة الطوق إلى أسفل قصيرة إلى نحو نصف الفخذ ذات يدين ضيقتين و سراويل أخر طوال إلى أسفل القدم ضيقة الرجلين و المقعدة جدا كأنها لاصقة بالعضو، و في بعض المواكب يلبسون ستره مقطوعة الذبول من أمام، و في الشتاء يلبسون على جميع ذلك جبة أوسع من الأولى و أطول و تارة تكون مبطنة بأنواع من الفراء، و بعضهم يزيد لبس قمصان ضيقة من الصوف و في أرجلهم الجوارب من قطن أو صوف و أحذية كالخف الضيق و لهم فيها أنواع كلها ذات أقدام مرتفعة، و على رؤسهم قلانس من قطعة واحدة على أشكال منها ما هو من الجوخ و منها ما هو سعف أو تبن، و لما كانت ألبستهم ضيقة فلا يجلسون إلا على الكراسي و ما شاكلها و لذلك كانت فرش بيوتهم كلها ملائمة لذلك، نعم لهم جبائب و سبعة ذات ألوان يلبسونها في الأوقات التي لا يخرجون فيها و لا يأتيهم فيها أحد و كل ألبستهم غير القمصان و الجوارب لونها أسود أو ما قاربه و أغلبها من الصوف و لا- يلبسون الحرير إلا- نادرا في بعض الثياب، و يلبسون في كفوفهم قفازا إما أسود أو ما قاربه و كذلك في رقابهم يلبسون روابط و لقمصانهم رقبات بيض يطونها بالنشا و كذلك أطراف أكمامها الضيقة و صدورها، و يتحفظون على نظافتها و يرسلون شعر رؤسهم لكنه لا يتجاوز شحمة الأذنين و يفرقونه، و أما لحاهم و شواربهم فهي لعبة بأيديهم تارة يحلقون الكل و تارة البعض دون البعض و تارة يبقون الكل فتجد الوجوه على أشكال شتى و لكن من يحلق تراه يحلق يوميا لأن إبقاء أثر الشعر عندهم من الوسخ، و أما لبس النسوة فقميص و سراويل و سبعة من كتان و صدرية مضبوطة على الصدر لها عيدان من شعر سمك البلين لتصغر البطن و الخصر و ترفع النهود و تعلق الردف، و فوقها جبة طويلة إلى الأرض ضيقة النصف الأعلى و لها أكمام ضيقة إلى الرسغ و وسبعة الأسفل من الخصر إلى الأرض ذات تكاميش، و يتنوعن في هيئتها و قد يطلن ذيلها من وراء حتى يصير يجر على الأرض نحو ذراعين أو أزيد من ورائها، و يلبس جوارب في أرجلهم و أحذية ذات أعقاب عالية و صرن يجعلن العقب قرب نصف القدم ليتراءى للناظر أن قدمها صغير مع أنه لا يرى لطول ذبولهن و أضراره بهن كما يذكره الأطباء، من أنه يؤدي الرحم لنزول ثقل البدن على وسط القدم أى الأخمص، و تارة يزدن فوق اللباس أردية أو متائن عند الخروج في الطريق و يسدلن على وجوههن خمارا شفافا صفيقا لمجرد التزين و يطوين شعورهن الحقيقية أو التقليدية بهيئات حسنة على أنفوخهن، و يلبس قلانس ظرافا ذات أزهار صناعية و غيرها و يلبس القفازين أيضا و يلبس من الحللى أفرطا و سوارا و خواتيم و قلانث و مساسك من أنواع المجوهرات على حسب الرفاهية، و أكثر ألوان لباسهن مائل إلى السواد ثم الأبيض ثم غيره.

و أما اللباس الرسمي لأصحاب الوظائف من الرجال فهو على الشكل الذى تقدم غير أن السترة تكون مطرزة بقصب الذهب أو الفضة على صدرها و عنقها و يديها و ظهرها على

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ٥٤

حسب الرتب، و كذلك يكون للسراويل شرطان من القصب و على القلانس علامات أيضا من القصب و يلبسون مع ذلك النياشين أى علامات الفخر، و لبس العساكر نظيف جدا متقن من ذلك الشكل غير أن سترتهم مقفولة الصدر و تبلغ في الطول إلى الخصر فقط إلا ضباطهم فهي طويلة كغيرهم مقفولة الصدر.

مطلب: في الأكل

هيئة الأكل عندهم هي موائد مرتفعة يجلس حولها على كراسي و تغطي برداء أبيض و كل آكل يجعل أمامه صحن فارغ و يأتي الخادم بأناء الطعام فيأخذ منه الآكل في صحنه مقدار ما يريد، و من إصطلاحاتهم أن تجد حذاء الصحن بطاقة بشكل لطيف مكتوب بها ألوان الطعام الحاضر لتلك الأكلة حتى تأخذ مما تشتهي، و هاته العادة هي من المستحبات عندنا كما نص عليها في آداب الضيافة و قزرها الغزالي في الأحيا لكن لا بخصوص الكتابة و إنما هي بأى إعلام للضيف بأنواع الطعام. ثم كل صحن حوله ملعقة و شوكة و سكين و بعد الفراغ من كل لون يبدل الصحن و السكين و الملعقة غيرها نظيفة، و كذلك يوجد حذو الصحن كيسان على قدر أنواع المشروبات التي تكون لتلك المائدة من أنواع الخمر، و في وسط المائدة أواني بالزهور بحيث أنها في غاية المنظر الحسن و النظافة و يتحفظ الآكلون على النظافة، و العادة أن لا يزيدون غالباً على خمسة ألوان إلا في الضيافات و الموابك، ثم بعدها يؤتى بنوع من الحلويات ثم بجنب ثم بفاكهة من إحدى غلال الوقت و طعامهم له أنواع شتى أحسنها أنواع المشوى، و أغلب أنواع الطعام مائل إلى التحريد عن كثرة الأخطا و الإبزرة حتى يضعون على الموائد أواني لطيفة بالملح و الفلفل الأسود و الخل و الزيت لما لعله يطلب منه الآكل إذا وجد الطعام غير لائق به في الملح، كما أنه يجعل على المائدة أوان ظريفة بالخرذل المسحوق المخلوط بالخل و قينات بالماء و آخر بالخمر المعتاد عندهم للأكل، ثم في أثناء الطعام يؤتى بأنواع آخر من الخمر أرفع من المعتاد و في آخر الطعام يؤتى بنوع منه يسمى شنبانيا إذا صب في الكاس على و ارتفع، و إذ ذاك يخطب خطباءؤهم في مقاصد تلائم حالة الاجتماع إما قائماً أو جالساً ثم في آخر كلامه يقف و يشير بعضهم إلى بعض بالكؤس كناية عن التوادد و يشربونها، و لكن هذا لا يقع في منازل المسافرين في الموائد العامة الاجتماع عن غير قصد و إنما يقع في الضيافات و المحافل و تارة يصرخ الحاضرون ببعيش كذا إما فلان أو مقصد سياسى، و من لا يريد الشرب من الخمر لا يعيرون عليه ذلك بل يعرض له صاحب المحل تعريضاً خفيفاً بمدح نوع الخمر فإن امتنع فلا تثريب عليه و يوجد فيهم أفراد لا يشربون كما أن غالب متبصرهم يعلم أن الخمر حرام عند المسلمين.

و النسوة في الديار هن المتكلفت بأحوال الأكل و الطباخون يكونون من الرجال

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ٥٥

و من النساء و لهم كتب مؤلفة في تركيب الأكل و الطبخ.

مطلب: في الموابك

أما الموابك الرسمية فإن الملك له بيت كبير في القصر الرسمي و بصدرة عرش على نحو ما تقدم في عرش والى تونس و يزيد بأن يكون على يسار محل جلوس الملك كرسى لزوجته، و قبل حضور الملك يحضر المأذونون بالحضور بملابسهم الرسمية و يقفون يمينا و شمالاً على حسب رتبهم و لما يحفل الموكب يخرج عليهم الملك لابسا لباسه الرسمي الذى هو على نحو ما تقدمت صفته، غير أن بعض الملوك يزيد على ذلك بلبس رداء طويل الأذيال واسع جدا ليس له أكمام و إنما يوضع على ظهره و كتفيه و يغلق حول العنق بأزرار ثمينة و يرفع أطراف ذيوله من ورائه بعض أبناء الكبراء من العائلة الملكية أو من أقاربهم إلى أن يجلس الملك على عرشه، و كذلك يكون له تاج مجوهر يضعه على رأسه مع اللباس الرسمي المقصب و يخرج في الموابك من حجرته و معه زوجته و أهل بيته و يصعد على كرسية و يكشف رأسه مسلماً بالإيماء إلى ميمنتهم ثم إلى ميسرتهم ثم يخاطبهم بخطبة مناسبة لمقتضى الحال مومياً لأحوال السياسة الراهنة، و تلك الخطبة تكون قد هيئت من قبل بتدبير الوزراء و تارة يلقيها الملك بنفسه و تارة يلقيها رئيس كتبه و يكون الحاضرون كلهم مكشوفى الرأس، فيحيونه بالدعاء له بطول العمر و ينفذ الموكب و هاته الموابك هي في رأس السنة و هو شهر يناير الأعجمى، و في عيد ولادة الملك، و كذلك يوم فتح مجلس النواب و الأعيان من كل سنة و يكون ذلك في محل المجلس، و كذلك تعقد موابك أخرى على حسب الحوادث.

و أما الموابك الأهلية فهي رأس العام و لا يحتفلون لغيره من الأعياد و إنما يكثر استدعاء بعضهم إلى بعض للمسامرة ليلاً فيما بين

المعارف زيادة على الاجتماعات في أماكن العموم كالملاهي و المنتزهات، و بسبب ذلك يقع التعارف بين الرجال و النساء المريرين للزوج فتكثر المخالطة بينهم في حالات مختلفة فإذا حسن عند كل طبع الآخر و سيرته خطب أب الزوج أبا الزوجة في بنته لابنه فإذا حسن لديه أيضا أجابه، و إذ ذاك في الغالب يجمعون خواص أحباب كل من الفريقين في بيت الزوجة لوليمه من طعام من الحلويات و الخمور و إن لم تكن الدار لائقة للإجتماع تجعل الوليمه في إحدى منازل المسافرين، فيوصى صاحب الوليمه صاحب المنزل على ما يريد و يعين له الوقت و عدد الأشخاص و يتوافقون على الثمن و عند قدوم المدعويين يجدون المحل على أحسن انتظام، و كذلك يصنعون في الولائم في الديار إذا كان صاحب الدار ليس له عدة الضيافة مع أن داره قابلة فإن صاحب منزل المسافرين يأتيه بكل ما يكفي من أوان و أطعمه و خدمة و غيرها و ليس على صاحب الدار إلا دفع الثمن مع الراحة و حسن الإنتظام في سائر أنواع الولائم، ثم إذا حان زمن العرس يحضر أبو الزوجة و يدفع للزوج مهر ابنته من مال عين أو أملاك و يكتب ذلك على الزوج و يكون أمانه في يده، ثم بعد ذلك يتوجهون إلى الكنيسة فيجدون

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ٥٦

المدعويين هناك و يحضر القسيس و يبارك على كل من الزوجين و يأخذ خاتما من ذهب من إصبع الزوج و يدخله في إصبع الزوجة و يرش عليهما ماء، و تكون العروس إذ ذاك لابسه لأحسن لباسها في لون البياض و متحليه بما لها من الحلوى ثم يحلق الزوج يده اليمنى على صدره و تدخل الزوجة يدها اليسرى في ذراعه و ينصرفون، و يقف آباؤهم معهم في محل عند باب الكنيسة لقبول الهناء من المدعويين، ثم يسافر العروسان حالا إلى أي بلد أرادوا مدة ما على حسب الرفاهية و الجدة و ذلك لأمرين.

أولهما: عدم الحياء من معارفهم بالإستراحة من الإشتغال بحركاتهم و سكناتهم.

و ثانيهما: تقضى مدة في الإنكباب على لذاتهما من غير تعب بأدنى كلفه مع الإقتصاد في المصاريف للوليمه لأجل المعارف و ينفقون ما ينفقون في لذاتهما هذا في الأغنياء.

أما الفقراء فيستعوضون عن السفر بالخروج لإحدى المنتزهات ثم إن الزوجة لا تكسو في العرس إلا نفسها و الزوج هو الذي يكسو بيته، و بعد ذلك يكون مصروف الزوجة في أكلها و لبسها و سكنها على زوجها و ذلك المال الذي أعطته مهرا للزوج باق على ذمتها و إنما يصرفون دخله على كل منهما.

و من ولائمهم أيضا وليمه بلوغ البنت فيلبسونها لباسا كله أبيض و برقا أبيض صفيقا و تذهب إلى الكنيسة ثم تعود لدار أبيها و يصنع لذلك وليمه. و اعلم أن ما ذكرناه من الذهاب إلى الكنائس ليس أمرا حتميا بل هو عادي لمجرد التعود عليه عند ما كانوا يجرون الأحكام الديانية في الأحوال المدنية، و موكب المآتم عندهم لا يجهرون فيه بالبكاء و بعد قدوم القسيس لحضور موت الميت يبقى مدة من الأيام لتحقق الموت، حيث أنهم وجدوا بعض الذوات يظهر عليها الموت و هي في الحقيقة لم تمت مع تعسر الإطلاع و لو من حذاق الحكماء، و يكون هذا بالخصوص في موت الفجئة و أمثالها، و كان هذا لا مانع في ديانتنا منه إذ استحباب التعجيل بالدفن إنما هو عند تحقق الموت بيقين أما قبله فيحرم، لأنه يصير قتلا و قد شوهد ذلك في كثير ممن نبشت قبورهم بعد زمان فيجدونهم في حالة غير التي يوضع عليها الميت، و يجدون الأكفان ممزقة و حيوط القبر بها آثار الخدش. فيجب التنبه لمثل ذلك و قد قالوا إن ذلك النوع يحصل بكثرة في الأمراض المستوبية و قد سمعت بذلك في بلادى مرات متعددة، منها في سنة ١٢٨٤ هـ حيث استوبى مرض الحمى الخيشه فكانت عدة جنازات ذاهبين بها فاطلع المارة على حركات في الميت و أوقفوا الجنازة و وجدوه حيا، و تارة ينادى هو من نفسه متفجعا من الحالة التي هو فيها. ثم إن أهل إيطاليا بعد تحقق الموت يكفنون الميت في لباسه النظيف و يجعلونه في صندوق من خشب ملفوف في رداء أسود عليه شرطان من قصب الفضة، و تحمل الجنازة في كروسه معدة لذلك و يركب مشيعوا الجنازة في كراريس معدة للحزن كلها سود، و أغنياؤهم يربطون في كروسهم خيلا سودا أيضا وعدتها سوداء و يذهبون بالميت إلى المقبرة فيدفن في قبر عميق و يحكم سد التراب

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ٥٧

و البناء عليه، و يجعلون على القبور هياكل من الرخام و يتأنقون فيها.

و أما الفقراء: فتجعل جنازتهم في سراديب مع بعضها، و قد اتخذ بعضهم ما تنوسى فى هاته الجهات و لم يبق إلا عند بعض الهنود و هو إحراق الميت، فإنهم يجعلونه فى فرن من حديد محكم السد لكيلا- تخرج الرائحة و يصب عليه زيت النفط و يحرق، ثم يأخذ رماده و يخزن فى إناء فى مكان عزيز فى دار أهله، و بعض الأغنياء العزيز على أهله تصبر جثته بعد إخراج أمعائه و يلبس ثيابه الفاخرة و يجعل واقفا فى جهة من البيت فى خزنة وجهها زجاج.

مطلب: فى اللغة

لغة عموم الأهالى تسمى طليانية و هى فرع من اللاتينية و ما يكتب فيها ينطق به على حسب الحركات المرسومة، و هى لغة واسعة مساعده فى النثر و النظم على بحور عندهم معلومة، و لذلك تجد أشعارهم بها جيدة المعانى على حسب اصطلاحاتهم فمنها ما يستحسن عند أهل العربية و منها ما يخالف الأسلوب البلاغى، و تلك اللغة و إن كانت هى اللغة العامة و الرسمية فى الكتابة و العلوم و غيرها لكن توجد فى أطراف إيطاليا لغات شتى حتى لا يكاد بعضهم يفهم بعضا بالتخاطب، أما إذا رجعوا للكتابة فيرجع الكل إلى لغة و اصطلاح واحد.

مطلب: فى القوة المالية و الحربية

إشارة

فرنك ٩٦٥، ٥٨٣، ٤٢٥، ٠١ دخل الدولة سنة ١٨٨١.

٩٦٥، ٥٨٣، ٤٢٥، ٠١ خرجها.

٠٠٠، ٠٠٠، ١٠ دينها.

٠٠٠، ٠٠٠، ٦٠٠، ٠٢ قوة التجارة فى المملكة بين الداخل و الخارج من السلع.

عساكر

٩٥١، ٣٩٥ تحت السلاح.

٨٧٦، ٤٣٣ رديف.

٨٢٧، ٨٢٩، ٥٠٠، ٠١٠ بحرية.

٨٠ سفن حربية مدرعة و خشبا منها مدرعة تسمى الدوبلو هى أكبر مدرعة فى البحر.

٦٥٥ مدافع.

٠٩٨، ٥ امتداد سلك الحديد أميالا سنة ١٨٨١.

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ٥٨

الباب الرابع فى مملكة فرنسا و ما رأته فيها

الفصل الأول: فى سفرى إليها

قد تقدم أنا وصلنا إلى بلد مودان التى ينتقل فيها المسافر إلى الرتل الفرنساوى و كان وصولنا إليها الساعة واحدة و نصف بعد نصف الليل، فوجدنا المحطة منورة و الخدمة متدرعين باللباس الثخين للتدثر من الثلج و البرد و بأرجلهم أحذية من الخشب، فلما أردنا الركوب فى الرتل الفرنساوى وجدنا المخدع الذى أوصينا عليه بسلك الإشارة حاضرا فى الرتل، و سألنا المكلفون عن ورقة الجواز، فلما أخبرناهم أنا من تونس و أردنا إحضار الورقة و رأوا لباسنا رحبوا و قالوا إلا يلزم إخراج الورقة و لا فتح الصناديق لنظر ما بها، فركبنا حالا- فى غاية الراحة و قفل الرتل سابحا على الأرض بسرعة أزيد من الرتل الطليانى، غير أن المخدع كان أقل انتظاما من المخدع السابق فأردنا النوم بقیة الليل لكن شدة البرد منعت من استراحة النوم، و لم يزل الرتل سابحا و لما بدا الفجر ظهر منظر الأرض و الحاصل أنه على نوع متشابه مع أعالي إيطاليا غير أن الفرق الذى يرى هو كثرة البلدان و القرى بأرض فرنسا على إيطاليا و كثرة الديار المنفردة فى الحقول و الأراضى بإيطاليا على فرنسا.

ثم وصلنا إلى باريس فى الساعة السادسة قبل نصف الليل فكانت مدة السير من تورين إلى باريس إحدى و عشرين ساعة، و كانت باريس تظهر من بعد فى الليل كأنها سماء زينت بالكواكب، و استمر الرتل سائرا من مبدأ علائق المحطة إلى أن وقف نحو خمس عشرة دقيقة فإذا هى محطة أضخم و أوسع من جميع ما رأيناه، فنزلنا و دخلنا إلى الكمرک و لما نظرنا المكلفون قالوا لا لزوم لتفتيش رحلكم و أتم مصدقون، هل عندكم من سلعة تؤدى الكمرک؟ فقلنا ليس إلا نشوق و ماء زهر وورد، فقالوا: هو بمقدار حاجتكم أم للتجارة؟

قلنا: بقدر حاجتنا، فأذنوا بسراح الرحل بدون تفتيش، و لا أداء، فركبنا كروسة كبيرة لمنزل المسافرين المسمى أوتيل «دى كابوسين» الذى هو من المنازل الحسنه الواقعة بأعز طرق باريس و أكثر التونسيين نزولا به، فاستمر السير خيبا من الخيل نحو من ساعة من المحطة إلى المنزل و كانت الطرق كلها منيرة بالفوانيس نورا زائدا على غيرها و هى طويلة و سبعة أزيد من غيرها بحيث ينتهى النظر فى طول الطريق، فأقمنا بذلك المنزل تلك الليلة و تعشينا و فى الصباح أفطرننا فطورا خفيفا و طلبت الحساب حيث لم أساوم قبل النزول فإذا أجرة البيوت ليلة و ثمن العشاء و الفطور الصباحى لثلاثة أنفس نيف و سبعون فرنكا، فخرجنا من صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ٥٩

هناك و تلاقينا مع المعارف و اكتروا لى منزلا خاصا ذا أربع بيوت بجميع لوازم فرشها و خدامها بثلاثمائة فرنك فى الشهر غير أن الأكل خارج عن ذلك بل يأتون به من إحدى أماكن الأكل القريبة هناك و هى كثيرة، إذ كان المنزل على النهج العظيم فى باريس المسمى «بلغاردى كابوسين» و هو من الأماكن الشهيرة بالعمران فى باريس، ثم إن كثرة قرعة العجلات التى تفوق عن الرعد فى ذلك الطريق ليلا و نهارا كدرت لى الإستقرار هناك حيث أنها لا يخف دويها إلا بعد نصف الليل بساعة و ما يضىء النهار إلا و تعود لما كانت عليه، فانتقلت إلى منزل آخر أوسع من الأول و يحتوى على مطبخ و بيت جلوس و بيت أكل و ثلاثة بيوت للنوم بجميع لوازم ذلك كله مع تغيير الفرش و المناديل بالنظيفة، و الكراء قدره ثلاثمائة فرنك فى الشهر و أحضرت طباخا بأربعين فرنكا فى الشهر و خادما بشعرين فرنكا و كان المصروف اليومي على لوازم الأكل نحو العشرين فرنكا فى اليوم مع الإقتدار على قبول بعض من الضيوف و الإرتياح من الإحتراس فى الأكل، و كان هذا المحل أيضا بإحدى الأماكن الشهيرة الزهه المسمى «بشانزى لزي» لكنه لما كان طريقه شديد الإتساع و محل مرور العجلات فيه يبعد عن حيطان الديار نحو العشرين مترو و كان تحصيب الطريق بالحصا المسواة بالرمل بخلاف الأول لأنه مبلط بالحجارة الصلبة التى فى قطع الشبر فكانت أذية الدوى مفقودة فى الثانى مع حصول المنظر الجميل.

و اجتمعت فى باريس بأشهر أطبائها فى المرض العصبى إذ لكل نوع من الأمراض عندهم مشاهير مخصوصون به و الحكيم الشهير فى هذا المرض عندهم هو الحكيم «شاركو» و أحضر معه إلى فى بعض الأيام إثنين من مشاهير أطبائهم، و كانت أجرة زيارة الواحد فى

المرّة الواحدة ستين فرنكا و إذا يزار الحكيم في داره يعطى أربعين فرنكا، و مما يدل على شهرة هذا الحكيم و غناه بعلمه أنه دعى يوما لمريض في بلد برلين قاعدة مملكة ألمانيا فذهب عشية الجمعة و رجع عشية الأحد في الرتل و أعطى خمسة عشر ألفا فرنكا لأجل تلك الزيارة و على ذلك فقس، و هو إنما يقبل المرضى في يومين فقط من الإِسبوع و بقية الأيام يقريء فيها دروسا عالية في الطب العصبي، و له مستشفى خاص بالأمراض العصبية تحت نظارته يحتوى على نحو ثمانية آلاف مريض، ذكر لى يوما الطبيب فيفرو الذى هو بمعىة الحكيم المشار إليه و مباشر للعلاج بالكهربا أن ذلك اليوم كان فى المستشفى مرضى أخذوا الأكل سبعة آلاف و ستمائة و نيف عدا من لم يستطع الأكل و من كان ممنوعا منه، و ذكر أن المستشفى حوسب على الأطباق الزجاجية الموضوعه فى أبواب الطواقى فإذا هى ثمانون ألف طبق، و ذلك الحكيم مع سعة معارفه هو بشوش مؤانس حتى صار ودود إلى و له و لزوجه ولوع كبير بالثياب و المفروشات و الأوانى و غيرها الصينية و المشرقية و العتيقية من صنائع أوروبا، حتى كانت بيوت داره مكسوة بأشياء بديعة ذات قيمة عالية جدا تتجاوز مئات آلاف فرنك، و من مصائب الجهل بالألسن ما حصل لى يوما: و هو أن الطبيب أخبرنى بأن المسكن الذى تعودت عليه بالإحتقان تحت الجلد ربما يتأنس به البدن فلا يبقى

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ٦٠

مؤثرا، و لذلك يريد أن يعمل وجها فى ذلك و أن الأولى بى أن أنقص من مقدار الإستعمال منه بأن أصنع ربع المحقنة فقط هكذا أفهمنى المترجم، ثم أتى بالعلاج المسكن من الصيدلانى فتحير على الألم بين العشائين كما هو عادة طوره فى الأغلب فقلت المقدار مثل ما قال الطبيب فلم يسكن، و ظننت أن الدواء هو المعتاد فردت نصف محقنة. فلم ألبث قدر ثلاث دقائق إلا و أيقنت بالموت و وجدت ألما لم أعهدده و لا أقدر على التعبير عنه، و إنما أقول: أظلم الجوّ فى نظرى و أحسست بنفسى ساقطا فى جب لا قعر له، و غاية ما أدركت أن طلبت المصحف الكريم و ضممته على صدرى، و استشعرت أنى أتلو آية لقد جاءكم سبعا و لسانى لا يكاد يصحح الحروف و لم أدر ما وراء ذلك فلم يبتدىء شعورى بالوجود إلا- بعد نصف الليل بثلاث ساعات فرأيت أتباعى و معارفى حولى يبيكون و جميع ما أراه أحمر ثم رجع الإغماء ثم الإستيقاظ و لزال الأمر يتدرج فى الخفة إلى الصباح و أنا فى غاية الضعف، و سألت الطبيب عن السبب فأخبرنى أن العلاج قد غيره بمسكن آخر يسمى «الأترويننا» مضاد لمسكن «المرفينا» و أقوى منها بأضعاف كثيرة، و أنه كان شدد الوصاية فى التحذير منه للترجمان، إذ ذاك المقدار الذى عملته يكفى لقتل عدة أشخاص و أن من لطف الله أن كان فى مزاجى من «المرفينا» مقدار وافر من استعمالها سابقا حتى كانت مضادة لذاك السم القتال و لله الحمد على لطفه و عفوه و ما ذاك إلا- من جهل اللسان و إضرار المترجمين، و قد أقمت بباريس فى هاته السفرة نحو شهر، ثم عدت إليها سنة ١٢٩٥ هـ و أقمت بها شهرين ثم عدت سنة ١٢٩٦ هـ و أقمت بها شهرا و ها أنا أفرد لصفتها فصلا خاصا.

الفصل الثانى: فى باريس و صفاتها

باريس و ما أدراك ما باريس هى نزهة الدنيا و بستان العالم الأرضى و أعجوبة الزمان، و لعمرى إنها أحق بإسم مملكة من إسم مصر، و هى أنموذج لغرائب مصنوعات البشر و حق للفرنساويين التفاخر بها و مباهاة الأمم بمحاسنها و جمالها و غناها و معارفها و مصانعها، فمهما فكرت فى إحدى هاته إلا و قلت إن القوم قد انحصرت أعمالهم فيها ثم إذا التفت للأخرى تقول مثل ذلك و هكذا، و كأنها فاقت على غيرها باجتماع الكل فيها فصدق عليها المثل:

«كل الصيد فى جوف الفرا» و لو أراد الكاتب الإستقصاء فى كل طرف مما احتوت عليه لضافت عنه المجلدات و اضطر إلى الإكتفاء بالإشارات، و بالجملة فالواقف عليها يزداد يقينا فى العلم بقدره الخالق و أن أحوال الآخرة فوق عقولنا كما أخبر به الصادق الأمين عليه

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ٦١

الصلاة و السلام من وصف الجنان و أن فيها: «ما لا- يخطر على قلب بشر». فإذا كانت هاته مصر لم يكن يخطر بالفكر تشخص صورتها إلا- بعد رؤيتها مع أنها من مواد معهوداتنا فكيف بما لم نعهد مادته و لا- نتصور طبيعته. وَ رَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَ يَخْتَارُ [القصص:

٦٨] و هو على كل شيء قدير.

فإجمال وصف هاته المصر المتمصرة إنها بلد فى سهل بها ربي قليلة الإرتفاع يخترقها «نهر السين» الذى يحمل القوارب و البواخر الصغيرة، و عليه فى البلد عشرون جسرا مختلفه الأشكال، منها: ما هو من قوس واحد من حديد، و منها: ما هو من بناء و تمر تحته البواخر، و منها: واحدة فى طرف البلد جهة قرية تيسى عليه جسر آخر مرتفع جدا على حنايا يمر عليها الرتل فى طريق الحديد، فترى البواخر جارية فى النهر و على الجسر المشاة و الفرسان و العجلات و من فوقهم الرتل كأنه سابح فى الهواء. و كل جسر مقسوم على ثلاثة طرق: فاليمينى و الشمالى للمشاة و الوسط للركاب و العجلات، و فى وسط النهر جزيرة كثيرة بها مباني و ديار، و يخرج من هذا النهر ترعة تذهب جهة الشمال الغربى من المملكة إلى أن تتصل بنهر «المارن» و هى فى أغلب البلد مغطاة بالبناء المنعقد و عليها الأبنية، و يحيط بالبلد سور منخفض شديد العرض عليه حصون فى جميع أنحاءه و خارجه خندق عريض جدا عميق يملأ بالماء من النهر عند الحاجة، و للسور أبواب أنيقة من الحديد و محيط دائرة السور أربعة و ثلاثون ألف متر.

و ثم تقسم المصر إلى عشرين قسما كل قسم منفرد بإدارته كأنه بلد مستقل، ثم يتحد الجميع فى الإدارة العامة فى المجلس البلدى الذى هو أحق بإسم دولة إذ دخله ٢٦١ مليون منها: من إيراد الغاز ١٨٠ مليون و مصاريفه نحو ذلك، منها: ٩٩ مليون لفائدة الدين و ٢٢ مليون إلى المكاتب و النافعة و ١٦ مليون للمحتاجين و ما بقى لمصالح المدينة كله يصرف فى مصالح البلد و تحسينها، و على المجلس من الديون أزيد من ألف مليون صرفت فى التحسين إذ أنه لم يزل يشتري حارات و يهدمها و يفتح فيها طرقا و بطحات و ما فضل يبيعه أو يبنى فيه مساكن و حوانيت على حسب ما يقتضيه المكان، و قد شاهدت فى سفرتى الثانية لهاته المصر أن المجلس البلدى فتح طريقا مستقيما متسعا من بطحاء الأوبرة الكبيرة إلى بطحاء «بالى أروايال» و باع ما فضل من الأرض، فبلغ ثمن الميتر الواحد من الأرض على التريبع أربعة آلاف و خمسمائة فرنك، و بلغ سعر الميتر حول النهج الموصل إلى أبواى بولونيا إلى ثلاثة آلاف فرنك و هكذا.

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ٦٢

ثم إن طرق البلاد عددها أزيد من ثلاثة آلاف طريق و هى تنقسم إلى ثلاثة أقسام.

الأول: يسمى «آفنو» و هو ما كان وسيعا جدا و حوله أشجار يميناً و شمالاً و وراءها قصور.

و الثانى: يسمى «بلغار» و هو ما كان أضيق من الأول و يزيد عليه بأن يكون تحت القصور حوانيت بهيجة.

و الثالث: يسمى «رو» و هو بقية الطرقات.

و من محاسن طرقها أنه يوجد فيها غالبا سيما الطرق العامة محلات للبول مستورة بشكل ظريف على هيئة قباب فى وسط الطريق و الماء بها جار كما توجد محلات الخلاء فى غاية النظافة و هى أيضا كثيرة و ذلك من واجبات البلدان الكبيرة لبعدها المشى عن محله و ذاك أمر ضرورى.

و أجمل الطرق منظرا هو البلغار الذى يشق البلاد تقريبا من الجنوب إلى الشمال، و ينتهى فى جهة الشمال إلى البطحاء المسماة «بلاس لا كنكورد»، فتتصل بها حديقته «الشانزى لزي» و تنتهى إلى البطحاء التى بوسطها قوس النصر، المسمى «أرك دي ترينونف». و يتفرع منها إثنا عشر نهجا، و قد كنت فى سفرتى الثانية سنة ١٢٩٥ هـ نزلت بأحد هاته النهوج المسمى قديما «أفناوالامبراتريس» و الآن «أفنا بواى بولونيا» و كان الوقت صيفا، فركبت إحدى الليالى مع أحد أصدقائى من منزلى فى كروسه يجرها فرسان و توجهنا إلى جهة البلغار و كان ركوبنا فى الساعة الثامنة بعد الزوال فسرنا خبنا ساعة و نصفاً و لم نصل لمنتهى البلغار من جهة الجنوب، ثم رجعنا و قد

قضينا السهر في الطريق ذهابا وإيابا مع المنظر الجميل والبهجة بنور المصابيح وكثرة ازدحام الماشين والعوادل. وبالجملة فهذا البلغار هو مما انفردت به باريس على غيرها من المدن الشهيرة وهو في الليل أبهى منه في النهار لكثرة ما ينور به الطريق، والحوانيت مع حسن وضعها وتزيق ظاهرها وتنميق ما يوضع بها من البضائع وجمال ذاتها وتنضيد ترصيفها، وهذا البلغار له عدة أسماء باعتبار جهات منه. وقد كان إنشاء أصل هذا البلغار سنة ١٥٣٦ و كلما قرب إلى المنتهى جهة الجنوب قلت نضارته بالنسبة لنفسه في الجهات الأخرى والبلد وإن كانت تشمل بلغارات آخر كبلغار «هسمان» وغيره، لكن ولا كالبلغار السابق.

والذي زاد باريس بهجة ضخامة أبنيتها وارتفاعها وتناسقها وتشابها في الظاهر، ثم في باريس أماكن آخر أنيقة فمنها: «بالي أروابال» جوار قصر ملكي سمي به، وهو عبارة عن مربعين يتصل أحدهما بالآخر محيط بهما حوانيت تحت سرادقات وفوقها قصور ومطاعم وحمامات ومنازل، وفي وسط أحد المربعين حديقة نضرة بوسطها حوض وفوارات وحولها قهاوى ومقاعد، والحوانيت تشمل جميع ما يحتاج إليه فترى حانوتا منضدة بترصيف اليواقيت والجواهر، وبازائها حانوت أخرى منضدة باللحوم والخضراوات صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار والأقطار، ج ٢، ص: ٦٣

وتلاصقتها قهوة ذات متكتات وهكذا، ولا يمل نظرك من تلك المناظر البهيجة ومع تباين أنواع المبيعات تجدها في غاية التناسب لما لها من الرونق والنظافة، وتجد المبيعات هنا في غاية الغلاء ومع ذلك فلا تبور سلعهم لأن مترفي الأهالي يشترون الشيء لبائعه ومحل بيعه، فبإقامة الزهر مثلا تشتري من هنا أو من البلغار بخمسائة فرنك يهديها المترف لعزیزته بإسم صانع ربطها مع أنها تشمل زهرة من أمريكا وأخرى من الجابون وورقة من أواسط أفريقيا وهلم جرا، وقد رأيت حانوتا تباع الزهور في البلغار كراؤها خمسة عشر ألف فرنك في السنة وباع صاحبها باقية في رأس السنة بخمسائة فرنك، وهكذا حوانيت «بالي أروابال» وكان أكثر بياعى اليواقيت مركزهم هو هذا المحل فلذلك كان له زيادة في حسن المنظر إذ كل اللآلىء واليواقيت ترى مرصفة وراء أطباق الزجاج مكشوفة لكل ناظر، وقد كان إنشاء هذا المحل سنة ١٦٢٩.

ومنها: حديقة شانزلى وهى غيضة في طول ميل تقريبا وفي منتهها قرب البطحاء تصوير كأنها بستان أتيق ذو مماشى وقهاوى ومقاعد وملاهى، منها ما يسمى «كافى شانتان» فإن الإنسان يقدر أن يتعشى فيها منفردا بأطيب ما يشتهى والموسيقى تعزف واللاعبون فى الملهى يشعوزون ويغنون بالمضحكات، وكذلك بها «كافى لمياشاد» على نحو ذلك. وفي أعلى الشانزلى بطحاء وسيعه يتصل بها اثنا عشر طريقا وبوسطها قوس النصر المسمى «أرك دى ترينونف» الذى بناه نابليون الأول ورسم على حيطانه صورة جميع حروبها التى انتصر فيها، وهو بناء مضخم جدا شاق للغاىة ذو أربعة أقواس متقابلة متصلة بعضها، يصعد إلى أعلاه بدرج داخل إحدى زواياه وعدد درجه مائتان وإحدى وسبعون درجة.

ومنها: «جردان مايل» الذى يفتح ليلا وتخلل أوراق أشجاره زهوره بما يبدعون من الأنوار حتى يكون فى أرضه و غصونه ما يبلغ عدة آلاف من المصابيح الملونة الزيت كألوان الزهور، غير أن من له عرض يتحاشا الدخول إليه لكثرة من يدخله من المومسات ويصرن يرقصن هناك ويعشن مع الرجال، فقد سمعت من أخبار صحيفة «الديبا» الإنكار على الحكم فى إطلاق تلك العاهرات حتى عبثوا بالصينيين الذين قدموا لمعرض باريس سنة ١٢٩٥ هـ عندما دخلوا ليلا لذلك البستان للتفرج، وسبب كثرتهم هناك إعفاؤهم من الأداء على الدخول بخلاف الرجال فكل من دخل دفع خمس فرنكات مع حضور آلات الطرب وكثرة المشروبات والحلويات فى مقاعد ذلك البستان المنشأ سنة ١٦٧٠. ومنها «إبلاس لاكنكورد» المتصلة بغيضة الشانزلى السابقة الذكر وبوسطها حوضان كبيران وفوارات محيطها فوانيس، وبين الحوضين العمود المسمى بالمسله الذى جلب من مصر وعليه كتابة بلسان المصريين القديم و حروفهم التى هى أشكال حيوانات، ونصب هناك سنة ١٨٣٠ وطوله إثنان وسبعون قدما فى قطعة واحدة من حجر دون القاعدة المنفصلة التى ركز عليها، وعرضه من أسفل سبعة أقدام وكلف جلبه مصاريف عدة ملايين حتى أنشأت له سفينة خاصة، وقد نورت هذه البطحاء بالنور الكهربائى الذى هو كنور القمر لونا، وطول هاته

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ٦٤

البطحاء ٢٤٨ ميتر و عرضها ١٦٩ ميتر و تتصل بالنهر و بالبلغار، و منها: حديقة «التولرى» المتصلة بالبطحاء المذكورة أيضا ذات المقاعد و المساطب و هى أمام قصر الملك. و منها:

«إبلاس فندوم» التى بها عمود نابليون الأول، صنع هذا العمود من ألف و مائتى مدفع من النحاس غنمها الإمبراطور المذكور فى حروبه و رسم عليه صور المعامع التى انتصر فيها المذكور، و وسط العمود به مائة و ستة و سبعون درجة يصعد بها إلى أعلاه و فى قمته تمثال نابليون و قد أسقطه الكمون أى جماعة الإشتراكيين الذين يريدون أن تكون الناس كلهم شركاء فى جميع الموجودات و ذلك فى ثورة سنة ١٨٧٠ فأعادته الجمهورىة إلى مكانه فى يوم مشهود و كنت حاضرا سنة ١٢٩٢ هـ.

و منها: «أفندوى لوبرة»، الواصل بين بطحاء الملهى العجيب المسمى «بلوبره» و بين «بالى أروايال» و قد نورت بطحاآته و حافاته بالكهرباء.

و منها: الباساج أى الأسواق المسقفة بالزجاج التى لا يمر فيها إلا الماشى و هى ذات حوانيت يمينا و شمالا من أبداع الأشكال و التنيق.

و منها: غيضة «أبودى بولونيا» أى غابة بولونيا من أبداع الآجام و الغابات المشتبكة بالتصنع، و فيها بحيرة صناعية و جبال و أنهار و جسور كلها صناعية و بها مماش للعواجل و أخرى للفرسان و أخرى للمشاة و مقاعد و شلالات تنحدر منها المياه و آجام و رياض و قهاوى و مطاعم بأحسن تنظيم، و فى البحيرة طيور مائة و جزر و قوارب يركبها الناس إلى الجزر و الناس ينتابون هاته الغيضة التى هى خارج باريس فى الجهة الغربية الشمالية ليلا و نهارا و هى ممشى أهل الترف سيما أيام الآحاد و الأعياد، و قد شهدت يوم عرض الجيش و يوم السباق الأكبر سنة ١٢٩٥ هـ أن طرق المصر الموصلة لهاته الغيضة قد غصت بالعجلات على كثرة و سعتها، فإن طريق الشانزى لزى يمر فيه أزيد من عشر كراريس متحاذيات و مع ذلك لم تستطع العواجل أن تتحرك فيه، و كذلك طرق هاته الغيضة حيث أن الميدان وراءها و هو سهل رحيب نحو ميلين فى مثلهما، و فى جهته الغربية ثلاثة أواوين منفصلة عن بعضها و متلاصقة مستقبلة برواشينها و مقاعدها جهة الميدان، و أوسطها به بيت لصاحب الملك و جميعها هيئة جهة استقباله، هى أن بعضه أعلى من بعض متدرجا و يدخل إليه من ظهره، و أمام كل منها فسحة بها كراسى و يفصل بينها و بين الميدان درابزين و لا يدخل إلى تلك الأواوين إلا من كان بيده تذكرة الإستدعا من الدولة، و قد حضر موكب السباق سنة ١٢٩٥ هـ من خصوص المدعوين ما يزيد عن الخمسة و الثلاثين ألفا.

أما مجموع المحيطين بالميدان بين راكب و راجل فهو ينوف عن نصف مليون من الخلائق، و حول الغيضة أيضا ميادين آخر لغير السباق الكبير و بها محل للرماية.

و هاته الغيضة دمرتها عساكر ألمانيا و عساكر فرنسا سنة ١٢٨٣ هـ حيث كانت مرسحا للحرب، و لكنى لما رأيتها سنة ١٢٩٢ هـ كانت كأن لم يكن بها شىء و كانت أشجارها ثابتة

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ٦٥

فيها منذ قرن حيث أنهم لما أصلحوها نقلوا إليها الأشجار العظيمة من الغابات و لهم فى كيفية نقلها براعة أعان عليها علم جر الأثقال و آلات البخار، حتى أنهم يحملون الشجرة بأرضها النابتة بها من غير أن تمس عروقها و يبقى محلها كأنه بئر.

و منها غيضة «أبودى قنسن» و هى خارج البلد من الجهة المقابلة للغيضة السابقة و هى على نحوها و أشجارها أكبر غير أنها لا رونق عليها، و كان ذلك لعدم انتداب الأغنياء إليها و إنما يتفسح فيها الأواسط و الفقراء لبعدها عن حارات الأغنياء، و لكن لقهاويها ساحات لألعاب رياضية بدنية بالآلات كثيرة تستعملها الأهالى، و هاته الغيضة يوصل إليها بالعجلات و الحوافل المسماة «بالأمنيبوس» و بالتراموى» الذى تجره مزجية بخارية و كلا هذين النوعين لا يستعمل فى الغيضة السابقة لكثرة واردها مع الغنى و الترف.

و منها غيضة «بارك مونسو» قرب «الشانزى لزي» لها أبواب من حديد مذهب أبهج من أبواب سرايات الملوك المسرفين و هي ليست بكبيرة جدا، و فى باريس عدة غيصات على نحوها فى كل قسم منها غير أنها أدون منها تأنيقا.

و منها: «جردان دى كليما تسيون» الذى أنشأته جمعية أهلية للنباتات و الحيوانات و قد جمع فيه من كلا الأمرين كل ما يقدر عليه البشر من جميع أقطار العالم، و لكل نوع من الحيوانات أو النباتات هيئة و هواء صناعى على نحو ما هو معتاد به فى قطره، و قد تيسر بذلك التحفظ على حياة جميعها غير أن الأشجار المعالج هوائها إذا أثمرت لم تكن ثمرتها كأصلها، و من ذلك النخل فإن ثمره لم يكن تمرا، ثم الحيوانات التى يصعب جلبها إذا مات منها شيء فإنه يصبر جسمه لينظر على نحو ما كان عليه مدة حياته، أما ما رأيته فيها من الحيوانات البرية و البحرية فيلزمه كتاب حياة الحيوان ليستوفى الكلام عليها و أقول باختصار: إن أنواع الكلاب وحدها تزيد على المئات فضلا عن غيرها، و كذلك أنواع البيغا من الطيور بألوانها و تذهيبها البديع، و من الحيوانات الغربية نوع من الضأن الكبش منه كالحيوان المسجع غير أنه لا يأكل اللحم و إنما هو جرىء وحشى قوى جدا، و من حيوانات البحر أسد البحر و له صوت عال و يخرج إلى البر أحيانا ليأكل ما يلقى إليه و هو سريع الحركة قويها جدا، و من حسن تربية الأشجار أن شجرة ترى قاعدتها على أصل واحد ثم تتفرع و تصير كالكورة ثم تجتمع و تصير أصلا واحدا ثم تختلف على أشكال عديدة، و فى هذا البستان عجلات تجرها خيل صغار جدا لمن يريد الجولان راكبا، و فيه عجله يجرها أربعة من المعز يركبها الصبيان و أخرى تجرها نعامه يركبها الصبيان أيضا، و هناك أفيال برخوتها يركبها كل من يريد ذلك، و فيه أيضا محلات للقهوة و أخرى للجلوس و تنتابه الموسيقى فى أيام من الأسبوع و على كل داخل للبستان أن يؤدى فرنكا واحدا، أما إذا أراد شيئا آخر غير التمشى و الجلوس فيؤدى أجره و له أن يشتري من كل ما فى البستان من الحيوان و النبات غير أنهم إذا كان لهم من النوع فرد واحد فلا يبيعونه، و قد وجدت فيه سنة

صفحة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ٦٦

١٢٩٦ هـ ملهى مركبا من سودان أفريقيه سموهم «بالزلوس» لوقوع الحرب بينهم و بين الإنكليز فى ذلك التاريخ، لكنهم فى الواقع من سودان مصر كما صرحوا لى أنفسهم بذلك، و يتكلمون بالعربية و يصورون حروبا و غيرها.

و منها: «جردان دى بلانت» و هو مثل السابق غير أن بينهما عموما وجهيا فالأول:

أبهى منظرا و أكثر حيوانات، و الثانى: يشتمل على الحيوانات المسبعة التى يمنع وجودها فى الأول لأن الثانى للدولة و فيه كل السباع إلا الكركدان فقد كان لهم منه واحد لكنهم أكلوه عند محاصرة باريس سنة ١٢٨٧ هـ سنة ١٨٧٠ م. و من أعجب ما رأيته من الثعابين ثعبان أسود فى غلظ عقدتين و عيناه حمراوان جدا و يظهر عليه خبث شديد و الزجاج المحيط به مرمد و وراءه أسلاك غليظة من الحديد مشبكة تشبيكا ضيقا، و يقال إن سبب ترميد الزجاج:

كون شعاع بصر الثعبان مسموما، و رأيت فيه الحيات على أنواع، و يلقون إليها أولاد الفار الصغار قبل نبات الشعر بجلدها فتنهشه الحية و تعرض عنه فيلقى مغشيا عليه يضطرب ثم تعود إليه إلى أن يموت فتأكل منه، و لعل ذلك لأنها متعودة على أكل مثل ذلك.

و انظر من هذا المقدار اعتناءهم بتربية كل حيوان على طبيعته، كما ينفرد هذا البستان بكونه فيه دار للتشريح و التاريخ الطبيعى مجسما فكانت جميع الأجسام من أنواع الحيوان فيه مصبرة و مشرحة و الإنسان على جميع أطواره من النطفة إلى الشيخ الفانى، كما يوجد فيه خزنة للكتب فى الفن المذكور.

و منها: قصر معرض سنة ١٨٥٧ م الذى جعل فيه الآن أنواع الصور و الأصنام.

و منها: قصر «اللوفر» الضخم المتقن البناء و التأنيق الملوكى، و كان مسكنا للملوك و الآن معرضا للظرف و الآثار الدهرية، و فيه بيت يشتمل على بعض بدائع ملوكهم و مجوهراتهم. و مما فيه: مائدة من المرمم الأبيض مرسوم على سطحها خريطة أرضية بألوان المرمم الأخضر و الأحمر و غيرهما، بحيث أن كل جهة من الأرض بلون خاص و فيه بيت لآثار الصينيين و آخر لدواخل أفريقيه و آخر لأعمال «فرديناند دى لسبس» مسمى باسمه و فيه صورة خليج السويس مجسمة مع جميع آلات الحفر و الأشغال، و عدة بيوت لصور

تشتمل على عشرات الآلاف من الصور و أخرى لبلدان مجسمة و بحار و سفن و مراسى و جميع غرائب الأقطار، يقضى فيه الإنسان عدة أيام و لا يستوفى حصر ما فيه و قد أخذ من هذا القصر قسم لإدارة قسم من مالية الدولة.

و منها: قصر «التولرى» الذى وصله نابليون الثالث بالقصر السابق و خربه الإشتراكيون بالحرق فى ثورة ١٢٨٧ هـ سنة ١٨٧٠ م و عينت الدولة قسماً سنوياً لترميمه على أصوله و العمل جار فيه، غير أن ما كان داخله من الفرش و الظرف لا يمكن استعواضها حيث كان مقر الإمبراطور و يحتوى على أنفاس بدائع الملوك، و أمام هذا القصر حديقة بديعة نضرة و بها ملهى يتتابها الناس نهاراً و ليلاً، و رأيتهم ليلة معجبين من أحد العازفين بآله كالرباب كبيرة

صفحة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ٦٧

جدا فى طول الإنسان حيث أنه أتقن دقها بدون أن تكون أمامه ورقة التعليمات.

و منها: ملهى «كران لوبره» الذى هو أبهى و أنظر من سائر القصور و الملاهى و احتوى على الضخامة و التزيق و التأنيق و الإسراف فدرجه المرمية و شكلها و درابزينها توقف الأبصار، و هو ذو تسع طبقات للمتفرجين و إيوانين للمستريحين، و يحمل خمسة آلاف من النفوس، و ينور بالكهرباء و أخبرت أنه صرف على إنشائه و تميجه مائة مليون و أربعة عشر مليوناً فرنكاً.

و منها: قصر «لكسنبورغ» و هو و إن لم يلحق نفاسة ما سبق ذكره من القصور لكنه عجيب، و بجانبه دار الرصد العجيبة التى هى فى أرفع ربوة بباريس، و فيها من المرايا المكبرة أنواع شتى منها ما هو فى حجم مدفع كبير و فيه بيت سقفه يدور على عجلات لكى تدور المرأة إلى أى جهة من السماء من غير مانع و ترى منه الكواكب ليلاً و نهاراً فقد شاهدت نهاراً بالمرآة نجم «الريفولوس» الذى لا يرى ليلاً إلا بالمرآة، و قال المدير: إن بعده عن الأرض أربعة و عشرون مليوناً ميلاً، و الحاصل أن فى هذا المرصد جميع آلات علم الفلك و به علماء مثابرون على الرصد و التفتيش على ما يمكن لهم الوصول إليه.

و منها قصر معرض سنة ١٢٩٥ هـ ١٨٧٨ م و هذا المعرض البديع الذى جعلت به باريس دار مآدبة لسكان الأرض و احتفلت بهم احتفال الكرام، هو أبداع من جميع المعارض التى سبقته فى جميع البلاد و لا يفهم من قولى احتفال الكرام أن القادمين تقوم بشؤونهم فرنساً بل كل منهم يصرف على نفسه، و إنما المراد هو التهيؤ لإحضار ما تشتهيهم أنفسهم و تلذذ به أعينهم من كل ما يدخل تحت قدرة البشر، ثم إنفاق النفقات الباهظة للمحافل العامة و المآدب التى يضعها كبراء الدولة أحياناً و يدعون إليها أعيان المسافرين و الأهالى، فإن دولة فرنسا قد دعت ملوك أوروبا و غيرهم من الأمراء و الوزراء و كل من له اقتدار من غيرهم فإنه يأتى لمشاهدة ما لم يمكن الوصول إليه بسهولة حيث أنه يرى أنموذج جميع ما فى الأرض كله بمحل واحد، و قد كان ممن أجاب الدعوة من الملوك شاه إيران و من غريب التواريخ ما قتلته فى رحلته تلك و هو قولى مؤرخاً: قد زار أوروبا الشاه ناصر الدين « سنة ١٢٩٥ هـ لكنه قدم على غير الصورة الرسمية، و لذلك سكن بأحد منازل المسافرين و ذكرت الصحف أنه أفطر يوماً ببلد «فونتين أبلو» التى حولها غابة و منتزهات فكانت نفقته فى ذلك الفطور أحد عشر ألف فرنك، و لا يخفى أن سائر الأشياء كانت فى تلك السنة فى نهاية الغلاء بباريس لا سيما المأكولات و المشروبات بداخل المعرض لكثرة الواردين من الأقطار، حتى قيل: إن معدل القادمين من الإنكليز كل يوم أربعمائة ألف و مثلهم الرائحون فضلاً عن غيرهم من سائر الأقطار.

و قد اجتمعت مدة هذا المعرض بأعيان من العرب و غيرهم، فمن أعزّه أبناء وطنى

صفحة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ٦٨

الحازم النصح محمد الطاهر الزاوش الذى هو من خيار الأهالى و ترقى بنصحه لدى الأمير ولى العهد بتونس، إلى أن ولى مستشاره و أبدى من النصح و النجابه فى أسفاره مع مخدومه لسياسة القبائل و العربان ما أقر له به المنصفون، و له دراية جيدة بأخلاق الأهالى و له نصح و وفاء عظيم مع الأمير و سائر النصحاء، و كذلك قدم من أبناء الوطن الوزير حسين و العلامة سالم أبو حاجب و قد تقدمت ترجمتهما. و اجتمعت بوحد دهره الناصح للأمة الباذل فى الإخلاص إليها نفسه حتى مات شهيداً ألاً و هو مدحت باشا الذى ولى

صدارة الدولة العثمانية و أنفذ بمساعيه القانون الأساسى الذى لو جرى به العمل حقيقةً لنجت الدولة مما ألم بها، لكن لما كان الحق صعب الإجراء إلا- على من وفقه الله قد عزل ذلك الوزير الوحيد من الصدارة قبل استقرار العمل بالقانون، ثم نفى إلى خارج الممالك العثمانية ثم أذن له بالإقامة فى جزيرة «كريد» ثم ولى واليا على الشام ثم نقل واليا على «أزمير» ثم قبض عليه و حكم عليه بالقتل بدعوى اشتراكه فى خلع السلطان عبد العزيز و قتله، لكن أكثر دول أوروبا أنكرت الحكم سرا لعدم جريانه بالحق الصراح فعرض عن القتل بالسجن المؤبد فى الطائف من الحجاز، ثم أشيعت وفاته شهيدا للحق رحمه الله و نعمه. و كذلك اجتمعت بنى الأصاله داود باشا المصرى حفيد محمد على باشا للبننت و صهر الخديوى الحالى، و كذلك بسفير الفرس بباريس نازار آغا و غيرهم من أعيان الأقطار فى الاجتماعات الخصوصية زيادة على الاجتماعات العامة فى المآدب التى أشرنا إليها من دولة فرنسا، فقد دعيت مدة إقامتى هناك تلك السنة لمأدبة فى وزارة البحر، و أخرى فى وزارة الخارجية، و أخرى فى وزارة المال، و كل منها كان خارج المحل و داخله على غاية من التنوير و التزيين و جئاته ملونة الأنوار الأرضية و الفوقية كألوان أزهاره، و موائد المآكل و المشروبات و المثلجات مصفوفة و الموسيقىات عازفة و الأعيان من النسوة و الرجال يرقصون أو يتفرجون فى الملهى المشخص للمطربات، و صاحب الوزارة المدعو إليها الضيوف يقف فى البيت الثانى من المدخل هو و امرأته و يسلمون على الداخل و يتلقونه ثم يكون الداخل على حسب إرادته و لا- يلزمه الوداع عند الرواح، و يرى الإنسان آلافا من المدعوين بأفخر لباسهم و ذوى النياشين متقلدين بها و رئيس الجمهورية يؤانس البعض و نساءهم يتهن بدلالهن و لباسهن و حليهن، فإن منهن من تلبس الشفوف المطرز باللؤلؤ النفيس من صدرها إلى ذيلها عدا حليها المكلمة بالياقوت الملون، و لا يكلم بعضهم بعضا فى هاته المواكب إلا من كان له معرفة بالآخر أو عرفه معرف.

نعم إنهم يتهيئون إلى أدنى مناسبة للتعرف بالغريب و يؤانسونه و ربما اضطرت المرأة

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ٦٩

زوجها أو قريبها إلى عمل مناسبة للتعرف بالغريب سيما إذا كان لباسه على خلاف معتادهم، و قد عينت الدولة لمصاريف تلك المواكب عدة ملايين فضلا عن مصاريف الليلة الحافلة التى أعددوها تذكارا للجمهور، فقد روى أن مصروف الأهالى و المجلس البلدى فى التنوير و التحسين و الألعاب النارية تجاوز ست عشرة مليوناً فرنكاً، و أن ثمن الرايات التى نشرت على طيقان الديار و الطرقات تجاوز الأربعة ملايين، و كان مركز ألعاب تلك الليلة هو بركة «أبودى بولونيا» و قد اكرت بعضهم طاقة فى الطبقة التى فوقى من الدار التى نسكنها للفرجة تلك الليلة بسبعمائة فرنك، حيث كانت على النهج الكبير الموصل إلى محل الألعاب و كان المهندسون و العملة متهئين لها منذ نصف شهر، و علق الثريات و الفوانيس على الطرقات قائمة على عيدان و مشبكه بالأشجار، و ما قرب غروب تلك الليلة إلا و انتشرت العساكر و الخيالة فى جميع المراكز حفظاً للراحة و خشية من الأحزاب المضادين للجمهورية، و ما غربت الشمس إلا- و ناب عنها نور المصابيح و منعت العجلات من السير فى الطرق مطلقاً و ما بدت النجوم إلا و تصاعدت لها شماريح البارود ترمى لها بباقات أزهار ألوانها المختلفة الأشكال، و تراكم إزدحام خلق الله بما يذكر يوم الحشر الأكبر و دام الحال على ذلك و أصوات الموسيقى و البارود تتهادى من كل طرف إلى نحو الساعة الثالثة من بعد نصف الليل، فرجعت العساكر الواقفون على البركة بخيلهم و رجلهم و بأيديهم فوانيس على عيدان و الموسيقىات تصدح بلحن «المرسيلياز» و هى قصيدة فى إثارة الحمية لأهل الوطن كانوا أعلنوا بها فى الثورة الكبرى سنة ١٨٣٠ لطلب الحرية، و قد كان ترجم هاته القصيدة العلامة رفاعه باشا رحمه الله و نظمها و دونكها بنصها:

فها يا بنى الأوطان هيا فوقت فخاركم لكم تها

أقيموا الراية العظمى سويوا شنوا غارة الهيجا مليا

عليكم بالسلاح أيا أهالى و نظم صفوفكم مثل اللالى

و خوضوا فى دماء أولى الوبال فهم أعداؤكم فى كل حال

و جورهم غدا فيكم جليابنا خوضوا دماء أولى الوبال
أما تصغون أصوات العساكر كوحش قاطع البيداء كاسر
و خبث طوية الفرق الفواجر ذبيح بنيكم بظبي البواتر
و لا يبقون فيكم قط حيا عليكم إلى آخر الأبيات الثلاث
فماذا تبتغي منا الجنود و هم همج و أخلاط عبيد
كذا أهل الخيانة و الوغود كذا كملوك بغى لن يسودوا
تعصبهم لنا لم يجد شيئا عليكم إلى آخره
لمن جعلوا السلاسل و القيودا و أغلالا و أطوقا حديدا
صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ٧٠ لأهل فرنسا ليروا عبيدا و ليس مرامهم هذا جديدا
أما هذا عجيب يا أخيا عليكم إلى آخره
و كيف يسوغ أن نرضى رعا من الأعراب يبغون ارتفاعا
و يجرى شرعهم فينا شراعا و أندالا لديهم لا تراعى
رعا يا بل تكب على المحيا عليكم إلى آخره
فسلم يا سلام من المذلة فما نرضى بأن نبقى أذلة
و ياسرنا و فتيتنا أجله فريق بالدرهم قد توله
فكيف و قدرنا أضحى عليا عليكم إلى آخره
إلهي كيف يقهرنا ملوك بسبل العدل ليس لهم سلوك
و أندال للإستعباد حيكاو ما في الفخر يشركنا شريك
و لا أحد به أبدا حريا عليكم إلى آخره
فقل لهم أيا أهل المظالم و أرباب الجرائم و المآثم
أما تخشون من تلك المحارم كذا أهل الخيانة للمكارم
و ظلمهم لقد بلغ الثريا عليكم إلى آخره
أحلوا لخوف نحوكم إماما و خلوا العدل عندكم أماما
و نقضكم لموطنكم ذماما به تجزون ذلا و انتقاما
و تكتسبون عند القوم خزيا عليكم إلى آخره
فها كم قد تعسكرت الأهالي و سارت كلها نحو القتال
لتقتحم المهالك لا تبالى إذا ما مات ليث في النزال
تولد أرضنا شبلا صبيا عليكم إلى آخره
صغير القوم منا و الكبير يحب قتالكم فرحا يطير
نحاربكم و ليس لكم نصيرو ليس لحرنا أصلا نظير
و حاشا فحولنا يلقون عيا عليكم إلى آخره
صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ٧١ لناوطن به همنا غراما به تقوى عزائمنا دواما
نمانعه و نخشى أن يضاموا نأخذ ثاره ممن تعامى

و جار و إن يكن ملكا عتيا عليكم إلى آخره
لنا حرية في الكون تسمو تزيد إذا الحروب بدت و تنمو
تمانع عن بنيتها ما يهيم بها ثمرات نصرتهم تتم
على نغم المثاني و الحميا عليكم إلى آخره
تموت عداتها موتا شنيعا إذا ما أبصروا عزا منيعا
يحوز حماتها مجدا رفيعا فويل للذي يبغى الرجوعا
لرق يكتسى خطأ و غيا عليكم إلى آخره
سندخل سلك أرباب الجهاد كأسلاف لهم طول الأيادي
و ننحو نحوهم في كل نادو نقفو فضلهم في كل واد
و نبلغ في العلى شأوا قصيا عليكم إلى آخره
نؤمل أن نكون لهم فداء و كل فتى بفخر النصر باء
و إن لا بعدهم نبقى مساء إذا لم ننتقم لهم العداء
و يأخذ ثارهم من كان حيا عليكم إلى آخره

و هذه القصيدة جعلوا لها لحنا خاصا و كانوا يترنمون بها في ليلة تذكار الجمهورية و لم ينتطح في تلك الليلة عنزان، مع أن بعض
أضداد الجمهورية لم يفتح طاقة تلك الليلة و لم ينور فانوسا و بعضهم رحل عن البلاد بالمرّة تلك الليلة.
و من الإحتفالات الواقعة لضيوف المعرض الإحتفال الذي صنع بعرض الجيش حول «أبودى بولونيا» كما مر ذكر محله، فبعد احتباك
الموكب بالمتفرجين الذين يجاوزون النصف مليون و منهم شاه إيران و العساكر ترى من بعد حول تلك التلال و الهضاب، و إذا
بالمارشال «مكماهون» رئيس الجمهورية إذ ذاك قادم راكبا على حصان أشهب عربى، يقدمه ثمانية فرسان من العرب سكان الجزائر
لباس العرب و برانيسهم حمر و سروجهم عربية، و وراه وزير الحرب ثم نحو عشرين فارسا من ضباط العساكر و المعينين و كلهم
بالملايس الرسمية، فلما دخل الميدان و سامت وسط الموكب أوماً بالسلام لجهة المتفرجين الجلوس فى الإيوان الوسط، ثم ركض
حصانه و صار يطوف على كراديس العساكر و مهما وصل إلى

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ٧٢

راية إلا و كشف رأسه موميا بالسلام إلى أن طاف على الجميع، ثم رجع إلى أمام الإيوان الوسط و استقبله و وقف و كان أمير الجيش
كله المكلف بذلك الموكب هو أمير جيش باريس فجاء راكضا و سلم على رئيس الجمهورية، ثم انحاز إلى جهة الأواوين و أصدر
أوامر الحركات العسكرية فإذا بالجيوش من كل حدب ينسلون و جاء الآلاى الأول و موسيقته تعزف أمامه فلما حاذت رئيس الجيش
وقفت و مر الآلاى ماشيا من الجنوب إلى الشمال بجميع لوازمه و سلاحه إلى أن انقضى فجاء غيره و وقفت موسيقته و هكذا إلى أن
مرت خمسة و أربعون ألفا من العساكر المشاة، ثم أقبلت الخيالة المدرعون سربا سربا يمشون خبيا و كل سرب متقارب لون الخيل إلى
أن مرت خمسة آلاف خياله، ثم أقبلت الطبجية أى عساكر المدافع بمدافعهم تجرها الخيول ذاهبين خبيا إلى أن مرت مائة مدفع و
ثمانية مدافع، و كل فرقة من الجيش يقدمها رئيسها راكبا و يقف بين يدي الرئيس إلى أن تمر فرقة فيتبعها و مهما مرت راية كبيرة
أومات بالسلام للرئيس و كشف هو لها رأسه، و منذ سلم هو عند دخوله الموكب إلى أن انفض الموكب كانت المدافع تطلق من
الحصون، و عندما مرت العساكر الأهلية أبناء باريس ضج الموكب بالتصفيق و التحيات استحسانا لسنحتهم و نشاطهم حتى صارت
كأصوات الرعد و وقع لغيرهم قليل من ذلك النوع، و كان اليوم حارا و الرئيس مستقبل الشمس بلا مظلة و قد سقط عسكري من حر
الشمس ففى الحال حمل فى نعش مصابى العساكر و عالجه الطبيب و أرسل إليه الرئيس مرارا متفقدا، و عند خروج الناس للرجوع

احتبكت الطرق و اشتبهت الكرايس على أصحابها و كان يوما مشهودا.

و اشتبه الكرايس إنما كان مستغربا لأنه من عاداتهم في هاته المواكب إذا حضرت كروسه يتلقاها أحد صغار المكلفين و لما ينزل الراكب يعطيه بطاقة بها عدد خاص و مثلها السائق الكروسه و يوقف كروسه في مكان رحيب على ترتيب الأسبق فالأسبق، فإذا خرج الراكب أعلم أحد أولئك المكلفين بنمرته فيرفع صوته بها فتأتي العجلة بمجرد سماع سائقها بعدد نمرته من غير أدنى اختلاط و لا تعب، لكن في ذلك اليوم حيث خرجت الناس دفعه مع كثرتهم و مع ازدحام الناس خارجا وقع الإختلاط و عدم التمييز لكبر الموكب.

و مثل ذلك احتفال يوم السباق، فإنه لما انتظم الموكب على نحو السابق تهيأت خيل السباق، و كان الجعل من الدوله للمجلى مائة ألف فرنك، و للمصلى عشرة آلاف، ثم ألفان. ثم علق في عمود أسماء الخيول المندفعة أولا و كانت ستة عشر فرسا من عتاق الخيل الجياد العربية و كل منها مسرج بسرج صغير جدا، و ركابها متساوون في الوزن حتى إذا كان أحدهم أخف حمل شيئا يستوى به مع أصحابه، و كل منهم لابس لباسا لاصقا بالبدن و عليه نحو جبهه قصيرة ضيقه من الحرير بأحد الألوان لكل لون خاص و كل منها يمسكه رجل، ثم يتصافون سواء من مبدأ الميدان فيضرب جرس إذنا بالركض فاندفعوا راكضين و كان الميدان على هيئة دائرة واسعة تتصل بأخرى أوسع منها ثم أخرى أوسع،

صفحة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ٧٣

و لكل فرقة من الخيل حد فأعلاها ما يقطع الدوائر الثلاث و مجموع طولها نحو تسعة أميال و أدناها ما يقطع الأولى فقط، فالسرب الأول: كان من المتوسط و حاز القصبه حصان أحمر و علق إسمه و إسم صاحبه ثم فرقة أخرى و هكذا، و لما خرجت الفرقة العليا تهيأت الناس و كثر اللغط في المخاطرة كل يدعى أن الفرس الفلاني يغلب، و كثيرا ما تربح عشرات الملايين في مثل ذلك السباق بالمخاطرة بين المتفرجين، ثم انسحبت الخيل راكضة و كانت ستة فقط و كانوا أولا يحتالون على أيهم يجوز الخط الداخلي من الدائرة و لا يطلقون عنان الخيل، و عندما توسطوا الدائرة النهائية أرسلوا الخيل على غايتها فتخلف من تخلف و لم يبق إلا ثلاث، و عندما بقى الربع من الدائرة تخلف الثالث و تجارى إثنان فكن كل منهما تارة يكون مصليا و تارة مجليا، لكن لما قربت قصبه السبق فاز الأحمر الكمي و صار ينظ نطا لما راعه من شدة سياط راكبه، و كنت تخيلت سبقه من أول الأمر لما تفرست فيه من حدة نفسه و تقارب و سرعه حركاته، مع أن الكل مستوون في صفات الجودة غير أن هذا أحد و أخف، و قد أعطى صاحبه للراكب عشرة آلاف فرنك من الجائزة لأن عاداتهم أن يكون لمضمار السباق فرسان خاصون أو سائس الفرس، أما صاحبها فلا يسابق بنفسه إلا ما ندر مع أمثاله و ليس ذلك لزهدهم في الفروسيه بل أنفه لأنهم كثير و الركوب للخيل نساء و رجالا، و يصرفون على تربيتها و توليدها أموالا جسيمة حتى يباع الفرس الواحد بأربعين ألفا و أزيد و يكتبون أنسابها مسلسلة و أصلها من العراب، و ذكر لي: أن جد أقدم نسل من خيل «إنكلا تيره» هو حصان تونسي اشترى من حمال، ثم أعلم أن المعرض الذي نحن بصدد ذكره موقعة في الجهة الغربية الشمالية من باريس يقسمه نهر السين إلى شطرين فما كان عن يمين انحدار السين يسمى «التوكادرو» و بنى به قصر على شكل بديع و بناء متقن ليبقى هناك مستمرا و هو المشار إليه أولا، و أمامه رواق و قدامه بركة ماء واسعة جدا على جهاتها صورة أسد و ثور و فرس و خنزير، كل صورة ضخمة جدا كلها مذهبه و الماء متدفق بهيئة عجيبة و يحيط بالجميع حديقته أنيقه و حول هذا المكان بناآت لصورة بناآت الممالك التي أجابت الدعوة.

فمنها: دار أرسلها سلطان المغرب كلها من خشب على هيئة ديار فاس و بها النقش حديده و غيرها مما هو عادة لهم و كذلك فرشها. و منها: قصر ظريف لشاه إيران على نحو قصره ببلاده، و من عجيب ما به سقف بيت كله من البلور المضلع على هيئة عناقيد و هكذا كل مملكة أجابت الدعوى تبنى مكانا على هيئة أنبيتها في بلادها، و حول تلك الأبنية مخادع و مقاعد و حوانيت و قتيه في تلك الحدائق.

و الشطر الثاني من المعرض يسمى «شان دي مارس» وفيه حدائق أيضا وقهاوى ومطاعم، وفيه المحل المهم المقصود من المعرض و هو بناء عظيم واسع طوله نحو ميلين فى ذلك العرض كله بناء من قضبان حديد و مقسم على أقسام على حسب الممالك، كل صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ٧٤

مملكة تأتى بأنموذج ما عندها من الجمادات و النباتات و الحيوانات و المصنوعات قل أو جل حقر أو عظم، فكان ذلك المحل حاويا لجميع أنواع ما يعلم فى الدنيا لأنه أجابت دعوة فرنسا إلى ذلك جميع الممالك ذات الشأن إلا الدولة العلية لاشتغالها بحرب روسيا إذ ذاك، فالتعرض حينئذ لما فيه عبث إذ يعجز عنه الواصف و إنما أذكر أفرادا من المستغربات التى لم تزل عالقة بذهنى.

فمنها: ساعة ذات أربعة أوجه مرفوعة على نحو أسطوانة ارتفاعها أزيد من ستة أذرع و رقاصها صورة كورة أرضية معلقة فى القبة التى فوق الساعة، و يحيط بالكورة صورة الشمس و القمر و بقية الكواكب السيارة و الغرابية من جهة كون الساعة ليس لها آلة تعمر بها سوى تلك الكورة، و ذلك بأن اعتبر ثقلها و بعدها عن مركز تعليقها و منعت من الإستقرار بمركزها باعتراض قائم فى رأس الساعة متصل بآلاتها سهل الدوران فكانت الكورة تطلب المركز و تدفع العارض بثقلها و هو يدور و هى تدور معه و هكذا، و هى من مصنوعات الفرنسيس و قيل إن ثمنها ستون ألف فرنك.

و منها: مقعد من البلور الرفيع ذو ثلاث درج و إثني عشر ضلعا مرفوعة قبة على أسطوانات من البلور يجلس به إثنا عشر إنسانا كله قطعة واحدة من البلور المضلع و هو من صناعة النمسا.

و منها: مطبعة تطبع بلونين فى آلة واحدة و تخرج عددا وافرأ فى كل دقيقة.

و منها: إرسال الرسائل المكتوبة فى قنوات من حديد مفرغة من الهواء فتصل بسرعة كالسلك الكهربائى و قد صار الآن فى عدة جهات من باريس إرسال الرسائل بتلك الصورة.

و منها: المجوهرات و التحف الغريبة التى أهداها ملوك الهند إلى ولى عهد إنكلتيرة و هى كثيرة عجيبة جدا، و من أغربها معولان من العاج فى طول الذراع و رأساهما على صورة رأس أسد و عيناه ياقوتتان حمراوان لم أر أجمل و أضوأ و أخلص منهما إلى غير ذلك مما يقصر عنه وصف الواصف من بدائع الصنائع و المخلوقات.

و أما بقية أماكن و بنايات باريس الشهيرة فهى كثيرة جدا و من أهمها: «ليزان فاليد» و هو محل العاجزين من العساكر و به آثار الأسلحة القديمة منذ عرف السلاح فى الدنيا إلى الآن و به قبر نابليون الأول و الرايات التى غنمها و على قبره هيكل و تابوت فوقه نيشانه و سيفه، أدخلونى إليه و أرونى جميع جزئيات غرائبه تكرمه منهم و حوله قشلة كبيرة للعاجزين من العساكر بالسن أو الحروب الذين يريدون الإقامة هناك، فزيادة على القيام بجميع ضرورياتهم لهم خدمة و كل من لا يقدر على المشى تجعل له عجلة صغيرة يحركها بنفسه إن قدر و إلا جرها خادم للتروح فى المنزه الذى حول ذلك المكان، و المدير لهذا المحل رجل من رتبته أمير آلاى ذو أخلاق حسنة معارف جيدة.

أما ملاهى باريس فهى كثيرة و مختلفة المقاصد إذ لا يقصدون بالملاهى مجرد التلهى

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ٧٥

بل ظاهرها التلهى و باطنها فائدة من الفوائد كالإعلام بتاريخ غريب لتجتنى محاسنه و تجتنب قبائحه، لأن الرأى يشاهد النتائج عيانا فتكون أوقع فى النفس و كالإفادة بفائدة علمية مثلما يحصل فى أحد الملاهى من ذكر كورية الأرض، و أن من يقطعها ذاهبا إلى جهة الغرب فى نيف و ثمانين يوما، فإذا وصل إلى المكان الذى خرج منه يجد أنه نقص له يوم من أيام الأسبوع، مثلا يرى أنه وصل فى يوم الأحد و الحال أن اليوم عند أهالى ذلك المكان هو يوم الإثنين و بعكس ذلك من يقطعها ذاهبا إلى الشرق، فإنه يزداد عنده يوم فيرى أنه وصل يوم الثلاثاء و الحال أن اليوم عند الأهالى هو يوم الإثنين، و ذلك لأن السائر إلى جهة الغرب يكون ذاهبا مع الشمس، فالיום بليلته عنده أزيد من أربع و عشرين ساعة فيجتمع فى تلك الأيام يوم كامل يضيع على المسافر و يزداد عند مقابله مثله،

لأن اليوم بليته عنده أقل من أربع وعشرين ساعة لذهابه ضد سير الشمس، وقد نص القرافى على هاته المسألة، و ما هو الحكم الشرعى فيها ما إذا صادف اليوم المختلف فيه يوم الجمعة، فإن المقيم يعده يوم الجمعة و المسافر إلى الغرب يعده الخميس و المسافر إلى الشرق يعده السبت، و غير ذلك من أحكام العبادات و المعاملات الموقته و أن الحكم هو الإعتبار بما عند أهل المكان، فأولئك اللاعبون يصورون هاته المسألة العلمية بتشخيصها و صورة السفر برا و بحرا و ما يعترض من العوائق و ثمره الحال للتوصل به إلى الأغراض إلى غير ذلك.

و هناك ملاهى لإفادة البراعة و البلاغة فى الكلام، و آخر لإفادة علم الموسيقى إلى غير ذلك من الفوائد و لو السياسية، فقد كانوا مدة رياسة المارشال «مكماهون» على الجمهورية طلب مجلس الأمة أن تعزل ولاية البلدان و رؤساء العساكر الذين هم من حزب الملكية فامتعت الوزراء من قبول ذلك، و حل الرئيس المجلس و أذن بانتخاب أعضاء آخرين و لما انتظم المجلس الجديد أصر على مطلب سلفه فأراد الرئيس حله أيضا فامتنعوا من ذلك إذ لا حق له إلا فى حله مرة واحدة فى نازله متحدة، و حصل نزاع كاد يفضى إلى شعب فكان أحد الملاهى لاعبا و إذا بأحد اللاعبين يقول ما ترجمته نظما:

المارشال مكماهون يخضع و إن أبى من الخضوع يخلع

كذا الولاية من صياصى تدفع لأن ذاك للبلاد أنجع

فدخل الحرس و فتشوا على القائل فلم يقر لهم أحد و لا وجدوا الكلام فى كتاب الحكاية، و آل أمر النزاع إلى استعفاء المارشال. و اعلم أن تلك الملاهى يوجد منها ما هو مضيعة و مشغلة لكنه قليل، و الحاصل أن ملاهيم لا تخلو عن فائدة معتبرة و مع ذلك فهم غافلون عما فيها من مفسدة مهمة، و هى تعليم الشبان و الشابات أوجه العشق و مبانیه

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ٧٦

و وسائله إذ قل أن يخلو تشخيص عن مثله و يعتذرون عن ذلك بأنه يعلم أيضا شناعة ثمرات العشق و شناعة الفضيحة و إثارة الموت على حفظ العرض مما يكون خاتمة تلك التشخيصات و كان ذلك لا يفيد، إذ البواعث النفسانية غالبه على عقول الكثير من الناس فتأخذ ما يلائمها و تغفل عما سواه، و يؤيد هذا: أن الكثير ممن يحضر تلك الملاهى إنما يجعلها وسيلة للتمكن من إمعان بصره فى اللاعات و المتفرجات التائها بدلالهن و جمالهن و لباسهن، و ترى كلا من الحاضرين بيده مرآة مقربة و هو لا شغل له إلا أشخاص من واحدة إلى أخرى، ثم يلتمسون الوسائل إلى الخلطة بمن يعلقون بها بل و كذلك تفعل الأبيكار و الشابات مع الرجال إلا العفيفات، و أعظم هاته الملاهى «هو كران لوبره» الذى تقدم ذكره، و كان دخله من اكتوبر سنة ١٨٧٩ إلى نهاية يناير سنة ١٨٨١ الذى هو عام و أربعة أشهر ٠٠٠، ٧١٥، ٤ فرنك، و مصروفه فى تلك المدة ٥٠٠، ٧٤٩، ٤ فكانت الخسارة أربعة و ثلاثين ألفا و خمسمائة فرنك زيادة على ما تعطيه الدولة إعانة له، لأنها تعين من دخلها فى كل سنة إعانة للملاهى مبالغ وافر فكان معين للملهى المذكور، و ملهى «أوبيره كوميك» و ملهى «تياتر فرنسيس» و ملهى «لوديون» فى سنة ١٨٨١ ٠٠٠، ٣٢٤، ١ فرنك عدا بقية الملاهى للفوائد التى مر ذكرها، و كراء البيت الواحد فى هذا الملهى سنة ١٢٩٥ هـ مائة و عشرون فرنكا فى الليلة الواحدة، و به بيت لرئيس الدولة يحتوى على مرافق و قد أذن لى بالدخول إليه تكرمه من رئيس الجمهورية إذ ذاك المارشال «مكماهون»، و من أهم الملاهى «البدروم» الذى يلعب فيه بالخيول ألعابا عجيبة، و كذلك ملهى السرك فترى الخيل تدرك مثل الإنسان الحاذق و كذلك غيرها من الحيوانات و لو السبعية، فإن الأسود و الفيلة و غيرها لها ملاهى خاصة و تطيع أمرها كالآدمى، حتى رأيت الشاة تسطو على الأسد و تركب على ظهره و تدخل رأسها كله فى فمه و هو منقاد خاضع، و حوله فى الحجره التى هو بها أربعة أسود آخر و أربعة نمورة و مثلها ضباع ثم ذئاب ثم أربعة من الدب كلها و قوف حول حيطان الحجره كأصحاب موكب محتبك، و ذلك الأسد الكبير فى وسط الحجره و النعجة تلاعبه و تركب عليه و صاحبها واقف معها لكى لا- يسطو واحد على آخر، و تلك النعجة لا تخشى بأس جميع تلك السباع بل كأنهم هم الخائفون منها، غير أنى شاهدت هاته السباع فى تلك الحالة و الضبع واقف يرتعد من الأسود و بوله جار على رجليه و مع ذلك لا

يخل بأمر صاحبه ومثله الدب، فإن صاحبه إذا أمره بالقرب من الأسد الكبير تراه يرتعد ويصيح ولكنه يفعل ما أمر به، وكذلك ذلك الأسد يكفه ويكره قرب الدب منه ولكنه لا يضره بشيء فالنقرة بين النوعين شديدة بخلاف الأسد مع النمر، فالتآلف بينهما قريب.

ومن غريب ما شاهدته هناك ثعبان في غلظ شبرين وطوله نحو خمسة عشر ميتر ويحمله عدة رجال ويمسه كل أحد ولا يضر شيئاً وهو من النوع الذي ذكرناه بجبال الودارنة بقطر تونس وقلنا إنه بين الأهالي مثل القط الأهلي، كما لهم ملاهى للشعوذة يعملون بها أعمالاً غريبة.

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ٧٧

وأما معامل باريس للصنائع فهي كثيرة جدا ومما اختصت به عن غيرها معمل كبلان الذي ينسج به المنسوجات الثخينة كالزرابى التي يضر بها المثل، وكذلك معمل «السيفر» الذي يصنع به الأواني الخزف التي يفضلونها على الخزف الصينى، وقد رأيت به مائدة على ساق واحدة أرفع ما رأيت من ذلك الشكل بألوان و صفاء بديع ذكروا أن قيمتها ستون ألف فرنك، وكذلك معمل التمويه بالفضة والذهب بالجاذب الكهربائى، فترى القناطير المقطرة من النحاس مصنوعة ساعات وشوكات وملاعق وغيرها يدخلونها فى برك من مياه الفضة والذهب فتخرج كأنها من ذلك المعدن.

وأما منازل المسافرين فتكاد أن لا تحصى، وأهمها المنزل الأكبر فى بلغار الطليان فإنه من عجائب المباني والتنظيم، وترى فيه إيوان الأكل العام متسعا جدا بقبة واحدة يحيط بها رواشن ويوقد به نحو سبعمائة مصباح وقبته وحيطانه كلها مموهة بالذهب على أشكال جميلة وبه سبع موائد كل مائدة يجلس عليها خمسون نفسا فترى ثلاثمائة وخمسين نفسا فى بيت واحد يأكلون جميعا على غاية الراحة والنزهة والأبهة ولا تسمع فيها لآغية والكل يأكلون سواء، والفطور له خمسة ألوان والعشاء له سبعة ألوان عدا الحلويات والفواكه وزينة المائدة البديعة و ثمن الأكل فيها للواحد ستة فرنك عشاء وأربعة فطورا، ويحتوى المنزل على ستمائة حجرة للسكنى وستين بيتا متسعة للجلوس، ويصعد إلى طبقاته العليا بالجلوس على كراسى تصعد بها آلة بخارية.

وأما حماماتها فهي على نحو ما سيأتى فى الصفات العامة، غير أنها اختصت بحمام عربى قرب البلغار وهو فى نهاية التانيق والتزويق والزخرفة، شبيه بالحمامات العربية فى كونه له بيت كبير حار للإغتسال والعرق، وبيت كبير لنزع الثياب والراحة للمغتسل مستلقى بعد الإغتسال وبين البيتين حوض كبير مملوء بالماء البارد ينزل إليه كثير من المغتسلين بعد الغسل ليخرج منه إلى بيت الإرتياح، وعند وصوله إلى الحائط الفاصل بين البيتين يضطر إلى إدخال رأسه أيضا فى الماء لأن الماء واصل إلى أسفل الحائط، وفى الحمام خدمة يكبسون المغتسل وينظفونه على النحو المعتاد فى البلاد العربية وبعضهم من الجزائر وبعضهم من السودان.

أما أحوال المعارف وترقى العلوم فالباب فيها واسع جدا ونقول اختصارا: إن فى باريس مكاتب للعلوم العالية وأولها مجمع كبار العلماء، ثم مكتب فرنسا وهو لنهاية المعلمين، ومكتب أركان الحرب، ومكتب المعلمين، ومكتب الصيدلانيين، ومكتب إتقان علوم الطرق والجسور، ومكتب علوم المعادن ومكتب تعلم التجارة، ومكتب الصنائع الظرفية ومكتب علم الموسيقى وعلوم تشغيل الملاهى وإنشائها، ومكتب اللغات الشرقية والآثار القديمة، ومكتب الصنائع وخمسة مكاتب إبتدائية للدولة، وأما الإبتدائية للأهالي فغير محصورة وهى كثيرة جدا، ومكتب للقسيسين عال ومكتب لهم دنه، ومكتب للعمى

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ٧٨

و آخر للصم البكم يعلمونهم باللمس والأحرف المجسدة والخوارط المجسدة فيصلون إلى سائر المدرجات. كما أن فى باريس ثمانية خزائن كتب عظيمة للعامة تحوى من المجلدات نحو ثلاثة ملايين مجلدا، وأكبرها، خزنة الكتب العمومية التى فيها أول ما عرف من آلة طبع الكتب، وفيها بعض تحف عتيقة مثل قطع من الشطرنج الذى كان أهاده هارون الرشيد إلى شارلمان، وجملة ما فيها من الكتب أزيد من مليون مجلد منها أزيد من ثمانين ألف مجلد بخط اليد، ومن تلك الكتب التى أخذها نابليون الأول

من مصر ثم الكتب المأخوذة من الجزائر، وقد رأيت فيها كتباً نفيسة عربية ومصاحف كريمة أنيقة ذات أسفار بقطع من الذهب وخطوط جميلة، وكان فيها من المطالعين والناسخين نحو خمسمائة نفس نساء ورجالاً. لكن الرجال أكثر على غاية من الأدب والصمت، وهاته الخزانة مثل قصر عظيم ذي طبقات ومحل المطالعة واحد إيوان واسع ثم وراء هاتيك المكاتب والكتب واعتناء الدولة بواعث آخر للإجتهد والتقدم في العلوم، وذلك بانعقاد جمعيات للتحرير والإعانة بالمال وسائر الوسائل للوصول إلى المقصود في خصوص باريس.

فمنها: جمعية اللغة الفرنسية، وجمعية سائر العلوم، وجمعية علوم الأدب، وجمعية المعارف الظرفية، وجمعية العلوم العقلية، وجمعية علوم الطب، وجمعية التحريض على الاختراعات، وجمعية علم النباتات، وجمعية علم طبقات الأرض، وجمعية معارف آسيا، وجمعية الإحصاءات الدنيوية، وجمعية الجغرافيا، وجمعية علم التاريخ، وجمعية المرحمة الإنسانية، وجمعية الصيدلة، وجمعية الفلاحة، وجمعية مقدمات الفلاحة، وجمعية تربية النبات والحيوان، وجمعية الصنائع الفرنسية، وجمعية لتنمية سائر العلوم.

ومما يلحق بهذا الباب كثرة المطابع فمن أعظمها: مطبعة الدولة ورأيت فيها من أنواع أحرف اللغات التي يطبع بها سبعة أنواع، منها: الأحرف العربية وعدد المستخدمين بها يقرب من ألف نسمة وفيها كتب عتيقة وحديثة في كثير من اللغات، ومنها: كتب غريبة عتيقة بالخط الكوفي وغيره، ومن المطابع المهمة المطبعة المختصة بطرق الحديد لطبع إعلاناتها ودفاتها وجميع ما تحتاج إليه، فيها من المستخدمين أزيد من سبعمائة نسمة وتطبع بالحروف وعلى الحجر بخط اليد، وهناك مطابع أخرى كثيرة للصحف وغيرها فإن الصحف لها تأثير كبير في المعارف حتى أنه يوجد ثلاثمائة صحيفة بين يومية وشهرية وأسبوعية في السياسة أو التجارة أو العلوم، ومنها ما يطبع منه يومياً أزيد من خمسمائة ألف نسخة وفي بعض الأحيان لا تجد منه نسخة للبيع إذ قل أن تجد سائق الكروسة ليس له صحيفة يطالعها فضلاً عن غيره.

وأما أماكن المرحمة كالمستشفيات وديار اللقيطين فهي كثيرة ويكفي لعظمتها ما ذكرناه في المستشفى الذي نظارته إلى الحكيم «شاركو» واللقيط ينفق على تربيته وتعليمه

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار والأقطار، ج ٢، ص: ٧٩

مجاناً إلى أن يبلغ أشده وهم كثيرون بسبب كثرة الزنى والزانيات المتجاوز عددهم عشرات الآلاف منهن من هن في ديار مخصوصة لذلك جهرة ولهن أطباء من قبل الحكومة لكي يمنعون المريضة بالأمراض المعدية ويدخلونها للمستشفى، ومنهن من هن في ديارهن أو في الملاهي أو خادمت إلى غير ذلك. ومن أماكن المرحمة الدار الرحبية المتخذة للفقراء الذين لا يجدون مأوى وهم قادرون على التكسب، فإن هاته الدار تأويهم ليلاً وتطعمهم ما يسد الرمق وتعطيهم فراشا بشرط أن يغسلوا أرجلهم قبل دخوله ولا تقبلهم إلا في الساعة الثانية بعد الظهر، وفي السهر يسرد عليهم قارئ كتاباً في تهذيب الأخلاق والحث على العمل ولا يقبل الواحد أزيد من ثلاثة أيام، ومع كثرة المراحم فكثيراً ما يموت الناس في الطرق جوعاً أو برداً سيما في سوق الخضار لأن من لا يجد مأوى يتقى به من الزمهرير فيجمد برداً.

وأما طرق المواصلة والانتقال من محل إلى آخر في وسط البلد فلهم وسائل كثيرة:

كالباخر: في نهر السين تقف على الشطوط يمينا وشمالاً من طرف البلد إلى طرفها الآخر، والركوب في هاته البواخر إذا لم تكن مزدحمة بالخلائق فيه نزهة جميلة سيما خارج البلد أيام الربيع والصيف، ومنها ما يمر على القرى المجاورة للبلد، ومن الوسائل التريموى:

وتجره الخيل في أغلب الأماكن وفي الطرق القليلة المرور تجره مزجية بالبخار، ومنها الأمنيوس: وهو مثل سابقه غير أن طريقه ليس حديدياً، ومنها الرتل يحيط بالبلد ماراً حذو السور لكنه تارة يجري في نفق تحت البلد، ومنها الكراريس: ولها ترتيب منضبط في باريس أزيد عن غيرها لأن التسعير المرسوم لا يزداد عليه ولا ينقص بخلاف غيرها من البلدان، ومع ذلك فإن سائقي العجلات أظن

أنهم في كل بلد هم أسوأ أهلها أخلاقاً إلا ما ندر، و في عام المعرض أكدت عليهم الحكومة التأكيد الزائد و شددت في الحكم على من يتعدى منهم الحدود، و مع ذلك كانوا كثيراً ما يسيئون السيرة. و من الوسائل أيضاً الركوب على الخيل لكنه خاص بأصحابها و أما المكثرون فهم أقل استعمالاً لها من الكراريس و سائر العجلات. و بالجملة فإن في باريس مائة ألف عجلة و مائة و ثمانين ألفاً من الخيل و هذا كاف في بيان مقدار الحركة.

و أما رواج التجارة و السلع فلنكتف بذكر شيء منها و هو «قصر بورس» الذي تروج فيه كل يوم تجارة تجاوز آلاف ملايين، و في أحوال السلع تقتصر على ذكر مخزن اللوفر الذي هو قصر قدر حارة كبيرة ذو أربع طبقات فيه ستمائة مستخدم و فيه من السلع كل ما يحتاجه الإنسان من الملابس و أثاث المنزل و الفرش بل و حتى الكراريس و الخيل التي تجرها، و إذا دخل إليه المشتري تلتقفه الخدمة بالبشاشة و اللين و يطلعونه على كل ما يريد فيختار ما شاء و يذكر لهم إسم محله و يذهب، و هم يأتون بما اختاره مع صحيفة مبين بها الأثمان ممضأة بالخلاص فإذا وجد شيئاً غير الذي اختاره أو سعرا غير الذي سمع به ردما لا يعجبه و أخذ الباقي، و أخذ صك الخلاص بعد دفع الثمن من غير مماكسة في السعر و لا

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ٨٠

يخشى المشتري من الغرر لأن السلع هناك أرخص ما يمكن أن توجد، لأن صاحب المخزن يأخذها من المعامل و يزيد عليها نصفاً في العشرة ربحاً، و كل من دخل المخزن الذي هو حقيق بإسم قصر فله أن يدخل إلى إيوان الجلوس و يقرأ فيه ما يشاء من الصحف و يكتب ما يريد و يشرب شيئاً من المشروبات كل هذا مجاناً، و لصاحب المخزن دفاتر عديدة مقيد بها أسماء السلع بأعداد مع أسعارها يعطيها لكل من أراد، و من يريد بعد ذلك شيئاً من السلع و لو من الأقطار البعيدة فليس عليه إلا أن يكتب للإدارة جريدة بها أسماء ما يريد بأعداده فيأتيه مطلوبه مع البريد و يدفع إذ ذاك الثمن و يأخذ المطلوب، أما إذا تعرّف بتجار و جعل معهم حساباً متصلاً فإن دفع الثمن يكون حسب الإتفاق و مثل هذا المخزن مخزن «بومرشي» و هناك مخازن أخر عديدة و لكنها دون هذين، و من غرائب ما رأيته بباريس القبة الهوائية الكبرى التي تسمى بالبالون و قد سماها علامة اللغة أحمد فارس بالمنطاد، فقد صنعوا واحدة كبيرة جدا و نصبوها في بطحاء «التولري» و ربطوها بحبل من التل تجذبه آلة بخارية و علقوا بها مركبة تسع أربعة و عشرين نسمة، و كل من ركب يدفع أجره الركوب عشرين فرنكا ثم يطلقونها تصعد إلى ارتفاع ثلاثمائة ميتر و فيرى الصاعد جميع باريس و ما حولها كله تحته، و كان أول اختراع هاته القبة سنة ١٧٨٣ في فرنسا و هي قبة متخذة من منسوج الحرير مدهون بنوع صمغى كالمسمى «بالفرنيز»، تملأ بالبخر الغازي الذي هو أخف من الهواء العادي بأربعة و عشرين ضعفا فتصعد ضرورة فوق الهواء لأنها أخف منه و تحمل ما يتصل بها مما لا يعادل ثقله خفة هوائها.

و من محاسن باريس الماء المجلوب إليها من عيون غزيرة و جعلت له خزنة هائلة تقصد للتفرج عليها زيادة على الماء الذي يرفع من النهر بالآلات بخارية، فالأول للشرب، و الثاني: للإستعمال. و من أماكن التفرج الدهاليز الكبيرة التي تحت الأرض و يقال إنها كانت لقطع الحجارة ثم جعلت مقبرة لعظام الموتى مرصفة مرتبة، و كذلك الخنادق الوسيعة التي تجرى فيها الفضلات و المياه فإنها تسير فيها آلات بخارية نحو الرتل لتنظيفها و تقصد بالتفرج، و من صفات باريس أن أغلب دورها يصله الماء في قنوات صغيرة كل دار على قدر استحقاقها و كذلك كل دار لها قنوات للبخر الغازي للتونير ليلا، و لبعض الديار ساعات تحركها قوة الكهرباء في مكان متحد في البلد بحيث تكون جميع الساعات متساوية الوقت على التحرير الصحيح في المرصد من غير مشقة لأصحاب الديار، و لبعض الديار أيضاً قنوات لإتيان الحرارة لتسخين الديار على حسب إرادة صاحبها و ما يقسمه على بيوتها من غير كلفة لإيقاد النار و لا خوف من إحراقها، لأن الحرارة الآتية هي حرارة هوائية و ليس لصاحب الدار إلا دفع ثمن هاتيكم المرافق شهريا أو سنويا، غير أن عمل

التسخين

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ٨١

و الساعات لم يتكاثر كغيره ولا- يلبث أن يعم، و اتحاد ساعات البلد أمر مهم جدا في كثير من الأمور و لهذا كانت أوقات طرق الحديد في كل مملكة معتبرة على قاعدة تلك المملكة فتجد جميع ساعات المحطات متحدة على وقت واحد.

الفصل الثالث: في بقية البلدان التي شاهدها بفرنسا

فأولها: بلد «فرسال» هي غربي باريس تبعد عنها مسير نصف ساعة في الرتل و هي منتزه الملوك و بها قصور أنيقة و بدائع من تحف الملوك و مآثرهم، و منها الكرايس الرسمية التي تبلغ قيمتها الملايين لما فيها من الذهب و الفضة و إتقان الصنعة، و حول تلك القصور البساتين و الحدائق الجميلة ذات المياه الدافقة و البرك الواسعة، قد جعل فيها سنة ١٢٩٥ هـ و هي سنة المعرض عدة ليال للزينة و اندفاع المياه، فرأيت هاتيك الحدائق ملونة بقناديل الأنوار المحاكية كثرة النجوم و شمرايح البارود بألوان و أشكال صاعدة و فائضة و دائرة، و منابع المياه طائفة في الهواء كل عمود منها في غلظ نحو نصف ذراع مرتفع عن منبعه نحو أربعين ميتر و فكأنها منائر من الزجاج تبرق بسطوح الأنوار عليها، و كذلك أنواع أخر من المنابع ترمى إلى أمامها على استقامة إلى أمد بعيد و كل تلك المياه منبعثة من نهر السين بآلات قوية بخارية و المتفرجون عدة مئات الألوف، و حول البلاد غابات و ماشى جميلة و البلاد واسعة الطرق نظيفة و نظيفة و القصور الملوكية ليس بها من المفروشات إلا قليلا من آثار الملوك متحفزين عليها على ما كانت عليه، و قد رأيت بها كلا- من مجلس الأعيان و النواب إذ كانا نقلا- إلى هناك بعد حرب ألمانيا سنة ١٢٨٧ هـ ١٨٧٠ م، و كان جلوسى فى بيت رئيس الجمهورية إكراما منه لى على عاداتهم فى الإكرام بمثل ذلك، فأما مجلس الأعيان فلم يكن به شىء من المسائل المهمة ذلك اليوم إذ هو يوم لتصحيح قانون استقر عليه رأيهم فى استقرضات و إصلاحات للولايات، حتى رأيت الأعضاء كل مشغول بالحديث مع صاحبه و الكاتب يقرأ فى القانون و لما كثر اللغظ نبههم الرئيس مرارا للإستماع فكأنه لم يخاطب أحدا و اضطر للسكوت، و ذلك لأن ذلك القانون قد تباحثوا فيه مرارا و استقر رأى فيه و طبع و وزع على الأعضاء و عرفوه تفصيلا فكانت قراءة الكاتب إليه قراءة رسمية، ليقع الإمضاء عليه فقط.

و أما مجلس النواب فتذاكروا فيه على مسألتين.

أولاهما: طلب وزير المال للرخصة فى صرف خمسة آلاف فرنك على جنازة أمير آلاى بلغ السبعين سنة من العمر و مات تحت السلاح فقيرا بعد أن ذكر تاريخ حياته و مآثره، و طلب إجراء ستة آلاف فرنك سنويا لعائلته و أن ذلك المطلب استقر عليه رأى الوزراء، فما ختم كلامه إلا و ارتفعت الأصوات من جهات اليمين منكرين لذلك و ردت عليهم أصحاب الشمال و اشتد الوطيس بين الفريقين إلى أن التزم الرئيس بإسكاتهم، و رام اتباع القرعة، فخرجت الأكثرية بموافقة الوزراء فقلت لرفقائى: هل رأيتم ما وقع؟ قالوا: نعم، لكن ما

صفحة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ٨٢

قصدك؟ قلت: إن دخل دولة فرنسا نحو ثلاثة آلاف مليون و قد اتفق وزراؤها و رئيس الدولة على صرف خمسة آلاف فرنك على رجل بذل فى خدمته دولته و الدفاع عن أمته مجموع عمره و مع ذلك لم تستطع الدولة أن تنفذ أمرها فى مال الأمة إلا بعد مشورة أهل الحل و العقد و موافقتهم و بمثل ذلك لا يصرف المال إلا فى وجهه لا على اختيار فرد و لا على مداراته، ثم قام وزير الخارجية و ذكر ملخصا فى تجديد معاهدة تجارية مع إيطاليا و أن شرح النازلة يوفى به أخوه الذى هو أيضا عضو فى المجلس، فقام هذا العضو خطيبا نحو ساعة و ذكر ملخص تاريخ التجارة بين المملكتين و أن إيطاليا أرجح تجارة من فرنسا و طلب تعديل فصول فى المعاهدة السابقة فوافقوه على ذلك.

و ثانيها: بلد السيفر و هي قرية على نهر السين قريبة من باريس نحو نصف ساعة فى العجلة و بها معمل السيفر للخزف و بستان أنيق و قصر ملوكى.

و ثالثها: بلدة «صان أكلوا» بقرب السابقة و قريه من هياتها، و الحاصل أنك إذا خرجت من باريس راكبا كروسه إلى فرسال فإنك ترى كأن البلاد الثلاثه المتقدمه متصل بعضها ببعض، و ينتقل من واحده إلى أخرى بالرتل و بالكروسه و بالتراموى و بالأمنيوس و بالبواخر النهريه سوى فرسال، فإن النهر لا يحمل السفن إلى قريها.

و رابعها: بلدة «فوتين ابلو» التي هي أصغر من فرسال و على نحوها، لكن ليس بها إلا قصر واحد ملكى و به أثاث لنابليون الأول، و منها مائده كانت أمامه وقت إعلامه بانكسار جيوشه عند تعصب أوروبا عليه و كان بيده موسى فضرب به المائده غيظا و لا زال أثره فيها، لكن هاته البلد تفضل غيرها بما حولها من الغابه ذات الأشجار الفائقه، و محيط الغابه نحو أربعين ميلا و فيها من الطرق و المقاعد ما يفرح النفوس، و فى وسط الغابه قهاوى و معامل لخرط تحف من أخشاب الغابه، و فيها كثير من الصيد كبقر الوحشى و غيره و الغابه متصاعده فى جبال جميله بما كساها الله من النبات، و فيها صخره يعتنى بالتفرج عليها سقطت على حجاره صغيره كانت فى الوسط فصارت الصخره تتحرك كلما حركها أحد مع عظم جرمها، و فى الجبال عيون كثيره و يجرى حول البلد نهر فهى من منازة فرنسا المقصوده.

و خامسها: بلدة «ليون» و هى بلدة كبيره ذات بطحات و بناآت أنيقه و يخترقها نهران أحدهما، يسمى «هالرون» منحدر بسرعه و تسافر فيه البواخر بقله. و ثانيهما: نهر «السون».

ثم يجتمع النهران خارجها و يذهبان إلى البحر، و هى متوسطه بين مارسيليا و باريس، و منظر الجبل الذى حولها جميل سيما جهه منتزهها المطل على النهر الأول و يصنع فى مطاعم ذلك المنتزه طعام من سمك النهر الأحمر و يتغالون فى ثمنه، و على النهر عدّه جسر فى البلد أحسنها الجسر الحديد ذو القوس الواحد المعلق وسطه فى أطرافه بسلاسل، و أحسن أماكن هاته البلده هو بطحاؤها الكبرى التى بها قصر «البورس» و قصر الحاكم، و أهاليها يظهر عليهم الجد فى الصناعه لأن هاته البلده هى أشهر البلاد الفرنساويه بمنسوجات

صفحة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ٨٣

الحرير، فكانت السكان قليلو الجولان فى الطرقات إذ أغلبهم معتكف فى المعامل و تجاره أهلها شهيره فى المعمور، و رأيت فيها النفق فى الجبل الذى يصعد فيه الرتل صعودا بينا، حيث كان قسم من البلد فى أعلى الجبل و قسم فى أسفله فجعلوا طريقا حديدا و لتقريب الطريق و استقامته ثقب له الجبل حتى يصعد مستقيما و جعلت فيه حافله و سيعه تحمل نحو خمسين نسمه و يجذبها للإصعاد جبل من سلوك من الحديد بآله بخاريه إلى أن تصل إلى أعلى الطريق فينزل الركاب منها، و يسمى ذلك «بالتونيل» و أقمت بهاته البلد يوما و ليله و هى ليست إلا شغلا للتجاره.

و سادسها: بلدة «مارسيليا» التى هى أعظم مرسى تجاريه لفرنسا بل و فى البحر الأبيض، و هى بلدة كبيره ذات جمال و نزهه و فيها حركة عظيمه للتجاره إلى سائر الأقطار، و فيها أخلاط من السكان من سائر الأقطار و أحسن طرقها طريق «كانوبيار» فيه قهاوى و مقاعد ربما فاقت بجمالها على قهاوى باريس، و فيها منتزه يسمى «اشاتودو» فى أعلى مكان بها و منه ينحدر الماء المجلوب إليه على حنايا ذات بناء متين و محل انقسام الماء له منظر بديع من حسن البناء و تأنيقه و حوله حديقه نزهه، و بها حيوانات عديده من أنواع شتى، و من محلات نزهتها دار الآثار القديمه قرب شاطيء البحر و قرب محل السباق، و أنزه قصر بها هو القصر المسمى أوتيل «دوديزيرف» المتخذ مطعما على ربوه من الجبل المحدق بالبلد يحيط بالقصر من جميع جهاته رواقات على أسطوانات بشكل جميل مع تنميق للبناء و حسن الفرش و المأكّل، يحيط به حديقه ظريفه فهو نزهه للخواطر و لولا أن منظره للبحر عشيه تكدره الشمس لأنه غربى، لكان أجمل ما رأيت من نوعه. أما قوه حركة التجاره بهاته البلده فهى عبره للمتبصرين و ذلك أنك تشاهد من حركة العجلات و السفن و القوارب و الأرتال و كثرة البضائع من أنواع شتى داخله و خارجة إلى الصين و أمريكا و سائر الأقاليم، و ترى من المخازن التى هى حقيقه بإسم قرى لكبرها و كثرة ما فيها من السلع ما يحير الفكر، كما أن قصر «البورس» بها يكاد يناكب بورس باريس. و الحاصل

أنها هي ثانی بلد لباريس فيما رأيت بفرنسا، و أما مرساها فهي ذات حوضين عظيمين لا من السفن و ترى فيها من البواخر وغيرها ما يشبه الغابات المحتبكة، و قد وردت على هاته البلدة ثلاث مرات في سفراتي و أقمت بها عدة أيام ذهابا و إيابا. و سابعا: بلدة «طلون» التي هي أول مرسى حربى على البحر الأبيض و هي بلدة حربية إذ لا نضارة لها و لا انشراح بالنسبة لغيرها، لكن فيها من الحصون و الأحواض لإنشاء السفن و المدرعات و المعامل لإنشاء المدافع و الكلل و الألغام البحرية و غير ذلك من قوات الحرب شىء كثير، و رأيت فيها إحدى عشر حوضا بكل واحد سفينة مشتغل بإنشائها منها ما هو على تمام و منها ما هو فى البداءة و الخلائق منكبون على الاجتهاد كالنمل فى المصيف.

و قد كان سفرى إليها سنة ١٢٩٥ هـ، و كان مصاحبا لى فى الرتل سفير الصين القادم بالإستدعاء للمعرض و هو وزير البحر عندهم، و هو رجل مسن شعره خفيف على عادة أهل

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ٨٤

الصين و كل لحيته و شواربه بيض نحيف الجسم و معه غلمان لا أدري أهم أبناؤه أم أتباعه، و معهم غيرهم من الأتباع مجموعهم نحو ثلاثة عشر رجلا، و كان راكبا فى حافلة منفردة هو و أتباعه و الحافلة ذات مخادع و مقاصير و مرافق بحيث لم ينزل منها مدة السير إلى أن وصلنا إلى «طلون» فنزل هناك حيث أعدت له دولة فرنسا باخرة حربية ذات طبقتين من المدافع لتوصله إلى مرسى بلده فى الصين و كانت الباخرة مباحة ذلك اليوم للمتفرجين، و الحاصل أن هاته البلدة بلدة حربية تظهر عليها سمات القوة و الشارات العسكرية و أقمت بها نحو ستة ساعات.

و ثامنها: بلدة «نيس» التي هي على شاطئ البحر و هي مأوى الأغنياء و ذوى الترف من الفرنسيين و غيرهم من أهالى الأقطار الباردة فى الشتاء، و ذلك لأن موقعها على جون مستقبل الجنوب و يحيط بها من بقية الجهات سلاسل جبال شاهقة تمنع عنها مرور الرياح الباردة فكانت مأوى فى الشتاء حسنا، و كثرت بها القصور و المباني الجميلة و منازل المسافرين الرحبية و جميع ديارها صغيرة لا تزيد على أربع طبقات سوى منازل المسافرين، و ذلك لأن عادة الإنكليز فى بناءاتهم على ذلك النحو و هم أكثر القادمين إلى هاته البلدة، و لأن غيرهم أيضا إنما يقدم منهم ذوو الترف المتعودين على سكنى الأفراد فلذلك كانت مبانيها جميلة ظريفة، و سياج حدائقها من الآجر أو الحجر مرصوف على أشكال حسنة، و البلدة يشقها نهر تجرى فيه المياه عند نزول الأمطار فقط و عليه عدة قناطر، و لها عدة ملاهى لكن لما قدمت لها صيفا وجدت البلد كأنه خال عن السكان لقله من به بالنسبة لكثرة البساتين و الديار المنفردة و ليس بها ملهى مشتغلا سوى الملهى الصيفى على شاطئ البحر، و يقرب من هاته البلدة عدة بلدان هكذا على نحوها ظرافة و نزاهة و أقمت بها ليلة و يوما.

و تاسعها: بلدة «أياتشو» و هي قاعدة جزيرة قرسكا و هي مرسى أمنية صناعية و من عاداتهم فى المراسى أن البواخر مهما وصلت تتم أشغالها الليل و النهار سواء فتحمل السلع و تنزل غيرها و كذلك الركاب بحيث أن ساعاتها المعينة لا تتأخر عنها، و يجد المسافر فى المرسى و حولها ضروريات ما يحتاج إليه و هي منورة و هاته البلدة ظريفة جميلة ذات أشجار كثيرة من النارج و الليمون فكانت رائحة الزهر عند دخولى إليها فى الربيع عابقة، و فيها بطحاء و سبعة بوسطها صورة نابليون الأول و الدار التي ولد بها لا زالت على هيئتها و فرشها للتحفظ عليها كالمصالح العامة لأنه من رجال السياسة المعدودين فى الدنيا و رقى اسم فرنسا إلى درجة عظيمة و هو فى الأصل من عموم أهالى هاته البلدة، و أقمت فيها بضع ساعات و لما أوقدت المصابيح ليلا عند الغروب ثم طلع البدر نقصوا النصف منها اقتصادا.

فهاته هي البلدان التي دخلتها و أقمت فيها بفرنسا فى السفرات الثلاث، و عند رجوعى إلى الوطن فى السفرة الأولى راكبا من مرسيليا و كان ذلك فى يناير الموافق لمحررم سنة ١٢٩٣ هـ ليلا صادفت هيجانا عظيما فى البحر حتى كادت أن تهلك الباخرة بمن فيها و انكسر منها عمودان من حديد معلق فيهما قاربا و مات ثلاثة من الخيل و انكسرت رجل

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ٨٥

أحد الركاب و لم يستطع أحد و لو من النوتية أن يتحرك من محله، و جاءنى السفن صباحا بعد هدو البحر مهنيا بالسلامة و أخبرنى أنه لم ير مثل تلك الليلة و أنه ربط نفسه بحبل مع عمود الباخرة ليستطيع الثبات فى مكانه و ما وصلت الباخرة إلى جزيرة كرسكا إلا بعد ميعادها يائتى عشر ساعة.

و من غرائب المرائى أنى رأيت فى الليلة الثانية فى البحر أن سنه من أسنانى سقطت و كأن أحبائى سألونى عنها و كنت أسلى نفسى بأنها كانت غير ثابتة بل مضطربة و لذلك لم أجد ألما فى نزعها فلما أفتت انقبضت من تلك الرؤيا و لم أعلم ما تشير إليه، فلما وصلت إلى الوطن ظهر لى فى أوجه الأحباب الملايين غبارا و فى أثناء الطريق سرد على الفاضل محمد السنوسى هاته الأبيات قال:

فاشكر الهك و اذكر النعم التى ردتك بعد تلاحم الأهوال

فأتيت أروضك سالما و أعز ماتلقاه فيها فوزكم بالآل

فترى بنيك من السلامة فى حلى موصوفة منكم بكل كمال

و جميع أهلك و الأحبة كلهم يلقونكم بتساحب الأذيال

هذى هى النعم التى لم نوفهاحق الثناء على الولى المفضل

و هو الذى أبقى إليك الأخت كى تسمو بعزك فى حلى الإجلال

إذ لم تصب فى غير ليلة أمسناو الآن ترقب منك خير هلال

فاشكر الهك صابرا متيقنا بجزيل فضل الواحد المتعالى

فأعلمتنى بوفاء أختى الوحيدة رحمها الله و نعمها و كنت تركتها مريضة بالسل فتوفيت ليلة قدومى بعد تلك الرؤيا بليلتين و حضرت جنازتها، و لم أعلم بأن رؤيا مثل ذلك تدل على موت الأقارب إلا بعد أن حللت فى الاستانة سنة ١٢٩٧ هـ فذكر مثل فى الوصول إلى المقصود بالملاطفة، و هو أن أحد الملوك كان رأى أن جميع أسنانه سقطت، فأتى بمعبر فقال له: سيموت جميع أهلك، فبطش به، ثم أتى بمعبر آخر فقال له: إن الملك أطول عمرا من جميع عائلته فأجازه، فتعجبت بتذكر تلك الرؤيا إلى أن قال لى المتحدث: إن أمر هذا مشهور فى علم الرؤيا فقلت نعم ها أنا قد شاهدته فى نفسى لكنى لا أريد معرفه هذا العلم لأنه يشوش الفكر و لا يكاد يتوصل إليه إلا قليل، لأن له شروطا فى الإحاطة بأحوال الرائي و وقت الرؤيا و الإحاطة بالمرئى إلى غير ذلك و ربما غفل عن شىء منها فيتغير المعنى، و أما أصل العلم فلا شك فى ثبوته و ما أوتيتم من العلم إلا

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ٨٦

قَلِيلًا [الإسراء: ٨٥] و يكفى فى ثبوت هذا العلم الأحاديث المروية فى صحيح البخارى و منها: أن الرؤيا الصالحة جزء من ثلاثة و ستين جزءا من النبوة .

و أما سفرتى الثانية، إلى فرنسا سنة ١٢٩٥ هـ فكانت من تونس إلى مرسليليا توا بمرور الباخرة البريدية على بلد بوننة من أعمال الجزائر، و كان البحر فى غاية الهدو حتى رأيت على سطح الماء قطعة من نبات بحرى مثل قطع القطن المنفوش متكاثرة و هى قليلة الظهور و إنما ترى عندما يكون الماء فى غاية السكون، كما رأيت أعمدة من البحر منبعثة بقوة مثل أعظم الفوالق فأخبرنى أنها من نوع سمك يفعل ذلك و أن منها العظيم الذى إذا صادف عمله ذلك إحدى السفن الصغيرة ربما أغرقها و هو من عجائب المراتب، و كذلك عند رجوعى من هاته السفرة كان البحر مثل ذلك إلى أن وصلنا إلى بلد الجزائر و كان الوصول إليها صباحا بعيد الشروق لكننا لم نر البر، و كان السفن أخبرنا بالوصول لكنه لما لم ير البر مع تيقنه بالحساب للوصول التزم الوقوف و ذلك لكثرة الضباب المتكاثف ذلك الصباح فما انتشع الضباب بحر الشمس إلا- و وجدنا البر كانه فى مقدم الباخرة و المرسى عن يمينها، فكان من لطف الله التدارك بالوقوف و التزمت الباخرة أن ترجع القهقرى إلى أن تيسر لها الدوران و دخلت المرسى، و سيأتى الكلام على مملكة الجزائر

فى باب مخصوص.

و أما السفرة الثالثة: فكانت على طريق إيطاليا و منها إلى فرنسا و منها إلى انكلتيرة و هكذا الرجوع و لم يكن البحر إذ ذاك إلا على ما هو معتاد و مما حدث فى الوطن فى سفرتى الأولى و بلغنى خبره و أنا فى باريس ظهور دعوى وقعت لها طنطنة من الشيخ المسن التقى أحمد بن المهدي فى العمل بالسنة حسب إدراك كل من فهمها و ترك الأخذ بأقوال الأئمة المجتهدين، و اختلفت الروايات فى الواقعة و مدارها تصميمه على رأيه و تعصب العلماء عليه إلى أن حكموا بنفيه، فارتحل إلى مكة المكرمة و مات بها رحمه الله. و تحرير الكلام على المسألة باختصار حسبنا و عدنا به فى الكلام على أئمة جزيرة العرب هو أن يقال إن الشيخ المذكور هو من تلامذة الشيخ السنوسى ذى السيط الشهير

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ٨٧

علما و عملا، غير أن هذا التلميذ هو دون شيخه بمراحل فى العلم فألف رساله أراد أن يذكر فيها طريقة شيخه فلم يوف بها و تغير المعنى المقصود لشيخه، إذ مدار هاته الرساله أن لا يقلد أحد إلا المعصوم و لذلك يجب على الأمة أن لا يعملوا إلا بالكتاب و السنة و يتركوا ما وراءهما و لا يخفى أن ظاهر ذلك يوقع فى إفساد الشرع حيث أنه لا مخالف فى أن لا أتباع إلا لرسول الله صلى الله عليه و سلم بما فى الكتاب و السنة، لكن أين أهل الفهم منهما. و أين أدوات ذلك التى كانت فى صدر الإسلام سليقة و صارت على التدريج صناعة و علوما تتعلم و تدلى الأمر حتى لم يبق من يوفىها حقا؟ فإذا سوغنا لكل أحد أن يعمل بما يفهم مع ما هو عليه من الجهل كان ذلك هو عين الفساد، و لذلك لزم اتباع الإجماع و الاجتهاد من أهله المسلم إليه و قد كانت المجتهدون كثيرين فى الصدر الأول، فمنهم من كثرت أتباعه و تسلسل النقل لأقواله إلى الآن و هم الأئمة الأربعة أبو حنيفة، و مالك، و الشافعى، و أحمد بن حنبل رضوان الله عليهم. و منهم من انقطع النقل عنه فلا يجوز الآن تقليده لعدم صحة السند فى مذهبه بالنسبة لأهل العصر، و إلا فكلهم سواء بالنسبة للمقلد و كل من ليس له ملكة الإطلاع على الأدلة و مناطاتها و ترجيحها فهو عامى و له أن يقلد من شاء من الأئمة المجتهدين، لقوله تعالى: فَسِئَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ* [الأنبياء: ٧] و بذلك تحفظ الشريعة لأن سند الاجماع هو نص من الشارع، و سند القياس هو الاستنباط من نص الشارع أيضا، فرجع الأمر إلى أن لا عمل إلا بالكتاب و السنة، و الشيخ السنوسى رحمه الله مقرر لذلك فى رساله له ألفها فى المعنى المتقدم و اختصرها تلميذه اختصارا مخلا، و ذلك أن الشيخ السنوسى قرر فى رسالته «وجوب الاتباع للشارع و التباعد عن العمل بالرأى و البدع. و حث على وجوب إخراج المكلف نفسه من حضيض التقليد إلى درجة الاجتهاد و الكمال حتى

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ٨٨

يقدر أن يفهم كلام الشارع، ثم ذكر شروط ذلك». و أنه إذا ابتلى الإنسان بالتقصير فحينئذ يلتجىء إلى تقليد أئمة الهدى و على الناقل عنهم أن يتثبت فى السند لكى لا ينسب لأحد ما لم يقل به كما يقع كثيرا فى تفرجات بعض المتأخرين فيخطئون فى التخريج و مع ذلك ينسبون القول لأحد الأئمة فيما لم يقل به، بل نقل عنه أنه قال على ما هو عليه من العلم صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ٨٩

و اتساع الباع: أنى إذا استفتنى مستفت من ملتزمى مذهب مالك فإنى لا أفتيه إلا بما نقل عن ذلك الإمام و لو كنت مرجحا لغير قوله: «حسبما اطلعت عليه من الأدلة، و ذلك لأن المستفتى إنما سألنى عن قول مالك لا على قولى».

و الحاصل أنه فى نفسه يرى صحة الاجتهاد له و يرى على كل مكلف إبلاغ نفسه إلى تلك الدرجة فإن لم تحصل فليقلد المجتهد، و رأيت فى تأليف كثير من أهل العصر فى الهند النحو إلى هذا المنحى و أن من له إطلاع على الأدلة و مناطاتها يجب عليه اتباع الدليل، و كان هؤلاء العلماء يريدون من هو من طبقة أهل الترجيح المنصوص عليها فى كتب الفقه.

اعلم أن فرنسا من ممالك أوروبا الغربية وبتبديء من عرض درجة ٤٢ و دقيقة ٢٠ شمالي إلى درجة ٥١ و دقيقة ٥ من العرض المذكور، و من طول درجة ٦ و دقيقة ٥٠ شرقى إلى درجة ٧ و دقيقة ٩ من الطول الغربى، لأن مبدأ الطول عند كثير من المتأخرين هو باريس التى هى قاعدة هاته المملكة، و يحدها جنوبا البحر الأبيض و إسبانيا، و شرقا إيطاليا و سويسرة و ألمانيا و البلجيك، و شمالا بحر المنش و خليج كالى الفاصل بينها و بين إنكلتيره، و غربا البحر المحيط الغربى، فلذلك كانت ذات موقع جسيم و نفوذ برا و بحرا فى ثلاثة أبحر محيطه بها، و يتبعها عدة جزر منها: كرسىكا و جزر يارس فى البحر الأبيض، و جزر رى و أوليرون و ويسان فى المحيط، و فيها جبال كثيرة و أعظمها جهة الشرق كالجورا و آلاب و تتصل بسلسلة مارة جهة الشمال إلى جهة الجنوب الغربى، فتصل بجبال بيرنى الفاصلة بين فرنسا و إسبانيا، و أعلى جميع جبال فرنسا هو جبل «أوروفان» ارتفاعه على سطح البحر ٦٢٣٠ قدما و ليس بها جبال بلكانيه.

و أما أنهرها: فهى كثيرة و ليس بها ما يحمل السفن الكبيرة و إنما البعض منها يحمل الصغيرة و أشهر أنهرها: نهر السين، الذى يخترق باريس و طوله ٤٥٠ ميلا- و يصب فى «المنش»، ثم نهر السوار و طوله ٦٠٠ ميلا- و يصب فى المحيط الغربى، و نهر رون و طوله ٥٤٠ ميلا- و هو عميق سريع السير و يصب فى البحر المتوسط، و نهر جيرون و يصب فى البحر الغربى إلى غير ذلك من الأنهر. و بها من الترع نحو من تسعين ترعة و لا زالوا مجتهدين فى تكثيرها، و وصلت الأنهر و البلدان بعضها ببعض لنقل الركاب و البضائع زيادة على سقى الأراضى و يبلغ طول هاته الترع جميعا نحو خمسة آلاف ميل و أما بحيراتها فلم أعلم فيها إلا ثلاثة.

أولها: بحيرة «ديبورجى» حذو جبل «المونسنى» حلوة محذوق بها منظر جميل و يمر على شاطئها طريق الحديد.

و ثانيها: بحيرة «دنسى» قرب جبل آلاب و كلاهما جار يصب فى نهر الرون.

صفحة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ٩٠

و ثالثها: بحيرة «آن قان» قرب باريس.

و أما هواؤها فالجهة الشمالية منها باردة و الجهة الجنوبية معتدلة و ينزل الثلج فيها جميعا شتاء و مع ذلك فهوؤها سليم لائق بالصحة و لا يقع فيها الضباب إلا بقله و هو متعب جدا، فقد صادفته فى سنة ١٢٩٢ هـ و ذلك أنى ذهبت زائرا أحد معارفى قرب الغروب نحو الساعة الرابعة بعد الزوال فخرجت فى الساعة السادسة بعد مضى الغروب بنحو الساعتين، فوجدت الطرقات فى غاية الظلمة و لم أدر إلى أى جهة الطريق فتعجبت من ذلك و سألت صاحب الباب ما بالهم لم ينوروا الطرقات تلك الليلة؟ فقال: كلا، و لكن الضباب منع نور الفوانيس من الظهور مع ما عليه باريس من كثرة التنوير، فأرسلت ليؤتى لى بكروسه فلم يدر المرسل الطريق و اضطرت إلى تتبع اللمس للحائط مع التحذر من المصادمة و كنا نعلم قرب موقف الكراريس فذهبنا إلى جهتها و لم نر نور فوانيسها إلا عند الوصول إليها، فلما أردنا ركوب أحديها امتنع صاحبها و كثر اللغظ بينه و بين التابع فجاء أحد الضابطيه و أزمه بإركابنا و إيصالنا إلى منزلنا، فأجابه بأنه غير ممتنع لكن الخيل لا تمشى لأنها لا ترى، فقال: إركبوا إلى أن نعمل وجهها، فلم يكن غير بعيد حتى ظهرت المشاعل على وجه الأرض بيد الضابطيه و غيرهم، مشاعل من حبال غليظة تحرق و تدار باليد فى الهواء على وجه الأرض على نحو ما تفعله البوادي، فأخذ السائق الكروسه رجلا- منهم و مكنه من أحد تلك المشاعل و جعل هو يسوق الخيل وراه إلى أن أوصلنا و أعطينا للرجل إحسانه، و كنا نسمع صهيل الخيل بكثرة فى تلك الليلة مع قلة صهيلها هناك على كثرتها، و كذلك كثر نباح الكلاب و زاد حسها وضوحا هذا و حس العجلات، و لما وصلنا إلى البلغار على كثرة تنوير حوائته و قهاويه لم يظهر منها شىء إلا إذا لصق الإنسان بالفانوس فإنه يرى نوره مقصورا عليه، و قد ذكرت تلك الليلة صحف الأخبار و شيدت بشأنها و أن مثلها كثير يانكلترا ليلا و نهارا، أما البرد فهم مستعدون له لبسا و مسكنا و لهم عمله لإزالة الثلج من الطرقات و شدة ذلك البرد مع طول مدته أهون من شدة الحر فى الصيف الذى لا تطول مدته، لأنه يكاد أن يكون الهواء منقطعا من شدة سكونه و حره.

و أما نباتات فرنسا: فنبت بها جميع نباتات أراضى الإعتدال و الأراضى الباردة بالنظر لجنوبها و شمالها، و على الإجمال فالجهة الشمالية منها أجمل منظرا لأن فى الجنوب جبالا صخرية و أحراشا غير صالحة للزراعة، و أهم نباتاتها العنب سيما جهة بلد بردو و شمبانيا لكن فى هاته السنين الأخيرة أصيب بمرض أوجب خسائر بليغة، و فيها من الكمثرى أنواع فاخرة لذيذة سيما فى الشتاء و بطيخها و خوخها حسن لكنهم لا يأكلون البطيخ الأخضر المعروف بالدلاع أو الحجب و عندهم أكله معر، و بقية فواكهها و أشجارها حسنة و فيها آجام و غابات لأخشاب السفن و غيرها كثيرة جدا.

و أما حيواناتها: ففيها جميع الحيوانات الأنسية و النعم و خيلها على ثلاثة أنواع:

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ٩١

فأولها: العراب العتيقة و هى مخصوصة للركوب.

و ثانيها: البراذين و هى لجر الأثقال و الحوافل الكبيرة للركاب.

و ثالثها: المختلط من نسل المذكورات و يستعمل لكلا القسمين، لكن أكثره لجر الكرايس.

و منه الجميل للغاية القصى و البغال بالنسبة إلى الخيل قليلة الإستعمال و أقل منها الحمير، و رأيت فى باريس أن الحمير الإناث والودات يطاف بها بكرى الصباح على الأزقة لحلب من يشتري لبنها، و هى نظيفة حسنة، و البقر ضخمة جدا يعتنى بتسمينه للأكل و لهم على من يفوز بأكثرية التسمين جوائز، حتى بلغ مرة وزن ثور منها نيفا و أربعين قنطارا و تستعمل للحرث أيضا و لجر الأثقال بقله، و الغنم من النوع الذى له ذيل و ذوات الألية قليلة، و أما أنواع الحيوانات المسببة فالظن أنه لا يوجد منها إلا الدب و الذئب و الثعلب و الخنزير، و أما غيرها فقد انقطع من هناك للإعتناء بقطعه مع كثرة العمران، نعم يوجد منها مربى فى الأمصار كالأسود و النمر و يتوالد الأسد و يرضع بنيه كلاب كبار لتقليل جرأته و لعدم ضعف والدته، و أما الثعابين و الحيات فهى قليلة و لا يزالون مجتهدين فى قطعها فإن غابات فنتين أبلو معجول لكل من أتى بحية منها مقدار من المال، أما فى باريس فلم أسمع بوجود عقرب و لا غيرها من الحشرات و لا خنفسه و كان ذلك لشدة الإعتناء بنظافة الديار و الطرقات حتى لا تكاد تجد فى حائط ما مغرز مسمار، و كلها متقنة الطلى ظاهرا و باطنا بالجص أو الرمل و الجير سواء الظاهر و الباطن مع عدم وجود الخراب فى أى جهة، نعم فى الجنوب من المملكة يوجد البق و الذباب و غيرها من الحشرات و هى أيضا قليلة فى المدن بالنسبة لما نعرفه فى البلاد التى تشبه تلك البلاد فى الحر، و طيورها كثيرة رحالة و مقيمة و لا يصطادونها إلا فى أوقات معلومة كما أنه ليس لأحد أن يصطاد إلا برخصة من الحكومة يؤدى عليها معلوما و ليس له أن يصطاد فى غير أرضه المعدة لذلك أو أراضى العامة المعدة لذلك برخصة فيها من الحكومة أو يدخله غيره أرضه برضاه، و من خالف ذلك عوقب.

و أنواع الصيد كثيرة و فيها من نوع الفيزان كثير.

و أما مدن فرنسا: فقاعدتها باريس و قد تقدم ذكرها و هى مائلة إلى الشمال من المملكة و بقية المملكة تنقسم إلى ستة و ثمانين ولاية كل ولاية لها مدينة هى مركزها و يتبعها عدة أوطان لكل وطن مركز و يتبعه عدة أوطان صغار و هاته أيضا إلى أصغر منها، فمجموع النوع الأول من الأوطان عدده ٣٧٠ و الثانى عدده ٢٩٣٨ و الثالث عدده ٣٧٥١٠ و لكل منها مدينة أو قرية هى مركزه فهى حينئذ كثيرة جدا و من أشهرها ما تقدم ذكره منا.

و أما معادنها: فليست بكثيرة لكن منها الغنى للغاية فالذهب لا يكاد يستخرج من محله و إن وجد لأنه لا يوفى بمصاريفه، و الفضة موجودة بقله و مثلها النحاس و الفحم الحجرى كثير غنى، و كذلك قطران الأرض و أنواع من الحجر و الرخام الأبيض و منه الشفاف

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ٩٢

و أنواع عديدة من الحجارة كجر الطبع و أنواع الجص و الكبريت و مقاطع الحديد و الرصاص كثيرة و بها حجر الزجاج، و المياه المعدنية نافعة شهيرة كحمام «فيشى» و حمام «برنى».

و أما مراسيها: فكثيرة حربية و تجارية و قد تقدم ذكر بعضها و يقاس عليه ضخامة و حصانة باقيها.

و أما سكانها: فأصلهم القديم من قبائل مختلفة وردت إلى هناك من المشرق في أوقات مختلفة، و أشهر القبائل قوم من الكنيسيين و قسم منهم عبر المحيط إلى انكلتيرة، و انضاف معهم في فرنسا قبائل أت من جنوب أفريقيا يسمون الباسليك و لا زال إلى الآن سكان جبال «برني» يتكلمون بلغتهم، ثم وفد عليهم الرومانيون ثم هجرت عليهم قبيلة الإفنج الآتية من الشرق و استوطنت قبل ذلك في البلجيك، ثم تغلبت على قبائل فرنسا و اختلط نسل الجميع و اتحد باسم الإفنج، ثم حول إلى الفرنسيين و صاروا الآن جنسا واحدا و هو الفرنسيون إلا- أهل نيس و ساقويا و قرسكا فهم طليانيون، و عدد الجميع ستة و ثلاثون مليوناً و نصف عدا ما في مستعمراتها و الديانة الغالبة هي النصرانية على المذهب الكاتوليكي، و قد كان هو مذهب الدولة الرسمي لكن الآن لم يبق من الدولة اعتبار لديانة أو مذهب خاص، حتى أنها أزلت سنة ١٨٨٠ علامات التمذهب العلنية عن الأماكن الرسمية و المكاتب، كما يوجد فيهم المذهب البرتستانتي. و ديانة اليهود و توجد الدهرية بكثرة و قليل موحدون بالعقل أو باتباع لعيسى عليه السلام. و يتبع فرنسا مستعمرات ففي أفريقيا قهرت الجزائر و ادعت بالحماية على تونس و استولت على سانغال و جزائر غوري و سانت ماري و بورون، و عدد سكان هاته المستعمرات نحو الخمسة ملايين منهم مسلمون نحو أربعة ملايين و الباقي على مذاهب و ديانات شتى، و يتبعها في قسم آسيا أرض «بوندشيري» و «كاريكال» و ما هي «و يناون»، «و شاندرنفور» كلها في شطوط الهند، كما لها «سايغون» في كوشين الصين و عدد سكان الجميع نحو الثلاثمائة ألف، و لها في أمريكا جزائر سان بيروميكلون و مارتينيك و غوادلوب و الفيان الفرنسي و سكان جميعها نحو الثلاثمائة ألف أيضاً، و لها في الأقيانوس جزر مركيز و تاييتي و سكانها نحو المائة و الخمسة و سبعين ألفاً فجميع السكان و الملحقات نحو اثنتين و أربعين مليوناً.

الفصل الخامس: في إجمال تاريخ فرنسا

مطلب: في تاريخها القديم:

كانت هاته المملكة تسمى قديماً «غاليا أو غالة» و يجهل الحال في تاريخها القديم أعنى ما قبل تاريخ الميلاد بألف و ستمائة سنة و من هذا الوقت عرفت أحوالها، فكان أهلها شجعاناً حاربوا من جاورهم و لم يخضعوا لدولة الرومان إلا بعد مشاق ثم استقلت فرنسا عنم باستيلاء أمة الإفرنك في القرن الخامس، و ذلك أنها خضعت لعدو رؤساء متحدين ثم خضع الجميع لملك سنة ٤٢٠ مسيحية و أول عائلة معروفة من ملوكها تسمى

صفحة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ٩٣

«الميروفنجيين»، و في مبادئ القرن السادس تغلب إسم قبيلة الإفرنك على جميع الأهالي لانتصارها على جميعهم ثم قلبت الكاف سينا و صارت فرنسا، و ذلك لقب أطلق عليهم مأخوذ من فرانكس أي شجعان. ثم انقسمت إلى عدة ممالك و اتحدت عدة مرار و كانت شوكة الملوك ضعيفة فيهم و النفوذ إلى جمعيات الأعيان التي تجتمع كل سنة و تختار الملك و تعين السيرة في الإدارة حتى كان للأهالي حرية تامة، بل قد تخرج عن الإعتدال إلى التهور فقد ذكروا أنهم كانوا يقتسمون الغنائم و يعطون الملك حصه كآحاد الجيش، فلما انتصروا في إحدى الوقائع و قد انتهوا فيها كنيسة كان من جملة ما فيها إناء من ذهب طلبه الملك من الجيش برضاهم، فبينما هم بصدد إجابته و إذا بأحدهم تقدم و ضرب الإناء ببلطته و قال له بأعلى صوته: ليس لك أدنى شيء سوى ما يخصك بالقرعة و لا نقر لك بامتياز. و أول تدين ملوكهم بالديانة النصرانية كان في أواخر المائة الخامسة مسيحية.

و في أواخر هاته الدولة أعنى سنة ٧٣٢ وقعت الحرب مع العرب الأندلسيين الذين تغلبوا على قسم كبير من جنوب فرنسا حتى وصلوا إلى «ليون» و خرجت تلك المستملكات و اتحدت مع فرنسا، و بقيت فرنسا على نحو ما ذكر إلى أن استولى عليها كارلوس الكبير و

يعرف أيضا بشارلمان المعاصر للرشيد العباسي، وقد ضم إلى فرنسا عدّة ممالك من أوروبا حتى تسمى بإمبراطور المغرب و انتقل تاجه إلى فروع من العائلة إلى أن بقي الآن في ألمانيا التي كانت إحدى ممالكه و استقل بها أحد أحفاده عند ما قسم ابنه ممالكه على أولاده، فملك بكره على جرمانيا، و الثاني على فرنسا، و الثالث على إيطاليا، و ضعف ملكهم بإسنادهم الأمور إلى غير أهلها فكانوا يقدمون خدمتهم إلى أعلى المناصب و الألقاب بدون جدارة فاستقلوا على ساداتهم، و ملتهم الأمم و تناصروا إلى أن خربت العائلة و استولت على فرنسا العائلة الكايبتيانية و من مشاهير ملوكها فليب الثاني الملقب أوغسطس الذي اتحد مع ملك الإنكليز الملقب بقلب الأسد على حرب المسلمين المعروفة بحرب الصليب الثالثة لكنهما لما وصلا إلى صقلية تنافرا و افترقا، بعد رجوعه من الشام بوقائع صلاح الدين أثار الحرب على الإنكليز و استخلص منهم بعض ما كانوا ملكوه من فرنسا.

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ٩٤

و من هاته العائلة «صان لويز» الذي أسر بمصر و مات بتونس و له تذكارة معروف قرب قرطاجنة و ذلك في حدود سنة ١٢٧٠ هـ و منهم فليب الثالث الذي حدد للأعيان سلطتهم على العامة بمجلس الشورى لكن اضمحل ذلك بميل فليب الخامس إلى الأعيان، و أشرفت فرنسا على السقوط و تداخلت فيها الدول المجاورة و نشأت مع الإنكليز الحرب المعروفة بحرب المائة سنة و كان مبدؤها سنة ١٣٣٧ و انتصر الإنكليز في كثير من الوقائع، و تملكوا كثيرا من الجهات حتى ذات باريس مع العناصر الداخلى في فرنسا، ثم ظهرت بنت لأحد الفلاحين تسمى جان دارك فادعت علم الغيب و التأيد الإلهي لإنقاذ فرنسا، و ساعدها الملك بتأميرها على الجيش و أظهرت شجاعة غريبة و افتكت من الإنكليز عدّة جهات، و في حصارها المدينة كميان أخذت أسيرة و حكم عليها بالحرق لأنها ساحرة ثم عقد الصلح مع الإنكليز سنة ١٤٤٤ و لم يبق بأيديهم إلا الجهات البحرية ثم أعيدت الحرب و لم تخلص فرنسا إلا سنة ١٤٥٣، فرتب الملك إذ ذاك كارلوس السابع الجيش المستمر تحت السلاح، و قد كانت العادة من قبل أن الأعيان المالكين للمملكة بأهلها هم الذين يقدمون العساكر للملك فكسر كارلوس شوكتهم و اعتنى بترقية المملكة في المعارف حيث كان مطلعا عليها.

و قد نقلت صناعة الطبع إلى باريس في أيامه، و أنشأ مدرسه خاصة للطب و باستقامه سيرته نال من الفتوحات و الترقى ما لم ينله غيره من ملوكهم بالحروب، ثم في أيام هنري الثاني سنة ١٥١٠ تعصب به الكاتوليكيك و أغروا أمه به و قتلوا كل من ظفروا به في فرنسا من أهل مذهب البرتيسنت في يوم واحد، و يقال إن عددهم إذ ذاك نحو سبعين ألفا و قتل الملك بيده عددا كثيرا و هو واقف متهللا في أحد رواشين قصر اللوفر، ثم تعاقب على فرنسا الصعود و الهبوط على حسب سطوة الملك و اقتداره إلى أن عظمت جدا في أيام لويس الرابع عشر الملقب بالكبير المتولى سنة ١٦٤٣. و في أيامه و أيام والده حدثت الحروب المعروفة بحروب الثلاثين سنة و انتقل لفرنسا النفوذ الذي كان للنمسا في أوروبا و ظهر فيها عدة مشاهير بالمعارف، و هو الذي أنشأ قصر «فرساي» و بساتينه، و قصر «ليزان

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ٩٥

فاليد» لكنه فيه آخر أمره فقدت فرنسا ما نالته في الداخل و الخارج بأسباب التعدي على الرعايا و ضعفهم، و بعده فقدت فرنسا المستعمرات الهندية و غيرها و إن حازت كرسكا و اللورين، و كان ذلك باتباع لويس الخامس عشر لشهواته و تحكم النساء فيه و إلغائه للشورى مع مجلس نواب الأمة، و آخر الملوك من تلك العائلة هو لويس السادس عشر الذي انتقم من إنكلتيره بإعانه أمريكا على استقلالها، و حدثت في أيامه الثورة العامة التي قلبت حال التاريخ حيث كان يرجى منه إصلاح ما أفسده أبوه و جدّه، لكنه كان ضعيفا عن الوفاء بذلك فهو خاتمة التاريخ القديم.

مطلب في تاريخ فرنسا الجديد

اعلم أن الفرنسيين لما انتشرت فيهم المعارف و علموا ما لهم و ما عليهم و نالوا من بعض ملوكهم أحيانا أنصافهم، و اشتهرت بينهم الصحف الخبية المعلنة بالمحامد و المدام و حدث فيهم أخيرا ما أشير إليه من الظلم، انعقدت فيهم جمعيات سرية للتدبير و العمل فيما يمكن لهم به حفظ حقوقهم و مملكتهم، و تفتن لذلك لويس السادس عشر فكان مرة يميل إلى معاضدة الأمة فيما تريده و مرة يحجم إلى عادات الأعيان و السيرة القديمة حتى خشى على نفسه و فر مع عائلته، لكن الأهالي أرجعوه غضبا و خضدت شوكته فخاف بعض ملوك أوروبا من أن يلحقهم ما لحقه بسبب فتح أبصار رعاياهم و قد كانوا إذ ذاك مستبدين، فتعاضدوا على إركاس الفرنسيين لا سيما إمبراطور النمسا صهر لويس المذكور فإنه تولى كبر تلك الحرب، غير أن الفرنسيين دافعوا عن حقوقهم بجد و انضم إليهم ملكهم المذكور و أجرى الجمعية الأهلية المسماة بالجمعية الوطنية و ذلك سنة ١٢٠٧ هـ ١٧٩٢ م، ثم بدا لهم منه الخيانة فقتلوه مع زوجته و طردوا ابنه إلى جدّه إمبراطور النمسا و ذلك بحكم الحكومة الإجرائية التي حكمت بإلغاء الملكية و إثبات الجمهورية، و أعلنت لسائر الأمم أنها تساعدهم على نحو عملها و تسمت الحكومة جمعية اتفاق الأمة و كان من أكبر زعمائها بولتير الذي لا دين له، و هو أحد الذين أثاروا غيظ الأمة بما ينشره من الأقايل و الكتابات.

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ٩٦

و لما استتب أمر الجمعية تجاوزت حدود الاعتدال بمضادة الأديان و قتل رؤساء الكنائس و إبدال أغلب العادات حتى الأيام و الشهور، فجعلوا الاسبوع عشرة أيام و مبدأ التاريخ هو عام انتصاب الجمهورية، و كذلك أشهروا الحرب على جميع الدول و انتصر الفرنسيون سيما تحت راية نابليون الأول بونابارتي الذي كان أحد أبناء العامة فتعلم الفنون العسكرية و ساعده القدر بالانتصار الذي نال به أعظم الشهرة فكان من أعظم رؤساء العساكر، ثم عوضوا تلك الحكومة بحكومة «الدركتور» أي الحكومات المديرية مؤلفة من خمسة أشخاص، و حدثت في أيامها الحروب العظيمة مع سائر الدول و وافق نابليون البخت فانتصر على الجميع و ملك إيطاليا و رتب فيها حكومات عديدة جمهورية، ثم استولى على مصر و أراد الشام بقصد التوصل إلى الاستيلاء على الهند انتقاما مع الإنكليز ثم عاضدت إنكلاطيره الدولة العثمانية و استرجعوا مصر و ما أخذ من الشام، و هيجت إنكلاطره دول أوروبا على الإتحاد على فرنسا فاستعدوا لحربها و حاربوها و كانت الحرب سجالا، لكن نابليون الأول لما وصل إلى باريس بعد أن كاد أن يكون أسيرا في رجوعه من مصر وجد حكومة الدركتور على شفا و أوروبا منتصرة في أغلب الجهات، فاستعان بحزبه و رتب حكومة جديدة تسمى بحكومة القنسلات مؤلفة من ثلاثة أشخاص يسمون قنسل و تبوأ هو رياستها و ذلك سنة ١٢١٤ هـ ١٧٩٩ م. ثم تسمى قنسلا لمد حياته و تسلم رياسة الجيش و رجع الانتصار المفقود و التفت عند ذلك إلى لم شعث الداخلية و إصلاح الأمور فسماه مجلس الأعيان إمبراطور سنة ١٢١٩ هـ ١٨٠٤ م و نال صيتا عظيما في الدنيا بانتصاراته على أغلب أوروبا، فدخل فيينا و برلين و عقد الصلح مع دولتيهما كيف شاء و أمست إيطاليا و كثير من جرمانيا تابعة لفرنسا، و انتصر على روسيا أيضا و عقد معها صلحا و معاهدة سرية من شروطها اقتسام جميع أوروبا بين فرنسا و روسيا عدا الممالك العثمانية و إن بلغها أنها أيضا في القسمة حتى اغتاز السلطان لذلك كما سيأتي في محله.

و من المستثنى من القسمة أيضا الممالك الإنكليزية و كان ذلك سنة ١٢٢١ هـ ١٨٠٦ م و أتم تأليف قانون الأحكام الشهير المعروف بكود نابليون سنة ١٢٢٣ هـ ١٨٠٨ م و هو عمدة أحكامهم و نسجت أوروبا فيما بعد على منواله، و هو كتاب مقسم على أبواب المعاملات و الجنايات و كل مسألة من الباب يعقد لها فصل يبين حكمها بعبارة بينة من غير بيان لدليل الحكم و لا لمحل استخراجه لسهولة التناول، و كان عين لتأليفه جمعية علمية عولت في تنظيمه على ما يليق بالعادات من أحكام الشرع الإسلامي و أحكام الرومان، و سنة ١٢٢٨ هـ ١٨١٢ م عاد لحرب روسيا لكنكتها شروط الصلح المار ذكرها و انتصر عليها، إلى أن وصل قاعدتها مدينة موسكو و قد أعدوا له كيدا بإحراق المدينة فلما وصلها و جدها قاعا صفصفا، و كان الوقت شديد البرد فهلك عسكره بردا و جوعا و عاد هو متنكرا إلى فرنسا، و جهز نفسه لحرب روسيا و ألمانيا و بروسيا و النمسا الذين اتحدوا عليه بسبب إنكساره فغلب أخيرا و دخلت العساكر المتحدة إلى باريس، و ملكوا

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ٩٧

على فرنسا لويس الثامن عشر و أسكنوا نابليون جزيرة الأب على أنه ملك عليها و ذلك سنة ١٢٣٠ هـ ١٨١٤ م. و بعد عشرة أشهر عاد إلى فرنسا و تلقته الأهالي بالرحب لما نالوه من العظمة في أيامه فهرب لويس الثامن عشر إلى مقره أولا بإنكلترة، ثم اتحدت الدول ثانيا و معهم إنكلترة و قهروا نابليون فتنازل عن الملك لابنه بلقب نابليون الثاني سنة ١٢٣١ هـ ١٨١٥ م فلم تعترفه الدول و أعادت لويس الثامن عشر.

و أما نابليون فطلب الإقامة بإنكلترة مستأمنا تحت أحكامها فقبلته، و عند إرادة نزوله من السفينة الحربية الإنكليزية إلى البر أعلمته بأنه أسير للدول فسجل على ذلك و لم ينفعه، و نفى إلى جزيرة هيلانه في الأفيانوس الاتلانتيكي إلى أن مات، و نقلت جثته فيما بعد إلى ليزان فاليد بباريس و انحصرت إذ ذاك فرنسا في حدودها القديمة، ثم تبوأ ملكها كارلوس العاشر أخو ملكها الذي أجلسه الدول، و في مدته استولى على الجزائر و أراد أن يحجز من حرية المطابع و القوانين فثاروا عليه، و ولى لويس فليب سنة ١٢٤٦ هـ ١٨٣٠ م فأطلق الحرية و أحبوه لكنهم أسقطوه أخيرا لامتناعه من إصلاح قوانين الإبتخاب و كانوا يميلون إلى الجمهورية و إلى عائلة بونابارتي، فأعادوا الجمهورية ثانية سنة ١٢٦٥ هـ ١٨٤٨ م و رأسوا عليها لويس نابليون ابن أخى نابليون الأول و وريث ملكه حيث مات ابنه عن غير عقب و كان ابن أخيه مرسوما في ولاية العهد، و ذلك بعد أن نفى مرة إلى أمريكا و أخرى إلى إنكلترة و إيطاليا و سجن مرة في حصن و فر منه بتزييه بزى أحد عملة البناء بعد حلق شاربه، و أشهر عدة تأليف تنوه بالحرية و الفخر فسلموا له زمام الإدارة و أبدى من المصالح الداخلية و استماله رؤساء الجيش إليه ما اقتدر به على الإعلان بإمبراطوريته سنة ١٢٦٩ هـ ١٨٥٢ م و تلقب بنابليون الثالث و عاضد الدولة العلية و إنكلترة على حرب روسيا سنة ١٢٧١ هـ ١٨٥٤ م لتهاونها باعترافه إمبراطور في مبدء أمره.

و للدواعى السياسية من الخوف من استيلاء الروسيا على الممالك العثمانية و عقد الصلح على معاهدة باريس سنة ١٢٧٣ هـ ١٨٥٦ م و انتصر إلى إيطاليا على النمسا بدعوى القاعدة التي أسسها و هى اتحاد الجنسية كما تقدم في تاريخ إيطاليا الجديد، حتى اتحدت إيطاليا سنة ١٢٧٦ هـ ١٨٥٩ م و حارب الصين مع إنكلترة سنة ١٢٧٧ هـ ١٨٦٠ م و انتصرا عليه، و افتتح المكسيك من أمريكا سنة ١٢٧٩ هـ ١٨٦٢ م و ملك عليها مكسيميليان أخا إمبراطور النمسا و كانت إذ ذاك دول أمريكا المتحدة في حرب شديدة داخلية، و لما فصلت صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار؛ ج ٢؛ ص ٩٨

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ٩٨

حربهم حنقوا على فرنسا من تداخلها في قارتهم فتسلل نابليون بعساكره و ترك المكسيك حتى قتلوا من ملكه عليهم و ذهب سعى نابليون سدى، و من ذلك الوقت ابتداء ميل القلوب عنه لاستبداده باطنا و تصرفه طبق شهواته في السياسة بعد أن كان أوصل فرنسا إلى ذرى المجد حتى لحظتها سائر الدول بعين الوقار، و هرعت ملوك الدنيا إلى باريس في دعواته للمعرض و كانوا يفتخرون باستمالته نحوهم حتى فضله كثير من عقلائهم على عمه، لكنه لما غره زيادة البخت استبد برأيه باطنا و أسرع إلى التداخل في أمر غيره فقلقت الأهالي من عمله و لما أحس بذلك أعلن بعمل الإبتخاب العام له من سائر السكان بحيث لا يختص بأصوات الأعلى بل حتى العامة لأنهم لهم الحق في ذلك من حيث أن التملك إنما هو على الفرنسيين مطلقا، و لما كانت العامة محبين له لعدم إطلاعهم على مخفياته أو عدم تبصرهم مع أنه محسن إليهم بحيث يؤثر نفعهم و يوجد لهم أسباب الإبتفاع عند المحل، ثم إن حزبه يغيرهم بالمال عند الإبتخاب إذ كان ينفق في مثل ذلك من أموال الدولة مقادير ذريعة سرا و ترسم في ميزانية الدولة بأسماء أنواع من المصاريف اللازمة، فبذلك الوجه حصل أغلبية عظيمة في ارتضاء الفرنسيين به ملكا عليهم و أنشأ إذ ذاك قانون الإمبراطورية المؤرخ في سنة ١٢٨٧ هـ ١٨٧٠ م و نص تعريبه.

الحكم الأول: لمجلس الأعيان مزية وضع الأحكام و القوانين بالإشتراك مع الإمبراطور و مجلس النواب،

و له أيضا البداءة في وضع المعروضات و اللوائح إلا أن الأمور المتعلقة بالمالية ينبغي أن تقرر أولا في مجلس النواب.

الحكم الثاني: عدد أعضاء مجلس الأعيان يمكن زيادته حتى يبلغ ثلثي عدد مجلس النواب

ما عدا الذين يحضرون فيه بالاستحقاق، و ليس للإمبراطور أن يعين فيه في كل سنة أكثر من عشرين.

الحكم الثالث: قد تعين إلغاء المزية التي خص بها المجلس

من جهة التشريع المذكور في الحكم الحادي و الثلاثين من القانون الذي تقرر في ١٤ كانون الثاني أي يناير سنة ١٢٦٩ هـ ١٨٥٢ م.

الحكم الرابع: الترتيب التي ألحقت بهذا القانون و هي المشمولة في الأصول العمومية

التي استقرت في ١٤ و في ٢١ من كانون الأول سنة ١٢٦٩ هـ ١٨٥٢ م، و في ٢١ و في ٢٢ من الشهر المذكور في السنة التي بعدها، هي أصول المملكة و قوانينها الأساسية.

الحكم الخامس: و هذه الأصول و القوانين إنما يغيرها سكان المملكة بطلب الإمبراطور.

الحكم السادس: تعين إلغاء الفقرة الثانية من حكم ٢٥ و ١٧ و ٢٦ و ٢٧ و ٢٨ و ٢٩ و ٣٠ و ٣١ و ٣٢ و ٣٣ و ٣٥ و ٤٠ و ٥٢ و ٥٧ من تلك القوانين،

و كذا الأحكام المخالفة لهذا القانون.

صفحة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ٩٩

الحكم السابع: يبقى ما تقرر في قوانين ١٤ من كانون الثاني دجنبر سنة ١٢٦٩ هـ ١٨٥٢ م

إشارة

و فيما بعد ذلك معمولا به اه. ثم ألحق بهذا القانون علاوة أخرى، هذا نص تعريبها:

الفصل الأول: قوانين المملكة تعترف و تثبت و تتكفل بالأصول المعظمة

التي شهرت في سنة ١٢٠٤ هـ ١٧٨٩ م و هي أساس شرع الفرنسيين العمومي.

الفصل الثاني: في مزايا الإمبراطور و ملكه

الثاني: المرتبة الأمبراطورية التي خصت بلويس نابليون بوناپارت، و هو نابليون الثالث فوضت إليه بحسب قرار رأى جمهور المملكة و فى ٢١ تشرين الثانى نبر سنة ١٢٦٩ هـ ١٨٥٢ م، و هى مزية متوارثة فى سلسلة ذريته الذكور الأول فالأول و يلغى منها الإناث و ذريتهن إلغاء دائما.

الثالث: إذا لم يكن للإمبراطور المشار إليه وارث فله أن يتخذ وارثا من سلالة أخوة نابليون الأول الذكور، و هذا الإلتخاذ لا يباح لخلفائه و لا لورثتهم.

الرابع: إذا لم يوجد له وارث حقيقى أو متخذ يخلفه فى الملك البرنس نابليون و ورثته الحقيقيون من سلالة الذكور الأول فالأول و يستثنى من ذلك الإناث و ذريتهن استثناء دائما.

الخامس: إذا لم يوجد وارث شرعى أو متخذ لنابوليون الثالث و لخلفائه فلسكان المملكة أن ينتخبوا أمبراطورا و يعينوا من أهله الوارث من الذكور دون الإناث، و فى مدة انتخاب الأمبراطور تدار الأمور بواسطة الوزراء القائمين بالوظائف بحسب أكثرية الآراء.

السادس: أفراد عائلة نابوليون الثالث الذين تثبت لهم الوراثة و كذلك سلالتهم ذكورا و إناثا هم من العائلة الإمبراطورية، و لا يمكن لهم أن يتزوجوا إلا بإذنه و إذا تزوجوا من دون إذنه كان ذلك سببا فى حرمانهم من حقوقهم فى الخلافة و فى حرمان ذريتهم أيضا، و لكن إذا كان زواجهم عقيما فللبرنس الذى تزوج فى الخلافة و للإمبراطور أن يعين ألقاب الباقى من العائلة و يعين حقوقهم و ما يجب عليهم، و له عليهم السلطة التامة.

السابع: النيابة فى الملك مقررة فى القوانين التى نظمت فى ١٧ تموز يوليه من سنة ١٢٧٢ هـ ١٨٥٦ م و فى الأحوال المشروحة فى الفقرة الثالثة من الحكم الخامس، يعقد كل من مجلس الأعيان و مجلس النواب و يقر رأيهم على إقامة من ينوب فى الملك.

الثامن: كل من أفراد العائلة الإمبراطورية الذين تحقق لهم الخلافة يسمى برنسا و أكبر أبناء الإمبراطور يقال له برنس أمبريال.

التاسع: كل من يطلق عليه برنس يؤهل لأن يكون من أعضاء مجلس الأعيان و مجلس

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ١٠٠

الدولة، بحيث يبلغ ثمانى عشرة سنة تامة و لكن جلوسه فى المجلسين متوقف على رضى الإمبراطور.

الفصل الثالث: فى نوع حكومة الإمبراطور

العاشر: الحكومة للإمبراطور بمساعدة الوزراء و مجلس الأعيان و مجلس النواب و مجلس شورى الدولة.

الحادى عشر: وضع الأحكام و القوانين يجرى بالإتفاق مع الإمبراطور و مجلس الأعيان و مجلس النواب.

الثانى عشر: البداءة فى القوانين منسوبة للإمبراطور و للمجلسين المذكورين، و لكن كل تقرير يرسم فيه بوضع الضرائب ينبغى الإقتراع عليه فى مجلس النواب.

الفصل الرابع: فى أحوال الإمبراطور

الثالث عشر: الإمبراطور مسؤول لأمة الفرنسيس و له الحق فى كل وقت لأن يبلغها استدعاءه.

الرابع عشر: الإمبراطور هو رئيس الدولة و هو يحكم على العساكر البرية و البحرية و له أن يأذن بالحرب و يجرى معاهدات السلم و التجارة و الإتفاق و المخالفة، و يعين جميع الوظائف و يثبت التراتيب و الأحكام اللازمة لتنفيذ الشرع.

الخامس عشر: إجراء الأحكام القضائية يكون باسمه.

السادس عشر: له الحق فى منح العفو و الإعفاء.

السابع عشر: و فى أن يقر الأحكام و يشهرها.

الثامن عشر: ما يراد بعد الآن من تعديل الأحكام و تعريفات الكمرک و جعل البوسطة على حسب الموافقة مع أمم أخرى لا يكون العمل به واجبا إلا بعد أن يقرر أى المجالس عليه.

التاسع عشر: الوزراء مرتبطون بالإمبراطور وحده و هم يتذاكرون فى مجلس يكون الإمبراطور رئيسه و هم مسؤولون.
العشرون: يصح للوزراء أن يكونوا من أعضاء مجلس الأعيان أو مجلس النواب و أن يحضروا فى أحدهما أيا شأوا و أن ينصت إليهم حين يتكلمون.

الحادى و العشرون: يجب على الوزراء و أهل مجلس الأعيان و مجلس النواب و ضباط العساكر البرية و البحرية و القضاة و ذى المراتب أن يحلفوا هذه اليمين، و هى: «أنى أحلف بأن أكون خاضعا لقوانين المملكة و أمينا للإمبراطور».

الثانى و العشرون: الحكم الذى صدر فى ١٢ كانون الأول دجنبر سنة ١٢٦٩ هـ ١٨٥٢ م و فى ٢٣ من نيسان ابريل سنة ١٢٧٣ هـ ١٨٥٦ م مما يتعلق بالمرتب لمصروف

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ١٠١

الإمبراطور يبقى معمولاً به، أما فى المستقبل فىكون مرتب صاحب التاج مدة ملكه مقررا برسم من لهم مزية وضع الأحكام عند اجتماعهم و ذلك بعد نصبه.

الفصل الخامس: فى مجلس الأعيان

الثالث و العشرون: مجلس الأعيان يؤلف ممن هم فى مرتبة الكردينال و الماريشال و الأميرال و من الأهلين الذين يرقبهم الإمبراطور إلى رتبة سيناتور.

الرابع و العشرون: لا يتغيرون و وظيفتهم باقية ما داموا أحياء.

الخامس و العشرون: يصح أن يبلغ عددهم مقدار ثلثى أهل مجلس النواب و لا يصح للإمبراطور أن يعين فيه أكثر من عشرين فى العام.

السادس و العشرون: رئيسه و نائب رئيسه يكون تعيينهما من قبل الإمبراطور و هو الذى يعقد المجلس و يطيل مدة انعقاده، و يكون الجلوس فيه علانية و لكن عند طلب خمسة أعضاء منه يصح أن تجعل الجلسة خفية.

السابع و العشرون: مجلس الأعيان يحافظ على الشرط الأصلى الجوهري و على حرية العامة، و له أن يتذاكر على التقارير المعروضة و يقترح على الضرائب.

الفصل السادس: فى مجلس النواب

الثامن و العشرون: أساس الإنتخاب سكان المملكة.

التاسع و العشرون: أعضاء المجلس يكون انتخابهم عاما.

الثلاثون: مدة انتخابهم لا تنقص على ثلاث سنين.

الحادى و الثلاثون: و لهم أن يتذاكروا على القوانين و يقترحوا على الضرائب.

الثانى و الثلاثون: و أن ينتخبوا رئيسهم و نواب رئيسهم و كتاب أسرارهم.

الثالث و الثلاثون: للإمبراطور أن يعقد المجلس و يؤخره أو يطيل مدة انعقاده و أن يحله، لكنه عند حله يتعين عليه أن يعقد آخر فى مدة ستة أشهر.

الرابع و الثلاثون: الاجتماع يكون ظاهرا و لكن عند طلب خمسة أعضاء يصح أن يكون خفيا.

الفصل السابع: في مجلس الدولة

الخامس و الثلاثون: مجلس الدولة مكلف على حسب إرشاد الإمبراطور بأن يرسم التقارير و اللوائح و التنظيمات المتعلقة بالإدارة الدولية، و بأن يحل المشاكل الناشئة من معاطاة الأمور.

السادس و الثلاثون: و أن يرسم بإسم الدولة المذاكرة في المعروضات و اللوائح في كلا المجلسين.

صفحة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ١٠٢

السابع و الثلاثون: للوزراء حق في حضور المجلس و الإقتراع فيه اه.

فكان الإمبراطور يرى أن هاته القوانين ترضى عنه جميع الأهالي سيما بعد رجحان انتخابه من الجمهور، و قد كانت إذ ذاك المشاهدة بين فرنسا و بروسيا في ازدياد كما تقدمت الإشارة إليه في أخبار إيطاليا غير من فرنسا على ما نالته بروسيا من الشهرة و الإنتصار على النمسا مع وعد بروسيا سرا لفرنسا بأنها إذا تم قصدها فإنها تساعد على تعديل حدودها جهة نهر السين و تعدو عن حقوقها من وضع العسكر في لكرنبرغ و إدخالها عضوا في العصبة الجرمانية مع أنها تحت تملك ملك هلانده، و لما حصلت بروسيا قصدها ماطلت تلك الوعود السرية التلويحية فهاجت لذلك فرنسا و كان من تخمينها أنها إذا شهرت الحرب على بروسيا تعاضدها النمسا عليها انتقاما مما حصل لها في سنة ١٢٨٦ هـ ١٨٦٩ م، و بينما الأمر على ذلك و إذا بأهالي إسبانيا خلعوا ملكتهم و طلبوا أن يولى عليهم الأمير «دوهونزلرن» أحد قرابة ملك بروسيا، فارعدت فرنسا لذلك و أبرقت و تداخلت انكلا تيرة في طلب إبقاء السلم لكن الإمبراطور نابليون أبى إلا الحرب و إلا فإن الأمير المطلوب إلى الولاية على إسبانيا رفض طلبهم و لم يقتنع بذلك الإمبراطور بل ذهب سفيره في برلين إلى ملك بروسيا في غير وقت و غير محل معتاد و أغلظ عليه الكلام بأن يتعهد هو بأن لا يقبل الأمير المذكور في المستقبل الولاية فألان له الملك الكلام لكنه امتنع من ذلك التعهد.

و هاجت ألمانيا جميعا على ما لحق الملك من الإهانة كما أن فرنسا غلت بطلب إعلان الحرب و لم يخالف إلا قليل من عقلائهم مثل «تيرس»، فانتزها نابليون فرصة لاشتغال فرنسا بالحرب عن الهيجان عليه إذ أنه و إن حصل على أكثرية الإنتخاب لكنه كان على يقين من أن حزب النفوذ كاره له و منتقد عليه، و كان وزير الحرب بفرنسا أعلن للمجلس بأن العساكر مستعدة كلها و أنها تتجاوز المليون و أن الحرب و لو دامت سنين فلا يحتاجون إلى زرة لباس، و ابتدأت فرنسا بإعلان الحرب و تقلد نابليون رئاسة العسكر بنفسه و أناب زوجه في الملك، فاتحدت ألمانيا على الدفاع و بقيت روسيا معاضدة لألمانيا معنى لاتفاقها معها سرا فكانت بالمرصاد من النمسا لكي لا- تعين بروسيا مع ما في نفسها أي النمسا على فرنسا من إعانتها لإيطاليا و مساعدتها من قبل لجرمانيا فلم تتداخل بشيء، و ما مضت تسعة عشر يوما من ساعة الإعلان بالحرب حتى وقع نابليون أسيرا بيد عدوه إذ في نفس الأمر لم تكن فرنسا مستعدة و كانت الأموال المعينة لمصاريف الحرب تصرف فيما يراه الإمبراطور، حيث كانت الوزراء مسؤولون له لا لمجلس الأمة فيتصرف بهم كيفما أراد، و كان يظن أنه بسرعة الهجوم يحصل على بهرجة الإنتصار و يعجل إلى عقد الصلح. لكن ألمانيا كانت له جواسيس من أعيانها في جميع دواوين فرنسا و في قصور رجالها على صورة خدمة و غيرهم مع كمال استعدادها و تمرن أهاليها على الحرب، إذ هي دولة عسكرية من قديم و أهالي فرنسا غلب عليهم الميل إلى التمتع، فالتقى مركز الجيشين في سيدان من

صفحة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ١٠٣

عمل فرنسا و حمى الوطيس إلى أن تيقن نابليون بالهلب و قوة قرنه عدة و عدة، فكتب إلى ملك بروسيا ما تعريه:

«يا أخي حيث أنى لم يتيسر لي أن أموت في مقدمة جيشي فما أنا أضع سيفي لدى قدميك» اه. و رفع من هناك أسيرا و سبجان الدائم عزه و ملكه، و هربت زوج نابليون و استقرت مع زوجها بلندرة إلى أن مات بها، و أما العساكر التي معه فطلبت الإستسلام على وجه لا يحط بشرفها، و حيث كانت المخاطبات الواقعة في هذا الشأن واقعة بين الرؤساء بالسلك البرقي و لها أهمية رأينا إثباتها هنا

نقلا عن كتاب ألف و طبع في باريس، و هي:

من الجنرال دووميسين الفرنساوى إلى الجنرال ملتك رئيس عساكر جرمانيا.

أريد أن أعرف ما هي شروط التسليم التي يريد ملك بروسيا أن يوجبها علينا؟

جواب الجنرال ملتك: «شروطنا سهلة فإن جميع جيشكم أسرى مع كل ما عندهم من الأسلحة و الذخائر، و لكن نترك للضباط سيوفهم علامة على اعتبارنا لهم و على بسالتهم و لكن يكونون أسرى أيضا كبقية الجيش.

الجنرال دووميسين: هذه الشروط شديدة يا جنرال إذ الظاهر أن بسالة عساكر فرنسا تستوجب مراعاة أكثر من هذه أليس من الممكن لجيشي أن يستحصل على شروط على هذه الصورة الآتية؟ و هي: أن أسلم لكم سيدان بما فيها من المدافع، و أما العسكر فتركوه يخرج بما عنده من الأسلحة و الأكحال و الرايات بشرط، أن لا يعود لمحاربة بروسيا في هذه الحرب و الإمبراطور يتعهد بنفسه بهذه الشروط بالمكاتب، و كذا أعيان ضباطه العسكرية، ثم ينقل هذا الجيش إلى إحدى جهات فرنسا التي تعينها بروسيا أو إن شئت ينقل إلى الجزائر إلى أن يبرم بيننا الصلح.

جواب الجنرال دووميسين: طلبكم هذا لا يقارن القبول.

الجنرال دووميسين: إنى وصلت إلى هنا من صحراء أفريقيا منذ يومين فقط، و كان لى إلى الآن شهرة عسكرية مرضية و الآن فوض إلى رئاسة جيش في ميدان القتال فأصبحت مضطرا إلى أن أقيد إسمى في الإذعان لمصيبة مثل هذه حتى اضطرت أيضا إلى تحمل جميع المسؤولية بدون أن أكون قد أحدثت هذه الوقائع الحربية التي هي سبب في هذا التسليم، و حيث أنك جنرال مثلى يلزمك أن تشعر بحالى المحزنة و لكن يمكنك تخفيفها باشرطك على شروط أهن و أيسر، و إلا فلا يمكننى قبول شروطكم و حينئذ ادعو جيشي إلى شرفهم و اخترق بهم صفوفكم و إلا فأبقى في سيدان متوقعا.

جواب الجنرال ملتك: إعتبارى لكم عظيم و شرح حالكم في محله، و لكن أتأسف على أنه لا يمكننى فعل شيء مما طلبتموه و أما خرق الصفوف و خروجكم من سيدان فمن المحال و كذلك تحفظكم فيها، نعم إن عندكم عساكر عظيمة و لا سيما المشاة فإنهم على غاية من المهارة و الإقدام و كذا فرسانكم و طوبجيتكم و قد أوقعوا بنا ضررا كبيرا، غير أن صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ١٠٤

جل عساكركم قد فسدت أطوارهم و عندنا اليوم من أسراهم أزيد من ٢٠،٠٠٠ نفر غير الجرحى، فلم يبق عندكم الآن أزيد من ٥٠٠، ٨٠ نفر فلا يمكنكم إذا خرق صفوف جيشي، فيلزم أن تعلم أن من جيشي حولكم ٢٤٠،٠٠٠ نفر و ٥٠٠ مدفع منها ٣٠٠ على هيئة الإستعداد لإطلاق النار على سيدان و الباقي أعني ٢٠٠ تكون على هيئة الإستعداد في فجر الغد فإن شئت تحقيق ذلك فأرسل أحدا من ضباطكم إلى و إلا أرسله إلى المواقع المذكورة حتى يشاهد بنفسه ما قلته لكم، أما تحفظكم داخل سيدان فمن المستحيل لأن المؤنة التي عندكم لا تكفيكم إلا ٤٨ ساعة و لم يبق عندكم شيء من الذخائر.

جواب الجنرال الفرنساوى: الظاهر أن من مصلحتكم حتى من المصلحة السياسية أيضا أن شروط التسليم لا تكون مخللة بشرفنا لأن جيشي يستوجب ذلك و مرادكم عقد الصلح و ما أظن إلا أنكم تريدون عقده بسرعة، و أمه فرنسا كريمة أكثر من غيرها و مستعدة للغداء و على هذا فهي تقدر مكارمكم التي تخصصونها بها و تراعى الجميل، فإن أمكنكم أن تشرطوا علينا شروطا من شأنها إدارة خاطر الجيش فإن الأمة تحسبه أيضا تملقا لها فيخفف عنها مرارة الإنهزام و بت شروط الصلح على هذه الصورة يكون على الدوام، أما إذا عاملتمونا بالقساوة فلا شك أنكم تثيرون الكراهة لكم و البغض في قلب كل عسكرى و عزة نفس جميع الأمة تعود و قد استاءت و بذلك توقظون الإحساس الذميم الذى أنامه التمدن و تخاطرون بإيقاد حرب لا نهاية لها بين فرنسا و بروسيا.

فأجابه البرنس بسمارك قائلا: برهانك يظهر بادية بدء أنه على الجد و هو في الحقيقة كلام ظاهر و لكن كما أنه لا ينبغي أن يعتقد اعتقادا راسخا بممنونية الإنفراد فكذلك لا ينبغي أن تتوقع ممنونية أمه كاملة أو نركن إلى ممنونية ملك و مراعاة الجميل معه و إن

شئت فقل مع أهله أيضا، نعم أنه في بعض الأحيان يمكن الركون إلى عهد ملك و لكن أكرر لكم أنه لا يمكن انتظار مراعاة الجميل من أمه و لو كانت أمه فرنسا مثل بقيه الأمم و لو كان عندها تنظيمات و مبادئ راسخة و لو كانت مثل أمتى تحترم أحكامها و تنظيماتها و لو كان عندها ملك جالس على سرير الملك على أصول راسخة ثابتة لكننا نعتقد بممنونية الإمبراطور و ابنه، أما فرنسا فقد مضى ثمانون سنة و حكومتها قد تغيرت نوعا و جنسا بصورة غير ثابتة فما عاد من الممكن أن يعتمد عليها فبناء آمالنا على مودة ملك فرنساوى يكون من قبيل بناء فى الهواء، فإذا صدقنا أن فرنسا تسامحنا عن ظفرنا بها مع كونكم أمه سريعة الهياج و مجبولة على الحسد و الكبر إلى النهاية فذلك جنون، فإنها أعلنت بحرب بروسيه منذ مائتى سنة ثلاثين مرة و هذه المرة أعلنتم الحرب معنا حسدا كعادتكم إذ لم يمكنكم أن تسامحونا عن ظفرنا فى واقعة «سدوه» فهل يمكنكم أن تسامحونا اليوم فى ظفرنا فى سيدان؟ كلا ثم كلا، فإن عقدنا معكم الصلح الآن فبعد بضع سنين تعودون إلى حربنا حين يتيسر لكم ذلك

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ١٠٥

و هى المكافآت على الجميل التى ترقبناها، أما نحن فأخلاقنا مخالفة لأخلاقكم فإننا أمه صادقة ساكنة لا تحرص على الفتوحات و إنما تحرص على أن تعيش بالسلم و قد كفى اليوم، فيلزم أن تتأدب فرنسا على تجبرها و يلزمنا أن نطمئن على سلامة أولادنا، و لذا يلزم أن يكون بيننا و بين فرنسا حدود منيعة فلا بد لنا من أرض و حصون و حدود لنكون دائما آمنين من هجومها.

جواب الجنرال الفرنساوى: قد غلظت يا أيها الذات الموقر فى حكمك على أمه فرنسا فإنك إنما تتصور فرنسا فى سنة ١٨١٠ و تتصور حالها من أبيات بعض الشعراء و من كلام بعض الجرنالات و هى اليوم على غير حال، فإن بهمة الإمبراطور صارت أفكار أهلها مشغولة بالتجارة و الصنائع و العلوم و كل واحد منهم يسعى فى تكثير مكاسبه و ينظر إلى منفعه و كلهم يحبون الإخاء، أنظر إلى انكثرة مثلا فأين اليوم تلك الكراهة التى طالما أبعدتنا عنها، أليس أن الإنكليز اليوم أعز أحبابنا و كذلك يكون أهل ألمانيا إذا أظهرتم المكارم معنا؟

البرنس بسمارك: قف هنا يا جنرال إن فرنسا لم تتغير فإنها هى التى أكرهتنا على الحرب و لأجل خداع الأمة حرصا على نفع آل الإمبراطور نابليون الثالث أعلن بحربنا، نعم إننا ندرى أن كثيرا من أهل فرنسا و هم العقلاء لم يريدوا الحرب و لكن تلقوا فكر الأمبراطور بالقبول و الباقى هم الذين تحمسوا للحرب، حتى أصحاب الجرنالات أيضا فهؤلاء القوم يلزم تأديبهم و لذلك يلزمنا أن نسير إلى باريس و من ذا الذى يدرى ماذا يقع بعده، إذ من المحتمل أنه ينشأ عندكم دولة من الذين لا يعفون عن شىء بل يحدثون أحكاما على حسب هواهم و لا يعترفون شروط تسليم جيشكم فرما ألزموا الضباط نقض عهودهم، نعم إننا نروم الصلح و لكن الصلح الذى يكون على أساس الثبات و الدوام و شروطه صارت معلومة لكم، فيلزمنا أن نجعل فرنسا بصورة بحيث لا يعود ممكنا لها أن تقاومنا فيما بعد، و قد قدر الله أن تكون زهرة عساكركم أسرى عندنا فمن الهوس أن نعيدهم إليكم ليعودوا إلى محاربتنا و شأن ذلك دوام القتال، و مصلحة بلادى تأباه أيها الجنرال مهما يكن من المصالح المختصة بذاتك و مهما يكن من أفكارك عن جيشكم فلا يمكننى الإجابة إلى مطلوبك أو تغيير شىء من الشروط التى أبلغتكم إياها.

الجنرال الفرنساوى: فلا يمكننى إذا أن أوقع شروط التسليم على هذا المنوال بل يلزمنا إدامة القتال.

جواب الجنرال كستلان من أعيان الأمراء الفرنساوية إلى البرنس المشار إليه: «عندى أن الوقت قد حان لإبلاغ ما ذكرت إلى الإمبراطور».

جواب البرنس بسمارك: إننا سامعون لكم.

الجنرال كستلان: قد كلفنى جناب الإمبراطور أن أبلغ مسامع جناب ملك بروسيه أنه

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ١٠٦

كان بعث إليه بسيفه بدون شرط و سلم نفسه له بلا شرط و إنما فعل هكذا أملا فى أن الملك يشعر بما يوحيه هذا التسليم فيقع لديه

موقع الإعتبار فيتساهل مع جيش فرنسا بتسليم أشرف لهم كما تستحقه بسالتهم.

البرنس بسمارك: أهذا كلامكم كله؟

الجنرال كستلان: نعم.

البرنس بسمارك: ما هو السيف الذي سلمه الإمبراطور هل هو سيف فرنسا أو سيفه الخاص به، فإذا كان سيف فرنسا أمكن تعديل الشروط و لكن يكون جوابكم الأخير ذا بال.

الجنرال كستلان: السيف الذي سلمه لكم الإمبراطور هو سيفه فقط.

الجنرال ملتك: فعلى هذا لا يمكن تبديل شيء من الشروط و إنما يكون للإمبراطور ما يختص به.

الجنرال دووميسين: إذا نستأنف الحرب.

الجنرال ملتك: المهلة تنقضى في فجر الغد و في الساعة الرابعة أشرع في إطلاق النار عليكم.

البرنس بسمارك: نعم أيها الجنرال إن عندكم عساكر شجعانا فلا أشك أنهم يظهرن غدا بساله غريبه و يرزون منا و يوقعون بنا الضرر، و لكن ما الفائدة من ذلك لأنك في مساء الغد لا تجد نفسك متقدما أكثر مما تقدمت اليوم و يبقى في أعناقكم دم عساكركم بل عساكرنا أيضا الذين يسفكون دماءهم لغير فائدة، فقد أخبركم الجنرال «ملتك» أن مقاومتكم لنا هوس.

الجنرال ملتك: إنى أؤكد لك مرة أخرى أن خرق صفوف عساكرنا لا يمكن و لو كان عساكركم على أحسن أهبة لأنه لأنه فضلا عن كون عساكرنا أكثر عددا من عساكركم، فإني مستولى على مواقع تمكني من إحراق سيدان في بعض ساعات و هذه المواقع متسلطة على جميع الجهات التي يمكنكم المرور منها و هي منيعة فلا يمكنكم حوزها.

الجنرال الفرنسي: ليست مواقعكم قوية كما تذكرون.

الجنرال ملتك: أنت لا تدري المواقع حول سيدان و إنى أفيدك فائدة تبلغ من أمتكم المتكبره و هي أنكم عند افتتاح الحرب بيننا و زعتم على ضباطكم خرائط كان رسمها و طبعها في ألمانيا إذ يمكن لكم حينئذ أن تطلعوا على مواقع بلادكم إذ لم يكن عندكم خرائط لها، فأقول لكم الآن أن هذه المواقع فضلا عن كونها منيعة فالاستيلاء عليها ضرب من المحال.

الجنرال الفرنسي: إنى أغتنم الفرصة لإرسال أحد من ضباطي كما عرضتم على في مباديء الأمر حتى يرى مواقعكم المنيعة و عند رجوعه أجابكم.

الجنرال ملتك: لا ترسل أحدا فإن ذلك عبث إذ ليس لكم وقت طويل حتى تتداركوا

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ١٠٧

ما يلزم فعله، فالوقت الآن نصف الليل و بعد أربع ساعات تنقضى المهلة و لا يمكنني أن أمهلكم بعدها و لو دقيقة واحدة.

الجنرال الفرنسي: و لكن يلزم أن تعلموا أنه لا يمكنني بت الرأي على شيء وحدى فيلزم أن أشاور سائر رفقائي الضباط و لست أدري أين أجدهم في سيدان في هذه الساعة فلا يمكنني أن أعطيكم جوابا في الساعة الرابعة فمن الضرورة و الحالة هذه إطالة المهلة، فعند ذلك أسر البرنس بسمارك إلى الجنرال ملتك في أذنه و أشار إليه بتطويل المهلة إلى الساعة التاسعة أعنى قبل الظهر بثلاث ساعات، فلما حانت سلم الجنرال الفرنسي جميع عساكر فرنسا الذين في سيدان على موجب شروط الجنرال ملتك و بذلك يتبين حالة قوة فرنسا إذ ذاك و استعدادها، فلذلك انقلب رأى الأمة الفرنسيه و حملوا الذنب على نابليون و خلعه و أعادوا الدولة الجمهوريه ثالثا، و عاندوا ألمانيا إلى أن حاصرت باريس و أخذت مئات آلاف من عساكر فرنسا أسرى منهم مائة و خمسون ألفا أو يزيدون سلموا من غير دفاع في قلعة متس تحت رياسة المارشال «بازين» ثم عقدوا الصلح على نحو ما طلبت ألمانيا بأخذها ولاية الإلجاس و قسم من ولاية اللورين و غرامة خمسة آلاف مليون فرنك مقسطة على خمس سنين، و تتوج ملك بروسيا إمبراطورا على ألمانيا في قصر فرساي و حضر له ملوك ألمانيا و دخلت عساكرهم إلى باريس على وجه الإنتصار بلا حرب، و من ذلك الوقت

تغيرت السياسة الأوروبية و صارت ألمانيا هي معدلة الميزان لكن فرنسا استولى رياسة جمهوريتها الرجل الشهير «بترس» و لم شعثها بعد حصول حرب أهلية هائلة من جمعية تعرف «بالكومون» أى الإشتراكيين الذين يريدون أن تكون الناس كلهم شركاء فى جميع ما يمكن أن ينسب إلى إنسان، و أضروا بباريس أكثر من إضرار المانيا بها و قد أظهرت فرنسا من الغنى ما لم يكن فى الحسبان و دفعت الغرامة تماما قبل أبانها بأزيد من سنتين و لم يؤثر ذلك فى ماليتها أدنى خلل، فإن المقدر من خسائرها و غرامتها فى ذلك الحرب نحو عشرة آلاف مليون، و مع ذلك فإنها عند إرادتها استقراض ثلاثة آلاف مليون لدفع بقية الغرامة هرعت لها أرباب المال من كل فج حتى من ألمانيا، و أحضروا لها ما ينيف عن الخمسين ألف مليون و أقبلت على إصلاح داخليتها و عساكرها بما أرجعها لاعتبارها و أوجس غالبها منها خيفة، و قد أحدث الفرنسيون فى حديقة الشانزى لزى محلا حيطانه مرايا مكبرة بحيث يحسبه الداخل بلا حيطان و يرى منه صورة حالة باريس من الحرق و الهدم وقت الحرب تذكارا منهم لإحياء أخذ الثار، و قد رأيت ذلك المكان و له منظر هائل و استقرت الحكومة إلى الآن جمهورية.

مطلب: فى السياسة الداخلية فى فرنسا

قد تقررت الحكومة الجمهورية على القانون الآتى ترجمته:
البند الأول: إن مجلس الأعيان و مجلس النواب يجتمعان كل عام يوم الأربعاء.

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ١٠٨

الثانى : من كانون الأول يناير إلا أن يكون جمعها قبلا رئيس الجمهورية، فالمجلسان ينبغى أن يعقد جلساتها أقله فى مدة خمسة أشهر كل سنة و جلستا كليهما تجتمعان و تنتهيان معا و تقام الأدعية الجمهورية لله سبحانه فى الكنائس و المعابد لالتماس المعونة منه تعالى فى أعمال المجالس.

البند الثانى: إن رئيس الجمهورية يختتم الجلسة و له حق أن يستدعى المجالس للاجتماع فوق العادة و ينبغى أن يستدعيها إذا ما صار الطلب فى أثناء الجلسة من أكثرية الأعضاء المؤلفة لكل مجلس، على أن رئيس الجمهورية له أن يؤجل اجتماع المجالس إنما لا يمكن أن يطول هذا التأجيل أكثر من شهر و لا يحدث أكثر من دفعتين فى جلسة واحدة بعينها.

البند الثالث: و قبل ما ينتهى الأجل القانونى لسلطان رئيس الجمهورية أقله بشهر واحد، يجب أن تجتمع الأعضاء فى مجلس الأمة لياشروا انتخاب الرئيس الجديد، و إذا لم يضر استدعاء المجالس للاجتماع فعلى المجالس أن تجتمع من تلقاء ذاتها قبل نهاية سلطة الرئيس بخمسة عشر يوما، و إذا ما توفى رئيس الجمهورية أو تنازل عن وظيفته يجتمع المجلسان حالا بسلطانهما الخاص و إذا ما وقف مجلس النواب حين ما يفرغ مسندا لرئاسة الجمهورية تبعا للبند الخامس من قانون ٢٥ شباط فبراير سنة ١٢٩٣ هـ ١٨٧٥ م، تستدعى المجالس الانتخابية حالا و يجتمع مجلس الأعيان الخاص بمطلق سلطانها.

البند الرابع: إن كلا من مجلس النواب و الأعيان إذا اجتمع فى غير الوقت المعين للجلسة العمومية يكون باطلا و لغوا مطلقا، ما عدا الحادث المنبه عليه فى البند السابق و ما عدا ما إذا اجتمعت الأعيان للقضاء فى الدعاوى و العدلية، و فى هذا الحادث لا يحق لها إلا مباشرة الوظائف القضائية.

البند الخامس: إن جلسات الأعيان و مجلس النواب تكون مشتهرة على أن كل مجلس له أن يقيم جمعية سرية فى طلب عدد معلوم من أعضائه معين بالقوانين، ثم تقضى بموجب رأى الأكثرية المطلقة إذا ما اقتضى إعادة الجلسة جهارا على نفس المشروع.

البند السادس: إن رئيس الجمهورية يتخابر مع المجالس بواسطة رسائل يقرؤها أحد الوزراء و يحق للوزراء الدخول فى المجلسين و التكلم فيما إذا ما طلبوا الإصغاء لأقوالهم و لهم أن يستعينوا بمعتمدين معلومين للبحث فى إنشاء قانون معين بحكم رئيس الجمهورية.

البند السابع: إن رئيس الجمهورية يبت السنه فى الشهر الذى يلى تسليم السنه المقررة نهائيا للحكومة، و عليه أن يبت فى ثلاثة أيام

السنن التي حكم كلا المجلسين بوجوب السرعة في بثها، على أن رئيس الجمهورية له في المهلة المعينة لإذاعة السنن أن يطلب

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ١٠٩

بواسطة إرسالية محققة ولا يرفض طلبه إعادة المخابرة في تقرير القانون و السنة.

البند الثامن: لرئيس الجمهورية أن يخبر في المعاهدات و يقررها و يبلغها للمجالس حالما تسمح له ذلك صوالح الدولة و أمنيتها، أما المعاهدات المتعلقة بالصلح و التجارة و المعاهدات المرتبطة بمالية الدولة و المنوطة بحالة الأشخاص و بحق الملكية لتبعه الدولة الفرنسية في الخارج فلا يجزم جزما نهائيا إلا بتقرر المجلسين، و لا يعطى و لا يبدل شيء من الأراضي الفرنسية و لا يضاف إليها شيء إلا بتقرير قانوني من المجالس.

البند التاسع: و لا يحق لرئيس الجمهورية أن يشهر الحرب بدون رضی المجلسين.

البند العاشر: إن كلا- من المجلسين قاض في إنتخابية أعضائه و في أحكام قانونية إنتخابه و له وحده أن يقبل اعتفاء من يعفى من وظيفته.

البند الحادي عشر: إن رؤساء كل من المجلسين ينتخبون كل عام لمدة الجلسة بتمامها و لكل جلسة فوق العادة تصير قبل الجلسة المألوفة في السنة التالية، و متى اجتمع كلا المجلسين بجلسته مجلس الأمة تتألف رؤساؤه من الرئيس و نائب الرئيس و كتمة أسرار الأعيان.

البند الثاني عشر: لا- تقبل شكوى على رئيس الجمهورية إلا- من مجلس النواب و لا يحكم عليه إلا الأعيان، و تقبل الشكوى على الوزراء من مجلس النواب بجناية ارتكبوها في مباشرة وظيفتهم فحينئذ تقام محاكمتهم في الأعيان، و لرئيس الجمهورية أن يقيم على الأعيان مجلس محاكمة بحكم يصدره في مجلس الوزراء لمحاكمة كل من تقدم عليه شكوى بذنوب يخل بأمنية الدولة، و إذا ما شرع بالإستعلام في محكمة العدلية المألوفة فيمكن أن يصدر الحكم باستدعاء الأعيان للاجتماع إلى حين استئناف الدعوى إليها و يقام قانونا يعين كيفية سماع الدعوى و الإستنطاق و الحكم.

البند الثالث عشر: لا- تقام دعوى على أحد الأعضاء من كلا المجلسين و لا يطالب بشكوى في شأن رأيه و اقتراحه حال كونه في مباشرة وظيفته.

البند الرابع عشر: و لا تقام دعوى على عضو من كلا المجلسين بمادة جنائية أو تأديبية و لا يلقي القبض عليه في مدة الجلسة إلا بإذن المجلس الذي هو عضو منه، ما لم يؤخذ في حال فعله، و يتوقف ضبط أحد الأعضاء من كلا المجلسين و محاكمته في الجلسة و في كامل مدتها بطلب المجلس اه.

فهذا القانون يبين لك أصول الإدارة و رئيس الجمهورية الآن قد عينت له مدة الرئاسة خمس سنين و هو الآن البرت أقريفي. و أما بقية تفصيل الإدارة فهي على نحو ما تقدم في الكلام على سياسة إيطاليا من انفراد الإدارة العامة عن الأحكام الشخصية و تصرف رئيس الدولة بواسطة الوزراء، و كون الوزراء مسؤولين لمجلس النواب و مجلس الأعيان، بحيث أن الحكومة شورية حقيقة لا يصدر عنها إلا ما يوافق عليه غالب الأمة بواسطة و كلائهم، يجري ذلك في حقير الأشياء و عظيمها، و الوزراء ينتخبون ممن تثق بهم أغلبية المجالس

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ١١٠

لكي يأمن المجلس بتصرفاتهم، لأن للمباشرة في الإجراء دخل عظيم في نجاح الأفكار، و لأن بعض الأمور تفوت بفوات وقتها فهب أن الوزير مسؤول و يجري عليه العقاب بإخلاله لكن منفعة الأمة عموما تفوت بفوات الفرصة، و لذلك كان انتخاب الوزراء ممن تعتمد المجالس عليهم زيادة على شروط الأهلية الذاتية، و هكذا بقية الإدارات على نحو ما مر في إيطاليا. غير أن فرنسا لما كانت لها مستعمرات كثيرة فهي تعددهم مثل ولايات فرنسا و أوطانها في كيفية الإدارة، و كون مصدرها هم الوزراء المعهودون من غير تخصيص

بوزير للمستعمرات كما تفعل الدول التي لها مثل ذلك، فهي من هاته الجهة تعد مستعمراتها جزءا منها لكنها تحرمهم مما تحوزه أهل فرنسا من الحقوق و المنح كالحرية و حق إدخال أعضاء في مجلس النواب و أعضاء في مجلس الأعيان إلى غير ذلك من الإمتيازات المحصل عليها أهل فرنسا، فلذلك كانت مستعمراتها أسوأ حالا من غيرها لفقدانهم حريتهم الأصلية و عوائدهم و استقلالهم مع حرمانهم مما للمتسلط عليهم من الخصائص.

و أما إدارة الأحكام فهي أيضا على نوع ما تقدم في إيطاليا، و من أهم ما يذكر فيها وجود حكام الجورى و هم أعداد من مطلق الناس تنتخبهم العامة لمدة من الزمان لأجل مشاركة مجلس الجنائيات الشخصية في النظر، بمعنى أنهم يحضرون المجلس المركب من رئيس و عضوين و يعمل المجلس جميع المقدمات بمحضرهم ثم يسألهم رئيس المجلس عما يرون في النازلة. هل صاحبها مجرم أم لا؟ و من أى نوع جريمته؟ فيتفاوضون و ما يستقر عليه رأيهم يعلمون به المجلس، ثم المجلس يطلق المدعى عليه حالا. إن رأى الجورى براءته أو يعين العقوبة من القانون إن رأى ذنبه، و السبب في إيجاد الجورى هو زيادة الإحتراس في الحكام عن ميلهم إلى محاباة الأُمراء و الوزراء، لأن وظيفة الحكام و إن كانت عمرية و هم منتخبون بشروط العفة و الأهلية و وراءهم احتساب مجلس الأعيان و مجلس الأمة و من ثبت إرتشاؤه يعاقب أشد العقاب و لا تهمل العقوبة بعفو أو شفاعته، لكن ربما أغرتهم مع ذلك الدواعى بالترقى إلى الرتب العالية التي هي بيد الأُمراء و الوزراء و يتعذر الإحتساب بما يرتب من الحيل، فدفع هذا بمشاركة الجورى الذين هم ليسوا بمتوظفين و لا خوف و لا طمع لهم، لكن في ذلك مفسدة أيضا إذ هؤلاء الجورى كثيرا ما يكونون غير فقهاء و لا دراية لهم بالأحكام و لا ببواعثها و لا بالتحرى فيها فيخطون خبط عشواء و يضيع الحق بسببهم، إذ لا تعقب لما يرونه. و به يعلم مدرك الشرع الإسلامى في إناطة الحكم بالعلماء أهل العدالة و ما أدراك ما العدالة و مشاوره الحاكم للعلماء و كون حكمه جهريا ثم وراءه احتساب أهل الحل و العقد الداخل في الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر.

و من المفاسد الموجودة أيضا عندهم في انتخاب أعضاء مجلس النواب أو غيرهم ممن تنتخبه الأهالى، أن أفرادا ممن يعدون أنفسهم للانتخاب يعقدون مواكب و يدعون إليها الأهالى في أماكن فسيحة و يلقون عليهم خطبا يبينون فيها أفكارهم و مقاصدهم في سياسة المملكة و جدارتهم للقيام بالمناضلة عنها و ثقتهم بالسامعين لأن يكونوا من حزبهم، حتى

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ١١١

يقع انتخابهم على الخطيب و مع ذلك يعطون الرشا لمن له صوت في الإلتخاب لكي يحصلوا بذلك أكثرية المنتخبين، فكثيرا ما ينجح سعيهم و يحصلون على الوظيفة بذلك الطريق بعد أن تقع غوغاء و تشاتم و سباب بين أحزاب المنتخبين، فيدخل بسبب ذلك في الوظيفة من لا- ترتضيه الأهالى حقيقة أو من ليس جديرا بها لكثرة أغراضه و غير ذلك، و هذه المفسدة و لئن كانوا جعلوا لها علاجا و هو أنه بعد الثام المجلس المنتخب ينظر في المنتخبين هل هم مستكملوا الشروط أم لا؟ و من كان غير مستكمل يفصل عن المجلس و يعاد انتخاب غيره، لكن ذلك لا يفيد في أغلب الأحوال لأن الذى انتخب بحيلته و رشائه قد يكون مستكمل الشروط الرسمية، فلا يجد المجلس سبيلا للقدح فيه لكنه غير مستكمل الشرط الأساسى و هو ارتضاء الأمة حقيقة بمسلكه السياسى، فلذلك كان ينبغى أن يعتبر أن طالب الولاية و الأمانة يحرم منها فشرعنا الشريف و لله الحمد مزيج عنا مثل تلك المفسدة، و طالب الولاية و إن كان عدلا متوفرة فيه شروط وظيفته فإنه يحرم منها بحرصه عليها، هذا و قد تضمن كتاب أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك تفصيل إدارة هاته المملكة بما يعز وجوده في غيره و ينبىء عن باع صاحب التأليف و بصارته في السياسة، فمن أراد تحقق الأمور و تفصيلها فليرجع إليه.

مطلب: في السياسة الخارجية في فرنسا

اعلم أن فرنسا لما كانت من أعظم الدول الأوروبية و في طبيعة أهلها حب الفخر و الوجاهة أكثر من غيرهم، كانت تحب التداخل

في أمر غيرها أشد ممن سواها ممن يقارنها و كفى بما ذكرناه في أحوال نابليون الأول و الثالث و أسباب حرب سنة ١٢٨٧ هـ ١٨٧٠ م شاهدا على ما ذكر، و لذلك كانت فرنسا لها ما لإيطاليا مما ذكرناه في سياستها الخارجية و تزيد بتطلب النفوذ في جميع الجهات، إذ جعلت فيها مستعمرات كثيرة فكل مملكة جاورتها و لو في مستعمراتها تتطلب النفوذ لديها و لو بالإعتبار فيما إذا كان الجار ذا شوكة و شأن، أما إذا كان ضعيفا في القوة و الإدارة فإنها تلتقمه مهما سحت لها الفرصة، شأن طبيعة الدول القوية و دونك ما وقع في تونس هاته السنة و هي سنة ١٢٩٨ هـ مما يوضح هذا المقصد، و هو الذيل الذي نبهنا عليه في الباب الثاني عند الكلام على سياسة تونس الداخلية و الخارجية.

ذيل: في تسلط فرنسا على تونس

قد مر في المطلب الثامن من أحوال الإدارة الداخلية في تونس، حالة وزارة وزيرها مصطفى بن إسماعيل و تصرفاته و ما وقع في نازلة صانسي الفرنسية التي كانت سببا في خوف هذا الوزير من القنصل و رام أن تبدله دولته، و تقدم أيضا ما هي مقاصد فرنسا في تونس و أنها تروم نيل الدرجة العليا فيها و لما رأت سيرة الوزير المذكور لم تأمن وقوع ارتباكات مغايرة لما كانت راضية بالبقاء عليه، و خشيت ضياع الفرصة من سهولة التوصل

صفحة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ١١٢

على يد ذلك الوزير إلى ما لم يمكن التوصل به على يد غيره من ذوى العرض و العقل، فلذلك بينما كانت مساعي الوزير جارية في إبدال القنصل و إذا بالسعاية إليه قد غيرت مشربه حتى طمع في ولاية العهد بأن يتولى هو الإمارة بعد سيده الوالي الحالي الصادق باشا إذا أتم إدخال تونس طوعا تحت فرنسا، فراكن حينئذ قنصلها و أحكم معه المودة و صارت بطانة الوزير تأتي إليه معلمة بجميع أسرار الحكومة و سائر تصرفاتها، و أضمر ابن إسماعيل الشر لمن كان أوعز إليه بأن يشتكى من القنصل إلى دولته، ثم تظن بذلك التواطؤ السرى و نصحه بأنه لا ينتج له شيئا و على فرض الوفاء له بالوعد فإنه لا يلبث أن يناله ما نال الوزير ابن العلقمي في انقراض دولة بنى العباس من بغداد، و اتفق ذلك الوزير مع القنصل على شروط إدخال تونس تحت فرنسا غير أن الوالي لم يساعف على لائحة تلك الشروط التي قدمت إليه سرا بواسطة الوزير، و خشى من الدول و من الأهالي في البغي منه على الدولة العثمانية و في تغيير حالة السياسة و جعل الوالي يسوف العقد من وقت إلى آخر، و جعل الوزير يسعى في إحداث وجه لتداخل فرنسا و إنفاذ أمرها فأكثر من الرسل السرية إلى الأستانة متطلبا أن يدعى هو إليها رسميا أو يرسل بعض الأسطول العثماني إلى مرسى تونس، مع إظهار زيادة التشيع إلى الدولة العثمانية حتى لا يتفطن إلى مساعيه الباطنية فلم يساعف من السلطان إلى مطلبه، إذ لم يكن له من داع كما أنه لم تفد في الدولة العثمانية الإيقاضات إلى دسائسه و عزمه حتى تسعى في سعة لدفع الغوائل المتوقعة، إذ من المعلوم إن الدغل السياسي هو كالمرض المزمن الذي لا ينجح فيه العلاج إلا تدريجا عند أول حدوثه سيما إذا كانت الدولة المعالجه محتاجة إلى استماله غيرها من الدول القوية إلى معاضدتها على قرننها القوى، و مع ذلك أيضا قد عكر الوزير ابن إسماعيل حالة الخلطة مع إيطاليا لعلها تعلن على تونس الحرب و منح للفرنساويين منحا لم يطلبوها مما يزيد في نفوذهم و الشحاء معهم كما تقدم ذكره في المطلب الثامن من أحوال تونس، و لما لم تنجح جميع تلك المساعي التي كان يمكن لفرنسا الإستناد عليها في وضع حمايتها على تونس أحدثوا أقاويل في إهمال حقوق الفرنسيين بتونس و أظهر الوزير المذكور الإستخفاف بقنصل فرنسا و مال عنه كل الميل ظاهرا، و رام أن يظهر التعطيل في إجراء المنح التي أنالها إلى الفرنسيين بأوجه من الإعتذارات حتى أغريت رعايا فرنسا بتونس على أن تكتب تقريرا بالتشكي من ضياع حقوقهم و طلب دولتهم للإنتصاف لهم، فلم يرع الأمم إلا أن فرنسا جلبت بخيلها و رجلها على حدود تونس معلنة بأن قصدها إنما هو حفظ حقوقها من جهة

صفحة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ١١٣

الحدود وغيرها واستندت في عملها لما تضمنته لائحة وزير خارجيتها إلى سفرائه و هذا نص تعريبيها.

باريس ٩ مايس سنة ١٨٨١ أيها السيد أشرف بأن نرسل لكم جملة رسائل في شأن تونس و نريد أن نحقق لكم المقصود إجمالاً و نخبركم عن سبب إرسال العساكر الآن و عن النتيجة التي نرجو إتمامها، فكم من مرة قد عرفت الدولة الجمهورية بدواعيها و مقاصدها و أنتم تتذكرون ذلك خصوصاً ما صرح به السيد رئيس الوزراء في المجلس العام، و هو لا يمكن أن يكون فيه أدنى شك من جده و صدقه و مع هذا فإنني أريد زيادة إيضاح لكم لينفعكم لدى الدولة التي أنتم عندها فنقول: إن سياسة فرنسا في تونس ليس لها إلا مقصد واحد و هذا المقصد الذي يكفي لوضوح موضوع سيرتنا منذ خمسين سنة نحو المملكة هو الواجب علينا لحفظ راحة مستعمراتنا العظمى الجزائرية، فمن سنة ١٨٣٠ لم تأت دولة من الدول المتتابعة و تركت هذه المهمة العظيمة و إنا لنعمل الواجب علينا لحفظ مستعمراتنا الإفريقية التي لا- يوجد أحد من أوروبا أنكر علينا ذلك فيها لحفظها من جار عدو كثير الأراجيف، و قد كانت القبائل التونسية مخوفين و محاربين حتى فيما بينهم و قد فاق على الجميع قبائل و شتاتة و الفراشيش و خمير و لا- تعرف كمية المحاربين و لا كمية قوتهم، فلذلك التزمنا الآن أن نرسل من العساكر عشرين ألفاً و هذا مما يدل على قوتهم أي الأعداء المتحصنين في بلاد منيعه تقريبا، و كان الداعي الأول لإرسال العساكر هو قهر قبائل حدودنا الشرقية و لكن لا فائدة في تقرير الأمن و الراحة و أعداؤنا لا- زالوا يهددوننا، و نحن لا نخاف من الهجوم الكبير المنسوب لباي تونس إذا كان منه وحده لكن النظر القليل في العواقب ألزمتنا التحري من اتحاد الباي مع غيره، و هذه التشويشات يمكن أن يأتي لها وقت و تقلقنا كثيرا في الجزائر و تصل حتى إلى فرنسا، فيلزمنا بناء على ما ذكر أن يكون لنا عند الباي محبة كبيرة و اتفاق قلبي، و يلزمنا جار يعوضنا المحبة التي لنا عنه و لا- يسمع التشويشات الخارجية لضررنا و استحراق قوتنا الراسخة، و قد وضحنا من نحو أربعين سنة بأنه يلزمنا لمحافظة فرنسا الجزائرية أن نحصل في المملكة على قاعدة راسخة و نحن نحترم بالتدقيق منافع الأجانب و هم يقدرون أن يتوسعوا بثبات مع فوائدها، و الدول يتحققون أن مقاصدنا من جهتهم لا تتغير و إلى هاته المدة الأخيرة اتحادنا مع دولة الباي المفخم مستمر، إلا ما يحدث أحيانا من الإختلاف في دفع تعويضات لقبائلنا المضطربين. ثم في الحين يرجع الإتحاد و يزداد ثبوتنا بعد هاته الإختلافات الصغيرة، إلا هاته المدة الأخيرة فإنه بأسباب يصعب الإطلاع عليها قد تغير ميل الدولة التونسية إلينا دفعة واحدة و كانت إذ ذاك الحرب ساكنة، ثم لا زالت تزداد إلى أن وضحت و تقوت و مبناها ضد كل الإمتيازات التي حصلت للفرنساويين في تونس مع شدة الإرادة الرديئة إلى أن وصلت لهذا الحال و هذا هو السبب الثاني لإرسال العساكر الذي كنا نود التجنب منه.

و لكن بسبب السيرة الرديئة التي طالما صبرنا عليها التزمنا بما هو واقع، و لو أننا بها

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ١١٤

ضمننا الباي في المطالب الحقانية لأننا نتعرف بتونس كمملكة مستقلة و أما الحالة في الخلطة الآن مع الباب العالي فهي مخالطة محبة و ميل طبيعي و بودنا أن لو كنا رأينا نازلة تونس في منظر آخر غير التي هي عليه الآن، و لكن قد بان ما يجب علينا مما ذكرناه سابقاً و إننا نقدر أن نستفهم من الباب إذا كان باي تونس هو وال من قبلهم، فلماذا لم يمنعوا سيرته التي فعلها نحو فرنسا منذ عامين؟ و لماذا لم يفتشوا ليمنع التحير الموجود الآن الذي نحن منذ زمن طويل كنا نسعى في عدم إيقاعه؟ و يلزم لهذا التميز الذي نحن مجتهدون في حصره أن ينتهي بشروط تؤمن حدودنا من الهرج المستمر و التشويش المغري لباردو إما من غيره أو من نفسه فهذان هما المقصدان لإرسال العساكر، و لا نخف عند ما نقول أن لنا في أوروبا بالرضاء العام في جميع الجهات عدا الجهات التي بها النظر الفارغ المطمس للعقول، و هذه هي أيها السيد التي خيمت حول الباب و حول تونس و من كلا الطرفين فنحن مشمولون بالمحبة و جميع ما نرجو من الباي هو أن لا يكون عدوا لنا، و لو أن المملكة تنظر لفوائدها فتقدر أن تحصل من إتحادها معنا فوائده لا تحصى أكثر مما نحصله نحن منها، و نقدر أن تأتي لها بكل خير من العمران الحاصل عندنا. ففي سنة ١٨٤٧ فعلنا فيها البريد، و في سنة ١٨٥٩ و سنة ١٨٦١ فعلنا التلغراف، و في سنة ١٨٧٧ و سنة ١٨٧٨ فعلنا «الشمندفير» الذي طوله ٥٠ فرسخاً من حدود الجزائر إلى تونس، و في هذا الزمان نفعل

لها شمنديرين جديدين، أحدهما: يربط تونس بابين زرت من جهة الشمال و طوله ٢٠ فرسخا، و الآخر: يربط تونس بسوسة من جهة الجنوب.

و سنبتدىء عن قريب فى ابتداء عمل مرسى فى تونس نفسها لتدخل المراكب من الشط و من حلق الوادى حتى إلى ذات القاعدة، و دين تونس و إن كان رأس ماله مشترك بين فرنساوى و إنكليزى و طليانى لكنه إذا اعتبرت النسبة فيوجد ثلاثة أخماسه لفرنسا و أن الحنايا الجميلة لإديان التى تأتى بالمياه العذبة لتونس قد أصلحها أحد المهندسين الفرنسيين، و لما ترجع الخلطة الطيبة فإننا لا نزال نفعل أشياء حسنة و منارات على الشطوط و طرقا داخلية توصل بين البلدان العامرة الناجحة و نسقى الأرض بالترع الكبيرة فى البلاد التى بها أنهر كثيرة، و لكن هاته البلاد أهلها ليسوا معتنين بتلك الأنهر و كذلك الغابات، و كذلك نعمل استخراج المقاطع الموجود بها كل نوع من المعادن، و كذلك ترتيب الفلاحة فى الأراضى الحسنة التى للأجانب فى المملكة و التى للأهالى أيضا، و كذلك استعمال المياه المعدنية التى اكتشفها الرومانيون و استعملوها، و بالجملة إن مملكة تونس خصبة و غنى قرطاجنة القديمة يدل على ذلك و تحت الحماية الفرنسية يمكن أن تزال جميع الحجب عن المنافع الطبيعية فى هاته البلاد و تنتشر بقوة و بشدة الترتيب الجديد نقدر أن نزيد أشياء أخرى، و هى أنه إذا كان الباي يعتمد علينا فى الترتيب الداخلى فى المملكة فإننا نعمل تعديلا لازما قارا و هذا الخير الذى يسهل علينا عمله، منه: ترتيب كيفية قبض المدخول و ترتيب المخروج و ترتيب دفاتر الحساب على مقتضى ما نستعمله

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ١١٥

نحن فى ماليتنا، و منه أيضا خبر عظيم و هو ترتيب العدلية على الأصول التى فعلتها الدول فى ترتيب العدلية فى مصر، و فائدة هاته الترتيب لا- ترجع لفرنسا وحدها بل أن المملكة يرجع لها النفع و كذلك لجميع الدول المتمدنة التى نحن منها و من غير فتح و لا حرب، فلا شىء يمنعنا من عملنا فى تونس مثل الذى فعلناه فى جزائرها و الذى فعلته إنكلتيرة فى الهند، و إذا نحن جعلنا باى تونس متكفلا بمطالبنا الحقانية فهو دليل على ما نحسبه دائما من أن تونس مملكة مستقلة من غير أن نراعى بعض آثار للتبعية بالإسم فقط لبعض أسياد قد تركوها منذ عدة قرون، و قد تظهر تلك التبعية نادرا و لو تحسب المدة التى هى فيها مستقلة لكنت أكثر من مدة التبعية ففى سنة ١٥٣٤ أخذها المشهور «باربوروس خير الدين» أربع أو خمس مرات بانتصاره على الإسبانيول، و فى العام الذى بعده أخذها «شارل كين» و كذلك فى سنة ١٥٥٣ ثم أخذها داي الجزائر سنة ١٥٧٠، ثم أخذها «دون جوان» النمساوى سنة ١٥٧٣، ثم فى طول القرن السابع عشر كانت تحت ظلم الإنكشارية من غير حكم و رؤساؤهم الموسومون بالدايات كانوا إذ ذاك أربعين فقسموها تقريبا كالمماليك الذين قسموا مصر ثم فى سنة ١٧٠٥ كان أحدهم المسمى بحسين بن على الذى أصله كريكى أو كرسكى صار مسلما، و كان هو أحذقهم فعرف كيف يشدهم و قتل جميعهم و اشتهر بالبلى و بعصبيات العساكر أقام العائلة الحسينية و من ذلك الوقت لم تزل الإمارة فيهم على هيئة السيادة الإسلامية، و الآن سنة ٢٠٠٠ تقريبا و هم مستقلون و الرابطة الحقيقية، بينهم و بين الباب العالى هى رابطة دينية، و هم يعترفون بالخليفة إلا أنهم ليسوا تحت السلطان و مما يوضح هذا أنهم لا يدفعون له أداء، إلا أنه عند ولاية كل باى يرسل هدية غنية تعظيما لرئيس الديانة القاطن بالقسطنطينية، و فى باقى مدة الولاية فلا مسألة سياسية يمكن أن تذكر غير هاته التحية الودادية، فليس لأمير المؤمنين حق آخر على باى تونس.

و المملكة تعقد شروطا كدولة مستقلة مع الدول الأجانب و تعقد معهم اتفاقات و يكون لها قوة و ذلك برضاء البلى فقط و على هذا النمط وقعت معاهدة مع فرنسا فى سنة ١٧٤٢، و كذلك فى العام الثالث و العام العاشر، و فى سنة ١٨٢٤. و هكذا صارت المعاهدة المهمة فى ٨ اغستوس سنة ١٨٣٠ التى تمنع ملك العبيد و التلصص فى البحر، و لا يلزم التكلم على المعاهدات الباقية كالتى فى حق صيد المرجان و أن الباب لا يحكم على الولاية إلا

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ١١٦

حكما وقتيا و هو راض باستقلالها، و مما يؤيد هذا أنه في القرن الثامن عشر لم يقبل تشكى دول أوروبا من التلصص البحرى و السعى البربرى، و ليس له حكم عليهم و هو ليس مولا هم و هو لم يضمن السرقات التى فعلوها مخلة بتجارة البحر المتوسط، و أن دول أوروبا عملوا الحرب عشرين مرة مع المملكة من غير عقد الحرب مع تركيا. و فى سنة ١٨١٩ كانت معاهدة «اكس لاشيبيل» قد حكمت على تونس بمنع التلصص البحرى من غير أن تطلب من الباب التداخل على أنه متسيد على تونس، و فى سنة ١٨٣٣ فمملكنا سردينيا و نابلى عملا- الحرب مع تونس من غير عمله مع الباب لأنهم يرون مثل ما نرى أن تونس مستقلة، ثم أن علاقته تونس مع فرنسا من وقت أخذ هاته الجزائر على النحو السابق من غير واسطة تركيا.

و لما قدم إلينا أحمد باى فى سنة ١٨٤٣ اقتبل بكل ما يلزم من التعظيم للملوك و الباب العالى لم يتوجع إذ ذاك من عملنا التعظيم الملوكى المذكور، و كذلك جميع أوروبا لم تلم على ذلك لأن رأيها موافق لرأى اللورد «آبردين» الذى يقول فى تسجيله ضد أخذنا الجزائر المكتتب بتاريخ ٢٣ مارث سنة ١٨٣١: أن الدول الأروباوية من مدة طويلة يفعلون المعاهدات مع الدول البربرية مثل الدول المستقلين و خصوصا تونس فإنها لا تحسب نفسها إلا حرة، و الدليل الواضح الحقى الذى لا ينكره أحد هو عمل القوانين فى تونس المسماة «بويورلدى» و حلف عليها الباي الموجود بتونس محمد الصادق لما جلس على الكرسى فى ٢٣ أيلول سنة ١٨٥٩ مثل ما حلف أسلافه، فإن قانونا واحدا منها و هو المسمى بالقانون النظامى لمملكة تونس قد احتوى على مائة و أربعة عشر مادة و انتشر بالعربى و الفرنساوى فى تونس و فى بونة، و لم يصرح فيه و لا بكلمة واحدة تقول السلطان، و مما لا يقدر أن يشك أحد معه فى استقلال الباي ما نشر فى الصحيفة الرابعة من المقدمة فى ذلك القانون و نصه:

«إن المتوظفين الكبار التونسيين اختاروه بكلمة واحدة ليكون رئيس الدولة على مقتضى قانون الوراثة المعروف فى المملكة و فى ذلك القانون فصول تامه شرحت الحقوق و الواجبات للملك و حالة الأمراء من العائلة الحسينية و حقوق و واجبات الرعايا و كيفية خدمة الوزراء و ترتيب خدمتهم، و المجلس الكبير بالمملكة و المداخيل و الحساب و لا شك أن من يطلع عليها يقدر أن يجد ذلك البيان غريبا إذا أراد أن يقيس على رأينا الأروباوى، و مع هذا فهو دليل واضح على استقلال مملكة تونس و أنها ليست تحت دولة أجنبية، و جميع المعاهدات التى بين الدول الأروباوية و مملكة تونس منذ مدة الثلاثة قرون الأخيرة لم تقل أبدا إلا مملكة تونس و ملك تونس، و منها خمسة عشر أو عشرون معاهدة أمضيت بفرنسا فيها ذلك القول، و فى سنة ١٨٦٨ المعاهدة التى وقعت مع إيطاليا مذكور فيها

صفحة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ١١٧

مملكة تونس، و تونس أيضا لم تسم نفسها فى قانونها النظامى إلا الاسم الذى أطلقته عليها جميع الدنيا، و هى أرادت أن توضح المزية التى لها بالإستقلال و القدرة الموافقة له.

فبناء على ما سبق من الأدلة القطعية و المتعددة فالباب العالى لا يقدر أن يتعجب من إنكار فرنسا لسيادته على تونس مهما طلب هو ذلك حتى إلى الآن، و نحن نقر بأن الباب شدد فى طلبه منذ خمسين سنة و فى سنة ١٨٣٥ أدخل تحت سيادته طرابلس بعد ما ضبط التحير الهائل هناك و أراد أن يعمم سيادته على تونس، إلا أن قوة فرنسا المضادة له منعتة من مقصده و بعد عشر سنين أى فى سنة ١٨٤٥ أتى ما بينجى السلطان إلى تونس و معه فرمان ليقلد الباي منصب الولاية، إلا أنه لم يقبل منه ثم مضت عشرون سنة من غير تجربة جديدة، و لكن فى أواخر سنة ١٨٦٤ رجعت التخمينات القديمة و إنما هاته المرة كانت المملكة بنفسها هى التى طلبت التقليد و لكن هذا كان من الغريب إذ وقع من الأمير الذى هو حتى لذلك الوقت بعينه و هو يظهر المدافعة عن استقلاله، و هذا إنما كان من الإشارات القوية التى خوفت الباي من حالته أمام الباب فأرسل لذلك أمير الأمراء خير الدين إلى القسطنطينية ليعرض و يأتى بالفرمان، و هاته المرة أيضا فرنسا عارضت فى ذلك و عوضا عن فرمان السلطانى فالباى و مستشاريته التزموا بالرضاء بمكتوب وزيرى متضمن لما فى فرمان، ثم اغتتموا الفرصة وقت مصيبتنا فى سنة ١٨٧١ و تمموا ما كانوا ممنوعين منه سواء كان فى مدة الوى فليب الذى كان

غالباً أسطوله يمنع الأسطول التركي من القدوم إلى تونس، أو في مدة الأمبراطور الذي لم يقلل من العزم المشار إليه، و فرمان ١٥ تشرين أول سنة ١٨٧١ الذي اتخذوه تحت ظل مصيبتنا اشتهر في ١٧ تشرين ثاني في باردو و أعلن به خير الدين بإسم السلطان و قبله الباي الذي كان طلبه له مع شيء من الغضب، و فرنسا على كل حال سجلت بقوة و حسبت فرمان باطلاً أو كأنه لم يقع، و من مدة عشر سنين لم تبطل شيئاً من عملها عند ما يقتضى الحال و مع نجاح الباب هو بنفسه له شك في إجراء حق فرمانه بتاريخ سنة ١٨٧١ الذي ضرب استقلال مملكة تونس المتقادم، و هذا فرمان انتشر قليلاً إلا أنه عند الغالب لا يعرف ما عدا بعض الدول الذين لهم فوائد نوا، و في ترتيب فرمان المذكور أن تونس تكون جزء تحت الباب مع أن حكم باي تونس باق كما كان يعرف من منذ مائتي سنة غير أن باي تونس صار والياً أي والياً عاماً على أيالة تونس و على موجب ذلك فالوراثة في الحقيقة لم تكن مستمرة في العائلة الحسينية خلافاً لما ذكره فرمان، بل والي يعزل بإرادة السلطان و من الممكن أن يعرف الباي ضرره و ضرر ملكه و حرته و حياته التي هي غلطة كبيرة حسبما أشاروا عليه بها، و محمد الصادق ليس له خوف من جهة فرنسا و لو مع ما عمل من الشر بها و مع هذا فهي ليست بضده لا- لدريته و لا- لذاته و لا- لدولته، و أما من جهة الباب فهو بالعكس و له الخوف الكبير منه لأنه يمكن أن يبدله بحسب الحال.

انتهت لائحة وزير فرنسا و إذا تأملها المتبصر و تدبر معانيها يجدها مخالفة للواقع في

صفحة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ١١٨

كثير من الأمور سيما بعض الأحوال التاريخية كما يتبين من مقابلة كلامه بما ذكرناه في تاريخ تونس و سياستها و وصلتها مع الدولة مع المكاتب الرسمية التي نقلناها حرفياً حتى من متوظفي فرنسا، و يؤكد ذلك ما تراه في لوائح الباب العالي الآتي بيانها، فإن الحالة لما بلغت إلى درجة هجوم العساكر على الحدود تظاهر والي تونس بأن أرسل إذ ذاك إلى الباب العالي مكاتب في التشكي من فعل فرنسا و أرسل إلى نواب الدول تسجيلاً على ذلك أيضاً، و لما تحقق الباب العالي الأحوال الرسمية أرسل عدة لوايح إلى سفرائه مستنجداً بالدول لمحافظةهم على معاهدة باريس التي أشرنا إليها سابقاً و على معاهدة برلين، و مما يفصح عن مقاصد الباب و حقوق اللائحة التي أرسلها وزير الخارجية بالدولة العثمانية إلى سفراء الدولة، و نص تعريتها:

القسطنطينية ١٠ مايس سنة ١٨٨١، إن إعلاماتي المختلفة عرفت فظانتكم الوقائع التي صارت في المسألة التونسية و قد نسيت بهجوم بعض القبائل البدويين جهة الجزائر، و لهذا الهجوم فالحكام التونسيون أعلنوا بأنهم حاضرون ليضبطوه من غير تراخ، فالدولة الفرنسية حكمت بأنه يلزمها إرسال عدد وافر من العساكر الذين قد استولوا على جزء كبير من الولاية و لم يبعدوا عن المركز إلا بعض فراسخ، فمن غير التفات إلى ما كنا أكدنا به على حضرة الباشا ليأخذ التدابير اللازمة لتمهيد الراحة في المواضع الثائرة، فدولة الجمهورية لا تريد أن تنظر للمخالطة الإقترانية بتونس مع السلطنة العثمانية التي هي محسوبة جزءاً متمماً للسلطنة المذكورة، و أظهرت بأنها لا تقبل قولنا للإتفاق الودادي معها لقطع الإختلاف الذي وقع و ترتيب حقوق الباب العالي مع منافع فرنسا في ذاك المحل و ترتيب الأشياء الموجودة من زمن قديم، و لا نقدر أن نزيد في إيضاحها كما يلزم و هي سيادة السلطان التي ليس فيها إختلاف على هاته الولاية و هي سيادة لا- تنكرها و لا دولة عموماً، و هذا الحق بقي إلى الآن صحيحاً و لم ينقطع من زمن فتحها و هو إذ ذاك سنة ١٥٣٤ بخير الدين باشا و في سنة ١٥٧٤ تقلب على باشا و سنان باشا، و كانت الدولة العلية أرسلت إلى تلك المواضع قوة عظيمة برا و بحرا و من زمن ذلك الفتح فالتأسيسات التي فعلها الباب العالي هي أن جميع ولاه تونس يتوارثون الولاية من ذرية والي الأول المسمى من السلطان، و يتقلدون إلى الآن المنصب منه و فرمانات الولاية تبقى في خزنة الديوان و كذلك جميع المكاتب التي تأتي منهم للباب العالي فإنها تارة تكون في شأن مخالطتهم مع الدول الأوروبية و تارة تكون في شأن أحوالهم الداخلية، و التي لهاته المدة الأخيرة فإن الباب العالي من استحفاظه على حقوقه زيادة على كونه يسمى والي العام، فإنه يرسل من القسطنطينية إلى تونس قاضياً و باش كاتب الولاية و لم يكن إلا- من ترحم الدولة العلية إن منحت والي أن يسمى هو بنفسه هذين المتوظفين، و أيضاً فاتباعاً للمذهب و

خصوصية سيادة السلطان فإن الخطب يذكر فيها إسم جلالته و يضرب على السكة أيضا، و في وقت الحرب ترسل تونس الإعانة إلى التخت و على حسب العادة القديمة يأتى إلى القسطنطينية

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ١١٩

دائما أناس راسميون ليقدموا تعظيمات الوالى و خضوعه لأعتاب السلطنة، و ليقبلوا أيضا الإذن اللازم من الباب العالى لأمر عظيمه فى الولاية. ثم إن الباشا الموجود الآن و الأهالى التونسيون طلبوا زيادة فى التفضل و أعطى ذلك لحضرته السامية بالفرمان المؤرخ فى سنة ١٨٧١ و تعرف به جميع الدول و الآن قد استغاث الوالى بجهد سيدة الحقى ليعينه على الحالة الرديئة التى وقعت فيها تونس الآن. و هاته الأشياء التحقيقية لا ينكرها أحد فهل تريدون أن تعرفوا الآن تقريرها بالتاريخ و بالمكاتبات الرسمية هو سهل، لكن نقتصر على المهم منها لثلا يطول الكلام فى هذا التلغراف ففى المعاهدات القديمة التى بين تركيا و فرنسا تعدد ألقاب الحضرة السلطانية و يكون منها لقب سلطان تونس، فانظر مثلا معاهدة ١٠ صفر سنة ١٠٨٤ هـ ١٦٦٨ م، و فى هاته المعاهدات أيضا يوجد بأن كل المعاهدات التى بين الدولتين تجرى أيضا فى تونس، و فى نصف القرن السابع عشر أى فى ١٥ صفر سنة ١١٦٦ أرسل السلطان فرمانا للباى و الحاكم الكبير بالولاية فى رضاء الباب العالى بأن قنسل فرنسا يجمع خدمات قنسل الدول الذين لم يكن لهم إذ ذاك نواب بالقسطنطينية كالبرتغال و كتالونى و إسبانيا و فينيسيا و فرينسا و غيرهم، و القنسل و كالتة هى حماية السفن تحت الراية الفرنسية فى المراسى المشهورة بالولاية، و فرمان يمنع تداخل قنسل الإنكليز و الهولنديز و غيرهم من التداخل فى خدمة نائب فرنسا و ذلك سند منع التعدى بين الباب العالى و النمسا المؤرخ فى ٩ رمضان سنة ١١٩٧ هـ المتقرر بمعاهدة «ستوفا» فى ١٢ ربيع الآخر سنة ١٢٠٥ هـ فإنه يأذن حكام الجزائر و تونس و طرابلس الغرب، بأن يحموا على إسم السلطان السفن المتجرية لسلطنة الرومان الفخيمة، و أيضا فإن الإتفاق الذى تقدم هذا السند و تم فى ١٥ شوال سنة ١١٦١ هـ بالإذن من السلطان و كان هذا الإتفاق وقع بين الحكام المذكورين و السلطنة المذكورة، فإن الوالى العام بتونس و هو إذ ذاك فى رتبة بكربيك و نال إسم على باشا، يذكر فى مقدمه كل مكتوب ممضى عليه منه هاته الكلمات بعينها و هى: «مولانا لسلطان الغازى محمود».

و على ذكر واقعات ذاك الزمان استطرد لكم الإذن الصادر من الباب العالى فى ١٥ ربيع الأول سنة ١٢٤٥ هـ ١٨٢٧ م لحكام الجزائر و تونس و طرابلس الغرب فإنه يأمرهم أن لا يتدخلوا فى الخلاف الواقع بين سلطنة النمسا و مملكة المغرب، و كذلك الإذن الصادر من القسطنطينية لوالى تونس فى ١٤ صفر سنة ١٢٤٧ هـ ١٨٣٠ م فإنه يأمر بترتيب العسكر النظامى بالولاية على نمط الترتيب العسكرى النظامى العثمانى، و أيضا قد أتى مكتوب معين بالطاعة من الباشا التونسى لجلالة السلطان فى سنة ١٨٦٠ و ذلك الباشا هو الذى سماه السلطان واليا عاما و قد انتشر هذا المكتوب فى جميع صحف أوروبا من غير أن يعارض و لا من جهة واحدة، و نزيدكم شيئا آخر و هو أنه فى سنة ١٨٦٣ فى واقعة القرض التونسى الذى وقع فى باريس من غير رضاء الباب العالى كان مسيو «دواروان

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ١٢٠

دولويس» وزير خارجية الإمبراطور نابليون الثالث، قد أعلن رأيه بناء على شكايات الدولة العثمانية و قال: إنه يلزم إما الباشا بتونس أو الصراف الذى يريد عقد القرض معه أن يطلب رضاء الباب العالى ليصح هذا القرض، و للمدافعة عن حقوق الباب العالى فإن الوزير الفرنساوى أرسل يقول هذا الكلام للصراف المشار إليه، وها نحن نضع بثبات الكلام السابق لدى ميزان العدل و الحق الذى للدول الممضين على معاهدة برلين، و إنا لمتحققون بأن فكر الدول محيط بدلائل كثيرة فى الواجبات العمومية التى يقتضيها المؤتمر المحترم و أنهم يريدون أن يفصلوا بالعدل قولنا الذى قدمناه، و أنهم يتحفظون على حقوق الباب العالى الأخرى المحفوظة بالمعاهدة المذكورة و يصلحون الحال بين الدولتين فرنسا و تركيا فى علائقهما التى لهما فى هاته الولاية المرؤف بها التونسية المتممة للسلطنة العثمانية و المرغوب من جنابكم أن تتكلم مع وزير الخارجية فى مضمون هذا التلغراف و تشرح له ما تراه نافعا، و لكم الإذن بأن تعطوا نسخة من هذا لجناب الوزير إذا طلبكم ١ هـ الإمضاء مصطفى عاصم.

و من تأمل هذه اللائحة مع ما قرناه في سياسة تونس الخارجية و مقاصد فرنسا فيها لا يشك في أن فرنسا لم تكن تنازع قط في أن تونس من ممالك الدولة العثمانية و إنما غاية دعواها هو أن تلك الإيالة لها امتيازات جارية تحافظ هي عليها لأجل منافعها، و يصدق ذلك تصريح وزير فرنسا، «دواروان دولويس» في مجمع فيينا أثر حرب القريم، لما سأل وزير روسيا عن تعيين الممالك العثمانية للجهل ببعضها و مثل بتونس و أنه يترأى فيها نزاع، فأجابه الوزير الفرنسي: بأن لا شك و لا نزاع في كون تونس من الممالك العثمانية و إن كانت لها امتيازات تخصصها، و كذلك المعاهدات المعقودة بين فرنسا و تونس حتى التي وقعت بعد الإستيلاء على الجزائر بمدّة طويلة يصرح فيها بأن سائر المعاهدات المعقودة مع الدولة العثمانية تكون مرعية الإجراء في تونس، و لا يعزب عن عاقل أن ذلك التصريح لاتحاد تونس بالممالك العثمانية. و مع هذا كله لم يفد استصراخ الدول لأن فرنسا لم تعلن بعملها إلا بعد أن لمست أفكار أغلب الدول الكبيرة فوجدتهم غير معارضين إليها لأن دولة إنكلتره متول زمامها حزب الإطلاق الذي لا يرى نفع دولته في المحافظة على الدولة العثمانية بعد أن طال تجريبيهم لها في الحث على الجريان على مقتضى نصائحهم، و لكنهم لم يروا العمل و دونك ما نشر في الكتاب «الأزرق» من المخاطبات التي وقعت من الحضرة السلطانية و رئيس وزرائها و مع سفير إنكلتره بالأستانة حسبما أخبر بها وزيره بعدة تلغرافات تنبىء بما تقدم.

فمنها تلغراف من موسيو «غوشن» سفير إنكلتره إلى وزير خارجيتها بتاريخ ١٩ نيسان سنة ١٨٨١ هاته ترجمته: إني وجدت جلالته أي السلطان مشغول الفكر بهذه الأفعال و بناء على ما عندي من الإذن، أعلنت له بأن الدولة الإنكليزية تريد بقاء الحالة الموجودة في تونس و النائب الإنكليزي بتونس له الإذن ليرشد الباي إذا استشاره بأن يعين فرنسا في تقرير صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ١٢١

راحة الحدود، و إني أرجو أن جلالته يشير على الباي أيضا بذلك فالسلطان سكت بعض دقائق ثم ظهر على وجهه الغضب، و قال: إنه فهم من كلامي أن الدولة البريطانية تريد بقاء الحالة على ما هي عليه في تونس و لها نفع في ذلك، و فهم أيضا أنا أشرنا على محمد الصادق بأن يعين العساكر الفرنسية، فنبهت عظمته بأني ما قلت أن الدولة الإنكليزية تنتفع بإبقاء الحالة الموجودة، و لكنها تظهر تمنى ذلك فقط على هذه الكيفية و نحن نتأسف كثيرا من فتح مسألة جديدة في الشرق، و إنا لا نفتكر أنه توجد فوائد خصوصية لإنكلتره مربوطه بأي كيفية كانت في أحوال تونس، فعند هذا أجاب السلطان: بأنه لم ير كيف يجمع بين رجائنا في إبقاء حالة تونس على ما هي عليه، و مع ذلك نشير على الباي بأن يعين العساكر الفرنسية فهذان الشيطان لا يتوافقان، لأنه على رأيه يكون دخول العساكر الفرنسية إلى تونس ناقضا للحالة الموجودة.

و في تلغراف آخر من موسيو «غوشن» أيضا يقول فيه: إن الجلسة التي وقعت بيني و بين باش و كيل، كان يطلب فيها صحة إنكلتره و قال: إن الدولة الإنكليزية تقدر أن تعمل مع الدولة العثمانية المعروف و أن الباب العثماني يكون ممنونا إذا كانت إنكلتره تريد أن تفعل معه ذلك، فقلت له: إن ما كنت قلته لكم قد وقع و الذي كنت تقوله دائما هو أنه يأتي زمن تكون فيه تركيا متذكّرة بأن صحة إنكلتره لها لازمة، و قد تكلم على الحاجة الأكيدة الآن و تكلم أيضا على رد مودة إنكلتره، فتبعته و قلت ما هو دليل المودة الذي أظهرته تركيا لإنكلتره منذ بعض سنين؟ و في أي وقت اتبعتم إشارتنا؟ و في أي وقت قبلت استشارتنا النافعة للسلطنة التركية؟ نعم إن الترك قد عملوا غاية جهدهم ليركوا المودة التي في رأى العموم في إنكلتره و رجوعها الآن ليس بسهل، فحضرته العلية أجابت بأن جميع الأشياء الآن تتغير من غير أن يظهر على وجهه الغضب من الكلام الذي قلته له قصدا و استمر في طلبه الإعانة، و أنا شرحت له بأن نازلة تونس مثل النوازل الأخر الشرقية و لا تقدر إنكلتره على إتمامها وحدها، و مع هذا فليس لنا فائدة خصوصية و سياستنا متمسكة بالموافقة الأوروبية و لا دولة تريد قيام عسر جديد قبل أن تتم الاعسار القديمة، و كل دولة تكون حازمة إذا كانت تفتش كل واسطة لحصر النازلة التونسية في حدود ضيقة أقل ما يمكن، لئلا تقوم نازلة تدخل فيها الدول برأى مختلف فجنابه العالي يقدر يفهم من جملة كلامي بأن ليس لي إذن لتقرر الرجاء بأن تكون الدول العظام الأوروبية يظهرون أنفسهم مختلفين على نازلة مخلبطة

بين الباب العثماني و تونس، و الطلب الخصوصي من إنكلترة ليس بموافق لحالة الباب العثماني منذ بعض سنين مع الدولة المشار إليها، فهذا الخطاب كاف في بيان الحال مع إنكلترة و هي و إن أظهر بعض أهل شوراها التنييد على سياستها و طلب المحافظة على تونس و إبقائها للدولة العثمانية، و بين ما ينشأ لإنكلترة من المضرة عند استيلاء فرنسا على مرسى ابن زرت و على قربها من خليج السويس و رجحان كفتها في البحر الأبيض، لكنه لم ينفذ كلامه حيث كان من حزب المحافظين الذي هو مغلوب حينئذ، و احتجت عليه

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ١٢٢

الوزارة بأن حزبه هو الذي فتح الباب لفرنسا فإن اللورد «صلسبرى» الذي كان وزير الخارجية عند عقد مؤتمر برلين لما شاحنه وزير فرنسا على استيلاء إنكلترة على قبرص أجابه بأنه لا- يعارض فرنسا إذا أرادت الإستيلاء على تونس، فإذا يكون استيلاء فرنسا بوعد إنكلترة و قد غفل المستند لذلك عن كون الوعد من صلسبرى كان في سياق أن ترضى بذلك الدولة العثمانية صاحبة الملك مع الرضى العام لا- اغتياالا و مع ذلك فلاإنكلترة مقاصد على تونس مخفيه في مصر فرأت أن مساعده فرنسا على تونس تلائمها في مقصدها هي في مصر عند الحاجة إذا ساعدتها فرنسا، و لهذا لم تعترف بالمعاهدة الجديدة مع تونس رسميا حتى أن وزير فرنسا الأول أعلن في مجلس النواب بأن انكلترة وافقت على معاهدة ما به استنادا منه لما دار بينهم من الكلام فيها، فأعلن وزير خارجية إنكلترة حالا- بتكذيب ذلك الادعاء و ما ذاك إلا- تحفظا على ما يريد لدولته حتى إذا لم تساعفه فرنسا في مصر و آل بينهم الأمر إلى المشاحنة الحقيقية، كان لانكلترة وجه في نقض ما حل بتونس.

و أما دولة روسيا فلا إشكال أنها يسرها كل ما يضعف الدولة العثمانية و لا فائدة لها في مشاحنة فرنسا، و لذلك كان جوابها بمثل محصول جواب سابقتها، و أما دولة المانيا فأجابت خصوصا بأن الأولى للدولة العثمانية الإضراب عن هاته النازلة و أنها هي لا تتعرض لفرنسا بشيء و الباعث لها على ذلك وجوه:

أولها: إظهار عدم التجافى عن فرنسا التي لها عليها حقد أخذ الثار.

و ثانيها: جذب أعداء و مضادين إلى فرنسا كالدولة العثمانية و إيطاليا، حتى إذا أعلنت الحرب يوما ما بين ألمانيا و فرنسا تجد ألمانيا الظهير على قرننها بما لذلك الظهير من الباعث الذاتى.

و ثالثها: إشغال فرنسا بفتوحات جديدة في أراضى فسيحة و خلق كثير في أفريقيا ربما طال اشتغالها بهم حتى يبرد لهيب أخذ الثار.

و رابعها: إضعاف قوة فرنسا وقت الحرب إذ الأمم الذين تريد التسلط عليهم و إن لم يكونوا كفؤا لمحاربة فرنسا لخلوهم عن آلات الحرب و الإستعداد لها، لكنهم لما كانوا مسلمين و أهل نجدة و شجاعة و مثافنة للحرب لا يلبثون دائما أن يحدثوا عليها ثورات سيما إذا علموا بوقوع حرب بينها و بين أجنبي، فتضطر فرنسا في وقت الحرب إلى أن تبقى قسما عظيما من جيشها محافظا على ذلك المستعمر و ذلك يفيد ألمانيا بنقصان قوة جيش خصمها في حربها.

و خامسها: تمهيد السبيل إليها فيما تريد التعاوض به بينها و بين النمسا، لأن ألمانيا ليس لها مرسى على البحر الأبيض و قد بقى من جنس الألمان تحت النمسا عدة ملايين حول الجهات التي بقرب مرسى ترست فلو أخذت ألمانيا ذلك الباقي من الألمان مع تلك المرسى يكون ذلك غاية أمانها، و لكن ذلك لا يحصل إلا بحرب مع النمسا و قهرها أو

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ١٢٣

بمعاوضة ذلك لها بشيء يرضيها من ممالك الدولة العثمانية مثل أخذها ولايات مقدونية و مرسى سلانيك الموازى ذلك لما يؤخذ منها حسبما أشيع ذلك مرارا، و لذلك كانت ألمانيا أول من بادر لأمر نائبها في تونس باتباع سياسة فرنسا فيها و تبعتها على ذلك أيضا النمسا لأنها ليس لها سياسة تخصها في تونس، و هي لها مع ألمانيا عقد محالفة إتحد على الذب و الإقدام، ثم أنها لها مطامح في جهة بحر الجزر لتتمكن فيه بمواقع مهمة لكي تسلم في مرسى ترست إلى ألمانيا حليفها حيث لم يكن لها مرسى في البحر الأبيض

كما تقدم ذكره، فلا تعارضها فرنسا عند العمل. و أما إيطاليا فإنها تجرعت من ذلك الغصص و طوت على الضغائن التي لا تزال و لكنها لما كانت غير كفؤ بانفرادها لمعارضة فرنسا و اتحادها مع الدولة العثمانية أيضا لا يجدى لاحتياج كل إلى المال مع ما فيه الدولة العثمانية من الحالة الداخلية و الخارجية التي أعقبها الحرب الأخيرة، فلم يسعها إلا السكوت و تحمل عرق القرية من عظم الضغينة في عموم الأهالي، و الدولة إذ هي حريصة على إبقاء ما كان على ما كان في تونس و كانت عند ملاحظتها مبادئ الشر عرضت بالسعى السياسي مع الدولة العلية فلم يكن من المقدر قبول الإنتباه لما أرادت حتى أنكر الوزير العثماني على المأمور الطلياني التكلم معه في تونس، و قال له: إنها تابعة لنا و لا دخل فيها لأحد و عند هجوم فرنسا صار يتملق إلى ذلك المأمور لكي تمد إيطاليا اليد إليه، فقال له مصداق المثل: «الصيف ضيقت اللبن».

و بما تمهد عبرت عساكر فرنسا حدود تونس معلنة بأنها تريد تأديب قبيلة خمير من أعراب الجبال الشمالية عند حدود الجزائر، و لم يتعرض لها أحد بالمصادمة لأن حكومة تونس قد تقدمت حالتها الباطنية من التوافق مع فرنسا و مع ذلك فليس عندها تحت السلاح ألفا عسكري و لا اقتدار لها على معارضة فرنسا بالقوة، و استندت ظاهرا إلى أمر الدولة العلية بارتكابها سبيل الملاينة، و أظهر الوزير التونسي إذ ذاك التزام العمل برأي مجلس الشورى حيث فات الأبان مع أن جميع ما يتفاوض فيه يقرره إلى تابعه على ابن الزى ليلا و هو يقرره إلى نائب فرنسا، فكلما غزل المجلس غزلا نقضه لهم من هو بالمرصاد منهم حتى تعجبوا من اطلاعه على جميع أحوالهم، و تمكنت عساكر فرنسا من بلد الكاف و باجة و ابن زرت، و في أثناء تلك المدة كانت الحكومة التونسية لا تزال تسجل و تشكى و أنها مستعدة لتربية قبائلها الذين هم في نفس الأمر إنما اتخذوا وسيلة فقط، و مع ذلك فقد أوعز الوزير بواسطة تابعه المشار إليه إلى نائب فرنسا بأن لا واسطة مفيدة في الدخول تحت فرنسا إلا قدوم شردمة من العساكر إلى قصر الوالي و الإحاطة به، إذ النسوة لما ترى ذلك تصعق بالخوف فيضطر الوالي إلى الإمضاء على الشروط و يجد العذر عند الأهالي، و مع ذلك أرسل خيرا بالسلك الكهربائي إلى الباب العالي يقول إنه قد علم أن فرنسا تطلب عقد شروط و لا يعلم ما هي فماذا يعمل؟ فأجيب من الباب: بأن يحيل كل ما يطلب منه على الباب العالي و لا يمضى شيئا، و قبل ذلك أشاع أصحاب الأخبار أن في عزم الدولة إرسال

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ١٢٤

خير الدين باشا إلى تونس معتمدا في حسم النازلة لمعرفته بأحوالها و سياسة الأهالي و الأجانب، و لكي يكون عوننا على إبقاء الحالة المعروفة، فأرسل الوالي تلغرافا إلى الباب يطلب أن يكون المرسل غير المشار إليه و تعجب كل غافل عن المقاصد الخفية من ذلك الطلب، إذ تلك الحالة لا تدع مجالاً للشخصيات سيما و قد سبقت من خير الدين إلى الوالي المشار إليه المجاملة و عدم الإكتراث بما فعل معه عند حلوله بالاستئان و ترقيه فيها، لكن المطلع على الباطن زاده ذلك تيقنا في التواطؤ على تلك الأعمال لأن وجود مثل خير الدين في تونس لا يروج عليه ما يروج على غيره ممن لم يثافن طبائع الشقين، و مع مجارة الباب العالي و تقليده لمواقع النزاع قدر الإمكان لتأمين الوالي حيث أظهر الميل إلى الدولة، فإنه أي الوالي أسرع إلى إمضاء الشروط مع فرنسا و الحال أن مداد الحبر من الباب العالي بنهيه عن الإمضاء لم يجف و لم يخبر الباب بعد ذلك بشيء حتى سأله عما شاع من إمضائه فأجابه بأنه مكره عليه، و كل ما ورد بعد ذلك من الباب سلمه إلى نائب فرنسا مدعيا أن الشروط قاضية بذلك و هذا نص تعريب المعاهدة.

إن دولة جمهورية فرنسا و دولة باي تونس أرادوا أن يقطعوا بالمرّة التحير المخرب الذي وقع قريبا في حدود الدولتين و في شطوط تونس، و أرادوا أن يربطوا مخالطتهم القديمة التي هي مخالطة مودة و جوار حسن، فاعتمدوا على ذلك و عقدوا معاهدة في نفع الجهتين المهمتين، فعلى موجب ذلك رئيس الجمهورية الفرنسية سمي و كيله موسيو الجنرال «بريار» الذي يتفق مع حضرة الباي السامية على الشروط الآتية.

أولا: المعاهدات الصلحية و الودادية و التجارية و غيرها الموجودة الآن بين الجمهورية الفرنسية و حضرة الباي يتحتم تقيدها و استمرارها.

ثانيا: ليسهل لدولة الجمهورية إتمام الطرق للتوصل إلى المقصود الذي يعنى الجهتين العظيمتين فحضره الباي ترضى بأن الحكم العسكرى الفرنساوى يضع العساكر فى المواضع التى يراها لازمة لتتقرر و ترجع الراحة و الأمان فى الحدود و الشطوط، و خروج العساكر يكون عند ما يتوافق الحكم العسكرى الفرنساوى و التونسى على أن الدولة التونسية تقدر على تقرر الراحة.

ثالثا: دولة الجمهورية تتعهد لحضره الباي بأن يستند عليها دائما و هى تدافع عن جميع ما يتخوف منه لضرر ما إما فى نفسه أو فى عائلته أو فيما يحير دولته.

رابعا: دولة الجمهورية الفرنسية تضمن فى إجراء المعاهدات الموجودة الآن بين دولة تونس و الدول المختلفة الأوروبية.

خامسا: دولة الجمهورية الفرنسية تحضر نحو حضره الباي وزيرا مقيما لينظر فى إجراء هاته المعاهدة و هو يكون واسطة فيما يتعلق بالدولة الفرنسية و ذوى الأمر و النهى التونسيين، و فى كل الأمور المشتركة بين المملكتين.

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ١٢٥

سادسا: أن النواب السياسيين و القناصل الفرنسيين فى الممالك الخارجية يتوكلون ليحموا أشغال تونس و أشغال رعيتهما، و فى مقابلة هذا فحضره الباي تتعهد بأن لا تعقد معاهدة عمومية من غير أن تعلم بها دولة الجمهورية و من غير أن يجعل على موافقتها من قبل.

سابعا: دولة الجمهورية الفرنسية و دولة حضره الباي أبقوا لأنفسهم الحق فى أن يؤسسوا ترتيبا فى المالية التونسية ليتمكن لهما دفع ما يلزم الدين التونسى العام، و هذا الترتيب يضمن فى حقوق أصحاب الدين التونسى.

ثامنا: إن غرامة الحرب يغصب عليها القبائل العصاة بالحدود و الشطوط، و تفعل دولة الجمهورية مع حضره الباي فيما بعد شروطا على كميتها و كيفية دفعها، و دولة حضره الباي تضمن فى ذلك.

تاسعا: للمدافعة على منع إدخال السلاح و الآلات الحربية للمملكة الجزائرية الفرنسية، فدولة باي تونس تتعهد بأن تمنع دخول الأشياء المشار إليها من جزيرة جربة و مرسى قابس و سائر المرسى الجنوبية فى المملكة.

عاشرا: إن هاته المعاهدة توضع لدى رضاء دولة الجمهورية الفرنسية و ترجع فى أقرب مدة ممكنة لحضره الباي السامية. حرر فى ١٢ مايس سنة ١٨٨١ بالقصر السعيد، الإمضاء: محمد الصادق باي و الجنرال بريار.

و الذى يؤكد صدق التواطؤ من قبل أن الوالى طلب ظاهرا من نواب فرنسا و هما أمير العساكر و القنصل أن يمهلها مدة للتأمل من حالة الشروط، فأجاب القنصل: بأنه لا-داعى إلى ذلك حيث أن الشروط عند وزيرك منذ مدة و تأملتها أنت و هو و لم يبق إلا الإمضاء، و يؤيده أيضا أن رئيس المجلس البلدى السيد محمد العربى زروق أحد أعضاء مجلس الشورى أصر على عدم الموافقة على إمضاء الشروط، و ألح على الوالى بذلك عند جمعه للمجلس و أمير عسكر فرنسا منتظر لانبرامها، و نصحه بأن ما يخشى منه بعدم الإمضاء سيقع لا محالة بعيد الإمضاء فالتمسك بالبراءة الأصلية أسلم و أشرف، و عورض بأنه قد علم أن الوالى إذا لم يصحح يولى الفرنسيين عوضه أخاه الثالث محمد الطيب باي، لأنهم أكدوا أن له اتفاقا مع الفرنسيين فأجاب بأن جميع الأهالى لا تطيع الوجه المذكور و على فرض قهرهم يكون الوالى على شرفه و ربما اضطرت الدول إلى التداخل بوجه يحسن الحال، فلم يلتفت لكلامه و عزل أثر ذلك من جميع وظائفه و جعلت عليه مراقبة فى داره و حجر عليه مخالطة الناس و تحقق مزيد الإضرار به، إلى أن احتفى بقنسلاتو انكلتره و سافر عن وطنه و أقام بالاستانة.

و يشهد صراحة للتواطؤ ما صرح به البارون «بيلنك» الفرنساوى فى تشرين لود سنة ١٨٨١ بما وقع فى هاته المسألة و أنه كانت أرسلته دولته حيث كان أحد مأمورى الوزارة

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ١٢٦

الخارجية لاستقراء أمر تونس، و ذلك فى كانون ثانى سنة ١٨٨١ و أن الوالى أجاب إذ ذاك فرنسا بأنه يقبل الشروط إذا كان الواسطة

فيها هو فرديناند لسبس، لأنه كان يؤمل بواسطة المذكور الحصول على شروط أوفق له، و أن الشروط إذ ذاك كانت غير التي قررت الآن، و مع ذلك كله لم تعلم الدولة العلية بشيء و به يعلم صدق الكلام في إضمار الوزير التونسي الشر للبلاد ولى بالخصوص، حيث دافعت عن الحق و نصحته بما يقتضيه الدين و الأمانة، ثم كانت فاتحة أعمال نائب فرنسا عند إمضاء المعاهدة أن طلب من الوالى نفى على ابن الزى حالا لكى لا يبيح بما وقع من الأسرار التى اطلع عليها، فنفى إلى حصن قابس ثم توجه الوزير ابن إسماعيل إلى باريس فى سفينة فرنساوية حربية شاكرًا لأنعام فرنسا بتلك المعاهدة، و معلنا لها بأنه يصدق فى خدمتها أزيد مما كان يبذله سابقا كذا فى عبارته الرسمية عند ملاقاته رئيس الجمهورية المنشورة فى الصحيفة الرسمية، فقلدته فرنسا بأكبر نيشان لها مع الشريط الكبير و رجع إلى تونس و لم يلبث بضع أشهر حتى ورد الأمر على الوالى من وزير فرنسا بعزل وزيره ابن إسماعيل، لأن نائب فرنسا بتونس توجه إلى باريس و تفاوض مع دولته فيما يسلكونه فى تونس، حيث أن الأعراب و الجهات الجنوبية أعلنوا بأن الوالى لما بغى على الدولة العثمانية بدخوله تحت حماية فرنسا فهم لا يطيعونه لأنهم بايعوا أمير المؤمنين سلطان الدولة العثمانية قديما و حديثا فلا يحل لهم الخروج عليه، و هرب على الوالى جميع عساكره فاضطرت فرنسا لتعبئة الجيوش لتطويع الأعراب، و كان من جملة التدبير عزل ذلك الوزير الذى توقعوا منه أن يفعل معهم مثل ما فعل مع البلد التى وصل فيها إلى تلك الدرجة، و تحقق الوزير ما ضرب من المثل بوزارة العلقى و إن كان هذا أى ابن إسماعيل قد احتاز بجميع خزائن أمراء تونس حتى كان آخر ما بقى للوالى من مفاخر الجواهر عقد لؤلؤ منظم سبحة بها مائة حبة مع حلية زمرد محاط بها الياقوت الأبيض فأعطاها إليه عند سفره لباريس بعد العزل المذكور، و رام بسفره إرضاء فرنسا عليه و إرجاعه إلى الوزارة و بقيت البلاد إلى الآن فى حيرة و اضطراب و دخلت العساكر فرنساوية إلى قصبه الحاضرة و إلى منازل العساكر فى المدينة و أمام قنسلاتو فرنسا و سكن رئيس العساكر فرنساوية بدار المملكة فى بطحاء القصبه و صارت الحكومة لا تتصرف فى شىء إلا بأمر الوزير فرنساوى سواء كان فى الداخلية أو فى الخارجية، و تفاقم الضرر بولايات غير الأهل فى الوظائف بوسائل غير مرضية، و عظم الكرب على القبائل و البلدان بما حصل فيهم من العساكر الذين أقاموا بالقيروان و سوسة و هدموا صفاقس و خرجوا من قابس بعد دخولها و عادوا إليها و نسال الله أن يتداركنا بألطافه و يحسن العاقبة، و مما ينبغى التنبه إليه هنا أن الأحوال السياسية التى أشرنا إليها مع الدول، سيما مقاصد ألمانيا لا يمكن أن تخفى على أمه عاقلة مثل فرنساويين، فكيف مع ذلك قدموا على تبوء تونس مع كون الفائدة التى تحصل لهم منها لا توازى ما ذكر، سيما إذا كانت المعاهدة مع تونس التى ذكرناها تجرى حقيقة على ظاهرها.

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ١٢٧

فالجواب: إن كثيرا من عقلاء الفرنسيين قد نددوا على دولتهم و لا زالوا فى الإعتراض عليها لكنها بعد الوقوع فى الأمر المتسبب عن تهور ممن بيدهم مقاليد السياسة حتى اتهمهم مضادوهم من نفس الفرنسيين بأن لهم فى ذلك أرباح ذاتية من التجارة فى الرقاع الدولية، و موهوا على العامة بالانتصار لحفظ ناموس فرنسا فبعد ذلك صعب على الدولة إهمال سعيها مع ما خسرت من الأموال المتجاوزة مائة مليون، و من الرجال الذين ماتوا بالحرب مع الأعراب و بالأمراض المتجاوزين خمسة و ثلاثين ألفا فرأت فرنسا التحفظ على ما وقع مع السعى فى حسن السلوك الذى يخفف أو يدفع عنها الغوائل المنتظرة، ثم وراء ذلك أمر مهم جدا لفرنسا و هو طمعها فى إحداث مملكة عظيمة فى أفريقية مثل ما للإنكليز فى الهند، فتريد أن تمتد من الجزائر إلى ما جاورها شيئا فشيئا إلى أن تصل إلى دواخل أفريقية و السودان و تصل بين شاطئ أفريقية الغربية فى سانيفال و الشرقى فى الجزائر و تونس، حتى رسمت جمعية فرنساوية رسما لخط الحديد فى ذلك و لو يتم هذا يكون لفرنسا شأن عظيم، غير أن القياس على الهند الإنكليزية هو قياس مع الفارق لا من جهة سياسة فرنساويين فى مستعمراتهم من حيث قلبها إلى عوائد الفرنسيين و إنطاطها الإدارة فى الكليات و الجزئيات بباريس و لا من حيث أخلاق الأمم المستوطنين بأفريقية و المستوطنين بالهند، و إن شئت الوقوف على برهان ذلك فانظر ما حررناه فى أحوال الجزائر و فى أحوال الهند و سياسة كل من الدولتين يتبين لك حقيقة الحال.

و بما ذكرناه هنا يندفع الإعتراض على ما ذكرناه في سياسة تونس الخارجية من كون فرنسا لا تريد الإستيلاء عليها مع كون أعمالها ناقضت ذلك، و شرح الدافع يؤل إلى أن الحامل لدولة فرنسا على مخالفة ما سبق من مقاصدها في تونس شيان أحدهما: سياسى ظاهرى، و الآخر: خصوصى باطنى، فالباطنى: هو المشار إليه بما وقع من التهمة في نفع الأفراد الذى يأتى له مزيد شرح في مبحث الأحكام، و الظاهرى: هو أن الدول قد تغيرت أفكارهم بالنسبة لمحافظة الدولة العثمانية منذ عقد معاهدة برلين، فدلّت أعمالهم على أن من ناسبه شيء منها و كانت له قدرة على حوزة بادر إليه و غض عنه النظر بقيتهم إذا كان المحوز أكثر مناسبة بالحائز، و قد علمت مقاصد فرنسا في تونس و رأت أن إيطاليا لها من المقاصد و المناسبات ما يزاحمها، ثم رأت سيرة ابن إسماعيل و أنه غير أمين فلا يبعد أن يفعل مع إيطاليا أو غيرها من الدول ما فعل معها لخوف أو طمع مع تيسر إجراء الأمور بواسطته، فانتهزت الفرصة خوفا على درجة نفوذها فبادرت قبل أن تبادر و من المعلوم أن السياسة تدور مع الأحوال الحاضرة و لله عاقبة الأمور.

الفصل السادس: في عوائد أهالى فرنسا و صفاتهم

إشارة

إعلم أن الأهالى أصلهم القديم مجهول، غير أنهم لما هجمت القبائل الشمالية الشرقية من آسيا على أوروبا تسلطت منهم قبيلة الإفرنج على فرنسا بعد أن أناخت في

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ١٢٨

البلجيك، و لا زالت تتقوى إلى أن ملكت جميع فرنسا. و اتحدت القبائل الأخر معها بالنسل و الإسم كما تقدمت الإشارة إليه في مبحث التاريخ، و كان لهم إذ ذاك شهرة بالشجاعة و التقدم بالحريه حتى كانوا أول من كثرت خلطتهم من الأوروبين بالعرب و أهل المشرق، و لذلك ترى أن إسم الإفرنج يطلق على جميع أهل أوروبا عند جميع المشرقين و العرب، و ذلك بإبدال السين جيما لأن أصل الإسم إفرنك فقلبت الكاف سينا عند نفس الأمة، ثم حرف في الترجمة في لسان المشرق و صار إفرنج و ذلك الإشتهار كاف فيما كان لتلك الأمة من التقدم و حب الأسفار و التجارة و لا زالوا على ذلك إلى الآن، لكنهم يؤثرون الإقامة في وطنهم عن الإقامة الدائمة بغيره و لهذا تراهم أقل أهالى أوروبا استيطاناً في سائر الممالك، إذ أمريكا التى هى ذات ثروة و أمن و قليلة السكان بالنسبة لاتساع الأرض يهاجر إليها سنويا من الإنكليز و الألمان و الطليان و غيرهم خلق كثير يتجاوز مئات الألوف، و أقل القليل من المهاجرين هم الفرنساويون بل أن ذلك حاصل و لو في مستعمراتهم في الأقاليم إذ الجزائر الآن تحت سلطتهم نيفا و خمسين سنة و مع ذلك لا يوجد منهم فيها إلا- نحو مائتى ألف أو ينقصون، و إنما بلغوا ذلك العدد بعد استيلاء ألمانيا على الإلجاس و اللورين فرغبت دولة فرنسا أهالى ذينك الإقليمين للإتحاد بها بأن تعطيم جميع حاجتهم مع الأراضى الخصبة الوسيعة في الجزائر، و حيث كان في ذينك الإقليمين كثير ممن لا يريد الإنفصال عن فرنسا إلى ألمانيا هاجروا إلى الجزائر و مكنتهم الدولة بأرزاق العرب الذين استأصلت أموالهم بدعوى الخروج عنها و العصيان عليها، و مع هذا الترغيب فإنما كان عددهم ما أشير إليه لولوع القوم بوطنهم فى السكنى و إن كانوا منتشرين فى سائر الأقطار للتجارة و السياحة، كما أنهم لهم ولوع زائد بالتفاخر بمدينة باريس التى يحق لها الفخر و يسر كل فرنساوى مدحها و إن لم يكن من أهلها، و هذا الطبع و هو حب التفاخر و إن كان طبيعياً فى البشر لكن بعض الأمم فيه أزيد من بعض كما هو فى الأفراد، فالفرنساويون ذوو فخر و نشاط إلى الأعمال و سرعة إلى تبدل الأراء و الأفعال حتى أورت ذلك فيهم كثرة الإنقسامات فى الأحزاب السياسية، و قد ذكرت صحيفة «الديبا» مرة عدد أحزابهم فى السياسة فإذا هى أربعة عشر حزبا، أحد أطرافها حزب الإشتراكيين أى الذين يريدون أن يكون الناس كسائر الحيوانات السائمة مشتركين فى جميع ما بأيديهم و لو النساء و لا يستأثر أحد عن أحد بشيء، و الطرف الثانى الإستبعاد التام لشخص ملك يتصرف فيهم تصرفه فى الأثاث و المتاع و ما بين ذلك

درجات أقواها الآن حزب الجمهورية المضبوطة على نحو ما تقدم في السياسة الداخلية، و يليه حزب الملكية القانونية و إن كان في ذاته له عدة أقسام من أتباع عائلة بونابارتي و أتباع عائلة أورليان أو البربون إلى غير ذلك، و لا تغتر أيها المطالع بكثرة أولئك الأحزاب في ضعفهم مع من ناوهم من الخارج فإنهم إذا رامهم أجنبي يكونون عليه يدا واحدة فإذا انفصلوا منه عادوا إلى الشقاق بينهم، و لولا هذا الشقاق لزدادوا قوة و نفوذا إذ طباعهم مهذبة و معارفهم متزايدة و تجارتهم و فلاحتهم متقدمة للغاية حتى أقر لهم بذلك أضدادهم، و هم

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ١٢٩

لينو الجانب بشوشون في الملاقاة غير أنهم يتجبر قسم منهم على من تسلطه الفرنسيون عليه و فيهم كثير من المؤتمنين الناصحين العقلاء مثل من رأيناهم قدموا إلى بلادنا متوظفين و أحسنوا السيرة و الإنصاف و النصح إلى وطننا، و من الإنصاف الوفاء لهم بالذكر الجميل فمن هؤلاء صاحب رتبة الوزارة «فيليت»، الذي قدم إلى تونس بصفة محتسب عام مالي عندما أنشئ الكومسيون المالي فأبدى من نصح الوطن و الوقوف على حقوقه و دفع الغوائل عنه ما لم يصله كثير من أعيان أبناء الوطن مع العفة و الصدق وسعة المعرفة، و على قدمه من أتى بعده بتلك الوظيفة و هو «بلان» و مثله كابي الذين شهد لهم كل أبناء الوطن بالإستقامة و الإنصاف بحيث يصح أن يقال: إن دولة فرنسا إنما تختار لوظيفته الإحتساب المالي من هو جدير بها و لا مطعن فيه، إذ كل من الثلاثة هو من متوظفي دولة فرنسا في الإحتساب العام المالي، و على نحو من هؤلاء صاحب رتبة الوزارة «فالات» الذي قدم إلى تونس بوظيفته نائب سياسي سنة ١٢٩٠ هـ فأبدى من أوجه الإنصاف و مساعدة الحكومة و الأهالي على حقوقهم ما لهجت به ألسن الثناء عليه من جميع أبناء الوطن، و قلما يرد مثل هؤلاء لمثل وطننا لتحاميمهم عن المقاصد السيئة و اتباعهم للإنصاف فدولتهم تقتصر بهم على وظائف داخليتها، و من مشاهير رجال سياستهم في عصرنا ممن اجتمعت به و له صيت بين الأمة الفرنسية «كنيستا» رئيس مجلس النواب، و ممن أدركناه أيضا زيادة على نابليون الثالث الرجل الشهير بالسياسة و المعارف «تيرس» و قلما تحدث أفراد مثله و إن كانت المعارف و التقدم حاصله إلى العموم، و مع ذلك فلا يزال في فرنسا خلق كثير على السذاجة و الجهل و دونك حكاية ظريفة تقيس عليها ما يقرب منها.

ففي سنة ١٢٩٧ هـ ١٨٨٠ م كان أحد أصحاب العمل باليد مشتغلا جهة باريس و كان له ابن مشتغل جهة برودو فلم يوفر الابن من كسبه ما يشتري به حذاء، فأرسل إلى أبيه يشتكى له القل و يطلب منه شراء حذاء له، فاشتراه له و حمله في الطريق و هو مفكر في كيفية إيصاله إليه، فبينما هو ماش إذ مر محاذيا للسلك الكهربائي فقال هذا أيسر طريق إنى أحمله الحذاء و هو يوصله لابني، فجاء إلى عود السلك و علق فيه الحذاء و أسر إلى العود بقوله أوصل هذا لابني فلان في المكان الفلاني، و ذهب مسرورا باطلاعه على مسلك سهل بلا مصروف، ثم مر من غد متفقدا ما فعل السلك بالحذاء فوجد في ذلك المكان حذاء عتيقأ أفناه اللبس، وفرح و قال إن ابني لعاقل حيث أرسل لي الحذاء القديم لأستعين به على ثمن الجديد، فانظر لهااته البلاهة التي لو صدرت من أحد المشركين لشنعوا بجميع الجنس بأنه وحشى بعيد عن المعارف و تهذيب الأخلاق، و اعلم أن مثل ذلك الرجل كثير سيما في القرى الصغيرة و الجبال، بل و في أهل المدن كثير ممن يعتقد بالخرافات الباطلة و يعتقد التأثير لأحجار و جمادات و يتشاءم بالأوقات فقد رأيت في كثير من بلدانهم و بلدان الطليان و كذلك الإنكليز طاقات في حيطان فيها منارات توقد ليلا بالزيت أو بالشمع العسلي تقربا إلى بعض أوليائهم أو الجن معتقدين حلول المتقرب إليه بتلك الطاقة، و لا ينورونها

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ١٣٠

بغير ما ذكر من الأنواع لأن القسوس يقولون لهم إن شمع الشحم أو الغاز من البدع التي لا يتقرب بها، و كذلك يطلبون البخت و قضاء الحاجات من جمادات أو أماكن اعتقاد حلول أرواح فيها و قد ذكر من هذا النوع في كشف المخبا عن فنون أوروبا ما يتعجب منه المسامع، مما ترى الأروباويين و من تشكل بشكلهم و تباهى بتقليدهم يحملون عبئه على البلاد الإسلامية وحدها و يجعلونها

سخرية و ينزهون أوروبا عن مثلها، مع أنها حاوية لشبهها و لأشد منها بل ربما أسند ذلك الجاهل أو المتجاهل إلى ديانتنا الشريفة و حاشا لله أن تؤدي أو ترشد لمثل ذلك، بل أنها هي المهدبة و المنقذة من غياهب الجهل إلى نور المعارف الحائثة على العلم و فتح البصائر، و قد أفردنا لهذا تأليفا خاصا، و اعلم أنا لا نقصد من ذكر ما مر نسبة الجهل بالمعارف الدنياوية إلى عموم الفرنسيين أو ترجيح كفتنا على كفتهم كلا، بل الحق أن الناس على ثلاثه طبقات فأهل الرفعة و أشرف القوم من ذوى البيوت العالیه بالتوارث فى الوظائف أو كثرة المال و الترف تجد أغلبهم مقتصرين على معرفة مبادئ العلوم و محيين إلى إنفاذ الأغراض، و زيادة علو الصيت، و الرعاع من أهالى الجبال و القرى و البوادي أغلبهم أيضا جهلاء و لا فكر لهم إلا فيما ينفع كل فرد فى خويصه نفسه، و الطبقة الوسطى هى مجال التمدن و المعارف و الصنائع و التقدم و هم أيضا أصحاب الترجيح السياسى فى فرنسا، و هاته الطبقة هى المتقدمة بالنسبة لمشابهتها فىنا فهى فىهم أرجح ميزانا و أهلها كثيرون بالنسبة لأهلها عندنا، و بالنسبة إلى نفس أهاليهم أيضا فترى عدد أهل المعارف يزداد و يترقى يوميا، و أهل هاته الطبقة عندنا مشاكسون فى الصفات لأهل الطبقتين الآخرتين كما أن أهل الطبقة العليا عندهم أوسع تبصرا و معرفة منها عندنا.

و أما بقيه عوائد الأهالى فهى على نحو من عوائد الطليانيين فى السلام و الحياء و السماع و الرماية و الفروسية و غير ذلك، و قد كانت فىهم تربية حسنة من التواضع بينهم و لين القول، لكن منذ رسخت الحكومة الجمهوريه تظاهر فىهم التهور شيئا فشيئا حتى أنى أدركت ذلك ما بين سنة ١٢٩٢ هـ و سنة ١٢٩٥ هـ، فقد رأيت من أخلاق الطبقة السفلى من الناس كالكرارسية و الحمالين و السائلين ما لم نعرفه منهم فى السنة السابقة، و فلت السائلين مع أنهم يمنعون السؤال للفقراء لوجود أماكن المرحمة للعاجزين، و من يباح له السؤال تجعل له علامة تؤذن بإباحته و لا يكون إلا ناقص عضو أو حاسه، و غيرهم يتحولون على السؤال بعزف آله طرب أو إهداء باقه زهر أو نحو ذلك من غير إلحاف فى السؤال، حتى إذا رأت الضابطيه واحدا ملحا منعتة أو سجتته، و فى السنة الثانية رأيت تغاضى الضابطيه عن ذلك و عن سوء معامله الكرارسيه للركاب حتى يكون بعضهم سكرانا و يتكلم الكلام الفاحش و لا يتعرض له أحد، كما رأيت فى هاته السنة عدده مواطن للتشاكيم و التلاكم و بعضها وقع فيه الضرب بالحديد و مات فيه المضروب، و فى بعض الأوقات يركض الكرارسي ركضا زائدا يمكن أن ينشأ منه الضرر بالمارة و كل هاته الأشياء

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ١٣١

ممنوع و لم نر منه شيئا فى المرة الأولى، لكن الدعوى بمزيد الحرية التى تتبع الجمهوريه أورت ذلك الإهمال المفضى إلى التهور و الخروج عن الإعتدال، كيف لا و أحد أحزاب الجمهوريه يطلب المصير لما عليه الحيوانات العجم من الإشتراك، و قد ذكر لى أنه كان وقع مثل ذلك الحزب فى إحدى مدن أوروبا العظيمة و ثار على الحكومة و اقتحم منازل الناس، و كان فى تلك البلاد أحد الأغنياء المشهور بالثروة حاذقا فطنا فأخذ عدده أكياس بالسكة الفضة و جلس عند باب داره و كلما مر عليه إنسان أعطاه فرنكا، فجاءه جمع من الثائرين فقال لهم: إنى منكم و قد حسبت مالى فإذا هو كذا كذا مليونا، و أهل المملكة مساوون إلى هذا العدد فيصح لكل واحد فرنكا، فكل من أتى أعطيته حصته و لا يسوغ أن أعطى لأحد مناب غيره، فلم يسعهم إلا الرضا و تخلص من نهب أمواله و تشتيتها و من قتله ببعض آلاف فرنك دفعها لأولئك الثائرين إلى أن قهرتهم الحكومة و اضمحل أمرهم، و من تفاخر الأهالى إتقان الأغنياء للكراريس و بعضهم يجر كروسته أربعة أو ثمانية من الخيل بسائق واحد و بعضهم يكون هو السائق بنفسه، و تجد بعض هاته الكراريس تتركب إثني عشر راكبا فأربعة داخلها مثل المعتاد و أربعة على سطحها على كراسى لازمه كل إثني عشر كراسى مثل الأسفل غير أن ظهورهم لبعضهم، و إثنان على كراسى السائق و إثنان على كراسى الخدمة من وراء، و فى قعر الكروسة محل لرفع ما خف من المأكول و اللوازم، فيركب صاحب الكروسة مع خواص عائلته و أحبابه و ما يلزمهم لتنتزه يوم و يذهبون لأحد المنتزهات خارج البلاد، و من عاداتهم أيضا أنهم يتأنقون فى ظرافه اللبس و الأثاث و البناء و تنظيمه و ترتيبه و ينشئون المنتزهات و أماكن الإرتياح ليشارك فى فائدتها الحقيقير و العظيم، و إن كان لكل جهة كالفهاوى فما كان منها للعظماء زاد فى سعر ما يعطيه و أتقن آلاته

حتى لا يزاحم الفقير الغنى لكثرة المصرف من غير تحجير حكى، بحيث يصح أن يقال أن الملاذ و التزهة عند الفرنسيين ينال منها الحقير حظه و هى مشهورة يعرفها الوافد بأدنى سهولة مع كثرتها أو تهيئها إلى قبول كل أحد.

مطلب فى التجارة

إشارة

إعلم أن تجارة فرنسا لها الرتبة الأولى فى سائر أقسام المسكونة و لهم براعة تامة فى إدارة الأشغال، و لكن الأصول فى ذلك هى ما قرناه فى إيطاليا غير أنها هى فى فرنسا أقوى و أروج و تسبب عنها كثرة الثروة و الغنى المفرط، حتى صارت شركات تجارتهم لا يخلو عنها إقليم من العالم و بواخر بريدهم تخترق سائر البحور و دونك أنموذجا على ما لفرنسا من الغنى، فإن دولتها عدلت المسكوكات الراجعة فيها سنة ١٢٩٨ هـ ١٨٨١ م فكانت كما ترى:

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ١٣٢

فرنكات

- ١٩٠، ٩٤٧، ٢١٠ صرف قطع فضة بخمسة فرنكات.
- ٢٩٠، ٥٥١، ٩٦٥ صرف قطع ذهب الواحد عشرة فرنكات.
- ٣٦٠، ٨٠، ٩٦٤، ٦ صرف قطع ذهب الواحد عشرين فرنكا.
- ٣٦٠، ٢٠٤، ٤٢٢، ٠ صرف قطع ذهب الواحد بأربعين فرنكا.
- ٧٠٠، ٥٦٨، ٠٤٦، ٠ صرف قطع ذهب بخمسين فرنكا.
- ٤٠٠، ٣٤٦، ٠٤٤، ٠ صرف قطع ذهب بمائة فرنك.
- ١٩٠، ٤٧٧، ٣٦٧، ٥ صرف قطع فضة من نصف فرنك و فرنك إلى الأربعة فرنكات و قطع نحاس لإتمام الكسور.
- ٤٩٠، ٨٩٣، ٨٠٣، ١٣

فذاك من عين السكة خاصة عدا آلاف الملايين من قطع الأوراق المعدودة عوضا عن السكة من بنك الدولة، و هاته الأوراق لها اعتبار أحسن من السكة لخفضة مؤنتها فتزيد فى الصرف نصفا فى الألف و تروج فى سائر الأقطار مرغوبا فيها لدى الصرافين و فى خصوص فرنسا و إيطاليا و سويسرا و البلجيك يرغب فيها حتى غير الصرافين، أما غير هاته من الممالك فإنها تعتبر عند الصرافين فقط و يؤيد اعتبار غناها ما ذكرناه فى غرامة حربها مع ألمانيا، و كذلك سنة ١٢٩٨ هـ ١٨٨١ م طلبت دولة فرنسا استقراض ألف مليون فرنكا فأحضر لها الصرافون و أرباب الأموال ما اكتفت به عما تطلبه بأخذها خمسة عشر فقط من كل مائة أحضرت لها، و أساس ذلك الغنى هو الأمن الذى سوغ للأهالى عقد الشركات بإظهار أموالهم و ترويجها، و الشركات هى الأساس الثانى مع حسن الإدارة فأورث ذلك ما أشرنا إليه من أنموذج الغنى و تبعه ثروة الدولة التى هى بيت مال الأهالى بعد أن كانت منذ مدة ليست بطويلة فى غاية العسر و الفقر من سوء إدارة حكومتها و الحروب الأهلية و الخارجية، فذكر لى أن منذ نحو سبعين سنة كان لرجل منهم من أوراق دين دولتهم ما قدره عشرون مليوناً فرنكا و احتاج أن يفطر و لو بيضا و خبزا فلم يجد من يعامله و لو بالعشرين مليوناً التى معه، مع أن دين الدولة الآن الذى يدفع فائدة خمسة فى المائة تساوى المائة منه مائة و عشرين نقدا، فانظر عجيب الفرق بين الحاليتين فى المدة القريبة.

و أحوال البريد هي في أول درجة من الانتظام في هاته المملكة برا و بحرا و مواصلة الطرق الحديدية و الصناعية مع عجالات حمل الأثقال المختلفة الأشكال مع المتانة و الحسن زادت التجارة رواجاً بحيث أن السلع و غيرها لا تحمل إلا على العجلات، و في المدن العظيمة لا تجرها إلا الخيل السليمة أو البغال بقله، و سفن البريد تصل إلى أقصى ممالك المشرق و المغرب و مما يحسن إيراده عنوانا عما عندهم من الغنى أن الحكومة المصرية مدة

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ١٣٣

ولاية خديويها إسماعيل باشا باعت سهاماً من خليج السويس لدولة انكلتيرة بمائتة مليون فرنكا فكثرت في ذلك القيل و القال من جهة السياسة خوفاً من استيلاء انكلتيرة على الخليج المذكور، و اهتزت لذلك فرنسا أزيد مما سواها فذكرت إحدى صحفهم يوماً أن «روشيلد» أحد الصرافين الكبار المشهور بالغنى قد أعطى لصهره إذ ذاك مائة مليون فرنكا و خمسة و عشرين مليوناً مهر ابنته، ثم ذكرت على وجه التحمس و الدعاية بأن البائع لو خطب هاته البنت لولد له و زوجها به لأخذ مائة مليون لحاجته و زاد ربها خمسة و عشرين مليوناً مع بقاء السهام على ملكه و إراحة العالم من التشويش و الاضطراب.

مطلب في الأحكام

الأحكام في فرنسا أصولها هي المذكورة في إيطاليا لأن القانون الأصلي في ذلك هو قانون نابليون الأول إمبراطور الفرنسيين، و إنما بينهم بعض خلافات مبنية على اختلاف العوائد و إدارة الأحكام منفردة عن الإدارة السياسية و لا سلطة لهاته عليها بالمره، و دونك مثلاً لذلك و هو: أن «رستان» الذي كان قنسلاً لفرنسا و سعى في الانقلابات التي حدثت في تونس، قد تكلم ضده و ضد تصرف دولة فرنسا كثير من رجالهم في المجامع العامة و كذلك تكلمت ضدهم جملة صحف خيرية فرنساوية و غيرها، و أشد الصحف مضادة إلى رستان و أعماله صحيفة «لانتراسيجان» التي يطبع منها يومياً ٥٣١، ١٥٠ نسخة، و صاحبها هو الرجل الشهير «رشفور» الفرنسي، و قدح في عرض رستان في المال و السياسة و صار لكلامه رنة عظيمة، حيث جعل استيلاء فرنسا على تونس كان لفوائد خصوصية مالية لمن سعى في ذلك و لمن أعان، و كان رستان أشد تهمة فأراد رستان تبرئة نفسه بإقامة الدعوى على صاحب الصحيفة لدى مجلس الحكم و ترفعوا و أدلى كل منهما بما توصل إليه من الحجج، و كانت عدّة رجال من الدولة الفرنسية في الانتصار إلى رستان حتى الوزراء السابقون في الخارجية شهدوا له بأنه منفذ لأوامرهم و لم يتحقق عندهم ما يدعى به عليه، و مثلهم المنتصبون في الوزارة و حاولوا مستطاعهم في نصرته لكن الحق بدا و غلب و لم يمل مجلس الحكم لأهواء أحد، و حكم على رستان و ألزمه بأداء مصاريف التحاكم و بذلك صحت مقالات الصحيفة المشار إليها و خرج صاحبها صادقاً منصوراً، و قد ترجمت جميع جلسات مجلس الحكم المشار إليه و أفردت بالطبع حتى باللسان العربي، و بالإطلاع على ذلك الكتاب يتأيد جميع ما ذكرناه في الأحوال التونسية و أسباب انقلابها، و يتأيد ما ذكرناه في السياسة الخارجية لفرنسا و في السياسة الخارجية لتونس، و ما ذكرناه هنا من انفراد إدارة الأحكام عن إدارة السياسة سيما بعد

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ١٣٤

إرجاع رستان المذكور لوظيفته في تونس بعد تلك المحاكمة مما يشهد لما قلناه في مباحث السياسة، من أن سياستهم الخارجية ليست هي كإنصافهم فيما بينهم في داخلتهم و هو مما يحقق أن الرجال المنتخبين للأحكام إنما يكونون من أعف الموجودين و أنصفهم لا تميل بهم الأهواء عن الاستقامة، غير أن هذا هو الأغلب لا سيما في المدن العظيمة و في المجالس الانتهائية.

و أما غيرهم فالإرتشاء بينهم فاحش يكاد أن يكون مثل ما يصفونهم به حكام المشرق و طريقة الوصول إليه عندهم أيسر بما لهم من إباحة خلطة النساء، فالمعطى للرشا يجعل الوسائل للتوصل إلى إحدى النسوة ذات النفوذ لدى الحاكم و يرشيها فتبلغه قصده بنفوذها بسبب قرابة أو وداد أو غير ذلك لدى الحاكم، و ربما أوصلت إليه حصّة من الرشا و على تقدير الإكتفاء بما أخذته هي فهو أيضاً رشا

للحاكم حيث مال بالحكم للجهة التي انتفعت منها من يريد نفعها، و بهاته الوسيلة تكون خصلة الرشاء عندهم مستورة نوعا ما لأن ظهورها يوجب العقاب الشديد بالقوانين مع عدم وجود الشفاعة عندهم، و مع ذلك يوجد في هؤلاء أيضا كثير متعفين و قد حضرت يوما في مجلس الحكم لرؤية هيئة الأحكام و الحكام في باريس فإذا هو بيت كبير مستطيل له باب يدخل منه المتفرجون و باب للمتوظفين و باب للخصوم، و في صدره مسطبة عالية عليها ثلاث كراسي و أمامها مائدة مستطيلة عليها لكل كرسى دواء و أقلام و ورق، و عن يمين تلك الكراسي كرسى طويل يجلس عليه أزيد من عشرين شخصا، و عن شمالها باب و أمامها في نحو نصف البيت درابزين حائل بين المتفرجين و الخصوم، و للمتفرجين كراسي يجلسون عليها و بقرب الكراسي التي في الصدر كراسي سفلية أحدها: لرئيس الكتاب، و الثاني: لوكيل الحق العمومي الذي رتبته رتبة محتسب عام على الحقوق، و له اعتبار كاعتبار رئيس المجلس.

و بعد هنيهة من دخول المتفرجين خرج من الباب الذي على الشمال رئيس المجلس و معه عضوان كل منهم لابس جبة طويلة بأكمام واسعة حمراء و على أكتافه منديل مقصب بالذهب و على رأسه شعر أبيض عارية له ذنب معقود على قذلم، فوقف لهم الحاضرون و أومأ الرئيس بالسلام لهم ثم جلس الرئيس على الكرسى الوسط و العضوان عن يمينه و شماله و جلس كل من و كيل الحقوق و الكاتب على مرتبته، و لكل منهم أيضا زى خاص يشبه زى الرئيس و الأعضاء، ثم دخل و كلاء الخصام الذين لهم ذلك الوقت دعوى و لكل منهم مثل ذلك الزى، ثم دخل من باب خاص جمع من الناس باللباس المعتاد و جلسوا على ذلك الكرسى الطويل و هم الجورى، فتكلم الرئيس بالسؤال عن حضور شاهد فأحضر واقفا فحلف أمامهم ثم أدى شهادته و بعد سكوتة تسار الرئيس و الأعضاء ثم خاطبه الرئيس لاثما عن عدم حضوره فى اليوم المعين له و معلما له بما يجب عليه من العقاب عن ذلك، فاعتذر بالوحدة فأعلمه بلزوم الحكم فيه فوقف و كيله و قال إن الشاهد مسكنه فى المحل الفلانى و هو غريب و فقير عاجز عن إكراء من يستعين به، فوجه الرئيس القول للشاهد مشددا بلزوم

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ١٣٥

الحكم عن مخالفة القانون ثم سار العضو الذى عن يمينه ثم الذى عن شماله ثم أمر الشاهد بالانصراف و أنه إن عاد لمثلها أجرى عليه الحكم و انصرف، ثم قام الرئيس و الأعضاء و دخلوا من ذلك الباب الخاص و لحق بهم و كيل الحق العام و بعد نحو ربع ساعة خرجوا و أحضروا المحكوم عليه مع أحد أعوان الحاكم و قرأ الرئيس ورقة صغيرة بالحكم على الجانى ثم التفت إلى الجماعة الجالسين عن يمينه و هم الجورى و سألهما عما ظهر لهم؟

فوافقوه و انصرفوا جميعا و خرج المتفرجون، إذ لم يكن ذلك اليوم إلا تلك النازلة و قد أفهمنى و كيل الحق العام أن الحكم كان مهينا من قبل لتمام النصاب بدون ذلك الشاهد، غير أنه لما حضر تم شهادته و المحكوم عليه جانى بتزوير السكة، و كان جميع من حضر سكوتا بغاية التوقير للمجلس.

و ذلك الشعر الذى يضعونه عارية على رؤوسهم الأصل فيه أن الملك لويس الرابع عشر كان ردىء الشعر فاتخذ له عارية و كان إذ ذاك شيخا فاقتدت به أمائل البلاد و سرت منهم إلى غيرهم من الأمم و إن قل استعمالها الآن إلا فى المواكب الحافلة و القضاة، و من أهم ما يذكر فى أحوال الإدارة الحكيمية تنبيه الضابطة و هم الحارسون للبلدان و شدة تنقيهم و بحثهم و مراقبتهم حتى يتمكنوا بسهولة على الجناء، و مع هاتيك المراقبة و الإحتراس الشديد يقع الإحتيال البليغ من الجناء لكى يتوصلوا إلى غاياتهم و كثيرا ما يبلغون إليها، لكنهم أيضا كثيرا ما تكشف أمرهم الضابطة و تتمكن منهم، فقد ذكر أن أحد الصيارفة الكبار فى باريس كان جالسا يوما فى محله و إذا برئيس ضابطة باريس قد جاءه فأكرم مقدمه و رحب به، فأخبره الرئيس أنه محتاج لمبلغ وافر من المال لبعض المصالح غير أنه لا يريد إفشاء ذلك و لهذا أتاه بنفسه ليقرضه لمدة قصيرة إيهاما لضرورة المصلحة عاجلا مع رجوعها لمتعلقات وظيفته، فأقرضه ذلك المبلغ على نحو القواعد الجارية عندهم و كتب له خط يده فيه و انصرف، فمضى الأجل و لم يأت المال لصاحبه فبعد ثالث يوم ذهب الصيرفى بنفسه إلى رئيس الضابطة و دخل عليه و بعد السلام انتظره الرئيس فيما يقول لأنه من العادات

المتأكدة عندهم أن الزائر لا يؤخر الكلام في مقصد زيارته و لا يخوض في الفضول سيما لأصحاب الوظائف، لأن الزمان مقسم كما أنه لا يدخل عليهم إثنان معا ليس بينهما علقه في نازلة واحدة لكن الصيرفي اعتمد على علم الرئيس فيما هو مطلوب فيه و لم يذكر له شيئا، فلما مضت بعض دقائق سأله الرئيس ما هي حاجتك فتعجب الصيرفي و قال: إنها ذلك المال الذي أتيت إليه بنفسك و لذا لم أرسل لك غيري، فاستغرب الرئيس في سره و تطف في السؤال بقوله ذكرني النازلة لأنه علم أنه الصيرفي من كبار الأغنياء المعتمدين و لا يقول كلاما مثل ذلك افتراء و يعلم من نفسه أنه لم يذهب إليه، فعلم أنه لا بد للأمر من واقعه فبين له الصيرفي ما وقع منه إلى أن قال له:

و كتبت خط يدك، ففكر مليا و طلب منه التمهّل بعض أيام آخر من غير كشف للسر إلى أن يقع الخلاص، فخرج الصيرفي أيضا مفكرا فيما رأى من الرئيس و في نفس الجواب لأن ذلك مخالف لعادة الإقرضات.

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ١٣٦

ثم أن الرئيس أعمل فكره بأن النازلة لا- بد أنها وقع فيها احتيال على الرجل من إنسان مشابه للرئيس، ثم دعا ضابط مركز الضابطة الذي بقرب دار الصيرفي و سأله هل رأيتني منذ كذا يوما قدمت إلى ناحيتكم؟ فقال: نعم فقال: في أي وقت فبين له الوقت و هيئة الركوب بأنها على الوجه الرسمي من الأبهة و الملابس و العجلة، فزاد تحققا لارتكاب الحيلة ثم سأله و إلى أين ذهبت فأجابته بأنه ذهب لدار الصيرفي الفلاني و بقي عنده حصّة كذا ثم خرج من عنده متوجها إلى الجهة الفلانية، فدعا الرئيس ضابط الجهة التي عينها الضابط الأول و أخبره بمثل ذلك و أنه ذهب إلى جهة كذا فدعا ضابطها أيضا، و هكذا تتبع الحال إلى أن أخبره الأخير بأنك دخلت الدار الفلاني ثم رجعت العجلة خاوية و بقيت أنت هناك و لم تخرج باللباس الرسمي فدعا بدقتر من سكن تلك الدار لأن كل محل سكن فيه إنسان لا بد و أن يقيد إسمه عند صاحب الباب أو عند صاحب منزل المسافرين، و أحضر الناس الذي سكنوا في الوقت المعين في تلك الدار فوجد بينهم رجلا يشبه الرئيس في الذات و الوجه فدعاه منفردا، و قال له أين المال الذي أخذته باسمي و إن لم تظهره بطيب نفس أظهرته منك من غير إرادتك كما أظهرتك أنت؟ فلم يسعه إلا- الإقرار به و رجع الرئيس المال إلى صاحبه معلما له بأنه لم يستقرض منه و أنه احتيل عليه في ذلك، و لهم من أمثال هاته الاحتمالات في السرقات أمور كثيرة و ساعدهم على ذلك تيسر إحضار الوسائل مثل ما مر، في كون السارق تيسر له لبس مثل لبس رئيس الضابطة و وجد أيضا عجلة ذات أبهة و خدمة مثل عجلة الرئيس إلى غير ذلك، لأن تلك الأمور موجودة بسهولة كراء و شراء و لا منع من استعمالها إلا ما كان منها من مشاركات الحكومة المحلية أو غيرها، فإنه إذا كشف على المزور يعاقب و مع شدة الإحتراس و الضبط على نحو ما ذكرناه فإنك لا تكاد تجد رجلا بل و كثير من النساء يخرج بدون حمل سلاح صغير خفي كالحديد في وسط عصا الإتكاء و كالتبانجة ذات الطلقات المتعددة موضوعة في الجيب إلى غير ذلك، و هذا جار حتى في نفس باريس و قد كنت مارا ليلة في عجلة مع أحد الوجوه و مع زوجة ذاهبين لدعوة عند «فرديناند لسبس» فاتح خليج السويس فسألتنى المرأة: عن نوع السلاح الذي معي؟ فأجبته متعجبا: بأنى ليس معي سلاح و ما الحاجة إليه و أنا في وسط باريس، فقالت هي و زوجها:

لا- بد من حمل شيء فإن الوقائع في باريس تحير الأفكار و لذلك لا يخلو أسبوع بل و أقل منه بدون وجود مقتولين سيما في نهر السين فإنهم يجدون في الشباك الموضوع في أسفل النهر خارج باريس كثيرا من جثث المقتولين إما بقتل غيرهم أو بقتل أنفسهم، و ذلك لأن كثيرا من الأهالي من يقتل نفسه لتسخط من أمر دنوي. غير أن هذا التخوف في باريس لا- يقع في الطرق الشهيرة، «كالشانزي لزي» و «البلفار» لكثرة المارة بها، و من عوائد حكمهم إغضاء النظر عن الزنى بحيث أن المومسات يتبرجن جهرة بلا معارض، و لهن ديار تجمع أعدادا وافرة و ديار لأبناء الزنى الذين تلقيهم أمهاتهم، و أكثر التجاهر به في بارس و دونك شاهدا على تفاحشه، فقد حرر عدد النفوس سنة ١٢٩٧ هـ ١٨٨٠ م

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ١٣٧

فكان المتزايد في سائر فرنسا ٩٢٠١١٧ مولودا منهم أبناء زنا ٦٨٢٢٠ مولودا.

مطلب في المعارف

إعلم أن المعارف الدنيوية في فرنسا قد تناهت لأعلى درجة من الإتقان والاجتهاد و ما تقدم في أحوال باريس و ما فيها من المكاتب و الكتب و جمعيات الفنون و الحث عليها كاف في بيان ارتقاء تلك الفنون في فرنسا حتى أقر لها بذلك سائر الأمم في أوروبا و صاروا عيالا عليها في كثير من الفنون، و من ذلك فن الطب و مقدماته فإن المعالجة بالمعادن بمجرد اللمس التي ذكرنا طرفا منها في الباب الأول عند ذكر معالجة مرضى كان اطلع عليها أحد الأطباء الكيمياءيين من النمسا و لكنه لم تقبل منه حتى قدم إلى باريس و اطلع عليها الحكيم شاركو، و بعد تجربته لها و إعطائه الشهادة و الإجازة فيها اشتهر أمرها و تعاطتها الأطباء في سائر الأقطار. و من أسباب الترقى في المعارف عموما صناعة الطبع و قد تقدم فيها الفرنسيون إلى الذروة القصوى، و عندهم من الصحف الخيرية السياسية فقط مما يطبع في مدينة باريس وحدها يوميا ستة و خمسون صحيفة يخرج من مجموعها يوميا ١١٠، ٩٤٣، ١ نسخة، و هي منقسمة إلى أحزاب السياسة فمن صحيفة واحدة تسمى «لبتي جرنال» يطبع يوميا ٨٢٠، ٥٨٣ نسخة، و ما عداها أقل كل على قدر رواجه، و لا تكاد تجد سائق كروسه أو عجلة حمل بدون أن تكون عنده صحيفة يومية يقرأها، و قد أظن الإطناب الحسن في بيان تقسيم العلوم و ترتيب أقرانها و إفادتها العلامة رفاعه بك رحمه الله و نعمه فمن أراد الوقوف على التفصيل فعليه بمراجعة رحلة المذكور إلى أوروبا.

و الحاصل أن الفرنسيين محصلون على الدرجة العليا في المعارف الدنياوية و لهم اعتناء بسائر الفنون فيترجمون إلى لغتهم كل كتاب في فن غير معروف أو غريب، و يدرسون اللغات الأجنبية و اللغات القديمة التي لم يبق من يعرفها و توصلوا إلى معرفة خطوطها بوسائل جيدة، لكن مما ينبغى علمه أن مدرسهم في الفنون التي يقصرون فيها يستعوضون قصورهم بما لهم براعة فيه، فترى مدرس العربية مثلا يخرج بأدنى مناسبة لفظية إلى علم الجغرافية ثم إلى علم الإقتصاد السياسي ثم التاريخ ثم الهندسة ثم الكيمياء ثم إلى إن ينقضى الزمان من غير أن يفيد حقيقة المقصود من بلاغة بيت شعر أو مثل مما هو موضوع البحث، و تخرج تلامذته معجبين من براعة شيخهم و أنه علامة العربية مع أنه لا يعرف مزية تقديم المسند أو المسند إليه، بل معادات الضمائر لا يحسنها فضلا عن الإعراب و ذلك يوجب الجهل بأصل الفن و الغلط من العموم بظن تحصيلهم حقيقة اللغة العربية، و قل جدا من يحسنها مع أن فيهم المتفاهرين

بعلم الترجمة بل و المدعين بالتأليف فيها، ثم إن التعاليم

صفحة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ١٣٨

لها مكاتب على طبقات ابتدائية و وسطى و انتهائية و عليا.

فالتبقة الأولى: لا تكاد تجد قرية خالية عنها.

و الثانية و الثالثة: إنما توجد في المدن الكبيرة كمرسليا.

و أما الرابعة: فلا توجد إلا في باريس و إليها تأوى التلامذة بعد استكمال معارفهم، على أن المثريين يؤثرون التعليم من البداية في باريس بل و لا يختص هذا بأهل فرنسا، فإن الكثير من ممالك المشرق و بعض غيرها يرسلون أبناءهم للتعلم بها، و فضلا عن الفخر بالعلم يفتخر بالتعلم بها و هي جديرة بذلك لولا طيش في أخلاق غالب المتعلمين بها من الغرباء سيما المسلمين، فإنهم يحدث لهم فساد في أخلاقهم لخروجهم عن الطور و الأدب الداعي له العرض و الدين، و كان سبب ذلك رؤيتهم بها كثرة الخلاعة و الإطلاق و النفوس مائلة إلى الخبائث نسأل الله التوفيق، و من أسباب ترقى المعارف كثرة الكتب و سهولة التوصل إليها ففي فرنسا ٥٠٠ مكتبة تحتوى على ٥٩٨، ٠٠٠ كتابا من الكتب المطبوعة، و ١٣٥، ٠٠٠ من كتب النخط و مكتبة الأمة في باريس هي أكبر الجميع ففيها ٣، ٠٧٨، ٠٠٠ مجلدا.

مطلب في الصنائع

الصنائع في فرنسا مضاهية لما فيها من المعارف و الفلاحة فيها متقدمة للغاية علما و عملا بحيث أن لها مدارس عديدة تأوى إليها التلامذة من الآفاق لأخذ علومها بالتدريس و المشاهدة، و كل مدرسة تحوى من آلات العمل و آلات العلوم الآلية للفلاحة كالطبيعات جميع ما يحتاج إليه، و هكذا سائر الصنائع بحيث أن مصنوعات متقنة ظريفة للغاية يرغب فيها في سائر الأقطار لظرفها و تحسينها و رونقها و إن كانت بعض الأقطار أمتن صناعة، و فرنسا جامعته لكل الصنائع المعروفة في العالم حتى الخزف الصينى و المنسوجات الكشميرية يقلد عليها في فرنسا و يؤتى بالمصنوع مشابهها للأصل و قد برعوا في الآلات بأنواعها سيما الكهربائية، و قد خصوا لها معرضا سنة ١٢٩٨ هـ ١٨٨١ م لامتحان ما أثمرت من الفوائد و قد رأيت سنة ١٢٩٥ هـ ١٨٧٨ م آلات غريبة كهربائية منها آلة يمكن بها رؤية ما فى داخل المعدة، بأن توخذ قناة جيدة من اللصطيك و طرفها زجاج و تدخل فى الحلق إلى أن تصل للمعدة و يجعل فى أعلى الحلق مقابل المعدة مرآة صغيرة و مقابلها على اللسان مثلها، ثم يدخل فى القناة سلك معدنى لين إلى أن يصل إلى الزجاج الذى فى المعدة ثم يوصل بالسلك من خارج أسلاك الكهرباء المضيئة فيضىء السلك فى المعدة من غير إحراق، و يرسم خيال المعدة بما فيها فى المرآة العليا و يرسم مثله منها فى المرآة التى على اللسان، و ينظر الطبيب بالمرآة المكبرة ما يريد و بمثل ذلك ينظر فى الرحم و داخل الأذن و الحلق، و رأيتهم بصدد تجربة جر الأثقال بالكهربا و أرونى آلة صغيرة تغلب قوة الإنسان الجهد إذا كان قابضا يديه تفتحهما و العكس بأسرع وقت فلا يبعد أن تطال تلك الآلة على

صفوة الإختبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ١٣٩

طريق مناسب و ينقل بها الأشياء من مكان إلى آخر و إن بعد مع تدبير لحفظ الجسم من خرق الهواء فى السرعة المحرقة، و قد رأيت سنة ١٢٩٨ هـ ١٨٨١ م سير رتل صغير للتجربة بالكهربا على وجه آخر كما ذكرنا فى أحوال إيطاليا، و رأيت فى باريس أيضا مساسك مصورة بأشكال حيوانات تتحرك أعضاؤها و عيونها بالكهربا مع صغر جرمها حتى يوضع المساك من الذهب فى رأس المرآة و الآلة الكهربائية تخفى فى الشعر و يرى الحيوان متحركا، و منه صورة فراش بألوانه البديعة من أحجار الزمرد و الياقوت الأحمر و الأبيض و غير ذلك من الأحجار الكريمة المطابقة لألوان أجنحة الفراش و هو يخفق بأجنحته الأربع فوق الرأس بالكهربا و هو غريب بديع جدا.

مطلب فى هيئة المساكن و الطرقات

قد تقدم فى إيطاليا الهيئة العامة فى المساكن و هاتيك الهيئة بنفسها هى التى عليها العمل فى فرنسا، غير أن باريس وحدها تزيد رونقا بما احتوت عليه من كثرة الطرقات المتسعة جدا و بكثرة التنظيف و التنوير فى الليل، كما أنها تختص بأن بعض طرقها مستعوض عن تبليطه أو تحصييه بطليه بنوع صمغى يسمى اسفالت، بحيث يكون بعد الجفاف رخوا فإذا مرت عليه العجلات لا تسمع لها إلا همسا و تسمع قرع حوافر الخيل على الأرض كالتصفيق المغطوط من مزيد الهدو للركاب حتى كأن العجلة لا تتحرك، فتلك الطرق مروحة جدا غير أنها لم تعمم لأنها فى الصيف تفشو منها رائحة كريهة و لأنها فى الطرق الكثيرة المرور تعطب فيها العجلات المارة بسبب عدم سماع حركتها و إمكان الغفلة من العجلية هذا، و أما عموم البلاد و القرى فإن لكل منها مجلسا بلديا دأبه التحسين و التنوير فى الليل بالبخار الغازى أو زيت النفط و هو قليل الاستعمال أو بالكهربا و هى أيضا لم يزل التنوير بها قليلا، و لكنك لا تجد قرية غير منورة الطرق أو غير مصنوعتها على حسب اقتدار الأهالى فضلا عن المدن و الأمصار و كل طريق مسمى باسم مكتوب على مبدئه و على كل باب عدد خاص، ثم إن طرق الحديد يوجد منها كثير حتى صارت فرنسا مرتبطة جميع الأطراف و الأواسط ببعضها، و على حافتي الطريق أخشاب شاخصه مربوط بها أسلاك حديدية علامة على حرم الطريق لكى لا يجتازه الناس و لا حيواناتهم، و لا زالوا

مجتهدين في تكثير هاته الطرق الحديدية، ثم إن مساكن الجهات الشمالية أحكم استعدادا للبرد من الجهات الجنوبية و إن كان لهاته أيضا نصيب وافر منها بحيث لا تجد بيتا في الجميع بدون موقد إما للحطب أو للفحم المعدني أو البخار الغازي بل و بعضهم يطبخون بهذا البخار، و قد مر أن في باريس اخترعوا التدفئة للديار من مركز عام في البلد، ثم إن سائر الديار لا يبلط منها بالرخام أو غيره من الأحجار إلا الدرج و المجازات الخارجة، و أما بقية البيوت و المقاصير فإنها مبلطة بالخشب المتين و تحسينه و زخرفته تبع لحالة الدار، و كل الطواقي التي هي مثل الأبواب في الإرتفاع و الإنتهاء إلى الأرض لها أبواب من خشب منجور و لها

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ١٤٠

أبواب نحو ثلثها الأسفل خشب و ثلثها العلويين ذوى أطباق من الزجاج، و أكثر الطواقي لها مع ذلك أيضا أبواب من أضلاع الخشب المنجور مقصبة يتحرك تقصيبها و كل تلك الأبواب ذو دفتين يفتحان يمينا و شمالا.

و أما الحمامات: فهي عبارة عن ديار ذات مجازات طويلة بها عدة مقاصير صغيرة كل منها يحتوى على حوض من معدن أو حجر له منفذ من أسفل يخرج منه الماء الوسخ و له أنبوبان للماء الحار و البارد و تحتوى على كرسى و مسطبة و مرآة و مشط و أرضها مفروشة بزرايى، و الاغتسال إنما هو في الحوض و كل الأهالي يعتنى بتنظيم مفروشات بيته على قدر سعته و الأغنياء لهم ترف زائد في الأثاث و التحف، و في المدن الكبيرة يقيمون أسواقا في يوم خاص من كل أسبوع في الحارات المتطرفة و حوائته من خشب أو كتان تنصب في الطرق الوسيعة و ترفع في يومها يباع بها أنواع الأكل من لحم و بقول و فواكه و بعض تحف و ثياب يشتري منها أهل تلك الحارات كفايتهم للاسبوع.

مطلب في اللبس

اللبس في فرنسا و في إيطاليا سواء عند الرجال و النساء و كذلك اللبس الرسمي و العسكري إلا بعض شارات و ألوان في الملابس تختلف بينهم.

أما أصل الهيئة فواحدة و حيث كانت الرفاهية في فرنسا وبين أزيد فتجد نساءهم أكثر تبديلا في ألوان اللباس و شكله و رفعته على الجملة، كما أنهم أزيد أيضا في وضع دقيق أبيض و أدهان أخر على وجوههم قصدا للترين و إن كان ذلك يورث فسادا في البشرة، و أكثر ذلك العمل في نساء باريس و تراهن يتفاخرن بالنحول و اصفرار اللون لأنه كثيرا ما يحدث من كثرة السهر أو العشق و كلاهما ممدوح عندهم، لأن السهر ينشأ من اجتماع الأحبة و الاجتماع يستدعى المصاريف فهو علامة على الغنى بالوسائل، كما أن من علامة الكبرياء أن تكون خدمة البيوتات في المحافل يذرون على رؤوسهم غبارا أبيض، و الأصل فيه أن بعض المغنين كانوا يغنون في موسم «صان جرمان» بخارج باريس و بهم قرع فيضوا رؤوسهم ليضحكوا الناس، فتدرجت العادة شيئا فشيئا إلى أن فشت سنة ١٦١٤ ثم في سنة ١٧٩٥ جعلت عليه ضريبة للدولة و استمرت إلى الآن.

مطلب في الأكل

هيئة الأكل في فرنسا هي الموجودة في إيطاليا على السواء و كذلك المأكولات سواء غير أن طعام الفرنسيين أكثر أشكالا و ألد طعما لجعلهم الأبرزة في الطبخ أحسن من الطليان، و لذلك تجد لطعامهم رائحة لذيذة مثل رائحة طعام العرب.

و في المدن: توجد أنواع الخبز على مراتب شتى و لهم نوع يؤكل صباحا مع اللبن و الزبدة جيد جدا صنعة و صفاء و طبخا، و في خصوص باريس جميع أنواع الأطعمة

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ١٤١

المتداولة بين الأمم الشهيرة و إن كانت بأثمان غالية، فقد أخبرت فيها بوجود مطبخ خاص بأطعمته الترك و العرب و أوتيت منه بصحن كبير مملوا كسكسوا بلحم الدجاج، و صحن آخر بالبامية المعروفة في تونس بالقناوية، و ثمنهما مع أجره الحمل إثنان و أربعون فرنكا، و هما يكفيان لشبع ستة أنفس طبخهما لذيذ على نحو الأصل، كما أنك تجد فيها جميع الغلال من جميع الأقطار لأى وقت كان بل قد أتوا بعشوش نوع من الخطاف في الهند و الصين يصنع عشه بنبات بحرى و يطبخونه و يأكلونه، أعنى ذات العش بما احتوى عليه من زرق أفرخ الخطاف و يستلذونه و يمدحونه، و أغرب من ذلك أنهم يأكلون الضفادع و يستلذونها أيضا بحيث يصح أن يقال أنهم يأكلون كل ما يؤكل و لا يكون قتالا أو مضرا عاجلا غير أن الأكل العام هو الدقيق من القمح و لحم البقر، و للفقراء لحم الخيل أيضا و الضان أقل استعمالا من البقر و فى القرى و شبهها يأكلون الشعير و الذرة و البطاطس، و الفقراء أكثر استعمالا للخزير من الأغنياء و الأكل فى القرى و البلاد الصغيرة أسلم من المدن و الأمصار من الغش بالخلط للأشياء المضرة كالكهوه مثلا لا تكاد تجد قهوة فى باريس مطبوخة غير مخلوطة بالسريس، و هو نوع من البقول، ثم إن أهل المدن لا يصنعون الخبز فى بيوتهم و لا يدخرون الأقوات و كل شىء يشتري من السوق يوميا إلا قليلا من السكر و نحوه، و يشتري أسبوعيا أو شهريا، و اللحوم المشوية أو المقليه يجعلون فى نوع منها قطعا صغيرة من شحم الخنزير بحيث يشاهد عيانا كالمسامير فى اللحم، و بعض الطيور يشوونها و يجعلون عليها نحو رداء من الشحم المذكور كما يجعلونه أحيانا فى بعض أنواع المرق فى ألوان الطعام الذى يكون مع اللحم شىء من المرق، و كيفية الذكاة فى أوروبا عموما حسبما علمت أن البقر بعد أن يربط من قرونيه يميناً و شمالاً و من أرجله أيضا حتى لا يستطيع الحراك و هو واقف يضرب على جبهته بمطرقة عظيمة من الحديد ضربه أو إثنين حتى يغمى عليه فيذبح و يجمع دمه ليعمل منه نوع من الأكل فى المصارين و بعضهم يكتفى بالقتل بالضرب على الرأس لكنه نادر و قد أبطل فى إيطاليا منذ سنة ١٢٩٨ هـ و ألزم الحكم بالذبح بحيث لا يباع غير المذبوح.

و أما الغنم: و شبهها فتذبح ابتداء.

و أما الطيور: فالإوز و دجاج الهند و أشباهها مما هو طويل العنق فيذبح ذبحا.

و أما الدجاج: فيجذب عنقه إلى أن ينقطع النخاع فيموت و ينحصر الدم نحو الدماغ فيتجمد و يؤكل على حدة.

و أما الحمام: فالأكثر ذبحه و تارة يخنق و تارة يكسر ظهره مع قطع النخاع فيموت و إذا تقرر هذا فلنذكر حكم طعامهم شرعا فطعامهم إما أن يكون من الخنزير و مثله الحيوانات المحرمة عندنا كالسباع، و إما أن يكون من الحيوانات المذكاة أى التى هى حلال عندنا و إنما يتوقف أكلها على التذكية و إما أن يكون من غير ذلك من المأكولات كالنباتات و المعادن و السمك، و كل منها إما أن يتخذ لعاده كسائر المآكل المعتادة أو يتخذ لعبادة

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ١٤٢

كالمتخذ لخصوص أعياد أو متخذ لخصوص هدية لمسلم، فهذه تسع صور حاصلة من ضرب ثلاث فى ثلاث، و كل منها إما أن يكون محققا العين أو مشكوكا فيه فتصير ثمانى عشرة صورة، و ها أنا أذكرها إجمالا مع أحكامها ثم نورد أدلة الحكم .

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ١٤٣

١ الخنزير و شبهه محققا لعاده حرام ١/م ٢ هو لعاده محققا حرام ٢/م ٣ هو لهديه محققا حرام ٣/م ٤ مشكوك فيه لعاده مكروه ١ هـ
٥ مشكوك فيه لهديه مكروه ٢ هـ / ٦ مشكوك فيه لعاده مباح ١ ح / ٧ المأكولات غير المذكاة محققة للعاده مباحة ٢ ح / ٨ هى محققة لهديه مباحة ٣ ح

٩ هى محققة لعاده مكروهة ٣ هـ / ١٠ هى مشكوك فيها لعاده مباحة ٤ ح / ١١ هى مشكوك فيها لهديه مباحة ٥ ح / ١٢ هى مشكوك فيها لعاده مكروهة ٤ هـ

١٣ اللحوم المذكاة محققة للعاده مباحة ٦ ح / ١٤ هى محققة لعاده مكروهة ٥ هـ / ١٥ هى محققة لهديه مكروهة ٦ هـ / ١٦ هى مشكوكة

للعادة مباحة ٧ ح

م / ١٧ / ١ هي مشكوكة لعبادة مكروهة ١٨ / ٥٧ هي مشكوكة لهديئة مكروهة ١ / م / ١

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ١٤٤

فأما الدليل على تحريم المسائل الثلاثة الأول فهو واضح لحرمة تلك الأعيان بالنص و لا حاجة إلى بسطه لمعلوماته للجميع، و لما كانت أحكام الشرع كلها مناطة بحكمته فما أدركناه قلنا إنه معقول و ما لا قلنا إنه تعبدى مع العلم بأنه فيه مصلحة لنا لتنزه الباري تعالى عن الإحتياج و إنما قصور عقولنا أوجب عدم الإدراك، و مهما بحثنا و دققنا النظر إلا زدنا خبرة و بصارة بحكم الشرع، فمن ذلك القليل ما اكتشف بالنظارات المكبرة و التحليلات الكيماوية من أن في لحم الخنزير حيوانات مضرّة تورث أمراضا معضلة جدا، و تلك الحيوانات ممتزجة في لحمه لا تموت بالطبخ و لا بغيره فإذا أكل لحم الخنزير سرت تلك الحيوانات في دم آكله و أضرت، و أهالي أوروبا اكتشفوا ذلك و احتمى كثير منهم عن أكله (فحمد الله) على شرعنا القويم: أ لا- يَعلَمُ مَنْ خَلَقَ وَ هُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ [الملك: ١٤].

و أما دليل مسائل الكراهة الثمانية و هي: ٤ و ٥ و ٩ و ١٢ و ١٤ و ١٥ و ١٧ و ١٨ فأصل الحلية أما بأصل الإباحة في غير المذكى أو بإباحة طعامهم في المذكى على ما سيأتي، و إنما أتت الكراهة من حيث الإشعار بالتعظيم لشعائر الكفر في المتخذ للأعياد و كل ما أشعر بذلك مكروه.

أما إذا قصد التعظيم فينتقل الحكم إلى الكفر و العياد بالله، و المشكوك داخل في ذلك كما سنوضحه و الكراهة في المذكى المتخذ للهديئة جاءت من الخلاف في حليتها حيث قال بعض العلماء: «إن النص دال على حلية طعامهم و ما يتخذ للهديئة لمسلم ليس بطعام لأهل الكتاب فلا يشتمله النص». و هذا القول و إن لم يكن هو المعتمد عند غالب العلماء لكن مراعاته توجب كراهة التنزيه، على أن لقائل أن يقول: إن أكل رسول الله صلى الله عليه و سلم من الشاة المسمومة التي أهدتها له يهودية دليل على الإباحة و شمول النص للهديئة فتنتفى الكراهة و هو مقتضى إطلاق النصوص الفقهية عندنا كما يأتي.

و أما دليل الإباحة للمسائل السبعة و هي ٦ و ٧ و ٨ و ١٠ و ١١ و ١٣ و ١٦ فما كان منها من غير ما يذكى فهو مباح بأصل الإباحة العامة لأن كل ما لا تذكية له لا يتوقف على شيء مبيح سواء عدم المضرة و الطهارة فهو من المسلم و غيره على السواء، و الأصل الطهارة حتى يتحقق النجاسة و الشك في كونهم لا يتحرون من النجاسة غير عامل كما صرح به شيخ الإسلام بريم الرابع في جواب سؤال عن جواز التيمم في بلاد الحرب للشك في مياههم و أوانيهم من حيث عدم اتقاء النجاسة فقال بعد ذكر حكم التيمم: و هذا كله مبنى على نجاسة مياه أولئك القوم و أنى لنا بذلك، و مجرد احتمال عدم التوقى غير مفض إلى الجزم بالنجاسة بل لا بد من تحققها أو غلبة الظن بها، من ثم جاز تناول طعام أهل الكتاب و استعمال أوانيهم و لبس الثياب المجلوبة من بلاد الكفر بل المشتراء منهم بعد لبسهم لها

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ١٤٥

كل ذلك حملا على الأصل الذى هو الطهارة حتى يثبت ضدها الخ.

و فى حواشى الدر للسيد ابن عابدين رضى الله عنه من كتاب الذبايح ما نصه: أقول و فى بلاد الدروز كثير من النصرى، فإذا جرى بالقريشة أو الجبن من بلادهم لا يحكم بعدم الحل ما لم يعلم أنها معمولة بأنفحة ذبيحة درزى، و إلا فقد تعمل بغير أنفحة و قد يذبح الذبيحة نصرانى تأمل الخ. الأصل فى هذا ما صرح به فى قواعد الأشباه من قاعدة اليقين لا يزول بالشك و المتيقن فى أصل الأشياء الطهارة فلا تزول بالشك فى المطاعم التى ليست بمحل للتذكية، و يوافقنا على ذلك مذهب مالك رضى الله عنه فقد نقل عنه أنه سئل عن الجبن الذى يؤتى به من بلاد الروم و قد قيل إنه يعمل بأنفحة الخنازير، فقال: أما أنا فلا أحرم حلالا و أما إن كرهه الإنسان فى نفسه فلا- أرى بذلك بأسا، فأنت ترى تصريحه بالحلية و تبريه من التحريم و إنما جعل اجتنابه من الورع و هذا فى المذكى فما

بالك بغيره ولا يرد على هذا قاعدة إذا اختلط الحرام والحلال غلب الحرام المحلل المذكورة في الاشتباه، لأن ذلك فيما إذا تيقن وجود الحرام كاختلاط أشياء نجسة بأخرى طاهرة و كل منهما محقق الوجود غير أنه ليس معلوما بعينه و استويا أو كان النجس أكثر فإنه تغلب الحرمه للجميع، أما إذا كان الطاهر أكثر فيتحرى و يستعمل الاغلب على الظن طهره.

و أما مسألتنا فإن موضوعها كون الذات المعينه التي أصلها الطهارة وقع الشك فيها هل طرأت عليها نجاسة أم لا؟

و أما ما كان من مسائل الإباحة مما لا يحل أكله إلا بالتذكية، فالدليل على الحلية فيه ما ذكر في الدر في كتاب الذبايح حيث قال: «و شرط كون الذبايح مسلما حلالا خارج الحرم إن كان صيدا أو كتابيا ذميا أو حربيا إلا إذا سمع منه عند الذبح ذكر المسيح» الخ قال محشية السيد ابن عابدين قوله: «إلا إذا سمع» الخ فلو سمع منه ذكر الله تعالى لكنه عنى به المسيح قالوا يؤكل إلا إذا نص فقال: بسم الله الذي هو ثالث ثلاثة حاشا لله (هنديّة) و أفاد: أنه يؤكل إذا جاء به مذبوحا عناية كما إذا ذبح بالحضور و ذكر إسم الله وحده، و الذي علمنا من حالهم الآن أنهم لا يسمون شيئا بل و اللحم يوجد في بلاد أغلب أهلها متدينون بالنصرانية سيما فقراهم كالقصابين، و في مثل ذلك يحمل على حالة الجواز لما قال في الدر في آخر الحظر و الإباحة من قوله: «فعلم أن العلم بكون الذبايح أهلا للذكاة ليس بشرط الخ» و يؤيده تصريح محشيه فيما نقلناه سابقا في مسألة القريش و الجبن، بل و سيأتي النقل بجواز ما لم يسم عليه أو سمى غير الله تعالى إذا كان الذبايح كتابيا، و في تنقيح الحامدية، أول الذبايح ما نصه: سئل في ذبيحة الذمي الكتابي هل تحل مطلقا أو لا؟

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ١٤٦

الجواب: تحل ذبيحة الكتابي لأن من شرطها كون الذبايح صاحب مله التوحيد حقيقة كالمسلم أو دعوى كالكتابي و لأنه مؤمن بكتاب من كتب الله تعالى، و تحل مناكحته، فصار كالمسلم في ذلك و لا فرق في الكتابي بين أن يكون ذميا يهوديا أو نصرانيا أو حربيا أو عربيا أو تغليبا لإطلاق قوله تعالى: وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَلٌّ لَكُمْ [المائدة: ٥].

و المراد بطعامهم مذاكاهم قال البخارى رحمه الله في صحيحه قال ابن عباس رضى الله عنهما: طعامهم ذبايحهم، و لأن مطلق الطعام غير المذكى يحل من أى كافر كان بالإجماع فوجب تخصيصه بالمذكى، و هذا إذا لم يسمع من الكتابي أنه سمى غير الله تعالى كالمسيح و العزيز، و أما لو سمع فلا تحل ذبيحته لقوله تعالى وَ مَا أَهْلٌ بِهِ لَبِئْسَ بِمُؤْمِنِينَ [البقرة: ١٧٣] و هو كالمسلم في ذلك و هل يشترط في اليهودى أن يكون إسرائيليا و فى النصرانى أن لا يعتقد أن المسيح إليه، مقتضى إطلاق الهداية و غيرها عدم الإشتراط، و به أفتى الجد فى الإسرائيلى، و شرط فى المستصفى لحل مناكحتهم عدم اعتقاد النصرانى ذلك، و كذا فى المبسوط فإنه قال: و يجب أن لا يأكلوا ذبايح أهل الكتاب إن اعتقدوا أن المسيح إله أو أن عزيرا إله و لا يتزوجوا نساءهم، لكن فى مبسوط شمس الأئمة: و تحل ذبيحة النصرانى مطلقا سواء قال ثالث ثلاثة أو لا، و مقتضى الدلائل و إطلاق الآيه الجواز كما ذكره التمرتاشى فى فتاواه، و الأولى أن لا يأكل ذبيحتهم و لا يتزوج منهم إلا - لضرورة كما حققه الكمال، قال العلامة قاسم فى رسائله قال الإمام: من دان دين اليهود و النصرانى من الصابئة و السامرة أكل ذبيحته و حل نساؤه.

و قد حكى عن عمر رضى الله تعالى عنه أنه كتب إليه فيهم أو فى أحدهم فكتب مثل ما قلنا، فإذا كانوا يعترفون باليهودية و النصرانية، فقد علمنا أن النصرانى فرق فلا يجوز إذا جمعت النصرانية بينهم أن نزعهم أن بعضهم تحل ذبيحته و نساؤه و بعضهم يحرم إلا بخبر ملزم و لا نعلم فى هذا خبرا فمن جمعت اليهودية و النصرانية فحكمه حكم واحد. و على هذا النحو ما ذكر فى الهنديّة و غيرها و

السند للفقهاء فى هذا الحكم و هو قوله تعالى:

وَ طَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَلٌّ لَكُمْ [المائدة: ٥] و الذى رأيت فى الكشاف

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ١٤٧

و البيضاوى و روح البيان و تفسير أبى السعود و الرازى يفيد ما ذكر فى تفسير فتح البيان لسليمان بهوبال مع زيادات مفيدة فى هذا، فلنقتصر على ما ذكر فيه.

قال والحاصل أن حل الذبيحة تابع لحل المناكحة، والطعام إسم لما يؤكل ومنه الذبايح وذهب أكثر أهل العلم إلى تخصيصه هنا بالذبايح ورجحه الخازن، وفي هذه الآية دليل على أن جميع طعام أهل الكتاب من غير فرق بين اللحم وغيره حلال للمسلمين وإن كانوا لا يذكرون إسم الله على ذبائحهم، وتكون هاته الآية مخصصة لعموم قوله تعالى: وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذَكَّرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ [الأنعام: ١٢١] وظاهر هذا أن ذبايح أهل الكتاب حلال وإن ذكر اليهودى على ذبيحته إسم العزيز، وإليه ذهب أبو الدرداء وعبادة ابن الصامت وابن عباس والزهرى

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ١٤٨

وربيعة و الشعبي و مكحول و قال على و عائشة و ابن عمر «إذا سمعت الكتابى يسمى غير الله فلا تأكل» و هو قول طاووس و الحسن و تمسكوا بقوله تعالى: وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذَكَّرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ و يدل عليه أيضا: وَمَا أَهْلٌ بِهِ لغيرِ اللَّهِ [البقرة: ١٧٣] و قال مالك: إنه يكره و لا- يحرم، و سئل الشعبي و عطاء عنه فقالا: يحل، فإن الله قد أحل ذبائحهم و هو يعلم ما يقولون، فهذا الخلاف إذا علمنا أن أهل الكتاب ذكروا على ذبائحهم غير إسم الله، و أما مع عدم العلم فقد حكى الطبرى و ابن كثير الاجماع على حلها لهذه الآية و لما ورد فى السنة من أكله صلى الله عليه و سلم من الشاة المصلية التى أهدتها إليه اليهودية و هو فى الصحيح، و كذلك جراب الشحم الذى أخذه بعض الصحابة من خبير

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ١٤٩

و علم بذلك النبى صلى الله عليه و سلم و هو فى الصحيح أيضا، و غير ذلك إلى أن قال: و قال القرطبي و جمهور الأئمة أن ذبيحة كل نصرانى حلال سواء كان من بنى تغلب أو غيرهم و كذلك اليهود، قال: و لا- خلاف بين العلماء أن ما لا يحتاج إلى الذكاة كالطعام يجوز أكله الخ:

«فتحصل مما مرحلية المسائل السبعة المذكورة من الطعام و أن الشك غير مؤثر فيها، فإن قلت؛ قد ذكرت أن بعض الطيور يخفقونها و يأكلونها بلا ذبح و أن بعض الأطعمة يجعل فيها شحم الخنزير فكيف الحكم فى ذلك؟ فالجواب: أما الطعام الذى يتحقق فيه شحم الخنزير أو لحمه فهو حرام بالنص على نجاسة ذاته كما مر، و طريق الوصول إلى التحقق إما برؤية ذاته من الأكل فيما نتبين فيه أو بغلبة الظن فى الألوان التى جرت العادة بوضعه فيها أو بإخبار الطابخ أو المناول بأن يسأله الأكل هل فى هذا شىء من لحم الخنزير أو شحمه فإن أخبره بالوجود امتنع و إلا- حل، لأن خبره مقبول فى المعاملات و إن كان كافرا كما نص على ذلك فى كتاب الحظر و الإباحة من دواوين الفقه، و صوروها بقول الكافر:

اشترت اللحم من كتابى فيحل أو من مجوسى فيحرم، و صرحوا بأنه و إن آل خبره إلى ديانة يعمل به بخلاف ما إذا أخبر أولا عن حكم دينى كقوله: هذا طاهر أو نجس أو حلال أو حرام لجهله بذلك بخلاف المعاملات، و هذا السؤال إنما هو على وجه الورع، و إلا فالأصل فيما لم يتحقق فيه شىء من النجاسة هو الطهارة كما مر، و ينبغى أن يعلم أنهم لا يقصدون الآن غش المسلم بأكله المحرم عليه كما يتوهم بعض العامة، إذ عندهم الإخبار بذلك كقولهم هو لحم دجاج أو لحم إوز و لا- يعنيه أمر الحرمة، و الحل عند المسلم بل جمهورهم لا يدري شيئا من ذلك.

و أما مسألة الخنق فإن كان لمجرد شك فلا تأثير له كما تقدم، و إن كان لتحقق فلم أر حكم المسألة مصرحا به عندنا. و قياسها على تحقق تسمية غير الله أنها محرمة عند الحنفية، و أما عند من يرى الحل فى مسألة التسمية كما هو مذهب جمع عظيم من الصحابة و التابعين و الأئمة المجتهدين فالقياس عليها يفيد الحل، حيث خصصوا بآية: وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَلٌّ لَكُمْ [المائدة: ٥]. آية و لا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذَكَّرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ [الأنعام:

١٢١]. و آية: وَمَا أَهْلٌ بِهِ لغيرِ اللَّهِ [البقرة: ١٧٣]. و كذلك تكون مخصصة لآية

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ١٥٠

الْمُنْحَنَقَةُ [المائدة: ٣] و يكون حكم الآيتين خاصا بفعل المسلمين و الإباحة عامة في طعام أهل الكتاب إذ لا فرق بين ما أهل به لِغَيْرِ اللَّهِ و ما خنق فإذا أبيض الأول فيما يفعله أهل الكتاب كذلك الثانى و قد كنت رأيت رسالة لأحد أفاضل المالكية نص فيها على الحل و جلب النصوص من مذهبه بما ينتلج به الصدر سيما إذا كان عمل الخنق عندهم من قبيل الذكاه كما أخبر به كثير من علمائهم، و أن المقصود التوصل إلى قتل الحيوان بأسهل قتله للتوصل إلى أكله بدون فرق بين طاهر و نجس مستندين فى ذلك لقول الإنجيل على زعمهم فلا مريء فى الحلية على هاته المذاهب، فإن قلت: كيف يسوغ تقليد الحنفى لغير مذهبه؟ قلت أما إن كان المقلد من أهل النظر فى الأدلة و قلد الحنفى عن ترجيح برهان فهذا ربما يقال إنه لا يسوغ له ذلك، و أما إذا كان من أهل التقليد البحث كما هو فى أهل زماننا، فقد نصوا على جميع الأئمة بالنسبة إليه سواء و العامى لا مذهب له و إنما مذهبه مذهب مفتيه، و قوله أنا حنفى أو مالكى كقول الجاهل أنا نحوى لا يحصل له منه سوى مجرد الإسم فبأى العلماء اقتدى فهو ناج على أن الكلام وراء ذلك، فقد نصوا على الجواز و الوقوع بالفعل فى تقليد المجتهد لغيره و الكلام مبسوط فى ذلك فى كثير من كتب الفقه، و قد حرر المبحث أبو السعود فى شرح الأربعين حديثا النووية و ألف فى ذلك رسالة عبد الرحيم المكي فليراجعهما من أراد الوقوف على التفصيل، فإن قيل: قد ذكرت أن الخنزير محرم و إن كان من طعامهم فلماذا لا يجعل مخصصا بالحلية أيضا بهاته الآية أى آية طعامهم [المائدة: ٥] و إذا جعلت آية تحريمه [المائدة:

٣] محكمة غير منسوخة فكذلك تكون الْمُنْحَنَقَةُ [المائدة ٣]؟ و لماذا تقيسها على مسألة التسمية و لا تقيسها على مسألة الخنزير و أى مرجح لذلك؟

فالجواب: أن المأكولات منها ما حرم لعينه و منها ما حرم لغيره، فالخنزير و ما شاكله من الحيوانات محرمة لعينها و لهذا تبقى على تحريمها فى جميع أطوارها و حالاتها، و أما متروك التسمية أو ما أهل به لِغَيْرِ اللَّهِ [البقرة: ١٧٣] و الْمُنْحَنَقَةُ [المائدة: ٣] فإن التحريم أتى فيه لعارض، و هو ذلك الفعل. ثم أتى نص آخر عام فى كل طعام أهل الكتاب و أنه حلال فأخرج منه محرم العين ضرورة و بالاجماع أيضا و بقى المحرم لغيره، و هو مسألتان أحديهما: مسألة التسمية، و الثانية: مسألة المنخنقة، فبقيتا فى محل الشك لتجاذب كل من نصى التحريم و الإباحة لهما، فوجدنا إحداهما: و هى مسألة التسمية وقع الخلاف فيها بين المجتهدين من الصحابة و غيرهم، و ذهب جمع عظيم منهم إلى الإباحة. و بقيت مسألة المنخنقة التى يتخذها أهل الكتاب طعاما لهم مسكوتا عنها فكان قياسها على مسألة صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ١٥١

التسمية هو المتعين لاتحاد العلة، و أما قياسها على مسألة الخنزير فهو قياس مع الفارق فلا يصح إذ شرط القياس المساواة، و إنما أطلنا الكلام فى هذا المجال لأنه مهم فى هذا الزمان و كلام الناس فيه كثير و الله يؤيد الحق و هو يهدى السبيل.

مطلب فى المواكب

إعلم أن المواكب الرسمية فى أوروبا عموما متشابهة و قد تقدم ذكر حالتها فى إيطاليا فلا داعى لإعادتها هنا، غير أنه ربما يشكل على القارىء شىء و هو أن فرنسا ليس لها الآن ملك فمن هو مناط المواكب الرسمية؟ فاعلم أن دعواهم فى الجمهورية أنها خالية عن الملك هو أمر وهمى لأن وظيفة الملك كأنها أمر ضرورى لا مندوحة عنه حتى وقع الخلاف بين علماء الكلام هل أن الملك واجب بالعقل أو السمع فقط، و احتج القائلون بأنه واجب سمعا بأننا نجد أمما عائشون على وجه ما من الإستقامة بدون ملك، و كل ذلك أمر وهمى و لا مجال للخلاف فى المسألة إذ إقامة الملك أمر طبيعى لا تمكن الإستقامة بدونه، و ما ذكره المحتج من وجود أمم الخ هو كاف فى الرد عليه لأنه معترف بأن تلك الأمم أو القبائل تنقاد إلى رؤساء منها، فالخلاف حينئذ إنما هو فى اللقب و فى تحديد السلطة أو إطلاقها و كذلك حالة الجمهورية فى بعض الممالك الآن، لأن من يقيمونه رئيسا لها ما هو فى الحقيقة إلا ملك عليهم لمدة معينة و تصرفه مقيد بحدود معينة فلا مندوحة لهم حينئذ عن الإقرار بوجود الملك و الإنقياد إليه، و غاية أمرهم هو اختلاف

اللقب و زيادة الأبهة و العظمة، أما أصل التوقير و السمع و الطاعة و الإنقياد له فكله موجود عندهم فرئيس الجمهورية يفعل جميع ما يحتاج فيه إلى الملك من مراسم المواكب و غيرها غير أنه أقل أبهة و ضخامة من الملوك في اللبس و الأعوان، و أما بقية المواكب الاعتيادية فهي كما مر ذكره في إيطاليا، و قد دعوني في سنة ١٢٩٢ هـ للفرجة على موكب دفن اثنين من الجنرالات ماتا سنة ١٢٨٦ هـ ١٨٧٠ م في حرب الكومون أي الإشتراكيين في باريس و كانت جثتهما مصبرة في صناديق بكنيسة ليزان المدفون بها بونابارتي الأول، و أعدوا لهما موكبا حافلا بإحضار جم غفير من العساكر المشاة و الخيالة و الطبخية بمدافعهم و قوفا في البطحاء الكبيرة أمام الكنيسة و غصت سائر الطرقات و الميادين بالخلائق المتفرجين و امتلأ داخل الكنيسة بالأعيان المدعويين، و كانت فوانيسها موقودة و الشموع الكثيرة مسرجة و كبار القسوس حول المعبد يرطون بألحان و نغمات تمديدية تميل إلى الحزن يتفنون واحدا فواحدا و لهم سكنات في الوسط يضح فيها قوم من صغار القسوس جالسين في رواشن عالية محيطة بداخل الكنيسة و يلحنون ترطينهم بأنغام أيضا شبه السلفيين و هكذا إلى ختام أدعيتهم، ثم حملوا الجنازتين المكسو تابوتهما بلباس أصحابهما الرسمي و وضعتا في عجلات معدة لذلك مزينة بالأزهار و تقصيب الذهب و الفضة و سارت العساكر بمدافعهم في المقدمة و من ورائهم الجنازتان و من ورائهما بقية المشيعين ركوبا في كراريس سود و سرج الخيول أسود و الخيل سود و لباس الركاب أسود، و ذهبوا إلى المقبرة و كانت المدافع تطلق بعد كل صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ١٥٢

خمس دقائق كل ذلك إظهارا للعناية بمن نفع وطنه منهم ترغيبا لمن يسلك ذلك المسلك.

و على نحو من ذلك رأيت سنة ١٢٩٥ هـ ١٨٧٨ م جنازة ملك «الهانوفر» الذي أدخلت مملكته دولة البروسيا في مملكتها وفر هو و سكن في باريس، و هو شيخ مسن و لما مات حضرت جنازته أمراء و وزراء ألمانيا و جعلت له دولة فرنسا أبهة على نحو ما تقدم، غير أنه أخرج من داره لا من الكنيسة و لقد تذكرت في تلك الكنيسة عندما شاهدت حركاتهم و هيئتهم قول نبينا صلى الله عليه و سلم الصادق الأمين: «لتتبعن سنن من قبلكم شبرا شبرا و ذراعا ذراعا حتى لو دخلوا حجر ضب لدخلتموه، قلنا: اليهود و النصارى يا رسول الله؟ قال:

و من» اه كما ورد ذلك في الصحيح، إذ علمت من ذلك منشأ وجود الكلات في الجوامع و تغنى المؤذنين و المقيمين فيها و إجابتهم للأئمة بالبحان متناسبة و تلحين الخطباء و الأئمة في القراءة و الدعوات إلى غير ذلك من البدع التي ما أنزل الله بها من سلطان و ما هي إلا ضلالة و إفساد و زيادة و نقصان في العبادة و لا حول و لا قوة إلا بالله العلي العظيم.

و حيث كان أعظم المواكب الاعتيادية عندهم هو رأس السنة نذكر ما وقع في باريس في رأس السنة الأعجمية الموافق لذي القعدة سنة ١٢٩٠ هـ من حالة التزاور عندهم فيها، لأنهم يكتفون عن أتعاب الزيارة بإرسال أوراق الأسماء فيما بين المعارف و ترسل بواسطة البريد أو حمالين معدين لقضاء الحاجات يقفون في الطرق و على صدر كل واحد قطعة من نحاس عليها عدد و ساما من الحكومة بأنه أمين مجاز له في تلك الصناعة، فوزع بواسطة البريد فقط مليون و خمسمائة و ستون ألف ورقة عدا ما وزع بواسطة الحمالين، و أرسلت إلى أهالي باريس مكاتيب تهنئة من الخارج مليون و خمسمائة ألف و كان المرسل منهم في يوم رأس العام من المكاتيب المضمنة في البريد تسعة آلاف مكتوب و نسبتها لغير المضمن نسبة واحد من مائة.

مطلب في اللغة

اللغة الفرنسية فرع من اللغة اللاتينية و لهذا لم يزالوا يراعون في الكتابة أصول تلك اللغة حتى يكتبون أحرفا لا ينطقون بها بل و بعضها لمجرد مراعاة الأصل بدون فائدة أخرى، و لا زالت في التهذيب و الإعتناء بها و لها جمعيات علمية لتحسينها و ضبطها و قد اشتهرت اشتهاارا كليا في العالم من وقت ارتقاء نابليون بونابارتي الأول إلى إمبراطورية فرنسا، حتى وقع الاتفاق بين الدول الأوروبية على أن تكون هي اللغة المستعملة في المحاورات و المخاطبات بين الدول، و صار من لوازم أهل السياسة معرفة التكلم بها و لذلك

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ١٥٣

وقع الاصطلاح فيها على ألفاظ تؤدي معانى سياسية منضبطة محررة مختصرة تحتاج فى غيرها إلى تطويل وإبهام، وذلك الإتفاق على إجرائها فى الخطابات السياسية لم يزل جاريا إلى الآن حتى أن ألمانيا لما غلبت فرنسا سنة ١٢٨٦ هـ ١٨٧٠ م حاولت نقل هايتيك المزية إلى لسانها فلم توافقها إنكلا-تيره، وقالت إما: أن نبقى على الإصطلاح المتعارف على اللغة الفرنسية و إما أن كل دولة تخاطب بلسانها، فأبقى الوجه الأول لأن الثانى فيه من الصعوبة ما لا يخفى إذ يلزم رجال السياسة تعلم لسان جميع الدول ذات السياسة و وجود مترجمين فى وزاراتهم لتلك اللغات بخلاف الإستقرار على اللغة الفرنسية التى مر ما وقع فيها من التحرير، و من اعتنائهم بلغتهم اعتناؤهم بالفصاحة فيها و إرتجال الخطب المستطيلة أعنى الخطب على النحو العربى الأصلى بارتجال الكلام مع فصاحته و انسجامه لا- كما يصنع الخطباء الآن من حفظهم لما ينشئون إن كانت لهم قدرة على الإنشاء أو حفظ منشآت غيرهم أو سردها من ورقه، إذ هذا خلاف الأسلوب العربى الأصلى و إنما هو أى الأصلى استحضار معان مرتبة فى فكرة الخطيب و إلقاؤها عند الحاجة بألفاظ منسجمة فصيحة بليغة، و ذاك هو شأن كل أمة ترقى فى سجايا الفخار فالفرنساويون توجهوا لهذا المقصد أيضا و بلغوا فيه على حسب اصطلاح لغتهم إلى المبالغ الحسنة، فترى خطباءهم يقف أحدهم خطيبا يتكلم ساعتين و ثلاثا بدون تلثم أو مراجعة سوى البطاقة أحيانا مكتوب بها رؤوس النوازل التى يريد الخوض فيها و ينتقل من واحدة إلى أخرى يربط المناسبات إلى انتهاء مقصوده، و قد يعترض له بعض أصداده أفرادا و مجتمعين بالاستهزاء منه و السخرية من كلامه و الرد عليه و لو بالضجيج و هو مثبت فى مسلكه، و يجيب الراد عليه بالمناسبة لأن أغلب ما تكون خطبهم فى السياسة مع تنازع الأحزاب فيها سيما فى مجلس النواب و الأعيان، و كثيرا ما يوضع للخطيب فوق المائدة أمام منبره كأس بالماء و السكر و الزهر لعله يجف لسانه من كثرة الكلام أو الغيظ هذا أصله. لكنى رأيت من يتخذ الشرب منه آلة للتفكر و مهلة للتدبير فيما يقول حتى أكثر من ذلك، و صار يشرب كل ثلاث دقائق أو خمس و هو دليل عليه، و الحاصل أن خطبهم الآن شبه خطب أسلافنا العرب فى الصورة و تشبه الدروس المتقنة فى أدائها من علمائنا الفحول الآن مثلما أدركت من دروس شيخنا العلامة محمد النيفر الأكبر قدس الله روحه، إذ يستطيع الكاتب أن ينقلها من تقريره لفظيا و تصير تأليفا جيدا.

و خطباء القوم الآن يحضر مواطنهم كتاب عارفون باصطلاح مختصر فى الكتابة حتى يحيطوا بجميع ما يقول الخطيب، و أكثر الأسباب فى طول خطبهم هو إدماج مسائل من فنون شتى فيها سيما علم التاريخ فبأدنى مناسبة يذكر تاريخ أدنى شىء مبحوث عنه و ما وقع فيه من قديم الزمان و حديثه، فلذلك كان فن التاريخ ضروريا لأهل السياسة و هو المعقول

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ١٥٤

لأن الوقائع الدهرية متشابهة متقاربة فمن أحاط علما بالتاريخ عرف الأسباب و الدواعى و النتائج و التخلصات و الغلطات، فيتبع فى الحال الحسن و يجتنب المضر و يحترس بالتشاور و اجتماع الآراء و ذلك هو مقدور البشر و الله يفعل ما يريد، و إنما أجرى سبحانه عادته بالصالح إذا جرى العمل على حسب التدبير و الأمر الإلهى باتخاذ الأسباب على مقتضى حكمته لا رب سواه، و من قواعدهم فى اللغة أن يخاطبوا الإنسان بدون تلقيبه بالسيادة إلا الزوجة مع زوجها أو العكس، و المخدم مع خادمه و مع ابنه الصغير، و إذا كان المخاطب ذا وظيفة الوزارة يزداد له لفظ بمعنى المرفع أو كان ذا خطة الإمارة يزداد له لفظ بمعنى المعظم أو كان ملكا يزداد له لفظ بمعنى صاحب الجلالة، بحيث يتحرون فى ذلك للغاية، و يكثرون من إعادته فى الخطاب مرارا و ليس هناك استعمالات أخر فى مزيد التملق و الخضوع و الذلة فى الخطاب، و ألفاظ المكاتبات و التخاطب سواء و غاية الفرق هو الفرق الحاصل بين أفراد المتكلمين فى البلاغة، كما أن من عاداتهم تلقيب كل إنسان بلقب عائلته و لا يذكر إسمه إلا فى المكاتبات أو إذا كان أكبر العائلة موجودا، فالصغار منها يذكر إسمهم للتمييز مع ذكر اللقب و لم تزل عندهم عناية باللقاب الشرف، و هى: كونت و بارون و دوك و مركيز و ترنس و غيرها، لكنها قل استعمالها منذ استقرار الدولة الجمهورية و صاروا يكتبون بلفظ موسيو أى سيد لتسوية الناس فى نظر

الجمهور.

مطلب في القوة الحربية المالية و التجارية في فرنسا سنة ١٨٨٠

فرنك بلغ طول سكك الحديد فيها ميلا ١٣٨٧١

٠٠٠، ٠٠٠، ٠٠٠، ٠٠٠ دخلها أى تلك السكك.

٠٠٠، ٨٣٧، ٥٩٤، ٠٤ قيمة الداخل إلى فرنسا من السلع سنة ١٨٧٩.

٠٠٠، ٠٩٠، ١٦٣، ٠٣ قيمة الخارج منها فى تلك السنة.

٠٠٠، ٨٣٠، ٧٩٤، ٧٥٢، ٠٢ دخل الدولة سنة ١٨٨١.

٠٠٠، ٤٣٢، ٧٥٤، ٠٢ خرجها فيها.

٠٠٠، ٩٨٣، ٠٣٥، ٨٦٢، ١٩ ما على الدولة من الدين.

٠٠٠، ٠٥٤ عدد السفن المدرعة العاملة و الاحتياطية.

٠٠٠، ٣٢٥ حمولتها طنولاتو.

٠٠٠، ٥٠٠، ١ عدد عساكرها وقت الحرب.

٠٠٠، ١٨٠، ٠ عدد الفرسان.

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ١٥٥

الباب الخامس في قطر الجزائر**الفصل الأول في سفرى إليه**

قد تقدم إنى لما رجعت المرة الأولى من فرنسا كان رجوعى بحرا مارًا على بلد بونه المعروفة بعنابه، و هى أحد فرض الجزائر، فأرست بها الباخرة صباحا فى مينا صناعية واسعة متينة تصل البواخر فيها إلى الرصيف فى البر و يصل الرتل بطريق الحديد إلى حذو فوهة هاته المرسى الصناعية لكنه رتل للسلع خاصة، و بهاته المرسى كثير من السفن و البواخر منها نحو ثلاثة بواخر لشركة معدن الحديد الموجود بقرب عنابه، فهذا المعدن هناك غنى و يستخرج بكثرة و يحمل فى حوافل طريق الحديد و هى توصله إلى ذات البواخر التى تحمله إلى مرسيليا و فى كل يوم تخرج من المرسى باخرة مشحونة به و تدخل أخرى خاوية، و فى مرسيليا يصفى و يشغل لأنهم وجدوا ذلك أرخص مصروفا من جلب معمل لتصفيته فى محله، و لما أرسينا رأينا البلاد من جهة الغرب متصاعدة فى جبل و حول المرسى أبنية حسنة من النوع الأوروبوى ثم نزلنا إلى البر فوجدنا عجلات الركوب للكراء لكنها رديئة و سخنة، فذهبت لداخل البلد فإذا فيها قرب المرسى بطحاء و طريق متسع و حوالبه أبنية جميلة و قهاوى و منازل للمسافرين و حوانيت لبيع الحلويات و التحف الظرفية و فى وسط البطحاء حديقة صغيرة منتزهة للمارة، و فى وسط البلد بطحاء أخرى صغيرة يحيط بها سرادقات تحتها حوانيت و فى هاته البطحاء الجامع الكبير فذهبت إلى الحمام الذى هو قرب الجامع حيث كان فرضى التيمم فى السفينة إذ لا حمام بها، و لما دخلت إلى البلد وجب الحمام فإذا هو على نحو حمامات تونس و سائر بلاد المشرق، غير أنه غير متقن النظافة و ليس فيه بيوت منفردة للتطهير للإنسان وحده و إنما يتطهر الإنسان بعد التنظيف فى محله، فيقع الحرج من التحفظ على كشف العورة أمام المغتسلين، و لذلك كان أكثرهم مكشوف العورة و هى مصيبة عامة، فى أغلب البلاد الإسلامية التى رأيتها على خلاف تونس فإن حماماتها لها بيوت صغيرة ذات أحواض صغيرة لغرف الماء منها، و لها أنابيب للماء الحار و البارد و للبيت باب يغلق و ينفرد الإنسان للتطهير وحده

بلا مشقة، و لذلك كنت أختار الحمامات الإفرنجية في أكثر أسفارى و لو في البلاد الإسلامية لأنها أبعد عن المحرم من كشف العورة و إن حصل فيها تعب من جهة الإغتسال المعتاد، و ذلك أن هيئتها بيت صغير فيه حوض كبير يحمل الإنسان و له أنابيب للماء الحار و البارد و في البيت متكأ و مسطبة

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ١٥٦

و معالِق للثياب، و أرض البيت مفروشة بزريئة فلا- يمكن إخراج الماء عن الحوض و إنما يغطس الإنسان في الحوض و يغتسل فيه بالصابون إما بنفسه أو بخادم من الحمام، ثم يجذب سلسلة من قعر الحوض لجذب سداة فيخرج ما فيه من الماء، ثم يجدد له ماء ثانيا و يأتي بمناديل من الكتان مسخنة نظيفة جدا يتنشف بها الإنسان و هو منفرد و بابه مغلق لا يدخل عليه أحد إلا بإذنه فإذا أراد الإنسان التطهير يزيل ما على بدنه من النجاسة في بيته إن أمكنه و إلا عند إتيانه إلى الحمام يأمر الخادم بأن لا يملأ الحوض بالماء و لما ينفرد يقف في الحوض و يأخذ الكاس الموضوع في البيت لأجل الشرب فيملؤه بالماء الحار و البارد من الأنابيب و يزيل ما عليه من النجاسة و يغسل رجليه و يخرج من الحوض ثم يفتح له منفذ خروج الماء منه و يفتح أنابيب إندفاع الماء و يظهر أرض الحوض بالغسل، ثم يسدّ منفذ الخروج و يملأ الحوض ماء على قدر ما يكفيه و يغتسل و يتطهر فيه و هو سائغ على مذهبنا لأن الماء لا يصير مستعملا إلا بعد انفصاله عن جميع البدن و البدن كله في الإغتسال عضو واحد.

و أما على مذهب المالكية فهو أيسر، و قد اضطرت في ذلك الحمام إلى استئجار أحد خدمته ليستر زاوية من الحمام بمسك إزار في يديه حتى تيسر لى تطهير ما تحت إزاري، و هناك صعوبة أخرى و هي بعد الماء بحيث أن كل مغتسل يأتي إليه بنحو عنزة مما يسمى برميل مملوءة له ليتطهر بها بعد التنظيف، ثم خرجت من الحمام و أتيت الجامع و إذا هو نظيف محروس قائم الأدوات مفروش بالحصير من السمار على نحو ما هو بتونس و لما كنت لابسا لنعل كالخف مما يصح المسح عليه و هو نظيف دخلت به المسجد و صليت به، و كان هناك بعض الناس فرأيتهم ينظرون إلى شزرا منكرين الدخول بالنعل إلى المسجد لكن لم يقل لى أحد منهم شيئا، فلما فرغت من الصلاة خاطبني من بجنبى فقال لى: «أنت مسلم و لم تدخل المسجد بنعلك» فقلت له: هل تعرف الفقه؟ قال: نعم، قلت: ما هو مذهبك؟ قال: مالكي [قلت]: فانظر في مختصر الشيخ خليل في كتاب الطهارة فإنك تجد فيه مسألة المسح على الخفين و أن المسافر يمسح عليهما و لا يزرعهما و يصلى فيهما و أنا مسافر و حتى المقيم أيضا له لبسهما و المسح عليهما و الصلاة فيهما، و قد فعل ذلك النبى صلى الله عليه و سلم و هو مذكور في كتب الحديث، و كان الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين يدخلون المسجد بنعالهم بعد تفقدها و تطهيرها إن كان بها نجاسة فهذا جائز شرعا و ليس في

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ١٥٧

نعلى نجاسة و لا وسخ فرضى بذلك و أخبر الحاضرين جهره بأن الرجل مسافر و عارف بالحكم، ثم خرجت من هناك و تطوّفت في البلد و قد فطرت فيها في حانوت لطباخ مسلم أكلا عربيا و استلذذته للغاية كيفما كان لاشتياقى للمعتاد، سيما و قد كانت تلك السفرة هي أول سفراتى و الأشياء الغير المعتادة تصعب على النفس أولا.

و أحسن ما فى البلد سوق الخضمر فإنه على النحو المتقن فى أوروبا من كونه واسعاً ذاقه من الزجاج محموله على قطع حديد مرفوعة على أعمدة حديد و الحيطان أيضا مثل ذلك مع النظافة و حسن التقسيم، و لكن ليس فيه حوانيت و إنما كل يباع يجلس فى جهة و يضع مبيعه أمامه و بخارج البلد آثار قديمة للرومان من البناء و الدهاليز تقصد للتفرّج و بخارجها أيضا بستان عمومى و يباع منه الأشجار الصغيرة و ليس هو بمتقن، و الحارات القديمة فى البلد و ديارها على نحو ديار تونس و حاراتها الضيقة الطرق غير أن أبواب دور عنابه بدفة واحدة، و بناء الباب مقوس قليل الإرتفاع و بخارج البلد أيضا جهة شاطيء البحر بعض من البساتين و حمامات من الخشب على ماء البحر تتدبها الناس فى الصيف و حولها قهاوى تحوى فى الصيف الغث و السمين، و سافرنا من هاته البلدة بعد الغروب قاصدين تونس و عدت إليها فى سنة ١٢٩٥ هـ فى سفرتى إلى فرنسا ذهابا و إيابا و أقمت فيها فى الإياب أسبوعا و كان الزمن

صيفا و هي لصغرهما و عدم وجود الحركة الكثيرة بها لا ينشرح المسافر فيها.

و في هاته السنة أيضا مررت في الإياب على مدينة الجزائر قاعدة هذا القطر و هي لها مرسى على نحو ما تقدم في عنابه و البلد أكبر من السابقة و منظرها من جهة المرسى أبهج و أضخم و قد انشئ بها طريق للترموای يخترق البلد من جهة المرسى و يذهب إلى قرية تسمى مصطفى جهة الشرق من الجزائر، و أبنية البلاد على نحو ما ذكر في عنابه و هي أيضا متصاعدة في جبل و ليس بها عيون غزيرة بل الماء له خزنة في الجبل تجتمع فيها مياه الأمطار من جهات الجبل، و لذلك كانت الطرق الواسعة في الصيف محتاجة إلى الرش لقله ما ترش به و بها أربعة جوامع للخطب إثنان مالكيان و إثنان حنفيان، و الجوامع نظيفة مستقيمة و بقية ما كان بها من الجوامع هدمت و بدلت، و بها حصون متينة و هاته البلد هي مقر الحاكم العام لقطر الجزائر و منظر البلد من جهة البحر جميل لكثرة الديار و البساتين في الجبل منحوت به درج يصعد فيها من أسفل البلد إلى أعلى الجبل، كما أنه به طرق صناعية قليلة الإندثار يصعد بها في العجلات إلى قمته، و أمام دار الحاكم بطحاء صغيرة منظمه و الدار من نوع أبنية الأهالي قديما و أمامها محل لطائفه من الجند حرسا و في خارج البلد و داخلها مقامات للأولياء و العلماء محترمة منها: مقام سيدي عبد الرحمن الثعالبي رضى الله عنه

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ١٥٨

خارج البلد في الجبل في مكان منشرح نزه و لضريح الشيخ مهابة و وقار قلبى، و حوانيت البلاد على نحو ما ذكرنا في تونس و بسايتها تسقى بآبار يسنى عليها بالدواليب في الصيف، و تنور البلد ليلا بفوانيس الغاز و بخارجها بستان انتراه عمومي قليل الجدوى و بقربه سبيل قديم لا زال قائما و حذوه قهوة على النحو الغربى لكنها قذرة ينتابها بعض الناس، و منازل المسافرين بالبلد جيدة على النحو الأوروبي و قد أقيمت بهاته البلدة ليلتين ثم سافرت بحرا قاصدا عنابه و منها إلى تونس فمررت ببلد دلس، و هي قرية صغيرة على البحر لم نستطع الدخول إليها لشدة هيجان البحر و عدم مرسى أمينه بها، ثم مررنا على بجاية ثم جلجلى ثم أسكيكده، و كلها قرى صغيرة الجديد من بنائها على النحو الأوروبي و القديم على عادة أهل القطر، و الأهالي أغلبهم فرنساويون ارتحلوا إلى هناك. و أما أسكيكده فالبلاد القديمة قد خسفت بها الأرض و العباد بالله و قد بنى على شاطئ البحر قرية جديدة منتظمة الطرق و اسعتها على نحو النوع الأوروبي و لم أشاهد تفاصيل هذه القرى لأن الباخرة لا ترسى فيها إلا قليلا، و إجمال حالهم يندمج فيما سيأتى إن شاء الله تعالى. و من القرى التي رأيتها قرية قاله البعيدة عن عنابه نحو أربع ساعات في طريق الحديد في الجهة الجنوبية الشرقية منها و هي قرية مستحدثة يغلب على طبع أهلها البداوة و هي منتظمة البناء و الطرق قليلة الماء و بها جامع وقاض و حاكم فرنساوى و عساكر و حصن و كنيسة و حديقة صغيرة للعامه.

الفصل الثانى: فى التعريف بالجزائر

هذا القطر واقع على شط أفريقيا الشمالى و يحده جنوبا الصحراء الكبيرة و شرقا تونس و شمالا البحر الأبيض و غربا مراکش، و هو قطر متسع ذو جبال شاهقة و أنهر عديدة و عيون دافقة و به معادن غنية من الحديد و الفضة و الآن مشغلون بإخراجها سيما المعدن الذى أصله تابع إلى تونس قرب حدودها فى القالة، و بها معادن آخر عديدة منها المستعمل كالمصدير و منها الذى لم يزل فى زوايا الخمول، و أما هواؤه و حيواناته و نباته فهو مثل تونس فى عموم ما ذكرناه فيها، و الجهات الشمالية هي ذات الخصب و الأشجار العظيمة و الغابات، و مدن هذا القطر و بلدانه أشهرها قاعدته الجزائر ثم وهران ثم تلمسان ثم قسنطينة ثم بونه و غيرها كثير لا يبلغ مبلغ ما ذكر، و مراسيها المهمة هي المدن المذكورة غير قسنطينة لأن هاته متوغلة فى البر على قمة جبل، و ينقسم القطر بالنظر إلى طبيعة الأرض و السكان و الإدارة إلى ثلاثة أوطان كبار.

أولها: وطن الجزائر و هو فى الوسط و يمتد من الشط شمالا إلى الصحراء جنوبا.

و ثانيها: وطن وهران غربى السابق ممتد معه كذلك.

و ثالثها: وطن قسنطينة شرقى الأول ممتد معه كذلك. و لكل وطن قاعدته هى المدينة المنسوب إليها و له فروع على حسب الإحتياج و عدد سكانه نحو مليونين و سبعمائة ألف

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ١٥٩

و ستون ألفا، و المسلمون منهم مليونان و خمسمائة ألف و النصرارى مائتا ألف و نيف و اليهود نحو الثلاثين ألفا، و قاعدة الجميع هى الجزائر عدد سكانها نحو خمسة و سبعين ألفا منهم ثمانية عشر ألفا مسلمون و تسعة آلاف يهود و ثمانية و أربعون [ألفا] من النصرارى من أجناس مختلفة، و أكثرهم الإسبنيول، و السكان المسلمون أصلهم من البربر و هم أكثر سكان الجهات الجنوبية و الجبال، و باقى الجهات سكانها من نسل العرب و المختلط منهم و من البربر و بعض من نسل الترك الذين استوطنوا هناك و كذلك الأندلسيون الذين هاجروا بعد استيلاء الإسبنيول على بلادهم.

و أما النصرارى على العموم فأكثرهم فرنساويون انتقلوا إلى هناك بعد استيلاء الفرنسيين سيما بعد حرب ألمانيا معهم سنة ١٢٨٧ هـ ١٨٧٠ م و أخذها لإقليمى الإلجاس و اللورين فارتحل من أهالى ذينك الإقليمين نحو المائة و السبعين ألفا سكنوا الجزائر و أعانتهم دولتهم بإعطائها لهم الأراضى الخصبة التى أخذتها من الأهالى الأصليين عقابا لهم على الثورات و غيرها و أغلب هؤلاء الفرنسيين سكنوا جهات الشطوط و أنشأوا فيها قرى.

و أما المسلمون: فأغلبهم على مذهب أهل السنة فى العقيدة و على مذهب الإمام مالك فى الفروع و نسل الترك على مذهب الإمام أبى حنيفة و بعض السكان على مذهب الإعتزال كبنى مزاب، ثم أن أهل السنة فى المدن و القرى يكثر فيهم معرفة أحوال الديانة و إن حصل الآن من كثير منهم تهاون كثير بالشعائر.

و أما البوادرى فيغلب عليهم الجهل بالأحكام لكنهم لا زالوا متصلين فى العقيدة الإسلامية سيما أهالى الجهات الجنوبية و الوسطى.

الفصل الثالث: فى إجمال تاريخ الجزائر مطلب فى التاريخ القديم

إشارة

اعلم أن أحوال هذا القطر التاريخية فى القديم كانت فى الأغلب متحدة مع تونس و طرابلس و المغرب فما بيناه فى أحوال تونس كان شاملا لهذا القطر حتى فى زمن الفتح، و استقرار الحكومات الإسلامية لأنه فى أغلب الاعصار تابع لتونس لما كانت هى مقر الحاكم العام الإسلامى لأفريقية ثم لما انفرد المغرب عن تونس كانت الجهة الغربية من الجزائر تابعة له ثم اتحد الجميع تحت دولة بنى حفص و عن تقهرها و انفراد المغرب انتشأت بعض حكومات منفردة فى الجزائر كمملكة بنى زيان من زناته التى مقرها فى تلمسان، ثم لما أشرفت الدولة الحفصية على الإضمحلال و استولى، الإسبنيول على عدة جهات من شطوط أفريقية و كانت الفرق المنقسمة إليها الجزائر غير قادرة على مدافعة دولة كبيرة مثل الإسبنيول إذ ذاك، و كانت الدولة العثمانية رافعة علم الحماية لأهل الإسلام و أسطولها يجوب البحار تحت عدة أمراء، و أرسى فرقة من هذا الاسطول تحت أمره خير

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ١٦٠

الدين بربروس باشا و أخيه، عروج على شطوط الجزائر للبحث عن حالة الأندلس مع الإسبنيول ضج إلى هذا الاسطول أهالى الجزائر و طلبوا من الأمراء حماية هذا القطر الإسلامى ما دام فيه رمق قبل هجوم الإسبنيول عليه و ذلك أحق من تتبع الإسبنيول فى الأندلس إذ لم يبق فيها مسلم فأجابوا طلبتهم بعد تصحيحهم للإتفاق، و من ذلك التاريخ استقرت الحكومة للدولة العثمانية و ذلك فى حدود سنة ٩٤٥ هـ و جرت أعمال الدولة فى الجزائر على نحو ما قررناه فى تونس لأن المراد هو حماية البلاد الإسلامية و اتحادها و جرى من الولاة الترك أولا الإستقامة و العدل ثم لما تهورت العساكر إينكشارية فى جميع الجهات، حصل منهم أيضا فى الجزائر ما ضجرت

منه الأهالي و طغوا في النصب و العزل للولاء من هؤلاء العساكر حسب الشهوات و قوة العصبية، و لم يحسن من هؤلاء الولاء الإمتثال لأوامر الدولة العثمانية إلى أن ولي حسين باشا الذي كان سببا في دخول الفرنسيين إلى البلاد و الحكم لله رب العباد.

مطلب في تاريخ الجزائر الجديد:

إعلم أن الدولة الفرنسية لما ترقى في المعارف و القوات سيما في العصر الأخيرة لازمها حب الظهور و عدم تحمل الهوان و كانت الدولة العثمانية في شغلها الشاغل من أعمال إينكشارية و حروب الروسية و ثورات اليونان و ضم إلى ذلك طغيان ولاء الأقاليم و عدم امتثالهم للأوامر، و كان حسين باشا والي الجزائر مستبدا ظلوما مرتشيا قليل التدبر و حصل منه إهانة لفرنسا و ذلك على ما في تاريخ ابن الضياف أحد التجار اليهود الأغنياء الجزائريين الملقب ببقرى أو جناح، له خلطة مالية مع تجار من الفرنسيين و تداعوا في خسائر من الجهتين و انتصر حسين باشا لرعيته بالإلحاح على قنصل فرنسا في إنصافه و آل الأمر إلى صلح يدفع على مقتضاه التجار الفرنسيين إلى التاجر الجزائري مالا وافرأ و أضمر حسين باشا أخذ المال لنفسه لما رآه ذريعا و راجعا لرعيته و تلك عادة ألفوها و لما قرب دفع المال و إذا بتجار آخر فرنسيين قاموا على بقرى المذكور بدين أوقفوا عليه المال الذي يريد قبضه فاستاء حسين باشا من ذلك و طلب من القنصل رفع الإيقاف و قال إن أرباب الدين الفرنسيين الطالبين لرعيته يتبعون ذمة المدين بعد قبضه للمال بحيث لا يكون للطالبين حق في المال الذي يدفعه الفرنسيون فامتنع من ذلك القنصل مستندا إلى أن المال المعرقل مال المدين و الغرماء لهم حق فيه إلا- إذا ضمنه من يرضون بدمته و كان المدين نفسه مغريا بهذا التدبير خوفا على ماله من الضياع باستيلاء الباشا عليه، فأعرض الباشا عن القنصل و كاتب دولة فرنسا في غرضه فأرسلت المكتوب إلى القنصل و أمرته بالجواب عنه، و لما قدم القنصل إلى الباشا لبعض مآرب خاطبه الباشا في استبطاء جواب مكتوبه المشار إليه إلى دولة فرنسا فقال له القنصل: إن المكتوب أرسلته الدولة إلى و أمرتني بالجواب عنه فسأل عن سبب عدم إجابة الدولة له فأجابه بما فهم منه احتقاره و كانت بيد الباشا منشأة يطرد بها الذباب فضرب بها وجه القنصل و طرده و بقي أسفا على ما فاته من مال بقرى، و تهددت

صفحة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ١٦١

فرنسا والي المذكور على إهانة نائبها و ألحت عليه بأن يطلب منها الرضى و يعترف بالخطأ فأبى و أصر مع أمر الدولة العثمانية له بذلك و من النصائح المتتابعة له من الدول الأجنبية و خواص الأهالي. و قد كانت فرنسا في شغل من داخلتها في ذلك الوقت حسبما مر بك في تاريخها لأن ذلك كان أثر حروب نابليون الأول و كانت أيضا متوقية المشاحنة مع العرب و مع الدولة العثمانية حتى رضيت فرنسا بأن يكلف الباشا أى إنسان كان في باريس يطلب الترضية لكي تندفع عنها المعرة و لا تلحقه هو مذلة بإرسال أحد من متوظفيه إلى القنسلاتو و لا إلى باريس و كان قصدها بذلك كله اجتناب الحرب ما أمكن لاشتغالها بحروبها و أحزابها الداخلية، فأصر والي على رأيه و أرسلت فرنسا أسطولها و حاربت بلد الجزائر و استولت عليها و حمل ذلك والي إلى باريس ثم مات في إسكندرية و قد نسب المؤرخ المذكور منشأ أعمال الباشا المشار إليه إلى كونه لا غيره له على الوطن من حيث كونه لم يكن من أبناء تراه و لذلك خاطر به إلى ذلك الحد مع علمه بالضعف و انحلال عرى عصبية و نفرة الأهالي من جوره الخ، و الحق أن مثل ذلك التعليل تأباه الشريعة على ما سيأتى إيضاحه في الخاتمة إن شاء الله تعالى. فالجنسية الإسلامية واحدة، ثم المشاهدة تناقض مقاله أيضا فكم شاهدنا و سمعنا من التاريخ ما يثبت غيره الوافدين على الأقطار و وفاءهم لها بشكر نعمائها و أداء واجبات الديانة فيها من التحسين و التحصين و كم شاهدنا و سمعنا أيضا ضد ذلك من أبناء الإقليم و من دعيين فيها، فتحقيق السبب هو أن الله إذا تآذن في أمة بانحلالها فسدت أخلاق أكابرها ففسقوا فيها أو من فسوقهم إسناد الأمر إلى غير أهله فتحق عليها القول و سلط عليها ما يدمرها و ذلك هو الدال عليه القرآن الكريم و الحديث الشريف و هو المشاهد بالعيان و المعلوم من التواريخ في اضمحلال الدول و تقهقرها و حذاق الناظرين في أحوال الدول ينسبون نكباتها لأصول منشأ الفساد و إن طال الزمان، و يكون الذى انحل بيده الأمر مظهرا لكامن

الداء الزمن و هو مع ذلك مسؤول لله و لعباده إذا كان يمكن له توقيف المرض فيعوض ذلك بزيادة مهيجات بحراناته فيكون أشد على الأمة من وقع الصواعق، إذ الجسم العليل يتأثر بما لا يتأثر منه السليم و كفاه خزيا في الدنيا و الآخرة إن كان مظهرا للشر، و رفاء الجزائر قد ابتدأ منذ انخرم أمر إينكشارية في القسطنطينية التي هي مقر الدولة العامة و نشأ عنه ما نشأ من فساد الإدارة و الولاة إلى أن أصيبت عدة جهات وباء حسين باشا في الجزائر بإثم الظلم و الخراب و التهور الذي كان أعظم النكبات و انتقلت حالة الجزائر بل و حالة السياسة في شطوط أفريقية الشمالية إلى طور آخر.

و كان مبدأ استيلاء فرنسا على الجزائر سنة ١٢٤٦ هـ في مدة كارلوس العاشر ملك فرنسا، و تمكن الفرنسيين أولا من القاعدة و ما حولها لكن بقية الجهات أصروا على الإمتناع

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ١٦٢

من الطاعة لفرنسا لأنها إنما أرادت الإنتقام من الوالي حسين باشا و قد حصل فالجهات الشرقية من القطر انفراد بالحكم فيها الحاج أحمد باي قسنطينة و الجهات الجنوبية و الغربية تشتتت تحت رؤساء القبائل، ورام الفرنسيون محاوله تطويعهم بالرفق بأن يتولى الأمر في وهران والى تونس بإرسال أحد عائلته أو أحد متوظفيه فأرسل والى تونس واحدا من جهته و معه شردمه من الحرس فلم ينفذ أمره في مدينه وهران فضلا عن خارجها و رجع من حيث أتى ثم أجمعت الجهات الغربية و الجنوبية على مبايعه الرجل الوحيد سلاله النسل المطهر الأمير سيدى عبد القادر بن محيي الدين الحسينى و قام لله حق القيام و صحبته النصره الإلهية في كثير من الوقائع إلى أن كان في بعضها ما هو خارق للعادة من الكرامات كظفر فرسه الأزرق به ستين ميتر و حيث أحاطت به العساكر الفرنسيه كالحلقة و راموا مسكه باليد

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ١٦٣

فظفر به فرسه على رؤوس العساكر و أسلحتهم ذلك المدى و نجا راكضا إلى منعته و دام محاربا لهم نحو سبع عشرة سنة، و استقامت له حكومة ضرب فيها السكه باسمه و أنشأ المدافع و البنادق و نفذ أمره و خشيته فرنسا و دعا الحاج أحمد باي ليتحدوا و يكونا يدا واحدة فامتنع تجبرا و طغيانا و خذل الأمة إلى أن وهن أمره و استولى الفرنسيون على ما كان تحته، و بقى الأمير سيدى عبد القادر مدافعا و مهاجما إلى أن سولت الغلطات النفسانية المخالفة للديانة الإسلامية لسليمان المغرب الإتحاد مع الفرنسيين على محاربه الأمير المشار إليه و قطع عنه سلطان المغرب خط إلتجائه جهات الصحراء فاضطر الأمير إلى التسليم للفرنسيين فاقبلوه بالرحب و الإكرام و حملوه إلى باريس تحت المراقبة فيها و كان إذ ذاك نابليون الثالث مقبوضا عليه هناك فحصلت منه مودة للأمير، و يقال إنه وعده بالمساعدة لو يفضى ملك فرنسا إليه، و عندما استقر نابليون الثالث في منصب الإمبراطورية لم تساعده رجال دولته على إنجاز قصده من تولية الأمير المشار إليه على الجزائر فأهدى إليه رسالة في محاسن الشام و خيره في انتخاب محل لإقامته فاختار الأمير سيدى عبد القادر أرض الشام و قدم من فرنسا أولا إلى الأستانة و أكرم مقدمه السلطان عبد المجيد و أقام مدة في بلاد الترك ثم استقر في دمشق الشام أدام الله بركته للأنام و حاطه بالأمن و السلامة في نفسه و في آله الكرام، و بعد خروج الأمير المشار إليه من الجزائر خف الخطب على فرنسا لكن بقى جبل الزواوة نائرا عليها تحت أمره كبرائه فطوعته أخيرا بمثل ما فعلته في أغلب الجهات من انخداع الرؤساء بالمال و تسلط بعضهم على بعض، كما أنها حاربتها في الجزائر أيضا دولة المغرب بجيوش كثيرة خالية عن التدبير و التدريب الحربى فلم تفد شيئا سوى ضياع ما حملوا معهم، و كان البوادي المنضمين إلى الفرنسيين أشد على المغاربة من نفس الفرنسيين

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ١٦٤

و ذاك سبب الخذلان، و لا زالت تتوالى الثورات في الجزائر على الفرنسيين منذ دخلها إلى الآن تارة مشتدة و تارة خفيفة و لله عاقبة الأمور.

مطلب في كيفية إجراء السياسة الداخلية في الجزائر:

اعلم أن إدارة الجزائر في الحقيقة منطبة بأرباب الأمر و النهى في باريس على ما هي قاعدة الفرنسيين من إرجاع كل الأمور في ممالكهم و مستعمراتهم إلى باريس من غير التفات إلى بعد المستعمرات أو قربها و لا إلى الجهل بأحوالها و أخلاق أهلها و عوائدهم، فيضطر أصحاب الحكومة إلى اعتماد أقوال المباشرة في المستعمر المبحوث فيه فيؤل الأمر إلى ما تقتضيه حالة ذلك المباشرة من الإنصاف أو ضده، مع أنه في نفس الأمر غير مسؤول عما يقع إلا في الإجراء فلا يلزمه الإحتراس اللازم للمسؤول و مع ذلك فالأحكام و الإدارة كلها في الجزائر كانت استبدادية بحتة تحت الحكم العسكري فما هي إلا اجتهادات من المباشرين بلا تعقب لحكمهم لأن الدولة منعت الأهالي من الحرية السياسية و منحتهم بعض الحرية الشخصية من التصرف في ديانتهم و أشخاصهم و أموالهم كيفما أرادوا فيما لا يضر بالدولة و لا بأحد في نظر الحكام، و الدولة تنتخب حاكما عاما من أهل المناصب العالية من الفرنسيين و يولى حاكما عاما على الجزائر جميعها و يستقر في مدينة الجزائر، و هي أيضا تنتخب ثلاثة حكام آخر من كبار الفرنسيين تناط بأحدهم ولاية الجزائر، و بالآخر ولاية وهران، و بالآخر ولاية قسنطينة، و يرجعون في النظر لحاكم الجزائر العام و على كل قبيلة قائد و الأغلب أن يكون من بني القبائل و يلقب كبراء هؤلاء القيادة «بالاغة» و يتصرفون حسب اجتهادهم و حسب ما يلقنون به من الأوامر من الولاة، و في كل بلدة قسم من العساكر و لكبرائهم نفوذ كبير في الأهالي و في كل بلدة أو قرية حاكم فرنساوي و الرسوم الظاهرية في الجباية و إن كانت محدودة مقوننة بأخذ الأعشار من المزروعات و الزكاة على الحيوانات فكثيرا ما تمتد الأيدي إلى المكاسب من غير الثقات من المتوظفين على أوجه شبيهة بالسرية، حيث أنه ليس عليها احتساب حقيقي ثم للمتوظف مخلص عندما تقع به الشكاية بأن ينسب المأخوذ منه إلى الثورة أو السعي فيها و بأدنى قول في ذلك تثبت التهمة و إثباتها موقوف على القرائن لدى الحاكم المستبد، و كل من ثبت عليه شيء من ذلك يؤخذ جميع كسبه للحكومة زيادة عن عقابه البدني الشديد و لا معقب لتلك الأحكام، و قد ابتدأ ذلك العمل منذ دخلوا الجزائر فإن حمدان بن عثمان خوجه الذي هو من الأعيان العلماء الأغنياء العارف بالألسن الأجنبية اتهم بأنه كانت الحكومة السابقة أمنت عنده أموالا فأخذ

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ١٦٥

ماله و سافر هو مشتكيا إلى دولة فرنسا فأحاله على مجلس شورا الدولة المسمى «كونسيل دي تا» و وكل أشهر العارفين بأحكامهم و عكف منتظرا للحكم ثلاث سنين صارفا أوقاته في مطالعة الكتب و تأليف كتابه باللغة الفرنسية المسمى «مرآة الجزائر» الذي أودعه أخلاق القبائل و حالة سيرة حكام الترك و ما آلت إليه من مظالم الفرنسيين ما لم يكن يظن صدوره عن أمه متمدنة و قد قبل هذا التأليف في فرنسا بالإعتبار لكن حكام الجزائر استاءوا منه و زادوا نكالا بكل من له علقه بالمؤلف المذكور، و بعد ما مر عليه ما صدر الحكم من المجلس المشار إليه ابن حمد أن المدعى محق في دعواه لكنها لما رفعت إلى المجلس بعد صدور أمر الدولة بأن لا تقبل دعاوى تلك السنة التي حصلت عليه فيها المظالم فلا حق له حينئذ فأواه سفير الدولة العثمانية و استقر بعدها في الأستانة و كان ابنه على باشا من أعيان رجال الدولة، و على نحو ذلك العمل تجرى الإدارة السياسية في الجزائر إلى الآن فترى في صحيفتها الرسمية المسماة «بالمبشر» على الإستمرار صدر الأمر بثقاف أملاك فلان و هي كذا و كذا و أملاك فلان الخ.

لكن منذ سنة ١٢٩٥ هـ أدخلت المدن و بعض قرى تتبعها تحت الحكم المدني القانوني لكنه خال عن الحرية اللازمة و إنما هو أهون من الحكم العسكري الإستبدادي لبعض أقسام الناس، و أما كثير من البادية و جهال العامة فإنهم يريدون الحكم السابق العسكري و يرونه خيرا لهم لما يأتي بيانه، و لمجموع ما تقدم ذكره مع التخالف في الديانات بين الأهالي و الدولة المتسلطة دامت الثورات و تعاقبت عند كل فرصة، و عذرهم على ذلك منصفوا الفرنسيين حتى سمعت من كثير منهم ساكني الجزائر يتشكون من الإدارة و ما زالت صحفهم تطلب إنصافهم و استقامة إدارتهم و إعطاءهم الحرية المناسبة بل و يطلبون المساواة مع فرنسا في جميع قوانينها و على

هذا الرأي قسم وافر من أهالي فرنسا أيضا، بل أن نابليون الثالث نقر عن أسباب الثورات و ذهب بنفسه إلى الجزائر مرتين ثانيتهما لتسكين ثورة وقعت هناك، و علم أن أعظم أسباب ذلك من سوء معاملة الأهالي من الحكام فصغى إلى شكائتهم و أزال عنهم كثيرا من المظالم و ساعفهم إلى مطالبهم فسكنت الثورة بدون سفك للدماء و لا تشفى في الثائرين كما صرح بذلك الإمبراطور نفسه في خطبته عند رجوعه إلى فرنسا، و كان توغل في دواخل الجزائر و أواسط القبائل الجسيمة ذات السطوة منفردا عن الحامية الفرنسية معتمدا على وفاء العرب و صدقهم و قد تعهدوا له بذلك و قاموا له حق القيام من عامتهم و خاصتهم و فرحوا بمقدمه لهم و مالوا إليه و إلى إنصافه و أظهروا له من الطاعة و التعظيم ما عاد به مسرورا منهم موقنا بإنصاف مطلبهم و محبا خالصا و عاطفا حنوا عليهم، و اختص منهم في باريس قسما من العساكر لحراسة ذاته و أكرم مقامهم و رفع من شأنهم و اتخذ قسما من الفرسان في مصاحبه في ركوبه بملابسهم العربية، و كذلك العساكر يلبسون العمامة و يسمون بالزواف و قد حاربوا في الدفاع عن

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ١٦٦

الفرنسيين في حرب سنة ١٢٨٧ هـ ١٨٧٠ م بحمية أكثر من حمية الفرنسيين أنفسهم و شهد لهم بالشجاعة و الصبر و المعرفة و الجرأة كل من الفرنسيين و الألمان، و لما وقع انكسار الفرنسيين أثناء تلك الحرب حركت الدسائس أهالي الجزائر إلى الثوران فامتنعوا وفاء بعهدهم مع الإمبراطور نابليون الذي أحكم معهم الصلة و وعدهم بمزيد المساعدة و النجاح قبيل تلك الحرب إلى أن علموا خلع الفرنسيين له فثار بعضهم إذ ذاك لكنه لم يجد نفعا لتفرغ فرنسا من حرب خصمها و لعدم اتفاق الكلمة بين الجزائريين، و لا زال أهل الجزائر يشنون على نابليون و عائلته لما شاهدوا منه من إنصافهم و اعتبار حرمتهم حتى قال في خطابه الرسمي: إني إمبراطور الفرنسيين كما أني إمبراطور العرب، و كان ذلك هو الذي أوجب للكثير ترجيح الحكومة العسكرية ظنا منهم أنها لا تسير إلا على نحو ما تركها عليه الإمبراطور بخلاف غيرها ممن لا يراعى لهم ذمة، حتى أن العساكر مع ما مر ذكره لم يمنح لأحد ضباطهم أن ينال رتبة رفيعة في العسكرية فذاك هو سبب الملل الذي لا يبرح من نفوس الأهالي، و إن جعل منهم بعض أعضاء في المجلس الذي يدعوه الحاكم للتشاور في المصالح، لكنهم أعضاء صورية لأن أغلب الأعضاء من الفرنسيين مدافعون عن حقوق الفرنسيين المستوطنين هناك و هؤلاء يرون أنفسهم مظلومين بالنسبة لأمثالهم في فرنسا مع عدم الداعي إلى ذلك، لأنهم قد تحققوا أن الأهالي إذا نالوا إنصافهم و تسويتهم في الحقوق يكونون أهلا لنيل سائر المنح الحائز لها الفرنسيون، و أهالي الجزائر الآن يعتبرون أنهم في حماية الفرنسيين إلا أن لهم الجنسية الفرنسية و الفرق بين هذين هو أن من له الجنسية ينال سائر المنح الفرنسية و عليه ما على أفراد الفرنسيين من القوانين من الدخول في العسكر و إجراء أحكام الزواج المدني و التوارث على مقتضى القانون إلى غير ذلك، و أما صاحب الحماية فيجوز أحكام ديانته فيما ذكر و لا يدخل للعسكر إلا برضاه نعم يتخذ منهم نوع من العسكر الخيالة يسمون «بالسبايس» دون رتبة العسكر و للأفراد أن يدخلوا في الجنسية باختيارهم بحيث لا- غضب فيها، و قد دخل فيها كثير بعضهم للشهوات و بعضهم تملقا كاليهود و بعضهم طمعا في الرتبة العالية العسكرية، و هو و إن نال شيئا منها لكنه مهان في اعتبار النفوس لما يوجب ذلك من امتهانه لديانته في نظر العموم و لو من الفرنسيين، و لما تقدم لم يكن للأهالي المساواة في الإعتبار بينهم و بين الفرنسيين و يظهر ذلك حتى بنظر العين في المعاملات التكريمية و التوقير و ترى اليهود أحرز للحرية في معاملة الفرنسيين و خطابهم من المسلمين.

مطلب في السياسة الخارجية للجزائر:

ليس للجزائر سياسة خارجية إذ السياسة إنما هي لفرنسا و لا ترى في قاعدة الجزائر و لا غيرها من اعتبار أو ذكر لقناسل الدول الأجنبية و ما هم فيها إلا كأمثالهم في إحدى مدن فرنسا.

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ١٦٧

الفصل الرابع: في بعض صفات الأهالي و عوائدهم

إشارة

أغلب عوائد الأهالي و صفتهم في الجزائر هي مثل ما في أهالي تونس في السلام و الحياء غير أن الجيل الجديد في المدن تخلق أغلبه بأخلاق مخضرمة بين العادات الأصلية و بين عوائد الفرنسيين، و من المعلوم أن النفوس مائلة إلى التشبه بالغالب غير أنها أول ما تسرى إليها الأخلاق الشريرة، أما المحامد فإنها إنما يحمل عليها العقل بالكلفة و لهذا فشت قلة الحياء في كثير حتى سرى ذلك إلى أبناء الفرنسيين الذين نشأوا هناك و قد صاحبنى في الفابور من الجزائر إلى عنابه امرأة حاكم بلاد قاله مصاحبة لأبنائها الصغار و هم ثلاثة دون البلوغ كانوا يتعلمون الفنون في مكتب بلاد الجزائر، و لما أرست الباخرة على مرسى جيجلى صعد إليها نائب لجنة تلك البواخر متفقدا و كان حضر إذ ذاك وقت الفطور فجلس مع الركاب على المائدة و كان من جملة الحاضرين الأبناء المذكورون و بعد الأكل أتى بالقهوة و من عادة الإفرنج الإتيان بقنينه فيها نوع من المشروبات الروحية المسمى بالكنيك و معه كيسان صغار لمن يريد الشرب من ذلك مع القهوة، فأخذ منه من أخذ و امتنع من امتنع فعمد أولئك الصبية إلى المشروب و أخذ كل منهم كأسا و وضعه أمامه فتبسم كبار الحاضرين متعجبين من ذلك و أمهم فار عليها العرق من الحياء و لم تكلمهم بشيء، و بعد هنيهة أخذنى نائب اللجنة إلى ناحية منفردة و قال لى: أ رأيت ما وقع؟ قلت: ما هو؟ فقال:

لا- تهزأ معى لو كان أولئك أبنائى لألقيتهم فى البحر، فقلت: لماذا و هو عندكم ليس بممنوع؟ قال: كلا فإنه و إن كان الخمر عندنا مباحا لكن إنما هو ما يؤخذ منه مع الأكل من نوع ماء العنب بمقدار لا يفعل نشوة أما هذا فإنه لا يستعمل إلا بعد الأكل لمجرد النشوة و الصغار يمنعون من ذلك بمقتضى التربية الحسنة، و لكن نحن قد خرجنا عن طورنا و فسدت أخلاقنا و أفسدنا أخلاق غيرنا فهؤلاء أبناء أحد حكام البلاد على هذا النحو فما بالك بغيرهم الخ.

و كان منشأ هذا الفساد هو أن الحرية فى الفرنسيين قد فطروا عليها بقسميها أعنى الحرية الشخصية و الحرية السياسية لكنهم تحملهم فى بلادهم الحرية السياسية على التخلق بمحامد الأخلاق على قدر مستطاعهم و إدراكهم، و أما فى الجزائر فقد حرموا فى أنفسهم من الحرية السياسية و كذلك الأهالى أطلقوا لهم الحرية الشخصية و حرمهم من الأخرى، فانبعثت القوات كلها إلى الأولى مع ملائمة الطباع النفسانية فأتوا على كل ما يمكنهم التوصل إليه من الفسوق و قبائح الكلام و التزوج بين كل متراضيين من غير نظر لديانة و لا صحة شرعية، بل يقع حتى لبنات مسلمات الفرار من آبائهن إلى رجال من الإفرنج أو غيرهم و يصاحبهم بدون زواج أو به و لا مانع عندهم من ذلك، و أضف إلى ما تقدم من السبب أن الحكام لما كانوا من العساكر مستبدين فتراهم يشتمون بالكلام الفاحش و كأنه هو أول ما يتعلمونه بالصدفة من لغة الأهالى، ثم أن السيرة العسكرية الإستبدادية معلومة فى أن

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ١٦٨

الغالب على الضباط الصغار فمن دونهم هو الميل إلى الشهوات الطبيعية و الإنهماك فيها و لا ينفكون عنها إلا بأوازع الحكمى أو العادى كما فى بلدانهم فى فرنسا بالنظر للعادة، و هاته العادة منتفية فى الجزائر لعدم اعتبار عادات الأهالى حق الإعتبار فنشأ فى ذلك القسم زيادة الإطلاق، و قلدتهم صغار الأهالى على قاعدة الناس على مذهب أمرائهم، و مع هذا فلا زال فى ذوى البيوتات و أصحاب الأصول مكارم الأخلاق الإسلامية و فضائل الطباع العربية و إن كانوا بالأصالة قليلين فى المدن، و أما أهالى القبائل من البادية و المتوغلين فى الجنوب و دواخل القطر فالأكثر منهم على الطباع و العادات الأصلية و القليل الذين لهم علاقة بالحكام و التداخل معهم تغيرت عاداتهم إلى نحو ما وقع فى الكثير من أهل البلدان.

و من الأخيار الذين اجتمعت بهم و منحونى فضائل أخلاقهم التحرير العالم الشيخ على ابن الحفاف المفتى المالكى، بقاعدة الجزائر و هو من تلامذة علامة القطر الإفريقى الشيخ إبراهيم الرياحى كما أخبرنى بذلك عن نفسه، و له فضائل كاملة و تقوى و سكينه و اطلاع

و السعة في الفقه و الحديث و ذاكرني في الهجرة فذكرته بأن مثله قليل الوجود في ذلك القطر و أن بقاءه فيه لتعليم الناس دينهم أنفع للامة و له عند الله من خروجه برأسه و إبقاء تلك الأمة المسلمة خالية عن مثله بل و ربما حمل خروج غيره ممن هو على شاكلته على الخروج فبقى العامة بلا تعلم لديانتهم و تضمنحل منهم الديانة شيئا فشيئا و العياذ بالله، بخلاف ما إذا بقي هو و أمثاله فإنه تنتشر تعاليم العقائد و الفقه و تبقى الديانة إن شاء الله محفوظة في الأهالي و ذلك هو المنصوص عليه في كتب فقهاءنا، حتى أن الأسارى إذا لم يمكن فداءهم جملة فيؤخر منهم العلماء، و من الأخيار أيضا الأصيل الفهامة الشيخ أحمد أبو قندورة المفتي الحنفي بالقاعدة المشار إليها، و هو ذو تبحر في المعارف السياسية و متقن للغة الفرنسية و صاحب حمية في المدافعة عن أهالي وطنه و هو عضو أيضا في مجلس الوالى و له مشاركة في الفقه و الحديث، و كل من الشيخين المومى إليهما إمام و خطيب في جامع بالقاعدة المشار إليها و قد زرت كليهما في مقصورة جامعة و دعاني ثانيهما لوليمة اتخذها إكراما لى جازاه الله أحسن الجزاء، و توجهت معه إلى بستانه في الجبل و هو بستان ظريف جامع للشككين العربى و الأوروبوى و بناؤه ظريف نظيف على النحو العربى المتقن، و من أكارم من اجتمعت به صفوة الخيرة سيدى قدور الشريف نقيب السادة الأشراف صاحب شمائل تليق بجلالة نسبه، و منهم العالم المتفنى الشيخ على بن موسى نقيب زاوية سيدى عبد الرحمن الثعالبي رضى الله عنه، و هو صاحب ورع و ديانة كان ولى في إحدى المناصب الحكيمية و لما لم يمكنه الإمتناع تصامم و اعتذر بالصمم فأعفى و منح نقابة الزاوية

صفوة الإختبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ١٦٩

المذكورة فبقى ساكنا هناك معتكفا على العبادة و المطالعة و له أشعار جيدة، و منهم الوجيه السيد الشريف الصفصافى و غيرهم من الأعيان.

كما اجتمعت بثقات من كبار متوظفى الفرنسييس كالجنرال شيريز حاكم و هران و نائب الحاكم العام فى الجزائر عند مغيبه فى وقت قدومى إلى هناك، و هذا الجنرال زيادة على معارفه العسكرية التى توصل بها إلى رتبة الفريق فإنه منصف عاقل عارف بأحوال سياسة الوطن و السياسة الخارجية، صدوق فى الكلام بدون محاباة و ياليت سائر كبار متوظفيهم هناك مثله، و الذى أعانه على معرفة مصالح الأهالى هو معرفته لغتهم، و منهم أميرال البحر الكماندان دى سان أنددى، و هو شيخ مسن منصف فى السياسة و ممن لاقيته فى غير القاعدة الفقيه النبيه الشيخ السعيد بن شتاه قاضى بلد قاله و هو مشارك فى الفنون الآلية و له إطلاع حسن فى الفقه مع عفة و استقامة، ثم أن الأهالى على العموم فى طبعهم نوع من الحدة و النشاط و ذرية البربر فى لونهم شقرة و صهوبة و لهم ولوع بالفروسية، و الملاهى فى المدن على نحو ما فى أوروبا و فى بقية القرى و البوادي على نحو ما ذكر فى تونس.

مطلب فى التجارة بالجزائر

التجارة مع خارج القطر أغلبها بيد الفرنسييس ثم الإسبنيول و الطليان، ثم غير كالبعض من الأهالى و الإنكليز و النادر من غيرهم و فى دواخل القطر مقسمة بين الأهالى و الفرنسيين و هى على نحو التجارة بتونس إذ لم تحدث بها معامل و لا كبير حركة تجارية سوى بعض معادن كما تقدم فى معدن الحديد بعنابه و معدن فضة فى القالمة، على أن تصفيتها و صناعتها تكون فى فرنسا. و أصول التجارة الجارية على نحو الأصول الفرنسية و على ما فيها من المعاهدات مع الدول، و أما البريد برا و بحرا فهو بيد شركات فرنساوية، و فى الجزائر دار صرف تسمى بانكة الجزائر لها أوراق مالية مثل البنوك المعتمدة فى أوروبا و لتسهيل طرق التجارة و إن شئت قلت لتسهيل الحركة العسكرية قد امتدت طريق الحديد بين الجزائر و هران و تلمسان ثم أخرى بين عنابه و قالمة و سوق هراس و قسنطينة و اسكيكده و هم بصدد وصلها بطريق تونس و وصل البقية ببعضها، و المذاكرات جارية فى مد طريق الحديد إلى دواخل أفريقية و الصحراء حتى تجمع بين شطوط أفريقية الشمالية الشرقية من جهة الجزائر و تونس و بين شطوطها الغربية من جهة سانيغال و تمر على ممالك السودان و لا يخفى ما فى ذلك الربح الباهظ.

مطلب في الأحكام بالجزائر

الأحكام الشخصية منقسمة إلى قسمين: فما يرجع إلى الوقف و النكاح و الطلاق و الإرث عند المسلمين له قضاء مسلمون على مذهب مالك و في بعض المدن مفتون حنفية،

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ١٧٠

و القضاء معين لهم الحكم بكتاب مختصر الشيخ خليل و يجلس مع القاضى عدلان للشهادة على الخصوم و ينوبه أكبرهما عند مغيبه، و أما ما يرجع إلى سائر المعاملات و الجنایات فله مجلس مركب من ثلاثة أعضاء فرنساويين و يحضر معهم عضو مسلم، و هذا المجلس على نحو مجالس الأحكام في فرنسا غير أن القانون الذى يحكم به ممتزج بين ما ترجم من مختصر الشيخ خليل و بين القانون الفرنساوى، فإذا كان الخصمان من المسلمين و الدعوى من أنواع المعاملات الإختيارية فلهما الإختيار بين فصلها في هذا المجلس أو لدى القاضى المشار إليه، و أما إذا كانت الدعوى من قبيل الجنایات أو بين مسلم و غيره فلا تفصل إلا بالمجلس، كما أن للمجلس حق التحقيق على القاضى فيما يحكم به في نوازل المعاملات و ذلك جار في كل بلدة.

و أما القبائل: فحكامهم القواد و الأغوات و القضاء، ثم لما كان أعضاء المجالس في الأغلب غير عارفين بلغه القوم لزم إحضار مترجم مع مراقبة العضو المسلم، و مع هذا فلا يحصل الإنصاف المعهود في محاكم فرنسا إلا من حيث الأعضاء الفرنساويين فإنهم يتحرى في انتخابهم استكمال الصفات و الإستقامة لكن يحصل أطوارا عدم إحسان الترجمة جهلا أو عمدا مع عدم جدارة العضو المسلم فلا يجرى الإنصاف، و أغلب ما يكون ذلك في الحكم الذى لا يقيم المحكوم عليه و كيلا- عارفا باللغة الفرنساوية و متضلعا بمعرفة الأحكام. و قد حضرت يوما متفرجا في مجلس الحكم بعنابة الذى هو في الهيئة على نحو ما تقدم في باريس فأتى برجل في دعوى جنائية و بينما هو يتم في كلامه و إذا بالمترجم تكلم للحكام كان الرجل تمم مقاله فصدر الحكم حالا بسجنه و ما أخرج من بيت الحكم إلا و لاقى من اللكم و اللطم و السب من أعوان المجلس ما تعجبت من صدوره من فروع الأمة التى كنت أشاهد في اعتدالها في فرنسا و أولئك الأعوان هم من الأهالي غير الثقات، و منهم أيضا أعوان للضابطية و يتجسسون على من يقدم من خارج ربما يهيج الأعراب إذا توجه إليهم و بمجرد التهمة يسافر من البلد و هم لا يحسنون لا التجسس و لا الخطاب لعدم الأهلية في الإختيار و على هذا النحو في عدم الجدارة جمع من قضاتهم فلا يتقون الإرشاء و لا يحسنون حفظ ناموس المنصب، حتى شاهدت قاضيا في عنابة يتلاطم و يتخانق مع الخصوم و يجلس في حانات الأراذل مما يتزده عنه أعضاء مجالس الحكم، و كان ذلك في أصل القصد من عدم التحرى في الإختيار لتنفير الأهالي من أحكام القضاء و يفضلون أحكام المجالس بل و ربما أدى ذلك مع زيادة جهل العامة إلى اعتقادهم الإختلال في الشعائر الدينية لما يرون من سوء حالة القضاء و أحكامهم و اعتدال المجالس و إنصافهم.

مطلب في المعارف بالجزائر:

المعارف فيها على قسمين الأول: علوم الديانات و الثانى: علوم الرياضيات. فالأول قسمان أيضا:

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ١٧١

الأول: ما هو مختص بالديانة الإسلامية و له مدرسون في الجوامع يقرؤون النحو و الفقه و في خصوص الجزائر من هؤلاء عشر مدرسين، و الفقه هو المالكي و قليل من الدروس في الحديث أو غيره، و أكثر الاجتهاد في هاته العلوم في بلد قسنطينة ثم تلمسان، و في الجهات الجنوبية يقرؤون العلوم في زوايا الطرق و لأهالي هاته الجهات اعتناء بأخذ العلم فيرحلون إليه إلى فاس و تونس و قليل منهم يرحل إلى مصر، فلذلك لم ينقطع في تلك الجهات من له إطلاع حسن و مشاركة جيدة و قليل من يتضلع حقيقة التضلع لأنه ليس في

أوطانهم علماء فحول و إنما يقرؤون صغار الكتب، و أكثر الإنكباب في الفقه المالكي على حفظ مختصر خليل و تفهمه، و من تمهر في العلوم في إحدى البلاد الخارجية قلما يرجع إلى وطنه، و في كل تلك العلوم مدرسون في الجوامع لهم مرتبات من قبل الدولة الفرنسية و هي القائمة بمصاريف إقامة الجوامع و ما فيها من قراءة الأحزاب أو كتب الحديث لأنها استولت على جميع الأوقاف و المساجد و اقتصرت في كل بلد على عدد مخصوص من المساجد تقوم به و غيره تصرفت فيه بما ناسبها و حرمت المستحقين من مالهم كأوقاف الحرمين.

و القسم الثاني: ما يختص بالديانة النصرانية و لا- دخل للدولة فيه و إنما القسيسون لهم مدارس لتعليم ديانتهم و قد كان نوع من القسوس يعرف بالجوزويت أنشأ مدارس للتعليم حتى للعلوم الرياضية مع الديانة و لهم إتقان في كيفية التعليم و التربية و قد كانوا في حدود نيف و ثمانين و مائتين و ألف احتازوا بكثير من أولاد الأعراب و غيرهم المسلمين بناتا و أطفالا و نصرورهم و ذلك عند ما وقعت فجاعة شديدة بالقطر، و لما بلغ مجلس النواب في فرنسا ذلك العمل شدد قسم منه التكير على الدولة في إطلاق القسوس على ذلك العمل لكنها لم تمنعهم و عند ما كبر البعض من أولئك الأولاد و علموا بأن أهلهم مسلمون فروا إلى أهلهم ثم لما منعت الدولة الجوزويت من التعليم في فرنسا و استولت على مدارسهم و مكاتبهم في سنة ١٢٩٨ هـ ١٨٨١ م عممت ذلك في الجزائر أيضا و نفتهم من كل ممالكها لكنها أوصت بهم نوابها في الممالك الإسلامية بأن يحموهم في جريتهم، أى إذا أرادوا بناء مدارس و التعليم فيها فليس للدولة الإسلامية منعهم و إن منعوهم تعارضهم نواب فرنسا مع أن الدولة الفرنسية الآن جمهورية و تطلق الحرية في كل شيء غير أنها سلبت حرية الجزويت في ممالكها و لم يتيسر لها حمايتهم في ممالك أوربا اللاتي أكثرها فعل بهم مثل ما فعلت هي، فكيف يسوغ مضادة ذلك في الممالك الإسلامية مع اختلاف الديانة فيها؟

و أما في فرنسا فإن ديانتهم متحدة لأن الجوزويت نصارى من أتباع الكنيسة الكاثوليكية الخاضعة للبابا، غير أنهم لهم مذهب في دقائق الديانة و التأويلات و الفلسفة فيها جعل لهم نوع إنفراد عن بقية القسوس، بيد أن الدولة الفرنسية تستند في منعهم من التعليم بأنهم يمزجون في تعليمهم الأحوال السياسية على الأصول الإستبدادية بما لا يوافق سياستها و تخشى من فشوه في الناس مع المكاتب التي يتخذونها تصوير كالمعسكرات تحدث منها الثورة و يأوى إليها الثائرون.

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ١٧٢

و أما القسم الثاني: من أصل المعارف فهو سائر المعارف الرياضية و هاته لها مكاتب من الدولة في البلدان المتمدنة، و هي على نحو المكاتب الفرنسية غير أنها قاصرة عن العلوم العالية، فبعد إتمام التلميذ فيها معارفه ينتقل إلى باريس التي هي مركز سائر العلوم العالية، و المكاتب بالجزائر فيها ما هو للولدان و فيها ما هو للبنات و قد حضرت بالإستدعاء في امتحان البنات بعنابة و وقع الإمتحان في اللغة الفرنسية و في الكتابة و عزف البيانو، و أنشئت المديرية خطبة في تحسين التعليم و أغلب المعلمين نساء في هذا المكتب، كما حضرت إمتحان مكتب الولدان من مسلمين و غيرهم و حضر كلا من الإمتحانين وجوه البلد و حكامها.

مطلب في الصنائع و غيرها بالجزائر

الصنائع بها أحسنها الفلاحة و قد أتقنت في الجهات الشمالية على نحو ما هي في فرنسا. و أما بقية الصنائع فإنها على نحو ما بتونس مع الإنحطاط في الدرجة لا في الكمية و لا في الكيفية عما في تونس إلا بعض أنواع من البرنس فلهم فيه مزيد إتقان كالمسمى بالعباسي و أما هيئة المساكن و الطرقات فإن الجديد على نحو ما في فرنسا و القديم على نحو ما في تونس، لكن الطرقات معتنى بتنظيفها و تنويرها على كل حال كما في فرنسا. و أما اللبس فالرسمي فرنساوى و قواد الأعراب الكبار يلبسون قفطانا طويلا مطرزا بأسلاك الفضة المذهبة، و بقيه لبس الأهالي على نحو لبس التونسيين سوى عموم لبس الرداء المسمى بالحرام حتى في المدن و يجعلون العمامة فوقه و كلهم يدخلون رؤسهم في فوهة البرنس، و لباس النسوة أحسن ستره منهن في تونس لأنه متدلى، و كذلك الأكل و المواكب على

أنواعها فإنها نحو ما فى تونس إلا الذين لهم مزيد اعتناء بتقليد الأوروبائين فقلدوهم فى أشياء كثيرة، و قد رأيت من العادات القديمة أنهم لا يدخلون ديارهم بنعالهم بل كل من وصل إلى السقيفة نزع نعله و لبس نعلا خاصا بالدار أو دخل حافيا تحفظا على النظافة و الطهارة، و لهم أنواع ظريفه متقنه فى الأكل سيما المتخذ من ورق العجين حلوا و مالحة.

و أما اللغة فهى أيضا عريية محرفة على نحو ما فى تونس غير أنهم أقل فصاحة فى النطق ببعض الأحرف مع وجود كلمات غير معروفة فى تونس كقولهم: «أدروك بمعنى أنظر» أو ما قاربها، و فى جهات ذرية البربر لم تزل لغات أسلافهم مستعملة كما فى زواوة و بنى مزاب.

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ١٧٣

الباب السادس فى انكلا تيره

الفصل الأول فى سفرى إليها

قد تقدم أنى أقمت فى باريس سنة ١٢٩٦ هـ نحو شهر و حيث كنت علمت أغلب ما فيها و لزمنى انتظار أشياء يتوقف عليها رجوعى إلى تونس أحببت أن أفضى بعض أيام فى رؤية إنكلا تيره لشهرتها مع قربها من باريس، فركبت الرتل السريع صباحا و ذلك فى رمضان الموافق لتموز الأعجمى، و استمر الرتل سابحا بسرعة يقطع بها نحو الخمسة و الأربعين أو الخمسين ميلا فى الساعة، فرأيت من منظر شمال فرنسا ما يربو عن الجهات الشرقية و الجنوبية انتظاما و عمراننا إلى أن وصلنا إلى بلد كلى التى هى مرسى على أضيح خليج بحر المنش بين فرنسا و إنكلا تيره و لها عدة أسوار و خنادق متينة حصينة للغاية، و دخل الرتل بين سورين إلى أن وصل إلى محاذة الباخرة اللاصقة بالرصيف و كنا أخذنا ورقة الكراء إلى ذات لندره فانتقلنا من الرتل إلى الباخرة، و صادفنا باخرة عجيبه الشكل إذ هى مؤتلفة من باخرتين متلاصقتين عرضا و سطحهما متحد و لكل آله بخارية و بها بيت جلوس واسع جدا ذو إتقان بليغ و بها أيضا بيوت صغار لمن يريد الإنفراد لكنه يزيد نحو عشرة فرنك فى الكراء عن الطبقة الأولى، و فى الباخرة جميع ما يحتاج إليه المسافر لكنه له ثمن زائد عن الكراء و الداعى لجعل الباخرة كذلك هو صعوبة ذلك الخليج و شدة اضطرابه لأنه مضيق بين بحرين و يمر فيه التيار بسرعة فبادنى ربح يشتد اضطرابه مع تطلب الراحة للمسافر فاخترعوا ذلك النوع من البواخر لكى لا يحصل فيه الإضطراب بكثرة عرضه فلم يفد و اخترعوا نوعا آخر فيه أيضا، و هو أن يكون بيت الجلوس منفصلة عن الباخرة من جميع الجهات و معلقة فيها على نحو الفوانيس بحيث إذا مالت الباخرة لا يميل البيت حيث كان معلقا فيتبع ثقل المركز فلم يفد أيضا لأنه إذا اشتد الميلان يلاطم بعض أجزاء السفينة حائط البيت و يتبعه فى الميلان، فحاولوا أن يخترقوا طريقا تحت قعر البحر و وضعوا لذلك رأس مال قدره أربعة ملايين فرنك بين الفرنسيين و الإنكليز للتجربة أعنى تجرته معرفة الطبقة السفلى من أرض البحر هل هى صلبة قابلة للإستمساك أم هى رخوة، أما أصل إمكان النفاذ فقد جربوه تحت نهر التيمس كما سيأتى ذكره و لا زال العمل جاريا فى هاته التجربة و ذكروا أنهم وجدوا الأرض صلبة، بأن حفروا فى شاطئ البحر بئرين أعمق من أعمق محل فى ذلك البحر فوجدوا طبقة الأرض صلبة فاجتهد الجهتين متوال فى أحداث هذا الطريق، و هذا ينيك عن

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ١٧٤

عزائم الأمتين فى العمل و المال و لا يبعد حصول المقصود فى وقت قليل، ثم أقلعت بنا الباخرة و لم تحمل إلا الركاب و البريد و ما خف من البضائع و رحل الركاب و أنعم الله علينا بأن كان البحر فى نهاية السكون و لله الحمد فكنا فى غاية الراحة، غير أنا لا ننظر إلا ما قرب من البحر للباخرة لكثرة الغيم فى الشطين و بعد سير ساعة و أربعين دقيقة وصلنا إلى مرسى دوفر من إنكلا تيره التى هى أقرب مرسى فى مقابلة مرسى كالى، و وصلت الباخرة أيضا للرصيف و نزلنا إلى الرتل الذى هو على أهبة السفر بلصق الباخرة فسألنى خدمة

الرتل: إلى أين توجهي؟ فقلت: إلى لندره، فقالوا: أي جهة منها؟ فتعجبت هل هؤلاء لهم عجلات يوصلونني بها إلى محل نزلي مع أني لم أتخذ منزلا. وإنما كنت كتبت لأحد معارفني فيها ليتلقاني في المحطة، فأعدت لهم إنني ذاهب إلى لندره إلى محطة سكة الحديد، فقالوا: أي محطة؟ فتذكرت ما كتب لي المتلقى إلي في المحطة من أنه ينتظرنني في محطة فكتوريا، و علمت إذ ذاك فائدة تنصيصه على اسم المحطة، و حينئذ ذكرت لهم اسم المحطة فعينوا لي الحافلة التي نركبها و كان ذلك بعد تعب في التفاهم من الجهل باللغات حتى كان الذي فرج الحال رجل يعرف الفرنسية، ثم قفل الرتل سرعان سابحا بسرعة أزيد مما هي في فرنسا حتى لا يتمكن النظر من رؤية الأشياء القريبة و كان الرتل يطفر طرفا من تقارب مقاطع قضبان الحديد الجارى عليها من سرعة السير إذ هو يسير ستين ميلا أو أزيد إلى الثمانين في الساعة الواحدة، و كنت أرى على بساط الأرض آجاما عن بعد من شجرة الدينار التي يضم ورقها إلى ماء الشعير المتخذ سكركة المعروفة بالبيرة، و نرى أكواما كالقرى المنثورة من الآجر المصنوع حتى تعجبت من كثرتة و كثرة معاملته و لكنني عند ما شاهدت بلدانهم زال التعجب، لأن الآجر وحده هو مادة البناء، ثم لما قربنا من لندره و إذا ببساط الأرض على نحو مد البصر كأنه شبكة صياد بقضبان طرق الحديد المتفرعة إلى جميع الجهات و الرتل واردة صادرة كالنمل الساحب، فوصلنا إلى المحطة و تلقاني المنتظر إلي و نفس عنى مللى بكلامه العربى. و هو مستر أميونى أحد أبناء الشام انتقل إلى هناك و سكن بلندره محترفا بصناعة التعليم للسان العربى و كان دخله من التعليم كافي له بعسر لغو الاسعار، و كانت مدة السفر من باريس إلى لندره تسع ساعات و ثلاث أرباع الساعة بين السير فى البر و البحر، و سكنت فى الحارة المعروفة بهيت بادك و أقمت بلندره يومين منفصلين و ثلاث ليال، و اليوم الوسط ذهبت فيه إلى بلد أبريتن صباحا و رجعت منها مساء حيث أنها على شاطئ البحر و ينتدبها أعيانهم صيفا و هى من أعظم منتزهاتهم، و أبنيتها مثل أبنية لندره و أحسنها فى هاته البلد ثلاثة أماكن.

أولها: قصر الملك و بستانه فالبستان جميل إجمالا و أما القصر فقد بناه ملكهم و يلم الثالث المتولى سنة ١٦٨٩ الذى كان معجبا بالصيد و الخلاعة محبا للإنفراد، فبنى قصر بريتن و كان مغرما بأحوال الصينيين فجعل بها ذلك القصر بعيدا عن القاعدة ليهنى عيشه بالإنفراد، ثم أنشأ القصر على نحو قصور ملوك الصين و جلب إليه من هناك سائر الأدوات

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ١٧٥

و المفروشات، و غاية الفرق بين هذا البناء و البنات المعهودة أنه لا يشمل إلا طبقتين و القباب كلها على شكل مخروط الوسط و الحيوط و الأبواب كلها منقوشة مزخرفة بالأشكال الصينية و ألوانها و تصاويرها و الدرج ذات شكل غريب مرتاح، و ظاهر القصر مزخرف و على زواياه و أبوابه شرافات و صوامع جيدة مزركشة و قد باعت الملكة فكتوريا المتولى الآن هذا القصر لجمعية أهلية ليقى منتدى للعموم فى خطبهم و اجتماعهم، و قد انتدبوا إليه عقب شرائه من سائر أقطار إنكلاتيره و ما زال هكذا مباحا للمتفرجين و قد شنت صحف أخبارهم على شح ملكتهم و نهمتها فى المال ببيعها ذلك القصر للأهالى و كان ينبغى لها أن تهديهم إياه و أظن أن الثمن لم يبلغ المليونين فرنكا.

و المكان الثانى: فى البلد هو محل معرض أنواع السمك فى أحواض من الزجاج و وراءها الضوء مركوزة فى الحيوط ينزل إليه بدرج على الشط و حوله مطاعم أنيقة و حدائق و فوقها قهوة، و فى بيوت هذا المعرض بيوت عديدة جميع حيوطها أحواض زجاج فيها أنواع الحيوانات البحرية ما الله به عليم، و يستفيدون من ذلك كيفية حياة الحيوانات و تولدها.

و المكان الثالث: هو دكة على البحر طولها نحو نصف ميل مصنوعة من خشب متين مرفوعة على أعمدة متينة من الحديد عالية عن سطح البحر و حول الدكة و فوقها مقاعد و مناذه و قهاوى و ذلك هو منتدى المنتزهين و اللاعبين و المتسابقين فى البحر، و بقية البلد ليس فيها ما يستغرب و إنما هى حسنة قليلة نظافة الطرق و لم تزل الأشغال جارية فى إحداث حارات جديدة فيها، ثم لما رجعت إلى فرنسا بت ليلة فى مرسى «دوفر» لأن الباخرة تسافر بالبريد مبكرة فآثرت الذهاب إليها عشية لكيلا نتعب بالركوب فى الرتل ليلا للوصول إليها، و تطوفت فيها فإذا هى مرسى حربية و حشمة متينة الحصون كثيرتها و مبانيها رديئة و طرقها و سخته، و منزل المسافرين

الذى بتنا فيه حسن متقن و طعامه ردىء و ليس فى البلد ما ييسط النفس فركبنا منها بكرى الصباح و رجعنا إلى فرنسا فى باخرة فرنساوية اعتيادية و كان البحر ساكنا مع الضباب الكثيف، و حول شاطئ فرنسا كان الجزر حاصلًا حتى خشى السفن من مصادمة الأرض و كان قعر البحر يرى فى بعض الجهات.

الفصل الثانى لما كانت هاته المصمره هى قاعدة إنكلتره و فيها أنموذج سائر المملكه يلزم أن تفرد بالذكر،

غير أنه لا- يخفى ما للمعادن من المعادن، و قد ذكرنا من أوصاف باريس و تفاصيلها ما يغنى كثير منه عن إعادته فى صفه لندره فلنقتصر على ما تنفرد به هاته عن تلك و هكذا نسلك فى سائر المباحث بحيث نقتصر على ما يفيد و ما يشترك فيه الجميع يعلم حاله مما سبق فى الأبواب السابقه، فنقول: إن لندره أكبر مصر فى أوروبا و سكانها على ما تحرر سنه ١٢٩٨ هـ ١٨٨١ م ٤٨٩،٠٠٠، ٣ نسمة منهم ٦٣٣،٠٠٠ ذكورا و ٨٥٦،٠٠٠

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ١٧٦

إنانا، و يخترقها نهر التيمس الذى يحمل السفن الكبيرة و عليه جسور عديده ضخمة جدا، منها البناء، و منها الخشب، و منها الحديد الذى لا أعمده له، يقوم عليها فى النهر و إنما طرفاه على العدوتين و وسطه معلق بقضبان و سلاسل ممتدة إلى طرفيه حيث يوجد أبنية ضخمة مرتفعة، تمر فى أعلاها تلك السلاسل و القضبان ثم تنزل إلى الأرض بحيث تكون على شكل مثلث زاويته الوسطى قائم فيها، ذلك البناء و تلك السلاسل أربع فى كل جهتين من طرفيه إثنان، و بعض هاته الجسور تمر عليها طريق الحديد و بعضها عليه جسر آخر يمر عليه طريق الحديد و قد خرقوا تحت النهر نفقا يمر فيه الرتل أيضا، و طول النفق ألف و مائتا قدم و كان إنشاؤه سنه ١٨٢٥ ثم طمى عليه الماء ثم جدد سنه ١٨٤٣ و كانت مصاريفه ٣٥٠،٠٠٠، ١٥ فرنك، بحيث ترى الطرق عند نهر التيمس فى بعض جهاته على أربع طبقات، فالرتل تحت الماء و السفن على الماء و العجلات و الدواب و الناس على الجسر و الرتل أيضا على جسر فوقهم و الطرق أكثرها فى عرض عشرين ذراعا و القليل أزيد من ذلك أو أقل، حتى أن منها الضيق الذى لا تمر فيه عجله، و الطرق قليلة النظافه حتى أن منها ما فيه الوحل من الطين بمقدار لا تستطيع معه العجلات على سير الخب، و بعض الطرقات مبلط بقطع من الخشب فى شكل الحجارة ذات الشبر التى يبلط بها و ذلك لقله الوسخ من الخشب مع قلة الدوى و فقدان قرعة العجلات، و ذلك إنما هو فى الطرق الكثيرة مرور العجلات.

و أما غيرها فعلى النحو المعتاد و البناءات غالبها من الآجر إلا- قليلا من أبنية خاصة ضخمة متخذة من الحجارة، و قليل أيضا من أساسات بعض الأبنية فهاته تنحت لها الحجارة على شكل مستوى جميل المنظر، و كثير من الديار عند أبوابها أسطوانات من المرمر محمول عليها رواشن أو سرادق، و عامه البناء ذو ثلاث طبقات و الرابعة السفلى و كل دار تسكن عائلة فقط و لذلك كان منظر باريس أبهج إلا- بعض حارات بنيت على نحو باريس فلم يستحسنها الأهالى و بقيت منفورا من سكانها، و كل دار تجد على بابها روشن خارج عن حائط الدار! و فى البلاد عدة حدائق رحيه جدا أعظم مما فى باريس منها حديقة «هيت بارك» و لكل حارة تقريبا حديقة صغيرة خاصة بأهلها، و أعظم مكان فى لندره هو الجهة المعروفة بالسنيين و هو طريق عظيم مشتمل على دار صرف الدوله و على دار حاكم البلد و هو مركز أشغال التجارة الكبرى و محط إدارات أعيان التجار، فترى فيه من الإزدحام و دوى العواجل و الحوافل و المحافل و الركاب و السلع ما يحير العقل و النظر و اللب مع أن أبنيته و تحسيناته ليست مما يذكر، و عادة أهالى لندره أن حارات الأشغال و الحوانيت و المخازن لا يسكنها إلا الصنف السافل من الناس و حارات السكنى تكون خالية عن جميع ذلك حتى يتعب الساكنون فى جلب ضرورياتهم لولا التيسير الكثير فى أسباب الإنتقال من مكان إلى مكان على نحو ما مر فى باريس، و تزيد لندره بأن خط طريق الحديد يطوقها بدائرتين إحداهما أوسع من الأخرى، و بالجملة فقد انفردت لندره عما رأيت و سمعت من

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ١٧٧

مدن العالم بكثرة الحركة و هول الجد في الشغل و الأخذ و العطاء و السفر و الرجوع، و يرى أثر ذلك في محطات طرق الحديد كما أشرنا إلى ذلك سابقا من رؤية براح شبكة القضبان مبسوطة عدة أميال، و يحار العقل كيف لا يغلط مسير المزجيات و حراس مفاتيح الطرق بذهاب الرتل إلى غير قصده؟ ففي لندره ثمان محطات على نحو ما ذكرنا في محطة فكتوريا و قد أحصى في إحداها عدد الداخل و الخارج من الرتل في مدة نصف ساعة فكان إثني عشر رتلا و ليقس على ذلك، و قد نظرت يوما من قصر الزجاج دخان المزجيات الصادرة و الواردة جارة للرتل فإذا هي مثل الجراد المنتشر في كل الجهات.

و أما بقية الأحوال فهي دون باريس في نظارة الحوانيت و بهجة البناء و عدم وجود محل للبول أو كنف في الطرقات و في النظافة و التنظيم و التنوير و لنذكر بعض محلات لم نر مثلها في باريس، فمنها قصر الزجاج و هو قصر عظيم جدا متخذ من قضبان حديد مرصف بينها قطع الزجاج، و قد انشئ أولا مركز المعرض العام في لندره و هو أول معرض في أوروبا، و بعد انفضاض المعرض نقل ذلك القصر إلى ربوة حذو لندره و اتخذ سوقا لبيع تحف و سلع ظريفة و لوضع عجائب و آثار دهرية و صناعية للفرجة و التنزه، و حوله حديقة أنيقة ذات فوارات و قهاوى و على كل داخل أن يدفع شيئا زهيدا من المال لمجرد الدخول و الفرجة و ما يشتري فهو بثمنه، و طريق الحديد يصل إلى هذا القصر من جهتين و هو ذو ثلاث طبقات و مقسم على عدة أقسام و فيه ملهى و فيه محل للرماية و فيه حديقة و فيه عدة فوارات و فيه عدة مطاعم و فيه قسم لمثال حمراء غرناطة بالأندلس، أعنى مثال بعض جهاتها الشهيرة كوسط الحمراء و البيوت الكبيرة متقن التمثيل أعنى تمثيلا مجسما بحيث يدخل الإنسان إلى قصر هو على شكل الحمراء فيما تقدم، و في كيفية طلي البيوت و تمويهها بالذهب و ما فيها من الكتابات الأنيقة بالخط الكوفي، و ذلك القصر هو على نحو الأبنية العربية لكنه فائق الإتقان و الصنعة و التأنيق و التزييق، و في القصر الزجاجي قسم لأحوال الصينيين و صناعاتهم و أشكال أناسهم مجسمة بتصاوير من الشمع و هيئة المكثرتين منهم لاستعمال الأفيون و تأثيره القبيح في عقلهم و ذاتهم و قسم منه لتاريخ بلاد بنى من إيطاليا تاريخا بالمشاهدة لصوره أطوارها، و قسم منه لحيوانات غريبة منها الغول المسمى بالكور الذى هو نوع من القرد الكبير و قد مر ذكره في باريس و أنواع أخر من القردة صغار شبيهة بالإنسان الزنجي، و في القصر الزجاجي أيضا قسم لبيع التحف و البضائع الرقيقة و قد رأيت فيه نحو سبعة رجال من العرب من أهل الشام و مصر و المغرب متخذين محلات لبيع تحف بلدانهم و العطريات و الحاصل أن هذا القصر الزجاجي جامع لأشتات الظرف و النزاهة.

و من الأماكن الشهيرة في لندره أيضا التريعة المعروفة «ترافلكر» و فيها عمود بلسون المبنى من المرمر ارتفاعه ١٧٦ قدما انقليزى، و عليه تمثال و حوله شرافات من النحاس اتخذت من مدافع أخذت من الفرنسيين، و حول العمود فوارتان بالماء أمامهما صورة الملك شارلس الأول و كان نصب العمود سنة ١٨٤٣، و منها أعمدة أخرى.

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ١٧٨

و منها: الملاهى المتعددة و قد شرعوا في بناء أكبر ملهى في أوروبا و أكثرها تأنيقا مباحة لملهى «قران لوبرة» في باريس لكنه لم يتم إلى الآن، و أعجب ما رأيت في ملاهيها في محل التشخيص من اللعب أن بتنا ترتفع في الهواء إلى السقف و تغيب فيه و تارة لما ترتفع إلى نحو نصف الفضاء تسحب في الهواء طائرة إلى جهة اليمين من المتفرجين من غير أن يرى لها ماسك أو شىء تعلق به، و قد خاضت صفحهم في ذلك و لم يقفوا على قول حقيقى في صورة ذلك غير أنى شعرت بأنهم يقللون الضوء عند إرادة تلك اللعبة. و منها: دار الإمتحانات العلمية.

و منها: قصر الندوى و هو أعظم بناء في هاته البلاد، و يمكن أن يقال في أوروبا أيضا عدا قصر الفاتكان برومه، فهذا القصر بلندره يشتمل على ١٢٦ مدرجا أو أزيد للصعود إليه و أكثر من ١١٨٠ حجرة و ١٩ إيوانا.

منها: إيوان الاجتماع الرسمى الرحيب و يشتمل على أسرة و مقاعد و مطاعم و قهاوى بحيث أن أعضاء الندوة إذا يحوجهم الحال إلى إقامة أيام هناك فلا يحتاج أحد منهم لشىء سوى الملبوس يأتى به من محله، و لما كان ليلهم طويلا و يقضون أشغالهم فيه فكان في

القصر من التنوير ما يتعجب منه الناظر و كذلك أمر تدفنته.

و منها: المتحف البريطاني الشامل للآثار العتيقة و الذخائر الغربية و على نحوه و دونه عدة متاحف أخر.

و منها: دار الصرف أى البنك الدولى و هو أعجب بنوك أوروبا كبرا و غناء، إذ فيه من الذهب فقط عشرات آلاف الملايين مخزونة قطعاً كبيرة و صغيرة للدولة و لمن يؤمن ماله فضلاً عن المصوغ و الفضة، و للخزنة محل حصين محاط بالمياه خشية الحريق.

و منها: بورس أى محل اجتماع التجار.

و منها: مجامع التجار العديدة.

و منها: قصر الهند أى محل إدارة الهند المؤتق.

و منها: دار شيخ البلد.

و منها: الحصن العظيم المسمى توراف لندره.

و منها: منزل للمسافرين المسمى «رتيش مانت» و هو خارج البلاد على ربوة مطل على غياض و مرج و نهر، و ينتابه الناس للأكل بكثرة و للسكنى بقله و أكله أحسن من غيره.

و منها: بستان الملك و قصره خارج لندره أيضاً المسمى «همبتون كورت» و ليس به من الغرائب إلا عريشة عنب واحدة مغروسة فى بيت من الزجاج لوقايتها من البرد، حيث أن شدة برد انكلاثيره يمنع من نبات العنب بها فكانت هاته الشجرة معتنى بها منذ أزيد من قرن و قد عظمت جدا حتى ملأت أغصانها جميع البيت التى طولها نحو الأربعين ذراعاً،

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ١٧٩

و صارت تثمر آلاف من العناقيد و لا يخرج منها عنقود إلا بتذكرة من عند ذات الملكة تهادى بها من تتحفه من الأقارب و الأعيان، و على تلك الشجرة قيم خاص و خدمة و تقصد للتفرج بانفرادها.

و الحاصل: أن لندره لا تؤنس الوارد بمنظرها الإجماعى و محاسنها مخبأة يروق بها الأعلى من الناس و من أكرموه معهم، حتى أنها ليست بها قهاوى كما فى سائر أوروبا و ليس فيها إلا حانات لا يدخلها إلا السفهاء، أو حوانيت تبيع الحلويات لمن يدخلها واقفاً.

و منها: عمود مصر المسمى بالمسلة موضوع على عدوة نهر التيمس الحاوية للقصور الملكية و سائر مهمات لندره، و قد صرف على جلبه من إسكندرية أموال باهظة تجاوزت عدة ملايين من الفرنك و أنشئء لجلبها سفينة خاصة بخارية و صاحبته للمراقبة سفينة أخرى، و تليقت عند الوصول إلى لندره باحتفال و ركزت فى موضعها غير أن هذا الموضع و ما حوله ليس مما يذكر و بينه و بين مركز المسلة بباريس بون بعيد، و كان الإنقليز إنما قصدوا إسم وضع مسلة بقاعدتهم لا أنهم أرادوا جمالها و بهاءها.

و منها: تمثال زوج الملكة الحالية المتوفى سنة ١٨٤١ فأقيم له تمثال فى غيضة «هيت بارك» من أعظم الهياكل بناء و رونقا و إتقانا من أنواع المرمر الملون المزخرف بقناطير الذهب، و صرف عليه عدة ملايين من الفرنك.

و منها: المكتبات العديدة الحاوية لملايين الكتب و إحداها شاملة للكتب التى غنمت من ممالك الهند التى استولى عليها الإنكليز استيلاءً باتاً، و هاته المكتبة ليس بها قاعات و أواوين كبيرة كغيرها و إنما هى عبارة عن قصر ضخم كقصور السكنى الكبيرة فى باريس و فيه عدة طبقات و كل يشتمل على بيوت بها نوع من الكتب و الفنون و على كل نوع مدير تحته عدة قيمين، و الكتب المجلوبة من الهند فى أعلى طبقات القصر فى عدة بيوت ضيقة غير مرتبة و لا نظيفة و الغبار على أكثرها، و وضعها فى الخزائن على ترتيب وضعها فى دفتر قيد أسمائها و هذا الدفتر إنما رتب منذ عهد قريب لأن الكتب أتى بها من الهند فى أزيد من أربعين صندوقاً كبيراً و بقيت متروكة على حالها زماناً طويلاً، ثم لما فتحت الصناديق و وجدت ملآنة بالكتب وضعت هناك زماناً طويلاً من غير ترتيب ثم كلف بتنفيذها و كتب فهرس لها أحد المستعربين من جهات سورية فرتبها على حسب حروف المعجم فى أسمائها من غير نظر لموضوعاتها و معانيها فتجدها مجموعة و لا جامع إلا حروف أسمائها و لم يتمها كلها بل قيد منها ألفاً و خمسين مجلداً و بقى غيرها

غير معروف، ثم أن الكتب المزخرفة و الأوراق المذهبة جمعت في صناديق من الزجاج للناظرين فترى ورقة من مصحف كريم و بإزائها ورقة من تصاوير الصينيين إلى غير ذلك، و تشتمل هذه المكتبة على كتب غريبة قليلة الوجود أو غير معروفة و قد طبع ما تم من فهرسها و أعطيت منه نسخة و ليس هو مجرد

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ١٨٠

إسم الكتاب بل يذكر إسمه و طالعه و خاتمه و مؤلفه و كاتبه و سنته بالعربي مع الترجمة للإنكليزي، و مما رأيت به نسخة من التلويح بخط جميل صحيح أظنها بخط المؤلف حيث قال في آخرها: «كتبت هذه النسخة للشاب العزيز منى و أنا العبد المذنب الغريب الموسوم بسعد التفتازاني غفر الله ذنوبه و ستر عيوبه و هو المحترم المكرم صاحب المروءة و الكرم علاء الملة و الدين بلغه الله أقصى ما يتمناه» اه. و على ظاهر هذه النسخة خاتم مدغم كأنه خاتم تيمورلنك و الله أعلم.

الفصل الثالث: في وصف انكلتيره

مسمى عاته المملكة جزيرتان كبيرتان إحداهما أكبر من الأخرى واقعتان في البحر الشمالي من أوروبا تبتدىء من دقيقة ٥٧ و درجة ٤٩ شمالا إلى دقيقة ٠٥ و درجة ٠٦، و في الطول الغربي معتبرا من باريس من دقيقة ٣٤ و درجة ١ إلى دقيقة ٥٠ و درجة ١٢، و يحدهما من ثلاثة جهات المحيط الشمالي و من الجهة الرابعة الخليج المسمى بالمنش الفاصل بينهما و بين فرنسا، ثم يفصل بينهما في ذاتهما خليج مارجرس و بحر ارلانده، و أكبرهاتين الجزيرتين يسمى إنكلتيره و جهاتها الشمالية تسمى اسكوتسيا و الجزيرة الصغيرة تسمى أرلانده و لهذا كانت هذه المملكة معتبرة ثلاثة أقسام نظرا للتاريخ القديم و يسمى مجموعها الآن برنيطانيا العظمى، و على الإجمال فأرضها خصبة جدا ذات مزارع و مراعى واسعة إلا الجهات الشمالية المسماة اسكوتيا فإنها لشدة بردها كانت غير صالحة للزراعة، و هاته المملكة أراضيها منبسطة بها ربوات قليلة الإرتفاع و كلها معمورة حسنة المنظر متقنة الصناعة.

و أما الجبال فهي منخفضة بها إلا في اسكوتسيا فإنها مرتفعة شاهقة و ليس بها جبل بلكاني و أشهر مكان في الجبال جهة الشمال على البحر في اسكوتسيا المكان المعروف بممشى الجابرة، و هو أعمدة صخرية مركبة على بعضها إلى علو ٤٠٠ قدما بغاية الإحكام خلقه فكانت نزهة للناظرين.

و أما أنهرها فكثيرة و أعظمها نهر ساورن الذي يصب في المحيط عند مدينة بريستل، و نهر مرسى الذي يصب في بحر أرلانده عند مدينة ليفربول، و نهر التيمس الذي يحمل السفن العظيمة إلى مدينة لندره، و بين هاته الأنهر ترع عظيمة سهلة المواصلات، و كذلك نهر شانون في أرلانده و الترعة الملكية بها الموصلة بين البحرين.

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ١٨١

و أما بحيراتها فكثيرة أيضا و هي في اسكوتسيا أبهج لما يحيط بها من المرج و الجبال و لذلك كانت متدى الأغنياء في الصيف، و أشهرها بحيرة نس و بحيرة لومند طولها نحو ٣٠ ميلا و كذلك بحيرة نياغ في شمال أرلانده و بحيرة أرن فيها أيضا.

و أما هواؤها فهو على العموم بارد و في الشمال أشد و سليم موافق للصحة، لكن يكثر فيها الضباب صيفا و شتاء و كذلك المطر الذي يسقى مزروعاتهم صيفا و شتاء، و يوم الصحو الذي ينظرون فيه زرقه السماء يعد من حسنات الأيام لأن الضباب يتكاثف أحيانا إلى أن يحوج إلى إبقاء النور نهارا و ربما كان غير مجد إلا في البيوت و المسقفات، أما في الطرق فالنور إنما يقوم بنفسه و لا تخرق أشعته تكاثف الضباب و كاد المطر أن لا يفارقهم ثلاثة أيام متواليات، و قد يشتد الحر في الصيف إلى أشد من أقاليم خط الإستواء سيما في دواخل القارة حتى يموت الناس في الطرق و ذلك لانعدام النسيم و سكون الهواء سكونا زائدا فيشتد الحر إلى درجة عالية للغاية لكنه لا يدوم فما هو إلا يوم أو بعض يوم و تعقبه السحب و الأمطار و البرد.

و أما نباتاتها فهي نباتات الأراضي الباردة و الجهات الوسطى و الجنوبية يخصب فيها سائر الحبوب و إن كانت لا تكفى السكان، و أما

العنب و ما شاكله من نبات الإعتدال و الحر فلا يوجد منه إلا ما يجعل له بيوت خاصة معالجة بالتسخين الناري، و مع ذلك فتجد الأرض بهجة مخضرة بالنباتات لكثرة العلاج و إتقان الفلاحة و تجرية المياه، و غاباتها كثيرة بها الأشجار الضخمة الصالح خشبها لإنشاء السفن العظيمة فيراها الناظر معمرة لأغلب البقاع، و نباتات المراعى خصبة جدا تسمن عليها الحيوانات. و أما معادنها فالغنى منها الحديد و الفحم الحجري بكثرة في أغلب الجهات، و فيها الرصاص و غيره و هي أغنى ممالك أوروبا في المعادن.

و أما حيواناتها ففيها كل أنواع الحيوانات الموجودة في فرنسا و إيطاليا كما سبق ذكره، و السباع منها منقطعة للإجتهد في إزالتها من قديم فإن وجد شيء من صغار السباع فإنما هو في الجبال الشمالية و ذلك كالدب و الثعلب و ما شاكلها، و أول من اعتنى بإفناء السباع من المملكة الملك أدغر المتولى سنة ٩٥٩ فقد ألزم رعيته في كل سنة بأن تأتيه بثلاثمائة ذئب و استمر ذلك إلى أن فنى ذلك النوع، و قد كان مالكا أرضها مع خبثه الشديد لأن الذئب الشمالي كالسباع الكبيرة في الجرأة و الأذية كالمشاهد الآن في الروسية، و خيلها جيدة للغاية و فيها من أجود الخيل العرابية لشدة العناية بجلبها و توليدها و تربيتها حتى فاقت سائر أوروبا في الخيل، و كذلك غنمها أحسن أنواع الأغنام و صوفها مرغوبة للصناعات النفيسة لأنها كادت أن تكون مثل الحرير.

و أما مدنها فقاعدتها لندره و قد مر ذكرها و بقيت المدن كثيرة و من أشهرها: «ليفربول» و هي ثانياً لندره في التجارة واقعة على مصب نهر مرسى في بحر أرلانده، و في مرساها من

صفحة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ١٨٢

السفن ما يستغرب من كثرته. ثم مدينة «مانشستر» لها من الشهرة ما يناكب السابقة و هي شرقيها على نحو ٣٢ ميلا. ثم مدينة «بيرمنهام» ثم مدينة «رشفيلد» و مدينة «كدرمنستر» و في أسكوتسيا مدينة «أيدنير» و مدينة «أبردين» و مدينة «دندي» و مدينة «كلاسكو» و هاته أعظم أخواتها تجارة و مركزا و معارفا، و في أرلانده أربع عظيمة: إحداها: جهة الشمال. و هي «بلغاست» الثانية: جهة الشرق. و هي «دوبلين» الثالثة جهة الجنوب: و هي «كورك» الرابعة جهة الغرب و هي «غلو» و كل من هاته الأربع قاعدة للقسم الذي هي فيه، و هناك مدن أخرى عديدة غير هاته.

و أما مراسى هاته المملكة فحيث كانت هي جزائر بحرية فكادت مراسيها أن لا تعد و أكثرها محصن تحصينا جسيما حتى أن كثيرا من الحصون في المراسى الحربية صارت الآن مدرعة بصفائح الحديد التخين الذي لا يعمل فيه الكور من المدافع الجديدة، و في بعضها معامل للسفن المدرعة و الخشبية، و من هاته المراسى ما هو مأمّن للسفن بأصل الخلقة كأكثر مراسى أرلانده، لأن في شطوطها تعاريج كثيرة حسنة المنظر، و منها ما هو مأمّن بالصناعة و تجيء إلى هاته المراسى التجارة في السفن و البواخر من سائر الأقطار و أكثر سفن العالم إنما هو للإنكليز كما يأتي توضيحه إن شاء الله تعالى، و قد تحرر أن لها على شطوطها لهداية السفن ليلا أزيد من مائتي منارة.

و أما تقاسيم المملكة بالنظر للإدارة فهي في انكلاثيره الأصلية إثنان و خمسون مقاطعة، و في أسكوتسيا ثلاثة و ثلاثون مقاطعة، و في أرلانده أربع مقاطعات، فالجميع تسعة و ثمانون مقاطعة لكل منها إدارة على نحو ما يأتي بيانه إن شاء الله.

و اعلم أن هاته المملكة تتبعها جزر أخرى صغيرة حوالها كثيرة أشهرها جزيرة «مان» و جزائر «نورمونديا» و ذلك عدا المستعمرات الخارجية، لأن ما ذكر هو قطعة من ذات المملكة.

و أما أهل المملكة فهم إثنان و ثلاثون مليوناً كلهم إنكليزيون و ديانتهم نصرانية على مذهب البرتيستانت إلا البعض، و هم أكثر أهل أرلانده فهؤلاء على مذهب الكاتوليك، و يوجد فيهم قليل من اليهود و الدهريين و أفراد من المسلمين منهم من أهل المناصب العالية و البيوتات الكبيرة الملقين باللورد، كاللورد استارنلى و هو من الصادقين في الإعتقاد الإسلامى و لله الحمد، دخل إليه عن رؤية و برهان نسأل الله له مزيد التوفيق و الحماية و علو الكعب و الهداية، ثم أن هاته المملكة لها مستعمرات واسعة في جميع أقطار الأرض

حتى كانت أول دولة في العالم في اتساع الممالك و ثاني دولة في كثرة الرعية، إذ هي تاليه لدولة الصين في كثرة الرعية لكنها الأولى في اتساع المملكة و علو الشأن في أقطار الأرض جميعها، فأعظم مستعمراتها هو الهند و ما معه و قد مر في المقدمة تفصيل ما وصلنا إليه من أحواله، و لها في آسيا أيضا جزيرة «هنكونغ» في الصين و مدينة عدن و باب المندب و جزيرة يريم في جزيرة العرب و جزيرة قبرس في البحر الأبيض دخلتها بمعاهدة مع الدولة العثمانية

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ١٨٣

سنة ١٢٩٥ هـ و حماية على مسقط و بعض قبائل شطوط جزيرة العرب الشرقية، و لها في أوروبا جزيرة الياغولاند في بحر الشمال و جزر جرسى و غرنسى في بحر المنش و جزائر صغيرة حول المتجمد الشمالي و جبل طارق الهائل التحصين في أرض إسبانيا على الخليج الموصل بين المحيط و البحر الأبيض المسمى ببوغاز طارق، لأن طارق هذا هو الذي عبر البحر من أفريقيا، و استملك الجبل المذكور للمسلمين فسمى به ثم افتتح بقية الأندلس، و كذلك لها في أوروبا جزيرة مالطة في البحر الأبيض و سيأتي تفصيل حالها إن شاء الله، و لها في أفريقيا شطوط من سانيغال و جبال الأسد في كينيا العليا و أرض شط الذهب فيها و رأس الرجاء الصالح و جزائر سنتلين و موريس و لاسانيول و شطوط في جزيرة مد عسكار، و لها نوع حماية أو سلطة على ممالك مستقلة في أفريقيا أيضا مثل الزلوس و غيرها في أرض الكفر و نفوذ في الزنجبار، و لها في أمريكا البريتانيا الجديدة في شمال أمريكا و كندا و برنزويك و سكوسيا و لا برادور، و كلها توصف بالجديدة، و جزيرة الأرض الجديدة و أراضي أخرى غربي شمالي أمريكا، و جزائر المتجمد الشمالي و جزائر الأنتيل الصغار و جزائر جامايك و يمان الأنقليزية و ماجلان، و لها في أستراليا الشط الشرقي و معظمها من بقية الشطوط و جزائر تزمانيا و زيلاندة الجديدة و نورفولك، فإذا نظر المتأمل لاتساع هاته المستعمرات و افتراقها على جميع أقسام المسكونة علم مقدار اقتدار هاته الدولة و سيأتي في فصل التاريخ أن من حسن إدارتها كانت هاتيكم الممالك قوة لدولتها لا جالبة لضعفها و هذا جدول لعدد السكان:

٢٢٧٠٤١٠٨ سكان انكلاتيره

٠٠٣٣٥٨٦١٣ سكان إسكوتسيا

٠٠٥٤٠٢٧٥٩ سكان إيرلانده

٠٠٠١٤٤٤٣٠ سكان الجزر التابعة لها

٠٠٠٢٠٧١٩٨ عساكر و بحرية خارجها

١٦٢٠٧٢٧١٥ سكان ممالكها بالهند

٠٠٠١٦٠٣٦٩ سكان بقية أماكن بأوروبا

٠٠٥١٣٣٧٢٢ سكان ممالكها بأمريكا

٠٠٠٠٠٠١٨٦٠ سكان مستعمرات أفريقيا

٠٠١٩٥٨٦٥٠ في استراليا

٠٠٠٤٢٦٠٤٧ في بقية الجهات

٢٠٣٤٣٠٦١١

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ١٨٤

الفصل الرابع: في إجمال تاريخ إنكلاتير

لا يخفى أن سائر أوروبا كانت في العصر السالفه على جانب عظيم من التوحش فلذلك كانت تواريخها القديمة عقيمة مجهولة و من ذلك تاريخ انكلاتيره أيضا، و غاية ما يعلم من أحوالها أن قوما من الكنينين أي قدماء الفرنسيين الذين مقرهم في فرنسا بين نهر السين و نهر غارون عبروا إلى أراضي انكلاتيره بقصد توسيع التجارة فلم يجدوا لهم ممانعا و استوطنوا هناك، ثم لحق بهم فرقة من أهل البلجيك و بقوا جميعا على التوحش التام و حكمهم بأيدي رؤساء القبائل بل العائلات حتى أن غير هؤلاء هم كالعبيد بأيديهم، و بينهم كهان لهم سلطة على الجميع بما يتعلمونه خفية من علم السيمياء و الطبيعيات ليوهمو العامة بخرق العادة لهم حتى اعتبروهم كالألهة، و كانوا جميعا يعبدون الأصنام حتى أنهم يقربون إليها دماء الإنسان بالتضحية لها، و في سنة ٥٥ قبل التاريخ المسيحي عبر إلى إنكلاتيره يوليوس قيصر بجيوش الرومان فلم يتمكن منها لمعارضة الأهالي مع هيجان عظيم في البحر ثم عاد إليها ثانيا و استملك منها بعض الجهات لكنها لم يستقر حالها أيضا، و في سنة ٤٣ بعد التاريخ المسيحي أعاد الرومان الكرة و افتتحو الجزيرة و أرسلوا رئيس عصبتها إلى رومة أسيرا، ثم ازداد الرومان تمكنا منها بما وقع من التخاذل بين أولئك الكهان إلى أن أبادوهم، غير أنه كانت إحدى القبائل مترسفة عليهم امرأة يقال لها «بوديكا» فاستهضت جميع الأهالي و قهرت الرومان و قتلت منهم سبعين ألفا، ثم أعادوا الكرة و انتقموا من الأهالي حتى قتلوا منهم ثمانين ألفا و زادوا عليهم العذاب المعروف من الرومان ثم عدلوا فيهم و كمل إخضاعهم بالعدل أحسن من السيف لكنهم شغبهم أهالي إسكوتسيا الساكنون في الجبال بغاراتهم المتتابعة فبنوا بينهم سورا ثم آخر أعظم منه طوله ثمانون ميلا و ذلك في حدود سنة ١٢١ مسيحية.

و في سنة ١٨٧ استبد على الرومان أحد قوادهم بميل الأهالي إليه و صار ملكا على إنكلاتيره، ثم عادت إلى الرومان بلا حرب لتكاثر الإنقسامات الداخلية و دامت ولاية رومانية إلى القرن الخامس، و في مدة استيلاء الرومان التي هي أربعة قرون حصلت الأهالي على معارف جمه مما كان عند الرومان حتى كانت ذات مدن و حضارة و صنائع و تجارة لما في الأهالي من النشاط إلى الكد، ثم في سنة ٤٢٠ اضطروا الرومانيون إلى تسليم إنكلاتيره لأهلها و رفع جيوشهم منها لما وقع في إيطاليا من الحروب الأهلية و الخارجية فكان حفظ قاعدتهم أولى لهم من حفظ المستعمر، غير أن أهالي أنكلاتيره و إن حصلوا على حظ من التمدن بسبب المتسلط عليهم فقد فقدوا ما يوازي ذلك من الحرية و الشجاعة للهوان الذي حملوهم إياه، فلم يستطيعوا الإستقلال بأنفسهم لمهاجمة أهل الشمال من جبال أسكوتسيا فلذلك استنجدوا قبيلة من الألمان مقرها على مصب نهر الألب من أوروبا الشمالية تسمى

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ١٨٥

السكسونية، لما كان بينهم من المودة و المخالطة و طلبوا منهم الإعانة على دفاع الأعداء فأنجدوهم، لكنهم استأثروا عنهم بفائدة النصر فجعلوا الأهالي كالعبيد لهم و تملكوا عليهم، و عندما أرادوا دفاعهم شتوهم و استقلوا هم بالبلاد. و رحلت فرقة من أهالي انكلاتيره فارة بحياتها إلى أراضي فرنسا و سمي المكان الذي استعمروه منها بإسم برنيطانيا نسبة إليهم حيث كانوا من أهالي برنيطانيا، و كان مبدأ استملاك السكسونية من سنة ٤٤٢ ميلادية، ثم قسموا انكلاتيره إلى سبع ولايات تسمى بأسماء أعيانهم و لكل منها أمير و يرجع الجميع إلى ملك و هو أحدهم، و نشأ عن ذلك منازعات في هاتييك السيادة دامت بسببها الحروب الداخلية و عندما فاز بها ملك ولاية كنت أحد السبع المذكورة، دخلت في الأهالي الديانة النصرانية و ذلك سنة ٥٩٦ و امتدت الهويينا فيهم إلى أن عمتهم.

و في سنة ٨٢٧ زال استقلال سائر الولايات بدخولها جميعا تحت تملك ملك واسيكس و هو أغبرت و هو أول مستقل حقيقة بالجميع و أول ملك لإنكلاتيره جميعا من العائلة السكسونية و توارثت الولاية أولاده، و في مدتهم هجم عليهم أهالي الدانيمرك و تملكوا أولا عدة جهات ثم عمت ولايتهم لكنها لم تطل، و استرجع منهم ألفرد الملك الأصلي من العائلة السكسونية بعض الجهات، ثم عقد معهم صلحا و معاهدة على الذب و الإقدام و اشترط عليهم الدخول في النصرانية، ثم التفت إلى إصلاح البلاد من جهة التمدن و من جهة القوات الحربية و أدمل جراحاتها و رقاها إلى أوج حسن، و مع ذلك كان منكبا على التأليف و الترجمة فأفاد أمته فوائد جسيمة و فتح لهم بابا من الحرية حتى كان من جملة حكمه التي جرت عندهم مثلا إلى الآن قوله يجب أن يكون الإنكليز أحرارا مثل أفكارهم

و لمثل ذلك لقب هذا الملك بالفريد الكبير و كانت وفاته سنة ٩٠٠.

و من مشاهير ملوك هاته العائلة حفيد المذكور اشليستان الذى أتم استخلاص المملكة من بقية الدنمرك و رقى قواته الحربية إلى أن رغب فى موالاته غالب الملوك من أوروبا، فعقد الصلح مع فرنسا و صاهر بأخته ملكها و بأخته الأخرى ملك ألمانيا، و من مشاهيرهم أيضا أرغرتوا المستولى سنة ٩٥٩ فإنه أبلغ القوات البحرية إلى درجة لم تعهد لهم فى ذلك التاريخ حتى صارت سفنه أربعمائة سفينة، و كان يتفقد بنفسه المملكة مرة فى السنة و هو الذى قطع الذئاب منها كما مر آنفا، و منهم أيضا الملك أثريلد الذى كان سبب استيلاء الدنمرك على المملكة بقتله جميع من كان فيها منهم فافتتحوها بحروب ذريعه، و تملك منهم على إنكلاتيره ثلاثة ملوك أشهرهم: الملك كانوت الذى عمم العدل و الراحة حتى استطاع السفر عنها لزيارة البابا فى رومية و كتب إلى عماله بما تعريبه: «إعلموا جميعا إنى نذرت حياتى لله و أن لا أحكم فى ممالكى إلا بالعدل و أن لا أفعل فى كل أمر إلا المستقيم

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ١٨٦

فإن كان صدر منى و أنا فى عنفوان شيبتي و عدم مبالاتي ما يناقض ذلك فما أنا ذا قد عزمت بحول الله على تعويض ما فرط منى، و لذلك أرجو و أمر كل من قلده شينا من الأمر و يريد خلاص نفسه و بقاء طاعته لى أن لا يظلم أحدا سواء كان فقيرا أو غنيا، و لتسوا بين الأشراف و غيرهم فى إناله حقوقهم على مقتضى الشرائع التى يجب حفظها، و لا- يحولكم عن ذلك الخوف منى و لا تطلبوا رضاء الأشراف و لا الميل إلى ملء خزائنى المالية فإنى لا أحب ما لا جمع بظلم» اه.

و بعد وفاة هذا الملك ثارت الفتن بين أعقابه و أعقاب العائلة السكسونية إلى أن استولى منها إثنان فى ارتباكات متوالية حتى انقرض الجميع سنة ١٠٦٦، و بينما كانت الأهالى فى نزاع فىمن يملكه عليهم و إذا بأحد أمراء ولاية نورمندية التابعة لفرنسا قد هجم عليهم و قهرهم جميعا و استقر ملكا عاما على إنكلاتيره و على نورمندية معا، ثم حصلت له حروب فى إنكلاتيره حملته على الإنتقام بالقتل لأهلها و إفساد الزرع حتى نشأت عنه مجاعة مات فيها نحو مائة ألف نفس، ثم ثار عليه ابنه الذى خلفه فى نورمندية و حاربه و انتصر عليه، و بعد موته خلفه ذلك الابن فى كل من المملكتين مع حروب دائمة فيه و فى خلفه، حتى استولى هنرى الأول من أحفاده و حاربه فرنسا فى مدة لويس السادس عشر لاستخلاص ولاية النورمندية و غلبها و نازع البابا فى حق إعطائه وظائف الديانة و استقل هو بها مثل سائر الوظائف، ثم تعاقبت الثورات و الحروب تارة داخلية و تارة مع الولاية النورماندية فى استخلاص نفسها و نزاع فى التملك إلى أن ولى هنرى الثانى أول العائلة البلاطاجينية و هو إسم حشيشة كانوا يصنعونها فى فلانيسهم فنسبت العائلة إليها و ذلك سنة ١١٥٤، فأعمل هذا الملك حزمه فى إزالة تعصبات الجهات و أزال ما فيها من الحصون و خضد شيئا من شوكة الأعيان و أجرى نوعا من التسوية فى الحقوق فهدأت الحروب فى مدته، و من مشاهير فروع فى الملك ريكاردوس الملقب بقلب الأسد المتولى سنة ١١٨٩ و هو الذى اشترك فى حرب الصليب ثم أسر عند النمسا و فداه أهله و قتل و هو محاصر لإحدى القلاع فى فرنسا، فولى أخوه يوحنا الموسوم باختلال العقل حتى خسره مستملكات الإنكليز فى فرنسا و قتل ابن أخيه فتارت عليه الأعيان و ألزموه بما أتى خبره و انتقلت حالة المملكة إلى طور آخر.

مطلب فى تاريخ إنكلاتيره الجديد

اعلم أن مبدأ ظهور الحرية فى جميع أوروبا على الأصول المعروفة هى إنكلاتيره و لذلك كانت هى أسبق ممالك أوروبا إلى ذلك، و حصل فيها هذا الأمر على

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ١٨٧

نحو ما سيأتى و لهذا اعتبرنا ذلك فهو تاريخ جديد إلى إنكلاتيره لأنها استمرت على أصوله و زادت ارتقاء إلى الآن، و إن اعترت فى الأثناء توقفات و معارضات تارة تخضد شوكة القانون و تارة تزيلها لكن على كل حال قد نشبت أصوله و أدركتها العقلاء و سرت

منهم إلى غيرهم الهويينا شأن الإصلاح في كل شيء و حاصل هذا البناء أن الملك يوحنا و بلغتهم جان سانتير لما تصرف تصرفات أضرت بالمملكة و الدولة تعصب أعيان المملكة و فرضوا قانونا سموه بالشرط الكبير و أزموا الملك بقبوله و إمضائه و العمل به و ذلك في سنة ١٢١٥ فلم يسعه إلا العمل بذلك، و ملخص هذا الشرط الكبير: هو أن الملك التزم في حق نفسه و حق من يأتي بعده بمنح الحرية إلى جميع الإنكليز، و أن فرض الضرائب على الأمة لا يكون إلا برضاء مجلس مركب من الأساقفة و رؤسائهم و أهل الخطط الدينية و الأعيان من الأمة أصحاب ألقاب البارون و الكنت و المتوظفين في الدولة، و أن ذلك يجرى أيضا فيما إذا اقتضى الحال جعل إعانة مالية على مدينة لندره مع بقاء حريتها القديمة، و أن مجلس الحكم العام لا يلزم انتقاله إلى حيث ينتقل الملك و أن المكترين للأراضى لا يلزمهم العقاب المالى لأجل هفواتهم و إنما يكون العقاب على الجناية و لا يؤخذ لأجلها إلا مما يزيد على القدر الضرورى للجاني، و هكذا الباعة و السوقة لا- تمس رؤوس أموالهم و لا- تعطل حركاتهم التجارية و لو لجناية، و كذلك الفلاحون الذين تحت تسلط الملك أو أصحاب الأملاك لا توضع عليهم ضرائب العقاب عند الذنب إلا بقدر الطاقة بحيث لا تعطل أشغالهم، و أن جنائتهم الملزمة لذلك لا تثبت إلا بشهادة إثني عشر نفسا ممن يرضون للشهادة مع اليمين، و أن يبطل عمل التسخير بأخذ حيوانات الأهالي و عجلاتهم لحمل أثقال الملك و أن يتحد عيار الكيل و الوزن و القيس في سائر المملكة على عيار لندره، و أن لا يمس حق لإنسان مطلقا في كل ما يرجع لذاته و ماله و عرضه و لو من الملك إلا بمقتضى القانون و حكم المجالس به، و أن لا يمنع أحد من السفر إلى أى مكان أرادته برا و بحرا و لا يمنع من الرجوع متى أراد مع التزام الطاعة على مقتضى القانون الخ.

فمن تأمل ما لخصناه من ذلك الشرط يعلم ما كانت عليه الحالة سابقا مما يناقض الشروط المشار إليها، ثم خلف ذلك الملك ابنه هنرى الثالث و دام في الملك خمسا و خمسين سنة مع كونه غير جدير بالتصرفات، و إنما عضد إبقاء العمل بذلك الشرط و زاد تأكيدا بالقانون المسمى بتقرير أكسفورد نسبة إلى البلد المنعقد بها، و ملخصه: أن مجلس البرلمان أى مجتمع البارونات هو الذى يعين أعيان المتوظفين و الحكام الذين يتبدلون في

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ١٨٨

كل سنة و يحرس قصور الملك و يجتمع ثلاث مرار في السنة و يبقى في بقية السنة لجنة منه مركبة من إثني عشر عضوا يتفاوضون دائما مع مجلس الملك و يوظفون في كل مقاطعة أربعة أعضاء لقبول الشكاية من الأعيان و المتوظفين و يعرضونها على البرلمان عند أول اجتماع الخ.

ثم ولى إدوارد الأول الملقب بذي الساقين سنة ١٢٧٢ هـ و دخلت في مدته إيالة والس تحت إنكلاثيره و ولد ابنه بها، و لهذا صار لقب ولى العهد برنس والس و برنس دى غال نسبة إلى المكان المولود به من الإسمين المذكورين، ثم ولى ابنه إدوارد الثاني سنة ١٣٠٧ هـ بعد حروب طويلة في مدة الملكين أفضت بالثاني إلى الموت في السجن و استولى بعده ابنه إدوارد الثالث سنة ١٣٢٧ هـ و هو ابن إثني عشرة سنة، و هو المبتدى لحروب المائة سنة مع فرنسا بدعوى استحقاقه تاجها لأنه من ذرية البنات الأقرب من فليب غالوا ملكها، و استولى على كالى و بردو و بايون مع مستتبعاتها من فرنسا بعد حروب هائلة، و في مدته ظهر مذهب البرتيسانت الذى انتشأ في إنكلاثيره من رجل فلسفى متدين بالنصرانية و لا زال يتقوى فيهم ذلك المذهب و الحروب مستعرة تارة للديانة و تارة لجور الملوك إلى أن استولى الملك هنرى الرابع سنة ١٤٠٠، و هو أول العائلة المسماة لانكستر نسبة إلى دوك ولاية تسمى بذلك الإسم، و دامت الحرب في أيامه إلى أن خلفه ابنه هنرى الخامس سنة ١٤١٣، الذى جمع تاج إنكلاثيره و فرنسا بافتتاحه للثانية، و عند موته تتوج ابنه في حضن مرضعته بمدينة باريس بالتاجين معا لأنه ابن تسعة أشهر و لقب بهنرى السادس، غير أنه ضعف أمره بانقياده لأمر زوجته عند شيوبيته فانقسمت انكلاثيره إلى قسمين أحدهما تابع لهذا الملك و الآخر لثائر من العائلة السابقة، و اتخذ الأهالي شعارا دالا على التبعية فأتباع الملك شعارهم وردة حمراء و الآخرون شعارهم وردة بيضاء و لهذا تسمى حروبهم تلك التى دامت ثلاثين سنة بحروب الورد، و خرجت في مدتها فرنسا و استقلت و كشفت الحرب عن رجوع الملك إلى العائلة السابقة بمكائد و فظائع من الملك إدوارد

الرابع الذى تسبب فى ذلك و لم يطل الملك فى عقبه عند وفاته سنة ١٤٨٣، و غايته انتزاعه من ابنه الصغير الذى تحت وصاية عمه فاغتنم العم الأمر إلى نفسه بقتل الموصى عليه و أخيه معا و استبد هو سنة ١٤٨٥ متلقبا بهنرى السابع، و أشهر مآثره تأسيس إدخال أواسط القوم فى إدارة المملكة بأن ينتخب الأهالى منهم نوابا فى مجلس للمفاوضة فى مصالحهم و أن لا تشهر حرب إلا بعد تعذر إطفائها و لو بتوسط أجنبى، و سلم لفرنسا فيما بقى لانكلاثيره بها صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار؛ ج ٢؛ ص ١٨٨

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ١٨٩

من إيالة بريطانيا بعوض قدره أربعمائه ألف ليرة، و اغتنم من الأموال خزائن عظيمة حتى قيل إنه خلف فى خزائنه الخاصة عشرة ملايين ليرة، و ارتقى إلى ملكه بعده ابنه هنرى الثامن سنة ١٥٠٩ و كان شديد البطش لكنه نفع المملكة بالإصلاحات التى أجزاها، و هو أول متمذهب بالمذهب البرتستانات و تعصب له حتى أمر بقتل كل من لا يقبله، و فى مدته دخلت إرلانده تحت إنكلاثيره و صارت مملكة واحدة و على عكسه إبنته المتولية بعد أخيها و هى مريم حتى لقبته بالدموية لقتلها أهل ذلك المذهب بل حرقتهم أيضا و خضدت شوكة القوانين و مجلس البارلمان بعزلها من عارضها و تولية من يوافقها، و خسرت مدينه كالى من فرنسا لمحاربتها إياها انتصارا لزوجها ملك إسبانيا ثم لما خلفتها أختها سنة ١٥٥٨ رفعت الإضطهاد الدينى و زاد مذهب البرتستانات انتشارا لما نال الأهالى من الحرية فى سائر أطوارهم، و حصلوا على درجات من التقدم بالصنائع و المعارف ممن هاجر إليهم من ألمانيا و فرنسا و غيرهما من أهالى المذهب البرتستانات لما وجدوا هناك حريتهم من القتل لهم فى أوطانهم، و فى مدتها عرف الشاى عندهم و عرفت الساعات، و فى سنة ١٦٠٠ تشكلت لجنة الهند التى تقدم بيان أعمالها فى المقدمة و حيث لم يكن لها وارث عهدت إلى أحد قرابتها و هو ملك اسكوتسيا الملقب جمس استوارد و به اتحدت المملكتان، و هو أول عائلة استوارد استولى سنة ١٦٠٣ و كانت أيامه على نوع من التقدم لانفتحه من الحروب و كاد فى مدته أن يحرق مجلس البارلمان بمن فيه بدسائس البابا فوضع تحته لغم لكنهم تفتنوا له.

و ولى بعده سنة ١٦٢٥ ابنه كارلوس الأول و تفاقم الخلاف بينه و بين الأمة فى حدود سلطته إذ أراد أن يبقى مجلس الندوة المسمى بالبارلمان سوريا و هو يتصرف كيف يشاء و يحمل المسؤولية على المجلس لإخضاع الأمة و تبرئة نفسه، فلما عارضه المجلس عزل أعضاءه و انتخب آخرين لكنه كان كلما انتخب أناسا كانوا على نمط سلفهم فى معارضته، حتى تفاقم الخلاف و اشتهرت الحرب بين الأمة و الملك و كان من حزبه أغلب الأعيان و كبراء البيوتات لما ينالهم من الحظ من إطلاق الملك، لأنه كلما أطلقت يده انطلقت أيديهم أيضا فالحظ يقتسمونه بل يكون لهم منه القسط الأوفر، حيث أن كلا منهم يجتهد فى خصوص مرضاء الملك و حواشيه بشيء من التملق و التعظيم الباطل الذى يسخر منه العاقل، و يضيف إلى ذلك جزء من الأموال التى ينتهبها رشاء لأولئك الأفراد ثم يطلق عنان شهواته فى ملايين من الناس على حسب إرادته يستعوض منهم كل ما دفعه من المال و الأعمال، بل و ربما أنفذ أغراضه فى أقرانه لما وقع بينهم من التحاسد و التشاحن فما هو إلا أن يرضى تلك الشرذمة و ينتقم من ضده بالقتل على أوجه لا تحصى، منها: الجهرى، بدعاوى من الزور و حكم مجالس صورية تلقن ما تقول من الليل، و منها: السرى، بالتسميم

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ١٩٠

و غيره من أنواع الغدر أو يحصل التنكيل بدون القتل كالتغريب و السجن مع أخذ المال كل ذلك باحتيالات صورية على ظاهر الأعين ليقال إنهم لم ينقضوا القوانين حتى لا- تثور العامة، و أما متولى أكبر حزب الأمة فهو البعض من الأعيان و الكبراء و جمهور الأوساط و الرعاى، فأما الباعث لهذا الجمهور على ذلك فهو واضح لأنهم هم موضوع الإغتيال الواقع فيه المنافسة و قد كانوا علموا من السابق ما كانت عليه حالتهم، ثم ما آلت إليه بعد تأسيس القوانين و الإحتساب عليها.

و أما الباعث لبعض الأعيان و الكبراء فربما أشكل مع ما قررناه فى حق أغلبهم، لكنه فى الواقع بين و هو أن هذا القسم عاقل ينظر فى العواقب و لا- يستغنى بالعاجل عن الأجل، فعلم أن الزخرفات التى تحصل بالتسلط لا تدوم لأنها مآلها إلى انقراض الأمة و ضعفها

فتهجم عليها أمة أخرى قوية و تصير أولئك الأعيان كالسوقة كما قال تعالى: وَ جَعَلُوا أَعِزَّةً أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَ كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ [النمل: ٣٤] و ربما عاضد السوقة و هم الجمهور ذلك الهاجم للإستراحة مما هم فيه، و أيضا فإن تلك الزخرفة التي يحصلونها أى الأعيان بتسلطهم مع قلة مدتها هى فى نفس الأمر غير هنية لعدم الأمن معها و عدم الإطمئنان عليها لما أشرنا إليه من كونها موقوفة على رضاء شخص تتلاعب به أهواء حاشيته و المقربين إليه لمجرد أغراض شهوانية، و يضحوا معها عرضة للأضحية متى ما أراد الملك فلا يأمن المقرب من طبيعة الملك المفسدة للأخلاق فربما غضب عنه مقربه اليوم لشيء كان يرضى به عنه بالأمس، و أيضا لا يأمن ديب سعايات أقرانه و حساده الغافلين عن كونها تجرى عليهم مثلما جرت على صاحبهم، كما قيل: «من حلقت لحيه جار له فليسكب الماء على لحيته» و لهذا انضم القسم حتى عقلاء حاشية الملك و البعض من رجال الدولة إذ تيقنوا أنه لا خير لهم فى نعيم لا أمن معه لا على الدم و لا العرض و لا المال و لا الحرير و لا الذرية فأى نعيم يحصل لهم و هم على شفا جرف هار، و كان مقدم هذا الحزب رجلا من أعيان البيوتات إسمه أوليفر كرومويل ، ذا بسطة فى المال و العقل و الشجاعة و جرت حروب هائلة كشفت عن خلع الملك و حبسه ثم قتله بحكم مجلس على أنه خائن للأمة، و استولى أوليفر رياسة الدولة بعد أن تلقب بجنرال، و كان يوم دخوله بالعسكر منتصرا إلى لندره تلقاء الجم الغفير بالهناء و الترحيب، فقيل له: ألم تر هذا الاحتفال من العامة بك أيها المحامى من انكلاثيره؟ و جعل ذلك لقبه فقال: إن هؤلاء الرعا لا يلتفت لا إلى تعظيمهم و لا إلى تحقيرهم فهم تبع للغالب إذ لو كان هذا اليوم أخرجت فيه إلى القتل لكانوا خرجوا إلى التفرج على مثلما

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ١٩١

خرجوا إلى لقائى الآن، و به يعلم أن تلك الخلة جارية فى سائر الأمم على السواء إذ هاته أمة الإنقليز التى قيل فى المثل فيها يجب أن تكون حرة مثل أفكارها قد قال فيها زعيمها المذكور ما سمعت، و بقيت الدولة الأنقليزية جمهورية بضع سنين إلى وفاة الجنرال المذكور و استيلاء ابنه من بعده و استعفائه فى مدة قليلة، فأرجعوا ابن الملك السابق سنة ١٦٦٠ و لقبوه بكارلوس الثانى و سار على نحو ما كان يريد أبوه و خرق سياج القانون باستبداده على البرلمان متسترا بإقامة خمسة من أكابر الأعيان لتدبير الأمور و إنفاذها بدون مراجعة الندوة، و حارب هلانده و أخذ منها مدينة نيويورك من أمريكا ثم عقد معها و مع السويد محالفة على فرنسا ثم اتحد مع فرنسا على هلاندا ثم خضع للندوة و بقى مضطربا إلى أن مات.

و أخوه أخوه جمس سنة ١٦٨٥ فزاد الأمر ارتباركا من إيثاره للمذهب الكاتوليكي إلى أن خلع و نودى بأحد أمراء هولانده لتزوجه بابنه مليك انكلاثيره الأسبق و لقب بويلم الثالث سنة ١٦٨٩، فأحيا إجراء القوانين و اتبع إشارة الندوة و ارتاح فى نفسه حتى لقب بالصيد لاشتغاله براحتة و حبه الإنفراد بما هنتت به السياسة و ذاته و المملكة، و زادت الندوة أحكاما فى شروط القوانين منها أن لا يتولى الملك إلا من كان على مذهب البرتيستانت و احتاجت الدولة إلى أموال لإصلاح داخلتها فى أيامه فاستقرضت من الأهالى و هو أول دين على الدولة، و تشكل لأجله بنك انكلاثيره أى محل اجتماع الأموال من أناس كثيرين لأجل الشركة فى التجارة بذلك المال أو لأجل أن يقرض المال على شروط، و ذلك البنك هو المعروف إلى الآن و ذلك سنة ١٦٩٤ و هو دليل على إجراء القوانين بعدم غضب الأموال من الرعية، و ترقى المملكة فى أيامه بالصنائع و المعارف بزيادة من هاجر إليها من فرنسا لمثل ما وقع سابقا من الإضطهاد المذهبى.

ثم خلفه الملكة يوحنا سنة ١٧٠٢ و فى مدتها استولت انكلاثيره على جبل طارق من إسبانيا و اشتدت الحرب مع فرنسا و كان معاضدا لفرنسا بافيرة و إسبانيا و لانكلاثيره النمسا و هولانده، ثم انقرضت العائلة بموت تلك الملكة إذ لم يكن فيها من تتوفر فيه الشروط، فنادى الأهالى بأحد قرابة العائلة و هو أمير من الهانوفر من ألمانيا و لقبوه جورج الأول

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ١٩٢

سنة ١٧١٤ و هو أصل العائلة الموجودة الآن و استقر أمره بعد حروب مع فرنسا لإرادتها تملك ابن من العائلة السابقة كاتوليكي، و بعد

استقرار جورج المذكور لم يسكن في إنكلاتيره و إنما لازم بلاده و التصرف بيد الوزراء و الندوة، ثم خلفه ابنه جورج الثاني سنة ١٧٢٧ و نشأت في مدته عدة حروب، منها: الداخلية، لأجل الملك من بقايا العائلة السابقة و لم ينجحوا و منها: الخارجية، و أعظمها مع فرنسا حيث كانت الحرب قائمة بين أروسيا و روسيا و النمسا لأجل الإسيلاء على بولونيا و كانت فرنسا ضد البروسيا معاضدة لخصمها فحالفت إنكلاتيره بروسيا لأجل زيادة إشغال فرنسا، فاحتاجت فرنسا لجلب قوتها من مستعمراتها بأريكا لتقوية نفسها في أوروبا و عند ذلك هجمت إنكلاتيره على ما لفرنسا من أمريكا و ضمته إلى تملكاتها حتى صار لها إذ ذاك جميع ما لها الآن في أمريكا مع جميع الممالك المتحدة الآن، و ذلك بعد حروب هائلة، ثم خلفه ابنه جورج الثالث سنة ١٧٦٠ و استقلت في مدته أمريكا أعني الدول المتحدة، و ذلك لأن دولة الإنكليز لما امتدت أملاكهم هناك و تكاثرت فيها الخلق المهاجرون إليها رغبة في الغنى لما فيها من الخصب و اتساع الأراضي الجديدة قسمت الدولة تلك المملكة إلى ولايات و جعلت عليهم ولاية إنكليزيين هم أحق بإسم مستبدين في التصرف، ففحش ظلمهم للأهالي فاشتكوا منهم إلى الدولة و بينوا لها أعمالهم فعزلتهم و أولت ولاية من الأهالي بانتخابهم غير أن الانتخاب لم يكن حقيقيا بالرضى، و لذلك اقتفى هؤلاء الولاة أثر أسلافهم فتمكن الحقد على الدولة ثم أنها زادت عليهم الضرائب لما رأت من غناهم فنفروا منها حتى منعوا بالجبر مع إظهار الإسترحام أن تجرى فيهم ضريبة الورق المختوم في صكوك الحجج، فساعدتهم الدولة لكنها حملتهم غيرها فعقدوا جمعيه سرية و أعلنوا الحرب بالإستقلال تحت راية الجمهورية سنة ١٧٧٦ و أعانتهم فرنسا و إسبانيا و هولانده لما لهم على إنكلاتيره من الضغائن الحربية.

و دامت الحرب إلى سنة ١٧٨٣ التي عقد فيها الصلح بباريس على أن ترجع إنكلاتيره إلى فرنسا أراضي سانيفال بأفريقيا و ترجع إلى إسبانيا إقليم فلوريدا في أمريكا و على أن تستقل الممالك المتحدة بأمريكا الشمالية، و تكاثرت الحروب في مدة جورج الثالث المذكور مع فرنسا و غيرها سيما مع نابليون الأول و اشتهرت إذ ذاك إنكلاتيره بالقوة البحرية و المهارة في حروبها البحرية لما أظهره الأدميرال نيلسون من البراعة و الشجاعة في مواقعه المتجاوزة على المائة و نيف واقعة، و أشهرها هجومه على حصون كونبهاك قاعدة الدانيمرك

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ١٩٣

مع أن القسم الكبير من الأسطول لم يدخل معه إلى المضائق و انفرد هو بمن تحت إمرته من الأسطول، و عند ما رآه الأدميرال الكبير قد فقد الربع من سفنه أشار إليه بالرجوع و كان هو أعور فلما أخبر بالإشارة جعل النظارة على عينه العوراء، و قال: إنى لم أر شيئا مما تقولون، و زاد في الهجوم إلى أن غلب عدوه و أجرى شروطا مثلما أراد، و مع هذا الإنتصار حكم عليه المجلس الحربى بالعقاب لمخالفته الأمر، و قد مات ذلك الأدميرال في حرب سنة ١٨٠٥ ضد فرنسا و إسبانيا و كانت سفنهما أربعين و سفنه سبعا و عشرين، فاقتربت من سفينته سفينة فرنساوية و راقبوا شخصه إلى أن أصابوه برصاصة خر منها للترع، و كان ينتظر البشارة بالإنتصار و يدعو نائبه قبل الموت فما دخل عليه إلا بعد قريب من ساعة مبشرا بالنصر فقال: كم غنمنا من السفن؟ قال: أظن أربع عشرة أو خمس عشرة لأنى لم أتمالك عن القدوم إليك عند ثبوت النصر قبل عدها، فقال: لكنى كنت أشرط على نفسى أن تكون عشرين ثم قضى نجه، و قد دام الملك جورج الثالث في الملك ستين سنة لكن كان في أغلبها لا يتصرف في شىء بل لا يدرك شيئا من مصالح الملك لإختلال في عقله، و لذلك جعل له ابنه ولى عهده نائبا عنه في حدود سنة ١٨٠٤ ثم توفي ذلك الملك سنة ١٨٢٠، و مع ما حصل في مدته من خروج الممالك و الحروب فإن إنكلاتيره تقدمت فيها خطوة وسيعة في التمدن و الإعتبار و القوة حتى وصلت إلى الذروة القصوى، فإنها أحدثت في ظرف أربعين سنة مائة و خمسا و ستين ترعة و تكاثرت فيها معامل القطن و الصوف الفائقة حتى راجت سلعتها على سائر ما في غيرها لرخصتها و إتقانها، و اكتشفت و استمكت أستراليا و غيرها. و تقدمت فيها المعارف و التأليف إلى نحو ما هي عليه الآن، و استفادت حكما سياسية علمتها كيف تدير مستعمراتها الواسعة في سائر أقطار العالم، و حصلت على فخر النصر على نابليون و غيره و استتبت الإدارة القانونية بغير نزاع و لا دسائس و لذلك صار يضرب المثل عندهم بأن حرية الإنكليز إنما

هنثوا بها في مدة ملكهم المجنون. و خلفه ابنه جورج الرابع و في أيامه وقع الغدر في أسطول الدولة العثمانية من أسطول إنكلاتيره المترئس على أساطيل الدول في تظاههم على طلب تسليم الدولة العثمانية لليونان بالاستقلال، فمن غير إعلان بالحرب لها تخلت الأساطيل ما بين أسطولها المركب من سفنها و سفن مصر و طرابلس و تونس و الجزائر و هم على اطمئنان السلم و الأمن، و أطلقت عليهم النيران دفعة واحدة بحيث لم يبق منهم باقية غدر أو شناعة لا- تمنحى و معرفة لا تزال على خصوص الإنكليز لأنهم هم الذين يدهم أمره جميع الأساطيل الدولية، و عند ما سمعت الندوة الإنكليزية بفضاعة الواقعة هاجوا و ماجوا و طلبوا محاكمة رئيس الأساطيل و حكم عليه مجلس حربى بالقتل مع دفاع وزير البحر عنه بكل ما أمكن من الإعتذار و تليفق دعوى بأن إحدى السفن العثمانية أطلقت النار عليهم و لم يجد كل ذلك شيئا، و عند ما تحقق

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ١٩٤

الرئيس الحكم عليه بالقتل أسر إلى وزير البحر بأن التذكرة التي بخطه في الأمر بإحراق الاسطول العثماني قد نسي أن يحرقها معه مثل ما أمر، و حينئذ تحول المجلس إلى جلسة سرية ثم أطلق الرئيس و سيأتى في الكلام على الدولة العثمانية الباعث على ذلك التحامل على المسلمين و مآله الديانة و أن سياسة الدول الكبيرة في الخارج ليست كسياستهم الداخلية.

ثم وردت الملك وليم الرابع سنة ١٨٣٠ و زاد القانون في أيامه تحسينا و نفوذا و أول سكة حديدية أنشئت في أول سنة من ولايته و ألزمت الدولة عتق العبيد في الهند و عوضت أصحابهم بأثمانهم و كانت نحو عشرين مليونا ليرة، و احتسبت إنكلاتيره على عتق العبيد في سائر الأقطار ترغيبا و ترهيبا لأهلها و لا زالت على ذلك إلى الآن، ثم ورثته الملكة فيكتوريا سنة ١٨٣٧ ه و هي الملكة الحالية و أعانت الدولة العثمانية على إخضاع مصر و استرجاع الشام منها و على حرب القريم، فحاربت روسيا و آلت الحرب إلى معاهدة باريس و حاربت الصين بالاتحاد مع فرنسا و أخضعت الهند من الثورة الهائلة بمعاوضة أفغانستان و خرج الهند من وقتئذ من تحت الشركة التجارية إلى الحكومة السياسية كما مر في المقدمة، و تلقت بإمبراطورة الهند ثم استولت على أفغانستان ثم جعلتها مستقلة تحت نظارتها بعد أخذ أجزاء منها و حاربت الزلوس من بلاد الكفر بأفريقيا، ثم صارت تلك المملكة تحت نظارتها و تداخلت في حرب روسيا مع الدولة العثمانية عند عقد الصلح إلى أن أفضى إلى معاهدة برلين مع زيادة التقدم و الغنى في داخلية المملكة الإنكليزية.

مطلب في السياسة الداخلية بإنكلاتيره

إشارة

إعلم أن السياسة المستقرة الآن كان استتبابها سنة ١٨٣٢ و أما أصولها فقديمه حسبما أشرنا إليه في التاريخ، و هاته السياسة مبنية على اعتبار تسلط الملك و نفوذ الأعيان و احتساب الأواسط من الناس، فكل من السلطات الثلاثة مرتبطة ببعضها و ينتج منها إدارة المملكة مما يرضى الجميع و لا- يتجاوز كل منهم حدوده مما يضر بغيره، و لهذا كانت قوانين الإنكليز على نوع مغاير لبقية إدارات الأوروبايين من حيث الإشتراك في السلطة و عدم التساوى بين طبقات الرعية في الإعتبار و نيل الرتب مع إنالة الرعية غاية الحرية و الأمن، و تفصيل هاته الإدارة و محل ارتباطها و انفرادها قد تكفل به كتاب أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك لخير الدين باشا التونسي بما يفيد عجائب أطوارهم و اصطلاحهم فليرجع إليه من أراد البيان و إنما نقتصر هنا على الإلمام بكليات الإدارة فنقول:

أما القسم الأول من ذوى السلطة: فهو الملك، و له حدود مضبوطة بقوانين، من أهمها: أن الملك وراثى في ذرية الملك الذى هو من عائلة الهانوفر من البكر إلى بكره و الأنتى تستحق ذلك على شرط أن لا يوجد لها أخ ذكر و إلا فهو أحق بالتقديم و إن كان

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ١٩٥

أصغر منها، و منها: التزام مذهب البرتستانات و منها: إذا اقتضى هذا التوارث أن حاز التاج الإنكليزي من له ملك أو أرض بمملكة أخرى فإن الأمة لا يلزمها الدفاع عن ذلك مثل ما يلزمها عما يرجع إلى انكلاثيره ما لم ترض بذلك الندوة، و منها: أن رياسة الديانة للملك بحيث يوظف مناصبها مثل ما يوظف المناصب السياسية، و منها: رياسة سائر القوات و الصلح و الحرب إلى غير ذلك مما مر في ملك إيطاليا، و منها: تلقبه بملك بريطانيا العظمى و إمبراطور الهند، حتى يقول في طالعته مكاتيبه الرسمية ما صورته: «فلان بنعمة الله ملك المملكة المتحدة من بريطانيا العظمى و إرلانده و إمبراطور الهند محاميا عن العقيدة» الخ. و التلقب بإمبراطور الهند حدث سنة ١٢٩٢ بإتفاق المجالس، و قوله: محاميا عن العقيدة، إشارة إلى رياسته الدينية و منها: أن إجراء كل حق للملك في التصرف إنما يكون بواسطة رؤساء متوظفيه و هم رؤساء الأساقفة و الوزراء.

و أما القسم الثاني و هو سلطة الأعيان: فهؤلاء الأعيان هم الملقبون باللوردات و بالقرناء و سيأتي في مبحث العوائد خصوصياتهم و امتيازاتهم، و الذى يتعلق بهم هنا أنه يتركب منهم مجلس اللوردات المشتمل على رؤساء الديانة، و على عائلة الملك، و على سائر لوردات إنكلادته و على سبعة عشر لوردا من لوردات إسكوتسيا، و على أربعة لوردات من لوردات إرلانده و لوردات المملكتين الأخيرتين ينتخبان من أمثالهم فى أقاليمهم لذلك المجلس لمدة حياتهم، و يناط بهذا المجلس سائر الإحتساب على التصرفات و إنشاء القوانين و تغيير العادات و الحكم فى المتوظفين بحيث لا يصدر عن الدولة شىء إلا برضائه، و ليس لأعضاء هذا المجلس مرتب و عددهم غير محصور لما مر، قد يبلغون زهاء خمسمائة، و لأعضائه إعطاء الرأى فيه بالمباشرة أو بإرساله مع أحد أمثالهم كتابة، و الوزراء ينتخبون من هذا المجلس و من مجلس النواب و الملك إنما ينتخب رئيسهم فقط و هو ينتخب بقيه الوزراء كما فى بقيه أوروبا، و عدد الوزراء تسعة الرئيس و هو وزير المال فى الأغل، و وزير الخارجية، و وزير الداخلية، و وزير الهند، و وزير المستعمرات، و وزير رياسة المجلس الخاص، و وزير الحرب و لورد قاضى القضاة و هو رئيس مجلس اللوردات و موظف الحكام القانونية، و لورد المحاسبات.

و هؤلاء الوزراء هم المباشرون لسائر أعمال الدولة بعد إذن الملك و ليس له مخالفتهم إلا إذا وافقته أغلبية الندوة فحينئذ يستبدلهم بغيرهم، و هؤلاء الوزراء يضم إليهم الملك أعضاء من بقيه اللوردات فيتشكل منهم مجلس الملك الخاص و رؤساء إدارات الوزارات و لا يزيد مرتب الوزير عن مائتين و خمسين ألفا فرنكا فى السنة و منهم من له خمس ذلك فقط.

و وظيفة هذا المجلس الخاص التدبير فى إجراءات الأعمال كما أن من حقوق الأعيان أن يكونوا هم حكام الولايات، كل ولاية حاكمها من لورداتها و ليس للملك عزل أحد منهم من مرتبه اللوردية، و منهم أيضا أعضاء المجالس العليا فى الولايات التى لها التصرف الكلى.

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ١٩٦

و أما القسم الثالث و هو سلطة الأواسط: فهى بانتخاب الأهالى منهم نوابا عنهم لمجلس النواب للإحتساب على تصرفات الدولة و حماية حقوق السكان، و ما يستقر عليه رأيهم يجرى إذا وافقهم مجلس اللوردات، كما أنه يسوغ للملك أن ينتخب من هذا المجلس رئيس الوزراء و لهذا انتخاب بعض الوزراء من بقيه أعضاء هذا المجلس و مدة انتخابهم لأعضاء المجلس سبع سنين، و شرط العضو أن يكون وجيها غير محكوم عليه بما يشين العرض ذا دخل من أملاك فى المملكة غير منقولة يبلغ مائتين و خمسين فرنكا، أو صاحب معارف له إجازة فيها من المدارس العلمية و لهذا اختص هذا الإحتساب بأواسط الناس و لم يكن للأسافل فيه حظ، و عدد أعضاء هذا المجلس بحساب واحد على العشرين ألف نسمة من السكان فكان عددهم يتردد فى زهاء سبعمائة، و مجموع هذا المجلس مع مجلس الأعيان هو المسمى بالقمرة أى الندوة و عليها مدار سائر الأعمال فى الداخلية و الخارجية، و من أصولها أن ميزان المال ليس بمحدود على حالة واحدة دائما بمعنى أنه إذا كان الدخل الموضوع يوفى بمصاريفها للسنة و يفضل منه يبقى الفاضل فى

الخزنة أو يشتري به من ديون الدولة، و إذا كان لا يوفى يزداد فى الضرائب إلى أن يقع التسديد كما هو جار فى الدول الأخرى، بل إن قاعدة الإنكليز هى جعل الميزان فى كل عام بحسبه فينظر إلى مقدار اللازم من المصاريف و على مقتضاه يجعل الدخل بحيث لا يكون للدولة فاضلا، و من الأصول أيضا إعطاء الحرية لكل فرد و جماعة فى مملكتهم بأن يتكلموا فى السياسة العامة و الخاصة و تصرفات الموظفين مطلقا و إعلان آرائهم بالقدح أو بالمدح فى الصحف و فى مجامع الناس، و لهم الإستدعاء إلى الاجتماع و لو اجتمع ملايين من الخلق من غير أن يتعرض لهم أحد بشىء، و من الأصول أيضا التى استقرت الآن أنه انتشأ فى الأمة حزبان أحدهما: يسمى حزب المحافظين يعنى أنه يريد التحفظ على القوانين الموجودة و الجرى عليها فى الداخلية و المساعدة على كل ما يساعدها فى الخارجية و أن لا يتغير شىء إلا ما تدعو إليه الضرورة.

و الحزب الثانى: يسمى بحزب الحرية يعنى أنه يريد زيادة إطلاق الحرية فى الداخلية و فى كل الممالك و يساعد على قطع عوائق الحرية فى أى جهة كانت بما يقتضيه حال الإنكليز.

و لكل من الحزبين زعماء مشهورون بما يقولون و يكتبون للإشتهار و تشتمل عليهم الندوة، و مهما مالت أكثريتها لأفكار أحد الحزبين و جب أن تكون الوزارة مركبة من أعضاء ذلك الحزب فلا تزال تتداول الدولة بينهم، و من لازمها أنه كلما تغيرت الوزارة يتغير معها سائر الأمورين الذين عليهم مدار الأعمال و لو من علائق ذات الملك، فإن كاتب سره و حواشيه الذين يخدمونه فيما يتعلق بتصرفات الدولة يلزم تبديلهم أيضا مع الوزارة خشية من إفشاء أسرارها لضدها و من الوشاية أو التراخى من جهة ما يتعلق بالملك مما يضر بالإجراء،

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ١٩٧

و نشأ عن هذا عدم ثبات السياسة الخارجية على طريق واحد أعنى فى الإجراء لتبدل المنهج بتبدل الوزارة و إن كانت كل وزارة تولت تراعى أصل ما أسسته سابقتها لكنها تنحو به منحى لا- يلائمها فلا يحسن الاعتماد عليه من الخارج، و من الأصول أيضا أن الخدمة العسكرية لا يدخل إليها بالغضب أو بالقرعة و إنما هى بالإختيار لمن رغب فيها و لهذا تجد فى عساكر الإنكليز فى الحرب كثيرا من الأجانب الراغبين فى المال الذى يبذل إليهم هذا إذا كانت الحرب خارج المملكة، أما إذا هاجم العدو المملكة فيجب على كل الأهالى الدخول فى سلك العسكرية على قانون لهم فى ذلك حتى أن النساء أراد بعضهن الدخول فى ذلك و ألفن فرقا للتعلم، و كذلك العساكر اللازمة لحراسة المملكة يدخل إليها بالإختيار و هى عدا الضابطية التى تلزم أهالى كل جهة، و من أهم أصولها أن لا ينتخب إليها إلا- العفيف المرضى للشهادة حتى يكون كلامه حجة على الجانى و ذلك من الأصول العامة فى أوروبا و بها تيسر استقرار الراحة لأن حراسة الضابطية و نفوذهم من أهم الوسائط الفعالة فهى أهم ما يعنى بها، و من أصول الإنكليز أن لا يتولى المراتب السامية فى الدولة إلا من كان على مذهب الكنيسة البرتستانت فتأمل فى هذا مع ما يأتى إن شاء الله فى أحوال تداخلهم فى بلاد الإسلام بدعوى الحرية.

و من عاداتهم قبول جاه العلية منهم و الأعيان فى توظيف معارفهم و أقربائهم إذا كان فيه شىء من الأهلية مع إهمال غيره و أن كان أحق من المقدم، و مثل ذلك الرتب العسكرية لا تنال إلا للأعيان و العلية و الأفراد العسكرية لا يستحقون ذلك مهما فعلوا، غير أنه قد حل منذ سنة ١٢٨٩ هـ ١٧٧١ م بإبطال اشتراء الرتب العسكرية من ملازم إلى أميرالاي بأمر من الملكة حيث أن أصل إنشاء ذلك كان بأمر من الملك لا- بقانون، و اغتياظ لذلك كثير من ندوتهم لكن المصلحة غلبت فصارت الرتب العسكرية مطلقا لا- تنال إلا بالإستحقاق فى المعرفة و بهذا التغيير العسكرى يعلم ما للملك من السلطة و إن خالفته الندوة بناء على حق قديم له مع موافقة الوزارة إليه.

قد تقدم في صفه برنيطانيا أنها تنقسم إلى تسعة و ثمانين ولاية فهاته الولايات فيها مدن ذات خصوصية بالإمتياز بالشرف حسب عوائد قديمة، و مدن كبيرة استحدثت بكثرة سكانها أن تسمى عضوا أو أكثر في الندوة، و مدن يسكنها مطران من كبراء ديانتهم، و مدن قري خالية عن الإمتيازات المذكورة. فأما الأنواع الثلاثة الأول: فإن لها إدارة خاصة لا تدخل في عموم الولايات التي هي بها. و أما النوع الرابع: فهو مشمول بإدارة عموم الولاية:

و الحاصل: في إدارة عموم الولاية هو أنها راجعة إلى الوالى العام على الولاية، و هو أحد لورداتها المحصل على عضوية الندوة ينتخبه الملك لذلك و ليس له مرتب على هاته الوظيفة، و هو ينتخب إثنين من أهل ولايته الأعيان أيضا لإعانتة و يوظفهم له الوزير الملقب صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ١٩٨

بقاضى القضاة و ليس لهما مرتب أيضا، و مدار أعمالهم حفظ الراحة و رياسة العساكر المحافظة و النظر في الأعمال العسكرية، و لهم أيضا مرجع الأحكام الشخصية و النظر في مصالح الولاية الإدارية و حفظ الطرق و إنشائها إلى غير ذلك من المصالح، كما تنفرد البلاد الممتازة من الأصناف الثلاثة المشار إليها سابقا.

و منها: مدينة لندرة بأن يكون لها شيخ و هو رئيس المجلس البلدى الذى أعضاؤه من الأهالى المنتخبين منهم و المجلس ينتخب رئيسه من أحد أعضائه كل سنة و لا مرتب له، و لهاته المجالس البلدية مرجع جميع المصالح المتعلقة بالبلد و منها إدارة الضابطة و لا دخل للدولة فيها بشىء، و على رؤساء هاته المجالس أيضا الإحتساب على كيفية انتخاب أعضاء مجلس النواب فيما تحت نظرهم لكى يكون الإلتخاب موافقا للأصول و هو الذى يرأس جمعية الإلتخاب و يتصرف فى الأحكام الشخصية كتصرف قضاة الصلح الآتى بيانهم، و يوم تولية رئيس هذا المجلس المسمى بشيخ البلد يكون فى لندره موكب حافل من أعظم المواكب و له من الإحترام و التوقير كما لأحد الملوك، ثم أن متوظفى الديانة فى كل الجهات هم مرجع عدد من يزداد أو يموت و هم المكلفون بحفظ الكنائس و المقابر و الفقراء و الطرقات أيضا و إعانة الضابطة عند الحاجة هذا.

و أما الأحكام الشخصية: فإن لها إدارة مخصوصة رئيسها اللورد قاضى القضاة الذى هو رئيس ندوة اللوردات ثم نائبه ثم اللوردات قضاة المجالس العليا فى الجهات الكبرى ثم حكام مجالس الولايات و مجالس الضابطة، و كل هؤلاء لهم مرتب و هناك حكام الصلح لكنهم لا مرتب لهم، و كذلك حكام الجورى على نحو الممالك التى تقدم ذكرها، غير أن الأمر الذى انفردت به انكلاطيره هو أن أحكامها لا تستند إلى قانون خاص، فشريعتها أصعب الشرائع لأنها تستند إلى مجموع أشياء و هى: ما يوجد من القوانين فى بعض أمور و ما يوجد فى أحكام سابقة صدرت من مجالس الأحكام القديمة، و ما فى أحكام الرومان، و ما يقع عليه اجتهاد أصحاب الاجتهاد و هم اللوردات أهل المجالس العليا، و قاضى القضاة و قرناؤه، و علماء الأحكام و هم المسمون بالأبوكاتية، فلذلك كان علماء الأحكام من أشهر الناس و أوجههم، و من غريب عادات المملكة أنه إذا وجدت نازلة و وجد حكمها فى إحدى تلك الأصول لكن أصحاب اجتهادهم ظهر لهم أن المصلحة الوقتية قضت بخلاف تلك الأحكام لاختلاف الزمان فإنهم يجرون اجتهادهم، لكنهم لا يجعلون ناسخا للسابق بل يبقى السابق و يبقى المحدث حتى تكون الأصول متناقضة و يبقى لأهل الإختيار عندهم الخيار، و بذلك يعلم مقدار النفوذ و السلطة للطبقة العليا من الناس عندهم لأنهم هم الذين يكون منهم أهل الإختيار كما يعلم به فساد اعتراض بعضهم على أحكام المسلمين بأنها مشتتة باختلاف الأقوال فى كتب الفقه مع خيار القاضى فى القضاء بها فيوجب لهم التحرز من الدخول تحتها لأنها غير معلومة للمحكوم عليه لأن ذلك الإعتراض على فرض تسليمه كما هو فهو عندهم أعظم مما يعترضون به علينا، ثم أن الأحكام المذكورة لها رتب فى تحقيقها

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ١٩٩

من مجالس وراء مجالس الحكم باعتبار الخفيف منها و الثقيل و ما يرجع إلى المعاملات و ما يرجع إلى الجنائيات، فالخفيف لا

يستحق التحقيق إلا إذا حصل ظلم فيقع فيه الإحتساب العام، و أما الثقل فينتقل إلى مجالس تحققه إلى أن ينتهي إلى المجلس الأعلى بالتخت، و حيث كانت الحرية مطلقة و الإحتساب في رفع الظلم سائغ إلى كل أحد برفعه إلى مجالس الإحتساب و لو كان في حق غيره مع إباحة نشر النوازل و الأفكار في الصحف الخيرية و في إعلانات و مطبوعات تنشر متى ما أراد الناشر و في مجامع عمومية علنية، كان التعدي على الحقوق من أصعب الأمور عندهم.

مبحث إدارة مستعمرات الإنكليز

اعلم أن الإنكليز إنما تيسر لهم اتساع مستعمراتهم في مشارق الأرض و مغاربها بشيئين: أحدهما: نفس انتظامهم في داخليتهم المثمر للغنى المثير للقوة الحرية.

و ثانيهما: حسن الإدارة لما يستملكون عليه بالنسبة لغيرهم من الدول سيما بعد خروج أمريكا عنهم و استفادتهم من ذلك للأسباب و البواعث الموجبة للنفرة منهم، فاستقر أمرهم أنهم في كل جهة من المستعمرات يجعلون مركز الوجود قوة مركزية لهم و يجعلون فيها نائبا من ثقات أعيانهم مقيد التصرف بالشورى مع أعضاء منهم و من أهالي المستعمر، و يرجع إلى هذا النائب الذي هو الحاكم في تلك الجهة الأمور الكلية من الإدارة السياسية، و أما بقية الجزئيات و الأحكام و السيرة فإنها تفوض للأهالي يجرون على حسب عقائدهم و عاداتهم و أحكامهم و كذلك الأداء المرتب للحكومة و كيفية استخلافه و توزيعه إلى غير ذلك من غير تداخل الإنكليز معهم في شيء سوى أنهم يشترطون عليهم إبطال المظالم و التعدي على بعضهم و إبطال بعض العوائد القبيحة بالعقل الراجعة إلى ظلم الغير كإحراق الأحياء تبعا لمن يموت من قرابتهم أو رؤسائهم و كتغريق الناس لمثل ذلك أو ذبحهم مما يحمد الخلاص منه جمهور الأهالي، و يبقى الحاكم الإنكليزي بمجلسه مراقبا لتلك الكليات و لمنافع الإنكليز و الأهالي حتى أن أعظم مستعمر لهم الآن و هو الهند له حكومة مخصوصة كما تقدم في المقدمة، و أعظم الوظائف فيه هو الحاكم العام و هو إنكليزي لكن ثاني رتبة منه و هو قاضى القضاء هو مسلم من العلماء الأعيان و جميع أحكام الهند راجعة إليه و مرتبه سنويا أربعة و عشرون ألف ليرة إنكليزية و على ذلك المنوال بقية الأمور، و دخل تلك الحكومة خاص بها لا تأخذ منه الدولة الإنكليزية شيئا و مصاريفها كلها راجعة إلى حكومة الهند و ربما إذا حدث حرب جوار الهند مع حكومتها الدولة الإنكليزية على مصروف الحرب لعود النفع إليها بواسطة، بل ربما حمل أكثر المصروف عليها كما وقع منذ قريب في حرب أفغانستان. كما أن إنكلاثيره تستفيد من عساكر الهند بدخولهم في أمرها عند الحاجة إذا عقدت حربا مع دولة أخرى و كثيرا ما تبقى الممالك على حالتها بملوكها و أمرائها

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ٢٠٠

و إنما لها عليهم مجرد المراقبة و الحماية، و تلزم الملوك بإجراء العدل في ممالكهم و إجراء الشورى و بذلك يحصل ميل العموم إليها، فإن قيل: إذا كان الأمر كما ذكر فأى فائدة للإنكليز في هاته المستعمرات سوى تشويش البال و خسائر الأموال في الحماية أو الثورات؟

فالجواب: أن فائدتهم عظيمة من وجوه:

أولها: و هو الأهم رواج التجارة الإنكليزية فإن مائتي مليون من الخلق لا يجولون إلا في السلع و البضائع الإنكليزية له من الأهمية ما لا يخفى، و بضائع بقية الممالك إما أن تمنع بما يوظف عليها من عظيم القمراق في تلك المستعمرات أو يدخل منها ما لا وجود له عند الإنكليز مما هو حاجي، فأما البضائع الإنكليزية فتدخل معفاة من الأداء فلن تبور لهم بضاعة و لا تقفل لهم معامل فما ينتجه ثلاثون مليوناً من الإنكليز من الصنائع يكونون مطمئنين على رواجه في مستعمراتهم كل على قدر احتياجها زيادة عن الممالك الأجنبية و كفى بذلك غنى للأمة الإنكليزية، و أى فائد أعظم لها من ذلك و دونك مثالا لهذا فإن مستعمر الهند وحده كانت قيمة التجارة

الصادرة و الواردة إليه في سنة ١٢٩٨ هـ ١٨٨١ م ثلاثة آلاف و خمسمائة مليون فرنكا يخص الإنكليز و حدهم، منها ألفان مئونا و الباقي مع سائر الممالك و أغلبها الصين، فهذا مستعمر الهند و حده راجت تجارتهم فيه بذلك المقدار و ليقس عليه غيره. و ثانی الفوائد: أشغال معلمیهم فی الفنون و الصنائع فی تلك المستعمرات الواسعة الكثيرة السكان بما يحدثونه للأهالی علی وجه الإرشاد و التعليم و التمدين عن طيب نفس منهم من المكاتب و المعامل و طرق الحديد و غير ذلك.

و ثالث الفوائد: حوز الأراضي الخالية عن المالك و التعمير لها بأهالی إنكلاتيرو الذين ضاقت بهم جزائرهم، فصاروا يهاجرون منها إلى كل الآفاق التي تيسر لهم بها المعيشة و العمل فيها جرون إلى مستعمراتهم أولى لهم، حتى تنتشىء منهم دولة جديدة كما وقع بالفعل في دول أمريكا المتحدة إذ غالب أهلها أصلهم إنكليز و كذلك ما هو حاصل الآن في أستراليا.

و من أعظم فوائدهم: القوة الحربية التي تتصرف فيها انكلاتيرو من عساكر ذلك المستعمر مع أن المصاريف علی العساكر من دخل المستعمر فأعظم بذلك من قوة للإنكليز حتى أن عساكر الهند الذين تحت أمرها أضعاف عساكرها المستديمة فهاته الفوائد أعظم و أنجح لأمة الإنكليز من أخذهم ضريبة علی سكان المستعمرات تحوجهم إلى الحقد و الثورة عليهم كما وقع في أمريكا، و أفيد لهم أيضا من جهة السياسة فإن النفوذ و الرهبة و الوقار الحاصل للإنكليز في جميع جهات المسكونة ليس بحاصل لأى دولة كانت أوروبوية، و ذلك أفيد للإنكليز من أن يفيدوا ألفا أو عشرة آلاف منهم بإطلاق التصرف في أحد المستعمرات، فيكون أهلها تحت قبضتهم و يديرون فيهم قانون الإنكليز بلندره

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ٢٠١

و يوظفون فيهم من قضاتهم و يغيرون عوائدهم و شرائعهم، لما يلزم لذلك من مصاريف تكثير القوات و كمون الحقد في المستعبدین حتى ينتهزوا الفرصة لفك قيودهم متى ما سنحت الفرصة، و بمثل هاته السياسة و مجاراة الأهالی في مقاصدهم و عاداتهم و أحكامهم و كبرائهم و ديانتهم تيسر لها امتداد المستعمرات و اتساعها و طول بقائها هانية بدون كثرة مصاريف، فإن الهند الذي هو أعظم المستعمرات و فيه من السكان ما ينيف عن مائة و ستين مليوناً إنما تضبطه دولة الإنكليز بعشرين ألف عسكري إنكليزي فقط و إن كانت حكومة الهند لها نحو ثلاثمائة ألف من العساكر تحت السلاح لكنهم كلهم من الأهالی ما عدا العشرين ألفا المذكورة، و ذلك ما خلا ما للملوك و الأمراء المستقلين بالإدارة في الهند من العساكر و القوات، و ما ذاك إلا لمجاراة الأهالی بما لا ينفرهم مع إجراء العدل فيهم و إلزام أمرائهم و ملوكهم بذلك و حريتهم في سائر أطوارهم، حتى أنها تعظم لهم شعائرهم الدينية كما يعظمونها في أنفسهم، فالمسلمون مثلا- تطلق لهم المدافع في أعيادهم و تعفيهم من الأشغال في المواسم و تعزف الموسيقى العسكرية في أعيادهم، و كذلك تفعل مع المجوس و تصرف علی الجميع أموالا باهظة في المعابد و أهل الديانة من دخل الهند، و في عيد إلقاء جوز الكوكو في نهر الهند يحضر أهل الأمر و الحكم من الإنكليز و يأخذون ذلك الجوز من أيدي الكهنه و يلقونه في النهر مجاراة للأهالی.

(و حينئذ) تنشر الرايات و تطلق المدافع من الأبراج و السفن هذا فالبلاد التي تحت إدارتها بتا فضلا عن البلاد المستقلة بالإدارة فالأهالی يوازنون بينما فاتهم من حالة الاستقلال و ما هم عليه من المنافع التي لم تكن حاصلة إليهم مع موازنة المشقات و الأهوال الحاصلة من إعلان الثورة، لأن الإنكليز أيضا قساء و قلوبهم فظة غليظة عند الثورة يجازون بالفظائع التي تقشعر منها جلود السامعين، و يقول القائل: أين التمدن و رحمة الإنسانية و الشفقة التي تمتلىء صحفهم بالتنويه بها؟ و ما هي إلا سواد علی بياض يأمرن بها غيرهم و لا يرون منها شيئا، سيما بما يستعملونه من الغدر ياغراء أقسام الأهالی للانقسام و بذل الأموال العظيمة في ذلك فإذا حصل الانقسام وقع الانتقام من الكل علی التدریج و ربما يحصل من بعض الأقسام لبعض أشد مما يحصل من نفس الإنكليز، فلذلك آثرت أهالی المستعمرات السكون و الرضى بما هو عليه مستغنى ثمرة ذلك بقدر الإمكان بل أن بعضهم مكنتهم دولة الإنكليز من الاستقلال و أعلنت لهم بذلك و رفضوا هم قبوله خوفا من تسلط غيرها عليهم لضعفهم، و ربما يعاملهم المتسلط بما لم يعاملهم به الإنكليزيون مثل

ما وقع في جهة من أستراليا منذ نحو من خمس سنين و مع ما مر فقل ما يخلو وقت عن حدوث ثورة في إحدى الجهات من المستعمرات المذكورة و في الأغلب بعد حصول الراحة بالقوة أو باللين و هو الأغلب تزيح الدولة البواعث على الثورة حتى تعود المصافاة مع الأهالي على وجه كأنه راسخ و إنما قلنا أن اللين هو الأغلب لأننا رأيناها لا تستعمل القوة لأبعد انفلال حدود اللين، حتى إنها في نفس حروبها مع الثائرين لا توجه عليهم قوة كبيرة من أول وهلة بل

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ٢٠٢

ترسل مقداراً غير كاف لإخماد النار إذا كانت مستعمرة بهيجان قوى و كثيراً ما تنكسر قوتها أولاً و ثانياً و ثالثاً لكنها لا تنكص على عقبيها إلا بعد بلوغ أربها إما بمدامه الحرب على النحو السابق مع تزييد القوة شيئاً فشيئاً إلى أن تغلب أو بوقوع الصلح على ما يرضيها و ترضى به الثائر على نوع ما كان ذلك لعدم وجود قوة عسكرية تحت السلاح و لا حاضرة للدعوى متى أرادت الدولة لما مر من أن الإنكليز لا يدخلون العساكر إلا بالرضى و ليس لهم إلا مقدار حفظ الراحة فإذا ثارت جهة لزم الدولة إحضار العساكر برضاهم و ذلك لا يتأتى عاجلاً مثل ما يأتى للدول المرتبة العساكر، و أيضاً بعد حضورهم تلزمهم مدة التدريب ثم أن العساكر عندهم تلزمهم المصاريف أكثر من عساكر بقية الدول لأن من قانونهم أن العسكري لا يخدم شيئاً سوى الحركات الحربية فيلزمهم من الخدمة و حمل الأثقال ما هو أضعاف عددهم و لا يخفى ما في ذلك من المصاريف و الكلفة المحوجهة إلى الوقت، حتى أن عساكرها الذين وجهتهم على الحبشة منذ نحو عشرين سنة لزمها أن تجعل لهم طريقاً حديدية و قنوات لجلب الماء كلها موقتة، و كان خادمو العسكر ضعفي عدد العساكر و هكذا دأبها في حروبها.

و بناء على اتساع المستعمرات و افتراقها و بعدها عن مركز الدولة و كون الطرق إليها بحرية مع أن نفس مركز المملكة جزيرة لزم أن تكون دولة الإنكليز هي أقوى دولة في البحر من حيث السفن الحربية و من حيث كثرة السفن التجارية و وجود البواخر و العارفين بفن البحر.

مطلب في السياسة الخارجية للإنكليز

إشارة

اعلم أن ما تقدم من الأحوال العامة في الخارجية للدول العظيمة مما تقدم ذكره في إيطاليا و فرنسا و هو أيضاً جار في انكلتيره مثل وجود السفراء و المراقبة لجهات المنافع الخ، فالذي يخص إنكلتيره هنا هو بيان محلات إهتمامها في الخارج و حيث قد تقدم أن لها مستعمرات في جميع أقسام الكرة المعروفة، كانت عنايتها في الخارج أوسع من غيرها من بقية دول أوروبا لكن ليست الجهات كلها سواء في الرتبة بل هي متدرجة، ففي أوروبا ليس لها من النفوذ في داخلية دولها شيء سواء كانت الدول كبيرة أو صغيرة لا ابتناء إداراتهم على قواعد راسخة مسلمة بين جميعهم مقررمة بمعاهدات، فلن ترى حاكماً إنكليزياً ذا سلطة في برلين قاعدة ألمانيا و لا في مونكو التي هي دولة مستقلة في بلدة محاطة بإيطاليا عدد سكانها نحو أربعة آلاف نسمة و الكل في الدخول تحت أحكامهم من رعية الإنكليز سواء، و إنما نواب الدولة يراقبون الأحوال السياسية لا الأحكام الشخصية، نعم لدولة الإنكليز زيادة اعتبار في خصوص مملكة البلجيك لما اقتضته معاهدة سنة ١٨١٥ من استقلال هاته المملكة عند سقوط نابليون الأول و جعلها تحت حماية كبار الدول، غير أن المراقب لتلك الحماية هي دولة الإنكليز فهذا هو وجه زيادة اعتبارها هناك و مثل ذلك حاصل في دولة

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ٢٠٣

البرتغال لما تسبب عن حروب سالفه مع إسبانيا و فرنسا، و أما بقية الدول فلا فضل عندهم لانكلتيره على مونكو في أحوالهم سوى ما

تجر إليه السياسة الآتية إيضاحها، و أما أمريكا فهي أيضا على ذلك المنوال، و أما آسيا و أفريقية فعلى وجه آخر مع دولها من حيثيتين.

الأولى: سوء المعاهدات القديمة معهم التي لم يراع فيها إلا الحالة الراهنة إذ ذاك مع عدم تقييد المعاهدات بمدة محدودة، فتغير الزمان و تغيرت الحالات و بقيت أحكام المعاهدات على ما هي عليه، فلزم منها أن تكون لدولة الإنكليز شبه دولة مستقلة في كل من هاته الممالك بحيث أن رعاياها غير داخلين تحت الأحكام مثل الأهالي، بل يحكم في الشخصيات قنصلهم و حدهم أو بحضورهم أو حضور أحد من سفارتهم مع حاكم البلد و له الإعتراض على الحاكم في الحكم، و في بعض الممالك إذ كان الحكم في جناية فإنما ينفذ في إحدى ممالك الإنكليز إلى غير ذلك مما يتعسر معه للأهالي الوصول إلى الحق، و يحصل منه شبه حكومة مستقلة في وسط المملكة و ليس ذلك بخاص بالإنكليز بل عام في جميع دول أوروبا مع تلك الممالك، و غاية الخلاف هو زيادة التظاهر و التظلم من أحكام البلاد من الدول القوية ذات الغرض في النفوذ في تلك المملكة و فقد ذلك ممن ليس له قوة أو ليس له غرض.

و ثانية حيثيتين: هو أن مستعمرات الإنكليز قد مر أن أهمها هو الهند فكانت متحفظة خاشية من كل ما يوهن قوتها فيه إما بواسطة أو قصدا حتى صارت تحافظ على الطرق الموصلة إليه، فكانت قبل فتح خليج السويس تتوصل إليه من المحيط الجنوبي وراء أفريقية فاستمكت عدة مراكز في أفريقية الغربية و الجنوبية و الشرقية مع عدن في آسيا، كل ذلك لتكون لها قوات و مراكز تلجأ إليها عند الحاجة و به يعلم أن ثمره المستعمرات ليست خاصة بالأوجه التي أشرنا إليها، بل منها أيضا أهمية المستعمرة من جهة كونه مركزا حربيا فقط و ذلك مثل جبل الطارق و مثل مالطة و غير ذلك.

فبناء على ما شرحناه صارت سياستها الخارجية مع كل الدول القريبة من الهند و التي هي في طريقه و التي لها مصالح أو مطمح نظر إليه على نوع آخر من المشاحنة مع القوى و النفوذ مع الضعيف، و تستعمل لذلك كلا من الترغيب و التهيب فالدول التي لها معهم دائما زيادة محاورات سياسية هي دولة روسيا من حيث أنها امتدت في دواخل آسيا حتى اقتربت من أفغانستان الذي هو في حدود الهند و من حيث طموح نظرها إلى الإستيلاء على الممالك العثمانية التي يهملها بقاؤها كما يأتي إيضاحه، و الدولة الثانية التي لها معها زيادة عناية سياسية هي الدولة العثمانية و ذلك من وجهين.

أولهما: أنها لا تريد زيادة نخوتها و قوتها خوفا من امتدادها إلى المشرق و ارتباط المسلمين هناك بها حتى يلتحم بها مسلمو الهند و يعود الهند لما كان عليه من اللحاق بالخلافة الإسلامية.

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ٢٠٤

و ثانيهما: الخوف عليها من الضعف المفرط حتى تلتقمها الدول المجاورة لها فيكون لمن يجوز موقعها الجغرافي النفوذ و السطوة التي تخشى منها إنكلا تيره على فقد قوتها و اعتبارها المادي و المعنوي، و بناء على هذا صار لها تدخل كلي في سياسة الدولة العثمانية الخارجية و حملها على ذلك التدخل مع بقية الدول الكبيرة الستة لما لهم من المساس بتلك السياسة سواء كانت قصدا أو بواسطة، و اضطر ذلك انكلا تيره إلى جلب ملاينة فرنسا لأنها دولة بحرية قوية فمسالمتها و موالاتها أولى لها بمقاصدها سيما مع ابتناء سياستها على مجانبه الحرب مهما أمكن كما تقدم، و ذلك تستعمله حتى في الحرب مع الخارج حتى تستعين بكل الوسائل لقطع أسبابه مع التحفظ على حقوقها كما وقع منها أخيرا سنة ١٢٩٤ هـ من التوسل بالسلطان العثماني للأمير أفغانستان بإرساله له رسولا لكي يلاين إنكلا تيره و يقطع معها المشاحنة الداعية للحرب من عدم قبوله لسفير مقيم عنده في كابل و غير ذلك مما بعث عليه إغراء روسيا و لم يقبل التوسط حتى وقع في الحرب كما تقدمت الإشارة إليه في محله، فذلك الباعث دعاها إلى ملاينة فرنسا كما تقدم في سياستها الخارجية طمعا في التسليم لها في السلطة على مصر أو في الأقل على تعاضدهما معا على إزدياد نفوذهما في مصر، حتى تسنح الفرصة لإنكلا تيره في إلحاقها بها حيث كانت الآن هي أقرب الطرق إلى الهند بعد فتح خليج السويس مع ما في ذات مصر من الأهمية الكبرى، فبين حينئذ وجه زيادة اشتغال إنكلا تيره بأحوال الدولة العثمانية و على الخصوص أحوال مصر و ما يجرها من ذلك إلى بقية

الدول الكبيرة و مع بقاء الدول التي تجاور مستعمراتها على حسبها في القوة و الضعف، ثم إعلم أن سياسة الإنكليز لما كانت مبنية في التصرف على مذهب الحزبين اللذين مر ذكرهما في السياسة الداخلية، و هما: حزب المحافظة و حزب إطلاق الحرية. كانت تخلف في الخارج على حسب مقاصد الحرب الذي يتولى إدارة المملكة فيؤثر ذلك في السياسة الخارجية أيضا تأثيرا بينا فترى تغير السياسة يتعاقب على توالي الحزبين حتى يكاد أن لا تثق دولة بالإعتماد على سياسة الإنكليز في موالاتها، لأنه بينما يكون حزب المحافظة جاثلا في الإحتراس على مملكة يهتمهم بقاؤها و تعتمد هي على معاضدتهم و إذا بحزب الإطلاق قد جلب أفكار العامة إليه فيصعد إلى تخت الإدارة و ينقض غزل سابقه و يخذل من اعتمد عليه، و سياسة كل من الحزبين و إن لم تكن مباينة دفعه واحدة لسياسة الآخر حتى لا يتسر له إبطال حرب معقودة أو نقض صلح انبرم، لكنه يسعى بقدر الطاقة في إنهاء كل ما وجده و عدم إثمارة حتى يبرهن الخارج على فساد ما سعى فيه سلفه من غير أن يثبت عليه أنه هو الذي كان سببا في الفساد، و لهذا صار كل من الحزبين يجهد مستطاعه في عدم الدخول في حرب مهمة لكي لا يجد ضده بابا للتشجيع به عليه لأن عاقبة الحرب مع الدول الكبيرة مجهولة، و انبنى على هذا وسم دولة الإنكليز من سائر الأمم المستقلة أنها دولة تجارية إنما تبحث على زيادة غنى أهاليها من غير بحث عن الشرف و الجاه لدى الأمم الكبيرة القوية.

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ٢٠٥

و عند دخولي إلى إنكلادتيه وجدت رئيس الوزارة هو رئيس حزب المحافظين و هو اللورد بكنسفيلد و إنما حاز ذلك اللقب عند معاهدة برلين سنة ١٢٩٥ هـ حيث نجح سعيه في تغيير معاهدة صان استيفانوس بتلك المعاهدة، و استولت انكلادتيه على قبرس، و كان هذا الرجل من نسل اليهود فلما ترقى في السياسة غير دينه لدين الدولة حتى يمكن له الترقى للمناصب العالية و اشتهر بتأليفه و أفكاره و خطبه حتى سلمت له رياسة حزب المحافظين و ولى الوزارة مرارا. و أما رئيس حزب الإطلاق حينئذ فهو مستر إكلادستون و ليس له لقب شرف لكنه باتساع معارفه حاز تلك الرتبة و استولى الوزارة مرارا.

فصل في بعض عوائد الإنكليز و صفاتهم

أعلم أن كتاب كشف المخبا عن فنون أوروبا للبلغ اللغوى أحمد فارس قد اشتمل على تفاصيل في عوائد القوم يعز وجودها في غيره فمن رام الإطلاع على جزئياتها فليرجع إليه و إنما نلم هنا بشيء كاف في التعريف بذلك. و حاصله أن أصل الأهالي كما تقدم من قبيلة من قدماء الفرنسيين اختلطت مع قوم قدماء في الشمال و تناسل منهم هذا الجيل و هم أقوياء بيض نصح حمر من الدم، يغلب فيهم الطول و شقورة الشعر نساؤهم جميلات طباعهم رزينه فمع إطلاق الحرية فيهم لا يطيشون عن حدود الإستقامة و الإنقياد إلى الحكم حتى إذا تجمع منهم الجرم الغفير البالغ لعدة مئات من الألوف و تكلموا في السياسة و هاجوا و اضطربوا و وقع بينهم خلاف في تلك المجامع أحوجت إلى الخروج من القول إلى الفعل فما هو إلا أن يصعد حاكم ذلك الصقع على مكان مرتفع و يقول سيدنا و حاكمنا الملك يأمر كل فرد منكم أيها المجتمعون بالفرق حالا و أن يدخل كل منكم مسكنه أو محل صناعته تحت قيد الحكم الصادر في أول سنة في دولة الملك جورج في قطع الهرج و الغوغاء و الله يحرس الملك، فحينئذ يتفرق الجمع إلا ما ندر فيحتاج إلى أعمال القوة من الضابطة و الحرس و العساكر بل و على كل مار إعانة الحرس إلا أصحاب رتبة اللورد فإنهم غير مكلفين بذلك، و من النادر القليل وجود حالة مثل تلك بل الأفراد الجناء يخضعون للحكم و ينقادون إلى أمر أعوان الحكم بمجرد القول، و على فرض الإمتناع فيخرج له العون عصبية على رأسها صورة تاج الملك فيطاطى رأسه و ينقاد و إن لم يفعل و جب على كل من رآه إعانة العون على جبره فأعانت هاتيكم الخلة على إطلاق الحرية و اطمئنان الدولة من الهرج.

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ٢٠٦

وقد تقدم أن عدد السكان نحو إثنين و ثلاثين مليوناً و ديانتهم الغالبية برتستانات و قليل من الكاتوليك ثم اليهود ثم الدهرية ثم الموحدين، أى الذين يوحدون الله و يعترفون بالرسالة و العبودية و البشرية لعيسى و يصدقون بالكتب فهم أقرب إلى الإسلام و لا زال يكثر عددهم سيما فى ألمانيا و أمريكا، كما يوجد النادر من المسلمين، ثم أن عوائد الأهالى لا يمكن إطلاقها على الجميع سواء بل بين طبقاتهم البون البعيد فهم على خمسة أصناف.

الأولى: العلية و لهم امتيازات تقدم بعضها فى السياسة و من خاصيتهم أن لا يدخلوا فى الأعمال البدنية التى تجب على العموم و ينتزهون عن مخالطة غيرهم بحيث يكون كل منهم فى داره عنده سائر ما يحتاج إليه و لا يحتاج فى الخارج إلا لمجرد المشى فى الطريق لمكان نزهته أو لصاحبه الذى هو من نوعه و على نحوهم نساؤهم، و هؤلاء هم أصحاب لقب اللورد و غيره من ألقاب الشرف كالمركيز و السير و غيره من الألقاب الوراثية، و التى يعطيها الملك بموافقة مجلسه الخاص، و مثل هؤلاء الأمراء و الوزراء و أصحاب المناصب السامية و الأساقفة الكبار.

الثانية: هم الأعيان الذين لهم أملاك تغنيهم عن معاطاة شغل أو حرفه مع تنعم العيش و الرفاهية و الإسراف لكنهم ليس لهم لقب مثل الأولى.

الثالثة: العلماء و المتشرعون و القسوس و التجار الكبار.

الرابعة: التجار و أصحاب العمل النيه مثل الكتبة.

الخامسة: بقية الناس المتعيشين من كد أبدانهم.

فالأولى و الأخيرة بينهما التباين و الثلاثة الباقية لكل منها جهة تناسب بها من فوقها و جهة تناسب بها من تحتها، و يمكن على حسب التقريب أن يقال أن الثلاثة الوسطى فى عاداتهم و أطوارهم على نحو ما تقدم فى فرنسا و إيطاليا، و أما الطبقة العليا فليس لها مثل فى تينك المملكتين، و محصل حالهم أنهم على نوع من صفات ملوك الإستبداد فى العظمة و الكبرياء و الفخر و المباهاة باللعب و اللهو و التكاثر فى الأموال و الأولاد و القناطير المقنطرة من الذهب و الفضة و الخيل المسومة و الأنعام و الحرث، فترى للواحد من ملك الأرض مسيرة يوم للراجل و يملك الفرس بأربعمائة ألف فرنك و يعد دخله بالدقيقة فيكون له فى الدقيقة ألف ليرة أو ليرة أو نحو ذلك، و يفرش بيته بصنائع أهل المشرق و المغرب و المنسوجات التى قيمة ذراعها بخمسمائة فرنك و نحوها إلى غير ذلك من الأطوار التى لا [ينعم] بها إلا هو و عائلته أو من كان من طبقته و بينهم مودة أو من يتفضلون عليه بالمعرفة، و هى إنما تحصل للغريب إذا كانت له وصاية من أحد قرابه أولئك العلية قد تعرف به فى

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ٢٠٧

أحد الأقاليم، و حينئذ يرى من إكرامهم و تعميمهم له بإشترائه معهم فيما هم عليه ما يقربه عينا من القنص و اللهو و اللعب و المراكب و المآكل و المشارب و المنازه حتى يكون لبعض هؤلاء العلية مراكب خاصة فى طريق الحديد محتوية على سائر اللوازم يسيرون بها إلى حيث أرادوا، و يولونه أى الضيف من ملاطفة نسائهم و إكرامهم له بإعطاء قدح الشاى من يد العناء ما هو عنه فى غناء من المحافظة على الآداب و القواعد المعروفة لديهم كعدم التهوع و لا-حك جهة من بدنه و لا التدخين، و من عجيب أطوارهم فيه التناقض التام فبعض نسوتهم يكرهون شم أثره على الثياب و بعضهن يدخن كالرجال و لن ترى من واحد من هؤلاء ذوى الملايين أو آلاف الملايين يتكرم بشيء ذى قيمة و نهاية التوادد بالهدية هى صورته أو ما شاكلها مما قيمته إذا تناهت تبلغ ألف فرنك، بل كاد أن لا يوجد من يتصدق منهم على الفقراء إلا أن يكون لرياء أو سمعة، فلو مر أحدهم على فقير يتضوع جوعاً لما رأى له من داع إلى مرحمته حيث أنه يعلم أنه يعطى سنويا إلى ديار الفقراء مقداراً من المال، فلا يهملهم أن يكون ذلك الفقير الذى يراه فى حالة النزاع من البرد أو الحر أو الجوع أنه لم يمكن له الوصول إلى تلك الدار أو أنها لم يكن فيها سعة لقبوله.

و أقول أن هاته الخلة كادت أن تكون عامه فى أوروبا إلا-قليلاً منهم فإنهم يجرون على حسب مكارم الأخلاق، و أما أطوار الطبقة

السفلى فهي أشنع مما مر ذكره في هجم الفرنسيين، سواء كان من جهة الإعتقاد أو من جهة السيرة و الحركات فيتطرون من أشياء كادت أن لا تحصى و ينقادون إلى السحرة و الدجالين بما يخرج عن حد المعقول، و كاد التعلم أن يكون عندهم مجهول لإسم فضلا عن المسمى سوى ما يرطن لهم القسوس في الكنائس، و من هذا القبيل اعتقاد عامة أهل أرلاند أنه انقطاع الحيات من جزيرتهم بسبب قسيس مع أنها أفقدها الثلج و البرد مع عدم الإتصال بالقارة حتى يخلفها غيرها و لهم في ذلك خرافات، و الحاصل أن صفة الإنكليز على الإجمال هي السكون و الرزانة و التجافى عن الغريب إلا بواسطة في التعرف حتى لو بقى بين أظهرهم سنين لا يكاد أن يقول له واحد أسعد الله صباحك، كما أن من طبعهم الإقبال على الشغل و الجد فيه و عدم الإيمان بالقدر حتى إذا يئس أحدهم من المال قتل نفسه، فكثيرا ما تسمع بذلك و بقتل الآباء لأولادهم و كذلك الأمهات و العكس، و مما يحصل عندهم من الوقاحة أحيانا مضاجعة الأنب بنته و الأخ أخته لكنه لم يسمع بمضاجعة الابن أمه، و منها أيضا بيع الزوج زوجته لمن يحبها و يمضى لهم الحكم ذلك فأعجب لقوم يحتسبون على بيع الرقيق في الآفاق و يحكمون بصحة بيع الزوجة بفلس أو فلسين لأن الطلاق عندهم له شروط، و هي ثبوت الفاحشة من الزوجة لدى الحكم.

و من غريب الوقائع في هذا الصدد ما وقع منذ عهد قريب و نشر في سائر صحفهم و غيرها، من أن زوجة أحد اللوردات ولدت و عندما بشرت بأنها ولدت ذكرا قالت من

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ٢٠٨

الفرح هو ابن ولى العهد و كانت قرابة زوجها يسمعون ذلك، فثار عجاج النازلة إلى أن رفعت لدى مجلس الحكم لكى يستطيع الرجل طلاقها، و ادعى وكيلها أنها اعترافا جنون من النفاس حتى صارت تقول ما لا أصل له، و ادعى وكيل الزوج أن الخلطة حاصله من قبل مع ولى العهد و كانوا يتزاورون و يتزهون معا، ففضى الحال باستدعاء الشهود و منهم ولى العهد و عند حضورهم فى المجلس الذى هو عنى و حاضر فيه كتاب الأخبار و غيرهم، قال القاضى علنا: ينبغى أن لا يسأل الإنسان عما يستهجن أو يشين العرض و ينبغى للشاهد أن لا يجيب إذا سئل عما يشين عرضه، ثم دعى بولى العهد فسأله عن معرفة المرأة؟ فأجاب بمعرفتها، ثم سئل عن اجتماعه بها؟ فأجاب إلى أن قال: إنهما اجتماعا فى منزل من المنتزهات للطعام فشربا و أكلا و بقيا حصه بعد الأكل فى محل خاص ثم رجع كل منهما إلى محله بعد قضاء التنزه، فقال له القاضى الذى نبه بما سمعته أسألك: هل واقعت هاته المرأة عند الخلوة؟ فرفع ولى العهد صوته قائلا: لا، فضج المجلس له بالتصفيق و حكم القاضى ببراءة المرأة و بقاء الزوجية، و إنما الأعيان يتحاشون عن بيع الزوجات لكنه شائع فى السوق و صحفهم تنشر منه شيئا كثيرا.

و من عاداتهم اللكام و هو أنه كلما عرض لأحدهم حنق على صاحبه ألا تبادر بضرب جمع الكف و عندما يغلب أحدهما كثيرا ما يصفح صاحبه و يتراضيا و لا حكم فى ذلك و لا يحصل هذا بين الأعيان و إنما يتعاونون عنه بالمقاتلة كما هو جار فى الممالك الأخرى من أوروبا، و هى أنه إذا اشتد الغضب بين إثنين على شرط التكافى فى العرض يرمى أحدهما لصاحبه بقفازيه أو شىء من متاعه، ثم يرسل له شاهدين يطلب منه التقاتل فيعين الآخر شاهدين و يتفق الشهود على آله التقاتل و مكانه و زمانه بعد أعمال و وجوه للتراضى و إسقاط الطلب فإن لم يجد أحضروا طبيبا و حضر المتقاتلان و الشهود و الطبيب و تقاتلوا على الصفة المتفق بها فإما أن يموت أحدهما أو يسلم أو يحصل عطب فيعالجه الطبيب و ينفصل الأمر، فإن لم يجب أحدهما للقتال صار ذليلا أمام الناس و صاحبه و قدر صاحبه مهما لاقاه أن يهينه بما بدا له، و هذا التقاتل و إن لم يكن مباحا بالأحكام لكن الحكومات غاضة النظر عنه بمعنى أنها لا تحتسب عليه و إن أضع واحد شرفه بالشكايه فيه حكم له لكنه يهان، فهو و إن كان فيه ما ينبىء عن علو الهمة و الشجاعة غير أنه من أعمال الهمج لأن الحكومات إنما أقيمت لدفع التعديات و إلغاء الأغراض الشخصية المضرة بالغير فعجبا لبقاء هاته العادة فى أوروبا بل و العجب من إزديادها تدريجا.

و من عادة الإنكليز التطير بأشياء كثيرة منها صباح المرأة الحولاء ما لم تتكلم، و من الجهل العام لا سيما فى عامتهم إلى أقوال

المتكهنين و أصحاب الحدثان و إنزعاجهم من أخبارهم حتى يقتلون أنفسهم و كثيرا ما يقتلون أنفسهم و أولادهم خشية الإملاق، و كثيرا ما تلد المرأة أربعة أولاد في بطن واحد و تكاثر الخلق عندهم في ازدياد حتى لا يجدون شغلا في بلادهم فترى مئات الألوف يهاجرون سنويا إلى الآفاق لتحصيل الكسب، و مع ذلك

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ٢٠٩

فعددهم في مملكتهم لا زال يزداد و دونك برهانا على ذلك في أقرب وقت. و هو أن عدد أهل إنكلاتيره أي المملكة الأصلية من الجزيرة الكبيرة وحدها كان في سنة ١٨٥١ لا يصل إلى سبعة عشر مليونا و نصف، و الآن هو سنة ١٨٨٢ أعنى في ثلاثين سنة صار عددهم يناهز ثلاثة و عشرين مليونا فازدادوا خمسة ملايين، أو تزيد مع كثرة من هاجر منهم إلى ممالك أخر مما يقرب من ذلك العدد، و لمجموعهم تغال في عقائدهم فمن ذلك محافظتهم على يوم الأحد بحيث لا يفتح فيه محل عمل سوى الأكل و الشرب و من فتح حانوته عوقب و لو لم يكن من مذهبهم، و هو غاية التناقض مع ما يطلقونه من الحرية و لمملكتهم الحالية زيادة توغل في ذلك حتى حكى عنها الشيخ أحمد فارس: «أنها عرض عليها أحد وزرائها أوراقا مهمة للإمضاء في ليلة الأحد لكنه تلف لها بإمكان تأخيرها للصباح فقالت: كيف و هو يوم الأحد؟ فقال هي مهمة للحكم، فقالت: إذا بعد الكنيسة، فقال: نعم، و لما رجعت من الكنيسة و كان الوزير مصاحبا لها أعلمته بأن الخطبة التي أعجبتة هي بإيعازها إلى القسيس في المحافظة على يوم الأحد و بناء على ذلك فليأتها صبيحة يوم الإثنين و لو في الساعة الثالثة قبل الظهر لتمضى له أوراقه، و تلك الساعة عندهم من العجيب مباشرة الأشغال فيها لأنها مبكرة جدا حسب عوائدهم.

و من عاداتهم التزلق على الجليد و لهم مهارة في ذلك و قلدهم الفرنسيين و كثيرا ما يحصل العطب بانكسار الجليد و تغرق من عليه في النهر أو البركة أو البحيرة، و الحاصل أن أخلاق الإنكليز عبوسة و لا يلتحمون بالأجنبي مثل ما يقع من الفرنسيين، غير أنهم إذا ود أحدهم أحدا سيما من عيلتهم فإنه يحافظ عهده و يدوم على ولائه و يحمون ذمارة. و لهم ولوع بالخيل و تربيتها و تنسيلها و غناءهم بالنسبة للطلبان و الفرنسيين ردىء لتقطع أصواتهم و حصرها و بقية الصفات هم فيها مثل من تقدم ذكره من الممالك، ثم يوجد في إنكلاتيره نوع من البشر يسمون عند أهل تونس بالزمازية و في الأستانة جينكا له و بالفرنساوى بالبوهمية، و هم في الحقيقة موجودون في أغلب الأقطار شرادم و في كل جهة محافظون على عوائدهم، و أهمها الجهل و عدم مخالطة النسل و تعاطى علم الغيب و سكنى الخيام و تعاطى الصنائع البسيطة الرذيلة مع الفقر، و لهم لغة تخصصهم. و من عادات أواسط الإنكليز و عيلتهم حسن تربية الأم لأولادها بحيث ينشون على التهذيب و التفتن إلى التعليم من غير تعب، حتى أنهم كثيرا ما يتعلمون الأحرف و مبدأ القراءة لمجرد التربية فيما تدمجه الأم أو المربية للصغير مع النظافة و الإبعاد عن الأخلاق الذميمة، و كل أوروبا على هذا النحو لما لهم في النساء من التعليم الحسن.

مطلب في التجارة بإنكلاتيره

اعلم أن الأصول المتجرية التي مر ذكرها في الممالك السابقة هي جارية كذلك في إنكلاتيره لكن لهؤلاء زيادة بسطة و غنى على سائر الممالك بما يروج من تجارتهم في

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ٢١٠

مستعمراتهم و غيرها، حتى أحصى سنة ١٢٩٨ هـ ١٨٨١ م ملك الإنكليز من المنقولات التي لها دخل مثل إسهم سلك الحديد و ديون الدول و غيرها، فكان سبعة و ثمانين مليار فرنك و المليار ألف مليون، و دخل ذلك في السنة أربعة مليارات فلو قسم على نسبة عدد أنفسهم لصح لكل إنكليزي (١١٠) فرنك منها ٥٠ من خارج المملكة، و ذلك كاف في بيان مقدار غنى هؤلاء القوم و حركة تجارتهم فإن بريدهم يصل إلى جميع جهات المسكونة و بواخرهم مائة للبحر، و أعظم البضائع الخارجية من مملكتهم هو

الفحم الحجري فقد أخرج من مقاطعة سنة ١٨٦٦ ما يزيد على ألفي مليون قنطارا و المقاطع الموجودة في إنكلاتيره من هذا الفحم ثلاثة آلاف و مائتان و إحدى و ثلاثون مقطعا، و هو سبب عظيم لثروتهم من حيث البيع منه للخارج و استعماله في الداخل و من حيث توقف الأشغال الصناعية عليه لكثرة المعامل البخارية، و لذلك اشتدت عنايتهم به حتى أنه كان كثير من علماء الإقتصاد عندهم يبحث عن أحوال فراغ ذلك المعدن و ما يتسبب عنه من الرزينة للإنكليز، و في سنة ١٢٨٨ هـ ١٨٧١ م اشتد البحث في هذا الأمر و عينت الدولة لجنة لتحقيق الأمر، و بعد مدة و أبحاث استقر رأيهم على أنه يمكن بقاء هذا المعدن عندهم إلى مدة ثلاثمائة و خمسين سنة ثم يفرغ نظر الكمية ما يستخرج منه سنويا و نظر الصعوبة استخراجها فيما سفل من طبقات الأرض و كثرة المصاريف عليه حينئذ، و من تلك السنة ارتفع ثمنه نظرا للإقتصاد في استخراجها و لزال البحث عما يعرضهم عنه من القوات أو وجود غيره في مستعمراتهم و من موارد تجارتهم الواسعة أيضا ما يخرج منهم من الحديد، و أغلب المجلوب لهم الحبوب لأن ما يخرج منها عندهم غير كاف لهم و تجد في أفراد الإنكليز الغنى الذي لا يوجد في غيرهم كما يوجد فيهم الفقر المدقع بكثرته، و قد انعقدت في خصوص لندره شركات للتجارة و الزراعة ٢١٢٥ شركة أفلس منها ٤١٢ شركة رأس مالها ٥٠٠ مليون فرنك، و ذلك في خصوص سنة واحدة و هي سنة ١٨٨١.

مطلب في الأحكام بإنكلاتيره

قد مرت أصول الأحكام الشخصية عندهم في مبحث السياسة الداخلية، و إنما نقول هنا أن قضاء الإنكليز يضرب بهم المثل في أوروبا في العفة و عدم الميل إلى الأغراض و لو في متعلقات دولتهم، و هناك مدن يقيم فيها القاضى و مدن تذهب إليها القضاة في أوقات معلومة من السنة فتعرض عليهم النوازل المهيآت لهم من حكام الجهات، و الأحكام الثقيلة إنما تصدر من القضاة بمحض الجورى و قد تقدم الكلام عليه غير أن جورى الإنكليز يختص بأنه على قسمين: فالأحكام الخطيرة جوريها يتألف من فقهاءهم و أعيانهم و لكل منهم ليرة على كل نازلة، و الأحكام الحقيرة جوريها من السوقة و أصحاب الحرف مثل فرنسا، و يزيد جورى الإنكليز بجور عظيم على نفس الجورى فإن للقاضى توقيفهم في محل منفرد بمكان الحكم حتى يقع إجماعهم على رأى واحد من غير أكل و لا شرب، و إذا وجد مع

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ٢١١

أحدهم شيئا من مواد المعاش غرم مالا و هذا من عجائب الأحكام، إذ كيف يلزم إتفاق آراء عديده على قول واحد دائما أو يغصبون على ذلك فعوضا أن يكون ذلك وسيلة للعدل ربما كان واسطة للجور، كما أنهم صاروا يستحسنون تعويض الحكم بالأعمال الشاقة عن القتل مهما أمكن و ذلك جالب لزيادة الشر كما صرحت به صحفهم المنصفه، و كذلك صاروا لا يحكمون بحبس المدين و إنما على الدائن إثبات مال له و الحكم يوصله به، و من أحكامهم المبنية على العادات القديمة تغريقهم للوطى فى وعاء من العذرة إلى أن يموت و هو من أشد الشناعات عندهم و مع ذلك فهو فاش فى كثير منهم سرا سيما العساكر البحرية، و قد وقع عندهم منذ عهد قريب أن أحد الملاهى وجد فيه لاعبات جميلات جدا فدعاهن مترفوهن و اختلوا بهن و بعد مدة مديدة اكتشفت الحرس على أنهن فى الواقع غلمان، و شدّد البحث عن حالهم فوجدوا بحكم الأطباء أنهم مفعول بهم كثيرا لكن حكم فيهم أشد حكم و لم تتبع الجزئيات لكى لا يقع الإفتضاح لبعض العلية، و قد ابتنى على عدم حصر أحكامهم فى مرجع واحد طول مدة الحكم و كثرة المصاريف عليها أزيد مما يوجد من الطول فى محاكم أوروبا التى تطول فيها النوازل جدا، و من أحكامهم إباحة الزنى بالتراضى مثل ما فى غيرهم لكن يمكن أن يقال نساء عليتهم أعف من غيرهن فى الممالك الأخرى و نساء أواسط الفرنسيين على ذلك النحو و ما عدا هؤلاء فلا ترد إحداهن تعريضا لا ما قل بل و ربما فاتحت هى الرجل.

مطلب في المعارف بإنكلاتيره

لا خفاء أن امتداد الثروة مبنى على كل من العدل و العلم فعلى قدر ارتقاء ذلك تنمو الثروة، و ما تقدم من إجمال حال ثروتهم دال على حالة المعارف عندهم و أصول المعارف هي الموجودة بغيرها من الممالك السابقة و تنقسم تعاليمها إلى التقاسيم الموجودة في فرنسا، و أعظم المدن التي توقد إليها مزجيات الأرتال لإقامة التلامذة بمدارسها هي مدينة كمبريج و أكسفورد، و أكثر أبناء الأغنياء يقيمون بهاته المدارس و لهذا كان كل من البلدين غالى الأسعار إذ أغلب التلامذة يقضون أوقاتهم في التلهي و التفاخر و الوسيلة إسم التعلم و قل ما يبرع أبناء الأغنياء في العلوم، لكن على كل حال لا يوجد فيهم الجهل المطبق، و مما اختصت به إنكلاتيره وجود جمعية دينية لنشر مذهبهم البرتستانتي و إنفاق النفقات الباهظة على إرسال الرسل لتنصير الناس في أقسام الأرض و حماية دولتهم و راءهم فيغرون الناس بالمال و بالمباحثات الدينية و بفتح المدارس لتعليم العلوم و درس العقائد فيها، و قد بذلوا مستطاعهم في الهند لتبديل عقائد أهله و حصلت مع المسلمين مباحثات شهيرة و كان الانتصار فيها و لله الحمد للمسلمين، حتى أنه أسلم بسببها كثير من المجوس، بل في هاته المدة أسلم أربعة قسوس من الذين تصدوا للنزاع و الجدل بسبب صدق الديانة الإسلامية و رسوخ العلماء هناك و تبحرهم في العلوم، ثم أن أسباب تيسير نشر المعارف في إنكلاتيره

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ٢١٢

كثيرة سهلة المناولة فقد حرروا في سنة ١٢٩٨ هـ ١٨٨١ م أنه يوجد بلنדרه وحدها ٨٧١ مطبعة و ١٦ معملا لصنع المكابس التي تشغلها الأيدي فضلا عن معامل مكابس البخار، و تسعة معامل لآلات إعطاء الحبر للحروف و ٢٢ معملا لصنع مكابس المطابع الحجرية و ٢٢ معملا لسبك الأحرف و لوازمها، و كل مدينة فيها من المطابع و المكاتب ما يناسبها، و عدد المكتبات التي بإنكلاتيره ٢٠٠ مكتبة فيها من الكتب المطبوعة ٢٨٧١٤٨٣ و من الكتب التي بالخط ٢٦٠٠٠ و أعظم هاته المكاتب مكتبة لندره الكبرى و هي ثانية لمكتبة الأمة في باريس.

و من أهم وسائل المعارف و التجارة و الحرية عندهم الصحف الخبرية و هي على أنواع في الموضوع فمنها الخاص ببعض فنون علمية كالطب و الكيمياء و غيرها، و البعض عام في الفنون، و البعض جامع للسياسة و الفنون و التجارة، و أهم صحيفة من هذا النوع صحيفة «التيمس» و كان أول انتشارها غرة كانون ثاني سنة ١٢٠٣ هـ ١٧٨٨ م و كانت لرجل خاص ثم صارت ذا أسهم للمشاركين و لم يزل حفيد منشيها له حصص منها و صارت لها آلة تطبع منها ستين ألف نسخة في الساعة الواحدة مع طيها لها على نحو كتاب ذي ثمان صفحات أو ستة عشرة صفحة، و الورق الذي تطبع عليه يؤتى به ملفوفا على نحو إسطوانة فتلقمها الآلة و تخرجه مطبوعا مطويا و طول كل قطعة من الكاغد قدر ثلاثة أميال إنكليزية و يوضع لها من تلك القطع من الثلاثين إلى الأربعين قطعة بحيث لو وصلت ببعضها ممتدة تبلغ مسافة مائة و عشرين ميلا هذا في طبعه الصباح وحدها و تارة تطبع ثانيا و ثالثا و رابعا إذا تكاثرت الأخبار، و لها خدمة للطبع و الإنشاء و غيره أربع مائة عامل نصفهم لخدمة النهار و النصف لخدمة الليل، و رئيس المنشئين مرتبه مائة ألف فرنك في السنة و زيادة على المنشئين الرسميين بالمراتب كل من أتى بمقالة في أي موضوع كان و حسنت عند المدير فإنه يعطى صاحبها أجرا عليها يبلغ إلى الألفي فرنك على المقالة الواحدة، و له في سائر الأقطار مكاتبون بمراتب وافر و لهم أعوان و كتاب و إدارة مثل سفارة لدولة من الدول و لهم إذن في صرف كل ما يلزمهم لأخذ الأخبار و إيصالها للإدارة زيادة على مصاريفهم الخاصة، فيصرفون أحيانا على مجرد خبر واحد بسلك الكهرباء ثلاثة آلاف فرنك و أزيد بل و يرشون من يرتشى من موظفي الدول لإعطائهم الأخبار السري، و قد حصلوا في بعض الدول المهمة على لوائح رسمية قبل وصولها إلى السفراء برشوة آلاف من الفرنك، و هؤلاء المكاتبون تقبلهم الوزراء و الأمراء مثل موظفين و يحاورونهم في المواد السياسية، و عند وقوع حرب فلا إدارة الصحيفة مكاتبون حاضران ترسلهم إلى ميادين الحرب في المعسكرين حتى يخبروا بما يكون و تقبلهم رؤساء الحرب بالرحب، غير أنهم يشترطون عليهم أن لا يخبروا إلا بما

يوافقهم فيحصل من الأخبار من الشقين ما يستنتج منه صحة الخبر و ينال هؤلاء المكاتبين من الأخطار ما هو معلوم في الحرب، غير أنهم يتابعون عن مواقع الرمي و كثيرا ما يكونون بقرب رئيس المعسكر، و من المعلوم أن لا يخاطر أحدهم بذلك إلا صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ٢١٣

لكثرة المال، فإدارة «التيمس» لها من الدخل و الخرج السنوى ما يضاهاى دولة من الدول الثانوية مع أن كل نسخة منه لا تباع إلا بثلاثين صانتيما أى ثلاثين من مائة من الفرنك الواحد، و لو اشترى الورق وحده أبيض لكان أعلى من ذلك لأن ورقه هو من معمل خاص به فالربح العظيم إنما هو من كثرة الخرج مع كثرة الإعلانات، و عدد نسخ كل دفعة نحو من السبعين ألف نسخة و على نحو منه فى أصول الإدارة صحف أوروبا الشهيرة كلها.

مطلب فى الصنائع فى إنكلاتيره

أما الفلاحة فهى مترقية للغاية و أكثر ما يستنتج هو القمح و الشعير و البطاطس و شجرة الدينار التى تستعمل منها السكر كة أى البيرة، و كل المستنبتات لا تكفى حاجة الأهالى فيجلبون من الخارج كثيرا إلا شجرة الدينار، و بقية الصنائع فأعظمها عمل آلات الحديد بأنواعها و السفن و المنسوجات القطنية و لهم فيها مهارة على سائر الممالك حتى صارت أرخص عندهم من غيرهم، ثم المنسوجات الصوفية لا سيما المستخرجة من صوفهم الرفيعة المشابهة للحزير، و بقية الصنائع هى دون ما فى فرنسا فى الحسن و الروتق لكن جميع مصنوعاتهم متينة.

مطلب فى هيئة المساكن فى إنكلاتيره

المساكن فى إنكلاتيره على خلاف الممالك المتقدم ذكرها فإن هيئة البناء من خارج على نحو ما فى الاستانة من خروج جهات من الدار و دخول أخرى، و كذلك الطواقى تنفتح أبوابها بالرفع إلى فوق مع كونها غير كبيرة مثل ما فى بقية أوروبا، و كذلك الديار كل منها لا يسكن إلا عائلة واحدة و لا تزيد طبقاتها على ثلاث و البناء كله من الآجر و السقوف و الدرج من خشب متقن الصنعة و الإلصاق ببعضه، و من أحسن ما عندهم هيئة الكنف و اتساعها و نظافتها و إن كانوا يجلسون عليها جلوسا، فما تقدم فى الأبنية هو الغالب و القليل مثل بقية أبنية الممالك السابقة، ثم أن منازل المسافرين هى أيضا مثل الممالك السابقة غير أن أكثر الواردين إنما يسكنون فى ديار منفردة يجدها الإنسان حاضرة بجميع لوازمها و ينفق فى أكله على حسب إرادته، و الذى يقوم له بلوازمه هو صاحب المحل فيسأله عن مقدار ما يريد يصرف يوميا و عن إجمال وقت أكله و ما هو مشتهاه منه فيصرف له على نحو ما يريد، و تخدمه خوادم المحل الذين هم فى الأغلب من البنات الجميلات، و من أراد كراء بيت واحد فله ذلك و هذا الطريق أرفق بكثير من السكنى فى منازل المسافرين لأنها فى إنكلاتيره غالية جدا كأنها معدة لأرباب الترف خاصة، ثم أن حارات السكنى لا تجد فيها حوانيت للسلع أو غيرها من اللوازم بل ذلك من عيب المسكن عندهم، و الطرق التى بها الأسواق و حوانيت البياعة لا تسكن إلا للأراذل بحيث يصح أن يقال أن عاداتهم فى المسكن قريبة كثيرا من عادات المسلمين فى انفراد العائلات و حماية الديار من التطرق و شدة النظافة، فى داخل الديار تنظيمها كل على قدر سعته.

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ٢١٤

أما الفرش و الأثاث: فهو على نحو ما تقدم فى الممالك السابقة من أوروبا، و مواعد الإنكليز فى البيوت أتقن من غيرهم و تلزمهم نفقة تضاهى نفقات المعيشة لشدة البرد و طول مدته، و لما رأيت أن بلدانهم كادت أن تكون كلها من الآجر زال تعجبي مما رأيت من كثرة معاملته فى الطريق.

أما الطرق: في إنكلاتييره فهي دون غيرها من ممالك أوروبا المتقدمة في الذكر من جهة النظافة و الإعتناء بتنظيمها، حتى إنى رأيت في ذات لندره طريقا لا يسع إلا عجله واحده لا تكاد العجلة تتحرك فيه من كثرة ما فيه من الوحل و الطين مع كونه كثير المرور فيه، و هكذا سائر الطرقات كثيرة الوحل قليلة النظافة سيما وقت نزول المطر الذى لا يكاد ينقطع، و لهذا شرعوا في عمل تلبيط الطرق بقطع الخشب لأنها أنظف.

و أما تنوير الطرق: فهو على نحو ما في سائر أوروبا، لكن القرى الصغيرة في بلاد الإنكليز هي أسوأ حالا من غيرها إذ كثير منها لا تجد فيه حانوتا لبيع شىء إلا ما ندر من بيع ما لا يسد من عوز، و كفى بما ذكره الشيخ أحمد فارس في صفتهم في هذا الصدد، حتى يكادوا يلحقوا بالوحشيين، نعم أن طرق الحديد و الترع و السفن هي هنا أكثر و أمتن من غيرها، و من الأبنية المعتنى بها السجن فهو عندهم بل و عند سائر أوروبا مقسم على أنواع على حسب الجنائيات و حسب الإيقاف و الحكم، فمحل الإيقاف للمتهم حتى يثبت عليه الحكم أشبه بمنزله منه بسجن، ثم يتدرج الأمر إلى الجنائيات الشديدة فيحبس الجانى في بيت منفرد يدخل له الضوء من أعلى و يتجدد به الهواء و يعطى شغلا عمليا و فراشا نظيفا يدفع الحر و البرد و أكلا سليما من طعام واحد، و يخرج في وقت معلوم للتمشى في البستان الذى حول السجن لكنه يمنع من الكلام مع غيره مطلقا فإن خالف الأوامر سجن في محل مظلم بطل، و إذا مرض عولج بالطبيب و الدواء فسجونهم سجن لا مقتل.

مطلب في اللبس في إنكلاتييره

لبس الإنكليز مثل لبس الفرنسيس بل و الشابات المترفات عيال في التقليد على الفرنسيات و هم يؤثرون مصنوعات الفرنسيين عن مصنوعاتهم في اللبس، و لبس العساكر أحسن من لبس عساكر غيرهم نظافة و شكلا و إن كان على نحو واحد، و لما كانت الأبخرة و الدخان و الضباب في إنكلاتييره يتكاثر جدا كانت الثياب البيض كالمصان تحتاج إلى التغيير بكثرة تخفظا على النظافة، فاحتاجوا إلى جعل رقبه القميص و رؤس يديه و صدره مفصولة عن القميص و تمسك به بواسطة زرر حتى لا يلزم تغيير جميع القميص لمجرد وسخ ما يظهر منه عدده مرار في اليوم، و هذا و إن كان موجودا في سائر أوروبا على السواء عند أواسط الناس لكن الذى خصت به إنكلاتييره هو جعل تلك القطع من ورق ثخين أبيض، حيث وجدوا ثمنه و إن كان لا يصلح لأزيد من لبسه واحده أرقق من ثمن الكتان مع دوامه لما يحتاج إليه من كثرة غسل الصابون و النشاء و التمليس بالحديد المحمى.

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ٢١٥

مطلب في الأكل في إنكلاتييره

الإنكليز أكثر أكلا من غيرهم حتى أن المقلل منهم لعددها يأكل أربع مرات في اليوم صباحا و قبل الظهر و في الساعة السادسة بعد الظهر و قبل النوم و الأخيرة هي الخالية عن المطبوخ، و منهم من يأكل ثمان مرات في اليوم، و أكلمهم على العموم بسيط إذ هو شوربه و لحم خالص مقلى أو مشوى أو مسلوق و بطاطس مسلوقه في الماء ليس إلا و لا يضعون في الطعام شيئا من التوابل، بل يأتون بها في أوانى أمام الأكل يأخذ منها غصه بدون طبخ بل حتى الملح كذلك عند بعضهم، و من هاته التوابل الحريفة كثيرا كالفلفل و غيره مما يستعمله الهنود، و يأتون إلى موائدهم بقطع كبيرة من الجبن و هو ألد جبن رأيت، كما أن اللحم أيضا يأتون به قطاعا كبيرة جدا بحيث يأتون بفخذ بقرة صغيرة كله قطعة واحده، كما أنهم أكثر أكلا للخبز من غيرهم ممن رأيت و المترفون منهم و المطاعم الشهيرة العامة يأتون بطباخين فرنسويين، و قد رأيت بإحدى المطاعم بلندره قسما لأكل الإنكليز و قسما لأكل المشرقين و قسما لأكل الفرنسيين، فيختار الأكل الجبهه التى يريدونها و كان الداعى لبساطه أكلمهم و لو عند الأغنياء كثرة الغش في المأكولات بحيث لا تكاد

تجد خبزا من دقيق الحنطة حقيقه بل هو فيه أنواع شتى تركب بإتقان حتى لا يفرق بينها وبين الأصل إلا بعمليات كيمياوية، وكذلك الزبدة فما هي إلا شحم حيوانات تركب مع أجزاء بأعمال كيمياوية حتى تصير مثل الزبدة وهكذا سائر الأشياء إلا اللحم، وقد ذكر في كشف المخبا ما يتعجب منه من خلط المأكولات و غشها و جهل العموم بأنواع الطبخ، و هم كثير و الشرب للمسكرات الروحية و كذلك السكر كة أى البيرة لشدة البرد و قلته الخمر و غلائه حيث لا- ينبت بأرضهم العنب، و يخلطون البيرة بورق التبغ حتى تصير شديدة التأثير و يكثرون منها حتى يغمى عليهم، بل أن أيام الأحد ترى النساء و الرجال سكرى على الطرق ملقون و يتفوهون بالفحش و بعضهم أحيانا يموت من كثرة السكر، و أهل اليسار يشربون الشاي بكثرة سيما فى السمر ليلا و يدعو الأجابة بعضهم إليه و يختلفون لشربه و يجعلون فى أقداح الشرب قطعا من الليمون الحامض أو يخلطونه بشيء من اللبن و يأكلون معه شيئا من الخبز و الزبدة و غير ذلك من المآكل الخفيفة، لكنهم لا يضعون فيه العنبر أو غيره مما تصنعه المغاربة و المشارقة، و أكثر طبخهم فى الأواني من الحديد لا النحاس لأنه إذا لم يبيض دائما ينشأ منه الصدء القتال، و لذا صار أغلب أوروبا إنما يطبخ فى أواني الحديد أو النحاس التى يجعل داخلها مطليا بنوع من الخزف بحيث لا يمس النحاس الطعام.

و من عاداتهم فى الأكل أكل اللحم التتن سيما فى بعض الطيور حتى يصير الطير يكاد يتحرك من الدود الذى نشأ فيه، و إذا أدخل إلى بيت الأكل زكمت أنوف حتى الكلاب من قبح تنن رائحته و هم يستلذونه على ذلك مثل سودان أفريقيه، و من القواعد الجارية فى

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ٢١٦

عموم أوروبا أن لحم البقر لا يؤكل إلا بعد يوم من ذبحه فى الأقل و مثله الطيور، و لعمري أن هذا لحسن من جهة تليين اللحم و قابليته للطبخ و اللذة سيما فى البلاد الباردة، لكن لا يصل الحد به إلى حدوث أدنى رائحة به فإن هذا مضر بالصحة فضلا عن استنذاره. أما لحم الغنم و ما شاكله فيؤكل فى يومه و هو لذيذ لكنهم ممنوعون من لذته أكل الخروف الصغير، إذ الحكم يمنع ذبح الشاة دون سن العامين لأجل الإقتصاد بكثرة اللحم لأن الشاة إذا كبر حجمها كفت أضعاف أضعافها و هى صغيرة، نعم من أراد ذلك فله ذبح خروف لخصوصه و يؤدى عليه أداء زائدا للحكومة بحيث لا يوجد إلا بالإعتناء.

مطلب فى الموابك فى إنكلتيره

الموابك عند الإنكليز هى رأس السنة و الأعياد الدينية و إجمالها مثل ما تقدم فى غيرهم، غير أنهم عند تهنتهم للملكة يلبس الكبراء ذلك الشعر الأبيض العارية و يقبلون يدها على ظهر الكف و منهم من يقعد عند ذلك على ركة و رجل و تقبيل يد الملكات جار عند غيرهم أيضا، و زوجة الملك تعامل معاملة الملكة فى ذلك بل و بعض الممالك مثل ألمانيا العساكر فيها يقبلون يد الملك أيضا، و من الموابك الشهيرة فى لندره يوم دخول صاحب الملك المدينة رسميا متوجها لكنيسة مار بولس متشكرا على ظفر أو لافتتاح بناء مهم عام، فحينئذ يأتى راكبا إلى البلاد و لا يدخل إلا من باب تنبل بار و هو فى أول طريق السيتى الشهير، فيغلق الباب فى وجهه شيخ المدينة فيقدم الملك إلى أن يصل للباب فينفخ أحد كبراء أتباعه فى بوق و يدق آخر الباب، و تقع مخاطبة بينه و بين شيخ المدينة ثم يفتح الشيخ الباب و يقدم للملك سيف البلاد فيأخذه منه ثم يرجعه عليه ثم يسير الشيخ فى ركابه إلى أن يصل إلى مقصده مع الإحتفال التام و كمال الإزدحام.

و من الموابك المشهورة يوم تولية شيخ المدينة فى كل سنة فى شهر تشرين ثانى فإنه يجعل فى الطرق حواجز لمنع مرور العجلات و تغص الطرق بالخلق، فيخرج الشيخ من قصر كلدهال فى موكب حافل و يركب عجلة مؤنقة ذات قيمة بليغة تجرها أفراس و يركب معه قاضى القضاة و الكل باللباس الرسمى، و توضع أمامه آلات الحرث على عجلة مزينة بما تنبت الأرض و على عجلة أخرى سفينة ذات شراع تجرها ستة أفراس أيضا، و تنتشر فى الطرق الشرط و تمشى أمامه و تقف حول طريقه فرق عديدة منهم بعضها يعزف بالآلات

الطرب و بعضها ينفخ فى أبواق و بعضها يحمل رايات مختلفة الألوان و بعضهم متدرج بالدروع العتيقة، و فى موكبه جميع أصحاب الرتب العالية و شيخ المدينة المعزول و يلاقيه فى الطريق وزراء الدولة و أعضاء المجالس و الندوة و سفراء الدول، و عند استقراره بالقصر الخاص به يدعو جميع الأعيان لوليمة فاخرة تشتمل على ٢٦٣٧ صحن مع زينة المائدة بأوانى الذهب و الفضة و يجعل أمامه صحن به سمك صغير من سمك نهر التيمس، و يكون ذلك اليوم يوما مشهودا و ذلك الشيخ من أعظم رجال الدولة مع أنه يمكن أن يكون سوقيا

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ٢١٧

أو نفرا عسكريا على حسب ما ينتخبه المجلس البلدى و بقاؤه سنة فقط و مرتبه نحو عشرة آلاف ليرة، لا يستفد منها لذاته بشيء إذ كلها تصرف فى أهبة المنصب و ولائمه.

مطلب فى اللغة فى إنكلتيره

اللغة الإنكليزية مستحدثة متولدة من اللسان التودسكى القديم و هى لغة ضيقة سهلة التعلم يؤدون المعانى كلها بها بالتركيب، و قد اشتهرت جدا فى أمريكا و الهند حتى صار عدد من يتكلم بها ثمانون مليوناً عدا من يعرفها و ليس بمستعمل لها لغة له، و كأنها لغة حلقية لأن أغلب أحرفها حلقى و لا تساعد على إنشاد الشعر و الغنا إلا بكلفة كبيرة.

مطلب فى القوة الحربية و البحرية و المالية و التجارية

فرنك ٠،٠٠٠، ٠،٠٠٠، ٧٥٠، ٢ دخل الدولة الإنكليزية عدا حكومة الهند و الخرج مثله سنة ١٨٨١ نحو

٠،٠٠٠، ٠،٠٠٠، ٦٣٠، ١ دخل حكومة الهند و الخرج مثله

٠،٠٠٠، ١٦٠، ٠ عساكر برية تحت السلاح

٠،٠٠٠، ٣٥٠، ٠ عساكر الهند تحت السلاح

٠،٠٠٠، ٠٠٦، ٠٠٦٥، ٠ عساكر بحرية و ليس للهند منها شيء فى وقت الحرب فى الخارج تحضر بالأجرة كلما تريد و عند الهجوم عليها فأهلها كلهم محاربون

٠،٠٠٠، ٠،٠٠٠، ١٠ قوة التجارة المالية نحو

٠٢٠، ٥٣٨ عدد السفن الشراعية الحاملة للراية الإنكليزية

٠٠٥، ٠٢٧ عدد البواخر الحاملة للراية الإنكليزية

٠٠٧، ٢٩٤ عدد المعامل ذوات الآلات لسائر المصنوعات فى بريطانيا

٠١٨، ٠٠٠ امتداد سكك الحديد أميالا حملت من الركاب فى سنة واحدة ستة ملايين

٠٠٠، ٠٦١ عدد البواخر المدرعة العاملة و الإحتياطية

٣٦٠، ٠٠٠ حملتها طونولاته و كل طونولاته عشرون قنطارا و مدافعها على حساب المعدل الواحد طونولاته ٣٧

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ٢١٨

الباب السابع فى جزيرة مالطه

الفصل الأول: فى سفرى إليها

لما رجعت من فرنسا إلى تونس في أواسط رمضان سنة ١٢٩٦ هـ و وجدت انقلاب الأحوال فيها باستيلاء فرنسا عليها قد نشم و لم تغد نصائحى إلى وزير تونس مصطفى بن إسماعيل، بل رأيت أنه أضمر لى الشر حتى أوعز إلى بعض الصادقين بعزمه على البطش بى و لو أفضى إلى القتل معتضد أبرستان قنسل فرنسا إذ ذاك، خشية من فشو ما اطلعت عليه من عزمهم و حصول التعطيل لهم حسبما سبقت الإشارة إلى طرف منه فى ذيل تسلط فرنسا على تونس و فى أسباب سفرى، و لم نجد مخلصا إلا التخلص برأسى و طلبت من ذلك الوزير كتابة إعفائى من الوظيف متعللا بحاله بدنى فأجبنى كتابة بالمنع، فطلبت الإذن بالتوجه إلى الحج فمعدنى أولا فاستئجرت إليه بمن لم يسعه إلا قبول جاهه فأذن لى قانعا بالإستراحة منى و شافهنى الوالى عند وداعه بما يشف عن غيظه الذى ملأ به وزيره صدره فأنقذنى الله من شرهم، و أخذت ورقة الجواز و سافرت أواسط شوال من تلك السنة إلى الحج على طريق مالطة بحرا فوصلت إليها بعد سير الباخرة البريدية نحو من يوم، فإذا هى جبال قحله ترى فيها حيطان من الحجر مرصوفا منتشرة على تلك الجبال و مرساها من أعظم مراسى البحر الأبيض إتقاناً و صناعةً و تحصينا، واقعة على الجهة الشرقية من شاطيء بلاد فاليتا التى هى قاعدة الجزيرة، فصعد إلى الباخرة السماسرة لمانزل المسافرين و اتفقت مع سمسار المنزل المسمى أوتيل دى باريس على أن يكون سعر اليوم و الليلة فيه عشرة فرنكات سكونا و أكالا لى و لتابعى و السكنى فى حجرتين و الأكل مرتين لأنهم يسألون عن كمية الأكلات لما تأنسوا به من كثرة أكلات الإنكليز، فدخلنا إلى البلاد و لم يطلب الكمر ك إلا الأداء على المأكولات و ذلك لأن السفر إلى الحرمين يلزم فيه قطع برارى ليس فيه مرافق، فأحضرت معى من المأكولات التى تدخر ما لا نجده فى البلدان التى نمر عليها، و مع ذلك كنت خفت ما استطعت و لم نعمل بإشارة بعض الأبناء من جمل كثير من اللوازم ظنا منى إنى أجدها فى البلدان القريبة هناك و كان الأمر على ما قالوا كما سيأتى فى محله إن شاء الله.

و لما كانت مالطة مرسى حرة لما يأتى فى سياستها لم يكن فيها أداء على شىء سوى المأكولات التى تؤدى إلى المجلس البلدى لمصالح البلاد و حيث كنت لا احتاج إلى تلك الأشياء فى مالطة أبقيتها مؤمنة فى الكمر ك و أخذت فيها حجة لى لا تؤدى عليها شيئا،

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ٢١٩

و بعد الإستراحة بالمنزل نظرت فإذا بالطبقة السفلى ملائنة بصناديق مكسوة بالجلد الجميل و مسامير النحاس و معها بعض خدم و حشم، و الطبقة العليا فيها عائلة من المسلمين و معهم رجل ممن اتخذ السخرية صناعة له فقدم إلى و حادثنى بكلمات بعضها عربى و بعضها تركى و لم أكن إذ ذاك أفهم التركى فأعلمته بأنى لم أفهم فعدل إلى العربى، و أعلمنى أنه من حاشية أحد الكتبة بطرابلس الغرب من متوظفى الترك، و أنه أرسل إلى الإتيان بعائلته من الأستانة فصحبها هو مع بقية الخدم، و ذكر فى حديثه مقدار مرتب متبوعه فظننت أنه هازل فحقق لى المقدار فإذا هو لا يبلغ مائتى فرنك فى الشهر، فتعجبت من الأمر كيف يكون صاحب تلك البذخة مكتفيا بذلك المرتب و يتعب لأجله من الأستانة إلى طرابلس الغرب مع شدة التباين فى الهواء بالحر و البرد مع خلو الوظيفة عن مقام عال حتى يتحمل لصاحبها برغبته فى الصيت، فدل على وجود ربح آخر على غير الوجه الرسمى مما يضر بالمملكة و الله لطيف حفيظ.

و هاته البلاد أعنى فاليتا قاعدة مالطة متصاعدة فى جبل حتى أن أغلب طرقها يصعد فيها بدرج، و بها طرق رحبية للعجلات أحسنها واحد يمر من الشمال إلى الجنوب خارق البلد إلى طرفيها و بعضه مبلط بالخشب لمجرد تقليد بلاد لندره، و إلا فلا باعث عليه لا من جهة الوسخ المتسبب عن عدم انقطاع الأمطار و لا من جهة قرقعة العجلات المتكاثرة و لا من جهة رخص الأخشاب، إذ مالطة على خلاف ذلك كله و هى على نوع البلاد الأوروبية المتوسطة فى الكبر و الحسن غير أنها متقنة نظافة الطرقات و إن كان أهلها يبولون ليلا فى الطرقات لكنهم يغسلون محلات البول كل يوم، و بها قصر الحاكم و فيه آثار عتيقة على قدر حالة البلاد، و ليس منها ما يذكر إلا مدافع من أول نوع اخترع و هى ورقات من نحاس معصبة بحبال ثم ملفوف عليها جلد غليظ مطلى بالقطران طول كل مدفع ثمانية

أشبار و قطر داخله سبع عقد، و بقیة ما فی البلاد لیس منه ما یفرد بالذکر غیر أنها حاویة لأنموذج ما فی المدن الحسنه مما یرجع إلى التحسین علی نحو ما فی أوروبا فلا نطیل بإعادته.

أما فی التحصین فهی من أول أقسام المراسی و البلدان الحصینه بما حولها من الحصون المعمره بالمدافع الضخام جدا مع الكثرة و جعلها طبقه فوق أخرى لما ساعد علی ذلك من الجبل، فهی حصون منحوتة فیها لا تخربها القنابر و لو من أعظم المدافع بحيث یصح أن یقال أنها لا یمكن للهاجم اقتحامها أو أخذها إلا بالحصار لاحتیاجها إلى القوت من خارج، نعم یلزم طول مدة الحصار لأنها مركز متوسط فی البحر الأبيض، فتجىء إليها التجارة من البحر الأسود و غیره و یخزن فیها من الحبوب و غیرها ما یكفی أهلها عدة سنین، كما أنها تشتمل مرساها علی معمل مهم للسفن و إصلاحها محتویة خزائنه علی كل المواد اللازمة لها، و بها مرسى أخرى تسمى مرسى موشیطو كأنها محرفه عن مرسى الشط و هی مرسى الكرتینة أى مكان إقامة الواردين من البلاد المصابة بالأمراض المستویة، و هی دون الأولى و حولها مساكن مقسمة علی أقسام علی وجه یمكن به الإحتراس من مخالطة السكان

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ٢٢٠

بعضهم ببعض، و هی مساكن لا بأس بها.

كما یوجد خارج البلد مقبرة إسلامیه محوطه بسور و لها باب مغلق مفتاحه عند إمام الجامع و هو جامع ظریف، و الإمام یقیم هناك، و القائم بالجمیع الدولة العثمانیه لكثرة ورود المسلمین إلى هناك حجاجا و تجارا من المشرق و المغرب، فأقیم ذلك الإمام للصلاة بالجامع و علی من یموت لكنه عوضا عن سلوكه مسلك الدیانة كان مقیما علی الخنا و الجامع معطل و لله عاقبة الأمور.

و عند مروری علی حوانیتها وجدت بها أسرة من حديد صغارا خفیفه تفلق حتی یصیر الواحد فی طول ذراع و غلظ سبع عقد و یلف فی الكتان الثخین الذى یفرش علی ظهره للنوم علیه فأخذت منها إثنین للرحله فی الحجاز. و فتشت علی معمل صغیر یمكن حمله بسهولة للثلج فلم أجده هناك و لا وجدت شیئا یحتمل أنى لا أجده فی غیرها فاكتفیت بذلك و سافرت منها بعد الإقامة بها ثلاثة أيام راكبا باخرة تجاریة إنكليزیة متوجها إلى إسكندریة.

الفصل الثانى: فی التعریف بمالطة

مسمى هذا الإسم ثلاث جزر واقعة فی البحر الأبيض علی دقیقة ٤٥ درجة ٢٥ من العرض الشمالی دقیقة ٤٤ درجة ٢٢ من الطول الشرقی.

الجزیره الأولى: تسمى فالیتا، و بها خمسة عشر قرية أكبرها فالیتا التى هی القاعدة.

و الجزیره الثانية: تسمى أدوج بها ستة عشر قرية.

و الجزیره الثالثة: تسمى كمنه و بقربها أخرى تسمى فلفله صغیرتان لیس بهما سكان و إنما یقدم إليهما أهل الجزیرتین الآخرین للفلاحة بهما، و اختلف الجغرافیون فی إلحاق مالطة فمنهم من جعلها من أفريقية و منهم من جعلها من أوروبا لقربها لكل منهما.

و كل هاته الجزائر جبال صخریه غیر أن حجرها لین سهل النحت فإذا جف بالشمس تصلب نوعا ما فأرضها غیر جيدة لكن لشدة العمل و المعالجة صارت صالحة لزراعة كل النباتات التى بالبلاد الحارة.

و أما جبالها: فلیست بمرتفعه و لیس بها بالکانى و لیس بها نهر إلا ما یحدث عند المطر من السیول و لیس بها بحیره.

و أما عیونها: فتوجد بها عینان ضعيفتان: إحداهما: بالجزیره الأولى. و الثانية: بالثانية مأوهما عذب مشوب بشىء یسیر من الملوحة، و أكثر شرب أهلها من ماء المطر المخزون فی دهالیز و جرار.

و أما هواؤها: فهو أمیل للحر لقربها من المنطقة الحارة و تحدث فیها الأسحبه فجأة بأمطار كأفواه القرب مع رعود و بروق هائلة و تنكشف بسرعه و یحدث ذلك بها و لو صیفا إلا أنه بقله فیها، و أما فی الخریف و الشتاء فهو كثير و الهواء خریف مضر بالصدر كثير

الندى حتى يفسد المأكولات و غيرها المخزونة في أماكن قليلة تغير الهواء.

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ٢٢١

و أما نباتاتها: فنبت بها سائر البقول و هي جيدة و القمح و الشعير و غيرهما من الحبوب، و يحصل فيها خصب متوسط كما يثبت بها القطن و العنب و الرمان و الليمون و غير ذلك من الأشجار التي تتحمل الحر و لا تحتاج إلى كثرة الماء، و لذلك لم يكن بها غابات و ما يثبت فيها من الشجر لا يرتفع على وجه الأرض إلا يسيرا فترى الخرنوب الذي يكون في تونس الواحدة منه مثل غيضة شاهقة هو في مالطة لاصق بالأرض لا يكاد يبين، و هكذا سائر الأشجار و يعظم بها الصبار جدا.

و أما حيواناتها: ففيها المعز الحسن كثر الحلب و بقية النعم يجلب لها من خارج و يعلف علفا إلا قليلا من الرعى لعدم المرعى، و بها الحمير بكثرة و البغال و الخيل بقلة.

أما الحيوانات الوحشية: فليس بها إلا الأرانب و منها نوع أنسى يعظم و يربى، و السباع منقطة و الطيور الأنسية كلها مربة عندهم، و يوجد بكثرة العصفور الأصفر الحسن الصوت المسمى بالكناالو و البرية قليلة إلا بعض الرحالة كالسمان.

و أما المعادن فليس بها إلا الحجر و يصنعون الملح عند شاطئ البحر بمملحة صناعية.

و أما مدنها: فهي قاعدتها المسماة بفاليتا و البقية قرى مجموعها إحدى و ثلاثون قرية أهم ما فيها الكنائس.

و أما مراسيها: فقد تقدم أن بها مرستين عظيمتين جدا و ما عداها فإنما هو مراسى طبيعية حول القرى للقوارب و ما شاكلها.

و أما أهلها: فعددهم مائة و خمسون ألفا كلهم مالطيون و بينهم قليل من الطليان تجارا و من الإنكليز عسكري أو بعض متوظفين و من العرب أفرادا تجارا أو مجتازين، و أصل الأهالي على غالب الظن من بربر تونس و ديانتهم نصرانية على مذهب الكاتوليك، و لهم غلو شديد و إنهماك في اعتقاد خرافات.

الفصل الثالث: في تاريخ مالطة

مطلب في التاريخ القديم

أول من سكن هاته الجزيرة الفينيقيون و سموها إجاجية ثم عمرها الينافيون و سموها ماليتة و اشتهرت بذلك من قبل التاريخ المسيحي سنة ٨٢٢، و لم تزل ولايات المستولين على إيطاليا تتوالى عليها ثم سلموها للقرطاجيين ثم رجعت للرومان ثم ألحقت بالدولة الشرقية، و لما ظلموا الأهالي و اشتدت وطأتهم استغاثوا بالمسلمين فافتتحها المسلمون بعبورهم البحر من تونس إليها و إلى صقلية في المائة الثالثة هجرية، و لا قوا من أهلها أحيانا ثورات شديدة إلى أن تم الإستيلاء عليها و نقلوا إسمها إلى مالطة المعروف الآن و كأنه مصحف من الإسم اليوناني السابق، و بقيت بأيدي المسلمين نيفا و مائتي سنة، ثم لحقت بصقلية تحت تملك عائلة النورمان، ثم التحقت بمملكة النمسا الملقبة إذ ذاك إمبراطورية

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ٢٢٢

جرمانيا، ثم ألحقت بفرنسا ثم بنابلي ثم استولى عليها نابليون الأول و ألحقها بفرنسا، ثم عند حرب الدولة العثمانية لفرنسا في مصر و تحزب إنكلاتييره للدولة العثمانية استولت إنكلاتييره على مالطة.

مطلب في تاريخ مالطة الجديد

لما أساء الفرنسيون إلى أهل الجزيرة بانتهاك عوائدهم و كنائسهم ثاروا عليهم ثورة شديدة، و استنجدوا الإنكليز فأعانوهم و سلموا الحكم إليهم و كان ذلك في سنة ١٨٠٠، و لم تزل حكومة الإنكليز مستقرة هناك و أغلب الأهالي مائلون إليهم عن طيب نفس.

مطلب في سياسة مالطة الداخلية:

الحكومة إنكليزية بمعنى أن الحصون و القشل بيد عساكر إنكليزية و الحاكم العام إنكليزي مراعى للأهالى و عوائدهم حتى أنه يتحرى لهم أحيانا و يرسل لهم حاكما على مذهب الكاتوليك من أهالى إرلانده، و قد وقع ذلك مرة عندما تعرض أحد الحكام البريستانت لعادة لهم فى أحد أعيادهم فاشتكوا منه و عزلته دولة انكلاتيره حالا و عوضته بكاتوليكي، و لا تزال تراعى لهم ذلك و هو عندها إحدى الكبر لما مر بك من قانونهم و عوائدهم حتى فى التعصب لمذهب البريستانت، و ذلك الحاكم يبقى فى وظيفته خمس سنين ثم يبدل بغيره إلا- أن تطلب الأهالى إبقاءه، ثم أن تصرفه مقيد بمشورة عشرة من أعيان المالطين فى كل ما يعود على مصالحهم و حالة بلادهم و كل المتوظفين فى السياسة و الأحكام هم من أهل مالطة إلا الكاتب الأول للحاكم العام، و جميع دخل الحكومة لا تأخذ منه دولة الإنكليز و لا دانقا واحدا بل كله يصرف فى مصالح الأهالى و عساكر الدولة تصرف عليهم من خزينتها لا من دخل مالطة، و الأحكام الجارية هى أصول القانون الإنكليزي ممتزجا بما يصلح بالأهالى و مطابقا لعاداتهم حتى أن احترام يوم الأحد الذى يلزم فى إنكلاتيره غلق جميع الدكاكين فيه لا ترى منه فى مالطة شيئا، فتلخص أن الحكومة شورية قانونية و الأحكام الشخصية منفردة عن الإدارة العرفية و إسم الحكومة الإنكليزية و حقيقتها أهلية، غير أن أكثر الواردين من الإنكليز سواء كانوا متوظفين أو غيرهم يتكبرون كبرا عظيما على الأهالى لاستحقاق عاداتهم و بلدهم فأورث ذلك كره رعاى الأهالى لهم، و إن لم يقدر واحد من الإنكليز على ظلم أحقر الأهالى.

مطلب فى السياسة الخارجية بمالطة

ليس فى مالطة من سياسة خارجية تعتبر إذ هى لاحقة بإنكلاتيره، و إنما فى قاعدتها قناسل لكل الدول الكبيرة مراعاة لكونها ماوى متوسط بين المشرق و المغرب فتأوى إليها

صفحة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ٢٢٣

السفن المارة لكلا- الطرفين، و ليس لأولئك القناسل من شىء سوى قضاء ما يحتاج إليه اتباع دولهم إذ الحكم فى البلاد جار على الجميع سواء من دون دخل لقنسل، فالقناسل أشبه بوكلاء تجارية نعم لهم فائدة فى الإعلام بالحوادث السياسية إن حصلت هناك و لذلك كانت أغلب القناسل هناك أصحاب وظائف شرف لا وظائف عمل فكثيرهم لا مرتب له، و إنما يكون من ذوى الثروة يقنع برسم إشارة الحكومة المنسوب إليها على باب داره لمجرد الفخر إذ الإفرنج مطلقا سواء كانوا من أهل مالطة أم من غيرهم لهم ولوع زائد بحب الفخر، فتراهم يتهافتون على نياشين الإفخار و علامات الامتياز و لو من دولة صان مارنيو التى هى عبارة عن أربعة آلاف نسمة ليزينوا بها صدورهم فى المواكب أو يثبتوا فى ستراتهم غرات على شكل الورد ذات ألوان مشيرة إلى ما عندهم من علامات الامتياز فإذا دخل الزائر مقلدا بتلك الورد نال من المزور زيادة المراعاة و لو من جابرة لندره و طغاة باريس، و من سخافة عقول بعضهم أن يتخذ تلك الإشارات وسيلة للتدجيل على النساء حتى تعشقه للزواج أو غيره بناء على أنه من عليه الناس، و قد نشأ عن هاته الرغبة فى النياشين أن بعض الدول صار لا- يعطيها إلا بثمان لذات النيشان الذى هو أزيد من قيمته، و زيادة على ذلك صار بعض الدول يعين لسفرائه فى الخارج عددا مخصوصا من كل طبقة من النيشان لبيعه و يستعوض بثمانه عن أخذ مرتب له من دولته، و كذلك مرتب أتباع السفارة مع ما يحصل له من رعيته إذا كان مقيما فى مملكة يسوغ فيها تداخل السفراء و القناسل فى الأحكام.

مطلب فى بقية عادات المالطين و أحوالهم

لما تقدم لنا الكلام في الممالك السابقة على بيان أطوار الأوروبانيين و عاداتهم فلا داعي إلى الإطالة بالإعادة على غير فائدة لأن مالطة قطعة من ملحقات أوروبا، و إجمال أطوار أهلها على العموم مثل أطوار سفلة الطليان و الأعيان منهم مثل أعيان أوروبا سوى أنهم يزيدون عليها بكثرة لبس الخواتيم في الأصابع، و نساؤهم جميعا إذا أخرجن في الطرق يجعلن على رؤسهن رداء أسود مدلى جهة اليسار و يمسكن طرفه الأيمن بأيديهن، و كذلك لغتهم مخالفة لغيرها لأنها عربية محرفة جدًا مدخول فيها كثير من الألفاظ و الإصطلاحات الطليانية.

صفحة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ٢٢٤

الباب الثامن في الأقطار المصرية

الفصل الأول: في سفرى إليها

بعد أن أقمت بمالطة ثلاثة أيام ننتظر سفر باخرة توا إلى الإسكندرية حيث لم يكن بينهما بواخر بريديّة توا و إنما البريد يسافر إلى إيطاليا أو غيرها من جهات المشرق ثم يذهب إلى الإسكندرية و يلزم طول مدة السفر، فلذلك أتيت باخرة تجارية من بواخر الإنكليز التى تتوجه إلى هناك بكثرة فوجدنا واحدة مشحونة بالفحم الحجري أنزلت منه ما أنزلت فى مالطة و حملت الباقي إلى الإسكندرية، و الكراء فيها و فى أمثالها أرخص من بواخر البريد لأنه راجع إلى السفن حيث أن أصحابها ليس لهم إلا محمولات التجارة التى هى موضوع تشغيل السفينة فلم يكن بها إلا الطبقة العليا و الأخيرة للركاب و ليس بها المتوسطة و هما مثل طبقات البريد، فركبنا ليلا لأن الباخرة عند تمام إفراغ شحنها تسافر من غير تأخير و لكنها لم تسافر إلا صباحا بعد الشروق و أسفت من ركوبها لما رأيت بها من الوسخ سوى داخل البيت الكبير فإنه نظيف و مثله حجرات النوم، و من المعلوم أن الجلوس به دائما مقلق لكنه ما مضى من وقت السفر أربع ساعات إلا- و قد غسل ظاهر الباخرة غسلًا محكما و نشف فصارت من أنظف البواخر، و الحق أن يقال أن بواخر الإنكليز مطلقا أشد نظافة مما يماثلها من غيرها أعنى كل نوع بالنسبة إلى نوعه، و ذلك إنى كنت رأيت بواخرهم الحربية مجتمععة مع غيرها من البواخر الحربية للدول الكبيرة عند قدومها إلى تونس سنة ١٢٨٠ هـ فى الثورة العامة، فإذا بواخر الإنكليز أنظفها نظافة و كذلك البريدية و التجارية، و يليهم فى ذلك الفرنسيون.

ثم استمر السير و البحر فى غاية السكون و كان معنا من الركاب فى الطبقة الأولى إثنان إنكليزيان لهما معرفة بالتصوير فكندا أن لا نمر بشيء إلا و صوراه من طير أو سحاب أو سفينة بل و كل من فى الباخرة حتى كان فيها فى الطبقة الأخيرة على ظهر السفينة أناس من المغرب و آخرون من صفاقس كلهم متوجهون إلى الحج و فى كل يوم عند إرادة غسل ظاهر الباخرة يؤمرون بالانتقال من مكان إلى آخر مع حمل رحالهم فيكونون فى أشد التعب مع الدور الحاصل لبعضهم بمرض البحر فصوروهم على تلك المشقة و الجهد و الجهد، و لما نظرت إلى حالة هؤلاء الحجاج شاهدت مصداق قول الفقهاء بعدم وجوب الحج على تلك

صفحة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ٢٢٥

الصورة لأنهم لا يصلون و صلاة واحدة مثل فريضة الحج، و تركهم للصلاة يأتى من نجاسة أبدانهم من تغطوهم بلا استنجاء و من المياه الملقاة عليهم بغسل السفينة، و من عدم وجود مكان للصلاة لأنهم يمنعون من تجاوز مكان جلوسهم و مع ذلك يعاملون معاملة الحيوانات العجم من الخريتين بالإهانة و السب إلى غير ذلك، و أيضا يعترى بعضهم الدور البحرى فيتقايأ فى مكانه بل منهم من يتغوط و يبول فيه و تصل نجاسته لمن بجنبه، فلما رأيتهم فى سوء تلك الحالة ذهبت إليهم و أعلمتهم بالحكم الشرعى فى وجوب الحج و شروط الإستطاعة فيه و سألتهم لماذا يعدلون عن ركوب الطبقة الوسطى فى بواخر البريد أو فى العليا هناك مع أنها ليست بغالية و بعضهم تظهر عليه آثار الثروة فأجابوا بأن ذلك العذاب لا ضير فيه لأنه مدخول عليه فى السفر إلى بيت الله بل مهما إزداد

كان ثوابه أكثر و أصروا على ذلك منكرين على قولى فعدلت عن ذلك و لاطفتهم فى المحافظة على الصلاة، فقالوا: كيف نصلى و نحن على هاته الحالة و أين نصلى؟ فقلت لهم: إنكم مالكية و مذهبكم يرى صحة الصلاة و لو على ما أنتم عليه لأن إزالة النجاسة تجب و قيل: تستحب فقط مع القدرة و التذكر، فقال لى واحد منهم: إني أصلى كما رأيتنى، قلت: نعم رأيتك تصلى، و الآخرون قالوا: لو نجد مكانا و يتركوننا نتطهر فإننا نصلى فتلطفت لرئيس الباخرة إلى أن أذن لهم فى التفسح و استعمال الماء فى المراض فقط لكن أغلبهم مع ذلك لم يصل، و قد سألتهم أيضا عن موجب كثرة رحالهم حتى أن بعضهم رافع جرة كبرى ملفوفة بشرطان الحلفاء للماء و قريبه منها للأدام و القديد إلى غير ذلك، فقالوا: ذلك لقوتنا، فقلت: إنكم متوجهون إلى مدن إن لم تكن أكبر من مدنكم فهى نحوها و لا- بد أن يكون لأهلها ما يكفيهم فهلا وسعكم ما وسعهم وزاد الطريق فى البرارى يؤخذ من أقرب مدينة إليه فقالوا يلزم لذلك الثمن و هذا الذى عندنا إنما هو من بيوتنا فقلت لو بعتم هذا و أضفتم عليه كراء حملة بحرا و برا لكان أرخص عليكم من شراء الزاد من الأماكن اللازمة فقالوا تلك بلاد لا نعرف أحوالها و الأولى التزود من أماكننا و هكذا جرت العادة، فعلمت أن تأثير العوائد أمر صعب جدا.

و فى غروب اليوم الرابع وصلنا إلى الإسكندرية و لم يظهر لنا منها شىء لأن أرضها منخفضة و لا جبال بها حتى يمكن رؤيتها من بعد و حيث كان وصولنا بعد الغروب، و من الرسوم أن لا تدخل السفن إليها إلا بهاد يهديها الطريق حيث كان قرب مرصاها صخرات لا تبين من البحر و تضرر بالسفن إذا صادمتها لزم حضور أولئك الهداء ليدلوا السفن على الطريق، و لهم على ذلك أداء معين فلزم الباخرة أن تكون طول الليل غادية رائحة فى نحو ميلين و لم يظهر لنا من البلد سوى منارة هداية السفن، و قرب الشروق ظهر الهادى فى قارب قادما للباخرة فأعرض عنه السفن محتقرا له، و ابتدأت مشاهدتى لتعاضم الإفرنج على المصريين و تبين أن السفن كان عالما بالطريق لكنه إنما توقف عن الدخول لمجرد الرسم، فدخلنا المرسى فإذا هى ذات مأمن و ذات مرسى صناعية فيها من بواخر الحكومة المنحازة

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ٢٢٦

إلى جهة خاصة ثمانية بواخر كبار كلها خشب، و فيها من البواخر التجارية الأجنبية أزيد من عشرين، و فيها باخرة حربية أجنبية. و بعد تمام الإرساء و أخذ الإجازة للباخرة من مأمورى الصحة فى إنزال سلعها و ركابها أذن للركاب بالنزول، و ذلك لأن من القوانين العامة أن كل سفينة تسافر من مكان يلزمها أن تأخذ من مأمورى الصحة به الذين لهم ديوان خاص صكا منصوبا به حالة البلاد التى سافرت منها من جهة الأمراض العامة و مقدار ما فى السفينة من الركاب و أنواع البضاعة التى بها، فإذا وصلت إلى مرسى مقصودة لها أول ما يتلاقها مأمور و الصحة فيطالعون ذلك الصك و يبحثون عن صحة الركاب و عددهم فإن لم يوجد بها شىء مضر أذنت بإفراغ ما تريد فى تلك المرسى، فأحاطت بالباخرة القوارب الغفيرة و ثار عجاج الصياح من أصحابها المختلطين من أهالى و إفرنج فى النزاع على حمل الأثقال و الركاب، و لما رأيت الأمر متفاقما ضم لى خريوتوا الباخرة صنيديات رحلى و جلست حارسا لها فى زاوية لأن أصحاب القوارب كادوا يختطفون الرحال شاء صاحبها أم أبى من غير مساومة للأجر و تلك خلة فيهم فى أى بلد كانوا ثم بعد الوصول يطلبون الأجر أضعافا مضاعفة، و لما نزل جميع الركاب مع رحالهم و لم يبق حول الباخرة إلا قوارب السلع التى عهدتها على القمرق دعوت قاريا و اتفقت معه على أجر معين، و أعاننى على ذلك ابن و كيل حكومة تونس الحاج على الفيزانى رحمه الله حيث تلقانى فى الباخرة بعد أن ورد تابعه سائلا عنى و ظننته أحد أولئك القاريين تلقط خبرى لأن حركاته لا تتميز عنهم، ثم لما وصلنا إلى القمرق طلبوا ورقة الجواز و كادت أن تحصل لنا أتعاب بمنع الدخول إلى الإسكندرية حيث كانوا يمنعون دخول من يريد الحج و إنما جعلوا لهم خارج البلاد مكانا محاطا بالعساكر بحيث لا يسوغ للوارد إلا الركوب فى البحر أو طريق الحديد تورا إلى السويس، و كان سبب ذلك كثرة من كان يرد من الأقطار الغربية للحج بلا مال و لا زاد فيتكاثرون بمصر و يحملون حكومتها و أهاليها أعباء ثقيلة مما لا داعى إليه لا شرعا و لا عقلا، لأن أصل فرض الحج معلق على الإستطاعة بنص القرآن الكريم، فلا يسوغ الإقدام على السفر

بدون شروطه، نعم إذا وقع لعارض فقد المسافر لمال يقوم به في الرجوع لوطنه أو لمحل ماله أو إقامته، ففي بيت مال المسلمين قسم معين بنص الكتاب لأبناء السبيل فيعطون حاجتهم إلى بلوغ مكانهم و لو كان ابن السبيل غنيا لكنه في ذلك الطريق لأمال له فتداركنا الله بلفظه.

و أذننا المكلف بالدخول للبلد فنظروا إلى رحالنا و أرادوا التشديد في تفتيشها و قلب عاليها على سافلها متطلبين الإحسان إليهم فلم يسعني إلا التخلص من الظلم بدفع شيء من المال ارتكابا لأخف الضررين من الخوف من تشتيت رحلي و السرقة منه مع التعب، ثم صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ٢٢٧

قصدت منزل المسافرين الإفرنجي المسمى أوتيل دي روب في أكبر بطحاء البلاد بعد مشقة في التخلص من النزول عند وكيل تونس الذي لا داعي إليه سوى تحميلة الكلفة بالضيف و المصروف عليه مع تكليفي بلزوم مراعاة أحواله و عاداته مما عساه لا يوافق حالتي و عاداتي إذ لم تكن لي معرفة به قط مع ما أنا عليه من المرض الملازم الذي اشتد منذ رجوعي إلى تونس بسبب الإنفعالات النفسانية فيلزمني المساعدة لمزاجي في الأكل و النوم و غير ذلك مما يحمل مضيئة مشقات أو يضر بي تركه، فاكترت في ذلك المنزل بيتا و استرحت به على ما ساعدني و اغتسلت في حمامه و أكلت و نمت، ثم اكترت عجله و قصدت أخي في الله الصفوة الخيرية عالي الأخلاق و الأعراق سيدي إبراهيم السنوسي الحسيني و هو المحدث البليغ المتفنن في علوم المنقول و المعقول و السياسة صاحب الأخلاق المطابقة لانتسابه العالي، نشأ من بيته الأصيل بمدينة فاس البيضاء قاعدة مملكة المغرب، و حصل من العلوم ما استكمل به فخره، ثم رحل إلى تونس و أقام بها بضع سنين و امتزجت به أفاضلها أو أعيانها متأسين بعلمه و أدبه، و كاد أن يتخذها قرارا لولا المحنة التي وقعت بها من سنة ١٢٨٠ هـ إلى سنة ١٢٨٦ هـ فارتحل عنها على ما دعت إليه مقتضيات الأحوال من فساد الحكومة و استقرار بالإسكندرية مشتملا على كماله و فضله و عفافه و اتسعت نعم الله عليه لا زال أهلا لكل فضيلة، فلاقيته في الطريق و أزمني بالإستقرار في مقره و حيث كانت الأسباب المشار إليها آنفا في التخلص من الضيافة مفقودة مع أخي الفاضل المومى إليه لا من جهتي و لا جهته ساعفت مراده و أقمت عنده سبعة أيام، و لاقيت أيضا أخي في الله التقى النقي الكامل رستم باشا التونسي و هو الفاضل العفيف النصح المؤتمن، نشأ في بلاد الجراكسة من جبال القوقاس و وفد على تونس دون سن العشر فأدخل إلى مكتب الحرب و حصل على القرآن العظيم و نصيب كاف من العقائد و العبادات و التجويد و النحو و الحساب و الهندسة و غيرها من الفنون الرياضية و الحربية، مع تحصيل اللغة الفرنسية و معرفة اللغة التركية و ثافن علم التصوف، ثم تقلد الوظائف السامية في حكومة تونس فولى أميرلوا حراسة الأمير، ثم مستشار الداخلية ثم وزيرا فيها و عضوا في المجلس الخاص و المجلس الأكبر، و كان من أشد المحامين عن العدل و الشورى، و لما وقعت النكبة العامة لتونس سنة ١٢٨٠ هـ و ما نشأ عليها من المظالم سافر المشار إليه إلى أوروبا ثم رجع إلى تونس سنة ١٢٨٦ هـ باستدعاء الحكومة و قلد وزارة الحرب مع توظيفه في كل من المدينتين بولايته عاملا على أعمال نبيهة كجربة و الأعراض و غيرها، و سافر مرارا أميرا على المعسكرات لإقرار الراحة و الأمن في الولاية و في كل ما تقلد به كان مستقيم السيرة و السريرة مثني عليه بالسن الخاص و العام، و لما ابتدأت النكبة الكبرى الأخيرة لتونس و رأى مبادئها ترخص من الوالي السفر للتداوى فأقام في أوروبا مدة ثم أقام بالإسكندرية فلاقيته بها في إحدى المنازة

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ٢٢٨

الكائنة بالرملة، و انهملت من الكل الدموع لما توقعناه للوطن العزيز و لا حول و لا قوة إلا بالله.

و هاته البلاد أعنى إسكندرية هي ثاني مدينة في القطر المصري و هي مناخ تجارته مع سائر الممالك التي على البحر الأبيض و المحيط الغربي، و بها حصون حصينة و قشلات للعساكر و مكاتب عديدة لسائر الفنون، و قصر للخديوي بقرب المرسى أنيق فاخر و منزه عام خارجها بالمكان المسمى بالمحمودية، و هو منزه نزيه جدا تتنابه الموسيقى الرسمية في العشية و لكن أكثر من يرد إليه إنما هم الأجانب، و في المحمودية طريق وسيع صناعي حوله الأشجار العظيمة يتماشى فيه المترفون بعجلاتهم و بقربه فرع من النيل و عليه

آلات بخارية لرفع الماء و تصفيته و تقسيمه صافيا على البلاد في قنوات، و أغلب طرق البلاد مبلطة بالحجارة حسنة المنظر سيما حارات الإفرنج التي بوسطها البطحاء الكبرى ذات الجينية و الفؤارات و حولها القصور الشاهقة و من تحتها الحوانيت المزخرفة و بوسطها صورة محمد على باشا مجسمة ضخمة كأنه راكب جواده، و أغلب طرق البلاد في حارات المسلمين ضيق و ما عداها فهو متسع و بها من الجوامع الشهيرة جامع الإمام البصري رحمه الله، و هاته المدينة بناها إسكندر المقدوني و هو الرومي اليوناني الذي نشأ في مقدونية المعروفة الآن بالروميلي في بلد قبله و هو تلميذ أرسطو الذي أشار عليه بتفريق ممالك الفرس عند تغلبه عليها سنة ٩٣٥ قبل الهجرة، و قال له الحكمة الماثورة إلى الآن و هي: اقسام تحكّم، قال في الأقيانوس: و ليس إسكندر هذا باني سد يأجوج، فإن ذلك من الملوك المعروفين بالأذوا من قبائل حمير ببلاد اليمن، و إسمه الصعب و لقبه ذو القرنين و لقي إبراهيم الخليل و عانقه كما في الصحيحين، و أطال في ذلك فليرجع إليه من أراد. و هذا مما يؤيد ما قلناه في الكلام على سور الصين في المقدمة و لله الحمد. و قد سما الإسكندر هاته البلدة بالإسكندرية باسمه و كانت هي قاعدة الأقطار المصرية إلى الفتح الإسلامي، و كان تجاهها جزيرة يقال لها جزيرة فارس فاتصلت بالبر برصيف بناء

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ٢٢٩

بطليموس و هي الآن جهة رأس التين، و في الشمال الشرقي منها بنى المذكور منارة الإسكندرية الشهيرة و كان ارتفاعها أكثر من ١٥٠ قامه و أحد جوانبها يزيد عن ٥٠ ذراعا، و كان أنشأ عليها أحمد ابن طولون قبة من خشب فأخذتها الرياح ثم أصلح المنارة لتداع بها الملك الظاهر بيبرس و بنى عليها مسجدا انهدم بزلزلة ثم جدد ثم انهدم الجميع و بنى بمحلها الفناير الموجودة الآن من آثار محمد على باشا، و قد كان أسس بها بطليموس الأول خزانه كتب تعد إذ ذاك من عجائب الزمان تحتوي على ٧٠٠،٠٠٠ مجلدا، و زعم بعض المفترين من المؤرخين أن أمير المؤمنين سيدنا عمر أمر بحرقها مع أنها احترقت قبل الإسلام بمدّة مديدة، لأن الذي أحرقها هو بولس قيصر الرومان عندما كان محاصرا بالإسكندرية و رامت أعداؤه الإستيلاء على سفنه فأضرم فيها النار و كانت بقرب من القصر الملكي المحتوي على الخزانه المذكورة فاحترق الجميع، كذا في جغرافية مصر لفكري

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ٢٣٠

قال: و من المحقق أنه بعد مدّة من الزمن كان انطوان الروماني أهدى إلى الملكة كيلوبطرة من كتب خانة براجام ٣٠٠ ألف أو ٤٠٠ ألف كتاب فجدّد بذلك خزانه كتب عظيمة و إن كانت دون الأولى فأصابها الحريق مرتين ثم دمرت بالتمام بواسطة المتعصبين للديانة النصرانية لإزالة أفكار عبدة الأوثان في مدّة حكم تيودوس قبل الإسلام اه باختصار.

و سكان هاته المدينة الآن نحو من ٣٠٠ ألف نسمة و بها أزيد من ٣٠ ألف محل ما بين كبير و صغير، و تشتمل على معمل فاخر للسفن و إصلاحها، و من غرائب البلدة المسلة الواقعة قرب محطة سكة الحديد الموصلة للرملة، و هاته المسلة على نحو المسلة التي ذكرناها في باريس و لندره إذ الجميع نقل من مملكة مصر و لم يبق بها إلا هاته فقط، و طولها ٦٤ قدما في قطعة واحدة من حجر عليها كتابة قديمة عملت مدّة الملك موريس المتملك سنة ١٧٣٦ قبل الميلاد و مثلها غرابه عمود السوارى الشهير الواقع جهة مينه البصل و هو عمود على قاعدته عظيمة فوق تل عال ارتفاعه مع تاجه أكثر من ٣٠ ميتر و محيطه نحو ٢٨ قدما يقال أنه عمل مدّة قياصرة الروم، و بعد إقامتي بهاته البلدة سبعة أيام و تزودى منها ما يلزم لطريق الحجاز غير الخيام و القرب فإنني أخذتها من مصر لأنها هناك أرخص ثمننا و إرسالها جميع ذلك إلى السويس توّا مع الطباخ و الخادم اللذين استأجرتهما من الإسكندرية، توجهت حينئذ إلى مصر القاهرة راكبا حافلة طريق الحديد و لم نجد بها مخدعا خاصا ذا فرش و مرافق مثل ما يوجد في أوروبا، و كان ركوبى بعد العصر فسار الرتل سيرا وسطا و لم يقف إلا ببعض بلدان كبيرة و كان منظر الأرض قرب إسكندرية ليس بهيجا و إنما توجد براحات و سبعة بها الماء راكدا و مزروع بها الأرز، لكن تغير المنظر بحسن النبات و الزراعة بعد حصّة و لم يطل بنا ذلك المنظر الجميل لإرخاء الظلام سدوله فوصلنا إلى القاهرة بعد سير أربع ساعات و نصف، فتلقاني في الموقف النجيب الوجيه الحاج على الشماخي و كيل

تونس و اعتذرت إليه عن الإقامة بمنزله بما مر و نزلت في منزل المسافرين المسمى الخمارة الكبيرة مواجهها لروضه الأزبكية، و أسعار هاته المنازل نحو من أسعار أوروبا.

الفصل الثاني: في صفة مدينة مصر القاهرة

هاته المدينة هي قاعدة الأقاليم المصرية منذ الفتح الإسلامي غير أنها اختلفت أسماؤها و بقاعها على حسب اختلاف الدول و الأعصار و إن كان مركز جميعها واحدا فبعضها محاذ لبعض، فأول ما اختطه الصحابة رضوان الله عليهم مدينة الفسطاط، صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ٢٣١

حيث ضرب سيدنا عمرو بن العاص فسطاطه في الفتح، و عند إرادته للتقدم جهة الإسكندرية التي هي القاعدة إذ ذاك وجد يماما قد فرخ على عمود فسطاطه فأجاره و أبقى الفسطاط إلى أن رجع الجيش بعض الفتح و اختط المدينة حول الفسطاط فسميت به، ثم لما تغلب المعز الفاطمي على مصر على يد قاده جوهر اختط القاهرة و صارت هي دار الإمارة.

و هي مدينة رحيبة يمر النيل بمحاذاتها و عليه آلات بخارية لرفع الماء و تصفيته و إرساله في قنوات تفرق على جميع المدينة، و عليه جسر حديد طوله ٥٠٠ ميتر و عرضه يمر عليه ستة عجالات، و على حافته طريقان للمشاة و قد صنع سنة ١٢٧١ هـ و على حدودها جبل شاهق عليه قلعة حصنها و كانت مستقر الأمراء، و هي ذات حصون متينة صناعية مشحونة بالمدافع من الطرز الجديد الضخم زيادة على تحصينها الطبيعي، و تنظر منها سائر المدينة و أريافها، فترى عظم اتساعها. و بهاته القلعة جامع ضخم ذو قبة شاهقة جدا و منائر جميلة مرتفعة و به إسطوانات من المرمر الملون ذات بهجة و ارتفاع عظيم و بصحنه الرحيب متوضاً أنيق جميل، و بنى هذا الجامع محمد على باشا كما أنه أتقن قصر الحكم بها و هو ذو بيوت وسيدة و أووين رحيبة مشتمل على جميع الفرش، و لا زال هو القصر الرسمي للمواكب المهمة و إن لم يكن فآخر مثل القصور المحدثه التي يقيم بها الخديوي، و بالقلعة أيضا معسكر و ديوان نظارة الحرب و بها بئر عميق جدا يدعى الجهال أنه جب يوسف عليه السلام، و كان الحامل لهم على ذلك غرابه و جود بئر في ذلك الإرتفاع فعدوه معجزه، و بالقاهرة أسواق كثيرة جدا بل إنى لم أر بلدا أكثر منها حوانيتا في سائر الجهات، و أهم طرقها القديمة هو الطريق الموصل من الأزبكية إلى جامع سيدنا الحسين و يسمى بالموسكى، فهو متسع في بعض جهاته نحو ثمانية أو عشرة أمتار و في بعضها نحو الخمسة أمتار، و أما بقية الطرق القديمة فأكثرها لا تمر به العجلات و بعضها تمر به عجله واحدة، نعم إن الطرق الجديدة التي افتتحتها إسماعيل باشا في عشرة الثمانين و المائتين و ألف في

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ٢٣٢

الحارة المنسوبة إليه المسماة بالإسماعيلية هي على نحو الطرق الأوروبية اتساعا و استقامة و هاته الحارة كلها محدثة ملحقة بمصر، و من محاسن القاهرة حديقته الأزبكية الجميلة الأنيقة المحاطة بسياح من قضبان الحديد الجميلة و بها أبواب من كل الجهات على الطرقات الرسمية كل يوم عشية لكنها لا يحضرها غالبا إلا الإفرنج، و قصور الخديوي و أقاربه و حواشيه مائة الحارات الجديدة مبهجة لها برونقها و أهمها قصر عابدين، أما القصور التي له حول القاهرة فهي كثيرة مضاهية أو فائقة على قصور ملوك أوروبا و جمعت بين ما للأوروبيين من التحسين و ما للمشرقيين من التزييق و الإسراف لكل منها حدائق و عيون و حيوانات غريبة، و من هاته بستان شوبرة و قصره ذو البركة الرحيبة الذي أنشأه محمد على بعيدا عن القاهرة نحو ثلاثة أميال، و له طريق جميل هو منتدى أهل التمشى و التنزه بعجالاتهم و خيلهم لما له من البهجة بالأشجار العظيمة و من ورائها البساتين و القصور المؤنقة لأهل الترف و البذخ من الأوروبيين و الأمراء و الوزراء و على جانبه ترعة من النيل، و هكذا حارات الإفرنج و الحارات الجديدة في تأنيق البناء و القصور و بهرجتها من الظاهر فضلا عن الداخل، لكن ديار الأهالي ليس منظرها من الخارج مما يسر النظر.

أما ما اشتملت عليه القاهرة من المقامات و الأماكن المعظمة فأولها مقام سيدنا الحسين رضى الله عنه و أرضاه، و ذلك أنه بعد الشنيعة

الشنعاء بكر بلاء أيام يزيد سنة ٦١ هـ حمل الرأس الشريف المكرم و يقال أنه دفن بعسقلان إلى أن نقله الملك الصالح طلائع بن رزيك وزير الفاطمية سنة ٥٤٨ هـ إلى القاهرة في موكب عظيم و دفن بالمقام المشار إليه، ثم عملت عليه المقصورة من النحاس الموجودة الآن سنة ١١٧٥ هـ و بنى حوله المسجد الرحيب، و قد تشرفت بزيارة هذا المقام الشريف و صليت الجمعة و غيرها في صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ٢٣٣

مسجده و لله الحمد، و قد صلى الخديوى محمد توفيق تلك الجمعة هناك فلم يكن له من الأبهه و الضخامة الكبريائية ما ينكر و إنما معه بعض خدم و أعوان، و من المشاهد أيضا مشهد سيدتنا زينب شقيقة السبطين رضى الله تعالى عنهم، و مشهد سيدتنا رقية إبنة سيدنا على بن أبى طالب، و مشهد سيدتنا سكينه بنت الحسين السبط، و مشهد سيدتنا نفيسة الطاهرة من ذرية سيدنا الحسن الشهيرة بالزهد و الصلاح و المناقب المأثورة، و مشهد الإمام الشافعى خارج القاهرة فى القرافة و غير ذلك من المشاهد و المقامات التى لا تكاد تحصى رضى الله تعالى عنهم أجمعين، و ذلك لأن مصر محط رحال الصحابة و التابعين و العلماء و المصنفين رحمهم الله أجمعين.

و كذلك الجوامع التى بها تكاد تفوق العد و أول مسجد بنى بها هو الجامع العتيق و يسمى الآن جامع عمرو أسس سنة ٢١ هـ عند الفتح الإسلامى، ثم زاد فيه مسلمة بن مخلد الأنصارى سنة ٥٣ هـ و زوجه، و قيل إنه بنى به أربع منائر بأركانها الأربع بأمر سيدنا معاوية و هو أول اختراع فى ذلك، و فيها يقول عامر بن هشام الأزدي .

و كم لك من مناقب صالحات و أجدر بالصوامع للأذان

كان تجاوب الأصوات فيها إذا ما الليل ألقى بالجران

كصوت الرعد خالطه دوى و أرب كل مختطف الجنان

ثم الجامع الأزهر و هو أول جامع أسس بالقاهرة بعد الفسطاط أسسه جوهر القائد سنة ٣٦١ هـ و جدد اتساعه مرارا، و هو ينقسم إلى بيت وسيع ذى تقاسيم مرفوع سقفه على أعمدة، و إلى صحن وسيع محاط به أروقة يقيم بها جماعات من الطلبة المجاورين لأخذ صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ٢٣٤

العلم، و هذا الجامع هو مدرسة العلم الجامعة فى الأقطار المشرقية، و فى القاهرة جوامع أخر عديدة ذات بناآت ضخمة، أشهرها بمتانة البناء و ضخامته و ارتفاعه و إتقانه جامع السلطان حسن بن قلاون ابتداء فى عمارته سنة ٧٥٧ هـ و أتمه فى ثلاث سنين، و مقدار ما صرف عليه بسكة الوقت نحو ثلاثة عشر مليوناً فرنكاً، فهذه هى أشهر الأماكن بقاهرة مصر، و مثلها مدارس العلوم الرياضية و قد جمع بها خزائن الكتب التى كانت متفرقة و تشتمل على نحو مائة ألف مجلد منها ثلاثون ألف مجلد بخط اليد، و فيها من نفائس الكتب تأليفاً و خطاً ما لا يوجد غيرها، و منها مصحف كريم يقال أنه بخط سيدنا عثمان بن عفان رضى الله عنه، و مصاحف أخر عديدة عظيمة الحجم مزوقة بالذهب إلى غير ذلك من الكتب العتيقة و النفيسة، و ذلك بقية ما فات الفرنسيين من الكتب التى نقلها إلى باريس عند استيلائه على مصر مدة نابليون بونابارتي، و كذلك المارستانات أى المستشفيات الجامعة للتداوى و تعليم فنون الطب، و قد شاهدت أحدها فإذا هو جامع لسائر أدوات الكيمياء و الطبيعيات و الأجسام المصبرة و المشرحة من بنى آدم و غيره، غير أنى كانت مشاهدتى لهاته الآثار و هى على شفا جرف من الإضمحلال لما سياتى خبره مما اعترى مصر أواخر مدة خديويها إسماعيل باشا.

و من مهمات ما يذكر فى القاهرة الأهرام التى بقربها فى المكان المسمى بالجيزة، و قد ذهبت إليها راكبا حماراً لأن العجلات لا تصل إليها إلا بكلفة حيث أن الأرض حولها مرملة و لم تتصل الطرق الصناعية بها، و الأهرام بأرض مصر كثيرة جداً منها ما هو باق إلى الآن وعددها بعضهم فقال إنها ٢٧ هرماً و منها ما اندثر بالهدم و صروف الأيام، و أكبر الموجود منها أهرام الجيزة المذكورة و هى ثلاثة أهرام أكبرها أوسطها و يعرف بأبى هرميس، و أشهر الأقوال فى بانيه هو فرعون كيوس أحد فراعنة العائلة الرابعة من فراعنة مصر، و على ما حرره المؤرخون أن تلك العائلة لها الآن نحو ستة آلاف سنة و كانت مدة ذلك الملك فى الملك ٥٠ سنة و تمم بناء هرمة

في ٢٠ سنة و كان المشتغلون في بنائه ٣٦٦ ألف نفس كل تلك المدة كأنه جعل بحساب كل يوم من السنة ألف نسمة للشغل و سلك في بنائه طريقا عجيبا حتى صبر على تقلبات الزمن، فقد وضع على شكل مخروط قاعدته مربعة و ينتهي بنقطة، و من خواصه أنه يتساند على نفسه إذ مركز ثقله في وسطه و يتحامل على نفسه و ليس له ما يتساقط عليه و قوبلت زواياه بمهاب الرياح كي لا تؤثر فيه لأنها تنكسر سورتها بمصادمة الزاوية بخلاف ما لو لاقت السطح، و في داخل هذا الهرم عدة محلات يدخل إليها

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ٢٣٥

المتفرجون و إن كنت في نفسى لم أستطع الدخول إليه لأن المدخل ضيق مظلم يدخله الإنسان حبا و يدخل أمامه أحد السكان هناك بنور شمعة، و أنا قائم بى ذلك المرض الذى يصحبه ضيق الصدر فلم أدخله، و نقلت الكلام فيه من جغرافية مصر للفاضل محمد أمين فكرى، و كذلك نقلت منها جملة مهمات تتعلق بالأقطار المصرية فلعمري أنه كتاب جامع لفوائد قلما توجد بغيره مجموعة مع حسن السبك و الإفادة و الاختصار، و مما قال في هذا الهرم: «أن بوسطه حجرة تسمى حجرة الملك فيها حوض بديع الصنعة من قطعة واحدة، و أخرى تعرف بحجرة الملكة و يرى الناظر في داخله ما يبهر العقل من كمال إحكام تركيب تلك الأحجار الهائلة، حتى قيل إن مقدار الواحدة منها مائتا قدم مكعب و جميعها يرى كأنه قطعة واحدة، و ينتهي أعلاه من داخل بسطح نحو عشرة أمتار، يقال إنه سقطت منه حجرة و ارتفاع أعلى الهرم على سطح أرضه ١٤٦ أما طول سطح أحد جهاته فهو ١٨٤ و طول كل ضلع من قاعدته ٢٣٠ ميتر، و الأهرام الآخر أصغر من هذا، و قد اختلفت الأقوال في الغرض من بناء الأهرام حتى قال عمارة اليمنى :

تنزه طرفى فى بديع بنائهاو لم ينتزه فى المراد بها فكرى
اه باقتصار و أظهر الأقوال إنها قبور لأصحابها.

و بقرب هاته الأهرام صورة أسد جاثم نحتا في الحجارة رأسه رأس آدمى مسدول الشعر و هى أضخم ما يكون من الصور، و أصله من أعمال الفراعنة الأقدمين يسمى أبا الهول، و بقرها أطلال بناءات هائلة سطا عليها الرمل ثم كشفت منها بيوت حائط كل بيت منها في قطعة واحدة من الحجر و سقفها كذلك حجرة واحدة يندهل الرائي منها و كيف أمكن نقلها و وضعها بمحلها؟ و حول هاته الجهات أناس سكان كأنهم لا-صناعة لهم سوى التفتيش على الأشياء العتيقة من تحت الأرض و بيعها للسواح و التطوف معهم لإراءتهم غرائب تلك الآثار القديمة، مع أن الحكومة المصرية اعتنت كثيرا بجمع الآثار العتيقة التى يمكن نقلها و حفظها في محل خاص بها هو من أهم أمثاله في الدنيا مباح لكل قاصد سيما أنتيك خانة. و فى سائر الجهات المصرية عجائب من صنائع الأقدمين مما يدل على تقدمهم التام فى المعارف و الصنائع، و منها ما اندثر علمه الآن مثل الإقتدار على جر الأثقال و حفظ أجسام الأموات على حالها المسماة بالمومية المصرية التى نقل منها لسائر أقطار التمدن و نسج المنسوجات من مواد حجرية لمسماة.

و غير ذلك، و أغلب ما يوجد من أمثال هاته الأشياء فى أقاليم الصعيد حيث كانت مقر

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ٢٣٦

تخوت ممالك الفراعنة و بعض اليونان، و الحاصل أنه يوجد بمصر من غرائب الآثار القديمة ما لا يوجد بغيرها، و كل ما يمكن أن ينقل و لم تعتد عليه أيدى الدول الأجنبية فقد جمع فى القاهرة فى ديوان الآثار و الغرائب، حتى ذكر أن بعض دول أوروبا رضيت بشراء جميع ما فى ذلك الديوان بما على الحكومة المصرية من الديون، و على تقدير عدم صحة ذلك القول فإنه ينبىء عما لتلك الآثار من الغرابة و العناية حتى صح أن يقال فيها مثل ما ذكر.

و قد اجتمعت فى القاهرة بأجلاء من فضلائها و أعيانها فقد زرت العلامة النحرير شيخ المشايخ الشيخ إبراهيم السقا و هو طريح الفراش بمرض الفالج الذى لم يبق له من حراك سوى الكلام و النظر و ثبات العقل، و هو على جلاله علمه و فضله و التكدر من ألمه على جانب عظيم من التواضع و لين الجانب و حسن الأخلاق، فأخبرنى أنه من تلامذة الشيخ سيدى إبراهيم الرياحى التونسى، و أنه أخذ عليه و أجازة عند اجتيازه بمصر للحج و سألتنى عن ذريته و دعا لهم بخير، و أعجبه النشوق من التبغ التونسى و دعا لى و

بالكرتينة و عليه عساكر محافظون، و فى البلد شجرات و شبه جنينات حول ديار بعض الإفرنج و ما وراء ذلك فهو صحراء خالية و إن كانت الأرض قابلة

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ٢٣٨

للإصلاح لكن تشديد الحكومة فى إعلاء سعرها أبقاها خرابا، و جميع المنازل التى لخدمه خليج السويس لها بعض تحسين و مياه النيل واصله إليها.

الفصل الثالث: فى التعريف بمصر

هاته المملكة صارت ملتئمة من عدة ممالك عظيمة فى أفريقية، فيحدها شمالا البحر الأبيض، و يبتدىء الحد الشرقى منه مارا على خط موهوم بين الشام و مصر، ثم على شاطيء البحر الأحمر الغربى شاملا بلاد النوبة إلى أن يصل لمملكة الحبش التى يفصل بينهما جبال هناك فينعطف الحد معها شرقا محيطا بها مارا للجنوب مارا مع البحر الأحمر، فيمر أيضا معه إلى أن يجاوز باب المنذب، و مملكة الحبش حينئذ داخله فى الحد لكنها لا تصل للبحر لما ملكته مصر من شطوطه، ثم يمر الحد مع البحر و يشمل مملكة عادل المسماة بزليع، فيمر على شاطيء أفريقية الشرقى على المحيط الشرقى إلى أن يصل إلى حدود مملكة زنجبار، ثم يبتدىء الحد الجنوبى فيمر من الشاطيء مغربا إلى دواخل أفريقية السودانية و ينعطف إلى الجنوب حتى يصل إلى حد الدرجة الثالثة جنوبا وراء خط الإستواء، و يشمل مملكة دارفور و يصل إلى حدود مملكة وداى و يمتد الحد الغربى مع مملكة وداى إلى أن يصل إلى الصحراء الكبيرة فينعطف معها ذاهبا إلى الشمال من غير تعيين لخط معين حيث أن الأمر مهمل فلا حصر فيه، و هذا فى الجهات السودانية إلى أن يصل إلى طرابلس و يمر معها إلى أن يصل إلى البحر الأبيض حيث ابتداء التحديد، و حيث كانت على ما علمت من الإتساع و الكبر لا جرم إن كانت صفة أرضها مختلفة جدا.

فأما مصر الأصلية: فالمعمور منها هو عبارة عن واد بين سلسلتين من الجبال مارة من الجنوب إلى الشمال يضيق تارة إلى ثلاثة أميال و يتسع أخرى إلى نيف و عشرين ميلا كلها يسقيها نهر النيل، و ذلك كله فى غاية الخصب و النضارة تتجدد أرضه سنويا بفيضان النيل و يخرج الله منها برقاتها مما جعل مصر غنية عامرة، و ما عدا هذا الوادى فهو عبارة عن جبال قحلة لا نبات بها أو أراضى يابسة مرملة لا ترى فيها إلا الحصا.

و أما بلاد النوبة الداخلة فى مملكة مصر، و هى المحادة لها من الجنوب: فهى ذات صحارى و جبال خصبة و أراضى خصبة، و بقية الممالك و هى وداى و دارفور و زليع و غيرها، فكلها ذات جبال و آجام و خصب.

و أما جبال ممالك مصر فهى كثيرة ليس منها جبل بركانى و لا منها الزائد فى الإرتفاع، و أعلاها هو الفاصل بينها و بين الحبشة. و أما أنهرها فأولها نهر النيل و ما أدراك ما النيل و هو نهر يحمل السفن الصغيرة إلى أول شلاله به عند الخرطوم، و هو عندهم ينقسم إلى ثلاثة أقسام:

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ٢٣٩

أحدها: يسمى نيل السودان و ذاك من منبعه إلى الخرطوم.

الثانى: منها إلى فيلة و هى جزيرة فى وسطه قرب مدينة أسوان.

الثالث: منها إلى البحر الأبيض.

فالقسم الأول يتكون من نهريين يسمى أحدهما: البحر الأبيض، و الآخر: البحر الأزرق، عبارة عن عظمها حتى ألحقا بالبحر، و البحر الأبيض: كأنه هو الأصل للنيل و هو يجتمع من عدة أنهر فى أواسط أفريقية و هو أعظمها و أبعدا منبعا، لأنه منبعث من بحيرة أو كيريفى المعروفة بفيكتوريا على ظن آخر الجغرافيين الآن و إن كان التحقيق أنه مجهول حيث تبين أن تلك البحيرة تستمد من بحيرة

أخرى، و لكن الوصول إلى اكتشافها صعب و لعله تحدث أسباب لذلك، و طوله إلى حيث يجتمع بأخيه قرب الخرطوم ٢٣٠٠ كيلومتر أى نحو ألفى ميل.

و أما الأزرق: فحجمه نحو الثلث من السابق و منبعه من بحيرة دميعة في بلاد الحبشة و يمر على عدة شلالات ثم يجتمع بأخيه و يصير حينئذ القسم الأوسط، فتصب فيه عدة أنهار و غير معتبرة و ذلك في بلاد النوبة، فإذا وصل إلى أصوان حدثت منه الشلالة الأخيرة التي تمنع زيادة صعود السفن عنها لأنها متكونة من ارتفاع الأرض في المجرى الأعلى و انخفاضها في المجرى الأسفل مع صخور مرتفعة فيكون له خريز كالرعد القاصف يسمع من بعد بعيد، فإذا وصل النيل إلى أسفل القاهرة انقسم إلى فرعين: شرقي، و غربي، فالشرقي: يصب في البحر الأبيض عند دمياط، و الغربي: يصب في البحر المذكور عند رشيد، و أحدثت من النيل ترع عديدة حتى صار يصب في البحر الأحمر و خليج السويس و الإسكندرية و غير ذلك، و صنعته الترع في مصر كانت معروفة في مصر بأحسن مما هي عليه الآن حتى كانت تروى سائر رباها بل و جبالها أيضا، و يرشد إلى ذلك قوله تعالى حكاية عن فرعون. وَ هَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي [الزخرف: ٥١] فكانت أرض مصر كلها عامرة بالأنهار، و هاته الترع تحمل القوارب و تقع بها المواصلات و تبين مما مر أن في مصر أنهارا عديدة عظيمة سيما في السودان، و يجتمع الجميع في النيل، و لولا عظمة المياه لتلاشت في الصحارى التي تمر عليها.

و من غرائب النيل أنه يفيض في وقت معين من كل سنة و هو وقت الانقلاب الصيفي و يستمر على ذلك إلى الاعتدال الخريفي فيأخذ في النقصان إلى الانقلاب الشتوي فيتحد في مجراه إلى السنة القابلة، و يختلف فيضانه بالزيادة و النقصان، و اعتداله المطلوب للسكان هو أن يرتفع على المجرى الإعتيادي سبعة أمتار فإن زاد أهلك بالغرق و إن نقص أجحف الناس بالقحط، و لهذا الإعتيادي سبعة أمتار فإن زاد أهلك بالغرق و إن نقص أجحف الناس بالقحط، و لهذا الفيضان كانت مصر الأصلية لها مناظر عجيبة، ففي الربيع الذي هو شباب الزمان في سائر البقاع تكون مصر عموما أقل بهجة من نفسها في وقت آخر، و في الصيف الذي تجف فيه المياه في المعروف تكون مصر بحرا من الماء العذب راسبة فيه قرى و مدن

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ٢٤٠

و أمصار يسلك من بعضها لبعض في القوارب، و في الخريف الذي يتبدى فيه في غيرها ذبول النبات تكون هي قد شب نباتها و ازدخرت و ربت، و في الشتاء تنتشر أزهارها و تغرد أطيورها و يحصد زرعها و تدخر أقواتها و تفيض على العالم محصولاتها فانفردت بذلك عن غيرها.

و ليس هناك ما يشبهها إلا نهر السند المار على بلوجستان، فإنه يقرب من ذلك من حيث فيضانه في الصيف، و لما أحدثت الآلات البخارية لرفع الماء من النيل زمن نزوله قل ضرره من القحط، إذ لم يعهد أنه جف ماؤه إلا سنة ١٢٧٨ هـ و كان كربها شديدا. أما ضرر تفاقم فيضانه فقد أعان على تخفيفه الأخبار بالأسلاك الكهربائية حيث يأتي الخبر بتفاقمه سريعا من السودان و مصر العليا، فتفتح له أفواه الخلجان و ترتفع الناس عن الأراضي المنخفضة و مع ذلك يحصل منه ضرر عظيم أحيانا، و قد اختلفت الأقوال في أسباب فيضانه و أظهرها أنه متركب من شيئين.

أحدهما: ذوبان الثلج المتراكم على جبال الحبشة الشاهقة، و على جبال أواسط أفريقية بحرّ أواخر الربيع، فتسيل مياهها و يطموا بها النهر الأزرق و غيره، و لطول امتداد الأنهر ما يصل ماؤها إلى مصر إلا في الانقلاب الصيفي.

و ثانيهما: أن جنوب خط الإستواء فصوله على عكس فصول شماله، فالربيع عندنا هو الخريف عندهم، و الصيف عندنا هو الشتاء عندهم، و قد علمنا أن النهر الأبيض منبعث من جنوب خط الإستواء بعدة درجات و أن الأمطار في الأقاليم الحارة تتراكم دفعية سيما وقت الخريف، و الخريف في الجنوب هو ربيع في الشمال فما يصل ماؤه إلا في الصيف في الشمال، فيحدث من ذلك طمو النهر الأبيض أيضا و يلتقى بأخيه و هما طاميان، فيحدث فيضان النيل زمن الصيف في مصر.

أما بقية الأنهر في ممالك مصر ففي النوبة و السودان كثير من الأنهار و الجداول منها ما يصب في النيل و منها ما يجف في الصحارى

و ليس منها ما يهيم سوى النهر الأبيض و الأزرق المتقدمى الذكر، و فى أرض مصر من صعيدها إلى بحريها لا يوجد نهر أصلى سوى النيل، لكن أحدثت منه أنهار عديدة عظيمة تسمى بالترع حتى صارت أغلب الأراضى المصرىة مخترقة بتلك الأنهر الصناعىة، و منها الكبير الذى يحمل السفن النهرية و منها الصغير و منها الدائم الإمتلاء بالمياه و منها ما يجف عند انتهاء إنخفاض النيل، و الموجود الآن من هاته الترع يزيد عن الستمائة و أحد عشر نهرا أطولها الإبراهيمية فإنها تقرب من مائتى ميل، و لا زال الإعتناء بتكثير الترع المستلزم لتكثير أراضى الزراعة حتى بلغت الآن إلى ما يقرب من خمسة ملايين فداناً مسقىة مزروعة، و الفدان عبارة عن مساحة ٥٩٢٩ متر مربع و هذا المقدار و إن كان كثيرا فى ذاته لكنه لم يبلغ إلى ما كانت عليه الترع فى مصر قديما، حيث كانت زمن الفراعنة تصعد مياه النيل إلى أعالى رباها و جبالها و تسقى

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ٢٤١

جميع أراضىها حسبما نص عليه فى التاريخ، و يشهد له قوله تعالى حكاية عن فرعون:

أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَ هَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي [الزخرف: ٥١] فجمع الأنهار و الإفتخار بها بل و التعاضم إلى حد دعوى الألوهية قاض بأنها كثيرة جدا و بالغه إلى حد خارج عن المعتاد فى الكيفىة كصعودها إلى الأعالى، و الواسطة فى ذلك إما أن تكون بواسطة آلات تحمل الماء من أسفل إلى أعلى بكثرة حتى يجرى فى الأنهار ثم من هاته يحمل كذلك إلى ما فوقها إلى أن تجرى و من هذه أيضا إلى ما فوقها و هكذا إلى نهاية الإرتفاع، و الآلات إما أن يديرها الماء نفسه أو قوة أخرى جهلت الآن فيما اندثر من علوم الأقدمين، أو تكون الواسطة هى تفرغ الترع من أعالى النيل قبل الوصول إلى الشلالات بأن يؤتى لأول شلاله قبل انحدار الماء منها فتفتح له فروع ذاهبة مع ارتفاع الأراضى بكيفىة هندسيه و بناء قناطر و حنايا لمرور الماء من الأعالى إلى الأعالى ثم من شلاله أخرى يفعل هكذا و تجرى الأنهار فى الإرتفاعات، كما تجرى فى الإنخفاضات، و يحصل منها النباتات الجبلية و مناظرها البهيجه.

و أما بحيرات مصر فهى عشرة أربعة كبيرة، و أكبرها بحيرة المنزلة و محيطها نحو من مائتين و خمسين ميلا و تسير بها السفن الصغيرة و بها السمك دائما و موقعها شرقى مدينة دمياط و يخترقها خليج السويس، و البقية أغلبها أيضا مع الخليج و ليس لها فائدة معتبرة سوى استخراج الملح من بعضها عند جفاف حافاته صيفا و بعضها يجف تماما، أما ممالك السودان ففيها بحيرات مهمة مثل بحيرات منبع النيل و غيرها و لكنها قليلة الجدوى بالنسبة للمنافع مثل بقية ذخائر السودان.

و أما هواء مصر و ما يتبعها فهو على العموم حار، و غاية الفرق أن الجهات الشمالية على شاطئ البحر الأبيض يلف حرها صيفا سيما عند ازدياد النيل، و أما الجنوب و سائر السودان فهو حار جدا، حتى إنى كنت فى مدينة مصر فى شهر نبر بعد فيضان النيل و لم أكن أستطيع النوم بالغطاء باللحاف الكتان و لكنى لا أستطيع أيضا فتح الطيقان لكثرة الندى المضر، و رأيت مثل ذلك فى إسكندرية أيضا التى هى مهرب السكان من الحر، مع أنى كنت بها فى ذلك الشهر أيضا.

أما السويس و الصعيد فلا- تسأل عن شدة حرها، نعم هى بعد الانقلاب الشتوى يحصل بها البرد إلى درجة طلب التدثر و التدفى، فيكون الهواء عموما معتدلا مع ابتهاج الأرض بالنبات.

و أما نباتاتها مع سودانها و جباله فيصح أن يقال أن فيها كل ما يوجد من نبات الدنيا إلا ما ندر، حتى الأشجار التى تكون فى الأراضى الباردة فإنها توجد فى الجبال الشاهقة فى دواخل السودان ذات الثلج الدائم، و فى السودان غابات عظيمة صالحة أخشابها لبناء السفن و الديار و للأعمال الجيدة أيضا مثل الأبنوس و غيره، لكن أرض مصر الأصلية ليس

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ٢٤٢

بها من غابات طبيعىة و غاية ما له بها منظر الغابات هو النخيل، فالحاصل أن ممالكها مشتملة على كل ما يحتاج إليه من المزروعات الحبوبية و الأشجار ذات الثمار و غيرها.

و أما حيواناتها: ففيها الخيل بقله بالنسبة لذاتها لكن يوجد فى السودان نوع منها جليل يعرف بالكحيل و البغال قليلة و الحمير كثيرة، و

يركبها حتى الأعيان و لها اعتبار و يخلقون شعرها و تصير بالتريبة تفهم قصد صاحبها، حتى إذا قال الحمار لحميره صخرة ظلت و صارت تمشى على ثلاث ما دام الشرطى ينظر إليها خوفا من تخديمها للحكومة بلا أجر، و الإبل كثيرة جدا و منها نوع الهجين و هو نوعان فى السير أحدهما: متعب لراكبه و هو الذى إذا سار رفع رأسه و عنقه، و الثانى: لين لراكبه و هو الذى إذا سار دلى رأسه إلى الأرض و مد عنقه إلى أمام، و كلاهما من الإبل المعتادة، غير أن أصحابها يختارون الجيد الأطراف الخفيفى الحركة ثم يمرنونه من الصغر على مداومة سرعة السير فيتربى عليها و يبقى ناحلا، فيكون عدّة لأصحابه للوصول إلى الأمد البعيد فى الزمن القريب، و كان عند الأقدمين عوضا عن طريق الحديد الآن غير أنه لا يحمل الأثقال الكثيرة.

و لقد رأيت من معجزات نبينا صلى الله عليه و سلم ما يزيد القلب إيمانا و ذلك فى الحديث الذى رواه الإمام مسلم فى صحيحه فى الكلام على سيدنا عيسى عليه السلام و أنه يترك القلاص أى الإبل، بمعنى أنه لا يستعملها و خاضت الشراح فى تطبيق ذلك، و الحق ما بينته المشاهدة من الإستغناء عنها بالرتل و طريق الحديد و الله أعلم أنه سيعم جزيرة العرب و يصل إلى مكة و المدينة حيث أن سيدنا عيسى عليه السلام ينزل هناك و الله أعلم.

و البقر قليل و هو نوع ضخمة، و الجاموس كثير و الفلاح من العامة الذى له بقرة منه تغنيه عن كثير من الأشياء فيشرب و يبيع من لبنها و يأتد من سمنها و يحرث عليها و يوقد بخثائها و يستتج أولادها، و لذلك صارت البقرة عنده أعز شىء عليه فى الدنيا، و أما الغنم فهى كثيرة فى السودان، و الحيوانات الوحشية يوجد منها فى السودان كل الأنواع التى تألف البلاد الحارة كالأسد و النمر و الفيل و الزرافة و غيرها، و أما الطيور فيوجد سائر الطيور الأليفه، و أما الوحشية فإنما يوجد منها بعض الرحالة كالسمان و الخطاف و الحدأة كثيرة و كذلك الغراب، و لقد شاهدت منه نوعا غريبا لأن لونه أبلق و عليه فتكون الصفة فى قوله تعالى: وَ غَرَابِيبُ سُودٌ [فاطر: ٢٧] هى صفة كاشفة لا مؤكدة حيث يوجد فى الغراب الأسود و الأبلق بعضه أسود و بعضه أبيض، كما يوجد فى السودان أنواع شتى من الطيور الغريبة كالبيغا ذات الألوان البهية المذهبة و المفضضة و غير ذلك من أنواع الطيور.

و أما معادن مصر: ففيها أكثر أنواع المعادن المعروفة فالذهب يوجد بكثرة فى عدة أماكن من السودان، فمنه ما هو فى معدنه و منه التبر الذى يوجد فى الرمال من سيول المياه

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ٢٤٣

و أشهر معادنه فى سنار حتى يعرف بالذهب السنارى، و كذلك يوجد الفحم الحجري الغنى فى بلاد النوبة، و يوجد أنواع المرمر و الرخام الأبيض و الأزرق فى جهات من الصعيد، و كذلك الملح فى عدّة سبخ و الجص و السيمان و الرصاص فى موضعين حوالى شط البحر الأحمر، و النحاس فى عدة أماكن، و الحديد بكثرة فى عدّة جهات، و الكبريت حتى أنه يوجد جبل يسمى به و أما الفضة فهى قليلة، و توجد أحجار ثمينه و أهمها الزمرد لكنه قليل، و يوجد الفيروزج و العقيق، و الذى يحق به الإعتناء هو حجر البلور إذ هو كثير و نقى يضاهى ما فى بوهيمية النمساوية كثرة و صفاء، و أكثر هاته المعادن متروك إما لعدم العناية به أو لصعوبة نقله حتى رأيتهم يأتون بالحجارة لبلاط الطرق فى الإسكندرية من بلد تريست فى مملكة النمسا مع ما فى البلاد من الحجارة التى صنع منها القدماء تلك الأهرام و الهياكل و العواميد التى تنقل ذخائر فى قواعد الدنيا، و لا شك أن العناية لو توجهت إلى استخراج منافع السودان لسهل نقل تلك الحجارة و سائر المعادن بأخذ الفحم الحجري للطرق الحديدية التى تسهل إيصال الأثقال و مواصلة الأقطار، إذ فى السودان كنوز لا يحصيها إلا خالقها و أعظم بكنز غاباتها و أخشابها المرغوبة كالشمشير و الإبنوس و غيرها، حتى لا يحتاجون لجلب أخشاب البناء و غيره من خارج المملكة فإنهم يأتون حتى بحطب الوقد و فحمه من الخارج و ذاك ضعف للبلاد.

و أما مدن مصر: ففي مصر من القرى و المدن ما يتجاوز الثلاثة آلاف بلدة و أشهرها قاعدتها و قد تقدّمت صفتها، ثم الإسكندرية و مر ذكرها، ثم طنطا و رشيد و دسوق و أشمون و الأبيض على وزن محمد قاعدة كردفان و أبو حراز و تندلتى قاعدة دارفور سابقا و تسمى فاشرو غير ذلك، و قد كانت بها مدن هائلة فى الصعيد تحتوى على بناآت عجيبة و صنائع غريبة و قد دثرت تلك المدن و لم

يبقى لها من اعتبار سوى أن بعضها صار بمحل قريات ليست بذات أهمية، و تلك الهياكل القديمة قد اكتشف عنها و تسمى بالبرابي و تقصدها السواح للإطلاع على ما احتوت عليه من الأعاجيب و الصنائع المندثرة، و من هاته البرابي واحدة في بلد أدفو التابعة لمديرية أسنى، أخبرني الرحالة محمد برادة: «أنه رأى به إيوانا كبيرا منقوشا في الصخر على حيطانه صور جميع المصنوعات المعلومة إذ ذاك، و أنه رأى فيه بعين رأسه صورة طريق الحديد بقضبان ممتدة و عليها حوافل ذات عجلات لكنها بدون مزجية أعنى الآلة الجارة، كما رأى فيه صورة السلوك الكهربائي يعنى صورة أعمدة عليها سلك ممتد منتهى إلى آله، و رأى صورة سفينة ذات عجلات و صاعد من مدختها صورة الدخان». و سمعت من غيره أنه يوجد في جملة البرابي بيتان عظيمان أحدهما يحتوى على صور جميع الحيوانات، و الآخر على صور جميع المصنوعات و أن منها ما تقدم، و كله نقش في الحجر و رأيت في جغرافية فكرى، ذكر تلك البرابي و احتوائها على النقوش و الصور لكنه لم يذكر خصوص ما تقدم ذكره.

و أما مراسى مصر فأولها الإسكندرية ثم برت سعيد و دمياط و رشيد في البحر

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ٢٤٤

الأبيض، و الإسماعيلية و السويس في الخليج، و مصوع و القصير و سواكن في البحر الأحمر، و زيلع و غيرها في المحيط الشرقى، و أما أهاليها فهم على قسمين:

الأول: أهالي مصر و هم نحو ستة ملايين، بعضهم من ذرية القبط أبناء المصريين القدماء، و بعضهم أبناء العرب الفاتحين، و اختلط نسل من أسلم من القدماء بالثاني و صاروا جميعا مصريين، و تكاثر عددهم في هذا القرن أعنى حيث كانوا في أول دولة محمد على باشا لا يبلغون الأربعة ملايين، و لما امتد فيهم التهذيب و التحفظ على الصحة بتحسين الهواء و العلاج عافاهم الله من مصيبة الوباء و الجدرى اللذين كانا دائمين فيهم، فبلغ عددهم الآن إلى ما ذكرنا.

و القسم الثاني منهم: هم السودان و هم أيضا على قسمين الأول: أهالي النوبة و كانت قاعدتهم سنار و هم من الزنج و ذرية الكوش من العرب، ثم تسلطت عليهم قبيلة الفنج و دخلت في الإسلام و بقيت هي الحاكمة إلى أن افتتحها محمد على سنة ١٢٣٦ هـ و ثاني أقسامها: هو قسم دارفور و عدد سكانه خمسة ملايين، و هم من نوع سودانى يسمى فورو و سميت البلاد بهم و ديانتهم الإسلام، و معهم نوع يسمى المسبعات، و لكثرة اختلاط الجميع بالعرب و دخول قبائل منهم فيهم حتى كانت عائلة الملك عربية صار الجميع يتكلمون بالعربية، و تلخص مما مر أن الأهالي على العموم أكثرهم عرب و اللغة الغالبة و الرسمية عربية، و توجد لغات أخرى سودانية و عدد الجميع بالمضافات ستة عشر مليوناً و الديانة الغالبة هي الإسلام، و توجد النصرانية على مذاهب شتى و منها المختلطة بشيء من شعار اليهود و شيء من شعار الوثنيين، كما يوجد كل من دينك الديانتين و أما صفتهم على العموم: فأهالي المدن الكبيرة يكثر فيهم النبهاء و العارفون بالمصالح العامة المشتركة، و الباقي على الإطلاق هم على السذاجة و الجهل بالمنافع الخاصة فضلا عن المشتركة، و اللون الغالب أسمر أو أسود و أهل السودان و العرب من أصل المصريين شجعان، و أما فلاحو مصر فلما طال عليهم الاستيلاء الإستبدادى ضعفت فيهم الشجاعة بالمرءة و كادوا أن يفقدوا الغيرة كما حكاه المقرئى .

الفصل الرابع: في إجمال تاريخ مصر و ملحقاتها

مطلب في تاريخها القديم

اعلم أن مصر أشهر بقاع العالم بمعرفة أصول تاريخها القديم لكنه في الواقع غير

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ٢٤٥

محرر و لا موثوق به، و قد أظن العلماء الإسلاميون و غيرهم في تواريخ مصر و علومها و تمدنها، فغاية ما نستطيع هنا إنما هو الإلمام

إشارات إلى أنموذج ذلك معرضين عما لبعضهم من المبالغات و الخرافات، و يدعى بعض المتأخرين أن المحقق عندهم في علم مبدأ التاريخ فيها المحقق هو قبل الميلاد بألفى و مائتى سنة، و الحق أنه غير محرر لأن استنادهم في ذلك إنما هو للتوراة التي بين أيديهم و هي كما علمت سابقا غير صحيحة سيما في محل التاريخ، و قد أقر بعض متدينهم بالغلط الفاحش في ذلك المحل سيما فيما يرجع إلى التاريخ العام و أنه مخالف للموجود من الكتابات المنقوشة على الأحجار العتيقة جدا و غيرها من القرائن الواضحة، و تعلق في تصحيح التوراة بأن موسى عليه السلام لم يقصد تاريخا عموما للخليقة و إنما قصد ذكر عمود نسبه، و لا يخفى أن هذا غير معقول إذ كيف يذكر عمود نسبه في تواريخ مخالفة لنفس الأمر لأنه يلزم أن يكون قائلا بأن فلانا مثلا بعد الطوفان بكذا ثم فلان بعده بكذا أو في زمن الملك الفلاني المتسلطن في تاريخ كذا مع أن ذلك الوقت ليس مطابقا لذلك التاريخ فما هو إلا عين الكذب أو الغلط المنزه عنه كلام البارئ تعالى و المعصوم منه الرسول، فلا- محيص عن القول بالتحريف في التوراة التي بين أيديهم، و إذا أضفت إلى ذلك الميزان المعقول في حساب العمران و كمية التناسل من البشر بعد الطوفان و لو على القول بعدم عمومه في سائر الكورة، و نظرت إلى المدّة التي ذكر أن إبراهيم عليه السلام أرسل فيها و ما كان عامرا من الجهات التي لا نزاع أن الطوفان عمها، و هي محل إقامة إبراهيم عليه السلام و قومه، و من كان معاصرا له من الأمم الذين طغوا في البلاد و تجبروا بما لهم من القوة و العدد و العدد و العلوم لا شك أنه يستحيل عندك أنهم كلهم نشأوا في مدّة مائتى سنة من نسل أربعة من ألوذ نوح عليه السلام، و أيضا يستحيل أن تنسى و تندثر معجزة الطوفان الهائلة من عقول أمة في قرنين، إذ يمكن أن يكون بعض من أدركها لم يزل بقيد الحياة فكيف مع ذلك ينسى توحيد الله و يعبد إله غيره، و لا يتأتى ذلك إلا بطول الزمان و نسيان المعجزات و انقراض العلماء و من عاصرهم في مدّة مديدة، و لذلك لا نعتد حينئذ على تعيين أوقات ما نتعرض له من الدول القديمة.

و إنما نقول: أن مصر قبل بعثته موسى عليه السلام كانت قامت فيها دول عظيمة ذات شان و قوة و عمران، و ملوكها يسمون بالفراعنة جمع فرعون و هي عبارة مصرية معناها نور الشمس، و أول من يعرف الآن من فراعنتها هو منتر أو مصرايم، الذي حول مجرى النيل و بنى مدينة منقيس، ثم زادها خلفاؤه بهجة و إتقانا حتى كانت أعظم مدن الدنيا، و اتخذتها الفراعنة تختا لهم و لو بعد انقراض عائلة فرعون المذكور، و في مدّة أحفاد المشار إليه نشأت دول أخرى صغيرة في أراضى مصر و انقسمت على ثلاثة أقسام بقى أحدها تحت العائلة المذكورة، و الآخرين تحت عائلتين آخرين، إلى أن تغلبت على الجميع العائلة الرابعة من الفراعنة و منها فرعون البانى للهرم الكبير الذى بالجيزة و مر ذكره، ثم انقسمت إلى عدة أقسام كان منها العائلة الخامسة، و تولى منها عدة ملوك أحدهم باني الهرم الثانى بالجيزة

صفحة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ٢٤٦

أيضا، و كذلك العائلة السادسة و غيرها إلى الثانية عشر كلهم متفرقون على جهات من مصر، إلى أن قهر الجميع تحت حكم فرعون أوسيرطاسن: أو سيزوستريس، ثالث ملوك العائلة الثانية عشر، و ضم إلى ممالكة بلاد الحبشة و غيرها من السودان و انقضت عائلته بعده بقليل، و غاية ما يعلم أنه تداول مصر بعد ذلك عائلتان و هما الثالثة عشر و الرابعة عشر، و كان حوادثهما ليست مهمة فلم يوجد لهما وقائع شهيرة.

و أما الخامسة عشر و السادسة عشر فلهما أخبار من جهة قوة الملك و الترقى فى الصنائع و المعارف، و فى آخر الأخيرة ابتداء تسلط الملوك الرعاة على مصر و تم استيلاؤهم على قسم عظيم منها أو عليها كلها، لكن بقى للأهلين جهة من أعالي الصعيد ملكوا عليها العائلة السابعة عشر من الفراعنة و لم يكن لها أهمية فى جنب مملكة الرعاة، و هؤلاء الرعاة يغلب على ظن محققى المؤرخين أنهم من العرب اجتازوا إلى مصر و بقوا فيها مدّة طويلة، ذوى شأن و سلطان مهيب قوى و قال بعض الأخباريين أن دخول يوسف إلى مصر كان فى دولة هؤلاء الرعاة، و لما قضى على تلك الدولة بالانقراض كان الذى باشر قهرها فرعون «أموسيس» و انتشأت العائلة الثامنة عشر و لها عدة آثار باقية إلى الآن من المباني و الصور الدالة على قوة الملك و التمدن كالمسلتين الموجودتين بالإسكندرية و

القسطنطينية و كذلك الموجودة برومه، و قال بعض المؤرخين: أن دخول يوسف عليه السلام إنما كان في هاته الدولة و يستدل من الآثار أن عبادة الأصنام تفاحشت في مدة تلك العائلة، ثم استولت العائلة التاسعة عشر من الفراعنة و كان منها فرعون «سيزوستريس» المشهور عند اليونان بذلك الاسم، و امتدت مملكته من نهر الطونة في أوروبا إلى نهر الكنك في الهند، و أنشأ في كل مملكة افتتحها آثارا تدل عليه، و ارتقت مصر في مدته إلى غاية كبرى من المعارف و الغنى، حتى قيل إنه أول من رسم خريطة لصورة ممالكه الواسعة، و زادت ارتقاء و فخرا و انتهت في معارف الطبيعيات و الهندسة و السحر في مدة حفيده فرعون زمن موسى عليه السلام حتى ادعى بملكه و معارفه الألوهية، و كان من قصته ما هو مذكور في القرآن العظيم، و من غريب ما يستحق الذكر أن مؤرخي مصر القدماء لم يذكروا حادثة غرق فرعون و نجاة موسى عليه السلام بيني إسرائيل بانفلاق البحر، مع أنها حادثة كبرى و بناء على إهمالها أنكرها من لا دين له من متمشد في هذا العصر، و أضافوا إلى ذلك في الاستدلال أن قبر فرعون المذكور و اسمه منقوشا الثاني موجود بين قبور الفراعنة في الصعيد بالمكار المعروف بباب الملوك، فلو كان غرق لما كان له قبر و أجاب عن هذا بعض النصارى: بأن وجود القبر لا يدل على وجود المقبور، كما أن وجوده يمكن أن يكون قبل موت فرعون على عادة أسلافه من إحضار قبورهم مضخمة مزخرفة و هو قد هيا ذلك و إن لم يدفن فيه، و يحتمل أن يكون إيجاد القبر تعصبا من المصريين، و عنادا في إخفاء الأمر الذي أحاط بهم دفعا للعار عنهم

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ٢٤٧

في الأجيال المستقبلية، و استدلل المجيب المذكور على أن فرعون موسى هو منقوشا المذكور بأن الذي ولي الملك بعده إبنته و تصرف بالنيابة عنها زوجها لأنه لم يكن له ولد سواها و ابن صغير قاصر، فدل ذلك على حدوث أمر عظيم انقضت به عائلة الملك حتى سلموه إلى امرأة و زوجها مع أن جدهم القريب «سيزوستريس» المار ذكره، قد ترك من الأولاد نحو عشرين فهذا الحادث الذي انقضت به العائلة ليس هو إلا ذلك الغرق لفرعون و ملائه اه.

و لا يخفى أن كلا من الجواب و الاستدلال غير مسلم، أما الجواب فإن وجود القبر الأصل فيه أن يكون فيه مقبوره سيما إذا كانت عليه كتابة إسمه التي بها عرف أنه قبره و تاريخ موته فإنها لا ترسم إلا بعد وضع صاحبه فيه، و احتمال أن المصريين أقاموا ذلك القبر على تلك الكيفية قصدا لإخفاء الواقعة في الأجيال القادمة احتمال بعيد كسابقه لا يؤثر مع الباحث، سيما و واقعة غرق فرعون مع ملائه و نجاة موسى بيني إسرائيل بانفلاق البحر من المعجزات الباهرة التي لا يبقى معها للمصريين عناد بعد مشاهدتها و هلاك ملكهم الذي كانوا يعبدونه، فلا تبقى فيهم بقية يفكرون بها عن الأجيال المستقبلية، و أين هم من هذا مع اقتضاحهم لأنفسهم و لجميع معاصريهم و من هو تحت مملكتهم من الأمم المائلين لما بين الطونة و الكنك، فهم أشغل بأنفسهم و الإنقياد إلى الحق أو إلى تدارك أمرهم الدنياوي فقط في الأقل بين أعين الأمم الذين ينظرون إلى هلاك مدعى الألوهية مع أمرائه و وزرائه و جيوشه، فكيف يخطر لهم في تلك الحالة التعمية على أجيال مستقبلية مع أن سائر معاصريهم ينقلون خلاف ذلك.

و أما الاستدلال فهو غير منتج إذ لا يلزم من تولية البنت انقراض عائلة الملك، كيف ذلك و نحن نرى في التاريخ بل و في خصوص تاريخ المصريين عدة نسوة صرن ملكات مع وجود العائلة، بل و لم يزل ذلك جاريا في جهات من الأرض إلى الآن، فلم لا تكون ولاية البنت لأن قاعدتهم كانت وراثته الملك لأكثر أولاد الملك الإناث و الذكور سواء و تصرف زوجها حينئذ نيابة عنها باختيارها لا لانقراض العائلة، و كأنى أرى هاتيكت التمحلات في الجواب مبنية على إهمال علم السند و الرواية، أما لو كانوا يعرفون ذلك و جرت عليه أعمال ديانتهم لما استحقوا لمثل ذلك و لتخلصوا من مهاو مهلكة، مع أن علم السند و الرواية أمر ضروري بل طبعي لأخذ الأخبار الغائبة عن المشاهدة و إذا بنيت عليه الأحكام استقام الأمر و خلص من الغلط و الغش و الكذب، و بناء على اعتبار ذلك فنحن المسلمون نقول: إن الذي نقتطع بوجوده هو غرق فرعون مصر مع ملائه و نجاة موسى عليه السلام بيني إسرائيل بانفلاق البحر معجزة له، أما كون فرعون المذكور إسمه منقوشا أو غيره و كون مدته إلى الآن كم هي فلا علم لنا بها و لا دليل لنا عليها، و ذلك العلم

حصل لنا بالنقل المتواتر في

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ٢٤٨

القرآن من نبينا سيدنا محمد عليه الصلاة الذي ثبتت نبوته و صدقه بالمعجزات المتكاثرة، فإخباره لا شك في صدقه و يوافقنا على ذلك النقل المتواتر من أمه بنى إسرائيل منذ حصول الحادث ممن شاهدها منهم، و هم أمه عديدة يستحيل تواطؤهم على الكذب إلى من بعدهم منهم و من غيرهم نقلا عنهم جيلا بعد جيل على تلك الصفة إلى الآن، و عدم ذكر الواقعة في تواريخ علماء ذلك العصر لا ينفي وقوعها لأن السكوت عن الشيء ليس بنفى له، و هناك حامل على عدم الذكر لأن المؤرخ إنما يكون من علمائهم الذين هم أشد مضادة للديانة، و إذا شاهدوا شيئا مثل ذلك و لم يجدوا وجها للقدح فيه و تخريجه على ما يلائم منهجهم يسكتون عنه على أنه مندمج في زمرة ما نسبوه إلى أعمال القادحين فيه التي ينسبونها إلى نوع من الباطل عنادا أو جهلا و العياذ بالله، و إنى لا أعجب من إنكار ذلك من غير ذوى الديانات من أهل العصر و إنما أعجب من إنكار النصارى و اليهود الآن معجزة لنبينا محمد رسول الله صلى الله عليه و سلم و هى انشقاق القمر مستدلين على إنكارهم بمثل ما استدل عليهم فى إنكار واقعة الغرق من عدم ذكرها فى التواريخ، مع أنهم يجيبون بمثل ما تقدم و نحن نقول:

إن معجزة إنشقاق القمر ثبوتها أبين و أمرها أوضح، و ذلك أنها وقعت ليلا بعد مضى حصة منه لأن القمر كان ليلة البدر أى الرابعة عشر و هو فى كبد السما كما تشير إليه روايات البخارى: «من أن نصفه بقى ظاهرا فوق الجبل و نصفه غاب وراءه، و الروايات و إن اختلف لفظها فهذا مدار معناها، ثم أن الحصة فى انشقاقه لم تطل و عاد لما كان عليه، و لا ريب أن حوادث السماء لا يشتغل بها العموم دائما إلا- إذا حدث العلم من قبل بها فتلفت إليها الأنظار أو تقع بحسب الصدفة سيما الأمر الذى لا يطول زمانه، مثل بعض الشهب المؤثرة للضوء القوى أو غيرها مما لا يطلع عليه إلا أفراد صدفة، و لا يعلم بخبره فى جميع الجهات و الآفاق و إن ذكره بعض الناس، فلا يثبت عند علمائهم المؤرخين لعدم تيقنه عندهم، لعدم ثقتهم بأخبار الأفراد القليلين فلا يكون سكوتهم دليلا على عدم الوجود، على أن وراء ذلك ما هو أوضح، و هو أن الممالك المتمدنة إذ ذاك الحاوية للعلماء المؤرخين الذين يمكن لهم رؤية القمر عند استقامته فى كبد السماء فى مكة المكرمة إنما هم سكان ما بين شطوط المغرب إلى مبادىء جبال هملاى، أما أهالى أوروبا فلم يكونوا إذ ذاك من أهل المعارف و التدوين سوى جهاتها الجنوبية من بقايا الرومان، و أما الصين و شمال آسيا الشرقية فلا يرون القمر إذ ذاك لغروبه عندهم أو قرب غروبه فى ضوء النهار، فهم و إن كانوا إذ ذاك متمدنين و علماء لكن ذلك غير مرئى لديهم، ثم أن الممالك المذكورة التى يمكن لهم رؤية القمر إذ ذاك هم فى أنفسهم مختلفون فى الوقت، فيكون الوقت إذ ذاك عند

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ٢٤٩

الهنود بعد نصف الليل، و عند المغربيين عند غروب الشمس أو ما قارب ذلك فى كل من المكانين، و هاتيك الأقطار ما مضى عليها من وقت انشقاق القمر نيف و عشرون سنة إلا و قد أدخل خالد بن سنان قائد جيش المسلمين فى المغرب قوائم فرسه فى المحيط الغربى، و قال:

«ليس لى وراء هذا ما أفتحه، و قد بلغت فتوح الجيوش الإسلامية فى الشرق إلى بخارى و سمرقند و أفغانستان و سائر تلك الجهات فعلماء هاته الأقطار عند الفتح الذى كان يقرب انشقاق القمر لأن الإنشقاق كان فى السنة الخامسة قبل الهجرة و الفتح، ثم فى مبدأ خلافة سيدنا عثمان كانوا على قسمين: منهم من آمن و هو الأغلب، و منهم من بقى على دينه.

فأما من آمن و ألف فقد روى مثل سائر المسلمين الإنشقاق إما لرؤيته أو لرؤية أحد ممن يثق به من أهل وطنه مع التأييد بالرواية المستفيضة و التواتر القطعى من الصحابة الذين شاهدوا ذلك و علموه و نقلوه بالكلام الذى يتعبدون بتلاوته و لا يرتابون فى حرف منه، و كذلك صار نقل كل من آمن من سائر تلك الأقطار، و لهذا تواتر النقل بغير ذكر سند و اقتصر ذكره على كيفية الوقوع و هو أيضا بالغ مبلغ التواتر مع أن الأصل ثابت بغير احتياج للسند كما فى سائر التواترات، لأنه إذا قال قائل أن الكعبة فى مكة المشرفة فلا

يقال له عمن تروى هذا لأنه قطعى معلوم بالضرورة، و كذلك نقل الإنشقاق لأنه متواتر بالقرآن فى قوله تعالى: اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَ انْشَقَّ الْقَمَرُ [القمر: ١].

و أما القسم الثانى من علماء تلك الأقطار الذين لم يؤمنوا، فإنهم لما تحقق عندهم ما تقدم عند المسلمين فمن ثبت ذلك عنده منهم من قبل لا شك أنه يضرب عن ذكره فى تاريخه لأنه يكون حجة عليه، و هو يتأول فى وقوعه بما تشير له الآية الكريمة فهو حريص على عدم إثباته بالمرء، لكنه لما عارضه النقل القطعى سكت عنه و لم يتعرض له بنفى و لا إثبات، و إلا فما بالهم لم يذكر أحد منهم أن ذلك الزمان قد كان فلان و فلان يرصدون القمر أو السماء و لم يروا ذلك الحادث مع أنهم حريصون على ذكر كل قادم فى الدين، فكان سكوتهم فى الحقيقة هو نفس الإقرار بالوقوع و لا يتخيل مع ما ذكرناه أن مجرد السكوت عنه حجة فى عدم الوقوع و الحال ما ذكرناه، و يتأيد هذا بالممالك التى بقيت لم تفتح و كان فيها بقية من التمدن و هى يمكن منها رؤية الإنشقاق مثل بقية مملكة الرومان الشرقية و الغربية، فإنهم لما تقلص ظلهم فى تلك المدة القريبة بدولة ذلك النبى صلى الله عليه و سلم الذى كان من معجزاته انشقاق القمر و هم على دين النصرانية، و ثبت ذلك عندهم قطعيا ممن فتحوا أقطارهم و علموا أن ذلك الإنشقاق حجة لخصمائهم، فعلى تقدير أن يكونوا رأوه و أثبتوه فى بعض تواريخهم عند وقوعه فلا يبعد أن أضربوا عنه بعد بلوغ قصته إليهم، لكى لا يكون حجة عليهم و لإبعاد إثباته عند من يأتى من قومهم، سيما و الملوك إذ ذاك تحت الإنقياد للقوسوس و كبراء الديانة، فربما أنهم منعوا من ذكره كما يمنعون سائر ما يضر بدياناتهم، فها هنا يأتى مثل هذا التعليل الذى مر ذكره عن بعض النصارى فى شأن غرق فرعون، و هو هنا على نحو ما أوضحناه أبين و أمكن، فلذلك قلنا باشتداد عجبنا من

صفحة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ٢٥٠

إنكارهم له، و لا يقال: لعلمهم أنكره و استندوا إلى عدم ذكره فى التواريخ من حيث وقوع الخلاف فى وقوعه، حتى عند المسلمين، لأن رواية أحاديثه لا تخرج عن الأفراد و الآية المارة، قد قال بعض المفسرين فيها: «إن الفعل الماضى وضع موضع المستقبل تحقيقا لما سيقع، فلا يكون هناك النقل بالتواتر للوقوع بالفعل»؟

و الوجه فى سقوط ذلك بديهى عند من تضلع بالفنون الشرعية و بيانه: أنا قدمنا أن الأحاديث المروية فى الصحاح إنما هى فى بيان الكيفية و الأسباب، أما أصل ثبوت الواقعة فإنه منقول تواترا محققا لأن مدار جميع الروايات البالغة حد التواتر على إثبات الوقوع فليس هى من الأحاد و كذلك صريح القرآن قطعى فيه، و ما ذكره بعض المفسرين ليس هو من كلام أحد من الأمة إذ لا خلاف عندنا فى ذلك، و إنما هو من كلام بعض الملحده و المريدين لإدخال الشبهة كيفما كان الحال على المسلمين، و إن نسب القول بذلك لأحد الأمة فإنما هو من التزوير و البهتان حيث لم يثبت بطريق الرواية الصحيحة عن الثقات نسبة قول ذلك لأحد علماء الأمة، و لذلك لا ترى كل من نقل ذلك من المفسرين إلا و قال أثره و يرده قوله تعالى:

وَ إِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَ يَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ وَ كَذَّبُوا وَ اتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَ كُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقَرٌّ [القمر: ٢ و ٣] الآية فإنه إذا كان المعنى سينشق القمر لا يكون لقوله «يعرضوا» السخ من معنى، لأن ذلك الزمن الآتى ليس فيه من مدع لمعجزة حتى ينسبوا إلى السحر، و أيضا قوله تعالى: «و كذبوا» نص صريح فى تكذيبهم بأن انشقاق القمر معجزة و إنما نسبوه إلى السحر، و قد جاءت قراءة و قد انشق القمر بزيادة التأكيد للماضى، و لهذا نقل الإجماع غير واحد على أن الإنشقاق قد وقع و أنه لا خلاف بين المفسرين فى ذلك، و كذلك الروايات فى الوقوع قد قال الواقدى إنها متواترة بالقطع، و به صرح القاضى عياض و غيره من ممارسى الرواية و الحديث، و قال القاضى عياض أيضا، ما معناه: أن من يدعى عدم التواتر فى ذلك إنما هو الجاهل كمن يغمض بصره و يقول ما لى لا أرى الضوء» و كذلك هذا فإن المعرضين عن الإطلاع على الحديث و السير هم الذين لا يعرفون تواتر الرواية فى ذلك زيادة عما قدمنا من صراحة القرآن فيه و إجماع الأمة على تفسيره بما لا يحتمل تأويلا و لا شبهة، و لم يقل أحد خلافة سوى دسيسه الملحده المذكورة مما لا يروج على عالم، و كان نقل كثير من المفسرين لها للرد عليها هو الذى صير لها ذكرا، و الحق أن كثيرا من المتأخرين الذين فسروا لم يراعوا حق القرآن

فى تنزيه تفسيره عن سفاسف الأقوال مما هو مردود بالبدهة و أصول العقائد و الإجماع كما وقع فى هاته الآيه، مما جعل للقول ذكرا و إن لم يكن له من أساس و لا- سند، و لا- عجب لإلحاد الملحدين و دسائسهم فى المعانى بما استطاعوا، بل أنهم طمعوا حتى فى الألفاظ و أرادوا

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ٢٥١

أن يدخلوا عليها الشك و التحريف مع العلم القطعى بتواتر كل حرف من القرآن فى محله و مرور ألف و ثلاثمائة سنة و عشر سنين عليه، و لم يقع الشك فيه و لا راج التشكيك على أحد من الأمة من عامتها فضلا عن علمائها، و من هذا القبيل ما رأته عند كتبي لهذا المحل فى تأليف جديد للغوى أحمد فارس سماه «بالجاسوس على القاموس» فهو و إن كان فى بابه من جهة اللغة حسن الموضوع، لكن لما كان صاحبه غير متضلع بالعلوم الشرعية اغتر و راج عليه ما يذكر فى بعض كتب أدبية لذوى مجون متمخرين بذكر ما يرونه من الطرف و الطرائف لتقضية الوقت و التزلف لدى جهال الأمراء، حتى قالوا إن بعض كلمات القرآن الكريم وقع فيها التحريف و اختلاف الرواية فى القراءة بسبب عدم وجود الشكل و النقط فى الأحرف العربية فى الزمن القديم، و عدوا من ذلك جملة ألفاظ حتى قال أن منها: أناثا قرىء أوثانا و قضى قرى وصى و ينس قرى يتبين و عباد الرحمن قرىء عند الخ، و لولا- التحامل المقصود لهؤلاء لما صح لهم ذكر ذلك و إلا فأى ذى عقل يقول إن أحرف الكلمات المذكورة يشتهب بعضها ببعض حتى يقرأ على ما ذكر، فمن أين أتت الواو فى أناثا حتى صارت أوثانا و كيف يشتهب القاف بالواو فى وصى، و من أين أتت الألف فى عند حتى صارت عباد، و هذا كاف فى بيان التمشدق. و إلا فالحقيقة أن القراءات السبع كلها متواترة بإجماع أهل الملة و الدين كما نص على ذلك علماء أصول الفقه و أصول الدين و سائر القراء، و إذا قال أحد مدعى العلم فى عصرنا أن التواتر يحصل به العلم العام فما لى لم يحصل لى حتى الظن بذلك فضلا عن العلم؟ فنقول: إن ذلك من الجهل المركب و ذلك لأن المراد بكون التواتر محصلا للعلم إنما هو عند من علم التواتر و عند أهله أى أهل موضوع التواتر لا عند جميع الخلق، و مثاله سهل جدا فإنك إذا سألت أحد أهل السياسة و علماء الجغرافية عن وجود بلد تسمى استكهولم أجابك حالا بأنها موجودة قطعا و أنها تخت مملكة السويد و أنه لا يرتاب فى ذلك مثل ما لا- يرتاب فى وجود نفسه، فإذا أتيت لجمهور علماء الجامع الأزهر و علماء جامع الزيتونة و علماء جامع القرويين و غيرهم من عمد علماء الدين و سألتهم عن تلك البلاد لا تجد عند أحد منهم شعورا بها و لا يجيبك إلا بأنى لا أعلم لهذا الإسم من موضوع، فهل يكون عدم معرفة الجمهور العظيم من علماء الشريعة قادحا فى وجود تلك البلاد أو فى خروجها عن كونها تختا لتلك المملكة بثبوت التواتر لمن لم يشاهدها من أهل العلم بذلك كلاب فكذلك لا يكون جهل جميع الجاهلين قادحا فى وجود التواتر بالقراءات السبع، بل قال جمع من الأصوليين: إن القراءات العشرة متواترة فضلا عن السبع، و إذا كان كذلك فلم يبق محل لدعوى التصحيف أو التحريف فى تلك الكلمات و أشباهها مما ثبتت به القراءة، و إنما جاء ذلك من التشديق الذى لا اعتبار له سوى التسويد فى الكتب لينقل عنه من يرى أن العلم كاف فيه وجوده فى كتاب مسود و سيأتى لهذا الموضوع مزيد بيان فى الخاتمة إن شاء الله تعالى و لنرجع إلى تاريخ مصر فنقول:

إنه من عهد منقطا و إبنته لم يوجد فى التاريخ شىء معتبر من أحوال مصر سوى استيلاء عائلات أخرى للملك إلى أن بلغت إلى العائلة الثانية و العشرين، فكان منها فرعون

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ٢٥٢

«شيشق الأول» الذى حارب ملك الشام و هو ابن سيدنا سليمان عليه السلام و فتح مملكته و بقيت تحت حكمه، و صور فتوحه على هيكل الكرنك و كتب عليه بالنقش بحروفهم مملكة يهوذا فى قبضتى، ثم خرجت عليه الشام و حاربها ابنه و انكسر ثم لم يكن لوقائع مصر من أهمية إلى أن استولت عليها العائلة الخامسة و العشرون، و هى من ملوك الحبشة و أولها فرعون «سباقون» و صارت من هاته العائلة عدة ملوك و حاربوا ملوك آشور التى كانت مملكتهم بين الفرس و الشام و عظمت مملكة مصر فى أيام تلك العائلة حتى

اتحدت بالحيشة و غالب أفريقية و صار فيها تمدن عظيم حسبما دلت عليه الآثار، ثم انقضت الدولة و انقسمت المملكة المصرية إلى اثني عشر قسما ثم اتحدت تحت العائلة السادسة و العشرين و أولها فرعون «أبساميس» و ترقى المملكة في أيامه و كان فيها ابتداء استعمال الحروف الأبجدية في الكتابة عوضا عن الكتابة بالصور التي كانت مستعملة سابقا كل صورة علامة على كلمة، و من مدته ابتداء التثبت في التاريخ المصري و انجلى حاله نوعا ما عما كان من قبل في إثبات الزمن، فكانت ولاية المذكور سنة ٦٦٤ قبل الميلاد، و كان خلط بمعارفهم معارف اليونان و كثرت بينهم الخلطة ثم استولى ابنه و فتح بعض آسيا و منها بابل و أراد وصل النيل بالبحر الأحمر و لم يتمه و خرج عنه أيضا بعض ما فتحه في آسيا كملك الشام، ثم استولى عدة من ذريته إلى أن فتح مصر بخت نصر و قتل فرعونها و أولى عليها أحد أعيانها فخالف عليه فحاربه مملكة فارس و تغلبت على جميع البلاد و صارت مصر ولاية فارسية حدثت فيها عدة ثورات من الأهالي لإنقاذ أنفسهم من الفرس و لم تغن شيئا، و نهاية خروج مصر من يد أهلها كان في حدود سنة ٣٥٨. قبل الميلاد و لم يتولاها أحد منهم إلى الآن بل كانت سائر دولها من المتسلطين من خارج، ثم بقي بعد تلك الثورات استقرار ملك فارس إلى أن ظهر اسكندر المقدوني اليوناني و شرع في الفتوح فافتتح مصر و جعل قاعدتها الإسكندرية كما مر، و كان فتوحه سنة ٣٣٢ قبل الميلاد، ثم استولى عليها بطليموس الأول من اليونان أحد قواد الإسكندر عند اقتسام ممالكة بعد موته و انتشأت الدولة البطلموسية التي تحفظت على ما أمكن لها معرفته من علوم قدماء المصريين و زادت بمعارف اليونان، و قد فتح بطليموس المذكور الشام و جعله ولاية مصرية و أهلكت من اليهود ما أبقاها بخت نصر حتى لم يبق منهم إلا القليل النادر من الرعا، ثم لما تولى ابنه أعتق من وجده منهم و ردهم إلى بيت المقدس مكرمين و هو الذي أمر بترجمة التوراة من سبعين رجلا من اليهود العارفين باللغة اليونانية فترجمها كل منهم بانفراد و قوبلت التراجم مع بعضها و استخراج من الجميع نسخة واحدة و هي المعروفة الآن بالسبعينية، و مع ذلك فهي مخالفة الآن للعبرانية و السامرية و كأن السبعينية أقل تحريفا للإتفاق عليها إذ ذاك، و كان تحت مصر إذ ذاك تونس و طرابلس و كثير من جزيرة العرب و الشام و كثير من جزائر اليونان، ثم تولى بطليموس الثالث و زاد في الفتوح إلى أن دخل أواسط آسيا ثم تولى الرابع و قتل اليهود في سائر ممالكة شرقتة و كان بطشا، و تولى بعده ذريته و لكنهم لم يكن لهم من تقدم أجدادهم سوى إسم الملك أما الأعمال فهي قهريه استبدادية شهوية سنة الله في انقراض الدول، حتى استولت منها امرأة ذات جمال فائق و إسمها كليوباتر فعاثت في البلاد و العباد و ضعف ملكها فقصدها أميراطور الرومان بالحرب و أرسل لها جيشا و لكنها لما اجتمعت

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ٢٥٣

برئيس جيوشه شغفته حبا حتى تزوجها بعد أن كانت تزوجت أخويها واحدا بعد آخر، ثم أقام معها رئيس الجيوش إلى أن أرسل إليه جيش آخر و قتل في المعركة و لما أيست الملكة من النجاة مكنت حية قتاله من ثديها فنهشتها و ماتت و قد رأيت صورتها في عدة أماكن من أوروبا و الحية في ثديها، و كان بذلك انقراض دولة اليونان عن مصر و ابتداء استيلاء الرومان عليها، فلم تزل ولاية رومانية يلقب و إليها بالمقوقس له إطلاق التصرف إلى أن جاءت البعثة و خاطب النبي صلى الله عليه و سلم الملوك بالدعوة إلى الإسلام فكان من الملوك المخاطبين منه عليه الصلاة و السلام المقوقس.

و نص الكتاب الذي بعثه إليه.

بسم الله الرحمن الرحيم من محمد عبد الله و رسوله إلى المقوقس عظيم القبط سلام على من اتبع الهدى أما بعد فإني أدعوك بداعية الإسلام أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين فإن توليت فعليك إثم القبط قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمتي سواء بيننا و بينكم ألا نعبد إلا الله و لا نشرك به شيئا و لا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فإن تولوا فقولوا أشهدوا بأننا مسلمون [آل عمران: ٦٤] اه.

فأجابه بالعربية بما نصه: «بسم الله الرحمن الرحيم لمحمد بن عبد الله من المقوقس عظيم القبط سلام عليك أما بعد فقد قرأت كتابك و فهمت ما ذكرت فيه و ما تدعو إليه و قد علمت أن نبيا قد بقى و كنت أظن أن يخرج من الشام و قد أكرمت رسولك و بعثته إليك بجاريتين لهما مكان من القبط عظيم و كسوة و أهديت إليك بغلة لتركبها و السلام» .

فلم يكن فيه إجابة ولا إنكار وإنما هو يرمى إلى قرب الإجابة.

ثم فتحت مصر في خلافة سيدنا عمر رضى الله عنه سنة ٢٠ هـ على يد عامله سيدنا عمرو بن العاص في جيش عدده ثمانية آلاف، و أمده الخليفة بأربعة من أسود الصحابة قال إن الواحد منهم في مقام ألف، فتلك اثنا عشر ألفا و لن يغلب اثنا عشر ألفا من قلة و تمادى الفتح منها لبقية أفريقية، و حيث كانت أخبارها إلى العائلة المحمدية العلوية مبسوطه في التواريخ لا يمكن استيعابها تقتصر هنا على ذكر الدول و سنيها و ملاحظات في صفتها في جدول خاص.

هذا و أما بقية الملحقات السودانية و هي القسم الجنوبي من النوبة و ما يليه جنوبا من بقية السودان و قاعدة ملكهم تسمى سنار بإسم المملكة، فغاية ما يعلم من أحوالها أنها قبل الهجرة بنحو ٣٧٣٥ سنة كان يسكنها قوم من الزنج لا تعرف أحوالهم، ثم وردت عليهم طائفة الكوش من العرب و حصلت بينهم و بين المصريين وقائع اضطرت المصريين إلى إقامة صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ٢٥٤

قلاع في الحدود و تقلص ظلهم عما كان لهم في النوبة من النفوذ، ثم تسلط أهل سنار العرب على مصر و هم الرعاة ثم خرجت عنهم كما سبق ذكره، ثم دخلت في أهالي سنار و غيرهم الديانة النصرانية في القرن الرابع من الميلاد، ثم في القرن الأول الهجري افتتح العرب هاتيك الجهات و بقيت على الإستقلال بإدارتها سوى التبعية الدينية للخلافة إلى سنة ٨٨٩ هـ، فأقبلت قبيلة تسمى الفنج أو الفون و لا يعرف من أين أتت فتغلبت على تلك الجهات و تملكها و كانت على الديانة الوثنية، ثم أسلمت و صار منها علماء أجله في عدة مدن و ارتحل منها طوائف إلى قواعد الإسلام لأخذ العلوم فبرعت منهم فحول، و كان ملكهم من أقوم ملوك الإسلام إلى أن حدث فيهم التنافر الداخلي و الإنقسام و تماروا فيما بينهم فجعلوا بذلك وسيلة لجارهم في التسلط عليهم، فاغتنمها محمد على باشا فرصة و استولى على جميع سنار بعد استيلائه على النوبة سنة ١٢٣٦ هـ أما شطوط النوبة الشرقية أعنى ما كان منها على البحر الأحمر فإنه كان في أغلب الأوقات تابعا لمصر حتى بعد الفتح الإسلامى، و عندما افتتحت الدولة العثمانية مصر بقيت هاته الجهة تحت إدارة خاصة بها تابعة للدولة إلى سنة ١٢٤٣ هـ ففوضت إدارتها إلى محمد على و جعلت جزءا من الممالك المصرية و ألحقت بها أيضا بلدة أنصبا و ملحقاتها التي كانت تابعة للحبشة فاستولت عليها مصر شيئا فشيئا، و أما دارفور فغاية ما علمت من تاريخها أنها كانت من الممالك الإسلامية القديمة و أهلها من أخلاط السودان و العرب، و آخر عائلة من ملوكها عربية سودانية يسمى أولهم السلطان عبد الرحمن توفى سنة ١٢١٨ هـ و انتقل الملك في أبنائه إلى أن تغلب على المملكة إسماعيل باشا سنة ١٢٩١ هـ.

و أما زيلع و غيرها من بقية جهات السودان على شطوط أفريقية الشرقية، فحاصل ما بلغت إليه أنهم قوم من العرب اجتازوا إلى هناك من قبل الإسلام، ثم أسلموا في صدر الإسلام و لما استولت الدولة العثمانية على اليمن و غيره من جزيرة العرب و أفريقية دخلت تلك الممالك أيضا طوعا في طاعة الدولة، و لم تزل مجرية لهم عوائدهم و لها الحكم السياسى، إلى أن ألحقت ذلك بمصر بمقتضى فرمان منحه إلى إسماعيل باشا و ورثته و ذلك سنة ١٢٩٢ هـ.

و أما بلاد النوبة فكانت قديما مشموله بما ذكرناه في سنار إلى أن استقر الإسلام بمصر فبقى أهل النوبة على الشرك، حتى أنه في زمن المأمون لما قدم إلى مصر اشتكى إليه ملك النوبة من عامل أسوان و أهلها بأنهم ملكوا أراضي في بلاده بالشراء من أناس و الحال أنهم أى البائعين عبيده، فأحال فصلهم على قاضى أسوان و لم يقر البائعون بالرق فضغن عليهم ملك النوبة و بطش بهم، ثم صار التعدى متواليا من النوبيين على أهالى مصر و كلما

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ٢٥٥

أغاروا وجه لهم حاكم مصر رادعا ليدعون ثم يعودون إلى زمن صلاح الدين بن أيوب، فالتجأ إليه ابن أخ ملك النوبة مستنصرا على عمه فأعانه و أولاه ملك النوبة و ضرب عليه خراجا و ألحق بمصر نحو الربع من النوبة، ثم لما ملكت الدولة العثمانية استقلت النوبة و كانت حدودها عند مصر مأوى للأمرء أصحاب الفتن، فيلجئون إليها إلى أن استولى محمد على فاستولى على جميع النوبة و غيرها، و

صار أغلب أهلها مسلمين و دونك جدول حكومات مصر منذ الفتح الإسلامي:

جدول حكومات مصر

التاريخ من / أسماء الحكومات / ملاحظات

الهجرة ٢٠ / سيدنا عمرو بن العاص و خلفاؤه / عمال للخليفة من الخلفاء الراشدين ثم الأمويين ثم العباسيين

٢٦٤ / أحمد بن طولون و ذريته / سلطان مستقل بالإدارة خاضع إلى الخليفة العباسي تدينا

٢٩٢ / عمال العباسيين / مثل سائر العمال

٢٩٣ / الدولة الأخشيدية و منها كافور الأخشيدى / سلطان مستقل يدين بالتبعية للخلافة العباسية

٣٥٨ / الدولة الفاطمية أولها المعز بن المهدي / خلافة مستقلة على مصر و سائر المغرب

٥٦٧ / الدولة الأيوبية و أولهم استقلالاً صلاح مستقلين و تملكوا الشام و غيره و صلاح الدين و آخرهم شجرة الدر / الدين هو فاتح

بيت المقدس من أيدي الإفرنج و صاحب الوقائع الشهيرة في حرب الصليب و في مدتهم انتقل الخليفة العباسي إلى مصر سنة ٦٥٩ و

هو صوري فقط

٧٨٤ / دولة الجراكسة أولهم المعز أيبك زوج شجرة الدر المذكورة / مستقلين خاضعين لخليفة عباسي بالإسم شجرة الدر المذكورة

٩٢٢ / الدولة العثمانية و عمالها و منهم المماليك / عمال لآل عثمان لهم إدارة مختارة فوضى ١٢١٣ / الفرنسيون / تغلب نابليون الأول

و بقي إلى أن أخرج بسيف الدولة العثمانية و إعانة الإنكليز.

صفحة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ٢٥٦

مطلب في تاريخ مصر الجديد

لما استولى الفرنسيين على مصر و كان قاصداً التوصل من هناك إلى إفتكاك الهند من الإنكليز لما كان بينهم من الحروب و العداوة بل و كانت سائر أوربا إذ ذاك ضداً للفرنساويين حسبما تقدم ذلك في محله، فحينئذ عاضدت إنكلاتيره الدولة العثمانية على حرب فرنسا و أخرجاها من مصر سنة ١٢١٦ هـ و بعد استقرار أمرها للدولة استولى إمارتها محمد علي باشا الذي أصله من الأرنؤوط و قدم عسكرياً مع عساكر الترك لأخذ مصر من الفرنسيين، و كان كامل الأوصاف للرياسة فتقدم إليها بنفسه على بنى جنسه و إنقاد له الجميع و قررت ولايته الدولة على دفع خراج معلوم سنويا و ذلك سنة ١٢١٩ هـ فوجد مصر في نهاية درجة الفقر و البربرية و الجهل بل حتى أن الأمراض الوبائية من الطاعون قد تمكنت فيها و صارت عادية تفنى من الناس سنويا خلقا كثيراً حتى قل العمران و لم يبق من مآثر تقدم المصريين سوى الإسم في التواريخ، نعم وجد للعلوم الشرعية بقاء آثار في الجامع الأزهر من العلماء، و ذلك كله لما مر عليها من تقلبات الدهر و الظلم و الجور و الإستبداد و الحروب في الأيام الخالية، فشمّر عن ساعد الجد و وافقه البخت و فتح لمصر عصراً جديداً، فنظم فيها جيشاً نظامياً من أهلها و رتب الأداة على الأهالي على قانون غير مجحف، و ألزمهم بتعمير الأرض و فتح الترع و أنشأ المدارس العلمية للعلوم الرياضية و الحرية، و أحضر المعلمين من أوروبا، و أحيا المارستانات و ألزم الأهالي بالنظافة و توسيع الطرقات و البنات و أرسل التلامذة إلى أوروبا لتعلم الفنون و أحيا نمو العلوم الشرعية، و سهل أبواب التجارة و أنشأ معامل السلاح و السفن و ترجمت الكتب النافعة في فنون شتى من لغات شتى إلى العربية، فنشأ في مصر جيل جديد و عصر جديد بسطت فيه طرق العمران و التمدن و القوة في مدة يسيرة، فافتتح النوبة و سنار و استولى على الشام و الحجاز و افتكه من الوهابي، بل امتد بالإستيلاء إلى قرب الآستانة في الأناطولى و خشيت شوكته من عصيانه على الدولة العثمانية، فتعصب الإنكليز إلى الدولة في الظاهر لتوطيد أركانها و فى الباطن خشية من انتشاء دولة إسلامية شابة ذات قوة مثل تلك و مركزها مصر فتخشى أن تمتد من هناك إلى الهند الذى هو روح قوة الإنكليز سيما إذا عاضدته إحدى الدول الأوروبية مثل فرنسا، فلذلك حاربت مع الدولة العثمانية التى هى إذ ذاك

على ضعف شديد من حرب الروسيا و الثورات الداخلية و استقلال اليونان و غير ذلك فقهرها محمد على و لكن لإتمام مقصد إنكلا-تيره لم تسمح للدولة بالإستيلاء التام على مصر، لمراعاة المقاصد المشار إليها أيضا، فكان الأوفق لها إبقاء مصر على شبه استقلال ليضعف كل من الجهتين، و بقي محمد على واليا على مصر على أن تكون الولاية في ذريته من أكبر إلى أكبر و يؤدي خراجا سنويا للدولة و يعينها عند وقوع حرب معها بالعساكر الذين يبلغ عددهم الأربعين ألفا، و كذلك يعينها بالسفن، و أن الرتب العالية في مصر يعين هو أصحابها و توليهم الدولة و السكة و الخطبة تكون بإسم السلطان العثماني و العلم عثمانى أيضا، و خرج الحجاز عنه إلى الدولة و كذلك الشام، و بقي

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ٢٥٧

على ذلك إلى أن ضعف بالسن فتنازل عن الولاية لابنه الأكبر و هو رئيس جيوشه و حروبه إبراهيم باشا سنة ١٢٦٥ هـ و كان على قدم أبيه و توفي تلك السنة فتولى بعده ابن أخيه عباس باشا بن طوسون بن محمد على سنة ١٢٦٥ هـ فأخذ عنفوان التمدن في شىء من الإنحطاط لصرف المداخل في الشهوات، لكنه أحدث شيئا من المنافع كبعض طرق الحديد و السلك الكهربائي و أحكم الصلة مع الدولة العثمانية ثم توفي سنة ١٢٧١ هـ و ولي بعده سعيد بن محمد على فزاد انحطاط التمدن و اتسع خرق الإسراف و منح لجمعية لسبب فرنساوية فتح خليج السويس و كثر الدين على الحكومة ثم توفي سنة ١٢٨٠ هـ و ولي إسماعيل باشا ابن إبراهيم باشا فأعاد عصر التمدن و المعارف و اتسع القوّات البرية و البحرية، و شدد الإلتحام بفرنسا و إنكلا-تيره بما جعله آخذا طريق الإستقلال بالمرّة عن الدولة العثمانية، و صادف أن كان في أيام ولايته حصلت حرب أمريكا المتحدة في بعضها فانقطع منها جلب القطن إلى إنكلا-تيره و اشتد طلبه من مصر، و حصلت فيها ثروة لم تعهد مع امتداد طرق الحديد إلى جهات شتى و إلى السودان ثم تم فتح خليج السويس في مدته، و دعى له ملوك أوروبا فحضر له كثير منهم كأمبراطور أوستريا، و أمبراطورة الفرنسيين زوجة الإمبراطور نابليون الثالث من غير توسط الدولة العثمانية مما زاد الشبهة في دعوى الإستقلال، لكنه كأنه تحقق من زائريه أن المقصد لا يتم له فتغيرت سيرته من وقتئذ و عاد لمصافاة الدولة العثمانية، و قد قدم إليه السلطان عبد العزيز بنفسه إلى مصر و إلى مقره في الآستانة و حصل منه على فرمان امتياز بانحصار الوراثة في خصوص بنيه من أكبرهم إلى ابنه الأكبر و هكذا، و زاد في الخراج للدولة و أخذ منها مملكة زيلع و فتح دارفور و كردفان و غيرها من السودان، و زادت المعارف كلها شعشعة في أيامه، و أنشأ المحاكم المختلطة بمصر لمنع حكم القناسل، و أنشأ مجلس النواب عن الأمة لكنه صوري، و كذلك مجلس الوزراء، إلا- أن الكل تحت أمره وحده، لكن ازداد الدين على الحكومة بكثرة المصاريف الداخلية في إنشاء القصور و غيرها كالترع و الطرق و بكثرة المصاريف للدول لتحصيل مطلوبه منهم مما ذكرناه، و افتقر الأهالي من الظلم و أخذ أموالهم بالضرب و غيره لحد غير معلوم، و مع ذلك لم تقدر الحكومة على الوفاء بفائض الديون الأوروبية و جعلت تزيد في القرض إلى أن توقف المقرضون عنها فتدخلت الدول في حفظ أموال رعاياهم، و أنشأوا وزارة فيها

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ٢٥٨

وزير إنكليزي للمال و وزير فرنساوي للأشغال العامة، و تحرش الوزراء غير الأجبيين حينئذ في عدم الإذعان لمجرد إرادة إسماعيل باشا و تقلب مرارا في تغيير الوزراء فلم يفده، إلى أن ثار الجيش بالإغراء متفقا مع مجلس النواب و أهانوا الوزارة المختلطة كلها بدعوى أنها نقصت من مصاريف الجيش و عدده، لكن المعاملة مع الوزير الفرنسي كانت لينه و هو مغض عنهم حتى كان لسان الحال يدل على أن لفرنسا باطنا نوع اتفاق مع الخديوي يوافق قصده في التباعد من إنكلا-تيره، حتى تفتنت لذلك و أرسلت له رسولا خاصا ليلغيه نصيحة شديدة مآلها أن النافع لذاته هو الرفق بالرعية و الكف عن الإسراف و أن ركونه إلى غيرها لا- يفيد عند تحصص الحق، فأجاب بالتخلص مما رمى به و اشتد حنقه من التداخل الأجنبي إلى أن حصلت تلك الأمور من العساكر، فعزل الخديوي الوزارة فثار غيظ فرنسا و إنكلا-تيره و طلبوا من الخديوي أن ينزل عن الخديوية فأبى و ألحوا إلى أن كادوا أن يباشروه

بالحرب، و كانت الدولة العثمانية إذ ذاك أثر خروجها من حرب روسيا التي قسمت بها كثيرا من ممالك الدولة فأرادت الدولة أولا أن تحمي الخديوى، لكنها لما علمت أن لا مناص من عزله جعلتها كما قيل: «بيدى لا بيد عمر» و حفظا لنا موسها و سلطتها، فعجلت بإرسال أمر بسلك الكهرباء إلى إسماعيل باشا تعلمه بعزله، و أمر آخر إلى ابنه الخديوى الحالى محمد توفيق تأمره بالولاية و تسلم زمام الأمر و ذلك سنة ١٢٩٦ هـ، ثم سافر إسماعيل إلى إيطاليا بحريمه و أبنائه و بقى ساكنا فى نابلى بقصر لحكومة إيطاليا، و تصرف الخديوى توفيق فى مصر بواسطة الوزراء و جعل رئيس الوزارة مصطفى رياض باشا و جعل لكل من إنكلا تيره و فرنسا مراقبا ماليا يحضر مجلس الوزراء و له صوت فيه، بحيث لا يمضى شىء إلا ما وافق عليه المراقبان، و قسمت مداخيل الحكومة على قسمين: أحدهما: لفائض الديون، و قدر تلك الديون نحو ألفى مليون فرنك و مقدار ما عين لفائضها و استهلاك أصلها نحو مائة و ستين مليوناً فرنكا سنويا و الباقي من مداخيل الحكومة يدفع منه خراج الدولة العثمانية و بقيه مصاريف الحكومة، و جرى التصرف للوزارة بدون مجلس النواب مع وعد الخديوى عند ولايته بفتحها و إجراء مقتضاه، إلى أن ظهر للوزارة أن تحدث قانونا فى رتب العسكر، كان من مقتضاه أن أبناء مصر العارفين بالكتابة و القراءة لا يتجاوزون رتبة رئيس الألف أى بين باشى و الذى لا يعرف ذلك لا يستولى إلا رتبة رئيس عشرة، و بقيه الرتب يتولاها الدخيلون فى مصر كالترك و الإفرنج، فامتنع من الإمضاء على القانون فى وزارة الحرب عدة من أمراء الإيالات معلنين بأن ذلك خلاف الإنصاف فسجنهم وزير الحرب فثارت العساكر و أخرجوهم من السجن و أحاطوا بقصر الخديوى طالبين عزل

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ٢٥٩

وزير الحرب فعزل، و حصلت حينئذ طنطنة لاتحاد العساكر و إنصافهم و حياة المصريين، و نشأ فى الأمة حزب يسمى الحزب الوطنى زعيمه فى الكلام رجل يسمى عبد الله نديم فصيح اللسان عارف بطرق الكلام، و كثرت منه الخطب فى المجمع و المواكب و من غيره أيضا فى الحث على الإتحاد و أخذ الأشغال لأبناء الوطن، و كذلك الوظائف و الخروج من وطأة الأجانب الذين اشتد احتقارهم للأهالى و استبدادهم عليهم بالمرتببات الباهظة، حتى أنى لما مرت بمصر كنت أسمع دوى غليان الأهالى من التشكى من كثرة توظيف الأجانب الذين بلغ عددهم نحو ألف و مائتى متوظف يأخذون سنويا نحو أحد عشر مليوناً فرنكا مع اقتدار الأهالى على الوفاء بتلك الوظائف و نقصان مرتبهم عن ذلك بكثير.

ثم بدا للوزارة لزوم التنقيص من عدد العساكر فثار الجند و أحذقوا بقصر الخديوى متسلحين حتى بالمدايع بعد أن أرسلوا إلى نواب الدول بالأمن عليهم و على رعاياهم و الإعلام بمقاصدهم، و كان رئيس ذلك الإتحاد رجل من أهل مصر فى رتبة أمير ألى فصيح اللسان ثبت الجنان إسمه أحمد عرابى، فطلب هو و رؤساء الجيش الاجتماع بالخديوى فلما تيقن الخديوى جد طلبهم بواسطة خطاب قنسل الإنكليز معهم، تلقاهم فأعلموه بأن مطلبهم هو عزل الوزارة و ولاية رئاستها لشريف باشا و جمع مجلس النواب و إجراء قراره حقيقة و أن تكون له الحرية اللازمة لمثله و أنه لا يمس حقوق الأجانب و تعهدات الحكومة معهم، فلم يسع الحال إلا لقبول جميع المطالب و إجراءاتها فعلا، و ازداد عرابى نفوذا و انطلقت الألسن بالحرية فلما اجتمع مجلس النواب ألف قانونه الذى تبتنى عليه أعماله و كان من جملة أنه له الحق فى الإطلاع على حساب الحكومة فى الحال و له رأى فيه، مع أن ذلك من خواص مأمورية المراقبة الفرنساوية الإنكليزية، فامتنعت وزارة شريف باشا من قبول ذلك لما تعلم من تداخل الدولتين فى الامتناع حتى يفضى إلى التداخل فى السياسة فأصر المجلس على طلبه و أظهرت العساكر التعصب إلى المجلس فاستعفى شريف و وزارته و من هنا خرجت الأعمال من القصد الجميل لما يوقعها فى الزوال لأن العاقل ينظر لجميع مقتضيات الحال و نسبة قوة الدول فيتباعد عن موجبات الفساد و لا

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ٢٦٠

تطلب النهايات فى البدايات، كما هو القاعدة الشهيرة القائلة: «من طلب الشىء قبل أوانه عوقب بحرمانه» و ما بالعهد من قدم قد رأوا تداخل الدولتين فى عزل الخديوى السابق حتى تم مرادهم فكيف يفتح لهم باب التداخل و هم بالمرصاد منهم، لكن سبق القدر فلم

يتدبروا و استعجلوا فأصروا على طلبهم ففوض الخديوى انتخاب الوزارة إلى المجلس مع أنه من حقوقه تطييبا لخاطر الأهالى، فاستولى رئاسة الوزارة محمود سامى و استولى وزارة الحرب عرابى و ابتداء أيضا من هنا الإعتراض عليه من العقلاء فى قبول الوزارة، لأن مقامه من الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر يحجب بتلك الولاية و يصير له غرض خاص به من الإرتقاء إلى المناصب العالية، سيما بعد أن رقى من كان معه من رؤساء العساكر إلى رتبة اللواء و قبل هو من الخديوى تلك الرتبة بعد الإلحاح عليه، فوافقت هاته الوزارة رأى المجلس و كانت إذ ذاك ألسن الأهالى و صحفهم بذيئة مطلقه بالقدح فى الأوروبايين و التبجح بما هم عليه مما أسف منه عقلاء المسلمين، فهاجت ضدهم صحف أوروبا جميعا و أشدهم الفرنساويون و الإنكليزيون حتى أبرقت و أرعدت دولتاهم متهددين بالحرب طالبين نفى عرابى و بعضا من رؤساء العسكر الذين رفقوا إلى رتبة اللواء و إرجاع وزارة شريف و دحض مطلب مجلس النواب فى التداخل فى أمر المراقبة، فوقع اضطراب و هيجان ظهرت فيه دعوى على بعض من العساكر الجراكسة بأنهم قصدوا قتل عرابى بإغراآت سرية منها المنسوب إلى طلعت باشا أحد علائق إسماعيل باشا، فنفى أولئك الجراكسة إلى الآستانه و بقوا فيها تحت الحفظ مكرمين فى أحد البنات السلطانية إلى أن رجعوا بعد الحرب الآتى ذكرها، فلما أصرت الدولتان على ذلك أعلن الخديوى بعزل الوزارة فثارت الأهالى و العساكر و ألزموا الخديوى بإرجاع عرابى إلى وزارته، و قدم إذ ذاك مرخص عثمانى و هو المشير درويش باشا و معه عدة رجال لإقرار الراحة فى مصر بالوجه السياسى، لأن الأهالى أيضا أكثروا من التنويه بانتمائهم للدولة العثمانية و وردت منها أفراد على الوجه الخصوصى من قبل لإراحة الأهالى، و كان الخلاف بين عرابى و الخديوى عند قدوم درويش باشا مشتدا حتى ظهر الخبر بأن الأهالى قدموا مضبطة بطلب عزل الخديوى بل جرى الطمع حتى إلى إخراج الخديوية عن عائلة محمد على بالمره، و طلب أن تكون مصر مثل البلغار فى امتيازاتها التى منها اختيار الوالى و أن لا تتداخل فيهم الدولة العثمانية بشىء فى إدارتهم، بل ربما تحرشت صحفهم بأنها لو ترسل عساكر ضدهم فإنهم يقاتلونهم كما يقاتلون سائر الدول، و حينئذ أعلنت كل من فرنسا و إنكلتيره بلزوم إبقاء الخديوى و نفوذه و قطع مضادته

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ٢٦١

بالقوة الجبرية، غير أن فرنسا تطلب أن تكون قوتها و قوة إنكلتيره هى الفعالة و لا تسمح للدولة العثمانية بذلك، و إنكلتيره على ضدها فتطلب مبادرة عساكر الدولة العثمانية لذلك، فرأت الدولة العثمانية أن فصل النزلة يتم بدون احتياج إلى قوة و أرسلت درويش باشا و من معه لذلك، و حصل من قدومه ما أغلظ كثيرا من الأوروبايين لانقياد العساكر المصرية و الأهالى للسلطان و امتثال أمره، و ابتداء السكون و التوافق و الرضى بالحصول شيئا فشيئا لكنه حدث فى إسكندرية التى كانت إذ ذاك مرساها غاصه بأساطيل الدول الأوروبوية حادثه شنيعه، و هى قتال بين المسلمين و النصارى السكان بسبب مشاجرة عادية، فطلب الأوروبايون بذلك و زمروا حتى توجه الخديوى و درويش باشا و عرابى إلى الإسكندرية لإقرار الراحة، و أقر الدول أن الواقعة عادية لا دخل لها فى السياسة. غير أن أصل المسألة من إصرار الدولتين على مطلبهم و امتناع أهالى مصر لا زال على ما كان، و فرنسا أشد إقداما و تهديدا بإعلان الحرب، و طلبت إنكلتيره عقد مؤتمر فى الآستانه لما يجب من العمل فامتنت الدولة العثمانية من التداخل فيه لما لها من حق السيادة وحدها على مصر، فرأت أن ذلك من باب تداخل الدول فى داخلتها لكنهم عقوده و دخلت فيه الدولة العثمانية أخيرا، و بينما هو فى التفاوض كانت العساكر المصرية تصلح فى حصون الإسكندرية حيث أنها خربة و لا استعداد فيها، لأن الدولة العثمانية كانت حجرت على إسماعيل باشا تحصينها عندما أحكم حصن أبو قير جوار الإسكندرية و حصون دمياط و غيرها لما سبقت الإشارة إليه فى أخبار إسماعيل باشا، و لما رأت أساطيل الدولتين ذلك التحصين ادعوا أنه تهديد لهم و طلبوا الإقلاع عنه فأمرت الدولة العثمانية بالكف عن التحصين و ادعى المصريون الإمتثال و ادعى رئيس أسطول الإنكليز عدمه، و طلب دخول عساكره إلى الحصون فتفاهم الخلاف و أطلقت النيران من الاسطول الإنكليزى على الإسكندرية فخربتها فى نحو عشر ساعات و تضررت بعض مدرعاته، و انحازت العساكر المصرية إلى مكان يسمى كفر الدوار و جيشوا هناك و استولت العساكر الإنكليزية على الإسكندرية و بقى الخديوى فيها و انكشف

الغطاء على مخالفة العساكر للخديوى و كان معه درويش باشا المذكور، فرجع إلى الآستانة و بقى مع الخديوى الكاتب الثانى للسلطان.

و اشتد إلحاح إنكلا تيره على الدولة فى إرسال العسكر و لم ترسل الدولة إلى أن وقعت عدّة محاربات بريّة كان النصر فيها للمصرين، و استولت إنكلا تيره على برت سعيد و سائر خليج السويس، و كان أكبر المعسكرات المصرية فى التل الكبير بين القاهرة و الإسماعيلية، و تضايق الإنكليز فى لزوم قوة كبيرة لهم لإتمام قصدهم لأن فرنسا لما فتحت مجلس نوابها لاستشارته فى حرب مصر أنكر ذلك أشد الإنكار فسحبت أسطولها و بقيت على الحيادة و الدولة العثمانية و إن وافقت أخيرا على إرسال عسكرها لكن تشدّد الإنكليز فى جعله تحت أمرهم و أن لا- يتصرف إلا- على نحو إشارتهم و أن يخرج متى ما أمره بالخروج ألزم تأخر إرساله، و كان تصرف العساكر المصرية بغاية الإحترام من الأفعال البربرية سوى ما صدر من

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ٢٦٢

أفراد من العربان و الفلاحين فى جهات قليلة، و بينما الأمر على ذلك و إذا بالدولة العثمانية نشرت إعلانا حسب طلب إنكلا تيره بأن عرابى و كل من انحاز إلى حزبه عصاة فلم يعض على ذلك بضع أيام إلا- و قد انحلت عرى التعصب المصرى و دخلت العساكر الإنكليزية إلى القاهرة راكبة فى الرتل بدون أدنى حرب و لا معارضة، مع أن الجيش المصرى و من انضم إليه من العربان و غيرهم المتجاوزون المائة ألف و الخمسين ألف محارب باتم قوات الاستعداد فتفرقوا جميعا أيدى سبا فى بضع ساعات، و سلم عرابى نفسه أسيرا إلى الإنكليز فرجع الخديوى إلى مصر و أقيم و كيل مدافع إنكليزية عن رؤساء العساكر المصرية و آل الأمر حسب إرادة إنكلا تيره أن حكم بعقاب عرابى، لكن الخديوى عفا عنه لأنه لم يفعل شيئا إلا عن وفاق من يتبع و أبقى له مرتبا للقيام بنفسه و نفى هو و كبراء الرؤساء إلى جزيرة سيلان فى الهند، و ذاك هو التعليل الباطنى مع أن حزبا عظيما من الإنكليز يرون أن جناية أولئك العساكر سياسية لا توجب القتل فلذلك حكم عليهم المجلس الحربى بالقتل لكن الخديوى عفا عنهم و أبدل القتل بالنفى، و لم تزل العساكر الإنكليزية مقيمة بمصر و رجالهم السياسيون هم مرجع الأمر و النهى و الوزارة تحت رئاسة شريف باشا و ناظر الداخلية الذى له كمال النفوذ رياض باشا، و إنكلا تيره بصدد ترتيب حالة جديدة للسيرة السياسية داخلية و خارجية لمصر مع إعلانها بأن مصر تحت سيادة الدولة العثمانية على امتيازاتها المقررة بالفرامانات السلطانية، و أن الترتيب التى هى بصددها لا تمس شيئا من حقوق الدولة و لا معاهدات الدول الأجنبية، و تقلص نفوذ فرنسا فى مصر و لم تزل غير مسلمة رسميا لانكلا تيره بمرادها، و للروسية ميل إلى معاضدة فرنسا هذا ما وقع إلى الآن و هو المحرم سنة ١٣٠٠ هـ و به يعلم صحه ما كنا ذكرناه فى استيلاء فرنسا على تونس و كتبناه سنة ١٢٩٨ هـ و الله يفعل ما يشاء و يختار و له عاقبة الأمور.

مطلب فى السياسة الداخلية المصرية

اعلم أن مصر مملكة عثمانية لها امتيازات خاصة بينها الفرمان الصادر فى ولاية الخديوى محمد توفيق باشا و هذا نصه:
الدستور الأ-كرم المعظم الخديوى الأفخم المحترم نظام العالم و ناظم منازم الأمم مدبر أمور الجمهور بالفكر الثاقب، متم مهام الأنام بالرأى الصائب، ممهد بنیان الدولة و الإقبال، مشيد أركان السعادة و الإجلال، مرتب مراتب الخلافة الكبرى مكمل ناموس السلطنة العظمى، المحفوف بصنوف عواطف الملك الأعلى خديوى مصر الحائز لرتبة الصدارة الجليلة فعلا، و الحامل لنيشاننا الهمايونى المرصع العثمانى و لنيشاننا المرصع المجيدى وزيرى سمير المعالى توفيق باشا أدام الله تعالى إجلاله و ضاعف بالتأييد اقتداره و إقباله، أنه لدى وصول توقيعنا الهمايونى الرفيع يكون معلوما لكم أنه بناء على انفصال إسماعيل باشا خديوى مصر فى اليوم السادس من شهر رجب سنة ١٢٩٦ هـ و حسن

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ٢٦٣

خدمتكم و صداقتكم و استقامتكم لذاتنا الشاهانية و لمنافع دولتنا العلية، و لما هو معلوم لدينا بأن لكم وقوفا و معلومات تامة في خصوص الأحوال المصرية، و أنكم كفؤ لتسوية بعض الأحوال الغير المرضية التي ظهرت بمصر منذ مدة، و لإصلاحها وجهنا إلى عهدتكم الخديوية المصرية المحدودة بالحدود القديمة المعلومه مع الأراضي المنضمة إليها المعطاة إلى إدارة مصر، توفيقا للقاعدة المتحدة بالفرمان العالي الصادر في ١٣ محرم سنة ١٢٨٣ هـ المتضمن توجيه الخديوية المصرية إلى أكبر الأولاد، و حيث أنكم أكبر أولاد الباشا المشار إليه و جهت إلى عهدتكم الخديوية المصرية، و لما كان تزايد عمران الخديوية المصرية و سعادتها و تأمين راحة كافة أهاليها و سكانها و رفاهيتهم هي من المواد المهمة لدينا و من أجمل مرغوبنا و مطلوبنا، و قد ظهر أن بعض أحكام الفرمان العالي الشأن المبني على تسهيل هذه المقاصد الخيرية المبين فيه الإمتيازات الحائزة لها الخديوية المصرية قديما، نشأ منه الأحوال المشككة الحاضرة المعلومه صار تثبيت المواد التي لا يلزم تعديلها من هذه الامتيازات و تأكيدها، و صار تعديل المواد المقتضى تبديلها و تعديلها و إصلاحها فما تقرر إجراؤه الآن هو المواد الآتية و هي: أن كافة واردات الخطة المذكورة يكون تحصيلها و استيفاؤها باسمنا الشاهاني، و حيث أن أهالي مصر أيضا من تبعه دولتنا العلية و الخديوية المصرية ملزومة بإدارة أمور المملكة الملكية و المالية و العديلة بشرط أن لا يقع في حقهم أدنى ظلم و لا تعد في وقت من الأوقات، فخدوي مصر يكون مآذونا بوضع النظمات اللازمة للداخلية المتعلقة بهم و تأسيسها بصورة عادلة، و أيضا يكون مآذونا بعقد و تجديد المشارطات مع مأموري الدول الأجنبية في خصوص الكمرک و التجارة و كافة أمور المملكة الداخلية، لأجل ترقى الحرف و الصنائع و التجارة و اتساعها، و لأجل تسوية المعاملات السائرة التي بين الحكومة و الأجانب أو الأهالي و الأجانب مع أمور ضابطة الأجانب بشرط عدم وقوع خلل في معاهدات دولتنا العلية السياسية و في حقوق متبوعية مصر إليها، و إنما قبل إعلان الخديوية المشارطات التي تعقد مع الأجانب بهذه الصورة يصير تقديمها إلى بابنا العالي و أيضا يكون حائزا للتصرفات الكاملة في أمور المالية لكنه لا يكون مآذونا بعقد استقراض من الآن فصاعدا بوجه من الوجوه، و إنما يكون مآذونا بعقد استقراض بالإتفاق مع المداينين الحاضرين أو وكلائهم الذين يعينون رسميا، و هذا الإستقراض يكون منحصرا في تسوية أحوال المالية الحاضرة و خصوصا بها، و حيث أن الإمتيازات التي أعطيت إلى مصر هي جزء من حقوق دولتنا العلية الطبيعية التي خصت بها الخديوية و أودعت لديها، لا يجوز لأي سبب أو وسيلة ترك هذه الإمتيازات جميعها أو بعضها أو ترك قطعة أرض من الأراضي المصرية إلى الغير مطلقا، و يلزم تأدية مبلغ ٧٥٠ ألف ليرة عثمانية الذي هو الويركو المقرر دفعه في كل سنة في أوانه، كذلك جميع النقود التي تضرب في مصر تكون باسمنا الشاهاني و لا يجوز جمع عساكر زيادة عن ١٨ ألف لأن هذا القدر كاف لمحافظة أمنيته إيالة مصر الداخلية في وقت الصلح، و إنما حيث أن قوة مصر البرية و البحرية هي

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ٢٦٤

مرتبة من أجل دولتنا العلية يجوز أن يزداد مقدار عساكر بالصورة التي تستنسب حالة كون دولتنا العلية محاربة، و تكون رايات العساكر البحرية و البرية و العلامة المميزة لرتب ضباطهم كرايات عساكرنا الشاهانية و نياشينهم، و يباح لخديوي مصر أن يعطي الضباط البرية و البحرية رتبا إلى غاية رتبة أمير الآلاي و الملكية إلى الرتبة الثانية، و لا يرخص لخديوي مصر أن ينشئ سفنا مدرعة إلا بعد الأذن و حصول رخصة صريحة قطعية إليه من دولتنا العلية، و من اللزوم و قايه كافة الشروط السالفة الذكر و الإجتتاب من وقوع حركة تخالفها، و حيث صدرت إرادتنا السنية بإجراء المواد السابق ذكرها قد أصدرنا أمرنا هذا جليل القدر الموشح أعلاه بخطنا الهمايوني، و هو مرسل صحبة افتخار الأعالي و الأعاضم و مختار الأكابر و الأفاحم، على فؤاد بك باشكاتب المابين الهمايوني، و من أعاضم رجال دولتنا العلية الحائز و الحامل للنياشين العثمانية و المجيدية ذات الشأن و الشرف، حرر في تاسع عشر شهر شعبان المعظم سنة ١٢٩٦ هـ من هجرة صاحب العز و الشرف.

و بهذا تعلم أصول الحالة التي عليها حكومة مصر أما كيفية الإدارة فلما قدمناه في التاريخ لا يتيسر لنا التصريح بالحقيقة التي يرسى

عليها الحال لأنها غير مستقرة كما علمت و إنما نقول إنها الآن لها خديوى يتصرف بواسطة الوزراء على نحو القاعدة الأوروبية و ما عدا هذا فهو موقوف إلى الآن و هو سنة ١٣٠٠ هـ، و من العجب أن بقى الحال هكذا على غير استقرار و كل حين يسمع أنهم يريدون أن ينشئوا أساسات للإدارة و لم تظهر للوجود مع شدة التشكى من الأهالى من الحالة الراهنة التى مآلها عدم العلم بمرجع الأمر و عدم تعيين المتصرف رسما و فعلا، فإن القوة الحربية بيد الإنكليز و هم أصحاب النفوذ لكنهم مصرحون بأنهم لا يتصرفون فى الإدارة و أنها راجعة إلى الخديوى و حكومته و هؤلاء أيديهم قصيرة إذ كل شىء مرجعه صاحب القوة لا سيما بعد أن استعفت وزارة شريف باشا، و تولية وزارة نوبار باشا الذى علم أن لا مناص عن مجاراة القوى مع تفاقم الثورة فى السودان التى كانت ابتدأت أو اخر مدة إسماعيل باشا بسبب تعدى المأمورين على رجل منسوب للصلاح يسمى محمد أحمد كان شيخ طريقة و له اتباع، فغارت منهم أتباع طريقة أخرى فأغروا بهم عامل تلك الجهة و هى دارفور فأرسل إليهم بعض اتباعه فخالقوهم و قهروهم و تكرر ذلك، و كلما أرسل إليهم قوة كسروها فحصل لمحمد أحمد شهرة إلى أن ادعى المهديوى و كانت الأعيان و الأمراء من السودان فى حرج من إدارة المصريين، فانضموا إليه بتديبرهم و أموالهم إلى أن استولوا على أغلب السودان المصرى و كسر و المصردة جيوش عظام أحدها: يشمل أزيد من عشرة آلاف قتلوهم عن آخرهم و استولوا على مهماتهم، و فى أثناء ذلك دخل عسكر الإنكليز إلى مصر فأعلنت إنكلاتيره بفصل السودان عن مصر و استقلالهم بأمرهم متعللة بأنهم لا نفع فيهم للحكومة مع ضيق ما لها عن الوفاء بحربهم، و كان ذلك سبب استعفاء وزارة شريف باشا متمسكا بأن ذلك لا يصح بدون أمر الدولة العثمانية المسلم لها السيادة و لضره بمصر أيضا، لكن إنكلاتيره أصرت على رأيها و أولت نوبار باشا و فائدتها من ذلك

صفحة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ٢٦٥

هى تضعيف مصر و استمالة السودان بموافقتهم إليها، لكنهم كانوا أشد عليها مما كانوا مع المصريين فأرسلت إليهم إنكليزيا كان معاشرا لهم يسمى غردون كان متوليا حاكما عاما عليهم مدة إسماعيل باشا، فحاول تسكين ثورتهم فلم يقبلوا منه صرفا و لا عدلا فتحصن ببلد الخرطوم و طلب القوة من دولته، و كانت الوزارة إذ ذاك بيد حزب الحرية فأظهروا من التناقض فى القول و العمل ما يتعجب منه فى إرسال القوة و أمرها بالتقدم تارة و بالتأخر أخرى، إلى أن فتح السودانيون الخرطوم و تم لهم جميع أمر السودان و حصل من مجموع الأمور الحالة الراهنة فى تخضرم الأمور و كثرة التشكى من الإدارة التى هى على غير أساس، فعقدت إنكلاتيره التى زمامها حينئذ بيد حزب المحافظين اتفاقا مع الدولة العثمانية هذا نص تعريبه.

أولا: ترسل كل من الدولة العثمانية و انكلترا مندوبا عاليا إلى مصر.

ثانيا: يتدبر المندوب العالى العثمانى متفقا مع جناب الخديوى أو مع من يعينه هو لهذا الغرض المبين فى الوسائط النافعة لتسكين السودان، و يتفاوض المأموران و الخديوى فى جميع التدبرات التى يمكن بها تعديل الأحوال المصرية عموما و يكون إجراؤها برضاء الجميع.

ثالثا: يباشر المندوبان العاليان و معهما الخديوى إصلاح و ترتيب العساكر المصرية.

رابعا: ينظر المندوبان العاليان مع الخديوى فى جميع فروع الحكومة المصرية و يمكن لهم أن يدخلوا التعديلات التى يرونها لازمة فى كل ما هو داخل فى دائرة الفرامين السلطانية.

خامسا: يقع الإعتراف من طرف السلطنة العثمانية بجميع المعاهدات العمومية الأجنبية التى عقدت مع الحضرة الخديوية و ذلك إذا لم تكن مخالفة للإمتيازات المضمنة فى الفرامين السلطانية.

سادسا: عندما يرى المندوبان العاليان أن هناء الحدود استقر و صارت سيرة الحكومة المصرية مستحسنة و أمرها راسخا، يقدم كل منهما تقريرا إلى دولته لعقد الإتفاق بإخلاء العساكر الإنكليزية البلاد المصرية فى وقت مرضى.

سابعا: يقع إمضاء هاته المعاهدة فى ظرف خمسة عشر يوما، و تكون مبادلتها ممضية فى القسطنطينية. اه.

وقدم المرخصان المشار إليهما في الإتفاق، وعند وصول المرخص العثماني و هو مختار باشا احتفلت به الحكومة أزيد من احتفالها بالمرخص الإنكليزي الذي كان سبق صاحبه، و أما الأهالي فاحتفلوا بالثاني فقط و عند ملاقاتي معه للسلام مع جمع من الأعيان، أنشدته هذين التاريخين أولهما:

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ٢٦٦ إلى الخليفة نهي دام منتصرا قد احتفلنا هنا أرخ بمختاركم و ثانيهما:

بشرى الهنا لعموم أهل المصر إذ إصلاحها أرخ بمختار نجز
و بقي المرخصان بمصر و هما مباشران الآن للنظر في الإصلاح و تأسيس الإدارة على أصول راسخة، فهذا ما وقع إلى تاريخ طبع هذا المحل و هو ربيع الثاني سنة ١٣٠٣ هـ.

مطلب في السياسة الخارجية

الأسباب التي بيناها في إبهام الداخلية هي بعينها جارية في الخارجية و الأمور بيد الإنكليز و جميع الدول مسلمة بذلك إلا فرنسا فمصرحة بالاعتراض، و بمقتضى ما ذكرنا في سلطة فرنسا على تونس يظهر أن رجحان الإنكليز يتم في مصر سيما و هم متخذون طريقتهم في جلب الأهالي إليهم قلبا و قالبا بمراعاتهم لحريرتهم و سائر عوائدهم و أصولهم كما هو دينهم في الممالك التي لهم فيها النفوذ، لكن الأهالي مصرون على الفور لأن التصرف الإنكليزي كان في مصر على صورة لم تعهد من أحد قط، لأنهم في الرسم معلنون بأنهم لا يأخذون مصر و لا يجعلونها تحت حمايتهم و في نفس الأمر القوة بيدهم و لا يصدر شيء إلا عن إرادتهم، إلى أن حصلوا على الإتفاق المار ذكره في المطلب السابق مع الدولة العلية، فحينئذ صار لهم حق المداخلة برضاء صاحب الحق إقناعا للدول، لأن بعضهم و هي ألمانيا أشارت بالتعريض سرا على إنكلتيره بتصريحها بالإستيلاء على مصر و النمسا موافقة لها و إيطاليا كذلك مع مزيد التحام بإنكلتيره في المساعدة، حتى أدخلت عساكرها إلى مرسى مصوع و أعلنت بالإستيلاء عليها لكنها لا تمس حقوق الدولة العثمانية، و هو كلام لا يعقل و لا مفهوم له إلا عدم التصريح بالإستخفاف، و أغرب من ذلك أن الدول أجابوا الدولة العثمانية لما طلبت منهم التداخل مع إيطاليا في خرقها حقوق الدول بأنهم لا يتدخلون حيث صرحت إيطاليا بمراعاة حقوق الدولة.

و أما روسيا فلم تبد ممانعة و لا موافقة و أما فرنسا فكانت ممانعة للإنكليز لكنها منذ رأت الدول الكبيرة موافقة على نحو ما رأيت و قد تكلفوا بأن تكون عليهم جميعا كفالة قرض إلى مصر قدره تسعة ملايين ليرة و مع ذلك كله فإن الإنكليز امتنعوا من الإستيلاء الرسمي أو وضع الحماية كذلك، بل حتى من كفالة القرض المذكور و حدهم لخوفهم من كونهم إذا فعلوا ذلك فتحوا بابا للدول في إضرار بالدولة العثمانية و يرجع ذلك إلى عدم معرفة ما تأخذه كل دولة و يترجح به ميزانها، فربما رجحوا على إنكلتيره، و لذلك مالت إلى ذلك الوجه من التراضي مع صاحب البلاد و كان لها وحدها حق برضاء لعلها تتخلص من إضرار الدول بالدولة العثمانية الآيل عليها بالضرر أيضا، لكن الإساغة إلى الطليان في الإستيلاء على مصوع مع تلك الدعوى التي أقرت الدول بأنها كافية في إقناع الدولة العثمانية هل يبقى معه الدواء الذي أرادته إنكلتيره و هو أن تداخلها لم يكن إلا بالرضى الظاهري،

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ٢٦٧

فإن كل دولة يسوغ لها أن تستولى على بلاد الأخرى و تقول لها إنها لا تمس حقوقها و الكلام وحده سهل، فالحاصل أن السياسة التي وقعت من الدول في مصر و بالخصوص من الإنكليز أمرها عجيب و اختراعها غريب، و لله فيهم علم غيب هم صائرون إليه.

مطلب في بعض صفات و عوائد المصريين

أما أهل مصر الأصلية فهم مختلطون من العرب الفاتحين و أبناء القدماء المعروفين بالقبط و أبناء الروم الذين امتلكوا مصر نحو الستمائة سنة و لون الجميع أسمر إلا قليلا من أبناء الترك و المغاربة و غيرهم من الوافدين إلى هناك، و لهم حسن أخلاق و ظرافة و بشاشة في الخطاب و إذا احتدت نفوس الرعاع للخصام تراهم بذئى اللسان لهم مهارة في أصناف السب، حتى إذا بلغوا إلى حد التضارب قال أحدهما لصاحبه: ما عليهنشى فتسامحا و عادا إلى المصافاة، و من أخلاقهم حب السماع لكنهم اختصوا بكثرة إظهار استحسانه بالتأوه مع رفع الصوت و لا يتحاشى من ذلك حتى بعض أعيانهم، بل أنهم يستأجرون أناسا معدين لذلك لكي يصرخوا بالتأوه حتى تحجب أصواتهم صوت الموسيقى و المغنين و تمضى الحصه كلها هكذا، و من عاداتهم إحضار قراءة القرآن في بيوتهم ليلا للتلاوة بالأنغام و يعطونهم أجورا على ذلك، بل من الغريب أن بعض القبط أيضا يفعلون ذلك، و من عاداتهم في السلام أنه إذا دخل الداخل يقف له جميع الحاضرين فيشير بيده للسلام هاويا بها نحو الأرض و يرفعها إلى رأسه فيجيبونه بنحو ذلك، و لا يقع منهم التقبيل إلا ليد العالم على ظهرها أو القادم من سفر يقبل في كتفيه، و سلامهم مع الأمراء و الكبراء هو بالإشارة أيضا لكنه فيه تعظيم كبير بأن يدخل الداخل قابضا يديه إلى صدره و يقرب خطاه منكسا رأسه معجلا بالخطا حتى إذا لصق بالرئيس هوى إلى الأرض كأنه يريد تقبيل رجله أو ذيل سترته و يمسك الذيل ثم يجعل يده على فيه ثم جبينه، و المتواضع من الكبراء المسلم عليهم يضم ذيله إليه كأنه ممتنع من ذلك و يقول أستغفر الله أستغفر الله و غيرهم لا يفعل ذلك لكن أكثرهم متواضع، و كلهم يقفون للداخل كبيرا كان أو صغيرا إلا الحقير بالمره مع العظيم جدا، و يتكرر الوقوف إلى الداخل مهما تكرر دخوله إلا إذا كان خادما أو صاحب شغل، و أكثر ركوب المصريين على الحمير إلا العرب فالخيل، و توجد في المدن العجالات للركوب على أنواع شتى و سائقوها أسوء أخلاقا من أمثالهم في سائر البلاد و إن كانوا في الجميع غير مستقيمين، و إذا ركب أحد الأعيان عجلته جعل أمامه رجلا يركض و هو لابس لباسا مزركشا و يديه عصا طويلة و هو حافى الرجل و يصيح بالمارين ليستيقظوا للعجلة و ما أصبرهم على الجرى و ما أجراهم، حتى إذا خرجوا من البلاد وقفوا و ذهبت العجلة فإذا رجعت إلى البلاد رجح جاريا أمامها، و المصريون أهل جد و كد في أشغالهم لا يميلون إلى البطالة بل يقبلون على أشغالهم من غير فتور، و يوجد عندهم السؤال الملحون الملحفون حتى أنهم إذا رأوا من أعطى سائلا يكادون أن يسلبوه ثيابه غضبا من الإلحاح بل ربما أضروه في بدنه، فالأصلح بالإنسان أن لا يعطى إلا سرا لمن يعلمه حقيقة محتاجا، إذ

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ٢٦٨

السؤال صار صناعة لتلك الفرقة و لهم رؤساء و عليهم أداء مقدر، و لهم وقائع عجيبة في الغنى و كتمانها فقد ذكر لى ثقة أنه في حدود عشرة السبعين من القرن الثالث عشر، كان أحد الشحاتين مارا في الطريق فسقط منه كيس و كان بمرأى من أحد الضابطه فأيقظه لذلك فلما علم به أنه ضابطى أنكر أن يكون الكيس له، فألح عليه الضابطى و آل الأمر إلى المشاحنة حتى بلغ إلى رئيس الضابطية فأمر الشحات بأخذ كيسه الذى وجد به عدد كثير من الليرات الذهب، فامتنع و أنكر أن يكون له حتى جلده رئيس الضابطية جلدا و جيعا و هو مصر على إنكاره فأطلق سبيله و حملة شيخ الشحاتين و داواه من ضربه و شكر صنعه كل بنى جنسه و أدوا له جميع ما خسره فى الكيس و زيادة، لأنه لم يظهر عليهم أثر الغنى لكى لا يحصل عليهم ضرر و لكى لا تقسى عليهم القلوب، و لهم وقائع كثيرة من هذا القبيل مع أباد و صنوف فى الإلحاح و التضرع تفتت القلوب و لم أر فى البلاد مثلهم قط، و يغلب على الجميع الوسخ فى الثياب و فى البيوت و الديار إلا بعض الأعيان و من نحا النحو الإفرنجى و أكثر ذلك فى الفلاحين و أصحاب القرى، بل أن هؤلاء لا يستحيون من كشف العورة نساء و رجالا.

و أما أهل النوبة و بقية السودان و العرب فقد تقدم فى التاريخ أصلهم، و أما عاداتهم فالسودان و إن كانوا قريبي الطبع من الهمج لكنهم أحذق أنواع السودان و أقربهم للتمدن سيما من خالطوا العرب فكانوا مثلهم، و أما العرب فهم على نحو الصفات التى ذكناها فى عرب تونس و من عادات الجميع أن مبدأ توقيت الساعات عند الغروب فيجعلون إذ ذاك عقارب الساعات فى الساعة الثانية عشرة و هى مبدأ الحساب عندهم و ما يقابلها من الإثنى عشر ليس لها وقت معين، بل هى على حسب ما يصادف و هذا أول رؤيتى لذلك

و عليه عمل جميع الجهات الشرقية.

أما جميع الأقطار التي مر ذكرها كلها فإنها تعدل على الزوال أى الزوال هو الساعة الثانية عشرة و تنتهى إلى نصف الليل، فتبتدىء الساعات الإثنتا عشرة التي هي تمام الأربعة و العشرين ساعة المقسم عليها الليل و النهار، و لا شك أن اعتبار الزوال أصح في التأقيت لأنه لا يختلف عن زمنه سواء طال النهار أو قصر بخلاف الغروب، و ذلك لأن الزوال عبارة عن توسط الشمس في قوس النهار، و خط نصف النهار يقسم جميع أقواس النهار بالسواء، أعنى أقواس طوله و قصره فلا يختلف الزوال عن وقته بخلاف الشروق و الغروب لأن الشمس تنتقل عن محلاتها كل يوم و بذلك يكبر قوس النهار أو يصغر فتجد الغروب دائما أما متقدما عن زمنه بالأمس أو متأخرا عنه حسب سير الشمس في طول النهار و قصره بحيث أنك إذا حررت الحساب تجد من زوال يومك إلى زوال غده أربعة و عشرين ساعة تامة و إذا حررته من الغروب إلى الغروب القادم تجدها أربعة و عشرين ساعة إلا دقائق في أوقات زيادة النهار في القصر أو أربعة و عشرين ساعة و دقائق زائدة في وقت زيادة طوله، لكن كان عدول المشرقين عن التأقيت الذي لا يختلف هو محاذاه الشرع في اعتبار مبدأ اليوم من الغروب و إن لم يكن بينهما تلازم.

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ٢٦٩

مطلب في الأحكام بمصر

الأحكام بها الآن على ثلاثة أنواع:

النوع الأول: الشرعى الإسلامى، و هو فى كل ما يرجع إلى الزواج و الطلاق و الوقف و غيره مما يرجع إلى أحوال الديانة فى المعاملات، و هذا له قضاة و مفتون على المنهاج الشرعى و إن أحدث فيه مصاريف يأخذها القاضى على الدعاوى مع بعض عوائد تجحف بالخصوص مما أوجب التشكى من ذلك، و النوع الثانى: بقية المعاملات بين سائر الأهالى و لها مجالس سياسية، و منها: الضابطة تحكم بحسب قوانين سياسية موافقة للشرع غالبا، و تارة يحكم الحاكم باجتهاده كما فى سائر الأقطار السودانية، و النوع الثالث: المعاملات التى بين الأهالى و الأجانب فلها مجالس مختلطة من سائر الأجانب يحكمون بقانون عقلى ملائم لعادات القطر، و على الإجمال فأهل مصر لهم الحرية الشخصية فيما يرجع إلى الديانة و شعائرها حتى صارت المنكرات جهرا و لا يقدر الأب على منع إبنته من مثل ذلك بالحكم إذا بلغت سنا معلوما، أما بقية الحرية الشخصية و هى أمن الإنسان على نفسه و ماله و عرضه إلا بحق فهذا كأنه موجود فى العموم، لكن إذا أراد الحاكم المخالفة فالحيل ممكنة، و أما الحرية السياسية و هى مشاركة العامة للحكومة فى الرأى فالتحقيق أنه غير موجود و إن كانت الصحف تتكلم فى السياسة لكنها مخصوصة بالسياسة الأجنبية، أما القدح فى تصرفات الحكومة فهو ممنوع نعم لبعض الصحف المستند أصحابها على خصوصيات عينيه القدح فى سيرة بعض أفراد لمنفعة خاصة، و الأمر موقوف على ما يستقر عليه الحال من الترتيب السابق ذكره فى أحوال السياسة.

مطلب فى تجارة مصر

التجارة بابها متسع جدا فى السلع الوطنية و الهندية و السودانية و الأوروبية و أغلب الأوروبية فى يد الأجانب، فأما غيرها فيبد الأهالى و لهم براعة فى الإكتساب و لكنهم قليلوا الأسفار فلا تكاد تجد منهم خارج ممالكهم إلا النادر، و كل من أقام بمصر من الغربا ربح الربح الحسن من التجارة لأن محصولات الأقطار كثيرة فيخرج منها أنواع: كالقمح و الشعير و الفول و التمر و العدس و الذرة و الأرز و السكر، و هو جيد كثيرا و قصبه، و الصمغ و فيه أنواع شتى، و النطرون و الصوف و الأفيون و العصفور و الجلود و الحصر و القطن و هو الغالب و فيه أنواع جيدة و بزره، و كذلك سن الفيل و ريش النعام و المنسوجات الكتانية و غيرها، و هذا كله يصدر منها،

أما الداخل إليها فأهمه الجوخ أى الملف و الحرير و الشاشية و الزرابى على أنواع و الأخشاب للبناء و الوقود و العنبر و النقل كالفزدق و الجوز و الأشربة و البن و الصابون و الدخان و الورق و الشمع و الزجاج و النحاس و غيره من المعادن مصنوع و غير مصنوع، و الفرش الصوفية و غيرها بحيث أن مصر مسابقة لأوروبا فى الغنى بالتجارة و أنواعها مختلفة منها ما هو على النحو الأوروبوى كالتجارة فى الرقاع الدولية و التجارية، و لها مسرح عظيم فى الإسكندرية و كذلك البريد فيها على غاية الإنتظام برا و بحرا خاص صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ٢٧٠

بالحكومة، و تأتى إليها أيضا برد أجنبية بحيث لا يخلو يوم من ورود بريد إليها من الأقطار مع السفن التجارية الكثيرة، و منها ما هو على النحو البربرى من التجارة فى القوافل إلى دواخل السودان و الصحراء و أهمها القوافل السنوية و هى قافلة دارفور و قافلة الحبش و قافلة فزان، و لكل منها عند وروده يوم حافل، و كل منها تأتى بتجارة ما والاها من دواخل أفريقية و لو زاد تسهيل الطرق و الإعتناء بما فى السودان لاستغنت عن الخارج و زادت ثروتها للنهائية، فإن فى السودان كنوزا مكتومة و دونك قيمة قوة التجارة مع الممالك الخارجية لتعلم منه ما يفضل سنويا من المال فى المملكة.

٠٠٠، ٠٠٠، ٣٦٠ قيمة السلع الخارجة فيها

٠٠٠، ٠٠٠، ١٦٠ قيمة السلع الداخلة سنة ١٢٨٩ نحو فرنك

٠٠٠، ٠٠٠، ٢٠٠ الفاضل

فلولا فائض الدين الأجنبى الذى يخرج سنويا إلى أوروبا، حيث كان أغلبه بيد الأجانب، لكان يبقى سنويا فى مصر مائتا مليون فرنكا و لكن مع ذلك أيضا فلا أقل أن يبقى فيها خمسون مليونا كل سنة، هذا فضلا عن حركة التجارة فى داخل المملكة و بين أقسامها.

مطلب فى الصنائع بمصر

عنصر الصنائع منحت بها نسبة لتقدمها و إن كان بها بعض المنسوجات الحريرية و القطنية و غيرها كالفخار و النجارة حتى فى السودان، لكنها متأخرة عما يجب لها، نعم إن الفلاحة من الصعيد إلى نهاية بحر الروم هى فى غاية التقدم، و للفلاحين معرفة جيدة بكيفية رى الأرض حتى بالآلات البخارية الرافعة للماء من النيل و الترع، و بكيفية إثارة الأرض و تعميرها فلهم اليد الطولى فى ذلك، و ترى الفلاح بنسائه و بناته يشتغل آناء الليل و أطراف النهار، و أصحاب الفلاحة من الأعيان لهم منازل فى أراضيهم لمباشرتهم الأعمال و لهم ثروة عظيمة من ذلك، أما أنواع الفلاحة فهى زراعة القمح و الشعير و الفول و العدس و الحمص و الترمس، الذى يتخذ منه الإثنان و الكتان و خس الزيت و السلجم لما فيهما من الزيت، و البرسيم و الجلجلان و البلة و الحلبة و القرطم و هو حب العصفور، و الخشخاش و الخردل و غير ذلك من الخضروات، و الحبوب و القطن على أنواع لذاته و لبزره ليخرج منه الزيت للصابون و التسريح، و كذلك قصب السكر الرفيع، و يزرع أيضا التبغ المستعمل للتدخين و الفول السنارى فى كل من السودان و مصر و هو صالح للأكل، و يستخرج منه زيت جيد لذيذ لا رائحة له و لا طعم و إذا شعل ليس له دخان مثل غيره.

و أما الأشجار فلا- يكثر عندهم إلا- النخل فى جميع الجهات، و الزيتون استنبت لكنه ردىء الزيت، لكنهم لهم حبوب أخرى زيتية كالسمسم و الخروع غنية جدا.

و أما البردقان و الليمون فهو قليل، و الموز كثير غير لذيذ، و عندهم شجر الدوم الشبيه بالنخل و كذلك الأهليلج و يزرعون الزهور الطبية مثل الورد و الياسمين و غيرها و الأشجار الغير المثمرة قليلة كما تقدم تفصيله فى التعريف بمصر.

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ٢٧١

و أيضا قد وجد اعتناء بأنواع من الصنائع سيما التى تمس إليها حاجة الحكومة فتقدم فيها الأهالى كصناعة الأسلحة و البواخر، و توجد معامل للحكومة منها نحو عشرين للسكر متقنة، و معمل آخر لسبك أحرف الطبع و تجليد الكتب و معمل للسلاح و آخر للسفن و

حوض لها و آخر للجوخ و آخر للديغ و آخر للورق و كلها على النحو الأوروبوى المتقن، و يمكن أن تقوم بنفسها من الأهالى حتى فى صنع المدافع و البنادق من الطرز الجديد، و للأهالى أيضا عدة معامل فى صنوف شتى و أما الجهات السودانية فكثير من أراضيها إن كانت صالحة للزراعة لكنهم جاهلون بها، فلا يوجد منها إلا القليل حول المدن و اشتغالهم إنما هو برعى الغنم و الخيل و الإبل و صيد الوحوش النافعة للتجارة كسن الفيل و ريش النعام و جلد الأسد و النمر، و تحصيل الذهب من معدنه الملقى بالطبع كالتبر من سنار و الصحراء و غيرها.

مطلب فى المعارف بمصر

العلوم الشرعية كلها نافقة فى القاهرة و كفى بالجامع الأزهر مدرسة للعلوم عامة، فقد دخلت إليه و وجدته يزار و يموج بالدروس و التلامذة و لهم طريقة حسنة فى سرعة ختم الكتب إقراء بحيث أن كل كتاب لهم فيه مدة معينة لا يسوغ مجاوزتها و لا يخرجون فى التقرير عن الشارح و الحاشية المعينة للقراءة و وجدت عندهم اعتناء فى الإقراء بالحواشى بحيث لا يقرأ كتاب بلا حاشية معينة يتفق عليها الشيخ و الطلبة، و لهم إصطلاح فى الأوقات للعلوم مثلا الصباح كله إلى الزوال للعلوم النقلية كالفقه و الحديث الخ، و المساء للعلوم العقلية كالنحو و البيان الخ، و يقرأ فقه المذاهب الأربعة و للأزهر شيخ هو مثل شيخ الإسلام له النظر على سائر العلماء و توظيفهم و كثير من التلامذة يقيمون بالأزهر فى رواقات خاصة، و تجد صحن المسجد ملآن بالتلامذة المطالعين و الحافظين للمتون و غيرها، و فى كل من الإسكندرية و دمياط و طنطا جوامع حافلة بالعلوم الشرعية، و فى بعض مدن السودان أيضا مثل سنار و هرر كذلك، و من عاداتهم جميعا فى الدروس التطويل حتى يبلغ الدرس إلى ثلاث ساعات و لا أقل من ساعة، و لذلك كان للتلامذة الإطلاق فى هيئة الجلوس بل حتى يتكئون على جنبهم و وجوههم و يأكلون و ينامون و هم فى الدرس.

و أما العلوم الرياضية فلها مدارس عديدة منها للإبتدائيين و منها للإنتهائيين جامعة لتعلم اللغات كالتركية و الفارسية و الإنكليزية و الفرنساوية، و لتعلم الطبيعيات و الفلاحة و الهندسة و الحساب و الجبر و الهيئة و الفلك و الطب و التشريح العلمى و العملى و الكيمياء و تركيب الأدوية و سائر العلوم و معلومهم من الأجانب و الأهالى، و فى المدارس سائر الآلات و الكتب المحتاج إليها و منها ما هو مجانا و منها ما هو بالأجر من التلميذ و منهم المقيم و منهم المتعلم فقط، و كذلك المدارس الحربية و هذا كله خاص بالقاهرة و تليها إسكندرية أما بقية البلدان فلا يوجد بها إلا المدارس الإبتدائية فى بعض مدن، و البقية إنما يوجد بها

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ٢٧٢

مكاتب للقرآن و الخط و بعض من العلوم الشرعية فى بعض من الجوامع، لكن لا توجد بلدة و لو قرية صغيرة بدون مكتب، و قد أخذت هاته المكاتب الإبتدائية فى التحسين حتى شملت تعلم مبادئ الحساب و العبادات و العقائد، و رأيت فى جغرافية فكرى إحصاء فى سنة ١٢٩٢ هـ لأحوال المعارف دونك خلاصته:

تلامذة/ مكاتب و مدارس / معلمين

٩٧٧، ١٤٠ / ٤٨١٧ / ٤٠٤٦

و لا شك أن العدد تزايد من ذلك التاريخ فلا شك أنها فى غنى عظيم بالمعارف و العلوم النهائية الرياضية يكملون تحصيلها فى الممالك الأوروبية، و رأيت من تلامذتهم فى باريس و لندره و جنيف و غيرها، و رأيت فى مصر و بواخرها سائر العاملين و الرؤساء من الأهالى و الأجنيون متوظفون لا للضرورة بل لدواع أخرى، و لهذا وقع التشكى المشار إليه فى مبحث التاريخ، و قد كثرت المطابع و طبعت فيها الكتب بما جعل سائر المسلمين ممنونين لهم، و كذلك كثرت الصحف الخيرية يومية و أسبوعية لكنها فى الحرية على حسب حالة الحكومة.

مطلب في هيئة المساكن

البناء الجديد كله على النحو الأوروبي ظاهرا و باطنا سيما محلات الحكومة و رجالها و أما الأبنية القديمة و المعتادة للأهالي فليست بجميلة الظاهر بل أنه لما كان الطين الذي يبنون به مسودا من أصل لون التراب و لا يضعون فيه الجير إلا قليلا حيث كان غالبا و لا حاجة إليه لقلّة المطر أو انعدامها عندهم، ثم أنهم لا يطولون ظاهر البناء على الطرق و لا يبيضونه فصار منظره بشعا و إن كانوا يتأنقون في الرواشن الخشب بالنقش و الهيئة لكنهم أيضا لا يصبغونه فيكون لونه مكدرًا، و صورة عموم الديار أن يكون فيها دهليز و وسط غير مسقوف يحتوي على بعض بيوت لجلوس الرجال و الضيوف و وضع بعض المرافق و محل لغسل الثياب و الطبخ محجوز للنساء كل ذلك في الطبقة السفلية، ثم باب و درج في الغالب غير حسنة يتوصل منها للطبقة العليا فتجد فيها عدة بيوت أغلبها مائل إلى التريب، و بكل منها طواقي للضوء و النظر و تشمل أيضا كنيفا بالوعته مكشوفة و غالبا تحصل منه رايحة كريهة و غالبا تكون البيوت و الدرج غير مبلطة و يستعوضون عن ذلك بفرش الحصر، و الزرابي في البيوت و يجعلون عليها للجلوس أما مساطب من خشب أو تبن و عليها مقاعد محشوة قطنا و على الأبواب ستارات ليست بأنيقة و إنما هي من منسوجات القطن، و حول المقاعد متكئات يابسـة محشوة تبا و عليها آخر طريفة من القطن، و لا يزيد البناء على طبقتين غالبا.

و أما الأعيان فتكون ديارهم على ذلك النحو لكنها أكبر و أنظم و أنظف و ربما زادت طبقة ثالثة إلى السابعة في القديم، و المفروشات تكون حريرية و صوفية جميلة مع تزيين

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ٢٧٣

البيوت بالمرائيات و الساعات و الأدوات الصدفية و الذهبية و الفضية على حسب الرفاهية، و يكون في الطبقة السفلى التي للرجال دواوين كبرى و في أطرافها دكة من البناء عريضة للجلوس عليها و الجميع مبلط بنحو الرخام و الكذال، و عند الجميع فرش النوم عدة فرش محشوة قطنا أو صوفا خفيفة يوضع بعضها فوق بعض من إثنين إلى ثلاثة توضع ليلا عند النوم و تسوى بالوسادات و اللحف، و تارة يوضع عليها ناموسية ثم يرفع جميع ذلك صباحا و يوضع في خزائن في البيت معدة لذلك و يبقى البيت للجلوس فليس لهم فرش دائمة و لا مكان خاص بالنوم، و خدمتهم من ذلك في تعب كبير و تلك العادة جارية عند جميع المشرقين فيما رأيت من البلدان، لكن من اتخذ تقليد الأوروبيين صارت بيوتهم و ديارهم و مفروشاتهم و نومهم كله على نحو ما ذكرنا في بلاد أوروبا، و مما تعجبت منه في مصر رؤيتي للزرابي مفروشة و غير ذلك مما ذكرناه مما يزيد في الحر مع أن قطرهم حار و كان الأولى به الرخام و الزليز و غير ذلك مما يبرد المكان و يروق هواه، لكني لما تذكرت قاعدة الناس على مذهب أمرائهم زال عني التعجب، و ذلك أن أمراء مصر منذ مدة طويلة و هم من الترك و هؤلاء بلادهم باردة فجزوا في مفروشاتهم على ما اعتادوه في بلادهم و قلدتهم الأهالي و حتى العائلة الخديوية الآن لم تزل ناهجة منهج شاة الترك و إصطلاحهم بحيث لا يشك الرائي أنها قسم من الدولة التركية لما يرى من أسلوب جميع حركاتهم و هيئتهم هذا.

و أما الطرقات فالجديد منها متسع تمر فيه العجلات و القديم في ضيق عظيم لا يكاد يتخلله الهواء و كلها غير مبلطة إلا إسكندرية، لأن المطر قليل النزول عندهم أو مفقود إلا في إسكندرية، و في كل بلد نظارة لنظافة الطرق و التنوير ليلا و لتحسين البلاد على حسب التيسير، إذ لم يزل العمل متماديا في توسيع الطرق و مصيبة ضيق الطريق عامة في سائر بلدان المشرق التي رأيتها، و كان ذلك في الأقاليم الحارة لشدة الحر فإذا ضاق الطريق لا تنزل الشمس إلى الأرض لارتفاع الأبنية فيقل الحر نوعا ما، لكن ذلك مضر بالصحة لصعوبة تخلل الهواء و كثرة الندى و مخالف للشرع أيضا، لأن المشروع في الطرق أن يكون عرض المعتاد منها سبعة أذرع و الطريق العام إثني عشر ذراعا و البطحات التي من المشروع أيضا أن تكون أمام المسجد تكون ستين في ستين كما نص على ذلك في الفقه و السير و صرح به مكتوب الخليفة الثاني سيدنا عمر رضي الله عنه الأمر برسم الكوفة.

و مما ذكره أن لا- تزيد طبقات دورها عن طبقتين، و الوجه في ذلك هو أن الدار إذا اشتملت على أكثر من طبقتين سكن بها أزيد ممن يسكن في طبقتين فتصغر البلد مع أنها بلاد إسلامية منشأة في وجه العدو فالأصلح تكبيرها و أيضا فساد الهواء من كثرة الإجتماع في محل واحد ضيق المساحة إذا كان ذا طبقات كثيرة و أيضا تعب الساكن بكثرة الصعود و أيضا كثرة التعب و الإسراف في مصروف البناء إذا علت الطبقات لأن المصروف في الطبقات العليا أزيد بكثير من الطبقة السفلى لما يحتاج إليه من كثرة العملية و أيضا فيه نوع من الكبرياء و التجبر المنهى عنه شرعا، و على هذا فضيق الطريق قبيح شرعا و عقلا، و حر

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ٢٧٤

الشمس يدفع بما يجعل من المظلات و السقوف كما هو واقع في عدة جهات من مصر في الأسواق، بل و في الطرقات أيضا من سقوف خشبية بعضها محسن و بعضها ليس فيه إلا- دفع إذاية الشمس، و الطرقات في القاهرة ترش بالماء عدة مرار في اليوم حتى يحصل فيها نوع طين، و الطرق الجديدة العامة كلها محصبة الأرض و حوالها الأشجار المظلة، و القليل من الديار بها جنينات و بها ماء النيل جار في القنوات، و الغالب أن يأتي السقاؤن بقرب أو براميل من ماء النيل غير المصفى و يخزن في الديار في جرار كبيرة، و كل دار لها عدد معلوم يأتي لها به السقاء بثمان معين.

مطلب في اللبس بمصر

أما لبس رجال الحكومة العادي و الرسمي فهو على النحو الإفرنجي، غير أن الشارات و العلامات هي تركية صرفه حتى الشاشية و السترة و النياشين هي ذات العثمانية بأسمائها، و أما لبس الرجال فأهل المدن الأعيان يلبسون قميصا و سراويل واسعة يربطونها تحت القميص و يسدلون القميص عليها و هو طويل إلى نحو نصف الساق، و يلبسون عليه صدرية مقفولة الوسط بعقد و فوقها قفطان طويل إلى الكعبين و يدها تصل إلى أصابع اليد و يطبقونه على صدورهم ثم يتحزمون عليه بحزام و يلبسون فوق جميع ذلك جبة طويلة أيضا إلى حد القفطان و مقدمها مفتوح إلى الأسفل و يداها ضيقتان إلى أسفل المرفق، و الجميع من الحرير من منسوجات رقيقة و على رؤسهم شاشية تونسية و عمامة قليلة الطول ملفوفة على نحو العمامة التونسية و هو لباس العلماء، و كبرائهم يزدون فوق الكل جبة واسعة جدا و واسعة الأكمام أيضا، و بعضهم يلبس العباءة عوضا عن الجوخة و القفطان.

و أما الأواسط و بعض التجار فيلبسون القميص من أسفل و فوقه صدرية مثل السابقة و فرملة أي صدرية غير مقفولة و متنان يصل إلى الحزام و سروالا واسعة جدا طويل الألية إلى الأرض أسود اللون و يتحزمون به فوق القميص و عليه حزام، و الجميع من المنسوجات الرقيقة المخيطة و المزينة بخيوط من الحرير حتى تصير كلها مزينة، و في الشتاء يلبسون فوق ذلك كبوطا من الجوخ يصل إلى الركبة، و على رؤوسهم شواشي تركية وحدها أو معها عمامة هندية مطرزة بالحرير.

و أما الأسافل و الخدم فيلبسون من الشكل الأول إلى القفطان و في الأ-كثر يكون من قطن أبيض و عليه بنطلون إفرنجي و شاشية تركية أو تونسية، و الفلاحون و أهل القرى يلبسون قمصا زرقا و عراقية ليس إلا، و لا يلبسون في أرجلهم شيئا. و أما بقية الأصناف فيلبسون الأحذية على أنواع شتى من الأنواع الإفرنجية أو نوع من الحذاء أحمر بلا قدم عال، و من جهة الأصابع يكون مخروطيا منحنيا مخروطه إلى أعلى.

و أما النساء فالصنف الأسفل يقتصر على القميص و لا يتستر في الطريق بل رأيتهن يخدمن في آلات البناء و يناولن الحجر و الطين و غير ذلك مثل الرجال و هن مشوهات الوجوه.

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ٢٧٥

و أما الأواسط و الأعلى فبعضهن صرن يلبسن مثل نساء الإفرنج نساء سواء، غير أنهن إذا خرجن في الطريق يلبسن رداء من حرير و يتنقين بصفيق من الحرير أو القطن على أنوفهن فما دونها و في الحقيقة وجههن كله مكشوف، و إذا ركن في العجلات تكون طواقيها

مفتوحة غير أنهم يسدلن ستاراتها نحو النصف من الطاقة، و البعض الآخر الذى لم يزل على العادة القديمة فيلبسن على القميص فرملة مزركشة بالفضة و عليها عباءة رقيقة، و على رؤسهن نحو طاسة من ذهب أو فضة أو نسج رفيع و كل ثيابهن يصل إلى الكعب، و إذا خرجن التحفن فى رداء ثخين و على وجوههن نقاب ثخين و يجعلن على الأنف شيئا مثل الأصبع ممسوكا فى النقاب ليعبد النقاب عن الأعين و الأنف للنظر و التنفس، و النساء لهن صولة على الرجال فى البيوت.

مطلب فى الأكل بمصر

أما الخبز فالعام عند الجميع هو نوع مستدير فى ارتفاع إصبع قليل النضج قطره أزيد من شبر، و يوجد بقيه أنواع الخبز الإفرنجى، و أما الأطعمة فلها أنواع عديدة و الغالب فى الأسواق نوع من الفول مطبوخ فى الماء و عليه شىء من السمن، و كذلك نوع من السمك مقدد عفن الرائحة، و سائر طعامهم فيه الأدام بكثرة و أدامهم السمن، و أما الزيت فلا استعمال له إلا فى السلاطة و زيتهم ردىء لأنه مجلوب من أكريد و الشام، و كل لا يحسنون عصر الزيتون و الحسن عندهم هو المجلوب من إيطاليا و لا يستعمل إلا فيما ذكرناه، كما أنهم لا يأكلون من النعم إلا الغنم و لحم البقر لا يأكله إلا الفقراء و هو معيب كما أنه فى نفسه ردىء و الإفرنج يأكلونه، و الفقراء يأكلون الجاموس و الإبل و فى القرى و العرب و السودان يكثر أكل الإبل، و كذلك الذرة و الدخن أى الدرغ أما هيئة الأكل فهى على نحو الأنواع التى ذكرناها فى تونس، و أما وقته فهم يأكلون مرتين غالبا إحداهما صباحا بعد الشروق و يخرجون إلى أشغالهم ثم يعودون إلى ديارهم قرب الغروب فيتعشون.

مطلب فى الموابك

أما الموابك الرسمية فهى فى العيدين، أى الفطر و الأضحى، فيجلس الخديوى فى إيوان كبير بقصره بعد الإعلان من قبل بوقت المعايدة و يكون لابسا لباسه المزركش الرسمى متقلدا بنياشينه، فيدخل عليه رجال دولته و العلماء الأعيان واحدا أثر الآخر مسلمين عليه بتقبيل ذيله، و يقف هو للكبراء ثم ينصرفون، و يكثر تراور الناس فيما بينهم، و أما الأعراس و الختان فيحتفلون لها بزينة الدار، و يدعون طباخين معدين لذلك فىأتى الطباخ بسائر أدوات الطعام و الموائد و المناديل و الخدمة و يطبخ كفاية كل المدعويين الذين يعين لهم الوقت للدعوة من بعد الظهر إلى قرب الغروب، و مهما حضر إثنان أو أزيد أدخلوا إلى بيت كبير و تقدم لهم مائدة على قدرهم فيها أنواع شتى من الطعام المطبوخ و الحلو و يكثر من الأصناف إلى نحو العشرين لونا و المترفون يزيدون إلى نحو الأربعين لونا و هكذا الكل

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ٢٧٦

جماعة بحيث يأكلون أكل شبع، و لا يوضع أناء يظهر عليه أنه به أثر أكل سابق و عادة تكثير الطعام موجودة حتى للضيوف بل حتى فى الأكل العادى يوميا، بحيث أن أواسط الناس لا يكون فى مائدتهم أقل من ستة ألوان فطورا و عشاء، و لهم عادة التطوف بالمختون على نحو ما ذكرنا فى تونس، بل و يزيدون بالتطوف به ليلا و الشموع و المنائر موقودة و المغنون رافعون أصواتهم بالشعر و المدايح، و كذلك الأعراس يطوفون بالعروسة و معها الموكب و الطبول و المزامير تعزف، و لهم أيام لبعض المنتسبين للصالحين يخرجون فيها تلامذتهم بالألبسة الرفيعة و الأعلام و المباخر و غيرها و ينطح بعض الناس على الأرض فى الطريق و يأتى شيخهم راكبا فرسه و يمر فوق أولئك الملقون و لا يضرهم بوطىء أرجل فرسه يدعون ذلك كرامة، و أعظم الموابك يوم خروج ركب الحاج و كسوة الكعبة فيحضره الخديوى و العساكر و خلائق لا تحصى و تحمل الكسوة فى محمل على جمل مزين و يحاذيها الخديوى و كبار الدولة، بل قد فعل ذلك أمراء الإنكليز مع الخديوى بغاية التوقير و المدافع تطلق إلى أن يخرج الركب عن البلاد و ينزل هناك حتى يجتمع

المسافرون، و يتوجه برا إلى الحجاز و يحمل ذلك الركب أيضا أموالا عديدة لمرتبات و عوائد لأهل الحرمين مع صدقات و محصول وقف الحرمين، و من المواكب مولد السيد البدوى فى بلد طنطا و يعقد فيها سوق عظيم تأوى إليه التجار من سائر أطراف القطر المصرى و لهم حكايات فى كراماته رضى الله عنه فى نفاق السلع لكل قادم، غير أن ذلك السوق يشمل من منكرات الزنى ما يستقبح ذكره و شهرته.

و أما الجنائز عندهم ففيها من عادات الجاهلية أمر فظيع جدا، و ذلك أنه إذا مات الميت تأتى النائحات الصايحات و تبقى تنوح أسابيع ليلا و نهارا بما يزعج أهل الحارة، بحيث أنى سئمت المكث بدار صديقى فى الإسكندرية لموت جار له و لم أستطع النوم ليلا و لا نهارا، و أقبح من ذلك أن النائحات و النسوة يخرجن مع الجنازة فى الطريق إلى أن تدفن و يرجعن هكذا نايحات، و الغريب أن ذلك يقع و لو فى محلات العلماء مع أنه منكر شرعا و فيه وعيد شديد و كذلك إنكاره عقلا و عادة، و لهم إتباع للسنة عند دفن الميت فيطلب قائل الشهادة فيه من الحاضرين فيشهدون فيه بالخير عملا بحديث «من أثبتتم عليه شرا و جبت له النار و من أثبتتم عليه خيرا و جبت له الجنة» أو كما قال صلى الله عليه و سلم.

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ٢٧٧

مطلب فى اللغة بمصر

اللغة هى العربية و لو فى السودان، غير أن بعض جهاته لهم لغات أخرى بربرية لكن اللغة العربية حرفت هناك كثيرا سواء فى تغيير الحروف أو فى ذات الكلمات فإن الجيم لا يكادون ينطقون به و كذلك الذال يبدلونها زايا إلى غير ذلك، و إذا سألك أحد عما تريد قال (تعوزايه) و أشباه ذلك، بل أن ذلك جرى حتى عند بعض أصحاب الصحف فيكتبون كتابة مختلطة بين أصل العربية و الاعتيادية مع أن الأصل فى الكتابة هو الرجوع إلى حقيقة العربية و هو الجارى عند العلماء و الكتاب، نعم إن الكتاب الرسميين صاروا يستعملون بعض ألفاظ إصطلاحية أو فرنساوية، و كذلك نفس إصطلاح الكتابة كاد بعضهم أن يخرجهم عن الإصطلاح و الأسلوب العربى، غير أن هذا ليس بعام بل المهرة تسحر الأبواب بلاغتهم فى الصحف و غيرها من المكاتبات، و مع ما ذكرنا من صعوبة النطق عندهم ببعض الحروف تجدهم أتقن خلق الله أداء لقراءة القرآن و تجويده و لهم نحلة فيه تخشع لها القلوب، و ذلك فضل الله يؤتية من يشاء.

مطلب فى الإحصائيات بمصر

٠٠٠، ٠٠٠، ٠٥	عدد أهالى مصر
٠٠٠، ٠٠٠، ٠٥	عدد أهالى دارفور
٠٠٠، ٠٠٠، ٠٦	عدد أهالى النوبة و زيلع و غيرها
٠٠٠، ٠٠٠، ١٦	المجموع
٠١١٠٠	طول سلك الحديد أميال
١١٤٧٢	طول أسلاك التلغراف أميال
٠٠٠، ٠٠٠، ١٦٠	قيمة التجارة الداخلة فرنك
٠٠٠، ٠٠٠، ٣٦٠	الخارجة
٠٠٠، ٠٠٠، ٢٤٣	دخل الحكومة فرنكا

و كان دخلها في ولاية سيدنا عمرو بن العاص من خصوص الدخل الشرعى مائة و ثمانين مليوناً فرنكاً خصص منها الثلث لتكثير الترع و الزراعة حتى أوصل ترعة تسير فيها السفن من الفسطاط إلى مراسى الحجاز.

٢١٦،٠٠٠،٠٠٠ خرجها

٢،٠٠٠،٠٠٠،٠٠٠ الدين الذى عليها ألفاً مليون فرنكاً

٠١٦٢،٠٠٠،٠٠٠ فائضه

٠٠١٧،٦٠٠،٠٠٠ خراج الدولة العثمانية

٠٠٠،٠١٨،٠٠٠ عدد العساكر وقت السلم

٠١٣،٠٠٠،٠٠٠ عدد السفن ليس منها مدرعة و هذا عدا بواخر البريد و النهر.

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ٢٧٨

الباب التاسع فى الحجاز

الفصل الأول: فى سفرى إليه

بعد أن أقيمت فى السويس بعض أيام منتظراً لسفر باخرة إلى جدة وجدت عدة بواخر أجنبية و مصرية فأثرت المصرية و كان رئيسها مسلماً و سائر متوظفيها أيضاً مسلمون، و لا يركب أحداً إلا بعد أخذ إذن مرسوم على ورقة جوازه من محافظ البلدة و يؤدي على ذلك أداء نسيت قدره و أظنه نحو سبعة فرنكات، و عند ركوبى فى الباخرة وجدت الإزدحام من الركاب و المشيعين فوق الحد، فالترمت أن أضرم إلى أتباعى و رحلى إلى استقرار الحال فى السفر و جلسنا فى حجرتى بالطبقة الأولى لأن بيتها صغيرة ليس بها إلا حجرتان إحداهما سكنها أحد المصريين بعياله و الأخرى سكنتها أنا، و رأيت من ازدحام الركاب و تراكمهم على بعضهم مع الوسخ و سوء الحالة و عدم احترامهم للطبقة الأولى و كثرة السكان على سطحها من النساء و الرجال بحيث لا يجد الإنسان محلاً فسيحاً يرتاح به ما أسفت منه على الركوب هناك، و لكنى تسليت بما رأيت من انشراح جميع الركاب و عدم إكترائهم بما هم فيه من المشقة و الكدر، كما تسليت برفقة الحال منى محل البنوة أحمد ظافر النجيب النسيب، و بحسن أخلاق رئيس الباخرة و الركاب على السطح من الطبقة الأولى و هم من أعيان قرى المصريين و عربانها و بعضهم له إطلاع على مسائل الفقه، و كان أيضاً راكباً معنا ناظر بواخر البوسطة الخديوية فى الحجاز و هو محمد موسى لطفى رتبته العسكرية بين باشى، و هو كامل الأخلاق و المعارف و له مشاركة حسنة فى العقائد و الفقه و العربية مع محافظته على شعائر الدين من الصلاة و غيرها، و له إطلاع كامل على أحوال فن البحر لأنه كان رئيساً للباخرة التى نحن بها المسماة بالزقازيق، و رأيته يشير على رئيسها بعدة أمور و هو ينقاد إليه، و له إطلاع أيضاً على الجغرافيه و العلوم الرياضيه و بعض الألسن مع تفضن للأحوال السياسيه، فأنستنى رفقته مع بقيه الركاب و كثيرا ما يقضى الوقت فى مداعبات مع بعض العربان الموسومين بالشح، و كنت أجد الباخرة كأنها بلد إسلامى بإقامة الأذان فى الأوقات كلها و الصلاة جماعة فى عدة جهات، لكن الكثير لم يصل و لا يستطيع الصلاة سيما عند إضطراب البحر و إن كان لم يقع منه شىء شديد، لكن حصل فى الباخرة تعفن الرائحة سيما فى اليوم الأخير لأن أكثر

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ٢٧٩

الركاب لا يغسل يديه من الطعام مع كثرة إدامه فضلاً عن غير ذلك، حتى كانت بيت الطبقة الأولى عفته لإزدحام خدمه سكانها و كثرة أكلهم المؤدم و عدم توقيهم الوسخ، لكنهم يقضون أغلب الأوقات بالتلاوة الحسنه أو إنشاد الشعر، و قد وجدوا عند تفقدهم الركاب و أوراق ركوبهم أن أحدهم ركب فى الإزدحام بدون أداء الكراء و هو فقير و أحجمت أصحابه عن الأداء عليه، فسجن فى

سجن الباخرة و بعد عدة ساعات انتدب أحد أصحاب الخير إلى أن دعا رفيقا لذلك المسجون خيرا و أذنه بالتطوف على جميع الركاب البالغين ستمائة شخص و إعلامهم بحالة رفيقه و طلب إعانتهم له في أجر الركوب فحصل له مقدار ذلك و زيادة، و عند حضور المال أحضر المسجون و أطلقه نائب البوسطة محمد لطفى المشار إليه مجانا و دفعت له الدراهم و الدنانير المجتمعة له ليستعين بها في حجه، و رأيت من بعض الأغنياء الشح المطاع في هاته الواقعة و من بعضهم الإقتصاد و من بعضهم الكرم، و لما بلغنا سمت رابع أعلم الرئيس الحجاج بذلك ليحرموا، فاعتسلوا و أحرموا بنزع ثيابهم و الله أعلم بكيفية غسلهم و أدائهم فرض الإحرام، لأن حالة الضيق و الوسخ فوق ما أقدر أن أعبر عنه و لا يعلم مقدار ذلك التعب إلا من شاهده، و أضف إلى ذلك أن الباخرة لا تعطى الأكل و لو لأصحاب الطبقة الأولى فلزم كلا أن يطبخ لنفسه، و أغلب الركاب كان معهم زادهم مما يصبر من الطعام من لحم و غيره، و كنت أخذت زادنا من السويس لحما و دجاجا و خبزا و غيره فكان طبأخي يطبخ لى و لمن معى فى مطبخ الباخرة و فى ذلك من المشقة لمن لم يعتد البحر ما لا يخفى، فكان ذلك من عجيب أمر الباخرة مع أنها بريديئة و ذاك خلاف معهود صفتها، و لما سألت نائب البوسطة عن سبب ذلك قال: إن الركاب إلى جهات البحر الأحمر لا يوجد منهم من يأكل من الباخرة فرأينا ترتيب ذلك عبثا و لهذا تجد بواخر البريد فى البحر الأبيض على نحو غيرها و أما هنا فلا.

ثم عند غروب اليوم الثالث من ركوبنا قل سير الباخرة و أعلمنى الرئيس بذلك لأنها إن دامت فى سيرها نصل إلى جدة ليلا و لا يتيسر الدخول إليها إلا نهارا فكان تقليل السير أولى من الوقوف قربها، و بعد شروق اليوم الرابع، وصلنا إلى جدة فتلقانا دليل المرسى و هو أعرابى لابس قميصا أزرق و على رأسه عمامة حمراء راكب قاربا، فصعد إلى الباخرة و صار يأمر بالسير يمينا و شمالا لكثرة شعاب الحجر المغطاة بالماء حتى دخلنا حوض المرسى، فإذا هو حوض وسيع أمين طبيعى بما حوله من الأحجار الخلفية و فيه عدة بواخر أجنبية و باخرة حربية صغيرة للدولة العثمانية و عدة سفن شراعية صغيرة، و بعد الإرساء و أخذ الإذن فى النزول من مأمورى الصحة و نزول أغلب الركاب، نزلت مع رفقائى و دفعت على كل واحد منا نحو أربعة فرنكات لأخذ ورقة على أن المدفوع لنظافة أماكن الحج، فكان نمره و رقتى ٧٦ ألف و نيف من المئات و الآحاد و نسيت الآن تحرير كل الأعداد، و لقيت أحد مطوفى التونسيين و هو جميل الأخلاق على خلاف غيره فأدينا رحلنا للقمرك و تعسف

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ٢٨٠

المأمورون إلى أن أخذوا عشرة فرنكات، و أقل مكرهم بمن لا يعطيهم تركهم لحوائجه أياما بدعوى كثرة شغلهم فهم من أخس المأمورين و أكثرهم سرقة كما علمت ذلك من التجار و غيرهم، ثم دلنى المطوف على دار اكترت إحدى طبقاتها و أقمت هناك ثلاثة أيام، و جدة بلدة على ساحل البحر هى مرسى الحجاز العظيمة للحجاج و التجارة من سائر الجهات، و سكانها أغلبهم من العرب و الهنود ثم المغاربة و الأفارقة حتى الإفرنج، و لها أسواق رحبية مسقفة و تكنس البلد و ترش يوميا و تنور ليلا بزيت النفط، و بها جوامع حسنة و ماء شربها يؤتى به من بعد فى قرب من مصانع و فساقى، و هواؤها حار جدا ردىء لأن أرضها مسبخة و بها بعض ديار جميلة المنظر لنواب الدول و بعض التجار، و أغلب المباني الكبيرة للكراء فيها ملك للاشراف، و بعد أن أتممت فيها لوازم السفر من الفرش و البسط و أحرمت منها حيث كنت قاصدا لها لمأرب لى فيها غير أنى لم أنزع ثيابى و فديت عن لبسها بدم اكترت جمالا لى و لأصحابى، فركبت اليهودج الذى اشتريته من هناك و هو مثل مهدين من عيدان مسمره و مشدودة فى بعضها على نصفين كل نصف طوله نحو ذراعين و عرضه ذراع أسفله الذى هو محل الجلوس، حصير من عزف النخل مشدود فى تلك العيدان و فى زواياه الأربع عيدان صاعدة نحو ذراعين و نصف، ثم تقوس إلى أن تتصل ببعضها فيحصل منها شكل أربعة أقواس متقابلة و يشبك على نحو الربع الأسفل منها شباك من جبال جيدة من الحلفاء لتحمى الراكب من السقوط، و ذاك فى جهة واحدة و هى جهة الجنب المقابل لظهر الجمل، ثم يوصل كل من النصفين بصاحبه فيتألف من ذلك مهدان متلاصقان ممسوكان مع بعضهما بجبال متينة و لكل منهما أربعة أرجل تستند بها على الأرض إذا برك الجمل، ثم يوضع على الجميع من فوق زريبة أو كليم أو منسوج قطنى على حسب إرادة

صاحبه و يدلى ذلك مع الجنين الخارجين و يخاط على تلك الأعواد، ثم يجعل من فوق جلد بقر أو جمل و يخاط أيضا ليمنع نزول المطر إن وقع، ثم يفرش كل من الشقين بزربية على عدة طبقات و معها لحاف محشو قطنًا، ثم توضع عليه ستة أو ثمانية و سادات محشوة قطنًا أيضا من جهاته الأربع و يشق بالقطع فى الغطاء الشامل من الجهة الخارجية نحو طاقة لها ستارة من ذاتها ترفع و تنزل و تمسك بخيوط، و يربط فى قوائم الأقواس عدة جيوب من سعف النخل لوضع إناء الماء و غيره مما خف من ضروريات المسافرين و زاده، بحيث يصير كل من القسمين فراشا مريحا يضطجع به الراكب و يكون أمامه و خلفه مفتوحا و جنبه الذى من جهة رفيقه مفتوحا أيضا و جنبه الآخر به طاقة إن أراد فتحها و إلا أغلقها، ثم يوضع الجميع على الجمل و يربط به ربطا محكما و يوضع سلم من خشب رقيق فى مقدم الهودج المسمى بالشقدف ليصعد منه الراكب إلى شقه و يمسك الجمال الشق الآخر إلى أن يصعد إليه صاحبه أيضا و يعدلان فى الثقل و يسير بهما الجمل و يلزم أن يكون جملا مؤنسا بذلك.

و كان ركوبنا بعد صلاة العصر خارج البلد و مع كون ذلك المركب متوسط الراحة و جدت فى نفسى تعبًا من سير الجمل المهين حتى حصل لى نوع من الدوار، لكن إذا تأنس

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ٢٨١

به الإنسان يومين يزول عنه ذلك و يصير مرتاحا سوى الفرق بين قوّة الجمل و سيره، فإن الضعيف و الغير المؤنس يتعب مشيه التعب الزائد، و كان عديلي أحد أتباعى و بقيتهم ركبوا على جمال الرحال، و بعد أن سرنا عشيتنا و ليلتنا و صباحنا و لم ننزل لسوى الصلاة فى أوقاتها و وصلنا عند الضحاء قرية تسمى «حدة» فى صحراء مقفرة بها بعض عيون عذبة عليها شىء من النخل و على الطريق قهاوى من أعواد الحطب و الحصير كثيرة العدد أكثرها فارغ لمن يريد النزول، فنزلنا بها و اكرتيت اثنين منها ففرش لنا بها حصر و أتى لنا بماء فأكلنا من زادنا و أطمعنا الجمالين و القهوجى و استرحنا إلى بعد الظهر، فركبنا و وصلنا مكة المشرفة بعد نصف الليل و لم نر فى الطريق إلا أفرادا، و يكثر المشى ليلا سيما على الحمير لأن كثيرا منهم من يركب من جدة إلى مكة على الحمير، و هى سيارة فيصلونها فى نحو تسع ساعات إلى إحدى عشرة ساعة، لكن ذلك و إن كان فيه قلة الحصنة لكنه متعب فلذلك آثرت الجمل، و عند الوصول إلى خارج مكة المشرفة سألت: هل يوجد حمام هناك:

فأجاب: بأنه لا- يوجد إلا- الماء البارد و لم نستطع الإغتسال به، فلذلك اكنفت بالوضوء، ثم تلقانا المطوف و طلبت منه أن يكتفى بإعلامى بالأماكن و الإعلام بالمشاعر، كأن يقول لى: هذا باب السلام و الكعبة مقابلة إليك أو عن يمينك إلى غير ذلك، حيث كنت علمت أنهم يزيدون و ينقصون و يدعون و يأتون بما لم يرد به الشرع، و كنت استصحت عدة كتب فى الفقه و فى خصوص المناسك و أخذت منها ما يسره الله لفهمى، غير أنى وجدت فى بعضها رسالة فى المناسك لملا على قارى فلم أنظر إليها، لأن صاحبها له عجرفة فى حق أبوى رسول الله صلى الله عليه و سلم فلا يكون له على أدنى منه و أغنانا الله عنه بتأليف علماء أمه رسول الله صلى الله عليه و سلم المحبين فى آله الكرام و المعظمين لجنابه العظيم عليه و على آله أكمل الصلاة و التسليم، فأقبلت إلى باب السلام و أدت هناك ما ينبغى و نظرت إلى الكعبة المشرفة و لله الحمد، ثم دخلت المسجد الحرام و طفت بالبيت الكريم و قبلت الحجر الأسعد و سعيت بين الصفا و المروة و أدت ما استطعت مما ينبغى فى ذلك القدوم المبارك، ثم توجه بى المطوف إلى دار وكيل تونس حيث كان ساكنا فيه كل من الأخيار الثقات السيد أحمد و السيد إسماعيل و السيد محمد أبناء زروق القادمون من تونس قبلى حجاجا، و أقمت بقيه تلك الليلة عندهم و صلينا الصبح فى المسجد الحرام، ثم أخذت منزلا أقمت فيه و لم يرد صاحبه أخذ كراء عليه و ابتدأت رؤيتى لسوء أخلاق بعض الأهالى مما كان ينبغى لهم التحاشى عنه عفا الله عنا و عنهم، و بعد أن أقمنا بضعة أيام تشرفت فيها بالدخول إلى داخل البيت المعظم بمحاسن أخلاق الفاضل الشيبى و ذلك ليلا، و لم يكن معنا إلا أفراد قليلون بحيث تيسر لنا التمتع بتلك البقعة العظيمة و التبرك بما احتوت عليه من المشاعر، و كذلك تشرفت بالمثول بين يدى المولى الشريف المعظم صاحب الأخلاق الحسان و التواضع مع ما هو عليه من رفعة الشأن المقدس الشهيد سيدنا

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ٢٨٢

حسين أمير مكة قدس ثراه و هو رحمه الله حسن الأخلاق متواضع عفيف جدير بمنصبه السامى، و لاقينا بعضا من أعيان البلاد كالنحرير البارح أحمد المشاط و غيره.

و لما آن وقت التوجه إلى منى ابتدأ المطوف و وكيل تونس فى تهويل أمر الذهاب إليها و إلى عرفات و أكبرا فى ذلك ما شاء حتى ظننت أنها مسافة سفر و أن الحرب نائرة فى الطريق، فوجهت رحلى على الجمال و اكرتيت أحمره لركوبى و ركوب من معى مدة أيام الحج، و بينما نحن سائرون و الطريق فى غاية الراحة و الأمن و العمران و إذا نحن بقرية سألت عنها فقيل لى هى منى! فبقيت متعجبا من قول أولئك المرشدين إذ لم تكن تبعد عن مكة إلا أربعة أميال، و لكنى عرفت السبب فى عملهم تجاوز الله عن الجميع، و أقمت ليلة بمنى ثم توجهنا صبحية اليوم الثامن إلى عرفات لوقوع الشك فى ثبوت الشهر و أقمنا فيه إلى ليلة العاشر من الشهر و بعد الوقوف و أخذ حصه من الليل أفضنا من عرفات بعد أن أدينا ما نسال الله قبوله و كان موقفا تقشعر منه الجلود من خشية الله لالتجاء عباده إليه حسبما أمرهم، و كانت الأرض تموج بالخلاق ضارعين لباريهم جل و علا تقبل الله من الجميع، و عند الإفاضة اتفقت مع الحمار و مع الرفقاء على التأخر عن الإزدحام و أخذ الطريق الأقل ازدحاما و كان دليلنا مضمرا خلاف ذلك، لأنهم إنما يرون من شعائر الحج الظواهر و هم عن حقائق المشروعات غافلون فيرغبون فى اللكام و الزحام و الخصام لتبقى لهم وقائع يتحدثون بها سنتهم، فلما أفضنا كانوا يسرعون السير و من عادة حميرهم أن لا ينقاد إلى راكمه بل إلى سائقه فقط و لو انقطع اللجام من فيه، فأدخلونا كرها فى وسط الزحام و لم يبق منا واحد يسمع صوت صاحبه لثوران عجاج الصياح و الرغاء و النهيق، فمن حاد يحدو و من داع يدعو و من مصرخ ينادى رفيقه و من صايحه مستجيرة بالمارة من سقوطها، و من آن يئن من كسره بسقوطه و من باك متذكر هول المطلع و من يعير يرغو لسقوط حملة و حمار ينهق لرؤية أتان، و أناس ملقاء و آخرون يجرون و آخرون يزدحمون و آخرون واقفون و الظلام مرخ سدوله، و الناس لا يذكر بعضهم بعضا كل طالب النجاة لنفسه، فرأيت أنموذجا لهول يوم الفزع الأكبر و ما أيقنت بالنجاة لنفسى حتى دهمنى بعض شقادات الجمال فأسقطنى عن حمارى و خرجت من بين أرجل الحيوانات متطلبا النجاة ذات اليمين حتى يسر الله لى الخروج عن الطريق بالصعود إلى محجر مرتفع فجلست هناك حامدا لله على النجاة، و بعد هنيهة لحق بى بعض أصحابى و جاءنى الدليل حاثا على الذهاب و إلا تكن فى خطر من البدو، فقلت له: يا أيها الرجل إن الله حرم فى هذا الموطن الجدل، و لكن ما عليك من الإنذار فقد أديته و أنا فى نفسى أفعل أخف الضررين، لأن البدو لا يفعلون أكثر من القتل و هو الذى تدعونى إليه لأن أفعله بنفسى، على أنهم يقتنعون بأخذ السلب و دونه الدفاع ما استطعت، و وراء هذا كله أنه لا وجود لشيء مما تهول به، و هؤلاء الخلاق فى الطريق و عند آخرهم أتوجه فدعنى

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ٢٨٣

و نفسى، فذهب مغاضبا و بقيت أنظر فى عجائب الخلق من الحالة التى بينا بعضها إلى أن خف الماشى فرافقت آخرهم حتى وصلنا إلى المزدلفة، و لم أجد رحلى فجلست فى قوة حتى مر بى أحد أصحاب رحلى فانتقلت إليه و جمعنا بين المغرب و العشاء.

ثم بعد أداء مناسك المزدلفة توجهنا إلى منى و خيمت فى مرتفع من الأرض فى أطراف نزل الحاج مع أهالى جاوه، و رجعت إلى مكة و أدت بقية المناسك و فككت الإحرام، ثم رجعت إلى منى إلى تمام أيامها، و كان فى اليوم الأول عند رمى الجمار من الزحام ما وصفنا بعضه حتى مات عدة أناس و انكسر عدة، و إنما ذكرت هذا تنبيها لإخوانى حتى يحترزوا من ذلك و لا يغتروا بأقوال الإدلاء لأن لهم مقاصد و أطوار غير محموده، ثم أتمنا مناسك منى و رجعنا إلى مكة و اكرتيت بيتا فى المحصب خارج مكة تطلبا لصحة الهواء و برودته لأن المرض اشتد على، ثم أحرمت بعمره و أدت مناسكها، ثم خيمت قرب الركب الشامى إلى أن تهيأت القافلة التى اكرتيت بها الجمال للتوجه للمدينة المنورة فسافرنا اليوم التاسع عشر من الشهر، و اشترت حمارا للإرتياح عليه فأفادنى جدا لأنى كنت أركبه بعد الظهر ففسير و معى أحد رفقائى الذين صار منهم بعض التونسيين إلى أن نصل إلى أول القافلة الحاوية عدة مئات من الإبل

و المسافرين فنأتى إلى جهة مستظلة قرب الطريق و نجلس على زريبتين و نستريح و نتوضأ و نصلى فى نحو ساعة أو ساعة إلا ربعا فيأتى آخر القافلة فنركب الحمار و نفعل كذلك مرتين أو ثلاثا إلى أن نصلى المغرب و يشتد الظلام فنركب الجمل.

و كان سفرنا على الطريق الفرعى بعد ضمانه مشايخ أصحاب الإبل لأمير مكة فى أمن من معهم و كان كراء الجمل الذى عليه اليهودج ثلاثة و عشرين ريالاً دورو أى مائه و خمسة عشر فرنكا من مكة إلى المدينة و منها إلى ينبع و بقيه جمال الرحل و الأتباع لكل جمل خمسة و سبعون فرنكا، و اكتريت رجلا بدويا من موالى الجمال شجاعا قويا لقود الجمل الذى نركبه و الإعانة على بقيه اللوازم فرأيت منه خيرا لكنه لم يوف بوعده فإنه تخلف عنى فى المدينة المنورة و لم يصل إلى ينبع، فرحلنا من مكة اليوم الأول بعد الظهر و سرنا يومنا فى طريق طيب و نزلنا بعد العشاء ثم رحلنا قبل الشروق و صعدا فى جبل وعر جدا و بعد أن سرنا فيه نحو خمس ساعات، سرنا فى طريق بسيط إلى المدينة المنورة و لولا ذلك الجبل لكانت العجلات تستطيع السير بسهولة فى الطريق، و كان سير الجمال لا يزيد عن ثلاثة أميال فى الساعة حسبما حررتة إذ ذاك و هو سير مهين متعب، و تدوم المرحلة من إثنتى عشرة ساعة إلى ست عشرة ساعة و واحدة منها دامت إثنتين و عشرين ساعة بحيث جعلوا مرحلتين فى واحدة لكى يستريحوا يوما بدون رحيل فى بلادهم و هى الجديدة و لا يتزلون إلا قرب ماء.

و فى الليلة الثانية عشر وصلنا المدينة المنورة على صاحبها أفضل الصلاة و السلام

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ٢٨٤

فدخلناها عند الفجر و تلقانا المعرف التونسى الخير حلاية و المعرف هناك يسمى مزورا، و نزلت عند الفاضل النحرير صاحب الأخلاق الحميدة و الصفات السديدة البليغ الكامل عبد الجليل برادة جازه الله خيرا و كثر من أمثاله فى الأمة، و بعد أداء الآداب و السنن أسعدنى الله بالوقوف بين يدى نور العالم و سيد الخلائق و ملجأ الأمم و فضل الله على خلقه و رحمته للعالمين سيدنا و مولانا محمد رسول الله صلى الله عليه و سلم، فيا له من حظ نفديه بالمهج و يا له من فضل تبنى من كرم الله و بلج، و حظيت بالسلام عليه و على صاحبيه عليه الصلاة و السلام و على آله الكرام و أصحابه الأعلام، و فى اليوم الثالث أنشدت بين يديه عليه الصلاة و السلام قصيدتى التى مطلعها:

إلى السدة العظمى شددت عزائى إلى سدة الإجلال شمس المكارم

و بثت إليه عليه الصلاة و السلام شكواى فى دنياى و أخراى و نلت قضاء أغلب مطالبى و لله المنه و الحمد، منها ما قضى فى حينه و منها ما تم قضاؤه بعد مدة قليلة و أنا أرجو كرم الله فى قضاء باقيها بوسيلة رسوله عليه الصلاة و السلام، و زرت آل البيت عليهم السلام و كثيرا من الأصحاب و الأئمة الأعلام و المشاهد المباركة، ثم قفلت مع القافلة و توجهنا إلى ينبع و رفعنا ما أبقيناه من رحالنا فى بلد الجديدة و وصلنا ينبع فى الليلة الرابعة قرب الفجر، فأردت النزول فى خيامى فمنعت لأجل أن اكرت دار الأخ حاكم البلدة و اكرتها لى بخمسة و ثلاثين فرنكا فى الليلة، و هى أربع بيوت خربة إثنان فوق إثنين و الدرج خربة و ليس بها و لا حصير، فأقمت بها ثلاثة أيام و كان فى المرسى ثلاث أو أربع بواخر تنتظر إزدحام الحاج، فجاءت باخرة نمساوية قافلة من الهند و مرت على جدة ثم ينبع، فاكتريت بها قاصدا الأستانة.

الفصل الثانى: فى صفة البلدين المكرمين و موكب الحج مطلب صفة مكة المكرمة

إشارة

أما مكة المشرفة فهى واقعة فى عرض ٢١ درجة و ٣٠ دقيقة شمالى و طول ٣٧ درجة و ٣٦ دقيقة شرقى، و إسمها مكة و بكه و أم القرى، و أول من سكنها سيدنا إبراهيم عليه السلام بوالده و ولد سيدنا إسماعيل عليه السلام، فكان سيدنا إسماعيل أبا العرب و رفع هو

و أبوه قواعد البيت العتيق فكان مقصد الأمم الحنيفة، وهذا البيت الكريم هو في وسط المسجد الحرام و زواياه الأربع مقابلة للجهات الأربع أعنى الجنوب و الشمال و الغرب و الشرق، و آخر بناء له إلى الآن هو بناء السلطان سليم الثاني على نحو الأصل الذي كان عليه زمن النبي صلى الله عليه و سلم، لأن سيدنا عبد الله بن صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ٢٨٥

الزبير بناه على قواعد إبراهيم عليه السلام و أدخل فيه الحجر ثم هدمه عبد الملك و أعاده على هيئته زمن الرسالة، فلما استخلف أبو جعفر المنصور أراد أن يعيده على ما بناه ابن الزبير، لأن النبي صلى الله عليه و سلم قال لعائشة رضى الله عنها: «لولا قومك حديثو عهد بكفر لبنيت الكعبة على قواعد إبراهيم» فلما زال المانع و حدوثه الإيمان ترجح عوده إلى الأصل، و استشار الخليفة الإمام مالك بن أنس رضى الله عنه فقال له ما معناه: «يا أمير المؤمنين لا تجعل بيت الله ملعبه بأدى الملوك فإن الذي رأيت و إن كان صوابا لكن إبقاؤه على حالته احتراماً لشأنه أولى»، فبقى على ما هو عليه الآن، و أساس جدران الكعبة مرتفع عن الأرض ما بين عشرين صانتي إلى ثلاثين و زائد العرض عن الحيطان ما بين عشرين إلى أربعين فهو كالدرج حيط بالجدران و هو المسمى بالشاذروان، و الحجر الذي هو من قواعد إبراهيم عليه السلام في جهة البيت الواقعة بين المغرب و الشمال و محيط به الحطيم الذي هو بناء مستدير نحو نصف دائرة ارتفاعه مترو و سمكه مترو و نصف مغلف بالرخام، و ينتهي قوس النصف دائرة قبل أن يصل إلى جدران الكعبة بنحو متروين و خمسة و ثلاثين صانتي، و البيت مبنى بصخر كبير و أرضه مرتفعة عن مساواة المسجد نحو متروين و بابه قرب الركن الشرقي مستقبلاً ما بين المشرق و الشمال، و يصعد إليه بمدرج مثل المنبر في المواكب العامة و عند فتحه الخصوصي يؤتى له بسلم صغير، و عتبة الباب من فضة و عوضه من مرمر و الباب بدفة واحدة قفله من ذهب و هو من خشب الساج، و داخل البيت ثلاث أسطوانات من القمارى قطر الواحدة أزيد من شبرين و ارتفاعها أزيد من ستة

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ٢٨٦

أذرع و عليها مكابس من ذهب، و البيت مبلط بقطع كبيرة من المرمر و كذلك حيطانه و سقفه من الساج، و في ركنه الشرقي من خارج ما بين المشرق و الجنوب في ارتفاع قامه الحجر الأسود، و هو حجر محفوف الجوانب بصفايح من فضة أسود لامع أثرت فيه أيدي اللامسين حتى صار في بعض جهاته انخفاض و صار ذا شكل مقعر مثل إناء الشرب، و أصله قطعة واحدة ثم تشقق من ضرب المنجنيق عندما حوصر ابن الزبير رضى الله عنه فجعل له صندوق من الفضة، و به فوهة يظهر منها الحجر قطرها سبعة و عشرون صانتي مترو أى نحو شبر و ثلث، و في سطح البيت ما بين الشمال و الغرب ميزاب الرحمة من ذهب يصب في الحجر، و البيت طوله مما بين المشرق و الشمال أزيد مما بين المغرب و الجنوب، فطوله إثنا عشر مترو و عرضه عشرة أمتار و عشرة صانتي عدا الشاذروان و ارتفاعه خمسة عشر مترو، و يكسى كل عام بكسوة من الدياتج الأسود يؤتى بها من مصر و عليها حزام مزرکش بالفضة مكتوب به آيات كريمه، و كذلك نفس الكسوة فيها كتابات جيدة بالقلم الثلثي من نفس النسج.

و قبالة باب الكعبة على نحو إثني عشر مترو و مقام إبراهيم عليه السلام و فيه بيت مربع داخله آيات بينات من تأثير القدمين في الصخرة، و وراءه بانحراف إلى الجنوب الشرقي بير زمزم و عليه قبة و حوله أحواض و عليه بكرات من النحاس ثم صحن المسجد متسع جدا طوله مشرقاً و مغرباً مائة و إثنا عشر مترو و عرضه مائة و إثنا عشر مترو، و الرواق مرفوعة أقواسها على إسطوانات من حجر و سقفها قباب من بناء و في وسط الصحن على بعد نحو إثني عشر مترو من الحطيم إسطوانات من حديد أو نحاس ذاهبة في الهواء موصولة ببعضها بسلاسل من نحاس يعلق بها منائر و مصابيح و هي دائرة بالبيت علامة على حدود المطاف، و على سمت الركن الشمالي على بعد كلة لجلوس المؤذنين و المسمعين، و خلف المطاف و قبالة جهة البيت التي بها الميزاب يقيم إمام الصلاة من مذهب الحنفي و له محراب و هو أول مصلى في الأوقات كلها ما عدا الفجر، فإذا أقيمت الصلاة و تقدم الإمام الحنفي رأيت المسجد الحرام كله على غاية من الهدوء، و لم أر شيئاً لم تدخله البدعة أبداً إلا الصلاة في ذلك الوقت ما عدا تسميع المسمع،

فهو زيادة على بدعة تغنيه يزيد أن يضع المؤذن إصبعه في أذنيه و هو في الصلاة، و ما عدا هذا فإنك ترى آداب الإسلام حقيقة و امتثال الخلق أمر خالقهم فيقع من الخشوع ما لا يعلمه إلا الله سيما في صلاة الجمعة، و لله الحكمة البالغة في وسع المسجد كل من يدخله و ترى الخلق مع ذلك الإزدحام على غاية من التؤدة و امتثال أمر الشرع بحيث لا تسمع إلا همسا من تسييحهم و تكبيرهم في الركوع و السجود فإذا سلم الإمام الحنفي عادت الحركة لما كانت عليه و لو عند صلاة كل من أئمة المالكي و الشافعي و الحنبلي حتى لا يكاد المؤتم يعلم بحركات الإمام.

أما صلاة الفجر فيتقدم فيها الشافعي على غيره لأن مذهبه يرى استحباب التبكير بها و كل أحد من الأئمة له جهة من جهات الكعبة يصلى إليها، و قد علمت محل الإمام

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ٢٨٧

الحنفي، و أما الشافعي فمحراه خلف مقام إبراهيم عليه السلام، و أما المالكي فمحراه تجاه الضلع الغربي الجنوبي من الكعبة خلف المطاف بميتروين، و أما الحنبلي فمحراه مواجه للضلع الجنوبي الشرقي على نحو ذلك البعد أيضا.

و باب السلام من المسجد الحرام تجاه باب الكعبة، و باب الوداع في الجهة المقابلة له و وراء الرواقات عدة مدارس لسكنى المجاورين و يسكن بيوتها الحجاج أيضا، و حول المسجد من أغلب الجهات طرق و باب السلام يفتح في الطريق الواقع بين الصفا و المروة و هو طريق متسع حوله ديار ذات عدة طبقات، و منها دار الشيبى، و أسفل الديار حوانيت عليها مظلات يباع بها المأكولات و غيرها، و كل من الصفا و المروة محل في نهاية زاوية من الطريق متسع ذو درج عريضة تنتهي إلى حائط، و بينهما طريق متسع عرضه ما بين عشرة و إثني عشر مترو و طوله نحو أربعمئة و خمسة أمتار و في وسطه محل الهرولة في السعى بتدئىء من الميلين أى العلمين الأخضرين على بعد خمسة و سبعين مترو و من الصفا عند باب البغلة من الحرم، و تنتهي إلى العلمين الآخرين بعد مسافة نحو سبعين مترو عند باب على و كل من العلمين يقابله مثله في الحائط المقابل.

و في مكة المشرفة أسواق كثيرة يباع بها سلع سائر الأقطار و أكثرها سلع الهند، كما أن التجار أكثرهم من أهالى الهند، و الأسواق مسقوفة بألواح و فيها قهاوى كما أن أطراف البلاد عند مداخلها فيها قهاوى على نحو الخصوص و يجلس فيها على كراسى كبيرة و صغيرة من أخشاب الحطب و عزف النخل، و خارج البلد على طريق عرفات مقبرة المعلى، ثم بعض بساتين لأفراد من الأشراف رضى الله عنهم و بيوت لبعض من الأعراب و غيرهم، و في جبل أبى قبيس المطل على المسجد الحرام مسجد صغير و بعض ديار و زاوية للشيوخ السنوسى، و شرب جميع الأهالى من عين زبيدة التى أوصلتها إمراة الخليفة هارون الرشيدى من قرب عرفات إلى مكة فسميت بها و على مجراها في الطريق و البلاد عدة منافذ يملأ منها السقاؤن و غيرهم و يحصل من كثير من الناس تقذيرها بما يلقون فيها من الأوساخ، كما توجد آبار أخرى عميقة جهة الزاهر و غيرها يؤتى بالماء منها و يفرقه السقاؤن على الديار فيوضع في جرار ثم تملأ منه دوارق و توضع في طواقى أو غيرها مما يمر عليه الهواء البارد فيبرد الماء، لكن من عادتهم فيه أنهم يبخرون الدوارق بعود يسمى عود القفل و هو الكثير، و تارة بالمصطكى فيحصل طعم في الماء غير شهى و القفل أسوأ و هم يرونه حسنا، و تنقسم مكة إلى سبعة عشرة حارة و قيل إن عدد سكانها مائة و سبعون ألفا.

مطلب في صفة المدينة المنورة

و اسمها المدينة و طيبة و طابئة و يثرب واقعة في فسيح من الأرض المرتفعة في عرض ٢٥ درجة و ٢٠ دقيقة شمالى و طول ٣٧ شرقى و غربيها على نحو أربعة أميال جبل أحد و عليها سور حصين و حصون ذات مدافع و خزائن للذخائر الحربية، و الحرم الشريف النبوى

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ٢٨٨

على صاحبه أفضل الصلاة و السلام في جهتها الشمالية الغربية و قد جدد الحرم الشريف و المسجد السلطان عبد المجيد فكان المسجد

وحده مائة وخمسة وخمسين ذراعا طولاً أى من الجنوب إلى الشمال، و عرضه مشرقاً مغرباً من جهة الجنوب مائة وخمسة عشر ذراعاً ومن جهة الشمال ثمانية وثمانون ذراعاً ونحو تلك المسافة أيضاً صحن المسجد الذى هو جهة الشمال، ومحيط به رواقات وكله من بناء ضخمة مرفوعة قبابه على أقواس قائمة على إسطوانات من المرمر الأحمر المأخوذ من مقاطع حجازية قرب المدينة، وكذلك عواضد الأبواب وصحن المسجد تحيط به رواقات وما عداها مكشوف وليس بين المسجد والصحن أبواب، وباب السلام من غربى المسجد قرب حائط القبلة والمحراب فى نحو ثلثى عرض المسجد أعنى أنه أقرب إلى الشرق حتى يكون قبالة المحراب النبوى الأصيلى، لأن المسجد النبوى على صاحبه أفضل الصلاة والسلام قد زيد فيه مراراً أولها: فى خلافة سيدنا عمر رضى الله عنه حين ازدادت كثرة المسلمين، و آخرها إلى الآن ما زاده السلطان عبد المجيد رحمه الله، وكل من زاد فيه تحرى مواقف النبى عليه الصلاة والسلام لتبقى محفوظة، فلذلك وإن زيد فى جهة القبلة حتى صار حائطها يبعد عن حرم الحجر الشريفة نحو الثمانية أذرع مع أن حائط القبلة كان مساوياً لحائط الحجر، لكن بقيت بقعة المحراب الأصيلى معلماً عليها والمحراب الجديد قبالة، أما المنبر فهو وإن تغيرت ذاته لكن محله لم يتغير وهو الآن من المرمر المتقن والأصيلى من خشب، وأما الحجر الشريفة فالأصيلى عليها بناء ضخمة مستطيل من الغرب إلى الشرق و عليه قبة عالية أرفع من سائر قباب المسجد و داخلها القبر الشريف المكرم لصق الحائط القبلى من جهة الغرب، و يليه قبر الصديق رضى الله عنه لجهة الشمال متأخراً إلى المشرق بحيث أن رأس الصديق رضى الله عنه مسامته لأسفل من رأس رسول الله صلى الله عليه وسلم بنحو ذراع وذلك تأدياً من الصحابة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم يليه شمالاً أيضاً بانحراف للغرب قبر الفاروق رضى الله تعالى عنه وهاته الحجر لا يدخلها أحد، و وراء حيطانها من خارج شباك من حديد متين متصله قواعد برصاص مذاب غليظ الحجم مالىء للأساس إلى عمق عميق حتى اتصل بطبقة الماء فى الأرض، والسبب فى وضعه هو أنه كان فى مدة السلطان نور الدين الشهيد بمصر حدث حادث عظيم بالمدينة صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار والأقطار؛ ج ٢؛ ص ٢٨٩

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار والأقطار، ج ٢، ص: ٢٨٩

و كان أمر الحجاز إذ ذاك تابعاً لسلاطين مصر، فرأى السلطان نور الدين رؤياً هالته، وهى أنه رأى النبى صلى الله عليه وسلم ثلاث مرات فى ليلة واحدة وهو يقول له أنجدنى أنقذنى من هذين الرجلين وأشار إليهما فرآهما رجلين أشقرين وتحقق وصفهما وعلم التأكد من النبى صلى الله عليه وسلم فى أمرهما والإسراع به، فاستيقظ السلطان رحمه الله مهتماً جداً فما صلى الفجر إلا وقد أحضر وزيره وعشرين نفراً من صناديد فرسانه وأحضر أموالاً جسيمة وركب جواده فى خاصته وفرسانه وما خف من الزاد وقفل إلى المدينة المنورة مجد السير، ولم يعلم بما رآه أحداً فوصلها فى ستة عشر يوماً، فزار النبى صلى الله عليه وسلم ثم أمر بإحضار أهل المدينة بعد كتابتهم وصار يتصدق عليهم ويتأمل تلك الصفة التى رآها فى النوم إلى أن انفضت الناس، فقال: هل بقى أحد؟ قالوا: لم يبق سوى رجلين صالحين عفيفين مغربيين يكثران الصدقة، فلما رآهما إذا هما الرجلان اللذان رآهما مناماً، فسأل عن منزلهما فأخبرا أنهما فى رباط خارج المسجد بقربه جهة الحجر الشريفة، فأمسكهما ومضى إلى المنزل فلم يجد به سوى خيمتين وكتبا فى التصوف ومالا كثيراً وأثنى عليهما الأهالى ثناء كثيراً، فرجع السلطان حصيراً فى البيت فوجد تحته سرداباً ذاهباً صوب الحجر الشريفة فارتاعت الناس لذلك، وقال السلطان أصدقانى وضربهما حتى أقرا بأنهما نصرانيان بعثهما ملك من النصارى فى زى الحجاج وأعانهما بأموال كثيرة للتوصل للذات الشريفة ونقلها، فترلا بأقرب رباط وصارا يحفران ليلاً ولكل منهما محفظة جلدًا يملأتهما تراباً صباحاً ويذهبان إلى المقبرة فيفرغانهما هناك على عدة كرات وهكذا دأبهما منذ مدة فقتلتهما علناً وعمل ذلك الحاجز الرصاص رحمه الله والصلاة والسلام على سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم وآله وصحبه ومن والاه .

ولا يخفى أن الواقعة كانت مدة حرب الصليب فرأى أحد ملوك النصارى المحاربين للمسلمين ولم يعينه أصحاب التاريخ لعدم اعتنائهم إذ ذاك بمثل ذلك، حتى أنك تراهم يذكرون الوقائع الحربية فى الشام مع النصارى ولا يذكرون من هم حيث تعصبت إذ

ذاك ملوكهم مع البابا و صاروا يدا واحدة على المسلمين، و لذلك لم يعين الملك المرسل لدينك الرجلين لأجل مكيدة المسلمين بنقل نبينهم إليهم و التشفى منهم و لأجل إبطال معجزة تعيين محله عليه الصلاة و السلام دون غيره من الأنبياء عليهم جميعا الصلاة و السلام.

و فى المدينة المنورة أسواق و صناعات لكل ضرورى و مدارس لسكنى المهاجرين و كتب موقوفة فى عدة خزائن بمكتبات أهمها: مكتبة عارف باى و رأيت بها كتابا لم أكن أعرفه، و هو الجامع الصغير فى النحو لابن هشام مع اشتهاار كتبه، و طرق المدينة غالبها ضيق لا

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ٢٩٠

يمر به إلا رجل واحد إلا طريق الباب المصرى الموصل لباب السلام، و قرب الباب المصرى المناخة و هاته المناخة بطحاء و سبعة و حولها مخازن للذخائر، و من عادات أهل المدينة أنهم لا يركبون داخلها تأدبا مع النبى صلى الله عليه و سلم إلا المعذور، و إذا لاقى أحدهم غيره خارجها و هو راكب ترجل له عملا بالأثر المروى، و بقیة عوائدهم على ما سياتى فى العادات العامة، غير أن أخلاقهم رضى الله عنهم أحسن أخلاق أهل الأرض فيما علمت من لين الجانب و صفاء القلب و مواساة القريب و البعيد و الكرم و لو كان بهم خصاصة، و حرية النفس و الشهامة و الشجاعة فهم أهل لذلك الجوار كما ورد وصف مدحهم فى القرآن العظيم، و من وفد عليهم تخلق بخلقهم لأن أصل الأنصار لم يبق منهم هناك إلا عائلة واحدة و بقیة السكان كلهم من الوافدين فيما بعد إلا السادة الأشراف حقا، فهم من أبناء سيد الوجود و ابن عمه سيدنا على رضى الله عنه، و أما بقیة المهاجرين فلم يبق من نسلهم هناك أحد معروف سوى واحد نقيب فى ضريح سيدنا حمزة هو من بنى العباس رضى الله عنهم أجمعين.

مطلب فى صفة موكب الحج

لما كان الحج فرضا على كل مستطيع له من المسلمين فهم يهرعون إليه من كل فج عميق فيجتمع المسلمون من جميع قبائل الأرض من مشارقها و مغاربها، و قد كان فى الزمن السابق يأتى أكثرهم برا أما بعد حدوث البواخر فصار الأكثر يأتى بحرا بالركوب فى البواخر إلا من كان من أهالى جزيرة العرب فإنهم يأتون برا، و كذلك الركب المصرى و إن بطل سفره برا عند طبع هذا المحل و أما عند حجى فإنه كان يأتى برا و مثله فى الإتيان برا الركب الشامى الذى كان يخرج من القسطنطينية و يأتى إلى دمشق الشام و يجتمع هناك بركب العراق مع حجاج الشام و يسافر الجميع إلى مكة.

و صورة هاته الأركاب هو أن يعين السلطان حاكما من رجال دولته على الركب و يصحبه أمين الصرة أى الحامل للأموال المعينة لمصاريف الحرمين و لسائر المتوظفين و للأعراب الذين لهم عوائد من الدولة، و تلك الأموال مأخوذة من دخل أوقاف الحرمين و من خزنة الدولة كل لما يخصه، و كذلك يحمل الهدايا و الصدقات الخاصة التى يرسلها السلطان و أهالى دولته و سكان قصره بحيث يجتمع عنده أموال جسيمة، و قد سمعت أن الذى ترسله الدولة للقيام بما يعود إليها من جميع ما يلزم الحرمين سواء كان من الخزنة أو من الأوقاف هو الآن نحو مليونين و نصف فرنكا عدا الهدايا الخاصة، ثم يعين مع هؤلاء قسم من أنواع الجيوش فرسان و مدافعية و رجالة و تنصب لهم خيام للرحلة بها، ثم ينضم

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ٢٩١

إليهم كل من أراد الحج بخيامه و سائر لوازمه كل حسب استطاعه، و يحصل يوم خروج المحمل من دار الخلافة موكب مشهود ثم يسافر الركب نهارا و يقيم ليلا على مراحل معلومة إلى أن يصل إلى مكة، و كلما مر على بلد انضم إليه حجاجها و قد بقى الحال الآن على ذلك سوى كون السفر من الآستانة إلى مرسى بيروت صار بحرا، ثم من بيروت إلى دمشق الشام يسافر من غير أبهة و لا انتظام، و من دمشق ترتب له العساكر و غير ذلك و يسافر على نحو ما ذكر، و على نحو منه الركب المصرى، و أما القوافل من الجهات البرية

فإنها تأتي كل قافلة عليها نحو شيخ للرفقاء و يسافرون حسب مستطاعهم، فإذا اجتمع الجميع في مكة و لكل منهم مكان يخصه للإقامة فيه، خرجوا اليوم الثامن من ذي الحجة إلى منى و منها إلى عرفات و هم محرمون، فيقفون يوم عرفه و بعيد الغروب يفيضون إلى المزدلفة ثم قبل الشروق يأتون إلى منى و ذلك يوم العيد، و يقيمون ثلاثة أيام لأداء المناسك، و يحصل ليلة ثانی العيد أفرح عظيمة من معسكرى الأركاب بالألعاب النارية و أعمال صور حربية بالمشاهدة لكي يحصل إرهاب الأعراب من الحركات العسكرية و سرعته سلاحهم و عظم مدافعهم، ثم في صبيحة يوم ثاني العيد يحصل موكب عظيم في منى لدى فسطاط الشريف أمير مكة، فيحضره الوالى و أمراء الأركاب و رئيس العساكر بالحجاز و سائر الأعيان من أهل مكة و الحجاج كلهم بالملابس الرسمية.

و لما يحتبك الموكب يخرج السيد الأمير الشريف و يقف في الصدر و تقف الناس حوله على حسب مراتبهم، ثم يتلى المنشور السلطاني المؤذن بالثناء على الأمير و تقليده الأمانة أو إبقائه فيها و تحريضه على إدامة الأمن و القيام الواجب بحقوق الحرمين و الأهالي و هو باللغة التركية، ثم يتلى تعريبه. ثم يخلع عليه أمير الركب الشامي الخلع التي يرسلها أمير المؤمنين إلى أمير مكة السيد الشريف و هي جبة من الجوخ واسعة سوداء مطرزة بالذهب، ثم يقبل الجميع بالتهنئة للسيد الأمير ثم يتفرق الناس لتهنئة بعضهم بعضا، ثم يسافر كل ركب بعد عودته إلى مكة في يوم معين بعد أداء جميع المناسك و تسليم الأموال لأصحابها و المقيضين بها من الأمراء و الرؤساء، و كل منهم أى الأركاب يعود إلى بلده على الطريق الذي قدم منه و يكون كل ركب كأنه بلد راحل يحصل فيه من التزهة و الإنشراح لذوى اليسار ما ترغب فيه النفوس، هذا و لا يخفى أن مناسك الحج مقررة في كتب الفقه بل و قد خصت بتأليف منفردة لعلماء كثيرين فلا يمكن لنا الإتيان بذكرها لأنها خارجة عن الموضوع و إنما الذى يناسب ذكره هنا هو:

إن الحج من أحد أركان الإسلام الخمس و هي: كلمة الشهادة أى أشهد أن لا إله إلا الله و أن محمدا رسول الله، و إقام الصلاة، و إيتاء الزكاة، و صيام رمضان، و حج البيت على من استطاع إليه سبيلا، و هو فرض مرة في العمر و يندب تكراره كلما استطاع الإنسان، و قد ذكر العلماء حكمة مشروعيتها كما ذكروا الحكمة في مشروعيتها جميع الأركان، و حاصل ما أشاروا إليه هو كونه شكرا لله على ما منحنا به من نعمة السلطة على الأنعام أى الحيوانات

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ٢٩٢

و هو عبادة مركبة من أعمال بدنية و أعمال مالية، و يمكن أن يكون مشتتلا أيضا على حكمة أخرى مرعية في نظر الشارع و هي أحكام الوصلة بين قبائل المسلمين و تعرفهم ببعضهم و اطلاع كل منهم على حاجات أخيه و عوانده ليعين كل منهم أخاه في الحضرة و الغيبة بما يستطيع حسبما أمره الشارع بذلك، و ينتج منه مزيد المواصلات بين الأمم و الشعوب و القبائل من مشارق الأرض و مغاربها كما هو الأمر الواجب شرعا في جعل المؤمنين عصابة واحدة، و قد مثلهم الشارع بالبنيان يشد بعضهم بعضا، و مثلهم بالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد، و جعلهم إخوة لرحم الدين الواحد إلى غير ذلك من النصوص الدالة على التحامهم و وحدتهم مما لا يمكن إيجاده بدون تعرف، فجعل لهم في كل سنة موعدا يجتمعون فيه ليحصل ذلك القصد.

و فيما تضمنته مناسك الحج إيماء إلى ذلك حتى يحصل على أكمل وجه فإنه عين لهم المحل الذى يجتمعون فيه بصورة لا يحصل معها نكد من بعضهم على بعض في التفضيل كما لو كان الاجتماع في بلد قبيلة أو جهة دنيوية، بل جعل ذلك المحل هو خاص و خالص النسبة للخالق جل و علا وحده، ثم عند زيارة نبيه الذى هو واسطتهم إلى خالقتهم فلا يحصل من قصد ذلك المحل أدنى امتياز يغير القلوب، ثم أنه أوجب عند أول القدوم إلى ذلك المحل الإحرام الذى هو من جملة ما تضمنه ترك لبس المخيط و غيره من سمات الرفاهية التي يحصل فيها التحاسد بحيث يكون الناس كلهم سواء لا فضل لمملك على راع و لا لعالم على جاهل، و أوجب على من اضطر إلى ترك ذلك أن يزيد في الإحسان و الصدقة الجالبة لقلوب الفقراء الذين هم مظنة إنكسار القلوب مما يروونه من الرفاهية فيعوض ذلك بزيادة صلتهم و الإحسان إليهم و الإحسان يجلب القلوب فتعدل الحال، و كذلك شرع مزيد النفقات و الإحسان على حسب رتبها و استطاعة المنفق لكي يزيد التوادد ثم قصر ذلك الإحرام على مدة مخصوصة هي مظنة حصول التعرف و

استقرار التوادد بين الأفراد، فإذا حصل التوادد و تأكد بالصلات يبعد زواله لمجرد رؤية أثر النعمة على المنعم عليه و لذلك أباح اللبس حينئذ، و كذلك شدد النهى و النكير على الجدال فى الحج الموجب للتباعد الذى هو نقيض المقصود، كما شدد مثل ذلك فى الفسوق الذى هو موجب لاستنقاص العبد بمعصية خالقه فيقول أخوه إذا كان هذا لم يراع حق الخالق فى بلده الأمين فكيف يراعى حق أخوتى بالغيب، و كذلك منع التمتع بالنساء لكى لا ينصرف الفكر هناك إلا لطاعة الخالق وحده.

و من طاعته ما أشرنا إليه من إحكام الوصلة مع إخوانه المؤمنين، و هذا الأمر و هو كون الحج مشتملا على حكمة الوصلة بين الأمم قد أشار إليه بعض المتأخرين تبعاً لبعض المتقدمين فى التحريض على مزيد المواصلة بين الأمة، و قالوا: إن أهل المحلة الواحدة أكد عليهم الشارع زيادة عما يلزم فى حق الجوار أمراً تضمنته عبادة الخالق و هو اجتماعهم خمس مرات فى اليوم بمسجد محلتهم للصلوات الخمس، فيجتمع الأعلى و الأدنى فى

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ٢٩٣

صعيد واحد بيت الله على سواء فيروا أحوال بعضهم و يتأنس البعض بالبعض لكى تتأكد الوصلة الروحية بالوصلة البدنية و يعمل كل بما يجب عليه فى حق أخيه، ثم أوجب على أهل المصر الواحد الاجتماع العام فى يوم من الأسبوع و هو يوم الجمعة ليحصل ما أشير إليه مع جميع أهل المصر، ثم زاد لهؤلاء يومين آخرين فى كل سنة على حاله مخصوصة من إظهار الترفه لكل واحد بحسب حاله حتى يستدل غيره بهيئته على حالته ليعلم مقتضى الحال فى الوصلة و ذلك يومى العيد، و كان وجه تكرير ذلك مرتين إحداهما بعد الصيام شهراً المؤثر فى الخلق و فى الخلق و الثانية فى وسط العام على معتاد الناس لمزيد التبين فيما يقتضيه الحال للتعرف بالفراسة، و أكد الشارع فى جميع هاته الاجتماعات باجتناب المنفرات و باجتلاب المقربات كالتباعد من أكل الثوم و كالتطيب و النظافة، ثم أوجب على كل فرد الحج مرة فى العمر و رغبه فيما زاد على ذلك ليحصل ما أشرنا إليه فى الحج و لا شك أن التيسير للحج لا يحصل لجميع أهل القطر كلهم فى عام واحد فيحصل على الإستمرار اجتماع الأمم من كل قطر فى عام فإذا حصل منهم ما أشرنا إليه دامت المواصلة بينهم و لا أقل أنها تحصل فى ذلك الوقت وحده، أما إذا عمل بمقتضى التعرف فإنها تشتد الوصلة بالمراسلات و الأسفار و التجارة فضلاً عما يجب أحياناً من الفزع من أمة إلى إغانة أمة أخرى و إنقاذها إذا هجم عليها العدو كما هو معلوم فى وجوب القتال و جوبا عينياً على كل فرد فيما إذا هجم العدو على قسم من الأمة و عجز أو تقاعس عن دفاعه، فإنه يجب على من جاوره أو بلغ إليه الخبر إنقاذه، و منه يسرى إلى من وراءه و هكذا حتى يعم الوجوب المشرق و المغرب و لو على النساء و الأطفال ممن يقدر على الدفاع، و ما ذاك كله إلا لتوحد المؤمنين و حفظ بيضتهم الإسلامية، لكننا الآن نرى أن الناس غافلون عن جميع ما ذكرناه و لا يعتبرون تلك الحكمة و لا يلتفتون إليها، و لا نرى إلا أهل كل إقليم مقتصرين على مجرد الخلطة مع بعضهم فقط بل ربما لا يخاطبون و لا يتعرفون إلا بمن عرفوه فى بلدتهم سابقاً فضلاً عن التخالط مع أهالى الأقاليم الآخر كأنهم ليسوا منهم و لا هم مكلفون بالوفاء لهم بحاجاتهم، حتى أنه ترجع الناس إلى أقطارهم من غير شعور لهم بشىء من حالة إخوانهم فى الأقطار الآخر كأنهم لا مطالب لهم بشىء، و قد كانت رجال الأمة على غير هذا و كانوا ملاحظين لما ذكرناه، فترى من حج منهم يتعرف بأهالى الأرض و حصل بذلك اشتهاً رجال الأمة فى الأقطار لا سيما العلماء و الصالحين، فإنهم ينتشر ذكرهم و يطير سيظهم بما يسمع عنهم من الحجاج و إن لم يروه فى حجهم، و من طالع التواريخ و السير و الرحلات علم من ذلك كثيراً فسبحان محول الأحوال و هو الباقي لا رب سواه.

الفصل الثالث: فى التعريف بالحجاز

إشارة

إعلم أن الحجاز قسم من جزيرة العرب ممتد على شاطئ البحر الأحمر و حدوده الآن التى تحت تصرف الدولة العثمانية هى أنه يحده

شمالا الغمير، و غربا البحر الأحمر، و جنوبا اليمن من قرب صنعاء، و شرقا الحناكية و هي تبعد شرقا عن المدينة بمرحلتين في صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ٢٩٤ حدود نجد، و هذا الحجاز أحد أقسام جزيرة العرب الخمس و هي:

اليمن و هو القسم الجنوبي منها الممتد على شاطئها على المحيط الهندي إلى أن يصل إلى خليج فارس. و الحجاز هو القسم الثاني و هو القسم الغربي منها الممتد على شاطئ البحر الأحمر.

و يليه شرقا القسم الثالث و هو نجد يتصل شمالا بالشام و يحده غربا الحجاز و شرقا العراق و جنوبا اليمامة.

و القسم الرابع تهامة و كان مقره بين الحجاز و اليمن و يمتد من البحر الأحمر إلى أن يتصل باليمامة على خليج فارس فيحده جنوبا اليمن، و شمالا الحجاز، ثم نجد، و شرقا اليمامة، و غربا البحر الأحمر. و قد اضمحل هذا القسم في اعتباره السياسي، و صار مقسما بين جيرانه.

و القسم الخامس هو اليمامة و هي يحدها جنوبا اليمن، و شمالا العراق، و شرقا خليج فارس، و غربا نجد، و كذلك هذا القسم صار في السياسة تابعا أغلبه لنجد، فتلك الأقسام هي الأقسام الأصلية ببلاد العرب التي كانت معتبرة أقساما أصلية للقارة و إن كانت لا فرق بينها من جهة طبيعة الأرض، غير أن القسم المشهور بحسن الهواء و خصوبة الأرض و جودة الحيوانات فهو قسم نجد، و طال ذكره في أشعار العرب و امتدحه بينهم، و أما بقية الأقسام كلها فما كان منها مرتفعا فهو جيد الهواء و خصب النبات و ما كان منخفضا فهو حار أجذب و على ذلك النحو ما نحن بصدده و هو الحجاز و قد علمت حدوده الآن.

و أما جباله فهي كثيرة و إن شئت قلت إنه كله جبال قحله صخرية متشققة سوداء من شدة الحر و ليس بها جبل بلكاني، غير أنه في مستهل جمادى الثانية سنة ٦٥٤ هـ حصل في المدينة المنورة و ما حولها زلزال شديد دام أزيد من ثلاثة أيام بلياليها، ثم أعقبه خروج نار هائلة من جهة جنوب المدينة على مرحلة منها من جهة الموضع المعروف (حبس و سيل)،

و سالت النار في وادي أحيلين كالنهر العظيم تحطم جميع ما مرت به و تجعل الصخور ذائبة مائعة تجرى كالنهر العريض العظيم، و امتد سائلا إلى قرب المدينة أي إلى أن بلغ حرمها فصرفت عنها ذات الشمال و وقف و انطفأت النار بعد أن كانت ظهرت أول يوم نهار الجمعة كالقمام الأسود الذي عم الأفق حتى أظلم الجو و ظنوا أن الشمس و القمر قد كسفا، ثم لما أظلم الليل ظهر ضوءها و علا في الجو إلى أن رثيت من حول بصرى و من مكة و الطائف، و كان لها دوى كالرعد و نهرها يغلى بأموج كالبحر من النار المتلاطمة و تقذف في الهواء الصخور كالجبال و المدن، و نهرها ذو ألوان زرق و حمر و رعبت منها قلوب الناس و التجأوا إلى ملاذ الخلق رسول الله صلى الله عليه و سلم فلما بلغ سيلها إلى حرم المدينة صرفت و انطفأت و مع عظيم لهيبها و سطوع ضوئها على الأماكن البعيدة لم يصل من حرها إلى المدينة المنورة شيء، و كان النسيم يأتيها باردا و كان خروج تلك النار إحدى معجزاته

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ٢٩٥

صلى الله عليه و سلم التي لا تحصي فقد روى البخارى و مسلم في صحيحهما و هما في أول القرن الثالث حديث «لا تقوم الساعة حتى تظهر نار الحجاز» و للبخارى «تخرج نار من أرض الحجاز تضيء أعناق الإبل ببصرى» و رواياتها كثيرة حتى كان في إحداها تعيين محل خروجها و إنذار الساكنين به منها فكان الأمر كما قال صلى الله عليه و سلم.

و بقية جبال الحجاز كثيرة منها المشهور كأحد، و أبى قبيس، و عرفات، و هو ليس بمرتفع، و من أحسن جبالها هواء الطائف فإنه في شدة الصيف يكون معتدل الهواء و هو مصيف أعيان مكة و جدة، و أما أنهر الحجاز فليس به نهر مستديم و إنما تسيل الأنهر به عند نزول المطر حتى أن أحدها يأتي من جبال الطائف و يمر على المدينة المنورة على صاحبها أكمل الصلاة و السلام ثم يذهب مغربا إلى البحر، و أما البحيرات فليس بالحجاز بحيرة، و أما العيون فيها عيون عظيمة عذبة، إحداها: العين الزرقاء التي تسقى المدينة و هي نابعة من قباء تحت الأرض في عمق عدة أذرع و تذهب إلى المدينة تحت الأرض و عليها عدة منافذ لملء الماء و فيها الكفاية لجميع

البلد و ما حولها، و إنما سميت الزرقاء نسبةً لجاذبها مروان بن الحكم أزرق العينين أجراها بأمر معاوية رضى الله عنه، و منها عين زبيدة التى تسقى بها مكة و هى آتية من قرب عرفات تحت الأرض مثل السابقة و قد أجزتها زبيدة زوج الرشيد العباسى، و قد عمرت الآن عمارة حسنة صارت بها فى غاية الإنتظام، و منها عين بلد الصفراء و هى أيضا تحت الأرض لكنها ليست بمنخفضة بل أنها تبعد عن سطح الأرض نحو ذراعين و بها ماء غزير صاف عذب حار يشرب، فإذا حمل فى الأوانى برد و هى تغور بعد البلد فى الأرض و لا ينتفع منها إلا بشىء يسير للشرب و سقى بعض بساتين، و مثلها عين بلد الجديدة مع أن كلا منهما يصلح لسقى غابة عظيمة مع حسن الماء وجودته، فقد شاهدت عين الصفراء و قد أناخت حولها قافلتنا المحتوية على أزيد من ستمائة نسمة و هرع إلى العين جميعهم لغسل أبدانهم و ثيابهم بل و لغسل أكراش الغنم التى ذبحت يومها فى القافلة، و مع تراكم تلك الأوساخ كنت أرى الحصباء كالفضة فى مجرى العين و الماء يزيد عمقه عن ذراعين.

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ٢٩٦

و أما هواء الحجاز فهو على الجملة حار لمكان عرضه من خط الإستواء و لا شك أن الأودية بين الجبال تزيد حرا بخلاف المرتفع، و لذلك يختلف الحال فمع كون مكة المشرفة شديدة الحر حتى إنى كنت بها فى دجنبر و لما أردت صلاة العشاء فى الحرم لم أستطع الجلوس على الأرض بدون بساط فى وقت العشاء لما أثرت الشمس فى الأرض، فإن الطائف لا يمكن فيه فى الصيف لا التدر فى الليل بالغطاء الثخين، و قد شاهدت من أمر السراب شيئاً عجيباً فإنى لما كنت مسافراً من مكة إلى المدينة سمعت من أصحاب القافلة أنهم يقولون إن الماء هنا ليس بموجود و لا بد من المبيت على الماء، و كان الوقت بعد العصر فرأيت على قرب من الطريق غدراناً كثيرة فسألت الجمال: هل هنا سبخة أم أن المطر صبت قبل مرورنا؟ فقال: كل ذلك لم يقع، فقلت: من أين هذه الغدران حينئذ؟ فقال: ليس هنا غدران و إنما ذاك سراب فلم نظمئن لقوله و أرسلت أحد أتباعى بإناء ليملأه من ذلك الماء الذى أريته له فشاهده و ذهب إليه، فلما بلغه صاح لى قائلاً ليس هنا شىء، فضحك منى الجمال و ما ذاك إلا للتعود فإنى لم أعهد السراب على ذلك النحو، و ذلك لحر القطر و تأثير الهواء بذلك.

و أما نباتاته فنبت بالحجاز جميع النبات الذى يكون بالأقاليم الحارة و وراء جبل أحد من الشق المقابل للمدينة غابة كبرى بها عيون ضعيفة و أشجار كثيرة صالحة للبناء بأخشابها، و أكثر الشجر المستنبت النخيل على أنواع شتى و بقية الشجر ذو الغلال يغرس منه الليمون بكثرة و البردقان و العنب و الرمان و هو جيد للغاية لا سيما رمان الطائف و التين، كما يستنبت بعض البقول مثل الباميا و الطماطم و قليل من بقية المستنبتات، و من تأمل الحكمة فى حماية أشجار الحرم المكى و المدنى من القطع، علم قصد الشارع إلى استكثار الشجر هناك، لما يعود من مصلحته على الأمة، فإنه يجلب السحب و يكثر المطر و يحسن الهواء و يشرح النفوس و يقى الناس من الشمس و يلطف الحر و يوقد بفواضل ما يقطع منه للتحسين، و من شاهد تلك البقاع علم شدة الإحتياج إلى الإستظلال من الشمس، و علم حكمة تحريم [قطع] الشجر حول البلدين المكرمين اللذين تلزم عمارتهما و تهرع الناس إليهما من كل فج عميق، و قد أشار إلى حكمة تحسين الحرم بالشجر و حرمة قطعه بعض العلماء و منهم:

السمهودى فى خلاصة الوفا بأخبار دار المصطفى صلى الله عليه و سلم فقال: قال الطحاوى: يحتمل

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ٢٩٧

أن يكون سبب النهى عن صيد المدينة و قطع شجرها كون الهجرة كانت إليها و كان بقاء ذلك مما يزيد فى رؤيتها و يدعو إليها، كما روى عن ابن عمر رضى الله عنهما: أن النبى صلى الله عليه و سلم «نهى عن هدم آطام المدينة فإنها من زينتها» فلما انقطعت الهجرة زال ذلك الخ، و قوله:

انقطعت الهجرة أى بقوله صلى الله عليه و سلم: «لا هجرة بعد الفتح» و كلامه تعليل لمذهب الحنفية فى عدم تحريم المدينة و أما الأئمة الثلاثة فهم على تحريمها مثل مكة و أدلتهم قوية، و الحاصل أن مرادنا هو أن تكثير الشجر فى البلاد لا سيما البلاد الحارة مما

يرغب فيه، و قد صرح الفقهاء فى كتاب السير بالنهى عن قطع شجر دار الحرب بلا حاجة إليه فكيف بغيرها فضلا عن دار خير الخلق عليه الصلاة و السلام، القائل بتحريمها و تحريم ما حولها أكثر الأئمة رضى الله عنهم مع الفائدة الظاهرة من ذلك. و أما حيوانات الحجاز فيوجد به الحيوانات الأنيسة المعلومه كلها لا سيما الخيل العرابية التى يضرب بها المثل فى الدنيا و ترغب فيها جميع الأمم، و أعلاها الخيل النجدية، و كذلك الإبل الجيدة لا سيما النجيبات السريعة مثل ما ذكرنا بمصر، و أحسن منها، كما توجد البغال بقله و الحمير بكثرة و الحيوانات البرية كلها موجودة إلا القليل كالدب و الفيل، و أما الأسد و النمر فموجود بكثرة و كفى بما ذكره بشر فى قصيدته، التى شطرها الشيخ قبادو التونسى، بعد أن زاد عليها مطلقا بيانا لحالة أسود أرض العرب، و تلك القصيدة لما كانت بديعة أثبتها هنا مع تشطيرها لتنظر براءة المشطر الذى صار كأنه بدوى قح مع كونه حضريا بحت و هى:

أفاطم لو شهدت بطن خبت لهانت عندك الأخبار خبرا
و لو أشرفت فى جنح عليه و قد لاقى الهزبر أخاك بشرا
إذا لرأيت ليثا أم ليثا و كل منهما بأخيه مغرى

يرى كل على ثقة أخاه هزبرا أغلبا لاقى هزبرا
تبهنس إذ تقاعس عنه مهري و أقبل نحوه أذنيه ذعرا

فكاد يريبه فيخال منى محاذرة فقلت عقرت مهرا
أنل قدمى ظهر الأرض إنى أرى قدمى للأقدام أخرى
و لست مزحزحى شيئا و لكن رأيت الأرض أثبت منك ظهرا
و قلت له و قد أبدى نصالاباهرة فأغر يصرن صرا
و سوسا ذات ألاحظ تلظى محددة و وجهها مكفهر
يكفكف غيلة إحدى يديه كبالى القوس ينزع مسبطرا

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ٢٩٨ و لا يثنى براثن منه إلا و ييسط للوثوب على أخرى

نصحتك فالتمس يا ليث غيرى فلى بقيا عليك و أنت أدرى

و مهري قائل لك لا تخلنى طعاما إن لحمى كان مرا

ألم يبلغك ما فعلته كفى ألت ترى بها الأطفار حمرا

ألم تك طاعما أشلاء فتكى بكاطمة غداة قتلت عمرا

فلما خال أن النصح غش و غرته الجراءة فاستغرا

ولج على التهور فى نزال و خالفنى كأنى قلت هجرا

مشى و مشيت من أسدين رامامساورة فلاقى البحر بحرا

و رجا الأرض إذا بغيا عليها مراما كان إذا طلباه وعرا

سللت له الحسام فخلت أنى أسلت من المجره فيه نهرا

و لم أمش الضراء له لأنى شققت به لدى الظلماء فجرا

و أطلقت المهند من يمينى فأوثقه لغير المن أسرا

بأبريق هفا هفو إن برق فقد له من الأضلاع عسرا

فخر مضر جا بدم كأنى بمهجته أفضت عليه سترا

و كدت لهول وجبته أرانى هدمت به بناء مشمخرا

بضربة فيصل تركته شفعاو شقاه لقي بطنا و ظهرها
 و شيكاما انثنى منها مثني لدى و قبلها قد كان و ترا
 و قلت له يعز عليّ أنى أراك معفرا شطرا فشطرا
 و استحي المروءة أن ترانى قتلت مناسبى جلدا و قهرا
 و لكن رمت أمرا لم يرمه أبى لا يبيع النفس خسرا
 و لم يك سامنى بالنصح خسفا سواك فلم أطق يا ليث صبرا
 تحاول أن تعلمنى فرارافهل علمت نفسك أن تفرا
 و تنفض مذرويك لفعل عزمى لعمر أيبك قد حاولت نكرا
 أتيت تروم للأشبال قوتاللت به الدماء و رعت سفرا
 و لكنى أقيد بها و أحمى و أطلب لابنة البكرى مهرا
 فلا تبعد فقد لاقيت حرايرى و يقزان أبلغت عذرا
 و عن كرم برزت إلى كريم يحاذر أن يعاب فمت حرا
 و لا أسف على عمر تقضى أفادك منه حسن الذكر عمرا

و أما معادن الحجاز فإنه يوجد به المرمر الرفيع، و يوجد قريبا من المدينة المنورة على صاحبها أفضل الصلاة و السلام حجر البلور المشابه للإلماس، و يوجد أيضا الذهب و كان مستخرجا ثم دثر، و لا- يبعد وجود الفحم الحجرى و كذلك غيره من المعادن المحتاجة للبحث عنها.

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ٢٩٩

و أما مدن الحجاز فأصل قاعدته و قاعدة عموم الإسلام هى المدينة المنورة و كانت مدة إقامة الخلافة بها اتسعت و كبرت و كذلك بعد ذلك فى العصور الأولى من الإسلام و إن حدث فيها الخراب الكلى و الجلاء العام مدة يزيد، ثم دون ذلك مدة القرامطة، ثم تراجع عمرانها إلى النمو ثم عادت إلى ما هى عليه الآن مما ذكرناه فى صفتها، و قاعدة الحكومة الحجازية الآن هى مكة المشرفة و قد مر ذكر صفتها و من اعتبر ما جرى عليه الحال فى ظهور الإسلام يرى أن عناية الله بالمدينة عظيمة و قد جعلها مظهرا للدين القويم و انتصارا لرسوله الأمين عليه الصلاة و السلام، و كانت مكة تابعة فى الحكم للمدينة حتى بعد فتح مكة، و قد خالج الأنصار عند الفتح انتقال النبي صلى الله عليه و سلم إلى بلده الأصيلى «فأعلمهم بأنه لا يفارقهم و استقر هو و من بعده من الخلفاء الراشدين بالمدينة إلى خلافة سيدنا على فكان صدرها بالمدينة و آخرها بالكوفة»، و مع ذلك فقاعدة حكم الحجاز هى المدينة و ذلك هو الموافق لحالة السياسة لتوغل المدينة من القارة، و إذا كان الحاكم فى مكان تمهدت سائر السبل إليه، و على تقدير حدوث بعض العوائق فى الطرق يزال عن عجل و تنفذ الأحكام فى الأطراف لاستقرار القوة فى الوسط، و ليست مكة المشرفة على ذلك النمط و قد تغير الحال مرارا مدة الإسلام فى قاعدة الحكم بالحجاز فكان الأمر على ما ذكرناه من كون المدينة هى القاعدة، ثم انفردت مكة بحكمها و بقيت المدينة مستقلة ثم صارت الأحوال تتقلب فتارة تكون مكة تابعة و تارة متبوعه و تارة مستقل كل منهما بحكم و لو بعد استقرار الدولة العثمانية، و الذى عليه العمل الآن هو أن مكة هى القاعدة و للمدينة حاكم يرجع فى أمره إلى حكومة مكة، و أما بقية المدن بالحجاز فليست بموجودة و إنما الموجود عبارة عن قرى مثل الطائف و هى أكبرها، و الصفراء و الجديدة و حده و رابغ و خيبر، و قد غلط كثير من الجغرافيين حتى من المسلمين فى ذكرهم لسكان هاته البلدة و كونهم يهود اغترارا بما كان فى أصلهم و غفلة عما وقع فى خلافة سيدنا عمر رضى الله عنه من جلاء جميع الأديان إلا الإسلام عن جزيرة العرب مستندا للنص من الشارع فى كونه لا يجتمع بها دينان، و منذ ذلك التاريخ لم يبق بها إلا المسلمون، و سكانها الآن من ضعفاء القبائل مسلمون و هم تبع لحكم المدينة صورة و فى الحقيقة

تحت حكم محمد بن رشيد النجدي، أكبر حكام قبائل نجد بل هو الحاكم على جميع أواسط قارة

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ٣٠٠

جزيرة العرب و هو على مذهب الوهابي و له نفوذ تام و حكم عادل ذو هيبة و سطوة بحيث أن رقعة منه بيد حاملها تؤمنه في جميع الأنحاء من أواسط القارة، و يجلس في مجلس حكمه و يحضر القاضى و معه أحد العلماء بصفة المفتى و يقف حوله أصحاب الخيل من أعوانه ليرسلهم في الخصومات، فإذا دخل المشتكى ألقى دعواه على القاضى و يجيب خصمه بما يظهر له و يحكم القاضى بما يراه فيستشير الأمير ذلك العالم الحاضر، هل أن حكم القاضى موافق للشرع أم لا؟ فإن وافقه فيها و إلا تباحثا و ما يرسى عليه ينفذه الأمير حالا، و أما النوازل المتعلقة بالإدارة و حفظ الأمن فيحكم فيها باجتهاده مراعيًا فيها الإنصاف و العدل بما لا يخرجها عن السياسة الشرعية مع الصرامة التامة في التنفيذ، حتى أنه قيل: إنه أتاه يوما رجل و هو في مجلسه الحكمى و أخبره بأنه وجد عدلا لبعير ملقى في الطريق و هو مملوء بالرمل و لا يعلم صاحبه فأخبره به لكي يبلغه محله فسأله الأمير من أين علمت أنه رمل فقال له إنى مسسته فقال له كيف مسسته و بأى يد فقال له مسسته بيدي هاته و أشار بإحدى يديه فما كان من الأمير إلا أن جرد سيفه و قطعها و قال له ما كان ينبغي لك أن تمسه حتى تعلم ما فيه، و أى فائدة لك في ذلك لو لا نيتك الخيانة إذ لو وجدته شيئا مثمنا لما كنت أخبرت عنه، و من علم حالات القوم و طباعهم في هاته الأزمان يرى أن ذلك الحكم الصارم مطابق لما يقتضيه الحال إذ لم تأمن من ولايته و لم تستقر بها الراحة و الهناء إلا بمثل ذلك الحكم، و إذا أمر أحدا بأمر و لم ينفذه و لم تحمله قبيلته على تنفيذه، فإنه يصدر في الحال أوامره إلى القبائل التي يمر عليها إلى جهة المأمور بحضور فرسانهم في وقت معين، ثم يركب هو و فرسان جيشه و ما مر بقبيلة من المأمورين المشار إليهم إلا انضموا إليه إلى أن يعظم جيشه فيصل إلى المأمور و قبيلته و يأخذهم أخذة رابية و يملك أرزاقهم لمن كان معه من المعسكر، و بمثل ذلك نفذ أمره و علاصيته و خضعت القبائل إليه مع كونه جوادا و فيا بالعهد على الهمة على شيمه كرام العرب.

و هاته البلدان المار ذكرها أغلبها به حصن أو بقربه حصن لإقامة العساكر للمحافظة على الأمن، غير أن أغلب الحصون صار خرابا للإهمال، و ليس به حامية.

و أما مراسى الحجاز فأعظمها مرسى جدة ثم ينبع البحر و هاته هي أقرب المراسى إلى المدينة المنورة بحيث يصلها البريد في يوم و تبلغها القوافل في ثلاثة، ثم بقية المراسى على قلتها ليس لها أهمية غير أن الموجود منها كلها، هي مراسى أمينة للسفن لما خلقها الله عليه من إحاطة الصخور العظيمة حول الحوض الذى ترسى به السفن، بحيث يصح أن يقال إن الذين انتخبوا تلك البقاع تجعلها بلدانا للمراسى هم من حذاق أهل التدبير و اتساع المعارف بالصناعة البحرية، فقد شاهدت كلا من مرستى جدة و ينبع و حوض كليهما يسع مئين من السفن الضخام فى أمن تام و لو عند تلاطم الأمواج التى كالجبال، و أغلب الخريتين لا يدخلونها إلا بدليل من بحرية أهالى تلك المراسى، و قد شاهدت الخريطة البحرية التى فى الباخرة المصرية التى سافرت فيها إلى جدة معلما بها على جميع الحجارة المستورة بالبحر

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ٣٠١

حوالى شاطئ البحر الأحمر مع بيان حجمها و مركزها، و هى من صنع الإنكليزيين فسألتهم هل لهم خريطة مصرية أو عثمانية فأجابوا بأن تلك الخريطة هى المعول عليها عند جميع الأمم و لو العثمانيين، الذين يعد البحر الأحمر بحيرة فى مملكتهم من جميع جهاته فعجبت و انذهلت من حزم قوم و إهمال آخرين، و هى إحدى علامات تأخرنا إذ صرنا لا نعلم بلادنا و شواطئها إلا بتعريف الأجانب لنا بها و سبحان الفعال لما يريد.

و أما سكان الحجاز فهم كلهم عرب من نسل العرب الأقدمين إلا سكان البلدين المكرمين فأغلبهم من الوافدين من جميع الأقطار و أكثرهم بمكة من الهنود، و أما فى المدينة فأكثرهم من المغاربة و عدد جميع السكان فى الحجاز يقرب من نحو مليونين، فالذين

يعمرون الأرض ما بين مكة و المدينة هم قبيلة مزينة و تعرف بالأحامدة و منها فخذ يعرف بقبيلة حرب، و هم التجار و منهم البغاة الذين يكثرون قطع الطرق بين البلدين المكرمين، و هاته القبيلة و هى مزينة المعروفة بالأحامدة، تنقسم إلى قسمين كبيرين أولهما: يسمى المسروح، و هم سكان البرارى من مكة إلى الصفراء، و ثانيهما: يعرف بنى سالم و منهم فخذ حرب، و هم سكان بقية الجهات، و ديانة الجميع هى الإسلام على مذاهب شتى أغلبهم أهل سنة على المذهب الحنفى و الشافعى، و انتشر فيهم التعاليم الدينية بكثرة زوايا الشيخ السنوسى المنتشرة فى جميع جهاتهم و قد مر الكلام على مذهبهم عند الكلام على جزيرة العرب فى المقدمة و على حوادث تونس فى فصل سفرى إلى فرنسا، كما يوجد المذهب الوهابى بقله و إن كثر فى جهات نجد الخارجة عن حكم الحجاز، و أما تقاسيم الأهالى بالنظر للحكم فإن كل قبيلة لها مشايخ منها و يرجع الجميع إلى أمير مكة السيد الشريف.

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ٣٠٢

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله اللهم صل على سيدنا و مولانا محمد و آله و سلم تسليمًا

فصل فى تاريخ الحجاز

مطلب فى تاريخه القديم

اعلم أن سكان الحجاز هم العرب فتاريخه هو تاريخهم نعم قد كان الحجاز معمورا قبلهم لكن ذلك العمران قد جهل تاريخه بالمرّة لتقدم العهد تقادما كثيرا، و غاية ما يعلم من حوادث ذلك التاريخ هو بعض جزئيات لها تعلق ببعض الأماكن المشرفة هناك، مثل بيت الله الحرام، فإنها بنيت منذ عهد سيدنا آدم أبى البشر عليه الصلاة و السلام و جددت أيضا قبل سيدنا إبراهيم، و لكن الأخبار عن ذلك كادت أن تكون خلية عن التحقيق، ثم أنه لما تكوّنت أمّة العرب و استقرت فى جزيرتها حدثت فيها حوادث تاريخية مهمة جدًا غير أنها فى ذاتها أيضا منقسمة إلى أربعة أقسام باعتبار إنقسام العرب فى أنفسهم، لأن العرب منذ نشأتهم إلى الآن منقسمون إلى أربع طبقات، فالطبقة الأولى: هى العرب البائدة، و الثانية:

العرب العاربة، و الثالثة: العرب المستعربة، و الرابعة: العرب المولدين أو المخضرمين.

فأما الطبقة الأولى: فهى التى كانت قبل سيدنا إبراهيم و إنما سميت بائدة لإبادتها أى انقطاعها و انقطاع أخبارها و إن كانت ذريتها لم تزل و هم بقبيلة الطبقات و انقطاع أخبارها إنما جاء من شدة طول العهد و الأمد فلم يعلم من أحوالهم إلا بعض حوادث قصتها الله تعالى فى القرآن المجيد مثل ما ذكر من أحوال رسول الله سيدنا صالح إلى قومه ثمود، و كذلك قصة عاد مع رسولهم سيدنا هود، و الإشارة إلى ما كان لهاته الأمّة من القوة و العمران و الثروة و شدة البأس إلى غير ذلك من أحوال انقراضهم و الإعتبار بما كان لهم و بقيت بعض آثاره فى ديارهم، و أما غير ذلك من تفاصيل تاريخهم فلا يوجد منه إلّا قصص يذكرها بعض المفسرين أو المؤرخين لا سند لهم فيها إلّا الإعجاب بقصص القصص ممّا لا ينبغى الاعتماد عليه اللهم إلّا ما إذا ورد شىء من ذلك عن الصادق الأمين رسول الله صلى الله عليه و سلم فإنه ينبغى أن يتلقى بالقبول.

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ٣٠٣

و لعله لا يوجد من ذلك عدا ما فى القرآن المجيد إلّا ما ندر مما روى بصحيح السند، و هكذا ما يروى عن الصحابة رضى الله عنهم فى ذلك الصدد لأنهم إذا صحت الرواية عنهم لا يقولون إلّا ما له ثبوت بإحدى الوجوه الموصلة و حاشاهم أن يذكروا خرافات القصص، و لذلك كانت الأخبار عن تلك الطبقة من العرب فى غاية الإبهام.

و إنما المحقق منها هو أنهم كانوا أمة عظيمة ذات نخوة و شهرة و عمّروا الأرض عمراناً عظيماً و حادوا عن جادة الصواب في عبادة الخالق، فأرسل إليهم الرسل في أزمان مختلفة يدعونهم إلى الرشاد فعاندوا إلى أن أحاط بهم العقاب، و طول الزمن الواقع ما بين أولئك الرسل الدال عليه سياق القرآن المجيد و الدال عليه أيضاً نسيان القوم لما كان أصاب سابقهم يدل على طول الزمن بين سيدنا نوح و بين سيدنا إبراهيم عليهم جميعاً الصلاة و السلام زيادة على ما يزعم أنه مذكور في التوراة بأضعاف مضاعفة، فإن تكوّن الأمة و كثرتها بعد الطوفان إلى أن تبلغ إلى ذلك المقدار من الكثرة و الشدة و غير ذلك من الصفات لا بدّ له من زمن طويل كاف لتكوّن ذلك العدد الوافر من رجل واحد، ثم أن نسيانهم لمعجزة الطوفان و سبب نجاه جدهم يستدعي أيضاً ذلك الطول، ثم أن تعدّد الرسل مع التعاقب أي أن كل واحد منهم في زمن بعد الآخر و كل واحد منهم يحل العقاب بمن خالفوه فبعضهم أهلك بالريح و بعضهم أهلك بالصيحة إلى غير ذلك يدل أيضاً على شدة طول الزمن فيما بينهم حتى تنوسى خبر السابق و كل ذلك قبل سيدنا إبراهيم عليه السلام، فلا بدّ أن تكون المدة بينه و بين سيدنا نوح طويلة جداً لا يعلم مقدارها إلا الله تعالى، و مجموع ذلك يدل على طول عمر الدنيا و إنما غايتها إنها حادثه و أنها مآلها إلى الفناء و هذا كله يبين لنا معنى قوله عليه الصلاة و السلام. «بعثت أنا و الساعة كهاتين» و قرن بين إصبعيه الكريمتين الوسطى و السبابة، و كذلك ما دلّ من الآيات و الأحاديث على قرب الساعة، فربّ قائل يقول أين هذا القرب و هذا الإقتراب و قد مضى من زمن البعثه إلى الآن أزيد من ألف و ثلاثمائة سنه و مع ذلك لم تظهر العلامات الكبرى كنزول سيدنا عيسى عليه السلام و طلوع الشمس من مغربها إلى غير ذلك؟ فنقول له: إن الأمور نسيئة فمن علم المقدار الكثير من مدة الدنيا التي مضت و علم ما بقي منها رأى أن الساعة قربت و أنها مقترنة بالبعثه، و لا يتأتى ذلك إلا إذا كانت المدة الماضية طويلة طولاً كثيراً كما هو الواقع و المشاهد من حالة الآثار الدالة على أن ما مضى يزيد على العشرات من آلاف السنين فنسبه

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ٣٠٤

ألفين سنه أو ثلاثة آلاف من تلك العشرات من الألف ما هي إلا كنسبه المتلاصقين و المقترب، و أما إذا اعتبر ما يزعمه أهل الكتاب من المدة و أنها ستة آلاف مثلاً فلا يمكن الفهم إلا على ضرب من التأويل الذي لا حاجة إليه لمخالفته للواقع و لتبين التحريف الثابت فيما يستند إليه أهل الكتاب الذي غرهم فيما ذكر فله الحمد على تنزّه شريعتنا المطهرة عن مثل الخرافات المخالفة للواقع.

و أما الطبقة الثانية من العرب: و هي العرب العاربة فهي التي من زمن سيدنا إبراهيم و سيدنا إسماعيل ابنه أبي العرب المعروفين إلى عصر البعثه، و هاته الطبقة أخبارها معروفة إجمالاً لا سيما قرونها المتأخرة بما يستنتج من أشعارها و قصائدها و أخلاقها و إن كانت تفاصيل الحوادث التاريخية غير محققة لا سيما القرون الأولى لها و المتوسطة لعدم وجود تواريخ محررة في أخبار هاته الأمم من العرب دونت قبل الإسلام، و إنما الذي يوجد في ذلك من التأليف إنما هو بعد الإسلام عندما حدث تدوين الكتب في الأمة الإسلامية و ذلك من القرن الثالث من الهجرة، فيوجد في التواريخ الإسلامية أخبار كثيرة عن هاته الطبقة و كثير منها تلوح عليه سمات الصحة لما يؤيده من الأشعار في الوقائع و حوادثها و إتيانها على جميع ذلك في هذه الخلاصة مغاير لمقصدنا لأنه لا يكون إلا زيادة نسخة من إحدى التواريخ المشتهرة في ذلك، مثل تاريخ المسعودي أو تاريخ ابن خلدون أو غيرهما من التواريخ الكثيرة، و إنما الذي يليق بنا ذكره هو أن نقول: إن هاته الأمة قد انتشأت فيها دول عظيمة و ممالك واسعة و كانت في أغلب الأوقات منقسمة إلى ثلاثة أقسام جنوبي و شمالي و وسط:

فأما القسم الجنوبي: فهو اليمن و حدثت فيه دول عظيمة مستقلة بنفسها في أغلب الأوقات و لكنها لم تتسلط على غيرها من الأمم إلا نادراً، نعم قد يتسلط عليها غيرها أحياناً فتارة تكون تابعة لمملوك فارس و هو الأكثر و تارة تتبع دولة الحبش أو دولة اليونان أو الرومان أو المصريين، و في كل الأحوال الأغلب أن يكون حكامها منها و إن كانوا تابعين لغيرهم ممن ذكرناه، و نشأ فيهم تمدن جميل كما تدل عليه الآثار التي حول المدن القديمة مثل صنعاء و غيرها، و صار في اليمن رجال ذوى فطنة و فكر و قاد و تأهل للكمال كما يرشد إليه الحديث الشريف القائل: «الإيمان يمان و الحكمة يمانية» أو كما قال عليه الصلاة و السلام.

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ٣٠٥

و أما القسم الشمالي: فهو مملكة غسان أى الجهة الموالية للشام و العراق، فهاته كثيرا ما حدثت بها دول مستقلة ذات شأن لكنها لم تبلغ مقام دول اليمن، و فى أكثر الأحوال تكون هاته المملكة تابعة لصاحب ملك الشام كالرومان و غيرهم، و فى أكثر الأحوال أيضا تكون رؤسائهم منهم و إن كانوا تابعين لغيرهم.

و أما القسم الثالث: و هو الوسط الشامل للحجاز و نجد و تهامة، فالحجاز منه فى أغلب الأوقات إن لم نقل فى كلها كان منفردا. و أما غيره فيكون تارة تابعا للجنوب و تارة للشمال و تارة ينفرد بنفسه مثل الحجاز، و الحجاز الذى هو بيت القصيد مع كونه كان منفردا عن الخضوع لغيره، إلما أن يكون خضوعا إسميًا بمعنى الادلاء بالبيعة لبعض ملوك اليمن العظيمة الملك فإنه فى نفسه لم تكن به دولة ملكية قط و إنما جميع السكان منقسمون إلى قبائل كل قبيلة خاضعة إلى رؤسائها فقط، و لا سلطة لواحدة على أخرى إلما ما يكون على طريق الظلم و العدوان، و قد انفردت قبيلة قريش من بين سائر قبائل العرب بالمجد و الفضل لما لها من المزية باختصاصها بالسكنى حول بيت الله الحرام الذى لم يزل معظما عند الجميع منذ بناه سيدنا إبراهيم و سيدنا إسماعيل أبو العرب، و كانت سائر القبائل العربية تحجه من جميع الآفاق اليمن و الشام و غيرهما و تعظم أهله و تكرمهم، و اختص بمزيد الشفوف على قريش بنو هاشم منهم فكانوا هم سدة البيت و هم حماته.

و قد تقررت فى قبائل العرب أكثر شيم المكارم لا سيما قريش فكانوا أبعد الخلق عن تحمل الضيم و كانوا أحرص الناس على حفظ المجد و حماية النسب، فيحفظون أنسابهم و يتفاخرون بها و يكرمون الضيف و يتنافسون فى البذل و الكرم و يحمون الجوار و يوفون بالعهد و لهم اليد البيضاء فى الشجاعة و الرماية و الفروسية، و الإعتناء بتربية الخيل الجياد و الإبل، و يتفاخرون بالعدل و يستقبحون الظلم و إن افتخروا به فى قهرهم به لأعدائهم، و الحاصل أنهم اقتنوا أكثر سمات الفضائل و مكارم الأخلاق حسب ما يرشد إلى ذلك قوله عليه الصلاة و السلام «بعثت لأتمم مكارم الأخلاق» و يؤكد ذلك حلف الفضول، الذى قال فيه صلى الله عليه و سلم: «لقد شهدت فى دار عبد الله بن جدعان حلفا ما أحب أن لى به حمر النعم و لو أدعى به فى الإسلام لأجبت» الخ، و ذلك أن قريشا تحالفوا على أن لا يجدوا مظلوما إلما انتصروا إليه حتى يردوا ظلامته و يأخذون حق الضعيف من القوى، و لتنافسهم فى سمات الكمال حدثت بين القبائل المشاحنات على استحصالها و تمكنت العداوة بينهم و صاروا على قلوب شتى.

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ٣٠٦

و كان أعظم همهم و غاية تفاخرهم هو البلاغة فى لغتهم التى بها يعبرون عن خصال فضائلهم و مناط تنافسهم، حتى صاروا يعقدون لذلك أسواقا كسوق عكاظ فيفيضون إليه من كل فج عميق، و تأتى القبائل بما لديها من البضائع و التجارة و يقع بينهم تعارف و رواج فى المتجر، و لكن موضوع أصل الاجتماع هو عرض كل قبيلة كلام فحول فصحاءها من نثر و نظم فتتصب لأصحاب البلاغة و اللسان الطلق المنابر و ينشد كل منهم ما لديه من القصائد التى كان تأتى فى إحضارها، حتى ربما بلغ الحال بأحدهم أن لا يظهر قصيدته إلما بعد التروى و التدبر فيها و إصلاحها مدة العام و العامين، حتى كانت لهم قصائد تسمى بالحوثية و قد يكون الإنشاد ارتجالا مع الإبداع و الاغراب من مصارعهم فى أغراض شتى من نوائح و حكم و صفة مكارم الأخلاق، أو فى الشجاعة و البطش و الحروب، أو فى الغزل و النسب أو المفاخرة و المدح و الذم إلى غير ذلك مما اشتهر أمره فى الآفاق بين سائر الأمم إلى الآن و لا زال يضرب به المثل فيما كان للعرب من سعة اللغة و كمال الإدراك فيما خاضوا فيه، من مناهج الكلام، و كانت لهم حكام مسلم إليهم الإنصاف و معترف لهم بكمال الخبرة و الإحاطة بأساليب البلاغة و جزالة المعنى و دقة المدرك فيحكمون بتفضيل بعض الكلام على بعض، و ربما بلغ الحال من العناية بالكلام البليغ أن يكتب فى صحائف موقفة و يعلق فى داخل الكعبة التى هى مناط تعظيمهم قديما و حديثا و لو فى الجاهلية، دلالة على أن ذلك الكلام قد بلغ الغاية القصوى فى المهيع الذى هو بصدده لما احتوى عليه من الفصاحة، و من ذلك المعلقات السبع الشهيرة، غير أنهم مع هاتيكم الكمالات قد تناسوا دين آبائهم إبراهيم و إسماعيل عليهم السلام و لم يبق فيهم

من آثاره إلما اعتقاد الخالق والإعتراف له بالوجود كما يرشد إليه قوله تعالى: **وَلَيْسَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولَنَّ اللَّهُ*** [الزمر: ٣٨] و [لقمان: ٢٥]. وكذلك تعظيمهم للبيت الحرام، ثم تفرقوا في بقيّة العقائد على أنحاء شتى باطلّة من وثنيّة و مجوسية و دهرية و كتابية أى متنصرين أو متهودين مستغرقين فى الضلال الذى عم جميع أطراف الأرض فى ذلك العصر، بحيث لم يكن بها من يعبد الله على حق إلّا عدد من أفراد مخصوصين.

و بينما كان أهل الأرض فى ذلك الظلام الحال ك و إذا بنور الله قد سطع و كشف عن البصائر الحجب ببعثه رسول الله سيدنا و مولانا محمّد صفوة بنى هاشم سادة العرب، فانقلب الكون حينئذ إلى طور آخر فى سائر الأحوال المتعلقة بالدين و الدنيا و ظهر فى العالم عصر جديد عمّ اعتداله و استقامته أغلب المعمور من الأرض فى سنين قليلة، و الكلام على تفاصيل زمن البعث و ما سبقه و ما لحقه من مكملات دعائم الدين الإسلامى قد بسط و وفر فى مجلدات عظيمة من كتب السير و التاريخ لا يمكن الإحاطة بها هنا، و شهرتها غتية عن البيان. و إنما الذى ينبغى التنبيه عليه هنا لمن لم يكن خبيراً هو أن تاريخ ذلك العصر أعنى عصر البعث و عصر الخلفاء الراشدين يلزم فيه من القيود ما لا يلزم فى غيره من التواريخ و هو صحه السند و اتصاله، بحيث يصح أن يكون معتمداً لانباء الأحكام الشرعية عليه. لأن

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ٣٠٧

جميع حركات و سكنات رسول الله صلى الله عليه و سلم تشريعية للأمة إلّا ما قام الدليل على اختصاصه به عليه الصلاة و السلام، و هكذا أعمال خلفائه الراشدين من بعده، و من المقرر فى كتب الأصول أن الأدلة الشرعية لا تثبت بمجرد النقل بل لا بد أن يكون النقل على الوجه المعبر و هو روايته أى الدليل بالتواتر أو الشهرة أو الأفراد على ما هو مبسوط فى كل منها، و بهذا يتبين غلط من يزعم أن الإمام أبا حنيفة رضى الله عنه كان غير عالم بالسير الذى هو تاريخ سيرة رسول الله سيدنا محمّد صلى الله عليه و سلم و على آله و كذلك سيرة خلفائه الراشدين من بعده و هم سيدنا أبو بكر و سيدنا عمر و سيدنا عثمان و سيدنا على و سيدنا الحسن و سيدنا الحسين رضى الله عنهم، لأن كل ذلك يتوقف عليه كثير من مسائل الاجتهاد كعرفة الناسخ و المنسوخ من الأقوال و الأفعال و كذلك نفس الأدلة التى يستند إليها المجتهد، فمن تمسّدق بحكايات عن أبى يوسف أو محمّد فيما سلمه أمامهم أبو حنيفة رضى الله عنهم أجمعين، ليس هو إلّا جهول بمقام الاجتهاد و بمعانى الكلام و ارتباط العلوم ببعضها و لا غرابة حينئذ فى فحش غلط و كذب مؤرخى غير المسلمين فيما ينسبونه بهتانا إلى النبى صلى الله عليه و سلم فى بعض سيره و صفاته، لأنهم يظنون أن تاريخ ذلك العصر خصوصاً ما يتعلق بالنبى صلى الله عليه و سلم هو مثل سائر التواريخ التى تتوقف على مجرد الرواية مع عدم المانع العقلى، و قد عرفت أن الأمر عندنا ليس كذلك بل هو مشروط بما ذكرناه فلا يغتر مسلم بما يذكره الإفرنج الآن فى تواريخهم فى هذا الموضوع. و ننبه على الخصوص أبناء أوطاننا المعجبين بأحوال الإفرنج على الإطلاق لإنكبابهم على تعاليمهم و عدم فتح بصائرهم فى حقائق معارف المسلمين حتى جرهم ذلك إلى استحسان طريقة التاريخ عند الإفرنج مطلقاً مع أنها فى نفس الأمر ليست مطابقة للواقع فى الموضوع الذى ذكرناه، ثم أن هاته الطبقة من العرب لما كتب الله لها أن تسود على الأرض و يعم حكمها فيها فى الطول و العرض، و أنجز لها وعده فى أقرب مدة بحيث أنها فى خلافة سيدنا عثمان رضى الله تعالى عنه المتوفى سنة ٢٧ هجرية، امتد حكمها من جبال القوقاز إلى المحيط الغربى جهة إسبانيا و مراکش، و كان ذلك إحدى معجزاته عليه الصلاة و السلام حيث قال: «و زويت لى الأرض فأوريت مشارقها و مغاربها و سيبلغ ملك أمتى مقدار ما زوى لى منها» فكان الأمر كذلك و لم يتوغل ملك الأمة فى الجنوب و فى الشمال مثل ما توغل فى المشرق و المغرب كما قاله حجة الإسلام الغزالي فى

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ٣٠٨

الأحياء، و سبب ذلك و الله أعلم أن العمران فى الأرض كان فى ذلك التاريخ غير معتبر فى جهتى الجنوب و الشمال و إنما مناخ الأعم و مقام أغلب الخلق فى جهتى الشرق و الغرب، و كان الوجه فى الإتيان بلفظ المشارق و المغارب بصيغة الجمع هو الإشارة أما

إلى المشارق بالنسبة للعرض أى تعددها نظرا لاختلاف الفصول، أو بالنظر إلى الطول أى مشارق أهل الأرض فإن كل جهة من الأرض شريقها مسكون إلى نهاية المحيط الشرقى بالنسبة لنصف الكرة الذى هو القسم المعمور والمعروف إذ ذاك، وهكذا الغرب سيكون فى الحديث على الوجه الثانى إشارة إلى عدم تملك المسلمين فى أمريكا كما هو واقع بالفعل لأنها ليست بمشرق ولا بمغرب لأحد سكان هذا القسم، أعنى القسم المشتمل على آسيا وأفريقيا وأروبا لأن بعد قارة أمريكا من هاته القارة جعل مشرق شطوط قارآتنا ومغربها هو البحر، فبسبب امتداد ملك هاته الطبقة إلى ذلك الحد وانتقال القبائل إلى تلك الأصقاع المفتوحة واختلاطهم بأممها ورجوع تلك الأمم أيضا إلى مركز الحكم وتخته وتخت الديانة أيضا لأنهم دخلوا فيها أفواجا.

فبسبب ذلك كله حدثت الطبقة الثالثة: من العرب وهى العرب المستعربة، أى الذين تعربوا وإن لم يكونوا فى الأصل عربا، وامتدت هاته الطبقة إلى نهاية دولة العرب فى الصورة والمعنى، أعنى إلى حدود المائة الثالثة التى تقلص فيها ظل دولة جنسيّة العرب وإن بقى فيهم الملك، لكن عصبته وأنصاره والقائمون به والذين أمر الدولة فى أيديهم حقيقة هم الأعاجم من الترك والموالى، الذين اتخذهم بنو العباس بطانة لهم فتغلبوا على الأطراف وعلى نفس الخليفة تارة مع شدة فى الإستيلاء وتارة مع ضعف، إلى أن اندثر ملك الخلفاء بالمرّة بواقعة هلاكو خان على بغداد التى بها انقرضت دولة بنى العباس، وإن عادت إسما بلا مستى بعد مدة قليلة من السنين بظهور أحد ذريّة بنى العباس فى مصر وإكرامهم له بالبيعة الصوريّة وتسميته بالخليفة ثم يحجرون عليه فى قصره الرحيب بحيث لا يكون له من الأمر شىء ويكتب كتابا يشهد فيه على نفسه أنه فوض الأمر إلى ذلك السلطان الذى ولاه وبقى ممتعا فى لذاته التى يتفضل بها عليه حسن ظن من سلاطين ذلك الزمان بمصر، حتى اعتقدت العامة أن وجود الخليفة موقوف على شرط النسب العباسى وحده فأزاحت هاته البدعة الدولة العثمانيّة عند استيلائها على مصر سنة ٩٢٢ هجرية بفتوى العلماء. ومن تاريخ إنحصار دولة العرب أى بنى العباس فى مملكة العراق وخروج الحجاز عنها غالبا إلى بيعة من هو بمصر. حدثت الطبقة الرابعة: وهى العرب المخضرمون الذين هم سكان جزيرة العرب إلى الآن، فإنهم وإن كان أكثرهم قبائل عربيّة النسب أصالة لكن لغتهم قد خرجت عن أصلها، وكذلك طبائعها وعاداتهم لتقليدهم الأمم المتغلبين على الدولة التى هى أكثر نفوذا فى ممالك الإسلام، فهم وإن كانوا عربا من جهة الأنساب لكنهم غير عرب من جهة اللغة والطباع وبعض الإختلاط فى الأنساب، ولذلك أطلق عليهم إسم المخضرمين، و قد أدانا الكلام على إجمال أوصاف الطبقات الأربعة من العرب إلى التكلم عن شىء من حالة

صفحة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ٣٠٩

التاريخ الجديد للحجاز لكى ينسجم تعريف تلك الطبقات على وتيرة واحدة، ثم نعود الآن إلى ديدنا فى التكلم على التاريخ فنقول إن انتهاء التاريخ القديم للعرب كان بظهور الإسلام.

فصل فى التاريخ الجديد للحجاز

اعلم أنه ببعثة رسول الله صلى الله عليه وسلم خلاصة العرب وسيد الأمم قد حدث تاريخ جديد فى سائر العالم لا فى الحجاز فقط الذى هو مطلع نوره عليه الصلاة والسلام وذلك لعموم رسالته صلى الله عليه وسلم، فإنه ولد عام الفيل الذى كانت تؤرخ به العرب وهو العام الذى قدم فيه ملك الحبشة للإستيلاء على مكة ومعها فيلة للحرب، فولى كبيرها على عساكرهم وانهمت الحبشة بدون حرب، وكان ذلك من الإرهاصات الدالة على البعثة، وذلك العام قبل الهجرة بسنة ٥٣ ووافق ذلك سنة ٥٦٩ ميلاديّة، وقد كان والد النبى صلى الله عليه وسلم قد توفى قبيل ولادته فكلفه جده عبد المطلب وأرضعته أخواله بنو النجار فى المدينة، ثم نشأ صلى الله عليه وسلم على كمال الأخلاق وأشرفها سجيّة فطر عليها من غير تعلم ولا تأديب، حتى أنه كان أميا لا يقرأ ولا يكتب على ما هو الغالب فى الأمة إذ ذاك، وكفله عمه أبو طالب بعد وفاة جده، فلما استكملت شبوبيته تعاطى التجارة على وجه المضاربة وهى أن

يكون المال لإنسان و العمل على الآخر، و المال الذي أتجر به كان لخديجة بنت خويلد أحد أعظم قريش و أغنيائها فسافر إلى الشام و رجع بربح فاق على أنظاره، ثم تزوج السيدة خديجة و قد رغبت فيه، لعلو نسبه حيث كان صفوة بنى المطلب و بنى هاشم سادات العرب كما تقدّم و لكمال حسبه لما رأت من جزيل الأرباح فى تجارتها مع ما هو عليه من استجماع كافه مكارم الأخلاق و وفرة العقل و الجلاله و المهابة، حتى كانت قريش يدعونه الأمين و ينقادون لإشارته و أمره حتى أنهم لما اختلفوا عند تجديددهم بناء الكعبة فيمن يبنى الحجر الأسود و هم بالمسجد الحرام و تراضوا على تحكيم أول داخل فكان هو النبي صلى الله عليه و سلم فقالوا جميعا رضينا هو الأمين.

و من كمال تدييره أراضى جميعهم فى ذلك حيث أخذ ثوبا و وضع فيه الحجر الأسود ثم قال لهم لترفع كل طائفة من إحدى جهاته فرفعوه جميعا حتى إذا بلغوا به محله وضعه فيه هو عليه الصلاة و السلام، و هكذا عرف بين الجميع بالصدق و الوفاء و النزاهة عن كل نقيصة، فلما بلغ الأربعين من عمره بعثه الله رسولا بنزول الوحي عليه صلى الله عليه و سلم مع الملك و أقام بعد ذلك بمكة ثلاثة عشر سنة يدعو فيها الناس للإيمان بما أنزل عليه من القرآن و إقامة الدليل و البرهان و إظهار المعجزات الخارقات للعادات من الأخبار بالمغيبات الماضية كحوادث الأمم الماضية مما اختلفت فيه أخبار أهل الكتاب فجاءهم فيه بما يوافق الحق و العقل و إن خالف أقوالهم جميعا، و كذلك المغيبات الحائثة كالأخبار عن بيت المقدس و توصيفها توصيف معين لها مع أنه لم يرها قط إلّا فى الإسراء الذى هو معجزة له عليه

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ٣١٠

و آله الصلاة و السلام، و كذلك المغيبات المستقبلية كغلب الروم من الفرس و عود الكرة لهم و انتصار المؤمنين و عزتهم و امتلاكهم مشارق الأرض و مغاربها مما جاء كله على نحو ما قال، و هكذا إجابة دعواته و غير ذلك من المعجزات و أعظم بمعجزة انشقاق القمر التى بيّنا ثبوتها القطعى فى الكلام على مصر، و فوق ذلك كله معجزة القرآن الذى هو من جنس كلامهم و من النوع الذى فيه مجال تفاخرهم و اعتنائهم، فإذا هو يومًا يقصص عليهم القصص و يقيم البراهين على الإيمان و يوعظ و يرغب و يرهب بأساليب شتى و يدعوهم إلى المعارضة بإتيانهم بمثله و ينادى عليهم بالتعجيز مما يزيد فى حماسهم فى المعارضة، و لم يتفوه واحد منهم بشيء حتى لجأوا إلى أنه سحر و غير ذلك من أعدار المعاندين العاجزين، كقولهم: إنه تعاليم نسطور الرومى، مما رده عليهم القرآن الكريم حيث قال: [وَلَقَدْ نَعَلْنَا أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَ هَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ [النحل: ١٠٣] الآية فقد أخطأوا و افتروا و لم يفقهوا أن مناط المعجزة هو اللسان العربى و هو محل مناداتهم إلى المعارضة و ذلك لا يتأتى فيه قولهم، لأن لسان من زعموه عجمى و ليس هو موضوع التعجيز و هذا كاف فى دحض أصل الدعوى من كون نسطور لم تكن بينه و بين النبي صلى الله عليه و سلم علقه و لا مواصلة، و غاية الأمر أن النبي صلى الله عليه و سلم قد رآه إثنان من الرهبان قبل النبوة و آمنّا به حتى عدّهم البعض من الصحابة على قول من يرى الصحبة تثبت بالرؤية مع الإيمان و لو قبل البعثة.

و هذان الرهبان: أولهما: يسمى بحيرا أو جرجيس رآه صلى الله عليه و سلم عند أول سفره له صلى الله عليه و سلم مع عمه أبو طالب إلى الشام و هو ابن إثنى عشر سنة و كان الراهب فى صومعة له ينزل حولها الركبان، فلما رأى النبي صلى الله عليه و سلم و رأى بعض العلامات التى استدلت عليه بها قرب من النبي صلى الله عليه و سلم و تفحص جسمه فرأى الخاتم و تعرف أخباره من رفقائه، ثم تلتطف إلى عمه حتى رجعه إلى بلده خوفا عليه من اليهود و أخبر عمه و رفقائه بما يكون له من الشأن و الأمر.

و ثانى الراهبين: هو نسطور الراهب رآه أيضا قبل البعثة و عند سفره للتجارة إلى الشام و معه ميسرة غلام خديجة زوجته، فلما رآه من الصومعة أيضا تعرّف خبره من الرفقائه و أخبرهم بما يكون له من الشأن أيضا و لا- يعلم و لا- ينقل عن أحد لا فى الثقات و لا فى الموضوعات أنه اجتمع بغيرهما فى غير ذلك الوطنين، إلّا ما روى بضعف من أنه صلى الله عليه و سلم سافر و هو ابن عشرين سنة إلى تجارة أيضا بالشام فى صحبته أبو بكر الصديق رضى الله عنه و إن نسطور اجتمع به إذ ذاك أيضا و حذره و رغبه فى الرجوع عن

الشام خوفا عليه من الروم فأرسل معه أبو بكر رضى الله عنه غلامه مصاحبا فى الرجوع، و هاته الرواية على ما فيها من الضعف ليس فيها شىء زائد عما فى الروايتين السابقتين بالنسبة لأمر الراهبين، فإلى شعرى من أين افترى بعض المتمشدين من الإفرنج المدعين معرفة التواريخ بأن النبى صلى الله عليه و سلم كانت له مودة مع ذلك الراهب و هو بحيرا و ينصحه بالنصائح، و قد علمت ممّا مرّ سابقا ما يشترط فى حالة تواريخ ذلك العصر.

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ٣١١

ثم أن النبى صلى الله عليه و سلم قد أمره الله بالهجرة إلى المدينة التى قدر أن تكون هى مظهر إصلاح هذا العالم الأرضى و نجاه أهله فى الآخرة، و كان إذ ذاك قد فشا خبر الإسلام و البعثه فنلقاه الأنصار أهل المدينة بالبيعة و الطاعة و انثالت عليه القبائل بالإيمان، و استعد إذ ذاك لإجراء أمر الله و أحكامه على من عاندوا بعد إقامة البرهان و الحجّة، و تمم أبعده و عدده لرسوله و للمؤمنين ففتحت مكة و آمنت فى أثرها جميع قبائل جزيرة العرب، و لم يزل الدين ينتشر إلى أن عمّ البسيطة فى نحو نصف قرن، ثم أن تاريخ الحجاز لما كان من ذلك الوقت هو تاريخ الأمة الإسلاميه إلى انتقال الخلافة منه فى خلافة سيدنا على، ثم عودها إليه فى خلافة سيدنا الحسن رضى الله عنهم جميعا ثم خروجها منه من ابتداء خلافة سيدنا معاوية، و الكلام على ذلك كله مبسوط فى جميع التواريخ الإسلاميه فلا ثمره فى ذكرنا لأزيد ممّا ذكرناه هنا طبقا لقاعدتنا.

و إنما نقول إن الخلافة لما انتقلت عن الحجاز صار على كل من مكة و المدينة و ال مخصص غير أن والى مكة قد تعين من وقت الفتح، و أول وال بها هو عتاب بن أسيد ولى سنة ثمان عند الفتح و ولى أيضا على إقامة الموسم و الحج، ثم أن بنى أمية كانوا لا يولون على المدينة إلّا أقرب الناس و آمنهم لديهم، و استمرّ الأمر على ذلك إلى حدود سنة ٢٥١ التى استقلت فيها عائلة ساداتنا الأشراف بنى الأخيضر و بقيت بأيديهم إلى أن غلب عليهم القرامطة سنة ثلاثماية و سبعة عشر، و هولاء القرامطة قوم ظهروا باليمن مظهرين الإسلام و التمسك بالسنة و هم أشد كفرا و نفاقا من المنافقين، فأدخلوا فى الدين الدسائس و وضعوا الأحاديث و فعلوا من المناكر ما له خبر مأثور، حتى استولوا على مكة و المدينة و خربوا الكعبة و قلعوا الحجر الأسود من موضعه إلى أن رجعه بعد ذلك عمال بنى العباس الذين طهر الله بأيديهم الحرمين من أولئك القرامطة، ثم استقلّ بالحرمين أيضا السادة الأشراف بنو سلمان بن داود بن الحسن المثنى و بقى الملك بأيديهم إلى سنة أربعمائه و إثنين و خمسين، فاستقلّ بملك الحجاز الهواشم الذين هم العائلة المستولية إلى الآن من ساداتنا الأشراف و أولهم سيدنا المولى الشريف أبو هاشم محمّد العلوى المستولى فى السنة المذكورة و المتوفى سنة ٤٨٧، و بقيت فى بنيه إلى الآن، فإنهم كانوا من ذلك التاريخ مستقلين بالأمر و النهى و النصب و العزل و سائر الإدارة الداخلية، إلّا أنهم يدلون بالبيعة ظاهرا إلى الخلفاء العباسيين و السلاطين الذين تغلبوا عليهم ببغداد إلى انقراض دولتهم، فأدلوا بالبيعة إلى سلاطين مصر و إنما كان الحال يختلف عندهم فتارة تنفرد مكة و المدينة بأمر واحد منهم و تارة تستقل كل منهما بأمر إلى أن فتح السلطان سليم الأول مصر و أقام

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ٣١٢

بها مدة، فاستقبله فى الطريق و هو راجع إلى الأستانة الشريف المقدس أبو ندى ابن الشريف بركات فبايعه نيابة عن أبيه و قلده السلطان حالا إمارة الحجاز كله بمشاركة لأبيه فى حياته و استقلاله بعد مماته، و لم تزل و لله الحمد هاته العائلة الكريمة الشريفة هى الحاكمة على الحجاز إلى الآن و ذاك أعظم دليل على ثبوت نسبها لأنها من عهد استقلالها الذى هو كبد القرن الخامس و توفر حالة معرفة الأنساب من الدولة العباسية التى لم تزل إلى ذلك التاريخ لها صولة و شوكة خصوصا فيما يعود لأمر النسب الذى يخشى منه حتى السلاطين المتغلبين عليهم، لأنهم يخشون من خروج الخلافة إلى غير العباسيين الذين هم من شيعتهم، و أخضعوا الناس باسمهم أن يتلاشى أمرهم بتلاشى متبوعهم فلم يقروا لهم بالنسب و يرضوهم بالسكوت عن الحجاز إلّا لما يعلمون من حقيقة نسبهم و ثبوته عند الخاص و العام، و هكذا بقيت هاته العائلة بارك الله لنا و للمسلمين فيها حاكمه على منبع البعثه، أقر الله أعيننا و المسلمين

بوجودهم و القيام بسنة الحق لأبائهم و جدودهم، و الأمير الحالى هو مولانا الهمام الشهم عون الرفيق ابن مولانا المقدس المبرور سيدنا محمد بن عون صلوات الله و سلامه على جددهم رسوله و عليهم و على جميع آلهم.

مطلب فى السياسة الداخلىة للحجاز

اعلم أن مدار الإدارة كلها جليلها و حقيرها كلياتها و جزئياتها قد كان سابقا مناطه هو الأمير السيد الشريف، و كانت على حسب أصول المراسم الشرعية المتعارفة من قديم مثل تفويض الأحكام الشخصية إلى القاضى و المفتى و انفراد الأمير بالجلوس إلى رفع المظالم و إجراء بقية الإدارة، و استمر على ذلك بعد الخضوع للدولة العلية أيضا قسما مديدا من الزمن حتى فى أمر القوة الحربية، فقد كان للأمير عساكر خاصون بإمارته ليقم بهم ما تستدعيه القوة و قد بقى إلى الآن شىء من ذلك حيث أن للأمير نحو الحراس أو العساكر الخاصة لا يبلغ عددهم المائتين، و عندما بدى للدولة العلية الإحتراس من أمر الولاية مدة السلطان محمود الثانى فى أواسط القرن الثالث عشر لكثرة مخالفة ولاية الأطراف على ما سيأتى بيانه فى محله، حصل ذلك التغيير أيضا فى الحجاز لكنه بأمر هين و هو جعل القوة العسكرية الكبرى خاصة بالدولة العلية بأن ترسل هى من تحتها عساكر يقيمون هناك و تريد قوتهم و تقللها على قدر الحاجة، و رئيسهم من طرف الدولة أيضا ليس بملزوم لامثال أمر

صفحة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ٣١٣

الأمير فيما يراه من معاقبة بعض القبائل بل هو على حسب ما يظهر له فى الواقع و عند مخالفته فى رأى للأمير يخبر أن الدولة معا لتأمر بما تراه، و كذلك أمر العاشر أى الكمرى فى المراسى البحرية استبدت به الدولة وحدها بمأمورين ترسلهم من طرفها، و نشأ عن ذلك فى أول الأمر قلاقل و محاربات أفضت إلى إبدال الأمير بغيره من فروع عائلته الكريمة، و لم يزل يزداد تداخل الدولة فى التصرفات الداخلىة إلى أن جعلت واليا على الحجاز من أحد كبار رجال دولتها مثل بقية ولاياتها، مع بقاء سيادة الأمير على منصبه و اعتبار نفوذ أوامره على الإطلاق، و لا يخفى ما فى وجود أمرين على مأمور واحد فى زمن واحد من الإضطراب، و نشأ أيضا عن ذلك الإحتراس أن الدولة صارت تستدعى من يلى سيادة الأمير فى السن من عائلته لبقى بتخت السلطنة و يتخلق بأخلاق الدولة و يتعرف سياستها الداخلىة و الخارجية، لأنه هو ولى عهد الأمير فإذا آلت له الولاية كان عالما بأحوال الدولة التى هو خاضع لها، و تقلده الدولة مدة إقامته بتخت السلطنة رتبة الوزارة و المشيرية و تجعله عضوا بمجلس شورى الدولة الذى يرجع إليه غالب التدبير فى أغلب مصالح الدولة الداخلىة هكذا ظاهر الحال، و نعم المسلك لو يكون هو الأمير و والى بحيث تحدد له الدولة تصرفاته على نحو بقية ولاياتها غير أنه ينفرد بكونه ممتازا بعدم خروج الإمارة عنه و عن عائلته، و بكون الإدارة فى إمارته تجرى على طبق الشريعة المطهرة مع غاية الإحتراس عن البدع التى لا داعى لشىء منها هناك، لكنهم اقتصروا على خصوص الفائدة فى إبقاء ولى العهد بالتخت لمآرب للدولة ربما احتاجت إليها معه سيادة الأمير نسأل الله التوفيق.

و الجارى الآن هو أن يختص سيادة الأمير بالأمر و النهى و الولاية و العزل فى جميع قبائل الأعراب، و كذلك الوظائف المتعلقة بالبيت الحرام من إمامة و خطابة و غيرها، إلا أنه ينهى إلى الدولة ما يراه فى كبارها لتصدر الأوامر السلطانية على حسب ما ينهيه، و على نحو من ذلك الوظائف الدينية بخصوص مكة كالتفوى فى المذاهب و نقابة الأشراف و ما شاكلها، و أما القاضى فإنه يرسل إلى مكة قاض و إلى المدينة المنورة قاض من تخت السلطنة على نحو بقية ولاياتها، و كذلك بقية الولايات العرفية كلها تتصرف فيها الدولة.

و الحاصل أن الذى استقر عليه الحال الآن هو اختصاص الأمير بأمر قبائل الأعراب ما لم يستدع الحال محاربتهم، و بعض الوظائف فى خصوص مكة ميا مرجعه الديانة كأئمة الصلاة فى البيت الحرام من المذاهب الأربعة، و هم و إن كانوا أربعة الآن لكنهم لم يقع استقرارهم هكذا فى زمن واحد، بل كان الأمر أولا لإمام واحد شافعى ثم زيد ثان من المذهب الحنفى ثم آخر من الحنبلى ثم آخر من المالكية فى أزمان متباعدة بحسب المناسبات فى اتباع ذلك المذهب و نفوذهم لدى الدولة الحاكمة، و هكذا الأمر فى أئمة

المسجد النبوي على صاحبه أكمل الصلاة والسلام و على آله فإن الإمام المالكي لم ينصب إلّا في عشرة التسعين من القرن الثالث عشر.

و أما بقيّة مدن الحجاز التي هي المدينة المنورة و جدّة، فأما المدينة المنورة ففيها

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ٣١٤

محافظ و هو كبير العساكر و شيخ الحرم النبوي على صاحبه أكمل الصلاة والسلام و قاض، و كلهم يأتون من تحت السلطنة، و فيها مفت و أئمة و خطباء و أمين الخزانة مع وظائف أخر صغيرة، و هؤلاء الموظفون سيما أصحاب الإدارة و الحكم تابعون لوالي الحجاز مع بعض امتياز لهم في مخاطبتهم للدولة رأساً.

و أما جدّة فموظفوها مثل متوظفي بقيّة مدن المملكة العثمانية ما عدا المجالس الحكيمية القانونية، لأن الأحكام سيأتى بيانها و أنها على خلاف بقيّة الممالك العثمانية إذ لا مجالس عرفية بها، فإجمال الحال أن الإدارة السياسية مرجعها هو سيادة الأمير مع الوالى للذات يرجعان جميعاً إلى ما تراه الدولة العثمانية.

و كليات الإدارة الآن هناك ليس فيها مكوس و لا ضرائب ما عدا الكمر ك على الواردات البحرية و بعض أعشار على النخيل في القبائل الخاضعة حقيقة و كل هؤلاء القبائل لا يدفعون شيئاً إلى الحكومة و لا إلى الأمير، بل أن خضوعهم الذي ذكرناه إلى سيادة الأمير في الحقيقة هو ظاهري فقط، و إنما يختلف الحال فيها بحسب الزمان و شدة الطغيان في الإنقياد و عدمه، و بعض الجهلة ينسبون ذلك إلى إرادة بعض الأمراء من العائلة الشريفة معللين ذلك لأن بقاءهم في الإمارة إنما هو لإخضاعهم تلك القبائل فهم لا يريدون أن يكسروا شوكة القبائل بالمرّة حتى تجرى فيهم الأحكام مثل غيرهم، و يدخلون تحت قياد المدلة إذ ربما استغنت إذ ذاك الدولة عن الأمراء الأشراف، و الحق ليس كذلك فإن بعض هؤلاء الأمراء قد أخضعوا جميع القبائل إلى الأحكام حقيقة منذ عهد ليس بعيد زمن السلطان عبد المجيد و ولاية المولى المقدس الأمير الشريف عبد الله بن عون عند ما ساعدته الدولة و عملت برأيه و أمده بالعاكر مثل ما أراد، و الباعث الحقيقي على إهمالهم هو عدم مساعدة الدولة للأمراء على إخضاعهم متعللاً رجالها في الظاهر باحترام هاتيك البقاع الكريمة و مراعاة مجاورها و سلاطين آل عثمان احترامهم و تعظيمهم لشعائر الدين و توقيره شنشنة معروفة قديماً و حديثاً و لذلك يوافقون على مثل تلك النصيحة على أنها ربما كان باطنها غير ذلك و هو عدم استفادة أولئك الرجال من إنقياد تلك القبائل، لأنهم و إن خضعوا حق الخضوع فلا مساع لضرب شيء من الضرائب عليهم لا سرّاً و لا جهراً، فتكون فائدة خضوعهم راجعة لسيادة الأمير وحده من نفاذ أحكامه و أوامره فيها فيظهر أولئك الرجال النصيحة إلى السلاطين على نحو ما قدمناه، مع أن إخضاعهم واجب شرعاً لأمن السبل و حفظ الحجاج من التعدي و إقبال تلك القبائل على عمران أراضيهم، لأنهم الآن زيادة عن عدم دفعهم للدولة و لا للأمير حتى أعشار إبلهم فهم يأخذون من الدولة أموالاً في كل سنة بمجرد محافظتهم على أمن السبل و لا يؤخذ منهم شيء من المال قل أو جل، غير أنه قد كان في أواسط القرن الثالث عشر رجل من قبيلة حرب يسمى الشيخ سعد قد تقوى بدهائه على اتحاد جميع قبيلته و عظمت شوكته بانقياد غيرهم من القبائل أيضاً و لم يخضع إلى الحكومة قط، إلّا أنه إذا أخذ المرتبات التي أشرنا إليها أمن طريق الحاج إلى المدينة

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ٣١٥

و عندما تسافر القوافل إليها يعد جمال كل قافلة و يأخذ على كل جمل نصف ريال أى إثنين فرنك و نصف ضريبة منه على أصحاب الإبل و بعد موته و خضوع ابنه و انقياد القبائل نوعاً ما أبتت تلك الضريبة على أصحاب الإبل عندما يكترونها إلى الحجاج و ليس للدولة غير ما مر ذكره من أنواع المداخليل إلّا أنواع من الضرائب الخفية أكثرها يستفيده أفراد من المتوظفين لأنفسهم ممّا يؤخذ على الحجاج بأسماء سموها كضريبة على تنظيف منى في العيد من الضحايا و غيرها مما لا يصرخ منه في الحقيقة إلّا نزر يسير في الجهات التي يذكرون الصرف لأجلها، و كل المصاريف اللازمة لكل من الحرمين سواء كانت الوظائف الدينية أو السياسية أو شعائر

المسجدين أو إقامة المواسم كله تصرفه الدولة من خزانتها وهو مقدار يبلغ نحو مليونين و نصف فرنك، لأن الإقامة بخصوص شعائر المسجدين الشريفين مبالغ في إقامتها و لا أقول على حسب الإستحقاق لأن حقهما لا يبلغ إليه و لو ببذل النفس و النفيس. و من المعلوم أن الشريعة المطهرة كان منبعها تلك الأماكن المكرمة و قد أجريت فيها الشريعة حق الإجراء و استقر الأمن في سائر جزيرة العرب، و كانت القبائل تؤدي إلى بيت المال الإسلامي ما أوجبه الشرع على كل مسلم فكيف يغير ذلك الآن حتى يتجروا على إبدال حرم الله بعد الأمن بالخيفة و الإتيان بما يسود منه الوجه يوم القيامة و تثقل به في الذنوب الصغيرة، مع أن حملهما على الإستقامة أمر سهل يسير، و ما أجدر هاتيك الأماكن الشريفة بالمحافظة فيها على إدارة تحافظ على السنة و أعمال الخلفاء الراشدين، الذي هو الأمر الوحيد في جلب قلوب سائر المؤمنين إلى الدولة التي تجرى ذلك فضلا عن خصوص أهالي الحجاز، و لا ريب أن ذلك يرسخ قدم الدولة و تستغني عن الإحتراسات الناشئة عن الدسائس في رمي بعض ذوي الأمر بمعاوضة بعض الدول الأجنبية لتطلب الخلافة أو الإستقلال، نسأل الله إصلاح الحال.

مطلب في السياسة الخارجية

اعلم أن الحجاز مرتاح و لله الحمد من أمر السياسات الخارجية إذ ليس في دواخله و مدنه ما عدى جده و ينبع أجنب و لا يدخله إلّا المسلمون و ليس لواحد إلا- دعا بحماية إحدى الدول الأجنبية و كل من دخل فهو خاضع لأحكام البلاد، و لا ريب أن المسلمين يحجون في كل عام من جميع آفاق الأرض و على الكثير منهم استيلاء الدول الأجنبية التي يبلغ عددها في هذا الوقت إلى ثلاثة عشرة دولة منها القوى و منها الضعيف و منها المنصف و منها المعتسف، و مع ذلك كله ليس لهم أدنى تداخل أو تكلم فيما يتعلق برعاياهم المسلمين هناك و الله يديم ستره الجميل، نعم أن جده يوجد بها قناصل كثيرين للدول الأجنبية الذين لهم عناية أو علة بالمشرق و لهم تجار إفرنج في تلك المرسى، و كذلك بعض الدول الأجنبية الذين ليس لهم هناك شيء يذكر تجد لكثير منهم قناصل يستولون تلك

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ٣١٦

الوظيفة برغبة منهم للدولة الموظفة لمجرد الفخر لهم من غير داع و لا مرتب، و على كل حال فسياسة أولئك القناصل متعلقة بالدولة العثمانية إما بواسطة و إليها هناك أو بواسطة سفرائهم في تحت السلطنة، فالسياسة الخارجية حينئذ في خصوص جده تابعة لسياسة الدولة العثمانية التي سيأتي الكلام عليها في محله إن شاء الله تعالى.

مطلب في عوائد و صفات الأهالي:

اعلم أن البلدين الأكرمين سكانهما الآن أغلبهم من غير العرب الأصليين فإن المدينة لا يوجد بها إلّا العائلة الشريفة حقيقة من العرب، و قد كنت رأيت رجلا واحدا من ذرية العباسيين فيما في ضريح عمهم سيدنا حمزة، و لم يبق من الأنصار هناك إلّا بقتية عائلة واحدة و بقتية سكانها كلهم من الآفاق و أكثرهم مغاربة، و أما مكة فلا يوجد بها من العرب المحققين إلّا عائلة السادة الأشراف و عائلة الشيبى و البقتية كلهم من الآفاق و أكثرهم هنود، و لا يخفى أن العوائد و الصفات تغلب على السكان باعتبار أصلهم غير أنه لا بد أن تحدث فيهم تغيرات تناسب حالة السكان الأصليين، فأخلاق هذين البلدين على الإجمال مناسبة لأخلاق العرب غير أن أهالي مكة تعترى أخلاقهم الحدة بخلاف أهالي المدينة فإنهم ليني الأخلاق كرام الطباع، و يغلب على الجميع الحشمة و الحياء و سلامهم بالمصافحة أو الإشارة باليد، و يقفون لكل داخل و لو تكرر دخوله، و أهالي المدينة أشد حرية في الطباع و عدم المذلة و التمكن في أخلاق الرجولية و الجلد، فيركبون الخيل و يسافرون إلى الحج ركوبا على الهجين من غير تخوت مع السير الحثيث مع التمكن في معرفة

الرماية و الفروسيّة و لكل منهم سلاح مستوفر.

و أما الملاهي فلا يلتفتون إليها و لا وجود لها كما هو الواجب سيما في تلك الأماكن نعم قد وجد من بعض الوافدين تساهل و تجرى على استعمال الخمر و آلات السماع سرًا و كاد أن يكون من بعضهم جهريًا سيما من بعض أجلاف العساكر أو المتوظفين الذين لا يخافون الله، و من المعلوم أن الفساد ملائم لطباع البشر فيسرع فيه التقليد لكنهم مع ذلك لا يزال الأمر بحمد الله مستورا فلا تجد المحارم متجاهرا بها و لا ترى حانة لخمار أو دارا معينة للفسوق و إن وجد شيء فإنما يكون في بيت صاحبه في الستر. و على قريب من هذا المنحى أهالي جدة.

و أما بقيّة البلدان فهم على أخلاق بقيّة السكان من قبائل العرب الذين لم تبق فيهم من الأخلاق العربيّة التي قال فيها صلى الله عليه و سلم (بعثت لأتمم مكارم الأخلاق) إلّا القليل و عاد إليهم التفاخر بالتظالم و هجوم القوى على الضعيف، فلا تجد الأمن مستقرا إلّا قليلا إلّا أنهم بقى فيهم حفظ الذمار و توقيير الصغير إلى الكبير، فإذا جعل الرجل من بيوتاتهم يده على ذقنه كناية

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ٣١٧

عن حفظ ذمة المستجير به فإنه يوفى بعهده و لو حمله ذلك على الحرب و هلك فيها هو و قبيلته هذا غاية ما يمكن أن يذكر لهم من الصفات الحميدة مع إكرام الضيف و إطعام الطعام.

و أما بقيّة الأخلاق السابقة العربيّة فكادت أن لا يوجد منها شيء كجودة القريحة و الدهاء في الأمور و معرفة أحوال العالم، فمن عجيب ما شاهدته من السذاجة في بعضهم و بلهه إن كان أحد الجمالين ماشيا بقرب منى في طريق المدينة المنورة على صاحبها أفضل الصلاة و السلام و على آله و هو كهل يخاطب شابًا في حساب بينهما، فقال له الشاب: سبعة و عشرون مع سبع كم هو؟ فقال له الكهل: هيه، فأعاد عليه السؤال فأجابه بالجواب الأول ثم أعاد ذلك ثالثا أيضا، فقال حينئذ الشاب: هى سبعة و عشرون فقال له صاحبه هيه أيضا، و انفصلوا على أن ذلك هو الحساب، و على ذلك فقس فلا تكاد تجد من عامتهم من يصلح للخطاب في البديهيّات و إنما لخواصهم بعض من الآداب التي يفقه بها الضروريّات، غير أن حفظ الحريم و البنات من صغرهنّ فلهم فيه مبالغه كليّة بحيث لا يمكن أن ير الرائي امرأة و لو معتجرة، و ما أصبر نسائهم على الجلد في التخدر، فقد كان رئيس الجمالين في قافلتنا استصحب معه عياله من مكة إلى بلد الجديدة و كان مردفا لها على جمل له فكانت من ساعة ظهورها إلى ساعة دخولها لبيتها التي هى مدة تنيف عن ستة أيام و هى ملتحفه بعباءة تخينه من الصوف سوداء لا يظهر منها مقدار ظفر و لو من أصابع رجليها فضلا عن يديها أو وجهها ليلا و نهارا لا تفارق حويّة البعير و على هذا النمط النسوة في المدن فلم أر بالمدينة امرأة قط، و أما مكة فكان بعض نسائها يخرجن لاداء مناسك الحج لكنهنّ في غاية التستر بحيث لا يظهر منهّن شيء، و عادتتهنّ في الجميع أن لا يخرجن إلّا ليلا مع شدّة التستر بالخمار و اللحاف، و إن اضطررن للخروج نهارا فلا يمرون بالأسواق و لا بالطرقات الكثيرة المرور، و توجد قبيلة تسكن في عوالي المدينة أى خارجها بقرب من فنائها يسمون المخاوله و هاته القبيلة أصلها من قوم قد تفرقوا في آفاق الأرض و هم في كل قطر مستقلون بأنفسهم لا يداخلون أحدا و لا- يخالطون الناس إلّا في ضرورة البيع و الشراء، و لهم في كل قطر لقب بحسب عرف أهله، فيقال لهم في بلاد الترك: شنكانه و في تونس: جمازيّة، و يتبعون في كل جهة الصنائع الخسيسه مثل إصلاح أواني النحاس و صفائح الخيل، و قد اتخذوا في جهة المدينة صناعة خسيسه أيضا و يتمدّهون بمذهب الشيعة على دعواهم و يستحلون نكاح المتعة، فإذا قدم بعض حجّاج الفرس ممن يرى مذهبهم يأوى إلى بيوتهم لقضاء الوطر بنكاح المتعة، و أمرهم في ذلك شهير و ليس عليه نكير و الأمر لله الذي إليه المصير.

مطلب في التجارة بالحجاز

اعلم أن بلد جدة هى مرسى تجاريّة عظيمة لأنها مركز للبضائع الهنديّة و غيرها ممن البضائع في الأقطار الشرقيّة و منها يرسل لبقية

الممالك الإسلامية التي تجارها مسلمون و كذلك لكثير من البلاد الاورباوية، كما أن البضائع الاورباوية و البضائع الغربية من بلاد

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ٣١٨

المسلمين و كذلك بلاد الترك و مصر و الشام يؤتى بها إلى هناك و ترسل إلى الهند و غيره من الأقطار الشرقية، فبذلك كانت جدة مرسى تجارية كبرى فضلا عما يدخل منها إلى جزيرة العرب على طريق البر سواء كان للحجاز أو لغيره من بقية الأقطار، و مركز تجارة جزيرة العرب هي مكة المشرفة، فتأتيها البضائع من جدة و توزع منها على القوافل إلى سائر جهات جزيرة العرب إلما ما قرب من الجزيرة إلى جهات اليمن التي بها مراسى تجاريّة مثل الجديدة و قليل ما هي فكانت مكة حينئذ هي المعتبر لتجارة العرب، و التجار المعتبرون فيها أغلبهم هنود، و أما جدة فتجارها من أجناس مختلفه و في أسواق كل من هذين البلدين تقاسيم حسنة تجعل لكل صنف من التجار جهة مخصوصة و تجارتهم غنيّة جدًا، و أما المدينة المنورة فالتجارة فيها مقصورة على أهلها غالباً فيؤتى إليها بالبضائع المحتاج إليها فيها و تباع لأهلها و القبائل تحمل البضائع على قوافلهم إلى مراكز القبائل و إلى جهات جزيرة العرب مع الأمان على البضائع التي يحملونها، فالقافلة لها رئيس يكون ذا ثروة و له كفال أغنياء في الجهات التي يذهب إليها و يحمل منها، فتسلم إليه البضائع و المكاتب البريدية و يبلغها بأمان إلى أصحابها و إن حصل ضياع لشيء منها و لو بتعدى بعض القبائل بالإغارة فكفلاؤه يؤدون لأصحاب البضائع جميع ما يضيع لهم، و من أهم أنواع التجارة التجارة في المأكولات من الحبوب كالقمح و الشعير، و قد علمت أن البريد موكول إلى هؤلاء القوافل التجارية فأمره غير منتظم كما أنه غير محتاج إليه في أغلب تلك الجهات، غير أنه يوجد بين مكة و جدة بريدا منتظما يومياً صباحاً و مساءً يحمل على الحمير السيارة فيصل في نحو تسع ساعات، كما أنه يوجد في مكة مركز للتغراف أي السلك الكهربائي و يصل إلى جدة و منها يتصل بجميع العالم، كما أنه يوجد بريد منتظم في كل شهر مرة بين مكة و المدينة إلما أن يكون أمراً مستعجلاً فيرسل مع سيار مخصوص، و هذا البريد كله ما عدا أصحاب القوافل مرتب من الحكومة و المباشرين له من قبائل الإعراب الساكنون في أماكن مروره، و في كل سنة في موسم الحج تروج التجارة في مكة لأن أغلب الحجاج يشتررون منها البضائع التي لا- تعلم في بلادهم ممّا على وجه التجارة فيها و هو القليل أو على وجه الإهداء إلى أقاربهم و أحبائهم، و كذلك تروج التجارة بالمدينة المنورة لأن سكانها يأتيهم في ذلك الوقت وادهم المالى إما من أموالهم في بلدانهم أو من الهدايا التي ترسل من الآفاق أو من الأوقاف و الإيرادات المعينة لذلك في بعض الجهات و هاته الجهات هي الدولة العثمانية و هي الركن في ذلك، لأنها ترسل في كل عام للقيام بشعائر الحرمين الشريفين و لمراتب المجاورين و أهل الوظائف ما يبلغ مقداره سنويًا نحو المائة ألف ليرة أي مليونين و نصف فرنك، و كذلك الحكومة المصرية ترسل كل عام إحدى و عشرين ألف إردب من القمح مع أموال عينا يبلغ مقدار جميعها إلى نحو العشرين ألف ليرة أي نحو خمسمائة ألف فرنك فضلا عن قيامها بمدرستين كل منهما في إحدى الحرمين لها أوقاف مخصوصة بمصر يرسل منها قدر كفاية القائمين هناك في كل عام، و كذلك القطر التونسي يرسل من أوقافه المعينة على

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ٣١٩

الحرمين ألفين ليرة في كل سنة لكل حرم ألف أي خمسة و عشرين ألف فرنك، فأهالي المدينة إذا فرقت عليهم تلك الأموال يدفعون منها ما كان عليهم من ديون ترتبت عليهم في ضروريات اشتروها نسيئة ثم يشتررون كفايتهم للسنة القابلة آكلا و لبسا و إن فضل شيء بعد ذلك إدخروه لبقية السنة، فلذلك يحصل في ذلك الوقت رواج للتجارة و هذا بالنسبة لغير ذوى الثروة منهم أما هؤلاء فهم على نسق غيرهم من ذوى الثروة و كذلك بعض قبائل الأعراب المقيمين بين الحرمين لهم نصيب ممّا ترسله الدولة و الحكومة المصرية فيحصل منهم أيضا رواج في التجارة بما يشترونه من ضرورياتهم، و الحاصل أن التجارة المعتبرة مركزها هو جدة أدامها الله بلد إسلام.

مطلب في الصنائع

لا يخفى أن الصنائع شعبه من شعب التمدن فتكاثر و تقل على حسب ما فى المكان التى هى به من التمدن، و حيث تطاول زمن بعد الخلافة عن الحجاز و تكاثر بعد عهدا فيه الهرج و قل العمران و تغيرت طباع العرب السكان على حسب ما أشرنا إليه فلم يكن الآن بالحجاز إلّا الصنائع الضرورية و بعض الحاجية، فأما الفلاحة فكادت أن تنعدم إلى أن صار أهل الحجاز عيال فى قوتهم جميعه على ما يرد إليهم من خارج بلادهم إلّا ما ندر، و المسافر فى تلك الأقطار لا يرى من الزراعة إلّا نزر يسير حول بعض البلدان لا يسد من عوز، مع أن عشر ما حول المدينة وحدها قد كان فى خلافة سيدنا عمر يبلغ إلى أربعمائه ألف أردب من الشعير وحده فضلا عن بقيته الجهات، و لو جمع الآن حاصل جميع ما بالحجاز لما بلغ إلى عشر المعشار من ذلك المقدار و على نسبة من ذلك أمر زراعة الأشجار فإنه يوجد بالطائف بساتين بها كثير من أنواع الشجر الليمون و الرمان و العنب و غيرها من الفواكه المتعارفة كثيرا، و غيرها هاته البلد لا يوجد بها إلا بعض شجيرات من تلك الأنواع لا تستحق الذكر، و إن كان حول المدينة بعض من البساتين لكنها ليست على ما ينبغى إلّا النخيل فيوجد بها كثيرا كما يوجد بجهات أخرى حول المدن و القرى، و فيه أنواع كثيرة جدًا من أنواع التمر منها الحسن للغاية و منها دون ذلك و فيه بعض تجارة سيما فى موسم الحج لشراء الزائرين للتمر و حمله إلى آفاقهم كل على قدر سعة حاله تبركا بذلك، و أما البقول فكادت أن لا يوجد منها إلّا النادر كالبصل و ما شاكلة من البقول المتعارفة الشهيرة و كذلك الأزهار.

و أما بقيّة الصنائع فيوجد منها البناية و الخياطة و التجارة و بعض صنائع أخرى من الحاجيات كالسروج و حوايا الإبل و غيرها ممّا يحتاج إليه أكيدا من غير تحسين، و السبب فى هذا الانحطاط فى كل من الفلاحة و بقيّة الصنائع هو اعتماد السكان أعنى أغلبهم على المرتبات و الجرايات من الدولة و الأوقاف و تعويل الأعراب على مثل ذلك أيضا، لأن الدولة جاعلة للقبائل جرايات سنوية من مال و حبوب للقوت ليقوموا بحفظ أمن الطرق و من الطبيعى ميل الأنفس إلى ما يرد بلا تعب، فصاروا حينئذ عيالا على تلك الواردات و نشأ عن

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ٣٢٠

ذلك اعتساف الأعراب بقطعهم للطرق و تعديهم على قوافل الحجاج إذا تأخر عنهم ذلك المرتب أو شىء منه. حتى أن بعض المتوظفين الذين لهم يد فى توزيع ذلك المال ربما تساهل فى تنقيص شىء بأولئك الأعراب من مرتباتهم فيثورون و يعثون فى الأرض بالفساد، و نشأ عن ذلك قلة الأمن فى جميع الجهات حتى أن المدينة المنورة على صاحبها و آله أفضل الصلاة و السلام كثيرا ما تبقى محصورة و يدافع عن أسوارها و أبوابها من حصونها بالمدافع و الطرق منقطعة عنها و تتضايق أهلها لقلّة القوت و الحبوب، و يتناول الأعراب على ما حولها من البساتين بالتخريب و الفساد فإذا كان هذا حال المدينة فما بالك بغيرها؟ إلّا القرى التى هى لنفس القبائل ممّا لا يزرع حوله إلّا النخيل، فلذلك ضعف الأمن و قل العمران و جدبت الأرض مع أنها صالحة للزراعة و فيها عيون كثيرة أحدثها المتقدمون فى عصر الخلافة و ما قرب منه، و قد شاهدت فى كل من بلدى الصفرا و الجديدة عينا غزيرة الماء عرضها أزيد من ذراع و نصف و عمقها أزيد من ثلاثة أذرع جارية فى غاية العذوبة، غير أن ماءها حارّ فإذا رفع فى الأواني برد و صلح للشرب و هو صالح جدًا للزراعة، لكنه الآن ليس عليه إلّا بعض نخيلات و باقيه يسبح على الأرض إلى أن يغور فيها، و قد ذكر فى خلاصة الوفاء فى أخبار دار المصطفى صلى الله عليه و سلم عيوننا و آبارا كثيرة على ذلك النحو لم يبق الآن منها منتفعا به سوى ما ذكرناه، و كذلك الغابات و الآجام التى بقرب المدينة و غيرها كلها ذات أشجار مثمرة و غير مثمرة صالحة لأخذ الأخشاب للبناء و هى الآن مهملة و لا ينتفع أهالى البلدان إلّا بقراب شجر النخل ممّا حولهم و بقيّة الخشب يؤتى به إليهم من الهند و غيره مع أنه حولهم مبذول، و المانع من الوصول إليه عدم الأمن و الجهل بكيفية القطع هذا فضلا عن الأراضى الخصبة الوسيعة الصالحة للزراعة، و أما بقيّة النباتات فقد كان سيدنا عمر رضى الله عنه حمى فى وادى القرى جهة تكفى أربعين ألفا من الخيل المسبلة للرعى فيها، ثم زاد بعده

سيدنا عثمان و من بعده إلى إضعاف ذلك المقدار فيا أسفا على الخوف في بلاد الأمن، و تلك العوائد و إن كان القصد منها حسنه فقد آلت إلى سيئه إذ لو انقطع عنهم ذلك المدد و من تجرأ على السبل عوقب، و أقيمت الشريعة حق القيام لأقبل السكان على العمران و كفى الله المؤمنين غوائل الطغيان، و ما الله بغافل عما يعملون.

مطلب في المعارف

من البديهي أن الذي ذكرناه في الصنائع من جهة الرواج و الكساد هو أساس أيضا في المعارف، فالمعارف الآن بالحجاز على غاية من الخمول و ما يوجد منها إنما هو محصور و مقصور على خصوص البلدين المكرمين، فيوجد في كل منهما بعض دروس في المسجدين المحترمين في بعض العلوم الدينية و بعض وسائلها، فيوجد من الوسائل قليل من دروس النحو و المعاني، و من المقاصد بعض دروس في التفسير و الحديث و الفقه على اختلاف مذاهبه، و إن يكن يوجد بكل من البلدين الأكرمين علماء أجله لكنهم نبغوا في أقطار أخرى ثم جاؤوا الآن هناك إلّا ما ندر من بعض الأهالي الذين تلقوا العلم هناك من

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ٣٢١

العلماء الوافدين من الأقطار على أحوال خصوصية غير منتظمة و لا مفيدة للعموم، و في هاته المدة الأخيرة أنشأ بعض الهنود ذوى التوفيق بواسطة العالم الجليل الشيخ رحمه الله مؤلف كتاب إظهار الحق، مدرسه بمكة المشرفة يقرأ بها الشيخ المذكور و من معه من العلماء المجاورين بعض دروس في الهيئة و الجغرافيا و الطب و بعض علوم أخرى رياضية و علم التصوف أيضا. و بما ذكرناه بلغ السكان لا سيما الأعراب إلى درجة عالية في الجهل و فساد الأخلاق غير أن لطف الله حف بما حدث منذ مدة قريبة من انتشار طريقة الشيخ السنوسي، الذي كنا ذكرناه عند ذكرنا لرجوعى من فرنسا، لأن هذا الشيخ كان استقر بمكة المشرفة و أنشأ في جبل أبي قبيس زاوية نشر فيها طريقته فانبثت في قبائل أولئك الأعراب حتى كادت أن لا توجد قبيلة إلّا و فيها زاوية و شيخ يرشد إلى الطريق، فحصل في القبائل نوع من معرفة أصول الديانة الإسلامية و الفروض العيية و المحرمات الذاتية و دب في هؤلاء شىء من صلاح الحال و إن لم يكبحهم عن التعدى على عباد الله القاصدين لأحد الحرمين، فيا أسفا على إهمال المعارف و ضياعها في مكان ينبوع الحكمة و ظهورها، و لولا وجود أفراد من أطباء الدولة الذين ترسلهم لأحد البلدين الأكرمين أو البعض من الهنود العارفين بالطب على الطريقة القديمة، لكن معرفتهم لذلك عن علم و تدريس للكتب على طريقة أخذ العلم حقيقة فلهم باع حسن في علاج الأمراض، و لولا هؤلاء لحرمت السكنى في البلد التي يفترض على عموم الأمة و تعميرها، فإن أبا حنيفة و غيره من الأئمة يقولون: «بحرمة سكنى البلاد التي لا طيب بها»، و كل من المدينة المنورة و مكة المشرفة يفترض حمايتها فكيف يسوغ إهمالها بأمر المعارف و أهلها حتى تخلو من طيب لولا أولئك، و إنما قلت في أطباء الهند إنهم عالمون بالطب على الطريقة العلمية احتراسا من المدجلين ممن يدعى هذا العلم مع جهله المطبق به المتكاثر ظهورهم بالبلدان التي لا تتنبه حكوماتها لمنعهم من ذلك التدجيل لأنهم يضرون بجهلهم، و قد شاهدت ذلك في نفس مكة عيانا حيث كنت مريضا بإبهام رجلى اليمنى حيث انقلب الظفر تدريجا و غاص في اللحم و اشتد أمره حتى كاد يمنعنى عن المشى، و كان حصل لى مثل ذلك و أنا بباريس فجىء لى بطبيب خاص بذلك النوع من الأمراض و عالجنى برفع الظفر بالآلات و كيفية فى عملها لم يحصل لى منها شدة ألم، و جعل تحت ظفرى ورقة من الرصاص صفيقة لى لا يغوص ثانيا و قطع الظفر إلى محل التصاقه باللحم و عافانى الله بسبب ذلك، فلما كنت بمكة و عاودنى مثل ما وقع سابقا و ذكرت لبعض الحاضرين عندى ما كان وقع، أخبرنى بأنه يوجد حكيم يفعل مثل ذلك فجىء به إلى و كنت محترسا منه لكنى رأيت معه آلات للقطع و غيره كثيرة متقنة و ابتداء فى

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ٣٢٢

العمل من غير كثرة ألم فظننت أنه عن علم فلم يفعل إلّا قطع الظفر لكن عقبه ألم كدت معه أن لا أستطيع المشى لولا لطف الله لأنه

أراد الزيادة في القطع بعد ذلك فامتعت، لأنه ليس له من العلم شيء سوى كونه حلاقا حجاما تعود على فصد بعض الناس، فأمثال هذا يمنعون شرعا عن مباشرة أعمالهم:

و لكن البلاد إذا اقشعرت و صوح نبتها رعى الهشيم
فإذا خلت البلاد عن حكماء عارفين بعلم الطب يضطر الناس إلى هؤلاء الدجالين، و الحق أن أمر المعارف مع كونه واجبا في كل صقع و بلاد فهو في الحرمين أشد تأكيدا، و إنا لله و إنا إليه راجعون.

مطلب في الأحكام

قد علمت مما مر في مبحث السياسة الداخلية الأصول التي تجرى عليها الأحكام و حاصلها: أن سيادة الشريف أمير الحجاز هو مرجع الحكم في قضايا الوقائع التي تقع بين القبائل، و هو أيضا مرجع الشكايا من مظالمهم، فيحذر رؤساءهم و مشايخهم و يأمرهم بما يراه و ينفذ الحكم في الظالم بحسب اجتهاده هكذا الأصل، و لكنهم الآن مستبدون بأمرهم كل قبيلة لا تخضع إلا لمشائخها و رؤسائها مما يذكر في زمن الفترة، و كل يحكم باجتهاده و استبداده و لو في القصاص في الأنفس، و إذا تعدت قبيلة على أخرى كان الأمر لمن هو أقوى، فطاعتهم الآن لسيادة الأمير إنما هي ظاهرية و هو و إن استطاع على إخضاعهم و لو بدون عساكر الدولة بل بمن ينضم إليه من بقية القبائل لكنه لا يقتدر على تنفيذ ذلك لما مر في أحوال السياسة الداخلية، كما يرجع إلى سيادة الأمير فصل المضالم في أهل مكة و الوالي هو الذي يجلس إلى فصل المضالم فيما يقع بين السكان في مكة أيضا، فكأنها مشتركة بين الأمير و الوالي لكن الوالي ينفرد بسائر مظالم جده.

و المدينة المنورة يجلس فيها المحافظ في مثل ما ذكرناه، و في كل بلد حاكم يلقب قائمقام يجرى ما ذكر أيضا في المسائل الخفيفة، و المسائل الثقيلة ترفع إلى الوالي بمكة أو إلى سيادة الشريف الأمير، و القبائل كلها مشايخها هم مرجع الحكم في سائر القضايا، ثم أن كلاً من البلدين الأكرمين بها قاض هو مرجع الحكم في كافة النوازل الشخصية يجريها بمقتضى الشريعة، و في كل من البلدين مفت حنفى يسترجعه الخصوم في أحكام القاضى لكن القاضى ليس ملزوماً باتباع فتواه بل لا يجرى إلا ما يراه و إن كان جاهلا، و المفتى عالما و لا يخضع القاضى إلا لأوامر باب مشيخة الإسلام في تخت السلطنة إن اقتدر الخصم إلى البلوغ إليه، و لا يخفى ما في ذلك من المشقة لبعد الشقة، كما يوجد في كل من البلدين الأكرمين محتسب له النظر في أمر المعاشات و قيم البيوعات و غش البائعين و خسران الكيل و الميزان، و يحكم في ذلك لكة بما يراه من الاجتهاد و لو بالضرب المبرح، كما يوجد بهما مفات أخر على بعض المذاهب الأخر يرجع إليهم أهالى ذلك المذهب في

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ٣٢٣

الأحوال الشخصية و يفتونهم بحسب مذاهبهم، و هؤلاء المفتيون كلهم يولون بأمر من الدولة العثمانية.

و أما بقية البلدان فجده بها قاض يولى مثل السابقين و غيرها من البلدان يولى فيها نائب عن القاضى يعينه قاضى مكة لإجراء الأحكام الشرعية في البلد التي هو بها، و بقية الإدارات و الأحكام ترجع إلى القائمقام أو الشيخ و هو الذى يحكم بما يريد. و الحاصل أن إدارة الأحكام بالحجاز لا زالت إلى الآن على شبه من النمط القديم أعنى أنها ليس بها مجالس للأحكام العرفية و غيرها من القوانين الجارية بالممالك العثمانية الآن، و ياليت الأمر يجرى حقيقة على المنهج الذى سلكه الخلفاء الراشدون كيف و هو مكان ظهور الشريعة و إقامة العدل و تأسيس التمدن الحقيقى الصالح لاستقامة الدنيا و الآخرة و الأمر لله وحده لا رب سواه.

مطلب في هيئة المساكن

المساكن بالحجاز تختلف بين حالها بالمدن و حالها بالقرى، فأما المدن فالديار بها هي شبيهة بالنون الذي ذكرناه في مصر غير أنها في مكة تكثر طبقاتها حتى أنها ربما بلغت إلى الست طبقات كل منها مستكمل اللوازم لا يحتاج إلى غيره في السكنى، و الطبقة الأرضية لا يعتنى بها للسكنى وإنما هي للمرافق و جلوس الرجال بخلاف المدينة المنورة فإن دورها كل منها بها طبقة أرضية يسكن فيها في الصيف لأنها أبرد من العلوية، غير أن المبيت بكل منهما يكون غالباً في الصيف في السطوح التي يجعل لها حرم كاف لوقاية السكان من السقوط، و الأبنية كلها لا تجصص حيطانها إلا في بعض الديار الحسنة لأهل الثروة فإنها تجصص و تبيض حيطانها و تدهن سقوفها التي تجعل من عيدان النخل و يجعل عليها من أسفل ألواح لاصقة منظمه و يعلق فيها ثريات. و أما بقية الديار و سائر الأبنية فإن الحيطان يسد فيها ما بين الأحجار بطين البناء المركب من الجير و الطين ثم تبيض بماء الجير و السقوف تكون من عيدان النخل مكشوفة للرأى و فوقها حصير من أنواع الحلفاء و فوقه التراب، و ليس في الحجرات بلاط و لا غيره بل الأرض تكون تراباً عليها الحصير أو الزرابى (الابسطه) إلا المدينة المنورة، فإن الطبقة الأرضية مبلطة بأنواع من الأحجار الشبيهة بالمرمر و الدرج في كل غير محسنة متعبة إلا نادراً، و ديار مكة لا سيما المعدة للأجرة كل طبقة منها لا يوجد فيها مطبخ و إنما يطبخ أهلها بإحدى حجراتها بالفحم أو الحطب نادراً لإحضار مياه الاغتسال في الشتاء و أما في الصيف فلا يسخنون الماء للإستغناء عنه و لهذا لا يوجد في كل من مكة و المدينة إلا حمامان بكل منهما لأن السكان يغتسلون في ديارهم غالباً و هكذا بقيت البلدان ليس بها حمامات، و مفروشات الديار على النحو الذي هو جار بمصر و غيرها من التشبه بالمفروشات التركية و الأوروبية و من غريب صناعتهم المغالق التي تقفل بها الأبواب فإن المفاتيح نحو عود مستطيل في آخره أسنان تدخل في ثقب في المغلاق و ترفع إلى فوق

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ٣٢٤

و يجذب المغلاق بعجله إذ ذاك فيفتح و لا ريب أنه سهل السرقة إذ تقليد المفاتيح على ذلك النحو يسير لكن الأمر الفظيع هو أن تلك المغاليق على شكل الصليب، و قد رأيت على باب الحجرة النبوية مغلاقاً من تلك المغاليق و هو من ذهب تقشع من رؤيته الجلود، و قد خاطبت من يقتدر على تغييره فتعلل بأن ذاك لا يخطر على فكر أحد من الأهالي لجهلهم الصليب، و بقى الحال على ما هو و لله الأمر.

هذا في المدن و أما في بقية البلاد الأخرى فكل دار تؤلف من طبقة واحدة إلا نادراً من طبقتين، و هي في الحقيقة بيوت لا ديار و الفرق بين الدار و البيت أن الدار هي المسكن الذي يشتمل على جميع المرافق المحتاج إليها و أبواب حجراته إلى فسحة تكون في وسطها غالباً مكشوفة إلى السماء، و أما البيت فهي التي مثل ما ذكر غير أنها لا فسحة بها مكشوفة أعنى الفسحة التي فيها أبواب الحجرات و هذا هو الفرق اللغوى و إن كان الإستعمال مختلف بحسب الإصطلاح في البلدان فالحجاز و مصر مثلاً يطلقون على الكل بيوت و تونس و المغرب يطلقون على الكل ديار، و هاتيك البيوت في القرى الحجازية مظلمة غالباً إذ لا يجعل لها شبايك على الطرقات و ليس بها فسحة مشكوفة، فغاية الأمر أن يجعل للحجرات منافذ للضوء بقرب السقوف احتراساً من كشف الساء لأنهم يشددون بحجبهم كما تقدم سابقاً، فتلك البيوت شبيهة بالغيران و لا تبيض بالجير إلا نادراً ما عدا سطوحها التي هي على نحو سطوح المدن من الإتقان في تجصيصها لكي لا- تخترقها الأمطار، فتكاد هاته القرى أن لا تبين للناظرين إلا إذا بلغوها خصوصاً التي هي في مرتفعات الجبال السود فإنها لا تكاد تبين، و الحاصل أن الأبنية على العموم نسبتها للتمدن كنسبة بقية الصنائع التي مر ذكرها في مطلبها، غير أنه يوجد في صناعة النجارة إتقان للرواشن و بعض الأبواب و الشبايك على العموم أى الطواقى المطله على الطرقات أو غيرها، لا يوجد بها زجاج يمنع دخول الريح إلا نادراً في بعض الديار المترفة أهلها، و من الغريب أن ترى البيوت مفروشة بالزرابى في مدة الصيف مع شدة الحر هناك فهم في الحقيقة غير مستعدين للتوقى منه إلا أهل المدينة فإنهم معدون الطبقات السفلى لذلك، فيجعلون فيها بيتاً رحيباً له جهتان يمنى و يسرى مرتفعتا الأرض عن الوسط الذي به حوض للماء غالباً و سقفه مكشوف إلى السماء ينجذب منه الهواء إلى أسفل و يكون الماء جارياً إلى ذلك الحوض، و يجلس السكان بإحدى الجهتين التي يجعل بهما مساطب و

أرائك و كل تلك الطبقة مبلطة بنحو الرخام كما ذكرنا سابقا، و ذاك مناسب لشدة الحر على خلاف من أهل مكة و غيرهم الذين ليس لهم مثل ذلك.

و أما الطرقات على العموم بالبلدان و غيرها فهي طبيعيّة ليس بها تحسين و لا صناعة، و غاية الأمر أنها تكنس في المدن فهي نظيفة و أغلبها ضيق حتى يكاد أن لا يمشى ببعضها إلّا إنسان واحد في أن أصل الشريعة على خلاف ذلك، فإن سيدنا عمر رضی الله عنه لما استشير في بناء بلد للصحابة و الجيش الذي فتح الفرس لما استوخموا أرض فارس و أمرهم

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ٣٢٥

باختيار أرض تشبه أرض العرب فاختروا الكوفة، فأمرهم ببناء بلد بها و أن تكون دورها لا تتجاوز الطبقتين و أن تكون طرقها العامة كل منها ثلاثة عشر ذراعا و الطرق الخاصة سبعة أذرع عرضا و البطحاء التي تكون أمام المسجد ستون ذراعا في ستين و هذا هو الأصل الذي يستند إليه المذهب الحنفي في ذلك، فانظر كيف كانت حالة البلدان في صدر الإسلام.

و يؤيد هذا أن بئرحا التي هي بستان كان لأبي طلحة الأنصاري رضی الله عنه قد كان في زمن النبي صلى الله عليه و سلم تجاه المسجد النبوي كما هو مذكور في صحيح البخاري رضی الله عنه، فأين هو الآن من المسجد النبوي إذ بينهما الآن أبنية و ديار و طرقات و أسوار و غير ذلك فإسفا على وقوع مثل هذا التغيير المخالف للشريعة المكدر للتمدن و مصالح الناس حقيقة، فليس توسيع الطرق و تنظيفها من تقليد الإفرنج كما يدعيه الجهلاء بل هو من شريعتنا التي تنوسى الإلتفات لمثل ذلك فيها، و حيث كانت الطرق على نحو ما مر ذكره يكثر فيها الوحل زمن المطر غير أنها تنور ليلا من قبل الحكومة بفوانيس من القصدير و الزجاج تعلق في الحيطان أو سقوف الأسواق، لأن كل صناعة لها سوق يخصصها و بعض هاته الأسواق بل أكثرها مسقوف بالألواح على نحو ما ذكرنا في أسواق تونس و الحوانيت هيئتها أيضا على ذلك النحو، و ليس للديار جناب و لا بطحآت خاصة و إنما أبوابها في الطريق تفتح إلى سقائفها المختلفة كبرا و صغرا، و أما الطرقات خارج البلدان فهي على طبيعتها الأصلية و أغلب الطرق بين مكة و المدينة صالحة لمشي العجلات و تمر فيها المدافع الآن و هي مثل العجلات و كذلك الطريق بين جدة و مكة، فإليت شعري أى مانع لاستعمال العجلات في السفر هناك فإني لم أر إلّا عجلة واحدة لوالى الحجاز بمكة، و قالوا إنه ليس بها غيرها و رأيت بالمدينة عجلة قيل إنها لركوب بعض المرضى هي أشبه شىء بعجلات حمل السلع لملقاء في الطريق و كأن أمر الأمن هو الأساس.

مطلب في اللبس و بقیة العادات

أما اللبس الرسمي فهو كاللبس بالدولة العثمانية الذي تقدم مثله في مصر و كذلك لبس الرجال هو مثل لبس أهل مصر و الأعيان يلبسون جبة واسعة الأكماء كعلماء مصر إلّا أنها لها رقبة مرتفعة خصوصا للسادة الأشراف و يجعلون على رؤوسهم كوفية مطرزة بالحرير على أشكال حسنة بدیعة تكون مكشوفة الوسط و عليها عمامة مكورة عظيمة يشدونها شداً محكما جميلا و هي بيضاء. و أما الأشراف في القبائل فيجعلون على رؤوسهم منديلا من الحرير ملونا و عليه عوض العمامة عقال من وبر الإبل مقصب بخيوط الفضة المذهبة، و لكل واحد منهم مطلقا في البلدان أو

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ٣٢٦

القبائل خنجر يجعله في حزامه في وسطه من أمام و كأنها هي علامة الشرف مع لبسهم لعباءة يمانية أو عراقية مقصبة بالذهب و نحوهم في هذا سائر الأعيان من القبائل، و بقتهم يلبسون عباءة على قميص و يتمنطقون على القميص بمنديل أو غيره و كثير منهم يعلق على جنبه خنجرا و الكل يلبسون في الأرجل النعال الحجازية ذات الشرطان التي تدخل بين الأصابع و تختلف جودة و رداءة على حسب ثروة اللابس، و ربما تدثر بعض أهل البلدان بالجباب ذات الفراء المعروفة بالكرك، و لبس نسائهم سراويل من نسيج الحرير أو المقصب بالذهب بحيث أنهم يتنافسون في صنعه على حسب الثروة و المكان و الزمان للابس، و مثل السراويل فيما ذكر متنان يفتح

صدره و يغلق ذو أكمام ضيقه لا تبلغ المرفقين و فوق الجميع نحو عباءة من المنسوجات الثمينة مشقوقة إلى السرة من أعلا بلا أكمام واسعة جدًا حتى أنها تغطي أصابع الكف و إن كان لها تقوب في محل الأكمام تخرج منها الأيدي، و على رؤوسهن نحو المناديل من منسوجات صفيقه يحيطون بأطرافها شريطا مكعبا بخيوط الفضة أو الحرير على حسب الأحوال، و في أرجلهن أحذية من نوع البشامق التونسية، و إذا خرجن من البيوت زدن على ذلك خفا من الجلد الأصفر مع رداء واسع جدا ذى أكمام ساتر للأصابع و خمار مسدل إلى السرة مثقوب جهة العينين و يلبسن أيضا المصوغ بأنواعه كلها.

و أما الأكل فإنهم يجلسون له على الأرض و يوضع على الخيوان و هو مثل ما تقدم في أكل أهل مصر غير أنه أكثر إداما من السمن و أكثر أبهرة، و الأعراب أكثر أكلهم. الأرز مع العدس، و لا- يأكل الجميع لحم البقر إلا نادرا بحيث يستعير به الأعيان في المدن، و يأكلون الجمل بكثرة و يبخرون الماء بالمصطكى أو بعود القرنفل ثم يجعلونه في أواني و يضعونها في ممر الريح لاكتساب البرودة. و أما المواكب فأعظمها موكب الحج و قد تقدم الكلام عليه، و لأهل مكة موكب يسمى الرجبية يسافر به ذوو اليسر إلى زيارة النبي عليه و على آله أكمل الصلاة و أزكى السلام، و يحصل من ذلك في المدينة المنورة موكب حافل في رجب و لكثرة إسراف أهل مكة في حجهم و التباهي بينهم فيما يفعلونه فيه، يضطر بعضهم إلى تأخير فرضه إلى أن يبلغ سن الشيخوخة خشية المعرة من كونه لم يفعل تلك العادات الإسرافية في الرحل و المركب و الخيام و المأكّل.

و أما الأعراس فهي أقرب عندهم إلى الطريقة المشروعة من جهة عدم وجود المغنيات جهرة و الملاهي إلا الدفوف و شيء من غيرها مع حفظ التستر في النساء، و لأهل المدينة عادة و هي أن الرجل إذا تزوج بيكر و دخل بها فلا يخرج من بيته أسبوعا تاما إلا أنه يجتمع بأحبائه في بيته و إن خرج يوما و لو للصلاة استاء أهل المرأة لأن ذاك دليل على أنها غير مستحسنة عند زوجها، و أما الثيب فلا يعتبرون ذلك فيها. و أما المآتم فهي على الوجه

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ٣٢٧

المشروع من أكثر وجوهها فلا- عياط و لا- زياط و لا- قراءة بالطرقات و لا- ولائم من صاحب المآتم، و إنما يفعلون في ذلك ما هو المشروع في السنة أجرى الله أحوالنا و أحوالهم جميعا على الوجوه المشروعة.

مطلب في اللغة

لا يخفى أن الحجاز هو ميدان بلاغة العرب و مجال تسابق فرسان الكلام لكن ذلك كله قد انعكس على ضده فلا تكاد تجد متكلما باللغة العربية المعربة حيث دخلت العبارات العجمية بين القوم منذ تغلب الأعجام على الدولة الإسلامية، لأن الناس على مذهب أمرائهم فيقلدون الغالب و القوى حتى في نحلته و كلامه و ما كفى ذلك في إدخال المفردات الأعجمية حتى سرى الأمر إلى اللحن في الأعراب كما هو مقرر من قديم حيث ذكروا في سبب وضع علم النحو سماع سيدنا على عليه السلام للحن في الكلام فأشار بوضع ذلك العلم، و من البديهي أن الأمر يتفاقم بطول المدة و شدة الأسباب ففي ذلك الوقت لم يكن إلا اختلاط الأمة بأمم أخرى ثم ازداد بعد ذلك بتمكن الأعاجم من الدولة ففسدت اللغة في الحجاز فسادا كليتا حتى لم يبق من يكتب كتابه مستقيمه في الأعراب و الألفاظ إلا النادر ممن هم أهل علم، و ربما اضطروا إلى كتابة كثير من المفردات الأعجمية لشهرتها و تعارفها و هجران ما يرادفها من أصل العربية، و سبحان مقلب الأحوال و هو لا يتغير و لا يزال.

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ٣٢٨

الباب العاشر في المملكة العثمانية

تنبيه: لما كانت هاته المملكة ليست كسائر الممالك التي مرّ الكلام عليها لا من جهة الذات ولا من جهة المعنى، أما الذات فإنها مركبة من ممالك شتى كانت كل واحدة منها مستقلة بنفسها ولا يزال كل منها له صفات خاصة من جهة جغرافيته و جنسيته أهله و عوائدهم و أخلاقهم و غير ذلك، فيمتنع الكلام عليهم كلهم من هاتيك الجهات بصفة واحدة و إن تكلمنا على كل واحدة منها بانفرادها ربما عدل الكلام فيها جميع ما تقدم و ما يأتي في الممالك التي شاهدناها، و لذلك رأينا أن نتكلم عليها من الحيثية التي يدل عليها إسمها و هو كونها مملكة عثمانية إذ ليس هناك قطعة من الأرض تسمى في الأصل بهذا الإسم و إنما لكل منها باعتبار ذاته إسم خاص، و الجامع بينها في هاته التسمية إنما هو كونها تحت سلطة دولة سلطانها من هاته العائلة و هي العثمانية أي المنسوبة إلى عثمان الذي هو أول من تسلطن من العائلة و بقيت في ذريته إلى الآن.

هذا من جهة الذات و أما الحامل على مخالفة ما سبق في مثلها من جهة المعنى فلصعوبة الأمر أو تعسره لأن قول الحق صعب و الكذب حرام، و نحن و إن كنا في هذا القطر السعيد بأمنه في ظل خديونا المعظم التوفيقى لا زال قرّة لأعين أهل الإسلام و لكل سكانه من الأمن و الحرية ما يسبغ له أن يقول الحق و لا يخشى لومة لائم، غير أن بعض مقتضيات الحال تستدعى الأقتصار في المقال فلا مخلص في الكلام على هاته المملكة العثمانية إلّا الإقتصار على الإجمال على حسب ما تسيغه الأحوال إلى أن ييسر الله بفضله أفراد هاته المملكة بتأليف خاص يحتوى على التفاصيل في الحقيق و الجليل، و رحمته تعالى قريبة لا يعزب عن أمره شيء و هو على كل شيء قدير.

فصل في سفرى إليها

إشارة

قد تقدّم أنا ركبنا من مرسى ينبع في رجوعنا من الحج و قد كان ركوبنا في باخرة نمساوية من أجمل البواخر البريدية السياره بين الهند و أوروبا، فاجتازت بجدة و حملت منها ذلك الطود الشهير ذا النسب الخطير و الحسب المنير السيد سلمان القادري حفيد قطب الأقطاب الأكبر مولانا سيدى عبد القادر الجبلى رضى الله عنهم، و هو نقيب أشرف بغداد أيضا و أكبر عائلته و كان حاججا في ذلك العام فمن الله تعالى على برفقته عندما اجتازت الباخرة بمرسى ينبع، و ركب في الباخرة أيضا بعض من الحجاج الترك العثمانيين و الروسيين

صفحة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ٣٢٩

غير أنه لم يركب في الطبقة الأولى سوى السيد و برفقته أخوه السيد أحمد و ابن عمه السيد عبد القادر و جوار له و بعض من الخدمة القائمين بين يديه، لأنه أبقاه الله قد اتخذ في الحجره الكبرى في الباخرة إحدى زواياها و اختص بها و فرش بها فرشاً عربيّه و كانت خدمته هم القائمون بشؤونه زيادة عما يباشره خدام الباخرة مثل كونه يأكل منفردا هو و من معه على مائدته الخاصة في الأرض من خصوص طعامه الذى يطبخه له طباخه الخاص، غير أنه من مكارم أخلاقه كان يتحرى للأكل وقت أكل الرفقاء بحيث كُنّا نتخاطب و كل منا على مائدته حتى على الطعام الذى بين يدي كل منا إذ كنت أجلس مع بقيته ركاب الطبقة الأولى أنا و تابعى في ذلك الإيوان للطور و العشاء، و سارت بنا الباخرة ثلاثة أيام فوصلنا جبل الطور و وقفنا هناك مدة الحميه و هى يومان و أنزل كل من كان بالباخرة إلّا أصحاب الطبقة الأولى و من أنزل أبقى رحله في الباخرة إلّا القدر الذى يحتاجون إليه، و أخبرونا عند صعودهم أنه لم تحصل لهم مشقة لقله الإزدحام و كان من هؤلاء الترك رجل من أهل بوسنه يعرف قليلا من العربى حصلت بينى و بينه مودة، حتى استأذنت عليه رئيس الباخرة و أذن له فى الجلوس معى بإيوان الطبقة الأولى و هو جميل الأخلاق له بعض مشاركة فى النحو و الفقه و قد ترجم يوما بينى و بين أحد الترك الروسيين من أهل ولاية قازان و إن كان تفهمه منه عسر جداً لأن لغته مخالفة للغه التركيه العثمانية، و له بعض

إطلاع على العريية من جهة كونه قرأ بضاعة مزجاء في الفقه فسألته عن حالة المسلمين أهل بلده من جهة الأحكام الروسية، فكان مآل كلامه أن الروسية لا زالت محترمة لهم في أحوالهم الشخصية ولا يتداخلون فيما شجر بينهم إذ مرجعهم في ذلك إلى حكام منهم، و كأن هذا خاص بأهل تلك الولاية التي صارت مع الروسية على توافق لطول عهد استيلائها عليهم و محافظتهم على الشروط التي خضعوا بها إليها، لأن الروسية مجرية في الولايات التي استولت عليها في الحرب الأخيرة مع الدولة العثمانية ما هو جار في بقية ولاياتها و ألزمت جميع السكان من مسلمين و غيرهم بأن يكون التعليم بلغتها فقط لأن اللغة هي التي توحد الجنسية فإذا تنوسيت لغتهم صاروا روسيين حتى في الجنسية، ثم أنا وصلنا إلى خليج السويس الموصل بين البحر الأبيض و البحر الأحمر و هو إحدى مآثر هذا القرن، لأن السفن صارت تصل من شطوط المغرب في أفريقيا إلى شطوط الصين و الهند في أيام قليلة لا تتجاوز الشهر إلى أبعدها بعد أن كانت يلزمها عدة أشهر لأنها كانت يلزمها الخروج من خليج طارق ثم تحيط بجميع قارة أفريقية بالبحر المحيط ثم بحر الهند، فلعمري أنها لمأثرة مفيدة للتجارة على العموم و إن كانت فيها مضرّات سياسية بالنسبة لكثير من المسلمين و قد روى أن عمرو بن العاص استأذن سيدنا عمر بعد فتحه لمصر ليفتح خليجا موصلا ما بين البحرين و لعله بهذا المكان الذي هو عليه الآن لأنه أصلح الأماكن لذلك حيث كانت بالوسط بحيرات عميقة مغنية عن حفر خليج فيها. ثم أن سيدنا عمر سأله عن هذا الخليج الذي يراد فتحه: هل يحصل به فصل بين أرض جزيرة العرب و مصر؟ فأجابه: بنعم، فقال: لا أفصل بين أرض المسلمين بالبحر، و يقال إن سيدنا علي رضی الله عنه قال للخليفة عندما استشار كبار الصحابة في ذلك أنه إذا

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ٣٣٠

تمّ ذلك الخليج تصير سفن الروم تضرب إلى جده و غيرها من مراسى بلاد العرب و ليس للمسلمين سفن تعارضهم فيسهل عليهم غزو بلاد الإسلام، و لذلك كتب سيدنا عمر رضی الله عنهم أجمعين إلى عامله عمرو بن العاص بأن يضرب عن ذلك صفحا و يمكن أن يكون الخليج في أصله موجودا في العهد القديم.

ثم أن الرمال تراكمت في إحدى جهاته على ما سيأتي ذكره فسدت البحر و امتدّ عرضها إلى أن صارت الأرض واحدة ما عدا البحيرات التي في الوسط على سمة واحد التي ربما دلت على اتصال البحر سابقا. و يدل على هذا أن بعض المفسرين روى في تفسير قوله تعالى: **حِثِّي أَبْلُغَ مَجْمَعِ الْبَحْرَيْنِ [الكهف: ٦٠]**. في قصة موسى و الخضر عليهما السلام، أن بعض المؤرخين يقول إن المراد بالبحرين هما بحر فارس و الروم أما بحر الروم فهو معلوم و أما بحر فارس المعروف الآن فيستحيل أن يتصل ببحر الروم الذي هو البحر الأبيض خصوصا في هذا الزمن القليل نسبيا من زمن موسى عليه السلام إلى ما قبل البعثة المعروف فيه حالة الأرض على ما هي عليه الآن، فلا يصح ذلك الكلام إلّا إذا كان البحر الأحمر يطلق عليه بحر فارس سابقا لأنه متصل به و قريب منه جدًا لأنهما يلتقيان الآن في جزيرة العرب أي شطوطها الجنوبية فلا- يبعد أن يكون الاسم يطلق سابقا على الجميع سواء. و اتصال البحر الأحمر ببحر الروم سهل جدًا لما مرّ بيانه و لما هو مشاهد بالفعل حيث اتصالا في هذا الزمن، و سبب هذا الإتصال هو أن رجلا فرنساويًا يقال له فردنان دي ليسبس له مهارة في الهندسة و هو من مشاهير قومه بدى له يوما إمكان اتصال البحرين بهذا الخليج، و أعانته على مرغوبه دولته لمآرب سياسية في قرب الإتصال بالهند لعله يمكن لها يوما ما أخذ الثار من الإنكليز على نحو ما سبق في تاريخ الدولتين، فساعفهم على قصدهم و إلى مصر إذ ذاك سعيد باشا ابن محمّد علي باشا، و كان الإنكليز من أشد المعارضين في ذلك سرًا و كأن الأقدار تقول لهم و عسى أن تكررّوا شيئًا و هو خيرٌ لكم [البقرة: ٢١٦] فإنهم حصلوا فيه على أكبر فائدة، إذ صارت سفنهم هي أكثر السفن المارة به مع تحصيلهم على مآرب أخرى سياسية كتداخلهم في القطر المصري و غير ذلك زيادة عن كونهم صاروا هم المالكين للقسط الأوفر منه و محصلين على أرباحه الباهرة، و ذلك لأن فردنان دي ليسبس ألف جمعيةً لذلك العمل و جعلت هاته الجمعية التي هو رئيسها رأس مال لمصاريف العمل و جعلته على أوراق ذات أسهم تباع و تشتري لكل من أراد، و كان للحكومة المصرية من تلك الأوراق ما مقدار قيمته نحو المائة مليون فرنك و آل الأمر بعد ذلك إلى بيع إسماعيل باشا خديو مصر لأسهم حكومته فاشترتها

الدولة الإنكليزية تماما زيادة عما اشترته سابقا و لا- حقا من الأسهم أفذاذا، و صار دخل هاتيكن السهام يوازي أصل قيمتها حتى صارت كل رقعة منها أصل سعرها خمسمائة فرنك تباع الآن بالفين و ثلاثمائة فرنك أو نحو ذلك، لأن تلك الجمعية شرعت في العمل و تمتته بحفر خليج من البحر الأحمر بمحاذات مرسى السويس و أوصلته بالبحيرة الأولى، ثم حفرت خليجا بين هاته البحيرة و البحيرة الثانية إلى

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ٣٣١

أن وصلت إلى البحر الأبيض، و عندما تم عملها عقد إسماعيل باشا خديو مصر لفتح هذا العمل الغريب موكبا مشهودا جعل به القطر المصرى كأنه دار عرس و استدعى إليه ملوك أوربا كلهم لمشاهدة مرور أول باخرة تمر في ذلك الخليج، و كذلك أعيان غيرهم من الأوروبايين و كل من قدم منهم فمصاريفه مدة إقامته بالقطر المصرى على الحكومة المصرية، و لهم أن يتفرجوا حيث شاؤوا و قد ساح بعضهم حتى إلى السودان مع القيام بكل منهم على حسب مقامه أعظم قيام و وفد عليه من ملوك أوروبا العظام إمبراطور النمسا و إمبراطورة الفرنسيين أى زوجة الإمبراطور و ولى عهد كل من إنكلترا و روسيا و بروسيا فضلا عن بقية الملوك المتوسطين و الصغار، و صرفت في ذلك كله من الحكومة المصرية أموال تكاد أن لا تحصى تعاضمت بها ديونها و ذلك كله لما رب سياسيته لم ينجح منها المقصود و نشأ عنها وحشة مع الدولة العثمانية آلت إلى الرضاء بعد صرف أموال باهظة، ثم استقر عمل جمعية الخليج على إقامة فعلاء و مراقبين على محافظة الخليج و يستخلص على كل سفينة تمر فيه مقدار معلوم من الأموال على حسب حمولتها و نوعها حربية أو تجارية، و فى رأس كل سنة تقسم الأرباح على أصحاب الأسهم بعد إخراج المصاريف المستمرة لأن الخليج من جهة السويس لم تزل الرمال تنثال عليه منذ فتحه إلى الآن لولا شدة العمل فى رفع تلك الرمال ليلا و نهارا على مسافة طويلة تزيد عن العشرة أميال.

و مع ذلك كله فقد شاهدت فى الباخرة التى اجترنا فيها أن سيرها كان بطيئا جدا هناك و كذلك غيرها احتراسا من الغرز فى الرمل مع كثرة العلامات المجعولة فى المياه لمحل المرور، و مع ذلك كله قد اصطدمت الباخرة فى الرمل عدة مرار حتى أنى خلت أنه عمل لا يدوم لشدة التعب الذى شاهدته من العملة فى جلبهم للسفن و البواخر المصطدمة فى الرمال حتى كأنها تجر بالأيدى مع كثرة و مداومة العمل بالآلات الرافعة للرمل و مع ذلك كله لا تجتاز فيه إلا سفينة واحدة و فيه أماكن لوقوف السفن إذا كانت تعارضها سفينة أخرى أى إحداها غادية و الأخرى رائحة فتلك الأماكن وسيعه تمر بها السفينتان و لذلك يجعلون علامات على أعمدة مرتفعة فى البر يميننا و شمالا ليدرك منها رئيس الباخرة ما يأمره به محافظو الخليج من الوقوف أو المشى السريع أو البطيء أو غير ذلك، و لذلك رأيت رئيس باخرتنا قد أخرج كتابا فيه تلك العلامات و شرح المراد منها ليعمل بمقتضاها عند دخوله إلى الخليج و بسبب ذلك كانت السفن لا تتحرك فيه ليلا فى تاريخ مرورنا و قد وقفنا مرة لمعارضه باخرة إنكليزية حربية ذاهبة إلى الهند حاملة للعساكر، فلما مرت بنا خيل إلينا إنا راكبون فى زورق مع أنا راكبون فى أعظم البواخر البريدية لكن عظم تلك الباخرة الحربية التى هى من نوع الفرقطين خيل إلينا ذلك، فإنها كانت ذات ثلاث طبقات من المدافع و حاملة لأربعة آلاف و خمسمائة عسكريا و كثير منهم معهم عيالهم و كانوا على همجية فإنهم لما رأونا صاروا يصرخون و يضحكون، ثم وصلنا إلى مرسى الإسماعيلية التى هى بوسط الخليج و بقرها ينصب جسر يصل بين آسيا و أفريقيا و لا ينصب إلا عند وجود المارين

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ٣٣٢

و يدفعون عليه خراجا للحكومة المصرية، و بتنا بالخليج ليلتين و فى صبيحة اليوم الثالث وصلنا إلى بورت سعيد و وقفنا بضع ساعات و كان عمال الحكومة المصرية حارسون لبخرتنا لكى لا ينزل منها أحد لأنهم رسموا فى ذلك التاريخ بأن لا يدخل إلى القطر المصرى حاج إلما من هو من أهله، لأنه كان كثير من المغاربة يدخلونه و هم فقراء فربما حملوا الأهالى و الحكومة مصاريف لرجوعهم إلى أوطانهم، و لذلك أعلنوا بذلك التحجير.

ثم قفلنا من هناك إلى أن وصلنا إلى مرسى بيروت أعظم مراسى ولاية الشام المعروفة بسورية فطلب مدير و جمعيتك تلك الباخرة من الركاب أن ينزل منهم إلى تلك البلدة كل من كان قاصدا القسطنطينية و ما حولها، و أما القاصدون بوسنه و هرسك و غيرها ممن تكون لهم مرسى تريست طريقا فإنهم يبقون فى الباخرة لأنها قاصدة هناك تّوا و الذين ينزلون و كانت الباخرة تعهدت لهم بالوصول إلى القسطنطينية و ما حولها فإنهم ينتظرون هناك إلى أن تأتيهم بعد خمسة أيام باخرة أخرى لجمعيتك الباخرة الأولى و تحملهم إلى مقاصدهم و كل من أراد من هؤلاء أخذ مصاريفه مدة انتظاره فله ذلك يدفعها إليه القيمون بأمر شركة تلك البواخر البريديّة النمساوية المسماة بشركة لويد، و قد أخذ منهم بالفعل كثير ممن نزل لكن بعد مشقة لعدم التفاهم حيث كان أغلبهم من الترك الروسين الذين قل من يعرف لغتهم و لإستشاطة بعضهم فى مقدار المصاريف التى طلبها مع أن اللجنة مقومة لأهل كل طبقه مقدارا عن كل يوم لم أعلم ما هو لأنى صرفت النظر عنه حيث كان النزول هناك من أعظم مرغوباتى لمزيد التأنس بذلك السيد الجليل القادري و للتعرف بتلك البلاد.

فنزلت هناك و كانت المرسى صعبة جدا لبعده إرساء الباخرة عن الشط و ركوبنا فى زوارق مع هيجان البحر و بعد أن خلصنا رحلنا من الكمرى الذى لم نر من أهله إلّا خيرا، دخلنا إلى البلاد راجلين لقربها و عدم وجود ما يركب حول الكمرى فدلنى رجل من المتشبهين بخدمة المسافرين على منزل للمسافرين قريب من جهه طريقنا كاشف على البحر، فإذا هو منزل لأحد الإفرنج مثل منازل أوروبا المتوسطة الحسن و أخذت به بيتا واسعة ذات حجرة للنوم و الصناديق و حجرة للجلوس و اغتسلت فى حمامه بيتا واسعة ذات حجرة للنوم و الصناديق و حجرة للجلوس و اغتسلت فى حمامه و بتنا تلك الليلة و الأكل فيه حسن.

و من غد شرعنا فى زيارة بعض أعيان البلاد و التفرج على منازلها و منافعها، فإذا هى بلد جميلة الوضع فى سيح جبل مطلة على البحر و حولها كثيب رمل و جبل لبنان بحيث أن حدوده منها على نحو ربع ساعة مجعول له علامات و له إدارة ممتازة كما سيأتى فى محله و واليه يسكن فى الشتاء فى بيروت و هو إذ ذاك رستم باشا، و قد رأيتة يوما راجعا من الجبل إلى داره متخذنا أبهه فاخرة فى عجلة يجرها ثلاثه من الخيل العتاق و أمامه فارس و وراءه أربعة من العساكر الخيالة متسلحين و بندقية كل منهم حاملها فى وجهه، و هذا الباشا هو شيخ مسن أصله طليانى خدم الدولة العلية بنصح و شاخ فى خدمتها و سمعت الثناء عليه فى تلك البلد و غيرها من مسلمين و غيرهم، غيور على الدولة محافظ على ناموسها و مصالحها

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ٣٣٣

و من غريب ما سمعته عنه: أنه كان مرة يتفقد فى جهات ولايته على ذلك الجبل فصادف أنه يتفقد الجهة القريه من طرابلس الشام و يصل إلى تلك الجهة آخر النهار و ليس بقربه مكان صالح للمبيت إلّا بلد طرابلس، فأرسل من صباح اليوم إلى متصرفها أى حاكمها يعلمه بأنه بيت ضيفه و كان الوقت رمضان فعرضه آخر النهار ذلك المتصرف و علماء البلد و وجهائها ثم دخلوا جميعا إلى دار المتصرف و جلسوا فى إيوانها كلهم فدخل الخدمة بأطباق المشروبات المبردة و الحلويات و كان الغروب لم يقع و كان هو أى رستم باشا لا زال على دين نصرانيته لكنه لما رأى تلك الأطباق داخله و علماء البلد و وجهائها جالسون اكفهّر وجهه و قال للمتصرف: ما هذا؟ فأجابته بأنه مشروبات مبردة، فقال الباشا: أليس هذا رمضان؟

فتبسم المتصرف و قال تملقا من غير أن يريد إظهار قصده لمخالفة الدين نعم هو رمضان و لكن جنابكم مسافر و أنا أيضا مثلكم و ها أنا ابتدئ بذلك و أخذ الكاس و شرب، فاشتدّ حق الباشا عليه و خاطبه بشدة بما معناه أنك إن كنت لم تراخ ديانتك فأنا يجب على أن أراعى دولتى و وظيفتى لأنى متوظف و وزير لخليفة المسلمين و هذا المقام إنما جاني منه و هاته البلاد بلاد مسلمين و هؤلاء الجمع مسلمون جاؤنى لأجل وظيفتى فهبنى نصرانياً فإنى أذب على الشعائر الإسلامية التى صرت بها أنا من أنا و اقتدر بها على احتقارك و طردك أيضا من هنا فاخرج حالا حيث لم تراخ سلطانك و إمامك الذى هو خليفة المسلمين و لا أهل البلاد التى أنت عليها و لا أنا الذى تعدنى ضيفا، فخرج المتصرف من المجلس و شكر الحاضرون كلهم عمل ذلك الباشا فقال لهم: ما فعلت هذا

لأشكر و إنما هي واجباتي أدبتها. و لعمرى أن مثل هذا الرجل يحق أن يستخدم و يا ليت متوظف في الدولة كلهم على نمطه كثر الله من المخلصين الناصحين أمثاله و وفقه لسعادة الدارين.

و حاصل وصف هاته البلد هي أنها بلد جميلة المنظر لأن ديارها محسنة الحيطان من خارج و حسن أكثر طرقها غير أن بجانب الطريق مجارى للمياه على عمق شبر مكشوفة ربما أضرت بالمارين، و البناء طينه مخلط بالجير فهو حسن المنظر و يقرب شكل الديار من ديار تونس غير أنهم يجعلون لبعض الديار ذات الطبقات درجا مكشوفة في البطحات الخاصة بالديار، و جعل في البلد طريق للعجلات و هذا الطريق واصل إلى دمشق جعلته جمعته جمعته إفرنجية منتظم السير في أوقات معلومة و كراء معين و تغير الخيل في مراكز معينة ليلا و نهارا و كنت أردت الذهاب فيه إلى دمشق لكن قصر الوقت مع تعطل السير في الطريق لكثرة الثلوج منعى من ذلك.

و أعظم جوامع البلد الجامع المنسوب لسيدنا يحيى عليه السلام و هو جامع واسع نظيف و كذلك بقيته جوامعها نظيفة و حماماتها جميلة نظيفة جدا متقنة التحسين بأنواع المرمم و فوارات المياه و بها أسواق جميلة و إن كانت صغيرة على نسبة البلاد لأن البلد الأصلية صغيرة، و كثر حولها البناء المتقن على أشكال شتى منها قصر بديع صالح للملوك و حوله

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ٣٣٤

بستان مؤنق غاية التأنيق فيه من المرمم في البناء و الرخام و أنواع المفروشات البديعة و الأشجار و تقاسيم المماشى و هو لأحد الأهالي النصرى ذوى الثروة الكبيرة التى حصلت له من بعض خدمات له عند خديو مصر السابق ثم استحصل على أن يكون قنصلا للروسيا فى بلده، و توجد بيوت أخرى حسنة تقرب من ذلك، كما توجد مدارس علمية أسسها القسوس من البورتيستانت الأمريكانيين و من الجزويت الفرنساويين و قد أثرت هاته المدارس تأثيرا واسعا فى المعارف هناك فتقدمت النصرى سكان بيروت فى التحصيل على معارف جيدة من اللغة العربية نحوا و لغة و إنشاء و فى معرفة بعض اللغات الأجنبية و أغلب مبادئ الفنون الرياضيه حتى صاروا متأهلين للتقدم و تقلد الوظائف فى بلادهم و غيرها و يحصلون ذلك فى مدة قليلة لسهولة التعليم بالكتب التى اخترع بعضها نفس الأهالى و غيرها، غير أن إنشاءهم بالعربية يكون غالبا على غير اللهجة الفصيحة و الأسلوب العربى القح لأن غالب التلامذة يولعون باللغات الأجنبية فينسجون كتاباتهم العربية على منوال تلك اللغات فيصير السبك أعجميا فى قوالب عربية يمجه من ذاق طعم البلاغة، و دونك ما كنت رأيت من رساله لأحد برعاء ذلك الوطن و هو البارع المتفنن رشيد الدحداح كتب بها فى ذلك المعنى نص محل الحاجة منها بعد أن ذكر ما طرأ على اللغة العربية الشريفة و ما حصل لها من التغيير بالأساليب الأعجمية إلى أن قال: «و كذلك لأجل تحبيب الفرنسيين للمسلمين يجب ترويح لسان العرب باللغة الفرنسية حتى يصير لباسا له و يصير لباسا لها فيبدأ بتبديل الأسماء فيجعل إسم المعلم ميخائيل ميشال أفندى و يبدل مريم بماريا و إذا كتب رساله قلب رجلا على قدم. و تناول ريشة عوض القلم. و قال أخذت الحرية لأكتب لكم أو عندى الشرف أن أخبركم أنى قبلت رسالتكم المكرمة و بالطبع صرت ممنونا لما تضمنته من الإحساسات الودية. و الشعائر الوطنية. و رأيتها ملهومة من روح الصداقة. و راغبة فى دوام العلاقة. و أخذت الإحتياجات اللازمة لإدخالها فى أعمدة الجرائد ليس فقط لأجل مسرتكم بل بالسبب الأقوى لأجل مصلحتنا و لكن من سوء البخت مراعاة الظروف توجبنا على نوع ما أن نتخذ التمهل بالعمل إلى فرصة و فوق كل شىء لأنه الآن حاصل هنا أفكار و استعدادات حرية و أما عاملو الألقاب فبالضد و مع الإعتبار يقدم لكم الشكر و يهدى لكم السلام حبكم فلان و قس على ذلك ألف داهية. من التعبيرات الواهية. التى هي بالمقت حرية و التى فى أعجميتها سرف. كعندى الشرف. و ما هو أخط من السفالة. كقبول الرسالة. و آلم من الصفع. كطبيعيًا و بالطبع. و أمر من ريب المنون. كالممنون. و أسمح من الخسائر. كهذا الإستعمال للروح و الأفكار و التقدم و الإستعدادات و الإحساسات و الشعائر».

إلى أن قال «إما تشبهتم بمادة «ا خ ذ» فداء أصفر و موت أحمر و لو حرمت عليهم اليوم هذه

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ٣٣٥

المادة لكسروا الأقاليم و عجزوا عن الكلام فتراهم يعبرون بها عن كل الأفعال العربيّة فيقولون اتخذ الباشا مأدبةً للقناصل و اتخذ الملاطفة لهم و اتخذوا الدعاء للدولة إلى أن قال فيا للخسارة و الأسف. على مرض اللغّة و إشرافها على التلف. فوأيّم الله أنه لصدع لا يلتئم. و جرح لا يلتئم» إلى آخر ما أطل به في تلك الرسالة المنشورة في جرائد عديدة عربيّة، و منها العدد ٩٥ من مرآة الشرق. و هذا الكاتب و إن كان من أهل لبنان البارعين في العربيّة و الفرنسيّة لإقامته بفرنسا و صيرورته من أغنيائها لكنه استفاد من ذلك التعليم لأن هذا التعليم شمل أهل لبنان أيضا بفوائده و الحق يقال أن فوائده جليّة لحسن التعليم و إن أثر بعض تأثيرات سياسيّة في جلب طباع سهل الطبع إلى حب جنسيّة المعلمين لكنه من حيث التعليم له مزيّة معتبرة تقدم بها النصارى هناك على المسلمين حتى تفتن في المدّة الأخيرة بعض المسلمين الغيورين لهذا المدرك و وجدوا واليا يمد إليهم يد المساعدة و هو مدحت باشا فعقد لهم جمعيّة تسمى جمعيّة المقاصد الخيريّة و مكنها من الأوقاف التي في البلد و كانت استولت عليها أيدي الإغتناب و المنافع الشخصيّة فاستعانوا بها مع ما يوزعونه على أهل البلد من كل ذى حميّة و على أباء التلامذة و أنشأوا بذلك مدارس على نحو النوع السابق ذكره، و كنت دخلت إلى كلا القسمين فرأيت من تلامذتهما ما يسر القلب و لعمري أنها لمأثرة جليّة تحق أن تذكر.

و هذا الرجل و هو مدحت باشا هكذا دأبه في كل ولاية و ليها لا بد أن يترك فيها مأثرة تذكر و إن اعترى كثيرا منها بعده بعض الخلل، إلا أنها لا تزال قائمة لما فيها من المصلحة المشاهدة و هو في الحقيقة من أفراد رجال الدولة الذين يشتمل عليهم تاريخها نصحا و تدبيرا و عملا- و عمله أكثر من قوله بحيث لا يجد القادح فيه قولا لولا عجلة فيه، كأنه حمله عليها مداومة ما يشاهده في وظائفه من التأنيات و التسويات الذي يستعمله الرؤساء في وظائف الدولة حتى صار لهم طبيعة و الوقت لديهم ليس له اعتبار فأداه ذلك إلى انتهازه للفرص التي يجدها لإجرائه المصالح فعلا و جراه ذلك لما أوقعه أخيرا فيما أداه إلى الوقوع في حتفه رحمة الله عليه رحمة واسعة. و قد حصل من تلك الجمعيّة فائدة لا تنكر في المعارف لأهل تلك البلاد و هي و إن تأسست في جميع البلاد الشاميّة لكنها كانت في بيروت أشد تقدما في المعارف حتى صارت هي أول البلاد الشاميّة في المعارف على العموم و إن كان لدمشق مزيد التقدم في الفنون الشرعيّة، ثم أن أهالي بيروت و إن كانوا قسمين مسلمين و نصارى لكنهم جميعا في غاية الألفة بعضهم مع بعض و عواندهم جميعا واحدة حتى في محاسن أخلاقهم، و قد شاهدت من فضلاء القسمين ما أشكرهم عليه من محاسن الأخلاق و الفرح بالضيف مثل الشيخ الدراكة البليغ البارع إبراهيم الأحذب و له ديوان شعر شهير، و مثل

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ٣٣٦

الأعيان الأجلاء حسين بيهم و فخرى بك رئيس الجمعيّة الخيريّة و عبد القادر القباني صاحب جريدة ثمرات الفنون، إحدى الجرائد العربيّة المتكاثرة في هاته البلد لما في أهلها من التقدم الذي أشرنا إليه مع بعدها عن مراكز السياسة و من أصحاب الجرائد الذين اجتمعت بهم هناك أيضا البارع المجيد المتفنن سليم البستاني صاحب جريدة الجنّة و جريدة الجنان و هو من النصارى أعيان البلاد، و ممن اجتمعت به منهم أيضا الوجهاء الأعيان إبراهيم اليازجي ابن الحسن الذكر المتفنن اللغوي البليغ ناصيف اليازجي صاحب المقامات الشهيرة، و منهم سليم ثابت و غيرهم، و منهم الكاتب البارع حسن الجابي و هو و إن كان من أهالي دمشق إلا أني اجتمعت به في بيروت لأنه قدم إليها صحبة والي الشام إذ ذاك مدحت باشا رحمه الله لأنه كان من كتاب الولاية المجيدين، عربيّة و تركيّة فاستصحبه الوالي لنصحه و نجابته ثم ترقى بعد ذلك في خدمات الدولة العليّة، و كذلك اجتمعت بالوالي المشار

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ٣٣٧

إليه هناك لما لي معه من المعرفة السابقة في باريس و لاقيت عنده مرة النصح رائف باشا متصرف بيروت إذ ذاك، و لقد شاهدت من هؤلاء الجمع إكراما يوجب على الثناء عليهم جازاهم الله عنى كل خير.

و أجل ما حصلت عليه في هاته البلاد أخذت للإجازة في الطريقة القادريّة من مولاي و سيدي السيد سلمان القادري و مثله أبقاه الله من يجيز و يحافظ على شريعته جده الأعلى عليه و على آله الصلاة و السلام، فإنه عندما أجازني قال لي ما معناه في أمر الأذكار و

آداب الطريقة ليست هي إلا الشريعة فقفا على ما ورد به الشرع و اعمل به فهكذا يكون المرشدون و ما أجازني بذلك إلا بعد مزيد الإلحاح تواضعا منه أبقاه الله، إلى أن أتت ليلة سفرى فساغفنى بمرغوبى فودعته و سافرت صبيحة تلك الليلة إلى القسطنطينية فى إحدى البواخر السابق ذكرها.

فوقفت بنا بضع ساعات على أزمير التى هى قاعدة إحدى ولايات الدولة و نزلت متفرجا على مرساها و ما حولها فإذا هى ذات مرسى جميل حصين صنعه أحد الإفرنج برخصه من الدولة و فيه بواخر جمه و تصل سكة الحديد إلى رصيفه، و هى ذات فرعين يمتدان إلى داخل الولاية شرقا و غربا و حول المرسى قشلاقات عسكرية، و بعض ديار للإفرنج، و الطريق فيها واسع جميل و بقيه الطرقات و الأسواق ضيقة عليها آثار الهرم لأن غالب الأبنية من الأخشاب و قدم عهدا فلم أر ما يذكر إلا كونها بلاد تجارئة لغنى الولاية بما منحها الله تعالى من كثرة الغلال و الفواكه التى تحمل منها إلى سائر الآفاق مثل التين المجفف و غيره، ثم مررنا على جزر كثيرة تابعة للدولة العلية ذات جمال باهر لكثرة أشجارها و جبالها الخضرة المتعممة إذ ذاك بالثلج، و من أجملها جزيرة رودس و جزيرة استانى كوى التى تشرح خاطر بما كساها الله من حلل النبات و الأشجار العظيمة، ثم وصلنا إلى جنه قلعه قبيل الغروب من اليوم الثانى و هى باب الخليج القسطنطينى و البلدة ليست بشىء يذكر سوى أنها مقام حربى إذ حولها و أمامها من الحصون و الطوابى و الاستحكامات ما يدهش الناظر و هى كثيرة ممتدة على طول مضيق ذلك الخليج على فوهته إلى البحر الأبيض التى هى ضيقة جدا لا تسع أزيد من مرور أربع بواخر جسيمة، و تلك الحصون أكثرها لا يكاد يبين لتخلله وسط الجبال المحيطة بالجانبين و ما يظهر منها تلوح منه مدافع ضخمة تكاد تحرق الجبال عند انطلاقها، و لذلك يعد هذا المركز أعظم المراكز الحربية تحصنا بحيث لا يمكن أن يجتازه مجتاز غير رضاء صاحبه و لا تدخله سفينة الآن و لو تجارئة إلا بالإذن من موظفى الدولة هناك، و لذلك وقفت بالباخرة هناك لأخذ الإجازة و هى لا تطول مدتها إلا نحو نصف ساعة فى أثنائها طافت بنا القوارب من البياعين لسلع تلك البلاد و المأكولات و الفواكه و الذى يمكن أن يذكر من سلعتها ليس هو إلا أباريق من طين مطلى بمعدن أخضر يصير به الطين صقيلا و يذهب بأشكال، و على نحو هاته الأباريق أوان آخر على أشكال مختلفة للمياه، ثم دخلنا إلى بحر مرمره المتوسط بين فوهتى خليج

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ٣٣٨

الأستانة التى مر ذكر أحداها التى على البحر الأبيض و الأخرى بجانب الأستانة على البحر الأسود، فبقينا سائرين إلى طلوع الفجر و ما انفلق الصبح إلا و قد بانت مآذن جوامع القسطنطينية التى هى مثل غابه من النخيل و بينها قباب الجوامع الضخمة، فأرست الباخرة فى داخل الخليج على مقربة من القنطرة الموصلة بين إستانبول و غلطة و طافت بالباخرة القوارب لمن يكترى من الركاب و قوارب السلع، ثم بعد هنيهة قدم إلى البعض من أصدقائى مع زورق مخصوص للوزير خير الدين باشا التونسى أنزلونى فيه و تكفلت اتباعهم مع تابعى يانزال صناديقى فنزلت ضيفا عند الوزير المذكور، ثم بعد بضع أيام اكرتيت دارا جميلة على الخليج و سكنت بها بعد أن اشترت لها جميع مفروشاتها اللازمة و أحضرت من الخدمة اللازمين و الطباخ مقدار الحاجة، و أقمت ساكنا من صفر سنة ١٢٩٧ هـ إلى شعبان سنة ١٢٩٨ هـ و أحضرت إلى ابنى البكر من تونس، و بقيت بالقسطنطينية مستريح الفكر و البدن متنعما بهوائها الحسن متأنسا بالأصدقاء ذوى الوفاء إلى أن حل بالوطن ما حل فى سنة ثمانية من استيلاء الفرنسيين عليه مما كنت به أنذرت و لم تفد النصيحة لغبه الهواء و الله يقضى ما أراد، فذهبت إلى إيطاليا لأخبر عائلتى فى نقلتهم و بيع أملاكى و فى أثناء ذلك ذهبت إلى جنيف من مملكة سويسرا فوضعت بها ابنى فى مكتب خصوصى ثم رجعت إلى إيطاليا لإتمام ما ذكرناه ثم رجعت إلى القسطنطينية بعد أن أعلمت عائلتى بسفرها إليها، فمررت على مملكة ألمانيا ثم النمسا ثم الرومانيا ثم الصرب و البلغار و سيأتى ذكر هاته الممالك إن شاء الله كل منها منفردا باباه، ثم رجعت إلى القسطنطينية مقيما فيها بعائلتى من أول سنة تسعة إلى أول سنة إثنين و ثلثمائة التى توجهت فيها إلى مصر حيث لم أجد من الراحة الفكرية و البدنية ما يستقيم به الحال، و كذلك أمر المال و إن كانت الحضرة السلطانية تفضلت على بمرتب و كراء بيت لم يمكن استطادهما لما فى خزنة الدولة من التضايق المجحف حتى بالقيام

بالضروريات الواجبة في أغلب الجهات، نسأل الله تفريج الكربات.

مطلب في صفة القسطنطينية

هاته البلدة قديمة الإنشاء و تأسست تخنا لمملكة الرومان المعروفين بالروم سابقا على ما تقدم في تاريخ إيطاليا و سميت البلدة بإسم أحد ملوكهم ذوى الصيت المنتشر و هو قسطنطين المتولى سنة ٢٢٣ ميلادية، و اتخذ موقعها في أجمل مواقع الكرة الأرضية في نصفها المعروف قديما و موقعها أيضا أحسن هاتيك المواقع لأنها متحكمه بين البحر الأسود و البحر الأبيض و يوصل بينهما الخليج الذى بوسطه بحر مرمرا، و هذا الخليج بمكان البلدة يكتنفه جبال يميناً و شمالاً و الجبال مكساء بحلل النبات الباهر في جميع الفصول و قد وضعت البلد على سفح ثلاث جبال يفصل بينها الخليج أما قسم منها يفصل بينه و بين غيره الخليج الكبير، و هذا القسم هو المسمى بإسكودار الواقع في قارة آسيا و القسمان الآخران

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ٣٣٩

يفصل بينهما فرع من هذا الخليج داخل في قارة أوروبا إلى أن يتصل بجداول يعرف بكاغد خانه، فالقسم الشرقى من القسمين يسمى بغلطة و القسم الغربى يسمى باستانبول، و قد كان في القديم محل البلدة مفصولاً عن بقية القارة بخليج واصل إلى بحر مرمرا و هو قرب مقام سيدنا أبى أيوب الأنصارى الآن فكانت جزيرة منفردة.

و هذا القسم هو مقر البلاد الاصلية الذى يشتمل على مركز الإدارة و الأسواق و غير ذلك، و حيث كانت البلد واقعة في عرض سبعة و أربعين شمالى كان هواؤها يغلب عليه البرد و تنزل عليها الثلوج في كل سنة و ربما جمد الخليج في بعض السنين فهى في جميع أوقاتها لها منظر منفرد في الأرض لمن يراها داخلا من الخليج، حيث كان الخليج في الوسط و تحفه على جميع شطوطه الممتدة نحو ٢٢ ميلا قصور و دساكر جميلة الصنع ذات ألوان لأن البناء بالأخشاب و يدهن ظاهرا و باطنا بألوان جميلة مع كثرة طاقاته، و يتخلل هذا البناء الصوامع المتناغية في الجوّ مع جودتها و تعدد أدوار مآذنها و بينها القباب الشاهقة، ثم وراء هاته البنات على سفح الجبال البساتين و الجنائن و الأشجار الملتفة و العيون المتدفقة فتدهش رؤيتها أبصار الناظرين و تستمر البواخر خارقة لهذا الخليج في ذلك المنظر البديع مدة نحو ساعتين، فلا ريب إن كانت هى سيدة البلدان السياسية خصوصا و وضعها قد جاء على كل من قارتى أوروبا و آسيا و على كل من البحرين الأبيض و الأسود، و لهذا يسمونها في القديم «بفاروق» لفرقها بين البرين و البحرين، لكن ذلك المنظر و الجمال ينحط درجات عديدة إذا نزل قاصدها إلى البر و تخلل بالمشى في شوارعها لأن طرقاتها أغلبها ضيق و مبلط بحجارات على أصل خلقتها مقلبة مكعبة تتعب الراكب و الماشى.

و كثيرا من الديار قد أخذ منه الهرم مأخذه خصوصا في هذا الوقت الذى تفاقم فيه على أهلها الضيق المالى لأن أهلها المسلمون و هم أكثر السكان أغلبهم له جرايات و مرتبات بحيث أن إقامتهم مناطة بالدولة التى ضاقت خزينتها عن القيام بشؤونها و بقيتهم ذوو صنائع خسيصة كسائقى العربات و النوتية و ما شاكل ذلك و القليل النادر لهم تجارة على قدر الحاجة، و التجارة المعبرة إنما هى بيد الإفرنج أو النصارى من رعية الدولة و كذلك أغلب الصنائع الضرورية و الحاجية و التحسبية على كثرتها كلها بيد النصارى أيضا إلا ما ندر، و كأن سبب ذلك هو اختصاص المسلمين قديما بالوظائف و الرتب فانحصرت معيشة غيرهم

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ٣٤٠

فيما يجيدونه من صنائعهم و تجارتهم و لما انفتح الباب في الأزمان المتأخرة شاركوا المسلمين في الوظائف و سابقوهم فيما كان خاصا بهم لمد أيدى المساعدة لهم من الإفرنج و دولهم الأجنبية، فاتسعت معارفهم الرياضية و أتقنت صنائعهم و اتسعت تجارتهم و تقهقر المسلمون لوقوفهم فيما كانوا عليه بل لانحطاط درجة المعارف لديهم و إعراضهم عن الصنائع و غيرها من أوجه التكسب لانحصار الآمال في مجرد التوظف في الدولة، و لهذا ترى البلاد ممتلئة بالقهاوى و بالقرائنات التى هى قهاوى نظيفة ينتابها الوجهاء

من الناس، فلذلك صارت الديار الحسنة قليلة في هاته البلد العظيمة التي يتجاوز سكانها المليون و ربع و إذا ضمنت القرى التابعة لها في جوارها مثل بيوك آطه أى الجزيرة الكبيرة و غيرها من بقية الخليج يكون مجموع سكانها مليون و نصف على ما يقال، حتى أنها كانت هي أعظم البلاد المعروفة و سميت بالقسطنطينية العظمى.

و الحاصل: أن طرقها الآن التي لها نوع من الحسن هي طريق يتدىء من بطحاء في وسط استانبول تسمى بميدان السلطان أحمد و في وسطها مسلة من المسلات المصريّة متناغية في الهواء فيمر الطريق على الباب العالى ثم على القنطرة الموصلة الى غلطة ثم يمر منها الى الطوبخانه على سمت نحو المستقيم، و هكذا يمتد على ذلك النحو إلى قبطاش و بشكطاش و أورطه كوى ثم قورى شيشيمه ثم أرنووط كوى، ثم إلى بيك ثم إلى روم إلى حصار ثم إلى ينى محله ثم إلى طرايبا ثم إلى بيوك دره ثم إلى نهاية الخليج المسمى بروم أيلي قواغى جهة البحر الأسود، و الأماكن التي تقدمت أسماؤها كلها حارات مثل البلدان متصل بعضها ببعض ممتدة على طول الخليج، و إنما كان هذا الطريق محسنا لأن أغلب أماكنها بناآت للدولة أو للسلطين أو أبنائهم أو بناتهم أو وزراءهم أو أمرائهم أو لسفراء الدول الأجنبية أو للأغنياء من الإفرنج و النصارى أتباع الدولة، مع كون شركة إفرنجية قد جعلت بذلك الطريق عجالات الترامواى برخصة من الدولة على شرط تحسينها للطريق و توسعتها له حتى لا يعارض مروره العجلات الأخرى، و هكذا يمتد هذا الطريق أيضا بفرع آخر من البطحاء المذكورة و يمر على بطحاء السلطان بايزيد ثم على آق سراى، و يمتد هكذا مستطيلا على نحو استقامة إلى أن يصل إلى آخر استانبول في باب أدرنه و يوجد طريق آخر على ذلك النحو يتدىء من غلطة أمام القنطرة و يصعد في جبلها و يمر في بايوغلى التي هي حارة السفراء في الشتاء، و أما في المصيف فإنهم يسكنون في الخليج و مثلهم بقية الأعيان، و حسن طريق بايوغلى فائق على الكل لمزيد التحسين في الديار الحافة بجانبه و قد أحدث طرق أخرى كثيرة على النوع المتعارف في أوروبا في جهات سرايه يلدز و نيشان طاش إلى أن تتصل بطريب بايوغلى، لكن هاته الطرق لم تنتظم الديار التي على حافتيها فأغلبها خال عن البناء بالمرء، و يمكن أن يقال: إن البنائات الحسنة الموجودة في هاته البلاد تكاد أصحابها أن لا يخرجون عن الأصناف الذين ذكرناهم، و هذه البنائات قديمها كله من أخشاب ذو طبقتين أو ثلاث نادرا، و جديدها من بناء أغلبه بالطوب المطبوخ الأحمر أو

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ٣٤١

الحجارة و المرمر متقاربة الشكل الحسن منها حسن الظاهر و الباطن، و صورتها أن يدخل من الباب إلى دهليز فيه درج قليلة يصعد منها إلى الطبقة الأولى التي هي إيوان مثل وسط الدار مسقوف مع بقية بيوتها و فيه أبواب هاتيكن البيوت التي هي مربعة أو مستطيلة و فيه أيضا نحو المقعدين يمينا و شمالا في الغالب، ثم تلك الدرج تنبعث صاعدة إلى الطبقة العليا التي هي على نحو التي تحتها و تختلف أشكال الدرج في كونها ذات فرع واحد إلى آخرها أو ذات فرع و فرعين، و كل دار تشتمل على عدة مراحل جميلة الوضع نظيفة كل منها به محل للوضوء و محل لمنديله بحيث أن الوضوء في هاته البلاد أيسر شيء على صاحبه مع نظافة المكان، و الحق أن جميع الديار بل و جميع أحوال السكان نظيفة للغاية كل على حسب حاله عسرا و يسرا.

و قصور السلطنة و مساكن السلطين قد اشتملت على أشكال البنائات المستحسنة في أكثر البلدان، و أعظمها بهجة و رونقا قصر «دولما بختشه» الذى هو الآن قصر السلطنة الرسمي، فإنه له باب عظيم ذو إتقان و تزويق بالذهب لم أر مثله قط ضخامة و زخرفة في جميع أوروبا و غيرها، و هو يفتح إلى بطحاء عظيمة أمامه و في مقابلته جامع أنيق له باب مقابل ذو بهجة و قريب من باب القصر في الحسن باب ثان يفتح إلى طريق بشكطاش، و كلا البابين يدخل الى بطحاء عظيمة بها باب القصر الذى هو منقسم إلى ثلاثة أقسام في الحجم متصل بعضها، أو وسطها ارتفاعه يوازي ارتفاع القسمين الآخرين مرتين، و هذا القسم الوسط كله ديوان واحد هو مجلس السلطان في المواكب، فانظر إلى هذا البيت الذى اتساعه قدر اتساع قصر تام سلطاني، فإن القسم الأول هو قصر ذو طبقتين و طبقة ثالثة سفلية نصفها تحت الأرض و نصفها فوقها و تشتمل كل طبقة على دواوين و أووين و حجرات مزخرفة مكللة مزوقة بالذهب و الفرش الفاخرة و الثريات المتكاثرة و غير ذلك من الزخرفة و الأبهة التي تأتق فيها السلطين للمباهة، و هذا القسم خاص بجلوس السلطان

للرجال، و القسم الثالث مثل هذا القسم و ربما زاد عليه رونقا في الفرش و هو مسكن حرم السلطان، ثم عند الباب الأول في الذكر قصران يمينا و شمالا لحاشية السلطان و خاصته و بطانته، و وراء قسم الحريم قصر آخر مفصول عن السابق مثل أحد القسمين السابقين هو مسكن ولي العهد لكنه لا- يلقب بهذا اللقب و إنما يقال فيه أكبر أبناء السلاطين بعد السلطان المستولى، و هاته القصور أنشأها السلطان المنعم عبد المجيد رحمه الله و تسمى «دولما بختشه» و قريب منه قصر آخر أنشأه السلطان عبد العزيز يسمى تشارغان، هو أشد رونقا و زخرفة في داخله من الأول لكن الأول أبهج منظرا و الجميع على شاطئ الخليج تفتح إليه رواشيتها المتكاثرة كما هو شأن جميع الديار هناك، فلا تجد بين الشباكين أزيد من نصف ذراع أو ذراع و على نحو

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ٣٤٢

من هذين القصرين في قسم إسكودار قصر بناه السلطان محمود رحمه الله يسمى بكلكر بك، و هو أصغر من الكل، ثم قصر آخر بديع للغاية يسمى بيقوز حجارته كلها داخلا و خارجا من المرمم الأحمر و الأخضر فنصفه الأعلى أخضر و الأسفل أحمر و هناك قصور أخرى عديدة صغيرة دون هاته إلا القصر السلطاني الآن المسمى «بيلدز»، الذي هو في الأصل مثل هاتيك الصغيرة لكنه لما رجحه السلطان المعظم عبد الحميد للإفراد فيه و السكنى به دائما، تزايدت قصوره شيئا فشيئا حتى صار أبهى في الداخل من الكل و إن كان من خارج لا يظهر منه إلا القليل لوقوعه في وسط بستان متسع ملتف بالأشجار و محيط به أسوار و مساكن للعساكر على جميع محيطه.

فصل في مجمل تاريخ الدولة العثمانية

إشارة

اعلم أن الدولة العثمانية كانت تأسست عندما تفرقت الملوك الإسلامية و استبد كل منهم بجهة مع الخروج عن العمل بالشرع بل اتبعوا الشهوات و استرقوا الرعية و تصرفوا في الأموال بحسب الأغراض، فضعفت شوكة الإسلام و صارت ممالكهم طعمه للأجانب فرحل من وراء النهر أى نهر سيحون و يعنون بما وراءه ما كان على عدوته الشرقية قبيلة من مسلمى الترك تحت رئاسة سليمان شاه جد عثمان خان ملتجئين إلى السلطان السلجوقي لما شملهم من ظلم التتر فأظلمهم بالأمن و أسكنهم أرضا بالأناضول و أذن لرئيسهم أرطغرل بعد وفاة أبيه سليمان شاه بالغزو حيث كانوا قوما شدادا متمنين على الحرب، فافتتح بسيفه الباتر أراضى و بلدانا و فوض أمرها إليه السلطان السلجوقي و إلى ابنه عثمان من بعده، فتلقب بالسلطان عثمان و ذلك في سنة ٦٩٩هـ، و قد نظم الجد الشيخ محمد بيرم الثانى قصيدة تشتمل على أنموذج من تاريخ هاته الدولة مع أسماء سلاطينها ذكرناها هنا لإيفائها بالمقصود و سماها «عقد الدر و المرجان فى سلاطين آل عثمان» و هى:

أقدم قبل القصد شكرا لمنعم علينا بما أربى على كل أنعم
على عز هذا الدين و الملة التى و إن لحقت فازت بفضل التقدم
و أتبعه أركى الصلاة مسلما على أشرف المخلوق قدرا و أعظم
نبي له وصف النبوة ثابت و آدم بين الماء و الطين فاعلم
محمد من قد أظهر الله دينه بمكة ذى البيت العتيق المعظم
و أعلاه بالأنصار إذ حل طيبة فحيا بوجه مشرق ذى تبسم
و ما زال محروس الجناب مؤيدا بكل إمام بالعللا ذى تههم
محوطا إلى أن آل تدبير أمره و حفظ حماه بالخميس العرمم
لحى حلال يعصم الناس أمرهم إذا طرقت إحدى الليالى بمعظم

كرام فلا ذو الضغن يدرك تبهلديهم ولا الجاني عليهم بمسلم
ملوك بنى عثمان سلسلة العلاغصون نمت إذ فرعت عن غططم
صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ٣٤٣ فله ما قد شيّدوا من بنائه وما هدموا للكفر من كل معلم
لقد أحكموا أمر الجهاد بما أتوا بأعظم صنع فيه من بعد أعظم
فكان لهم و الله يكلاً مجدهم بما فعلوا حق على كل مسلم
و قد رمت في ذا النظم جمع ملوكهم و بعض مزاياهم لتروى فتعلم
فأولهم عثمان باكورة العلامذيق الردا من يأسه كل مجرم
سنة ٦٩٩

له فتحت برصا فاضحت سريرهم فكان لها في ذاك فضل التقدم
و ثانيهم أرخان من قد أتت به كريمة من صلب الولي المعظم
سنة ٧٢٦

شجاعته قد أظهرتها حروبه فعنه بما تختار فيها تكلم
و ثالثهم من نال فضل شهادة مراد محلى القرن حمرة عندم
سنة ٧٦١

فذاك الذى قد فض ختم أدرنة فذاقت به برد الهنا و التنعم
و رابعهم شمس العلا بايزيد هم مواقفه فى الحرب مرة مطعم
سنة ٧٩١

لئن كان مع تيمور ما أنفذ القضاة ارتكاب الغدر منشأ التلثم
و لا عجب للأسد إن ظفرت بها كلاب الأعدى من فصيح و أعجم
فحربة و حشى سقت حمزة الردا و حتف على من حسام ابن ملجم
و خامسهم فخر الملوك محمّد مجدد هذا الملك بعد التصرم
سنة ٨١٦

و سادسهم ثانى المرادين من رقى من العز مرقى لا ينال بسلم
سنة ٨٢٤

تخلى عن الأمر اختيارا لشبله و عاد لجبر الحال خوف تألم
و سابعهم فحل الفحول محمّدله فتح اسطنبول أشرف مغنم
سنة ٨٥٥

عقيله عن صيد الملوك تمنعت و كلهم فى وصلها ذو تهمم
لقد جاءها يختال فى العز مودعا خبايا المنايا بين جيش عرمرم
لدى أسد شاكى السلاح مقذف له لبد أظفاره لم تقلم
فدحرج عنها سيد الروم خاسن الذى حيث ألقى رحلها أم قشعمر
و حل بها لما تنادت جنوده بتكبير منشى العالمين و معدم
و قد وسم السيف العدا فى رؤوسهم كأنهم قد خضبوا بعظم

فما الحرب إلّا ما رأوا من بلائه وما هو عنها بالحديث المترجم
و ثامنهم فرع له بايزيد هم أبو الجود ماذا سد خلة معدم
سنة ٨٨٦

و تاسعهم مفتاح فتح ممالك غدت في جبين الدهر غرة أدهم
سليم الذي قد حل بالشاه بأسه فأدبر يطوى الأرض من قرب جهضم
سنة ٩١٨

ولاح بتبريز سنه فأصبحت عروسا تجلت في وشاح منمنم
و مذ برقت بالشام أنوار برقه دعته دعاء البائس المتظلم
صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ٣٤٤ فسكن منها روعة بقدمه و ضمت عليه سورها ضم معصم
و واجه مصرا بالأذى إذ تلكأت فأجرى بها نيلا تدفق بالدم
و قد غرها الغورى فغار بدابق و أقبل طومان كذيب لضيغم
فأصبح مصلوبا بباب زويلة يداس بأقدام و يوطا بمنسم
و لم يبق من أبناء شركس ناعق كأنهم قد لامسوا عطر منشم
و أضحى سليم للمقامين خادما بذاك ينادى للسلطين خدم
و عاشرهم ذو الرأى و البأس و النداسليمان جراح العدا كاس علقم
سنة ٩٢٦

قد انتظمت بغداد في سلك ملكه فصار له أمر العراقيين ينتمى
و قد ظهرت آثاره فحديتها حداة الورى تحدو بها كل موسم
فمنها و يا لله غزوة رودس تغنى بها طير الفلا بترنم
و فى سكتوار بعد أن فتحت له أجاب إلى المولى بقلب مسلم
فلاحت بأفق الملك طلعة شبله سليم عظيم الملك فرع معظم
سنة ٩٧٤

لهمته العلياء قبرص أذعنت تقابل مسعاه بوجه مقسم
و فى يمن من بعد بدء فتوحه لوالده الأرضى أتى بالمتمم
و أحيا به الرحمن تونس عند ما غدت بعد عزّ شامخ فى تحطم
فشدّ بضبعى سعدا فأقامه و كان بقهر الأسر صاحب مجثم
و من بعده قد بايع الناس فرعه مرادا كريم النفس و ابن مكرم
سنة ٩٨٣

و يتلوه فى دست الإمامة شبله محمّد مغضى الطرف عن فعل مأثم
سنة ١٠٠٣

أقام على أغرى فأبدى بأفقهاسحائب حرب أمطرت كل لهدم
و عقر للرحمن فى الأرض وجهه فأب بفتح للطواغيت مرغم
و قام ابنه ذو الحسن أحمد بعده يحيى بيدر تحت تاج منظم

سنة ١٠١٢

و من بعد هذا مصطفى بن محمد أقيم و لكن عقده غير مبرم

سنة ١٠٢٦

فبويح عثمان بن أحمد بعده و أنزل عن قرب لأمر محتتم

سنة ١٠٢٨

و قد عاد بعد الخلع خاقان مصطفى و أنزل بعد العود مثل المقدم

سنة ١٠٣١

فجاء مراد نجل أحمد بعده فكان كعلم لاح أثر توهم

سنة ١٠٣٢

أطل على دار السلام بجيشه فأنقذها من رافضى مذمم

و قد لبست ما زانها لمسرة و ألفت بما قد شان من ثوب مأتم

و عادت إلى عاداتها دار سنة تجرر أذيال الهنا و التنعم

و قد قام إبراهيم و هو ابن أحمد فله من حزم و حسن توسم

سنة ١٠٤٩

بكنديه منه و قد جاس أرضها بأسياف أجناد لها نهش أرقم

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ٣٤٥ أقاموه عن كرسية و تقدموا لمن هو فى عهد الصبا و التعلم

محمد فرع منه فانصدع البناء هب من الكفار كل تضرم

سنة ١٠٥٨

و لكنه لما تكامل و استوى بدا منه حزم فاضح كل أحزم

فتمم فتحا سنه والد له بكنديه أعظم به من متمم

و ناهيك من فتح يضيق بيانه عن النظم فانظر فى التواريخ تعلم

و من بعد هذا تم بالخلع أمره فى لك من فعل قبيح مذمم

فقام سليمان أخوه مقامه و لم يأل جهدا فى صلاح المحطم

سنة ١٠٩٩

و من بعده قد قام أحمد صنوه فبانت جراح لا تداوى بمرهم

سنة ١١٠٢

و أعقب هذا مصطفى بن محمد و أخر عما ناله من تقدم

سنة ١١٠٦

فقام أخوه أحمد بعد خلعه و سلم لما شام برق التألم

سنة ١١١٥

و قد فتحت تبريز قهرا و مورده بأيامه وجه الزمان المطهم

فبويح للسلطان محمود بعده هو ابن أخيه مصطفى المتقدم

سنة ١١٤٣ سنة ١١٤٨

و من بعده قد قام عثمان صنوهو من بعد هذا مصطفى ذو التقدم

سنة ١١٧١

إلى الموسقو إذ وجه العزم نحوه و جرد في حرب له كل أضرم

و من بعده عبد الحميد إمامنا أخوه عظيم من عظيم مفخم

سنة ١١٨٧

أبان له الله الهدى و أناله رشادا و تسديدا لدى كل مبهم

فهاك سلاطين الزمان جمعتهم بنظم كسمط بالالكي منظم

و عدتهم سبع و عشرون قد غدت سماء العلا منهم تضيء بأنجم

و دولتهم خمس الهنيدات عمرت و في طول هذا العمر لم تك تهرم

و ذا في ثمان بعد تسعين ضمها إلى مائة من بعدها الألف نعلم

و ناظمها العبد الفقير محمداً أقل الورى المشهور فيهم بيبرم

يقول تناديني المعالي بقولها إليك الذى قد قلت فيهم به أختم

أيا دولة أربت على كل سابق عليها لعز الدين و الملة أسلم

و قد سلمت حتى رأت في سريرها هماما به الدين الحنيفى يحتمى

سليم ابن خاقان الخواقين مصطفى لدينك يا مولاي صنه و سلم

سنة ١٢٠٣

فلا زال منها قائم أثر قائم إلى زمن المهدي و عيسى بن مريم

يقول حفيد الشيخ قدس سره موافقه فى الإسم لا فى التعلم

لقد أنجح الدعوى بفضل نواله كريم له النعمى على كل مسلم

بتسليم هذا الأمر لليت مصطفى لعبد الحميد الفرد لقب بابنم

سنة ١٢٢٢

و لما قضى نجبا قتيلا من الأولى أضاعوا التقى و استبدلوا الأمن بالدم

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ٣٤٦ تعالى إلى دست الخلافة حازما أخوه الرضى محمود خير ميمم

سنة ١٢٢٣

له صولة فى روسيا مع بغاته فأرواهم ماء الردى و التقسم

و من بعده قام ابنه من لمجدهم غدى ينشر الأعلام فى كل معلم

ألا أنه عبد المجيد وحيدهم له النصره الغراء فى كل معظم

سنة ١٢٥٥

بحرب القريم الخطب دام مصابرا فنال المنى من بعد طول تجهم

و نظم قانونا إلى الخير راشدا و تم ما أبداه رأى المقدم

فأصبح وجهه للبيضة مبها بما نالها من فرط عدل متمم

و من بعد ذا وافى إلى الدست ضيغم له مفخر أربى على كل ضيغم

فذاك الذى عم البسيطة عزه و سلطانه فاق السوى بالتنظم

و إن رمت عدداً للمآثر تكتفى بذكر إسمه عبد العزيز مترجم
لقد خضعت سود الجبال لعزمه فأضحت لعز بالخلافة يأتى
و مذ ارتقى فوق السرير تتوجت بأفعاله هام الزمان بأنعم
لذاك تباشير الولاية أرخت حسيب به الإسلام ما زال يحتمى
سنة ١٢٧٧

و لكنما قد حل ما جلّ أمره فخيف من الخطب العظيم المطهم
فتم بأهل الحل و العقد خلعه و نادوا بنجل للهمام المقدم
مراد و لكن لم يطق عبء حملها لإخلال شرط بالإمامة مخرم
سنة ١٢٩٣

فنادوا سراعاً مجمعين بأسرهم بمن يحسم الأهوال فى كل معظم
الأ أنه عبد الحميد أمانعاماد الورى و الدين نجل المكرم
فأربى على كل الملوك مفاخرات على بها الآفاق فى كل موسم
تلافى بحسن الرأى ما جل خطبه بدس العدو الموسقو المذمم
فأرجع قهراً طاعة الصرب بوسناو هرسك بلغارا بنصر متمم
كذا الجبل المسود لأن عريكة بفتك و حلم ثم عاد لأعظم
فكان إلى الروس الطغاة معاضداو حل القضا أعظم به من محتتم
و أبقى إله العرش حوط الخلافة بإبقاء جل للممالك محتتمى
فأسدى لها سلطاننا فيض عدله بإجرائه تأسيس عدل منظم
و لا زال يبدى كل يوم فضائل لترجم عن شد النهى و التقدم
فنسأل من فيض الكريم له حمى بنصر لإعلام الخلافة مبرم
و دونك بشرى للولاية أرخت مفتح أبواب الصفا و التقدم
سنة ١٢٩٣

و إن رمت بشرى الحال تاريخها إذالعبد الحميد العيد أسعد موسم

سنة ١٢٩٧ فتضمنت قصيدة الجد المشار إليه عليه سحائب الرحمة تاريخ السلاطين الذين أولهم

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ٣٤٧

السلطان عثمان و آخرهم السلطان سليم ابن السلطان مصطفى، كما تضمن تذييلنا تاريخهم من السلطان مصطفى إلى سلطاننا الخاقان
عبد الحميد أيده الله، و تبين مما سبق أن الدولة العلية لم تزل منذ ستمائة سنة و لله الحمد قائمة معتبرة بين الأمم غير أنها منذ نحو
مائتى سنة تناقصت سطوتها عما كانت عليه لا سيما فى حروبها مع روسيا، لأن الدولة الروسية مند وليها بطرس الأكبر فى سنة ١٦٨٢
جعلت مطمح نظرها توهين شوكة الدولة العلية و الإستيلاء على ما يسمح لها من ممالكها ثم الإستيلاء على بقيته المعمور اقتداء بدولة
الرومان فى استيلائها فى عنفوانها على سائر المعروف من الكرة إذ ذاك، و يبرهن لهذا صريح الوصية المنسوبة إلى ذلك القيصر و
أول من أشهرها فى أوروبا هو فريدريك كياردى سنة ١٨٣٦ و هذا تعريبها:

«من بطرس الأول الخ- إلى كل من يخلفنى على تخت روسيا التحية. فإن الله سبحانه لم يزل مند بداية الأبد فى إعانتنا و أسدل فضله
علينا بما حملنى على الإعتقاد بأن الأمة المسكوية تتسلط إن شاء الله على الممالك الأوروبية لا قدر الله، و الدليل على ذلك أن

الأمم الأورباوية قد هزم أكثرهم وأخذ البعض منهم في التلاشى فإن أدركت روسيا تمام قوتها لا- شك أنها تغلب على سائر الممالك لما لها من شوكة الصغر، وعندى أن هجوم الأمم الشمالية على أوروبا من أحكام القدرة الإلهية التي لا بد من نفوذها كما وقع سابقا عند هجوم الأمم المذكورة على مملكة الرومانيين فأحيتها بعد اضمحلالها، وأنا وجدت روسيا جدولا صغيرا فتركتها نهرا و أرجو أنه باعتناء من يخلفنى تصير بحرا عظيما يغطى بمياهه أوروبا بأسرها ولا يتعرض لسيلانه عرمرم، فحملنى هذا الإعتقاد على أن أقر هنا الأصول التي لا بد من اتباعها نظرا إلى إدراك هذا المقصود المعبر و هي:

أولا: على ملوك روسيا ملازمة الحرب لتكون جيوشهم دائما على حال الرياضة والإستعداد فلا يكفوا عن الحرب إلا لإصلاح شأن المالية و جبر ما نقص من العساكر و تربص فرصة الهجوم على الأعداء، فالحرب و الصلح يتناوبان حسبما تقتضيه الحاجة نظرا إلى توسيع دائرة شوكتنا و فلاح البلاد.

ثانيا: عليهم أن يجلبوا من سائر الأقطار الأورباوية العارفين بالفنون الحربية مدة الحرب، و أما مدة الصلح فعليهم جلب من اشتهر من العلماء لتنفع روسيا بما يلائم الأخرى من دون خسارة ما لها طبيعة.

ثالثا: عليهم التداخل في سائر أحوال الممالك الأورباوية و خصوصا ألمانيا لقربها إلينا.

رابعا: التداخل في أحوال بولونيا و فى انتخاب ملوكها حتى لا ينتخب إلا المحب

صفحة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ٣٤٨

للروسيا و إدخال جيوشنا بها لحماية هؤلاء الملوك إلى أن يتيسر التسلط على البلاد راسا، فإن تعرضت الدول الأخرى تجب الإجابة إلى مطالبهم إلى أن نقدر على استرجاع ما سلمناه.

خامسا: نأخذ من مملكة السويد ما يمكن أخذه و نجعل بينهم و بين الدانمرك عدوانا دائما.

سادسا: لا يتزوج أهل بيتنا إلا بنات ملوك ألمانيا لتأكد المحبة بين روسيا و ألمانيا و تكثير وسائل المواصله بينهما.

سابعا: يجب الإعتناء بمحالفه إنكلترا لما لها من الحاجة إلى أشجارنا لسفنها و لما نستفيدة منها نظرا إلى إصلاح شأن أسطولنا فضلا عن تبادل فائدة تبادل ما لنا من الخشب و غيره من النتائج بذهب إنكلترا و ما ينشأ منه من كثرة المواصله بين تجارها و تجارنا.

ثامنا: نمتد بقدر الإمكان من جهة الشمال و على شواطىء البالتيك كما يجب السعى بالإمتداد من جهة المغرب و على شواطىء البحر الأسود.

تاسعا: نقرب من القسطنطينية و الهنود بقدر الإمكان، فمن ملك القسطنطينية فقد ملك الدنيا فبناء على ذلك ينبغي ملازمة الحرب مع الترك و مملكة الفرس و جعل ترسخانات بشواطىء البالتيك و البحر الأسود و هذا من اللازم لنجاح ما قصدناه، و ينبغي أيضا تعجيل مملكة الفرس من الإضمحلال و تنشيط التجارة التي كانت بين الشام و جبل قاف فتقدم إلى الهند التي هي مخازن الدنيا و إن حصلنا على ذلك لا حاجة لنا بذهب إنكلترا.

عاشرا: يجب السعى فى تأكيد المحبة مع دولة النمسا بإسعافها ظاهرا على ما قصدته من التسلط على ألمانيا مع أننا نحرض عليها ملوك ألمانيا سرا.

حادى عشر: نشارك النمسا فيما قصدناه من إخراج الترك من أوروبا فإن ظفرنا بالإستيلاء على القسطنطينية و أظهرت دولة النمسا شيئا من الغيرة لأجل ذلك فإننا نحث دولة من دول أوروبا على محاربتها أو نسلم لها جانبها مما حصلنا عليه و نسترجعه فى أول فرصة.

ثانى عشر: نجتمع سائر الإغريق ببولونيا و بممالك النمسا و نسعفهم بقدر الإمكان بالحماية و الدفاع عنهم حتى يكونوا لنا أحياء ما بين الأعداء.

ثالث عشر: بعد الإستيلاء على مملكة السويد و غلبة الفرس و بولونيا و التسلط على الممالك العثمانية و جمع جيوشنا و دخول أساطيلنا بالبالتيك و البحر الأسود نشرع فى المفاوضات السرية مع فرنسا و دولة النمسا فى قسمة الدنيا بيننا، فإن ارتضت إحدى الدولتين ما

نعرضه عليها نستعين بها على قهر الأخرى ثم نهجم عليها و نغلبها و لا يصعب علينا ذلك حينئذ حيث يكون بيدنا ملك المشرق و معظم أوروبا.

رابع عشر: إن امتنعت كلا الدولتين المذكورتين مما نعرضه عليها و هذا مما يبعد

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ٣٤٩

وقوعه يجب السعى بتحريض إحداهما على الأخرى فنترصب الفرصة و نهجم على ألمانيا بجيش عظيم و نوجه اسطولين إلى البحر المحيط و البحر الأوسط للإستيلاء على فرنسا و بعد قهر فرنسا و ألمانيا لا يصعب الإستيلاء على بقيّة ممالك أوروبا. اه.

و هاته الوصية و إن أنكرتها رجال الدولة الروسية لكن السيرة السياسية و العسكرية الموجودة في الخارج من ذلك التاريخ إلى الآن تصدق وجودها إذ هي مطابقة لها مطابقة النعل للرجل، فلا زالت تمتد سطوتها في آسيا و أوروبا و لما كانت الدولة العلية هي الدولة ذات الشأن المجاورة لها في كل من القارتين مع مخالفة الديانة جعلتها مطمح نظرها، و وجدت سبيلا لمخادعة الدول الأورباوية بالانتصار للمسيحيين الموافقين لهم في الديانة لما تدعيه من التعدي عليهم فتريد تحريرهم من استيلاء الدولة العلية عليهم على ما سيرد بسطه في الفصل الأول من الخاتمة، فجعلت تثير ثورات في أحد الأقسام ثم تنتصر له بأن يجعل له إدارة مستقلة في داخلته و بعد مدة تغريه بالإستقلال و تنتصر له فإذا تمّ استقلاله لا تلبث أن تبتلع ثم تنتقل إلى قسم آخر يواليه و هكذا، و لما تفتنت الدولة العلية إلى هذا المقصد تداركت الأمر بإصلاح الإدارة على حسب ما تقتضيه الأصول الشرعية و يزيل تلك الإعتراضات حتى تتقوى و تمنع نفسها و تستميل بقيّة الدول الأورباوية إلى إنصافها من مشاحناتها، فتعاطى المرحوم السلطان محمود مبادئ الإنتظام بعد أن لاقى متاعب شديدة مع العساكر الإنكشارية الذين كانوا أعظم أسباب التخضرم في الممالك العثمانية العلية حيث عاثوا في الأرض بظلم الرعية و الإستيلاء على الأحكام السياسية في القاعدة و أنحاء الممالك، و خروجهم عن طاعة السلاطين و تلاعبهم بهم هذا بعد أن كانوا هم عدة الإسلام و ناشرى أعلام انتصاره عندما نظمته الدولة إلى خلال القرن الحادى عشر، فابتدأوا بما سبق ذكره و تمادوا عليه إلى أن وهنت الشوكة و تداركها السلطان محمود فأزال ذلك الصنف بالمرّة بعد حرب ذريعة و نظم عوضهم العساكر النظامية على نحو انتظام العساكر الأورباوية في الممالك المتمدنة، مع أنه كان إذ ذاك في تعب عظيم من حرب روسيا التي كانت خاتمتها معاهدة «أدرنة» الموهنة لتمام استقلال الدولة العلية و الجاعلة للروسيا اليد في أحوال الممالك العلية، و كذلك كان السلطان في مهم من ثورة الإغريق في جزيرة مورا و أضيف إليه غدر الأسطول الإنكليزي بأسطوله و أساطيل الولايات التابعة للخلافة كمصر و تونس و الجزائر، إذ بينما تلك الأساطيل العظام راسية في بحر الجزر للإحتراس في شأن ثورة مورة و إذا بالأسطول الإنكليزي وارد عليها في صورة المعاضد، لأن السلم متأكد بين الدولتين و لم تكن بينهما شائبة حرب بالمرّة، و أشارت الأساطيل إلى بعضها بعلامات السلم فلم تلبث أن تخللت بين الأساطيل العثمانية حتى إذا تمّ تمكّنها منها أطلقت عليها النيران من جميع الجهات في آن واحد مع شدة الإلتحام و التداخل و المسلمون في حال الدعة اعتمادا على السلم المحقق فهلكت جميع تلك الأساطيل و غرقت في لجة البحر دفعة واحدة بمن فيها، فكانت حادثه لا تنسى و لا تتمحى من صفحات التواريخ حتى أن أعضاء مجلس

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ٣٥٠

الأعيان و مجلس النواب من الإنكليز أنفسهم هاجوا و ماجوا على دولتهم من تلك الفعل و أزموا الوزراء بالمحاكمة و القصاص فأنكر وزير البحرية أذنه بذلك و قال: إن فعل رئيس الأسطول لما فعل هو افتيات منه و لا علم للدولة به فألزموا إحضاره و الحكم عليه بالقتل و عند ما أحضر و روفع في مجلس الحكم و صدر الحكم بقتله و علم أنه لم يبق له مفر أقبل على وزير البحرية و سارّه في أذنه بقوله: «أيها الوزير إن تلك البطاقة التي بخطك قد نسيت أن أحرقها و ها هي الآن في جيبى»، فبهت وجهه و أطرق صامتا، ثم عقد جلسة سرية و أطلق سبيل الرجل و يقال إن الحامل على ذلك ما هو مركوز في طباع الدول سيما إذا كان القصد هو أركاس المسطو عليه لما ياتمر به الساطي، بيد أن الدولة الإنكليزية لم تزل من ذلك الوقت إلى الآن تعاضد الدولة العلية و تنصح لها و تظاهرها متى

استطاعت كما يأتي، و مع هاته الشدائد التي تقدمت الإشارة إلى بعضها فالسلطان محمود رحمه الله و نعمه لم يزل جلدا مقداما، حتى أنه لما بلغه خبر الأسطول و هو يحدث أحد كبراء دولته لم يزد على سؤاله عن تحقق الأمر من غير انزعاج ثم عاد لحديثه الذي كان فيه و شمر عن ساعد الجد في تجديد الأسطول و إقرار الراحة بانتظام العساكر النظامية و الأحكام السياسية و الشرعية فآخترته المتيئة قبل الاستتباب، و تسلطن ولده السلطان عبد المجيد فأخذ في السعي في الإنتظام و تغيير السيرة القديمة إلى التهذيب الوقتي الذي هو موافق للشرع العزيز كما يأتي في الفصل الرابع من الخاتمة، و أصدر الفرمان العالي المحدث للتنظيمات و تعريبه هو:

من المعلوم عند الجميع أن دولتنا العلية لم تزل من مبدأ ظهور أمرها معتتية بكمال الرعاية للأحكام القرآنية الشريفة و القوانين الشرعية المنيفة و إن سلطنتنا السنية قد وصلت بذلك إلى الدرجة القصوى من القوة و المكانة و رفاهية الرعايا و عمارة المدن و القرى، إلا أنها منذ مائة و خمسين سنة تناقصت قوتها و معمورية ممالكها و أخذت في التأخر و الضعف و ذلك لغوائل متعاقبة و أسباب متنوعة نشأ منها تجاوز الحدود الشرعية و القوانين المرعية، و لا يخفى أن الممالك التي لا تسج إدارتها على منوال القوانين الشرعية لا تدوم استقامتها، فلذلك لم تزل أفكارنا منذ جلوسنا على سرير الملك مصروفة إلى تدبير وسائل عمارة الممالك و رفاهية الأهالي مما يحصل به المطلوب في مدة يسيرة بعون الله تعالى نظرا إلى حسن الموقع الجغرافي المحتوي على ممالك دولتنا العلية ذات الأراضي الخصبة و الأهالي ذوى الإستعداد و تمام القابلية، إلى أن رأينا من المهم وضع قوانين جديدة مؤسسة على القواعد الشرعية المشيدة و اعتمادنا في وضع ذلك على العناية الربانية متوسلين بحرمه سيد البرية صلى الله عليه و سلم، و مدار القوانين المشار إليها على وجوب حفظ النفس و العرض و المال، و على بيان المرجع في تعيين الأداء و جلب العساكر اللازمة. أما وجوب حفظ النفس و العرض فلكونهما أعز الأمور الدنيوية فإذا خشى الإنسان عليهما اضطر إلى التثبت بمن يرجو به و قايتهما كائنا من كان، و إن لم يكن في أصل فطرته مجبولا- على الخيانة و لا يخفى أن ذلك مما يضر بالدولة و المملكة بخلاف ما إذا كان آمنا على نفسه و عرضه فإنه لا يحدد عن طريق

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ٣٥١

الصدق و الإستقامة و صرف الهمة إلى حسن الخدمة لدولته و ملته.

و أما المال فإن من نقد الأمن عليه لا يتأتى له القيام بحقوق دولته إذ لا يخلو دائما من شغل بال و اضطراب حال بخلاف ما إذا كان آمنا على ماله فإنه يشغل نفسه بما يعينه في دينه و دنياه و ينظر في توسيع دائرة معارفه و عيشه و بذلك يتمكن من قلبه حب الوطن و تشدد غيرته عليه و على دولته و يكون سعيه على حسب ذلك، و أما تعيين الأداء المرجع فيه أن كل دولة تحتاج في حفظ ممالكها إلى القوة العسكرية كما تحتاج في ضبط تصرفاتها إلى مصاريف لازمة، فلا بد لها من مبلغ وافر من المال بحسب احتياجها، و إنما يتحصل ذلك بما يضرب على اتباع تلك الدولة فلزم أن يوضع للأداء المشار إليه طريقه مستحسنه و ذلك أن الإستعداد و إن بقيت معه ممالكنا سالمه و الحمد لله على ذلك لكن ظهرت آثاره من الإختلال و الخراب، و ذلك لأن جعل زمام مصالح المملكة السياسية و أمورها المالية بيد شخص واحد موكولة إلى اختياره بل لا مانع أن يقال موكولة إلى قهره و جبره يتسبب عنه ما ذكر خصوصا إذا لم يكن ذلك الشخص من أهل الخير فإنه يؤثر منفعة على منفعة الغير و تكون تصرفاته مبيتة على الظلم و الضرير فوجب لذلك أن نبادر بترتيب معيار مضبوط يعتبر في توزيع الإداء على الأهالي مراعى فيه قدر المكاسب و اليسار بحيث لا يؤخذ من أحد ما فوق مقدوره بعد أن يجعل لمصاريف الدولة اللازمة للعساكر و غيرها حد محدود بقوانين لا تتعدها، و أما جلب العساكر فهو من أهم ما يتوقف عليه حفظ الدين و الوطن و الذب عنهما، فيلزم الأهالي أن يقدموا أشخاصا منهم للخدمة العسكرية لكن الطريقة الجارية في ذلك إلى الآن مع ما فيها من عدم الإنتظام تؤدي إلى اختلال أصول الزراعة و التجارة و إلى قلة التناسل: فيقع النقص في الأموال و الأنفس و الثمرات و منشأ ذلك عدم اعتبار عدد النفوس الموجودة ببلدان المملكة فيؤخذ من بعضها أكثر من المقدور و من بعضها أقل من الميسور، و استمرار الجندي في الخدمة العسكرية مدة حياته و بذلك يقل النسل و يحصل الضجر المخل بفوائد الخدمة المذكورة،

فبناء على ذلك نرى من اللازم إذا مست الحاجة لأخذ العسكر من الممالك أن يوضع لذلك أصول مناسبة جارية على منهج المساواة المطلوبة ثم يسلك في الإستخدام العسكرى طريقه المناوبة بحيث لا يبقى الشخص في الخدمة المذكورة أكثر من خمسة أعوام مثلا، فهذه الأصول التي عليها مدار القوانين و التنظيمات يحصل بمعونته الله نمو العمران و القوة و الأمن و الراحة، فلذلك نقول: يلزم من الآن فصاعدا أن لا يعامل أحد من أرباب الجرائم و الجنایات بما يفرضى إلى إتلاف نفسه من سم و نحوه بدون مبالاة، بل لا يحكم عليهم إلّا بما تقتضيه القوانين الشرعيّة، و أن لا يسلط أحد على الوقوع في عرض آخر و هتك حرمة و أن يتصرف كل إنسان في أمواله و أملاكه،

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ٣٥٢

بغاية الحرّيّة و عدم المعارضة، و إن من جنى جناية لا يحرم وراثته من حق وراثته بالإستيلاء على أمواله للجناية التي هم براء منها و هذه المساعدة منا جارية في حق المسلمين و غيرهم من أهل الملل التابعين لسلطنتنا بدون استثناء أحد منهم، و لإتمام الأمان و تعميم الإطمئنان يزداد في أعضاء مجلس الأحكام العدليّة قدر ما يلزم للنظر في سائر اللوازم و فصلها بما يتفق عليه الأكثر، و على و كلاء دولتنا العليّة أن يحضروا المجلس المذكور في بعض الأيام و يبدى كل واحد ما يستصوبه دون تحاش و لا مداراة، و أما المفاوضات في شأن التنظيمات العسكريّة فإنها تكون بدار الشورى الكائنة بمحل السر عسكر و كل ما يستقر عليه الرأى من القوانين يعرض علينا لنوشحه بالخط الميمون و يكون دستور العمل إلى ما شاء الله، و حيث كان وضع القوانين الشرعيّة المشار إليها إنما هو لإحياء الدين و الدولة و الملك و الملة أكدنا ذلك بالعهد و الميثاق من طرفنا الملكي على أن لا يصدر منا شيء يخالفها و أقسمنا على ذلك في بيت الخرقه الشريفه بمحضر جميع العلماء و الوكلاء و سيحلف كل منهم على ذلك، فإذا صدر بعد ذلك من أحد الوزراء و العلماء ما يخالف تلك القوانين الشرعيّة فإنه يجازى بالتأديب المناسب لجريمته الثابتة بدون التفات لرتبته و لا مراعاة لذاته، و حيث أن مأمورى الدولة لهم مراتب كافيه و من ليس له ذلك الآن سيرتب له ما يكفيه و جب أن نشدد في قطع مواد الرشوة المستبشعة طبعاً و شرعاً بوضع قانون بخص عقوبتها و لاستبقاء التنظيمات المشار إليها و الأصول المبتيّة هي عليها المغيرة للعوائد الجوربيّة القديمة، و جب أن ننشر هذه الأوراق السلطانيّة إلى سفراء الدول المتحابه المقيمين بالاستانة العليّة ليكونوا شاهدين على إمضائها، كما ننشرها إلى أهالى الاستانة و سائر ممالكنا المحميّة، فمن سعى في حل عرى هاته القوانين الموضوعه على أساس شرعى متين فعليه لعنة الله و الملائكة و الناس أجمعين و لا ينال فلاحاً إلى يوم الدين، و نسأل الله تعالى إن يوفقنا لإجراء هذا الخير العميم آمين. اه.

ثم أن الجهلاء و أصحاب الفوائد الشخصيّة من المنتسبين للعلم أو من أهل السياسة كادوا أن يحدثوا تحييراً في الممالك بإشاعة أن التنظيمات تضاد الديانة الإسلاميّة، فاضطر المرحوم السلطان عبد المجيد إلى إزالة هذا الوهم من الأفكار بإرساله شيخ الإسلام أحمد عارف إلى الممالك فقام فيهم خطيباً يشرح أن الشرع المحمدي لا يخالف التنظيمات بل يقتضيها و لما كان هذا العالم معروفاً بالرسوخ في العلم و الورع انقادت العامة لمواعظه، أما ذوو الغايات الخصوصيّة من ذوى الرياسات فلم يألوا جهداً في تعطيل إجراء التنظيمات بالفعل إلى أن وجدت روسيا سبيلا إلى المداخلة سنة ١٢٧٠ هـ فاضطرت الدولة العليّة إلى حربها المعروفة بحرب القريم، و ظهرها كل من دولتى فرنسا و إنكلتره و سردانيا حيث

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ٣٥٣

توجه نامق باشا إلى فرنسا و ألقى على مسامع الإمبراطور نابليون الثالث بإعانة وزيره دوروان دولويز، أن غض النظر عن تطاول روسيا لا تأمن بوائقه الدول الغربيّة لأن روسيا لا تسمح لله لو تسلطت على الاستانة أما حساً أو معنى لملك التسلط على البحر المتوسط و حجرت التجارة عن سائر الممالك الشرقيّة من الممالك الغربيّة و أيضا تحصل على النفوذ السياسى الذى تخضرم به الدول الغربيّة إذا لم نقل أنها تستولى عليها، و حيث كانت فرنسا ناشرة رايه الفخر فى المعمور لا يسوغ لها إغضاء النظر عن هذا الحادث و ترك الدولة العليّة منفردة مع خصمها الألد و بسط هذا المعنى بحرارة نفس حركت النخوة الفرنسيّة فى الإمبراطور فأجابها إلى معاضده الدولة

العليّة و أشار عليه بأن يستوثق من إنكلترا محالفتها و معاضدتها، فما وصل إلى لندرة حتى وجد القوم في قلق من انتظاره و كادوا أن يحملوه على الأعناق و فتحت دار الندوة لمطلبه و تلقاه أهلها بالرحب و القبول و حماية الدمار فلم تلبث الحرب بضع أشهر حتى أعلنت فرنسا و إنكلترا حربهما للروسيا و انضمت إليهما دولة سردينيا إذ كان ذلك تسببا منها لاتحاد إيطاليا و دخولها في زمرة الدول العظام، و امتدت الحرب و استعرت نيرانها إلى أن سلمت روسيا للصلح على شروط معاهدة باريس و مضمونها هو:

إبقاء استقلال الدولة العليّة في جميع أجزاء ممالكها و استقلالها في سائر تصرفاتها الداخليّة التي يشترط فيها الحرية و الأمن التام لرعاياها على اختلاف أصنافهم.

و أما الممالك التي لها استقلال في إدارتها و هم من النصارى كالصرب و الجبل الأسود و الأفلاق و البغدان فتبقى ممتازة تؤدي الخراج للدولة تحت حمايتها.

و أما البحر الأسود فيكون حائدا حتى لا يسوغ لإحدى الدولتين المالكيتين لشطوطه جعل سفن حربيّة فيه سوى عدد يسير لمجرد حفظ الراحة الداخليّة و كذلك نهر الطونة يكون نهرا تجاريا فقط تحت مناظرة جمعيّة أورباويّة.

و من ذاك الوقت تخلصت الدولة العليّة من أثقال روسيا السابقة و دخلت في سلك الدول الأورباويّة العظام و تكفلت الدول باستقلالها، و من سوء البخت لم يزل أغلب المتوظفين في غفلا-تهم مصرين على السيرة الإستبداديّة و العدو منهم بالمرصاد، فألف جمعيات سرية في قواعد مملكته و أرسلت عمالها إلى الولايات العثمانيّة التي أغلب سكانها نصارى و القواد سائسهم بتعليم الثوران و إلقاء العداوة بين الراعي و الرعيّة، هذا و سفير روسيا في قاعدة الخلافة يحسن أوجه التودد إلى روسيا و الاستماع إلى نصائحها الملائمة لطباع من استماله من الرجال، من الاستمساك بالسيرة الإستبداديّة التي هي سيرة روسيا لكن على شرط التسليم في الولايات التي يسكنها الصقالبة، و بذلك تعقد دولة روسيا مع الدولة العليّة معاهدة على الذب و الإقدام و تعوضها بمعاضدتها ممالك إسلاميّة عوضا عمّا يخرج من عندها، و تساعدها أيضا على الحط من ديونها إلى المقدار الذي يظهر لها، فأثرت هذه الوسوس و أعلنت الدولة العليّة بعدم اقتدارها على دفع فائدة ديونها حتى اغتاضت منها

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ٣٥٤

سكان أوربا و استعمل الإهمال في شأن تلك الجمعيات السرية حتى تارت ولايتا بوسنه و هرسك ثم البلغار ثم الجبل الأسود ثم الصرب، و تدارك رجال الدولة الصادقين الخطب بتفطنهم إلى الدسائس الباطلة التي ليس القصد منها إلّا إضعاف الدولة بيدها و جعلها في قبضة عدوها و أفرادها عن الدول الناصحة لها مع أنها استقرضت من رعاياهم منذ سنة ١٢٧٠ هـ نحو خمسة الآف مليون فرنك و لم يحصل منها و من مداخيل الدولة التي هي نحو عشرين مليوناً ليرة في السنة على ممر تلك السنين التي هي نيف و عشرون سنة ممّا يصح أن يعد إلّا ما تضمنه التقرير الذي قراه الصدر الأعظم بمحضر السلطان عبد العزيز في الباب العالي، و هذا مضمونه.

«أنه قد اتخذ جميع الوسائل اللازمة لإصلاح شأن المجالس الحكميّة و إتقان تنظيمها و ترتيب خدمتها على عدل و وجه ممكن حتى ينال جميع رعايا الدولة منها غاية مأمولهم من حسن المعاملة و الإنصاف من غير مراعاة الجنسيّة و لا المذهب، و أنه بذل جهده في إصلاح قوى الدولة و تنظيمها على ما يعادل تنظيمات الدول الأخرى، و أن جملة العساكر مع الرديف تبلغ الآن ثمانمائة ألف نفر مجهزة الجهاز التام و مصحوبة بما يلزمها من المدافع المتقنة حسب الإختراعات الجديدة، و أن الأساطيل اعتنى بإصلاحها غاية الإعتناء حتى أصبحت الدولة العثمانيّة الآن عندها منها ما يجعلها بمنزلة الدول البحريّة الكبار، و أنه متى نجزت السفن المشروع الآن في إنشائها في الترسانة العليّة يكون للدولة من الفرقاطات المدرعة و المونيتور (وهي سفن ذات أبراج) سبعة عشر فلكا، و أنه أبرز الأوامر اللازمة لتحسين سائر حدود السلطنة بالأبراج و الحصون حسبما تقتضيه ضروريات الوقت، و أنه جهز ترسانات الدولة بالأدوات و الماكينات و المهمات اللازمة حتى صارت الآن تستطيع أن تجارى ترسانات أوربا في إنشاء السفن الحربيّة أو إصلاحها، و أنه يفرغ عما قريب من إنشاء المصنع الجديد الذي شرع في إنشائه منذ مدة في الطوبخانه، و هو مصنع يستطيع أن يصب ثلاثمائة مدفع في كل

عام من أحسن مدافع الشيشخان، وأن اهتمامه الآن بمساعدة وزير المعارف و أقرانه الوزراء الآخر موجه إلى تكثير عدد المكاتب و المدارس توفيراً لأسباب التعليم و ترتيبها على وجه يمكن سائر الناس من الإنتفاع بها الإنتفاع المطلوب، و أن الأعمال المتعلقة بالسكك الحديدية و الطرق المعدة لسير العجلات واقع الإهتمام بها من غير انقطاع و لا توان و أن فى أواخر أغسطس الآتى تكمل سكة الحديد المشروع فى إنشائها بين اسكودار و أزميد، و أن الحرائث لا يزال موجهة إليها كل ما تستحقه من عظيم اعتنائها و اهتمامه و تنال يومياً من التسهيلات سائر ما تحتاج إليه منها دوام إعفاء الأدوات و الآلات اللازمة لها على اختلاف أنواعها من أداء رسوم الكمر ك على الإطلاق فى سائر أقاليم السلطنة، و هذا كله لزيادة ترغيب الناس فى الإشتغال بها حالة كونها هى أعظم ينابيع الثروة فى الممالك.

و ختم الصدر الأعظم تقريره بقوله: إن مائتة الدولة باقية على ما كانت عليه». هذا و بعض التقرير لم يكن فى الخارج طبق ما ذكر، و لهذا تفاقم الأمر فيما بعد إلى أن استندت

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ٣٥٥

رجال السياسة و العساكر إلى فتوى من شيخ الإسلام فى اختلال فكر السلطان و أولوا السلطان مرادا و حيث كان ضعيف المراج و انزعج بكيفية ولايته و بموت عمه و بالثورة على الوزراء من بعض المعينين لم يطق تحمل عبء الخلافة فاستند أهل الحل و العقد إلى فتوى أيضا و أولوا سلطاننا عبد الحميد أيدته الله فتدارك أمر الإدارة بإصداره الخط الهمايونى عند تقلده البيعة، و هذا تعريبه:

«أنه لما اعتزل أخى الأكرم حضرة السلطان مراد الخامس عن مشاغل السلطنة و الخلافة و فرغ منها، جلسنا بموجب القانون العثمانى على تخت أجدادنا العظام و قد وجهنا لعهدتكم مسند الصدارة العظمى و رئاسة مجلس الوكلاء إبقاء و تجديدا بناء على ما لذاتكم من الرؤية المسلم بها و الحمية المجربة و ما لكم من الوقوف و الإطلاع على مهم أمور الدولة، و كذلك أقررنا جميع الوكلاء على مناصبهم و أننى شديد الإتكال فى جميع الأحوال على تسهيلات جناب موفق الأمور هو الله سبحانه و تعالى و توفيقاته الصمدانية، و قصارى آمالى و مقاصدى معطوفة بالحصر لتأييد أساس شوكة دولتنا و مكنتها بحيث تنال صنوف تبعتنا بلا استثناء الحرية و يتمتعون جميعا بنعمة العدالة و الرفاهية، فأؤمل بثقة تامة أن جميع وكلاء دولتنا و عمالها يشاركوننا فى هذا الأثر و يعاونوننا عليه، و قد عرف الناس أجمع بأن حال البحرين و الاعتشاش الملم بدولتنا له جهات و أسباب متنوعة و صور و أشكال متعددة فإذا أمعنا النظر فى ذلك من أى جهة كانت تجتمع مبادئه و أسبابه فى نقطة واحدة، و هى عدم جريان القوانين و النظمات المؤسسة على الأحكام الجليلة الشرعية التى هى المسند الأساسى فى دولتنا على حقها و تمامها و اتباع كل فرد أهواء نفسه فى إدارة الأمور، أما اتساع ميدان عدم الإنتظام الطارىء على إدارة دولتنا ملكا و مالا- و ما حصلت عليه أمور ماليتنا من عدم الأمانة فى الأفكار العمومية و تعذر وصول المحاكم إلى الدرجة المتكفلة بتأمين حقوق الناس و تأخر استفادة مملكتنا حالة كونها قابلة لأنواع وسائل العمران كالحرف و الصنائع و التجارة و الزراعة كما هو مسلم فهو من عدم الثبات الذى وقع على كل ما شرع به من الإجراءات و كل ما حصل من التثبيتات الصادرة عن نية خالصة لمقصد إعمار مملكتنا و رفاهية حال رعايانا و تبعتنا و سعادة حالهم و نوالهم بدون استثناء الحرية الشخصية، و كون ذلك بأجمعه صار عرضة لتغييرات متنوعة منعت إنتاج المقصد الأصلي فلا ريب فى أنه تولد و نشأ عن عدم الثبات باتباع القانون و النظام، و لذا كان من أهم ما يلزم أن التدابير الواجب وضعها أولا فأولا فى مطلب قوانين المملكة المقضى وضعها و تنظيمها فى صورة تكفل بأمانة العموم و ثقتهم ينبغى أن يبتدأ بها من هذه النقطة المهمة، و هى أن يترتب مجلس عمومى تكون أفعاله و آثاره مستوجبة لثقة العموم و اعتمادهم و يكون موافقا لقبائبة مملكتنا و أخلاق أهاليها كافلا بإتمام تأمين إجراء القوانين حرفا بحرف، سواء كانت القوانين الموجودة أو التى تتأسس من الآن فصاعدا توفيقا موافقة لأحكام الشرع الشريف المقدسة و لما هو بالحقيقة ضرورى و مشروع لمملكتنا و ملتنا و ناظرا فى موازنة و واردات الدولة

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ٣٥٦

و مصاريفها فليبحث الوكلاء في هذا المطلب و يتذاكروا فيه بتدقيق و تأمل و يعرضوا قرارهم لدينا و يستأذنوا عنه، ثم لما كانت مسألة توديع المأموريات إلى غير أهلها من المأمورين و تبدلاتهم المتواليه من غير سبب مشروع هي من جملة الأمور الباعثة على إيقاع جريان القوانين و المنظمات كما ينبغي في حين الإشكال، و هذا ممّا يأتي بكبر المضرة ملكا و مصلحة فينبغي أن يتعين من الآن فصاعدا مسلك مخصوص لكل نوع من الخدم و المأموريات، و تتخذ قاعدة ثابتة يستخدم بمقتضاها في كل عمل من يكون أهلا له و لا- يعزل أحد أو يبدل من مأموريته بلا- موجب على وجه أن تكون كافة الوكلاء و مأموري الدولة كبارا و صغارا مسؤولين عن الوظائف الموكولة لهم كل بحسب درجته، و كما هو معلوم لدى الخافقين أن ترقيات ملل أوربا الماديّة و المعنويّة إنما هي حاصله بقوة الفنون و المعارف، و لما كان استعداد كافة صنوف تبعتنا و ما فطروا عليه من الذكاء و الحمد لله يؤهلهم من كل وجه للترقيات و أهم ما لدينا من الأمور الإسراع بتعميم المعارف فأخص ما نتمناه و الحالة هذه أن يحصل الاجتهاد بإبلاغ تخصيصات المعارف إلى الدرجة الكافية حسبما يساعد الإمكان و أن تستحصل الوسائل الموصلة لتعميم نشر أصول المعارف على الفور و يبادر عاجلا لإصلاح الأصول الملكيّة و الماليّة و الضبط في الولايات بحيث توضع ضمن دائرة الإنتظام في صورة مناسبة للقاعدة التي تتخذ في المركز، و حيث أن الحادثه التي ظهرت في العام الماضي في أطراف هرسك و بوسنة بإغراء أرباب الأغراض قد انضم لها أيضا مسألة عصيان الصرب و الدم المهرق من الطرفين إنما هو دم أولاد وطن واحد، و كان دوام هذه الحال التي يرثي لها موجب لكدرنا و تأثرنا الشديد يلزم التشبث بالتدابير المؤثرة المفضية لاستئصالها، و فيما نؤيد مجددا كافة أحكام المعاهدات المنعقدة مع الدول المتحابه نؤثر رعايتها على الوجه الحسن، فينبغي المشاورة بالاجتهاد على إزدياد روابط الحب و المسالمة المتبادلين بيننا و بين الدول، و نسأل حضرة الرب المتعال أن يقرن مساعينا جميعا بتوفيقاته السبحانيّة في كافة الأحوال آمين. يوم الأحد في ٢٢ شعبان سنة ١٢٩٣ هـ.

ثم أعمل الحزم في الثورة و قهر جميع العصاة في سائر الأنحاء و عندما رأيت الروسية تهلهل الوسائل التي أعدتها لم تطق صبرا حتى جيشت الجيوش و وقفت على قدم الحرب بدعوى أن تعهدات الدولة العلية في حق النصارى لم تجر و أنهم لا- زالوا في الظلم من الولاة و التعدي من المسلمين و أن تعهداتها الجديدة الموافقة لللائحة الكونت إندراسى وزير النمسا التي قدمها على وجه المودة و النصح و المساعدة للدولة العلية للإصلاحات المطلوبة للولايات الثائرة هي غير كافية و لم ترضهم، فتريد إذا الدولة الروسيّة أن تطلب الإستقلال في الإدارة لتلك الولايات على أن تكون تحت حمايتها و أنها تنفذ هذا بقوة السلاح لولا أن إنكلترا جاشت في حلقها و صرحت لها عندما كانت تمد التأثيرين حسا و معنى أنها إن لم تكف عن هذا الحرب السرى فإنها تدخل معها في الحرب الجهرى و كذلك دولة النمسا أظهرت التحرش من جهتها خوفا من كل منهما على مصالحهما، إذ دولة الإنكليز تخاف من

صفحة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ٣٥٧

تملك الروسية لخليج فارس و خليج السويس و بذلك تسقط من يدها مستعمراتها في الهند، و دولة النمسا تخشى علو كعب الصقالبة بجوارها فيظهرون عليها و تتلاشى فيما بينهم مع سابقية التآلف بين العثمانيين و الهنكاريين الذين هم قسم مستقل من مملكة النمسا، حتى أن رئيس الدولة يلقب بإمبراطور النمسا و ملك هنكاريا و هذا التآلف جاء من مساعدة العثمانيين لهم عندما كان قسم النمسا قاهرا لهنكارييا و مستبدا عليها في التصرفات السياسيّة، غير أنه منع كل من الدولتين مانع من إنفاذ قصدها بالفعل.

فأما دولة إنكلتره فإنها لما كانت دولة حريّة بحتة لم يكن في قدرتها التصرف إلّا على طبق إرادة الأمة، و أمتها منقسمة إلى حزبين أحدهما: يسمى حزب المحافظين، و الثانى:

يسمى حزب الأحرار، و تقدم بسط هذه التسمية في الكلام على إنكلترا، و كان الحزب الثانى مضادا لإنتصار دولته للدولة العلية حتى أنه لما كان بيده زمام التصرف في سنة ١٢٨٨ هـ و انتهزت الروسية الفرصة من حرب جرمانيا و فرنسا فطلبت تغيير معاهدة باريس فيما يتعلق بتقوية شأنها في البحر الأسود ساعدت إذ ذاك دولة إنكلترا على ذلك المطلب و غير شرطه، و في هاته النازلة المتكلم عليها كان التصرف بيد حزب المحافظين لكن الحزب الآخر مضاد لهم و كاد أن يجذب إليه الحزب الآخر فلم يكن في وسع زعماء هذا

الحزب الذين ييدهم زمام تصرف الدولة أن يخالفوهم بالمرّة، سيما و الباعث على إنفاذ سياستهم مع المخالفة لم يحصل في هاته المسألة كما يفقهه البصير، و أضف إلى ذلك عدم تحقق محالف ذي قوة بريّة معتبرة يمكن لإنكلترا أن تتعاقد معه للإنتصار للدولة العليّة لأن فرنسا الوحيدة لمثل ذلك لم يكن في وسعها الإرتباك في الحرب لما تقدم في الفصل الثالث من المقصد في الكلام على فرنسا، و هذا السبب المتعلق بفرنسا ذاته هو الذي نكص دولة النمسا عن إنفاذ قصد الهنكاريين في معاضدة الدولة العليّة، حيث أن الموازنة الأوروبيّة غيرت و تحالف الأباطرة الثلاثة أي إمبراطور ألمانيا و روسيا و النمسا، إمّا حقيقة و إما حكما على مساعدة بعضهم و نفعهم كما بينته الحوادث، فلأجل الجواذب المتباينة المشار إليها غاية ما استطاعته كل من إنكلترا و النمسا لكبح روسيا أن عقدوا مؤتمرا في الاستانة للإتفاق ما بين الدول الموقعين على معاهدة باريس على ما ينصلح به الحال و يرجع السلم بين الدولتين المتنافرتين، فأرسي أمرهم فيه على أن طلبوا من الدولة العليّة ما يأتي:

أولا: تغيير حدود الجبل الأسود بإعطائه بعض أراضي من المملكة العثمانيّة.

ثانيا: تشكيل لجنة من مرخصى الدول الأوروبيّة لتعيين تلك الحدود الجديدة.

ثالثا: إبقاء حكومة الصرب على الحالة السالفة بأن تكون لا لها و لا عليها، و تتقرر حدودها من جهة بوسنة عملا بمقتضى الخط السلطاني الصادر سنة ١٢٣٢ هـ.

رابعا: الولاية الذين يتعينون إلى بوسنة و هرسك و البلغار ينتخبون من جانب الباب العالي مع موافقة دول أوربا في ذلك و إبقائهم في مأمورياتهم مدة خمس سنين.

صفحة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ٣٥٨

خامسا: نظرا إلى الموقع الجغرافي تقسم تلك الولايات إلى ألوية و يتعين لها متصرفون من جانب الباب العالي بعد انتخاب أولئك الولاية لهم.

سادسا: إنشاء مجلس مركب من ثلاثة أعضاء بكل من الولايات تنتخبهم مجالس الولايات لتحرير دخل الولاية و خرجها و انتخاب أعضاء مجالس الإدارة و توزيع الضرائب السلطانيّة على الأهالي ما عدا رسوم الكمرك و الدخان الراجعة للدولة العليّة.

سابعا: إبطال طريقة التزام مداخل الدولة و إسقاط البقايا السابقة بكل من الولايات الثلاث.

ثامنا: دخل الولايات المذكورة عدا ما هو راجع للدولة كالدخان و الكمرك يعطى منه قسط لخزينة الدولة العليّة و القسط الباقي يصرف في مصالح الولايات المذكورة و ينظم لكل منها دستور للعمل بذلك.

تاسعا: ترتيب المحاكم النظاميّة.

عاشرا: إعطاء حرية الأديان.

حادى عشر: تنظيم الحرس الأهلى.

ثانى عشر: العفو العمومى عما سبق من الجنايات السياسية.

ثالث عشر: إعطاء رخصة للأهالى فى شراء الأراضى السلطانيّة.

رابع عشر: الشروع فى تنفيذ تلك الشروط قبل مضى ثلاثة أشهر.

خامس عشر: تعيين لجنتان من طرف دول أوروبا للإحتساب على إجراء تلك الشروط. غير أن الدولة العليّة امتنعت من قبول الإقتراحات المذكورة محتجة بأنها صارت دولة قانونية حرّية لجميع أصناف رعاياها على السواء بالقانون الأساسى الذى أحاط به المملكة السلطان الغازى عبد الحميد أيد الله ملكه، و قد سبقت الإشارة إليه فى فرمان الذى أصدره عند البيعة العامة و أبرزه للعمل بالفعل عندما كان المؤتمر فى مفاوضاته و أصحابه بالخط الشريف الآتى نص تعريبه فى موكب مشهود، و كانت تلاوته فى يوم كآته يوم عيد و هو:

«وزيرى سمير المعالى مدحت باشا»

«إن سطوة سلطتنا كانت فى حالة القهقرى فى الأيام السالفة و أسباب ذلك التقهقر لم تكن ناشئة عن المشاق الخارجىة فقط بل إنما وقعت لأجل الإنحراف عن الطريقتة المستقيمة فى الإدارة الداخلىة، حتى ضعفت أمانى وثوق الرعايا بالدولة و لذلك كان المرحوم والدنا الماجد السلطان عبد المجيد منح بعض أصول فى تحسين الإدارة معروفة بالتنظيمات الخيرية اشتملت على تأمين جميع الرعايا فى أنفسهم و مالهم و عرضهم و شرفهم طبقا لقواعد الشريعة المطهرة، و التنظيمات المذكورة هى التى كانت سببا لإبقاء السلطنة محافظة على لوازم الأمتية إلى الآن، و من آثارها المشكورة أنها سهلت لنا نجاح مساعينا فى تأسيس هذا

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ٣٥٩

القانون الجديد الذى اقتضته أراء رجال دولتنا التى نتجت عنهم بحريتهم، حيث استندوا إلى تلك الأمتية و قد تيسر لنا فى هذا اليوم الإعلان به. و لما كان هذا اليوم من الأيام السعيدة فإنه يلزمنى أن نذكر الآن المقدس المرحوم والدنا و نصفه بعنوان محيى الدولة، و أن نذكر مقاصده الحسنه و لا شك أنه كان سعى بنفسه فى إدخال السلطنة فى العهد القانونى الذى سنستظل به الآن، و لو توفرت مدة تأسيس التنظيمات الخيرية الأسباب المتوفرة الآن لكان والدنا المرحوم أسس إذ ذاك أحكام هذا القانون الأساسى، و لكن العزة الإلهية قدرت أن يكون هذا التبديل السعيد الذى هو الكفالة العظمى لخير رعايانا فى مدة ولايتنا و لله المنه على ذلك.

و من المعلوم المقرر أن أصول إدارة الدولة صارت مغايرة للتبديلات المتتابعة التى وقعت شيئا فشيئا فى تصرفاتنا الداخلىة و فى زيادة خلطتنا مع الدول الأحباب و غاية مرغوبا إزالة جميع الأسباب المانعة للأمة و للبلاد من الإنتفاع بالنتائج الطبيعىة التى لهم حق فيها كما يلزم، و أن نرى جميع رعايانا قد جاوزوا الحقوق التى من علائق الأمم المهذبة بحيث يكون كلهم متعاضدين بنية سالمه فى التقدم و الألفة و الإتحاد، فكان من الواجب اتخاذ طريقتة نافعة مستقيمة للحصول على المقصد المذكور و وقاية حقوق الدولة و محو الخطيئات و الغلطات الناتجة من الأعمال الغير المباحة الناشئة من وجود التصرف الإستبدادى بيد نفر واحد أو بعض أنفار، و أن نمح حقوقا متساوية لجميع الطوائف المركبة منهم الأمة و أن نجعلهم فى حالة يمكنهم معها الإنتفاع بخير الحرية و العدل و التسوية و لا فرق بينهم فى ذلك، و هذا هو الوجه الوحيد الصالح لحماية جميع المصالح و ضماناتها و هذه القواعد الكليية أنتجت وجوب عمل آخر مفيد للغاية و هو وجوب تقييد أساس إدارتنا بصورة شورىة قانونية و لذلك لما أصدرنا خطنا عند صعودنا على كرسى السلطنة قررنا لزوم إحداث مجلس للأمة و قد اشتغلت جمعيته خاصة مشكله من رجال دولتنا و أهل العلم و المتوظفين الأعيان فى تأسيس أصول هذا القانون بغاية التدقيق، ثم وقع التأمل منها بمجلس وزرائنا و الموافقة عليها و هذا القانون اشتمل على إثبات الحقوق الراجعة للذات السلطانية و حرية جميع الرعايا العثمانيين السياسيه و العرفيه و تسويتهم لدى الأحكام السياسيه و العرفيه أيضا، و بيان مسؤوليه الوزراء و المتوظفين و متعلقات وظيفتهم و حق مجلس الأمة فى الإحتساب على أعمالهم، و استقلال المجالس الحكيميه فى خدمتها و المعادله بين دخل الدولة و خرجها معادله حقيقيه و قسمه التصرفات الحكيميه بالأوطان مع بقاء النظر الأعلى فيها للدولة، و جميع هذه الأصول المطابقه لأحكام الشريعة المطهرة و لضروريات الوقت و لمرغوبنا قابلت التيه الحسنه التى شأنها تحقيق خير الجميع، حيث أن ذلك غاية المراد و قد جعلت إتكالى على الله و على أمداد رسوله فى ذلك و أنطت لعهدتهم هذا القانون بعد أن وافقت عليه بإمضائى السلطانى و يقع العمل به حالا بحول الله فى جميع جهات السلطنة، فالآن إرادتنا أنكم تعلنوا بهذا

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ٣٦٠

القانون و تجروا العمل بمقتضاه من هذا اليوم، كما يجب عليكم أيضا اتخاذ جميع الوسائل اللازمه المتأكده للإشتغال فى تهيئه الترتيب التى تضمن ذكرها القانون المذكور و الله تعالى المسؤول أن يقارن بالنجاح سعى كل من اشتغل فيما يؤول إلى نجاه السلطنة و الأمة، و كتب فى ٧ ذى الحجه الحرام سنه ١٢٩٣ هـ.

غير أن أعضاء المؤتمر لم يقنعهم ذلك و سافروا جميعا من الاستانة دفعة واحدة مظهرين الضديه للدولة العلية، و الدولة لم تكترث

بذلك حيث أن ما فعلته من الرفض لمطلبهم كان عن رأى الأمة لأنها عقدت مجلسا عامًا من جميع وجوه أصناف رعيتها، حتى أنه حضره المعروف بالدراية و الديانة أمير الأمراء الفريق رستم باشا وزير الحريّة إذ ذاك في المملكة التونسية حيث كان رسولا عن أميرنا في تهنته حضره السلطان بالولاية و أجمع جميع أولئك الأعيان على اختلاف ديانتهم على رفض تلك المطالب بل أن النصارى و اليهود منهم قالوا نؤثر إراقه آخر نقطة من دمنا و صرف آخر درهم من مالنا على حفظ شرف مملكتنا من الإهانة بالتجزئة و إن كان هذا لم يبد فيما بعد حقيقة إلّا من البعض دون البعض، هذا بعد أن كان عرف جميعهم الرجل الوحيد مدحت باشا صاحب الصدارة إذ ذاك بعواقب الإنفراد عن الدول و احتمال تعصبهم جميعا لى يتبصروا و ليعلم حقيقة ضميرهم فلم يتزحزحوا شيئا فأنفذ السلطان و وزيره هذا الرفض و لله درهم من رجال، إذ لم يسع سائر الأمم إلّا إنصافهم و الإذعان بأن لهم الحق في رفض ذلك الإقتراح، بل أن اللورد صالسبورى أشد المخاصمين في المؤتمر قال عندما استقرّ بمجلس الوزراء في إنكلترا: لقد أنصف القوم في رفضهم للمطالب، نعم أن الخصم زاد تألبا و أعلن بأن الدولة العلية أهانت أوربا لى يموه أحقاه في إشهار الحرب، بيد أن إنكلترا مع ذلك لم تسمح له بما أراد و ألحت على التعلل للدولة العلية، و اجتمع سفراء الدول في إنكلترا و استقرّ أمرهم على لائحة هذا نص تعريبها:

«أن الدول التى تعاطت عموما أسباب سلم المشرق و اشتركت لهذا المقصود في مؤتمر الاستانة قد رأت أن الطريقة الوحيدة في بلوغ المقصد الذى اعتمدت عليه هي المحافظة على التوافق الذى وقع من حسن البخت بينهم و مع ذلك يجددون تقرير أمر يهمهم، و هو من مصالح العموم أعنى تحسين حالة أمم النصارى بالممالك العثمانية و إجراء الإصلاحات في بوسنه و هرسك و البلغار حسبما قبله الباب العالى، على أن يجربها من عند نفسه، و لذلك اعتبر عقد الصلح مع الصرب حجة.

أما ما يتعلق بالجبل الأسود فإن الدول تعتبر عقد الصلح معه أمرا مرغوبا فيه و لا بد له من توطيد به يقع تعديل الحدود و تعطى حرية الجولان في نهر البويانة لأن الدول تعتبر التأويلات التى تقع أو ستقع بين الباب العالى و هاتين الولايتين كأنها تقدمت خطوة إلى السكون الذى هو الداعى لرغبتهم العمومية و لهذا يستدعون الباب العالى لتوكيده بترجيع العساكر على قدم السلم و لا يبقى منها هنالك غير عدد العساكر اللازمة لتقرير الراحة و يبادر إلى إجراء الإصلاحات اللازمة للراحة و خير الولايات في أقرب وقت حتى يقع ما اشتغل به

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ٣٦١

المؤتمر، و قرروا بمقتضاه أن الباب العالى حاضر إلى إجراء القسم المهم من تلك المطالب و اتخذوا منشوره المؤرخ في ١٣ فبراير سنة ١٨٧٦ و ما قرره الدولة العثمانية في المؤتمر حجة، سيما و ذلك كان على يد وكلائها و قد كان ظهر للدول بالنظر إلى استعدادات الباب العالى الحسنه و مصالحه الحقيقتية في إجراءاتها أنها متيقنة بما أملته من أن الباب العالى حيث انتهز هذه الفرصة الحاضرة فإنه يقوم بحزم لإجراء الوسائل المعدة لتحسين حال النصارى حقيقة، و هذا المطلوب من الأمور الضرورية لراحة أوربا، و حيث سلك هذه الطريقة علم يقينا أن من شرفه و مصلحته أن يجتهد في ذلك بعزم على وجه مستقيم فتطلبت الدول إذ ذاك أن تلاحظ كيفية إجراء الدولة العثمانية مواعيدها بواسطة وكلائهم في الاستانة و نوابهم، و إذا بات مأمولهم عديم النجاح مرة أخرى بأن لم تتحسن حال النصارى رعايا حضره السلطان بكيفية تمنع رجوع التشعبات التى تضطرب بها دائما راحة المشرق فلعله سيظهر لهم من الواجب أن يقرروا أن مثل هذا الحادث لا- يوافق مصالحهم و مصالح أوربا عموما، و في هذا الحال تتحفظ الدول بإعلان ما يرونها عموما من الطرق التى ستظهر لهم التزاما لتقرير خير الأمم النصارى و مصالح السلم العمومى. و كتب في لندرة في ٣١ مارس سنة ١٨٧٧.

و أرسلوها للدولة العلية كالبلاغ الأخير فرفضتها و ياليتها قبلتها إذ هي مطابقة لما كان أصدرته من فرمان المطابق للائحة الكونت إندراسى و المراقبة من الدول إذا كان إجراء الإصلاح حقيقة مقصودا لا ضير فيها، سيما و نفس معاهدة باريس المصرحة بكمال إستقلال الدولة العلية في إدارة ممالكها هي أيضا مصرحة باشتراط إصلاح الإدارة المتضمن لمراقبة الدول لها، إذ لا معنى لجعلها

شرطا في معاهدتهم إلبا أن يكون لهم حق في طلب إجرائها كما يطلبون إجراء سائر شروط المعاهدة، نعم في ذلك ما ينافي النخوة لكن باب ارتكاب أخف الضررين لا ينسى ولا يخفى أن دولة روسيا تشمل ما ينيف عن الثمانين مليوناً وإذا أضيف لها مظاهروها من اتباع الدولة العلية كانت نحو تسعين مليوناً من النفوس و هي مرتاحة من الحرب و تهيأت لها منذ عشرين سنة، و أوصلت سكك الحديد إلى أطراف ممالكها التي يعنى بها، و لا ينسى أنه منذ ثلاثة و عشرين سنة فقط قد حاربتها أربع دول معا و كانت الحرب بينهم سجالات و الدولة العلية لا تشمل أكثر من أربعين مليوناً منهم خمسة عشر مليوناً أكثرهم معاضد لعدوها بالمال و الرجال و أقلهم لا يعينون بالمال إلا عن مفضض فضلا عن الأنفس، و قد كانت إذ ذاك في حرب أهلية دامت نحو السنتين و لم تتهياً بكمال الإستعداد لتوهم انتصار الدول لها فإذا هم قد انفردوا عنها و تركوها و خصمها فقامت الحرب على ساق و ظهر من صناديد العثمانيين ما هو معروف، حتى أقر سائر الأجناس لهم بأنهم أمة لم تزل حية سيما ما بدا من عسكر البطل الغازى عثمان باشا المشير فإنه قاتل في بليفا التي صيرها حصنا عظيما في مدة حربه بجيش لا يبلغ الأربعين ألفا جيشا عمرما من الروس و الرومانيا يتجاوز المائة و العشرين ألفا و قتل منهم ما ينيف على عدد جيشه و لولا سبقيته القدر بعدم إنجاده لما تيسر للروس مجرد حصار جيشه حتى اضطر إلى الهجوم لخرق صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ٣٤٢

الحصار بمن بقى سليما من جيشه الذى قدره سبعة و عشرون ألفا فتراكت عليه مائة ألف أو يزيدون إلى أن خرج و اضطر للتسليم فأقبل عليه القيصر نفسه و لما سلم له سيفه قال له:

«إن مثلك أيها البطل يحق له الفخر الدائم» ورد إليه السيف و كفى بذلك شهادة له، فصحى الجو للروسيا و تقدمت إلى أن بلغت جوار القسطنطينية و امتنعت من توسط الدول فى الصلح حتى طلبته الدولة العلية منها رأسا و عقد على شروط تضمنتها معاهدة صان استيفانوس و هذا نص تعريبيه:

«الشرط الأول: أنه بموجب الخريطة المربوطة بهذه المعاهدة و بمقتضى الشروط و الوجوه الآتى ذكرها تقرر تصحيح حدود ممالك الدولة العلية و الجبل الأسود، و ذلك لأجل إنهاء المنازعات و المصادمات المتتابة الوقوع فيما بينهما، فالحدود تمتد من جبل دوبروزيجه على الوجه الذى عينه المؤثر الذى كان حصل فى الاستانة إلى غوريتو و بيلكه و الحد الجديد يستطيل إلى غاجقة، و على هذا متوتركيا غاجقو تبقى فى تصرف الجبل الأسود، و تمتد الحدود أيضا من مجمع أنهر بيوه و تارة و تمر من نهر درين إلى جهة الشمال و تنتهى إلى مجمع هذا النهر مع النهر المعبر عنه فيم، و أما حدود الجبل المذكور الشرقية فتبتدىء من نهر فيم إلى بريرة بولرة و من روستراق إلى سوق بلاتينا و بيهور و روستراق تبقيان داخل الجبل، فعلى ذلك يكون تحديد الخطوط هكذا: أعنى من الجبال المسلسلة الجامعة لروغو و بلاو و كوزنر إلى شلب باقلىنى، و من رؤوس جبال قوبريونيق و باباور و بورور حذاء حدود بلاد الأرنأوط إلى أعلى ذروة جبل بروقلىتى، و من هذه النقطة إلى كتيب بيسقاشيق و ينتهى الحد على الخط المستقيم إلى عين الماء فى جيسنى هوتى و يفصل فيما بين جيسنى هوتى و جيسنى قاسترانى، و يتجاوز ماء أشقودرة إلى أن ينتهى لنهر بويانه و هكذا مع النهر إلى مصبه فى البحر، و بموجب ذلك تبقى نكسيك و غاشقه و اشبوزى و بودغوريجة و زالبياق و بارضمن الجبل المذكور، و قد يصير تعيين حدود إمارة الجبل قطعا بمعرفة لجنة مركبة من بعض مأمورى دول أوروبا بشرط أن تكون و كلاء الباب العالى و الجبل معهم أيضا، فهذه اللجنة تلاحظ منافع الطرفين و أمنية البلاد الكائنة فى الجهتين ثم تشير فى الخريطة إلى التعديلات التى ترى لها لزوما و تعلم أنها هى الحق و توضح فى ذلك ما رأت من صالح الجهتين، ثم لا يخفى أن أمر سير السفن فى نهر بويانه لم يزل يجلب النزاع فيما بين الباب العالى و الجبل الأسود، فلأجل قطع هذا النزاع يصير تحرير نظام ذلك بمعرفة اللجنة المذكورة.

الشرط الثانى: أن الباب العالى يثبت استقلال إمارة الجبل الأسود على الوجه القطعى ثم فيما يأتى تتقرر فيما بين دولة روسيا و الدولة العلية و الإمارة المذكورة كيفية المناسبات التى ستكون بين الباب العالى و الجبل و قضية تعيين و كلاء من طرف الإمارة فى الاستانة و فيما يقتضيه الحال من ممالكها و يتقرر أيضا أمر إعادة أبواب الجنائيات الذين يفرون من بلاد الدولة العلية إلى الجبل و من الجبل إلى

بلاد الدولة و أمر إطاعة أهل الجبل المقيمين أو

صفحة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ٣٦٣

المارين في بلاد الدولة العلية و انقيادهم إلى نظامات و مأمورى الدولة طبق الحقوق الجارية بين الدول و العادات و المعاملات القديمة التى كانت تجرى بحقهم فى بلاد الدولة و ستعتقد أيضا مقاوله فيما بين الباب العالى و الجبل الأسود لأجل توضيح و تنظيم المسائل المتعلقة بالإنشآت العسكرية فى قرب الحدود و أحوال و مناسبات الأهالى المتجاورة هناك، و إذا اختلف الباب العالى مع الجبل فى بعض مسائل و لم يكن فصلها باتفاقهما فتحكم بينهما دولتا روسيا و أوستريا و من بعد هذه المعاهدة إذا وقعت مباحثه أو مصادمة فيما بين الباب العالى و الجبل ما عدا المطالب الملكية الجديدة ينبغى أن يفوضا أمرها إلى دولتى روسيا و أوستريا و هما باتفاقهما يفصلانها بينهما، و قد تقرر أنه من بعد إمضاء مقدمات الصلح إلى عشرة أيام يجب على عساكر الجبل الأسود أن تخرج من البلاد الغير الداخلة ضمن الحدود المذكورة أعلاه.

الشرط الثالث: أن إمارة الصرب تكون مستقلة و يكون حدها بموجب الخريطة المربوطة لهذه المعاهدة مجرى نهر «درين» و تبقى «كوجك أزورنيق» و «سقار» فى إدارة الصرب، و يمتد هذا الحد إلى منبع نهر «ره زه وه» الكائن جوار «استايلاق» على حسب الحدود القديمة، و تتبدىء الحدود الجديدة من هنا أعنى مع مجرى نهر رزوه إلى نهر راسقه و منه إلى «يكى بازار» و من يكى بازار يصعد الخط الفاصل و يمر من جوار قريتى «مهنتره» و «أرغويج» إلى أعلى النهر المذكور حتى ينتهى إلى منبعه، و يمتد إلى بوسور بلاتينا الكائنة فى وادى أيبار و ينزل مع الماء الجارى الذى يصب فى النهر المذكور و منه يسير مع أنهر أيبار و سيديج و لاب إلى منبع نهر ياتنسه الكائن فى جبل غرابا شينجه بلاتينا، و بعدها يمر من التلال الفاصلة بين نهري قربوه و ترينجه، و من أقصر الطرق الموجودة على مصب نهر ميواجقه حتى ينتهى أيضا إلى نهر ويرنجه و يسير مع هذا النهر و يقطع ميواجقه و بلاتينا و يصل إلى جهة مورواة فى قرب قرية قاليمانس، و من هنا يسير إلى قرب قرية استابوجى و يجتمع هناك مع نهر بلوسينه و هكذا مع النهر إلى مورواة و يمتد مع النهر إلى أعلى حتى يصل إلى «قوتقاويجه» و يقطع سوق بلاتينا و يجتمع بنهر نيساوه و يتصل بقرية قرونجاج و منها يمر من أقصر الطرق، و يمتد على حدود الصرب القديمة إلى جنوب شرق «قره ول بور» و على هذا الخط يتصل بنهر الطونه و تقرر إخلاء «اطه قلعه» و هدمها و ترتيب لجنة مركبة من مأمورى الدولة العلية و الصرب لأجل تعيين خط الحدود على الوجه القطعى فى برهه ثلاثة أشهر، و يكون ذلك بمعاونة مأمورين من طرف دولة روسيا و هذه اللجنة تفصل أيضا المسائل المتعلقة بجزائر نهر «درين» و تقطعها، و حينما تتبدىء هذه اللجنة بتعيين الحدود الفاصلة بين بلاد الصرب و البلغار ينبغى أن يكون وكيل واحد من طرف البلغاريين يشترك معهم فى هذا الأمر.

الشرط الرابع: أن المسلمين الذين لهم أملاك فى البلاد التى صار إلحاقها بالصرب إذا لم يريدوا الإقامة هناك فلهم الخيار إن أحبوا أجروا أملاكهم و إن أحبوا أقاموا و كلاء من

صفحة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ٣٦٤

طرفهم لأجل حفظها و استغلالها و المسائل المتعلقة بأموالهم الغير المنقولة تفصلها لجنة مركبة من مأمورى الدولة العلية و الصرب بإعانة مأمورين من طرف دولة روسيا فى ظرف سنتين، و هذه اللجنة تفصل أيضا فى برهه ثلاث سنين أمر فراغ أملاك الدولة و الأوقاف و المسائل المتعلقة ببعض الأشخاص الذين لهم علاقة و نفع فى الأملاك المذكورة، و ذلك يكون غب انعقاد المعاهدة فيما بين الدولة العلية و الصرب و الأناس المقيمون أو الذين يجولون فى بلاد الدولة العلية من تبعه الصرب تكون المعاملة معهم على القواعد الكليية بمقتضى الحقوق الكائنة بين الدول، و قد تقرر أنه من بعد إمضاء مقدمات الصلح إلى خمسة عشر يوما يجب على عساكر الصرب أن تخرج من البلاد التى ليست داخلة فى ضمن الحدود المذكورة أعلاه.

الشرط الخامس: أن الباب العالى قد أثبت استقلال رومانيا أعنى المملكتين و لها أن تطلب من الدولة العلية غرامة الحرب و تجرى

المذاكرة بهذا الشأن فيما بينهما، و عند ما تنعقد المعاهدة بين الدولة العليّة رومانيا تنال تبعه رومانيا الأمن و الإمتياز طبق تبعه دول أوروبا.

الشرط السادس: تقرر أن تكون البلغار إمارة مختارة في إدارتها تدفع مبلغا معلوما إلى الدولة العليّة و يكون مأمورو الحكومة و العساكر الأهليّة من المسيحيين و يصير تعيين حدودها على الوجه القطعي بمعرفة لجنة مركبة من مأموري الدولة العليّة و روسيا و ذلك قبل خروج عساكر روسيا من الروم إيلي و هذه اللجنة تبين هناك في الخريطة التعديلات التي ينبغي إجراؤها و تلاحظ مليّة أكثر الأهالي و توضح المنافع المحليّة تطبيقا لفن تخطيط الأراضي و تقرر تعيين و تبين مقدار اتساع ملك الصقالبة في خريطة و جعلها أساسا في قطع الحدود و خط الحدود يبتدىء من حدود الصرب الجديد و من غرب «ورانجه» إلى سلسلة الجبل الأسود و من جهة الغرب يمر من غرب «قومانوه» و «قوجاني» و «قلقان دزن» إلى جبل «قوارب» و من هناك يمر من نهر «وبوجيجه» إلى درينه و يلتفت إلى جهة الجنوب إلى حدود غرب قضاء أخرى حتى ينتهي إلى جبل ليناس و منه يمر من غربي كوريجه و استاوره و يتصل بجبل غراموس و كذلك يمر من ماء «قاستريا» و يلتصق بنهر موغلينجه و يسير مع النهر إلى «يكيجه» و يمر من نهر واردكيجه و من مصب نهر «واردار» و قرية «غاليقو» إلى قراء «بارغه» و «صاري كوي» و هناك يمر من وسط عين الماء المعبر عنه «بشيك كل» إلى مصب نهري «استروما» و «قره صو» و من السواحل إلى «بوروكل» و يمتد إلى الشمال الغربي و يمر من سلسلة جبل «رودوب» إلى جبلي «جالته» و «أشوه» و يمر من جبال «أشك قولاج» و «جيبليون» و «قره قولاس» و «جبقلر» إلى «نهر أرده» و يلتفت لجهة الجنوب و يمر من قراء سوكوتلين و قره حمزة و أرناود كوي و أقارجي و أبنجه إلى «تكه دره سي» في قرب «أدرنه» و من تكه دره سي و «جورلي دره سي» إلى «لوله برغوسي» و من هنا و عن نهر «صوجق دره» إلى قرية «سوركن» و منها من التلال و يقطع «حكيم طايه سي» حتى يتصل في

صفحة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ٣٦٥

ساحل البحر الأسود و يبتدىء أيضا من «منقاليه» و يترك السواحل و يمر من شمال حدود لوا طولجي و من فرق راسوه إلى نهر الطونه.

الشرط السابع: إن أمير البلغار يصير انتخابه من طرف الأهالي بالحرية التامة و الباب العالي يثبت بانضمام أراء الدول و لا يجوز انتخاب أحد من أقارب ملوك دول أوروبا الجالسين على سرير الملك للأمانة المذكورة، و حينما تنحل الإمارة كذلك يكون انتخاب الأمير الجديد على هذا المنوال و هاته الشروط و قد تقرر أنه ينبغي من قبل انتخاب الأمير أن يجتمع مجلس معتبري البلغار أما في «فلبه» و أما في «طرنوفا» تحت نظارة مأمورين من طرف روسيا و في حضور مأمورين من طرف الدولة العليّة و تؤسس نظامات هذه الإدارة المستقلة توفيقا لأمثالها أعني لنظامات المملكتين التي تنظمت في سنة ١٨٣٠ غب انعقاد مصالحه «أدرنه» و عند تأسيس تلك النظامات ستصير وقاية حقوق و منافع الأهالي من المسلمين و الروم و الأولاخ و غيرهم الموجودين و المختلطين مع البلغاريين، و تقرر أيضا إحالة تأسيس هذه الإدارة الجديدة في البلغار مع ما يلزم من النظر في صور إجرائها لعهد مأمورين موظفين من طرف دولة روسيا من هنا إلى سنتين و في انقضاء السنة الأولى من تأسيس الإدارة الجديدة إذا لم يحصل إتفاق بهذا الشأن فيما بين روسيا و الباب العالي و دول أوروبا يكون للدول المشار إليهم حق أن يوظفوا مأمورين يرافقون المأمورين الروسيين.

الشرط الثامن: ليس لعساكر الدولة العثمانيّة حق بعد هذا للإقامة في البلغار و سيصير هدم القلاع القديمة الكائنة هناك بمعرفة الحكومة المحليّة و أن الباب العالي له حق أن يتصرف بالأدوات الحربيّة الموجودة في قلاع الطونه التي صار إخلاؤها من العساكر بموجب سند المتاركة الذي تحرر في ٣١ يناير و الآلات الحربيّة الكائنة في مدينتي شمني و وارنه و جميع الأملاك المتعلقة بالحكومة العثمانيّة كيفما شاء و تبقى عساكر روسيا في البلغار مقيمة إلى أن ينتهي ترتيب العساكر الأهليّة الكافلة لحفظ الراحة و توطيد الأمانة و إذا اقتضت الحال يقومون فعلا بإعانة المأمورين و سيصير تعيين عدد العساكر الأهليّة بالإتفاق فيما بين الدولة العليّة و دولة روسيا و

أن مدة إقامة عساكر الروسيا في البلغار تكون سنتين و العساكر التي تبقى هناك بعد خروج جميع العساكر الروسية من بلاد الدولة العلية تكون عبارة عن ست فرق مشاة و فرقتين خيالة و جميعها خمسون ألفا و مصروف هؤلاء العساكر يكون على البلغار و يكون لها طرق مراسلات في المملكتين في شطوط البحر الأسود من جهة وارانة و برغوس و في مدة إقامتها هناك يكون لها المخازن المقتضية على الشطوط المذكورة.

الشرط التاسع: إن المرتب السنوي الذي يلزم على البلغار إيفاءه للدولة العلية يتسلم إلى البنك الذي يعينه الباب العالي و هذا البنك يصير تعيينه بمعرفة دولة الروسيا و الدولة العلية و سائر الدول و ذلك في انتهاء السنة الأولى من ابتداء إجراء أصول الإدارة الجديدة صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ٣٦٦

و مقدار ذلك المرتب يتأسس بالنظر لإيراد البلاد و الأراضي التي تكون في إدارة الإمارة على الحساب المتوسط و البلغار تتعهد بالقيام في التعهد الذي على الدولة العلية إلى شركة سكة الحديد في طريق وارانة و روسجق غب المذاكرة مع الباب العالي و إدارة الشركة المذكورة و مسألة سكة الحديد الأخرى الموجودة ضمن الإمارة يصير فصلها بمعرفة الدولة العلية و حكومة البلغار و إدارة الشركة.

الشرط العاشر: أن الباب العالي له حق في مرور العساكر و نقل المهمات و الذخائر من الطريق المعينه في داخل البلغار إلى الإيالات العثمانية التي وراء البلغار و لأجل عدم وقوع مشاكل في هذا الخصوص و تأمين الإيجابات العسكرية العثمانية سيوضع نظام بالإتفاق مع الباب العالي و الإمارة من ابتداء تعاطى هذه المعاهدة إلى ثلاثة أشهر في ذلك و هذا الحق المتعلق بالمرور و العبور يختص بالعساكر النظامية فقط دون الباشبوزق و الجراكس و العساكر المعاونة و الباب العالي كذلك له أن يتعاطى البوسطة عن طريق الإمارة و يستعمل مسالك التلغراف في مخابراته فهذان الأمران كذلك يصير تعيينهما و تنظيمهما في المدة و الشروط المحررة أعلاه.

الشرط الحادي عشر: أن المسلمين و غيرهم من أصحاب الأملاك إذا أرادوا الإقامة في خارج الإمارة لهم أن يحفظوا أملاكهم و يؤجروها أو يفوضوا أمر إدارتها إلى من يريدونه ثم أن مأمور الدولة العلية و مأمور البلغاريين يجتمعان تحت نظارة مأمور الروسيا و يفصلون المسائل المتعلقة بتصرف الأملاك و في منافع مسلمي البلغار و ذلك يكون في ظرف سنتين و أملاك الدولة و الأوقاف يصير تعيين أمرها إما بالبيع و إما باستعمالها على الوجه الذي يكون فيه النفع الزائد لجهة الباب العالي و يصير تعيين ذلك بمعرفة لجان مخصوصة محدودة في السنتين المذكورتين و الأراضي التي تبقى بدون صاحب عند انقضاء السنتين تباع بالمناذاة و المزايدة و يؤخذ ثمنها و يدفع إلى أيتام و أرامل المصابين في الأحوال الأخيرة من المسلمين و المسيحيين.

الشرط الثاني عشر: أن القلاع الكائنة على نهر الطونة يصير هدمها جميعا و لا يبقى من بعد هذا على سواحل نهر الطونة قلعة ما مطلقا و لا يجوز وجود سفن حربية في مياه رومانيا و الصرب و البلغار سوى السفن الصغيرة و الزوارق المختصة و المستعملة في الأمور الإنضباطية فقط و حقوق و وظائف و امتيازات لجنة الطونة المختلطة تبقى بتمامها على أصلها.

الشرط الثالث عشر: أن الباب العالي يتعهد بتنظيف البحر في مضيق «سنه» و إرجاعه إلى حاله السابق ليصلح لمرور السفن منه و يتعهد أن يضمن العطل و الضرر الذي حصل للتجار بسبب منع مرور السفائن من نهر الطونة مدة الحرب و سيصير فصل ٥٠٠، ٥٠٠ فرنك من أصل دين لجنة الطونة إلى الباب العالي لأجل هذا الأمر.

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ٣٦٧

الشرط الرابع عشر: أن الإصلاحات التي قدمت إلى مرخصى الباب العالي في أول جلسه مؤتمر الاستانة ينبغي حالا إجراؤها بالفعل في بوسنة و هرسك مع التعديلات التي ستقرر فيما بين دولتي الروسيا و أوستريا و يجب أن لا يطلب من هاتين الإيالتين بقايا الخراج و أن لا يؤخذ شيء من الواردات إلى ابتداء شهر مارس سنة ١٨٨٠ بل تصرف كلها في الإحتياجات المحلية و يسد بها عوز الأهالي و العيال الذين أصيبوا في الأحوال الأخيرة و من بعد انقضاء المدة المذكورة يتعين المبلغ الذي يلزم على الأهالي دفعه في كل سنة إلى

الحكومة المركزية بالاتفاق فيما بين الدولة العلية و دولتي روسيا و أستراليا.

الشرط الخامس عشر: يتعهد الباب العالي بإجراء أحكام النظام الأساسي الذي وضع في سنة ١٨٦٨ المختص بجزيرة كريد طبق مطلوب الأهالي الذي بينوه مقدما و يلزم إجراء الإصلاحات المماثلة لنظامات كريد في «ترحاله» و «يانيه» و في سائر جهات الروم إيلي التي ليس لها نظامات مخصوصة و يصير تشكيل لجنة مركبة من الأهالي المحلية في كل أيلة لأجل ترتيب و تأليف النظامات الجديدة ثم يصير تقديمها إلى الباب العالي ليتذاكر مع دولة روسيا في ذلك.

الشرط السادس عشر: إن خروج عساكر روسيا من أرميتية و إرجاع تلك البلاد إلى الدولة العلية يمكن أن يفضى إلى المناقشة و الإختلاف فيما بينهما فهذا يتعهد الباب العالي حالا بإجراء الإصلاحات على حسب الإحتياجات المحلية في الولايات التي سكانها أرمن و تأمين المسيحيين من تعدى الأكراد و الجراكسة.

الشرط السابع عشر: أن الباب العالي سيعلم العفو العمومي عن المتهمين في الأحوال الأخيرة و يطلق سبيل المحبوسين و المنفيين بسبب ذلك.

الشرط الثامن عشر: أن الباب العالي يتعهد بالتبصر بعين الدقة إلى ما بينه و كلاء الدول المتوسطة في خصوص قضاء قوتور و تعيين الحدود الإيرانية على الوجه القطعي.

الشرط التاسع عشر: إن مبالغ الغرامة الحربية التي طلبها حضرة قيصر روسيا هي في مقابلة الأضرار و الخسائر التي تكبدتها دولة روسيا بسبب هذه الحرب و الباب العالي قد تعهد بدفعها فمن هاته المبالغ. صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار؛ ج ٢؛ ص ٣٦٧ لا: ٩٠٠،٠٠٠،٠٠٠ روبل في مقابلة مصروف العساكر و الأدوات الحربية و الأشياء التي بليت.

ثانيا: ٤٠٠،٠٠٠،٠٠٠ روبل لأجل الأضرار الحاصلة في سواحل بلاد روسيا الجنوبية و في إخراجات البضائع التجارية و في طرق الحديد.

ثالثا: ١٠٠،٠٠٠،٠٠٠ روبل بمقابلة الضرر الحاصل من الهجوم على فوقاس.

رابعا: ١٠،٠٠٠،٠٠٠ روبل لأجل الخسائر التي حصلت لتبعة روسيا المقيمين في

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ٣٦٨

الممالك العثمانية و لتأسيساتها، فعلى ذلك تكون هذه المبالغ من حيث المجموع عبارة عن ١،٤١٠،٠٠٠،٠٠٠ روبل يعنى ٣٩١،٢١٧،٢٤٥ ليرة عثمانية و ريال مجيدى أبيض و نصف هذا، و أن القيصر المشار إليه قد لاحظ ضيق حال الدولة العلية من جهة المال و تأمل في مقاصدها التي نوهت عنها في هذا الشأن و وافق بالقبول على أن تترك الدولة العلية الأراضي المحررة أسماؤها أدناه عوضا عن القسم الأكثر من المبالغ المذكورة.

أولاً: لواء طولجي يعنى قضاء كيليا و سنه و محمودية و ايساقجي و طولجي و ماجين و بابا طاغى و خرسوه و كوستنجة و مجيدية و الجزائر الكائنة في نهر الطونة قد تركتها الدولة العلية جميعا إلا أن الدولة الروسية ليس لها فكر بإلحاق هاته البلاد إلى ملكها بل أنها تحفظ حق مبادلة هذه البلاد بقطعة بسارابيا التي أخذت منها بموجب معاهدة سنة ١٨٥٦ فحدود قطعة بسارابيا من جهة الجنوب طرف من أراضي كيليا و مصب نهر الطونة و الجهات التي يصطادون بها السمك في النهر يصير تفريقها بمعرفة مأمورين من طرف الروسية و من حكومة المملكتين في برهه سنة واحدة اعتبارا من تاريخ تعاطى هذه المعاهدة.

ثانيا: أدهان و قارص و باطوم و بايزيد مع الأراضي الحاوية عليها إلى جبل صوغانلى سيصير تسليمها إلى دولة روسيا و حينئذ الحدود الفاصلة تكون هكذا أعنى يتدىء الخط الفاصل من الجبال التي فيما بين المياه الجارية و المنصبه في نهري «هوبا» و «جورق» و يمر من الجبال المتسلسلة الواقعة في جنوب قضاء «وارتوين» و من جوار قريتي «والالت» و «بشاك» و من فوق «درونيك» و «كقى» و «هوج زار» و «بجقن طاغ» و من الجبال الفاصلة للمياه التي تختلط بنهري «تورقم» و «جورف» و من فوق قراء «يالى» و «هين» و «لم

البحر الأسود و بحر الأزاك و المخالف لمضمون معاهدة باريس التي صار إمضاؤها في ٤ إبريل سنة ١٨٥٦.

الشرط الخامس و العشرون: إن عساكر الروس يخرجون من بلاد الدولة العلية الكائنة في أوروبا (الروم إيلي) ما عدا البلغار و ذلك من تاريخ انعقاد الصلح القطعي إلى ثلاثة أشهر هذا و أن العساكر المذكورة لهم أن يأتوا الأساكل الموجودة في البحر الأسود و بحر مرمره عند السفر للركوب في السفائن التي تحضرها أو تستأجرها دولة روسيا حتى لا يكونوا مجبورين على إطالة مدة الإقامة في الممالك العثمانية و في رومانيا و أما خروج عساكر روسيا من الأناطول فيكون بعد انعقاد الصلح القطعي بستة أشهر و لهم أن يأتوا إلى طرابزون لأجل الركوب في السفن و من هناك يسافرون إلى القريم أو القوقاس.

الشرط السادس و العشرون: إن أصول الإدارة و الأوامر التي وضعتها دولة روسيا في البلاد التي دخلتها عساكرها و التي ينبغي تسليمها إلى الدولة العلية بموجب هاته المعاهدة تكون باقية و جارية إلى حين توجه العساكر منها و ليس للباب العالي المشاركة في الأحكام و لا للعساكر العثمانية الدخول إليها قبل ذلك بناء على هذا أن أمير العساكر الروسية يخبر الضابط الذي يعينه الباب العالي عن سفر عساكر روسية و ليس للباب العالي أن يجري الأحكام من قبل أن تتسلم له القلاع و الإيالات.

الشرط السابع و العشرون: إن الباب العالي لا يجازى أحدا بسوء من تبعته الذين دخلوا في المناسبات مع دولة روسيا في زمن الحرب و ليس لمأموري الدولة العلية أن تمنع أو توقف أحدا من الأهالي الذين يرغبون أن يسافروا مع العساكر.

الشرط الثامن و العشرون: إن أسرى الحرب يصير إرجاعهم تحت نظارة مأمورين مرتبين من طرف الدولتين و ذلك عقيب تعاطي مقدمات الصلح و هؤلاء المأمورون يسافرون إلى أودسا و سبستبول و أما مصروف إسراء العساكر العثمانية تدفعها الدولة العلية في ظرف ست سنوات تحت ثمانية عشر قسطا بموجب الدفتر الذي يحره المأمورون المذكورون و أما قضية مبادلة الأسرى فيما بين حكومتى رومانيا و الصرب و إمارة الجبل الأسود فيصير إجراؤها على هذا الأساس لكن يطرح مقدار الأسرى الذي عند الدولة العلية من مقدار أسرى عساكرها و لا تلزمها فيه تلك المصاريف.

الشرط التاسع و العشرون: إن حضرة إمبراطور روسيا و الحضرة الملوكايتية سيثبتون هذه المعاهدة و إمضاء تثبيتها يكون في بطرسبرغ في ظرف خمسة عشر يوما أو بوجه أسرع من ذلك إن أمكن، و كذلك يجري التصديق رسميا على الشروط المذكورة في هذه المعاهدة على حسب الأصول الجارية في المعاهدات الصلحية، و أن الدولتين المتعاهدتين من تاريخ تعاطي المعاهدة يعدون أنفسهم رسميا بأنهم متعهدون بأن مرخصى الطرفين قد أمضوا هذه

صفحة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ٣٧١

المعاهدة كما يأتي تصديقا لمضمونها، - حرر في إياستفانوس في ١٩ شباط الرومي (فبراير) و ٣ أيار (مارس) الإفرنجي سنة ١٨٨٧ الإمضاء:

الكونت اغناتيف - صفوت - نليدوف - سعد الله

لكن إنكلترا لم تسمح بالإقرار بذلك حتى أدخلت أسطولها بحر مرمر و عاضدتها بقيّة الدول في طلب تعديل تلك المعاهدة و عقدوا لذلك مؤتمرا في برلين و أرسى الأمر فيه على معاهدة نص تعرييها:

بسم الله القادر على كل شيء لما كان حضرة سلطان العثمانيين و حضرة ملكة مملكة بريطانيا العظمى و إرلاندة و إمبراطورة الهند، و حضرة إمبراطور جرمانيا، و ملك بروسيا، و حضرة إمبراطور أوستريا، و ملك بوهيميا، و ملك هنكارييا، و حضرة رئيس جمهورية فرنسا، و حضرة ملك إيطاليا، و حضرة إمبراطور جميع روسيا، يريدون لأجل إقرار الراحة العامة في أوروبا إنهاء المسائل التي ظهرت في الشرق بسبب تقلبات الأحوال فيها في هذه السنين الثلاث و بسبب الحرب التي عاقبتها معاهدة أياسطفانوس، استقر رأيهم جميعا على عقد مؤتمر يكون أحسن الوسائل لأجل الإتفاق بحسب ما تقر في معاهدة أياسطفانوس و بناء على ذلك عينت الذوات الملوكية المشار إليهم، و حضرة رئيس جمهورية فرنسا مرخصين و هم:

حضرة ملكة مملكة بريطانيا العظمى و إرلاندا و إمبراطورة الهند، عينت الأونورايل بنيامين دزرائيلي الذي هو كبير وزراء إنكلترا و الأونورايل روبرت أرثر تالبت عاسكون سيسل مركيز صالسبري الذي هو ناظر خارجية إنكلترا و الأونورايل لورد أود وليم ليوبولد روسل الذي هو سفير من الطبقة الأولى لإنكلترا لدى حضرة إمبراطور جرمانيا و ملك بروسيا.

و عين حضرة إمبراطور جرمانيا و ملك بروسيا البرنس بسمارك كبير الوزراء في بروسيا و برنارد أرنست دوبولي مستشار الخارجية و البرنس هوهنلو شلنغفورست سفير ألمانيا لدى رئيس جمهورية فرنسا.

و عين حضرة إمبراطور أوستريا و ملك بوهيميا و ملك هنكاري الكونت أندراسي وزيره الخاص و وزيره في الأمور الخارجية و الكونت لويس كاروليني سفيره لدى إمبراطور جرمانيا و ملك بروسيا و البراون هنري دوهايمل سفيره لدى ملك إيطاليا.

و عين حضرة رئيس جمهورية فرنسا موسيو وليم هنري وادنتون أحد أعضاء مجلس الأعيان و وزيره في الأمور الخارجية، و شارل رايوند كونت دوصان فاليه من أعضاء مجلس الأعيان، و سفير فرنسا لدى إمبراطور جرمانيا و ملك بروسيا، و فيلكس ديسبرز المكلف بإدارة الأمور السياسية في دائرة الخارجية.

و عين حضرة ملك إيطاليا الكونت لويس كورتى أحد أعضاء مجلس الأعيان و وزيره

صفحة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ٣٧٢

في الأمور الخارجية وادورد كونت دولوني سفيره لدى إمبراطور جرمانيا و ملك بروسيا.

و عين إمبراطور جميع روسيا البرنس الكسندر غورجيقوف وزيره في الأمور الخارجية و الكونت دوشوفالوف من قراء الحضرة الإمبراطورية و من أعضاء المجلس الخاص، و سفيره لدى دولة بريطانيا و پول دوبريل سفيره لدى إمبراطور جرمانيا و ملك بروسيا.

و عين حضرة سلطان العثمانيين الكسندر قره تيودوري باشا وزيره في الأمور النافعة و محمد علي باشا المشير في عساكره و سعد الله بك سفيره لدى إمبراطور جرمانيا و ملك بروسيا، فاجتمعوا في برلين بحسب إشارة دولة أوستريا هنكاري و بموجب استدعاء دولة جرمانيا و معهم سائر المحررات المؤذنة بالترخيص فبعد أن وجدت مطابقتهم للأصول وقع بينهم الإتفاق على المواد الآتية.

المادة الأولى: صارت الآن البلغار إمارة مستقلة في أمورها الداخلية إدارة مختارة تدفع خراجا في كل سنة إلى الباب العالي و تكون تحت تابعية الحضرة السلطانية و يكون لها حكومة مسيحية و عساكر وطنية.

المادة الثانية: تكون إمارة البلغار عبارة عن الأراضي الآتية ذكرها، و هي أن حدود تلك الأراضي من جهة الشمال بتبديء من حدود

الصرب القديمة و تمر عن يمين ساحل نهر الطونة و تنتهي إلى محل في شرقي سيلستريا، و هذا المحل سيصير تعيينه من طرف المؤتمر الذي يشكل من مأموري دول أوربا، و من هنا أيضا يتصل الحد في البحر الأسود و يمر من جنوب منقاليا التي صار إلحاقها

برومانيا، أما من جهة الجنوب فإنه يبتديء من مصب النهر و يمر من جوار القرى المسماة «هوجه كوي» و «سلامكوي» و «إيواجق» و «قولبة» و «صوجيلق» على شاطئ النهر إلى جهة فوق المحاذية «أوادي قامجق» و من جنوب «بليبة» و «كمحلق» على بعد من «جنكة»

مقدار متر ٢ و نصف و يتجاوز «دلي قامجق» و يمر من شمال «حاجي محله» و يصعد إلى ذروة المحل الكائن فيما بين «تيكلنك» و «إيدوس بروسا» و منه إلى بلقان «قرين أباد» و بلقان «ويزه زويقه» و من بلقان «قرغان» الواقع في شمال المحل المسمى «قوتل» إلى أن

يتصل بمحل «تيمورقوب»، و على هذا يكون مروره من سلسلة البلقان الكبير الأصلية و يمتد على جميع مساحته إلى أن ينتهي إلى ذروة «قوزيقه» و من هنا يترك ذروة البلقان و يلتفت إلى جهة الجنوب، و يسير من بين قريتي «بيرتوب» و «دوزنجي» و يغادر قرية بيرتوب

المذكورة إلى البلغار و قرية دوزنجي إلى شرق الروم إيلي و يتصل بنهر «طوزلي دره» و يسير مع مجرى النهر إلى مصبه في نهر «طوبولينجه» ثم إلى نهر «اسموسكيو» الذي يصب في نهر طوبولينجه المذكور بجوار قرية «پتريجوه»، و يترك من الأراضي الكائنة

فوق نهر اسموسكيو المذكور مقدار كيلومتر ٢ إلى شرقي الروم إيلي، و يمر من مقسم المياه فيما بين اسموسكيو و نهر قامنيه و يلتفت إلى الجنوب الغربي من التل المسمى و ونجاق و ينتهي رأسا إلى النقطة المذكورة في خريطة أركان حرب دولة أوستريا

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ٣٧٣

عدد ٨٧٥، و من هنا يقطع بخط مستقيم الجهة العليا من وادي اهتمام و يمر من بين بوغدينه وقره ولي و يتصل بالخط في مقسم أنهر المريج فيما بين اسقر و قمرلى و حاجيلر، و يسير مع الخط المذكور من تلال «ولنيا» و «موغيا» إلى الممر الواقع في نقطة عدد ٥٣١ و إلى المحلات المسماة «أزماليقا و «ره و سومناتيقه» و يدخل من بين «سيورى طاش» و «قادرته» و يتصل بحدود لواء صوفيه، و من هنا يتبدى من «قادرته» إلى جهة الجنوب الغربى و يمر من بين نهر قره صو و نهر «استروما قره صو» و يسير مع خط مقسم المياه و من تلال الجبال المسماة «تيمورقبو» و «أسقوفنيه» و «قاضييسار بلقان» و «حاجى كدك» تجاه بلقان فابنتيق و يتصل بحدود لواء صوفيه القديمه، و كذلك يمر من بلقان قابنتيق المذكور و من بين وادى «ريلسقارقا» و وادى «بسقارقا» و يسير مع خط مقسم المياه و يدور تل «و دينجه بلانينا» و ينزل إلى وادى استروما فى المحل الذى يختلط به نهر استروما مع نهر ريلسقارقا و يدع قرية «براقلى» للدولة العلييه و يصعد من جنوب قرية «بلشينقه» إلى فوق و يمر من أقصر خط إلى سلسله «غولما بلانينا» و تل «غيتقه» و يتصل بحدود لواء صوفيه و يترك كامل منشأ صوهارقا للدولة العلييه و يلتفت إلى جهة الغرب من جبل «رجينقا» و يدور جبال قارونا يابوقه و حدود لواء صوفيه القديمه من جبل «قرنى وره» و يمر من فوق مياه «أكرىصو» و لبقينه و يطلع إلى تلال «بابنابولانا» حتى ينتهى أيضا إلى جبل قرنى وره المذكور و من هذا الجبل يمر من تلال «استرز» و «ويله غوصو» و «مسيدلا بلانينا» و من بين «استروما» و «موراوه» مع خط مقسم المياه إلى غاسينا و قرنه طراوه و دار قوسقه و درانيقه بلان و بعدها من فوق دوشا قلادانق و من مقسم أنهر صوقوه و موراوه و يذهب رأسا إلى المحل المدعو «استول» و من هنا ينزل إلى الطريق الموصله إلى صوفيه و بيروته و يقطع فى هذه الطريق ألف متر و منه عن طريق و يدليا بلانينا و يصعد على خط مستقيم إلى جبل «رادوجينا» الكائن فى سلسله البلقان الكبير و يترك قرية دويقنجى إلى صربستان و قرية سناقوس إلى البلغار ثم يلتفت إلى جهة الغرب و يدور تلال البلقان المسمى سبروق من صوب أستاره بلانينا و يتصل بشرقى حدود إمارة الصرب القديمه بجوار «تولا إسميلوه قوفه» و يسير على هاته الحدود حتى ينتهى إلى نهر الطونئه عند «راقويجه» ثم أن هذه الحدود جميعها سيصير تعيينها بمعرفة لجنة مركبه من وكلاء الدول الممضيه على المعاهده و حصل الإتفاق أولا على أن هاته اللجنة تنظر بالإعتناء فى خصوص محافظة حدود بلقان شرقى الروم إلى الكائن تحت سلطة الدوله العلييه و ثانيا أن لا يصير إنشاء استحكام فى أطراف «صماقو» بمسافه ١٠ كيلومتر.

المادة الثالثه: يكون انتخاب أمير البلغار من أهلها بحريه تامه و إقراره من الباب العالى برضى دول أوروبا العظام و لا يصح انتخاب أمير عليها من بيوت الدول المذكوره فإذا توفى عن غير ولد يكون انتخاب أمير بعده على الشروط و الأصول المقرره.

المادة الرابعه: بعد انتخاب الأمير تجتمع أعيان البلغاريين فى طرنوفا لترتيب أحكام و نظامات تخص الإمارة و فى الجهات التى تكون سكانها من الترك و أهل رومانيا و الروم

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ٣٧٤

و غيرهم يلزم مراعاة حقوقهم و مصالحهم فيما يتعلق بقضيه الانتخاب و ترتيب الأحكام الأساسيه.

المادة الخامسه: المواد الآتية تكون أساسا للحقوق العموميه فى البلغار و هى «أن الإختلاف فى المذاهب و الإعتقادات لا يخرج أحدا من الأهليه و الجدارة من تمتعه بالحقوق المدينيه و السياسيه أو بدخوله فى الوظائف الميريه أو العموميه أو نواله الشرف أو استعماله الصنائع و الحرف المختلفه كيفما كان مقره فإن الحريه و مباشره جميع الأعمال الدينيه ينبغى تأمينها لجميع الناس القاطنين فى البلغار من أهلها و من الأجانب أيضا و لا يسوغ اتخاذ مانع ما لترتيب درجات أرباب المذاهب المختلفه أو لعلاقتهم مع رؤسائهم الروحانيين.

المادة السادسه: تكون إدارة «البلغار الموقتة» تحت إدارة مأمورين من دوله الروسيه الإمبراطوريه إلى أن تنتظم فيها القوانين الأساسيه و يستدعى مأمور من طرف السلطنه العثمانيه و القناصل الذين تنتخبهم الدول الذين وقعوا على هذه المعاهده بقصد مراقبه أعمال «الإدارة الموقتة» المذكوره فإذا حصل خلاف بين القناصل المذكورين فإبرام العمل يكون على حسب أكثرية الأراء كما أنه إذا حصل

خلاف بين أكثرية آراء المذكورين و المأمورين من طرف إمبراطورية الروسية أو المأمورين من طرف الحضرة السلطانية تجتمع سفراء الدول بالاستانة الذين وقعوا على هذه المعاهدة في مؤتمر كنفانس ليقر رأيهم على إنهاء الخلاف المذكور.

المادة السابعة: تشكيل «الإدارة الموقته» المذكورة لا يبقى أكثر من تسعة أشهر اعتباراً من يوم التوقيع على هذه المعاهدة و بمجرد إنتخاب الأمير تصير مباشرة إجراء الأحكام الجديدة فتصير تلك الأحكام دستوراً للعمل و تكون الإمارة قد حازت استقلاليتها الإدارية إدارتها المختارة حوزاً تاماً.

المادة الثامنة: جميع المعاهدات التجارية و السفريّة و الإتفاقات التي جرت بين الدول الأجنبية و بين الباب العالي و التي لم يزل عملها جارياً تبقى مرعية الإجراء مع إمارة البلغار فلا يصح تبديل شيء منها مع إحدى الدول المذكورة بدون رخصة منها و لا يسوغ وضع شيء من الضرائب على البضائع التي ترسل إلى إحدى الجهات في مرورها على البلغار و تكون معاملته جميع الأهالي و رعايا الدول و تجارتهم في الإمارة على قدم مساواة تامّة و تبقى امتيازات و خصائص الأجانب المقررة في المعاهدات التي أمضيت بين الدول و الباب العالي مرعية الإجراء في الإمارة ما دام لم يحصل تعديلها برضى الدول.

المادة التاسعة: الويركو السنوي الذي يجب على إمارة البلغار أن تدفعه في كل سنة إلى متبوعها الحضرة السلطانية يكون دفعه إلى البنك الذي يعينه الباب العالي و يكون تعيين المبلغ عند ختام السنة الأولى من جريان نظاماتها الجديدة باتفاق بين الدول الموقعين على هذه المعاهدة و هذا الويركو يحسب بمناسبة إيراد الإمارة و حيث أنها ستحمل جانباً من ديون

صفحة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ٣٧٥

السلطنة العمومية يلزم للدول أيضاً أن يتذكروا على مقدار الدين الذين يعين على الإمارة و ذلك عند مذاكرتهم في أمر الويركو.

المادة العاشرة: جميع التعهدات و الإتفاقات التي وعدت السلطنة العثمانية بإجرائها مع شركة سكة الحديد بين وارنه و روسجق تدخل في عهدة إمارة البلغار اعتباراً من مبادلة التوقيع على هذه المعاهدة أما تسوية الحسابات السابقة التي كانت بين الشركة المذكورة و بين الباب العالي فأمرها يكون بين الباب العالي و حكومة البلغار و الشركة المذكورة و كذلك دخل في عهدة البلغار سائر تعهدات الباب العالي مع دولة أوستريا و هنكاري و مع الشركة المنوط بعهدتها تشغيل سكة الحديد في الروم إيلي فيما يتعلق بإتمام السكك المذكورة و اتصالها في الأراضي التي دخلت الآن في حوزة البلغار و يكون عقد شروط الإتفاقات اللازمة لتسوية هذه المسائل بين دولة أوستريا و هنكاري و الباب العالي و الصرب و إمارة البلغار عند إقرار الصلح.

المادة الحادية عشرة: بعد هذا لا تبقى العساكر العثمانية في البلغار و هدم سائر القلاع و الحصون يكون على مصروف حكومة الإمارة في ظرف سنة واحدة أو أقل من ذلك إن أمكن و ينبغي لتلك الحكومة أن تتخذ؟؟؟ وسائل معجلة لذلك و لا يسوغ لها أن تبني بدلها حصوناً جديدة و يكون للباب العالي حق في أن يتصرف في المهمات الحربية و غيرها من الأشياء التي هي ملك له الباقية في حصون الطونة التي أخلتها العساكر العثمانية بموجب الهدنة التي حصلت في ٣١ جنواري كانون الثاني و كذلك التي في شملة شمى و وارنه.

المادة الثانية عشرة: المسلمون و غيرهم الذين لهم أملاك في البلغار و يريدون الكسنى خارجاً عنها يبقون متمتعين بأملأكهم فيمكنهم و الحالة هذه إيجارها إلى غيرهم و إدارتها بمعرفة من ينتخبونه و تشكيل لجنة مؤلفة من الترك و البلغاريين لتسوية جميع المسائل المتعلقة بكيفية نقل و تشغيل أملاك الوقف لحساب الباب العالي و المسائل المتعلقة بالذين لهم مصالح فيها و هذه التسوية تكون في ظرف سنتين ثم أن البلغاريين الذين يسافرون يسكنون في باقي أطراف الممالك العثمانية يكونون تحت الأحكام و القوانين العثمانية.

المادة الثالثة عشرة: تشكل على جنوب البلقان ولاية تحت إسم «ولاية الروم إيلي الشرقية» و تكون تحت تابعية الحضرة السلطانية تابعية سياسية و عسكرية بشرط أن تكون مشمولة باستقلالية إدارتها و يكون واليها نصرانياً.

المادة الرابعة عشرة: حدود «ولاية الروم إيلي الشرقية» تكون متصلة بحدود البلغار من جهتي الشمال و الشمال الغربي و الولاية

المذكورة تكون عبارة عن الأراضي الكائنة ضمن الدائرة الآتى ذكرها «فحد هذه الولاية يتدىء من البحر الأسود و يسير على النهر الواقع فى جوار القرى المسماة هوجه كوى و سلام كوى و إيواجق و قوله و صوجيلق» إلى جهة فوق محاذيا لوادى «دلى قامجق» و يمر من فوق «چكنه» مقدار مسافة كيلومتر ٢ و نصف تقريبا
صفحة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ٣٧٦

و يتصل بجنوب قراء «بلييه» و «كمحالق» ثم يصعد إلى التل الكائن فيما بين «بتكنلك» و «إيدوس بروسا» و يمر من بلقان «قرين إباد» و «بره زويجه» و «قرغان» حتى يصل إلى «تيمورقبو» بالجهة الشماليه من «قوتل» و بعدها يدور جميع سلسله البلقان الكبير و ينتهى إلى تل «قوزيقه» و فى هذه النقطة أعنى من ذروة البلقان الكائن على غربى حدود الروم إيلى ينزل إلى جهة الجنوب مارًا من بين قرية بيثروب التى تركت للبلغاريين قرية دوزانس الباقية فى الروم إيلى و يصل إلى نهر «طوزلى دره» و يسير مع النهر إلى مجمعه مع نهر طوبولينقا و كذلك يمر مع هذا النهر إلى مجمعه مع نهر «سمووسقيور» فى جوار قرية «بتريسوا» و على هذا يترك لروم إيلى الشرقيه فى شطوط مجارى هاته الأنهر محلاً مقدار كيلومتر ٢ ثم يتبع الخطوط الفاصلة للمياه المذكورة و يسير إلى جهة فوق على طول أنهر «سمووسقبور» و «قامنيقا» و يلتفت إلى الجنوب الغربى فى تل «و وانجاق» و يصل إلى المحل المبين فى خريطة أركان حرب دولة أوستريا عدد ٨٧٥ ثم يقطع على خط عمودى مجرى نهر «أيجمان دره» من الأعلى و يمر من بين «بوغدينا» و «قارولا» حتى يصل إلى الخط الفاصل الكائن فيما بين نهري «أسقر» و «ماريكا» و يسير على طول الخط الموضح فى الخريطة المذكورة تحت رقم ٥٣٠ من تلال «و ولينا موجيلا» و «جمابليقا» و «روه سومناتيكا» و يجتمع بحدود لواء صوفيه فيما بين «سيورى طاش» و «قادر تبه» فعلى هذا تفرق حدود الروم إيلى و البلغار من جبل «قادر تبه» ثم الخط الفاصل المذكور يمر إلى قدام من بين أنهر ماريقا و توابعه و بين أنهر «مستافره صو» و أتباعه تابعا استقامة الخطوط الفاصلة لهذه المياه و يتوجه إلى جهتي الجنوب الشرقى و الجنوب مارًا من تلال جبل «دسبوت» إلى صوب جبل «كروشوا» و هذا الجبل كان مبدأ الحدود؟؟؟ التى عينتها معاهدة اياسطفانوس ثم الخط المذكور يتبع الخط المعين فى المعاهدة المذكورة أعنى أنه يتدىء من هذا الجبل و يمر على سلسله «قره بلقان» من تلال «قولاقلى ظاغ» و اشك جبلى و قره قولاس» و ايشيقلر و يسير جهة الجنوب الشرقى حتى ينتهى إلى نهر «واردا» و يسير مع هذا النهر على طوله حتى يصل إلى قرية «اطه قلعه» و تبقى هذه القرية فى سلطة الدولة العلية و من هنا يصعد ذروة جبل «بش تبه» ثم ينزل و يمر من جسر «مصطفى باشا» و يتجاوز نهر المريج من جهة فوق بمسافة خمسة كيلومتر ثم يتوجه إلى جهة الشمال مع بين الأنهر الصغار التى تصب فى نهري «خانلى دره» و «مريج» و يسير على خط مقسم المياه إلى المحل المسمى «كودلر بايرى» و من هنا يلتفت إلى جهة الشرق و يمتد إلى «صقار بايرى» و منه إلى وادى «طونجه» و إلى «بيوك دربند» و يترك «بيوك دربند» و «صوجاق» إلى جهة الشمال ثم يسير من بين الأنهر التى تصب فى نهر طونجه من جهة الشمال و فى نهر المريج من جهة الجنوب على خط مقسم المياه و يصعد إلى تل «قيبلر» و تبقى قيبلر فى الروم إيلى الشرقيه ثم يلتفت إلى جهة الجنوب و يمر من بين المياه الكائنة فيما بين نهر المريج من جهة الجنوب و بين قريتي «بلورن» و «التلى» التى تصب فى البحر الأسود و يصل إلى جنوب قرية «المالى» و يدور تلال «و وسنه»

صفحة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ٣٧٧

و «زواق» من شمال المحل المسمى «قراكلق» و يسير مع الخط الفاصل فيما بين نهري «دوكه» و «قره أعاج» حتى يتصل بالبحر الأسود. المادة الخامسة عشرة: يكون للحضرة السلطانية حق فى أن تباشر محافظة الحدود البرية و البحرية و ذلك بأن تبنى فى تلك الحدود استحكامات و تقيم فيها عساكر و لتأمين الراحة العمومية فى ولاية «الروم إيلى» الشرقيه بشكل فيها ضبطية و عساكر داخلية و مذاهب الأهالى الذين تؤلف منهم هذه العساكر و الضبطية تكون مرعية و يكون تعيين ضباطهم من طرف الحضرة السلطانية و قد تعهدت الحضرة السلطانية بأن لا- توظف فى حصون الحدود عساكر غير نظامية كالباشى بوزق و الجراكسة و فى جميع الأحوال لا يسوغ للعساكر النظامية المذكورة أن تتعدى على الأهالى و عند مرورهم فى الولاية لاستقرارهم فى الإستحكامات لا يسوغ لهم الإقامة فيها.

المادة السادسة عشرة: يكون للوالى حق فى أن يستدعى العساكر العثمانية إذ حصل ما يخل بالراحة الداخلىة و الخارجية فإذا وقع ما يوجب ذلك يخبر الباب العالى نواب الدول بالاستانة عن قراره و عن السبب الذى أحوجه إليه.

المادة السابعة عشرة: يكون تعيين والى «ولاية الروم إيلى الشرقية» مدة خمس سنين من طرف الباب العالى باتفاق الدول.

المادة الثامنة عشرة: بمجرد مبادلة التوقيع على هذه المعاهدة تشكل لجنة أورباوية للنظر فى ترتيب إدارة «ولاية الروم إيلى الشرقية» بالاتفاق مع الباب العالى و من خصائصها أن تبين فى ظرف ثلاثة أشهر وظيفة مأمورية الوالى و ما له من الإستطاعة و ترتيب الولاية الإدارية و النظامية و المالية و يكون ابتداء أشغالها تنظيم اختلاف أحكام الولايات و ما حصل عليه المذاكرة فى الجلسة الثامنة من المؤتمر الذى عقد فى الأستانة و بعد أن يحصل القرار على جميع المصالح المتعلقة بالولاية المذكورة يصدر فرمان من طرف الحضرة السلطانية فيبلغه الباب العالى إلى الدول.

المادة التاسعة عشرة: يناط بعهدة اللجنة الأورباوية المذكورة بالاتفاق مع الباب العالى إدارة المالية فى الولاية إلى أن تنجز القوانين الجديدة المراد وضعها.

المادة العشرون: جميع المعاهدات و الإتفاقات و المعاملات التى جرى تداولها بين الباب العالى و الدول الأجنبية أو التى ستعقد فيما بعد يكون معمولاً بها فى «ولاية الروم إيلى الشرقية» كما هو جار فى سائر السلطنة العثمانية و جميع الامتيازات و الخصائص التى حازتها الأجانب على اختلاف وظيفتهم و مصالحهم تبقى محترمة فى الولاية المذكورة و قد تعهد الباب العالى بأن جميع أحكام السلطنة هناك فيما يخص المذاهب المختلفة يكون معمولاً بها و مرعية الإجراء.

المادة الحادية و العشرون: تبقى حقوق الباب العالى و تعهداته فيما يتعلق بسكك

صفحة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ٣٧٨

الحديد فى الروم إيلى الشرقية معمولاً بها و مرعية الإجراء.

المادة الثانية و العشرون: تكون قوة الروسية فى البلغار و فى «ولاية الروم إيلى الشرقية» مؤلفه من ست فرق من المشاة و فرقتين من الخيالة و جميع ذلك لا يزيد على ٥٠,٠٠٠ نفر و تكون مصاريفهم على الولايات التى يتبأونها و تبقى علاقتهم و مواصلتهم مع روسيا بواسطة رومانيا بحسب الإتفاق الذى يحصل بين الحكومتين المذكورتين و فضلا عن ذلك تكون بواسطة مراسى البحر الأسود مثل وارنه و بورغاس حتى يمكن لهم أن يتخذوا هناك مخازن للوازمهم مدة إقامتهم و تقرر أيضا أن إقامة العساكر الإمبراطورية فى «ولاية الروم إيلى الشرقية» و البلغار تكون مدة تسعة أشهر اعتبارا من يوم مبادلة التوقيع على هذه المعاهدة و قد تعهدت دولة الروسية الإمبراطورية أنه قبل إنقضاء هذه المدة تمنع مرور عساكرها من رومانيا فتخلو منهم إمارة البلغار.

المادة الثالثة و العشرون: قد تعهد الباب العالى بأن يجرى فى جزيرة كريد النظامات التى تقرر فى سنة ١٨٦٨ و التعديلات التى يرى من العدل إجراؤها و كذلك يجرى فى بقية الولايات نظامات و قوانين على ما تقتضيه المصالح الداخلىة كما فى كريد مما لم ينص عليه فى هذه المعاهدة نصا خصوصا إلا فيما يتعلق بإلغاء الضرائب كما هو جار الآن فى كريد و يشكل من طرف الباب العالى لجانة مخصوصة يكون أكثر أعضائها من الأهالى للنظر فى متعلقات النظامات اللازم إجراؤها فى كل ولاية ثم تعرضها على الباب العالى للتروى فيها و قبل أن يعمل بها و تجعل دستورا للعمل يلزم الباب العالى أن يستشير اللجنة الأورباوية المنعقدة للنظر فى أحوال الروم إيلى الشرقية.

المادة الرابعة و العشرون: إذا فرض أنه لم يقع إتفاق بين الباب العالى و دولة اليونان فيما يتعلق بتعديل الحدود كما تقرر فى المادة ١٣ من مضبطة مؤتمر برلين فدول جرمانيا و أوستريا هنكارييا و فرنسا و بريطانيا العظمى و إيطاليا و الروسية تحفظ لنفسها عرض التوسط بين الفريقين تسهيلات للمذاكرات.

المادة الخامسة و العشرون: تتبأ عساكر أوستريا و هنكارييا ولايتى بوسنه و هرسك و يناط بها أيضا أمر إدارتهما و حيث أنها لا تريد

أن تتولى إدارة سنجيقه يكي بازار الممتدة بين الصرب و الجبل الأسود على الخط الجنوبي الشرقي ما وراء ميترو و تسه فالإدارة العثمانية تبقى معمولاً- بها هناك و حيث أن المراد إقرار الأحوال السياسية الجديدة و حرية المواصلات و تأمينها فدولة أوستريا و هنكاريًا تحفظ لنفسها الحق بأن يكون لها قشل و طرق تجارئة و عسكريئة في جميع الجهات المذكورة و لهذه الغاية تحفظ لنفسها هي و الدولة العثمانية أن تتفقا على المواد المتعلقة بهذه المسألة.

المادة السادسة و العشرون: قد اعترف الباب العالي استقلال الجبل الأسود و كذلك اعترفه بقية الدول الموقعين على هذه المعاهدة الذين لم يعترفوه سابقاً.

صفحة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ٣٧٩

المادة السابعة و العشرون: اتفق الموقعون على هذه المعاهدة على أن استقلال الجبل الأسود يكون مربوطاً بالمواد الآتية و هي «لا يسوغ التمييز في الإعتقادات الديتية في الجبل فلا يخرج أحداً من الأهلية و الجدارة لجميع ما يتعلق بتمتعه بالحقوق المدنيئة و السياسيئة أو بدخوله في الوظائف الميريئة أو العموميئة أو نواله الشرف أو استعماله الصنائع و الحرف المختلفة كيفما كان مقره فلجميع الأهالي التابعين للجبل الأسود و للأجانب أيضا الحرية التامة في جميع المتعلقة المذهبية و لا يسوغ اتخاذ مانع ما في ترتيب درجات أرباب المذاهب المختلفة أو في علاقتهم مع رؤسائهم الروحانيين».

المادة الثامنة و العشرون: قد صار تعيين حدود الجبل الأسود كما سيأتى و هي أنها تبتدىء من «إيلينو برودو» و تسير إلى شمال «قلوبوق» و تمر من فوق «تره بنيجه» و تصل بمحل «غرانقارو» و تبقى غرانقارو ضمن لواء هرسك و منها يصعد الخط الفاصل إلى جهة فوق من نهر غرانقارو و يصل إلى محل يبعد عن النهر الذي يصب في «سيلقه» مقدار كيلو متر فقط و من هنا يسير على أقصر طريق و يصعد إلى التلال التي في جوار «تره بنيجه» ثم يذهب إلى «بيلاتوه» و يترك هذه القرية للجبل يسير من التلال إلى جهة الشمال و على قدر الإمكان يمر بعيداً عن طريق «بيلكه» و «قوربتو» و «غاجقه» مقدار ٦ كيلومتر و يصل إلى الطريق الكائنة فيما بين «سويلا بلانينا» و جبل قوريله و منها عن جهة الشرق يمتد إلى جبل أورلين و يترك قرية «وارتقويجي» لهرسك ثم يمتد من الشمال الشرقي و يدع «روانه» داخل الجبل و يمر من تلال «لبرسليك» و «ولجاق» و يسير من أقصر طريق و ينزل إلى نهر «بيوه» و يتجاوز هذا النهر و يصل إلى «تاره» الكائنة بين «قرقويقه» و «وندوبنه» و من تاره يصعد إلى «موجقواق» و يتصل بمحل «سقوج زرو» و من هنا إلى قرية «صوقولار» و يجتمع بالحدود القديمة ثم يمر إلى تلال مقرا بلانينا و تبقى قرية مقرا داخل الجبل و يمر أيضا من السلسلة الأصلية إلى الطريق المذكور في خريطة أركان حرب أوستريا تحت رقم ٢١٦٦ و من فوق مقسم المياه الواقع بين «ليم» و «درين» و بين «سيونه زم» ثم يتصل بالحدود الجديدة بعد مروره فيما بين قبيلة «قاجي دره قالويجي و بين قوسقار جنه» و «قلامنتي» و «غرودي» و بعد ذلك ينزل إلى صحراء بودغوريجه و يترك قبائل قوسقار جنه و قلامنتي و غرودي و هوتي لبلاد الأرنأووط و يتصل «بيلاونيقه» و من هنا يمر من جوار جزيرة «غرويقه طوبال» و يتجاوز ماء أشقودره و يسير رأساً من «غرويقه» طوبال إلى التلال و يمر من مقسم المياه الكائن فيما بين «مغورد» و «قاليمد» مع خط المقسم المذكور و يترك «ميرقويق» داخل الجبل و ينتهي إلى بحر و نديك (فينيسيا) عند قرية «فروجي» ثم يلتفت إلى الشمال الغربي و يمر في الساحل من بين قري «شوسانه» و «زويسي» و يتصل بمنتهى الحدود الجديدة في جهة الجنوب الشرقي فوق «ورسوته بلانينا».

المادة التاسعة و العشرون: إنضمام انتواري (باري) و شطوط البحر التي تخصها إلى الجبل الأسود مشروط على الصورة الآتية و هي أن يعاد على الدولة العثمانية الأراضي الكائنة

صفحة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ٣٨٠

على جنوب تلك الجهة إلى بويانا من ضمنها دولسنجو و يضم إلى دلماتيا مرسى سبزا و الأراضي المتعلقة بها إلى غاية حدودها الجنوبيئة كما هي مبيئة بالتفصيل في الخريطة و يكون للجبل الحرية المطلقة التامة للسفر في نهر بويانه و لكن لا يسوغ له أن يبنى على

النهر حصونا أو استحكامات إلّا ما لزم للمحافظة على اشقودرة خاصة فتكون تلك الحصون و الحالة هذه غير خارجة عن دائرة مسافتها حول المدينة المذكورة بستة كيلومتر (٠،٠٠٠، ٦ متر أو نحو عشرة أميال) و لا يكون له بواخر حربية و لا راية و لا يسوغ لأى دولة كانت أن تدخل بواخرها الحربية إلى مرسى انتوارى أما الحصون الكائنة فى أرض الجبل بين النهر و شط البحر فتهدم بالكليّة و لا يسوغ إعادة بنائها و يفوض لعهد أوستريا و هنكاريّا إدارة البحريّة و الصحيّة فى انتوارى و فى شطوط الجبل و على الجبل أن يستعمل القوانين و الإصطلاحات البحريّة على موجب القوانين و الإصطلاحات الجارية فى دلماتيا (باوستريا) و قد تعهدت أوستريا و هنكاريّا بأن تحمى بواخر الجبل الأسود التجاريّة و يلزم للجبل أن يتفق مع أوستريا و هنكاريّا على مد سكك الحديد و إنشاء طرق عادية فى الأراضى التى دخلت حديثا فى حوزته و على تأمين حرية المواصله عليها.

المادة الثلاثون: المسلمون و غيرهم الذين يملكون عقارات فى الأراضى التى انضمت إلى الجبل الأسود و يريدون أن يستوطنوا خارجا عن الإمارة لهم حق بأن يبقوا مالكين عقاراتهم بإيجارها أو تشغيلها بواسطة من يختارونه و تشكل لجنة مؤلفة من مأمورين من العثمانيين و أهل الجبل الأسود لتسوية المسائل التى تتعلق بكيفية نقل الأملاك أو حرثها أو إدارتها سواء هى من أملاك الوقف أو الأملاك الميريّة التى للباب العالى فتجرى تسوية جميع متعلقات الذين لهم مصلحة فيها و هذه التسوية تكون فى ظرف ثلاث سنين.

المادة الحادية و الثلاثون: على إمارة الجبل الأسود أن تتفق مع الباب العالى على ما يتعلق بتعيين و كلاء من طرفها فى الاستانة أو فى جهات أخرى من السلطنة العثمانية ممّا يرى لازما أما أهل الجبل المقيمون فى السلطنة العثمانية أو المسافرون فيها فيكونون تحت أحكام الدولة العثمانية على حسب الأصول المقررة بين الدول و على حسب العوائد المقررة مع الجبل.

المادة الثانية و الثلاثون: يلزم أن عساكر الجبل الأسود تخلى الأراضى التى هم الآن مستولون عليها ممّا لم يدخل فى حدود إمارة الجبل الجديدة و ذلك فى ظرف عشرين يوما اعتبارا من يوم التوقيع على هذه المعاهدة أو أقل من هذه المدة إذا أمكن كذلك يلزم للعساكر السلطانية أن تخلى فى المدة المذكورة الأراضى التى دخلت الآن فى حوزة الجبل.

المادة الثالثة و الثلاثون: حيث أنه يلزم الجبل الأسود أن يتحمل جانبا من الديون العثمانية العمومية فى مقابلة الأراضى الجديدة التى دخلت فى حوزته بموجب شروط الصلح

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ٣٨١

تعيين نواب الدول الأجنبية فى الاستانة هذا المبلغ بالإتفاق مع الباب العالى على أصول عادلة.

المادة الرابعة و الثلاثون: لما كان الموقعون على هذه المعاهدة معترفين باستقلالية إمارة الصرب ربطتها بالشروط المحررة فى المادة الآتية.

المادة الخامسة و الثلاثون: لا يسوغ التمييز فى الإعتقادات الدينية فى الصرب ضد أحد حتى يخرج من الأهلية و الجدارة لجميع ما يتعلق بتمتعه بالحقوق المدنية و السياسية أو بدخوله فى الوظائف الميريّة أو العمومية أو نواله الشرف أو استعماله الصنائع و الحرف المختلفة كيفما كان مقره فلجميع الأهالى التابعين للصرب و الأجانب أيضا الحرية التامة فى جميع المتعلقات المذهبية و لا يسوغ اتخاذ مانع ما فى ترتيب درجات أرباب المذاهب المختلفة أو فى علاقتهم مع رؤسائهم الروحانيين.

المادة السادسة و الثلاثون: إمارة الصرب تكون مالكة للأراضى الموجودة فى ضمن الحدود الآتى ذكرها و هى أن الخط الفاصل يمر على طول الخط الحالى و من مصب نهر «درينا» فى نهر صاوا و يذهب مع المجرى و يترك «أزرونيق و زخار» للإمارة و لا يترك الخط المذكور أعنى الحدود القديمة إلى «قابونيق» ثم يفترق فى ذروة جبل قابونيق عن الخط المذكور و يسير من جنوب الجبل على طول حدود نيش الشرقية و يمر من تلال «ماريكا و ماردار بلانينا» و هذه التلال هى الخط الفاصل بين أنهر «إيلباروسنيقا و طولبليقا» و على هذا تبقى «بره بولاد» للدولة العلية و بعده يسلك خط مقسم المياه إلى جهة الجنوب من بين «برونيقا» و مدودجا و يترك وادى مدودجا كله للصرب و يصعد إلى تل «قولجاق بلانينا» و يكون هو الخط الفاصل فيما بين الأنهر المسماة «بولجنيقا و ترنيقا و موروا» و

يصل إلى تل «بولجنيقا» ثم يذهب من اتجاه «قاينا بلانينا» إلى مجمع أنهر «قوانسقا و موراوه» و يتجاوزه و يسير على الخط الفاصل فيما بين مياه النهر الذي يختلط بنهر موراوه في جوار «قوانسقا و نره دوس» و يتصل «بلانينا إيليجه» فوق «ترغويست» و من هنا أعنى من ذروة جبل إيليجه يمتد إلى ذروة جبل «قلتروق» و يمر من المحلات المدروجة في الخريطة تحت عدد ١٥١٦ و ١٥٤٧ و من «بابناغورا» و ينتهي إلى جبل «قرنى وره» ثم يتدىء من هذا الجبل و يجتمع بحدود البلغار يعنى يمر من تلال «أستره سرو و يلوغلو و مسيد بلانينا» و يسير على خط مقسم المياه الواقع فيما بين استروما و «موراوه» و ينتهي إلى المحلات المدعوة «غاسينا و قرنه تراوه و دار قوسقوه و دراينيقه بلان» و بعدها يمر من فوق «دشاني قلاذتق» و من أعلى مقسم مياه «صوقوه و موراوه» و يذهب رأسا إلى «استول» و من هنا ينزل إلى قرية «سفوزه» من جهة شمالها الغربى و يقطع طريق «بيروت» بمسافة مقدار ألف كيلومتر عن صوفيه و يصعد على خط مستقيم إلى «و يدليق بلانينا» و يمر من جبل

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ٣٨٢

«رادوجينا» الواقع في سلسلة البلقان الكبير و يترك قرية «دوقنجي» لإمارة الصرب و قرية «سناقوس» إلى البلغارستان ثم يسير من ذروة هذا الجبل إلى جهة الشمال الغربى و يمر من بلقان «سيروق» و من «استارا بلانينا» و يصعد إلى تلال البلقان و في جوار «قولا اسميلجوه قوقا» يتصل بحدود الصرب الشرقىة القديمة و يسير على هذه الحدود إلى نهر الطونة و ينتهي عند النهر في «راقويجه».

المادة السابعة و الثلاثون: لا يغير شىء في الصرب من الشروط الحالية فيما يخص العلاقات التجارية الكائنة بين الممالك الأجنبية و بين إمارة الصرب إلى أن يجرى بدلها اتفاقات جديدة و لا يسوغ أن يؤخذ على البضائع التى تمر في الصرب مرسله إلى جهة أخرى شىء من العوائد أو الرسوم أما المزايا و الإمتيازات الشاملة الآن رعايا الدول الأجنبية في الصرب و حقوق الأحكام و حماية القناصل لرعاياهم على الأصول المعمول بها الآن فتبقى مرعية الإجراء إلى أن يحصل إتفاق بين إمارة الصرب و الدول الأجنبية على تعديلها.

المادة الثامنة و الثلاثون: للتعهدات التى تعهد بها الباب العالى مع دولة أوستريا و هنكاريا أو مع شركة سكة الحديد في الروم إيلي أو فيما يتعلق بإتمام السكك الحديدية و تشغيلها في الأراضى التى دخلت في حوزة الصرب تبقى مرعية الإجراء عند إمارة الصرب و عند التوقيع على هذه المعاهدة يجرى إتفاق بين دولة أوستريا و هنكاريا و الباب العالى و الصرب و إمارة البلغار على قدر ما يخصها لتسوية هذه المسائل.

المادة التاسعة و الثلاثون: المسلمون الذين يملكون عقارات في الأراضى التى انضمت إلى الصرب و يريدون أن يستوطنوا خارجا عن الإمارة لهم الحرية بأن يبقوا مالكين عقاراتهم بمؤاجرتها أو تشغيلها بواسطة من يختارونه و ستشكل لجنة مؤلفة من مأمورين من العثمانيين و الصربيين لأجل تسوية جميع المسائل التى تتعلق بكيفية نقل و إدارة الأملاك المتعلقة بالوقف أو الأملاك الميرية التى للباب العالى و كذلك تسوية جميع متعلقات الناس الذين لهم مصلحة فيها و هذه التسوية تكون في ظرف ثلاث سنين.

المادة الأربعون: تكون معاملة رعية الصرب القاطنين في السلطنة العثمانية أو المسافرين فيها بحسب أصول الأحكام و القوانين المتداولة بين الدول إلى أن تحصل معاهدة بين الدولة العثمانية و الصرب.

المادة الحادية و الأربعون: يلزم العساكر الصرب إخلاء جميع الأماكن التى لم تدخل في حوزة إمارتهم في ظرف خمسة عشر يوما اعتبارا من يوم التوقيع على هذه المعاهدة كذلك يلزم للعساكر السلطانية أن تخلى في المدة المذكورة الأماكن التى دخلت في حوزة الإمارة.

المادة الثانية و الأربعون: حيث أنه يتعين على الصرب حمل جانب من الديون

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ٣٨٣

العثمانية العمومية في مقابلة الأراضى الجديدة التى حازتها بموجب هذه المعاهدة فسفراء الدول الأجنبية في الاستانة يعينون مبلغ قيمة

الأراضي المذكورة على صورة عادلة بالاتفاق مع الباب العالي.

المادة الثالثة و الأربعون: لما كان الموقعون على هذه المعاهدة معترفين باستقلالية رومانيا وربطتها بالشرطين الآتين.

المادة الرابعة و الأربعون: لا يسوغ التمييز في الإعتقادات الدينية في رومانيا ضد أحد حتى يخرج من الأهلية و الجدارة لجميع ما يتعلق بتمتعته بالحقوق المدنية و السياسية بدخوله في الوظائف الميريّة أو العمومية أو نواله الشرف أو استعماله الصنائع و الحرف المختلفة كيفما كان مقره فلجميع الأهالي التابعين لرومانيا و الأجانب أيضا الحرّيّة التامة في جميع المتعلقات المذهبية و لا يسوغ اتخاذ مانع ما في ترتيب درجات أرباب المذاهب المختلفة أو في علاقتهم مع رؤسائهم الروحانيين فتكون معاملته رعايا جميع الدول سواء كانوا من التجار أو غيرهم في رومانيا بدون تمييز في المذهب على قدم مساواة تامة.

المادة الخامسة و الأربعون: إمارة رومانيا تعيد على حضرة إمبراطور الروسية أراضي بيسارابيا التي كانت انفصلت من الروسية بموجب معاهدة باريس التي أمضيت في سنة ١٨٥٦ و حدودها في الجهات الغربية من مجرى نهر البروث و في الجنوب من نهر «كيليا» و فم «ستارى استانبول».

المادة السادسة و الأربعون: يضم إلى رومانيا الجزر الثلاثة التي على الطونة و جزر «يلان طاغ» و سنجقية طولجي و هي تشمل قضاآت كيليا و سولينا و محمودية و زانجه و طولجي و ماجين و بابا طاغ و هرسوا و كوستنجه و مجيدية و ما عدا ذلك يعطى لها أيضا الأراضي الكائنة على جنوب الدبروجه إلى أن تصل إلى خط بيتديء من شرق سيلستريا و يمتد إلى البحر الأسود على جنوب مغاليه و يكون تعيين تخوم تلك الحدود في تلك المواقع بمعرفة اللجنة الأورباوية المنوط بعهدتها تعيين حدود البلغار.

المادة السابعة و الأربعون: مسألة تقسيم المياه و الصيداء تعرض على لجنة الطونة الأورباوية فتكون حكما عليها.

المادة الثامنة و الأربعون: لا يجوز وضع رسومات أو عوائد في رومانيا على السلع التي ترد إليها بقصد إرسالها إلى جهة أخرى.

المادة التاسعة و الأربعون: يسوغ لرومانيا أن تعقد مع الدول الأجنبية اتفاقا لتسوية مسألة امتيازات و وظائف قناصلهم فيما يتعلق بحماية رعاياهم في الإمارة إلّا أن الحقوق الحالية تبقى مرعية الإجراء ما دام لم يحصل إتفاق عمومي بين الإمارة و الدول.

المادة الخمسون: تبقى رعية رومانيا القاطنون في الممالك العثمانية أو المسافرين فيها أو رعايا العثمانيين المسافرين في رومانيا أو القاطنون فيها متمتعين بالحقوق التي تشمل

صفحة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ٣٨٤

رعايا بقية الدول الأورباوية إلى أن تعقد معاهدة لتسوية امتيازات القناصل و وظائفهم بين الدولة العثمانية و رومانيا.

المادة الحادية و الخمسون: تعهدات الباب العالي و وظائفه فيما يتعلق بإتمام الأشغال النافعة و ما أشبهها في الأراضي التي دخلت في حوزة رومانيا تعود إلى عهده رومانيا.

المادة الثانية و الخمسون: لأجل زيادة تأمين حرية السفر في نهر الطونة التي اعترف أنها من المصالح الأورباوية قر رأي الموقعين على هذه المعاهدة بأن جميع الحصون و الإستحكامات الموجودة الآن على النهر من عند المحل الذي يقال له «أبواب الحديد» إلى فم النهر تهدم بالكلية فلا يسوغ بعد هذا بناء غيرها و لا يجوز سفر إحدى البواخر الحربية على الطونة منحدر «أبواب الحديد» إلّا البواخر الصغيرة المعينة لخدمة الضبطية في النهر و خدمة الكمارك و لكن يسوغ لبواخر الدول الموجودة في فم نهر الطونة لأجل الحراسة أن تسافر في النهر إلى غاية «غلاتس».

المادة الثالثة و الخمسون: تبقى لجنة الطونة الأورباوية مقررة في وظائفها و لرومانيا فيها نائب و تجرى أعمال وظائفها إلى «غلاتس» بحرية تامة مستقلة عن مداخله مأموري تلك الأراضي و تبقى أيضا سائر معاهداتها و اتفاقاتها و أشغالها و أعمالها و قراراتها فيما يتعلق بامتيازاتها و خصائصها و وظائفها ثابتة الإجراء.

المادة الرابعة و الخمسون: قبل نهاية الأجل المقرر لبقاء لجنة الطونة الأورباوية بسنة واحدة يلزم للدول أن يتفقوا على تطويل سلطتهم

أو على التعديلات التي يرون إجرائها من اللازم.

المادة الخامسة و الخمسون: جميع المنظمات المتعلقة بالسفر في النهر و بوظائف الضبطية فيه من «أبواب الحديد» إلى «غلاتس» يكون ترتيبها و تنسيقها من طرف اللجنة الأوروبوية بمساعدة نواب من طرف الممالك الكائنة بسواحل النهر و يصير تأليفها بالانظمات الموجودة أو التي ستحدث في أمور النهر أسفل من غلاتس.

المادة السادسة و الخمسون: يلزم للجنة الطونة الأوروبوية أن تتفق مع الدول فيما يتعلق بتنوير الفنارات الكائنة على جزر «يلان طاغ».

المادة السابعة و الخمسون: قد فوض لأوستريا و هنكارييا الأشغال اللازم إجراؤها لإزالة موانع السفر التي تحدث من «أبواب الحديد» و الشلالات و يلزم على الممالك المجاورة النهر من الجهة المذكورة أن تجرى جميع التسهيلات اللازمة لمصلحة تلك الأشغال أما المواد المقررة في المادة الرابعة من معاهدة لندرا التي أمضيت في ١٣ مارس سنة ١٨٧١ فيما يتعلق بأخذ ضرائب موقته لسد مصاريف تلك الأعمال و الأشغال فتبقى منوطه بدولة أوستريا و هنكارييا.

المادة الثامنة و الخمسون: الباب العالي يسلم إلى إمبراطورية الروسية في آسيا

صفحة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ٣٨٥

(الأناتول) أراضي أردهان و قارص و باطوم مع مرسى باطوم و جميع الأراضي الكائنة بين تخوم الروسية و التركية القديمة و التخوم الآتي بيانها و هي «الحدود الجديدة» بتبديء من البحر الأسود على حسب الخط المقرر في معاهدة إيستفانوس إلى نقطة في الجهة الشمالية الغربية من «خورده» و على جنوب «أرتوين» و تمتد على خط مستقيم في الجنوب و هناك يلاقى حدود الروسية المشروحة في المعاهدة المذكورة و ذلك في نقطة على جنوب «ناريمان» مع بقاء مدينة «أولتي» في حوزة الروسية ثم يتبديء الخط بالقرب من «ناريمان» إلى الجهة الشرقية و يكون مروره من «ترينيق» و بعد دخول مدينة ترينيق في حوزة الروس يسير إلى «بنك شاي» مجاريا نهره إلى أن يصل إلى «باردوز» و بعد دخول مدينة باردوز و يكي كوي في عهدة الروسية يؤخذ نقطة من غرب قرية «زقره أونجان» تجعل الحدود عليها على خط إلى أن يصل إلى «مجنجرت» و منها على خط مستقيم إلى أن يصل إلى تلال «قباداغ» فيستمر على خط مصب نهر «الأركس» في الشمال و مصب نهر «مرادصوي» في الجنوب إلى أن يصل إلى حدود روسيا القديمة.

المادة التاسعة و الخمسون: إمبراطور الروسية يصرح هنا بأن غاية مقصده أن يجعل باطوم مرسى حرًا (معنى حر أن تكون البضائع معفاة من جميع رسومات الدخول أو الخروج).

المادة الستون: تعيد الروسية على تركية أودية الشغراد و مدينة «بايزيد» التي سلمت للروسية بموجب المادة ١٩ من معاهدة إيستفانوس و قد سلم الباب العالي إلى مملكة إيران مدينة «قطور» و أراضيها كما قرّ عليه رأى اللجنة الإنكليزية و الروسية التي نيط بعهدتها تعيين تخوم تركية و إيران.

المادة الحادية و الستون: الباب العالي يتعهد بأن يجري بدون تأخير في الولايات التي سكانها من الأرمين سائر الإصلاحات و التحسينات التي تحتاج إليها أمورها الداخلية و أن يتعهد بتأمينهم من تعدى الجراكسة و الأكراد عليهم و يفيد الدول الأجنبية المرة بعد المرة التثبثات التي اتخذها لهذه الغاية و هي تراقب كيفية إجرائها.

المادة الثانية و الستون: حيث أن الباب العالي أظهر رغبته في إبقاء أصول حرية الديانة و توسيع مداها توسيعا مطلقا فإن الموقعين على هذه المعاهدة ينزلون هذه الرغبة منزلة الفعل، فلا يسوغ التمييز في الإعتقادات الدينية في جميع أطراف السلطنة العثمانية حتى يخرج أحدا عن الأهلية و الجدارة بجميع ما يتعلق بتمتعته بالحقوق المدنية و السياسية، أو بدخوله في الوظائف الميريّة أو العموميّة أو نواله الشرف أو استعماله الصنائع و الحرف المختلفة كيفما كان مقره، و يؤذن لجميع الناس بأن يؤدوا الشهادة في جميع المحاكم بدون تمييز أحد في الدين و استعمال سائر الأمور الدينيّة يكون بحريّة فلا يكون مانع ما لترتيب درجات أرباب المذاهب المختلفة أو لعلاقتهم مع رؤسائهم، و يكون الإكليروس (أصحاب

صفحة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ٣٨٦

الرتب الكنائسية) و الزوار و الرهبان من جميع الأمم الذين يسافرون في الممالك العثمانية في الروم إيلي و الأناطول حائزين حقوقا واحدة و امتيازات و خصائص واحدة، و فوض إلى القناصل و نواب الدول الأجنبية في تلك الممالك حق في حماية أولئك المذكورين و حماية محلاتهم الدينية و الخيرية حماية رسمية في الأماكن المقدسة أو غيرها، أما الحقوق المسلمة لفرنسا فلم تزل مرعية الإجراء و صار من المعلوم المقرر هنا أنه لا يسوغ تبديل حال من الأحوال الحاضرة في الأماكن المقدسة، أما زوار جبل أثوس من أي جنس كانوا فيبقون حافظين لأماكهم و امتيازاتهم و منحهم السابقة و يبقون متمتعين بمساواة تامة في الحقوق و المزايا.

المادة الثالثة و الستون: تبقى معاهدة باريس التي أمضيت في ٣٠ مارس ١٨٥٦ و معاهدة لندرة التي أمضيت في ١٣ مارس ١٨٧١ مرعية الإجراء و ذلك فيما يتعلق بالمواد التي لم تنسخها و لم تعهد لها هذه المعاهدة.

المادة الرابعة و الستون: يقع التصديق على هذه المعاهدة بعد ثلاثة أسابيع أو أقل إن أمكن و للشهادة بذلك أثبت الموقعون أسماءهم على هذه المعاهدة بعد أن وضعوا عليها أختامهم.

تحريرا في برلين في اليوم الثالث عشر من شهر يوليه (تموز) سنة ١٨٧٨.

الإمضاء:

فون بسمارك / صالسبري / هايمول / شوفالوف

فون بولوى / أودروسل / وادنطون / دوبريل

هوهنلوه / كورتى / صان فاليه / قره تيودورى

أندراسى / لاونى / دبيريس / محمّد على

كارولى / غورجيقوف / بكنسفيلد / سعد الله

و عند الأخذ في العمل بمقتضى هذه المعاهدة طلبت روسيا عقد معاهدة نهائية لتصحيح ما سلم من معاهدة صان استيفانوس لتخرج عساكرها من الأراضي العثمانية فاستقر الأمر على معاهدة تعريبها:

المادة ١: يقع بعد هذا صلح ووداد بين السلطنتين.

المادة ٢: قد وقع الإتفاق بين الدولتين على أن تصرحا بأن المواد التي تضمنتها معاهدة برلين التي صار إجراؤها بموجب توسط الدول السبع جرى العمل بها عوضا عن شروط صلح معاهدة إياسطفانوس التي صار تعديلها أو تبديلها في مؤتمر برلين.

المادة ٣: جميع مواد معاهدة إياسطفانوس التي لم يحصل تعديلها أو إلغاؤها في معاهدة برلين جرت تسويتها في المواد الآتية من هذه المعاهدة تسوية قطعية.

صفحة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ٣٨٧

المادة ٤: بعد إسقاط قيمة الأراضي التي سلمتها تركيا إلى الروسية بموجب معاهدة برلين يبقى مبلغ الغرامة الحرية المتعين على الباب العالى أدائه ٥٠٠، ٥٠٠، ٨٠٢ فرنك و كيفية إعطاء هذا المبلغ و الضمان عليه تكون بالإتفاق بين دولة الحضرة العلية السلطانية و دولة قيصر الروسية ما عدا ما صرح به في المضبطة الحادية عشرة من معاهدة برلين فيما يتعلق بالغرامة الأرضية و الحقوق الأولية المختصة بالذين لهم مطالب على الدولة العلية.

المادة ٥: مطالب رعية الروسية القاطنين في تركيا بصفة تعويض عن الضرر الذى حصل لهم في مدة الحرب الأخيرة تعطى عند رؤيتها و تسويتها بمعرفة سفارة الروسية بالاستانة و إطلاع الباب العالى عليها و على كل حال لا يمكن أن تزيد على ٧٥٠، ٠٠٠، ٢٦ فرنك و يلزم تقديمها إلى الباب العالى في ظرف سنة واحدة اعتبارا من يوم مبادلة هذه المعاهدة المصدق عليها و بعد مضي سنتين لا يقبل الباب العالى شيئا منها.

المادة ٦: يعين من طرف الباب العالى و من طرف دولة الروسية أموران مخصوصان لتسديد حساب تموين العساكر العثمانية الذين كانوا أسرى فى الحرب الأخيرة و هذه المصاريف تعين إلى يوم التوقيع على معاهدة برلين و يسقط منها المبلغ الذى صرفته الدولة العثمانية على مؤونة الروس الذين كانوا أسرى عندها و بعد تسوية هذا الحساب يدفع الباب العالى المبلغ إلى الروسية فى أحد و عشرين قسطا متساوية يكون دفع آخر قسط منها فى ظرف سبع سنين.

المادة ٧: سكان الأماكن التى ألحقت بالروسية الذين يريدون الإقامة فى غيرها يسوغ لهم الخروج منها بحرية تامة كما أنه يسوغ لهم أيضا بيع أملاكهم و عقاراتهم «الغير المنقولة» و لأجل هذه الغاية تعطى لهم مهلة ثلاث سنين اعتبارا من يوم التصديق على هذه المعاهدة فإذا انقضت هذه المدة و لم يخرجوا من الأماكن و لم يبيعوا عقاراتهم يصيرون رعية للروسية.

المادة ٨: قد تعهد الموقعون على هذه المعاهدة بأن لا يعاقبوا أو يسببوا معاقبة رعية الدولتين الذين كان لهم علاقة أو مشاركة مع عساكرهما فى الحرب الأخيرة و إذا أراد أحد من العثمانيين أن يتبع عساكر الروس عند خروجهم من أرض الدولة العلية فلا يسوغ لمأمورى هذه الدولة أن يمنعوهم.

المادة ٩: منحت رعية الدولة العثمانية الذين اشتركوا فى الانقلاب الأخير الذى وقع فى ولاياتها بالروم إلى الأمان و العفو التام بحيث أن كل من حبس منهم لهذا السبب أو نفى أو أبعده من بلاده يعفى عنه و يخول الحرية التامة.

المادة ١٠: جميع المعاهدات و الإتفاقات و التعهدات التى كانت حاصلة بين الموقعين على هذه المعاهدة فيما يتعلق بالأحكام و حال رعية الروسية القاطنين فى تركيا ثم ألغيت بسبب الحرب الأخيرة تصير معمولا بها كما كانت سابقا فتبقى علاقة كل من الدولتين من صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ٣٨٨

جهة تعهداتها و علاقتها التجارية و غيرها على الحالة التى كانت عليها قبل الإعلان بالحرب ما عدا ما صرح به فى هذه المعاهدة أو فى معاهدة برلين.

المادة ١١: يتشبه الباب العالى بالوسائط الفعالة لتسوية جميع الدعاوى و المنازعات المختصة برعية الروسية الموقوفة منذ بعض سنين و يعطى لهم تعويض إذا اقتضتها الحال مع المبادرة إلى إنهاء جميع الدعاوى التى صدر بها لهم إعلانات و قرار من المجالس.

المادة ١٢: بعد التصديق على هذه المعاهدة يقع تبادلها فى صان بطرسبرج فى ظرف أسبوعين أو أقل إذا أمكن.

تحريرا بالاستانة العلية فى ٨ شباط (فبراير) ١٨٧٩.

فتلخص مما تقدم إن سائر الممالك العثمانية هى آمنة للوارد عليها و أحكام الدولة المعلنه بها لكل من حوته ممالكها شرعية سياسية منظمة و لها مجلس شورى و مجلس أعيان و مجلس مبعوثان (نواب) و إن اعترض الآن من القلاقل الخارجيه ما أوجب تأخير إجتماع المجلسين الأخيرين لإتمام إجراء الإصلاحات حقيقة و أما تعيين قواها البرية و البحرية و الدخل و الخرج فقد تقدم ذكره مع بقية الدول.

صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ٣٨٩

فهرس المحتويات

الباب الثالث فى إيطاليا ٣

فصل فى سفر المؤلف إلى إيطاليا ٣

مطلب: فى تاريخها القديم ٢٩

مطلب: فى تاريخها الجديد ٣٠

- مطلب: فى الإدارة الداخلية ٣٥
- مطلب: فى السياسة الخارجية لإيطاليا ٣٩
- فصل: فى بعض عوائد أهالى إيطاليا و بعض صفاتهم ٤١
- مطلب فى التجارة ٤٥
- مطلب: فى الصنائع الفلاحية فى إيطاليا ٤٩
- مطلب: فى هيئة المساكن و الطرقات ٥١
- مطلب: فى اللبس ٥٣
- مطلب: فى الأكل ٥٤
- مطلب: فى المواكب ٥٥
- مطلب: فى اللغة ٥٧
- الباب الرابع فى مملكة فرنسا و ما رآه فيها ٥٨
- الفصل الثالث: فى بقية البلدان التى شاهدها بفرنسا ٨١
- الفصل الرابع: فى التعريف بفرنسا ٨٩
- الفصل الخامس: فى إجمال تاريخ فرنسا ٩٢
- مطلب: فى تاريخها القديم: ٩٢
- الفصل الأول ٩٩
- الفصل الثانى: فى مزايا الإمبراطور و ملكه ٩٩
- الفصل الثالث: فى نوع حكومة الإمبراطور ١٠٠
- الفصل الرابع: فى أحوال الإمبراطور ١٠٠
- الفصل الخامس: فى مجلس الأعيان ١٠١
- الفصل السادس: فى مجلس النواب ١٠١
- الفصل السابع: فى مجلس الدولة ١٠١
- مطلب: فى السياسة الداخلية فى فرنسا ١٠٧
- مطلب: فى السياسة الخارجية فى فرنسا ١١١
- صفحة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ٣٩٠
- ذيل: فى تسلط فرنسا على تونس ١١١
- الفصل الخامس: فى عوائد أهالى فرنسا و صفاتهم ١٢٧
- مطلب فى التجارة ١٣١
- مطلب فى الأحكام ١٣٣
- مطلب فى المعارف ١٣٧
- مطلب فى الصنائع ١٣٨
- مطلب فى هيئة المساكن و الطرقات ١٣٩
- مطلب فى اللبس ١٤٠

- مطلب فى الأكل ١٤٠
- مطلب فى المواكب ١٥١
- مطلب فى اللغة ١٥٢
- مطلب فى القوة الحربية المالية و التجارية فى فرنسا سنة ١٨٨٠ ١٥٤
- الباب الخامس فى قطر الجزائر ١٥٥
- الفصل الأول فى سفره إليها ١٥٥
- الفصل الثانى: فى التعريف بالجزائر ١٥٨
- الفصل الثالث: فى إجمال تاريخ الجزائر ١٥٩
- مطلب فى التاريخ القديم ١٥٩
- مطلب فى تاريخ الجزائر الجديد: ١٦٠
- مطلب فى كيفية إجراء السياسة الداخلية فى الجزائر: ١٦٤
- مطلب فى السياسة الخارجية للجزائر: ١٦٦
- الفصل الرابع: فى بعض صفات الأهالى و عوائدهم ١٦٧
- مطلب فى التجارة بالجزائر ١٦٩
- مطلب فى الأحكام بالجزائر ١٦٩
- مطلب فى الصنائع و غيرها بالجزائر ١٧٢
- الباب السادس فى انكلا تيره ١٧٣
- الفصل الأول: فى سفره إليها ١٧٣
- الفصل الثانى ١٧٥
- الفصل الثالث: فى وصف انكلا تيره ١٨٠
- الفصل الرابع: فى إجمال تاريخ إنكلا تير ١٨٤
- مطلب فى تاريخها القديم ١٨٤
- مطلب فى تاريخ إنكلا تيره الجديد ١٨٦
- مبحث إدارة الولايات ١٩٧
- صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ٣٩١
- مبحث إدارة مستعمرات الإنكليز ١٩٩
- مطلب فى السياسة الخارجية للإنكليز ٢٠٢
- فصل فى بعض عوائد الإنكليز و صفاتهم ٢٠٥
- مطلب فى التجارة بإنكلا تيره ٢٠٩
- مطلب فى الأحكام بإنكلا تيره ٢١٠
- مطلب فى المعارف بإنكلا تيره ٢١١
- مطلب فى الصنائع فى انكلا تيره ٢١٣
- مطلب فى هيئة المساكن فى إنكلا تيره ٢١٣

- مطلب فى اللبس فى إنكلاتيره ٢١٤
- مطلب فى الأكل فى إنكلاتيره ٢١٥
- مطلب فى المواكب فى إنكلاتيره ٢١٦
- مطلب فى اللغة فى إنكلاتيره ٢١٧
- الباب السابع فى جزيرة مالطه ٢١٨
- الفصل الأول: فى سفره إليها ٢١٨
- الفصل الثانى: فى التعريف بمالطه ٢٢٠
- مطلب فى التاريخ القديم ٢٢١
- مطلب فى تاريخ مالطه الجديد ٢٢٢
- مطلب فى سياسه مالطه الداخليه: ٢٢٢
- مطلب فى السياسه الخارجيه بمالطه ٢٢٢
- مطلب فى بقيه عادات المالطين و أحوالهم ٢٢٣
- الباب الثامن فى الأقطار المصريه ٢٢٤
- الفصل الأول: فى سفره إليها ٢٢٤
- الفصل الثانى: فى صفة مدينه مصر القاهره ٢٣٠
- الفصل الثالث: فى التعريف بمصر ٢٣٨
- الفصل الرابع: فى إجمال تاريخ مصر و ملحقاتها ٢٤٤
- مطلب فى تاريخها القديم ٢٤٤
- مطلب فى تاريخ مصر الجديد ٢٥٦
- مطلب فى السياسه الداخليه المصريه ٢٦٢
- مطلب فى السياسه الخارجيه ٢٦٦
- مطلب فى بعض صفات و عوائد المصريين ٢٦٧
- مطلب فى الأحكام بمصر ٢٦٩
- مطلب فى تجاره مصر ٢٦٩
- صفحة الإعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، ج ٢، ص: ٣٩٢
- مطلب فى الصنائع بمصر ٢٧٠
- مطلب فى المعارف بمصر ٢٧١
- مطلب فى هيئه المساكن ٢٧٢
- مطلب فى اللبس بمصر ٢٧٤
- مطلب فى الأكل بمصر ٢٧٥
- مطلب فى المواكب ٢٧٥
- مطلب فى اللغة بمصر ٢٧٧
- مطلب فى الإحصائيات بمصر ٢٧٧

- الباب التاسع في الحجاز ٢٧٨
 الفصل الأول: في سفره إليها ٢٧٨
 الفصل الثاني: في صفة البلدين المكرمين و موكب الحج ٢٨٤
 مطلب صفة مكة المكرمة ٢٨٤
 مطلب في صفة المدينة المنورة ٢٨٧
 مطلب في صفة موكب الحج ٢٩٠
 الفصل الثالث: في التعريف بالحجاز ٢٩٣
 فصل في تاريخ الحجاز ٣٠٢
 مطلب في تاريخه القديم ٣٠٢
 فصل في التاريخ الجديد للحجاز ٣٠٩
 مطلب في السياسة الداخلية للحجاز ٣١٢
 مطلب في السياسة الخارجية ٣١٥
 مطلب في التجارة بالحجاز ٣١٧
 مطلب في الصنائع ٣١٩
 مطلب في المعارف ٣٢٠
 مطلب في الأحكام ٣٢٢
 مطلب في هيئة المساكن ٣٢٣
 مطلب في اللبس و بقیة العادات ٣٢٥
 مطلب في اللغة ٣٢٧
 الباب العاشر في المملكة العثمانية ٣٢٨
 فصل في سفره إليها ٣٢٨
 مطلب في صفة القسطنطينية ٣٣٨
 فصل في مجمل تاريخ الدولة العثمانية ٣٤٢

تعريف مركز القومية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

جاهدوا بأموالكم و أنفسكم في سبيل الله ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون (التوبة/٤١).
 قال الإمام علي بن موسى الرضا - عليه السلام: رَحِمَ اللَّهُ عَبْدًا أَحْيَا أَمْرَنَا... يَتَعَلَّمُ عُلُومَنَا وَيُعَلِّمُهَا النَّاسَ؛ فَإِنَّ النَّاسَ لَوْ عَلِمُوا مَحَاسِنَ
 كَلَامِنَا لَاتَّبَعُونَا... (بِنَادِرِ الْبِحَار - في تلخيص بحار الأنوار، للعلامة فيض الاسلام، ص ١٥٩؛ عُيُونُ أَخْبَارِ الرُّضَا(ع)، الشَّيْخُ
 الصَّدُوقُ، الباب ٢٨، ج ١/ ص ٣٠٧).

مؤسس مجتمع "القومية" الثقافي بأصفهان - إيران: الشهيد آية الله "الشمس آبادي" - "رَحِمَهُ اللهُ - كان أحداً من جهايدة هذه
 المدينة، الذي قد اشتهر بشغفه بأهل بيت النبي (صلواتُ الله عليهم) ولاسيما بحضرة الإمام علي بن موسى الرضا (عليه السلام) و
 بساحة صاحب الزمان (عجلَ اللهُ تعالى فرجه الشريف)؛ ولهذا أسس مع نظره و درايته، في سنة ١٣٤٠ الهجرية الشمسية (= ١٣٨٠
 الهجرية القمرية)، مؤسسه و طريقة لم ينطفيء مصباحها، بل تتبّع بأقوى و أحسن موقف كل يوم.

مركز "القائمة" للتحرى الحاسوبى - بأصفهان، إيران - قد ابتدأ أنشطته من سنة ١٣٨٥ الهجرية الشمسية (= ١٤٢٧ الهجرية القمرية) تحت عناية سماحة آية الله الحاج السيد حسن الإمامى - دام عزه - ومع مساعده جمع من خريجي الحوزات العلميه و طلاب الجوامع، بالليل و النهار، فى مجالات شتى: دينيه، ثقافيه و علميه...

الأهداف: الدفاع عن ساحة الشيعة و تبسيط ثقافه الثقلين (كتاب الله و اهل البيت عليهم السلام) و معارفهما، تعزيز دوافع الشباب و عموم الناس إلى التحرى الأذق للمسائل الدينيه، تخليف المطالب النافعه - مكان البلايتي المبتدله أو الرديئه - فى المحاميل (=الهواتف المنقولة) و الحواسيب (=الأجهزة الكمبيوترية)، تمهيد أرضيه واسعة جامع ثقافيه على أساس معارف القرآن و أهل البيت -عليهم السلام - بباعث نشر المعارف، خدمات للمحققين و الطلاب، توسعه ثقافه القراءه و إغناء أوقات فراغه هواه برامج العلوم الإسلاميه، إناله منابع اللازمه لتسهيل رفع الإبهام و الشبهات المنتشرة فى الجامعه، و...

- منها العدالة الاجتماعيه: التى يمكن نشرها و بثها بالأجهزة الحديثه متصاعده، على أنه يمكن تسريع إبراز المرافق و التسهيلات - فى آكناف البلد - و نشر الثقافه الإسلاميه و الإيرانيه - فى أنحاء العالم - من جهه أخرى.
- من الأنشطة الواسعه للمركز:

(الف) طبع و نشر عشرات عنوان كتب، كتيبه، نشره شهريه، مع إقامة مسابقات القراءه

(ب) إنتاج مئات أجهزة تحقيقيه و مكتبيه، قابله للتشغيل فى الحاسوب و المحمول

(ج) إنتاج المعارض ثلاثيه الأبعاد، المنظر الشامل (= بانوراما)، الرسوم المتحركه و... الأماكن الدينيه، السياحيه و...

(د) إبداع الموقع الانترنتى "القائمة" www.Ghaemiyeh.com و عدده مواقع أخرى

(ه) إنتاج المنتجات العرضيه، الخطابات و... للعرض فى القنوات القمرية

(و) الإطلاع و الدعم العلمى لنظام إجابة الأسئلة الشرعيه، الاخلاقيه و الاعتقاديه (الهاتف: ٠٠٩٨٣١١٢٣٥٠٥٢٤)

(ز) ترسيم النظام التلقائى و اليدوى للبلوتوث، ويب كاشك، و الرسائل القصيره SMS

(ح) التعاون الفخرى مع عشرات مراكز طبيعيه و اعتباريه، منها بيوت الآيات العظام، الحوزات العلميه، الجوامع، الأماكن الدينيه كمسجد جمكران و...

(ط) إقامة المؤتمرات، و تنفيذ مشروع "ما قبل المدرسه" الخاص بالأطفال و الأحداث المشاركين فى الجلسه

(ى) إقامة دورات تعليميه عموميه و دورات تربيه المربى (حضوراً و افتراضاً) طيله السنه

المكتب الرئيسى: إيران/أصفهان/ شارع "مسجد سيد" / "ما بين شارع" پنج رمضان " ومفترق "وفائى" / "بنايه" القائمية "

تاريخ التأسيس: ١٣٨٥ الهجرية الشمسية (= ١٤٢٧ الهجرية القمرية)

رقم التسجيل: ٢٣٧٣

الهويه الوطنية: ١٠٨٦٠١٥٢٠٢٦

الموقع: www.ghaemiyeh.com

البريد الالكترونى: Info@ghaemiyeh.com

المتجر الانترنتى: www.eslamshop.com

الهاتف: ٢٥-٢٣-٢٣٥٧٠٢٣-٢٣٥٧٠٢٣ (٠٠٩٨٣١١)

الفاكس: ٢٣٥٧٠٢٢ (٠٣١١)

مكتب طهران ٨٨٣١٨٧٢٢ (٠٢١)

التجاريه و المبيعات ٠٩١٣٢٠٠٠١٠٩

امور المستخدمين ٢٣٣٣٠٤٥ (٠٣١١)

ملاحظة هامة:

الميزانية الحالية لهذا المركز، شعبيته، تبرعته، غير حكومية، و غير ربحية، اقتنيت باهتمام جمع من الخيرين؛ لكنها لا توافي الحجم المتزايد والمتسع للامور الدينية والعلمية الحالية و مشاريع التوسعة الثقافية؛ لهذا فقد ترجى هذا المركز صاحب هذا البيت (المسمى بالقائمة) و مع ذلك، يرجو من جانب سماحة بقية الله الأعظم (عجل الله تعالى فرجه الشريف) أن يوفق الكل توفيقاً متزائداً لإعانتهم - في حدّ التمكن لكلّ احدٍ منهم - إيانا في هذا الأمر العظيم؛ إن شاء الله تعالى؛ و الله وليّ التوفيق.

مركز
للبحوث والتحريات الكمبيوترية
أصبحان
الغائمة

WWW



للحصول على المكتبات الخاصة الأخرى
ارجعوا الى عنوان المركز من فضلكم

www.Ghaemiyeh.com

www.Ghaemiyeh.net

www.Ghaemiyeh.org

www.Ghaemiyeh.ir

و للإيحاء من فضلكم

٠٩١٣ ٢٠٠٠ ١٥٩

